مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الرَّابِع والسِّتّون

سورة المَعارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الرابع والستون

سورة المعارج من الآية 15 إلى سورة المدثر الآية 56

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والستون،
سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 64 ، 806 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 6-38-647-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 64 : المجلد الرابع والستون، سورة المَعَارج من الآية 15 إلى سورة المُدَّثِّر الآية 56.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 6-38-647-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6817852 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
التَّاسِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ المَعَارِج

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ۝١٨﴾ [المعارج: 15 - 18]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مانِعُ حقِّ الله تعالى في الزَّكاة أهلٌ للتَّغنيفِ والتَّأديبِ

لمّا أخبر اللّه ﷻ فيما سبق أنَّ الكافر المجرم المستهزئ بالدّين سَيَتَمَنّى يوم القيامةِ حينَ يُباشِرُ رُؤيةَ العذابِ ويُقاسيهِ أنْ لَو يستطيعُ افتداءَ نفسِه بكُلِّ غالٍ ونفيسٍ مِن ولدٍ وزوجَةٍ وفَصيلٍ ومَن في الأرض جميعًا؛ أخبر بأنَّ ذلك المكذِّب سَيُزجَرُ حينئذٍ عَنِ التَّطلُّع إلى ذلك الطّموح الواهم ويعنَّف، ويُذاق العذاب بإعراضِهِ عن الحقِّ في الدُّنيا، وتولّيه إلى الكفر مُدابرًا الإيمانَ، وبِجَمْعِه المالَ على وجه الاكْتِناز، ومنْعِه زكاتَه عن مستحقّيها مِن عبادِ اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَظَىٰ﴾: اللَّظَى: لهَبُ النّار أو اللهبُ الخالصُ[1]، وتَلظّيها والتِظاؤها: التهابها. والنّار تتلظَّى: تتوهّج وتتوقّد، وتوهُّجها: بلوغ الحدّة أقصاها، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ [اللّيل: 14]. اللَّظُّ: الحركة الخفيفة مع الحدَّة، كما يتمثل ذلك في لَظْلَظَة الحيَّةِ رأسَها، وفي لهبِ النّار وشُعلتها الّتي تتوهَّج وتتوقَّد[2]. و(لظى) من أسماءِ جَهَنَّم، سُمّيَتْ بذلك؛ لكونِها أشَدَّ النّيرانِ[3]، وهو المرادُ في قول اللّه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[4].

2) ﴿نَزَّاعَةً﴾: (نزع) تدلُّ اشتقاقاتُها على قَلْعِ الشَّيء[5]، ومِنْهُ:

(1) الراغب، المفردات: (لظى).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لظى).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لظى).
(4) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (لظا).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نزع).

المِنْزعة؛ وهي خشبَةٌ عريضَةٌ نحوَ المِلْعَقة، تكون مع مُشْتارِ العسَلِ ينزِع بها النَّحل اللَّواصق بالشَّهْد. والنَّزَعَتانِ: ما يَنحسر عنه الشَّعر من أعلى الجَبينَين حتّى يُصْعِد في الرَّأس، ونَزَع الشَّيء وانتزعَهُ: اقتلعَهُ، وانتزع الرُّمحَ: اقْتلعه.

ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾؛ لكونِها تَقْلَعُ الجِلْدَ والأطرافَ، ومنه: الجذبُ إخراجًا، كما في قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ [الأعراف: 108]، أو الجَذْبُ إهلاكًا، كما في قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾ [مريم: 69]، أو إقامةً ونَصْبًا، كالذي في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [القصص: 75]، أو تجريدًا، كما في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: 27]. وقد يكون الجذْبُ معنويًّا مِن باب التَّجريد، كما في قوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، ومنه: نَزَع البعير إلى وطنه والإنسانُ إلى أهله: حَنَّ واشتاق، كأنَّما نفسُه تنقَلِعُ ذاهبةً وراء ما تشتاقه[1].

3) ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾: الشَّوَى - بالفتح مقصورًا -: أطرافُ الشَّيء، وحواشيه الظّاهرة المنتشرة حولَهُ، كاليدينِ بالنِّسبة للبَدَن، قال تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، ومنه الشّواية - مثلثةَ الشّين -: الشَّيءُ الصَّغير مِن الشَّيء الكبير، كالقطعة مِن الشّاة، وبقيةِ قومٍ أو مالٍ هَلَك، كالشَّويَّة، ومن الإبل والغنم: رَديُّها، ومن الخُبْز: القُرْصُ منه.

وشَوَيْتُ اللَّحم فانْشَوى: وضعتُه على النّار فأحرقَتْ شَواه؛ أي: ظاهرَهُ، وحاشيَتَهُ فقط، كما هي الحالُ عند الشَّيّ، قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: 29]، وأشْوَى القمحُ: أفْرَكَ وصَلَح أن يُشْوَى[2].

4) ﴿تَدْعُواْ﴾ (دعو) تدور تصريفاتُها على مَيْلِ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[3]، ومِنه: داعيَةُ اللَّبَن؛ وهو ما يُتْرَك في الضَّرْع ليدعوَ ما بعده، والدَّعْوة - بالفتح -: الوليمَةُ. وتداعى القومُ: دعا بعضُهم بعضًا حتّى يجتَمِعوا، ودعاهُ إلى الأمير: ساقَهُ، وماذا دعاكَ إلى هذا الأمر: ما الّذي جَرّك إليه. والدَّعوة: جَذْبُ الشَّيء أو محاولة ضَمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذب اللَّبَن إلى حيّزه أو حيّز الحالب، وجذبِ النّاس إلى الوليمة والاجتماعِ، والسّوْق إلى الأمير.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نزع).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شوى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

وهذا المعنى بارزٌ في قوله تعالى عن جهنَّم: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾. وبه يتَّضح قولهم: تداعَت الإبل: تَحطَّمَتْ هُزالًا؛ فكادت تسقط مُكَوَّمةً على الأرض، كأنَّما يجذِبُ بعضُها بعضًا، وتداعى الحائطُ: تكسَّر وآذَنَ بانهدام، وداعيناها عليهم: هَدَمْناها، وجعلناها تَسَقُّط، ودعاه اللّه بما يَكْرَهُ: أنزَلَهُ به[1]. فمعنى ﴿تَدْعُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: تَجْذِبُهُم إليها وتحطُّهم على وجهِ الإهلاك.

5) ﴿أَدْبَرَ﴾: (دبر) تدورُ اشتقاقاتُها على آخِرِ الشَّيْءِ وخَلْفِه، وهو ضدُّ قُبُلِه[2]. ومِنْهُ: دُبُرُ الشّيء: خلاف القُبُل، ويقال: دُبْرٌ ودُبُرٌ، وجمعه: أَدْبار، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: 16]، وقال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: 50]، أي: قدّامهم وخلفهم، وقال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: 45]، والدّابر يقال للمُتَأخّر، وللتّابع، إمّا باعتبار المكان، أو باعتبار الزّمان، أو باعتبار المَرْتَبَة.

وأدبرَ: أعرض وولّى دُبُرَه، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣﴾ [المدّثّر: 23]، وقال: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وقال النَّبيُّ ﷺ: "لاَ تَباغَضوا، ولاَ تَحاسَدوا، ولاَ تَدابَروا، وكونوا عِبادَ اللّه إخْوانًا"[3]، يُقال: تدابر القوم؛ إذا ولّى بعضُهم عَن بعض، والدِّبار: مصدرُ دابَرْتُه؛ أي: عاديتُه مِن خَلْفِه[4].

6) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) تدلُّ تصريفاتُها على مَعْنى القُرْب[5]، ومنه: الوَلْيُ؛ وهو القُربُ والدُّنوُّ. يقال: تباعد بعد ولْيٍ. وأوليتُه الشَّيءَ فوَلِيَهُ. وكذلك وليَ الوالي البلدَ، ووَلِيَ الرَّجلُ البَيْعَ، وِلايَةً فيهما. وأَوْلَيْتُهُ معروفًا. وتَوَلَّى العملَ؛ أي: تقلّد. وتَوَلَّى عنه: أعرض. وولَّى هاربا: أدبَرَ. وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148] أي: مستقبِلُها بوجهه[6]. ومعنى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرضَ عن الطّاعةِ[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دعو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (6065)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2558).
(4) الراغب، المفردات: (دبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(6) الجوهري، الصحاح: (ولي).
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 213.

7) ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾: (وعي) تدور اشتقاقاتُها على ضَمِّ الشَّيء[1]، يُقال: وعى الأمْرَ؛ إذا أدركه على حقيقته، ووعَى الحديثَ؛ أي: حفِظَهُ وقَبِلَهُ وفَهِمَهُ وتدبرَّه، وقال اللّه تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾ [الحاقة: 12]، وأوعى يوعي: جعله في الوعاءِ. وقول اللّه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾ [الانشقاق: 22 - 23]: أي: بما في قلوبهم[2]. ومعنى ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي: جعلَهُ في وعاءٍ وكَنَزَهُ، ولَم يُؤَدِّ زكاتَهُ وحُقوقَهُ الواجبةَ فيه، وتشاغل به عن الدّين[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جَمْعُ المالِ وحِفْظُه ليس مذمومًا بإطلاقٍ، بل اكتنازُه ومنعُ حقِّ الله تعالى فيهِ هو المذمومُ

كلّا أيُّها المجرم، ليس الأمر كما ودِدتَ وتمنَّيتَ من افتداء نفسِك من العذاب بكلِّ غالٍ ونفيسٍ من أهلك وغيرهم، وإنَّما الّذي في انتظارك هو النّار الّتي هي أشدُّ ما تكون اشتعالًا، والّتي مِن صفاتها أنَّها قَلّاعة لِجلدة الرّأس وأطراف البدنِ، كاليد والرِّجل، ثُمَّ تعودُ هذه الجلدة والأطراف كما كانت[4]، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النّساء: 56].

وتدعو تلك النّارُ إليها أبناءَها الّذين خلَقَهُم اللّه تعالى لها، وقَدَّر لهم أنَّهم في الدّار الدُّنيا يعملون عملَها؛ فتدعوهم يومَ القيامة بِلسانٍ طَلْقٍ ذَلِقٍ، ثُمَّ تَلْتَقِطُهم من بين أهل المحشر كما يلتَقِطُ الطَّير الحَبّ[5]، وتَلْتَهِمُ مَن جَمَعَ المال فجعله في وعاءٍ، وحَفِظَهُ وكَنَزَه ولم يُؤَدِّ حقَّ اللّه تعالى فيه، فليس الجمعُ وحدَه معيبًا، وإنَّما المعيبُ الجمعُ مَعَ عدم إخراجِ حُقوقِ الفقراء والمساكين فيه[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعي).
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وعى).
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 213.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 97.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 225.
(6) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 745.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل قوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عمّا قبلهُ:

أثرُ الاستئنافِ البيانيِّ في مُتابعةِ المُتلقّي

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عن قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾؛ لما بينَهما من شبه كمال الاتِّصالِ، فالجملة الثّانية مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، وكأنَّ سائلا سأل: وهل يُمَكِّنُ وادُّ الافتداءِ من ذلك؟ فيجيء الجواب: "﴿كَلَّآۖ﴾؛ ليس ذلك كذلك، ليس يُنَجِّيه مِن عذابِ اللّهِ شيءٌ"[1].

دلالةُ ﴿كَلَّآۖ﴾ في قوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾:

لا مَفرَّ من وُقوعِ العذابِ بِأهْلِه، فَلا يَدْفَعُه جاهٌ أو سلطانٌ أو فديةٌ

﴿كَلَّآۖ﴾ مَجْمَعُ الرّوادع والزّواجر الصّوادع[2]، فهي حرفُ "ردعٍ وزجرٍ ونفيٍ، فإنَّه لا نَجاة مِن هذا العذاب، ولا مَفرَّ من أن يقَع بأهله، فلا يدفَعُهُ دافِعٌ من جاهٍ، أو سلطانٍ، أو فدية مِن مالٍ وبنين"[3]، و﴿كَلَّآۖ﴾ حرفٌ يأتي بمعنى (حقًّا)، وبمعنى (لا) النّافيةِ، مع تَضمُّنه لِمعنى الزَّجر والرَّدع، وهو هُنا يحتَمِلُ الأمرين[4]، فهو رَدٌّ للمجرم عن الوَدادَة، وتنبيهٌ على أنَّه لا يَنفعه الافتداء، ولا يُنجيهِ مِنَ العذاب[5].

علَّة فصل قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عمّا قبلهُ:

لا يستطيع أحدٌ الإفلاتَ مِنْ نار جَهَنَّمَ إذا أوبقَتْهُ أعمالُهُ فيها

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ عن قوله: ﴿كَلَّآۖ﴾؛ لوثاقَةِ الصِّلة المعنويَّة بين الجملتين؛ لأنَّ جملة ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ "تعليلٌ لِنفي النَّجاة عن أصحاب النّار، ورَدُّ أيِّ فدية لو كان يملِكُ أحدٌ شيئًا يقدّمه في هذا اليوم. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ فهَل يملِكُ أحدٌ أنْ يفرّ منها؟"[6].

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 260.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 397.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1171.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 315.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1171.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ تلويحٌ بهذه النّار الجَهَنَّميَّة في وجه المُجْرِمين. ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ وكفى! فهل يستطيع أحد أن يفلت من ﴿لَظَىٰ﴾ إذا أوقعَهُ شؤمُ أعمالِه وكبيرُ ضلالِه فيها؟ كلّا.

وهذا مثلُ قوله ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه وقد عرَض نفسَهُ ليُنازِل عَمْرو بنَ عبدِ وُدٍّ يوم الخَنْدَقِ، وقد تَهَيَّبَه المسلمون يومئذ؛ فقال النَّبيُّ ﷺ لِعليٍّ رضي الله عنه: "إنَّه عمرو"[1]، فقال عليٌّ رضي الله عنه: وأنا عليٌّ[2].

ويجوزُ أن تكون جملةُ ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ فُصلَت عمّا قبلها؛ لكونِها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عمّا أفاده حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ مِن الإبطال[3].

معنى (إنّ) في قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾، وبيانُ مرجِع الضَّمير المتَّصل بها:

عِظَمُ الخبر يقتضي توكيدَه، بغض النّظر عن وجود منكِر

(إنّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ لتوكيدِ المَعْنى التَّعريضيّ المقصود مِن خبرها، والمعنى التَّعريضيُّ هو أنّ ذلك الّذي يَوَدُّ الافتداءَ هو المتوعَّد بـ ﴿لَظَىٰ﴾، لا توكيد الإخبار بأنّ ما يُشاهِدُهُ لَظى؛ إذْ ليسَ ذلك بمحلِّ التَّردُّد[4]. ويقتضيها ردُّ طمع ودادَته أنْ لو استطاعَ افتداءَ نفسهِ بكُلِّ شيء، وزجرُه وتيئيسُه.

كما يقتضيها عظيمُ الخبَرِ وثقلُه، فمِنَ الأخبار ما يُؤَكَّد لذاتِه، كما قال ابنُ حجر في الفتح: "وَقَدْ يَكونُ التَّأْكيدُ مِنْ جِهَةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهْتَمُّ بِهِ وإنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[5].

والضَّمير المنصوبُ في ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ينصرِفُ إلى (جهَنَّم) بطريق الكنايَةِ اللَّفظيَّة؛ حيثُ لَم يسبقْ لَها ذِكْرٌ، وإنَّما تُلْمَح من جملة الافتداء: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى﴾؛ فذِكر العذاب دالٌّ عليها.

(1) أصل الخبر رواهُ الحاكم في المستدرك، برقم: (4329).
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1171.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 162.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(5) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.

ويجوز أن يكون ضميرًا مُبْهَمًا تَرْجَم عنه الخبَرُ؛ وهو ضميرُ القِصَّة والشَّأن[1]، والمعنى أنَّ قصَّتك وشأنك لَظى[2].

غَرَضُ الخَبَرِ في قولِه: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾:

غرضُ الخبَرِ في قوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ التَّعريض بأنَّها أُعِدَّتْ له؛ أيْ: أنَّها تُحرِقُك، وتنزِع شَواكَ. وقد صُرِّح بما وقع التَّعريض به في قوله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾؛ أي: تدعوك يا مَن أدبَرَ عن دعوةِ التَّوحيد، وتولّى عنها، ولم يَعْبَأْ إلّا بجَمْعِ المال[3].

الـكـافِـرُ لـيسَ جَـديـرًا بِـشَـرَفِ الخِطاب الإلهيِّ

ومن لطائفِ إطلاق الخِطاب وصرْفِه عنهُ إهمالُ شأْنِه، وإشعارُهُ ببُعده عن ساحَةِ الخِطاب الإلهيِّ أوّلا، وإفادة عموم الحُكْم ثانيًا؛ أي: أنَّها تَدْعو كلَّ مَن أدبَرَ وتولّى، وجَمَعَ فَأَوْعى، وأنَّ ذلك حُكم إلهيٌّ عامٌّ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿لَظَىٰ﴾، ولطيفةُ تَنْكيرِه:

فظاعَةُ العذاب في لظى لا يقومُ لهُ أحَدٌ

﴿لَظَىٰ﴾ في أصلِ اللُّغة تدلُّ على اللهبِ الخالص؛ يقال: لَظيَت النّار، تَلَظَّى لَظًى[4]، وهو هنا "عَلَمٌ منقولٌ من اسم اللهب، جُعِل عَلَمًا لـ (جهنّم)، وألِفُه ألفُ تأنيث، وأصلُه: لظًى بوزن فتًى منوَّنا؛ وهو اسمُ جنسٍ لِلَهَبِ النّار، فنُقِل اسمُ الجنس إلى جعْلِه عَلَما على واحد من جنسه؛ فقُرِن بألف تأنيثٍ تنبيهًا بذلك التَّغيير على نَقْله إلى العَلَميّة. والعربُ قد يُدخلون تغييرا على الاسم غيرِ العَلَم إذا نقلوهُ إلى العَلَميَّة، كما سمّوا (شُمس) بضَمِّ الشّين منقولا من (شَمس) بفتحِها[5].

وسُمّيَتْ جهنَّم بذلك؛ لأنَّها الّتي تَتَلَظَّى؛ أي: يشتدُّ حَرُّها. أو هوَ اسمُ الدَّرَك الثّامن في جهنَّم[6]؛ فالتَّعبير بـ ﴿لَظَىٰ﴾ عن جهنَّم أو

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.

إحدى طبقاتها وأَوْدِيَتِها لَفْتٌ إلى خطورة ألسنَةِ لهَبِها المتأجِّجة؛ فـ "في هذا اللَّفظ تعظيمٌ لأمرها وهَوْلِها"(1).

وتنكيرُ ﴿لَظَىٰ﴾ تهويلٌ لأمْرِها، ومزيدُ تحذيرٍ مِن خطرها، وأنَّها نارٌ عظيمةٌ ملتهبَةٌ لا يقومُ لها أحَدٌ.

موقع قوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾:

انـتـزاعُ لـظَـى أطرافَ الإنسانِ وجِلْدَهُ

﴿نَزَّاعَةً﴾ في موضعِ نصبٍ على أنَّها حالٌ مِن ﴿لَظَىٰ﴾ بما دلَّت عليهِ من معنى الفِعْلِ، أي: تتَلظَّى حالَ كونِها نزّاعةً للشّوى. وهذا مَكْمَنُ التَّهديد، لا مجرَّد اشْتِعالِها في ذاته، فمحلُّ الخطورةِ انتِزاعُها للشَّوَى.

ويجوزُ أن تكون ﴿نَزَّاعَةً﴾ منصوبةً على الاختصاص؛ لإرادَةِ التَّهويلِ والتَّفخيم(2).

دلالة التَّعبير بالنَّزع، ولطيفةُ صَوْغِ ﴿نَزَّاعَةً﴾ على وزن (فعّالة):

تـخـلَـعُ لَـظـى أطرافَ المعذَّب؛ فـيُـصْـبِـح كُـتْـلَـةً مـسـتـسـلِـمـة للعذابِ

في صَوْغِ ﴿نَزَّاعَةً﴾ على زِنَةِ المبالغَةِ إيماءٌ إلى شدَّة النَّزع، وذلك دالٌّ على انْعِدام الرِّفق بالمنزوعِ أطرافُه، وجِلْدُه، بَل يعامَل بالقَسْوَة، ويُؤْخَذُ بشدَّةِ اقتلاع ما لا يَقْتُلُ اقتلاعُه مِن أجزائه.

وفي قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أوَّل ما تُحدِثه النّار في الكائنِ الحَيِّ يُشوَى بها هو انخلاعُ أطرافِه. وهذا يَعْني أنْ يَفقدَ المعذَّبُ بالنّار القدرةَ على الحركة؛ إذ انْفَصَلت عنه رجلاه اللّتان يتحرَّك بهما، كما يفقدُ القُدرة على الدِّفاع عن نفسه بيَدَيْه بعد أن عجَز عن الفرار؛ إذ قَد انخلعت عن جسدِه هاتانِ اليدان. وهكذا يُصْبِحُ كتلة مستسلِمة للعذاب، مقيَّدة بِقَيْد العَجْز المطلق(3).

وتوحي صيغَةُ المبالغة في ﴿نَزَّاعَةً﴾ باستمرار النَّزع وكثرته اتِّساقًا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 367.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 212 - 213.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1172.

مع قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ﴾ [النّساء: 56].

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿نَزَّاعَةً﴾:

القراءاتُ القرآنيَّة تُثْري الدّلالاتِ التّركيبيَّة

قرأ كلُّ العشرةِ عدا حفصًا عن عاصم: ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرَّفع على أنّها خبَرٌ بعد خبر لـ (إنّ) أي: جهنَّم لظىً، وأنَّها نزّاعة للشَّوى، أو خبرٌ لـ ﴿لَظَىٰ﴾ إنْ كانت الهاء ضميرَ القِصَّة، أو صفةٌ له إنْ أُريد اللهبُ؛ أي: إنَّ لظى هي النّزّاعة -، والتّأنيثُ في (نزّاعة)؛ لكونه في معنى النّار. أو أنَّ ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ مرفوعٌ على أنَّه خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ، والتَّقدير: هي نزّاعةٌ؛ على إرادَةِ التَّهويل.

وقرأ حفصٌ ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنَّصب على الحال المؤكِّدة، أو على أنَّها مُتَلَظّيَةٌ نزّاعة، أو على الاختصاص للتَّهويل[1]، وذكر أبو عليّ الفارسيُّ أنَّ حمله على الحال بعيدٌ؛ إذ ليسَ في الكلام ما يَعْمَلُ في الحالِ، وقيل: العاملُ فيها ما دلَّ عليه الكلامُ مِن معنى التَّلَظّي، أو هوَ منصوبٌ على الاختصاصِ[2].

ويتعيَّن على قراءة النَّصب على الحال أنَّ الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ ليس ضميرَ قِصَّة، والتَّعريض هو هوَ، وحرفُ (إنَّ) إمّا للتّوكيد متوجّها إلى المعنى التّعريضيِّ، وإمّا لمجرَّد الاهتمام بالجُمْلَةِ الّتي بعده؛ لأنَّ الجُمَلَ المفتَتَحة بضمير الشَّأن من الأخبار المُهْتَمِّ بها[3].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾:

بلوغُ العذاب في الآخرة غايتَهُ في الشِّدَّة والإيلامِ

(اللّام) في قوله: ﴿لِّلشَّوَىٰ﴾ دالَّةٌ على الاختصاصِ، وهي تصوِّرُ أنّ النّار كأنَّها مهيأةٌ مخصَّصةٌ بنَزْعِ الشَّوى، وذلك يقتضي شدَّة النَّزْعِ، وأنَّ أثر النّارِ في الآخرةِ يبلُغُ غايتَهُ في الإيلامِ والتَّعذيب مِنْ أوّل ما تُباشِرُ ظاهِرَ الإنسانِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.

(2) أبو علي الفارسي، الحجة في القراءات السبع، ص: 6/ 319.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 163.

عذاب (لظى) لا يبلغ حدّ القتل؛ ليَبْقى المعذَّبُ حيًّا يتجدَّد عليه العذابُ

دلالَةُ التَّعبير بـ (الشَّوَى)، ونكتَةُ اخْتِصاصِها بالذّكر، ودلالةُ جَمْعِها:

الشَّوَى: جمعُ: شَواةٍ، وهي مِن جوارحِ الإنسانِ ما لم يَكُنْ مَقْتَلًا؛ أي: لا يبلغ إيذاؤه حدَّ القتل؛ وذلك ليَبْقَى المعذَّبُ حيًّا يتجدَّد عليه العذاب ولا يموت، يقالُ: رمَى فَأشْوَى؛ إذا لم يُصِبْ مَقْتَلًا، فربّما وصَف الواصفُ بذلك جلدةَ الرّأسِ، كما قال الشّاعرُ[1]:

قالت قُتَيْلَةُ ما لَهُ *** قد جُلِّلَتْ شَيْبًا شَواتُهُ

وربّما وصِف بذلك السّاقُ، كقولِهم في صفةِ الفرسِ: عَبْلُ الشَّوَى، نَهْدُ الجُزارَةِ، يعني: بذلك قوائمَه[2]، أو هي جهنّم تَفْري اللَّحْم والجِلد عن العَظْم، أو هي جِلدة الرّأس، أو هو العصَب والعقِب، أو هو مكارِم وجهِه - أي: محاسنه، أو هو اللَّحم والجِلْدُ الّذي على العظم؛ لأنَّ النّار تشويه[3]، أو العَصَب والعَقِب ولحم السّاقَيْن واليدين[4]، أو (الشَّوَى) الأعضاء الظّاهرة والباطنة[5].

وفي مادَّة (الشَّوَى) إلماحٌ إلى ما تتعرَّض له جلودُهُم وفَرْوات رؤوسِهم من الشَّيِّ والاحتراق، وأنَّ الشَّيَّ يَعُمُّهم، ويشوي المناطقَ الحسّاسة في أبدانِهم.

وصيغَة الجمع (الشَّوَى) توحي بكثرة المعذَّبين، وكثرة شيِّهم وتعذيبهم. فـ "الجمع باعتبار ما لكلِّ أحدٍ من شَوَى"، و"قيل الشَّواةُ: جِلدة الرّأس؛ فالجمعُ باعتبار كثرةِ النّاس"[6].

علَّةُ فصل قوله: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ﴾ عمّا قبلهُ:

التَّراكيبُ القرآنيَّة وثيقةُ التَّرابُط المعنويِّ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن قوله: ﴿إِنَّهَا

(1) يُنسب البيت إلى الأعشى، وليس في ديوانه، ويُنظر: الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، ص: 316.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 261.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: 30/ 643.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 164.

﴿لَظَىٰ﴾؛ لكونها حالا أخرى من أحوالِ ﴿لَظَىٰ﴾[1]، تُبَيِّن حال النّار وأنّها تدعو إليها مَن أعرض عن الإيمان باللّه، وأعطى ظهرَهُ لدعوةِ الحقِّ.

فكأنَّها بِدعوتها تلك إنَّما تستقبِل مَن أقبل عليها، وولَّى وجهَهُ نحوَها حينَ أعرضَ عنِ الإيمان باللّه، وكما تَسْتَقْبِلُ مَن أعرض عن الإيمانِ؛ تستقبِل مَن جمع المال وأوعاه؛ أي: وضعَهُ في وعاء، وضَنّ به عن الإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ والإحسانِ[2].

دلالَةُ التَّعبير بالدُّعاء، ولطيفة صَوْغِه مُضارِعا:

تعدُّد الدّلالاتِ يُثْري المَعانيَ القُرآنيَّة

قَد يكونُ المقصودُ بدُعاء جهنَّم مَن أدبر وتولى أنَّها "تدعوهُم بأسمائهم، فتقول للكافر: يا كافرُ إليّ، وللمُنافِق: يا منافق إليّ، أو أنّ مصيرَ مَن أدبر وتولّى إليها، فكأنّها الدّاعية لهم، ومثله قول الشّاعر[3]:

ولقد هَبَطْنا الواديَيْن فواديًا *** يَدْعو الأنيسَ به العَضيضُ الأبكمُ

والعضيضُ الأبكم: الذُّباب، وهو لا يدعو، وإنَّما طَنينُه يُنَبِّه عليه، فدعا إليه.

أو أنَّ الدّاعي في الآيةِ خزنةُ جهنَّم، وقد أُضيفَ دُعاؤُهم إليها؛ لأنَّهم يدعونَ إليها"[4].

وجائزٌ أنْ يكونَ الدُّعاء منها على التَّحقيق؛ وهو أن يجعل اللّه تعالى لها قدرةً على الكلامِ، كما يُنطِقُ جلدَ الإنسانِ، فتقول جَهنَّمُ: إليَّ، إليَّ. وجائزٌ أن يكون هذا على جهةِ التَّمثيل؛ وهو أنَّها لا تدع أحدا يَفِرُّ منها، ويتخلَّص من عذابها، فكأنَّها دَعَتْهُ إلى نفسِها[5].

وفي دعائِها إيّاهم طِباقٌ خفيٌّ؛ لأنَّ الإدبار والتّولّي يُضادّان

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 213.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1172.
(3) البيت بلا نسبة عند ابن قتيبة في المعاني الكبير: 2/ 603.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 93.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 203.

الدّعوة في الجُملَةِ؛ إذ الشَّأن أنَّ المدعوَّ يُقبِل ولا يدبر، فيكون ﴿تَدۡعُواْ﴾ مشتقًّا من الدُّعوة - بضمِّ الدّال -، أو أن يُشَبَّه إحضارُ الكفّار عندها بدعوتها إيّاهم للحضور على طريقةِ التَّبعيَّة[1].

وفي التَّعبير عن الفعل بصيغَةِ المضارِع ﴿تَدۡعُواْ﴾ استحضارٌ لِصورة جهنَّم وهي تدعو، وتُنادي الكافِرَ، وتكاد تَبْتَلِعُه في أعماقها، وهذا التَّعبير يُحَرِّك الرَّهبة في النُّفوسِ، فيكون أدْعى لإيمانِهم وانقيادِهم للشَّرع المنزَّل. وفي صيغةِ المضارع أيضًا إيحاءٌ بأنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ تدعوهُم الآن، وتتطَلَّع إلى ابْتِلاعِهِم في دركاتِها في كلِّ آن؛ كنايةً عَن فظاعَةِ ما ارتكَبوا مِن آثام.

بلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في الفِعْلِ ﴿تَدۡعُواْ﴾:

مُكافَأةُ اسْتِهْزائِهِم باسْتِهْزاءٍ

الدُّعاء في قوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ أي: جهنَّم تدعو لدُخولِها والاصْطِلاء بحَرِّها[2]؛ مُسْتَعْمَلٌ في الإحضار، كأنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ "تدعوهم فتُحضِرهم، ونحوه قول ذي الرّمّة[3]:

أمْسَى بِوَهْبِينَ مجتازًا لِمَرْتَعِهِ *** مِنْ ذي الفوارِسِ تَدْعو أنْفَهُ الرِّبَبُ[4]

وقال بعضُ أهل العلم: معناه أنَّها تقول لَهُم: إليَّ إليّ يا كافرُ يا منافِقُ. فَتَدْعو المنافقين والكافرين بِلِسانٍ فصيح، ثُمَّ تلتقطُهم التقاطَ الحَبِّ.

وقال بعض العلماء معنى تَدعو: تُهلِك؛ من قول العرب: دعاك اللّهُ؛ أي: أهلكك. قال الشّاعر[5]:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 164.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 97.
(3) ديوان ذي الرمة، ص: 16.
(4) وهبين: اسم موضع، وكذلك ذو الفوارس، والرِّبَب - بموحَّدتين -: جمع ربة، وهي أول ما ينبت من الكلأ، والدعاء: الطلب، وهو هنا مجاز عن التسبّب في الأمر، لأنّ النبات الصغير سببٌ في وصول أنفه للأرض ليرعاه، ويجوز أن يكون الدعاء من باب الاستعارة، شُبّه الرّبَب بالداعي، وحذف المشبّه به، وأخذ شيئا من خصائصه، ينظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 214.
(5) البيت بلا نسبةٍ في أساس البلاغة للزمخشري: 1/ 288، ولفظةُ فيه: "إذا نام العيون" بدل: "إذا دخل الظلام".

دَعاكَ اللّهُ من رجلٍ بأفعَى *** إذا دخلَ الظلامُ سَرَتْ عليكا[1]

ومن دعائها إيّاهم تَمَكُّنُها من عذابِهم[2].

وفي التَّعبير بالدُّعاء هنا تصويرٌ لجهنَّم في صورةِ مُضيف يَدعو ضَيْفَه، ويجتذِبه إلى مأدبة الإكرام اجتذابًا، وفي ذلك كنايةٌ عن حَنقها عليهم، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: 8]، وفي تلك الصّورة تَهَكُّمٌ بهم، فهيَ استعارة مكنيَّة تهكُّميّة، تعبِّر عن مكافأتهم استهزاءً بما كان منهم في الدُّنيا من استهزاء.

بلاغَةُ المَجازِ في إسنادِ الدُّعاء إلى جهنّم:

لجهَنَّم موقفٌ حانِقٌ على الكُفّار؛ يَجْعَلُها تَفْتِكُ بهم

في إسناد فعل الدَّعوة إلى جهنَّم في قول اللّه تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ الدّاعي هم خزَنتُها، وفي إسنادِ الدُّعاء إلى النّار إسنادُ ما هو للحالِّ إلى المَحلّ، مبالغَةً في بيانِ شدّة عذابهم ونكالِهم حتّى كأنَّ جهنّم نفسَها تدعوهُم. هذا بناءً على أنَّ جهنَّم لا تدعو بنفسِها، والأظهر هو أنَّها تدعو بنفسِها كما أخبر اللّه تعالى في ظاهر الآيةِ، وأحوال الآخرة لا تُقاس بأحوال الدُّنيا.

وقال بعضُ أهل العلم: إنَّ دعاءَ جهنَّمَ تمثيلٌ وتخييلٌ، وليس دعاءً في الحقيقة، والمعنى: أنَّ مصيرهم إليها.

وفي هذا ذمٌّ شديدٌ لِمَن جمع المالَ فأوعاه، وكَنَزَه ولم يُنفقه في سبُل الخير، أو لم يُؤدِّ زكاته[3].

علّةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾:

الموصول يُفسِحُ العبارةَ لدِلالاتِ الصِّلة، ويتميَّز بإفادة العموم وجَمْعِ أفرادِه

إيثارُ التَّعبير بالموصولِ ﴿مَنْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ﴾ على الاسم الصَّريح كالكافرين أو المجرمين مثلًا؛ يُهَيِّئ لِذِكر جُمْلَة الصِّلة ومعطوفِها ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ بكلِّ ما فيها من إشاراتٍ دالَّةٍ في السّياق، والاسمُ الصَّريح لا يُعطي ذلكَ كُلَّهُ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 348.

(3) الشوكاني، نيل الأوطار: 5/ 348.

كذلك التَّعبير بالموصولِ يُحَقِّق دلالةَ الشُّمول لجميع الكافرين والمنافقينَ، وغيرِهم من أهلِ الخُلود في النّار. وكما أنَّ في التَّعبير بالموصولِ كذلك إيجازًا ولكلِّ هذه الأصنافِ في لفظٍ يسيرٍ؛ إذ إنَّ تَعدادَ أصنافِها يُخْرِجُ النَّظمَ الكريم من دائرة الإيجاز البليغ.

دلالةُ التَّعبير بالإدبارِ والتَّولّي، ولطيفةُ الجَمْعِ بينهما وتقديمِ الإدبارِ:

الإدبار والتّولّي مِن آثار دين الشِّرك

الإدبار: تركُ شيءٍ في جِهَةِ الوراء؛ لأنَّ الدُّبُر هو الظَّهْر، فأدبَر: جعلَ شيئًا وراءه بأنْ لا يُعَرِّجَ عليه أصلا، أو بأنْ يُقبل عليه ثُمَّ يُفارقُه. والتَّوَلّي: الإدبارُ عن شَيْءٍ والبُعْدُ عنه، وأصلهُ مشتَقٌّ مِن الوَلايَة وهي المُلازمة.

ثُمَّ قالوا: ولَّى عنه؛ أرادوا اتَّخذ غيره وليًّا؛ أي: ترك ولايته إلى ولاية غيره، مثل ما قالوا: رغِبَ فيه ورغِبَ عنه، فصار (ولَّى) بمعنى: أدبر؛ ففي التّولّي معنى إيثارِ غيرِ المُتَوَلَّى عنه؛ ولذلك يكونُ بين التّولّي والإدبار فرقٌ، وباعتبار ذلك الفرقِ عُطِف (تولَّى) على ﴿أَدۡبَرَ﴾؛ أي: تدعو مَن ترك الحقَّ وتولّى عنه إلى الباطلِ. وهذه دقيقةٌ مِن إعجاز القرآن بأن يكونَ الإدبارُ مرادًا به إدبارٌ مِن أوَّل وهلة، ويكون التّولّي مرادًا به الإعراض بعد مُلابسَةٍ، ولذلك يكون الإدبارُ مستعارًا لِعَدَمِ قبولِ القرآن، ونفي استماعِ دعوة الرَّسول ﷺ، وهو حالُ الّذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فُصِّلت: 26][1].

والمقصودُ أنَّ الإدبار والتّولّيَ كان منهم في الدُّنيا، فمعنى ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن طاعةِ اللّهِ، وتوَلَّى عن الإيمانِ بكتابهِ وبرسلِه[2]، أو أدبر عن توحيده، وتولّى عن النَّظر في حُجَّته، وفيما جاء مِن عنده. ومن معاني (تَوَلَّى) أي: تولّى الشَّيطانَ؛؛ مأخوذٌ مِن الوَلاية[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 165.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 264.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 203.

وهؤلاءِ المُدْبِرون المُتَوَلّون "هُم المجرمون الّذين يَوَدّون أنْ يَفتدوا من عذاب يومئذٍ. وهذه الصِّفات خصائصُ المشركين، وهي مِن آثار دين الشِّرك الّتي هي أقوى باعثٍ لَهُم على إعراضِهِمْ عَن دَعْوَةِ الإسلام"[1].

وقُدِّمَ الإدبارُ على التّولّي من بابِ تصعيدِ الدّلالَةِ؛ فإنَّ الإدبارَ إعراضٌ عن الحقِّ، وفي التّولّي معنًى زائدٌ على ذلك وهو الرّكونُ إلى الباطِلِ بعد الإعراضِ عن الحقِّ. كما أنَّ في تأخير (تولّى) عن ﴿أَدۡبَرَ﴾ تحقيقًا لتناسُبِ فواصِلِ الآي الكريمة.

بلاغةُ الاستعارَةِ في الفِعْلَيْنِ: ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾:

إجماعُ المُشْركين كلِّهم على الإدبار والتّولّي

التَّعبير بـ ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ تتَّسع دلالتُه لِمَن أدبر وتولّى هُنالِكَ في الآخرة في ذلكَ المقام الخطير، ولمن أدبَر وتولّى هنا في الدّنيا؛ فأدبَرَ عَن قبولِ الدّين القويم، وتولَّى عن الحقِّ.

وعلى المعنى الأوَّل؛ "يكون أدبَر في جهنَّم، فيُدْبِرُ رجاءَ أن يَفِرّ عنها، ويتولّى؛ فلا تدعه النّار ليفرّ؛ بل تغشاهُ عَنِ الإعراض"[2].

وعلى المعنى الآخر؛ تكون في جُمْلَتَي ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ استعارتان تَمْثيليَّتان، تُصَوِّران حالَ رَفْضِ الكافر الإيمانَ باللّه تعالى وعدمَ قبولِ الإسلام بحالِ مَن يُعرض عمَّن يدعوه إلى شيءٍ، ويولّي عنهُ ويَفِرّ منه متولّيا غيرَه؛ كراهيةَ قبول ما يدعوه إليه؛ وهي استعارةٌ تَطوي خلْفَها مَعْنًى كنائيًّا؛ هو تمامُ الرَّفض، وكمالُ البُغض لهذا الدّين الحقِّ ورسوله ﷺ.

فـ "التّولّي مستعارٌ للإعراضِ عَنِ القرآن بعدَ سَماعِه، وللنُّفور عن دعوة الرَّسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١﴾ [الأنفال: 31]، وكلا الحالَيْن حالُ كُفْر، مُحِقّةٌ للعقاب، وهما مُجْتَمِعتانِ في المشركينَ جميعِهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 164.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 165.

دلالَةُ اتّحاد متعلّق الفِعْلَيْن ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾:

يتعلَّق كلٌّ مِنَ الفِعْلَين ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ بمتعلَّق محذوفٍ، والتَّقدير: أدبَرَ عَنِ الحقِّ وتولّى عنهُ، أو: أدبَر عن جهنَّم وتولّى عنها. وفي عَطْفِ التّولّي على الأدبارِ تأكيدٌ لمعناه، وتقريرٌ لخُطورَةِ المُدْبَر عنهُ والمُتولَّى عنهُ في الآخرة، وشدّة بُغْضِ المدبِر المتولّي وشدَّة استهزائهِ بالدّين الحقّ في الدّنيا، و"العِبرة باختلاف معنَيَي الفعلين وإنْ كان متعلِّقهما متَّحِدا.

العِبرة في التّركيب باختلاف معاني الأفعالِ وإنْ كان متعلّقُها متَّحِدا

ويجوز أنْ يُقَدَّر لكلِّ فعلٍ متعلِّقٌ؛ هو أشدُّ مناسبَة لِمعناه، فقدَّره البيضاويُّ: أدبر عن الحقِّ وتولى عن الطّاعة؛ أي: لم يَقبل الحقَّ - وهو الإيمانُ - مِن أصلِه، وأعرضَ عن طاعة الرَّسول ﷺ بعد سماعِ دَعْوَتِه. وعن قتادةَ عكسُه: أدبر عن طاعةِ اللّه تعالى، وتولَّى عن كتاب اللّه تعالى، وتبِعه الفخرُ والنّيسابوريُّ"[1].

دلالة التَّعبير بفِعْلِ الجَمْع في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾:

الجَمْعُ في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ يعني: الضَّمّ؛ أي: أنَّ ذلك الكافر الّذي أدبر وتولّى؛ كان همّه ضمَّ المالِ بعضِه إلى بعضٍ، وكَنْزَهُ، وعدَمَ بذلِه لمستحقّيه. وعَطْفُ فعلِ الجَمْع على فعلَي: ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يُرجِّح كونَ المقصود بها ما كانَ في الدُّنيا مِن إدبار عن الدّين وتولٍّ عن الحقِّ، واكتناز المالِ كأنَّه يأمَلُ في الخُلود.

الكافرُ يجمع في خزائنهِ المالَ، وفي قلبهِ الكُفْرَ والأحقادَ على الإيمانِ وأهلِه

والتَّعبير بالجَمْع معَ حذف مفعولِه؛ يُفسِح لإرادةِ أنَّه جَمَعَ أعراضَ الدُّنيا الزّائلة، واكتَنَزَها، ولَم ينفِق منها على المُحتاجينَ، كما يُفْسِحُ لإرادَةِ أنَّه جَمَعَ العقائِدَ الباطلة، والأحقادَ الدَّفينة الّتي يوعيها قلبُ الكافر، ولا يَتَطهَّر منها بالإخلاصِ للّه تعالى.

والوعاء: الظَّرف؛ أي: جَمَعَ المالَ فكنَزَه ولم ينفع به المَحاويجَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 165.

ومنه جاء فعلُ ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ إذا شحَّ. وفي الحديث الشَّريف أنَّه ﷺ قال لأسماءَ رضي الله عنها: "تَصدَّقي ولا توعي؛ فيوعَى عَلَيْكِ"[1]؛ أي: لا تُحصي[2].

بلاغة الكِنايَةِ في الفعل (جَمَعَ):

ملازَمةُ الكافرِ لِخصالِ الخَبائث، واستمرارُهُ عليها

في التَّعبير بفعل الجَمْعِ (جَمَع) كنايةٌ "عمّا جُبِل عليه من شِدَّة الحرص على الدُّنيا؛ فيكون الجَمْعُ كنايَةً عَنِ الحرص، فبلغ بِهِ هذا الحِرْصُ مبلغًا أنساه ذِكْرَ الآخرة، وقوله ﷻ: ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ فيه بيانُ صِفَتِه فيما عليه من النِّهاية في البُخْل، فيكون الإيعاءُ كنايةً عَنِ البُخْل حتّى لم يُؤَدّ حقَّ اللّه تعالى في ماله، أو لَم يَقُم بِشُكْر ما للّه تَعالى مِن النِّعم، أو بلغ بِهِ البُخْلُ مبلغًا مَنَعَهُ ذلكَ عَن قَبولِ حقِّ اللّه تعالى في مالِهِ"[3].

كما أنَّ في الفعلِ (أوْعى) "إشارةً إلى طولِ الأمَلِ. وعَن قتادة: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾: كان جَموعا للخبيث، وهذا تفسيرٌ حسنٌ؛ أي: بأن يقدَّر لـ (جمع) مفعولا يدلُّ عليه السّياقُ؛ أي: وزاد على إدباره وتولّيه أنَّه جمعَ الخبائث. وعليه يكون ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ مستعارًا لِمُلازمَته ما فيه مِن خصالِ الخبائث، واستمراره عليها، فكأنَّها مختزنة لا يُفَرِّط فيها[4].

دلالَةُ التَّعبير بالإيعاء، وبلاغةُ الكِنايَةِ في ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾:

الإغراقُ في البُخْلِ إلى حدِّ مَنْعِ حُقوقِ الله تعالى وحقوقِ عبادِهِ

أصلُ كلمة "الإيعاء" مِن الوعاء، فيُقال: أوعيتُ الشَّيء؛ أي: جعلتُه في وعاءٍ، وقوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي: يجمعون في صُدورهم مِن الشِّرك والتَّكذيب[5]، ﴿فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي: "أمسكَهُ في الوِعاء، ولَم يُنْفِقْهُ في طاعةِ اللّه، فلم يُؤَدِّ زكاةً، ولا وصَلَ رحمًا"[6]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (2590).
(2) ابن حجر، هدي الساري، ص: 206.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 31/ 104.
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 353.

وجَمَعَ الأمتعةَ والأموالَ في أوْعيَتِها، ولَم يكُنْ مُفَرِّطًا في دُنْياهُ، بل كانَ شديدَ الحِرْصِ عليها[1].

فكأنَّه "جعله في وعاء؛ حفظًا له ومنعًا لحقِّ اللّه منه، قال قتادة: فكان جموعًا مَنوعًا"[2]، "وتشاغل به عن الدّين، وزَها باقتنائه وتكبَّر"[3].

و"الإيعاءُ كنايةٌ عن البُخْلِ حتّى لم يُؤَدِّ حقَّ اللّه تعالى في ماله، أو لم يَقُمْ بِشُكْرِ ما للّه تعالى من النِّعم، أو بلغ به البُخْلُ مبلَغًا منَعَهُ ذلكَ عَن قبولِ حقِّ اللّه تعالى في مالِهِ"[4].

نُكْتَةُ العُدول عن (الواو) إلى (الفاء)، والقَرْن بين الفعلين ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾:

شـدَّةُ حـرصِ الـكـافـرِ على إخفاءِ نِعَمِ الله تعالى عليه

في العدولِ عن (الواو) التي تكرّرت في ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ﴾ إلى (الفاء) في ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ دلالةٌ على الحرص الشَّديد على إخفاء نِعَمِ اللّه تعالى عليه، وهو المدلولُ عليهِ بِسُرْعَةِ (الفاء) المفيدةِ عدمَ تركِهِ ما جَمَعَهُ مكشوفًا أمامَ الأعين، بل يطويه ويُخَبِّئه ويحويه في وعاءٍ مُحْكَم، وكذا ما أوعى في قلبِهِ مِنَ الكُفْرِ والحِقْدِ على الدّين، وربَط عليه أوعيةَ نفسِه وقلبِه.

نكتَةُ تَرْتيبِ الأفعالِ في قولِه: ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾:

طريقةُ الكفّار جَمْعُ المالِ مِن غيرِ حِلٍّ، ومنعُ حقِّهِ مِنه

في ترتيب الأفعال في قوله: ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ "إشارةٌ إلى كفّارٍ أغنياء جعلوا جَمْعَ المالِ أوْكدَ أمرِهم، ومعنى حياتِهم، فجمعوه من غيرِ حلٍّ، ومنعوهُ مِن حقوقِ اللّه، وكان عَبْدُ اللّهِ ابْنُ عُكَيْم لا يَرْبِطُ كيسَهُ، ويقول: سمعتُ اللّهِ تعالى يقولُ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾"[5].

نكتةُ الجَمْعِ بين الإعراضِ عن الإيمانِ والإمساكِ عنِ الإنفاق:

شناعَةُ البُخْلِ وبشاعَتُهُ

في الجمعِ بين الإعراضِ عن الإيمان باللّه تعالى، والإمساك عن

(1) الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 4/ 325.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 94.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 611.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 368.

الإنفاقِ في سبيل اللّه ﷻ؛ إشارةٌ إلى شناعة البُخل، وأنّه يُقاربُ الكُفْرَ، وهذا مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣٤﴾ [الحاقّة: 33 - 34][1].

دِلالَةُ المُضيِّ في الأفعالِ الأربعَةِ: ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾:

الإدبارُ والتّولّي والجمعُ والإيعاءُ أخلاقٌ ذميمَةٌ مُتأصّلة في الكافِرِ

في التَّعبير بصيغَةِ الماضي المُتتابِعَة في الأفعالِ ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ دلالَةٌ على القَطْعِ بتِلْكَ القَبائحِ في الكافر المُستَهزِئ بالوعيد، الوادِّ افتداءَ نفسِه بكلِّ شيء، وقِدَمِها، ورسوخِها فيه خُلُقًا ذميمًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللَّظَى والسَّعْر:

اللّظَى اللهبُ الخالِص، والسَّعْرُ الاتِّقاد والاشْتِعال

اللَّظَى: اللهبُ الخالص، و(لَظَى) من أسماءِ جهنَّم، لا يُنَوَّن لأنّها علَمٌ عليها، وكذلك سَقَرُ: علَمٌ عليها، وأسماءُ الإناثِ لا تُصرَفُ في المعرفةِ؛ فَرْقًا بين الذكَّر والأنثى. ولَظِيَتِ النّارُ تَلْظَى لَظىً؛ معناه: تلزَقُ لُزوقًا. والحَرُّ في المفازة يَتَلَظَّى؛ كأنّه يلتَهب التِهابًا[2]، والسَّعْرُ اشتعالُ الشَّيءِ واتِّقادُه وارْتِفاعُه. من ذلك: السَّعير؛ سعيرُ النّار -، واستعارُها: توقُّدُها. والمِسْعَر: الخشَبُ الذي يُسَعَّرُ به[3].

الدُّعاء والنِّداء:

النِّداء أخصُّ من الدُّعاءِ

الدُّعاءُ أعمُّ من النِّداء مُطْلَقًا، وذلك أنَّ النِّداءَ هو رفعُ الصَّوْتِ بما لَهُ مَعْنًى، بخلافِ الدُّعاءِ فيكونُ برفْعِ الصَّوْتِ وخَفْضِه، فتقولُ: دَعَوتُ فلانًا مِنْ بعيدٍ، وتقولُ: دعوتُ اللّهَ تعالى في نَفْسي، ولا يَصِحُّ أن تقولَ: نادَيْتُ اللّهَ في نَفْسي[4].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1172.
(2) الخليل بن أحمد، العين: (لظى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سعر).
(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 38.

الإيعاء والحفظ:

الإيعاءُ: حفظ الأمتعة في الوعاء[1]، وما يجمعون في الصُّدورِ من التَّكذيب والإثم[2]. والحفظُ: المنعُ، تقول: حفظتُ المالَ وغيرَهُ حفظًا؛ إذا منعتَهُ مِنَ الضَّياع والتَّلف، وحفظتُه: صُنْتُه عنِ الابتذالِ، واحتفظتُ به، والتَّحفُّظ: التَّحرُّز، وحافظ على الشَّيءِ محافظَةً، ورجلٌ حافظ لدينهِ وأمانَتِه ويمينهِ، وحفيظٌ أيضًا، والجمعُ: حفظَةٌ، وحُفّاظ[3].

الإيعاء الحفظُ في وعـــاءٍ، والحِفْظُ الإحرازُ مُطْلَقًا

(1) أبو البقاء، الكليات، ص: 224.

(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (وعى).

(3) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (حفظ).

﴿۞إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا
مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ
دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ
٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم
مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾ [المعارج: 19 - 28]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

> من رحمة الله تعالى بعبادِهِ أنْ بيّن لهم أسبابَ الشَّر ليجتنبوهُ، وأسبابَ الخيْرِ ليَلْتزموهُ

لمّا ذكر الله تعالى أنَّ عقوبةَ المُجْرِم جهنَّمُ الّتي تَتَلظّى، وأنّها مُعدَّةٌ لِمَنْ أدبرَ وتَوَلّى وجمع فأوعَى؛ ذَكر بإثْرِ ذلك هنا الدَّوافعَ الّتي تسبَّبت في ذلك العذابِ للمُجْرِم، وأنَّها عدمُ نَجاحِه في ابتلاءٍ رُكِّب في جِبِلّته يومَ أنْ خلقَهُ اللّه تعالى؛ هو أنَّه مِثْلُ كُلِّ بَني الإنسان؛ خُلِقَ على صفَةِ الهَلَع، بحيث إذا نزَلَ به الضُّرُّ تملَّكه الجزَعُ؛ فتبرّم به وتضجّر، وإذا حلّ به الخيرُ تملّكه الجشَعُ؛ فمنعَ النّاس حقوقَهُم.

ثُمَّ استثنى السّياق الكريم مِن الاستسلامِ لتِلْكَ الخَطايا مَن وُفِّقوا في الابتلاء، ونجحوا في تهذيب أنفُسِهم بالإيمان، فتحرَّروا من صِفَةِ الهَلَعِ، وتَطهّروا من مَظْهَرَيْه: الجزع والجشع، وتحقَّق لَهُم ذلك ببركةِ الإيمانِ والصَّلاة، والتَّصديق بيوم الدّين، والإشفاقِ من غضَبِ الرَّبِّ الجليلِ ﷻ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَلُوعًا﴾: (هلع) تدور اشتقاقاتُها على السُّرعةِ والحِدَّة[1]، يُقال: رَجُل هُلَعة - كهُمَزة -: يَهْلَع، ويَجْزَع، ويسْتَجيعُ سريعًا. وهَلِعَ كتعِب -: جاعَ، والهلعُ: فراغ الجوف من مَصْدَرِ القوَّة، كالجائع جدًّا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هلع).

ومنه: الهَلَع الّذي وصفهُ القرآنُ الكريم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، فالجَزَع ضدُّ الصَّبر؛ مِن فراغ القوَّة وعدم الصُّمود، ومنعُ الخير الموجود من فراغ النَّفْس، فيحرِصُ خوفًا من الفقر[1].

2) ﴿جَزُوعًا﴾: (جزع) تدلُّ كثيرٌ مِن تصريفاتِها على الانقطاع[2]. ومِنْهُ قولهم: جِزْعُ الوادي – بالكسر –: وسَطُه أو مُنْقَطَعُه؛ حيث يُجْزَع؛ أي: يُقْطع. والجَزَعُ: انقطاع وسطِ الشَّيء مع التئام ظاهرِه أو اتِّصاله، كالخَرَزِ يكونُ مثقوبَ الوسَطِ مُتَّصِلَ الظّاهر، والوادي فارِغ الوسَطِ، لكنَّه يُعْبَر.

وجَزِع – كتَعِبَ –: ضدُّ صَبَر. وحقيقةُ الجَزَع: الخَوَر وعدمُ الصُّمودِ والتَّماسكِ عند المُصيبة، فهذا الخَوَر رِقّةٌ وفراغٌ في الباطن، قال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، ويقول الكفّار وهم في العذابِ يومَ القيامة ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم: 21][3].

3) ﴿مَنُوعًا﴾: (منع) تدور اشتقاقاتُها على ضدِّ الإعطاءِ[4]، ومِنْهُ: المَنْعُ؛ وهو تحجيرُ الشَّيء؛ فلا يُخلص إليه، والمنع: حَجْزُ ظاهرِ الشَّيء ما في باطنه شديدًا فلا يكونُ فيه منفَذٌ إلى ما بداخله. وذلك كجدارِ الحِصْنِ المَنيع، وجسم السَّرطان محوط بدرقَةٍ شديدَةٍ ومخالِبَ قويَّة لا يوصَلُ إليه ولا إلى باطنِهِ إلّا باحتيالٍ. والنّاقة المانعُ؛ كأنَّ ضَرْعها مُصْمَتٌ لا منافِذَ منه. ومنهُ: المَنعُ؛ وهو تحجيرُ الشَّيء والحيلولَةُ دونَ الوُصول إليه.

ومَنَعَهُ؛ ضدُّ: أعطاهُ؛ فهو مَنوع، ومَنّاع: أي: ضنينٌ مُمْسِكٌ، قال تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق: 25]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾؛ أي: لا يُشْرِكُ معه الآخرين بأنْ يُعْطِيَهُم مِنَ الخير الّذي أعطاهُ اللّه تعالى[5].

4) ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾: سَألَ يَسألُ سُؤالًا، والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفةٍ أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المال. فاستدعاءُ المعرفة جوابُه على اللّسان، واليدُ خليفةٌ له بالكتابة، أو الإشارةِ، واستدعاءُ المال جوابُه على اليد، واللّسانُ خليفةٌ لها إمّا بِوعْدٍ أو

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هلع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جزع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (منع).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جزع).

بردّ[1]، والمقصودُ بـ (السّائل) في قوله: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ النّوع الثّاني؛ وهوَ استدعاءُ مالٍ وطلبُ عطاءٍ.

5) ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: (حرم) تدلُّ اشتقاقاتُها على المنع والتَّشديد[2]، والحِرْمُ - بِالكَسْرِ - والحَرامُ: نَقيضُ الحَلالِ، وجَمْعُهُ: حُرُمٌ؛ قالَ الأعشى:

مَهادي النَّهارِ لجاراتِهِمْ *** وباللَّيْلِ هُنَّ عليهمْ حُرُمْ

وَقَدْ حَرُمَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ حُرْمًا وحَرامًا، وحَرُمَ الشَّيءُ - بِالضَّمِّ - حُرْمَةً، وحَرَّمَهُ اللّٰه عَلَيْهِ، وحَرُمَتِ الصَّلاةُ عَلى المَرْأةِ حُرُمًا وحُرْمًا. والمَحْروم: المَمْنوعُ مِنَ الخَيْرِ. وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾؛ هوَ الَّذي لا يَنْمي لَهُ مالٌ، أو أنَّه المُحارِفُ الَّذي لا يكادُ يَكْتَسِبُ. وحَريمةُ الرَّبِّ: الَّتي يَمْنَعُها مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقِه[3].

6) ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾: (شفق) تدلُّ اشتقاقاتُها على رِقّة في الشَّيء. ومنه قولُكَ: أشفقتُ من الأمر؛ إذا رَقَقْتَ وحاذَرْتَ. ومِنْهُ: الشَّفَقُ مِنَ الثّياب، والشَّفق: الرَّديء من الأشياءِ، ومِنْهُ الشَّفَقُ: النَّدْأةُ الَّتي تُرى في السَّماءِ عِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ؛ وهيَ الحُمْرَةُ. وسُمّيَتْ بذلِكَ لِلَوْنِها ورِقَّتِها[4]. والإشفاقُ الخَوْفُ، ومنه ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ مِنْ قول اللّٰه تعالى: ﴿هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ أي: خائفون[5].

7) ﴿مَأۡمُونٖ﴾: (أمن) تدلُّ تصريفاتُها على وثاقةٍ في الباطن، كقوَى الحَبْلِ الأمينة القويّة. وآمَنُ المالِ وآمَنُ الدّواء: خالصُه، ولُبُّه المتمكّنُ في باطنِه. ومِن ذَلِكَ الأَمْنُ؛ وهوَ ضِدُّ الخَوْفِ، كأنَّ الآمِنَ تَمكّن في حِصْن، أو امتلأ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُه، قال اللّٰهُ تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: 4]، وقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: 16]، وقال: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ﴾ [الأنفال: 11][6]. ومعنى ﴿غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي: يُخشى ويُحذَر[7].

(1) الراغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (سأل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حرم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفق).
(5) أبو حيان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (شفق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمن).
(7) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 887.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ صِفاتِ أهلِ الإيمانِ الصّادِقِ

يُبَيِّنُ اللّهُ تَعالى أنَّ الإنسانَ خُلِقَ بِطَبْعٍ عَجولٍ، يَجْزَعُ ويَضْطَرِبُ إذا نَزَلَ به بلاءٌ أو حلّت به مُصيبَةٌ، ويَبْخَلُ ويُمْسِكُ الخيرَ إذا أصابَهُ الرَّخاءُ واليُسْرُ، إلّا عِبادَهُ المُحافِظينَ عَلى الصَّلاةِ في أوقاتِها، الّذين يُؤَدُّونَها بِخُشوعٍ ودَوامٍ، لا يَشْغَلُهُم عَنْها شغلٌ، والّذين يُؤَدّونَ حَقَّ اللّهِ تَعالى في أموالِهِمْ مِنَ الزَّكاةِ لِلسّائِلِ عَنِ المعونَةِ، ولِلمَحْرومِ المُتَعَفِّفِ عَنِ السُّؤالِ، والّذين يُؤمِنونَ بيَوْمِ الدّينِ ويَسْتَعِدّونَ لَهُ بالعملِ الصَّالِحِ، والّذين يخافونَ عَذابَ رَبِّهِمْ؛ فَإنَّ عَذابَهُ لا ينبغي أن يأمَنَهُ أحَدٌ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ عمّا قبلهُ:

المعاني القرآنيّة متوالدَةٌ، مُتَواثِقَةُ الرّوابط

فُصلَ قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ عن قوله تعالى: ﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ لأنّها في موضع التَّعليل لها[1]، فهي منها بمنزلة السَّبب من المسبَّب؛ إذ دعوةُ جهنَّم لهؤلاء كانت بسبَبِ كونهِم مِن صنفِ الإنسان الّذي خُلق هلوعًا. ويجوزُ أن يكونَ الفصلُ لِما بينَهما مِنْ شبهِ كمال الاتِّصال، فإنَّ ما تقدَّم يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقّي سؤالًا حاصِلُهُ: ما سببُ دعوةِ جهنَّم لهؤلاءِ؟ فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛ لبيانِ أنَّ طبعَ الإنسانِ هوَ مَيْلُهُ إلى الشَّهواتِ التي هي بريدٌ إلى جهنَّمَ. والمعنيانِ متآيِلانِ.

وذكر ابنُ عاشور أنّ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ معترضَةٌ بينَ ﴿مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ وبين الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾؛ فهيَ تذييلٌ لجملةِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ تنبيها على خَصْلَة تُخامر نفوس

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 69.

البشَرِ فَتَحْمِلهم على الحرْص لنيل النّافع، وعلى الاحتفاظِ بهِ خشيةَ نَفادِه لِما فيهم من خُلُقِ الهَلَع. وهذا تذييلُ لومٍ وليس في مساقِه عذرٌ لِمن جمع فأوعى، ولا هوَ تعليلٌ لِفعله[1].

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾، وغرَضُ تَوكيد الخبَرِ في الجملة:

في خَلْقِ الإنسان هَلوعًا مع مَنحِهِ الـقُـدرةَ على مُقاوَمَتِه تهيئةٌ لابْتِلائِه في الدّنيا

﴿إِنَّ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وهي تَدْعَمُ خبَرَ خَلْقِ الإنسانِ هلوعًا، و"موقِعُ حرفِ التَّوكيد ما تتضَمَّنُه الجُملة من التَّعجيب من هذه الخَصلة البَشريَّة، فالتّأكيد لِمجرَّد الاهتمام بالخبر، ولفْتِ الأنظار إليه، والتَّعريض بالحذَرِ منه"[2]؛ إذْ قد مَنَحَ الخالقُ العظيمُ ﷻ الإنسانَ القدرة على مقاومة الهَلَعِ والجَزَع والحِرْص؛ فأمْكَنَهُ مِن خَصيصة الاختيارِ، وهيّأ له حياةَ الابتلاءِ والاختبارِ.

معنى (أل) في ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾:

توفيقُ اللّه تعالى المؤمنين للثَّبات على الحقِّ، وخُذلانُه الكُفّار إلى الانتكاسِ

(أل) في ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ لتعريف الجِنْس والاستغراق، والمرادُ: كُلُّ إنسانٍ[3]؛ وذلك ليَصِحَّ استثناءُ المصلّين منه[4]؛ إذ الاستثناءُ معيارُ العموم. فكلُّ إنسان خُلِقَ هلوعا، ثُمَّ وُفِّق المؤمنُ إلى الثَّبات على الحقِّ، وخُذِل الكافر إلى الانْتِكاس إلى المعاصي، فعلى الإنسانِ "أن يُمانِعَ نفسَه إذا نازَعَتْه نحوَها، ويُحارب شيطانَه عند تزيينِه المعصيةَ، فيَسْتَحِقّ مِنَ اللّه مثوبةً وجنَّةً"[5].

ويجوزُ[6] أن تكونَ (أل) في ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ للعهدِ، فالإنسان الذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 602.
(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 538.
(5) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 21.
(6) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 266.

خُلِق هَلوعًا هو السّائل المستهزئُ بالعذاب، السّابق ذِكْرُه في قوله: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، الّذي ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾، وإلّا فمِن جنس الإنسانِ مَن ليس هلوعًا، وليس ممّن ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾، وهؤلاء هم الأنبياء والمرسلون، والمؤمنون الصّالحون، الذين استُثنوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾، فيكون الاستثناءُ على هذا منقطِعًا.

وجاء الحكمُ على الإنسان مُطْلَقًا على التَّغليب؛ لأنَّ أكثر النّاس هُم هذا الإنسان الهلوع، كما يقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103][1].

دلالةُ التَّعبير بفعل الخَلْقِ ﴿خُلِقَ﴾، ونكتةُ بِنائِه لغيرِ فاعله:

للنَّجاة طريقٌ ينبغي أن يسلُكَهُ الإنسانُ، وللهلاك طُرُقٌ يجبُ أن يتَجَنَّبها

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ أي: جُبِل وطُبع على حُبِّ ما يُتلذَّذ به، والقيام بِطلبه، وبُغض ما يُتألَّم به، والهَرَبِ عنه[2]. وفي التَّعبير بِمُفْرَدَة الخَلْقِ في قوله تعالى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ دلالةٌ على تمكُّن هذا الطَّبع وتلك الغريزة من نَفْسِ الإنسان؛ مِمّا يميل به نحوَ الهلَع والجَزَع والمَنْع إنْ كانَ كافِرًا، وإلى ضدّهِ إنْ كان مِنَ المُصَلّين المُسْتَثْنَيْن.

وفي بناءِ الفِعْلِ ﴿خُلِقَ﴾ لِغير فاعله الحقيقيِّ - وهو اللّه تعالى -؛ تنزيهًا له ﷻ عن نِسْبَةِ ما يُتوهَّمُ أنَّهُ شرٌّ إليه عزَّ وعلا، وفي ذلك يَحْصُلُ الاتِّساق مع قولِه ﷺ: "الخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيْكَ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ"[3].

ومن حِكَم خَلْقِ الإنسانِ هلوعًا أنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ، ومِن مُقْتَضياتِ ذلك جَعْلِ الإنسانِ على ذلك الحالِ؛ ليُقاوِم طبعَه ويهذِّب نفسَه، ويروّض روحَه على معيارِ الشَّرع الإلهيِّ الحنيف؛ فيفوز بالرِّضوان والجنان، وينجو من عذابِ النّيران.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1173.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.
(3) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (771).

فـ "إنَّ الإنسان مكلّف بأنْ يأخُذ طريقَ الخير، ويتَّجه إلى جانب الأمن والسَّلامة من عذاب اللّه تعالى؛ لأنَّه لا يدري ما قضاءُ اللّه فيه ومشيئتُه له؟ ولكنَّ الّذي يدريه ويقطَعُ به هو أنَّ للنَّجاة طريقا ينبغي أن يسلُكَه، وللهلاك طُرُقا يجبُ أن يتَجَنَّبها. إنَّه يفرّق حتما بين النّور والظّلام. وفي النّور الهُدى والسَّلامة، ومع الظَّلام الضَّلالُ والضّياع، فإذا آثرَ الظّلام على النّور والضّلال على الهدى، ولم يتحَرَّك بإرادَتِه للخَلاص ممّا هو فيه؛ فقَدْ لَزِمَتْهُ الحُجَّة وحَقَّ عليه العقابُ"[1].

بلاغَةُ الكناية في قوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾:

وجـوبُ تَطْهيرِ العَبْدِ نفسَهُ مِن أدرانِها

في التَّعبير بفعل الخَلْق ماضيًا في قول اللّه تعالى: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ كناية عن تأصُّل هذا الطَّبع في الإنسان، وتمكُّنِه منه تمكُّنًا فِطريًّا، يقتضي منه العملَ على تهذيبِه وتقويمه؛ ليصير في زُمرةِ الأتقياءِ الأزكياءِ الأنقياءِ، ويُصْبِح أهلًا لمجالسةِ الأكابِر في دار السَّعادة.

دلالَةُ التَّعبير بالهَلَع، ولطيفةُ صَوْغِهِ على (فَعول):

الـهـلَـعُ قـلَّـةُ إمساكِ النَّفس عـنـد اعـتـراء مـا يُحزنها أو يَسُرُّها، أو عِنْدَ تـوقُّـعِ ذلـك، والــجَـزَعُ من آثارِه

ورد في الهلوع من المعاني: أنَّه البخيل، والحريصُ، والضَّجور، والضَّعيف، وشديدُ الجزَعِ، وأنَّ من صفاته ما قاله اللّه تعالى فيه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، فإذا مسّه الخير لم يَشكُر، وإذا مسّه الشَّرُّ لم يَصبِر، وإذا استغنى منَع حقَّ اللّه تعالى وشحَّ، وإذا افتقر سألَ وألحّ[2]؛ فالهَلَعُ جزعٌ شديدٌ واضْطِرابٌ يَعْتَري الإنسانَ عندَ المَخاوِفِ وعندَ المَطامِعِ[3]، ونحوُه قوله ﷺ: "شَرُّ ما في الرَّجُلِ شُحٌّ هالِعٌ، وجُبْنٌ خالِعٌ"[4].

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1174.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 94.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 368.

(4) رواه أحمد في مسنده، برقم: (8010)، وأبو داود في سننه، برقم: (2511)، وهو حديثٌ صحيح، كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، برقم: (560).

ولابْنِ عاشورٍ في تفسيرِ الهَلع نظَرٌ آخرُ؛ فيقول: "والهلعُ لفظٌ غامِضٌ من غوامض اللُّغة، قد تساءل العلماءُ عنه، والّذي استخلصتُه مِن تتَبُّع استعمالات كلمةِ الهَلَعِ: أنّ الهلعَ: قلّةُ إمساكِ النَّفس عند اعتراءِ ما يُحزِنُها أو ما يسُرّها، أو عند توقُّع ذلك والإشفاقُ منه. وأمّا الجزعُ؛ فمِن آثار الهلَعِ. وقَد فَسَّر بعضُ أهل اللُّغة الهلعَ بالشَّره، وبعضُهم بالضَّجر، وبعضهم بالشُّحِّ، وبعضُهم بالجوع، وبعضُهم بالجُبْن عند اللِّقاء. وما ذكرناهُ في ضَبْطِه يجمَعُ هذه المعانيَ ويُريك أنَّها آثارٌ لصِفَةِ الهلَعِ"(1).

و"الإنسانُ وإن كان مطبوعًا على هذه الأخلاق الذَّميمة من البُخْل، والإقتار، والعجلَة، وجُبِل عليها؛ فقد مَلَك رياضةَ نفسِه، ويُمْكِنُه أن يستخرجها من تلك الطِّباع الذَّميمة إلى أضدادها من الأخلاق الحميدة، فلَزِمَهُ القيامُ بذلك؛ ألا ترى أنَّه يتهيَّأ له أن يقوم برياضةِ الدّوابِّ والسِّباع، فكذلك الإنسانُ إذا قام برياضةِ نفسِه؛ أمكنَهُ أن يستخرجَها عن خُلُقِها؛ فتصير مطيعَةً له، ويخِفّ عليها بَذْلُ ما يَطْلُب منها، ويَسْهُل عليها تحمُّلُ ما كان يَشْتَدُّ عليها(2).

والهلَع: صفةٌ غيرُ محمودةٍ، فوَصْف الإنسانِ هنا بها لَوْمٌ عليه في تقصيرِه عن التَّخلُّق بِدفع آثارها؛ ولذلك ذُيِّل به قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ على كلا مَعْنَيَيْه"(3).

وفي التَّعبير بمفردةِ (الهلع) على اضطرابِ الإنسانِ وضَعْفه مطابقةٌ دقيقَةٌ بين اللَّفظ ومعناهُ المقصودِ منه؛ إذْ إنّ دفْق هواءِ الجَوْف عبْرَ صوتِ الهاء الضَّعيفة، ثُمَّ الإتيان بصوت العينِ مِن وسَطِ الحلق في لفظِ ﴿هَلُوعًا﴾ يحكي ضَعْفَ ذلك الإنسانِ، ويترجم خُلُوَّ نفسِه من أسباب الثَّبات، وفي ذلك تنبيهٌ شديدٌ له، يَقْرَعُ عقلَهُ ونفسَهُ ليعمَلَ على معالجةِ ذلك الخَلَلِ فينجو من تبعاتِه.

وعُبِّر عن هذا الوصفِ بزِنَةِ "فعول" فقال سُبحانَهُ: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛ لبيانِ رسوخِ هذا الوصفِ فيه، وتكرُّرِ آثارِه في أفعالِه وتصرُّفاتِه.

علَّة فصلِ قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ عمّا قبله:

فُصلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ عن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 167.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 204.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 170.

تفسيرُ الهَلوعِ وبَيانُ مَظاهِرِه

لكمال الاتِّصال بينَهُما؛ إذِ الثّانية تفسيرٌ للأولى وتفصيلٌ يُبيِّن أحَدَ مَظْهَرَي الهَلَعِ في ذلك الإنسانِ؛ وهو أنَّهُ إذا مسَّه الشَّرُّ جزوعٌ وإذا مسَّه الخيرُ منوعٌ. وهذا رابِطٌ وثيقٌ بينَ مَعْنَيي الجُمْلَتَيْن.

ومِن مُقْتَضياتِ الفَصْلِ اللَّفْظيِّ بين جملةِ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ وما قبلها أنَّ ﴿إِذَا﴾ الأولى ظرفٌ لـ ﴿جَزُوعًا﴾ والثّانية ظرف لـ ﴿مَنُوعًا﴾، وأنَّ الوصفَيْن - على ما اختاره بعض الأجلَّة - صِفتانِ كاشِفَتان لـ ﴿هَلُوعًا﴾ النَّكرةِ، الواقعَةِ حالًا، كما هو الأنسَبُ[1].

نُكْتَةُ التَّقييد بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾:

مسُّ الشَّرِّ الإنسانَ ضرورةُ ابتلاءٍ، ورحمةُ تذكيرٍ

(إذا) تدلُّ في الأصل على الجَزْم بوقوعِ مدخولها. وفي تقييدِ مسّ الشَّرِّ ذلك الإنسانَ بـ ﴿إِذَا﴾ دلالةٌ على القَطْعِ بذلك الحُكْم له، وأنَّ مَسَّ الشَّرِّ إيّاه ممّا لا بُدّ منه؛ لأنَّه في دار ابتلاءٍ. هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ ذلك الإنسانَ جديرٌ بأن يَمسّه الشَّرُّ وأن تحلّ به العقوبة التّقويميَّة كلَّ حين، رحمةً مِن اللّه تعالى به؛ إذْ يتَعَهَّده بالتَّذكير لعلّه يتوب.

دلالَةُ التَّعبير بالمسّ في جملتي: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾:

المسُّ في غالبِ استعمالاتِ القرآنِ الكريم مقيَّدٌ بالشَّرِّ والمكروهِ

في التَّعبير بمفردة المسّ دلالةٌ على كمالِ الرَّحمة الإلهيَّة بالإنسان؛ فإنَّ ابتلاءَهُ بالشَّرّ مجرَّدُ مسّ، والمسُّ في أصلِ اللُّغة كاللَّمس، كاللَّمس، وممّا يَفترقان بِهِ أنَّ المسّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسانَ مِن شرٍّ وأذًى بخلاف اللَّمْسِ، فقد ذُكر في التَّنزيل مسُّ الضّرِّ والضَّرّاء والبأساء، والسّوء، والشّرِّ، والعذابِ، والقَرح، واللّغوب، والشّيطان، وطائفُهُ.

ولم يُذْكَر فيه مسُّ الخيرِ والنَّفع إلّا في مواضِعَ قليلةٍ جدًّا، مِنْهَا: قوله هنا ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.

مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾؛ فقد ذُكِر الخيرُ هنا في مقابلةِ الشَّرِّ، ولكنَّ المقامَ مقامُ منعِ الخيرِ لا فِعلُه[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾، ﴿ٱلْخَيْرُ﴾:

وجوبُ الصَّبْرِ عِنْدَ البلاءِ، والشُّكْرِ عند الرّخاءِ

(أل) في ﴿ٱلشَّرُّ﴾، و ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ لتعريف الجِنْسِ، ويحتَمِلُ أن يكون للعهد الذِّهْنيِّ - بمعناهُ عِنْدَ البلاغيّين -، فيكون في قوّة النَّكرةِ، والمعنى: إذا مسَّهُ شرٌّ، وإذا مسَّهُ خيرٌ. وفي ذلك دلالةٌ على ضعف هذا الإنسانِ، كما أنَّها تدلُّ على تمرُّده وضعفِهِ؛ إذ يعتريهِ الهَلَعُ بمُطْلَقِ الخَيْرِ والشَّرِّ، فما الظَّنُّ بعظيمِهما؟ فإنَّ حالَهُ معهما حينئذٍ تحْمِلُه على أشدّ الجزع، وعلى أشدِّ المنع، بخلاف المؤمن فإنه متخلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: 23]، وبما وردَ في قول النَّبيِّ ﷺ: "إنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا لَهُ"[2].

والمرادُ من ﴿ٱلشَّرُّ﴾ و﴿ٱلْخَيْرُ﴾: "الفقرُ والغِنى، أو المرضُ والصِّحة، فالمعنى: أنَّه إذا صار فقيرا أو مريضًا؛ أخذ في الجَزَعِ والشِّكاية، وإذا صار غنيًّا أو صحيحًا؛ أخَذَ في مَنْعِ المَعْروفِ وشحَّ بمالِهِ ولَم يَلْتَفِتْ إلى النّاس، وكان من الواجبِ عليه أن يكونَ مَشْغولًا بأحوالِ الآخرة، فإذا وقَعَ في مَرَضٍ أو فَقْرٍ وعَلِمَ أنَّه فِعل الله تعالى كان راضيًا به؛ لِعلمه أنَّ الله تعالى يفعَلُ ما يشاء ويَحْكُم ما يريد، وإذا وجَدَ المالَ والصِّحَّة صَرفهما إلى طلَبِ السَّعادات الأخرويَّة[3].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾:

استيعابُ أحوالِ الإنسانِ من الخير والشَّرِّ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملةِ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، وبها تفصيلُ الحالِ

(1) رضا، تفسير المنار: 9/ 453.
(2) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (2999).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 644.

الأخرى لهذا الإنسانِ؛ حيث إنَّ الإنسانَ من حيث الأصلُ يدورُ بينَ حالين: مسِّ الشَّرِّ، وتوفُّر الخير، وهُما متغايران جدًّا، بل متضادّان تضادًا كاملًا. وبين الجملتينِ توسطٌ بينَ الكمالَين؛ لاتِّحادهما في الخبريَّةِ، ولما بينَهما مِنَ التَّناسُبِ في اللَّفظِ والمعنى؛ فأمّا التَّناسُبُ اللَّفظيُّ فاشتراكُهما في التَّقييد بالظَّرفِ (إذا)، واتِّحاد المسنَدِ فيهما وهو فعلُ (المسِّ)، وما بينَ ﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ من الجناسِ اللّاحِقِ. وأمّا التَّناسُب المعنويُّ؛ فلما بينَهُما من التَّضادِّ، وهو بذلك يجمَعُ أحوالَ الإنسانِ كُلَّها.

دلالةُ ذِكرِ الهلَعِ والجزَعِ بَعْدَ مَذمّة الجمع والإيعاء:

ذِكْرُ علَّةِ الجَمْعِ والإيعاء

ذُكر الهَلَعُ جزعًا ومنعًا بعد ذكر مذمَّة الجمعِ والإيعاء؛ للإيماء إلى علَّة ذلكَ؛ فإنَّ الجزعَ يولِّدُ حُبَّ الجَمْعِ والتَّحفّظِ والادِّخارِ خشيةَ الفقر، والمنعَ يولِّدُ الشُّحَّ وحبَّ المال، فيُسرعُ إلى جَمْعِه وإيعائه دون إنفاقه في سبيل اللّهِ.

بلاغَةُ المُقابلة بين جملتي: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ و ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾:

مِن لطيفِ المقابلة القرآنيَّة الجمعُ بين المعنى وثمرَةِ مقابِله

في الجمع بين مسّ الشَّرِّ والجَزَعِ، ومسِّ الخَيْرِ والمنْع: مقابلةٌ بديعَةٌ؛ حيثُ تُجلّي بُعدَ ما بين حالَيِ الإنسان مِنَ الشَّرِّ والخير، بإزاءِ قُربِ ما بين أخلاقهِ مِن سوءِ الطِّباع، وتضافُرِ مظاهر الاختلال.

ومن بديع تلك المقابلة وبراعتِها الجمعُ بين (الجزَع) في حال (مسّ الشَّرّ) إيّاه، و(المنع) في حالِ (مسّ الخير) إيّاه، فقوبِل بين المعنى (الجَزَع) وثمرَةِ مقابِله (المنع)، وذلك من لطيفِ المقابلة.

دلالة المَنْعِ في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾:

إمساكُ حقِّ الله تعالى موجِبٌ للمَذَمَّة

منعُ الخَير في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ يعني: حَجْبَهُ وإمْساكَه[1]، فـ "إذا كثُر مالُه ونال الغِنى؛ فهو مَنوعٌ لِما في

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (منع).

يدِه بخيلٌ به، لا يُنفِقُه في طاعةِ اللّهِ تعالى، ولا يُؤَدّي حقَّ اللّهِ تعالى منه"[1].

وصوغُ (منوع) على زِنَةِ (فعول) في قوله تعالى: ﴿مَنُوعًا﴾؛ دليلٌ على بلوغِ هذا الإنسانِ الهلوع في الحِرْصِ والإمساك مبلغًا متناهيًا في الشِّدَّةِ.

بلاغَةُ الفواصل في قوله: ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿جَزُوعًا﴾، ﴿مَنُوعًا﴾:

التَّـناسُبُ الصّوتيُّ في القرآن الكريم يتَّسق مع المعاني المبثوثةِ ويعْضُدُها

توافقُ الفَواصل القرآنيَّة في الجُمَلِ الثَّلاث ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ يُحقِّق لها في الأسماعِ وقْعًا مُتَناغمًا مع وقْعِ معانيها في القُلوب؛ إذْ إنَّ تكريرَ المَدِّ بالواو، المتبوع بالعَيْنِ المشبَعة الفتح في الفواصلِ الثَّلاث: ﴿هَلُوعًا﴾، ﴿جَزُوعًا﴾، ﴿مَنُوعًا﴾؛ يَحكي تبدّل حالِ ذلك الإنسان تبدُّلًا متباينَ الأطوارِ قبل تبدُّلِ حركَةِ النُّطق بين الضّمِّ الممدود إلى العين المفتوحة فتحًا مشبعًا يتجلّى فيه تقعُّر صوت العَيْنِ الآتي من وسَطِ الحَلْقِ في تناغُمٍ لافِتٍ، تصويرًا لمعاناة نفس الإنسانِ الهَلِعِ الجَزِعِ المنوع.

ومن عجيب خصائص التَّركيب هنا اصطفاءُ مُفْرَدَة الهلَعِ التي لم تَرِد في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع، فهيَ مِن فرائدِه. وكذا صَوْغُها على زِنَةِ (فعول)، ومثلُ ذلك لفظتا: ﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ لم تردا بهذه الصّيغَةِ إلّا في هذا الموضع، بل إن مفردة الجزَعِ لَم تَرِد في غير هذه السّورةِ إلّا في قوله تعالى حكايةً عن الكفّار يوم القيامة أنّهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم: 21].

فخصائِصُ الإيقاع الصّوتيِّ في القرآن الكريم تتَّسق مع المعاني المبثوثة، وتَعْضُدُها في تحقيقِ الأغراض المقصودةِ.

---

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.

مُسارعَةُ الإنسانِ بِطَبْعِه إلى الجَزَعِ لأدنى شرٍّ وإلى المَنْعِ لأدنى خَيْرٍ

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾، ﴿مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾:

في إسنادِ المسِّ إلى كلٍّ مِن الشّرّ والخيْرِ مجازٌ عقليٌّ؛ إذ الشَّرُّ والخيرُ يوقَعان على الإنسانِ، ولا يَقعان عليه مِن تِلْقائِهما، لكنَّ النَّظم الكريم أسنَد فعلَ المَسِّ إلى كلٍّ منهما تقريرًا لحقيقَةِ صَلتِهما بالإنسانِ وأثَرهما فيه، وأنّها مسٌّ مجرَّدٌ، ومعَ ذلك فإنَّ الإنسانَ بطَبْعِهِ يُقابلُ مسَّ الشَّرِّ بالجزعِ ومسَّ الخيرِ بالمَنْعِ.

الهلَع والجزع والمَنْعُ تزولُ عَنِ المُؤْمِن بالمُعالجَةِ، أو تُستَر فلا تُرَى آثارُها

مَوْقِعُ ﴿هَلُوعًا﴾، و﴿جَزُوعًا﴾، و﴿مَنُوعًا﴾ من التَّركيب:

الأوصافُ الثَّلاثة أحوالٌ، وهي أحوالٌ مقدَّرَة إن أُريد اتِّصافُ الإنسانِ بذلك بالفِعْلِ؛ فإنَّه في حالِ الخَلْق لم يكُن كذلك، وإنَّما حصَل له ذلك بعدَ تمام عَقْلِه ودُخولِه تحتَ التَّكليف. وأحوالٌ محققَّة إن أُريد اتِّصافُه بمَبْدَأ هذه الأمورِ الجِبِلّيَّة والطَّبائع الكلّيَّة المندرِجَة فيها تلك الصِّفات بالقوّة. ولا مانِعَ عندَ أهلِ الحَقِّ مِن خَلْقِه تعالى الإنسانَ وطَبْعِه سبحانه إيّاه على ذلك.

وفي زوالِها خلافٌ، فقال بعضُ أهل العِلْم: إنَّها تَزول بالمُعالجَة، ولولاهُ لَم يكن للمَنْعِ منها والنَّهي عنها فائدة، وهيَ ليسَت مِن لوازم الماهيَّة، فاللهُ تعالى كما خلقَها؛ يُزيلها. وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّها لا تزولُ، وإنَّما تُستَر ويُمنَع المرءُ عَن آثارها الظّاهرة، حتّى قيل: الطَّبْع في الإنسانِ لا يتغيَّر. وهذا الخلافُ جارٍ في جميع الأمور الطَّبيعيَّة، وقال بعضُ العلماء: الأمورُ التّابعةُ منها لِأصْل المِزاج لا تتَغيَّر، والتّابعة لِعَرَضه قد تتَغيَّر(1).

والتَّقدير على ذلكَ: هَلوعًا حالَ كونِه جَزوعًا وقْتَ مَسِّ الشَّرِّ، ومنوعًا وقْتَ مَسِّ الخير. أو أنَّ ﴿جَزُوعًا﴾، و﴿مَنُوعًا﴾ خبران لـ (كانَ) مضمرَةً؛ أي: إذا مسّه الشَّرُّ كان جزوعًا، وإذا مسَّه الخيرُ كان مَنوعًا(2).

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.

(2) الحلبي، الدر المصون: 10/ 459.

دلالَةُ التّتميم بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾:

جاء قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ تذييلًا لجملة ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾؛ تنبيهًا على خَصْلَةٍ تُخامِر نُفوس البشَرِ فتَحمِلهم على الحِرص لنَيْلِ النّافع، وعلى الاحتفاظ به خشية نفادِه؛ لِما فيهم مِن خُلُق الهَلَع. وهذا تذييلُ لوْم، وليس في مساقه عُذرٌ لِمَن جمع فأوعى. والمقصودُ مِنَ التّذييل هو قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ وأمّا قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ فتمهيدٌ وتتميمٌ لحالَيْه[1].

الـحِـرْصُ على نَـيـلِ الـنّـافـع والاحـتـفـاظ به خشيةَ نَفادِه مِنْ طَبائِع البَشَر

نُكْتَةُ تَكرارِ (إذا) في قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ﴾:

ومِن لطيف التَّركيب في قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ إيثار النَّظم الكريم تكرارَ القَيْدِ بـ (إذا)، وذلك للإيحاء بأنَّ مسّ الشَّرّ والخير إيّاه أمرٌ مقطوعٌ به؛ إذ إنَّ (إذا) تدلُّ في أصلِ وضعِها على القَطْعِ والجزم بوقوع مدخولِها. والقَطْعُ بمسِّ الخيرِ والشَّرِّ للإنسانِ واقعٌ لكونِه في دار ابتلاءٍ، واللّه تعالى يقول ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]، فما دام الإنسانُ في الدُّنيا؛ لا بُدَّ أن يتقلَّب بين الحالَيْن، وعليه أن يُقابِلَ الأوَّل بالصَّبر، والآخَر بالشُّكر، وإلّا فاتَهُ التَّوفيقُ، وحُرِم عظيمَ الأجر.

الدُّنيا دار ابتلاءٍ، والإنسانُ يَتَقَلَّب فيها بين الخير والشَّرِّ

دلالةُ ﴿إِلَّا﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ للاستثناءِ المُنْقَطِع؛ فهي بمعنى (لكنْ)، وإنَّما كان منقطعًا لأنّ المصلّين الموصوفينَ بما ذُكِرَ ليسوا مِن جنس ذلكَ الإنسانِ المخصوصِ المستثنَى منه؛ إذ ليسوا من جنس مَن سأل عن العذاب سؤالَ استهزاء، ولا مِن جنسِ مَنْ إذا مسَّهُ الشّرُّ جزِعَ وإذا مسَّهُ الخيرَ مَنَعَ. أو أنَّ "هذا المعنى - أي: الهلعَ والجزع - فيهم يَقِلُّ؛ لأنَّهم يُجاهدون بالتَّقوى"[2].

مجاهَدَةُ النَّفْسِ بالتَّقوى تُقَلِّل هَلَعَها جَزَعًا ومَنْعًا، وتستُرُ آثارَ ذلكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 166.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 368.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ "استثناءٌ للموصوفين بالصِّفات المذكورة بعدُ من المَطْبوعينَ على الأحوالِ المذكورة قبلُ؛ لمضادَّة تلك الصِّفات لها؛ مِن حيثُ إنَّها دالَّة على الاستغراقِ في طاعةِ الحقِّ تعالى، والإشفاق على الخَلْق، والإيمان بالجزاء، والخوف من العقوبَة، وكَسْر الشَّهوة، وإيثار الآجلِ على العاجل، وتلك ناشئةٌ من الانهماكِ في حُبّ العاجل، وقصورِ النَّظر عليها"[1].

ويجوزُ أن يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ متَّصِلًا؛ "على أنَّهم لم يَسْتَمِرَّ خَلْقُهم على الهَلَع؛ فإنَّ الأوَّل لمّا كان تعليلًا كان معناهُ خَلقا مستمرًّا على الهلَعِ والجزَع ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾؛ فإنَّهم لم يستمِرَّ خَلقُهم على ذلك؛ فلا يَرِدُ أنَّ الهلع الّذي في المَهْدِ لَو كان مُرادا لَما صحَّ استثناءُ المُصَلّين؛ لأنَّهم كغيرهم في حالِ الطّفوليَّة"[2].

وعلى ذلك "تكونُ الآياتُ المذكورة فيها أوصافُ المؤمنين المرتَّبُ عليها الثَّواب، مقابلةً لِما ذُكر من أوصافِ الكافرين المستحَقّ بها العقاب؛ وهو قوله: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، بدليل خَتم الآيات بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، ويكون قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ إلى آخره؛ تعليلًا لقولِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾"[3].

وفي هذا الاستثناءِ إيماءٌ إلى أنَّ "النّاس جميعًا قَد جُبِلوا على الجزَعِ عندَ الضّرّاء، وعلى المَنْعِ عندَ السّرّاء إلّا المُصَلّين منهم"[4]، وأنَّهم "ليسوا على تلكَ الصِّفات مِنَ الهلَعِ والجَزعِ والمَنْعِ، وأنَّهم على صفاتٍ مَحْمودَةٍ وخِلال مَرْضيَّة؛ لأنَّ إيمانَهُم وما تَمَسَّكوا به مِنَ التَّوحيد ودينِ الحَقِّ يَزْجُرُهُم عنِ الاتِّصاف بتلك الصِّفات، ويَحْمِلُهُم على الاتِّصاف بصفات الخير"[5].

نُكْتَةُ اخْتِصاصِ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ بالذِّكر من بين صفاتِ المؤْمنين:

اختصّ النَّظْمُ الكريمُ المُصَلّين من بينِ صِفات المُؤمنين بالذِّكر؛ "لأنَّ المُصَلّين يقومونَ برياضَةِ أنفُسِهم حتّى يَصْرِفوها عن خِلْقَتِها الّتي أُنْشِئَت عليها، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ الّذين يقومونَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 246.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 21.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 100.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 350.

المُصَلّون أجْدَرُ النّاس قيامًا على رياضَةِ أنْفُسِهم

برياضَةِ أنفُسِهم هُم الّذين يقومون على صَلواتِهم دون الّذين يَقومونَ إلى الصَّلاة كُسالى ولا يَدومونَ عليها، ولا يُنْفِقون مِن أموالهم إلّا عَن كراهَة"[1].

والاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ يعني أنَّهم المَوْصوفون بتِلْكَ الأوصافِ؛ فإنَّهم إذا مَسَّهم الخيرُ شَكَروا اللّه، وأنْفَقوا ممّا خَوَّلَهُم اللّه، وإذا مَسَّهم الشَّرّ صَبَروا واحْتَسَبوا[2].

لطيفَةُ التَّعبير عن (المؤْمنين) بـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾:

صـلاحُ الـصَّـلاة وقبولُها مناطُ صلاحِ الأعمالِ كلِّها وقبولِها

المعنى المباشر لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾: "إلّا الّذين يُطيعون اللّهَ تعالى بأداءِ ما افْتَرَض عليهم من الصَّلاة"[3]. أمّا المقصود بـ ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ فهم "المؤمنون، الّذين كانوا مع رسولِ اللّهِ ﷺ، وقيل: عُنيَ به كلُّ مَن صلَّى الخمسَ"[4].

وفي ذلك التَّعبيرِ تنبيهٌ إلى أهمّيَّة الصَّلاة، وتأكيدٌ على سُموِّ مكانتها في الإسلام. ولا يزالُ النَّظْمُ الكريم يلحّ على تأكيدِ تلك الأهمّيَّة، وتقرير سُموِّ تلك المنزلة بِخَتْم أوصاف المؤمنين بذِكْرِ الصَّلاة مرَّة أخرى، والإشادة بمحافظةِ المُصَلّين عَلَيْها.

وبين البَدْءِ بذِكْرِ الصَّلاة والخَتْم بها؛ يؤسِّس النَّظم الكريمُ لتعليقِ فلاح كلٍّ من العقيدةِ الصَّحيحة، وأنواعِ العباداتِ، وصُنوف المُعاملاتِ؛ على أهَمِّ ما في الإسلام وهي الصَّلاة، وينوطه بها؛ وذلك دليلُ تبوُّئها من الإسلام - بعد الشَّهادتين - موقعَ الصَّدارة؛ فالصَّلاة هي الّتي تُذكّر باللّهِ ﷻ، وتصلُ العبدَ بِرَبِّه تعالى، وتملأُ قلبَه خشيةً منه، وولاءً له[5]، وقد جاء في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ: "أوَّلُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 206.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1177.

ما يُحاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القيامَةِ يُحاسَبُ بِصَلاتِهِ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وأَنْجَح، وإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خابَ وخَسِرَ"[1].

دلالَةُ تَعْديدِ أحوالِ المؤمنين عَقِبَ أحوالِ الكافرين:

التَّرغيبُ في أحوالِ المؤمنين والتَّرهيب مِن أحوالِ الكافِرين

في تعديد أحوالِ المؤمنين الشَّريفة بعدَ تَعْديدِ أحوال الكافرينَ مِنَ الهلَعِ والجزَعِ ومَنْعِ الحقوقِ: تعريضٌ بحقارةِ سُلوك الكافرين، وبيانٌ لبُعد ما بين أحوالِ المؤمنين في تعاطيهم مع مواقِف الشِّدَّة والرَّخاء، وأحوال الكافرين وتعاطيهم معَ تلكَ المواقف. وفي ذلك ترغيبٌ في التّعلّق بأحوال المؤمنينَ وتزيينٌ لها، وترهيبٌ مِن التّعلّق بأحوال الكافرينَ وتقبيحٌ لها.

بلاغةُ الإطنابِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾:

تعديدُ فضائل المؤمنين دليلُ رضوانِ الرَّحمن، وتعديدُ قبائحِ الكافرينَ دليلُ غضبِ الجَبّار الديّان

في اطِّراد ذِكْرِ أحوالِ المؤمنينَ الشَّريفة، وتَعديدِ فَضائلِهم إطنابٌ يتضمَّن الثَّناء عليهم ومَدْحَهُم؛ لأنَّ مقام المدحِ والثَّناء يقتضي الإطناب، وبسْطَ الكلام بتَعْديدِ الفضائلِ.

وما أطْيَبَ الثَّناء وما أعلى المَدْحَ، وما أَسْعَدَ المَمْدوحينَ إذا كان المادحُ الملكَ الأعلى ﷻ! وما أقسى المَذَمّة، وما أَحَطَّ المذمومين إذا كان الذّامّ لهم الملكَ الأعلى ﷻ.

ولا شكّ أنَّ تعديد فضائل المؤمنين دليلُ الرِّضوان الرّحمانيّ المأمول، وتعديدَ مذامّ الكافرين دليلُ الغضَبِ الإلهيِّ المحذور.

عِلَّة تكرار الموصولِ في الجُمَل: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ **إلى آخره:**

انفرادُ المؤمنين بهذهِ الصِّفاتِ إمّا أصلًا وإمّا كمالًا

في بناء أوصافِ المُصَلّين على تقديم ذِكْرِ المَوْصول (الّذين) بينَ يَدَيِ الصِّلات: تهيئةٌ عظيمةٌ، وإرهاصٌ جميل، يبشِّر بعاقِبَتِهم الشَّريفة المذكورة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾.

(1) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (413)، والنسائي في سننه الصغرى، برقم: (465)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (892).

وفي إعادَةِ الاسْمِ الموصول مع الجُمَلِ المعطوفة مزيدُ عنايَةٍ بأصحابِ تلك الصِّلاتِ[1]. وكلُّ موصولٍ مِن هذه الموصولاتِ هو في ذاتِهِ عُنْصُر تشويقٍ إلى الوقوف على صِلَتِه، ثُمَّ إنَّ تتابُعَها مع صلاتِها عنصرُ تشويقٍ أيضًا، مع ما فيه من تهيئةٍ وإيماءٍ إلى وجْهِ بناءِ الكلام، الّذي طالَت تفاصيلُ مَوْصولاتِه وتَعَلُّقاته، في تلاحُق بديعٍ إلى أن بلغ الكلامُ غاية مأمولِ المؤمنين ﴿فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

وفي تعديدِ تِلْكَ الصِّفات "تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ صِلَةٍ مِن هذهِ الصِّلات الثَّمان هي مِن أسباب الكَوْنِ في الجَنّات. وهذه الصِّفات لا يُشارِكُهُم المُشْرِكون في مُعْظَمِها بالمرَّة، وبعضُها قد يتَّصف به المشركون ولكنَّهم لا يراعونه حقَّ مُراعاتِه باطِّراد، وذلك حِفْظُ الأمانات والعَهْدِ، فالمُشْرِك يَحْفَظُ الأمانةَ والعهد اتِّقاءَ مذمَّة الخيانةِ والغَدْر، ومع أحلافِه دونَ أعدائه، والمُشْرِكُ يَشْهَدُ بالصِّدق إذا لَم يكن له هوًى في الكذبِ، وإذا خَشيَ أن يوصَم بالكذب، وقد غَدَرَ المشركون بالمُسْلمين في عِدَّة حوادثَ، وغدر بعضُهم بعضًا، فلو علِم المُشْرِك أنَّه لا يُطَّلَع على كذبِهِ وكان له هوًى؛ لَم يؤدِّ الشَّهادة"[2].

نُكْتَةُ بناءِ جُمَلِ الصِّلَةِ على تقديمِ الضَّمير ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾:

في بناء جُمل الصِّلةِ على تقديم الضَّمير ﴿هُمْ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾، وقوله: ﴿هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾، وقوله: ﴿هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ﴾، وقوله: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾ إشادَةٌ بالمؤمنينَ وبكلِّ فضيلةٍ مِن فضائلِهم على سبيلِ الاستقلال.

الإشادَةُ بالمُؤْمنينَ وبكُلِّ خَصْلَةٍ مِن خِصالِهِم على وجْهِ الاستقلالِ

مَعْنى ﴿عَلَىٰ﴾ في القَيْدِ ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ للاستعلاءِ

الصَّلاة معراجٌ يَرْقى بالرّوح في مدارجِ الكَمال

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 171.

المجازيِّ؛ فيوحي بِعلُوّ رُتْبَتِهم بصلاتهم، وأنَّ صلاتهمْ معراجٌ يَرقى بأرواحِهِم في مَدارِجِ الكَمال، ويَسْمو بها في معارجِ الرِّضوان، وذلك في مُقابِلِ انحطاط الهَلوع الجَزوع المَنوع.

دلالَةُ التَّعبير بالصَّلاة، ولطيفةُ تَقْديمها وإضافَتِها إليهم في ﴿صَلَاتِهِمْ﴾:

لِصَلاة المُسْلِمين سِماتٌ ومَظاهِرُ تخصُّها، وبها يُعْرَفون

الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ هي الصَّلاةُ المكتوبةُ[1]، والصَّلاة صِلَةٌ بين العبدِ وربِّه ﷻ، وهي العبادةُ الّتي تنهى عن الفحشاء والمنكرِ، وهي العبادَةُ الّتي إنْ صَلُحَتْ صَلُحَ سائِرُ عَمَله، وإنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سائرُ عَمَله؛ لذلك بها بدَأ النَّظْمُ الكريم تعديدَ صفاتِ المؤمنين وبِها خَتَمَها.

وإضافَةُ الصَّلاة إلى ضميرِ المؤمنينَ إضافةُ اختصاصٍ وتشريف، فالصَّلاة بهذه الصّورة - مِن حيثُ التَّوجُّهُ إلى القِبْلَة، والانقطاع عن الدُّنيا، والامتناع عنِ الأكلِ والشُّرب والكلام والالتِفات وكثرةِ الحركاتِ - سِمَةٌ تتَّسم بها صلاة المسلمين، وبها صارت صلاتُهم علامَةً تميِّزُهم بين الأمم.

وكذلك إضافةُ الصَّلاة إلى ضمير المُصَلّين في قوله تعالى: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ - في آخر ذِكر الصِّفات - تنويهٌ بفضائل المُصَلّين بعد تنويهٍ، وتشريفٌ لهم بعد تشريفٍ، وإشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاة صارت سمتًا لهم، ورمزًا تُعْرَف بهم ويُعْرَفون بها، وتختَصُّ بهم، ويَخْتَصّون بها، فلا يشاركهم في المحافظة عليها غيرُهم.

دلالَةُ التَّعبير بالدّيمومَةِ في قوله: ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾:

دوام المؤمنين على الصَّلاة كمًّا وكيفا؛ أهّلَهم لثناءِ الله تعالى عَلَيْهِم

في الإخبارِ عَنِ المُؤْمِنين في جُمْلَة الصِّلة - ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ - بالدَّيمومَةِ على الصَّلاة إشادةٌ بثباتهم على صِلتِهم بالخالقِ العظيمِ ﷻ، وثباتهم على المبادئ السّامية بطريق اللّزوم؛

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 268.

فإنَّ الصَّلاة المتكرِّرة في اليوم واللَّيلة فروضًا ونوافلَ تحرسُ صاحبَها من الاختلال العقديِّ والأخلاقيِّ.

وقد تعدَّدت آراءُ العلماءِ في المقصودِ بفِعْلِ الدّوام في الخبر ﴿دَآئِمُونَ﴾، ولكلٍّ منها معتبَرٌ في الشَّريعة، ومن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: "مقيمونَ، لا يُضَيِّعون منها شيئًا"[1]، كما قال ﷻ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ٣٧﴾ [النّور: 37]، و"فيه إشارة إلى فضلِ المُداومة على العبادةِ"[2].

ومن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: "إذا صلَّوا لم يَلْتَفِتوا خلفَهم، ولا عن أيمانِهم، ولا عن شمائِلِهم"[3].

ومن ذلك: أن قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ يعني: المحافظَةَ على القَدْرِ المُعْتاد مِن الصَّلاة، فعن رسولَ اللّهِ ﷺ قال: "خُذوا من العملِ ما تُطيقون؛ فإنّ اللّهَ لا يَمَلُّ حتى تَمَلّوا". قالت عائشة: وكان أحبَّ الأعمالِ إلى رسول اللّه ﷺ ما دووِمَ عليه[4].

ومِن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآئِمُونَ﴾ أي: أنَّهم يقيمونها في أوقاتها، ويحافظون عليها دون أن يكون دوامُهُم فيها أبدا؛ لقوله ﷺ أنَّه قال: "أحبُّ الأعمال إلى اللّه أدومها وإن قلَّ"[5]، وأراد بقوله: "أدومها": لزومَها في الوقت الّذي أوجبوا فِعْلَ ذلك على أنفُسِهم، لا أن يكونوا أبدًا فيها؛ لأنَّهم إذا بقَوا فيها أبدًا؛ كَثُرَ ذلكَ منهم، فلا يكون لقوله: "وإن قلَّ" معنًى، فثبت أنَّ معنى الدَّوام ما تقدَّمَ.

وجائز أن يكون المراد من المُداومة هو أن يدومَ على الأحوال التي تليقُ بالصَّلاة عند كونه فيها من الإقبالِ على المناجاة، وتركِ الالتفاتِ، وتفريغِ القلب عن الأشغال والوساوس[6]. فتُشْعِرُ الآية بذَمِّ الالتفات في الصَّلاة، وقد نطقت الأخبارُ بذلك[7].

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 267.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 70.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 269.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 269، والحديث رواه البخاري في صحيحه، برقم: (6464)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2818).
(5) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (43)، ومسلم في صحيحه، برقم: (782).
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 206.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.

ومن ذلك: أنَّ قوله: ﴿دَآيِمُونَ﴾ يعني: "أنَّهم يحافظون على مواقيتِ الفَرْضِ منها، ويُكْثِرون فعلَ التَّطوّع منها"[1].

دلالَةُ التَّعبير بالخبَرِ اسْمًا في جملة الصِّلة ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآيِمُونَ﴾:

عُبِّر بالخبر اسْمًا في جملة الصِّلة ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآيِمُونَ﴾ دون (يَدومون) "لقَصْدِ إفادَتِها الثَّباتَ؛ تقويةً كَمُفادِ الدّوام"[2] مادَّةً لغويَّةً؛ أي: أنَّ دلالة المادَّة اللُّغويَّة لاسم الفاعل ﴿دَآيِمُونَ﴾ - وهي الدّوام - تتَّسق معها وتَدْعَمُها الصّيغة الصَّرفيَّة - وهي صيغةُ فاعِلٍ -، فترْتَقي درجةُ البلاغةِ في التَّركيب؛ إذْ إنَّهما يَتآزران على تقرير المَعْنى المَقْصود، وتحقيقِ الغرضِ المَنْشودِ.

التقاءُ دلالةِ الصّيغة الصّرفية ودلالةِ المادَّة اللُّغويَّة دعمًا للغرَضِ، ورفعًا لدرَجَةِ البلاغَةِ

تَوْجيهُ المُتشابِهِ في آيتَي الصَّلاة ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآيِمُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾:

أجاب الزَّمخشريُّ عَن وجهِ التَّشابه الواقع في آيتَي الصَّلاة في هذا السّياق: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآيِمُونَ﴾، ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، فقال: "معنى دوامِهم عليها أنْ يواظبوا على أدائها، لا يُخِلّون بها ولا يشتغلون عنها بشيءٍ مِنَ الشّواغل، كما رويَ عن النَّبيِّ ﷺ: "أفضل العمل أدومه وإن قلّ"، وقول عائشةَ: "كان عملُه ديمةً". ومُحافظتِهم عليها: أن يُراعوا إسباغَ الوُضوء لها ومواقيتَها ويُقيموا أركانَها ويُكمِلوها بسُنَنِها وآدابِها، ويحفظوها من الإحباط باقْتِراف المآثِم، فالدّوام يرجِعُ إلى أنفُسِ الصَّلوات، والمحافظةُ إلى أحوالِها"[3].

المتشابِهُ القُرآنيُّ يوفّي المَقاماتِ حقَّها، ويُحَقِّق تكاملَ المَعاني

دلالَةُ تَقْديمِ الصَّلاة على الزَّكاة:

في تقديم الصَّلاة على الزَّكاة "إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاة هي الّتي تَخْلُق في الإنسان العواطفَ والمشاعرَ التي تدعو إلى الرَّحمة،

الصَّلاة والزَّكاة علاجٌ لِما في جِبلّة الإنسانِ مِنَ الهَلَع والجُبْن

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 95.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 612.

والعطفِ، والإحسانِ، فالزَّكاة ثمرَةٌ مِن ثمراتِ الصَّلاة، والثَّمرة فرعٌ مِن أصلٍ؛ هو الشَّجرة"[1].

وفائِدَةُ إقامَةِ هَذينِ الرُّكنين أنَّ الصَّلاة والزَّكاة علاجٌ لِما في جِبِلَّة الإنسانِ مِنَ الهَلَع والجُبْن الحاجم لَهُ عَن الإقدام في الدِّفاع عن الحقِّ وإعلاء كلمةِ اللّه، ومِنَ الشّحّ الصّادِّ له عنِ الإنفاقِ في سبيلِ اللّه، ولذلك كانَ المُنافِقون أجبنَ النّاس وأبْخَلَهُم[2].

معنى (الواو):

(الواوات) بين الجُمَلِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ﴾ إلى آخره عاطفةٌ لتِلْكَ الأوصافِ جامعَةٌ لِشمائلِ المصلّين، مشيدةٌ باجْتِماعِ تلك الأخلاقِ فيهم.

المؤمنون في كلِّ صلاتِهم على المُسْتَوى الأسْمى، ممّا يُحقِّق لَهُم السُّموَّ النَّفْسيّ

والعطفُ بالواوِ مُؤذِنٌ بتَغايُر مَضامينِ مَعْطوفاتِها، مِن حيثُ صلةُ المؤمنين بربِّهم سبحانه، وصلتُهُم بمُجْتَمَعِهم، وصلتُهم بأنفُسِهم، وأنَّهم في كلِّ ذلك على المُسْتَوى الأسمى، ممّا يحقِّق لهم السّموّ النَّفسيّ، ويَجْعَلهم مباركين في أنفُسِهم، مباركينَ في مُجْتَمعِهم، مؤهَّلين لدار السَّلام وهي الجنَّةُ.

وفي (الواو) الأولى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ "إشارةٌ إلى أنَّهما من باب واحدٍ، في باب الإيمان والإحسانِ"[3].

نكتَةُ تَقْديمِ القيود ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ و﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

التَّنبيه إلى أهمّيَّة القيودِ في حياةِ المُصَلّين

قُدِّمت القيودُ في جُمَلِ الصِّلة: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ و﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ إلى آخره؛ تنويهًا بتلك القيودِ والمُتَعلّقات في مواضعِها، وتنبيهًا إلى أهمّيّتها في حياةِ المُصلّين، وبيانًا لدورِها في تكميل جوانبِ الإسلام، وتتميمِ شرائط الإيمانِ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1178.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/ 468.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1178.

بل إنَّ القيودَ هي مناطُ الفائدة في سياقاتِها، كما قرَّره عبدُ القاهِر حيثُ يقول: "ما مِنْ كلامٍ كانَ فيه أمرٌ زائدٌ على مجرَّدِ إثباتِ المعنى للشَّيء؛ إلّا كان الغرضَ الخاصَّ من الكلام، والّذي يُقْصَد إليه ويزْجى القولُ فيه"(1).

وتلك العبارة فذّة في بابها؛ إذ لا مفهومَ للعِبارة: (والّذين هم دائمون) دونَ قيدِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ﴾، ولا معنى للعبارةِ: (والّذين حقٌّ معلوم) دون المُتَعَلّق ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، وهكذا.

فإذا أُضيفَ إلى عطاءِ تلك القُيود عطاءُ تقديمها على متعلَّقاتها برع الأسلوبُ، وتجلّت المقاصدُ الشَّرعيَّة من خلال اللَّطائف البلاغيَّة، فسبحانَ مَن هَذا كلامُه!.

لطيفةُ تَرْتيبِ صِفات ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾:

فـضـائـل المُسْلِمين تتوالَدُ وشـمـائـلُـهُـم تـتـعـدّد في اتِّساقٍ يجعلهم متـفـرِّدين بين أُمَمِ الأرضِ

جاء ترتيبُ صفاتِ المؤمنين في الأسماء الموصولة وصلاتِها مُتَوالدًا بعضُها من بعض، مراعيًا رُتبةَ كُلٍّ منها في ضَبْطِ حياةِ المصلّين، فرُتبة الصَّلاة مقدَّمة، وأهمّيَّتُها في بناء عقيدة المُصَلّين معلومةٌ، وكذا في تنقيح أخلاقِهم، وبها يجودُ المُسْلِمُ بالزَّكاة راضيةً بها نفسُه فيتعدّى خيرُه إلى غيرِه.

وهنا تأتي رُتبةُ الزَّكاة، وأثرُها يتمثَّل في تطهير مالِ المسلم المزكّي من جهةٍ، كما قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103]، وفي إصلاح أحوال الفقراء والمستحقّين من جهةٍ أخرى. وهكذا تتسلسَلُ الفضائلُ وتتوالد الشَّمائل في تكامُلٍ واتِّساقٍ يَجْعَلُ المصلّين متفرِّدين بين أُمَمِ الأرض.

دلالة التَّعبير بالحَقّ، ونُكْتَةُ تنكيرِه في قوله: ﴿حَقٌّ﴾:

في التَّعبير بلفظِ ﴿حَقٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 280.

دلالةٌ على وجوبه، وأنَّه يَلْزَمُهُم إخراجهُ[1]، ويَرَوْنَه حقًّا لا يترخّصون في اقْتِطاعِه مِن أموالهم لصالح الفُقَراء والمُحْتاجينَ، وبذلك تتحقَّق تزكيةُ النُّفوس، ويُطرد عنها الجشَعُ والشُّحّ.

المــؤمــنــون يجعلون الفقراءَ بمنزلةِ الشُّركاء في أمـوالـهـمْ شفقةً وحنانًا، فيخـصِّـصـون لهم مِنْها حقًّا

وفي "تسمية ما يُعْطونه من أموالهم من الصّدقات باسم ﴿حَقٌّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم جعلوا السّائل والمحرومَ كالشُّركاء لهم في أموالهم مِن فَرْطِ رَغْبَتِهم في مواساةِ إخْوانِهم؛ إذْ لَم تكُن الصَّدقَةُ يومئذٍ واجبَةً، ولم تكُن الزَّكاة قد فُرِضَت"[2].

و"يدخل في هذا الحقِّ المعلوم دُخولًا أوَّليًّا ما فرضَهُ سُبْحانَهُ عليهِم مِن زكاةِ أموالِهم. قالوا: ولا يمنع ذلك من أن تكون السّورة مكّيَّة، فقد يكون أصلُ مشروعيَّة الزَّكاة بمكَّة، ثُمّ أتى تفصيلُ أحكامِها بالمدينةِ عَن طريق السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة"[3].

و"هذه الصِّفَةُ للمُؤْمنين مضادَّةٌ لِصفة الكافرين المتقدِّمة في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾"[4].

نكتةُ تقييد ﴿حَقٌّ﴾ بالوصفِ ﴿مَّعۡلُومٌ﴾:

في مال المُسْلِم حـقّـان الـزَّكـاة الـمـفـروضـة، وصدقةٌ يوظِّفُها عـلى نـفـسـه للمحتاجينَ

في تقييد الحقِّ بالوصف - ﴿مَّعۡلُومٌ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾ تقريرٌ للزَّكاة المفروضة في مالِ القادرين من المُصَلّين؛ وذلك "لوصفهِ بكونه معلومًا، ولجَعْلِه قرينًا للصَّلاة"[5]؛ أي: أنَّهُ "حقٌّ مُؤَقَّتٌ هو الزَّكاةُ، أو حقٌّ سِوى الزَّكاة"[6]. ويؤكِّدُ هذا المعنى ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ١٩﴾ [الذّاريات: 19]؛ حيثُ ورد بلا قيدِ الوَصْفِ ﴿مَّعۡلُومٌ﴾؛ فكان حقّا آخرَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 101.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 350.
(6) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 269.

غير الزَّكاة المفروضة، وهذا الحقُّ "صدقةٌ يوَظِّفها الرَّجل على نفسه يُؤَدّيها في أوقاتٍ معلومةٍ"[1].

ومِن بديع معاني الوصفِ بِـ ﴿مَّعۡلُومٌ﴾ "أنَّه يَعلمه كلُّ واحدٍ منهم ويحسبونَهُ، ويَعْلَمُه السّائل والمحروم بما اعْتادَ مِنْهُم"[2].

دلالَةُ التَّعبير بجُملةِ الصِّلَة: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ اسميّةً:

خِصالُ الخير ثابتةٌ للمؤمنين ملازِمَةٌ لَهُم، لا تُعاوِدُهُم أضدادُها

في صَوْغِ جُملة الصِّلة ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ اسميَّةً إشارةٌ إلى ثباتِ المؤمنينَ على هذا النَّهج، والتزامِهم به على الدّوام وعدم تذبذُبهم فيه؛ كنايةً عَن قوَّة الإيمان وصدق اليقين. وليُفيد "ثباتَ هذه الخَصْلة فيهم، وتمكُّنها منهم؛ دفعًا لتَوَهُّم الشُّحّ في بعض الأحيانِ؛ لِما هو معروفٌ بينَ غالِبِ النّاس مِن معاودَةِ الشُّحِّ للنُّفوس"[3].

دلالةُ تَخْصيصِ الحقِّ المعلومِ بالسّائِلِ والمَحْرومِ:

السّائل رمزٌ لِمَنْ يعالِجُ مذَلّةَ السُّؤال، والمحروم رمزٌ للمتعفِّفِ مع حاجتِهِ

في تخصيص الحقِّ المعلوم بالسّائل والمحروم - مع أنَّه حقٌّ لثمانيةِ أصنافٍ من المُحْتاجينَ المَذْكورينَ في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التّوبة: 60] - رمزيَّةٌ لِصِنفَي المحتاجين، فالسّائل رمزٌ لَمَن يعالج مذَلّة السُّؤال، ويَتَحَمَّل إهراقَ ماءِ وجهه، والمحرومُ رمزٌ لمن يتعَفَّف على الرُّغم مِنْ حاجَتِه، فجمعتهم الآيةُ الكريمة جميعًا في قوله تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

و"الفقراءُ ثلاثةٌ: السّائل الّذي يَطوف ويسألُ النّاس، والمعترُّ الّذي يعترُّ النّاس، ويُظْهِر حاجتَه للنّاس، ويتعرَّض للسُّؤال ولا يسأل صريحًا، والمحرومُ الّذي يَسْتُر فقرَهُ وحاجتَه عن النّاس؛ لا يسألهم ولا يعترُّ لذلك"[4]، والسّائل يُمَثِّل النّوع الأوَّل، والمحرومُ يمثّل الآخَرَيْن.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 613.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 380.

معنى (أل) في (السّائل):

السّائل هو "الفقير الّذي يتكَفَّف فَيُعْطى"[1]، والمُسْتَجدي[2].

و(أل) في (السّائل) جنسيَّة تفيدُ الاستغراق؛ تَدُلُّ على أنَّ كلَّ سائلٍ يسألُ المُصَلّين يُعطونَهُ، ولا يَمْنَعونَه؛ كما روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: "لِلسّائِلِ حَقٌّ وإنْ جاءَ عَلَى فَرَسٍ"[3]. وليس من أخلاق المُصَلّين رَدُّ السّائل ما دام المَسْؤول يَمْلِكُ العَطاء.

و(أل) في (السّائل) يحتَمِلُ أن تكون عهديَّةً تُلمح إلى نوعٍ معيَّن من السّائلين؛ وهم السّائلون المحتاجون لا المتزيِّدون المستكثرون، ممَّن يتَّخذ المسألةَ حِرْفَةً، وقد حذّرهم الرَّسول ﷺ من مغبّة المسألةِ، فقال: "ما يَزالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النّاسَ، حَتَّى يَأْتيَ يَوْمَ القيامَةِ لَيْسَ في وجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ"[4].

المُحْسِنون يُعْطونَ كُلَّ سائل يسألُهُم بِغَضِّ النَّظَر عَن حالِهِ

دلالَةُ صَوْغِ (سائل) على اسْمِ الفاعل:

في صوغ لفظ (سائل) اسمَ فاعلٍ كنايَةٌ عَن كرَم أخلاقِ المُصَلّين المَسْؤولين؛ لِما في اسميَّةِ "السّائل" مِن دوام سُؤالِهِ وتَكْراره، بَل وحرصه عليهِ حَتّى يصيرَ السُّؤال دَيْدَنًا له معروفًا به، ومع ذلك لا يتضجَّر المسؤولُ مِن المُؤمنين أهل الصّلاة، بل يَظلّ يَهَشّ له ويبشّ، ويعطيه ما دام قادرًا على العطاء.

المُصَلّون لا يتَضَجَّرون مِن دوامِ سُؤال السّائلين، بَل يَرُدّون السّائل بالحُسْنى

وفي ذلك المنهجِ بيان خطأ مَن يَصُدّون النّاسَ عن العطاء بِحُجَّة أنّ المسألة صارت مِهنةً يَمتهنها السّائلون، بل عليهم أنْ يَرُدّوهم بالّتي هي أحسَنُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ﴾ [البقرة: 263].

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 746.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.
(3) رواه أبو داود في سننه، برقم: (1665)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير وزيادته، برقم: (4746).
(4) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (1474)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1040).

المصلّون ينوّعون جهاتِ العطاء، ويُعَدّدون أفرادَ المعطَيْنَ

معنى (الواو) في قوله ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ واو العطفِ، المفيدَةُ للمغايرةِ بينَ السّائل والمحروم، الجامعةُ بينَهُما في عطيَّة المؤمنين المُصَلّين.

وفي ذلك إشارةٌ إلى تنويعِ المُعطَيْن، وألّا يَقف المعطي عطيّتَهُ على أحدٍ بعينِه، بل يُنَوِّع جهاتِ العطاء، ويُعَدّد أفرادَ المعطَيْنَ.

وذلك يُربّي سماحة النَّفس، ويُرَسّخ فيها معانيَ الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: 265].

كلُّ محروم أهلٌ للعطاءِ

معنى (أل) في (المحروم):

المحروم هو الّذي يتعفَّف فلا يسألُ النّاسَ، فيُحرَم[1]، و"يحسبُهُ النّاسُ غنيًّا فيُحرَم الصّدقة"[2]. و(أل) في (المحروم) جنسيَّة استغراقيَّة؛ أي: أنّ المصلّين يُعْطونَ الحقَّ الّذي فرضَهُ اللّه تعالى، أو الّذي اقْتَطعوهُ من أموالِهم بمَحْضِ إرادَتِهم لأيِّ محروم يُصادفهم، ولا يخُصّون به محرومًا معيَّنًا، بل كلُّ محروم من جنس المحرومين أهلٌ لأن يُعطَى، فهذا سببٌ من أسبابِ الثَّناء عليهم.

وفي الحديث الشَّريف أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قال: "قالَ رَجُلٌ: لَأَتَصدَّقَنَّ بِصدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِه، فَوَضَعَها في يَدِ سارقٍ، فَأَصْبَحوا يَتَحَدَّثونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سارقٍ، فَقالَ: اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ، لَأَتَصدَّقَنَّ بِصدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِه فَوَضَعَها في يَدَيْ زانيَةٍ، فَأَصْبَحوا يَتَحَدَّثونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زانيَةٍ، فَقالَ: اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى زانيَةٍ؟ لَأَتَصدَّقَنَّ بِصدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِه. فَوَضَعَها في يَدَيْ غَنيٍّ،

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 746.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.

فَأَصْبَحوا يَتَحَدَّثونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ، فَقالَ: اللهمَّ لَكَ الحَمْدُ، عَلَى سارِقٍ، وعَلَى زانيَةٍ، وعَلَى غَنيٍّ، فَأُتيَ: فَقيلَ لَهُ: أَمّا صَدَقَتُكَ عَلَى سارِقٍ: فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِه، وأَمّا الزّانيَةُ: فَلَعَلَّها أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِناها، وأَمّا الغَنيُّ: فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ، فَيُنْفِقُ مِمّا أَعْطاهُ اللّه"[1].

دلالَةُ صَوْغِ (المحروم) اسمَ مفعولٍ:

فاعِليَّةُ السّائل ومفعوليَّةُ المَحْروم

خولِفت صيغة (فاعل) في (السّائل) إلى صيغة (مفعول) في (المحروم) هنا للتَّنبيه في الأوّل إلى خَصيصة الفاعِليَّة؛ حيث هو السّائلُ الواقعَةُ منه المسألَةُ، والتَّنبيهِ في الثّاني على خَصيصة المفعوليَّة؛ حيث هو المحرومُ الواقِع عليه الحرمان، فلِكُلٍّ وصفٍ منهما إشاراتُه.

بلاغَةُ الاستعارةِ في لَفْظِ (المحروم):

المحرومُ مِنَ المواضعِ التي يُحِبُّ اللهُ تعالى وضْعَ الصَّدقةِ فيه

إطلاقُ اسم المحرومِ ليسَ حقيقةً؛ لأنَّه لم يسألِ النّاس فَيَحْرِموهُ، ولكن لمّا كان مآل أمرِه إلى ما يؤول إليه أمرُ المحروم؛ أُطْلِق عليه لفظُهُ تشبيهًا بِهِ في أنّه لا تصل إليه ممكناتُ الرّزق بعد قُربها منه؛ فكأنَّه نالَهُ حِرْمانٌ.

والمقصود من هذه الاستعارةِ ترقيقُ النُّفوس له، وعطفُها عليه، وحثُّ النّاس على تحرّيه ليضعوا صدقاتِهم في موضعٍ يُحبُّ اللّه تعالى وضعَها فيه.

نكتةُ تقديمِ (السّائل) على (المحروم):

للسّائل أوْلَويَّةٌ في العَطاء؛ للضَّرورة التي ألْجأتْهُ لِذُلِّ المسألَةِ

في تقديمِ (السّائل) على (المحروم) تنبيهٌ إلى صاحب الأولويَّة في العطاء؛ حيثُ لا يُقبل على السُّؤال ويتجرعُ ذلَّ المسألةِ غالبًا إلّا محتاجٌ، مضطَرٌّ إلى أكلٍ أو علاجٍ أو غيرهما من ضروريّات الحياة. فالسُّؤال يَكسر النَّفس، ويُريق ماءَ الوجه. ويُفْتَرَضُ في كلِّ مَن

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (1421).

يَسأل أن يكون مُضطَرًّا للسُّؤال، ويَنْبَغي على المَسْؤولِ المُبادرَةُ بحفظِ كرامَةِ السّائل، وتخليصِه مِن أزْمَتِه، أمّا المحرومُ؛ فقد لا يكون محتاجًا وقتَ العطاءِ وإن كان فقيرًا محرومًا على الدّوام.

بَـذْلُ المُـؤْمِـن وبُخْلُ الكافِر

بلاغةُ الجَمْعِ بين ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ و﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ في السّياق:

في الجَمْعِ بين قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾، وقولِه تَعالى هنالك في صِفات السّائل بعذابٍ واقع: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ تتجلّى الهوّةُ الشّاسعة بين أخلاقٍ وأخلاقٍ، وعقيدَةٍ وعقيدةٍ، ممّا يتَرَتَّب عليه شساعَةُ الهوّة بينَ نتيجَتَيْهما ومآلِهما: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ وبين ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾؛ ومِن شأن ذلك إثارةُ الرَّهبة مِن جهنَّم في نفس الشَّقيّ، وإثارة التَّوْق إلى الجنان في نفسِ المؤمن الصَّفيّ.

أعمالُ العَبْدِ الصّالحةُ وتجدُّدها دليلُ صِدق إيمانِه

دلالَةُ التَّعبير بالتّصديقِ في قوله: ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولطيفة المُضارَعَة فيه:

في التَّعبير بالتَّصديق في قول الله تعالى: ﴿يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إلماحٌ إلى صِدْقهم في إيمانِهم، وصِدْقِ إيمانهم بالبَعْثِ وما وراءه من حسابٍ وجنَّة ونارٍ، وأنَّهم "لا يشُكّون فيه ولا يَجْحَدونَه"[1]، و"هذا الوصف مقابِل وصفِ الكافرين بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾"[2].

وفي التَّعبير بالتَّصديق كذلك دلالةٌ على أنَّهم كما يُصَدِّقون بيوم الدّين تصديقًا قلبيًّا وقوليًّا؛ كذلك يُصَدِّقون به تصديقًا عَمَليًّا "بأعمالهم؛ حيث يُتْعِبون أنفسَهم في الطّاعات البدنيَّة والماليَّة طمعًا في المثوبة الأخرويَّة، بحيث يُسْتَدَلُّ بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء"[3]. ويدعَم أنَّ المقصودَ هو التَّصديق بالأعمالِ: "أنَّ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 350.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 33.

التَّصديق القلبيَّ عامٌّ لجميع المسلمين، لا امتيازَ فيهِ لأحَدٍ مِنْهُمْ"[1] إلّا في درجاتِ اليقينِ بِهِ.

ومِن اللّافت في جملةِ الصِّلة العدولُ إلى التَّعبير بالفعليَّة ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ دون الاطِّراد على الاسميَّة كالسّوابق عليها واللّواحق بِها؛ وذلك لأنَّ المضارَعَةَ تُفيدُ بأنَّ تصديقَهُم بيوم الدّين يتَصاعَدُ كُلَّما رأوا الآياتِ وتَدَبَّروا المَلَكوتَ، وأنَّ تصديقَهُم بيومِ الدّين يتجدَّد وينمو يومًا بعد يومٍ.

و"في التَّعبير بالمُضارع ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ إشارَةٌ إلى أنَّ تَصْديقَهُم بالأعمالِ يتجَدَّدُ مِنْهُم آنًا فآنا[2] تجدُّدًا مستمرًّا لا فتورَ فيه ولا كلَلَ ولا ملل.

وتقييدُ التَّصديق بـ (يوم الدّين) ضرورةٌ في استقامةِ العَبْدِ، إذ "لو أُخْلي الإيمانُ باللّه تعالى مِن الإيمان باليوم الآخر؛ لكان الإيمانُ باللّه سُبْحانه - إن وُجِد - مجرَّد فكرة ذهنيَّة، لا يكاد يكونُ لها أثرٌ في سلوك الإنسان، ولا حساب فيما يأتي وما يذَرُ مِن الأعمال"[3]، على أنَّ "التَّصديق بيوم الدّينِ؛ يَلْزَم منه التَّصديق بالرُّسل عليهم السلام، وبما جاءوا به مِنَ الكتُبِ"[4].

دلالَةُ التَّعبير بـ (يوم الدّين) دون ما سِواهُ مِن أسماءِ يومِ القيامَةِ:

"سمّيَ يومُ القيامةِ: يومَ الدّين؛ لأنّه يوم الدّينونة، ويوم الحساب؛ حيث يُدان الإنسانُ، ويُجازى بما عمِل. وأصلهُ من الدَّين؛ لأنَّ للّه سبحانه وتعالى دَيْنًا على كُلِّ مخلوق بِخَلْقه من عدَمٍ، ثُمَّ بما أودع فيه مِن قوًى، ثُمَّ بما أفاء عليه مِنْ فَضْلِه وإحسانه.

للّه تعالى دَيْنٌ علـى العبـادِ، فمَهْما اجتهدوا لا يـوَفّـونـه سبحانه حقَّهُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1178.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.

ولهذا كانَ كُلُّ موجودٍ مسبِّحًا بحَمْدِ اللّه تعالى قضاءً لِبعض هذا الدَّيْن، وقد وفّى كلُّ مخلوقٍ دَيْنَهُ لِخالقه؛ إذ لم يَنْحَرِف عن الطَّريق الّذي أقامه اللّه ﷻ عليه، ما عدا الإنسانَ؛ فإنَّ أيَّ إنسانٍ مهما اجتهدَ في طاعة اللّه، وتحرّى مواقعَ مرضاتِه، فإنَّه لا يسلم أبدا من عوارِضِ التَّقصير؛ ولهذا كان النّاس جميعا واقِعين تحت الدّينونة"(1).

خوفُ المُؤْمِنِ الصّادق إنَّما يكون مِن اللّه تعالى وحدَهُ

نكتَةُ تقديمِ المتُعلِّق ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ على الخبرِ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾:

في تقديم قوله: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ على الخبَرِ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ عذاب ربِّهم عندهم مِنَ الحذَرِ بمَوْضِعِ التَّقديم، ومَكْمَنِ الرَّهبة الأوّل؛ إذِ المُؤْمِن لا يَخْشى إلّا ربَّه تعالى. ففي هذا التَّقديم قصرُ إشْفاقِهم على كونهِ ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ قصرًا حقيقيًّا ادّعائيًّا، حتّى كأنَّهم لا يُشفقون إلّا من ذلك.

استقبالُ عطاءِ الكريم بالجُحودِ؛ مِنْ موجباتِ انتقامِهِ

دلالة التعبير بالربوبية وإضافة العذاب إلى لفظ الربوبية:

مِنَ اللّافت في نَظْمِ هذا القيدِ ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ إضافةُ العذاب إلى اسم (الرَّبّ) ﷻ، ومِنَ المعلوم أنَّ وصف الرَّبِّ سبحانه يتعلّق بالعطاء والرَّحمة، فأفادَ أنَّ الإخبار هنا هوَ للإشفاق مِن غضَبِ الحليمِ وعقابِ الكريم.

المؤمنون يحتَمون برَبِّهم سُبْحانَه مِن عذابه، ويفرّون منهُ إليه

دلالَةُ الإضافَةِ في قوله: ﴿رَبِّهِم﴾:

إضافَةُ اسم الرَّبِّ ﷻ إلى ضميرِ المُؤْمِنين في قوله تعالى: ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم﴾ تُشْعِر باحْتِمائِهِم بـ ﴿رَبِّهِم﴾ سُبْحانَهُ من عذابه، وذلك يتَّسق مع ما جاء في الدُّعاء النَّبويِّ في قوله ﷺ في الدُّعاء: "لا مَلْجَأ ولا منجا مِنْكَ إلّا إلَيْكَ"(2)، وغيرهما مِن نصوصِ الفِرار من عذابِ اللّه تعالى إلى رحمته ﷻ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1179.
(2) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (247)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2710).

دلالَةُ التَّعبير في جملةِ الصّلة بالإشفاقِ، ونُكْتَةُ الرُّجوع فيه إلى الاسميّة ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾:

اتِّصافُ المُسْلِم بِدَوام إشفاقِهِ مِن عذابِ ربِّه تعالى ممدَحةٌ له

الإشفاق: تَوَقُّعٌ مع أخْذِ الحذَرِ منه[1]. ووصْفُ المُصَلّين بالإشفاقِ؛ يعني أنَّهم "خائفون على أنفسهم، مع مالَهُم مِنَ الأعمال الفاضلةِ اسْتِقْصارًا لَها، واستعظامًا لِجَنابه ﷻ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: 60]"[2].

وفي وصفهم بالإشفاقِ "إشارةٌ إلى أنّ الخشيةَ مِن عذاب اللّه تعالى هي القوَّةُ العاملةُ في توجيهِ الإنسان إلى الخير وتَجَنُّبه للشَّرِّ، أكثر من الطَّمع في الجنَّة والرّغبة في نعيمها؛ فمِن طبيعة الإنسانِ أنَّه يحرِصُ على أن يَتَوَقّى الشَّرّ، ويعمل له حِسابًا، أكثر مِن حِرْصِه على تحصيلِ الخير والجدّ فيه. ومِن هُنا كان مِن المَبادِئ العامَّة في الشَّريعة الإسلاميَّة: أنّ دفْعَ المضارّ مقدَّمٌ على جلب المنافعِ"[3].

وجاء في ذلك أنَّ عائشةَ رضي الله عنها سألت رسول اللّه ﷺ عن قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: 60]: أهم الّذين يشربون الخَمْرَ ويَسْرِقون؟ فقال: "لا يا بِنْتَ الصِّدّيق، ولَكِنَّهُمُ الَّذينَ يَصومونَ ويُصَلّونَ ويَتَصَدَّقونَ، وهُمْ يَخافونَ أنْ لا تُقْبَلَ مِنْهُمْ"[4].

وفي التَّعبير عن الإشفاقِ بالاسم ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ دلالةٌ على دَوامِهم على حالِ الإشفاق، وملازمتِهم تلك الصِّفةَ، فهُم يَجْعَلون عذابَ ربِّهم نُصْبَ أعيُنِهم في كلِّ ما يأتون وما يَذَرونَ، وبِمُقْتَضى الآيةِ يكونُ اتِّصافُ المُسْلِم بهذِه الصِّفة ممدَحةً لَهُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 173.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 33.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 15/ 1179.
(4) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (3175)، وابن ماجه في سننه، برقم: (4198)، وهو حديث صحيح كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: 1/ 305.

و"وصْفُهم بأنَّهم ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ مُقابِلُ قوله في حقِّ الكافرين ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾؛ لأنَّ سُؤالَهُم سؤالُ مستخِفٍّ بذلك ومُحيله"[1].

بلاغةُ الكِنايَةِ في قولِه: ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾:

المؤمِنُ الخائفُ مِن ربِّه صِدْقًا؛ يتحاشى معصيَتَهُ ويَعْمَلُ بطاعَتِه

في التَّعبير بالإشفاقِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ كنايَةٌ عن تَحاشي السُّقوط في الموبِقات، وملازمةِ العمَلِ بالطّاعات؛ إذِ الإشْفاق يَحمِلُ على ذلك ويَسْتَلْزِمُه عندَ العُقلاء ذَوي الهِمَّةِ الصّادقةِ مِنَ المؤمنين، فهُم ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ "وَجِلون أن يُعَذِّبَهم في الآخرةِ؛ فهم مِن خشية ذلك لا يُضَيِّعون له فرضًا، ولا يَتَعَدَّوْنَ له حدًّا"[2].

دلالَةُ وصفِ المؤْمِنين بالإشفاقِ بإزاءِ اسْتِهْزاءِ الكافرين ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾:

المؤْمِنون خائِفون في الدُّنيا مع صلاحِ أعمالِهِم، والكُفّار آمِنون فيها مع فَسادِ أفعالِهِم

فرقٌ بين حال المؤمنين المُشْفِقين من عذاب ربِّهم، على الرَّغم مِنْ أخذِهم بأسبابِ النَّجاة منه، بل وبأسبابِ الفَوْزِ بِرِضْوانِ اللّهِ تَعالى وجِنانه -، و"أنَّهم مع قوّة إيمانهم، وكثرة أعمالهم الصّالحة؛ لا يَجزِمون بنَجاتهم مِن عذابِ اللّه تعالى، وإنَّما أحوالُهم مبنيَّةٌ على الخوف والرَّجاء"[3].

فَرْقٌ بين حال أولئك الأبرار، وبين حال الكافرين، الّذين يسألون مستهزئين مكذِّبين: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٢﴾ [الذاريات: 12]، فالمؤمنون جادّون في طاعة اللّهِ تعالى، والاستعدادِ ليوم الدّين، بخلاف الكفّار فهُمْ هازلون مستهزئونَ بالشَّرائعِ، مُكَذّبون بالدّين، غيرُ مُبالين بوَعْدٍ ولا وعيدٍ.

عِلَّة فَصْلِ قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ﴾، ونكتة اعتراضِها بين الصِّفات:

بيانُ عِلَّةِ إشفاقِ المؤمنين مِن عذابِ اللهِ تعالى

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لما بينهما من شبه كمال الاتِّصالِ، فالجملةُ الثّانية مستأنفةٌ استئنافًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 172.

(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 276.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 101.

بيانيًّا؛ حيث إنَّها جاءت جوابًا عن سؤال تثيرهُ الأولى فحواه: ولِمَ هم مِن عذاب ربِّهم مشفقون؟ فجاء الجوابُ وافيًا بحقِّ هذا السُّؤال المقدّر: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾.

وعلى ذلكَ؛ فجملة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ تعليليَّةٌ، ومقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبلها؛ أي: إنَّهم مشفقون من عذاب ربِّهم؛ لأنَّ العاقلَ لا يأمَنُ عذابَه ﷻ مهما أتى من طاعاتٍ، وقدَّم من أعمالٍ صالحاتٍ[1].

وجملة ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ جملةٌ استطراديَّةٌ واردةٌ على سبيلِ الاعتراضِ، وقد سيقت بين صفاتِ المؤمنين، بإثْرِ مناسِبٍ لها؛ هو قوله: ﴿مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾، ومن بلاغة ذلك الاعتراض مباركةُ منهجِ المصلّين في إشْفاقِهم مِن عذاب ربِّهم، والإيحاءُ بأنَّهُم يَفْقَهون الأمور على وجْهِها.

ومن نِكات هذا الاعتراض التَّنبيهُ إلى أنَّه "لا ينبغي لأحدٍ - وإنْ بالَغ في الطّاعة والاجتهاد - أنْ يَأمنَه، وينبغي أن يكون مترجِّحًا بين الخوف والرَّجاء"[2]؛ و"لذا كان السَّلف الصّالح - وهُم هُمْ - خائفين وجِلين، حتّى قال بعضُهم: يا ليتني كنتُ شجرة تُعضَدُ، وآخر: ليت أمّي لم تلدْني، إلى غير ذلك"[3]، وفي هذا الاعتراضِ كذلك "تعريضٌ بزَعْم المشركين الأمنَ منه؛ إذ قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾ [الشُّعراء: 138]"[4].

معنى ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾:

رُؤيَـةُ المُؤْمِنين في أعمالِهِم القُصورَ؛ أوْرَثَهُم الخَوْفَ مِن عدَمِ قَبولِها

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، تُقَرِّر صِدْقَ الخبَرِ بأنَّ عذاب ربِّهم ﷻ غيرُ مأمونِ اللّحوق بأحدٍ، وأنَّ مقتضياتِ عذابه ﷻ كثيرةٌ؛ ولذا فإنّ المصلّين مشفقونَ خائفونَ من عَدَمِ قبول أعمالهم الصّالحة؛ وذلك بسببِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 101.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 613.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 71.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 173.

ما يرونَ فيها مِن قصورٍ وتَقْصيرٍ، مع ما قد يُداخل النّوايا مِن محبِطات الأعمال.

دلالَةُ الإخْبارِ بـ ﴿غَيْرُ﴾ في الخبر ﴿غَيْرُ مَأۡمُونٖ﴾:

تحقُّق نزولِ العذابِ بالكُفّار

التَّعبير بـ ﴿غَيْرُ﴾ في الإخبار عن المُصَلّين بأنَّ ﴿عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ نَفْيٌ صريحٌ لأمْن نزولِ عذابهِ ﷻ بهم، وفي ﴿غَيْرُ﴾ تعريضٌ بتحقُّقِ حلولِ عذاب اللّه تعالى على الكافرينَ؛ إذ التَّعبير بـ ﴿غَيْرُ﴾ يوجّه إلى ضدِّ المنفيِّ بها تعريضًا.

دلالَةُ نَفْيِ الأمن، ونُكْتةُ صوغِهِ اسمَ مفعولٍ في قوله: ﴿غَيْرُ مَأۡمُونٖ﴾:

الشَّفقة من عذاب اللّه تعالى تَبْعَثُ على الحذرِ مِنَ المعصيةِ والاجتهاد في الطّاعة

في النَّفي الصَّريح لأمن عذاب ربِّهم عن الحلولِ بهم إقرارٌ لهم على ما هُم عليه من الشَّفقة منه؛ فإنَّه حقًّا "ينالَ مَن عصاه وخالفَ أمرَه"(1)؛ وذلك مِن شأنِه بعثُهم على الحذرِ مِنَ المَعْصيَة، والاجتهاد في اكتسابِ الطّاعة.

وفي صوغ ﴿مَأۡمُونٖ﴾ على زِنَةِ اسم المفعول في قوله: ﴿غَيْرُ مَأۡمُونٖ﴾ تنبيهٌ على أنَّ عذاب ربِّهم لا يَخضع لتعاليم أحدٍ إلّا اللّه تعالى، ولا يُمَكِنُ لأحدٍ أن يستبعدَهُ، أو يأمنَهُ، فهو غير مأمون.

إشفاقُ المؤمنين مِن عذاب ربِّهم حقٌّ، وجُرأةُ الكافرين بنَفْيِه جُرمٌ كبيرٌ

وفي إشفاق المؤمنين من عذاب ربِّهم، وإقرارِهم على عدَم أمْنِهم إيّاه: إبطالٌ لمزاعم الكُفّار في قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾ [الشعراء: 138]، وتعريضٌ بجُرأتهم في القَطْعِ بالنَّجاة من العذاب، مع ما هُم عليه من ضلالٍ ومعصيَةٍ. وفيه إشادةٌ بمنهج المؤمنينَ مِن الإشفاق من عذابِ ربِّهم مع ما هم عليه من الهُدى والطّاعة.

و"هذا هو الحقُّ؛ ألّا يأمَنَ أحَدٌ مِن عذابه وإنْ دأبَ في عبادته واجتهَد في طاعته؛ لِما لا يدري على ماذا يُختَمُ أمرُه؟ أو يخافُ ألّا يُقْبَلَ منه ويُرَدّ عليه، أو يخافُ أن يكون قد قصّر عن شُكْر كثيرٍ من النِّعم، وغفَل عنها.

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان، جامع البيان: 23/ 276.

والأصل أنَّه ما مِن أحدٍ ينظُرُ في أمره وحالهِ إلّا وهو يرى على نفسِه مِنَ الله تعالى نِعَمًا لو أجهَد نفسَهُ ليقوم بشُكْرِ واحدٍ منها؛ لقَصر عن ذلك، ولم يتهيّأ له القيام بوفائها، فمَن كان هذا وصفَه؛ فأنَّى يقع له الأمنُ مِن عذابه؟ ويوجدُ منه الوفاءُ بالأسباب الّتي يؤمن بها إلّا أن يكون من الخاسرين!"[1]؛ فإشفاق المؤمنين من عذاب ربِّهم حقٌّ، وجرأة الكافرين بنَفْيه عنهم جُرم كبيرٌ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفزع والهلع:

الفَزَعُ: مفاجأةُ الخوفِ عند هجوم غارةٍ أو صوتِ هدَّةٍ وما أشبه ذلك؛ وهو انزعاجُ القَلْبِ بتوقُّع مكروه عاجِلٍ. أمّا الهلَعُ فهو أسوأُ الجَزَع. والهَلوعُ هو ما فسَّره الله تعالى في قوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، ولا يُسَمّى هلوعا حتّى تجتمِعَ فيه هذه الخصالُ[2].

الـفَـزَعُ انزعاجُ القلبِ بِتَوَقُّعِ مكروهٍ عاجلٍ، والهَلَعُ أسوأُ الجزَعِ

المَنْع والضَّنّ:

المَنْعُ: تحجيرُ الشَّيءِ، يُقال: مَنَعَه يَمْنَعُه منْعًا، ومنعهُ فامتنَعَ وتمنَّع. ورجل منوعٌ: ضنينٌ، وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾، ومنيعٌ: لا يُخلص إليه، والاسمُ: المَنَعَةُ والمَنْعَةُ والمِنْعَةُ، ومَنُعَ الشَّيءُ مناعةً فهو منيع؛ اعتزّ وتعسَّر. والضَّنُّ: شدَّةُ البُخْلِ، أو البخلُ بالشَّيءِ النَّفيسِ، والمضنونُ بِهِ: الشَّيءُ النَّفيس تَضِنُّ بِهِ لِمكانته مِنْك وموقعه عنْدك. والضَّنين: الشَّديدُ البُخْل أو البَخيل بالشَّيْءِ النفيس[3].

المَنْعُ التَّحجير مطلقا، والضَّنُّ شدَّةُ البُخْلِ أو البخلُ بالنَّفيس

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 208.

(2) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 404.

(3) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ضنن).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا
مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ
٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ
يُحَافِظُونَ ٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ [المعارج: 29 - 35]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مِـن صِـفـات المصلّين صيانةُ الـنَّـفْـسِ من دَنَس الـزّنى كَصيانَتِها من الشُّحّ بالحقوقِ

لمّا ذكَر اللّه تعالى في الآياتِ السّابقة التّحلّيَ بتطهير النَّفس بالصَّلاة، وتزْكيةَ المال بالصّدقة؛ ندَب هنا إلى التَّخلّي عن أمرٍ جامعٍ بين تَدْنيس المال والنَّفْس، وهو الزّنى الحامل عليه شهوةُ الفَرْج، الّتي هي أعظَمُ الشَّهوات حَمْلًا للنَّفس على المُهلِكات، فقال بعد ذِكر التَّخويف بالعذاب؛ إعلامًا بأنَّه أسرعُ إلى صاحبِ هذه القاذورةِ وُقوعًا مِن الذُّباب في أحلى الشَّراب: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلُومِينَ﴾: (لوم) تدور تصريفاتُها على معنيين كُلّيَّين؛ أحدهما: العتابُ والعذْلُ، والآخر: الإبطاءُ[2]. ومِنَ الأوَّل: اللَّوْمُ: العَذْلُ. تقول: لامَهُ على كذا لَوْمًا ولَوْمَةً، فهو مَلومٌ. ولَوَّمَهُ - شُدِّد للمبالغة -. واللوَّمُ: جمعُ لائم، مثل راكعٍ ورُكَّع. واللّائمة: المَلامة. وألامَ الرَّجلُ؛ إذا أتى بما يُلامُ عليه. يُقال: لامَ فلانٌ غيرَ مُليم[3]، واللّومُ: "تعنيفٌ يَرْدَعُ عن التَّجاوز"[4]. فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ أي: غير معنَّفين، ولا مَرْدوعين.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 406.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوم).
(3) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (لوم).
(4) جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (لوم).

2) ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾: (عدو) تدلُّ اشتقاقاتُها على تجاوُزٍ في الشَّيءِ لِما ينبغي أن يُقتصَرَ عليه[1]، ومعناهُ المحوريُّ: مُتَخَطَّى بطْنٍ أو فَجوةٍ في ظاهر، ومِنْهُ: عُدْوَةُ الوادي والخَنْدَقِ: ترتَفِعُ مشرِفةً على فجوةٍ عميقةٍ. ونُظِر في التَّسْميات إلى الاضطرار إلى تَخَطّي تلك الفجوة، قال تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: 42]. ومنه: عَدا الفَرَسُ: جَرَى وأحْضر. والعاديَةُ: الخَيْلُ المغيرة تَطْفِر في جَرْيِها، كأنَّما تتخطّى، أو هو من طَفْر المسافاتِ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾ [العاديات: 1]. وعدا فلانًا عن الأمرِ: صَرَفَهُ وشَغَلَهُ؛ أي: أبعدَهُ فَجَعَلَه يتَخَطّاه، وعدا الأمرَ وعدا عنه: جاوزه وتركه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ [الكهف: 28] أي: لا تتخَطّاهم عيناك تهاونًا بشأنهم.

ومن التَّخطّي المجازيِّ: مواقَعَةُ المحظورِ وارتكابُه. ومنه: عَدا عَدْوًا فهو عادٍ، وتعدَّى واعتدى فهو معتَدٍ، والاسمُ: العُدوان، قال تعالى: ﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾ [الأعراف: 163]، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: المتجاوزون ما أحلَّ اللّه. وأمّا قوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشُّعراء: 166] فهي في قوم لوطٍ بشأنِ فاحِشَتِهم المعروفَة[2].

3) ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾: (أمن) تدلُّ اشتقاقاتُها على معنَيَيْن كُلّيَّين؛ أحدهما: ضدُّ الخيانَةِ، ومعناها: سكونُ القلبِ. والآخرُ: التَّصديقُ[3]. وأصلُ الأَمْنِ: طُمأنينةُ النَّفس وزَوال الخوف، والأَمْنُ والأمانَةُ والأمانُ في الأصل مصادر، ويُجعل الأمانُ تارةً اسمًا للحالِ الّتي يكون عليها الإنسانُ في الأمنِ، وتارة اسمًا لِما يُؤَمَن عليه الإنسانُ، نحوُ قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: 27]؛ أي: ما ائتُمِنْتُم عليه.

وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأحزاب: 72] هي: كلمةُ التَّوحيد، أو العدْل، أو امتثال الأوامر، واجتناب المحارم[4]. والأمانة في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ ما ائتُمنوا عليه مِنَ الدّين والدُّنيا[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوم).
(2) جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عدو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(4) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (أمن)، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 673.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 219.

4) ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾: (عهد) تدور اشتقاقاتُها على الاحتفاظِ بالشَّيءِ وإحداثِ العهدِ به[1]. والعهد: الأمانُ، واليمين، والموثِق، والذِّمة، والحفاظ، والوصيّة. يُقال: عهِدتُ إليه؛ أي: أوصيته. ومنه اشتُقَّ العهد الّذي يُكتب للولاة. وتقول: عليّ عهد الله لأفعلنَّ كذا.

والعَهْدُ: المنزِلُ الّذي لا يَزالُ القومُ إذا انْتَأوا عنهُ؛ رجعوا إليه، وكذلك المَعْهَد. والمعهودُ: الّذي عُهِد وعُرِف. وعهِدْتُه بمكان كذا؛ أي: لَقيتُه. وعهدي به قريبٌ. وفي الحديث: "إنّ حُسْنَ العهد من الإيمان"[2] أي: رعايةُ المودَّة[3]. ومعنى ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ أي: أيمانِهم ومواثيقهم، وهذا شاملٌ للعهد الّذي عاهَدَ عليه اللّهَ، والعَهْدِ الّذي عاهدَ عليهِ الخَلْقَ[4].

5) ﴿رَٰعُونَ﴾: (رعى) تدور كثيرٌ مِنْ تصريفاتِها على المراقبةِ والحِفْظِ[5]، والرِّعْي - بالكسر -: الكلأُ نفسُه، كالمَرْعَى؛ وهو ما تَغْتَذى به الماشيةُ من نباتٍ غضٍّ طَريٍّ - أيًّا كان نوعه - فيَحفظ حياتَها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾ [الأعلى: 4-5]، وقال سُبحانَهُ: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١﴾ [النّازعات: 31]، والرّاعي: حافظُ الماشية، يُتيح لها المَرْعى، ويمكّنها ويُراقبها، ويَحْفَظُها من الضِّباع والسِّباع. ويُجْمع الرّاعي على رِعاء، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ [القصص: 23].

ويُقال: رَعَى عَهْدَه وحقَّه وحُرمتَه يَرعاه؛ أي: حَفظه. والرِّعاية والمراعاةُ: النَّظرُ في مصالح الإنسان وتدبير أموره، قال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ [الحديد: 27]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾. ومن ذلك: الرّاعي: الوالي والأمير، والرَّعيَّة: العامّة، وكلُّ مَن وليَ أمرَ قوم فهوَ راعيهم، كما قال النّبيُّ ﷺ "كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مَسْؤولٌ عن رعيَّته"[6]. وسائر ما ورد في القرآن من التَّركيب هو من هذه الرِّعاية المجازيَّة[7].

6) ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾: (شهد) لا يَخْرُجُ شيءٌ مِن تصاريفها عن معنى: الحضور والعلم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهد).
(2) رواه الحاكم في المستدرك، برقم: (40)، وهو صحيح كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (2056).
(3) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (عهد).
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رعى).
(6) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (893)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1829).
(7) جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رعى).

والإعلامِ، ومِن ذلك الشَّهادةُ؛ فهي جامعة لِلمَعاني الثَّلاثة المذكورة[1]، ومِنْهُ الشَّهيدُ بمعنى: الشّاهدِ؛ وهو المُخْبِرُ عَنْ عيانٍ بحقٍّ لغيرِهِ على آخَرَ[2]. ومِنْهُ الشَّهيد؛ وهو القتيلُ في سبيل الله، فقال بعضُ أهل العلم: سُمّي بذلك؛ لأنَّ ملائكة الرَّحمة تَشْهَدُهُ؛ أي: تحضره، وقال جماعةٌ من العلماء: سُمّي بذلك لسقوطه بالأرضِ، والأرض تُسَمّى الشّاهدة. والشّاهد: اللِّسان، والشّاهد: المَلَكُ. وقولُ الله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، فقال أهلُ العلم: معناه أَعْلَمَ اللّه ﷻ، وبَيَّن اللّه، كما يقال: شَهِدَ فلان عند القاضي؛ إذا بيَّن وأعلَمَ لِمَن الحَقُّ وعَلى مَن هو[3]. وقوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ أي: يقيمون الشَّهادة، ويُؤَدّونها على مَن كانت عليهِ؛ مِنْ قريبٍ أو بعيدٍ، أو رفيعٍ أو وضيع، ولا يكتُمونها ولا يغيّرونها[4].

7) ﴿قَآئِمُونَ﴾: (قوم) تدور اشتقاقاتُها على معنَيَيْن كُلّيَّين؛ أحدهما: جماعةُ النّاسِ، والآخر: انتصابٌ وعَزْمٌ[5]. ومِن الثّاني: القيام؛ وهو انتصابُ الشَّيء إلى أعلى ثابتًا. كقامَة الإنسان، وقيامِه، وثبات الدّابّة، والماء في مكانه. وبَيْنَ ثباتِ الماءِ – أي: عدَم جَريانِهِ إذا لم يكن له مصرف – وارتفاعه – إذا كان له رافدٌ يزيده – تلازُمٌ. فمِن انتصاب قامَة الإنسان وغيره – مع عدم الانتقال – قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [آل عمران: 191]، ومنه قامَ يفعَلُ كذا؛ كأنّما انتصب لذلك، وجمَعَ نفسَهُ له وأخَذَ فيه، قال تعالى: ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجنّ: 19]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 14].

ومِنَ الانتصابِ يُؤْخَذُ مَعْنى النُّهوض بالشَّيءِ[6]، وقال اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ أي: مراعونَ.

8) ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾: (كرم) تدلُّ أكثرُ تصريفاتِها على شرفٍ في الشَّيءِ[7]، يقال: كرُم الرّجلُ؛ إذا أعطى عن طيب خاطر وجادَ دونَ انتظار مقابل، وعكسُه: بخِل. وكرُم: نَبُل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(2) الجرجاني، التعريفات، ص: 129.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 219.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(6) جبل، محمد حسن، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قوم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرم).

وعزَّ، وعكسهُ: لَؤُمَ، وكرُمت هديَّتُه: نفُست وعزَّت، وأكْرَمَ، يُكرم، إكرامًا، فهو مُكرِم. وأكرَم الشَّخصَ: شرَّفه ونزَّهه، ورفَع شأنَه وفضّله، وأحسن معاملتَه، ويُقال: أكْرَمَ مَثْواه؛ إذا أنزله مُنزلًا كريمًا، وأكرم نفسَه عن التَّبذّل: صانها، وأكرم وِفادَتَه: أكرمه وقام بما يجِبُ القيامُ به تُجاهَه[1]، وهذا المعنى هو المرادُ في قولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُنال دارُ الكَرامَةِ بِطاعَةِ اللهِ تعالى والتزامِ حُدودِهِ

والمُصَلّون كذلك هم المُمسِكون فروجَهم عما حرَّم اللّه تعالى، القاصرون إيّاها على أزواجهم، وإن كانوا رجالًا قصروها على إمائِهم الواقعاتِ تحتَ مِلْكِ أيمانهم، فهذا هو المأذونُ لَهُم فيه، فلا يُلامون عليه، ولا يعاقبونَ به.

فمَن نزَع إلى غير زوجَتِه وتطلَّع إلى الزِّنى، وكذا مَن نزعَت إلى غير زوجِها أو مَنَحَتْهُ نفسَها، و"مَن التمَس لفرجه مَنكَحًا سوى زوجتِه أو مِلكِ يمينِه، ففاعِلو ذلك هم العادون، الّذين عدَوا ما أحلَّ اللّهُ تعالى لهم إلى ما حرَّم عليهم، فهم المَلومون"[2].

والمُصَلّون كذلك هم الّذين يراعون أماناتِ اللّه تعالى وأماناتِ الخَلْقِ، ويَلْتَزِمون العهدَ الّذي قطعوه على أنفُسِهم، فلا يُضيّعون الأمانات، ولا يَنقضون العَهْدَ. وهم الّذين يَقومونَ بأداء الشَّهادة على وجهه الأكمل، ولا يقيمون لخاطرٍ فيها وزْنًا، ولا يتهيَّبون مشهودًا ضدّه بالحقِّ - عظيمًا كان أو ظالمًا -، ولا يبتغون بذلك أجرًا.

والمُصَلّون كذلك هم الذين يُحافظون على صلاتهم، بل كأنَّهم يُسابِقونَها تبكيرًا إلى مواقيتِها، ويُحسنون إتمامَ شَرائِطِ كمالِها، ويُجدِّدونَ حينًا بعد حين فرائضَها وسُنَنَها.

(1) عمر، أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (كرم).
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 276.

فأولئك الموصوفون بالأوصاف الكريمةِ التي تُنْبِئُ عن علوِّ أقدارهم عند ربِّهم، واستحقاقهم لإكرامهِ وفضله؛ هُم مُكْرَمون في جنّات النَّعيم، مستقرّون في جنّاتٍ لا يُقادَر قدرها، ولا يُدرَك شأنها. مكرمون فيها بكلِّ أنواع التَّكريم"[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ﴾:

الآثارُ الإيجابيَّة للصَّلاة في حياة المؤمنين عديدةٌ ومنوَّعة

(الواو) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ﴾ عاطفة، والمعنى: "وكذلك مِن صفات المؤمنين - معَ إيمانِهم باللّهِ تعالى، وإقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، والتَّصديق باليوم الآخر، والخَشْيَة من عذاب اللّه؛ -؛ هم أنَّهم لِفروجهم حافظون؛ أي: حافِظون لها من الوقوع في الحرام"[2].

فـ (الواو) تُضيف إلى ما سبق من شَمائِل المُؤْمنين المصلّين وفضائلِهم فَضيلَةً أخرى، أهّلتهم لهذا الثَّناء الإلهيِّ الكريم، ممّا يُقرِّر أنَّ الآثار الإيجابيَّة للصَّلاة في حياة المؤمنين عديدةٌ، ومنوَّعة، في آحادهِمْ وعلى المُجْتَمَع كلّه مِن حَوْلِهِم.

دلالَةُ التَّعبير بالصّلة ﴿هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ﴾ جملةً اسميّة:

حفظُ المُصَلّين فُروجَهُم معَ وفرة قوَّتِهم الشَّهويَة دليلُ صدقِهم في مُراقبَتِهم اللهَ تعالى

في التَّعبير بجملة الصِّلة اسميَّةً في قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَـٰفِظُونَ﴾ دلالةٌ على ملازمة صفتَي العفّةِ والطُّهر لهؤلاءِ الأطهار، ودلالةٌ على التزامِهم بحُدود اللّه تعالى، وعدم جُرأتهم على حرماته، وعلى صيانتهم أعراضَ النّاس وشرف الأنساب، على الرُّغم مِنْ "أنّ قوَّتهم الشَّهْوَيَة داعيةٌ لهم إلى ما لا يخفَى، وأنَّهم حافظون لها - أي: لفُروجهم - عن استيفاءِ مُقْتَضاها، وبذلك يتحقَّق كمالُ العِفَّة"[3]؛ وفي ذلك الدَّليلُ الأوضحُ على صِدْقِ إيمانِهم، وصِدْقِ مُراقَبَتِهم لربِّهم ﷻ.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1583.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1181.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 209.

نُكْتَةُ بناء الصِّلة ﴿هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ على تقديمِ الضَّمير:

المُجْتَمَعُ المُسْلِم يتميَّز بطُهر الأنساب، ويختصّ بشَرَفِ الأعراض

في تقديمِ الضَّمير ﴿هُمْ﴾ وبناء جُمْلَة الصِّلة عليه في قوله تعالى: ﴿هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ تمييز للمُصلّين، وإشادةٌ بطُهرهم وطُهر مجتمعاتهم، وقَصرٌ لتلك الصِّفة عليهم دون سِواهم، وتعريضٌ بِغيرهم مِن أهل الانحلالِ الأخلاقيِّ والاختلال السُّلوكيّ؛ حيث جاءت تلك الأوصافُ كلُّها للمُصَلّين مقابِلة لأضدادِها مِن صفاتِ أهلِ الهلَعِ والجَزَعِ والمَنْع.

مَعْنى (اللّام) في قولِهِ: ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾:

تَصَوُّن المصلّين مقرَّرٌ، وطُهْرُهُم مؤكّد

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ جيءَ بها لتقويةِ العاملِ المؤخَّر ﴿حَافِظُونَ﴾؛ لأنَّ الأصلَ في مادَّة الحِفْظِ أنَّها تتَعَدّى بنفسِها من غير حاجة إلى حرف جرٍّ. و(اللّام) مع ذلك ضرورةٌ يقتضيها مقامُ الثَّناء؛ لتقرير التَّصَوُّن، وتأكيدِ حفظ الفروج. وأصل التّركيب: والذين هم حافظونَ فروجَهم، فقُدّم لفظُ (فروجهم)، وزيدت (اللّام) فصار التّركيب ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾.

كما أفادت (اللّام) تضمينَ ﴿حَافِظُونَ﴾ معنى: (ممسكون)، فصار معنى ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾: مُمسكون لها عمّا لا يحلُّ[1].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفُروج في قولِه: ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾:

حِفْظُ الفُروج صِفَةُ أهلِ الإيمان رجالًا كانوا أو نساءً

الفَرْجُ يُطْلَقُ على فرج الرَّجل والمرأة؛ وهو اسمُ سَوْأتِهما[2]، فالمقصودُ بالفروج في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ أقبالُهم. فهم حافظون إيّاها عن كلِّ ما حرَّم اللّهُ تعالى عليهم وضْعَها فيه، إلّا أنَّهم غيرُ ملومين في تركِ حفظِها ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ مِن إمائِهم"[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 6/ 124.

(2) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 9/ 97.

(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 276.

لطيفةُ اخْتِصاص الرِّجال بالذِّكر دون النِّساء في الضّمير المُضاف إليهِ في (فروجهم):

يُلمَح في اختصاصِ الرِّجال بالذِّكر دون النِّساء في ضمير جمع الذُّكور المضاف إليه في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ دلالة التَّغليب؛ لأنَّ المقصد بـ (فروجهم) فروجُ جميع أهل الإيمان، سواء أكانوا ذكورًا أم إناثًا[1]، وذلك لأنَّ الرِّجال غالبًا - بغضِّ النَّظر عن تحلّيهم بالإيمان من عَدَمِه - هُم الأشَدُّ جرأةً على ابتغاء ما وراء ما أحلّ اللّه تعالى.

الذِّكر الحكيمُ يَستُرُ على النِّساء، ويراعي طَبيعَتَهُنَّ في الخَجَل والحياءِ

ومِن لطائف هذا التَّغليب كذلك قصْدُ السَّتر على أعراض النِّساء، وتنمية حيائهنّ، ومراعاة خجلهنّ، وكأنَّه يقول لهنّ: أنتنّ لسْتُنّ بمنزلةِ أنْ تبتغين ما وراءَ ذَلِكُنَّ؛ فقد جَبَلَكُنّ اللّه تعالى على الحِشْمَةِ، وحصَّنكنّ بالخَجَل.

وهذا المعنى الدَّقيق يَتَّسق مع ما روي مِنْ سُؤال هِند بنت عُتبةَ رسولَ اللّه ﷺ ذات يوم: أوَ تزني الحُرَّةُ يا رسول اللّه؟[2] مستبعدةً وقوع الزِّنا منْها أصلًا.

دلالةُ تقديمِ ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ على الخبرِ ﴿حَٰفِظُونَ﴾:

طُهر المجتَمَعِ المُسْلِم مِن اختلاطِ الأنسابِ ضَمِنَ لأفرادِهِ شَرَفَ أصولِهِم، واسْتَأْهَلَ مَدْحَهُم

في تقديم القيد ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ على الخبر ﴿حَٰفِظُونَ﴾ مزيدُ عنايةٍ بِحفظ المقدَّم؛ لأنَّه مِن أهمِّ أسبابِ طُهْرِ المُجْتَمَع، وقيامِ العلاقاتِ فيه على أساسٍ متينٍ مِنَ الأنسابِ الطّاهرة؛ ففي تقديم هَذا القيد إشادَةٌ بِطُهْرِ أعراضِ المُسْلمين، وشرف أصولِهِم، وصيانةِ أنْسابِهِم، بخلافِ غَيْرِهِم مِمَّن تقدَّم ذمُّهم مِنْ غَيْرِهِم.

دلالَةُ التَّعبير بالحِفْظِ، ونُكْتَةُ صَوْغِ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ:

قِيَمُ الطُّهرِ والصَّوْنِ ثابتَةٌ في مُجْتَمَعِ أهلِ الإيمانِ لا تَتَزَلْزَلُ

حِفظُ الشَّيء صيانَتُه، وحِراسَتُه، ورعايته[3]؛ وفي التَّعبير بمُفْرَدَةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 406.

(2) رواه أبو يعلى في مسنده، برقم: (4754)، وضعَّفه حسين سليم أسد في تحقيقه لمسند أبي يعلى: 8/ 194.

(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حفظ).

الحِفْظِ في الخبر ﴿حَٰفِظُونَ﴾ دلالَةٌ عَلى صيانَةِ الأعراض وكأنها الدُّررُ النَّفيسةُ تُحرس في الصّناديق المُحْكَمة الوثيقة، فلا يَصِل إليها إلّا مالكُ مفاتيحِها، فلا يَبْتَذِلُها مُبْتَذِلٌ؛ و"معنى حِفظهم لها أنَّهم مُمْسِكونَ لَها بالعفافِ عمّا لا يحلُّ لهم"(1).

وصوغ الخبر ﴿حَٰفِظُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ دليلُ رسوخ هذه القيمةِ الأخلاقيَّة العالية في مجتمع أهلِ الإيمان، وقيامِهم على حراسَتِها، ويقظتِهم لمكانتها؛ فلا يَطْرَأ عليها تَبديلٌ ولا يلحقها تَغْيِيرٌ. فَهُم ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ "حفظًا ثابتًا دائمًا عن كلِّ ما نهى اللّه عنه"(2).

و"وَصْفُهُم بأنَّهم لفروجهم حافظون مقابلَ قولِه في تَهْويل حال المشركينَ يوم الجزاء بقوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾؛ إذْ أخَصُّ الأحماء بالرَّجُل زوجُه، فقصد التَّعريض بالمُشْرِكين بأنَّ هذا الهول خاصٌّ بهم، بخلافِ المسلمين فإنَّهم هم وأزواجُهم يُحْبَرون؛ لأنَّهم اتَّقوا اللّه في العفَّة عن غير الأزواج، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: 67]"(3).

سكونُ جَلالِ اللهِ تعالى في قَلْبِ العَبْدِ مِن أعظمِ أسبابِ حِفْظ الفَرْجِ

وحفظُ الفُروج يكونُ بأن يَسكُن في قلبِه جلالُ اللّه تعالى وهيبَتُه، ويخشى عقابَهُ في المَعاد، وبِما جعله اللّه تعالى سببًا للتعفُّف من النِّكاح وملك اليمين؛ فيمنعه ذلك عن الزّنى ويحفظ الفرج، وبأن يُجيع بطنَهُ بالصّيام، كما قال النَّبيُّ ﷺ: "مَن اسْتَطاعَ الباءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجاءٌ"(4)، وبما يترك النَّظر إلى النِّساء ولا يخلو بهنَّ، ويدع مجالسة الفُجّار وأهل الرِّيبة(5).

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 561.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 406.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 173.
(4) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (1905)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1400).
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 209.

معنى ﴿إِلَّا﴾:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ تَستثني الأزواجَ - رجالًا كانوا أو نساءً -، والسّراري - للرِّجال - مِن جُملة ما تُحفظ الفروجُ عنه، وتعالج بواقعيّةٍ صادقة أمينةٍ أمرَ الشَّهوة المركَّبة في الإنسان؛ حيثُ لا رهبانيَّة في الإسلام؛ بل الإسلام يعالج هذا الجانِبَ علاجًا ربانيًّا حكيمًا؛ فإذا أغلق أبوابَ الحرامِ؛ لَم يدَعِ النّاس في حرجٍ يُؤَثِّمُهم، بل يُتيح لهم بديلًا قويمًا. و"المعنى: أنَّهم لفروجهم حافظون في جميع الأحوال إلّا في حال تَزَوُّجِهِم أو تَسَرّيهم"[1].

الإســـلامُ ديـن الــواقــعــيَّــة الحكيمة؛ حيثُ يُتيح البديلَ الحلالَ لِما يُغلِقهُ مِن حرامٍ

فـ ﴿إِلَّا﴾ هنا تُسهم في بيان وجه الإشادة، وتُحَدّد السَّبيل القويم الّذي يَنْتَهِجُه المؤمنون، فيَسْتَحِقّون الثَّناء، ويستأهلون الثَّواب.

وذكر الخَطيبُ أنَّ ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى (لكن)، الّتي تفيدُ الابتداءَ لا الاستثناءَ. فما بعدَها منقَطِعٌ عمّا قبله، وهذا يعني أنَّ حفظَ الفروجِ هُنا هو حفظٌ مُطْلَقٌ لا استثناءَ فيه، فإمّا حفظٌ أو غيرُ حِفْظٍ؛ لأنَّ غير الحفظِ يكون عدوانا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في موضع آخرَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: 5 - 7]، فعدَمُ حِفْظِ الفروج يكون عُدوانًا على حُرُمات النّاس. فالإباحَةُ للأزواج وما ملكَتِ الأيمان ليسَتْ على إطلاقها، وإنَّما هي محفوفَةٌ بسياجٍ مَتينٍ، ومحاطَةٌ بحِراسَةٍ قويَّة، لا يُؤْذَن بالدُّخول إليها إلّا بحسابٍ وتَحْتَ مراقَبة، وهذا يعني أنَّ للفروج حرمَةً ولو كان ذلك في مواقعِ الحلالِ[2].

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 561.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1181.

قـــوَّةُ حِـفْـظِ المُـؤْمِـنـين فُروجَهُم لِكَمالِ مُراقبَتِهم اللهَ تعالى

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾:

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ بمعنى (مِن)؛ أي: هُم حافِظون فروجَهم إلّا مِن أزواجهم، فيمنحوهُم إيّاها، ويبذلونها لَهُم، ويُمَكِّنونهم منها. وفي إيثار النَّظم الكريم ﴿عَلَىٰٓ﴾ دون (مِن) إيحاءٌ بقوَّة حفظِ المؤمنين فروجَهُم وتَحْصينِها من الحرام، وقَصْرِها على أزواجِهم أو ما مَلَكَت أيمانهم دون سِواهُم.

وقال بعضُ أهل العلم: إنَّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ "متعلّقة بمحذوفٍ وقعَ حالًا مِن ضمير ﴿حَٰفِظُونَ﴾؛ أي: حافظون لها في جميعِ الأحوال إلّا حالَ كونِهِم والينَ أو قَوّامين على أزواجهم، وقيل: بمحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾، كأنَّه قيل: يُلامون على كلِّ مباشَرٍ إلّا على ما أُطلق لَهُم، فإنَّهم غير ملومين"[1].

الـثّـنـاء بِـطُـهـر أعـراضِ المُصَلّين يشمَلُ الرّجالَ والنِّساء جميعًا

دلالَةُ التَّعبير بالأزواجِ، وإشارةُ الجَمْعِ والإضافةِ في ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾:

في التَّعبير بالزَّوجيَّة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ إشارة إلى كمال الصِّلةِ بين الأزواج، وقيامها على أساسٍ مِنَ المحبّة والتّوادّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾ [الرّوم: 21]. وفي اصطفاء جمع التَّكسير (أزواج) دون جمعِ الإناثِ الصَّريح (زوجات) إفساحُ الدّلالة لشمولهنّ بالحُكم مع الرِّجال، وتلك هي الإشارةُ الوحيدة لهنَّ في الآية الكريمة، لكنَّه ربّما غلَّبَ ذِكر الرِّجال في عناصر التَّركيب. وتلكَ الإشارةُ اللَّفظيَّة في جمع التَّكسير تَدْحَضُ ما قيل مِنْ أنَّ المراد "هنا الرِّجالُ خاصَّةً دون النِّساء، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ للإجماع على أنَّه لا يحلُّ للمرأة أن يطأها مَنْ تملكه"[2]؛ لأنَّنا نقولُ إنَّ اللَّفْظَ يعمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ، وتُستثنى المرأة مِنْ وطْءِ من تَمْلِكُهُ لها بدلالةِ الإجماعِ، وباقي صوَرِ الحِفْظِ باقيةٌ على عمومِها.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 6/ 124.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 561.

وفي جمع ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ مراعاةٌ لِلجَمْعِ في إيرادِ أوصافِ المؤمنينَ.

والإضافة في ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ إضافة مِلكٍ واختصاص؛ حيث يَمْتَلِكُ كلٌّ من الزّوجِ والزّوجة بُضع الآخر ويختصُّ بهِ، ويجِبُ على الآخر حِفْظُ بُضعه إلّا منه.

وفي تقديمِ الضّمير ﴿هُمۡ﴾ على الخبر ﴿حَٰفِظُونَ﴾ تنبيهٌ إلى قَصْر هذه الأوصافِ الشَّريفة على المصلّين - رجالًا ونِساءً -، وتخصيصِهم به دون غيرهم من النّاس، وذلك لا يمنَعُ مِنِ احتمال وجودِ هذا الصِّنف في الأُمَمِ الأخرى، لكنَّه في مُجْتَمَعاتِهم وأُمَمِهِم يمثِّل نسبةً لا تكاد تُذكَر.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ على ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

رُتبَةُ زَوْجَةِ الرَّجُلِ مُقَدّمَةٌ على رُتْبَةِ أَمَتِهِ

في تقديم ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ على ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى تقدُّم رُتبة الزَّوجات على رُتبة الإماءِ، ومراعاةٌ "لشَرَفِهِنَّ وشرَفِ الولَدِ بهِنّ"[1]، فدلَّ التَّقديم على أنَّ رُتبة زوجة الرَّجل مقدّمةٌ على رُتبة أمَتِه؛ ممّا يُرتِّب للزّوجة حقوقًا ليست للأمة، وتفاصيلُ ذلك في مظانّهِ من كتُبِ الفقه.

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

كُلّما تقدّم الزَّمان؛ ظهَرَ في النَّظم القرآنيِّ إشاراتُ صِدقٍ جديدةٌ

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ عاطفَةٌ بِمَعْنى (الواو)؛ أيْ: أنَّهم لِفُروجِهِم حافِظون إلّا على أزْواجِهِم وعلى ما ملكَت أيمانُهم، لكنَّ دقَّة التَّعبير بـ ﴿أَوۡ﴾ تَكْمُن في شُمولِ الثَّناء على مَن لديهِم إماءٌ غير أزواجٍ، فرُبَّما كانت لدى الرَّجُل أمَةٌ وليسَ لديهِ زوجَةٌ، فجاءت ﴿أَوۡ﴾ لتُعْطيَ معنى التَّنويع والتَّعديد، لا وجوبَ الجمع الّذي كانت (الواو) سَتُعْطي؛ فآثَر النَّظمُ الكريم العطفَ بـ ﴿أَوۡ﴾ احتراسًا من اشتراط جَمْعِ الرَّجل ملكَ اليمين إلى الأزواج ليدخُل في هذا الثَّناء.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 407.

وواقع الأُمّة الآن - بعد ذهابِ مِلك اليمينِ - يوجب ﴿أَوْ﴾ هنا، ويُظهر لها وجهَ إعجازٍ دقيقٍ، ولو جاءت (الواو) مكان ﴿أَوْ﴾ هنا؛ لظهر في النَّظم ما لا يليق، ولا يتأتّى في كلام العليم الخبير ﷻ؛ إذ (الواو) توهِمُ التَّشْريكَ بخلافِ ﴿أَوْ﴾ الدّالَّةِ على التَّعديد.

علَّة التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾ دون (مَن) في قوله: ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

توجيهُ الأسيادِ إلى الرِّفق بالإماءِ مُراعاةً لضَعْفِهِنَّ

المقصودُ بـ ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ "سراريهم، عبَّر عنهُنَّ بـ ﴿مَا﴾ إجراءً لَهُنَّ - لِمَملوكيَّتِهِنَّ - مُجْرى غيرِ العقلاء، أو لأنوثَتِهِنَّ المُنْبِئَةِ عن المقصود"[1]، وفي إيثار النَّظم الكريم التَّعبيرَ عنهنّ بالموصول ﴿مَا﴾ دون (مَن) في قوله: ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾؛ رحمةً بهنّ، ومراعاةً لضعف عقولهنّ، وتوجيها لأسيادهنّ إلى الرِّفق بهنّ، والإيحاء إليهم بأنَّه ينبغي عليهم إذ يَسْتَمْتِعون بهنَّ أن يرحموهُنَّ، فإنَّهنّ في الخدمة والتَّنقُّل بين الأسياد يَقضين أعمارهنّ، بلا عناية - غالبًا - بتربية عقلٍ، ولا تنمية فِكْرٍ.

وقال الشّوكاني: "وعبَّر عنهُنَّ بـ ﴿مَا﴾ التي لِغير العُقلاء؛ لأنَّه اجتمع فيهنَّ الأنوثةُ المُنبئةُ عن قُصور العقل، وجوازُ البيع والشِّراء فيهن كسائر السِّلع، فأجراهُنّ بهَذَيْن الأمرين مُجْرى غيرِ العقلاء"[2].

دلالَةُ التَّعبير بالمِلك في المعطوف ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

المؤمنونَ لا يتطَلَّعون إلى غير ما يَمْلِكونَ

في إيثار التَّعبير بمفردة (المِلك) في جملة المعطوف ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى كمال حَصانَةِ فُروج المصلّين عن كلِّ المحرَّمات، وأنَّها لا تتعدّى إماء السّيِّد اللّاتي يملكهُنّ إلى غيرهنَّ من الإماء؛ لذلك اقْتَضى المقامُ التَّعبيرَ بِملك اليمين دون التَّعبير بـ (الإماء) أو (الفتيات) مُطْلَقًا ممّا اقتضاه مقاماتٌ أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 6/ 124.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 561.

﴿وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ [النّور: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ [النّور: 33].

نُكْتَةُ إسناد المِلْكِ إلى اليمين في جملة الصِّلة ﴿مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

قوَّة التَّحكُّم والتَّصرُّف لا تَمْنَعُ كمالَ الرَّحمةِ والشَّفقَةِ

أُسنِدَ الملك إلى اليمينِ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ للدّلالَةِ على قوَّةِ السَّيطرة والتَّحكّم بالمملوك؛ لِما تُشْعِرُ بِهِ اليمينُ مِنَ القوَّةِ.

إلّا أنَّ قوّة التَّحكُّم لا تقتضي الظُّلْمَ والإهانَةَ، بل إنَّ الشَّرْعَ الكريمَ أمرَ العبادَ برحمةِ المملوكين، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: "إخْوانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللّه تَحْتَ أيْديكُمْ، فَمَنْ كان أخوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمّا يَأكُلُ، ولْيُلْبِسْهُ مِمّا يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فَإنْ كَلَّفْتُموهُمْ فَأعينوهُمْ"(1)، وفي أحاديث أخرى كثيرةٍ.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾:

تعليلُ ما يُفيدُهُ الاستثناءُ مِن عدَمِ حِفْظِ الفُروجِ مِنْهُنَّ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ تفريعيَّةٌ؛ حيث تُفرِّع الحُكمَ بعَدَمِ المَلامة على الاقتصارِ على الأزواجِ ومِلك اليمين وحِفظِ الفُروج إلَّا منهنّ، وذلك يدلُّ على أنَّ الاعتداءَ والتَّخطّي لهذين القِسمَيْن موجِبٌ اللَّومَ والحدَّ بحسَبِه؛ فالجملة "تعليلٌ لما يُفيده الاستثناء من عدم حِفْظِ فروجِهِم مِنْهُنَّ؛ أي: فإنَّهم غير ملومين على عدم حِفْظِها منهُنَّ"(2)؛ "لأنَّ معاشرة الأزواجِ وما ملكت الأيمانُ ممّا أحلّه اللّه تعالى"(3).

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الفاءَ فصيحةٌ؛ لوقوعِها في جواب شرطٍ مقدَّرٍ؛ "أي: فإنْ بذلوا فروجَهُم لأزواجهم أو إمائهم فإنَّهم غير ملومين على ذلك، والمرادُ بيانُ جِنْسِ ما يَحلُّ وطْؤُه في الجملة،

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (30).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 6/ 124.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 102.

وإلّا فقد قالوا: يَحرم وطءُ الحائِض، والأمَةِ إذا زوِّجَتْ، والمُظاهَرِ منها حتّى يُكفِّر، وهذا مُجْمَعٌ عليه"[1].

معنى (إنّ)، ولطيفةُ توكيدِ الخبَرِ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾:

كرامةُ أهلِ العَفافِ والطُّهْر

(إنّ) في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، اقْتَضتْها أهمّيَّة الحُكم في نفسه بغَضِّ النَّظر عن وجود منكِر، كما أنّ فيها تنبيهًا قويًّا إلى وفرة كرامةِ هؤلاء العَفيفينَ الأطهارِ مِنَ المصلّين، وإلى ضياع كرامَةِ غيرِهِم مِمَّن لا يَحفظون فُروجَهُم مِن غير ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾.

ومِن مُقْتَضيات التَّوكيد كذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ "أنّ الأصلَ كان استحقاقه للمَلام؛ لإقباله على تحصيل ما له مِن المرامِ"[2]، وذلك لأنَّ النّاس مخلوقونَ للعبادَةِ، وكان الأصلُ في العبادَةِ التَّجرّدَ من العادةِ، فإن لم يتجرَّد عنها؛ كان ملومًا، فدُفِعَ ذلك بنفيِ اللَّوْمِ موكَّدًا.

معنى ﴿غَيۡرُ﴾ في قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾:

نفيُ المَلامِ عَنْهُم يَؤولُ إلى الثَّناء عَلَيْهِم

﴿غَيۡرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ صرفَت الحُكمَ عَنْ هؤلاء الأطهارِ إلى حالٍ أخرى غيرِ حالِ الملام؛ وهو الحُكم عليهم بنَقيضِه مِن الثَّناء، لكنَّ النَّظم الكريم اكتفى بنَفْيِ الملام؛ لدَفْعِ ما قد يُتوهَّمُ من التَّأثُّم بإتيانِ الحلالِ. فكان سَوْق ذلك الحُكم هنا نظرًا لحالِهم؛ أَوْلَى مِن سوْق الثَّناء الصَّريحِ، ثمَّ إنَّ هذا يؤولُ إلى الثَّناء ويقرِّره.

دلالَةُ التَّعبير باللَّوْمِ المَنْفيِّ، ولطيفَةُ صَوْغِه اسمَ مفعولٍ في ﴿مَلُومِينَ﴾:

انتفاءُ عمومِ اللَّوْمِ عَنْهُم

في التَّعبير باللَّوم المَنْفيِّ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ دفعٌ لتوهُّم غير المرادِ؛ وذلك لأنه لمّا كان النّاكحُ على وجهِ العبادة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 210.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 407.

والتَّقرُّبِ "نادرًا جدًا، وكان الأصلُ في العبادة الخروجَ عن العادةِ، وإن لم يتجرَّد للعبادة كان ملومًا؛ اكتفى في مدحه بنفي اللّوم عنه"[1].

وصيغَ لفظُ ﴿مَلُومِينَ﴾ على زِنَةِ اسم المفعول؛ للدّلالة على عدم توجيهِ اللَّوم إليهم من أيِّ جهةٍ كانَتْ، فالشَّرع لا يلومهم، والنّاس لا يلومونَهُم، والقيَمُ والأخلاقُ القويمة المستقيمة لا تلومُهم. فاسْمُ المفعول أفسَحَ لعمومِ نَفْيِ لَوْمِهِم مِن كلِّ مَن يتأتّى منه اللَّوم، وذلك ما أوجزه البقاعيُّ في قوله: "﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أي: في الاستمتاع بِهنَّ مِن لائم ما؛ كما نبّه عليه بالبناءِ للمفعولِ"[2].

نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق اللَّوم: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾:

نفيُ اللَّوم عن جميعِ وُجوهِ الاستمتاعِ

حُذِف متعلّق اللَّوم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، ولم يحدّد عن أيِّ شيءٍ هم غير ملومين؟ والتَّقدير: إنَّهم غَيْرُ مَلومينَ عَلى تركِ الحِفْظِ ممّا ذُكِرَ[3]، فهم غَيْرُ مَلومينَ في الاستمتاع بِهنَّ بأيِّ وجهٍ كان مِن لائمٍ ما[4] كائنًا من كان.

لطيفة التَّعبير بجملة ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾:

المؤمِنُ بالرُّسل لا يلومُ آتيًا زوجتَهُ أو مِلْكَ يمينِه

قد يُتوهَّمُ أنَّ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ غُنيةً عن قوله تعالى بعده: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾؛ وذلك لأنَّه قد أباح لهم الاستمتاعَ بِأزواجهم وبمَن كان تحتَهم بِملك اليمينِ، ولا يجوزُ أن تُلحق اللّائمةُ باستعمالِ المُباح المطلق، إلا أنَّه لمّا كان مِن النّاس مَن يُحَرِّم الاستمتاعَ بِملك النّكاح وملك اليمين، أخبرَ تعالى أنَّهم - عند مَن اعتقد الإيمانَ بالرُّسل - غيرُ ملومين، وإنَّما يَلومهم مَن أنكر الرِّسالة.

وجائزٌ أنْ يكون معناه: أنَّهم وإن مَنعوا النِّساءَ عن الجماعِ بِما

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 407.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 407.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 407.

هو خيرٌ لهم - مِن الصّيام وأنواع القُرَبِ - لَمْ تَلحقهم اللّائمةُ كما يُلام مَن يَمنع آخرَ عن طاعة الله تعالى، وإذا استمتعوا بِمِلك النِّكاح وملك اليمينِ؛ لم يُبلوا بالزّنى فتلحقهم اللّائمة بذلك[1].

الحثُّ على حِفظِ الفُروج والتَّحذير مِن تَرْكِ ذلك

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ تفصيليَّةٌ، تُفصِّل حُكم الحالِ المقابلة لحالِ الطُّهْر السّابقة مِن حِفْظِ الفُروج؛ وهي حالُ ابتغاء ما لا يحلّ مِن غير الأزواج وملك اليمينِ والاعتداء عليها؛ فالفاءُ تُسهم في تفصيلِ الحالِ الموجِبة للَّوْم والعِقاب؛ فتَبْدو الهوّة السَّحيقة بين الحالَيْن؛ فتُغْري على الأولى؛ وتُبَشِّع الثّانية وتحذِّر منها، وذلك شأنُ البيان العالي؛ حين يقابل الحالَ بضدِّها، فتزيد كلٌّ منهما مُقابِلَتَها قوَّةً في بابها.

الاسمُ الموصول يُفسِح لِذِكْر تفاصيل جُمْلَةِ الصِّلة

علَّة التَّعبير بالموصول (مَنْ) في قوله: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾:

التَّعبيرُ بالموصول (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ يُفْسِحُ التَّركيب لِذِكر جملة الصِّلة، بما فيها مِن عِفّة التَّعبير، وذلك لا يُتيحه التَّعبير بالاسم الصَّريح، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: (فالزُّناة هُمُ العادونَ). وليَدْخُلَ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ كلُّ صوَرِ الاستمتاعِ المحرَّمة، وذلك غيرُ مقتصرٍ على الزِّنى.

وفي الموصولِ أيضًا إيماءٌ إلى وجه بناء الخبرِ، وأنَّه مِن جنسِ العقوبَةِ والاعتداء.

معالجَةُ الشَّرع للنُّزوع النَّفسيِّ نحوَ المَعْصيَةِ قبلَ التَّورُّط في وحْل الرَّذيلَةِ

نُكْتَةُ التَّعبير بالابْتِغاءِ، ودلالةُ صيغَةِ "الافتعال" في الفعل ﴿ٱبۡتَغَىٰ﴾:

معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ﴾: "فمن التمَس لفرجه"[2]، و"طلب منكَحًا"[3]. والتَّعبير بالابْتِغاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 10/ 209.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 276.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.

- مع ما فيه مِن طُهْر العبارة وعفَّة اللَّفظ - يشخِّص حالَ النُّزوع النَّفسيِّ لدى هذا المنحرِف، كما يصوِّر حالَ الهياج الجَسَديّ الحيوانيِّ لديه؛ إذِ الابتغاءُ قد يكون نفسيًّا وقد يكون سعيًا جسديًّا.

وفي مادَّة الابتغاء معالجةٌ لحالِ النُّزوع النَّفسي مبكِّرًا قبل ثورة النُّزوع الجسديِّ، فيعالجُ المقدِّماتِ قبل التَّورُّط في وحَل الأفعالِ والوصول إلى مباشَرة الرَّذيلَة. وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ اللَّوم يتوجَّه إليه بمجرَّد الابتغاء والطَّلب، فضلًا عن التَّورُّط في الفعل، وذلك يتَّسقُ مع التَّحذير من الاقتراب في قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187].

وعُبِّر بصيغة الافتعال في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ لأنّ ذلك لا يقع إلّا عن إقبالٍ عظيمٍ مِن النَّفس، واجتهادٍ في الطَّلب[1].

لَطيفَةُ حَذْفِ مَفْعولِ ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾:

التَّراكيب القرآنيَّة تطبِّق أحكامَها المعنويَّة

أمسَك النَّظم الكريم عن ذِكر مفعول ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾، والتَّقدير: فَمَنِ ابْتَغَى مَنكَحًا سوى زوجته أو مِلكِ يمينِه[2]، أو: فمن ابتغى الحرامَ أو الزِّنى أو ما لا يَحلُّ له. والإمساكُ عن ذكره من عِفّة النَّظم الكريم، التي تُضاف إلى عِفَّته باصطفاء لفظِ الابتغاء.

وفي طَيِّ مفعول الابتغاءِ تنفيذٌ لفظيٌّ واقعيٌّ للحُكم المعنويِّ، وكأنَّه يقول: إذا كان الإمساكُ عن التَّلفُّظ بذلك المفعول المستقبَح منهجًا مرغوبًا، وكان ذِكرُه محذورًا؛ فما الظَّنُّ بِجُرم إتيانه فعلًا، وبفظاعة عقوبتِه حدًّا؟!

دلالة التَّعبير بلفظِ الوراء في قوله: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾:

عفَّة الإنسان طريقُ الاستقامةِ إلى الأمامِ، بخلافِ الحرام فهوَ انتكاسةٌ تُؤَخِّر مقارِفَه إلى الوراءِ

المقصود بـ ﴿وَرَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾: خلاف ذلك؛ أي: "غير الزَّوجات والمملوكات"[3]، فـ "كأنَّه أمرٌ قد حُدَّ فيه حَدٌّ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 407.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 276.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.

فمن طَلب بُغيتَه وراءَ الحَدِّ؛ فهو كمستقبِل حدٍّ في الأجْرام وهو يتَعَدّى وراءَهُ"[1].

وفي التَّعبير بلفظ ﴿وَرَآءَ﴾ إيحاءٌ بأنَّ عفَّة الإنسان، وحفظَ فرجِه عمّا سوى ما أحلّ اللّه تعالى لهُ؛ هو الاستقامةُ السّائرة إلى الأمام، وأنّ الحلال هو المقدَّم، وأنَّ الحرام ينبغي أن يكونَ في حياةِ الأطهار إلى الوراءِ، فيولّيه العاقلُ ظهرَه، وأنّ الالتفاتَ إليه انتكاسٌ لا يليقُ.

مَرْجِعُ الإشارَة، ودلالَةُ البُعْدِ في قوله: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾:

الحلالُ يَسمو بمنزلَةِ المُؤْمِن، والحرامُ رَذيلَةٌ تُسْقِطُ المُروءَةَ

في التَّعبير عن الحلالِ السّابق ذِكْرُه - من "الحدِّ المتَّسِع؛ وهو أربعٌ مِن الحرائر، وما شاء من الإماء"[2] - بإشارةِ البَعيد في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ إشادةٌ ببُعد منزلة الحلالِ في الفَضيلة، وسموِّ منزلة المؤمن القاصِر نفسَه عليه، بخلاف الحرام الّذي يلوِّث أصحابَه، ويُسْقِطُهُم من المروءة، ويَحطُّهم في نظر النّاسِ.

معنى (الفاء) في جُمْلَة: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾:

توثيقُ عُرَى الكلامِ وتوثيقُ رِباطِهِ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط (مَن ابتغى وراء ذلك)، وتؤسِّس للحُكم بالعُدوان وتجاوزِ الحَدّ على طالب الحرامِ ومُبْتَغيه، وبها تتواثق عُرى جُمْلَتَي الشَّرط والجواب، وذلك من فضائلها.

دلالَةُ التَّعبير بإشارةِ البُعْدِ في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾:

بقدر مَذَمّة أهل الشَّرّ الموغلين في الحرام تكونُ مَمْدَحَةُ أهل الخير المُلْتَزمين بالحلالِ

التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ إيماءٌ إلى "الّذين هم في الحضيض مِن الدَّناءة وغاية البُعد عن مَواطن الرَّحمة"[3]، وقد جاءَت بإزاءِ إشارة البُعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ لتُفيد بُعْدَ منزلة ذلك

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 369.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 6/ 124.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 408.

المُعْتَدي في الشَّرِّ والرَّذيلَةِ والحَرام، بقَدْرِ بُعْدِ منزلَةِ أهلِ الطُّهر في الخَيْر والفَضيلَة والحلال.

دلالَةُ التَّعبير بالخبَرِ ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ جملةً اسميّة، ولطيفةُ بِنائِها على تقديمِ الضَّمير:

عُـدوان الزُّنـاة عـلى أعـراضِ النّاس، وتخليطُ أنْسابِهِم لا يكادُ يُضاهيه عُدْوانٌ

في صَوْغِ الخبَرِ ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ جملةً اسميَّةً تأكيدُ الحُكم عليهم بأنَّهم ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ الرّاسِخون في العُدْوانِ، المُتجاوِزونَ حدودَ اللّه تعالى.

وبناء جُملة الخبر ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ على تقديم الضَّمير ﴿هُمُ﴾، مع تعريف الخبرِ بـ (أل) ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ مبنيٌّ على التَّجوّز في عموم نفي العدوان عن غَيْرِهم أصلًا، واعتبار عدوانِ غيرِهِم بالنِّسبة لعُدْوانِهم كأنَّه ليس عدوانًا؛ إذْ مِن غيرهم مَنْ هوَ عادٍ في جوانبَ عديدةٍ، لكنَّ جريمة هؤلاء، وعُدوانَهُم على أعراض النّاس، وتَخْليطَ أنسابِهم لا يكاد يُضاهيه عدوانٌ. وتقديمُ الضَّمير ﴿هُمُ﴾ يزيدُ الحُكْمَ عليهم بالعُدْوانِ تأكيدًا إلى تأكيدٍ.

معنى (أل) في ﴿ٱلْعَادُونَ﴾، ولطيفةُ صَوْغِه اسمَ فاعل:

مبتغي المُتْعَةِ المُحَرَّمةِ يرتكِبُ عُدوانًا صريحًا

﴿ٱلْعَادُونَ﴾ هم الّذين عدَوْا ما أحلَّ اللّهُ تعالى لهم إلى ما حرَّم عليهم؛ فهم المَلومون[1]، والعادي هو المُفْسِد؛ أي: هم الّذين أفْسَدوا؛ فاخْتَلَطَت أنسابُهم، وتطرَّقت الشُّكوكُ إلى حصانَةِ نِسائِهم، ودخلَت الفَوْضى في نُظم عائلاتِهم، ونشأت بينَهُم الإحَنُ مِنَ الغَيْرَة[2]، والعادي هو الظّالمُ في الحقيقَةِ؛ فالّذين يَبْتَغونَ ما وراء الحلالِ هُم عادونَ؛ حيث ظَلَموا أنفُسَهُم فوَضَعوها في موضعٍ لَم يؤذَن لَهُم وضْعُها فيه[3].

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 276.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 173.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 210.

ففي اصطفاء مفردةِ العدوانِ في الخبر ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ تشنيعٌ عليهم، وتحذيرٌ من سلوكِهِم المشين، وتهديدٌ لهم ليَرْتَدِعوا عن مجرَّد الابتغاء، وقبل النُّزوع إلى مباشرة العُدوان.

وفي صوغ الخبر - ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ - اسمَ فاعل تأكيدٌ على رُسوخِهِم في وصفِ العُدْوان، ووَصْمِهِم بهِ وصمًا لاصقًا بهم. ويقرِّره تعريفُ ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ أي: هُم "الكاملون في العدوان، المُتناهونَ فيه، كما يشير إليه الإشارةُ والتَّعريف وتوسيط الضَّمير المفيد لجعلهم جنسَ العادين أو جميعَهم"[1]، وأنَّهم هم "المختصّون بالخروج عن الحدِّ المأذون فيه"[2] دون المصلّين الأنقياء، و"هذه الآيَةُ تدُلُّ على حُرْمَةِ المُتْعَةِ ووَطْءِ الذُّكرانِ والبهائم والاستِمْناءِ بالكَفِّ"[3].

معنى (الواو) في قولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾، ووجهُ المناسبةِ بينَ الأمانة وما قبلها:

لُحماتُ نسَب المعاني القرآنيَّة متينَةٌ، ووجوهُ تلاقيها بديعَةٌ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ عاطفة؛ حيثُ تُضيفُ للمُصَلّين مكرُمَةً أُخْرى، وتعدِّد لهُم فضيلةً جديدَةً، وتَجْمَعُ لهُم شرفًا إلى شرَفٍ، وهو امتلاءُ نفوسِهِم، وعدمُ طَمَعِهِم في أمانات النّاس، إلى عدم تَضْيِيعِهِم تكاليفَ ربِّهِم ﷻ.

ومناسبَةُ إلحاقِ الإشادةِ بطُهر أعراضِهِمُ الإشادةَ بأمانَتِهِم، وصَوْنِهِم أماناتِ غيرِهِم أنّه لمّا ذَكَرَ العاديَ؛ أتبَعَهُ الواقِفَ عند الحدود، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾؛ أي: يقومون بما يجِبُ عليهم في كلِّ ما ائتمَنَهم اللّه تعالى عليه مِن حقِّه وحقِّ غيره[4].

دلالَةُ التَّعبير بالصّلة ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ جملةً اسميَّة:

كـمالُ رِعـايَـةِ المُــؤْمِـنـين لــلأمـانـاتِ والعُهودِ

في التَّعبير عن جملةِ الصِّلة ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 210.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 408.
(3) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 408.

جملةً اسميَّة دلالةٌ على تَمرُّسهم على سُلوكِ حِفْظِ الأمانات ورعاية العَهْد، ودوامِهم على ذلك حتّى اشتُهِروا به، وتميَّزوا فيه، وكأنَّهم - هم دونَ بقيَّة النّاس - الموصوفون بذلك ولا يُشارِكُهُم فيه أحَدٌ، وأنَّ رِعايَةَ غَيْرِهِم للأماناتِ والعَهْدِ لا تُذكر بإزاءِ دَرَجَة كمالِ المُصَلّين في هذا البابِ مِنَ الفضائل.

وَجْهُ المُناسبَةِ في رعايةِ الأمانات والعهدِ في السّياق:

المــؤمــنُ دائِــمُ الرِّعاية للأمانَةِ والعَهْدِ، والكافِرُ مضيِّعٌ للأمانَةِ ناكِثٌ للعهْدِ في الدّنيا والآخرة

ذَكَر اللّه تعالى رَعْيَ الأماناتِ والعهدِ هنا لِمُناسبة وصفِ ما يَودّ الكافر يومَ الجزاء أنْ يفتديَهُ مِنَ العذاب بفصيلته الّتي تؤويه، فيذهب منه رَعْيُ العهودِ الّتي يجب الوفاءُ بها للقبيلةِ. وحسبُك مِن تشويه حالِه أنَّه قد نكَثَ العهود الّتي كانت عليهِ لقَوْمِهِ مِن الدِّفاع عن حقيقتهم بنَفْسِه، وكان يَفْديهم بنفسِه، والمسلمُ لمّا كان يَرْعى العهدَ بما يُمليه عليه دينُه؛ جازاه اللّه تعالى بأنْ دفَع عنه خِزيَ ودادَةِ فِدائِهِ نفسَه بِمواليه وأهلِ عَهْدِه[1].

وذكر الألوسيُّ وجهًا آخرَ في ذلك؛ فقال: "ويجوز عندي أنْ يُراد بالأماناتِ: ما ائتَمَنهم اللّهُ تعالى عليه مِن الأعضاء والقوَى، والمراد برَعْيِها حفظُها عن التَّصرُّف بها على خلاف أمْرِه ﷻ. وأن يُراد بالعَهْدِ ما عاهَدَهُم اللّه تعالى عليه ممّا أمرَهُم به سبحانه بكتابِه وعلى لسانِ رَسولِه ﷺ، والمراد برَعْيِه حفظُه عن الإخلال به وذلك بِفعله على أكمَلِ وجْهٍ؛ فحِفظُ الأماناتِ كالتَّخلية وحفظُ العهد كالتَّحلية، وكأنَّه ﷻ بعد أن ذَكر حِفظَهم لفروجِهم؛ ذَكر حِفظَهم لما يَشملها وغيرَها. ويجوز أن تُعَمَّم الأماناتُ؛ بحيث تَشمل الأموالَ ونحوَها، وجَمَعَها؛ لِما فيها مِن التَّعدُّد المحسوسِ المشاهَد"[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 173.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 214.

نُكْتَةُ تقديمِ الضَّمير في جملةِ الصِّلة ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾:

المؤمنون هُم الأُمَناءُ الكُمَّلُ بينَ الأُمَمِ

في تقديم الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ في جملة الصِّلة ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ تخصيصُ المُصَلّين بمَنقبةِ رعايَةِ الأمانة واحْتِرام العَهْدِ دونَ سِواهم، وقصرُهما عليهِم إشادةٌ بأخلاقهمُ العاليَة، وتعريضٌ بِمَن سِواهُم، وتقريرٌ بأنَّهم هُم الشُّرفاء الأمناءُ؛ فاسْتَأهَلوا بتلك المناقبِ الثَّناءَ من الملِكِ ﷻ.

دلالَةُ التَّعبير بمفردتَي الأمانَةِ والعَهْدِ، ولطيفةُ الجَمْعِ بينهما:

كلُّ عباداتِ العَبْدِ ومعاملاتِه أمانَةٌ، والمُؤْمِنُ الكامِلُ مَن يقومُ بحَقِّها ويَرْعاها

الأماناتُ جَمْعُ: أمانةٍ؛ وهي في الأصلِ مصدرٌ، لكن أُريد بها هنا ما ائتُمِن عليه؛ إذ الحِفظ للعَيْن لا للمعنى[1]، وأماناتُ اللّهِ الّتي ائتَمنَهم عليها من فرائضِه، وأماناتُ عبادِه الّتي ائتُمنوا عليها، وعهودُه الّتي أخذها عليهم بطاعتِه فيما أمَرهم ونهاهم، وعهودُ عبادِهِ الّتي أعطاهُم على ما عقدَه لَهُم عَلى نفسِه[2].

والعَهْدُ: كلُّ ما تَقلَّده الإنسانُ مِن قولٍ أو فِعْلٍ أو مَوَدَّة. إذا كانت هذه الأشياءُ على طريق البِرِّ؛ فهو عهدٌ ينبغي رَعْيُه وحفظُه، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: "حُسْنُ العهدِ من الإيمان حُسْنُ العَهْدِ مِنَ الإيمان"[3]، والعهدُ نوعٌ ذو خصوصيَّةٍ من أنواعِ الأمانات، فهو "ما كان من الأماناتِ بِرَبْطٍ بالكلام وتوثيقٍ"[4].

والتَّعبير بمفردة الأمانة يوجز أنواعَ الأمانات كلَّها؛ من عباداتٍ ومعاملات، فالوضوءُ أمانَةٌ، والصَّلاةُ أمانةٌ، والصّيامُ أمانةٌ، وأموالُ النّاس عند المُصَلّين أمانَةٌ، وحقوقُ المستحِقّين في أموالهم أمانَةٌ. وهَكذا يَصْطَفي النَّظْمُ الكريمُ مِنَ المُفْرَداتِ أشْمَلَها دلالَةً وأرْحَبَها حينَ يُرادُ ذَلِكَ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 214.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 277.
(3) رواه الحاكم في المستدرك، برقم: (40)، وهو صحيح كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (2056).
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 408.

وجُمعت الأمانةُ دون العَهْدِ؛ لأنَّها متنوِّعةٌ متعدِّدةٌ جدًّا بالنِّسبة إلى كلِّ عَبْدٍ من جِهَتِه تَعالى، ولا يكاد يَخلو عبدٌ مِن ذلكَ، وليسَ العَهْدُ كذلك[1].

دلالَةُ تقديم (أماناتِهِمْ) على (عَهْدِهِمْ)، ونكتةُ جَمْعِ الأوّل وإفراد الثّاني:

المؤمِنُ دائِمُ الوفاءِ بعَهْدِه، فلا يفي مرّةً وينكُث أخرى

تقديم (أماناتهم) على (عهدهم) مِن تقديم الأعمّ للإحاطةِ، ثُمّ إلحاقه بالأخصّ للخصوصيَّة؛ أي: خصوصيّة إقامةِ الثِّقة بين النّاس من جهةٍ، ودلالته على سُموِّ نَفْسِ المُؤْمِنِ مِنَ الجِهَةِ الأُخْرى، وكأنّ تأخيرَ العَهْدِ خَتْمٌ على الأمانات؛ لأنَّ الوفاءَ بكُلِّ أمانَةٍ ورعايتَها وفاءٌ بِعهْدٍ يتعلّق بها ويخصّها.

فإفراد العَهْدِ تذكيرٌ بكلِّ عهدٍ على حدةٍ، وتضييعُ كُلِّ أمانةٍ تضييعٌ لعَهْدِها، فالأماناتُ تتعَدَّد والعهدُ واحِدٌ، فصاحِبُ العَهْدِ الصّادق وصاحبُ العَهْدِ الوافي دائمٌ على المبدأ، لا يفي مرّةً ويَنكُث أخرى؛ ولذلك أُفرد العَهْدُ. أمّا الأماناتُ؛ فجُمَعت للتَّذكير بكثرتها وتنوُّعها.

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾، ونكتةُ الجَمْعِ بينَهُما:

بينَ العَهْدِ والأمانَةِ تلازُمٌ في حياةِ المُؤْمِنِ

في إضافةِ الأماناتِ والعَهْدِ إلى ضَميرِ المُصَلّين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ إيحاءٌ بأنّهم أهلُهما الجَديرون بهما، وكأنَّهما يَخُصّانهم دون سواهم، وأنَّ غيرَ المُصَلّين ليسوا بتلكَ المنزلةِ الشَّريفَةِ.

والجَمْعُ بينَ رِعايَةِ الأماناتِ والعَهْدِ جمعٌ بين اللّازم والمَلْزوم؛ لأنَّ رعايةَ الأمانات تستلزِمُ الوفاءَ بالعَهْدِ ورِعايته، والوفاءَ بالعهد ورعايتَه يستلزِمانِ الوفاءَ بالأمانات ورعايتَها.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة في (أماناتهم):

التّكامُل الدّلالي للقراءاتِ القُرآنيَّة

قرأ ابن كثير ﴿لِأَمَٰنَتِهِمۡ﴾ بغير ألفٍ بعدَ النّون على الإفرادِ. وقرأ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 214.

الباقون ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ بالألف بعد النّون على الجمع[1]؛ "لأنَّها تكون متنوِّعة مِن حيثُ هي في الأموالِ وفي الأسرارِ فيما بين العَبْدِ وربِّه فيما أمَرَهُ ونَهاهُ عنهُ، قال الحَسَنُ: الدّين كلُّه أمانَةٌ. وأمّا قراءة ابن كثير بالإفرادِ: ﴿لِأَمَٰنَتِهِمۡ﴾[2] فلِقَصْدِ إرادَةِ الجِنْسِ، وفي ذلك تشديدٌ على خُطورَتِها.

دلالَةُ التَّعبير بالرِّعاية في الخبَرِ ﴿رَٰعُونَ﴾، ونُكْتَةُ صَوْغِه اسمَ فاعِلٍ:

حِفظ المؤمنين أماناتِهم ووفاؤُهم بعَهْدِهِم مِن أسبابِ ثناءِ الله تعالى عليهم

أصلُ الرَّعْيِ: حِفظ الحيوان؛ إمّا بِغذائه الحافظِ لِحياته، أو بِذَبِّ العدوّ عنه، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في الحِفْظِ مُطْلَقًا[3]، والرّاعي هو القائِمُ على الشَّيء بِحفظٍ وإصلاحٍ، كراعي الغنَم وراعي الرعيَّة. وراعي الشَّيء: متولّيه وصاحبُه، ويحتَمِلُ العمومَ في كلِّ ما ائتمنوا عليه وعوهدوا مِن جهةِ اللّه تعالى، ومن جهةِ الخَلْقِ، وما حُمِّلوه مِن أمانات النّاس وعهودهم[4].

فمعنى قوله تعالى في صفة المُصَلّين: ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ أنَّ المؤمنين "حافظون غيرُ خائِنين ولا ناقِضين"[5]، وأنَّهم يَرْقُبون ذلك كُلَّه، ويَحْفَظونه فلا يُضَيِّعونه، ولكنَّهم يُؤَدّونها ويَتَعاهَدونها على ما ألزَمهم اللّهُ، وأوجَب عليهم حفظَها[6]، لا على مراقبة النّاس والخوف من سَطْوَةِ السُّلْطانِ أن يُلْزِمَهُم أو يُعاقِبَهُم.

ففي التَّعبير بالرِّعاية في قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ دلالَةٌ على تعهُّد المؤمنين المُصَلّين كلَّ المطلوباتِ الشَّرعيَّة الّتي ائتُمِنوا عليها والعهدَ الّذي قطعوه على أنفُسِهم للّه تعالى، كما

---

(1) النيسابوري، المبسوط في القراءات العشر، ص: 446، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 328.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 369.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 214.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 177.

(5) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.

(6) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 277.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾ [الأعراف: 172] أو قطعوه على أنفسهم لأحدٍ من خلق الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1] فعن ابن عَبّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قال: "هي العهود"[1]، وكأنَّ الأماناتِ والعهدَ كائنان متمايزان، يُرْعَيان، ويُتعَهَّدان بالإصلاح.

بلاغَةُ الاستعارَةِ في رَعْيِ الأماناتِ والعَهْدِ:

إخراجُ المَعْقولاتِ في صورَةِ المَحْسوساتِ أعلَقُ بالذِّهْنِ وأبلَغُ في الفَهْمِ

في إيقاع الرَّعْي على الأماناتِ والعهد استعارَةٌ مكنيَّة؛ وذلك بتشبيهِ الأماناتِ والعَهْدِ بالحيوان الّذي يقومُ على شأنه مَن يرعونَه؛ فيُحافِظون عليهِ مِنَ الضَّياع، ويقومون على حراسَتِه مِن أسباب التَّلف أو الهُزال، بل ويَعْمَلونَ على تَنْميَتِه وتعظيمه.

وفي هذه الاستعارَةِ مُبالغةٌ في تَعهُّد المؤمنين أماناتِهم وعهدَهم؛ حتّى يُؤَدّوه على الوجه الأكمَلِ، الّذي يُسَنِّمُهُم رُتبة الثَّناء الإلهيِّ الجميل.

مُناسبَةُ ذِكْرِ الشَّهادة في السّياق:

تأديَةُ الشَّهادة على وجْهِها أمانَةٌ؛ ومؤدّيها أهلٌ للثَّناء

مناسبة ذِكر الشَّهادات هنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ هوَ ذِكرُ رَعْيِ الأمانات قبلَها؛ إذِ الشَّهادة من جملة الأمانات؛ لأنَّ حقّ المشهود له وديعةٌ في حِفظ الشّاهد، فإذا أدَّى شهادتَه فكأنَّه أدّى أمانةً لصاحِبِ الحقِّ المشهود له كانَت في حِفظِ الشّاهد؛ ولذلك كانَ أداءُ الشَّهادة إذا طولِب به الشّاهدُ واجبًا عليه، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ [البقرة: 282][2].

دلالَةُ التَّعبير بالصّلة ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ جملةً اسميَّة:

مـلازمَـةُ المُؤْمِنِ القيامَ بالشَّهادات على وجْهِها دون تهيُّبٍ لتَبِعاتِ ذلك

في صَوْغ جملةِ الصِّلة ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ دلالةٌ على ثباتِ حالِ المُصَلّينَ على مبدأ القيامِ بالشَّهادات كما يَنْبَغي، فلا يَزيغونَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 3/ 436.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 174.

عَن شيءٍ مِنْها، ولا يأخذونَ في اعْتِبارِهِم خواطِرَ ولا مصالح. ومِن دواعي الاسميّة كذلك "أنّ أداءَ الشَّهادة يَشُقّ على النّاس؛ إذْ قد يكون المشهودُ عليه قريبًا أو صديقًا، وقد تُثير الشَّهادة على المرء إحنَةً منهُ وعداوةً"(1)، بل قد تَجرُّ على المسلم مصائِبَ في الدّنيا ظاهرًا، ومع ذلك يَسْتَعْصِمُ العبدُ المؤمنُ باللّهِ تعالى ويُؤَدّيها على وجْهِها.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الضَّميرِ في الصِّلة ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾:

القِيامُ بحَقِّ الشَّهادة مِن خصوصيّات المؤمنينَ الكُمَّلِ

في بناء جُمْلَةِ الصِّلة ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ على تقديم الضَّمير ﴿هُم﴾ دلالةٌ على أنَّ القيام بحقِّ الشَّهادة من خصوصيّات المُسْلمين أهلِ الصَّلاة، وأنَّ سواهُم - غالبًا - مُجَرَّدون من تلك الفضيلَةِ. فتقديمُ الضَّمير يفيد القصر، ويُشيد بأخلاق المُصَلّين في هذا الجانِبِ، كما أنّهم خلاصةُ خلاصةِ الأمم في الجوانبِ الأخرى.

نُكْتَةُ تقديمِ القَيْدِ ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾ على الخبَرِ ﴿قَآئِمُونَ﴾:

المؤمنون يولون الشَّهاداتِ عنايةً خاصّة

في تقديم القيد ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾ على الخبر ﴿قَآئِمُونَ﴾ تنبيهٌ إلى خُطورة الشَّهادات، وعنايةِ المصلّين بها، وعدم غَفْلَتِهِم عَن حقِّها، وتقْديمهم أمرَها، و"أنَّهم في فَرْطِ قيامِهِم بها، ومراعاتِهِم لَها كأنَّهم لا شاغِلَ لَهُم سواها"(2).

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾:

المؤمنُ مُسْتَصْحِبٌ صِدقَ الشَّهادة على وجهِ الدّوامِ، مستعينٌ على قيامِ حياتِه وضَبْطِها بذلكَ

(الباء) في قوله تعالى: ﴿هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ لها معنى المُصاحبَةِ؛ وأنَّ المصلّين مُسْتَصْحِبونَ مبدأ الشَّهادة الصّادقة على وجهِ الدّوام، فلا يَتَخَلَّون عنهُ مطلقًا، ولا يُفارِقُهُم هو أبدًا، وأنّ المُصَلّين يقومون مُصاحِبين للشَّهادة، ويصيرُ معنى الباءِ في الاستعارة معنى التَّعدية؛ فذِكْرُ القيام بالشَّهادة إتمامٌ لِخِصالِ أهلِ الإسلام، فلا يتطَلَّب له مقابِلٌ مِن خِصالِ أهلِ الشِّرك المذكورة فيما تقدَّم(3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 174.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 408.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 174.

وفي (الباء) أيضًا رائحَةُ الاستعانَةِ، وكأنَّ المصلّين يَسْتَعينونَ عَلى قيامِ حَياتِهِم وضَبْطِها بِصِدْقِ شَهاداتِهِم.

دلالَةُ التَّعبير بـ (شَهاداتِهِمْ)، ولطيفةُ تَخْصيصِها بالذِّكر بعدَ عُمومِها في (أماناتِهِمْ):

بِالشَّهاداتِ الصّادقةِ تَنْضَبِطُ الحُقوقُ، ويتَّزِنُ المجتمَعُ، ويُبنَى على النُّصفةِ والحقِّ

المقصودُ بشَهادات المُصَلّين شهادتُهم على أنْبيائِهِم بالبَلاغ، وعلى أُمَمِهم بالقَبول أو الامتناعِ، وشهاداتُهُم في حِفْظِ الحُقوق بالدُّخول فيها عندَ التَّحمُّل، والقيامِ بها عند الأداء. وأنَّهم إذا شاهدوا أمرًا أقاموا الحقَّ للّه تعالى فيه من مَعْروفٍ يَفْعَلونَهُ ويأمُرون به، ومنكَرٍ يَجْتَنِبونَهُ ويَنْهَوْنَ عنه[1].

وفي النَّصّ على (شَهاداتِهم) بعد دُخولِها في عُموم (أماناتهم) تنويهٌ بخصوصيَّة الشَّهادات، وأثرِها المُتَمَيِّز في استقامةِ الحياة، وضبْطِ الحُقوق، واتِّزان المجتمع، وقيامِه على النُّصفة والحقِّ بلا انحرافِ المجاملاتِ ومُراعاةِ الاعتباراتِ المختَلِفَةِ.

والشَّهادةُ من جملة الأمانات؛ ففي تخصيصِها إبانةٌ لِفضلها؛ لأنَّ في إقامتِها إحياءَ الحقوقِ وتصحيحَها، وفي زَيْفِها تضييعَها وإبْطالَها[2].

دلالَةُ التَّعبير بالقيامِ، ونُكْتَةُ صَوْغِهِ اسمَ فاعِلٍ في الخبَرِ ﴿قَآئِمُونَ﴾:

لأداءِ الشَّهاداتِ على وجْهِها الأكمَلِ أثَرٌ قويٌّ في تقويمِ انْحِرافاتِ النُّفوس

في التَّعبير بالقيام في قوله تعالى: ﴿قَآئِمُونَ﴾ دلالةٌ على وعْيِ المُصَلّين بِدَوْرِ الشَّهادات الصّادقة الموفَّقة في بناءِ الحَياة، وتقويم اخْتِلالاتِها المُتَرَتِّبة على انْحِرافاتِ بعضِ النُّفوس، ولأهمّيَّة الشَّهادة أكثَرَ العلماءُ من تبيين صوَرِها.

ومعنى قيامِ المُصَلّين بِها أنَّهم يتحمَّلونها، ويؤدّونها على غاية التَّمام والحُسن، أداءَ مَن هو متهيِّئٌ لها، واقفٌ في انتظارِها[3].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 95.

(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 24.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 409.

أحبّوا أو كَرِهوا، ضرَّهم ذلك أو نَفَعَهُم[1]، وأنَّهم يقيمونها عندَ الحُكّام بلا مَيْلٍ إلى قريبٍ وشريف، أو ترجيحٍ للقويِّ على الضَّعيف؛ إظهارًا للصَّلابة في الدّين، ورغبةً في إحياء حقوقِ المُسْلِمينَ[2].

وأنَّهم لا يَشْهَدونَ إلّا بما يَعْلَمونَهُ، مِن غير زيادَةٍ ولا نَقْصٍ ولا كِتْمانٍ، ولا يُحابي فيها قريبًا ولا صديقًا ونحوَه، ويكون القَصْدُ بها وجهَ اللّه[3]؛ وذلك عملًا بقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرّحمن: 9]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [الطّلاق: 2]، كما أنَّ "القيام بها يشمَل الاهتمام بشأنِها، وحفظَها إلى أنْ يُؤدّيَها صاحِبُها على الوَجْهِ الّذي يُحِبُّه سُبْحانَهُ"[4].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾:

تحفُّزُ المؤمنين بكُلّيّتهم لأداء الشَّهادة؛ خوفًا مِن ضياع الحقوقِ وتحمُّل التّبِعات

في التَّعبير عن أداءِ المُصَلّين شهاداتِهم بالقيام استعارةٌ تبعيَّةٌ في اسم الفاعل ﴿قَآئِمُونَ﴾؛ أي: أنَّهم مؤدّون إيّاها، وأنّهم "لا يَكْتُمون ما استُشْهِدوا عليه، ولكنَّهم يَقومون بأدائِها حيثُ يَلْزَمُهم أداؤُها، غيرَ مُغَيَّرةٍ ولا مُبَدَّلةٍ"[5]، ويحفظون ما يَشهدون فيه، ويَتَيَقَّنونَه، ويقومون بمعانيه؛ حتّى لا يكون لَهُم فيهِ تَقْصيرٌ. وإذا كانَت عِنْدَهُم شهادَةٌ ورَأَوا حقًّا يُدْرَس أو حُرمةً للّه تعالى تُنْتَهك؛ قاموا بشهادتهم، وقال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: شهادَتُهم في هذه الآيةِ: (لا إله إلا اللّه وحدهُ لا شريك له)[6].

وهذه الاستعارةُ تفيدُ المبالغةَ في اهتمام المؤمنينَ بأداءِ الشَّهادات، وكأنَّهم واقفون على أقدامِهم، متحفِّزون بكُلّيَّتهم لأدائها؛ خوفًا مِنَ التَّقصير فيها؛ فتَضيع حُقوقٌ، ويتحمَّلون تبِعات الظُّلم المترتِّب على ذلك.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 210.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 887.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 102.
(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 277.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 369.

توجيهُ القِراءات القرآنيّة في قوله: ﴿بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾:

جِنْسُ الشَّهادة خطيرُ التَّبِعة، أيًّا كان المشهودُ به أو لَهُ أو عليهِ

قرأ حفصٌ عن عاصم ويعقوبُ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ﴾ بالألف بعدَ الدّال على الجمعِ؛ تعميمًا لأصنافِ الشَّهاداتِ. وقرأ الباقون ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَتِهِمۡ﴾ بغير ألفٍ بعدَ الدّال، على الإفرادِ[1]؛ تأكيدًا على خطورة جِنْسِ الشَّهادة أيًّا كان المشهودُ به أوْ لَهُ أوْ عليه.

دِلالَةُ التَّعبير بالصِّلة ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ جملةً اسميّةً:

دوامُ المُؤمنين على الصَّلاةِ أداءً وحِفْظًا ورِعايَةً

في صَوْغِ جُمْلَةِ الصِّلة اسميَّةً في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ إشادَةٌ بتَرَسُّخ فريضةِ الصَّلاة في حياةِ المُصلّين، واسْتِمْرارهم على أدائِها في أوقاتِها وبشَرائِطِها، وتقديرهم لدَوْرِها في إقامَةِ الدّين في النُّفوس؛ بحيث يَنضَح سلوكًا قويمًا على حياتهم؛ ذلك لأنَّها الأساسُ الّذي إذا صَلَحَ؛ صلحَ دينُ المرءِ كُلُّه، وصلحَ عملُه كلُّه، وإذا فسدَتْ؛ فسدَ كلُّه، وأنَّها مبدأُ الدّين ومنتهاه؛ ولذلك بها بَدَأتِ الإشادَةُ بصفات المُصلّين، وبها خُتمتْ، وكأنَّها الحصنُ الأوَّل والأخير، الّذي لا يُؤْتَى المؤمِنُ من قِبَلِه أبدًا.

دلالةُ التَّعبير بضميرِ الفصلِ، ونُكتَةُ تَقديمِه في قوله: ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾:

النَّظْمُ القرآنيُّ يَشْهَدُ للمُؤْمنين بالتَّفرُّد بالمُحافظَةِ عَلى صَلاتِهِم

في التَّعبير بضمير الفصْلِ ﴿هُمۡ﴾ من قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ إذ لا يُحافظُ على الصَّلوات المفروضاتِ غيرُهم؛ فكان ذلك سببَ الإشادة بِهِم أوَّلًا وآخرًا، وتَأَهُّلَهُم لذلكَ الثَّناء الرّبّانيِّ الكريم، والمدح الإلهيّ السّامي الشَّريف.

وفي تقديم الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ على المسنَد الفِعْليِّ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ في جملة الصِّلة ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ تأكيدٌ لمضمون الجملة؛ إذ تكرَّر الإسنادُ مرَّتينِ تعظيمًا له وتفخيمًا، ووجْهُ تَكرارِهِ أنَّ فعل

(1) النيسابوري، المبسوط في القراءات العشر، ص: 446، وابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 391.

المحافظَةِ أُسنِدَ إلى الاسم الموصول (الّذين)، وأُسنِدَ إلى واو الجماعَةِ في ﴿يُحَافِظُونَ﴾.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في جملة ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ للاستعلاء المجازيِّ؛ إذِ الصَّلاة تَعْلو وترتَفِعُ إلى السَّماء، ويلزَمُ مِنْ ذلك علّو رُتبة المُصَلّين بصَلاتِهم، وأنَّ صَلاتَهُم مِعْراجٌ يَرقى بأرواحِهِم في مدارجِ الكمالِ، ويَسمو بها في معارجِ الرِّضوان.

الصَّلاة معراجٌ يَرْقى بالرّوحِ في مدارجِ الكمالِ، ويَسْمو بِها في معارجِ الرِّضوانِ

ولَمّا كان فِعْلُ الحِفْظِ يتعدّى بـ (على) باعتبارِ تضمُّنه معنى الإمساكِ والقَصْر؛ فإنّ كُلًّا مِنْهُما يتعَدّى بـ (على)، كما قال الله تعالى: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]، فلولا اعتبارُ التَّضمين ما عُدّي فِعْلُ الحِفْظِ بـ ﴿عَلَىٰ﴾، فكَوْنُ اعتبارِ كَلِمَة ﴿عَلَىٰ﴾ صلة ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يتوقَّف على اعتبارِ التَّضمين[1].

نُكْتَةُ تقديمِ القَيْدِ ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ على الخبَرِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾:

ممّا يُسْهِم في بيان مكانَةِ الصَّلاة في الإسلام في هذا التَّركيب تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ﴾ على الخبَرِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ تأكيدٍ وتقريرٍ لِعنايَةِ المُصَلّين بصَلاتِهِم، وكأنَّها الجهَةُ الوحيدَةُ لِمَحَطِّ عنايتهم ومحافظتهم، وكأنَّهم يَخْتَصّونها بالحِفْظِ دونَ سِواها مِنَ المأموراتِ على كَثْرَتِها، وعلى عنايَتِهم بها أيضًا.

شِدَّةُ عنايةِ المُسلمين بصلاتِهِمْ

نُكْتَةُ تَكريرِ الصّلاة، وبراعَةُ التّكامُلِ بينَ الخبَرَيْنِ ﴿دَآئِمُونَ﴾، و﴿يُحَافِظُونَ﴾:

كُرِّر ذِكْرُ الصَّلاة في سياقِ الثَّناء على المُصَلّين لاختلافِ ما وصَفَهم به أوَّلًا وما وصفهم به ثانيًا؛ فإنَّ معنى (الدّوام) هو ألّا يَشْتَغِلَ عنها بشَيْءٍ مِن الشَّواغل، ومعنى (المحافظة) أن يُراعيَ

التَّنويهُ بالصَّلاة بدءًا وختامًا يَجعل الفضائلَ الّتي بينَها في ضمانِها

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 147.

الأمورَ الّتي لا تكون صلاةٌ بدونِها[1]. وفي تكرير ذِكْرِ (الصَّلاة) أيضًا "دلالةٌ على فَضْلِها، وإنافَتِها على سائرِ الطّاعات"[2].

و"التَّنويه بالصَّلاة بدْءًا وخِتامًا يَجْعَلُ هذه الفَضائل - الَّتي بين أداءِ الصَّلاة، والصِّفة التي تُؤدّى عليها - في ضمانِ هذا الحارسِ القَويِّ الأمين؛ وهو الصَّلاة، فإذا لم يَكُن بينَ يَدَيْ هذه الفضائلِ صلاةٌ، وإذا لَم يكُن خلفَها صلاةٌ؛ جاءت هذه الفضائلُ في صورةٍ باهتَةٍ هزيلَةٍ، لا تَلْبَثُ أن تَجِفَّ وتَموت، ولا يَبقى لها في كيان الإنسانِ داعٍ يَدعو إليها، أو هاتفٌ يَهتِف بها"[3].

وبِخَتْم صفات المُصَلّين وأحوالهم بِذِكْرِ الصَّلاة، والإشادة بالمحافظين عليها؛ يتحقَّق للنَّظم الكريم ردُّ عَجُزِ تلك الشَّمائل على صَدْرِها، فتَواثَقَتْ عُراها، وتكاملت مزايا أهلِها - المُصَلّين - بِتحقيق فَضيلَتَي الدَّوام على الصّلاةِ في الصَّدر، والمحافظة عليها في العَجُز، وفي ذلك أيضًا إيحاءٌ بـ "أنَّ أداء الصَّلاة مطلوبٌ على أيِّ حال، لا يقوم للمُؤْمِن عذرٌ أبدًا يُحِلُّه من أدائها في أوقاتها، و"يدلُّ على شَرَفِها وعُلوِّ قَدْرِها، واهْتِمام الشّارع بشَأْنِها"[4].

أمّا أداؤُها على تلك الصِّفة الخاصَّة مِنَ الخُشوع، والخُضوع، والرَّهبة، والجلال؛ فهو أداءٌ للأمانة، وأنَّه لا تبرأ ذمَّةُ الإنسان منها إلّا بأدائها على تلك الصِّفة، فإذا لم يُؤَدِّها على تلك الصِّفة، فهي لا تزالُ أمانَةً في يده، ومطلوبٌ منهُ أن يُؤَدّيَها على وجهها، أمّا إذا لم يؤدّ الصَّلاة أصلًا؛ فهو مضيِّعٌ لتلك الأمانة، مُحاسَبٌ عليها حسابَ المُضيّعين للأمانات[5].

دلالَةُ التَّعبير بالمُحافَظَةِ، ونُكْتَةُ العُدولِ إلى المُضارعَةِ في الفِعْلِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾:

معنى ﴿يُحَافِظُونَ﴾ يواظبون عليها ويُؤَدّونها في أوقاتها[6]، ويَتَحَرّوْنَ مواقيتَ صلاتِهم الّتي فرضَها اللهُ عليهم، وحدودَها الّتي أوجبَها عليهم، ولا يُضَيِّعون لها ميقاتًا ولا حدًّا[7]،

(1) القِنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 320.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 34.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1186.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 103.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1185.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 125.
(7) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 277.

كُلّما تعهَّد المؤمنون الصَّلاة بالأداءِ؛ تَعهّدتْهُم بالطُّمأنينة القلبيَّة، وكُلّما جَدَّدوها جَدَّدَتْهُم

فإنَّهم كُلَّما تعَهَّدوا أوقاتَ الصَّلاة لأدائها، وتعهَّدوا الطَّهارة لِكُلٍّ منْها؛ تعهَّدتْهم هي بالحِفْظِ والطُّمأنينةِ القلبيَّة، وكُلَّما جدَّدوها جدَّدَتْهُم؛ وذلك بعضُ عطاء المضارعَةِ والتَّحوُّلِ إلى الفعليَّةِ هنا دون الصِّلات السّوابق.

وكذلك في التَّحوُّل إلى صيغَةِ الفِعْليَّة والتَّعبير بالمضارَعَةِ في الخبَر ﴿يُحَافِظُونَ﴾ "تقويةٌ للخبَر مع إفادَةِ التَّجدُّد من الفِعْلِ المُضارع"(1)، ودلالة على عدَم التَّهاون بها؛ وبذلك يُعلَم أنَّ هذه الجُمْلَةَ ليسَتْ مُجَرَّد تأكيدٍ لجُمْلَةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، بل فيها زيادةُ معنًى مع حصولِ الغرَضِ مِنَ التَّأكيد بإعادةِ ما يُفيد عِنايَتَهُم بالصَّلاة في كِلْتا الجُمْلَتَيْن(2).

وفي التَّحوُّل إلى صيغة الفعلِ في ﴿يُحَافِظُونَ﴾ أيضًا اتِّساقٌ مع ما في الصَّلاة من التَّجدُّد والتَّكرُّر، وهو السِّرّ في جَمْعِها - في سورة المؤمنون -، وليس فيهِ تكريرٌ لِما هو معلومٌ مِنْ أنَّ الخُشوعَ في الصَّلاة غيرُ المُحافَظَة عليها، وفصَلَهُما للإيذانِ بأنَّ كُلًّا مِنْهُما فضيلةٌ مستقلَّة برأسِها(3).

دلالة صيغة المُفاعَلَة في الفِعْلِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾:

المؤمنون في مُحافَظَتِهم على الصَّلاة كمَنْ يُسابق غيرَهُ على غايَةٍ

صيغةُ المُفاعلَةِ في الفِعْلِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ دالَّةٌ على المبالغةِ "في الحفظ، مثل: عافاهُ اللّه، وقاتلَهُ اللّه، فالمُحافظَةُ راجِعَةٌ إلى اسْتِكْمالِ أركانِ الصَّلاة وشُروطِها وأوقاتِها"(4)؛ فمعنى ﴿يُحَافِظُونَ﴾: يُبالغون في حِفظها، وكأنَّهم يُبادِرونَها الحفظَ، ويُسابِقونَها فيه فيَحْفَظونَها فتَحفظُهم، أو يسابقونَ غيرَهم في حِفْظِها لأوقاتها وشروطها وأركانها ومُتَمِّماتها في ظواهرها وبواطنها من الخضوع والمراقبة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 175.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 174.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 6/ 125.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 174.

وغير ذلك من خلال مرتبة الإحسان، الّتي إذا فعلوها كانت ولا بُدّ ناهيةً لِفاعلها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]؛ فتَحمل على جميع هذه الأوامر، وتُبعِد عن أضدادِها(1).

توجيهُ التّشابهِ اللّفظيّ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾:

المتشابِهُ اللّفظيُّ في القرآن الكريم يَفي بحقِّ السّياقاتِ المُختلِفَة

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يَتشابَهُ معَ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾ [المؤمنون: 9]، والاختلافُ الوحيدُ بينَهُما يَتَمَثّل في إفرادِ لفظ ﴿صَلَاتِهِمْ﴾ في المعارج، وجَمْعِها - ﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾ [المؤمنون: 9] - في سورة المؤمنون؛ وذلك أنَّه لمّا كان السّياق هنا للتَّخلّي عن الأوصاف الجارَّةِ إلى الكُفر؛ وحَّدَ الصّلاة؛ إشارةً إلى أنه يَكفي في ذلك الفرائضُ، وفي سورة المؤمنون كانَ السّياق لأهل الرُّسوخ في المحاسن؛ فلذلك جمَعَ بينَ النَّوعين: الإفرادِ في الأوَّل ليَنْصَبّ ابتداءً إلى الفرائض، والجمعِ في بعض القراءات؛ ليُفهم معَ ذلك النَّوافل بأنواعها(2).

لطيفَةُ تَكْريرِ الموْصولاتِ في تلك الصِّفات:

كلُّ صفةٍ مِن صفاتِ المؤمنين فَضيلةٌ عظيمَةٌ على وجهِ الاستقلالِ

تكريرُ الموصولاتِ في ذِكْرِ فَضائل المُصَلّين مفيدٌ تنزيلَ اخْتِلافِ الصِّفاتِ منزلة اختلاف الذّوات، كما في قول الشّاعرِ(3):

إلى الملك القرم وابن الهمام *** وليث الكتيبَةِ في المزدحم

إيذانًا بأنَّ كلَّ واحد من الأوصاف المذكورة نعتٌ جليل على وجهِ الاستقلالِ، لَهُ شأنٌ خطير مستتبع لأحكام جَمَّة، حقيقٌ بأنْ يُفرَد له موصوفٌ مستقلٌّ، ولا يُجعل شيءٌ منها تَتِمَّةً للآخر(4).

وممّا ينبغي الالتفاتُ إليه في تلك الصِّفات والتّعلُّقات الّتي

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 409.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 409.
(3) هو بلا نسبة في الكشاف للزمخشري: 1/ 41، وكذا عند ابن الأنباري في الإنصاف: 2/ 384، والبغدادي في خزانة الأدب: 1/ 451.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 34.

طالت وتفرَّعت وتنوَّعت مِنْ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أنّها كُلَّها جاءت أوصافًا وأحوالًا للمُصَلّين ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، إلى أنْ قال تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، وذلك دالٌّ على عظيم قَدْرِ الصَّلاة في الدِّين، وجليل أثَرِها في المُسْلِمين، ظاهريًّا بالطَّهارة والنَّظافة والجَمال والبهاء والوضاءة، وباطنيًّا بالإخلاص والمراقبة والصِّلة الدّائمة بالخالِق العَظيم ﷻ.

علَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ عمّا قبلَهُ:

التَّراكيبُ القُرآنيَّةُ وثيقَةُ الاتِّصال، إمّا لفظيًّا وإمّا مَعْنَويًّا

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ عن آخرِ صِفَةٍ مِن صفاتِ المُصَلّين؛ وهي قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؛ لِما بينَهُما من شبه كمال الاتِّصال، وذلك لأنَّ ما تقدَّم من الأوصاف يبعَثُ في نفس المتلقّي سؤالًا؛ حاصلُهُ: بعد اتِّصافِ هؤلاء بهذه الخِلالِ العظيمة، ما جزاؤُهُم؟ فجاء الجوابُ في قول اللّه سُبحانَهُ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، فهذه الجملةُ واردةٌ لبيانِ ثمرةِ ما تقدَّمَ من الأوصافِ.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

للمُصَلّين شأنٌ عالٍ ومنزلةٌ بعيدَةٌ في الفَضْلِ؛ لِما اتَّصفوا به من شِمائِلَ

مِن أوجُه بلاغة النَّظم الشَّريف في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ إيجازُ تلك الصِّفات والأحوال في اسم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، واستدعاءُ ذِكْرِهم بكلِّ ما سبَق مِن صفاتهم وأحوالهم وتَعلُّقات أخبارهم في لفظٍ وجيزٍ؛ لِرَبْطِهم باستحقاقهم المكافأةَ الكريمة في متعلّق الخبر ﴿فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾، مع ما فيه مِن تصرُّف تركيبيٍّ معبّر.

فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الّذين هُم في غاية العلوِّ؛ لِما لَهُم مِنَ هذه الأوصاف العالية[1] في جنّاتٍ مُكْرَمون. والإشارة بأداةِ البُعد -

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 410.

مع قُرب العَهْدِ بالمُشار إليهم - إيذانٌ بِعُلوِّ شأنهم وبُعْد منزلتهم في الفضل[1]، وفيها كذلك "تنبيهٌ على أنَّهم استحقّوا ما بعدَ اسْمِ الإشارةِ مِن أجل ما سَبق قبلَهُ"[2].

دلالةُ ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾:

دلالاتُ المُفْرَدات القرآنيَّة تتآزَرُ على إفادةِ المَعنى وتحقيقِ الغَرَضِ

﴿فِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ ظرفيَّة، تتَّسق ظرفيَّتها مع دلالةِ مُفرَدَة ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ إذِ الجَنّات تَجُنُّ مَن فيها وتُغَطّيه حتّى يصيرَ كأنَّه مظروفٌ داخلَ ظرفٍ يشتَمِلُ عليهِ ويستُرُه؛ فتَتلاقى دلالةُ الظَّرفيَّة في حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ مع دلالةِ المُفْرَدَةِ في مجرورها ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

وفي حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ إيحاءٌ بأنَّهم في مكمَن الأمانِ، وفي ركنِ الحَصانة؛ ووراءَ ذلكَ كنايَةٌ عن الرِّضوان الإلهيِّ، وأكرِم به من رضوانٍ!.

و﴿فِي﴾ تُصَوِّر الجنّات في صورة ظرفٍ يشتَمِلُ على المُصَلّين ويَصونُهُم، وهُم يتَقَلَّبون في تلك الجنّات، ويتَنَزَّهون بين أشجارِها، ويَقْطِفون مِن داني ثمارِها، ويَنْزِلون في غُرُفاتِها، وقد صارت لهم كالظَّرف المحيط بمظروفهِ الّذي يصونُه ويَحْفَظُه، ويؤذِن بكونه شيئًا ثمينًا ممّا يُضَنّ به فيُحفَظ ويُصان.

دلالَةُ تَقْديمِ القيدِ ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ على الخبَرِ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾:

بشائِرُ المُصَلّين وكراماتُهُم تَتسابَقُ إليهِم، وتتكاثَرُ عَلَيْهِم

لِعَظيم إكرام الله تعالى أولئك المُصَلّين الّذين تعدّدت فضائِلُهم وتَنَوَّعت عِباداتُهم؛ قَدَّم النَّظْمُ الكريمُ الخبَرَ الأوَّل، أو الجارَّ والمجرورَ في جنّاتٍ على الخبَرِ الثّاني ﴿مُّكْرَمُونَ﴾، تعجيلًا ببشارة الحُكم لهم بالجنّات قبل البِشارَةِ لَهُم بالإكرام. وبذلك تتضاعف لهم البِشاراتُ، وتتعاظَمُ عليهِم الكَراماتُ، وتَسْعَدُ قلوبُهم بأنَّ مستقرَّهم في الجنّات، وما أدراك ما في هذه الجنّاتِ!.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 34.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 175.

جنّات المُصَلّين بساتينُ يَعْجَزُ عن وصْفِها الواصفونَ

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

الجنّاتُ: "بساتينُ فيها عيونٌ جارية، لا يَبلغ وصفَها الواصفون"[1]، وفي اصطفاء مفردة ﴿جَنَّٰتٍ﴾ دون (حدائق) أو (بساتين) وغيرهما تنويهٌ بكثافة خُضرتها، وكثرة ثِمارها، وشَرافة أشجارها؛ حتّى إنَّها لَتَجُنُّ مَن يَدْخُلُها وتُخفيه؛ و"لا تسمى جَنَّة حَتَّى يُجِنَّها الشّجرُ، أي: يَسْتُرها هَكذا[2].

وإذا كان "خَلَقَ اللّهُ آدَمَ وطولُهُ سِتّونَ ذِراعًا فكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صورَةِ آدَمَ عليه السلام"[3]، وكانت تلك الجنّاتُ تَجُنُّه وتُخفيه؛ فكم يكون ارتفاعُ أشجارِها، وكثافة خُضرتها، وعلوِّ قصورها؟ إنَّ ذلك لا يُقادِر قدرَه البشرُ في الدّنيا، فكان ذلك كنايةً عمّا هنالك من وفرة أسباب النَّعيم، وصنوف التَّكريم.

ويُتَمِّم عِظَمَ أوصافها ما ورد في القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة من أوصاف خُضرتها، وعذوبة عيونها، وجمالِ حورِها، وما إلى ذلك ممّا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خطر على قلب بشَرٍ.

وقد ألْمَحَ البقاعيُّ إلى أنَّ الجنّاتِ في الآيةِ؛ يَحْتَمِلُ أن تكون "في الدُّنيا والآخرة، أمّا في الآخرة فواضِحٌ، وأمّا في الدُّنيا فلأنَّهم لَمّا جاهدوا فيه بإتعابِ أنفُسِهم في هذه الأوصاف حتّى تخلَّقوا بها؛ أعطاهم بمباشَرَتها لَذاذاتٍ مِن أُنْس القُرب، وحلاوة المناجاة لا يساويها شيء أصلًا.

والجنَّة محلٌّ اجتمعَ فيه جميعُ الرّاحات والمستلَذّات والسّرور، وانتفَى عنه جميع المكروهات والشّرور، وزادهم على ذلك بقوله: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾"[4].

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 100.

(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (جنن).

(3) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (3326)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2841).

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 410.

لطيفَةُ جَمْعِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

جنّاتُ المصلّين عديدة؛ وارفةُ الظِّلال، مُنَوّعة الثِّمار

قال الرّازي: "الجنّةُ تارةً تأتي في القرآن الكريم مفردةً، وأُخْرى جمعًا، وتارة مثنّاة. أمّا الجنَّة عند التَّوحيدِ؛ فلِأنَّها لاتِّصال المنازلِ والأشجار والأنهار كجنَّةٍ واحدة. وأمّا حِكمةُ الجمع؛ فلأنَّها بالنِّسبة إلى الدُّنيا وبالإضافة إلى جِنانِها جناتٌ لا يَحصرها عدَدٌ. وعند الوَعدِ وحَّد الجنَّة، وكذلك عند الشِّراء حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التّوبة: 111]، وعند الإعطاءِ جَمَعَها؛ إشارةً إلى أنَّ الزّيادة في الوعدِ موجودَةٌ[1]، و"لاشتمالِها عَلى ما تلتذُّ به الرّوح والجِسْمُ كأنَّها جنَّتان، فالكلُّ عائِدٌ إلى صِفَةِ مدحٍ"[2]، وفي التَّثنية تأكيدٌ كقولِه تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: 24]"[3].

والجمعُ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أيضًا يدعَمُ دلالةَ الكثرة ويُقَرِّرها، وينبِّه على تَنوُّع متاعها ونعيمها، فإنَّ الشَّجرة الواحدة، بل الثّمرة الواحدة فيها تتنَوَّع ألوانُها وتتعدّد طعومُها.

وقد جاء أعرابيٌّ فقال: يا رسول اللّه، أَسَمَعُكَ تَذكر شجرةً في الجنَّة لا أعلم في الدُّنيا شجرةً أكثر شوكًا منها - يعني الطَّلْح - ! فقال رسولُ اللّه ﷺ: "فَإِنَّ اللّه يَجْعَلُ مَكانَ كُلِّ شَوْكَةٍ مِثْلَ خِصْيَةِ التَّيْسِ المَلْبودِ - يَعْني المَخْصيَّ -، فيها سَبْعونَ لَوْنًا مِنَ الطَّعامِ لا يُشْبِهُ لَوْنُهُ لَوْنَ الآخَرَ"[4].

نكتَةُ تنكيرِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

جنّات الخلود لا يُبلَغ كُنهُها ولا يقادَرُ قَدْرُها

تنكير لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ يُراد به التَّعظيم، ولذا تقول العربُ: فلان رجلٌ؛ أي: عظيمٌ في الرّجوليّة[5]. وفي تنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾ أيضًا تفخيمٌ لشَأنِها،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 166، بتصرف.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 371.
(3) الشربيني، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: 4/ 170.
(4) رواه الطبراني في مسند الشاميين، برقم: (492)، وهو صحيح كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، برقم: (2734).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 165.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّها فوق تَصَوُّر العقول؛ كما قال النَّبيُّ ﷺ: "قالَ اللّه تعالى: "أعْدَدْتُ لِعِبادي الصّالِحينَ، ما لا عَيْنٌ رَأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ". فاقرؤوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]"[1]؛ فـ "لا يُبْلَغُ كُنهُها ولا يُقادَر قدرُها"[2].

دلالةُ التَّعبير بالإكرام، ونكتةُ صَوْغِه اسمَ مفعول في الخبر ﴿مُّكْرَمُونَ﴾:

المؤمنون في الجنَّة ينالون الإكرامَ والتَّكريم مِن الله تعالى ومِنْ كُلِّ ما حَوْلَهُم

الإكرامُ: التَّعظيم وحُسْنُ اللِّقاء، فقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكْرَمُونَ﴾ أي: هم مع جزائهم بنَعيم الجنّات يكرَمون بِحُسْن اللِّقاء والثَّناء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرّعد: 23 - 24]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَرِضْوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ﴾ [التّوبة: 72]"[3].

وفي التَّعبير بالإكرام في الخبر ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ غايةُ السَّعادة ونهاية المُنى لكلِّ أحد؛ إذِ المُكرِم هو اللّه تعالى، وبإكرامه ﷻ المُصَلّين يُكرِمهم كلُّ شيءٍ، ويَحْتَفي بهم كلُّ شيء. وإذا كانت غايَةُ العُقَلاء أن يَنْجوا مِنَ الغضَبِ الإلهيِّ ومِن عذابه؛ فإنَّ هؤلاء المُصَلّين المُباركينَ قَد فاتوا ذلكَ الهمّ بمراحل، حتّى استقرّوا في جنّاتٍ، وهُم فيها مُكْرَمون؛ فيالَهُ من شرَفِ مكانٍ وسُموِّ مكانَةٍ!.

وفي صوغ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ اسمَ مفعول إيحاءٌ بإحاطَتِهِم بصُنوف الإكرام، وحلولِ الإكرام عليهم مِنَ اللّه تعالى، ومن كلِّ مَن يتَأتّى منه التَّكريم، كالملائكة، والحور العين، والولدان المخلّدين، وما لا نَعْلَمُهُ ممّا في الجنَّة؛ "لأنَّه سبحانه قضى بأن يَعْلوَ مقدارُهم حتّى يكونوا أعظمَ مشخَّص لهم في الغيب، مبالغًا في إكرامهم عند المواجهة؛ ليكون لهم نصيبٌ مِن خُلُقِ نَبيِّهم ﷺ"[4].

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (3244)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2824).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 138.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 175.

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 410.

بلاغة الكناية في ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾:

مَن أَخَذَ بِصفات المُصَلّين وداوَمَ عليها؛ أكْـرَمَـهُ الـلـهُ تـعـالى في جنّات النَّعيم

وراء التَّعبير بـ ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ كنايةٌ عنِ الرِّضوان الرّحمانيِّ والبرِّ الإلهيِّ بهؤلاء المُصَلّين، وعن تعظيمهِم وتشريفِهم بحُسْنِ لقاء اللّه تعالى هنالك في دار السَّعادة.

وفي الآية إبانَةٌ أنّ مَن وفَّى بهذه الأشياء الّتي ذَكَرَها سبحانه في هذه السّورة مِن الإدامة على الصَّلاة، وإيتاء الحقّ المعلوم، والتَّصديق بيوم الدّين... إلى آخر ما ذُكِر؛ هو الّذي يُكرم بالجنَّة، ومِثْلُهُ الخاطئ الّذي يَرجع عن خطيئته ويتوبُ عنها. فأمّا غير هذين فهو لا يَستوجب الإكرام بالجنّة. فما ذُكر من الإكرام بالجنَّة للصِّنفَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكرهما فهو كما ذَكَر، وأمّا الصِّنف الثّالث؛ فهُم الذين بُلوا بالخطيئات من أهل الإيمان ولم يتوبوا عنها، فقد يُرجَى لهم هذه الكرامةُ بِعَفْو اللّه ﷻ وكرمه وجودِه، ومَن كان هذا وصفَه لم يُؤَيَّسْ مِن إحسانه، بل كان العفوُ منه مأمولًا والإحسانُ منه مرجوًّا[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللّوم والتَّثريب:

اللّومُ يكون على الفعل الحسَنِ والقبيحِ ممّا هو كائِنٌ، والتَّثريب على القبيح فقَطْ ممّا كانَ

التَّثريب شَبيه بالتَّقريع والتَّوبيخ، تَقول: وبَّخه وقرَّعه وثرَّبه بِما كانَ مِنْهُ. واللَّوم قد يكون لما يَفْعَله الإنْسان في الحال، ولا يُقال لذَلِك تقريعٌ وتثريبٌ وتوبيخ، واللّوم قد يكون على الفِعْل الحسن، بخلاف التَّثريبِ، فلا يكون إلّا على قَبيح.

وَيجوز أن يُقال: إنَّ التَّثريب الِاسْتِقْصاء في اللَّوم والتَّعنيف، وأصله من الثَّرْب؛ وهوَ شَحم الجوف؛ لِأن البلوغ إِلَيْهِ هوَ البلوغ إلى المَوْضِع الأَقْصى من البَدَن[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 210.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 53.

العُدوان التّعدّي والظّلم، والإفراط فيه، والطُّغيان مجاوزة الحدِّ مع القَهْر

العدوان والطُّغيان:

العدوان: هو التّعدّي والظّلم؛ وهو مجاوزة الحدّ. وقيل: العدوان: الإفراطُ في الظّلم[1]، وأمّا الطُّغيان؛ فهو مجاوزة الحدّ في المكروهِ مَعَ غلبةٍ وقَهْرٍ. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يقال: طَغى الماء؛ إذا جاوز الحدَّ في الظُّلم[2].

العهدُ مشروط ويقتضي الوفاء، والوعد غير مشروط، ويقتضي الإنجاز

العهد والوعد:

العَهْدُ ما كان من الوعدِ مَقْرونًا بشَرْطٍ، نحو قولك: إن فعلتَ كذا فعلتُ كذا، وما دمتَ على ذلك فأنا عليه، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115] أي: أعلمناه أنَّك لا تُخرج مِن الجنَّة ما لم تأكُل مِن هذه الشَّجرة، والعهد يقتَضي الوفاءَ، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 111]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾ [الفتح: 10]، بخلاف الوَعْدِ؛ فإنَّهُ يَقْتَضي الإنجازَ، ولذا يقال: نَقَضَ العهد وأخلفَ الوعد[3].

وقال الشّاعرُ[4]:

وإنّي إنْ أَوْعَدْتُه أَوْ وعَدْتُه *** لَأُخْلِفُ ميعادي وأَنْجِزُ مَوْعِدي

على أنَّهُ يصحُّ أيضًا أن يُقال في الوعدِ وفاءٌ.

---

(1) ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 84.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 337.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 379.

(4) هو عامر بن الطفيل، كما في ديوانه، ص: 58.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ [المعارج: 36 - 39]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

شتان بين صفات (المصلّين) أهلِ الإيمان، والكافرين المكذّبين ذوي العِصيان

بعد أن ساق النَّظم الكريم في الآيات السّابقة صفاتِ المُؤْمنين المصلّين، وأشادَ بِها كثيرًا، وأثْنى عليهم طويلًا، وختَم ذلك بالوعد الكريم لَهُم بأنَّهم ﴿فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾؛ رجَع هنا إلى الحديث عن الكافرينَ، الّذين بدأ السّورة الكريمة بذِكْرِ سُؤالِهم ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾، وعَدَّد مِن صفاتهم الإدبارَ والتَّولّيَ، والجَمْعَ والإيعاءَ، والهَلَعَ والجَزَعَ والمَنْعَ، فنَعى عليهم هُنا إهْطاعَهُم قِبَل رسولِه صلّى اللّه عيه وسلّم، ونَفى إمكان نَيْلِهم الجنّةَ، وعجّب مِن دعواهم دخولَها قبل المُسْلمين وهُم على كُفرهم مصرّون، وذكّرهم بأصل منبَتِهم الّذي لا يؤهِّل لدُخولِها إلّا إذا تحلَّى الإنسانُ بالإيمانِ، وعَمِلَ بالطّاعات، فقال ﷻ: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ إلى آخر الآيات الكريمةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قِبَلَكَ﴾: (قبل) تدورُ اشتقاقاتُها على مواجهةِ شيءٍ لآخَرَ[1]، ولفظُ (قَبْلُ) يُسْتَعْمَل في التّقدّم المتّصل والمُنْفَصِل، وهو ضدُّ (بعْدُ)، وذهب بعضُ أهل اللُّغة إلى أنَّهما يُسْتعملان في التّقدّم المتّصل. هذا في الأصل، وقد يتقارضانِ. والإقْبالُ: التّوجّه نحو القُبُلِ، كالاسْتِقْبالِ، قال اللّه تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ﴾ [الصّافّات: 50]، والتَّقَبُّلُ: قَبولُ الشَّيء على وجهٍ يقتضي ثوابًا، كالهديّة ونحوها، كما قال سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: 16].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).

والمُقابَلَةُ والتَّقابُلُ: أن يُقْبِلَ بعضُهم على بعض، إمّا بالذّات، وإمّا بالعِناية والمودّة، قال اللّه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة: 16]، وتقول العربُ: لي قِبَلَ فلانٍ كذا؛ كقولك: عنده. وقال سبحانَهُ: ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ [الحاقّة: 9]. وقول اللّهِ ﷻ: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾، أي: نَحْوكَ[1].

2) ﴿مُهۡطِعِينَ﴾: (هطع) تدلُّ تصريفاتُها على إقبالٍ على الشَّيء وانْقيادٍ لَهُ. يقال: هَطَعَ الرَّجلُ على الشَّيء ببصره؛ أي: أقْبَلَ. وأهطع البعيرُ: صوَّب عُنُقَهُ مُنْقادًا. وأهطع: أسرع[2]، وبَعيرٌ مُهْطِع: في عُنُقِه تَصويبٌ خِلْقَةً؛ أي: حَدَبٌ في انحدارٍ، وهو خلاف التَّصعيد، وطريق هَيْطَعٌ؛ أي: واسِعٌ، وهَطَع وأهْطَع: أقبَلَ مُسْرعًا خائفًا، ولا يكون ذلك إلّا مع خوفٍ، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ﴾ [إبراهيم: 42 - 43] أي: مسرعين، كما قال الشّاعر[3]:

تَعَبَّدَني نِمْرُ بن سَعْد وقد أُرَى *** ونمرُ بن سَعْد لي مُطيع ومُهْطِع[4]

وقال ابن الأثير: الإهْطاعُ: الإسْراعُ في العَدْوِ. وأهْطَعَ: إذا مَدَّ عُنُقَه وصَوّبَ رأسَه[5].

فمعنى ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾: مادّين أعناقَهُم، مصوِّبين أبصارَهُم، مُسْرِعينَ نَحْوَك.

3) ﴿عِزِينَ﴾: (عزى) تدور اشتقاقاتُها على الانتسابِ والانتماءِ والاتِّصالِ[6]، تقول: عَزَوْتُهُ إلى أبيه؛ إذا نسبتَهُ إليه، فاعْتَزى هو وتَعَزَّى؛ أي: انتمى وانتسب. والاسم العزاءُ. وفي الحديثِ الشَّريفِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: "مَنْ تَعَزَّى بِعَزاءِ الجاهِليَّة فَأعِضُّوهُ بِهَنِ أبيهِ ولا تُكَنّوا"[7] يعني: بِنَسَبِ الجاهليَّة. والعِزَةُ: الفِرْقَةُ من النّاس، والجمع: عِزًى، وعِزون وعُزون، قال الشّاعرُ[8]:

(1) جلال الدين المحلي، تفسير الجلالين، ص: 766.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).
(3) البيت بلا نسبة في أساس البلاغة للزمخشري: (هطع)، وكذا في لسان العرب لابن منظور: (هطع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هطع).
(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: 5/ 266.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هطع).
(7) رواه النّسائي في السنن الكبرى، برقم: (8813).
(8) البيت بلا نسبةٍ في الصحاح للجوهري: (عزا)، وكذا في لسان العرب لابن منظور: (عزو).

فلمّا أن أتَيْنَ على أضاخٍ *** ضَرَحْنَ حَصاهُ أشتاتًا عزينا

أي: جماعات في تَفْرِقَة[1]. وهذا هو معنى ﴿عِزِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

4) ﴿أَيَطْمَعُ﴾: (طمع) تدلُّ اشتقاقاتُها على رجاءٍ قويٍّ في القَلْبِ للشَّيء[2]، ومِنْهُ الطَّمعُ؛ وهو محاولة الإطْباقِ على الشَّيء وضَمِّه مع تهيُّؤٍ يُقَوّي الرّجاء في ذلك. ومن هذا التَّهيُّؤ: شدَّةُ شهوةِ النَّفس لِضَمِّ الشَّيء؛ لأنَّها تُهَيِّج وتُهَيِّئ تَيَسُّر ذلكَ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥﴾ [المدثر: 15]، والتَّهَيُّؤ هنا هو كثرة ما عندَهُ قَبْلًا مِمّا قرّب له تيَسُّر الزّيادة.

ولِينُ القولِ تهيئَةٌ تُطْمِعُ، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32]. وأمّا قول اللهِ تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؛ فالتَّهيُّؤ هو أنَّهم مكذّبون بالبَعْثِ والجنَّة والنّار أصلًا، ويَحْتَقِرونَ المُؤْمنين فيقولون: إنْ كانَ هؤلاء سيدخلون الجنَّة؛ لَنَدْخُلَنَّها قبلهم، فبَنَوْا طمعَهُم على أوْهامِهِم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ما بال هؤلاء الكافرين؟ وما شأنُهم؟ و"أيُّ دافعٍ دفَعَ هؤُلاءِ الكافرين إلى أن يَسيروا نحوَك مُسْرِعين، مادّي أعناقِهم إليك، مُقْبِلين بأبصارهم عليك؛ يُحَلِّقون عن يمينِك وشمالك حِلَقًا متعدَّدة، يكوِّنون فِرَقًا شتّى، كلُّ فِرْقَةٍ تَعْتَزي وتَنْتَسِب إلى غير مَن تَعْتَزي له الأخرى.

دخولُ الجنَّة مُتَوَقِّف على الإيمانِ وعَمَلِ الطّاعات

فيُنْكِرُ اللّه تعالى على المشركين الَّذين كانوا في عهد النَّبيِّ ﷺ وهُم مُشاهِدون لهُ، ولمّا أرسلَهُ اللّهُ بِهِ مِنَ الهُدى، وأيَّده به مِنَ

(1) الجوهري، الصحاح: (عزا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طمع).

المُعْجِزات الباهرةِ، ثُمَّ هم مع هذا كلِّه مُعْرِضون عنه، مبالِغون في تلمُّس ما يتَّخذونه هُزءًا به، وسُخرية منه حينما يرونَهُ يُصَلّي عندَ الكعبَةِ ويقرأُ القرآن قائلين: إنْ دخل هؤُلاءِ الجنَّة - كما يقول محمَّد - فلنَدْخُلَنَّها قبلَهم، وقد ردَّ عليهم سبحانه، فأبطل زَعْمَهُم[1]، ورَدَعَهُم عن تطلُّعهم إلى دخول الجنَّة بقوله: ﴿كَلَّآۖ﴾؛ "لا يَطمع كلُّ امرئٍ مِنْهُم بعِبادَتِهِم الأصنام والأوثان أن يَدْخُلوا جنَّة نعيم؛ إذْ هُم مُنْكِرون للبَعْثِ والجنَّة والنّار، ثُمّ مع هذا يَنْصُرون الأصنامَ ويَعْبُدونَها، ويَخْضَعونَ لَها، وإنْ كانَ لا طمَعَ لَهُم في نَصْرِها إلى شَيْءٍ في العاقبة، ولا يرجون منها العواقبَ"[2].

ثُمَّ ذكَّرهم بأصل نَبْتَتِهِم، فَأَوْمأ إلى هوانِهم على اللّهِ تعالى، ويُسْرِ إهلاكِهم، وما كان كذلك فما أيسر إعادة بَعْثِهم بعدَ ذلك للحِساب! فنَحْنُ خَلَقْناهُم ﴿مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ من مَنيٍّ مهينٍ، وذلك لا يؤهِّلُ لدخولِ جنان النَّعيم، بل الّذي يؤهِّل لذلك التَّكريم هو الإيمانُ والعمل الصّالح؛ فمَن رغِب في الجنَّة جادًّا آمَنَ والتزمَ الطّاعاتِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الرَّوابط اللَّفظيَّة فـي الـقـرآن الكريم دقيقَةُ الدّلالة، وثيقَةُ الرَّبْط

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ تفريعيّة، فرّع بها "تخصيصًا بعد تعميم، ورجْعًا إلى بدْءٍ؛ لأنَّهم من المستهزئين الّذين افْتُتِحت السّورة بسُؤالِهم"[3]، أو فرَّع بها على ما أفاده في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾، والمعنى: أنَّ الّذين كفروا لا مَطْمَعَ لَهُم في دخول الجنَّة، فماذا يريدونَ بتجمُّعِهم حولك بملامحِ استهزائهم؟[4].

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1585.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 212.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 22.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 175.

وذلك أنَّ "رسولَ اللّه ﷺ كان يُصَلّي عند الكعبةِ أحيانًا ويقرأ القرآن، فكانَ كثيرٌ مِنَ الكفّار يقومون مِن مجالِسِهِم مُسرِعين إليهِ يَتَسَمَّعونَ قِراءتَه، ويقول بعضُهم لبعض: شاعرٌ، وكاهن، ومفترٍ، وغير ذلك"(1).

معنى (ما) في قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وغرضُ الاستفهامِ في الآيَةِ:

التَّعجيب من حالِ الكُفّار وذَمُّهُم وتَهْديدُهُم

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ استفهاميَّة، والمقصودُ بالاستفهامِ الإنكارُ على الّذين كفروا إهطاعَهُم قِبلَه ﷺ، والتَّعجيبُ "من تصرُّفاتهم الّتي تدُلُّ على مُنْتَهى الغَفْلَةِ والجَهْلِ"(2)، والمعنى: "فما شأنُ الّذين كفروا باللّهِ قِبَلَك يا مُحَمّدُ مُهْطِعين؟!"(3). وفيها ذمٌّ لهم، وإزراءٌ عليهم، وتهديدٌ لَهُم.

معنى (اللّام) في ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ولطيفَةُ رَسْمِها مفصولَةً عَن معمولها:

قَطَعَ الكُفّارُ صِلَةَ قلوبِهم برسولِ اللهِ ﷺ؛ فقَطَعَ اللهُ تعالى طمَعَهم في دخولِ الجنَّةِ

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ للاختصاصِ، والمعنى: "فأيُّ شيءٍ ثبَتَ لَهُم وحمَلَهُم على النَّظر إليك والتَّفرّق"(4)، أو أنَّ المعنى: أيُّ شيءٍ يختصّون به دون غيرهم أوصَلَهم إلى تلك الحالِ؟.

و"تركيب (ما له) لا يخلو من حالٍ مفرَدة، أو جملةٍ بعدَ الاستفهام؛ تكون هي مصبَّ الاستفهام. فيَجوزُ أن تكون الحالُ المتوجِّهُ إليها الاستفهامُ هنا الظَّرفَ ﴿قِبَلَكَ﴾؛ فيكون ظرفًا مستقرًّا، وصاحبُ الحال هو ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، ويجوزُ أن تكونَ الحالُ ﴿مُهۡطِعِينَ﴾، فيكون ﴿قِبَلَكَ﴾ ظَرْفًا متعلِّقا بـ ﴿مُهۡطِعِينَ﴾.

وعلى كلا الوَجْهَيْن هُما مثارُ التَّعجيب مِن حالهم، فأيُّهما جُعِل

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 370.

(2) الطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 104.

(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 277.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 218.

محلَّ التَّعجيب؛ أُجْري الآخرُ المُجرَى اللّائقَ به في التَّركيب. وكُتِبَتِ اللّامُ الدّاخلةُ على (الّذين) في المصحف مفصولةً عَن مدخولها، وهو رسْمٌ نادرٌ"(1).

ومن لطائف فصل (اللّام) في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ما وُفِّق إليه الزَّركشيُّ حيث يقول: "هؤلاء الكفّار تفرّقوا جماعاتٍ مختلفاتٍ، كما يدلُّ عليه: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾، قَطَعوا وصْلهم في قلوبهم بمحمَّد ﷺ فقطَع اللّهُ تعالى طمعَهم في دخول الجنَّة، ولذلك قُطعَت (اللّام)؛ علامةً عليه"(2).

وقال الأشمونيُّ: "وجهُ الانفصال ما حكاهُ الكِسائيُّ من أنَّ (مالِ) فيها جاريَةٌ مَجْرى: (ما بال)، و(ما شأن)، وأنَّ قوله: مالِ زَيْدٍ، وما بالُ زيدٍ؛ بِمعنًى واحد"(3).

علَّةُ التَّعبير بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التعبير بالموصول يُفسح التَّركيبَ لخصوصيّاتٍ ودلالاتٍ لا يُتيحُها الاسْمُ الصَّريح

التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ يُفسح التَّركيبَ لذِكر خصوصيّاتٍ ودلالاتٍ لا تُتاح مع الاسْم الصَّريح (الكافرين)؛ منها: عُنْصُر التَّشويق الحاصل بإبْهام المَوْصول، ومِنْها: دلالَةُ المُضيّ في جُمْلَةِ الصِّلة ﴿كَفَرُواْ﴾، بخلافِ التَّصريح بلفظِ (الكافرين)؛ فإنَّهُ مُجَرَّدٌ من ذلك.

والمُراد بالّذين كفروا هنا "المُشْركونَ، الّذين دخَلوا في الحُكْم الّذي أشارَ إليهِ قولُه تعالى في الآيات السّابقة: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾"(4).

دلالَةُ التَّعبير بالكُفر في جُمْلَةِ الصِّلة ﴿كَفَرُواْ﴾:

الكُفْرُ أعمُّ من الشِّرْكِ

في إيثار النَّظْمِ الكريم التَّعبيرَ في جملة الصِّلة - ﴿كَفَرُواْ﴾ -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 176.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/ 422.
(3) الأشموني، منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، ص: 218.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1188.

بالكُفْرِ دونَ الشِّرك مناسَبَة للسّياق؛ إذِ السّياق لِذِكر كُفْرِ المُهْطِعين المُسْتَهْزِئين المُكَذّبين بالدّين، الذين يطمعونَ في سَتْرِ الحقيقَة وطَمْس الحَقِّ، والتَّمويه على صِدْقِ الرِّسالة والرَّسول ﷺ، وهذا الوصفُ يصلُحُ لجميع أصنافِ الكُفْرِ؛ مشركينَ كانوا أو كتابيّينَ، واللَّفْظُ الجامعُ لهؤلاءِ هو لفظُ الكُفْرِ، كما يدلُّ عليه قول اللّه تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة: 1].

دلالَةُ التَّعبير بالظَّرْفِ ﴿قِبَلَكَ﴾ على الحالِ ﴿مُهۡطِعِينَ﴾:

سوءُ الأدَبِ في حَضرَةِ النَّبيِّ ﷺ غايةُ الوقاحَةِ

﴿قِبَلَكَ﴾ ظرفٌ، بمعنى: جِهَتَكَ، ونَحْوَكَ، أو هو "اسم بِمَعْنَى: عِنْدَ"(1). وفي تقديمه على الحالِ ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ دلالَةٌ على تعلقّ خِداعهم وكذِبهم واسْتِهْزائِهم بتِلْكَ الجِهَةِ، التي يُنْشَر من قِبَلِها نورُ اللّه تعالى في الأرض، ففي تقديمِه تنبيهٌ إلى مَكْمَن الإنكار، وداعي التَّحذير، وبيان مكانَتِه ﷺ؛ فهو مُمَثِّل الدّين وحاملُ لواءِ الرِّسالة، ومَوْقِفُهُم منهُ موقفٌ في الأساسِ مِنَ الدّين والرِّسالة، وإلّا فهو ﷺ عِنْدَهُم قبلَ البِعْثَةِ الصّادقُ الأمينُ.

كما أنَّ تقديمَ الظَّرف على ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ يُرادُ به الاهتمام بهُ؛ "لأنَّ التَّعجيب من حالهم في حَضرة النَّبيِّ ﷺ أقوى لِما فيهم مِن الوقاحَة"(2).

بيانُ مَرْجِعِ ضميرِ الخِطاب في قولِه: ﴿قِبَلَكَ﴾:

المخاطَب أصالةً بالقُرآنِ الكريمِ هوَ الرَّسولُ ﷺ

المُخاطَبُ بالضَّمير في ﴿قِبَلَكَ﴾ هو النَّبيُّ ﷺ، والمقصودُ بخطابه التَّعريضُ بتَهْديدِهم وتَحْذيرِهم مِمّا هُم عليهِ مِن كُفْرٍ، "فالمقصودُ به إبلاغُه إليهم فيما يَتلو عليهم من القرآن، فَهو موجَّه إليهم في المَعْنى، كَما يدُلُّ عليهِ تَنْهيَتُه بحرف الرَّدْع ﴿كَلَّآۖ﴾، فهو لا يُناسِبُ أن يكون إعلامًا للنَّبيِّ ﷺ لذلك؛ لأنَّه شيءٌ مقرَّرٌ في عِلْمِه(3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 176.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 176.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 175.

دلالَةُ التَّعبير بالإهْطاعِ، وبلاغَةُ الكِنايَةِ فيه، ونكتَةُ صَوْغِهِ اسمَ فاعل:

الصّور البَيانيَّةُ في الذِّكْرِ الحَكيمِ تُبْرِزُ المعانيَ المجرَّدَةَ في قالبِ مشاهدَ حيَّةٍ نابضَةٍ

الإهطاعُ: السَّير بسُرْعَةٍ مع مدِّ العنُق، واتّجاه البصَر نحوَ شيءٍ مُعَيَّن[1]، والنّظر من غيرِ أن يَطْرِفَ، ولا يَرْفَعُ رأسَه[2]، وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ - بصيغَةِ اسم الفاعلِ -؛ أي: مسرعين للحُضور؛ ليَظْفَروا بِما يتَّخذونه هُزُؤًا[3]، عامِدين، مُنْطَلِقين[4]، نَظَرُهم قِبَلَ داعيهم[5].

وقد كان الكُفّار يَسْتَمِعون إليه ﷺ؛ ليَجِدوا مَوْضِعَ الطَّعْن فيه. وقالَ بَعْضُهُمْ: استمِعوا إليه ليُروا الضَّعَفَة والأتْباع أنَّهم إنَّما يَطعنون فيهِ بعدما اسْتَمعوا إليه وعرَفوه؛ فيقَع عندَهُم أنّ الطَّعن كان عن عِلْمٍ ورَوِيَّةٍ وفِكْرٍ[6].

والتَّعبير بالإهطاعِ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ يُشكِّل بالكناية صورةً كاشفَةً عَن قُبحِ مَنْظَر هؤلاء المنافقينَ، وهُم يُسْرِعون نحوَ رسولِ اللّه ﷺ، وكذلك وهُم جُلوسٌ حولَه، مادّين أعناقَهم، شاخصةً أبصارُهم، لا تَطْرُف أعينُهم، كأنَّهم خُشُب مسنَّدة، أو أصنامٌ مثبَّتة، وكأنَّهم سباعٌ تتربّص بفَريسَةٍ، مع ما وراء ذلك من قُلوبٍ تَغْلي بالأحقادِ، تَنْتَظِرُ لعلّها تتصيّد ما يُمْكِنُ أن تُموِّه به على الدَّهماء، فيوهمون المُسْلِمين ظاهرًا، ويَمْكُرون بهِم باطِنًا، لكنّ اللّه تعالى فَضَحَهُم وأخْزاهُم، وكشَفَ سِتْرَهُم.

وتلك الصّورة التَّعبيريَّة تشتمِلُ على أدقِّ التَّفاصيل، بحيثُ تُقيمُ في الأذهانِ معانيَها المجرَّدة كأنَّها مشاهدُ حيَّةٌ نابضَةٌ.

بلاغَةُ الاستعارةِ التّمثيليّة في قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية:

دقَّةُ البيانِ القُرآنيّ في تصويرِ المَعاني

في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ إلى قوله:

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 104.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 13/ 704.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 320.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 278.
(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 22/ 118.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 56.

﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ يجوزُ أن يكونَ استعارَةً تَمْثيليَّةً؛ بحيث شُبِّه حالُهم في إسْراعِهم إلى النَّبيِّ ﷺ بحالِ مَن يُظَنُّ بهم الاجتماعُ لِطلب الهُدى وتَحصيل المَغْفِرَة؛ ليَدْخُلوا الجنَّة؛ لأنّ الشَّأن ألّا يَلتفَّ حولَ النَّبّي ﷺ إلّا طالِبو الاهتداءِ بهديه. والاستفهامُ عَلى هذا مُسْتَعْمَلٌ في أصل معناهُ؛ لأنَّ التَّمثيليَّة تَجري في مَجْموعِ الكلام مع بَقاء كلماتِهِ عَلى حَقائِقِها[1].

معنى ﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾:

حالُ الكُفّار إزاءَ الدَّعوة الإسلاميَّة ودُعاتها يَدْعو إلى العَجَب

﴿عَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ حرفٌ يَدُلُّ على مَعْنى الجِهَةِ، "مُتعلِّق بـ ﴿عِزِينَ﴾؛ أي: مُتفرِّقين عن جِهَتَي اليَمين والشِّمال، ويجوزُ أن يكونَ حالًا"[2]، فقد كان الكُفّار يجتَمِعونَ حولَ الرَّسول ﷺ من جِهَةِ يمينِه ومِن جهة شماله يَسْتَمِعونَ القرآن ناظرينَ إليه مادّين أعناقَهُم ولا يَنْتَفِعون بشَيْءٍ، بَل يكذِّبونه ويَردّون عليه دعوتَه، فعجّب اللّهُ تعالى مِن حالِهم هَذا.

معنى (أل) في ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾، ودلالَةُ الاكتفاءِ بذِكْرِهما:

لأهلِ الحقِّ مهابَةٌ تُخيفُ قُلوبَ أهْلِ الباطِل؛ فيَتَحاشَوْنَ مواجَهَتَهُم

(أل) في ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾ لتَعْريفِ العَهْدِ العلميِّ؛ أي: عن يمينِ النَّبيِّ ﷺ وعن شِمالِه، فالألفُ واللّام "عِوضٌ عَنِ المُضاف إليه"[3]؛ أي: عَن يَمينِكَ وشمالِكَ يا رَسولَ اللّه.

والمراد بذِكْرِ ﴿ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ٱلشِّمَالِ﴾ ما هوَ أعمُّ مِن ذلك؛ فيندرِجُ في ذلك الأمامُ والوراء، والمقصود: فما بالُهُم حوْلَك مُهْطِعين؟ واكتفى بذِكْرِ اليمين والشِّمال؛ لأنَّهما الجِهَتانِ اللَّتان يَغلب حُلولُهما[4]، والجلوسُ فيهما حولَ الشَّخص[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 177.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 25.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 177.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 177.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 105.

وفي تَخْصيصِهما بالذِّكر إيحاءٌ بتَحاشي هؤلاء الكُفّار مواجهَتَهُ ﷺ في المجلسِ مهابَةً له؛ فإنَّ الكاذِبَ الضَّعيف المنافق يَتحاشى مواجهةَ الحقِّ، ويَروغُ مِنْهُ ويزيغُ عَنْهُ.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿عِزِينَ﴾ في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾:

افــتراقُ قـلـوبِ الـكُـفّـار وإنْ أظهروا اجتماعًا

من دقَّة التَّعبير القرآنيِّ هنا اصطفاءُ مُفْرَدَةِ ﴿عِزِينَ﴾؛ فإنها تعني: الجماعاتِ المُتَفَرِّقةَ الّتي يَنْتَمي كلٌّ مِنْها إلى فِكْرٍ غيرِ الّذي تَنْتَمي إليه الأُخرى، بخلاف مُطْلَقِ (جماعات). والتَّفرُّق في ﴿عِزِينَ﴾ يحتمل التَّفرُّق الحسّيَّ، ويحتَمِلُ الفُرقة المعنويَّة؛ فإنَّ كُفّار قريشٍ تفرَّقت دَعاواهُم في الرَّسول ﷺ وإن أجْمَعوا على تكذيبِه، فمِنْهُم مَن قالَ: شاعِرٌ، ومنهم من قالَ: كاهِنٌ، ومنهم مَن قالَ: ساحِرٌ.

وهكذا يَصْطَفي النَّظم الكريم من مُفردات اللُّغة أدقَّها دلالةً على المَعْنى المَطْلوب التَّعبير عنه، فتبْرَع في سياقِها، وتتناغَم مع جاراتِها، وتُصيب بدقّةٍ أهدافَها.

و"أصل عِزَة: عِزْوَة، كأنَّ كُلَّ فرقةٍ تَعْتَزي إلى غيرِ مَن تعتزي إليه الأخرى؛ فهُم مُفْتَرِقون. كانَ المُشْرِكون يحتفّون حولَ النَّبيِّ ﷺ حِلَقًا وفِرَقًا يستمعون، ويستهزئون بكلامه، ويقولون: إنْ دخَل هؤلاء الجنَّة كما يقول محمَّدٌ؛ فلَنَدْخُلَنَّها قَبْلَهُم"[1].

علَّة فصل قوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ عمّا قبلهُ:

وشائِجُ القُرْبى بـينَ الـتَّراكـيـب القرآنيَّة دقيقةٌ

فُصِلَ قولِ اللّه تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ عن قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾؛ لِما بينَهما من كمال الاتِّصالِ؛ وذلك "لأنَّ جملة ﴿أَيَطْمَعُ﴾ "بدلُ اشْتمالٍ عَن جُمْلَة ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾؛ لأنَّ التِفافهم حولَ النَّبيِّ ﷺ شأنُه أنْ يكون لِطلب الهُدَى والنَّجاة؛ فشُبِّه حالُهُم بحالِ طالِبي النَّجاة والهدى؛ فأورِد استفهامٌ عليه"[2].

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 177.

وكأنَّ قوله تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ﴾ استفهامٌ حقيقيٌّ؛ أي: أهُم حقًّا يَطمعون في دخولِ الجنَّة بناءً على ظاهر حالِهم مِن الالتفاف حولَكَ، والتَّركيز فيما تُدْلي إليهم بِهِ؟.

دلالةُ الهمزةِ في قولِهِ: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُمۡ﴾ وغرضُها:

دخولُ الجنَّة مشروطٌ بالإيمانِ والعَمَلِ الصّالح، لا بِمُجَرَّد الأماني

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستفهامِ، وهيَ تَحمِلُ معنى الإنكارِ على هؤلاء الّذين كفروا تَطَلُّعَهم إلى ذلك الجزاءِ الّذي لا يستحقّون، وتَنشر في نُفوسِهم معنى التَّيْئيس مِن نَيْلِهِم ذلكَ؛ إذْ لَم يُقَدِّموا له مُقَدِّماته مِنَ الإيمانِ والعمَلِ الصّالح الّذي قدّمه المُصَلّون فاسْتَحَقّوه.

والمعنى على النَّفي: لا يطمعُ كلُّ امرئ منهُم بعِبادَتِهِ الأصنامَ والأوثانَ أنْ يدخلَ جنَّة نعيمٍ، ثُمَّ كيف يَطْمَعونَ في ذلك وهُم مُنْكِرونَ للبَعْثِ والجنَّة والنّار؟ وكيف وهُم ينصرونَ الأصنام ويعبدونَها، ويَخْضَعونَ لها؛ فيكون في هذا ترغيبٌ للمؤمنين على القيام بِنَصْر رسول الله ﷺ؛ كأنَّه المعنى: إنَّهم لا يطمعون نيلَ شيءٍ، ولا يخافون من شيءٍ في العاقبة، ثُمَّ يقومون بنَصْرِ الأصنام؛ فأنتُمْ أحقُّ بنَصْرِ رسول الله ﷺ؛ إذ تَطْمعون في نَيْل الجنَّة والدُّخول فيها بِنَصْرِكم إيّاه[1].

وقد كان الكُفّار يقولون: (إنْ كان أصحابُ محمَّد يدخلون الجنَّة؛ فإنّا نَدْخُلُها قبلهم)[2]؛ فردَّ عليهم ﷻ: (أيطمع كلُّ رجُلٍ منْهُم أنْ يدخل جنَّتي، كما يدخلها المسلمونَ، ويتَنَعَّم فيها، وقد كذَّب بِنَبيّي؟ كلا! لا يكون ذلكَ)[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 212.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 354.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 354.

دلالَةُ التَّعبير بالطَّمَع، ونُكْتَةُ المُضارعَةِ في: ﴿أَيَطۡمَعُ﴾:

طَلَبُ شيءٍ من غيرِ تعاطي أسبابِهِ غايَةُ السَّفه

الطَّمع: نزوعُ النَّفس إلى الشَّيء، والحرصُ عَلى حُصولِه، وهو مذموم؛ إن كانَ في أمور الدُّنيا، وصارفًا عن الآخرة[1]. وفي التَّعبير بمُفْرَدَةِ الطَّمع في قوله تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ﴾ دلالَةٌ عَلى عدَم اسْتِحْقاقِه، والطَّمع مستعمَلٌ في القرآن الكريم غالبًا فيما لا يكونُ، قال اللّه تعالى: ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ﴾ [البقرة: 75]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥﴾ [المدَّثِّر: 15].

وقد يُسْتَعْمَلُ في الخير على وجهِ التَّأويل، فحين يطمَعُ المُؤْمِنُ مثلًا؛ فإنَّهُ يكونُ معتقدًا أنَّه لا يستحِقُّ بِعَمَلِه الضَّئيل ذلكَ الأجرَ الجَزيلَ الذي يطمَعُ في الظَّفر به، وإنَّما ذلك محضُ فضلِ اللّه تعالى عليه، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السَّجدة: 16]، وحكى ﷻ عن النَّصارى حين آمنوا قولَهُم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٤﴾ [المائدة: 84].

وفي التَّعبير بالطَّمع "إشارةٌ إلى أنَّهم بَلَغوا الغايَةَ في السَّفه؛ لِكَوْنِهم طَلبوا أعزَّ الأشياءِ مِن غيرِ سَبَبٍ تَعاطَوْه له"[2].

وصَوْغُ فِعْلِ الطَّمع مضارعًا في قوله: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾ مطابقة لواقعِهم حينَها، ولكُلِّ طامعٍ في نيلِ خَيْرٍ لَم يتعاطَ أسبابَهُ مِنْ أهلِ كُلِّ جيلٍ وقَبيلٍ. وفي المُضارعَةِ - مع ذلك - تنبيهٌ على سُنوح الفُرصة، ودعوةٌ إلى اغتنامها قبلَ فواتِها.

نُكْتَةُ إسنادِ الطَّمع إلى آحادِهِم في قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾:

مَن طَمِعَ فيما لَم يقدّم أسبابَهُ؛ عرّض نفسَهُ للازْدِراءِ

في إسنادِ الطَّمع إلى آحادِهم على وجهِ التَّعديد والتَّفصيل في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾ تهكُّمٌ بعُقولِهم، وتعجيبٌ مِن فُجورِهم

(1) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 170.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 413.

في هذا الطَّمع الواهِم المَغْرور، الّذي لَم يُقَدِّموا له أسبابَه؛ فالجنَّة غاليَةٌ، كما قال ﷺ: "ألا إنَّ سِلْعَةَ اللهِ غاليَةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ"(1)، فكيف بِهِم وكيف لَهُم أن يَطْمَعوا في ذلك؟!.

كذلك أُسنِد الطَّمع إلى آحادِهم على وجْهِ التَّعديد والتَّفصيل "تصويرًا لحالِهم بأنَّها حالُ جماعَةٍ يُريد كُلُّ واحدٍ مِنْهُم أنْ يدخل الجنَّة لتَساويهم، يَرَوْنَ أنفُسَهُم سواءً في ذلك، ففي قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ﴾ تقويَةُ التَّهكُّم بهم"(2)، وفيه "إشعارٌ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن هؤلاء الكافرين كان طامِعًا في دُخولِها، لاستيلاءِ الغُرور والجهالة على قَلْبِه"(3). كما أنَّ فيهِ دلالةً على أنَّ إتيانَهم واقعٌ على هيئَةِ التَّفرُّق مِن غيرِ انْتِظار جماعةٍ لأخرى، فقولُهُ تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: على انْفرادِهِ(4).

معنى ﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَن يُدۡخَلَ﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ مصدريَّةٌ، والمَعْنى: أيطمَعُ كلُّ امرئٍ مِنْهُم، ويطلب دخولَ جنَّة نعيمٍ؟ فإنَّ ذلك لا يكون إلّا بأثمانه وأسبابه، ولَم يُقَدِّموها فلا يدخلوها.

المـصـدَرُ المـؤوَّل يُـتـيـح الـعـبـارةَ لِخُصوصيّاتٍ لا يُتيحها المصدَرُ الصَّريحُ

وفي إيثارِ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُدۡخَلَ﴾ على المَصْدَرِ الصَّريح (إدخال) تهيئَةُ التَّركيب لعطاءِ المُضارعَةِ في الفعل ﴿يُدۡخَلَ﴾، وذلك ما لا يُتيحُهُ المَصْدَرُ الصَّريح لو قيل - في غير القرآن الكريم -: يودُّ كلُّ امرئٍ مِنْهُم إدخالَهُ جنَّةَ نعيمٍ.

دلالَةُ التَّعبير بفعل الإدخالِ:

الـكـافـر يـأمَـلُ الآمالَ الخادِعَةَ، ويعيشُ الأوهامَ الزّائِفَةَ

التَّعبير بفعل الإدخال في قوله تعالى: ﴿أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾

(1) رواه الترمذي في جامعه، برقم: (2450)، وهو صحيح كما في صحيح الجامع الصغير وزياداته للألباني، برقم: (6222).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 178.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 105.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 414.

يعني تَصييرَهُ فيها، والسَّماحَ لهُ بِدُخولِها؛ حيث يقال: دخَل الشَّيءَ؛ أي: نفَذَ إلى داخله، وأدخَلَه المكانَ وغيرَه، وأدخله في المكانِ وغيرِه: صيّره داخِلَه، وسمَحَ له بالدّخول، عكس: أخرجَه[1].

فائدة مجيء فعل الإدخال مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

وفي التَّعبير بفِعْلِ الإدخال مبنيًّا للمَجْهولِ في قوله تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ إشارةٌ إلى الدّلال الخادِع، فـ ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لا يطمَعُ أن يَدْخُلَ بنفسِه؛ لسوءِ عملِه، بل أنْ يُدخَل بفِعْلِ غيرِه.

والمضارَعَةُ فيهِ تُفيد استحضارَ إدخالِه، وكأنَّه صار واقِعًا مضمونًا عندَهُ، يقومُ تصوُّرُه الآنَ في وهْمِه، وقد كان الكفّار يقولون: "إنْ دخلَ هؤلاء الجنَّة كما يقول محمَّد ﷺ؛ فلَنَدْخُلَنَّها قبلَهُم"[2] على التَّأكيد والقَطْع.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿جَنَّةَ﴾، ولطيفَةُ إضافَتِها إلى ﴿نَعِيمٖ﴾:

بلوغُ الكافِرِ في الطَّمَعِ المَذْموم مَبْلَغًا شديدًا

التَّعبير بلفظِ ﴿جَنَّةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ أيْ: "بستانَ إكرامٍ وتنعُّم"[3]، و"النَّعيم: ضِدُّ البُؤْس، والمعنى: أيطمَعُ كُلُّ رجُلٍ مِنْهُم أنْ يدخل جَنَّتي كما يدخُلُها المُسْلِمون؟!"[4].

وفي إضافة لفظِ ﴿جَنَّةَ﴾ إلى ﴿نَعِيمٖ﴾ إيحاءٌ ببلوغِ طمَعِ الكافرِ مَبْلَغَ التَّبجُّح[5] بالطَّمع في إدخاله الجنَّة "لا شيء فيها غير النَّعيم في كلِّ ما فيها على تَقْديرِ ضَبْطِه"[6].

---

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (دخل).
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 539.
(3) الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 437.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 647.
(5) التَّبجُّح: جُرأة مُستهجَنة وسوء أدب، وسلاطة لسان، يُنظر: أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بجح).
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 414.

بلاغةُ أُسْلوبِ الحَكيم في الآية:

إنكارُ تَظاهُرِ المشركينَ بِطَمَعِهم في دُخولِ الجنَّة

حكى المُفَسِّرون أنَّ المُشْركينَ قالوا على وجهِ الاستهزاءِ: نحنُ نَدْخُل الجَنَّة قبلَ المُسْلمين، فجازَ أن يكون الاستفهامُ ﴿أَيَطۡمَعُ﴾ إنكارًا لِتَظاهُرهم بالطَّمع في الجنَّة؛ بِحَمْل استهزائِهم على خلافِ مُرادِهِم - على طريقَةِ أسلوبِ الحَكيم -، أو بالتَّعبير بفِعْلِ (يطمع) عن التَّظاهر بالطَّمع كما في قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [التّوبة: 64] أيّ: يتظاهَرونَ بأنَّهم يَحْذَرون[1].

علَّة فَصْلِ جُمْلَةِ ﴿كَلَّآۖ﴾ عمّا قبلها:

الـرَّدُّ على من طَمِعَ في دُخولِ الجنَّة ولَم يُقدِّم أسبابَ ذلكَ

فُصِلَ قول اللّه تعالى: ﴿كَلَّآۖ﴾ عن قوله: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ﴾؛ لِكَمالِ الانقطاع بينهما؛ لاختلافهما خبرًا وإنشاءً؛ حيث إنَّ ﴿كَلَّآۖ﴾ تقوم مقام الجملةِ الخبريَّةِ، وجملة ﴿أَيَطۡمَعُ﴾ استفهاميَّةٌ؛ أي: كلّا لن يُدخل جنَّة نعيم؛ لأنَّه لم يتَّخذ أسبابها من إيمانٍ وعمل صالحٍ، بَل عانَدَ وكذّب وتصدَّى للدَّعوة والدّاعي ﷺ.

"ثُمَّ بُني على التَّهكُّم ما يُبطِل ما فُرِض لحالِهم بما بُني عليهِ التَّمثيلُ التَّهكُّميّ بكلمة الرَّدع وهي ﴿كَلَّآۖ﴾؛ أي: لا يكونُ ذلك. وذلك انتقالٌ مِنَ المَجاز إلى الحقيقَةِ، ومِنَ التَّهكُّم بِهِم إلى توبيخِهم؛ دفعًا لتَوهُّم مَن يَتَوَهَّم أنَّ الكلام السّابق لم يكُن تَهَكُّما"[2].

دلالَةُ ﴿كَلَّآۖ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾:

(كلّا) أُمُّ الزَّواجِر والرَّوادِعِ

﴿كَلَّآۖ﴾ أمُّ الزَّواجر والرَّوادع[3]، ففيها ردعٌ لكلِّ امرئٍ منهم عن طَمَعِه في دخول الجنَّة[4]، وهي تقومُ مقامَ جُمَلَةِ الجوابِ كاملةً، ومعناها هنا:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 177.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 178.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 414.

(4) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 540.

(لا)، ففيها "ردٌّ لاعتقادهم، وقطعٌ لأطماعهم؛ أي: لا يَدْخُلونَها"[1]، وأنَّه "ليس الأمْرُ بأمانيِّهم، ولا إدراكُ ما يَشْتَهونَ بِقوَّتِهم"[2].

علّةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾:

الاستدلالُ بالمَبْدَأ عَلَى المعادِ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ عن جمة جملة النَّفي والرَّدع ﴿كَلَّآ﴾؛ لأنَّهُ "كلام مستأنَف استئنافًا ابتدائيًّا؛ للانتقال مِن إثباتِ الجَزاء إلى الاحتجاج على إمكانِ البَعْث؛ إبطالًا لشُبْهَتِهم الباعِثَة على إنكاره، وهو الإنكارُ الّذي ذُكِرَ إجمالًا بقوله المتقدِّم آنفا: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾؛ فاحتجَّ عليهم بالنَّشأة الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [الواقعة: 62]، فالخبر بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في لازم معناهُ؛ وهو إثباتُ إعادَةِ خَلْقِهم بعدَ فنائِهم. فهذا مِن تمام الخِطاب المُوجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ، والمقصودُ منهُ: أنْ يَبْلُغَ إلى أسماع المُشْرِكينَ. والمعنى: إنّا خلقنا الإنسانَ مِن نُطْفَةٍ حتّى صار إنسانًا عاقلا مُناظِرًا، فكذلك نعيدُ خَلْقَهُ"[3].

معنى (إنّ)، وغرضُ توكيدِ الخبَرِ في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾:

مَن كان خَلْقُه من ماءٍ مهينٍ؛ لا يليقُ بهِ - إن كان عاقلًا - أن يَغْتَرَّ أو يَتَطاولَ

(إنّ) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ لِخَبر خَلْقِه تعالى هؤلاء الواهِمين مِن نُطَفٍ قذِرة وهُم لا يُنكرونه، ومع ذلك أُكِّد الخبَرُ تقريرًا للتَّعجيب من شأنهم، وسوءِ أدبِهم في طلَبِ الجنَّة بلا إيمان ولا عمَلٍ صالح، وكذلك في التَّوكيد هنا تُهْمَةٌ لَهُم بجَهْلِهم لأصلهم، وكأنَّهم يُنْكِرونَهُ.

وجملَةُ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ "تأكيدٌ للرَّدع والزَّجر في ﴿كَلَّآ﴾، وتهوينٌ مِن شأنِهم، وإبطالٌ لِغُرورِهم، وتَنْكيسٌ لخُيَلائِهم

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 213.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 888.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 178.

بأسلوبٍ بديعٍ مُهَذَّب؛ لأنَّه ممّا لا شكّ فيه أنَّهم يعلمون أنَّهم قد خُلِقوا مِن ماءٍ مهينٍ، ومَن كانَ كذلكَ؛ فلا يليقُ به - متى كان عاقلًا - أن يغتَرَّ أو يتطاولَ"[1]، "ومجيءُ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم﴾ مؤكَّدا بِحرفِ التَّأكيد؛ لِتنزيلهم - فيما صدَرَ منهُم مِنَ الشُّبهة الباطلة - منزلةَ مَن لا يعلمون أنَّهم خُلقوا مِن نطفة، وكانوا معدومين، فكيف أحالوا إعادةَ خَلقهم بعدَ أن عُدِم بعضُ أجزائِهم وبَقيَ بعضُها؟"[2].

دِلالَةُ التّعبيرِ بِضَميرِ العَظَمَةِ في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم﴾:

في التَّعبير بضمير العظمَةِ وإسنادِ خَلْقِهم إليهِ في قوله تَعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ تذكيرٌ لَهُم بعظمَته ﷻ، وعظيم منّته عليهم بخَلْقِهم وإيجادِهم، وذلك مِن شأنه أن يُخجِلَهُم ويَزْجُرَهم عن التَّكذيب بالدّين، وعن إيذاء رسوله ﷺ الأمين، وعن طَمَعِهم الخادعِ إلى أن يُدْخَلوا ﴿جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ دون بذلِ أسبابها.

العظيمُ سُبْحانَهُ قادِرٌ على إعادَةِ الخَلْقِ كَما بدأهُ مِنَ العدَمِ

والمعنى: "﴿إِنَّا﴾ على ما لنا مِنَ العظمَةِ ﴿خَلَقۡنَٰهُم﴾ بالعظمة الّتي لا يَقدر أحدٌ أن يُقاويَها فيصرفَ شيئًا من إرادته عَن تلك الوجهةِ الّتي وجَّهَتْه إليها إلى غيرِها"[3].

دلالَةُ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الخَلْقِ ماضيًا في قوله: ﴿خَلَقۡنَٰهُم﴾:

في التَّعبير بفِعْلِ الخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ دلالةٌ على دقّة تقدير الموجِد ﷻ ذلكَ الإنسانَ المُتعاظِمَ مِن نُطْفَةٍ قذِرَةٍ. ويُسْتَعْمَلُ الخَلْقُ في إبداع الشَّيء من غير أصلٍ يُقاس عليه ولا احتذاء؛ فقوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: أبْدَعْنا تكوينَه بتقديرٍ دقيقٍ ابتداءً بلا قياسٍ على مثالٍ سابِقٍ.

الخَلْقُ إبداعٌ مِن غيرِ احتذاءٍ، وليسَ ذلكَ إلّا لله تعالى

وقد يُسْتَعْمَلُ الخَلْقُ في إيجاد الشَّيء من الشَّيء، كما قال تعالى:

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 105.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 414.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النِّساء: 1]. وليس الخلق بمعنى الإبداع إلّا للّه تعالى، ولهذا قال تعالى في الفَصْلِ بينَه وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النّحل: 17][1].

دلالةُ إسنادِ الفِعْلِ (خلق) إلى ضميرِ العَظَمَةِ في قوله: ﴿خَلَقۡنَٰهُم﴾:

الإيذانُ بيُسْرِ إحياءِ العباد يومَ القيامَةِ للحِسابِ

في إسناد خَلْقِ الكُفّار إلى ضمير العظمةِ في قول اللّه تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ إيذانٌ بقُدْرَتِه على إهْلاكِهِم، فوجودُهم بإذنٍ منه سُبْحانَهُ، وإن شاءَ أخذَهُم. كما أنَّ فيهِ إيذانًا بيُسْرِ إحيائهم يومَ القيامَة للحساب، فمَن خلَقَ مِن العدَمِ قادِرٌ على الإحياء من العدَمِ مرَّة أُخْرى.

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾:

مبتدأُ خَلْقِ الإنسانِ مِنَ الحَقارَةِ بما لا يؤهِّله لدارِ السَّعادةِ إلّا بالتّحلّي بالإيمان

(مِنْ) في قوله: ﴿مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على الابتداءِ، وهي تدُلُّ على أنَّ ابتداءَ خَلْقِهم كانَ من تلك النُّطفة الصَّغيرة الحقيرة؛ فلا حَقَّ لهُم في ذلك الاستكبارِ والتَّكذيب، ولا مَطْمَحَ لهُم في دخولِ دار السَّعادَةِ إلّا بالإيمان، فعليهم ألّا يَنْسَوا مبدأهُم، وأن يَخْجُلوا مِن أنفُسِهم، وأن يَخافوا مِنَ اللّه تعالى، القادرِ على إهلاكهم، كما خَلَقَهُم وأوجدهم من العَدَمِ.

عِلَّة التَّعبير بالموصول في قولِه: ﴿مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾:

التَّعبير بالموصولِ يُغَلِّفُ ما يَخْدِشُ مِنَ المعاني

في التَّعبير بالموصولِ (ما) في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ مظهَرٌ من مظاهر العِفَّة القرآنيَّة؛ فعلى الرُّغْم مِنْ أنّ المقام لإهانَتِهِم وتأديبهم؛ فإنَّهُ لم يتجاوَزِ اللَّفظُ المعبِّر عن ذلك التَّعبير المستور العفيف إلى التَّصريح بالقبيح، فيقول مثلًا: "إنّا خَلَقْناهم من مَنيٍّ قذرٍ، وإنَّما يَسْتَوجِبُ دخولَ الجنَّةِ مَن يَسْتَوجِبُه منهم بالطّاعة لا بأنَّه مخلوقٌ، فكيفَ يَطْمَعون في دخول الجنَّة وهُم عصاةٌ كفرةٌ؟"[2].

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 566.

(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 282.

ففاحتَ الدّلالة المُزْريَةُ بهم من التَّركيب الظّاهرِ، كأنَّه قد صُرِّح بها، وقد قال عبد القاهر الجرجانيُّ في مثل ذلك السّتر المعبّر: "فإنَّكَ ترى به تَرْكَ الذِّكر أفْصَحَ من الذِّكْرِ، والصّمتَ عن الإفادة أزْيَدَ للإفادة، وتَجِدُكَ أنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تُبِنْ"[1]؛ و"في التَّعبير عن مادَّة خلْقِهم بـ (ما يعلمون ممّا يكسر سَوْرَةَ المُتَكبِّرين ما لا يَخْفى"[2].

دلالَةُ التَّعبير بالعِلْمِ، ولطيفَةُ صَوْغِه مُضارِعًا في قوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

من براعة البيانِ القُرآنيِّ الإيماءُ إلى مواضع إيلامِ الكافرينَ وكَسْرِ كبريائِهم

العِلم هو معرفَةُ الشَّيء على ما هو به[3]؛ ففي التَّعبير بالعِلم في جُمْلَةِ الصِّلة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ إخجالٌ لهَؤلاءِ الكافرين؛ لِمَعْرِفَتِهم أصلَ مَنْبَتِهم على ما هو مِنَ الحقارة والضَّآلة، فباصْطِفاء مفردةِ العِلْم يومئُ النَّظم الكريمُ إلى موضعِ إيلامِهم، ويُزَلْزِل كيانَهُم، ولا يجدونَ مِنْه مَفْلَتًا، ويكسرُهُم كسرًا لا التئام لَهُ إلّا بالتَّخلّي عن التَّكذيب، والانضمام إلى مواكب الإيمانِ.

وفي التَّلويح بأصْلِ خَلْقِهم توجيهٌ لأذهانهم لِأنْ "يعلَموا أنَّ مَن قَدر على إنشائهم لَقادرٌ على أنْ يُحْيِيَهُم بعدَما أفناهم"[4].

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ العِلم في قوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

البيانُ القرآنيُّ يعفّ عن الألفاظِ الخادِشَةِ، معَ القُدْرَةِ على توصيلِ المَقْصودِ وتحقيقِ الغرَضِ

حذْف مفعولِ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ وهو العائِدُ، والتَّقدير: ممّا يعلمونَهُ، وحذفُ العائدِ جائزٌ في مثلِ هذا؛ لكونِه ضميرًا في محلِّ نصبٍ بالفِعْلِ. ومتعلّق فعل العِلْم محذوفٌ أيضًا، وتقديره: خلقناهم ممّا يعلمونَهُ مِنَ ""المقاذِرِ والأنجاس؛ أي: فمتى يدخلون الجنَّة، ولم يُؤْمِنوا بي، ولم يُصَدِّقوا رسولي؟ نبّه النّاس بهذا على أنَّ النّاس كلَّهُم مِن أصلٍ واحِدٍ، وإنَّما يَتفاضَلونَ بالإيمانِ والطّاعَةِ"[5].

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/ 146.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 73.
(3) التوحيدي، البصائر والذخائر: 2/ 209.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 213.
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 354.

فـ "أبهم وأخفى: إشعارًا بأنَّه مَنْصِبٌ يُسْتَحيا مِن ذِكْرِه، فمِن أينَ يتَشَرَّفون ويدَّعون التَّقدُّم، ويقولون: لَنَدْخُلَنَّ الجنَّة قَبلهم؟ وقيل: معناه إنّا خلقناهُم مِن نُطْفَةٍ، كما خلقنا بني آدمَ كُلَّهُم، ومِن حُكْمِنا ألّا يَدْخُلَ أحَدٌ منهُم الجنَّة إلّا بالإيمانِ والعمَلِ الصّالح، فلم يَطْمَع أنْ يَدْخُلَهَا مَن ليسَ لَهُ إيمانٌ وعمَلٌ"[1].

فالمحذوفُ "ممّا يُسْتَحى مِن ذِكره ذاتًا ومعنًى، أمّا الذّات فهو نطفةٌ مَذِرَةٌ أُخْرِجَت من مخرج البول، وغذَّيناها بدم الحَيْض، فهي يتحلّب منها البولُ والعذرة، وأمّا المعنى فالهلَعُ والجزَع والمَنْعُ اللّاتي هم موافِقون على عدِّها نقائصَ، فلا يَصْلُحون لدار الكمالِ إلّا بتزكية أنفُسِهم بما تقدَّم مِن هذه الخِلال التي حضَّ عليها الملكُ المُتعال"[2].

وعن بُسْر بن جَحّاشٍ القُرشيِّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَزَقَ يَوْمًا في كَفِّه، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قالَ: "قالَ اللَّهُ: ابْنَ آدَمَ أنَّى تُعْجِزُني وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِه، حَتَّى إذا سَوَّيْتُكَ وعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ ولِلْأَرْضِ مِنْكَ وئيدٌ، فَجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حَتَّى إذا بَلَغَتِ التَّراقيَ؛ قُلْتَ: أتَصَدَّقُ، وأنَّى أوانُ الصَّدَقَة"[3].

وفي التَّعريض بأصلِ خَلْقِهم "تهكُّمٌ بهم؛ إذ جادَلوا وعانَدوا، وعِلْمُ ما جادَلوا فيه قائمٌ بأنفسهم وهم لا يشعرون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [الواقعة: 62]، وكان في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم يُخْلَقونَ الخلْقَ الثّاني ممّا لا يعلمون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ [يس: 36]، وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة: 61]، فكان في الخَلْقِ الأوَّل سِرٌّ لا يعلمونَه"[4].

كذلك في التَّعريض بأصل خَلْقهم "إثباتُ القُدْرَةِ على البعث، والمَعْنى: إنّا كما قدرنا على خَلْقِهم من ماءٍ؛ نَقْدر على إعادتهم"[5]؛ ففيه "اسْتِدْلالٌ بالنَّشأة الأولى على إمكان النَّشأة الثّانية الّتي بَنَوْا الطَّمع على فرضِها فرضًا مُحالًا عندَهُم"[6].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 614.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 415.
(3) رواه أحمد في مسنده، برقم: (17842)، وحسَّن إسنادَهُ محققو المسند: 29/ 385.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.
(5) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 16/ 26.
(6) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 321.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإهطاع والإسراع:

الإهطاعُ الإسراعُ على وجْهِ الإقبالِ والخَوْفِ، والإسراعُ مُطْلَقٌ مِنْهُما

فسَّر أبو عبيدةَ ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ [القمر: 8] في قوله تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمر: 8] بـ: مسرعين مُقْبِلين خائفين[1]. ولا يكون الإهطاعُ إلّا معَ خوْفٍ، ويقال: هَطَعَ وأهطع، بمَعْنى: أسرع مقبلًا خائفًا[2]، أمّا الإسراعُ؛ فلا يُشْتَرَطُ فيه قيدُ الخوفِ ولا الإقبالِ، فكان الإهطاعُ بهذا التَّقريرِ أخصَّ من الإسراعِ مطلقًا، فكلُّ إهطاعٍ إسراعٌ، وليس كلُّ إسراعٍ إهطاعًا.

الطَّمع والرَّجاء:

الطَّمع تطلُّعٌ إلى نوالِ الخير بغير أسبابِهِ غالبًا فيُذَمّ، والرَّجاء تطلُّعٌ إليهِ بأسبابِهِ فيُمدَح

الرَّجاء هو الظَّنُّ بوقوع الخير الّذي يعْتَري صاحبَهُ الشَّكّ فيه، إلّا أنَّ ظنَّه أغلبُ، وليس هو من قَبيلِ العِلْم، فلا يُقال: أرجو أن يدخُلَ النَّبيُّ الجنَّة؛ لكون ذلك متيَقَّنًا، ويقال: أَرجو أن يدخُلَ فلانٌ الجنَّة؛ إذا لم يُعْلَم ذلك. والرَّجاء: الأملُ في الخير، والخشيَة: الخوفُ في الشَّرِّ؛ لأنَّهما يكونان مع الشَّكِّ في المرجوِّ والمخوف، ولا يكون الرَّجاء إلّا عن سببٍ يَدْعو إليهِ مِن كرَمِ المَرْجوِّ أو نحوِ ذلكَ.

والطَّمَعُ ما يكون مِن غيرِ سببٍ يَدْعو إليهِ، فإذا طَمِعْتَ في الشَّيء؛ فكأنَّك حدَّثت نفسَك به من غيرِ أن يكون هناك سببٌ يَدْعو إليه؛ ولهذا ذُمَّ الطَّمعُ ولم يُذمّ الرَّجاء. والطَّمع يتعدّى إلى المفعولِ بحرفٍ، فتقول: طَمِعْتُ فيه، كما تقولُ: فرِقْت منه، وحذَرْتُ منْهُ[3]. على أنَّ الطَّمَعَ قد يَرِدُ مستعملًا مع بذلِ سببِ ما طُمِعَ فيه، كالواردِ في قول اللّه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشُّعراء: 82].

---

(1) الذي في مجاز القرآن لأبي عبيدة أنَّه فسَّر ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ بـ: (مسرعين) فحسبُ، وذلك في مواضعها الثَّلاثة من القرآن الكريم، يُنظر: أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 342 و2/ 240 و2/ 270.

(2) مكيُّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7187.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 244.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾ [المعارج: 40 - 41]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

التَّمرُّد على الدِّين داعيةُ الاسْتِبْدالِ

لمّا سبَقَ في السّياق ذِكر إهطاعِ الكفّار نحوَ الرَّسول ﷺ، والإخبار عن سوءِ أدَبِهِم، وتربُّصهم به، وتصيُّدهم ما يُمَكِّنُهم تَمْويهُهُ على المُسْلِمين، وتذكيرهم بأصلِ مَنْبَتِهم القَذِرِ إزراءً عليهم، وكان ذلك تمهيدًا لتَهْديدِهم بالإهلاك والاستبدالِ؛ أقسَمَ اللّهُ تعالى هُنا بأنَّ ذلك عليه يسيرٌ، وأنَّه المتَمَكِّن منهم، القادرُ على استبدالِهم بخيرٍ مِنْهُم لدينِه ولِرسولِه ﷺ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾: (شرق) تدور تصريفاتُها على إضاءةٍ وفَتْحٍ[1]، يُقال: شَرَقَتِ الشَّمس شُروقًا؛ إذا طلعَت، وأشْرَقَتْ: أضاءت، قال اللّه تعالى: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص: 18] أي: وقت الإشراق. والمَشْرِقُ والمغرب إذا أُفْرِدا؛ فللإشارَةِ إلى ناحيَتَي الشَّرْقِ والغرب، وإذا ثُنّيا؛ فللإشارَةِ إلى مطلَعَي ومغرِبَي الشِّتاء والصّيف، وإذا جُمِعا؛ فباعْتِبارِ مطلع كلّ يوم ومغرِبه، أو بمطلع كلّ فصلٍ ومغربه، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [الشُّعراء: 28]، وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾ [الرّحمن: 17]، وقال تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾[2].

2) ﴿وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾: (غرب) تدلُّ اشتقاقاتُها على الانصباب والانحِدارِ إلى مَقَرٍّ أو مَغارٍ عَبْرَ مسافَةٍ ما بِثِقَلٍ أو قوَّةٍ[3]. ومِنْهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(2) الراغب، المفردات: (شرق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غرب).

الغَرْبُ؛ وهو غيبوبَةُ الشَّمس، يقال: غربَتْ تغرُب غربًا وغُروبا، الشَّمْسِ: مكانُ غروبِها[1]، ويُنظر إليه بالإفرادِ والتَّثنيةِ والجَمْعِ على نحوِ ما يُذكَر في المَشْرِق.

3) ﴿نُّبَدِّلَ﴾: (بدل) تدور تصريفاتُها على قيام شَيْءٍ مَقام شيءٍ آخرَ ذاهبٍ[2]، ومِنْهُ: بِدْلُ الشَّيءِ، وبَدَلُه وبَديلُه: الخَلَفُ منه، والجَمْعُ: أبدالٌ، وتَبَدَّل الشَّيءَ، وتَبَدَّل به، واستبدله، واستبدل بهِ، كلّه: اتَّخذ منهُ بَدَلا. وأبدل الشَّيءَ من الشَّيء، وبَدَّله: تَخِذَه منه بدلًا، وهو المعنى المراد في قوله سُبحانَهُ: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48]، قال الزَّجّاج: تَسْيير جبالها، وتَفجير بحارِها، وكونُها مستويةً لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا. وتبديلُ السَّماوات: انتثارُ كواكبها، أو انفطارُها وانشقاقُها، وتكويرُ شَمْسِها، وخسوف قمرها، وأراد: غيرَ السَّماوات، فاكتفى بما تقدَّم[3].

4) ﴿بِمَسۡبُوقِينَ﴾: (سبق) تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنى التَّقديم[4]، وأصل السَّبْقِ: التّقدّم في السّير، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾ [النّازعات: 4]، والاِسْتِباقُ: التَّسابُقُ. قال: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ [يوسف: 25]، ثُمَّ يُتَجوّز به في غيره من التّقدّم، قال اللّه تعالى: ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: 11]، وقال: ﴿كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [طه: 129]؛ أي: نَفَذَتْ وتَقدّمَتْ.

ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفَضْلِ والتَّبريز، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المتقدّمون إلى ثواب اللّه وجنّته بالأعمال الصّالحة، نحو قوله: ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ﴾ [آل عمران: 114]، وكذا قوله: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 61]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾: لا يَفوتوننا[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا كان الأَمْرُ كما ذكرنا مِن أنَّه سبحانه أنشأهم إنشاءً مِن النُّطْفة المَذِرَة كما يعلمونَ،

(1) الراغب، المفردات: (غرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبق).
(5) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (سبق).

ولم يكونوا شيئًا مذكورًا؛ فلا أُقسم بربّ مشارقِ الشَّمس والقمر والكواكب ومغاربها على قُدرتنا البالغةِ على أنْ نُهلِكهم حسبما تَقْتضيه جناياتُهم، ونبدِّلهم خيرًا منهم، وما نَحْنُ بِمَسْبوقينَ ولا بمغلوبين إن أردنا ذلك، لكنَّ إرادتنا المَبْنِيَّة على الحِكَم البالغةِ اقتضتْ تأخيرَ عقوبَتِهم[1].

تأخيرُ الله تعالى عقوبةَ الكافر وغيرِه من العصاةِ؛ إنَّما ذلك يَعلَمُها سُبْحانَهُ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ فصيحةٌ، مؤذِنَةٌ بمحذوفٍ وهو الشَّرْطُ، والتَّقدير: "إذا كان الأمر كما ذكرنا من أنَّ خَلَقَهُم ﴿مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ وهو النُّطفة القَذِرَةُ؛ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾"[2]، ففي التَّركيبِ إيجازُ حذفٍ، دلَّت عليهِ الفاءُ وأومأتْ إليهِ.

الفاء الفَصيحَة عُنْصُرُ إيجازٍ مهمّ في توثيقِ عُرى التَّراكيب

معنى (لا) في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

تعدَّدت آراء العلماء في (لا) الدّاخلة على فعل القسم ﴿أُقۡسِمُ﴾، فمنهم مَن قال بأنَّها زائدة، والمعنى: فأُقْسِم بربِّ المشارق والمغارب[3]، ومنهم من قال: إنَّها للنَّفي؛ أي: نَفْي القسَم بربِّ المشارق والمغارب؛ تنزيهًا للّه ﷻ أن يُقْسَم به على أمرٍ لا يحتاج إلى قسَم؛ لظهورهِ ظُهورًا يكادُ يكون في عِداد البَدَهيّات؛ وهو أنَّ اللّه ﷻ قادرٌ على أنْ يَذهب بهؤلاء المشركين ويقطَعَ دابِرَهُم، ثُمَّ يأتي بِمَن هم خيرٌ منهم إدراكا واستقامة على طريق الهدى، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾ [فاطر: 16 - 17][4]؛ فـ "أُكِّد بنَفْيِ القسَمِ المشير إلى عدمِ الحاجة إليه؛ لكثرة

القسم بالله تعالى خطير؛ ينبغي ألّا يُلجأ إليه إلّا عند الحاجةِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1586.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 73.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 353.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1190.

الأدلَّة المُغْنية عنه؛ لِما لذلك المُقْسَم عليه مِن الغرابة في ذلك الوقت؛ لكثرة الكفّار وقوَّة شَوْكَتِهم"[1].

ومِنَ العلماء من قالَ بأنَّ هذا التَّركيب (لا أقسم) "صيغةُ تحقيقِ قسَم، وأصلُها أنَّها امتناعٌ مِنَ القسم امتناعَ تحرُّجٍ مِن أن يُحلَفَ بالمقسَم به خشيةَ الحِنْث، فشاع استعمال ذلك في كلِّ قسَم يُراد تحقيقُه، واعتُبِر حرف (لا) كالمزيد"[2] لإرادَةِ التَّوكيد"[3]، وذلك يدلُّ على أنَّ الإقبال على القسم باللّه تعالى خطير؛ ينبغي ألّا يُلجأ إليه إلّا عِنْدَ الحاجَةِ أو الاضطرارِ، والّذي يدلُّ على أنَّ هذا التَّركيبَ يُرادُ به القسَمُ لا نفيُهُ: قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿۞فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: 75]، ثُمَّ قال بعدها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 76]، فأثبتَ أنَّهُ قسَمٌ.

دلالَةُ التَّعبير بمفردة القسَم في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

القسَمُ أبلغُ مِنَ الحَلِفِ؛ لما فيه مِنَ الدّلالةِ على دَفْعِ الخَصْمِ

جاءَ التَّعبيرُ بمفردة القَسَم في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾، وأصلُ ذلك كما ذكر اللُّغويّون "من القَسامَة؛ وهي الأَيْمانُ تُقْسَم على أولياءِ المَقْتولِ إذا ادَّعَوا دَمَ مقتولِهم على ناسٍ اتَّهموهُم به"[4]، والتَّعبيرُ به أبلغُ من التَّعبير بالحَلِفِ؛ لِأنَّ قول القائلِ: أُقْسِم باللّهِ، معناه: أنَّه صار ذا قسم باللّه، وأصلُ القسَم: النَّصيب، والمعنى: "أنَّ الَّذي أقسم عَلَيْهِ من المال وغيره؛ قد أحرزه ودفع عَنهُ الخصمَ باللّه. والحلف، من قَوْلك: سيفٌ حَليف؛ أي: قاطعٌ ماض، فَإذا قلتَ: حلَفَ باللّهِ؛ فكأنَّك قلتَ: قَطَعَ المُخاصمَةَ باللّه، فالأوَّل أبلغ؛ لِأنَّهُ يتضَمَّن معنى الآخر مَعَ دفع الخَصْمِ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 330.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 56.

و"هذا إقسامٌ منه تعالى بالمشارق والمغاربِ للشَّمس والقمر والكواكبِ؛ لِما فيها من الآيات الباهِرات على البعث، وقدرته على تبديلِ أمثالِهم، وهُم بأعيانِهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة: 61]"(1).

بيانُ مَرْجِع ضميرِ الفاعلِ في ﴿أُقْسِمُ﴾، ولطيفةُ إفرادِهِ هُنا:

إفرادُ الضَّميرِ مراعاةً لشأنِ الوحدانيَّةِ؛ دفعًا لتشْغيب أهل الكُفْرِ

الفعل المضارعُ ﴿أُقْسِمُ﴾ فاعِلُه ضميرٌ مستَتِرٌ وجوبًا تقديرُهُ: أنا، وهو يعودُ إلى اللَّه ﷻ. وتوحيدُه ﷻ ضميرَ الفاعل في الفعل ﴿أُقْسِمُ﴾ يُلائم تحريرَ قضيَّةِ التَّوحيد في ذلك المقام - مقام معالجةِ الكُفْرِ -؛ فـ "أُفْرِدَ الضَّمير في ﴿أُقْسِمُ﴾ مُعَرًّى عن مَظهر العظمَةِ؛ لِئلّا يَتعنّت متعنِّت في أمرِ الوحدانيَّة"(2)؛ أي: للتَّضييق على الكفّار في جُحودِهم وحدانيَّته ﷻ؛ فالتَّهديد بالقسَمِ يتعلَّق بهم؛ لأنَّ يقين المؤمنين يُغْني عنهُ.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾:

جلالَةُ القسَمِ وخُطورَتُه، خاصَّةً في مقامِ التَّهديد والوعيدِ

(الباء) في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ باءُ القسَمِ، ويأتي ابتداءُ الكلامِ بالقسَمِ تحقيقًا لِمَضمونه على طريقة الأقْسامِ الواردةِ في القرآن الكريم(3). وإذا أقْسَمَ اللّهُ تعالى؛ فالأمر خطيرٌ وجليلٌ، خاصَّةً إذا جاء القسَمُ في مقام الإيعادِ والتَّهديد، كالوارِدِ في هذا الموضِعِ.

نُكْتَةُ التَّعبير بالرَّبِّ في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾، ولطيفَةُ الالتفاتِ في القسَمِ:

ربُّ المشارِقِ والمغارب تعُمُّ رحماتُهُ وبركاتُه أقطارَ سماواتِهِ وأرضِهِ

اسمُ اللّهِ تعالى (الرّبُّ) عنوانُ العطاء الجزيلِ والرَّحمة العظيمة؛ فإنَّه تعالى مُرَبٍّ لخلقِهِ وسيِّدُهم ومدبِّرُ أمورهم(4). وفي التَّعبير بعنوان الرّبوبيَّة في الجارِّ والمجرور ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ تنبيهٌ إلى ما تنشرهُ رحمَتُه سبحانه على الأقطارِ كُلِّها؛ مشارقِها ومغاربِها،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 888.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 141.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.

فمَن آمَن به سُبْحانَهُ ظَفِرَ برحمةِ رَبِّ المشارق والمغارب. فالرَّبُّ فيه معنى التَّربية والعطاء. واتِّخاذ المخلوقين أربابًا غيره سبحانَهُ يكلِّفهم عَنَتًا، بخلافِ اتِّخاذ ربِّ المشارق والمغاربِ إلهًا معبودًا؛ فإنَّهُ يَسْتَنْزِل بركاتِه ورحماته، ويُنيل العبدَ صنوفَ الخيراتِ.

وفي قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ التفاتٌ من التكلُّم إلى الغَيبة، ونُكْتَةُ ذلك: أنَّه أتاح ذِكْرَ ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، ولولا هذا لقيل - في غير القرآن الكريم -: (فأقسم إنّا لقادرون...)؛ ولما أُتيحَ ذِكْرُهُما، مع أنَّ ذِكْرَهُما من مقتضياتِ المقامِ للإلْماحِ إلى الإحياء والبعث بعدَ الإماتة؛ وهو مِن أعراضِ الخبَرِ.

دلالةُ القسَمِ بـ (ربِّ المشارق والمغارب):

القَسم القرآنيُّ يتضمَّن الدّلالة علــى بــيــان العظمَةِ الإلهيَّة

ذِكْر المشارق والمغاربِ ذِكْرٌ للسَّماوات والأرض، وفي ذِكْرِهما ذِكرٌ لأهلِهما، فيكون المعنى: فلا أقسِمُ بِرَبِّ الخلائق أجمع.

وكان مقتضى الظّاهر في هذا القسم؛ أن يرد النَّظم القرآنيُّ: (فلا أقسم بي) إذا كان القسَم من اللّه تعالى، هذا هو ظاهرُ الكلام في مُتعارَف اللِّسان. وفي العدول إلى (ربِّ المشارق والمغارب) إضفاءُ احتمال أن يكون هذا القَسَمُ من النَّبيِّ ﷺ، كأنَّه علَّمه أن يُقْسِمَ بِهِ ويقولَ له: قل يا مُحَمَّد: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾.

أو أنَّه قسَمٌ من اللّه تعالى على تقدير محذوفٍ؛ كأنَّه قال: فلا أقسم بي؛ فأنا ربُّ المشارق والمغارب. وهو أيضا يستقيمُ بلَفْظِ الغائِبِ كما يستقيم بلَفْظِ الحاضر؛ لأنَّ الخلْق كلَّه للّه تعالى شهودٌ، وليس هو شاهدًا للخلق في الدّنيا، فيخرج الكلامُ بينهم على ما يخاطَب الغائب، ومرَّة على الوجه الّذي يُخاطَب به الشّاهد، ومثل هذا مستعملٌ في متعارف اللِّسانِ[1].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 213.

لطيفَةُ الإضافةِ في ﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾:

ربوبيّته تعالى المشارق والمغارب؛ تستلزمُ ربوبيَّته للعالَم كلِّه

إضافةُ لفظ (ربّ) إلى ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ مُعَرَّفةً في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ إضافة مُلْكٍ، فهو سبحانه المالكُ الواحد لجميع المشارِقِ وجميعِ المَغارب، و"القسَمُ باللّهِ تعالى بعنوان ربوبيَّته المشارقَ والمغارب؛ معناه: ربوبيَّته العالَمَ كلَّه؛ لأنَّ العالم منحصِرٌ في جهات شروق الشَّمس وغروبها"[1]، فإذا ذُكرت الأطرافُ؛ اندرجَ ما بينها فيها، كما تقرَّر في القواعِدِ: أنَّ البَيْنَ مستحضَرٌ في الطَّرفينِ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾:

تمثيلُ حالِ الإحياءِ بَعْدَ الموتِ بِشُروقِ الشَّمس بعدَ غُروبِها

(أل) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ جنسيّة، تفيد استغراقَ جميع المشارِقِ والمغارب، ما يعلمُها الخَلْقُ وما لا يعلمونَها؛ ففي الكون من النّجوم والكواكبِ ما لا يعلمه إلّا اللّه تعالى، وكلٌّ منها له مشارِقُه ومغارِبُه، وهذه "الشَّمس تطلع كلَّ سنَةٍ في ثلاثمائةٍ وستّين كوّةً؛ تطلُع كلَّ يوم في كوَّة، لا ترجع إلى تلك الكوَّة إلى ذلك اليوم مِنَ العام المقبِل، ولا تطلع إلّا وهي كارهة، تقول: ربِّ لا تُطْلعني على عبادِك، فإنّي أراهم يَعصونك، يَعملون بِمَعاصيك أراهم، فهو مطلع الشَّمس ومغربها، ومطلع القمر ومغربه - كما يقول ابنُ عباس رضي الله عنهما - "[2]، فتشرق "على المنهاجِ الّذي دبّره، والقانونِ القويم الّذي أتقنَه وسخَّره، ستَّة أشهر صاعدةً، وستَّة أشهرٍ هابطة"[3].

وفي إيثار المشارق والمغارب بالقسَم بِرَبِّها أيضًا "رَعْيٌ لِمُناسبة طلوعِ الشَّمس بَعد غروبها؛ لتَمثيل الإحياءِ بعد الموتِ"[4] الّذي يُنْكِرُه الكُفّار.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.
(2) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 283.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.

معنى (الواو) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾، ونُكتةُ اخْتِصاصِهما بالقسَم:

مناسبةُ المُقسَمِ بـه للمُقْسَمِ عليهِ

(الواو) في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ عاطفة؛ وهي تجمع بين المشارق والمغاربِ في ربوبيَّتها جميعًا للّه تعالى بما تستلْزِمُه من ربوبيَّته تعالى للخَلْقِ جميعًا.

وفي اختصاص المشارق والمغاربِ إلماحٌ إلى أنَّ ظهور قدرته على استبدالهم بغيرهم ووضوحَهُ أكثَرُ مِنَ الشَّمس في رابعَةِ النَّهار؛ فربُّك القادِرُ على كلِّ شيءٍ - خاصَّة شروقَ الشَّمسِ وغُروبَها - قادرٌ على تبديل خلْقٍ خيرٍ من هؤلاء، فيهلكُهم ويأتي بخلق جديدٍ، وما ذلك على اللّه بعزيز، وما هو بمسبوقٍ في ذلك، وما هُم بمعجزي اللّه في شيءٍ[1].

ومِن دقائق ما يُلمح إليه اختصاصُ المشارقِ والمغاربِ: تنبيهُ القوم إلى ما "ينشأ عنها مِنَ اللَّيل والنَّهار والفصول الأربعة، فكان بها - أي: المشارق والمغارب - صلاحُ العالم بمعرفَةِ الحساب، وإصلاح المآكلِ والمشارب، وغير ذلك مِن المآرب"[2].

توجيهُ القراءات القرآنيّة في ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾:

تنوُّعُ القراءاتِ القُرآنيَّة يُثري الدّلالات التَّركيبيَّة

اتَّفق القرّاء العشرةُ على قراءةِ ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ بالجمع، وقُرِئَ شاذًّا؛ وهي قراءةُ أبي حَيْوَة وابنِ مُحَيْصِنٍ وغيرهما (المشرق والمغرب) بالإفراد[3]، أمّا الإفراد؛ فالمرادُ مشرق كلِّ يوم من السَّنة ومغربُه، أو مشرقُ كلِّ كوكبٍ ومغربُه، أو الأقطار الّتي تشرق فيها الشَّمس وتغرب[4].

وأمّا جمع ﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾؛ فباعتبار تعدُّد مطالع الشَّمس

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 750.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 416.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 353.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 321.

ومغاربها في فصول السَّنة؛ فإنَّ ذلك مظهر عجيبٌ مِن مظاهر القدرةِ الإلهيَّة والحكمة الرّبّانيَّة؛ لدلالتهِ على عَظيم صُنْع اللّه تعالى مِن حيث إنَّه دالٌّ على الحركاتِ الحافّة بالشَّمس، الّتي هي مِن عظيم المخلوقات؛ ولذلك لم يُذكر في القرآنِ قَسَمٌ بِجِهةٍ غيرِ المشرق والمغرب مع أنَّ الشّمال والجنوب جهتان مشهورتانِ عندَ العرب[1].

دلالة تكثيف التّوكيدات في قوله: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾:

مَن طُمِسَتْ بصيرتُه؛ لَمْ يَنفعه شيءٌ مِن توكيدٍ أو ترغيبٍ أو ترهيبٍ

تعدّدت التَّوكيدات في قوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، وتنوَّعت تنوّعًا جمَعَ بين القسم بربِّ المشارقِ والمغارب، و(إنّ)، وضمير العظمَة، ولام التَّوكيد، وصيغة اسم الفاعل في الخبر ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾، و"الالتفات إلى مظهر العظمة في كلٍّ مِنَ الاسم والخبر، فكان في إخباره بعدَ الإقسام مَعَ التَّأكيد إشارةٌ إلى أعلى مراتب التَّأكيد ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾"[2]، ولا يدع مجالًا لشكّ شاكّ في صدق الخبَر وصِحّته، وعلى الرُّغم مِنْ ذلك؛ فقد غلبت على بعض النّاس شِقْوَتُهم، ولا ينفُذ ذلك الخبَرُ - بكلِّ ذلك الحشد من التَّوكيدات - إلى قلوبهم وعقولِهم.

وجملة: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ هي "موضع القسَم، فجائِزٌ أن يكون أُريد به: أن يبدّل الخيرَ مِنْهُم، فيجعل مكان ما كانوا فيه من الشَّرِّ خيرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99]، وقد فَعل ذلك؛ لأنَّهم أسلموا. ويحتمل أن يكون أراد به أن يبدِّل قومًا خيرًا مِنْهُم"[3].

معنى (اللّام) في الخبَرِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾:

قُدْرَةُ اللهِ تعالى لا مُنْتَهى لكَمالِها

(اللّام) في الخبر ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّوكيدِ، وهي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 179.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 417.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 214.

تتآزر مع أخواتِها من المؤكِّدات في السّياق على تقريرِ الخبَر، وتأكيد قدرةِ اللّه تعالى المُطْلَقة، الّتي لا منتهى لكمالِها.

دلالَةُ التَّعبير بالقُدْرَة، وصَوْغ (قادرون) على زِنَة اسم الفاعل:

كمالُ قُدْرَةِ اللهِ تعالى ودوامُها

القُدرة ضدُّ العَجْزِ، وإذا وُصِف الإنسانُ بالقدرةِ فذلك على سبيلِ التَّقييد، بخلاف وصفِ اللّه تعالى بالقُدرةِ؛ فهي على وجهِ الإطلاق والكمال، فهو سُبحانَهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأمّا غيرُهُ فيقدر مِنْ وجهٍ ويعجز من وجهٍ آخر[1].

وصَوْغُ خبَرِ قُدْرَته ﷻ بصيغةِ اسم الفاعل (قادرون) يدلُّ على ملازمة تلك القُدْرَة المُطْلَقَة المبرّأة من كلِّ عجْزٍ للّهِ سُبْحانَهُ، لا تنفَكُّ عنه بذلك الكمالِ مُطْلَقًا.

وجهُ دلالةِ الآية الكريمة على وحدانيَّة الله تعالى:

انتظامُ الكَوْنِ دليلُ وحدانيَّةِ الله تعالى

في الآية الكريمة دلالةٌ على أنّ مَلِك السَّماوات والأرضين ومُدَبِّرَهما واحِدٌ؛ إذْ لو لم يكن كذلك لكانَ لِمَلِك السَّماء أنْ يَمنع الشَّمس والقمر والكواكب مِن إيصال النَّفع إلى أهل الأرض، ويكون لِمَلك الأرضِ أن يَمنع مَلِكَ السَّماء عن غروبِها في الأرض.

ثُمَّ الّذي يُشرق ويَغرُب منذُ خُلِق يَجري على ما جَرى عليه التَّدبير جريًا واحدًا لم يقع فيه تغييرٌ ولا تبديل، ولو كان للّهِ تعالى فيه شريكٌ؛ لكان لا بُدّ مِن وقوع التَّغيير فيها؛ فثبَت أنَّ تدبير السَّماوات والأرضين وتدبيرَ سُلْطانِهما راجِعٌ إلى الواحِدِ[2].

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾:

بيانُ قَهْرِ الله تعالى لِعبادِهِ وقُدْرَته عليهِمْ

﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاء، فهي تفيدُ استعلاءَ اللّه تعالى وقدرتَه وتمكُّنَه من تبديلِ الكُفّار بِعِبادٍ أفضلَ منهم، وأطوعَ لدينِ اللّه تعالى ولِرَسولِهِ ﷺ.

(1) الراغب، المفردات: (قدر).

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 214.

معنى ﴿أَن﴾ في قولِه: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾:

التَّعبير بالمصدر المؤوَّل يُفسِح التَّركيب لخصوصيّات لا يُفسِحُه لها المَصْدَرُ الصَّريحُ

﴿أَن﴾ في قوله: ﴿لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ مصدريَّة، والمعنى: لقادرونَ على تبديل قوم خيرٍ منهم. والتَّعبير بالمصدر المؤوَّل أفْسَحَ التَّركيب لخصوصيّاتٍ لا يُفسِحُه لها المصدرُ الصَّريح، مِثْلِ المُضارعةِ في الفعل ﴿نُّبَدِّلَ﴾، وإسنادِه إلى ضمير العظمَةِ المستترِ (نَحْنُ)، وكلاهما لا يتحقَّق بغيرِ المَصْدَرِ المؤوَّلِ.

دلالةُ التَّعبير بالتَّبديل دونَ التَّغيير في قوله: ﴿نُّبَدِّلَ﴾، ونُكْتَةُ المُضارعَة فيهِ:

التَّهديدُ الإلهيُّ للكُفّار بالإهلاكِ التّامِّ

مِن دقّة التَّعبير القرآنيِّ هنا استعمالُ مفردةِ (التَّبديل) دون التَّعبيرِ بلفظِ (التَّغيير) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ وذلك أنَّ مقام التَّهديد يقتضي إهلاكَهُم إهلاكًا تامًّا، لا إحداثَ تغييرٍ فيهم؛ إذ "التَّبديل: اتِّخاذُ خَلَفٍ من الشَّيء، يقال: تَبَدَّل الشَّيءَ، وتَبَدَّل به، واستبدله، واستبدل به، كلُّه: اتَّخَذَ منه بَدَلا. وأبدل الشَّيءَ من الشَّيء، وبَدَّله: تَخِذَه منه بدلا، قال الله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48]"[1]. أمّا التَّغيير؛ فهو إحداثُ شيءٍ لَم يكُن قبلَهُ، وانتقالُ الشَّيء من حالٍ إلى حالٍ أُخْرى[2].

فَمَعْنى ﴿أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: "نُهْلِكهم بالمرَّة؛ حسبما تقتضيهِ جناياتُهم، ونأتي بَدَلَهم بِخَلْقٍ آخرين، ليسوا على صِفَتِهِم"[3] يُطيعونَني، ولا يَعْصونَني[4].

وصيغةُ المُضارعَةِ في الفعل ﴿نُّبَدِّلَ﴾ لاستحضار صورةِ التَّبديل، وإقامتها في خَيال المُتَلَقّي؛ فيتملّكه الخوفُ، ويُبادر إلى الإيمان بالله تعالى وطاعتِه.

---

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بدل).

(2) الجرجاني، التعريفات، ص: 63.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 35.

(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 282.

دلالَةُ الخَيْريَّة في المفعول ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، ولطيفَةُ تَنْكيرِه:

سَعَةُ الخَيْرِ الإلهيِّ وامتلاءُ كُنوزِه

الخَيْريَّة في المفعول ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ حيثُ لا يُشتَقّ منهُ التَّفضيلُ على وزن أفعَل إلّا على وجهِ القِلَّةِ. واسمُ التَّفضيلِ هنا ليس على بابِهِ؛ إذ الكافِرُ لا خيرَ فيه، فكان في التَّعبيرِ بـ ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ دلالةٌ على خُلوِّ الكافرين مِن جنسِ الخَيْر، وتمحّضهم للشَّرّ، وأنَّ البَديلَ المهدَّد باستبدالِه مِنْهُم خيرٌ وأفضلُ مِنْهُم على كلِّ حالٍ؛ خلقًا أو وصفًا "فيكونوا أشَدَّ بسطةً في الدُّنيا وأكثرَ أموالًا وأولادًا وأعلى قدرًا وأكثر حَشَمًا ووجاهة وحزمًا وخدمًا، فيكونوا عندكَ خلقًا على قلبٍ واحدٍ في سماعِ قولِكَ وتوقيرك وتعظيمك، والسّعي في كلِّ ما يَشْرَح صدرَك، بدل ما يَعْمَلُ هؤلاء مِن الهُزْءِ والتَّصفيق والصَّفير وكلّ ما يضيق به صَدْرك.

وقد فعل ذلك سُبْحانَه بالمهاجرين والأنصار والتّابعين لهم بإحسانٍ بالسَّعة في الرِّزق بأخْذِ أموالِ الجبّارين من كِسْرى وقَيْصَر، والتَّمكّن في الأرض حتّى كانوا مُلوكَ الدُّنيا مع العمَلِ بما يوجِبُ لَهُم ملكَ الآخِرَة، فرّجوا الكربَ عن رسول الله ﷺ وبذلوا في مرضاته الأنفُسَ والأموالَ"[1].

وفي تنكير ﴿خَيْرًا﴾ دلالَةٌ على امتلاءِ كُنوزِه تعالى بالخير، وأنَّ لديه ﷻ من الخير ما لا يعلَمُهُ خَلْقُه، وأنَّه يَقْدِرُ على تَبْديل ما شاءَ بخيرٍ مِنْهُ.

مَعْنى (مِنْ) في قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، وبيانُ مَرْجِعِ الضَّمير فيه:

الغَضَبُ الإلهيّ قَد يوجِبُ الاستبدالَ، والاستبدالُ يَسْتَلزمُ هلاكَ المُسْتَبْدَلَ مِنْهُ

(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ بمعنى البَدَلِ؛ أي: نأتيَ ببدلٍ خيرٍ مِنهم؛ "والتَّفضيلُ باعتبار اختلاف زمانَي الخَلْقِ الأوَّل والخلق الثّاني، أو اختلاف عالَمَيْهِما[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 417.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 180.

والضَّمير المجرورُ في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ يرجِعُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المذكورين في قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾، وهُمُ المَقْصودونَ - غالبًا - في أوّلِ السّورة الكريمةِ في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾:

لا يُعجِزُ اللهَ تعالى شيءٌ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ حاليَّةٌ[1]؛ والمعنى: نَستَبْدِلُهُم بخيرٍ منهم والحالُ أنَّنا مُتَمَكِّنون مِنْهُم لا يفوتوننا ولا يُعْجِزوننا، وذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ عاطِفَةٌ[2] على جوابِ القسَمِ ومؤكِّدةٌ له؛ أي: إنّا لقادرون على ذلك، وما نحنُ بِمَغْلوبين أو عاجزين عن أن نأتيَ بقومٍ آخرين خيرٍ مِنْهُم.

ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولُه تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾ [فاطر: 15 - 17]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ۝٣٨﴾ [محمّد: 38]، والمقصود بهذه الآيات الكريمةِ تهديدُ المُشْرِكين وبيانُ أنَّ قُدْرَتَه تعالى لا يُعْجِزُها شيءٌ[3].

معنى (ما) في قولِه: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾:

انْتِفاءُ السَّبق والفَوْتِ مقصورٌ عَلى اللهِ تَعالى وحْدَهُ

(ما) في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ حجازيَّةٌ -تعمل عمل لَيْسَ-، و"نحن" اسمُها[4]، وهي هنا تُفيد النَّفي الصَّريح لجوازِ السَّبق والفوتِ على الله تعالى من أحَدٍ كائنًا مَن كان، فالسَّبْقُ والفَوْتُ جائِزٌ عَلى كلِّ أحَدٍ سِواهُ ﷻ. أمّا عليه فمُحالٌ؛ لأنّ الخلق

(1) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 303.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 89.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 106.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 219.

كلّهُ ملكُه، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ١٢٠﴾ [المائدة: 120].

نُكتَةُ التَّعبير بـ ﴿نَحْنُ﴾ في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾:

بيانُ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ والعَظَمَةِ الرَّبّانيَّة

التَّعبير بضمير العَظَمَةِ ﴿نَحْنُ﴾ يتَّسق تمامَ الاتِّساق مع دلالةِ (ما) النّافيةِ معَ اسْمِها ﴿نَحْنُ﴾ في بيان القُدرة الإلهيَّة، واختصاصها بالتَّمكُّن مِن جميعِ الخَلْقِ، ولمّا كان الإنسانُ قد يفعل شيئًا ثم يُنقض عليه، أخبر أنه سبحانه على غير ذلك فـ "أكَّد الأمرَ بالاسْميَّة الكائنة في مَظْهَر العظمَةِ بـ ﴿نَحْنُ﴾، وأعرَقَ في النَّفي فقال: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: مِن سابقٍ ما يَغْلِب على شيءٍ لَم نُرِدْه بوجْهٍ مِنَ الوُجوه، ولذلك أتى باسْمِ المَفْعول"[(1)].

معنى (الباء) في قولِهِ: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

توكيدُ النَّفْيِ وتقريرُ المَعْنى

(الباء) في قولِه: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾ صِلَةٌ على أصلِ الجملة؛ إذْ كانَ أصلها قبل دخول الباء: (ما نحنُ مَسْبوقينَ)، فجيءَ بالباءِ لتَوْكيدِ النَّفي، ولتقرير أنَّه تعالى لا يفوتُه هاربٌ، ولا يَفلِت من قبضَتِه فارٌّ؛ فبالباء في هذا السّياق - كما قال البِقاعيُّ - "أعرَقَ في النَّفي"[(2)]؛ لذلك كان الإتيانُ بها أنسبَ في تحقيقِ المُطابقة.

دلالَةُ التَّعبير بالسَّبْقِ في قولِهِ: ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾:

اللهُ جَلَّ جَلالُهُ لا يُسْبَقُ ولا يُغْلَب

المسبوق: المغلوبُ، فكأنَّه تعالى قال: لا يَسبِقُنا أحَدٌ، ولا يُعْجِزنا أحدٌ عَن ذلكَ، ولا يَفوتنا أحَدٌ فيما نُريدُه[(3)]، "لكنَّ مشيئتنا المَبْنيّة على الحِكَم البالغةِ اقتضتْ تأخيرَ عقوباتِهم"[(4)].

والمسبوقُ هُنا مستَعارٌ للمَغْلوبِ عن أمرِهِ - أي: الممنوعِ عَن

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 418.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 418.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 214.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9/ 35.

تنفيذه -، فشُبِّه بالمسبوقِ في الحَلَبَة، أو بالمسبوقِ في السَّيْر، ومنه قول مُرّة بن عدّاء الفَقْعسيّ:

كَأنَّكَ لَمْ تُسْبَقْ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً *** إذا أَنْتَ أَدْركتَ الَّذي كُنْتَ تَطْلُبُ[1]

يريد: كأنَّك لم تُغلَب إذا تَدارَكْتَ أمرَكَ وأدركْتَ طِلْبَتَكَ"[2].

توجيه المتشابِهِ اللَّفْظيّ في الآية الكريمةِ:

بـراعَـةُ الـبـيـانِ القُرآنيّ في انتقاءِ الألـفـاظ إفـرادًا وتثنيةً وجَمْعًا بـمـا يُـنـاسِـبُ سـيـاقـاتِ كـلٍّ مِنْها

جمع سبحانه هنا المشارقَ والمغاربَ باعتبار أنّ لها في كلِّ يوم من أيّام السَّنةِ مشرِقا مُعيَّنا تُشرِق منه، ومغْرِبا معيَّنا تَغرُب فيه، واختيارُ الجَمْعِ أنسَبُ لمَعنى التَّفرُّقِ إلى جماعات؛ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾.

وقال في سورة الرَّحمن: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ١٧﴾ [الرّحمن: 17] أي: مشرِق الشِّتاءِ والصيفِ ومغربهما. وانتقاءُ التَّثنيةِ هنا مناسبٌ لبناء سورةِ الرَّحمن على التَّثنية؛ إذ هي واردةٌ في مخاطبة الثَّقلين: الجنِّ والإنسِ، ولذا تكرَّر فيها قول اللّه تعالى: (فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ)، وذُكرَ فيها ضروبٌ من التَّثنية، كقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩﴾ [الرّحمن: 19]، وقوله سُبحانَهُ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾ [الرّحمن: 31]، وقوله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرّحمن: 46]، وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ٥٠﴾ [الرّحمن: 50]، وغير ذلك.

وقال سُبحانَهُ في سورة المزمّل: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: 9] والمراد: جِنْسُهما، فهما صادقانِ على كلِّ مشرقٍ من مشارقِ الشَّمس، وعلى كلِّ مغرب من مغاربها. وإفرادُهُما أنسَبُ لذِكْرِ وحدانيَّةِ اللّه تعالى؛ فإنَّه سُبحانَهُ قال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٩﴾ [المزَّمِّل: 9].

---

(1) الخطيب التبريزي، شرح ديوان الحماسة، ص: 69.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 180.

وبذلك يتبيَّن أنَّه لا تعارض بين مجيء هذه الألفاظ تارةً مفردةً، وتارةً بِصيغة المُثَّنى، وتارة بصيغة الجمع[1]، بل ذلك من براعة النَّظْم القرآنيِّ في التَّصرُّفِ في الألفاظِ إفرادًا وتثنيةً وجمعًا بما يُناسِبُ المقامَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّبديل والتَّغيير:

التَّبديل اتِّخاذ خَلَفٍ من الشَّيء، والتَّغييرُ إحداث شَيْءٍ لَم يكُن، وتحويله إلى حالٍ أخرى

التَّبديل: اتِّخاذ خَلَفٍ من الشَّيء، يقال: تَبَدَّل الشَّيءَ، وتَبَدَّل به، واستبدله، واستبدل به، كلُّه: اتَّخَذَ منه بَدَلا. وأبدلَ الشَّيءَ مِن الشَّيء، وبَدَّله: تَخِذَه منه بدلًا. قال اللّه تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48][2]. والتَّغيير: هو إحداثُ شَيْءٍ لَم يكن قبلَهُ، وانتقالُ الشَّيء من حالٍ إلى حالٍ أُخْرى[3].

السَّبق والفَوْت:

السَّبْقُ التَّقدُّم وإحرازُ الفَضْل، والفَوْتُ عدَمُ الإدراكِ

السَّبْقُ: التّقدّم في السّير حقيقةً، وإحرازُ الفَضْلِ والتّبريز، وعدَمُ الفَوْتِ مجازًا[4]، والفَوْتُ: خلافُ إدراكِ الشَّيء والوصولِ إليه. يُقال: فاتَهُ الشَّيءُ فَوْتا. وتفاوَتَ الشَّيْئانِ: تباعَد ما بينَهُما؛ أيَ: لَم يُدرِكْ هَذا ذاكَ[5].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 106.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بدل).
(3) الجرجاني، التعريفات، ص: 63.
(4) الراغب، المفردات: (سبق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوت).

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾

[المعارج: 42 - 44]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

على الدّاعية أن يَجِدَّ في دعوته، فلا ينشغَل عنها بِمُناوَءة المثبِّطين

لَمّا ثَبَتَ أنَّ له سبحانه العظمةَ البالغةَ الباهِرَةَ مِن شُمول العِلْم وتمامِ القُدْرَة، فأنتجَ اعتماد أهلِ حِزبه عليه وإعراضهم عن كلِّ ما سواه؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه - تهديدًا للمخالفين وتسليةً للمؤالفين -: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾"[1]، فلا تنشغِلْ بمؤاخذتهم يا رسولَ اللّه، ولا تُضيِّع وقتَكَ وجُهدك معَهُم سَدًى؛ سُدًى؛ فإنَّهم ليسوا أهلًا لذلك.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: وذَرَ يَذَرُ مثل: وسَعَ يَسَعُ، والمستعمَل منهُ: المُستَقبَلُ والأمْرُ والنَّهْيُ، ولا يستعمل منه الماضي والفاعِل والمفعول[2]، وهو بمعنى التَّرك، قال تعالى: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدَّثِّر: 28]، وقال تَعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91] أي: أَمْهِلْهُم[3]، وقولُ اللّه تَعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾، أي: فخلِّهِم وشأنَهُم[4].

2) ﴿يَخُوضُواْ﴾: (خوض) تدور اشتقاقاتُها على توسُّطِ شيءٍ ودخولٍ[5]، يُقال: خاضَ، يَخوض، خَوْضًا، فهو خائِضٌ، والمفعول

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 418.
(2) المُظهري، المفاتيح في شرح المصابيح: 1/ 256.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وذر).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 224.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوض).

مَخوض؛ للمتعدّي، وخاض القومُ: أمعنوا في الباطل وتوغّلوا فيه، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾، وخاض الشَّخصُ الماءَ، وخاضَ الشَّخصُ في الماءِ: دخلَهُ ومشَى فيه، وتوغَّل فيه، وخاض الغمَراتِ: اقتحَمَ الشَّدائد والمكاره، وخاضَ المنايا؛ أي: ألقى بنَفْسِه في المهالك، وخاض القومُ في الحديث: تبادَلوه وتَفاوضوا فيه، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: 68]، وخاض في أعراض النّاس: اغتابهم[1].

3) ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾: اللَّعب في الأصل هو الفعلُ بغير قصدٍ[2]، يُقال: لعِبَ؛ إذا عمِل عملًا لا ينفع، وعكسه: جَدَّ، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: 2] أي: يستهزِئون ويَهْزَلون. ولعِب الصَّبيُّ؛ أي: تسلّى وقام بما يُلهيه، ولعِبَ مع أصدقائه[3]. وقال تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف: 12] أي: يتسلَّ ويَفعل ما تطرَبُ به نَفْسُه[4].

4) ﴿نُصُبٍ﴾: (نصب) تدلُّ اشتقاقاتُها على إقامَةِ شيءٍ وإهدافٍ في استواءٍ[5]، والنَّصب: إقامة الشَّيء إلى أعلى قويًّا متماسكًا أو شديدًا على وضْعٍ مستقيم دائم، ومنهُ قول اللّه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩﴾ [الغاشية: 19]، وأنصابُ الحرَم: حدودُه، وهي كُتَل عظيمة كالعُمُد القائمة.

والنَّصْب - بالفتح وبالضَّم وبضمَّتين -: ما نُصِب فعُبِد من دون اللّه، ومنه قول اللّه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾[6].

5) ﴿يُوفِضُونَ﴾: (وفض) تدور كثيرٌ من تصريفاتِها على مَعنى الإسراعِ[7]، والوَفض: احتواءٌ أو اجتماعٌ مؤقّت لِما شأنه الانتشار أو التَّفرّق بقوَّةٍ. ومن ذلك: الأوفاض؛ وهي الفِرَق من النّاس والأخلاط من قبائلَ شَتّى.

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (خوض).
(2) الراغب، المفردات: (لعب).
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لعب).
(4) حسن بن حسين الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: 4/ 163.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نصب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفض)، والراغب، المفردات: (وفض).

ومِن هذا الأَصْلِ دلَّت على إسْراعِ الجماعاتِ عَنْ ذُعرٍ ونحوه، وهو انتشارُها وتفرُّقُها بقوَّة، يقال: وفَضَت الإبل؛ إذا أسْرَعَت. وناقة ونعامة ميفاض: مسرعةٌ. ومنه قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، وهذا إنذار مع تقريعٍ بالغِ الزَّجْر، وتذكيرٌ موجِعٌ بإيفاضِهِم إلى الأنْصابِ[1].

6) ﴿خَٰشِعَةً﴾: الخاءُ والشّينُ والعَيْنُ تدلُّ اشتقاقاتُها على التَّطامُنِ[2]، يُقال: خشَعَ يَخشَع خُشوعًا، واختشَع وتخشَّع؛ إذا رمَى ببَصره نحوَ الأرضِ، وغضَّه وخَفَض صَوْتَه. وقوم خُشَّعٌ: متخشِّعون. وخشَع بصرُه؛ إذا انْكَسَر، واخْتَشَعَ؛ إذا طأطأ صَدْرَهُ وتواضَعَ. وقال بعضُ أهل العلم: إنَّ الخشوعَ قريبٌ مِنَ الخُضوع، إلّا أنَّ الخُضوع في البدن؛ وهو الإقرارُ بالاسْتِخْذاء، والخشوعُ في البدن والصَّوت والبصر، كقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: 108] أي: سكَنَتْ[3].

7) ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: الرّاءُ والهاءُ والقافُ تدور اشتقاقاتُها على معنيَيْنِ كُلّيَّين؛ أحدهما: غشيانُ شيءٍ شيئًا، والآخر: العجلةُ والتَّأخير[4]. ومن الأوَّلِ قول الله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [عبس: 40 - 41]؛ أي: تَغْشاها. ومنه أيضًا: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾؛ أي: تغشاهُم. ويَرِدُ الرَّهقُ مرادًا به العظمةُ والفسادُ، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجنّ: 6]؛ أي: عظمَةً وكبرًا وطغيانًا وظلمًا، وقوله سُبحانَهُ: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ [الجنّ: 13] بأن يُزاد في سيِّئاته. والرَّهَق: العُدْوان[5].

8) ﴿ذِلَّةٌ﴾: الذّالُ واللّامُ تدلُّ تصريفاتُها على الخُضوعِ والاسْتِكانَةِ واللّين[6]، والذُّلُّ: ما كان عن قَهْرٍ، يقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا، والذِّلُّ: ما كان بعد تَصَعُّبٍ وشِماسٍ مِن غيرِ قَهْرٍ، يقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذِلًّا. وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24]؛ أي: كُنْ كالمَقْهورِ لَهُما، وقرئ شاذًا: (جناح الذِّلِّ) - بِكَسْرِ الذّالِ - أي: لِنْ وانْقَدْ لهما، يقال: الذُّلُّ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وفض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خشع).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خشع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رهق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رهق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذل).

والقُلُّ، والذِّلَّةُ والقِلَّةُ، قال تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾، وقال: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ﴾ [البقرة: 61]، وقال: ﴿سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ﴾ [الأعراف: 152][1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يكونُ خُروجُ الكفّارِ من قُبورِهِم يومَ القيامةِ هَرولةً على هيئةِ انْبِعاثِهم إلى أصْنامِهِم في الدُّنيا

فدعْهم يا نبيَّنا، غيرَ مكترثٍ بهم وبما يَصنعون مِن تَكْذيبِهم وباطِلِهم الّذي تَعَوَّدوا اقترافَه، ولا تعبأ بما يأتون به في دُنْياهُم مِن أعمالٍ لا نَفْعَ فيها، ولا خيرَ مِنْها، وإنَّما هي لَهْوٌ ولعِبٌ، واشْتَغِل بما أُمرت به[2].

دَعْهُم حتّى يُلاقوا يَوْمَهُم الّذي يوعَدون. واذكُر يومَ يَخْرُجون مِن القُبور مُسْرِعين كأنَّهم يُسْرِعون إلى أنْصابِهِم الّتي نَصَبوها في الدُّنيا للعِبادَةِ، أرأيتَهُم وهُم يُسرعون نحوَها خاشِعَةً أبصارُهُم، ذليلةً منكسرةً، تَرْهَقُهُم ذلَّةٌ وتَغْشاهُم وتَسْتَوْلي عليهم؟ ذلك هو اليومُ الّذي كذَّبوا به، وسألوهُ مُتَعَجِّلين مُسْتَهْزِئين به، ذلك هو اليومُ الّذي كانوا يوعَدون! ويا لَيْتَهُم آمَنوا بِه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ﴾:

تَرْكُ الانْشِغالِ بالمُعانِدين

(الفاء) في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ﴾ تَفْريعيَّة؛ فما بعدها "تفريعٌ على ما تَضَمَّنه قوله تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ مِن إرادَتِهم بفِعْلِهم ذلكَ، وقولِهم: إنَّنا ندخُل الجنَّة، والاستهزاءِ بالقُرآن والنَّبيِّ ﷺ.

وبعدَ إبطالِه إجمالًا وتفصيلًا؛ فرّع عن ذلك أَمْرَ اللّهِ تعالى رسولَهُ ﷺ بتَرْكِهم للعِلْم بأنهم لَم يُجْدِ فيهم الهَدْيُ والاستدلالُ، وأنَّهم مُصِرّون على العِنادِ والمُناوَأة[4].

(1) الراغب، المفردات: (ذل).
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1586.
(3) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 750.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 181.

فالآيةُ فيها أمْرُهُ بألّا يَشْتَغِلَ بأولَئِك، بل يُقْبِلُ على مَن يَرجو منهمُ الإيمان. وألّا يَشْتَغِلَ بمكافأتهم بِسوءِ صنيعهم؛ فإنَّ الله سَيَنْصُرُه عَلَيهم ويُكافِئُه عَنْهُم[1].

دلالَةُ التَّعبير بمادَّة (الوَذْرِ) في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

التَّعبير بمادَّة الوذْرِ في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ يعني: اترُكْهُم، والمعنى: "اتْرُكْهُم يَخوضوا في باطِلِهم، ويَلْعَبوا في دُنْياهُم، واشْتَغِل بما أُمِرْتَ به، ولا يَعْظُمَنَّ عليكَ ما هُم فيه، فليس عليك إلّا البلاغ[2]، وخَلِّهم - غيرَ مكترِث بهم - يخوضوا في باطلهم الّذي مِن جملته ما حُكي عنهم، ويلعبوا في دُنْياهُم[3].

الدّاعيَةُ الجادّ لا يَشْتَغِلُ عَن دَعْوَتِه بمُناوءَة المُناوِئين

دلالةُ الخوض، وبلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ﴾:

(الخَوْضُ) في اللُّغَةِ يُطْلَقُ على السَّير في الماء، والمُراد به هنا: الكلامُ الكثيرُ الّذي لا نَفْعَ فيه[4]، والمقصودُ: خَوْضُهم في القرآن الكريم، وشأنِ النَّبيِّ ﷺ والمسلمين[5]، وعلى ذلك ففي قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ﴾ استعارَةٌ مَكْنيَّة؛ بتَشْبيهِ تَشْكيكِهم، وذمِّهم، وتكذيبِهم القرآنَ الكريم، والرَّسولَ ﷺ، وعمومَ المسلمين بالخوض في الماءِ، وهي استعارةٌ تبعيَّةٌ، غرضُها المبالَغَةُ في بيانِ شَناعَة سُلوكِهم، وبَشاعَةِ ذمِّهم لِلحقِّ وأهله؛ فمَعْنى قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ﴾ أي: اتْرُكْهُم للدُّخول في باطِلِهم الَّذي تَعَوَّدوا الدُّخول فيه، ولا تَعْبَأْ بِلَعِبِهم في دُنياهُم؛ فإنَّه لا يُجْدي[6].

إنَّما يَنتفِع بالقرآنِ والدّين مَن تدبَّرهُما طالبًا الهداية مِنْهُما

وفي اصْطِفاء مادَّة الخوض المرتبطةِ بدُخولِ الماءِ حِسًّا إلْماحٌ إلى صفاءِ هذا الدّين، ونقاءِ أهله، ورِواءِ الذِّكرِ الحكيم، وإنَّما ينتفعُ بكلِّ

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 216.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 353.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 73.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 106.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 182.
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1584.

ذلك مَن تقرّب منه مُغْتَرِفًا قاصدًا الانتفاعَ، لا غائِصًا فيه بِحِقْد، وصدق اللّه العظيم إذ قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82].

بلاغَةُ المَجازِ في إيقاعِ فِعْلِ (الوَذْر) على ضَميرِ الكافِرينَ في قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾:

اجتنابُ المُعانِدين، والعنايَةُ بأهْلِ الإيمانِ ومَنْ عِنْدَهُ قابليَّةٌ لَهُ

في إيقاع فِعْلِ (الوَذْر) على ضميرِ الكافرين في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ مجازٌ عَقْليّ؛ حيث أوقع الفِعْلُ على مفعولٍ غيرِ مفعوله، له بِهِ صلةٌ مسوِّغة، فأوقع الفِعْلُ على ذوات الكافِرين، والمَقْصودُ إيقاعُه على أفعالهم القَبيحَةِ، وخَوضِهم البغيض. واللَّطيفة البلاغيَّة في ذلك الإيقاع هي المبالغةُ في اجتناب أفعالِهم الخَبيثَة، وصَرْف النَّظر عن الاهتمام بها بالكُلّيَّة، وكأنَّ المعنى: انفُض يَدَيْكَ مِنْهُم يا رسولَ اللّه؛ فلا يَشْغَلوكَ عن الجدّ في طريقِ دَعْوَتك المُبارَكة، والعِناية بتعهُّد مَن لديهم قابليَّة الإيمان.

وهذا "مِن قبيل تَوَجُّهِ الفعل إلى الذّات، والمرادُ: توجُّهُه إلى بعض أحوالها الّتي لها اختصاصٌ بذلك الفعل، مثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3] أي: حُرِّم عليكم أكلُها، وقوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾ [النّساء: 23] أي: أن تَجْمَعوهُما معًا في عِصْمة نكاحٍ.

والاعتِمادُ في هذا على قرينةِ السّياق كما في الآيتينِ المَذْكورَتَيْن، أو على ذِكْرِ ما يَدُلُّ على حالٍ خاصَّةٍ، مثل قوله: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ في هذه الآية؛ فقد يكون المقدَّر مختلِفًا كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: 90]؛ إذ التَّقدير: فاجتنبوا شُرْبَ الخمر والتَّقامُرَ بالمَيْسِر وعبادةَ الأنصابِ والاستقسامَ بالأزلام. وهذا الاستعمالُ هو المُعَنْوَنُ في أصول الفقه بـ (إضافةُ التَّحليل والتَّحريم إلى الأعيانِ)، أو (إسنادُ التَّحريم والتَّحليل إلى الأعيانِ)"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 181.

بيانُ مَرْجِعِ ضميرَي المُخاطَب والمفعول في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾، وغرَضُ الأمْرِ فيه:

ضميرُ المُخاطَبِ المأمورِ بالوَذْرِ في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ هو الرَّسول ﷺ، ثُمَّ العلماءُ الدُّعاة إلى اللّٰه تعالى مِن بعده؛ فهُم حملَةُ الأمانَةِ، وورثَةُ النُّبوّة، وبهم يُناط نشرها في ربوع العالمين. فالخطابُ يُرادُ به في الأصل معيَّنٌ على ما هو الأصلُ فيه، ثُمَّ يُلحَقُ به غيرُهُ؛ لِما تقرَّر في الشَّرْعِ مِنْ أنَّ النَّبيَّ ﷺ محلُّ الاقتداءِ والائتساءِ. ويجوزُ أن يكون الخطاب عامًّا ابتداءً؛ لكلِّ من يتأتّى خطابُهُ ممَّن يُباشِرُ الدَّعوةَ إلى اللّٰه تعالى، فيكون الخطاب خارجًا عن أصلِهِ من إرادَةِ المعيَّنِ قصدًا لإرادَةِ العمومِ.

الـرَّسـول ﷺ محلُّ عنايَةِ ربِّه تعالى؛ فيَنْصَحُهُ بعَدَمِ الاهْتِمامِ لكُفْرِهِم

والمَقْصودونَ بالوَذْرِ هُم الكُفّار السّابقُ ذِكْرُهم في قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾، والمعنى "فذَرْ هؤلاء المُشْرِكين المُهْطِعين عن اليمينِ وعنِ الشِّمال عزينَ يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في هذه الدُّنيا ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾"[1].

وغرَضُ الأمْرِ في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ تهديدُ هؤلاء المُشْرِكين[2]، وهو "أمْرٌ بتَرْكِ ما أهَمَّ النَّبيَّ ﷺ مِن عنادهم وإصرارهِم على الكُفْر مع وُضوح الحُجَجِ على إثباتِ البَعْثِ، ولمّا كان أكبَرَ أسبابِ إعْراضِهِم وإصرارِهِم على كُفْرِهِم هو خَوْضهم ولعِبهم؛ كنّى به عن الإعراضِ، بقوله: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾"[3].

بلاغَةُ الكِنايَةِ في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾:

المُناوِئون للدّين مِن الحقارَةِ بما يَكْفي لِعَدَمِ الاكتراثِ بِذَمِّهِم لَهُ

وفي أمْرِ اللّٰه تعالى رسولَهُ ﷺ بتَرْكِهم يخوضونَ ويلعبونَ كنايَةٌ عن حَقارَتِهم، وتوجيهِهِ إلى عدَمِ الاكتراث بهم، وإلى إهمالِ شَأْنِهِم

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 284.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1190.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 181.

بعدَم إقامَةِ وزنٍ لِخَوْضِهِم، "وما في هذه الآية مِن ذلك الأسلوب؛ أي: لا تَكْتَرِث بهِم فإنَّهم دون أن تَصرِفَ هِمَّتَك في شأنِهِم، وذلك مثلُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: 8]، وبهذا نَعْلَمُ أنَّ قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ لا علاقة له بِحُكْمِ القتالِ، ولا هو من الموادعة، ولا هو منسوخٌ بآياتِ السَّيفِ"(1). وإنَّما هو هجاءٌ للكافِرين أليمٌ، مغلَّف في تعريضٍ بارعٍ مُبينٍ.

مَعْنى (الواو) في قوله: ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾:

كلُّ أمرٍ لا عاقِبَةَ لَـهُ تُـحـمَـد؛ فـصاحِبُـهُ فيهِ لاعبٌ لاهٍ

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ عاطفةٌ، تُحقِّق على هؤلاء الكافرين تورُّطَهم في جريمَتَيْن، وتَجْمَعُ عليهم خَطيئَتَيْن عَظيمَتَيْن: الاستهزاءَ بالدَّعوة الشَّريفة، والرَّسول ﷺ، والمسلمين معه، وعدم احْترام الحقِّ وأهلِه، واللَّعِب الّذي لا يُثْمِرُ خيرا.

والخائِضُ: المُتحيِّر، واللّاعب: الخاطئ، فالمعنى: دَعْهم يا نبيَّنا فيما هُم فيهِ من خطايا وتحيُّرٍ في الدّينِ؛ فَكُلُّ مَن اشْتَغَلَ بِما لا يحتاج له فَهو خائِضٌ لاعِبٌ، وأصله: أنّ كلَّ أمْرٍ لا عاقبة له تُحمَدُ؛ فصاحبِهُ فيه لاعبٌ لاهٍ؛ كقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: 36]؛ أي: مَن يعمل في الحياةِ الدُّنيا للدُّنيا لا للآخرة فهو لاعب لاهٍ(2).

دلالَةُ التَّعبير باللَّعِبِ في قوله: ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾، ولطيفَةُ المُضارَعَةِ فيهِ:

يـتَـجَـدَّدُ لعِب الكفّار ويستمرُّ بتجدُّدِ عِنادِهِم واسْتِهْزائِهِم بالدّين وأهلِه

اللَّعبُ الاشْتِغالُ بما لا فائدَةَ مِن ورائه. والمرادُ بِه هُنا: اسْتِهْزاؤُهُم بالحقِّ الّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ(3)، ولعِبُهم في تَلَقّي الدَّعوة الإسلاميَّة، وخروجُهم عن حدود التَّعقُّل والجدِّ في الأمر؛ لاستِطارَة رُشْدهم حَسَدًا وغَيْظا وحَنَقًا(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 182.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 215.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 106.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 182.

ولطيفَةُ صَوْغِ الفِعْلِ في قوله: ﴿وَيَلْعَبُواْ﴾ مُضارِعًا تحقيقُ تَجْديدِهم لَعِبَهم بلا فُتورٍ ولا انتهاءٍ، تجدُّدا مستمرًّا بلا خَجَل ولا تعقُّل.

مَوْقِعُ جُمْلَتَي: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ مِنَ التَّركيب:

الخائِضُ في بِحار أنوارِ القُرآن للانتفاعِ مأجورٌ، والخائضُ بالباطِلِ مَأْزورٌ

فِعْلُ الخَوْضِ في جُمْلَةِ ﴿يَخُوضُواْ﴾ مُضارِعٌ مَجْزومٌ لكونِهِ جوابَ الطَّلب في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾، وقوله: ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ مَعْطوفٌ عليه[1]، وفيه "مبالغَةٌ في ارتباطِ خَوْضِهم ولعبِهم بِقِلَّة الاكتراث بهم؛ إذْ مُقْتَضى جَزْمِه في الجواب أن يُقدَّر: إنْ تَذَرْهم يَخوضوا ويلعبوا؛ أيْ: يَسْتَمِرّوا في خَوْضِهم ولَعِبِهم وذلك لا يَضيرُك. ومِثْلُ هذا الجَزْمِ كثيرٌ، نحو قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: 53].

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ حالًا مِنْ ضَميرِ الفاعِلِ في جملةِ ﴿يَخُوضُواْ﴾، ويكون المعنى: ذَرْهُم يَخوضوا حالَ كونِهِم لاعبين هازِئين بالقرآن الكريم وأمْرِ سَيِّد المُرْسَلين ﷺ ومجتمع المؤمنين؛ إذْ قَد يَخوضُ خائضٌ في بِحار الأنوارِ القُرآنيَّة؛ يُحلِّلُ ويَسْتَنْبِطُ، ويَلْتَقِطُ الدُّررَ ويَنْتَفِعُ، فذلك مأجورٌ؛ إذْ يَخوض مسترشِدًا، لا لاعِبًا، ولا حاقِدًا كاشِحًا.

دلالةُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾:

دوامُ تَرْكِ المُعانِدين والإعراضِ عَنْهُم

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ متعلّقة بقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ لِما فيه من معنى: أَمْهِلهم وانتظِرهم؛ فإنّ اليوم الّذي وُعِدوه هو يومُ النُّشور حين يُجازَوْنَ على اسْتِهْزائِهم وكُفْرِهم، فلا يكونُ غايةً لـ ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾، والغايةُ هنا كنايةٌ عَن دوام تَرْكِهم[2].

دلالَةُ التَّعبير بِمُفْرَدَةِ اللِّقاء في قوله: ﴿يُلَٰقُواْ﴾:

مِن براعَةِ النَّظم الكريم إيثارُ التَّعبير بِفِعْلِ اللُّقيا، لا المقابَلَة؛

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 13/ 112.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 183.

حيث إنَّ اللِّقاء قد يكون بالمُصادَفَة، والمُقابلَةُ تكونُ بالمواجهَةِ، ويومُهم الّذي يوعدون مجهولُ التَّوقيت، فيأتيهم بغتةً مصادفةً بالنِّسبة لهم، وإن كان عندَ اللهِ تَعالى معلومًا، مُؤَقَّتًا بأجلٍ مُسمًّى.

العِقابُ الآتي بَغْتَةً أوقعُ في النَّفسِ وأشدُّ وقعًا عليها

وذهب بعضُ أهل العلمِ إلى أنَّ اليوم الّذي يوعَدونَهُ يومان: يومُ بدرٍ، وقد لاقوا ذلك، والآخرُ هو يوم القيامَةِ، وسيُلاقونَهُ قطعًا[1].

دلالَةُ اليَوْمِ، ولطيفَةُ إيقاعِ فِعْلِ المُلاقاة عليهِ، ووَجْهُ إضافَتِه إلى ضميرِهم:

عظمَةُ يَومِ القيامةِ وشِدَّةُ رَهْبَتِه، ورَهْبَة أحْداثِه

اليومُ المقصود في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ "هو يومُ البَعْث عند النَّفخة الثّانية؛ لِقوله سبحانه: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أي: القبور، فإنَّه بَدَلٌ من ﴿يَوۡمَهُمُ﴾، وهو مفعولٌ به لـ ﴿يُلَٰقُواْ﴾"[2].

وعليه فالمقصودُ: "حتّى يُلاقوا عذابَ يومِ القيامَةِ الّذي يوعَدونَه"[3]؛ إذْ لِقاءُ اليوم في ذاتِه ليسَ سببًا للتَّهديد، لكنَّ التَّهديد بلقائه يَسْتَلْزِمُ التَّهديد بمُعاناةِ أهوالِه ومُقاساتِها؛ بحيثُ كانَ في التَّهديد بمُلاقاته ما فيهِ من غَرْسِ الرُّعب والرَّهبة في قلوبهم؛ فإذا كان اليومُ في ذاتِهِ مخيفًا إلى حدِّ التَّهديدِ بمُلاقاته، فما الظَّنّ بهول أحداثه؟.

وإضافَةُ لفظِ (يوم) إلى ضميرهِمْ؛ لوجود المُلابَسَة[4]؛ وذلك لاشْتِماله عَلَيْهِم، ووقوع مُحاسبَتِهم فيه.

علَّةُ التَّعبير بالمَوْصولِ ﴿ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾:

الاسمُ المَوْصولُ يُتيحُ للتَّركيب خَصائِصَ لا يُتيحُها الاسْمُ الصَّريح

التَّعبيرُ بالاسمِ المَوْصول ﴿ٱلَّذِى﴾ دون التَّعبير باسْم القيامَةِ الصَّريح في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ هيَّأ لِذكر جملة الصِّلة من مادَّة الوَعْدِ ﴿يُوعَدُونَ﴾ لو كانوا آمَنوا، والوعيدِ لأنَّهم أصَرّوا على الكُفْرِ. ومِنْها دلالةُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 216.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 73.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 284.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 183.

المضارَعَةِ فيه، ودلالَةُ بِنائِه لغَيْرِ فاعلِه؛ فكلُّ تِلْكَ الإشاراتِ تُفْتَقَدُ دونَ المَوْصول، وكلُّ ذلك فاعِلٌ في هذا السّياق؛ فتَهْديدُهُم بالمَوْصولِ مع صِلَتِه يؤكِّدان أنَّ "اللّه تعالى قد أعدَّ لهم فيهِ مِنَ النَّكال والوبالِ ما هو عاقبَةُ خَوْضِهِم ولَعِبِهِم"[1].

دلالَةُ الفِعْلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾، ولطيفَةُ صَوْغِهِ مُضارعًا:

سَعَةُ دِلالاتِ المُفرداتِ القُرآنيَّة

مادَّةُ الفِعْلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾ "صالحة لأَنْ تَكونَ مِنَ الوعيدِ والإيعادِ؛ وبذلك يصيرُ الفِعْلُ ﴿يُوعَدُونَ﴾ محتملًا البشارةَ والإنذار"[2]؛ فكان النَّظم الكريمُ بذَلِكَ يوارِبُ بابَ التَّوبة والغفران لِمَن تابَ وأناب، ولا يُحكِم إغلاقَهُ، فيَقْضي عليهِم بالخُلود في الكُفْرِ والعذاب، كما يتهدَّدُهم بالإيعادِ والوعيد لو اسْتَمَرّوا على العنادِ وماتوا على الكُفْر.

والأظهرُ أنَّ المقصودَ بالفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ هنا هو الوعيدُ؛ لأنَّه واردٌ في مقامِ التَّعريض بالتَّهديدِ، والوعيدِ المفهوم من الأمر ﴿فَذَرْهُمْ﴾. وفي حالِ حَمْله على معنى الوعدِ أو الإيعاد يحتَمِلُ موارَبَةَ بابِ المغفرةِ لِمَنْ تاب، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ استعارةً تهكُّميَّةً لِمَنْ أصرَّ على كُفْرِه.

دلالَةُ بِناءِ الفِعْلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾ لغَيْرِ فاعِلِه:

عناصِرُ الكَوْنِ كُلُّها ناقمةٌ على الكفّار، متربِّصة بِهِم الشَّرّ والهلاكَ

في بناء الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ لغير فاعله إيجازٌ؛ أجازه العِلْمُ بالمتوعِّد وهوَ اللّه تعالى، وفي طيِّ ذِكر الفاعلِ أيضًا توفيرُ عنايَةِ المتلقّي على وعْيِ الوعيدِ في نفْسِه بِقطع النَّظر عن فاعلِه، وإبعاد ما يَشْغَلهم عن رهبةِ التَّوعُّد، كما قال البقاعي في نظير هذه الآيةِ: "بناه للمفعول؛ لأنَّ المُنْكِئَ هو الإيعادُ لا كونه من مُعَيَّن"[3]؛ وفي ذلك مِنَ الوعيد للكافرين بذلك اليومِ وما فيهِ أشّدُ تهديد.

كما أنَّ حذفَ الفاعل يُحقِّقُ إطلاقَ جهاتِ الوعيد، ويوحي بأنَّ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 888.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 354.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 191.

عناصِرَ الكَوْنِ كُلَّها ناقمَةٌ على الكفّار، متربِّصة بهِم الشَّرَّ والهلاك، وتَتوعَّدهم لِخروجِهم عن غايةِ خَلْقِهِم - الّتي هي عبادَةُ اللّهِ تعالى -، ومتابعتِهم أصحابَهم من كفّار الأمَمِ السّابقة على الكُفْر، ممّا يُقَرّر مُرافَقتَهُم إيّاهم في العذابِ الخالِد؛ وكلُّ ذلك مِمّا يُراكِمُ الرّعبَ والخَوْفَ عَلى الكفّار.

لطيفَةُ إسْنادِ فِعْلِ الوعيدِ إلى ضَميرِ الجَماعَةِ في الفِعْلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾:

الكافر بِتورُّطه في الكفر والظُّلم يتسبّب لنفسِه في الوعيدِ

في إسناد فِعْلِ الوعيدِ إلى ضمير جماعة الكافرينَ في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ دلالةٌ على شمول الوعيد عمومَ الكافرين، والقطْع بتورُّطهم جميعًا في الظُّلم والكفر، وإن تفاوتَ جُرْمُهُم. كما أنَّ فيه إشارةً إلى كَوْنِهِم السَّبب الرَّئيسَ في ذلك الوعيدِ، وكأنهم فاعلو الوعيدِ بما اقترفوهُ مِنَ الخَوْضِ والاستهزاء بالدّين، والكَيْدِ للرَّسول الكريم ﷺ وللمُسْلمين.

دلالَةُ المُضارَعةِ في الفِعْلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾:

إحضارُ الوعيدِ في ذِهْنِ المُتَلَقّي

في صَوغ الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ مُضارِعا معاصَرَةٌ لزمانِ الدَّعوة؛ وهو الحياةُ الدُّنيا على امتدادِها؛ فَدُعاةُ كلِّ جيل يُجَدِّدون دعوةً تلائِمُ تهديدَ جيلِهِم، وتحذيرَ أهلِ زمانهم؛ فالمضارَعَةُ في الفعل ﴿يُوعَدُونَ﴾ حقيقةٌ مطابِقة لِزمان الدَّعوة واستمرارِها المتجدِّد.

وصيغَةُ المضارعة في الفعلِ ﴿يُوعَدُونَ﴾ أيضًا تَجْعَلُه في حُكم الواقع، وتُحضِرُهُ في تصوُّر المتلقّي حسَبِ قُدرة ذِهنه على التَّصوُّر، وتُقرِّر وقوعه وحصوله بَعُدَ أجلُه أمْ قصُر؛ لأنَّ كلَّ ما أخبر اللّه تعالى عن ذلك اليوم متحقِّقُ الوقوع، كما قال سبحانه في أوّل السّورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾.

موقِعُ ﴿يَوۡمَ﴾ و﴿يَخۡرُجُونَ﴾ في قوله: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾:

تكريرُ النَّظم الكريمِ ذِكْرَ يوم القيامةِ مبالغةٌ في التَّحذير من أهوالِهِ

﴿يَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ بَدَلٌ[1]،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 353.

وفيه بيانٌ وتوجيهٌ عَنِ اليومِ الأوَّل الّذي في قوله: ﴿يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾[1]. وفي تكريرِهِ على سبيلِ البَدليَّةِ مزيدُ تهديدٍ للكافرينَ المكذِّبين به، وتقريرٌ لإتْيانِهِ عليهم وملاقاتِه إيّاهم دونَ سابِقِ ميعادٍ.

وجملةُ ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ في موقعِ المضافِ إلى ﴿يَوۡمَ﴾، والتَّقدير: أنَّ اليومَ الّذي يوعدونَهُ هو يومُ خُروجِهم مِن الأجداثِ سِراعًا.

دلالَةُ التَّعبير بالخُروجِ، وإشارَةُ صَوْغِهِ مُضارعًا في قوله: ﴿يَخۡرُجُونَ﴾:

خُروجُ العباد للحِسابِ أمرٌ متحقّق مُتيَقَّن

معنى الخروج في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ بروزُ أجسادِهِم مِن الأرض، وظهورُهُم للحِساب، فليس المقصودُ خروجًا مجرَّدًا، بل خروجٌ يتبَعُهُ عظيمُ الأهوالِ وشديدُ الأحوالِ.

وجاء التَّعبير بفعل الخروج مضارِعًا؛ لاستحضارِهِ في الذِّهْنِ كأنَّه واقعٌ وقتَ الخطابِ، تحقيقًا له وتأكيدًا على حدوثِهِ.

مَعْنى ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾:

بَدْءُ حُلولِ العَذابِ بالكفّار المُكَذِّبين هو خُروجُهُم مِنَ القُبورِ

﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ مِنْ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ حرفٌ دالٌّ على الابتداءِ؛ تُفيدُ أنّ مبتدأ خُروجِهم مِنَ الأرض، وملاقاتهم ذلكَ اليوم العَصيب يكونُ مِن هذهِ اللَّحظة، ومِن ذلك المبعَث وهو الخروجُ مِنَ الأجداثِ.

دلالَةُ التَّعبير (بالأجداث) دون (القبور):

بَعْثُ النّاس مِنَ الأجداث متقارِبٌ، بخلاف قَبْرِهم فُرادَى على امتدادِ زَمَنِ الدُّنيا

الجَدَث هو القَبْر، وجَمْعُه: أجْداث[2]، والقبر: حفيرٌ يُجْعَل لِمواراة الميِّت[3]. واستعمالاتُ القرآن الكريم لِمفردة الجَدَث تدلّ على أنَّه مكانُ مبعث الأموات مِن مراقدِهِم ليوم القيامة، أيًّا كانت تلك المراقدُ، قبورًا كانت في الأرض، أو بطونَ سباعٍ، أو أعماقَ بحارٍ، أو غيرَها.

ولم يَرِد ذِكْرُ (الأجداث) في الذِّكر الحكيم إلّا في ثلاثةِ مواضِعَ،

---

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 284.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدث).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 183.

وكلُّها في هذا المقام - مقام البَعْثِ -؛ وهي قولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: 51]، وقوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القَمَر: 7]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، وجاءت كلُّها مجموعةً؛ للدّلالةِ على الكثرةِ العظيمةِ، وقد يُشعِرُ ذلك بِخُروجِ كثيرينَ في لحظةٍ واحدة، بخلاف القُبور التي تستقبِلُ أجساد العبادِ فُرادى، وعلى امتدادِ الدُّنيا كلِّها.

موقع ﴿سِرَاعًا﴾ في قوله: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾:

هَوْلُ النَّفخ في الصّور والزّلزلةِ والبَعْثِ وتوابعِ ذلك

﴿سِرَاعًا﴾ جمع: سريع[1]، وجاء في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ حالًا من ضميرِ الكُفّار في قوله: ﴿يَخْرُجُونَ﴾؛ أَيْ: "مُجيبين لدَعْوَةِ الدّاعي، مهطعين إليها"[2]، وفيه إلماحٌ إلى ما هالَهُم من أمرِ النَّفخِ والزَّلزلة والبَعْثِ، وما هنالك ممّا اللّه تعالى به عليمٌ.

دلالَةُ الإسراعِ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾:

إسْراعُ الكُفّار إلى الإيمان في الآخرةِ لا يُغْني عنهُم شيئًا؛ إذِ الآخرةُ دارُ جزاءٍ لا عمَل

في التَّعبير بلفظِ الإسراعِ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ تعريضٌ بأنَّ "الّذي يَحْمِلُهم على الإسراعِ هو أنَّ أنفُسَهُم أبَتْ إجابةَ الدّاعي في الدّنيا؛ فنَزَلَ بِهِم الهلاكُ بتَرْكِهم الإجابة، فيُسارعون في ذلك اليوم إلى إجابةِ الدّاعي رجاءَ أنْ يتخلَّصوا من العذابِ الّذي حقَّ عليهم بتَرْكِ الإجابة.

وذلك لا يَنْفَعُهم، وإن وُجِدَتْ منهم التَّوبة والرُّجوع عن تلك الإجابَةِ؛ لأنَّ ذلك اليوم ليسَ بيَوْمٍ ينفعُ فيهِ النَّدامة والتَّوبة، ففزعوا عند إيقانِهم بالعذابِ إلى الإيمانِ رجاءَ أن يتَخَلَّصوا من العذاب، فلم يَنْفَعْهُم ذلكَ"[3].

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 540.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 888.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 216.

هَيئَةُ الكُفّار حالَ مَعْصيَتِهِم في الدُّنيا تُرافِقُهُم يومَ القيامَةِ؛ جزاءً وفاقًا

معنى (كأنَّ) في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ﴾:

(كأنَّ) في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ أداةُ تَشْبيهٍ، العاقِدَةُ الشَّبَهَ بين هيئةِ إسراعِ الكفّار في خُروجِهم مِنَ الأجداثِ يومَ القيامة، وبينَ هَيْئَتِهِم إذْ يُهرَعون إلى أصنامِهم التي نَصبوها في الدُّنيا لعبادتها من دون اللّه تعالى، ورفضوا الإيمانَ به ﷻ؛ فرُبِطَ هذا بذاكَ؛ "لأنَّ لهذا الإسراعِ اخْتِصاصًا بهم. وفي هذا التَّشبيه إدماجٌ لِتفظيع حالهِم في عبادةِ الأصْنام، وإيماءٌ إلى أنَّ إسراعَهم يومَ القيامةِ إسراعُ دَعٍّ ودَفْعٍ جزاءً على إسراعِهم للأصنام"[1].

سَعَةُ دلالاتِ المُفرداتِ القُرآنيَّةِ

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿نُصُبٖ﴾:

النُّصُب هي الأصنامُ المنصوبَةُ للعبادَةِ، أو الأعلامُ المنصوبَةُ على الطَّريق ليهتدي بها السّالك. وقال بعضُ أهلِ العلم: هوَ ما يُنصب علامةً لنزولِ المَلِك وسَيْرِه، فَهُم يُسرعون إسراعَ عَبَدَةِ الأصنام نَحْوَ صَنَمِهِم، أو إسراعَ مَن ضلَّ عن الطَّريق إلى أعْلامها، أو ما يُنْصَب علامةً ليردّ الجُنْدَ للملِك[2]، وقد كَثُرَ استعمالُ هَذا الاسمِ في الأصنامِ حتّى قيلَ لَها الأنصابُ، ويُقالُ لشبكَةِ الصّائد: نصب[3].

فمعنى قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ "كأنَّهم إلى عَلَمٍ قد نُصِب لهم يَستبقون، والأنصابُ: الّتي كان أهلُ الجاهليَّة يَعْبُدونها ويأتونَها ويُعَظِّمونها؛ كان أحدهم يَحْمِلُ نَصبَه معَهُ، فإذا رأى أحسنَ منه أخذَه وألقى هذا"[4].

التَّكامُلُ الدّلاليُّ بينَ القِراءاتِ القُرآنيَّة

توجيه القراءات القرآنية في ﴿نُصُبٖ﴾:

قرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ عن عاصمٍ ﴿إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ بضمِّ النّون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 183.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 246.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 371.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 285.

والصّاد. وقرأ باقي العشرة ﴿نَصْبٍ﴾ بفَتْحِ النّون وسُكونِ الصّاد[1].

فمن قرأ ﴿إِلَىٰ نَصْبٍ﴾؛ فمعناه: إلى عَلَم منْصوبٍ لَهُم، وهو فَعْلٌ بمعنى مفعولٍ، أي: منصوبٍ. ومن قرأ ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾؛ فمعناه: إلى أصنامٍ لهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3][2].

مَوْقِعُ ﴿يُوفِضُونَ﴾، ودلالَةُ التَّعبير بمُفْرَدَةِ الإيفاضِ، ولطيفَةُ صَوْغِهِ مضارعا:

تقريعٌ بالغٌ وتذكيرٌ موجِعٌ

جملة ﴿يُوفِضُونَ﴾ خبَرُ (كأنَّ) في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾، و"الإيفاضُ: هو الإسراع، وفي ﴿يُوفِضُونَ﴾ معنى الفعل: يَسْتَبِقون، ويَسْعَوْن، ويَنْطَلِقون، ويَبْتَدِرون إلى نُصُبِهم، أيّهم يَسْتَلِمُه أوّلًا، ويكون معنى الآية الكريمةِ: أنَّهم "لا يتَمَكَّنون من الاستعصاءِ للدّاعي والالتواءِ لنداءِ المُنادي، بل يأتون أذِلّاء مقهورينَ للقيام بين يَدَيْ ربِّ العالمين"[3]، "فهم يَخْرُجون من الأجداث مُسْتَبِقين كما كانوا يَسْتَبِقون إلى أنْصابِهِم"[4]، "وكذا عادةُ مَن ضَلَّ الطَّريق أن يُسْرِعَ إلى أعْلامِها"[5]. وفي هذا التَّعبير "إنذارٌ مَع تقريعٍ بالغِ الزَّجْر، وتذكيرٌ موجِع بإيفاضِهِم إلى الأنصابِ"[6].

وعُبِّر بفعل الإيفاضِ مضارعًا؛ لإحضارِ صورةِ ذلكَ في أذهانِ المتلقّينَ؛ ليكونَ أشدَّ استبشاعًا واستِكْراهًا.

مَوْقِعُ قولِه: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مِنَ التَّركيب:

ذلُّ المُشْرِكينَ يومَ القيامةِ

جُمْلَةُ ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حالٌ مِن أحوالِ هؤلاء المشركين، بعدَ خُروجِهم من قبورهم، وسَوْقِهم إلى الموقِف والمَحْشَر؛ إنَّهم يُسْرِعون

(1) البنّاء الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 557.
(2) الأزهري معاني القراءات: 3/ 92.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 888.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 614.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 74.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وفض).

مَسوقين إلى هنالك، وقد خشعَتْ أبصارُهم ذِلَّة وهَوانا[1]، فلا يَرْفعونَها لِذِلَّتِهم"[2].

دلالَةُ التَّعبير بالخُشوعِ في قوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾:

اجتماعُ سوءِ الحالِ الظّاهرَةِ والباطِنَةِ على المُشْرِكينَ يومَ القيامَةِ

معنى قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾: "أنَّ الذِّلَّة والقَلَقَ قد مَلَكَ قُلوبَهُم، واسْتَوْلى على أفْئِدَتِهم، فخشَعَتْ منهُم الأبصارُ، وسكنَتْ مِنْهُم الحَركاتُ، وانْقَطَعت الأصواتُ"[3].

ويجوزُ أن يكون هذا على بَصَرِ الوجوهِ وصفةِ خُشوعِها على ما جاءَ في آيةٍ أخرى، في قوله تعالى: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43]، فيَخْشَعُ خُشوعا لا يملِك صَرْف طرْفِهِ عنِ الدّاعي، ففيهِ أنَّ الذِّلَّة قد أحاطَت بِهِم حتّى أثَّرت في الأعين والوجوهِ، وفي كلِّ عُضْوٍ.

وجائِزٌ أن يكونَ هَذا على بصَر القُلوب؛ وهو أنّ قُلوبَهُم تَشْتَغِلُ بإجابَةِ الدّاعي عن أن تُبصر لِنَفْسِها حيلةً تتخَلَّص بها مِن أهوالِ ذَلِكَ اليوم وشَدائده. وقولهُ ﷻ: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ أي: تَعْلوهُم، والذِّلَّةُ: الحالُ في النَّفْسِ تَبْدو وتَظْهَرُ مِنَ الأبصار[4].

بلاغَةُ المجازِ في اخْتِصاصِ الأبصارِ بالخُشوعِ:

تبجُّحُ الأبصارِ سلاحُ الكفّارِ في الدّنيا؛ فاقتضى ذُلَّها وخُشوعَها في الآخرة

"خشوعُ الأبصارِ استعارَةٌ للنَّظر إلى أسفل مِن الذُّلّ، كما قال تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [الشّورى: 45]، وقال: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧﴾ [القمر: 7]. وأصلُ الخُشوعِ: ظُهور الطّاعة أو المخافةِ على الإنسانِ"[5].

وفي اختصاصِ أبصارِهم بالخُشوعِ: مجازٌ مرسَل بعلاقة الجزئيَّة، وذلك لمَزيدِ خُصوصيَّة الأبصار بإبداءِ مظاهِرِ الذُّلِّ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1191.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 540.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 888.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 217.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 184.

والانكسار؛ فـ "وُصِفت أبصارُهم بالخشوعِ معَ أنَّه وصفُ الكلِّ؛ لغايةِ ظُهورِ آثارِه فيها"[1].

موقع جملة ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ حالٌ أُخرى مِن أحوالِ الكُفّار يومَ القيامَةِ؛ أي: قد أرْهَقَتْهُم ذِلَّة، وأنْهَكَتْهُم، واشْتَدَّت عليهم وطأتُها، وآدَهُم حِمْلُها[2].

دلالة التَّعبير بمُفرَدَةِ الرَّهَق، وإشارةُ المُضارَعَةِ فيهِ:

مَن تَعزَّز في الدُّنيا عن الحقِّ؛ ذَلَّ في الآخرة، ومَن ذلَّ للحقّ في الدُّنيا؛ عزَّ في الآخرة

الرَّهَق: غِشيانُ المتقدِّم أو لَحاقه بِغِلَظٍ يخالطُه، كما تُدْرِكُ الكلابُ الصَّيدَ الهارب بسرعة، وتُحيط به لإمساكه في الحَوْزة، وكذا اللَّحاق بالهارب[3]. وقوله تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ أي: "تظهَرُ عليهم، وتُلِحُّ، وتُضَيِّق نفوسَهُم. ومِن هذه اللَّفظةِ: المرهَقُ من السّادةِ بِحوائج النّاس، والمُرهَقُ بالدَّيْن"[4].

ومناسبَةُ إرْهاقِ الذِّلَّة إيّاهم في الآخرة أنَّهم كانوا يتعزَّزون في الدُّنيا، و"مَن تعزَّز فيها عن الحقِّ؛ ذَلَّ في الآخرة، ومَن ذلَّ للحقِّ في الدُّنيا؛ عزَّ في الآخرة، قال قتادةُ: هي سَوادُ الوجوهِ، ومِنْهُ: غلامٌ مراهِقٌ؛ إذا غَشيَه الاحتلامُ"[5].

والرَّهَقُ هُنا "استعارَةٌ؛ لأنَّ الذِّلَّة لا تَغْشَى، وجملة ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ فذلكَةٌ لِما تضمَّنَتْهُ السّورة في أوَّل أغراضها من قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ إلى قوله: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ﴾ الآيات، وهي مفيدةٌ - مع ذلك - تأكيدَ جملةِ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وفيها مُحَسِّنُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدر"[6].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 74.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1191.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رهق).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 371.
(5) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 324.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 184.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ذِلَّةٞۚ﴾، ولطيفَةُ تَنْكيرِها ونِسْبَةِ الإرهاقِ إلَيْها:

ذِلّةُ الكافر يومَ القيامَةِ مصحوبَةٌ بقَهْرٍ، فألَمُها النَّفسيُّ شديدٌ

في التَّعبير بلفظِ ﴿ذِلَّةٞۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾ دلالَةٌ على غايَةِ الهَوان الّذي يَلفُّ هؤلاءِ الكُفّار، ويَنْضَحُ على وُجوهِهم، ويَنْبَعِثُ مِن أبصارِهِم؛ فـ "الذُّلُّ: ما كانَ عن قَهْرٍ"[1]، والذِّلَّة كذلك: سوادُ الوجوهِ[2]، وفي الذِّكر الحكيم: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس: 40 - 42].

علَّة فصلِ قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ﴾ عمّا قبلَهُ:

تَكرارُ وعيدِ المُشْرِكينَ ومُعاوَدَةُ تَهديدِهِم

فُصِلَتِ الجملةُ في قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ عمّا قبلها؛ لكونِها جملةً مستأنفَةً لا محلَّ لها[3]، أو لكونِها مفسِّرةً لما قبلَها، فيكون بين الجملتين على هذا كمالُ الاتِّصالِ[4]؛ حيث تَرْتَبِطُ دلالَتُها بلفظ (يوم) الّذي ذُكِر مرَّتين في السّياق القريب، وذلك في قولِه تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾، ثُمَّ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾.

ثُمَّ جاءَ قول اللّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ بمثابةِ الخَتم، وكلُّ هذه المواضع فروعٌ معنويَّةٌ تدلَّتْ مِن جِذْعِ شجرَةِ المعنى، وذلك رأسُ الكلامِ في الفعل: (ذرهم)؛ حيثُ تتوالَدُ ثلاثُ آياتٍ مِن رحِم هذا الأمر وتعلِّلُ له؛ تطييبًا لخاطِرِ الرَّسول ﷺ، والّتي يتخلَّلُها جُمَلٌ تُبيِّن أحوالَ المُشْرِكين في ذلكَ اليوم العَصيب، الّذي ألحّتِ الآياتُ الثَّلاث على تَكرارِه ثلاثَ مرّات، مع كلِّ مرَّةٍ تهديدٌ ووعيدٌ لهؤلاء المُنْكِرينَ.

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عظمَةُ اليومِ الآخِرِ وشِدَّةُ أهْوالِهِ

في التَّعبير باسمِ الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ تنبيهٌ إلى

(1) الراغب، المفردات: (ذل).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 354.
(3) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 383.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 220.

خطورةِ ذلك اليومِ، وهَوْلِ ما فيه من أخطارٍ تُحدِقُ بِهِم، وتَسْتَولي عليهم، والمعنى: "هذا اليومُ الّذي وصَفْتُ صفتَه، وهو يومُ القيامة الّذي كان مُشْرِكو قريشٍ يوعدون في الدُّنيا أنَّهم لاقوه في الآخرة، وكانوا يُكذِّبون به"[1]، وهو "ذلك الّذي ذُكِر ما سيَقَعُ فيه مِنَ الأحوال الهائلَةِ ﴿ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: في الدُّنيا"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾:

و(أل) في ﴿ٱلۡيَوۡمُ﴾ للعَهْدِ الذِّكْريّ؛ حيثُ سبقَ ذِكْرُه في السّياق القريب مرَّتين، وهو "الّذي كانوا يوعدونه في الدُّنيا على ألسِنَةِ الرُّسُل، قد حاقَ بِهِم وحضَر، ووقَع بهم مِن عذابه ما أَوْعَدَهُم اللهُ تعالى به، وإن كانَ مُسْتَقْبَلًا فهو في حُكْمِ الّذي قد وقَع لِتَحَقُّق وُقوعِه"[3].

يوم القيامة هو اليومُ الأيْوَمُ، الّذي لا يُقاسُ بِهِ غيرُه مِنَ الأيّام

وفي (أل) دلالَةٌ عَلى خُطورَةِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾، وأنَّه اليومُ الأيْوَمُ، الّذي لا يُقاس به غيره من الأيّام؛ إنَّه "يومُ كَشْفِ الغطاء، الّذي أوَّلُه عند الغَرْغَرَةِ، وتَناهيهِ النَّفخةُ الثّانية، ودخول كلٍّ مِن الفَريقَيْنِ في دارِه ومحلِّ استقرارِه، وقيل: هو يوم القيامَة"[4].

وفي النَّصِّ على فِعْلِ الكَوْنِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ تذكيرٌ للكافرينَ بفُرَص الوعدِ والوعيد الّتي مُنِحوها في المُضيِّ مِنْ أيّام الدُّنيا، حين كانت الفُرْصَةُ لائحَةً لهم، وكان الإيمانُ لا يُكَلِّفهم شيئًا؛ ممّا يُضاعِفُ عَلَيْهِم الحَسْرَةَ يومئذٍ؛ فهلّا أجابوا داعيَ اللهِ تعالى في الدُّنيا!.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الخَوْض والدُّخول:

الخَوْض أخَصُّ مِنَ الدّخولِ

الخوضُ: من قولهم: خاضَ القومُ؛ إذا أمْعَنوا في الباطلِ وتوغَّلوا

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 287.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 74.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 354.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 323.

فيه، قال تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾، وخاضَ الشَّخصُ الماءَ، وخاضَ الشَّخصُ في الماءِ؛ أي: دخله ومشَى فيه[1]، والدُّخول: الولوجُ. يُقال: دخَلَ، يَدْخُل، دُخولًا. والدُّخْلَةُ: باطِنُ أمْرِ الرَّجُلِ. تقول: أنا عالمٌ بدُخْلَتِه. والدَّخَل: العَيْبُ في الحَسَب، وكأنَّه قد دخَلَ عليه شيء عابَهُ. والدَّخَلُ كالدَّغَلِ، وهو من البابِ؛ لأنَّ الدَّغل هذا قياسُه أيضًا. ويقال: إنَّ المدخول: المهزولُ؛ وهو الصّحيح؛ لأنَّ لَحمَهُ كأنَّه قد دُخِلَ. ودَخيلُكَ: الّذي يُداخِلُك في أمورك[2]. والدُّخولُ عامٌّ، والخوضُ إمعانٌ في ذلكَ، فهو أخصُّ.

اللّقاء والمقابلة:

لقي الشّخصَ: صادفه ورآهُ، كما قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف: 74]، ولقي عدوَّه: قاتله وحاربه، كما قال سُبحانَهُ: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال: 15][3]. والمقابلةُ مِن قابَل، يُقال: قابَل صديقَه وجهًا لوجه، وقابَلَه مواجهةً: واجهَهُ والتَقى بِه، وقابَل فلانًا: حادثَهُ في أمرٍ، وقابَل الكتابَ المطبوعَ بالمخطوط، وعلى المخطوط: عارضَ بينَهُما، وطابقَهُ عليهِ. وقابَل السَّيِّئةَ بالحسنة: جازَى بها[4].

اللِّقاء قَدْ يكونُ بالمُصادفَةِ، والمُقابلَةُ تكونُ مواجهةً

والحاصِلُ أنَّ اللِّقاء قد يكون بالمُصادَفَة، والمُقابلَةُ تكونُ بالمواجهَةِ، ولذا آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ هنا باللّقاءِ؛ لأنَّ يومَهم الّذي يوعدونَه مجهولُ الزَّمَنِ بالنِّسبة لهم، فيأتيهم بغتةً مصادفةً، وهوَ عندَ اللّهِ تَعالى معلومٌ.

الجدَث والقبر:

الجدَثُ القبْرُ الّذي يُبعثُ مِنْهُ المَيِّتُ، والقبْرُ المَدْفَنُ مُطلَقًا

الجَدَث هو القَبْر الّذي يُبعث منه الميِّت؛ وهو مبعَث الأمواتِ من

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (خوض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 2/ 335.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لقي).
(4) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قبل).

مَراقِدِهِم ليَوْمِ القيامة، أيًّا كانت تِلْكَ المراقد، قبورًا على الأرضِ، أو في بطونِ السِّباع، أو أعماقِ البِحار، أو غيرِها، وجَمْعُه: أَجْداث. والقَبْرُ: المَدْفَنُ في باطن الأرضِ، وجمعه: قُبور[1].

الخشوع والخضوع:

الخُشوعُ: قريبٌ مِنَ الخُضوع، إلّا أنَّ الخضوع في البدن؛ وهو الإقرارُ بالاسْتِخْذاءِ، والخُشوعُ في البدنِ والصَّوت والبصرِ، كما قال اللّه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [طه: 108] أي: سكَنَت، وكلُّ ساكِنٍ خاضِعٌ خاشِعٌ[2].

الـخـشـوع في البدَنِ والصَّوت والـبَـصَـرِ، والـخُـضـوعُ في البدنِ فقَط

(1) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص: 58.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (خشع).

سُورَةُ نُوحٍ

سُورَةُ نُوحٍ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيُّ وعد الآي:

هذه السّورة مكّيَّة اتِّفاقًا، وقد ذَكَرَ ابنُ عطيَّة[1] والسُّيوطيُّ[2] الإجماعَ على ذلك، وتبعهم على ذلك كثيرٌ من المفسِّرين.

وأمّا عدد آياتها؛ فَهي ثمانٍ وعِشرون آيَةً في العدِّ الكوفيِّ، وتسعٌ وعشرون في العدِّ البصْريِّ والشّاميِّ، وثَلاثونَ آيَة في العدِّ المكّيِّ والمدنيِّ الأوَّل والأخير[3].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

هذه السّورة هي الواحدة والسَّبعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتَي المعارج والجنِّ.

جاء ترتيب السّورة المصحفيِّ بين سورتَي المعارج والجنِّ

وأمّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّها السّورَةُ الواحدة والسَّبعون نزولًا؛ وأنَّها نزلت بين سورتَي النَّحلِ وإبراهيم[4]، وذهب آخرون إلى أنَّها الثّالثة والسَّبعون، وأنَّها نَزَلَتْ بَعدَ سورَةِ النَّحل[5] - بعد نزول أربعين آيةً منها - وقَبْلَ سورَةِ الطّور[6].

فضائل السّورة:

هذه السّورة الكريمة من طوالِ المفصَّل، الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بنُ الأسقَعِ رضي الله عنه: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ

سورةُ نوحٍ من سوَرِ المفصَّل التي فُضِّلَ بها النَّبيُّ ﷺ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 372.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 255.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 5/ 207.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 280، والبقاعي، مصاعد النظر: 3/ 123.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 185.

الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ"[1].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ نوح اشتهرت بهذا الاسمِ وبسورة (إنّا أرسَلنا نوحًا)

وردَت تسميةُ هذه السّورةِ بسورة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ في كثيرٍ من المصاحف، وكذا في صحيح البخاري[2]، وهذا تسميةٌ للسّورةِ بما جاءَ في طالِعَتِها، وقد سُمّيت في معظم المصاحفِ المشرقيَّة والمغربيَّة وفي جُلِّ التَّفاسير: (سورة نوح)[3].

وقد ارتبطَ اسمُها بمِحْوَرِها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنَّ محورها يقوم على تثبيتِ النَّبيِّ ﷺ في دعوتِه قومَهُ، والتَّسرية عنهُ مِن خلال ما قصَّته عليه السّورة الكريمةُ مِن أنموذجٍ نبويٍّ سابقٍ له مِن أولي العَزْمِ من الرُّسل.

وربطَ البقاعيُّ بين اسمها ومقصودها خيرَ ربط، فقال: "ومقصودُها: الدَّلالة على القدرة على ما أنذر به آخر ﴿سَأَلَ﴾ [المعارج: 1]، مِن إهلاك المُنْذَرين، وتبديلِ خيرٍ مِنْهُم، ومن القدرة على إيجاد القيامَةِ الذي طال إنْذارُهُم به، وهُم عنهُ مُعْرِضون، وبه مكذِّبون، وتسميَتُها بنوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أدلُّ ما فيها على ذلكَ، فإنَّ أمرَهُ في إهلاك قومه بسبَبِ تكذيبه في ذلك مشهورٌ، ومقصوصٌ في غيرِ ما موضعٍ، ومذكورٌ، وتقريرُ أمْرِ البعث في قصَّته في هذه السّورة مُقَرَّر ومَسطورٌ"[4].

المحور العامّ للسّورة:

محور السّورة يقوم على التَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ وتثبيته

يقوم محور هذه السّورة على دعوة النَّبيِّ ﷺ إلى الثَّبات في دعوتِه والصَّبر على أذى قومِه واستهزائهم به، وعلى ردِّ اتِّهاماتهم

(1) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم الكبير: (22/ 76، برقم: 187)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2192)..

(2) البخاري، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة نوح: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾، 6/ 160.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 185.

(4) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 124.

له من خلال ما قصَّه عليه من دعوة نوح عليه السلام لقومه؛ إذْ إنَّ اختيارَ قصَّة نوح عليه السلام أنموذجًا للنَّبيِّ ﷺ كان مقصودًا؛ لأنَّه مِن أولي العزم من الرُّسل من جهةٍ، وهو من أكثرهم بقاءً مع قومهِ من جِهة ثانية، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]، وهو كذلك من أقلِّ الأنبياءِ حظوةً بعدَدِ أتباعهِ من جهةٍ ثالثة، كما قال الله سُبحانَهُ: ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40].

ويظهر ذلك في السورة من خلال النقاط الآتية:

أولًا: ابتدأتِ السّورةُ الكريمة بعرْض موجزٍ عَن دعوة نوح عليه السلام، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح: 1]، ثُمَّ فصَّلَ على لسانه ما دعاهم إليه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [نوح: 3 - 4].

ثانيًا: وضَّحتِ السورة على لسان نوح عليه السلام منهجه ووسائلَهُ في دعوتهِ قومَه ليلًا ونهارًا، وإعلانًا وإسرارًا، مبيِّنًا ما وعدهم به ربُّهم تعالى؛ إنْ هُم تابوا، وأنابوا، مِن إرسالِ غيثِ السَّماء عليهم، ومِن إمدادهم بالأموالِ والبنين، ومن كثرة جنّاتهم وأنهارهم، عارضًا لهم بعضَ آيات الله تعالى في الأنفُسِ والآفاق، في خَلْقِهم وفي خلقِ السَّماواتِ والأرض.

ثالثًا: رصدت السورة ردود أفعالِ قوم نوح عليه السلام إزاءَ هذه الدَّعوة، وهذا الصَّبر الجميل، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ [نوح: 6 - 7]، ومنها أيضًا قوله جل جلاله: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: 21 - 23].

موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

وهذه السّورة كغيرها من السّور المكّيَّة، التي عُنيَتْ بغرس أصول العقيدةِ، وتِبْيان عناصر الإيمان، من عبادة الله تعالى وطاعته، وإبطال عبادة الأصنامِ والأوثان، والاستدلال على وجود الله سُبحانَهُ ووحدانيَّته وقُدْرَته.

تدورُ السّورةُ حول قصّة نوحٍ ﵇ مع قومهِ ووسائلِه في دَعْوَتِهِم

فموضوع هذه السّورة المباركةِ الدَّلالةُ على القدرةِ على تحقيقِ الوعيدِ وإنفاذ التَّهديد، وإهلاك المنذَرين، والإيتاء بمَن هُم خيرٌ منهم، وبيان القدرةِ على البعثِ يومَ القيامةِ وحِساب العِباد[1]، فهي تَضْرِبُ المثَلَ للمُشْركين بقومِ نوحٍ ﵇ الذين هم أوَّل مَن أشرك، فسلَّط اللّهُ تعالى عليهم أعظمَ عِقابٍ في الدُّنيا، فأغرقوا بالطّوفان، وقد تضمَّنت الحُجَجَ التي بيَّنها نوحٌ ﵇ لقومِه؛ للدَّعوة إلى توحيدِ اللّهِ سُبحانَهُ ونبذ عبادةِ الأصنام، واستدلاله لَهُم ببدائعِ صُنْعِ اللّه تعالى وتذكيرهم بيومِ البعثِ.

وتضمَّن ذلك بيانَ إصرارِ قومِه على الكفر والإشراك باللّه تعالى، وتفضيلَهُم الأصنامَ الَّتي كانوا يعبدونها، ودعوة نوحٍ ﵇ على قومه بالاستئصالِ، وخُتِمَت بدعاء نوحٍ ﵇ بالمغفرة لهُ وللمؤمنين، وبالتَّبار على الكافرين كُلِّهم[2].

وجاءت موضوعاتها كما يأتي:

أولًا: افتُتِحَتِ السّورةُ ببيان إرسالِ اللّه تعالى نوحًا إلى قومه، وقيامهِ بإنْذارِهِم ومُطالَبَتِهِم بالإقلاع عن ذُنوبِهِم؛ ليَغْفِرَ اللّهُ تَعالى لهم، وليُمِدَّهُم بالأموال والبنين، وليَجْعَلَ لَهُم جنّات، يفجِّر فيها الأنهار، ولكنَّهم أبوا دَعْوَتَهُ، وأمْعَنوا في الضَّلال والعصيان، وهذا مِن قوله تعالى في مَطْلَعِ السّورة: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾، إلى قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [نوح: 1 - 14].

ثانيًا: ثمَّ أمرهم اللّهُ تعالى بالاستدلالِ على وُجودِه ووحدانيَّته وقُدْرَته والإقبال على طاعَتِه وتعرُّفِ نِعَمه بالنَّظر في خلق السَّماوات والأرض، والتَّأمُّل في خلق الإنسان، وفيما أنعم به على النّاس من تذليل الأرض وتسخيرها للنَّفع، وإيداع الكنوز والمعادن فيها،

(1) البقاعي، مصاعد النظر: 3/ 124.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 185 - 186.

والتَّنقُّل في نواحيها، وسلوك السُّبل الواسعة فيها، وهذا مِن قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: 15]، إلى قوله تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 20].

ثالثًا: خُتِمت السّورة ببيانِ كُفْر قومِ نوحٍ وإصرارِهم على عبادة الأصنام، وعقابهم في الدُّنيا والآخرة، ودعاءِ نوحٍ عليه السلام عليهم بالهلاك والدَّمارِ بعدَ جهادٍ طويلٍ في الدَّعوة دامَ تسع مئة وخمسين سنَةً، دون أن يُقْلِعوا عن الشِّرك، أو ينتفعوا بالإنذار والتَّذكير، وهذا واردٌ مِن قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ إلى آخِرِ السّورة(1).

الخصائص الموضوعيّة للسورَة:

تـميَّزت سورة نوح ببراعةِ الاستهلال، والتَّفصيل في المقالِ، وفَرادة الاستعمالِ

أوَّلًا: تميَّزت السّورة الكريمةُ ببراعة الاستهلالِ، ولَم يُشارِكْها في افتتاحِها بحرف التَّوكيدِ، مقرونًا بـ (نا) الدّالَّة على العَظَمَةِ سوى سورَةِ الفَتْحِ والقدرِ والكوثر، وقد اشتركت جميعُها بالبشرى والفتح على النَّبيِّ ﷺ وعلى الأمَّة الإسلاميَّة من بَعْدِه، إلّا أنَّ سورةَ نوحٍ عليه السلام تميَّزت عَن بقيَّة أخواتِها من هذه السّور، بأنَّها ساقت موجَزَ دعوة نوحٍ عليه السلام الطَّويلة إلى قومه، وفي هذا بُشْرى مضمِّنة للنَّبيِّ ﷺ ولأمَّته بفتحٍ ونصرٍ قريبٍ.

ثانيًا: امتازَتِ السّورة الكريمةُ بأنَّها عرضَت لقضايا في قصَّة نوح عليه السلام، لم تَرِدْ في غيرها من السّور الَّتي عرضَت لهذه القصَّة، فقد فصَّلت منهجَهُ في دعوتِه، وصبرَهُ على جُحودِهِم وأفعالهم، والآلاء والنِّعم التي ذكَّرهُم بها، وأسماء آلهتِهم، ودعائه عليهِم، وغير ذلكَ.

الخصائص الأسلوبيّة للسورَة:

انـفـردت سورة نوح بأساليب تعبيرية وألفاظ خاصة ميَّزتها عن غيرها من السور

أولًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها أكثرت من ذِكْرِ بعض الكلمات، مثل الفعل (تذر)، في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]، وقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 133 - 134.

﴿تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ [نوح: 26 - 27]، وكذا لفظ (الزّيادة) في قوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 6]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21]، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: 24]، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: 28]، وكذلك فعل (غفر)، في قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾ [نوح: 4]، وقوله: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نوح: 7]، وقوله: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10]، وقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [نوح: 28].

ثانيًا: امتازَتِ السّورة الكريمة بوفرة المشتقّات اللُّغويَّة وتنوُّعها، فقد أكثرت من ذكر المفعول المطلق: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾، ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾، كما أكثرت من استعمالِ بعضِ الصّيغ والأوزان، كصيغة (فَعال): ﴿وَنَهَارًا﴾، ﴿وَقَارًا﴾، ﴿نَبَاتًا﴾، ﴿خَسَارًا﴾، ﴿ضَلَٰلًا﴾، ﴿تَبَارًۢا﴾، وصيغة (فِعال)، مثل: ﴿فِرَارًا﴾، ﴿جِهَارًا﴾، ﴿طِبَاقًا﴾، ﴿سِرَاجًا﴾، ﴿بِسَاطًا﴾، ﴿فِجَاجًا﴾، وكذلك صيغة (إفْعال)، مثل: ﴿إِسْرَارًا﴾، ﴿إِخْرَاجًا﴾، وصيغة (أفْعال)، مثل: ﴿أَطْوَارًا﴾، ﴿أَنصَارًا﴾، وغيرها.

ثالثًا: كثُرَ في السّورة أسلوبُ القصر بالاستثناءِ بَعدَ النَّفي، مثل قوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: 6]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: 21]، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: 24]، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: 27]، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح: 28].

رابعًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرةُ الطِّباق جليًّا؛ إذ وردت بين تأخير الأجل وتركِ تأخيره، في قوله: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [نوح: 4]، وبين اللَّيل والنَّهار في قوله: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: 5]، وبين الإسرار والإعلان في قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: 9]، وبين الشَّمس والقمرِ في قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: 16]، وبين السَّماء والأرض، والإعادة إلى الأرض والإخراج منها، والعصيان والاتِّباعِ.

خامسًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت ألفاظًا بأبنية صرفيَّةٍ لم تأتِ في غيرها

من السّور، مثل: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ﴾، ﴿وَأَصَرُّواْ﴾، ﴿جِهَارًا﴾، ﴿وَأَسۡرَرۡتُ﴾، ﴿إِسۡرَارًا﴾، ﴿وَقَارًا﴾، ﴿أَطۡوَارًا﴾، ﴿بِسَاطًا﴾، ﴿تَذَرُنَّ﴾، ﴿كُبَّارًا﴾، ﴿فَاجِرًا﴾، ﴿تَبَارًا﴾، وغيرها.

سادسًا: امتازَتِ السّورة الكريمةُ، بأنَّها حوت ألفاظًا فريدة في مادَّتها وبنائها الصَّرفيِّ، وذلك في أسماءِ آلهةِ قومِ نوحٍ: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: 23].

سابعًا: اشتملَتِ السّورةُ الكريمة على أنساقٍ تعبيريَّةٍ لم تتكرَّر في غيرها، حتّى يكاد تكون كلُّ أنساقها كذلك، منها: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ﴾ [نوح: 7]، ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾ [نوح: 8]، ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: 9]، ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: 13]، ﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ [نوح: 14]، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ [نوح: 19]، ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: 22]، ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [نوح: 23]، ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ [نوح: 28]، وغيرها.

مناسبة السّورة لما قبلها:

وجوه المناسبة بين سورة نوح وسورة المعارج:

أوّلًا: تشابه المَطْلَعَين في ذِكْرِ العذابِ الذي وُعِدَ به الكفّار: قومِ محمَّدٍ ﷺ في سورة المعارج، وقومِ نوحٍ عليه السلام في هذه السّورة.

ثانيًا: لمّا أمر اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ في سورة المعارج بالصَّبر، في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾ [المعارج: 5]، وجليل الإغضاء في قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢﴾ [المعارج: 42]؛ أتبَعَ ذلك بذِكْرِ قصَّة نوح عليه السلام، وتكرُّر دعاء قومِه إلى الإيمان، وخصَّ مِن خبرِهِ حالَهُ في طول مُدَّةِ التَّذْكار والدُّعاء؛ لأنَّه المقصودُ في الموضِعِ تسليةً لنبيِّه ﷺ، وليتأسّى به في الصَّبر والرِّفق في الدُّعاء[1].

ثالثًا: لمّا قال في (سأل): ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [المعارج: 40 - 41]؛ عَقَّبه بِقصَّة قوم نوحٍ المشتملةِ على إبادَتِهم عن آخرهم بحيثُ لَم يبقَ مِنهُم ديّار، وبدَّل خيرًا مِنهُمُ، فوقعت موقع الاستدلال والاستظهارِ لتلكَ الدَّعوى، كما وقعت قِصَّةُ أصحاب الجنَّة في سورة (ن)، موقع الاستدلالِ والاستظهارِ لما ختم به (تبارَكَ)[2].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 347 - 348.
(2) السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 147.

سورة نوحٍ متَّصلة تمامَ الاتِّصالِ بسورة المعارجِ مَضْمونًا وأسلوبًا

رابعًا: لمّا تضمَّن آخرُ المعارجِ وعيدَ الكفرة بيوم القيامة وعذابه؛ افتتح هذه بما تقدَّم مِن إنذار نوحٍ قومَهُ بما أصابَهُم مِنَ العذاب؛ تحذيرًا لكفّار قريش أن يَصيرَ حالُهم كحالِ أولئك، وأنَّ هذه سنَّةُ اللّهِ في رُسُلِه وقومِهِم[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 280، والمراغي، تفسير المراغي: 29/ 78.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ [نوح: 1 - 4]

مُناسَبَةُ مطلعِ السّورةِ لخاتمة ما قبلها:

تأكيد الإنذار الشَّديد بمصير الأمم المكذِّبة

بعد أن خُتِمَت سورةُ المعارج بالإنذار الشَّديد للكفّار بعذاب الدُّنيا والآخرة؛ جاءت سورةُ نوحٍ لتُقدِّم أعظمَ مثالٍ للعذاب الذي حلَّ بأمَّة في الدُّنيا؛ بسببِ تكذيبِ الرُّسل، وقصَّةُ نوح عليه السلام تأكيدٌ لحلول الوَعْدِ الإلهيِّ باستئصالِ الكفَرَةِ والمُعانِدين(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنذِرۡ﴾: أصلُ (نذر) يدُلُّ على تَخويفٍ أو تَخوُّفٍ، ومنه الإنذارُ، وهو الإبلاغُ، ولا يكادُ يكونُ إلّا في التَّخويف(2)، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا(3)، والنُّذُرُ: جَماعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، والنَّذير: الاسْمُ من الإنْذار(4)، وهو مَن يُخبِر غيرَه بأمرٍ مخوفٍ حتَّى يحذَرَه(5)، والإنذارُ هنا معناه: الإخبارُ بما فيه تَوَقُّعُ ضُرٍّ، وضِدُّهُ البِشارةُ(6)، والمُراد: خَوِّف قومَك، وحذِّرْهم(7).

2) ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ﴾: أصلُ (أخر) يدلُّ على خلافِ التَّقدُّمِ(8)،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نذر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 137.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 372.
(7) الخازن، لباب التأويل: 4/ 344.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).

ومنه التَّأخيرُ: فِعلُ الشَّيءِ آخِرًا بَعدَ أجَلِه، والآخِرُ ضِدُّ الأوَّلِ، والتَّأخيرُ: التَّأجيلُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقديمُ والتَّعجيلُ[1]، والتَّأخُّرُ: التَّخلُّفُ سواء كان في المكانِ أو الزَّمانِ، يُقالُ: تأخَّر عن عَمَله أي: تَخلَّفَ عنه، وتأخَّر عن مُنافِسه؛ إذا جاء بَعْدَهُ في المكان أو الزَّمان، والتَّأخيرُ في الآية ضِدُّ التَّعْجيلِ، وهو التَّمديد والتَّوسيع في أجَلِ الشَّيءِ، المُرادُ به هنا: عَدَمُ استئصالهم[2].

3) ﴿أَجَلٍ﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيره، يُقال: أجِلَ هذا الشَّيءُ، وهو يأْجَلُ، والاسمُ: الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ: المُرْجَأُ، أي: المُؤَخَّرُ إلى وقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[3]، يُقالُ: دَيْنُه مُؤَجَّلٌ، وقد أجَّلْتُهُ: جعلتُ لَه أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[4]، وقَوْلُهُم: (أجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى، وبَلَغَ الغايَةَ[5]، والمقصود بالأجَل في الآية: المُدَّةُ المُعيَّنَةُ لفِعْلٍ ما[6].

4) ﴿مُسَمًّى﴾ المُسَمَّى: مَأخوذٌ مِنَ الاسم، وهو: ما يُعرَفُ به ذاتُ الشَّيءِ، وأصلُهُ مِنَ السُّموِّ، وهو: العُلوُّ والارتِفاعُ، يُقال: سَما، يَسْمو، سُموًّا؛ إذا ارْتَفَعَ، وسَما به، وأسْماهُ: أعلاهُ، وإنَّما جُعِلَ الاسمُ تَنويهًا على الدَّلالَةِ على المعنى؛ لأنَّ المَعنى تَحتَ الاسم[7]، والمقصود بالمُسَمَّى: المُعَيَّنُ؛ لأنَّ التَّسميَةَ تَعيينُ الشَّيءِ، وعليه يكون معنى الأجَل المُسمَّى في الآية: الأجل المُعيَّن بتقدير الله عند خِلْقَةِ كُلِّ أحَدٍ منهُم[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الله تعالى: إنّا أرسلنا نوحًا إلى قومِه، وقلنا له: حذِّر قومَك وأنذِرْهُم العذابَ على شِرْكِهم وكُفْرِهم، ثمَّ أخْبر امتثالَ نوحٍ عليه السلام، فقال لقومِهِ داعيًا لهم: يا قومي إنّي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189 - 190.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أجل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 191.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سما).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191، 29/ 190.

إنذارٌ ووعيد من أجَلِ الله تعالى المحتومِ

أُنْذِرُكم عذابَ اللّه تعالى فاحذروا أن يَنْزِلَ بِكُم على كُفْرِكم بِهِ، وإنّي رسولُ اللّهِ إليكم، فاعْبُدوه وحده، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكُم عنه، فإن أطَعْتُموني وآمنتُم باللّهِ تعالى؛ فإنَّه يَصْفَحُ عن ذنوبكم، ويمدُّ في أعماركم إلى وقتٍ مقدَّر في عِلْمِ اللّه تعالى، فإنَّ الموت إذا جاءَ؛ لا يُؤَخَّر أبدًا، لو كنتم تعلمونَ ذلك؛ لسارَعْتُم إلى الإيمان باللّه تعالى وطاعَتِه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ افتتاحِ الكلامِ بالتَّوكيد:

تعظيمُ الخبَرِ ولَفْتُ الانتباه إلى المَضْمونِ

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، بالتَّأكيد للاهتمام بالخبَرِ والتَّنبيه عليه؛ إذْ ليس هناك ما يُنْكِرُه عليهم، ولم يتقدَّم شكٌّ ليَنْقُضَهُ بأسلوب التَّأكيد، فتخلَّصَ الخبَرُ للاهتمام بالمضمونِ، وهذا أسلوبٌ مِن أساليب بلغاء العرب[2]، ويجوزُ أنَّ التَّوكيد "لأجل إنكارهم أن يكون الرَّسول بشرًا، أو لتنزيلِهم منزلَةَ المُنْكِرين مِن حيثُ أقرّوا برسالَتِه، وطَعَنوا في رسالَةِ غيرِه مَعَ المُساواةِ في البشريَّة"[3].

وعُبِّر بنونِ التَّعظيم؛ لمزيد الاهتمامِ، ولبيان أنَّ الخبر ذُكِرَ بما للّهِ تَعالى من عظمةٍ غالبةٍ باهرةٍ[4].

دلالَةُ التَّعْبير بالإرسالِ:

تحمُّل الرِّسالة المُتَضَمِّنَةِ الرِّفقَ بالنّاس

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإرسالِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ لدلالة الإرسالِ على مَعْنى الرِّفق، وتحمُّل الرِّسالة[5]، فنوحٌ عليه السلام حُمِّل برسالة التَّوحيدِ لقومه، وهو مبعوثٌ للرِّفق بهم.

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 245، وجماعة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 570.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 186.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 423.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.

(5) الراغب، المفردات: (رسل).

دلالَةُ إسنادِ فِعْلِ الإرسالِ إلى نونِ العظَمَةِ:

تفخيمُ الرِّسالة وتعظيمُ المرسِل

أسْنَد النَّظم القرآنيُّ فِعلَ الإرسالِ إلى نونِ التَّعظيم، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أرسَلَهُ بما لَهُ تعالى مِن عظمَةٍ وجلالٍ[1]، وفيهِ تفخيمٌ لشأن الإرسال، فهو إرسالٌ عظيمٌ؛ لتضمُّنه الرِّفقَ والخيرَ للنّاس.

دلالَةُ تقييدِ الإرسالِ بشِبهِ الجُملَةِ:

تخصيصُ المقصودِ بالرِّسالة وحَصْرُ التَّكليفِ

(إلى) حرفٌ دالٌّ على انتهاء الغايةِ المكانيَّة، وقد قيَّد النَّظم الجليلُ فِعْلَ الإرسالِ بشِبْهِ الجملة ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم هُم المقصودون بالرِّسالة، وأنَّ رسالَتَهُ مقصورَةٌ عليهم[2]، فالإرسالُ مخصوصٌ بهم دونَ غيرِهم، فَهُم المُخاطَبونَ ابتداءً، وهُمُ المكلَّفون بالاستِجابَةِ للرِّسالَة.

دلالَةُ التَّعبير بلَفْظِ (قوم) مضافًا إلى الضَّمير:

القُرْبُ والنَّسَبُ مَظِنَّةٌ للقَبول

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ القَوْمِ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم "كانوا في غايَةِ القوَّة على القيام بما يُحاوِلونَهُ، وهُم بصدَدِ أن يُجيبوهُ إلى ما دَعاهُم إليه، ويُكْرِموه؛ لِما بينَهُم مِنَ القُرْبِ بالنَّسب واللِّسان"[3]، فكونه مِنهُم أحرى بقَبولِ دَعْوَتِه.

معنى ﴿أَنۡ﴾ ودلالَةُ التَّعبير بها:

كشْفُ مضمونِ الرِّسالَةِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بـ﴿أَنۡ﴾، في قوله ﷺ: ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، وهي صالحةٌ أن تكونَ مصدريَّة وتفسيريَّة[4]، أمّا كونُها تفسيريَّة؛ فهي تفسِّر فعلَ الإرسالِ الذي قبلها؛ لأنَّ فِعْلَ الإرسال يتضمَّن مَعْنى القولِ دونَ حُروفِه[5]، وأمّا كونُها مصدريَّةً؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 280.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 186.

فذلك على تقدير حَذْفِ حَرْفِ الجَرِّ، أي: أرسلناهُ بِأَنْ قُلْنا له: أَنْذِر، أي: أرسلناهُ بالإِنْذارِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بفِعْلِ الأَمْرِ:

تقريرُ وجوبِ الإنذارِ وبيانُ تكليفِ النُّبوَّة

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفِعْلِ الأمْرِ ﴿أَنذِرْ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على وُجوبِ الإنذارِ على نوحٍ عليه السلام، فقد أُمِرَ بتحذير قومه، وتبليغِهم بهَذا المآلِ، وتخويفِهم مِن عاقبة التَّكذيب والشِّرك[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بلفظ (قوم) مضافًا إلى الضَّمير:

إلهابُ الدّاعي للبَذْلِ بالنُّصْحِ والدَّعوة

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظَ القومِ إلى ضمير المُخاطَب، في قولِه سُبحانَهُ: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ للدَّلالة على خصوصِ رسالَتِه بِهِم، ولأنَّه واحدٌ مِنهُم، وفيهِ إلهابٌ لنوحٍ عليه السلام؛ ليكون شديدَ الحِرْصِ على دَعْوَتِهِم والسَّعي لنَجاتِهِم مِنَ العذاب، فهُم قرابتُه وأهلُه وأحِبَّتُه[3].

سِرُّ التَّقييدِ بشِبْهِ الجُمْلَةِ: ﴿مِن قَبْلِ﴾:

الدَّعوة واجبَةٌ على وجهِ المُبادَرَة والتَّعجيل

﴿مِن﴾ حرفٌ دالٌّ على ابتداءِ الغايةِ الزَّمانيَّة، وتفيدُ هنا تأكيدَ القَبْليَّة، و﴿قَبْلِ﴾: ظَرْفُ زمانٍ يُؤْذِن بأنَّ العذاب مؤقَّت بوَقْتٍ غير بعيدٍ، فلَهُ أجلٌ مُبْهَمٌ غيرُ بعيدٍ[4]، وقيَّد النَّظم الجليلُ الإنذارَ بشِبْهِ الجملة ﴿مِن قَبْلِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ للدَّلالة على وُجوبِ الدَّعوة على وجْهِ المُبادرَة بها بلا توانٍ[5]، وحثِّهم على الإيمان قبلَ حُلولِ العذاب وفواتِ الأوانِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ عَنِ الإتيانِ بالمَصْدَرِ المؤوَّل:

تجدُّدُ العذابِ وإحاطَتُهُ بالمنذَرين

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالمَصْدَر المؤوَّل دون الصَّريح، في قوله جل وعلا:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 649.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 424.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 187.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 191.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ للدَّلالة على تجدُّد مَجيئِهِ ودوام إيلامهِ لَهُم؛ وذلك لِما في المَصْدَرِ المؤوَّل مِن دلالةٍ على التَّجدُّد والدَّوام لتركُّبه مِن (أنْ) والفعلِ المُضارعِ، والتَّعبيرُ بالإتيانِ دونَ أن يَرِدَ البيانُ القرآنيُّ: (من قبل أن ينزلَ بهم) - مثلًا - يدلُّ على أنَّه يَقْصِدُهُم، ويَنْزِلُ بسببِهم، وأنَّه يأتيهِم من كلِّ الجهات[1]، وفي المصدَرِ المؤوَّل - ولا سيَّما مع (أنْ) - دلالةٌ على الحدَثِ مجرَّدًا دونَ احتمالِ شيءٍ زائدٍ عليه، ففي (أنْ) تحصينٌ من الإشكالِ، وتَخْليصٌ لَهُ من شوائب الإجمال، فالمرادُ: حدَثَ الإتيانُ دونَ التَّعرُّض لهيئاته أو كَيْفيّاته.

سِرُّ إيثارِ فِعْلِ الإتيانِ:

التَّلويح بالعَذاب مِن وسائِلِ الإنذارِ

الإتيانُ: مجيءٌ فيه سُهولَةٌ، ويُطْلَقُ باعتبار القَصْدِ، بخلافِ المجيءِ؛ فإنَّه يقال اعتبارًا بالحُصول[2]، ومِن هنا فإنَّ التَّعبير بفِعْلِ (الإتيان) أنسَبُ للمَقام من حيثُ بيانُ قصْدِ وقوع العذاب ويُسْرِ تحقُّقه، وهو أنسَبُ هَهُنا مِن الجَزْمِ بحَتْميَّة وُقوعه الذي يُناسِبُهُ فعلُ المجيءِ.

دلالة التَّعبير بالضَّمير الغائب:

اختصاصُ العذابِ بالمكذِّبين دون سواهُم

عبَّر النَّظم الجليل عن القوم بضَمير الغائبِ، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ لحوق العذاب بهم دونَ سِواهُم، فأعادَ الضَّميرَ على المذكورينَ قبلُ في ﴿أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾.

دلالَةُ الاستعارَةِ بنِسبَةِ الإتيانِ إلى العذابِ:

العذابُ آتٍ لا محالَة

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بإسنادِ الإتيانِ إلى العذاب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، على طريقة الاستعارة؛ إذ شُبِّهَ العذابُ بشَخْصٍ مِنْ شأنِهِ القدوم والإتيانُ، وهيَ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 293.

استعارةٌ مكنيَّةٌ، والغرضُ مِنْها تهويلُ العذابِ بجَعْلِه مُجسَّدًا، وإبرازُ المعنى في صورةٍ حسّيَّةٍ؛ ليكونَ أرسخَ في الذِّهنِ وأقربَ إلى الفَهْمِ، وأشدَّ في الرَّدْعِ والتَّخويف.

دلالَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾:

عـذابُ المعرِض عن الإيمانِ بالِغٌ شديدُ العِظَمِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عَن العذابِ مُنكَّرًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ لِما في التَّنكير من دلالَةٍ على التَّعظيم والتَّفخيم، فهو مبالغَةٌ في شأنِ العذاب المُحَذَّرِ منه، وكيف لا يكونُ في غاية التَّعظيم، وهو عذابٌ بالطُّوفان في الدُّنيا، وعذابُ الجحيم في الآخرة[1]؟ فاجتمَعَ لهُم إغراقٌ وإحراقٌ، كما قال سُبحانَهُ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾.

دلالَةُ وصْفِ العذابِ بالأليمِ، ونُكْتَةُ التَّعبيرِ عنه بصيغة (فعيل):

لا يُناسِبُ الكفرَ إلّا عذابٌ شديدُ الإيلامِ

وَصَفَ النَّظم القرآنيُّ العذابَ بأنَّه أليمٌ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ للدَّلالة على أنّه عذابٌ شديدُ الإيلام والإيجاع، وذلك لمُناسبَةِ أعمالِهم الخَبيثَةِ مِن الكُفْرِ وغيرِه[2]، وعُبِّرَ بها بصيغَةِ المُبالَغَةِ (فعيل)؛ لِما فيه مِن إظْهارٍ لقَسْوَةِ العذاب وشدَّة وقْعِه على أجسادِهم وأرواحِهم.

بلاغَةُ فَصْلِ جُمْلَةِ القولِ:

بيانُ الاستجابة بـعـدَ الأمـر بتكليفِ الدَّعوة

فصَلَ البيانُ القرآنيُّ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت للجوابِ عَن سؤالٍ نشأ من حكاية إرسالِ نوحٍ عليه السلام، فكأنَّه قيل: ما فعلَ نوحٌ عليه الصلاة والسلام عند إرسالِه إليهم[3]؟ فجاء الجوابُ في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، والتَّعبير بفعل القول ماضيًا يدلُّ على تحقُّق وقوع الفعلِ، وفيه أيضًا دلالَةٌ على الجَهْرِ بالكلامِ وإعلانِه، والتَّصريح بِه.

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 179.

(2) القنوجي، فتح البيان: 14/ 329.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 36.

دلالةُ التَّعبير بأسلوب النِّداءِ، ونُكْتَةُ استعمال حرف النِّداء (يا):

عبَّر النَّظم الجليلُ بأسلوب النِّداء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾، وذلك لتنبيهِ قومه إلى قولِه، وطلبِ إقبالِهم عليه، وتنبيهًا على أهمّيَّة مضمونِ الخطابِ المتلوِّ عليهم[1]، كما أنَّه يتضمَّن إظهارَ الودِّ والاستعطافِ برِفْقٍ ولينٍ؛ ليكونَ أجلبَ لقومِهِ إلى دَعْوَتِه[2].

استعطافٌ وتلطُّفٌ قمينٌ بسماعِ الدّاعي

وقد استُعمِلَ في ندائِهم حرف النِّداء (يا)، وهو موضوعٌ في الأصلِ لنداءِ البعيدِ، مَعَ أنَّ خطابَهُم وقتَ الدَّعوة يكونُ مِنْ قُرْبٍ؛ وذلك رفعةً لشأنِهم بالخطابِ؛ ليكونَ أدْعى إلى تليينِ قلوبِهم؛ لما يدعوهُم نوحٌ عليه السلام إليهِ.

نكتَةُ تكرار لفظِ (قوم) مضافًا إلى ضميرِ المتكلِّم:

آثر النَّظمُ الكريمُ مُخاطبتَهُم بلَفْظِ القوميَّة وتكرارِ هذا اللَّفظ، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾؛ وذلك لتمهيد قبولِ نصيحته؛ إذ إنَّ الرَّجل لا يَبْغي لقومه إلّا ما ينفعُهم، وما يريد لنَفْسِه[3]، وأضافهم إلى ضمير المتكلِّم - وهو هنا محذوفٌ تخفيفًا، والأصل: (يا قومي) - بأن نسَبَهُم إلى نَفْسِه؛ إظهارًا لكمالِ الشَّفقة عليهم، وتلطُّفًا بهم[4].

رابطة القوميَّة مظنَّة لقبول الدَّعوة وإظهارِ الشَّفَقَة

بلاغة التَّوكيد بـ (إنَّ) وتوالي المُؤَكِّدات:

صدَّرَ نوحٌ عليه السلام دعوتَه في جملةِ مقولِ القول: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، بحرف التَّوكيد (إنَّ)؛ وذلك لأنَّ المخاطَبين يتردَّدون في الخبر[5]، ولا يأبَهون لمَضْمونه؛ إذ إنَّ "مِن طَبْعِ البشر إنكارَ ما لَم يُعلَم، إلّا من عصمَ اللّهُ، فَجَعَلَهُ منقادًا للإيمان بالغيبِ"[6].

المرءُ عدوٌّ ما يجهل، والإنكارُ فعلُ مَن يَغفل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 180.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 541.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 426.

تأكيدُ الخطابِ يُظْهِر الحِرْصَ ويؤكِّد الصِّدْق

ومِن شدَّة حرصِهِ ﷺ على دعوَتِهِم؛ جَمَعَ في صَدْرِ دَعْوَتِهِ لهُم ستَّةَ مؤكِّدات - ليس جميعُها بالمعنى الاصطلاحيِّ للتَّوكيد - وهي: التَّأكيد بالنِّداء، ونداؤُهم بلفظِ القوم، وإضافَتُهُ إلى نَفْسِه، وافتتاحُ الجُمْلَةِ بحرفِ التَّأكيد (إنَّ)، وبلامِ التَّعليل، وبتقديمِ شِبْهِ الجُمْلَة[1]، وذلك ليشير لهُم بأنَّه في غاية الحرص على دعوتهم وإظهار صِدْقِه في ذلكَ.

دلالَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرور ﴿لَكُمْ﴾:

فائدة الإنذار خاصَّة بالمدْعوّين

اللّام في القَيْدِ ﴿لَكُمْ﴾ للتَّعليل[2]، وفيها مَعْنى الاختصاصِ أيضًا، فإنذارُه ﷺ لأجلهم، وهو مُخْتَصٌّ بهم، وقدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فلم يقل: (إنّي نذير مبين لكم)؛ للدَّلالة على أنَّ مقصود الدَّعوة هو المخاطَبين، وأنَّ الفائدة من ذلك لهم لا للدّاعي[3]، والتَّعبير عن كون الفائدة مختصَّة بهم ترغيب لهم بالإقبال على الدَّعوة.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالإنذارِ مادَّةً وصيغَةً:

التَّخويفُ إيقاظٌ للغافِلِ عَن سوءِ المآلِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الإنذار بصيغةِ التَّنْكير، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالة على إخْبارِهِ إيّاهم بما يُخَوِّفُهم[4]، وجاء التَّعبيرُ بصيغةِ (فعيل)؛ للدَّلالة على المبالغَةِ في الإنذار، أي: مبالغ في الإنذارِ والتَّخْويف[5]، والتَّنكيرُ دالٌّ على كمالِ المُبالغَة والتَّعْظيمِ.

دلالَةُ الوَصْفِ بلَفْظِ ﴿مُّبِينٌ﴾:

لا تقوم الحجَّة إلّا بكمالِ البيانِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بصِفَةِ المُبين، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لدلالَةِ البَيانِ على الإيضاحِ والظُّهور[6]، فدلَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(4) القنوجي، فتح البيان: 14/ 329.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 426.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (بين).

على أنَّه يُكلِّمهم بلغةٍ يَعْرِفونها، ويَفْهَمونها[1]، وجاء به على هيئَةِ اسم الفاعل للدَّلالة على أنَّ أمرَ الدَّعوة بيِّنٌ ظاهِر، بحيثُ إنَّه من شدَّة وضوحِه مُظهِر لِما يتضمَّنه من الحقِّ[2].

دلالةُ حذْفِ مُتَعَلِّق ﴿نَذِيرٌ﴾:

التَّخويفُ من الصَّدِّ والإعراضِ عن الإيمانِ والتَّوحيدِ

حَذَفَ النَّظمُ الجليلُ متعلِّق الإنذارِ، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ اعتمادًا على دلالة قوله اللّاحق: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ عليه؛ إذِ التَّقدير: إنّي لكُم نذيرٌ بعذابٍ أليم؛ إن لَمْ تُؤْمِنوا[3].

مَعْنى ﴿أَنِ﴾:

كَشفُ مضمون الإنذارِ مَدْعاةٌ للاعتبارِ

عبَّر النَّظمُ الجَليلُ بـ ﴿أَنِ﴾، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، وهي هنا تفسيريَّة؛ لأنَّها مسبوقَةٌ بلَفْظِ الإنذار، وهوَ يتضمَّن مَعْنى القولِ دون حروفِه[4]، فجيء بها لكَشْفِ مَضْمونِ القولِ والإنذارِ، وفُسِّر الإنذار بالعِبادَة؛ لأنَّ تَرْكَ ما أنْذَرَهُم بسبَبِه مِنَ الكُفْرِ لا يُغْنيهم إلّا بالإيمانِ بوَصْفِه مخلِّصًا مِن عواقِبِ الإنذارِ[5].

دلالَةُ التَّعبيرِ بفِعْلِ الأمْرِ ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

تقريرُ التَّوحيدِ وتأكيدُ إيجابِ الطّاعةِ والعبادةِ

عبَّر النَّظم الكريم بفِعْلِ الأمر ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ للدَّلالة على الوجوب القطعيِّ، لا على مجرَّد النُّصح أو الإرشاد، وهو يشمَل جميعَ الواجبات والمندوبات من أفعالِ القلوب والجوارح[6]، ويشير الأمرُ بالعبادة إلى أنَّهم أشركوا باللّهِ تعالى، ونَسوا عبادتَه على وجْهِ التَّوحيد، وانصرفوا إلى أصنامِهم، فجاء الأمرُ تذكيرًا لهُم وصرفًا لهُم عن شِرْكِهم[7].

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 541.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 426.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 426.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 649.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.

دلالة التَّصريح بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

توحيدُ المعبود وتعظيمُ الذّاتِ الإلهيَّةِ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الأحسَن ﴿ٱللَّهَ﴾، في قولهِ جَلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الملكَ الأعظمَ هو الجدير بالعبادة وحدَه دون سواه من آلِهَتِكُم، فيجِب عليكم الإخلاصُ له؛ لأنَّه هو الإلهُ الغَنيُّ[1]، ثُمَّ إنَّ سياق الدَّعوة إلى الإيمان والخروجِ من الكفر يَسْتَدعي التَّعبيرَ بالاسم الأعظمِ الجامع لأوصاف الكمالِ، المنزَّه عن صفاتِ النَّقص، المستحقِّ للعبادةِ والإجلالِ.

بلاغةُ التَّلميح في الآية:

وَعْظُ المُعاصرين بالعِبرةِ مِنَ السّابقين

ألمح النَّظم الجليلُ بحال المُشْركين من قوم نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، إلى حال مُشْركي مكَّة، للمُشابهَة بينَهم وبين حال قوم نوحٍ، تمثيلًا لهُم بهِم[2]، وموعظةً لَهُم أن يَحِلَّ بهم ما حلَّ بالسّابقين.

دلالَةُ عَطْفِ التَّقوى على العبادةِ:

تكاملُ العبادَةِ والتَّقوى في المنهجِ القويمِ

عَطَفَ النَّظم القرآنيُّ التَّقوى على العبادة، في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، فجَمَعَ بين الأمر بالعبادةِ والأمرِ بالتَّقوى؛ لتكميل مُقْتَضى العبادةِ، فهو لا يتمُّ إلّا بالخوف من عذابِه واجتنابِ مَحارِمِه[3]، فكمالُ العبوديَّة لا يتحقَّق إلّا إذا اقترَنَت بتَرْكِ المَعاصي واتِّقاء غضَبِ اللّهِ تَعالى؛ بألّا يُبادرَ إلى حركةٍ ولا سكونٍ إلّا في طاعتِه؛ وذلكُمُ العَمَلُ الواقي من كلِّ سوءٍ[4].

دلالَةُ تقديم عِبادةِ الله تَعالى على تَقْواهُ:

العبادة أصلٌ، والتَّقوى ثمرَتُها

قدَّم النَّظم الجليل العبادةَ على التَّقوى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنَّ العبادةَ هي الأصلُ الجامع الذي تُبنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 427.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 188.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 245.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 427.

عليه التَّقوى، فهي أساسٌ لها، فإنَّ العبادة تورثُ خشيةَ اللّهِ تَعالى وتعظيمَه، فجاء التَّرتيبُ في الآية؛ ليؤكِّد أنَّ التَّقوى ثمرةُ العبادَةِ.

دلالة عطف الطّاعة على التَّقوى:

طاعـةُ المبلِّـغ أساسٌ للعبادَةِ والتَّقوى

عطف البيانُ القرآنيُّ طاعةَ الرَّسول - ﷺ - على الأمر بِتَقْوى اللّه تعالى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى معرفةِ أصولِ عِبادَته وكيفيَّة تَقْواهُ إلّا بطاعَةِ رسولِهِ ﷺ[1]، وفي تخصيص ذِكْرِ الطّاعة مع أنَّه داخِلٌ ضِمْنَ الأمر بالعبادةِ والتَّقوى تأكيدٌ على وُجوب طاعتهِ ومبالغَةٌ في تقريرِ ذلكَ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الطّاعة ونسبتِهِ إلى ياءِ المتكلِّم:

تأكيدُ وساطَةِ الـرُّسُـلِ في التَّبليغ

جاءَ التَّعبيرُ بفِعْلِ الطّاعة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ للدَّلالة على الامتثالِ إلى ما أمَرَهُم به، ونهاهُم عنه، من العبادة والتَّوحيد والتَّقوى، ونسَبَ تلك الطّاعة إلى نفسِه؛ لأنَّه هو المُبَيِّن للرِّسالةِ ومُبَلِّغُها، ولأنَّ الطّاعة قد تكون لغيرِهِ تَعالى بخلافِ العبادَةِ[3]، وأصلُ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: وأطيعوني، فحُذِفت الياءُ تخفيفًا، والكسرةُ على النّون دليلٌ عليها، وفي حذْفِها أيضًا مراعاةٌ للفاصلَةِ قبلها: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، والفاصلةِ بعدها: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

سِرُّ التَّعبير بالفعل ﴿يَغۡفِرۡ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مغفرةٌ متجدِّدة بـوَعْـدٍ مشروطٍ بالطّاعة

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالفعل ﴿يَغۡفِرۡ﴾ مجزومًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ لأنَّه وقع جوابًا عن فِعْلِ الأمر ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ - وما عُطِفَ عليهِ من أفعالٍ تبَعٌ - في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، فجُزِم؛ لأنَّه وقع في جوابِ طلَبٍ، والتَّقدير: إنْ تفعلوا ذلك؛ يغفرِ اللّهُ لكم[4]، وعبَّر بالمغفرة

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 427.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 649.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 541.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.

لدلالتها على السَّتر والتَّغطية وعدم المؤاخذة[1]، أي: إنَّه يستر عنهم الذُّنوب، ويزيلها، ولا يعاقبهم عليها، وجاء التَّعبير بالمضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد الغفران ودوامه بتجدُّد ذنوبهم.

دلالَةُ التَّعبير بِشِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿لَكُم﴾:

وعـدٌ مـؤكَّـد لا يُنالُ إلّا بالطّاعةِ

عبَّر النَّظم الكريمُ بِشِبْهِ الجملة ﴿لَكُم﴾، في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مغفرة الذُّنوب وعْدٌ لهم بإزالة ما يضرُّهم في الآخرة من الذُّنوب[2]؛ كرمًا منه وإحسانًا ولُطفًا، فهُم المقصودون من ذِكْرِ المغفرة وإيقاعها جوابًا عن الأوامر السّابقةِ.

معنى ﴿مِّن﴾:

الإيمان يُجُبُّ ما قبلَه لا ما بَعْدَهُ

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾، دالٌّ هنا على التَّبعيض، وعُبِّر بهِ؛ لأنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قبله، أمّا ما بعده؛ فإنَّهم محاسَبونَ عليه، أي: يَغْفِر لكُم بعضَ ذُنوبِكُم، وهيَ ما سبقَ الإيمانَ[3]؛ وذلك "لأنَّ مَن آمن؛ فإنَّه يصير ما تقدَّم من ذنوبه على إيمانه مغفورًا، أمّا ما تأخَّر عنه؛ فإنَّه لا يصير بذلك السَّببِ مغفورًا، فثبت أنَّه لا بدَّ هاهنا من حرفِ التَّبعيض"[4]، ويصحُّ على معنى تَماثُل شريعة نوحٍ مع شريعةِ الإسلام؛ فيجبُّ الإيمانُ ما قبله، أنْ تُعدَّ (مِنْ) صِلَةً للتَّوكيد، وهو من زيادتها في الإيجاب[5]، ويجوز أن تكون للتَّعليل، فتتعلَّق بأفعال الأمر الثَّلاثة: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، باعتبار أنَّها مجابَةٌ بالفِعْلِ ﴿يَغْفِرْ﴾.

دلالَةُ جَمْعِ الذُّنوب:

آثر النَّظم القرآنيُّ التَّعبيرَ عن الذُّنوب بصيغة الجَمْعِ، في قوله

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (غفر).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 246.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 280 - 281، وينظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 413.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 650.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.

جلَّ شأنه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه يغفِر جميعَ الذُّنوب التي تسبِقُ الإيمان[1].

دلالَةُ إضافَةِ الذُّنوب إلى ضميرِ المُخاطَب:

تقرير الذُّنوب لتخصيص المَغْفِرَة

أضاف النَّظم الجليلُ الذُّنوبَ إلى ضمير المخاطَبين، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على مغفرةِ ذُنوبِهم الخاصَّة بهم، وفيه تقرير لهُم بهذه الذُّنوب، فهي ذنوبٌ معروفةٌ منسوبَةٌ إليهم.

دلالَةُ عَطْفِ تأخيرِ الأجَلِ على المَغْفِرَة بالواوِ:

امتدادُ الفَضْلِ من الدُّنيا إلى الآخِرَة

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ التَّأخيرَ في الأجلِ على مغفرة الذُّنوب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه وعَدَهُم وعْدَين: وعدًا بخَيْرٍ دنيويٍّ، وهو طول البقاء في الدُّنيا، ووعدًا في الآخرة بمغفرة الذُّنوب[2]، وهذا من كمال الإنعام، وقد جاء العطفُ بالواو؛ للدَّلالة على أنَّهما وعْدانِ متغايرانِ مُسْتَقِلّان، وهذا مِن عظيمِ الامتنانِ.

دلالَةُ التَّعبير بالتَّأخير:

وعدُ البقاءِ والإيفاء بتمامِ الأجَلِ

جاءَ التَّعبيرُ بتأخير الأجل، في قوله سُبحانَهُ: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، وعدًا لهم؛ إذا آمنوا، وهو دالٌّ على تأخير العمُر والمدِّ فيه، أي: يمدُّ في أعماركم إلى الأجل الذي قدَّره اللّٰهُ تعالى لكم[3]، وهو مِنَ النِّعَم العظيمة؛ لأنَّ في جبلَّة الإنسان حبَّ البقاءِ في الحياة على ما فيها من عوارضَ ومكدِّراتٍ[4].

مَعْنى ﴿إِلَىٰٓ﴾:

المُكْث في الدّيار إلى مُنْتهى الأعمارِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾، في قوله جلَّ شأنه:

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 246.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 189.

﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾، وهو حرف دالٌّ على مُنْتهى الغايةِ، أي: يمدُّ أعمارَكُم إلى مُنْتَهى ما قدَّره الله تَعالى لَكُم، فلا يُعاقِبُكُم في الحياةِ الدُّنيا بالاستِئصالِ[1].

دلالَةُ تنكيرِ لفظ ﴿أَجَلٖ﴾:

عمومُ الإنعامِ يشمَلُ كلَّ الأنامِ

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ عن الأجل منكَّرًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ للدَّلالة على عموم آجال المُخاطَبين، فهو متعدِّد بتعدُّدِهم، فالتَّنكيرُ دالٌّ على العمومِ[2].

بلاغَةُ استعارَةِ التَّسميَةِ للتَّعيين:

تعيينُ الآجالِ وتحديدُ الأعمارِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بتسميةِ الأجَلِ، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أجَلٌ مُعَيَّنٌ محدَّدٌ، فالتَّسميَةُ مُستَعارَةٌ للتَّعيينِ، فشبَّه عدم الاختِلاطِ بينَ أصحاب الآجالِ بتعيين النّاسِ بالتَّسمية، فلا يختَلِطُ أحدٌ بآخرَ، فلكلِّ شخصٍ أجلٌ معيَّن، كما أنَّ له اسمًا يعيّنه عَن سِواهُ، والمَعْنى: يؤخِّركُم، فلا يُعاقِبُكُم في الدُّنيا، فيَبْقى كلُّ أحَدٍ مِنْكُم إلى أجلِه المعيَّن المحدَّدِ لَهُ[3].

بلاغَةُ فَصلِ الجُمْلَة وتأكيدِها:

لا تأخيرَ للأجلِ وإنْ طالَ الأمَلُ

فصل النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّها سيقت لتَعْليلِ الرَّبط بين الأمر وجوابه، في قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ لأنَّ معنى ذلك الرّابط: إنْ لم تعبدوا اللّهَ تعالى، وتتَّقوه، ولم تُطيعوني؛ فإنَّه لن يَغْفِرَ لكُم، فعلَّقَ هذا الرَّبط بالجملة، فإنَّه لا يؤخِّر الأجل؛ لأنَّ الأجل الذي قدَّره الله تعالى، لا يُؤخَّر، ويحتمل أن تكون الجملةُ فُصِلَت؛ لكونِها استئنافًا

---

(1) الخازن، لباب التأويل: 4/ 344.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 190.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 190.

بيانيًّا، نشأ عن سؤالٍ، فكأنَّه قيل: لماذا يؤخِّرهم إلى أجلٍ معيَّن محدَّدٍ دون أجلٍ مستمرٍّ ودائم؟ فقيل: إنَّ أجل اللّٰه تعالى لا يُؤَخَّر[1]، وإنَّما أكَّد الجملة؛ لأنَّهم لشدَّةِ انْهماكِهم بحُبِّ الدُّنيا كانوا كأنَّهم شاكّون في مجيء المَوْت[2].

دلالَةُ إعادَةِ ذِكْرِ الأجَلِ:

المـوتُ والاستِئْصالُ نوعانِ مِن الآجالِ

أعاد النَّظمُ القرآنيُّ ذِكْرَ الأجَلِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾، وهو غيرُ الأجَلِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾؛ لأنَّ المرادَ به الأجلُ المتعلِّق باستِئْصالِ الأمَمِ بالعذاب، فهو أجلُهُم جميعًا حين يحلُّ بهم العذابُ[3].

دلالَةُ إضافَةِ الأجلِ إلى اللهِ تَعالَى:

تمييزُ الأجلِ الإلهيِّ القاهرِ لاستِئصالِ الأممِ

أضاف البيانُ القرآنيُّ الأجلَ إلى الاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للإشارَةِ إلى أنَّه ليس الأجلَ المعتادَ، الذي يتناولُ كلَّ فردٍ، بَل هو الأجلُ الذي عيَّنه اللّٰهُ تعالى للأمم باستئصالهم حالَ إصْرارِهم على الكُفْرِ[4].

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

حتميَّة حلولِ الأجلِ ويقينُ وقوعِه

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بأداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾؛ للدَّلالة على حتميَّة الحدوث[5]؛ لأنَّ (إذا) في أصلِ وضْعِها دالَّةٌ على تحقُّق الشَّرْطِ والجَزْم بِهِ، وهكذا هو هُنا؛ فإنَّ مجيء الأجل بالاستئصال للأمم الكافرة حقيقةٌ لا شكَّ فيها، وليس افتراضًا، بخلافِ (إن) فإنَّها تدلُّ على الشَّكِّ في وقوعِ مدخولِها، وهي لا تُناسِبُ هذا المقامَ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 190 - 191.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 30.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 191، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 182.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 191.

(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 182.

تصويرُ مجيءِ عذابِ الله تعالى الشَّديدِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمَجيءِ:

عبَّر النَّظم الجليل بالمجيءِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾؛ لدلالة المجيء على القوَّة والشِّدَّة والمَشَقَّة[1]، فكان التَّعبيرُ به دالًّا على أنَّ حلولَ العذابِ مُقْتَرِنٌ بالشِّدَّة والصُّعوبةِ؛ لِما يلحَقُ القومَ مِن كَرْبٍ وهَوْلٍ عظيم.

ويُطلَقُ فعل المجيء أيضًا اعتبارًا بالحصولِ على خلافِ فِعْلِ الإتيان الَّذي قد يُطلَقُ باعتبار القَصْدِ، وإنْ لم يكنْ منه حصولٌ[2]، وأجلُ اللّه تعالى في هذا السّياق واقعٌ متحقّقٌ لا محالةَ بأمارة القَيْدِ ﴿لَا يُؤَخَّرُۚ﴾.

الإيمـانُ يـدفَعُ أجـــلَ الأمـــمِ بالاستئصالِ، وأمّـــا أجـلُ الأفـرادِ؛ فإنَّهُ لا يتأخَّر

دلالَةُ إثباتِ التَّأخيرِ ونفيه:

جاءَ التَّعبيرُ عن التَّأخير بالإثباتِ مرَّةً، وبالنَّفي مرَّةً أخرى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾؛ لأنَّ المراد بالأوَّل: أجَلُ الموتِ بالنِّسبة للأفراد، فيشمل كلَّ واحدٍ مِنْهُم، والمراد بالآخَر: أجلُهُم جميعًا باستِئصالِهِم بالعذاب[3]، قال الفخر الرّازيُّ: "قضى اللّهُ مثلًا أنَّ قوم نوحٍ إن آمنوا؛ عمَّرهم اللّهُ ألفَ سنَةٍ، وإن بَقوا على كُفْرِهِم؛ أَهْلَكَهُم على رأسِ تسعمئة سنَةٍ، فقيل لهم: آمِنوا؛ يؤخِّرْكم إلى أجلٍ مُسَمًّى، أي: إلى وقتٍ سمّاه اللّهُ، وجَعَلَه غايةَ الطّول في العمر، وهو تمام الألف، ثُمَّ أخبر أنَّه إذا انقضى ذلك الأجل الأطول؛ لا بدَّ من الموتِ"[4].

لا عِلْمَ للجاهلِ يَـقـيـهِ سـوءَ العواقبِ

دلالة التَّعبير بـ ﴿لَوۡ﴾:

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بأداة الشَّرط ﴿لَوۡ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وهو حرف يُستعمَل لِما كان سيَقَعُ

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 28/ 95.
(2) الراغب، المفردات: (جاء).
(3) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 366.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 650.

لوُقوعِ غيره[1]، أي: لو كان لكُم عِلْمٌ؛ لعَرَفْتُم أنَّ أجلَ اللّهِ تعالى لا يؤخَّر، ولكنَّكم مُنْهَمِكون في الدُّنيا حتّى بلغَ الأمرُ أنَّكم مثلُ الشّاكِّ بالمَوْتِ[2].

دلالَةُ التَّعبير بِفِعْلِ الكونِ ماضيًا:

عُبِّرَ بفعل الكونِ ماضيًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للإيذانِ بتأكيدِ انتِفاء عِلْمِهم وتحقُّقه، أي: ليسَ لَكُم عِلْمٌ مِنَ الأصل في شأنِ حقيقَةِ الأجَلِ[3].

دلالة التَّعبير بالمُضارِعِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

تحقُّق العلمِ المتجدِّد يقي المهالكَ

جاءَ التَّعبير عن العلم بالفِعْلِ المُضارع، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، أي: ليس لكم علمٌ يتجدَّد في الأوقات، أي: "لو كان العلمُ أو تجدُّده وقتًا ما في غرائزكُم؛ لعَلِمْتُم تنبيهَ رسولِكُم ﷺ أنَّ اللّه يفعل ما يشاء، وأنَّ الأجل آتٍ لا محالة، فعَمِلْتُم للنَّجاة، ولكنَّكُم تعملونَ في الانهماكِ في الشَّهوات عملَ الشّاكِّ في الموت"[4].

دلالَةُ حَذْفِ جوابِ ﴿لَوۡ﴾:

حذف النَّظمُ الكريمُ جواب ﴿لَوۡ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لدلالة السّياق عليه، أي: لو كنتُم تعلمونَ ذلكَ؛ لعَبَدتُم اللّه تعالى، وآمنتُم به، واتَّقيتُموه، وأطعتُم رسولَهُ[5].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإرسال والبعثِ:

الإرسالُ أخصُّ من البعثِ، فهو يتضمَّن رسالَةً

البَعْثُ أعَمُّ من الإرسال؛ لأنَّه "يجوز أن يبعَثَ الرَّجلُ إلى الآخر لحاجَةٍ تخصُّه دونك ودون المبعوثِ إليه، كالصَّبي تَبْعَثُه إلى المكتب، فتقول:

---

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 181.

(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 390.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 192.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 429.

(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 294.

بَعَثْتُه، ولا تقول: أرسلته؛ لأنَّ الإرسال لا يكون إلّا برسالةٍ، وما يجري مَجراها"[1]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾، آثر التَّعبير بالإرسال؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام حُمِّل رسالةً إلى قومِه؛ إذ هو نبيٌّ ورسولٌ.

التَّقوى والخَشْيَة:

الخشيةُ شعور بـالـخـوفِ، والتَّقوى إجـراءٌ بـتَرْكِ ما يُخاف مِن مآلِه

الخَشْيَة: خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكون ذلك عن عِلْمٍ بما يُخْشَى منه، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][2]، فهي خوفٌ مخصوص، يلزَمُه التَّعظيم، أمّا التَّقْوَى؛ فهي جَعْلُ النَّفس في وِقايَةٍ ممّا يُخاف، والتَّقوى في عُرف الشَّرع: حِفْظُ النَّفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظورِ[3]، فالتَّقوى احتراز ممّا يُخْشى منه، والخشيةُ شعورٌ بالخَوْفِ، وفي الآية الكريمة استُعمِلَ لفظُ التَّقوى؛ لأنَّه أمَرَهُم بفِعْلٍ يَجتَنِبون به العقابَ، وهو طاعَتُه وعبادةُ اللّهِ تَعالى وحدَهُ ونبذ الشِّرك، فهي إجراءٌ وصيانةٌ للنَّفس ممّا يُخْشى مِن عاقِبَتِه.

الذُّنوب والأوزار:

الـوِزْرُ أخصُّ من الـذَّنـب، فهو ذنــبٌ ثـقـيـل، والذَّنبُ عامٌّ

أصل الذَّنب يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيء، ومنه: ذَنَبُ الدّابة، ويُعبَّر به عن المتأخِّر والرَّذل، والذَّنْبُ في الأصل: الأخذ بذنَبِ الشَّيء، وسُمّي الذَّنْبُ اعتبارًا لِما يحصُل من عاقبته[4]، أمّا الوزر؛ فهو الذَّنب الثَّقيل، سمّي بذلك تشبيهًا لَهُ بالجَبَلِ في ثِقَلِه؛ لأنَّه يُثْقِلُ صاحبَه[5]، وجاء التَّعبيرُ في الآية بالذُّنوب؛ لأنَّه أعمُّ مِنَ الوزر، فهو يتعلَّق بالصَّغير والكبير، والوِزرُ يختَصُّ بالثَّقيل منها حسبُ، فدلَّ على أنَّ غفران ذنوبهم يشمَلُ صغيرَها وكبيرَها.

---

(1) العسكري، الفروق، ص: 289.
(2) الراغب، المفردات: (خشي).
(3) الراغب، المفردات: (وقى).
(4) الرّاغب، المفردات: (ذنب).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (وزر).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ
إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ
ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ
إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا
۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾ [نوح: 5 - 10]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

شكوى نوحٍ لربِّه بعدَ إنذارِ قَومِه

بعد أن ذكَرَ اللّهُ ﷻ أنَّه أمر نوحًا عليه السلام، بإنذار قومه قبل أنْ يحلَّ بهم عذابٌ أليم، وأنَّه لبّى نداءَ ربِّه، فأنذر قومَه، ورغَّبهم، وخوَّفهم؛ أتْبَعَهُ هنا بمناجاته لمولاه وشكواهُ إليه، مخبرًا عن إنذاره لهم مطيعًا أمرَ ربِّه فيهم، حاكيًا عصيانَهُم واستكبارَهُم عنِ الدَّعوة[1]، ونبَّه على ذلك بمقولهِ في هذه الآيات؛ لكونه عليه السلام أطولَ الأنبياء عُمرًا، وكان قد طال نُصحُه لَهُم وبلاؤهُ بِهِم[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَعَوْتُ﴾: أصلُ (دعو/ دعا) تدلُّ تصريفاتُهُ على إمالَةِ الشَّيءِ إليك بصوتٍ وكلامٍ يكونُ منك، تقولُ: دعَوتُ أدعو دُعاءً، والدَّعوةُ إلى الطَّعام بالفتح، والدِّعوةُ في النَّسَبِ بالكسرِ[3]، ودعوتُه بمعنى: ناديْتهُ[4]، ويأتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، ومنه سُمّيَت الرَّغبةُ إلى اللّه ﷻ دُعاءً[5]، والدُّعاء في الآية معناه: القولُ الدّالُّ على طلَبِ عمَلٍ من المُخاطَبِ[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 81.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 429 - 430.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دعو).
(4) الجوهريّ، الصَّحاح: (دعا).
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 118، وابن سيده، المحكم: (دعو).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 302.

2) ﴿يَزِدْهُمْ﴾: (زيد) أصلٌ يدُلُّ على الفَضْلِ[1]، يُقالُ: زاد الماء والمال، وازدد من الخير[2]، والزّيادةُ: النُّموُّ والكَثْرَة، وجَمْعُها: زَوائِدُ، يُقالُ: زادَ، يَزيدُ، زَيْدًا وزيادَةً، وضِدُّها: النُّقْصان[3]، وتَزايَدوا في الثَّمَن حتَّى بَلَغَ مُنتهاه، والتَّزيُّد: تَكلُّفُ الزّيادةِ في الكَلامِ وغيرِه[4]، والزّيادة أيضًا: ضمُّ شيءٍ إلى ما عليهِ الشَّيءُ في نفسِه[5]، وهو المرادُ في الآيةِ.

3) ﴿فِرَارًا﴾: (فرّ) أصلٌ يدلُّ على الانكشاف، وما يُقاربه من الكشف عن الشَّيء، ومن هذا القياس: الفِرار، وهو الانكشاف، والفِرارُ: الرَّوَغان والهَرَبُ[6]، فَرَّ يَفِرُّ فِرارًا؛ إذا هَرَبَ من طالبه، وزاغ عن عينه، ورَجُلٌ فَرورٌ وفَرورةٌ وفَرّار: غَيْرُ كَرّارٍ[7]، والمراد به في الآية الكريمَةِ: التَّباعدُ مِنَ الإيمانِ[8]، وهو مُستعارٌ لقوَّةِ الإعراضِ[9].

4) ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ﴾: (غشي) أصلٌ يدلُّ على تَغْطيَةِ شَيءٍ بشَيءٍ، والغِشاءُ: الغِطاءُ[10]، وغَشيَهُ غِشاوَةً وغِشاءً، أي: سَتَرَهُ، والغِشاوَةُ: ما يُغطّى به الشَّيء، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: 23][11]، والاستغشاء في الأصل اشتمال من فوق، ولمّا كان فيه معنى السَّتر استعمل بمعناه، وأصل الاستغشاء طلب الغشي، أي: السَّتر، ولكن معنى الطَّلب هنا ليس بمقصود بل هو بمعنى التَّغطّي والسَّتر، والمراد به هنا: المُبالغة في التَّغطّي بثيابهم كأنَّهم طلبوا منها أن تغشاهم؛ لئلّا يبصروه كراهة النَّظر إليه[12]، والمراد به في الآيةِ الكريمَةِ: يُغَطّون وجوهَهُم ورُؤوسَهُم[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيد).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (زيد).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زيد).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (زيد).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (زيد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فر/ فرر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (فرر).
(8) الواحدي، البسيط: 22/ 251.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(11) الراغب، المفردات: (غشي).
(12) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 249.
(13) القنوجي، فتح البيان: 14/ 333.

5) ﴿وَأَصَرُّواْ﴾: (صرر) أصله يدلُّ على تضامٍّ والتِئام، أو تداخلٍ شديدٍ[1]، تقول: أصرَرْتُ على الشَّيء؛ إذا أقمتَ، ودُمْتَ عليه، ومنه قوله: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: 135]، ويُطْلَقُ على العَزْمِ والتَّصميم، من قَوْلِهِم: أَصَرَّ عَلى فِعْلِه؛ إذا عَزَم عَلى أن يَمْضيَ فيه، ولا يرجع[2]، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ في الشَّرِّ والذُّنوبِ والآثام، يُقالُ: أصَرَّ على الذَّنْبِ، يُصرُّ، إصرارًا، فهو مُصِرٌّ: إذا لم يُقلِعْ عنه، والإصرارُ في الآية مراد به: تحقيقُ العَزْمِ على فِعْلٍ، أو: المقامُ على الذَّنْب وعدمُ الانفكاكِ عنه[3].

والمعنى في الآية الكريمَة: أقاموا على فِعْلِهم[4].

6) ﴿وَأَسۡرَرۡتُ﴾: (سرّ) أصلٌ يدلُّ على إخفاءِ الشَّيء، وما كانَ مِنْ خالصِه ومُستقرِّه، لا يَخرُجُ شيءٌ منه عَنْ هذا[5]، فالسِّرُّ: ما يُكْتَمُ في النَّفْسِ، يُقالُ: أَسَرَّ الشَّيءَ، أي: أخفاهُ وكَتَمَهُ، وضِدُّهُ: الإعلان، ويُستعمَلُ في الأعيانِ والمعاني، يُقالُ: أَسْرَرْتُ إليه كلامًا، أي: أخبرتُه به خُفيَةً، وسِرُّ كُلِّ شيءٍ: جَوْفُهُ وداخِلُهُ، والجمعُ: أسرارٌ وسرائرُ[6]، والإسرار في الآية معناه: إخفاءُ الكلامِ عنْ أن يَسمَعَه سامعٌ.

والسِّرُّ: ما أخفَيت، وكَتَمْتَ، والجَمْعُ: أسرار[7]، والمراد في الآية الكريمة: كلَّمتهم فيما بَيْني وبينَهُم[8].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يُخْبِر اللّهُ تعالى عن مُناجاةِ نوحٍ ﷺ لربِّه، بقوله شاكيًا حالَ قومه: يا ربِّ إنّي لم أنقَطِع عن دعوةِ قَوْمي إلى الإيمانِ بكَ وطاعَتِك ليلًا ونهارًا، ولكنَّ دعائي لَم يَزِدْهُم إلّا هربًا وإعراضًا عن الحقِّ، ويُبيِّن شدَّة عنادهم، فيقول: إنّي كلَّما دعوتُهم؛ ليؤمنوا، فتغفِرَ لهم؛ وضَعوا أصابِعَهُم في آذانهم؛ كَي لا يَسْمَعوا دعوةَ الحقِّ، وتغطّوا بثيابهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صرر - صرصر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صرر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(4) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 55.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(8) الواحدي، البسيط: 22/ 252.

شكوى نوح عليه السلام ودعوَتُه قومَهُ وإعراضُهم عنهُ

كراهةً لرُؤْيَتي، فلازَموا كُفْرَهُم، وأقاموا عليه، واستَكبَروا عن قبولِ الإيمان استكبارًا شديدًا، ثمَّ إنّي دعوتُهم علانيةً في مَجامِعِهم، وأسررتُ لهم بالدَّعوة سرًّا، وكنتُ أقول لهم في دعوتي لهم: اطْلُبوا مِن ربِّكم غفرانَ ذُنوبِكم، وتوبوا إليهِ مِن كُفْرِكُم؛ فإنَّ اللّه غفّارٌ لِمَن تاب مِن عبادِه، ورجَعَ إليهِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ الفَصْلِ في الآيةِ:

بيانٌ لِما أسْفَرَت عنهُ الرِّحلةُ في الدَّعوةِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ مستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجملتين شبهُ كمال الاتِّصالِ، فقد سيقَت هذه الجملةُ جوابًا عن سؤال يُفْصِحُ عن ترقُّب السّامع لمعرفةِ ماذا حدث بعدَ ذلك، وماذا أجاب قومُ نوحٍ، وماذا ردَّ عليهم؟ فكان في هذه الجملةِ بيانٌ لذلكَ كُلِّهِ[2].

دلالَةُ حَذْفِ حَرْفِ النِّداء:

استحضارُ القُرْبِ وعُلوِّ المقامِ

حَذَفَ النَّظمُ الجليلُ أداةَ النِّداءِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، فلم يقل: (يا ربّي)؛ وذلك لتحقُّق نوحٍ عليه السلام أنَّه لا قريبَ منهُ غيرَ اللّه تعالى؛ فأسقَط أداة النِّداء، كما هي عادة أهلِ القُرْبِ[3].

دلالةُ الدُّعاءِ بلَفْظِ ﴿رَبِّ﴾ دون الاسْمِ الأحسَنِ (الله):

الاستـرحـام والاعـتـرافُ بـالـنِّـعْـمَـةِ مِن خُلُقِ الأنبياءِ

علَّق النَّظم القرآنيُّ النِّداءَ بلفظِ الرُّبوبيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ لِما فيه مِن ترحُّم واستعطافٍ، أي: يا سيّدي وخالقي[4]، متضمِّنًا الاعترافَ بالإحسانِ، والتَّفضُّلَ عليهِ مِن مَوْلاهُ بالنُّبوَّة والرِّسالَة.

---

(1) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 570.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 193.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 29/ 183.
(4) الخطيب، السراج المنير: 4/ 390.

بلاغَةُ التَّوكيد بـ (إنَّ):

مِـــن أبــلَــغ الجُحودِ مقابلَةُ جُهد الأنبياءِ في الدَّعوة والتَّبليغ بالإعراضِ

لمّا كان مِن المعلوم أنَّ التَّأكيدَ مظِنَّةُ التَّأثير، وكان فتورُهُم وعَدَمُ مُبالاتِهم مدعاةً للشَّكِّ؛ أكَّدَ ﷺ كلامَهُ بحرف التَّوكيد (إنَّ) إظهارًا لتحَسُّرِهِ عَليهم؛ لتماديهِم في الإصرار على التَّكذيب شكايةً لحالهِ إلى اللّه تعالى، واستنصارًا به، وإظهارًا لِما يَفْعَلُ به بذلُه الجُهْدَ، وإنْ كان المخاطَبُ سبحانَهُ عالمًا بالسِّرِّ وأخْفى[1].

الغرَضُ مِنَ الخبَر:

شكوى المحبِّ خيرُ وسيلَةٍ للطَّلب

الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، ولا يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بمضمونِها، وإنَّما الغرضُ مِنها الشِّكاية والتَّمهيد لطلَبِ النُّصْرَة عليهم؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يخفى عليهِ مضمونُ الخبر، فالغرَضُ مِنَ الخبر ليس الإخبارَ بل التَّوطئة لِما يأتي بعدَهُ[2].

دلالَةُ استعمالِ الفِعْلِ الماضي ﴿دَعَوْتُ﴾:

تحقُّقُ الدَّعوةِ والإيفاءُ بِواجِبِها

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بفعل الدُّعاء بصيغة الماضي، في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على إيفائِه بالمَطْلوب منهُ وما بُعِث به، وأنَّه أوقَعَ الدُّعاء بالحِكْمَة والموعظة الحسنَةِ، ولَم يَتْرُك دعوةَ قومه، فهو دالٌّ على تحقُّق الفِعْلِ[3].

دلالة التَّعبير بلفظ (قوم) مضافًا إلى ياء المتكلِّم:

ما في القوم من عيبٍ سِوى الإعراضِ عن الحقِّ

عبَّر النَّظم الجليلُ بلفظ (قوم) مضافًا إلى ضمير المتكلِّم، في قوله سُبحانَهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ فيهم قوَّةً لِما يُحاوِلون، فهُم مقتَدِرون على الإيمان، والإضافة تدلُّ على أنَّهم كانوا جَديرينَ بإجابَة نوحٍ ﷺ لمعرفتِهم بِهِ، وقربِهم منهُ، ولكونِه ﷺ مِنهُم، وأنَّهُ حريصٌ عليهِم وعلى نُصْحِهِم[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 193.

(3) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 82.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430، والخطيب، السراج المنير: 4/ 390.

دلالة التَّعبير بظَرفَي الزَّمان اللَّيلِ والنَّهار:

الـدَّوام على الدَّعوة باستمرارِ الجهد

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بظَرفَي الزَّمانِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ دعاءَهُ قد عمَّ جميعَ الأوقاتِ، وأنَّه دَعاهُم إلى الإيمان بلا فُتورٍ، وبلا توانٍ، ولا هوادَةٍ، فأُريد منهما بيان المُداومَة على الدَّعوة، وذلك لأنَّ الزَّمانَ مُنْحَصِرٌ بهما، فهُما يَشْمَلانِ كلَّ ساعات اليوم[1]، ثُمَّ إنَّه يترصَّد الوقت الذي يتوسَّم أنَّهم فيه أقرب إلى فَهْم دعوتِه منهم في غيره من أوقاتِ النَّشاط، وهي أوقاتُ النَّهار، ومن أوقاتِ الهُدوء وراحة البالِ، وهيَ أوقاتُ اللَّيل[2].

دلالَةُ تنكيرِ لَفْظَي اللَّيل والنَّهار:

التَّبشير بالدَّعوة دائِمٌ مستمِرٌّ شامِلٌ لكلِّ الأيّام واللَّيالي

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الظَّرفَيْنِ على وجْهِ التَّنكير، في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ للدَّلالة على العموم والشُّمول، فهو أخبَر أنَّه دعاهم كلَّ ليلٍ وكلَّ نَهارٍ[3]؛ إيماءً إلى انتفاءِ تَهاوُنِه في شأنِ الدَّعْوَةِ.

دلالَةُ العَطْفِ بالفاءِ:

النَّتيجةُ المُتَرَتِّبة على دَعْوَةِ المُنْكِرين نُفورٌ لا إيمان

الفاءُ في قوله تَعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾، عاطفَةٌ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّبَبِيَّة، فقد عطفَت زيادةَ الفرارِ من الدُّعاء على الجملةِ، في قوله تَعالى: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ دعوتَهُم تسبَّبت بمزيدِ نُفورِهم[4]، فأتبعَ الدُّعاء بما تمخَّض عنهُ من نفور الكافرينَ.

دلالة النَّفي بالأداةِ (لَم):

انتفاءُ العِبَرِ والعِظاتِ عن الكفّارِ على سبيلِ القَطْعِ

جاءَ النَّفي بـ (لم)، في قوله ﷻ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 248.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 294.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 281.

لكونها تدخُلُ على المضارعِ، فتقلِبُ دلالَتَهُ من الحاضِرِ إلى المُضيِّ، فتكون هنا دالَّةً على أنَّ المذكورَ مَعها قد حدث، وانتهى بلا توقُّعٍ لحصوله، وليس له اتِّصالٌ بالحاضرِ، بخلاف ما لو كان النَّفْيُ بـ (لمّا)؛ فأفادَ النَّفيُ بها على أنَّه لم يكن ثمَّة توقُّعُ حصولِ شيءٍ غيرِ زيادَةِ الكُفْرِ والإعراضِ منهُم[1].

دلالَةُ الفِعْلِ المُضارِعِ (يزد):

تراكُم الضَّلال وتصاعُدُ النُّفور

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بفِعْلِ الزِّيادة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾، وهي دالَّة على ضمِّ شيءٍ إلى ما عليهِ الشَّيءُ في نَفْسِه[2]، فإنَّهُ لمّا كانوا ضالّين مُبْتَعِدين عن الهدى، فإنَّ الدَّعوة إلى الإيمانِ والهدى ضَمَّت إلى ابتعادِهم مزيدًا من البُعْدِ؛ لمُقابلَتِهم الدَّعوةَ بالإصرارِ عَلى الكفر والتَّمسُّك به، ورسَّخ هذا المعنى صَوْغُ الفعْلِ مضارعًا؛ فإنَّه يُفيدُ استمرارَهُم على العنادِ والإعراضِ والفرارِ مِنَ الحقِّ.

دلالَةُ استثناءِ الفِرارِ مِن عُمومِ الزّياداتِ:

حَصْرُ الزِّيادة في الشَّرِّ وإبرازُ النُّفور المتزايِدِ

استثنى النَّظمُ الجليلُ الفرارَ، في قوله تَعالى: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾، من عموم الزِّيادات، وهو استثناءٌ مُنقَطِعٌ، وتقديرُ الكلامِ: فلم يَزِدْهُم دُعائي قربًا مِن الهدى، لَكِنْ زادَهُم فرارًا[3]، وهذا يُبْرِزُ عدمَ تحقيقِ الدَّعوة لأثَرِ ما في نُفوسِ الكافرين، ويُبَيِّن مَدى رَفْضِ القَوْمِ وإصرارهم على الابتعادِ.

وَجْهُ جَعْلِ زيادة الفرارِ مُسَبَّبَةً عنِ الدُّعاء:

ما أشدَّ عُتوَّ القومِ حين يُسَبِّبُ الدُّعاءُ نُفورًا!

نُسِبَتِ الزِّيادةُ في الكفر والابتعاد عن الهدى إلى الدَّعوة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾؛ لأنَّ تلك الزِّيادة حَصَلَت عندَ وُقوعِ الدُّعاء، والدُّعاءُ ليسَ سببًا على الحقيقةِ لزيادَةِ النُّفور[4]،

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 294.

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (زيد).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 542.

فنسبَهُ إلى الدَّعوة على سبيلِ المَجاز؛ لأنَّ دُعاءَه إيّاهم كان سببًا في تزايد إعراضِهم[1]، وفيه دلالةٌ على ردِّهم كلامَهُ عليه السلام[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِرار وتَنْكيرِه:

فرارٌ مُتعاظِمٌ وإعراضٌ لا هِدايَةَ بعدَهُ

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالفرار في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾؛ لدلالتِه عَلى الهُروب[3]، وهو مُستعمَلٌ هنا للدَّلالة على قوَّة الإعراضِ عَنِ الدَّعوة والإيمانِ، أي: فلَمْ يَزِدْهُم دعائي قُرْبًا إلى الحقِّ، بل زادهم بُعْدًا ونفورًا[4]، وجيء بلفظِ الفرارِ مُنَكَّرًا؛ لما في التَّنكير من دلالةٍ على التَّعظيم، فدلَّ هذا على عِظَمِ فِرارِهم وبُعْدِهِم عن الحقِّ والدَّعوة وإعراضِهم عَنْهُما[5].

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ:

مَعَ الفِرارِ مشاهِدُ النُّفور تُصَوِّرُ قُبْحَ رَدِّهِم

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، على جملة: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾؛ لأنَّ كلَيهما من مقول القول الَّذي قاله نوحٌ عليه السلام[6]، فعُطِفَ عليه ما يُبيِّنُه، وبين الجملتينِ توسُّطٌ بين الكمالَين؛ لاتِّحاد الجملتينِ في الخبريَّةِ، ولِما بينَهُما مِنَ التَّناسُبِ لفظًا ومَعنًى؛ فأمّا التَّناسُبُ اللَّفظيُّ؛ فاشتِراكُهما في الاسميَّةِ، وتصديرُ كلٍّ مِنْهُما بحرف التَّوكيدِ، واتِّحادُ المسنَدِ إليه معنًى وصورَةً، وأمّا الاشتراكُ المعنويُّ؛ ففي كِلَيهما بيانٌ لحالِ نوحٍ عليه السلام في دعوتِه قومَهُ وما أجابوهُ بِهِ.

بلاغَةُ تأكيدِ الجُمْلَةِ:

شدَّةُ الإعراضِ مع طولِ زَمَنِ الدَّعوةِ غايةٌ في النَّكارة

أكَّد النَّظمُ الجليلُ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431.

(3) الجوهري، الصحاح: (فرر).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 194.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 430.

(6) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 184.

﴿لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ عن الدَّعوة التي امتدَّت تلك المدَّة المتطاولة ممّا لا يكادُ يُصدَّقُ[1].

دلالَةُ ﴿كُلَّمَا﴾:

تكرار الدَّعوةِ وتَجدُّدُ الصَّدِّ

﴿كُلَّمَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، أداة شَرْط غير الجازمة، وهي متعلِّقةٌ بجُمْلَتين يرتبطانِ بَبَعْضِهما تعلُّقَ الشَّرْطِ بجوابه[2]، وفائدة التَّعبير بها الدَّلالة على التَّكرار، أي: إنَّه قَد كرَّر عليهم الدُّعاءَ إلى الحقِّ، معَ تكرارِ الأوقاتِ وتَعاقُب السّاعات، ومع ذلك فقد كرَّروا الصَّدَّ والإعراضَ[3].

شُمولُ كُلِّ الدَّعوات مقترنةً بأدلَّةِ الصَّدِّ عنها

ويجوز أن تكونَ ﴿كُلَّمَا﴾ مركَّبةً مِن كلمَتَيْن، كلمةِ (كُلّ) الدّالَّة على استغراقِ أفراد ما تضافُ هيَ إليه، و(ما) المصدريَّة، وهي حرفٌ يُفيد أنَّ الجملة بعدَهُ في تأويل مصدرٍ، وقد يُراد بذلك المصدَرِ زمانُ حُصولِه، فيقولون: (ما) ظرفيَّة مصدريَّة؛ لأنَّها نائبة عن اسمِ الزَّمان، والمعنى: أنَّهم لم يُظهروا مَخيلَة مِن الإصغاء إلى دعوتِه، ولم يتَخلَّفوا عن الإعراض والصُّدود عن دعوتِه طرفَةَ عينٍ، فلذلك جاءَ بكَلِمَةِ ﴿كُلَّمَا﴾ الدّالَّة على شمولِ كُلِّ دعوةٍ مِن دَعواتِهِ مُقترنَةً بأدلَّةِ الصَّدِّ عَنْها[4].

دلالةُ التَّعبير بفِعْلِ الدَّعوة ماضيًا وحذفِ مُتَعَلِّقِه:

الرُّسوخُ في الكُفرِ يُبَدِّد فائدَةَ الدَّعْوَةِ

عبَّر النَّظم الجليلُ عن الدَّعوة بالفعل الماضي، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ عَلى تحقُّقِ الدَّعْوَةِ كاملَةً، وبُلوغِها إليهم، وهذا يُشير إلى كمالِ عتوِّهم وإصرارهم على الكفْرِ والعِناد، و"حُذِف متعلِّق دعوتِهم؛ لدلالةِ ما تقدَّم عليه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431.

(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 184.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.

من قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والتَّقدير: كُلَّما دَعَوْتُهم إلى عبادَتِك وتَقْواكَ وطاعَتي فيما أَمَرْتُهم بِه"[1].

مَعْنى اللّامِ ودلالَةُ التَّعبيرِ بِها:

غايةُ الدَّعوة محضُ النُّصح وتحقيقُ العَفْوِ والمغفرةِ

(اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ للتَّعليل، أي: إنّي دعوتُهم من أجلِ أن تَغْفِرَ لَهم، فالمغفرةُ هيَ المقصودُ الأوَّل من الدَّعوة[2]، والعلَّة الأساسيَّة للدَّعوة هي إيمانُهُم وتَوْبَتُهم، والمغفرةُ تكونُ نتيجَةً، فذكر المسبَّب والنَّتيجةَ من الدَّعوة؛ لأنَّه يُبَيِّن حظَّهم ونصيبَهم، فيكون امتناعُهم عن ذلك مُفْصِحًا عن قُبْحِ إعْراضِهم[3].

دلالةُ التَّعبير عن المَغْفِرَةِ بالفِعلِ المُضارِع:

مغفرةُ اللهِ تَعالى لا تَنْقَطِعُ عن العبادِ

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفِعْلِ المُضارِع، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد المغفرة ودوامِها؛ لأنَّ الإنسانَ مِن طبيعتِهِ ارتكابُ الخطايا، ومغفرةُ اللّهِ سُبحانَهُ مستمرَّةٌ لِعبادِهِ المؤمنين حالَ استِغفارِهِم، فهو فِعْلٌ متجدِّدٌ.

نُكْتَةُ التَّعبير بِشِبْهِ الجُمْلَة:

الإيماءُ إلى قُبْحِ إعراضِهِم عن الحَقِّ

عبَّر النَّظم الجليلُ بِشِبْهِ الجُمْلَة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾؛ ليبيِّن أنَّ المغفرة تكونُ مِن أجلهم؛ بسبَبِ إيمانهم باللّه وحدَهُ وطاعَةِ أمره على لسانِ رَسولِه، فالمُنْتَفِعُ بالمغفرةِ هُم، وهذا يشير إلى قُبْحِ إعْراضِهِم عن الدَّعْوَة[4]، وفيه أيضًا "تعريضٌ بتَحْميقِهِم، وتعجُّبٌ من خُلُقِهم؛ إذْ يُعْرِضون عن الدَّعوة لِما فيه نفعُهُم، فكان مقتضى الرَّشاد أن يَسمَعوها، ويتدبَّروها"[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 281.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 281.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.

الموقِعُ البيانيُّ لجُمْلَةِ الفِعْلِ ﴿جَعَلُوٓاْ﴾:

صَمُّ الآذانِ عندَ كلِّ بيانٍ مِن أماراتِ الإعراضِ عنِ الإيمانِ

جَعْلُ الأصابعِ في الآذانِ يَمْنَعُ بلوغَ أصواتِ الكلامِ إلى المسامعِ، وقد عبَّر البيانُ القرآنيُّ بجملة ﴿جَعَلُوٓاْ﴾، في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ جوابًا عن الشَّرْطِ السّابق[1]، فيكون جعلُ الأصابعِ مكرَّرًا بتَكْرارِ دُعائِهم إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ.

بلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في التَّعبيرِ بالأصابعِ:

شِدَّةُ الكُرْهِ تزيدُ مِنَ النُّفورِ والتَّصامُمِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالأصابعِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، والمُرادُ: الأناملُ، وذلك على سبيل المجازِ المُرْسَلِ، والعلاقَةُ بينَ الأصابعِ والأناملِ: الكُلِّيَّةُ؛ إذ أُطلِقَ الكُلُّ - وهو الأصابع - وأُريد الجزءُ - وهو الأنامل - والمقصود أنَّهم يسدّون آذانهم بالأناملِ لا بالأصابع كلِّها، والنُّكْتَةُ في ذلك المبالغَةُ في سَدِّ الآذانِ ومَنْعِ السَّماع؛ بحيث لو أَمْكَنَ؛ لأدخلوا الأصابعَ كُلَّها؛ لئلّا يسمعوا صوتَ الدّاعي؛ لِما لَهُم مِن كراهَةٍ لَهُ[2].

دلالَةُ إضافَةِ الأصابعِ إلى الضَّميرِ الدّالِّ على الكفَرَةِ المُنْكِرين:

اختيارُ النُّفورِ وإظهارُ شدَّةِ الإعْراضِ

أضاف النَّظمُ الجليلُ الأصابعَ إلى الضَّميرِ العائد على الكفّار المُنْكِرين، في قولِه تَعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ للدَّلالَةِ على شدَّةِ النُّفورِ والإعراض، فهُم بأيديهِم قد سدّوا سبيلَ الدَّعوة أن يَبْلُغَ أفهامَهُم، فسَدُّ السَّمع كانَ بإرادتهم واختيارِهِم، وهُم المَسْؤولونَ عنه.

مَعْنى الواوِ ودِلالَتُها:

صورٌ عديدَةٌ للنُّفورِ والإعراضِ عنِ الحقِّ

عَطَفَ النَّظمُ القرآنيُّ الجملَةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم جَمَعوا أكثرَ من صورةٍ مِن صوَرِ الإعراض عن السَّماع والنُّفور عن الدَّعوة، فأفاد العطفُ تعضيدَ سدِّ آذانهِم بالأصابع؛

---

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 184.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.

لئلّا يَسْمَعوا كلامَهُ عليه السلام، ولا ينظروا إشاراته[1]، وفي ذلك بيانٌ لشدَّة الإفراطِ في كراهَتِهِم الإيمانَ والسَّماعَ للدُّعاءِ[2].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ (استغشى) مادَّةً وصيغَةً:

امتناعٌ عَن الهِدايَةِ بكُلِّ الحواسِّ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ باستِغشاءِ الثّياب، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾؛ لدلالَتِهِ على التَّغطيةِ، أي: تَغَطّوا بثيابهم[3]، وجاء التَّعبير بصيغة الاستِفعالِ؛ للدَّلالة على الطَّلبِ قصدًا إلى المُبالغَة[4]، فهو يُظْهِرُ مبالغَتَهُم في تغطيةِ رُؤوسِهم بحيث إنَّهم يَطْلُبون ذلك، ويَسعَونَ إليهِ حتّى لا يَراهُم، فيدعوهُم، أو لئلّا يَرَوْنَه؛ لكراهَتِهِم إيّاهُ وكراهَتِهِم كلامَهُ[5].

بلاغَةُ الكِنايَةِ في استِغشاءِ الثّياب:

الكراهَةُ والبُغْضُ كُلٌّ مِنهُما يُعمي ويُصِمُّ

جاءَ التَّعبيرُ باستغشاءِ الثّيابِ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾؛ كنايَةً عَن شدَّة إعراضِهِم عَن سماعِ الدَّعْوَة، ويجوز أن يُرادَ بِهِ الكنايَةُ عَن العداوةِ، كما يُقال: لَبِسَ فلانٌ ثيابَ العَداوة[6]، فهو تعبيرٌ عَن كراهَتِهِم للدَّعوة والدّاعي وشدَّة إعْراضِهِم عَنْهُ، ويجوز أن يكونَ استِغشاءُ الثّياب - فضلًا عن جَعْلِ الأصابع في الآذان - هَهُنا حقيقةً، بِوَصْفِها عادةً مِن عاداتِ قوم نوحٍ؛ إذا أرادَ أحَدٌ أن يُظْهِرَ كراهيةً لكلامِ مَن يتكلَّم معَهُ[7].

دلالَةُ عَطْفِ الإصرارِ والاستِكبارِ على ما قَبلَهُما:

التَّمسُّكُ بالضَّلالِ يورِثُ أهلَهُ الأعاجيبَ

عُطِفَ الإصرارُ والاستكبارُ، في قوله تعالى: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ على جَعْلِهِم الأصابعِ في الآذان، في قوله تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 431.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 248.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 37.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 249.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 195 - 196.

﴿أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾[1]؛ للدَّلالة على استمرارِهِم على سوءِ أعمالِهم بإقبالٍ وحِرْصٍ وتمسُّكٍ بلا مُفارقَةٍ، معَ استِكبارِهِم عنِ الحَقِّ[2].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالإِصْرارِ:

تقصُّدُ الذَّنب والتَّمسُّك بالتَّمرُّد

عبَّر النَّظم الجليلُ بالإصرار، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾؛ لدلالة الإصرار على التَّعقُّد في الذَّنب والتَّشدُّد فيه، وتحقيق العزْمِ على فِعْلِه والامتناعِ مِنَ الإقلاعِ عَنْهُ[3]، أي: إنَّهم أصرّوا على شِرْكِهم وكُفْرِهم، وعلى إعْراضِهِم عن سماعِ دعوةِ الحَقِّ[4]، وطاوَعوا أنفُسَهُم الأمّارة بالسّوء في إصرارهم.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاستِكبارِ مادَّةً وصيغَةً:

لا يستعلي على الحقِّ إلّا ناقصُه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاستكبارِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾؛ للدَّلالة على المبالغَةِ في تَعاليهم وتمنُّعِهم عمّا يَجِبُ عليهم فِعْلُه، والتَّعظُّم في ذلك، أي: إنَّهم أظْهروا تكبُّرهم وتعظُّمهم عن الطّاعة والاتِّباع، وأخَذَتْهُم العزَّةُ بالكفر والشِّرك[5]، وجاء التَّعبير بصيغَةِ الاستِفعالِ؛ للدَّلالة على الطَّلب قصدًا لإرادَةِ المبالغَةِ، أي: إنَّهم قد أوجدوا الكِبْر مع طَلَبِهِم لَهُ ورغبَتِهِم فيه[6].

دلالَةُ توكيدِ الاستِكبارِ بالمفعولِ المطْلَقِ:

لا استكبارَ كالاستِكبار على الحقِّ

أكَّد البيانُ القرآنيُّ الاستكبارَ بالمَفْعولِ المُطْلَق، في قوله تَعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾؛ للدَّلالة على فَرْطِ استكبارِهِم وشِدَّته، والمبالغة فيه[7] إلى حدِّ تَمَكُّنه فيهم، وأفادَ التَّأكيدُ التَّنبيهَ على أنَّ

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 10/ 185.
(2) البقاعي، الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 432.
(3) الراغب، المفردات: (صر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 250.
(6) الخطيب، السراج المنير: 4/ 392.
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 542.

فِعْلَهُم ذلك كان ينبغي ألّا يُفْعَل؛ لِمُنابَذَتِه الحكمةَ ومُخالَفَتِه العقلَ، وأنَّه لا يكاد يُصدَّقُ أن يُقْدِمَ عليه أحَدٌ[1].

دلالَةُ تنكيرِ الاستِكبارِ:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الاستكبار مُنَكَّرًا، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ لتعظيم الاستكبارِ، أي: إنَّهم استَكبَروا استكبارًا شديدًا لا تَنفَعُ معَهُ دعوَةٌ[2].

وَجْهُ العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

التَّـدرُّج في أساليبِ الدَّعوة دليلُ تَبايُنِ مَنازِلِها

عطفَ البيانُ القرآنيُّ الجملةَ بـ ﴿ثُمَّ﴾، في قوله سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ -وهي للتَّرتيب الرُّتبيِّ- للدَّلالة على التَّراخي في الانتقالِ من أسلوبٍ دعويٍّ إلى آخَرَ، وذلك لأنَّ أحوالَ الدَّعوة متباينَةٌ مُتَباعِدَةٌ، فالجهار أغلظُ من الإسرار[3]، وفيه ارتقاءٌ في الشَّكوى والاعتذارِ بأنَّ دعوتَهُ كانَت مختلفَةَ الحالاتِ في القَوْلِ ما بينَ جَهْرٍ وإسرارٍ[4].

اختلافُ كيفيَّةِ الدَّعوة ألصَقُ بالدَّعوة مِن أوقاتِ إلقائِها

ويُفيد عطفُ الجُمَلِ بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا: "أنَّ مضمونَ الجُملَةِ المعطوفةِ أهمُّ من مضمونِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ اختلافَ كيفيَّةِ الدَّعوة ألصقُ بالدَّعوة من أوقاتِ إلقائِها؛ لأنَّ الحالة أشدُّ ملابسَةً بصاحِبِها مِن ملابسةِ زمانِه، فذَكَر أنَّه دعاهُم جِهارًا، أي: عَلَنًا"[5].

بلاغَةُ التَّأكيدِ بـ (إنَّ):

رفْعُ توهُّمِ الفُتورِ في الدَّعوة وإثباتُ الاجتهادِ

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ نوحًا ﷺ قد جدَّ، واجتهدَ في الدَّعوة، ففي التَّأكيدِ رفعُ توهُّمِ التَّواني في دعوتِهِ قومَه، وذلك إشارة إلى قيامِ الحجَّة عليهم كاملَةً[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 432.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 196 - 197.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 435.

دلالَةُ تَكْرارِ لفظِ الدَّعوةِ:

إظهارُ الاجتهاد وإقامَةُ الحُجَّة

كرَّر البيانُ القرآنيُّ فِعْلَ الدَّعوة أربعَ مرّات، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، فأكْثَر من لفظ الدَّعوة؛ اهتمامًا به وبيانًا له وتأكيدًا، وأنَّه يَجْري بأحوالٍ مُخْتَلِفَةٍ مكرَّرًا مكثَّرًا؛ إيماءً إلى قيامِ الحُجَّة عليهم[1].

دِلالَةُ التَّعْبير بالجَهْر، وبيانُ مَوْقِعه في الجُمْلَة:

مكاشفةٌ واضِحَةٌ وهَيْئَةٌ للدَّعوة صريحَةٌ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالجَهْرِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾؛ لدلالته على الظّاهر المكشوف، وهو ضدُّ السِّرِّ[2]، فدلَّ على أنَّه دعاهُم مُكاشفَةً في فخامَةٍ مِنَ الصَّوت، فكان يُخاطِبُهُم مُقْبِلًا عليهِم بلا احتِجابٍ أو ارتِقاب، بَل مُجاهرَةً ومُباغتَةً[3]، وهو هُنا حالٌ يبيِّن هيئَةَ المتكلِّم حالَ دَعْوَتِه قَوْمَهُ، أي: مُجاهرًا بالدَّعْوَةِ[4].

دلالَةُ إعادَةِ حرفِ العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالِّ على التَّراخي دون سِواها:

ترقٍّ في الأسلوبِ وتشديدٌ في التَّبليغِ

أعاد البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بحرفِ العطف الدّالِّ على التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ مراتِبَ دعوةِ نوحٍ عليه السلام كانت مُتَعَدِّدَةً، فبدأ بِنُصْحِهِم سِرًّا، ثمَّ دعاهُم مُجاهَرَةً، فلمّا لم يُؤَثِّر فيهم ذلك؛ انتقلَ إلى الجَمْعِ بين الإعلان والإسرار، فـ﴿ثُمَّ﴾ دالَّةٌ على تراخي بعضِ هذه المراتبِ عَن بعضٍ؛ إمّا بحسب الزَّمان، أو بحسب الرُّتبة؛ وذلك لأنَّ الجهار بالدَّعوةِ أغلَظُ من الإسرار بها، ومرتبةُ الجَمْعِ بين الإسرار والمجاهرة أغلَظُ مِنَ المُجاهرَة وحدَها[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (جهر).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 435.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 651.

الجَمْعُ بين الجهر والإسرار أقوى في الدَّعوةِ مِنَ الاكتفاءِ بأحَدِهما

وفي عَطْفِ هذه الجملة بـ ﴿ثُمَّ﴾ ارتقاءٌ بذِكْرِ "أنَّه ﵇ جَمَعَ بين الجهر والإسرار؛ لأنَّ الجمع بين الحالتين أقوى في الدعوة، وأغلظ من إفراد إحداهما، فقوله: ﴿أَعْلَنتُ لَهُمْ﴾ تأكيدٌ لقوله: ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾، وذُكِر ليُبنى عليهِ عطفُ ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، والمعنى: أنَّه توخّى ما يظنُّه أوغَلَ إلى قلوبهم من صفاتِ الدَّعوة، فجَهَرَ حينَ يكون الجهرُ أجْدى مثل مجامِعِ العامَّة، وأسرَّ للذين يَظُنُّهم مُتَجَنِّبين لَوْمَ قومِهم عليهم في التَّصدّي لسَماع دعوتِه"[1].

دِلالَةُ الطِّباق بينَ الإسرارِ والإعْلانِ:

تنوُّعُ الأساليبِ ابتِغاءَ فَتْحِ القُلوبِ للدَّعْوَةِ

جمعَ النَّظم الجليلُ بين لَفْظَي الإعلانِ والإسرار، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، على طريقة الطِّباق، وذلك لإظهار تنوُّع أساليب الدَّعوة، فقد دعاهُم علنًا في المجالِسِ والمَحافِل، وسرًّا في الخَلوات والمُناجاةِ، بل وجمَعَ بين الطَّريقتَيْن معًا في أوقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، فما ترك وسيلةً في الدَّعوة إلّا سلَكَها[2]، فهذا الطِّباقُ يُؤَكِّد أنَّ نوحًا ﵇ لم يَدَعْ بابًا من أبواب التَّبليغ والدَّعوة إلّا سلكَهُ؛ حِرْصًا منهُ واجتهادًا على هِداية قومِه.

دلالَةُ تقديمِ الإعلانِ عَلى الإسرارِ:

إظهارُ الاجتهادِ يؤكِّدُ قيامَ الحُجَّةِ

قُدِّمَ لفظُ الإعلان على الإسرار، في قوله تَعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ الإعلانَ أشدُّ مِنَ الإسرار[3]، فأخبَرَ أنَّه ابتدأ بأشدِّ السَّبيلينِ؛ لبَيانِ اجتِهادِهِ وانتفاءِ تَقْصيرِه، وإقامة الحجَّة على قومِه.

بلاغَةُ تَوْكيدِ الإسرارِ بالمَفْعولِ المطلق دونَ الإعلانِ:

تأكيدُ الجُهْدِ الخَفيِّ وإبرازُ المَشَقَّةِ

أُكِّدَ فِعْلُ الإسرارِ بالمفعول المطلقِ دون فعلِ الإعلانِ، في قوله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 82.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 37.

سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾؛ لأنَّ الإسرارَ في الدَّعوة يتطلَّب تحيُّنَ الأوقاتِ المُناسِبَةِ الَّتي يكون فيها المدعوُّ خاليًا من المَشاغِل، وهذا ممّا يَعْسُر، ولكونِه يقَعُ في الخَفاءِ، فقَدْ يُستبعَد وقوعُه، أو يُظَنُّ قِلَّته، فاقْتَضى التَّأكيد، كما أنَّ تأكيدَهُ يدُلُّ على تأكيدِ ما قَبْلَهُ مِن الأفعالِ على وجْهِ الإيجازِ[1].

الــخَــوْفُ مِـنَ الأتباعِ مُـؤَدٍّ إلى الهلاكِ

ووجهُ توكيدِ (الإسرار) أيضًا: "أنَّ إسرار الدَّعوة كان في حالِ دَعْوَتِه سادَتَهُم وقادَتَهُم؛ لأنَّهم يَمتَعِضون مِن إعلان دَعوتِهم بمَسمَعٍ مِن أتباعِهم"[2].

دلالَةُ تَكْرار شِبْهِ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ في السّياق:

تخصيصُ القوم بالدَّعوة وإظهارُ نـقـاءِ الـنّـيَّـة وخُلوصِها

كُرِّرت شبهُ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ مع كلٍّ مِنَ الإعلان والإسرار، في قوله تَعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ القَوْم بالدَّعوة في كلِّ حال جهرًا وسرًّا، ولإبراز أنَّ الدَّعوة كانت خالِصَةً لَهُم دون غيرهم، لا لحظِّ نَفْسٍ، ولا لغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ[3]، وأنَّ ضمائرَ الغَيْبَةِ - في: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ﴾، ومن قبلِه في: ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾ - موزَّعَةٌ على مختلف النّاس، فالجَهْرُ لعامَّة النّاس، والإسرارُ لمَنْ يتجنَّبُ لَوْمَ قومِه[4].

دِلالَةُ (الفاء):

تـفـريـعُ الـقـولِ على كمالِ البلاغِ

افْتُتِحَت الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾، بالفاء العاطفةِ للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة المفيدةِ التَّفريعَ؛ للدَّلالة على تفريع مضمونِ القولِ على ما سبَقَ مِن اجتهادٍ في الدَّعوة، فبيَّنَت الجملةُ ما كان يقولُ لَهُم في دَعْوَتِهِ سرًّا وجهرًا[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 436.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 436.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.

دِلالَةُ التَّعبير بالقَوْلِ مادَّةً وصيغةً:

إفْـصـاحٌ عَـن المَقول، وتوثيقٌ للمَقالِ

عُبِّرَ بفِعْلِ القَوْلِ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قال تِلْكَ المَقولاتِ الَّتي تَضَمَّنَتْها دعوَتُه لقَوْمِه، فهو إفصاحٌ لِما كانَ يَنْطِقُ به[1]، وجاء التَّعبير بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع ذلك القولِ وحُصولِه.

دلالَةُ جُمْلَةِ مقولِ القول:

دعـوةٌ للتَّحلية للفَوْزِ بالتَّخلية

حكى النَّظم الجليلُ ما قاله نوح عليه السلام، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، وهو مقول دالٌّ على أنَّه دعاهم إلى الإيمان الذي يكون من نتائجه أنَّ اللّٰهَ تَعالى سيَغْفِرُ لَهُم[2].

دلالَةُ التَّعبير بِفِعْلِ الأمر ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ﴾:

نُـصْـحُ العِبـاد لطلَبِ الرَّحمة والمغفرةِ

عُبِّرَ بفعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾؛ للحثِّ والدَّعوة والنُّصح والإرشاد، وجاء التَّعبير بصيغة الاستِفعالِ لإفادَةِ مَعْنى الطَّلب، أي: اطلُبوا، وسَلوا اللّٰهَ تعالى أن يَغْفِرَ لَكُم ذُنوبَكُم[3].

دلالَةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة دون الألوهيَّة:

اسـتـدعـاءُ الـرَّحـمـةِ، والتَّذكيرُ بسابِقِ النِّعمة

عُبِّر بلفظ ﴿رَبَّكُمْ﴾ دون (إلهكم)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على الرِّعاية واللُّطْفِ والتَّدبير، فذكَّرهم بالخالقِ المُحْسِنِ المتولّي لشؤون عباده، وهذا التَّعبير أنسَبُ في مقام الدَّعوة إلى الاستغفار؛ لأنَّه يُذَكِّرُهُم بإحسانِ اللّٰهِ تَعالى إليهِم، وأنَّه أهلٌ لأنْ يُرْجَعَ إليهِ، ويُطْلَبَ غُفْرانُه[4].

المَوْقِعُ البيانيُّ للجُمْلَةِ المُؤَكَّدة:

الاسـتِـغـفـارُ سـبـيـلُ رحـمَـةِ اللهِ تَعالى، ولا يَأْسَ مِن رحمتِهِ سُبحانَهُ

عُبِّر بالجملة المؤكَّدة المصدَّرة بـ (إنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على التَّعليل؛ فقد علَّل دعوتَهُ إلى الاستغفار

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 83.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 83.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 437.

بأنَّ اللّه تعالى موصوفٌ بالغُفْران، فهو إلهُ النّاس وربُّهم، وقد تَعَهَّدَ بالمغفرة لعباده المُستَغفِرين(1)، وأُكِّدَت الجملة؛ لئلّا يتعلَّلوا بكثرة المعاصي، بأن يقولوا: إنّا قد بالَغْنا في المعاصي، فلا نُقْبَل، فأكَّدَ ثبوت المغفرة للّه تعالى؛ ردًّا على هذا الظَّنِّ(2).

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ الكَوْن:

ثبوتُ الصِّفة ودوامُ المغْفِرَة

عبَّر النَّظم الجليل بفعل الكَوْنِ ماضيًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الغُفْران صفةٌ ثابتةٌ للّهِ تَعالى منذ الأزل، فهو سبحانه لم يزل غفّارًا، يغفر لمن تاب، وأناب، في كلِّ زمان ومكان(3)، فاتِّصافُ اللّه تَعالى بالمغفرةِ أزليٌّ، وتتجدَّدُ أفرادُ ذلكَ بحسب مشيئَته سُبحانَهُ.

دلالَةُ التَّعبير بصيغَةِ المُبالغَة:

سَعة الغفرانِ مُشوِّقةٌ لبذْلِ الاستغفارِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن المغفرةِ بصيغَةِ المُبالغة، في قوله تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على أنّه تعالى متَّصف بالغفران على وجْهِ الكمال(4)، فيتَناسَبُ تأكيدُ الجملة وتضمُّنها صيغة المُبالَغَة مَعَ الإيفاء بالمَعْنى في أبلغ صوَرِه، وفيه دلالةٌ على أنَّ اللّه تعالى يَغْفِرُ الذُّنوب الكثيرةَ والمُتَكَرِّرة، مرَّةً بعد مرَّة، وعلى وجْهِ الكمالِ والدَّوام.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرار والإعراض والهروب:

الفِرارُ هروبٌ وهو أشدُّ من الإعراض الذي هو تولٍّ بإبداءِ العرض

أصلُ الفرار يدلُّ على الانكشاف(5)، والفِرارُ: الرَّوَغان والهَرَبُ(6)، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ١٠﴾ [القيامة: 10]، أي: المهرب(7)، أمّا الإعراضُ؛ فأصلُهُ مِن العرض الذي هو خلافُ الطّول،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 437.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 652.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 197.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فرر).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (فرر).

والأصل فيه أن يُطلَقَ على الأجسام، ثمَّ يُستعمَل في غيرها، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ٥١﴾ [فصلت: 51]، وإذا قيل: أعرَضَ عنّي؛ فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السجدة: 22][1]، فالإعراضُ: هو الصَّدُّ والتَّولّي عن الحقِّ، أمّا الفرارُ؛ فهو هروبٌ غيرُ مشروطٍ بالذُّعر بخلاف الهروب؛ فإنَّه المصحوبُ بنَوْعٍ مِنَ الرَّهبة والخوفِ والذُّعر، ولمّا كان الفرارُ تعبيرًا أشدَّ في الابتعادِ عن الحقِّ من الإعراضِ، وليس مصحوبًا بالذُّعر والخوفِ؛ عُبِّر في آيةِ سورة نوحٍ عليه السلام به - أي: الفرارِ - لبيانِ شدَّة انصرافهم ورَفْضِهم الحقَّ مِن غير أن يَأْبَهوا بمآلِ انصِرافِهم، أو يخافوا عواقِبَهُ.

الإسرار والتَّناجي والإخفاء:

السِّرُّ بوحٌ في خفاءٍ، والنَّجوى حديثٌ في اختلاءٍ، والإخْفاءُ مجانبةُ البَوْحِ

الإسْرار يدلُّ على إخفاء الشَّيء[2]، وهو خلاف الإعلانِ، قال اللّه تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: 31][3]، أمّا التَّناجي؛ فمِنْ قولهم: ناجَيْتُهُ، أي: سارَرْتُه، وأصله: أن تَخْلو به في نَجْوةٍ من الأرض، وقيل: أصلهُ من النَّجاة، وهو أن تُعاوِنَه على ما فيه خلاصُه، أو أن تَنْجوَ بسرِّك من أن يُطَّلَعَ عليك، ومِنْهُ قولهم: تَناجَى القومُ، قال اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المجادلة: 9][4]، فالإسرارُ هو الإخفاءُ في البَوْحِ، والحديثُ مَع آخَرَ بصورةٍ خَفيَّةٍ، أمّا الإخفاءُ؛ فهو الاحتفاظُ بالقَوْلِ في النَّفس من غيرِ إظهارٍ له، وأمّا النَّجوى؛ فهو الاختلاء بخلوة، فهو يدلُّ على الانفراد، والخلوة على الإسرار فيه، وعُبِّر في آيةِ سورة نوحٍ بالإسرار؛ للدَّلالة على أنَّ نوحًا عليه السلام كلَّم بعضَ قومِه، ودَعاهُم خُفيةً؛ لنَشْر دعوته على وفْقِ ما يُناسب حالَهُم.

---

(1) الراغب، المفردات: (عرض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).

(3) الراغب، المفردات: (سرر).

(4) الراغب، المفردات: (نجو).

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

مآلُ الاستغفار تحقيقُ الوَعْدِ بالبركة والخير

بعد أن ذكَرَ النَّظمُ الجليلُ دعوتَهُم إلى التَّوبة والاستغفار، وكان الإنسانُ مجبولًا على حبِّ الخيرِ عاجلًا؛ أتْبَعَهُ ببيانِ ما يعودُ عَلَيهِم من خيراتٍ بإيمانِهِم واستغفارهم؛ للتَّرغيب فيه والحثِّ عليهِ والتَّشويق إلى فِعْلِه[1].

وفي الآيتين ترتيبٌ للوعدِ بخَيْرِ الدُّنيا على ما مرَّ من الوعدِ بخَيْرِ الآخرة، في قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ بطريق جوابِ الأمر، وهو قوله: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم﴾ الآيةَ، وكانوا أهلَ فِلاحةٍ، فوعَدَهُم بنزولِ المَطَرِ الذي به السَّلامة مِنَ القَحْطِ وبالزّيادة في الأموالِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أصلُ (درر) أصله يدلُّ على تَوَلُّدِ شَيءٍ عَن شَيءٍ[3]، ومنه قولُهُم: دَرَّ اللَّبَنُ يَدُرُّ دَرًّا، ودرَّتِ النّاقةُ؛ إذا حُلِبَتْ، فأقبَلَ منها على الحالب شيءٌ كثير، ودَرَّت السَّماءُ؛ إذا كَثُرَ مَطَرُها، وسَحابةٌ مِدْرارٌ، وناقةٌ دَرورٌ[4]، والمِدرارُ: الكثيرُ الدَّرِّ، وهو من أبنية المبالغة، ومِنْ ذلكَ قَولُهُم: للهِ دَرُّهُ، أي: عَمَلُه، وكَأَنَّهُ شُبِّهَ بِالدَّرِّ الَّذي يَكونُ من ذَواتِ الدَّرِّ[5]، والمِدْرارُ في الآية معناه: الكثيرةُ الدَّرِّ والدُّرورِ، وهو السَّيلانُ، والمراد به: أن يَتْبَعَ بعضُ الأمطارِ بعضًا[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 438، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 252.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (در).
(4) الخليل، العين: (در).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (درّ)، والواحدي، التفسير البسيط: 11/ 333.
(6) الخليل، العين: (در).

والمراد بقوله في الآية الكريمة: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾: (مطرًا كثيرًا متتابعًا)[1].

2) ﴿وَيُمۡدِدۡكُم﴾: (مدد) أصلٌ يدلُّ على جرِّ شيء في طول، واتِّصال شيء بشيءٍ في استطالَةٍ، كما أُطْلِقَ على بَسْطِ الجسْم وتَطْويلِهِ، يُقالُ: مَدَّ يَدَهُ إلى كذا، ومَدَّ رِجْلَهُ في الأرْضِ، ثُمَّ اسْتُعِيرَ لِلزِّيادَةِ مِنْ شَيْءٍ، تقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أي: زادَ فيه، وواصَلَهُ، فَأطالَ مُدَّتَهُ[2]، والمَدَدُ: ما أمدَدْتَ به قومًا في الحربِ وغيره من الطَّعام والأعوان[3]، والمَدُّ في الآية معناه: البَسْطُ والسَّعَةُ، والمراد به تكثيرُ الأموالِ والبَنين[4].

والمراد به في الآية الكريمة: تكثيرُ الأموالِ والبَنين[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوبةُ والاستغفارُ سَبيلٌ إلى الخَيْراتِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ

طلبَ نوحٌ عليه السلام من قومه الاستغفارَ وتوحيدَ اللّٰه تعالى، ووعدهم بأنَّهم إن استَجابوا؛ فإنَّ اللّٰه تعالى سَيُنَزِّل عليهم المطَر الغَزير، ويزيدُ في أموالهم وأولادهم، ويَمْنَحُهُم الجنّاتِ والأنهارَ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الموقع البيانيُّ لجُمْلَة ﴿يُرۡسِلِ﴾:

المطَرُ وعدٌ يَبْلُغ المستغفرينَ، ويَغْسِلُ فَقْرَ المُحْتاجينَ

عبَّر النَّظم الجليل بالفعل ﴿يُرۡسِلِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ جوابًا للأمر ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، وهو مساقٌ لبيان الوعد الدُّنيويِّ على الاستغفار، بوَصْفِهم مُزارعين يهمُّهم الوعدُ بالمَطَر، الَّذي يُحْييهم، ويَحْميهم مِنَ القحط، ويزيد أموالَهُم وخيرَهُم[7].

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 101.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مدّ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 82.
(3) الخليل، العين: (مد).
(4) الواحدي، البسيط: 22/ 253.
(5) الواحدي، البسيط: 22/ 253.
(6) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 571.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.

بلاغَةُ الاستعارَةِ في ﴿يُرۡسِلِ﴾، ودلالة التَّعبير بالفعلِ المضارِعِ:

رسائلُ رحمَةِ اللهِ تعالى تَصِلُ رزقًا للمُتَوَسِّمينَ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بفِعْلِ الإرسالِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، وهو هنا مُستعارٌ للإيصالِ والإعطاءِ، فكما أنَّ المُرْسل يصل إلى المُرْسَل إليهم برسالَةٍ، فإنَّ المطر يَبْلُغُهم حاملًا الخيرَ والبركة[1]، فالتَّعبير عن الإنزال والإيصال بالإرسالِ يتضمَّن المبالغةَ في بلوغ الماءِ ونُزوله ووَفْرَته[2]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارِعِ؛ للدَّلالة على تجدُّد هذه النِّعْمَة ودوامِها في كلِّ زمانٍ وحينٍ يحتاجونَ فيه إليها.

بلاغَةُ المَجازِ في التَّعبير عن المَطَر بالسَّماءِ:

سعَةُ السَّماء دليلٌ على سعَةِ المَنِّ والبركَةِ

جاءَ التَّعبيرُ بالسَّماء في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، والمرادُ: المطر؛ لأنَّ المطرَ يَنْزِلُ منها[3]، فذُكِر المكانُ، وأُريد الحالُّ فيه، على طريقة المجازِ المُرْسَلِ، بعلاقةِ المحلّيَّةِ، وفي هذا مبالغةٌ في ذِكْرِ الإنعامِ، حتّى كأنَّ السَّماءَ كُلَّها بخيراتِها تنزِلُ عليهم.

دلالَةُ تعدية فِعْلِ الإرسال بحرف الجرِّ (على):

الخيرُ متمكِّن مِنَ العبادِ بدَوامِ استِغفارِهِم

عَدَّى النَّظم الجليلُ فِعْلَ الإرسالِ بحرف الاستعلاءِ الحقيقيِّ (على)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ لأنَّ المطَرَ يَنْزِلُ من عُلوٍّ، فالمطَرُ يأتي بالخير والبركاتِ مِنَ السَّماءِ[4]، وفيه إشارةٌ إلى تمكُّن هذا المطَر منهُم؛ إشارةً إلى وفرةِ الخَيْرِ ودوام البركَةِ.

فائدَةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الحالِ:

مَنْ عُرِفَ بالاستغفارِ؛ خُصَّ بالأمطارِ

قدَّم البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿عَلَيۡكُم﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، دون أن يردَ التَّعبيرُ بـ: (يرسل السَّماء مدرارًا عليكم)؛ وذلك لبيان مزيدِ النِّعمة؛ بأنَّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 252.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.

يَجْعَلُ إرسالَ المطَرِ عليهِم خاصَّة، فهُمُ المقصودونَ بنُزولِ هذه النِّعمةِ دون غيرِهِم.

سِرُّ صوغ ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ على زِنَةِ المُبالغة:

فيوضُ الوهّاب تتدفَّق بلا حسابٍ

جاء التَّعبيرُ بوصف المدرارِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ لبيان حال المطر، فهو يَنْزِل في حالِ التَّتابُعِ والغزارة، وذلكَ دالٌّ على الانصِبابِ والسَّيلان[1]، وجيء به على صيغَةِ المُبالغَةِ بوزن (مِفْعالٍ)؛ للدَّلالة على كَثْرَة الدَّرِّ والنُّزول، ومعنى ذلك: أن يَتْبَعَ بعضُ الأمطارِ بعضًا[2].

نكتةُ تذكير لَفْظِ ﴿مِّدۡرَارٗا﴾، مع كونِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ مُؤنَّثَةً:

رحمةُ المَوْلى تعمُّ الذَّكر والأُنثى

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ مذكَّرةً، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، ولم يَرِد التَّعبير بـ: مدرارة تبعًا لتأنيث السَّماء؛ لأنَّ صيغة المبالغة على وزن (مفعال)، ممّا يستوي فيه التَّذكيرُ والتَّأنيثُ[3]، ولأنَّ المقصودَ بالسَّماءِ المطَرُ، وهو مذكَّرٌ.

دلالَةُ عَطْفِ جُمْلَةِ ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾:

مِننٌ لا تنقطِعُ وخيرٌ مُتَواصِلٌ

عُطِفَ الإمدادُ على الإرسال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم وُعِدوا في الدُّنيا بأكثَرَ من وعدٍ، فبَعْدَ إرسال السَّماء، يُمِدُّهُم بالخير والبَنين، فكِلاهُما مِنَ الوَعْدِ العاجِلِ في الدُّنْيا[4].

دلالَةُ التَّعبير بِالإمداد مادَّةً وصيغةً:

إمدادٌ مُستَمِرٌّ وخيرٌ مستقرٌّ

جاءَ التَّعبيرُ بالإمداد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾؛ للدَّلالة على الزِّيادة في الخير ومواصَلَتِه وإطالَتِه[5]، وعُبِّرَ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 252.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 282.
(4) القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 335.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد).

بـ: (يُمْدِد) دون (يَمُدُّ)؛ لأنَّ الإمداد يأتي في سياق الخَيْر، بخلاف المدِّ، فيُستعمَل للشَّرِّ، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥﴾ [البقرة: 15][1]، وعُبِّرَ بـ (يُمْدِد) أيضًا؛ "لأنَّ الموضعَ لإرادة المبالغَةِ والبَسْطِ والسَّعَةِ"[2]، فناسبَهُ الإظْهارُ في الفِعْلِ دون الإدغام، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على دوام الإمدادِ وتَجدُّده.

معنى الباءِ:

عبَّر النَّظم الجليلُ بحرف الجرِّ (الباء)، في قوله تعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾، وهي هنا للإلصاقِ[3]؛ للدَّلالَة على التصاقِ البركة بالمستغفرين وملازمَتِها لهم من غير انفِكاكٍ.

الدَّلالَةُ على الجَمْعِ في لفظ (أموال):

جُمِعَ لفظُ الأموالِ في قوله تَعالى: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾؛ للدَّلالة على كثرة أنواعِها وفُروعِها، فتشمَلُ سائرَ الأموالِ والخيرِ والمكاسِبِ التي يَسْعى الإنسانُ في اقتِنائِها وتحصيلِها[4].

دلالَةُ عَطْفِ البنينَ على الأموالِ:

عُطِفَ ذِكْرُ البنين على ذِكْرِ الأموال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾؛ للامتنان عليهم بالبنين بعدَ الأموال، فيكونُ ذلكَ علامةً على وفرةِ الخَيْرِ والبركَةِ، فقَد ثبَتَ في علم الاجتماعِ أنَّ النَّسل لا يكثُرِ إلّا إذا توفَّر الأمنُ والعَدْلُ، وتَوَسَّعَ الرِّزقُ[5]، "وذلك يُفْهِمُ أنَّ مَن أكثر الاستغفارَ؛ حباه اللّهُ ما يسرُّه، وحماهُ ما يَضُرُّه"[6].

مِـن إشـاراتِ الكمالِ الإتحافُ بـالـولَـدِ بـعـدَ الأموالِ

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 190.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 438.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 190.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 253.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 20/ 438.

سِرُّ تقديمِ الأموالِ على البَنين:

المـالُ مِفتاحُ النُّعمى والولَدُ دَوامُ العُقْبى

قدَّم النَّظمُ الجليلُ ذِكْرَ الأموال على الأبناء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ بهِ حاجةٌ إلى المال، لكِنْ قَد يستغني عنِ الولد[1]، كما أنَّ تكثيرَ الأولاد لا يكون نعمةً ما لَم يَسبِقْهُ وفرَةٌ مِنَ الخير والبركة في المال، فقُدِّمَ المالُ؛ لكونهِ السَّببَ في تكثيرِ الأولادِ.

دلالةُ عَطْفِ جملة: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾:

مِن جزاء التَّوبةِ بساتينُ وفيرَةٌ كثيرَةٌ

عُطِفَ جعْلُ الجنّاتِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، على إرسال السَّماءِ مدرارًا في قوله: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾[2]؛ للدَّلالة على أنَّ البركة بالبساتينِ ممّا وُعِدوا به في الدُّنيا جزاءً على الإيمانِ والاستغفارِ[3]، وبين الجملتينِ توسُّطٌ بين الكمالَيْنِ؛ لاتِّحاد الجمتلين خبرًا، وبينَهُما تناسبٌ لفظًا ومعْنًى، أمّا اللَّفْظُ؛ فاشتراكهما في الفعليَّةِ والمضارعيَّة، واتِّحاد المسنَدِ إليه فيهما، وهو الضَّميرُ العائدُ إلى الله تعالى، وأمّا المعنى؛ فاشتراكُهُما في الإنعامِ المُتَرتِّب على الاستغفارِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ (يجعل) مادَّةً وصيغَةً:

تـصـيـيرُ الأرض جِـنـانًـا نـعـمَـةٌ تتجدَّدُ، وبركَةٌ لا تَنْضَبُ

عُبِّر بالفعل (يجعل) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ للدَّلالةِ على تَصْييرِها كذلكَ، فَهيَ مرحلَةٌ بعد مرحلةِ الخَلْقِ وتغييرِ الحال[4]، وجاء التَّعبير بالفِعْلِ المُضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد ذلك الجَعْلِ ودَوامِه، فهو من كَمال الامتِنانِ والإحسانِ.

دِلالَةُ تَقديمِ شِبهِ الجُملَة:

قدَّم النَّظم القرآنيُّ شِبْهَ الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾، على المفعولِ به

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 190.

(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 15/ 100.

(3) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 335.

(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 194.

خصوص العطاءِ ميزَةٌ للنُّبلاءِ

﴿جَنَّٰتٖ﴾، في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ، أي: يجعل لكم خاصَّةً[1]، فدلَّ التَّقديمُ على كمال الاختصاصِ المفهومِ مِن حرف الجرِّ (اللّامِ).

دلالَةُ تنكير لَفْظِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

آثر النَّظم الكريمُ تنكيرَ لفظ الجنّات، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ لِما في التَّنكير من تفخيمٍ وتعظيمٍ، أي: يجعل لكم بساتينَ عظيمَةً[2].

دلالَةُ العَطْفِ في ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾:

مِنْ كمالِ الإنعامِ بالجنانِ جزئِيُّ الأنهارِ حالَ خلوِّ الأمطارِ

عُطِفَ جعْلُ الأنهار على جَعْلِ الجنّات، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾؛ للدَّلالة على تأكيدِ الجَزاء، وللاهتمام بِشَأنِ المَعْطوف؛ لأنَّ الجَنّاتِ تَحْتاجُ إلى السَّقي[3]، وفي العَطْفِ هُنا احتراسٌ، وذلك أنَّ "الجنّات ذُكِرَت بعدَ إرسال السَّماء عليهم مدرارًا؛ فكأنَّ السّامع يتوهَّم أنَّ المطرَ لا يدومُ، بَل ينقطِعُ أحيانًا، فتبقى الجنّاتُ بلا سقيٍ، فاحترس مِن ذلك بقوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾"[4].

دلالَةُ تَكْرارِ الفِعْلِ (يجعل):

كلُّ نعمةٍ جديرَةٌ بالامتنانِ عَلى وجْهِ الانفرادِ

كرَّر النَّظم الجليلُ فِعْلَ الجَعْلِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾؛ لتأكيد الجَعْلِ، وللإشعارِ بأنَّ كلَّ نعمةٍ مِن تلك النِّعم مستقلَّةٌ بذاتها، فهو تنويهٌ بِعَظَمَتِها[5]، وإعادةُ الفِعْلِ (يجعل) أيضًا "للتَّوكيد؛ اهتمامًا بشأن المعطوف؛ لأنَّ الأنهارَ قِوامُ الجنّات، وتَسْقي المزارعَ والأنعامَ"[6].

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 190.
(2) الخطيب، السراج المنير: 4/ 392.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 296.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 253.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.

دلالةُ جَمْعِ الأنهار وتنكيرِها:

أنهارٌ عظيمَةٌ متدفِّقَةٌ برحمَةِ الله تَعالى

جاءَ لفظُ الأنهارِ في قوله تَعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ مُنَكَّرًا؛ لِما في التَّنكيرِ مِن تعظيم وتَفْخيم، أي: أنهارًا عظيمةَ الشَّأنِ في الوفرَةِ والخَيْر، ودلَّ الجَمْعُ على كثرتِها، وهذا مِن كمال الإنعام وعظيمِه، وفيهِ دليلٌ عَلى وفرة تلكَ الأنهارِ.

دلالَةُ تقديمِ القَيْدِ ﴿لَّكُمۡ﴾ على لفظ ﴿أَنۡهَٰرٗا﴾:

قُدِّمَ شِبْهُ الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِهِم بذلك، أي: أنهارًا تَخُصُّكم، دونَ مَن لَم يُؤْمِن، ويَستَغفِر[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسال والنزول:

الإرســالُ أخصُّ مِـن الـنُّـزولِ، فهوَ نزولٌ بخَيْرٍ وبركَةٍ

النُّزولُ في الأصلِ هو انحِطاطٌ من عُلوٍّ[2]، وأمّا أصلُ الرِّسْلِ؛ فهو الانبعاثُ على التُّؤَدة، يقال: ناقة رِسْلَةٌ: سهلة السَّير، ومنه: الرَّسولُ وهو المُنْبَعِث، وتُصوِّر منهُ تارةً الرِّفقُ والانبعاثُ؛ فاشتقَّ منه الرَّسول، والرَّسولُ يقال تارةً للقولِ المُتَحَمَّل، وتارة لمتحمِّل القول والرِّسالَة[3]، فعُبِّر بإرسالِ المطَرِ دون إنزالِه؛ للدَّلالة على تحمُّلهِ الخيرَ، وعلى سُهولَةِ مَجيئِها وانبِعاثِها، فهو أليَقُ في سياق الإنعام، فكَما أنَّ المُرْسِل يَصِلُ إلى المرسَلِ إليهِم برسالَةٍ؛ فإنَّ المطر يَبْلُغُهُم حاملًا الخيرَ والبرَكَة[4].

البَنونَ والولَدُ:

البنون: مفرَدُها ابنٌ، والابنُ أصله يدلُّ على الشَّيء يتولَّدُ عَن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 438.
(2) الراغب، المفردات: (نزل).
(3) الراغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 198.

البنونَ خاصٌّ بالذُّكور، والولَدُ يشمَلُ كلَّ مولودٍ مِنَ الأبناءِ والبناتِ

الشَّيء، كابْنِ الإنسانِ وغيرِه[1]، والابْنُ: الولَدُ، والجَمْعُ: أبناءٌ، والأنثى: ابنَةٌ وبِنْتٌ[2]، فالابنُ: الولَدُ الذَّكر، والبنتُ: الوَلَدُ الأنثى، فكلمَةُ البنين تدلُّ على الذُّكور خاصَّةً، بخلافِ الولَدِ، فهو المَوْلودُ، ويُقال للواحد والجَمْعِ، والصَّغير والكبير، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: 11]، والوَلَدُ: الابنُ والابنة[3]، فهو لفظٌ عامٌّ يشمَلُ الذُّكور والإناث، فكلُّ مولودٍ يُطْلَقُ عليهِ ولَدٌ، وعُبِّرَ في الآيةِ بالبَنين في سياقِ الإمدادِ المُتَرتِّب على الإيمانِ والاستغفارِ؛ لأنَّهم أنْزَلوا البنينَ منزلَةً عاليَةً لشدَّةِ الحاجَةِ إلَيهِم في الكَسْبِ والذَّوْدِ عَن بَيضَتِهِم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بنو).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بني).
(3) الراغب، المفردات: (ولد).

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾

[نوح: 13 - 14]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لما قبلَهُما:

التكوين بالأطوار مضرب المثل لنجاعة الاستغفار

بعد أن ذكَرَ النَّظمُ الجليلُ دعوتَهُم إلى التَّوبة والاستغفار، وما يعودُ عَلَيهِم من خيراتٍ بإيمانِهِم واستغفارهم، استعرَض لهم تمحيص ما يشكّون به ويستبعدونه من تحقيق الوعدِ بخَيْرِ الدُّنيا بالاستغفار؛ باستنكار تجاهلهم لما يعلمونه بديهة من طروء الأطوار والأحوال عليهم من النشأة إلى الموت، وما يحصل من تبديلٍ للأحوال، فلئن كان حالهم يتغيّر بالأطوار، فما بالهم لا يوقنون بنجاعة الاستغفار في تحصيل الخيرات، وجني الثمار؟.

ومناسبة أخرى؛ وهي أنّ التأديب الخُلقي بالاستغفار ومكارم الأخلاق، متبوعٌ بالتّأديب العِلميِّ والفكريّ بالنظر في النّفس والتفكر في أحوال العوالم العلويَّة والسُّفليَّة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

3) ﴿وَقَارًا﴾: (وقر) أصلٌ يدلُّ على ثِقَل في الشَّيء، يُقالُ: وقَرَ الشَّيْءُ يَقِرُ وقْرًا، أيْ: ثَقُلَ[2]، والوَقْرُ: الثِّقَلُ في الأُذُنِ، والوِقْرُ: الحِمْلُ[3]، والوَقارُ: الحِلْمُ والرَّزانة[4]، والوَقارُ: العَظَمَةُ، والتَّوقيرُ: التَّعظيم[5]، وهو في الآية معناه: التَّعظيمُ والإجلالُ[6].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 254.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقر).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (وقر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقر).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 303، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 119.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 118.

والوَقارُ: السُّكونُ والحلمُ، و(الوقار) في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾: التَّوقير والتَّعظيم[1].

4) ﴿أَطۡوَارًا﴾: (طور) أصلٌ يدلُّ على الامتدادِ في شيءٍ مِن مكانٍ أو زمان[2]، والطَّوْر: التّارةُ، يُقال: طَوْرًا بَعْدَ طَوْر، أي: تارةً بعد تارة، والنّاسُ أطوارٌ، أي: أصْنافٌ، على حالاتٍ شَتَّى، والمَرْءُ يُخلَقُ طَورًا بعد أطوارٍ[3]، والمراد به في الآية الكريمة: شيئًا بعد شيءٍ، ومُختَلِفين على حالاتٍ شَتّى[4].

المَعنى الإجماليُّ:

بدّل نوحٌ عليه السلام خطابه مع قومه ووبّخهم[5] على غَفْلَتِهم عن عظمةِ اللّه تعالى وتحقيق وعده، مع أنَّه خَلَقَهم في أطوارٍ مُتَدَرِّجة، من نُطْفَةٍ إلى علقَةٍ، ثُمَّ مضغةٍ، ثُمَّ عظامٍ كُسيَت لحمًا، في إشارةٍ إلى عظمة الخَلْقِ والإبداعِ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغَةُ فَصْلِ جُمْلَةِ الاستفهامِ:

إثــارَةُ الـسُّـؤالِ لإيقاظِ الغافِلِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فقد سيقَت الجملةُ؛ لبيان ما قالَ لَهُم نوحٌ عليه السلام بعدَ دَعْوَتِه لَهُم إلى التَّوبة والاستغفار[7]، وكيفَ "بَدَّل خطابَه مع قومه من طريقةِ النُّصحِ والأمرِ إلى طريقةِ التَّوبيخ"[8].

دلالَةُ الاستِفهامِ بالأداةِ ﴿مَّا﴾:

استفهامٌ يُنْكِرُ عـلى الـقَـلْـبِ غفلتَهُ

﴿مَّا﴾ استفهاميَّة لطلَبِ التَّعيين، وقد عبَّر النَّظم الجليلُ بالاستفهام

(1) الواحدي، البسيط: 22/ 255، والسمين، عمدة الحفاظ: (وقر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طور).
(3) الخليل، العين: (طور).
(4) الواحدي، البسيط: 22/ 257.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 199.
(6) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 571.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 439.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 199.

في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾؛ لقصدِ الإنكارِ والتَّوبيخ[1]، فهو سؤالٌ "عَن أمرٍ ثبتَ لَهُم في حالِ انتفاءِ رَجائِهِم توقيرَ اللّهِ، والمقصودُ أنَّه لا شيءَ يثبت لهم صارفٌ عن توقيرِ اللّهِ، فلا عُذْرَ لكُم في عدم تَوْقيرِه"[2].

فائدةُ القيد ﴿لَكُمۡ﴾، وبيانُ ملازَمَتِها للحاليَّة:

انتفاءُ أسبابِ رجاءِ رضا اللهِ تَعالى بالإيمان والطّاعة مظِنَّةُ الإنكارِ

اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾، من قول اللّه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾، دالَّةٌ على الاختصاصِ، وهي متعلِّقةٌ بالخبَرِ المَحْذوفِ لاسم الاستفهامِ ﴿مَّا﴾ - فإنَّهُ في موضعِ رفعِ مبتدأٍ - [3] والكافُ للخِطابِ، وهي عائدةٌ على قومِ نوحٍ، وهذا التَّركيب - (ما لك) - ونحوُهُ يرِدُ بعدهُ حالٌ، نحو قولِ اللّه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩﴾ [المدثر: 49]، وجملةُ: ﴿لَا تَرۡجُونَ﴾ في موضعِ الحالِ من ضميرِ المُخاطَبينَ.

دلالَةُ التَّعبير بفِعْلِ الرَّجاء مادَّةً وصيغةً:

انتفاءُ الرَّجاء يُفْصِح عَن خلوِّ قلوبِ الغافلينَ مِـنَ الـخـوفِ والأمَلِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بفِعْلِ الرَّجاء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾؛ لدلالَتِه على ترقُّبِ الخَيْرِ وتوقُّعِه، أي: ما لَكُم لا ترجونَ مِن اللّهِ تَعالى ثوابًا، ولا تخافونَ عقابًا، فإنَّهم لمّا لَم يَعْبُدوه؛ دلَّ على انتفاء رجائِهِم ذلك[4]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارعِ المنفيِّ؛ للدَّلالة على تجدُّدِ انتفاءِ رجائِهِم ودوامِه.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في جُمْلَةِ الاستفهامِ:

إنْـكـارُ انـتِـفـاءِ الرَّجاء حثٌّ عَلى الإيمانِ

في قول اللّه تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ كنايَةٌ تلويحيَّةٌ عَن الحثِّ على الإيمانِ وعبادةِ اللّهِ تَعالى الموصِلَةِ إلى الخَيْرِ الذي يَسْتَلْزِمُ رجاءَ ثوابِهِ وخوفَ عِقابِه؛ لأنَّ مَن رجا تعظيمَ اللّهِ تَعالى

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 254.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 199.

(3) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين، ص: 2022.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 199.

إيّاه آمَنَ به، وعَبَدَهُ، وعَمِلَ الصّالحات[1]، وأنْكَر ما هو عليهِ مِن عنادٍ وإصرارٍ على الباطلِ[2].

دلالةُ تعلُّق الجارِّ والمجرور وأثَرُهُ على مَعْنى اللّام:

الوقارُ حقٌّ لله تَعالى، والكافرُ جاهِلٌ بحقِّ اللهِ تَعالى

يجوز في شبه الجملة الشَّريفة ﴿لِلَّهِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أن تكون متعلِّقة بفِعْلِ الرَّجاء، أي: لا ترجونَ لأجْلِ اللّه تعالى وقارًا، ويجوز أن تكون شبه الجملة متعلِّقةً بقوله: ﴿وَقَارًا﴾، فتكون اللّام بمعنى شِبْهِ الملْك، أي: لا ترجون الوقارَ الذي هو حقٌّ للّه، أو تكون اللّامُ للتَّقوية، فتفيدُ إيصالَ الفِعْلِ إلى شِبْهِ الجُمْلَةِ وتأكيدَهُ، أي: لا ترجون توقيرَ اللّهِ وخَشْيَتَه[3]، ويجوز أن تكون اللّام لابتداء الغاية المكانيَّة المعنويَّة بمعنى (مِن)، والمعنى: مِنْ عندِ اللّهِ وبأمْرِهِ[4]، وهذه المعاني لا تنافيَ بينَها، بل بعضُها يُكَمِّلُ الآخَرَ، ويُقَوّيه، ممّا يُثْري المعانيَ القرآنيَّة.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الأحسَنِ (الله):

ذِكْرُ اللهِ تَعالى يَقْتَضي التَّوقيرَ والتَّقديسَ ونَبْذَ الشَّريك

عبَّر النَّظم الجليلُ بالاسْمِ الأحسَنِ (اللّه)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، الدّالِّ على التَّعظيم والجلالِ وكَمالِ المُلْك[5]، وذلك لتهويلِ شَناعَةِ مَعْصيَتِهم وانتفاءِ رجائِهم وتوقيرِهم للّهِ تَعالى.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالوَقارِ، ونُكْتَةُ تَنْكيرِه:

التَّـوقـيرُ حـقٌّ لعظمةِ اللـه، ولـيـسَ للكافر حظٌّ منهُ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالوقارِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾؛ لدلالته على التَّعظيم الذي يَقْتَضي الإجلالَ[6]، فنفى عَنْهُم تعظيمَ اللّه تعالى الذي يَجِبُ على عِباده، ومِن انتفاء

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 200.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 191.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 200 - 201.
(4) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين، ص: 2022.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 439.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 199.

تعظيمِه تَعالى عدَمُ خوفِهم مِنَ الإهانَةِ بالعِقاب؛ وذلك بإنكارِهِم الحسابَ بعدَ البَعْثِ، ومن صوَرِ انتفاءِ تعظيمِ اللّه تعالى: عدَمُ توقيرِ رسلِهِ بتركِ تَصْديقِهِم والإيمانِ بما أُرْسِلوا بِهِ والعمَلِ بمقتضاهُ، وقد جاء التَّعبيرُ بتنكيرِ ﴿وَقَارًا﴾؛ للدَّلالة على انتفاءِ الوقار على وجه العموم، أي: ليس لهم توقيرٌ للّهِ أيَّ توقيرٍ وإن كان ضئيلَ القَدْرِ، فإنَّ قليلَهُ أكثرُ مِن كثيرِ غيرِه وأفضَلُ[1]، ووجهُ إفادَةِ العمومِ ورودُ النَّكرةِ في سياقِ النَّفْيِ، وذلك من ألفاظِ العمومِ.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في لَفْظِ الوقارِ:

إنكارُ العاقِبَةِ ونفيُ إثباتِ وحدانيَّةِ الله تعالى موجِبٌ التَّوبيخَ

على تأويلِ الوَقار بالعاقِبَة، بمعنى: ما لَكُم لا تَرْجونَ للّهِ تَعالى عاقبَةً، أي: عاقبَةَ الإيمان، يكونُ الكلامُ كنايَةً عَنِ التَّوبيخ على تَرْكِهِم الإيمانَ باللّهِ تَعالى، وكذلك الشَّأنُ في جَعْلِ الوقار بمعنى الثَّبات، كقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، أي: اثبُتْنَ، ومعناه: ما لكُم لا تثبتون وحدانيَّة اللّهِ[2].

دلالَةُ افتِتاحِ جملة ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ﴾ بالواوِ:

النِّعمةُ قائمَةٌ، لَكِنَّ شُكْرَها مِن الكافرِ مَفْقودٌ

افتتحَ النَّظمُ الجليلُ قولَه جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ بالواوِ الحاليَّة، أي: لا ترجون ذلك حالَ كونِه تَعالى قد مَنَّ عليكم بالخَلْقِ على أطوارٍ مختلفَةٍ وصفاتٍ متفاوتَةٍ وحالاتٍ متنوِّعةٍ[3]، فهذا الحالُ يبيِّن كمالَ النِّعمة مُفْصِحًا عن شناعَةِ الإعراضِ عَن عِبادَتِه واستِغفاره بالتَّوبة إليهِ.

سرُّ التَّعبير بـ (قد):

تحقيقُ الخَلْقِ، وتقريرُ النِّعمة

عُبِّر بحرف التَّحقيقِ (قد)، في قوله تَعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛ لبيانِ أنَّه تعالى قد سبَقَ إحسانُه إليكُم، وتحقَّقَ بالخَلْق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 439.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 200.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 254.

والإيجاد، وهو ما لا يَقدِرُ عليه أحَدٌ سِواهُ[1]، فذلك تقريرٌ لَهُم بكمال القدرة، تلك التي أنتُم بعضٌ مِن آثارِها.

الإيجادُ مِنَ العدَمِ عِظةٌ قائمَةٌ في كُلِّ نَفْسٍ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالخَلْقِ مادَّةً وصيغَةً:

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ الخَلْق، في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى قد أَوْجَدَهُم مِنَ العدَم[2]، فتَذْكيرُهُم بكَوْنِهم كانوا عدمًا - وهو قد أَوْجَدَهُم - أبلَغُ في الوعظِ، وأنفعُ في إيقاظِهِم مِن غَفْلَتِهم، وجاء التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقه وحصولِه بحيثُ يكونُ دليلًا يُحْتَجُّ به وبرهانًا قائمًا للحقِّ.

قَصْدُ الكافر بالخِطاب تأكيدٌ لمَضْمونِ الوَعْظِ

دلالَةُ التَّعبيرِ بضميرِ المُخاطَب:

أوقع النَّظمُ الجليلُ فِعْلَ الخَلْقِ على المخاطَبين، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، وهو قد خَلَقَ النّاسَ كُلَّهُم كذلك؛ لأنَّه أراد محاجَّتَهُم بِما هُم عليه، وتقريرَهُم بحالِهم وكيفيَّةِ خَلْقِهم، وتذكيرَهُم بأنَّهم مِن خَلْقِه، وأنَّهم كانوا عدمًا، فتخصيصهُم بالخطابِ أبلَغُ في الوَعْظِ والإنكارِ.

أطوارٌ عديدَةٌ، ومراحِلُ تَشْهَدُ عَلى الصَّنْعَةِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالأطوارِ مادَّةً وصيغَةً:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالأطوار، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، بمعنى: أنَّه خلقكُم تارةً بعد تارةٍ، وهوَ إشارةٌ إلى مضمونِ قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: 5][3]، فالطَّور هو التّارةُ، وهي المرَّة مِنَ الأفعالِ أو الزَّمان، فهو تعبيرٌ عمّا يَحْصُل في المرّات والأزمانِ من أحوالِ مختلفَةٍ في خَلْقِ الإنسانِ[4]، أي: إنَّكم تَعْلَمون أنَّ اللّه تعالى قد خَلَقكُم، وقَدَّرَكُم حالًا بعد حالٍ، عناصرَ ثمَّ أخلاطًا ثُمَّ نطفةً ثُمَّ علقةً ثمَّ مضغَةً، ثمَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 440.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 441.
(3) الراغب، المفردات: (طور).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 201.

عظامًا ولحومًا، ثُمَّ جعَلكم خلقًا آخر، وجاء التَّعبيرُ بصيغَةِ الجَمْعِ والتَّنكيرِ؛ للدَّلالة على اختلافِ الأطوار وتنوُّعها وكثرتِها، فَهُم في صفاتٍ مُتَبايِنَة وحالاتٍ مختَلِفَةٍ(1).

بلاغَةُ التَّعريض في لفظِ الأطوار:

عــدمُ إدراكِ إعجازِ الخالقِ في النَّفس دليلُ الغَفْلَةِ والتَّمادي في الكُفْر

في وَصْفِ كونِ خَلْقِهم أطوارًا تعريضٌ بكُفْرِهم النِّعمةَ؛ لأنَّ الأطوار التي يعلمونَها دالَّةٌ على رِفْقِه سُبحانَهُ بهم في ذلكَ التَّطوُّر، ودالَّةٌ على حكمَةِ الخالقِ وعِلْمِه وقُدْرَته، فإنَّ في بقاءِ الذّات واحدةً على الرُّغم من تطوُّر الخلقِ مِن طَور النُّطفة إلى طورِ الشَّيخوخة ثُمَّ المَوْتِ ثُمَّ فناء الأجساد بعدَ الموتِ؛ لَدليلًا على كمالِ الخالقِ في الخلقِ والتَّبديل في الأطوار، وهُم يُدْرِكون ذلك بأَدْنى التِفاتِ الذِّهن، فكانوا مَحْقوقين، بأنْ يَتَوَصَّلوا به إلى معرفةِ عظمَةِ اللّٰهِ تَعالى وتوقُّع عقابه؛ لأنَّ الدَّلالة على ذلكَ قائِمَةٌ بأَنفُسِهم(2).

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 254 - 255.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 201.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: 15 - 20]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مـن الـتَّـوبـيـخ والتَّعريض إلى الاستدلالِ وعظٌ دائِـمٌ وإرشـادٌ قائِمٌ

بعدَ أن نبَّههم نوحٌ عليه السلام على التَّفكُّر في أنفُسِهم وأطوارِ خَلْقِهم؛ أتْبَعَهُ بإرْشادِهم للنَّظر في ملكوت السَّماوات والأرض، ليتفكَّروا في خَلْقِهما، وما أودَعَ تعالى فيهما مِنَ الشَّمس والقمرِ، وكيف أنْبَتَهُم مِنَ الأرض، ومهَّدَها لهم[1]، وذكَّرهم - بعدَ التَّذكير بما في أنفُسِهم - بما هو أكبَرُ من ذلك مِن آياتِ الآفاق، وقسَّمها إلى عُلْويٍّ وسُفْليٍّ، وبدأ بالأنفُسِ؛ لأنَّها مع شَرَفِها أقرَبُ منظورٍ إليهِ لَهُم، وثَنّى بالعلويِّ؛ لأنَّه يَليها في الشَّرف ووضوحِ الآياتِ[2].

ومِنَ المُناسبةِ أيضًا أنَّه انتقلَ مِنَ التَّوبيخ والتَّعريضِ، إلى الاستدلالِ عَليهِم بآثار خَلْقِه ووحدانيَّتهِ، وما في العِلْم من أدلَّةٍ على قُدْرَتِه تعالى[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طِبَاقًا﴾: (طبق) أصلٌ يدلُّ على وضع شيء مبسوط على مثله حتّى يغطّيه[4]، المُطابقةُ من الأسماء المُتضايفة، وهو أن تجعل الشَّيء فوق آخر بقدره، ومنه: طابَقْتُ النَّعلَ، ثمَّ يُستعمَل الطِّباقُ في الشَّيء الَّذي يكون فوق الآخر تارةً، وفيما يوافق غيره تارةً،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 283، وينظر: القنّوجي، فتح البيان: 14/ 337.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 202.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبق).

كسائر الأشياء الموضوعة لمعنيين، ثمَّ يُستعمَل في أحدهما دون الآخر كالكأس والرّاوية ونحوهما[1]، وأمّا الطِّباقُ في الآية؛ فيجوزُ أن يكون مصدَر (طابقَ) وُصِفَتْ به السَّماواتُ للمُبالغةِ، أي: شديدةُ المُطابقةِ، أي: مُناسِبَةٌ بَعضُها لبعضٍ في النِّظام، ويَجوزُ أن تكونَ طباقًا جمعَ طَبَقٍ، والطَّبَقُ المُساوي في حالةٍ ما، ومنه قولُهم في المَثَلِ: "وافَقَ شَنٌّ طَبَقَهُ"[2]، والمراد بها: أنَّها مُرتفِعٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ في الفَضاءِ السَّحيقِ، أو أنَّها مُتماثلةٌ في بعْضِ الصِّفاتِ، مِثْلُ التَّكويرِ والتَّحرُّكِ المُنْتَظِم...[3].

والطَّبَقُ: كلُّ غِطاءٍ لازمٍ عَلى الشَّيءِ، وطَبَقُ كلِّ شَيءٍ: ما ساواهُ، والسَّماواتُ: الطِّباقُ، سُمّيَتْ بِذَلِكَ لمُطابَقة بَعضِها بَعضًا، أي: إنَّ بَعضَها فَوقَ بَعضٍ[4]. والمراد في الآية الكريمة: سبع سماوات طباقًا بَعْضُهنَّ فوق بعض[5].

2) ﴿سِرَاجًا﴾: (سرج) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى الحُسْنِ والزّينَةِ والجَمالِ، ومِنْ ذَلِكَ: السِّراجُ، سُمّيَ لِضيائِهِ وحُسْنِهِ[6]، والشَّمسُ: سِراجُ النَّهارِ، والهدى: سِراجُ المؤمنينَ، وسَرَّجَ اللهُ وجهَهُ، وبَهجَه، أي: حَسَّنَه[7]، والسِّراجُ في الآية معناه: المصباح الَّذي يُستضاء به في الظُّلمات[8].

والمراد الآية الكريمة، أي: مصباحًا لأهل الأرض[9].

3) ﴿نَبَاتًا﴾: (نبت) أصلٌ يَدُلُّ عَلى نَماءٍ في مَزْروعٍ، ثُمَّ يُسْتَعارُ، فالنَّبْتُ مَعروفٌ، يُقالُ: نَبَتَ، وأنْبَتَتِ الأَرْضُ[10]، فالنَّبْتُ والنَّباتُ: ما يخرج من الأرض من النّاميات، سواءٌ أكان له ساقٌ كالشَّجر، أم لم يكن له ساق كالنَّجْم[11]، والنّابتُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: الطَّرِيُّ حينَ يَنْبُتُ صَغيرًا، وما أَحْسَنَ نابتةَ بَني فُلانٍ، أي: ما يَنْبُتُ عليهِ أموالُهم وأولادُهم، والنَّوابتُ

(1) الراغب، المفردات: (طبق).
(2) أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال: 2/ 336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 16.
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طبق).
(5) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 102.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرج).
(7) الخليل، العين: (سرج).
(8) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 223.
(9) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 102.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبت).
(11) الراغب، المفردات: (نبت).

مِنَ الأحداثِ: الأغْمارُ[1]، و(نباتًا) في الآية مراد به: النَّشأة والتَّكوين، أي: إنَّ الإنسان هو من وجه نبات من حيث إنَّ بدأه، ونشأه من التُّراب، وإنَّه ينمو نُموَّه، وإن كان له وصف زائد على النَّبات[2]،

والمراد في الآية الكريمة: خلقَكُم مِن أديم الأرض، وأنشأكُم باغتِذاء ما تُنبِتُه الأرض[3].

4) ﴿بِسَاطًا﴾: (بسط) أصلٌ يدلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ، في عِرَضٍ أو غَيرِ عِرَضٍ، فالبِساطُ: ما يُبْسَطُ، والبَساطُ: الأرضُ، وهيَ البَسيطَةُ[4]، وبَسْطُ الشَّيءِ: نَشْرُه وتَوْسيعُه، فتارةً يُتَصَوَّر منه الأمْرانِ، وتارةً يُتَصوَّر منه أحدُهما، ويقال: بَسَطَ الثَّوبَ؛ إذا نشرَهُ، ومنه: البِساط، وذلك اسم لكلِّ مَبْسوط، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾، والبِساط: الأرض المُتَّسعة[5]، والبسط في الآية معناه: الاتِّساع في الشَّي، والمراد: مَبسوطة، مُتَّسِعة، مُمهَّدة كالفِراشِ تتقلَّبون فيها.

والمراد في الآية الكريمة: مبسوطَة[6].

5) ﴿لِّتَسْلُكُواْ﴾: (سلك) أصل يدلُّ على نُفوذ شيءٍ في شيء، وإدخالُ شَيء في شيءٍ تَسْلُكه فيه، والمَسْلَكُ: الطَّريق[7]، والسُّلوكُ: النَّفاذ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريق، وسَلَكْتُ كذا في طريقه، قال اللّه تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[8]، والسُّلوك في الآية معناه: الاتخاذ والنَّفاذ في شيءٍ لفائدة، والمراد: أن تتَّخذوا منها لأنفسكم طرقًا متَّسعة[9].

والمراد في الآية الكريمة: لِتتقلَّبوا عليها كما يتقلَّب الرَّجل على بِساطِه[10].

6) ﴿فِجَاجًا﴾: (فجّ) أصلٌ يَدُلُّ عَلى تَفَتُّحٍ وانفِراجٍ، ومِن ذَلِكَ: الفَجُّ، وهو الطَّريقُ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نبت).
(2) الراغب، المفردات: (نبت).
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 102.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (بسط).
(6) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 103.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن فارس، مجمل اللغة: (سلك).
(8) الراغب، المفردات: (سلك).
(9) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 21.
(10) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 545.

البعيد والواسعُ بين الجَبَلَين، وجمعُهُ: فِجاجٌ، وقيلَ: في جبَل أو في قُبُلِ جَبَل، وهوَ أوسع مِنَ الشِّعْبِ[1]، والمراد به بالفِجاجِ في الآية الكريمة: جمع فجٍّ، وهيَ الطُّرق الواسعَةُ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مظاهِرُ قدرةِ الله تَعالى في الخَلْقِ والبعثِ

يُخْبِرُ اللّهُ تَعالى عمّا قال نوحٌ عليه السلام لقومِه واعظًا لهُم ومرشدًا: ألَم تَعْلَموا كيفَ خلق اللّهُ سبعَ سماواتٍ متطابقَةً بعضها فوقَ بعض، وتَنْظُروا بأعيُنِكم ما دلَّ على ذلك من الأدلَّةِ الشّاخِصَةِ؟ واللّه تعالى قد صيَّر القمَرَ في هذه السَّماوات نورًا يُضيء اللَّيلَ لَكُم، وجعل الشَّمس مصباحًا متَّقدًا يَستَضيء به أهلُ الأرض في النَّهار، واللّه تعالى هو الذي أنشأ أصلَكُم مِنَ الأرضِ إنشاءً، ثمَّ بعد ذلك تموتونَ، فيُعيدكُم في الأرض، فتُدفَنون فيها، ويُخْرِجُكم يومَ القيامة منها إخراجًا حتميًّا محقَّقًا، فيَبْعَثُكم أحياءً مرَّة أخرى، واللّه تعالى هو الذي جعل لكم الأرضَ ممهَّدة كالبِساط؛ لتَذْهَبوا فيها، وتَمْشوا عليها، فتتَّخذوا فيها طُرقًا سهلةً واسعَةً[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ جملة ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾:

الشُّروع في ذِكْر الآيـــات بـعـدَ الإنكارِ

فُصِلَ قول اللّه جلَّ شأنه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه جملة مستأنفةٌ، فقد سيقَت للانتقال من حجَّةٍ إلى حجَّة أخرى، وذلك أنَّ نوحًا عليه السلام لمّا ذَكَرَ خَلْقَ اللّهِ تعالى لهم موبِّخًا لهم ومنكرًا عليهم كُفْرَهُم به؛ تخلَّص مِن ذلك إلى الاستدلالِ عليهم بآثار وُجود اللّه سُبحانَهُ ووحدانيَّته وقدرته بما سَيَذْكُرُ مِنَ الأدلَّةِ[4].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فج)، وابن منظور، لسان العرب: (فجج).
(2) الواحدي، البسيط: 22/ 261، والسمين، عمدة الحفاظ: (فجج).
(3) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 571.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 202.

دلالَةُ الاستفهامِ معَ النَّفي:

إنكارُ عدَمِ الاستدلالِ بعَظيمِ الآيات، وهيَ شاخِصَةٌ

عبَّر النَّظم الجليل بالاستفهام بالهمزة مع النَّفي بـ (لم)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ للتَّقرير، والمراد من التَّقرير: الإنكار عليهم على عدَمِ العِلْمِ والمعرفة بناءً على ما يَرَوْنَهُ من شواهدِ الأدلَّة[1].

دلالة التَّعبير بالرُّؤية مادَّةً وصيغةً:

العلمُ والمشاهَدَةُ حُجَجٌ تكذِّبُ المكذِّبين

جاءَ التَّعبيرُ بالرُّؤية في قوله تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، وهي هنا صالحة لأن تكون علميَّة؛ وذلك لأنَّهم يعلمون أنَّ اللّٰه تعالى هو الخالقُ، ويجوز أن تكون بصريَّةً، فهُم يُشاهِدونَ عجائِبَ الخلقِ الدّال على كمال عِلْمِ الخالق وقُدْرَته[2].

وعُبِّر عن فعل الرُّؤيةِ بصيغَةِ المضارِعِ؛ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وذلك لأنَّهم يشاهدونَ السَّماواتِ على وجهِ الاستمرارِ، فيتجدَّدُ لهم بذلك علمٌ بخلْقِها ونظَرٌ جديدٌ إليها.

دلالَةُ الاستفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾:

هَيئَةُ الخَلْقِ تنطِقُ بوحدانيَّة الخالِقِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ باسم الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ منكرًا عليهم عدَمَ التَّأمُّل[3]، وهي هنا مجرَّدة عن الدَّلالة على السُّؤال، وقد جيء بها خالصَةً للكيفيَّة والهَيْئَة والحالِ، أي: أَلَسْتُم تَرَوْنَ هيئةَ خَلْقِ اللّٰهِ السَّماوات[4].

دلالَةُ التَّعْبير بِفِعْلِ الخَلْقِ مادَّةً وصيغةً:

عُبِّر بلفظِ الخلق في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى قد أَوْجَدَهُم مِنَ العدَمِ[5]، وصيغَ هذا الفِعْلُ ماضيًا؛ لإفادَةِ أنَّه محقَّق مقرَّرٌ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 202.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 202، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 255.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 202.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 441.

دلالَةُ ذِكْرِ الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

الإلـه العظيمُ هو الخالِقُ لا الآلِهَةُ الزّائِفَةُ

عبَّر النَّظم الكريمُ بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾، في قوله سُبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الخالقَ لَهُ العلمُ التّامُّ والقدرة الكاملةُ والعظمة البالغة، فاللّه تَعالى هو الذي خلق السَّماواتِ، وليسَ آلهتَكُم الضَّعيفَةَ[1].

دلالةُ التَّعبير بالمركَّب الإضافيّ: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾:

عددٌ يُبهر وموقعٌ يُنير

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالمركَّب الإضافيِّ ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾، في قوله سُبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾، وهو مِن إضافة الصِّفة إلى الموصوفِ، فكان وصفُ السَّماوات بكونِها سبعًا معلومًا لديهم؛ إذِ المراد به: سبعُ كواكب في مداراتها، وفي ذِكْرِه أيضًا تعليمٌ للمُخاطَبين على طريقةِ الإدماجِ[2].

دلالَةُ التَّعبير بلَفْظِ ﴿طِبَاقٗا﴾ مادَّةً وصيغةً:

النِّظام الكونيُّ يَشْهَدُ للكمالِ الإلهيِّ

عُبِّر بلفظ الطِّباق في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾، وهو لفظ يدلُّ على جعلِ الشَّيء فوقَ آخرَ بقَدْرِه، أي: جَعَلَ بعضَها فوقَ بعضٍ[3]، وأعلى مِن بعضٍ، سواءٌ أكانت مُتماسَّة أم كان بينَها ما يُسمّى بالخلاء[4]، والوارِدُ في الأخبارِ أنَّها غيرُ متماسَّةٍ[5]، وكلُّ واحدة في التي تليها محيطة بها، وهذا مِن المطابقةِ بين المُتَقابلات الذي يُعَدُّ في غاية الصُّعوبة، ولا يقدر عليها من جميع الوجوه أحَدٌ إلّا اللّهُ تعالى[6].

وَجْهُ العَطْفِ بالواوِ:

إنارَةُ الوُجودِ تُنيرُ القلوبَ، وتدلُّ على الخالِقِ العظيمِ

عُطِفَ قولُه جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾، على قوله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 202.
(3) الراغب، المفردات: (طبق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 202.
(5) ابن عثيمين، القول المفيد: 2/ 542.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442.

تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾[1]؛ لأنَّ جَعْلَ القمرِ نورًا من العجائبِ الدّالَّة على الخالقِ الحكيم، فنبَّه بذِكْرِه على أنَّه يَجِبُ النَّظرُ في خَلْقِه، وجعْله نورًا، كما يُنْظَر إلى خلقِ السَّماوات طِباقًا[2].

دلالَةُ التَّعبير بالجَعْلِ:

تصييرٌ بعدَ خَلقٍ نعمَةٌ متجدِّدَةٌ

عُبِّر بالجَعْلِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾؛ للدَّلالة على التَّصيير، أي: صيَّر القمَرَ فيهنَّ نورًا[3]، فهو تصييرٌ بعدَ الخَلْقِ؛ إذ مرحلَةُ جعْلِهِ نورًا غيرُ مرحلَةِ خلْقِه وتكوينِه[4]، فهو نعمَةٌ أُخْرى مِن نِعَمِه تعالى.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡقَمَرَ﴾ و﴿ٱلشَّمۡسَ﴾:

ما أقربَ النّورَ مِنَ العيونِ وأبْعَدَهُ مِن قلوبِ الجاحِدين!

(أل) في ﴿ٱلۡقَمَرَ﴾، وكذلك في ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾: عهديَّةٌ، والمراد بهما: الجِرْمان المعروفانِ، وقد عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالقمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾، وهو الجُرم الذي ينيرُ ليلَ الأرض إنارةً مفيدَةً، بخلاف النُّجوم؛ فإنَّها لا تُجْدي البشرَ شيئًا من الإنارة[5]، فذِكْرُهُ دونَ سواه لظُهورِ رُؤْيَتِه، ولقُرْبِه وسُرعة حركتِه، وظهوره كلَّ شَهْرٍ، وذلك أعجَبُ في القدرة[6].

فائدَةُ التَّعبير بشِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿فِيهِنَّ﴾:

موقِعُ القمَرِ يُغني، ونورهُ مُتَّسِعٌ

عبَّر النَّظم الجليلُ بشِبْهِ الجملة ﴿فِيهِنَّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ القمَرَ مظروفٌ في السَّماوات جميعًا، وجَعْلُهُ كذلك مع أنَّه كائن في السَّماءِ الدُّنيا؛ لأنَّه إذا كان في إحداهنَّ؛ فهو كائنٌ فيهنَّ جميعًا[7].

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 273.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 337.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 194.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 203.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442.
(7) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 337.

دلالَةُ تقديمِ شِبْهِ الجُمْلَة ﴿فِيهِنَّ﴾:

إعجازُ الموقِعِ السّابحِ في الفضاءِ أبلَغُ مِنَ النّورِ المُشاهَدِ

قُدِّمَت شبهُ الجملة في قوله تَعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾، دون أن يَرِدَ في النَّظم القرآنيِّ: (وجعل القمر نورًا فيهنَّ)؛ لأنَّ كونهُ في السَّماوات أهمُّ من كونه منيرًا، فنورُهُ لَم يكُن لَو لَم يكُن القمَرُ في مكانه ذاكَ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالنّورِ ونُكْتَةُ تَنْكيرِه:

نورٌ عظيمٌ ولَمَعانٌ يفيض بالكرمِ الإلهيِّ

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ النّور مُنَكَّرًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾؛ للدَّلالة على لَمَعانِه وإنارَتِه، وكونِه مضيئًا لأهل الأرض[1]، والتَّعبير بالنّور دون (منيرًا)؛ للمبالغةِ في صفة الإنارة[2]، وذلك أنَّه قد جعل القمر هو النّورَ، والتَّنكير في لفظِ ﴿نُورٗا﴾؛ لتفخيمِ الإنارة فيه وتَعْظيمها.

دلالَةُ العَطْفِ بالواو في ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾:

القمَرُ والشَّمسُ تناسُقُ نورَيْنِ ونِعمَتَيْنِ، والغايةُ واحدَةٌ

عُطِفَ قولُ اللّه جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾، على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ بالواو؛ للدَّلالة على الجمع بين نِعمَتَينِ عظيمَتَين: القمرِ بإنارته اللَّيليَّة الرَّقيقة، والشَّمسِ بسِراجها النَّهاريِّ الوضّاء، دون دلالة على ترتيبٍ زمنيٍّ، بل لبيان تنوُّعِ امتنانهِ على خلقِه وكمال قُدْرَته، فقد اجتمع في الآية الاستدلالُ على قدرة اللّهِ تَعالى الباهرة، والامتنانِ على العباد بما يسَّرَ لهم مِن أسبابِ الضّياء والمَعاش[3].

نُكْتَةُ تَكرار لفظ (جعل):

جعْلُ الشَّمسِ سراجًا نعمةٌ فريدَةٌ

أعاد النَّظم الجليلُ لفظَ الجعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾، دون أن يَرِدَ التَّعبيرُ بـ: (والشَّمسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 443.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 203.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 204.

سراجًا)؛ وذلك لتعظيم شأن الشَّمس[1]، فهي مستقلَّة بجَعْلٍ خاصٍّ بها، وهي نعمةٌ مستقلَّة برأسِها.

دلالَةُ حَذْفِ شِبْهِ الجملة:

حُذِفَ شبهُ الجملةِ (فيهِنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾؛ إذ لم يُعَبَّر بـ: (وجعل الشَّمس فيهِنَّ سراجًا)؛ لدلالة ما قبلَهُ عليه، فهو من الإيجازِ اكتفاءً بالمذكورِ.

دلالَةُ تَنْكيرِ السِّراجِ:

نُكِّرَ لفظ السِّراج في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾؛ لتعظيم ضوء الشَّمس، أي: جَعَل الشَّمسَ "نورًا عظيمًا كاشفًا لظُلْمَة اللَّيل عن وجه الأرضِ"[2].

سراجٌ لا يَنْطَفِئ، وضّاءٌ يَعُمُّ كلَّ الأرجاء

بلاغَةُ التَّشبيهِ في الإخبارِ عَنِ الشَّمس:

شبَّه النَّظم الجليل الشَّمس بالسِّراج، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، على طريقة التَّشبيه البليغِ، فحُذِفَت الأداةُ ووجه الشَّبهِ، أي: إنَّ الشَّمس كالسِّراج والمصباحِ في إزالةِ ظُلْمَةِ اللَّيل، فيُبْصِرُ أهلُ الدُّنيا في ضوئِها الأرضَ والآفاقَ، كما يُبْصِرُ أهلُ البيتِ بالسِّراج ما يَحْتاجونَ إلى إبْصارِه[3]، والقصد مِن هذا التَّشبيه "تقريب المُشَبَّه من إدراك السّامع، فإنَّ السِّراج كان أقصى ما يُستَضاءُ به في اللَّيل، وقلَّ من العرب مَن يتَّخِذُه، وإنَّما كانوا يَرَونَهُ في أدْيِرَةِ الرُّهبان أو قصور المُلوك وأضرابِهِم"[4].

الشَّمس تزيل الظُّلمةَ عنِ العيونِ؛ فمَن ذا يُزيلُ الغفلةَ عَنِ القلوبِ؟

دلالَةُ تَقْديمِ ﴿ٱلْقَمَرَ﴾ على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾:

قُدِّمَ القمرُ على الشَّمس، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، وذلك لأنَّ اللَّيل مقدَّمٌ في الذِّكر على

سبقُ اللَّيلِ النَّهارَ يقتضي تقديمَ القمَرِ على الشَّمسِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 443.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 443.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 256.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 203.

النَّهار، في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ [غافر: 61]، فناسب تقديم ما يضيء في اللَّيل على ما يضيء في النَّهار، كما أنَّ القمَرَ أقلُّ في المرتبة وأضعَفُ في النّور من الشَّمس، فرتَّب ذِكْرَهُما على طريقة التَّدرُّج من الأدنى إلى الأعلى، فبدأ بالنِّعمةِ الأقلِّ، وانتهى بالنِّعمةِ الأعظم، ثُمَّ إنَّ رؤية القَمَرِ أظهَرُ؛ لِقُرْبِه وسرعة حركته، وقطعه جميعَ البُروج في كلِّ شهر مرَّةً، وغيبَتِه في ليالي السِّرارِ ثُمّ ظهوره، وذلك أعجَبُ في القُدْرَةِ[1].

دلالَةُ تخصيصِ النّور بالقَمَرِ والسِّراج بالشَّمس:

نـورٌ مُستعارٌ، وسـراجٌ مضيءٌ بذاتِه

خصَّ النَّظم الجليل النّورَ بالقمرِ، والسِّراجَ الدّالَّ على الضّياء بالشَّمس، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجًا﴾؛ وذلك إيماء إلى أنَّ ضوء القمر ليس منه؛ إذْ هو مُظْلِم، وإنَّما هو يعكِسُ أشعَّة الشَّمس، فيضيء على الأرض، بخلاف الشَّمسِ فإنَّها بعكس ذلك، فهي ملتهبة وضياؤُها ذاتيٌّ، فهو يصدُر عنها إلى الأرض وإلى القمَرِ[2].

وَجهُ العطفِ بـ (الواو):

وصلٌ لبيانِ خلقِ الإنسان، ودليلٌ عـلى الـقـدرة والإعادَةِ

عطَفَ النَّظم القرآنيُّ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ على ما قبلها؛ لكونِها من جملةِ مَقول القول الذي قاله نوحٌ عليه السلام لقومه، فبَعدَ أن ذكرَ نوحٌ عليه السلام الأدلَّةَ على وحدانيَّة اللّه تعالى وقدرته ونِعَمِه في الآفاق؛ أتبعَهُ هنا بذِكْرِ دليل الأنفُسِ، ففي كلٍّ من هذه الأمور دلالَةٌ واضحة على عظمَةِ اللّهِ تَعالى وقُدْرَتِه، وباهِرِ مَصنوعاتِه[3].

سِرُّ تقديمِ المُسْنَدِ إليه على المُسْنَدِ الفعليّ:

قُدِّم الاسمُ الأحسَنُ (اللّه) - وهو مسند إليه - على المسنَدِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 204.
(3) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 191 - 192.

الفعليِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾؛ للدَّلالة على كمال التَّعظيم، الاهتمام بمضمون الخطاب، وتأكيده[1]، ووجه تأكيدِهِ ما فيه مِنْ تكرارِ النِّسبةِ، فإنَّ فعل الإنباتِ مسنَدٌ إلى الاسم الأحسَنِ (اللّٰه)، ومسنَدٌ إلى الضَّميرِ المستترِ فيه، فكان ذلك تكرارًا للإسنادِ، وهو مِنْ مقوّيات الكلامِ ومؤكِّداتِه.

بلاغَةُ الاستِعارَةِ في لفظِ الإنباتِ:

النّـاس جميعًا نبتٌ لا حول لهم إلّا باللهِ تعالى الـذي أنبَتَـهُـم وأوْجَدَهُم

استعار النَّظمُ الجليلُ لفظَ الإنبات للإنشاءِ والإيجادِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾، وهي استعارةٌ تصريحيَّة تبَعيَّة، فشبَّه النّاسَ بالنَّبات، واستعار الإنباتَ للإنشاءِ، فاشتَقَّ مِنَ الفِعْلِ (أنبَتَ) مَعْنى أنشأ على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وفائدة هذه الاستعارةِ الدَّلالةُ على الحدوثِ، فإنَّهم إذا كانوا نباتًا؛ كانوا مُحْدَثين لا محالةَ حُدوثَ النَّباتِ[2].

دلالةُ التَّعبير بشبه الجملة: ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وتقديمها:

الأصـل التُّرابـي حجَّة قائمَةٌ في مَشْهَد الخلق

﴿مِّنَ﴾ حرفٌ دالٌّ على ابتداء الغاية المكانيَّة، و(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهدِ العلميِّ، وقد عبَّر النَّظم القرآنيُّ بشبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وقدَّمه على المصدر ﴿نَبَاتٗا﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾؛ للدَّلالة على أصل الخَلْقِ الأوَّل، وهو التُّراب، فهو تذكير للنّاس بما كان مِن خَلْقِ آدمَ عليه السلام، وذلك للدَّلالة على الحدوث والتَّكوُّنِ من الأرض، وبيانٌ بأنَّه جعل غذاءَنا من الأرض التي خُلِقْنا منها، وبذلك الغذاءِ نُمُوُّنا[3].

بلاغةُ الجِناس في ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ و﴿نَبَاتٗا﴾:

جنـاسٌ يكـشِفُ سرَّ البَدْءِ

جُمِعَ بين (أنبت) و﴿نَبَاتٗا﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 195.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 279، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 284، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 442، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 204.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 442، والخطيب، السراج المنير: 4/ 392.

﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ على طريقة الجِناس الاشتقاقيِّ، وفائدةُ ذلك التَّنبيهُ على أصل الخلق الأوَّل، وتأكيدُ دليلِ الحدوث، فهذا الجناسُ يُذكِّر السّامعَ بارْتِباط الإنسان بالأرضِ، وأصلهِ الذي نشأ مِنهُ، ويؤكِّد قدرةَ اللّه ﷻ على الخَلْقِ من الشَّيء المهين مخلوقًا عاقلًا خصيمًا.

دلالَةُ التَّعبير بالمفعولِ المُطْلَقِ ﴿نَبَاتٗا﴾:

إنكارُ البَعْثِ وحتميَّةِ الرُّجوع، كأنَّه إنكارٌ لابتداءِ الخَلْقِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بالمفعول المطلق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾؛ للدَّلالة على التَّأكيد، وذلك لأنَّهم منكرونَ للبَعْث، وإنكارُ البعث كأنَّه إنكارٌ لابتداءِ الخَلْقِ[1]، فجاء التَّعبير بالمفعول المطلق؛ ليؤكِّد الحدوثَ الذي يدلُّ على حتميَّة الرُّجوعِ، كما أنَّ التَّأكيدَ يدُلُّ على تقوية مضمون الخبر، فأكَّد كونَهُم خُلِقوا من الأرض؛ لبيان كونهم مخلوقينَ، وأنَّ خالِقَهُم اللّهَ تعالى قد منَّ عليهم بِلُطْفِه ورَحْمَتِه.

نُكْتَةُ التَّعبير بالنَّبات دون الإنباتِ:

الخَلْقُ إنباتٌ والإنسانُ نباتٌ على وجْهِ التَّحقيق واليقين

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالنَّبات، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ دون الإنباتِ، فلم يَرِد في البيان القرآنيِّ: (أنبتكم إنباتًا)، مع كونِ (الإنباتِ) أوفقَ للفعل (أنبت)، إلّا أنَّهُ أوثَرَ تأكيدُ الفعلِ باسْمِ المَصْدَرِ، مجرَّدًا من زيادةِ الهمزة؛ للإشارةِ إلى هوان ابتداءِ خَلْقِهم عليه ﷻ وسُهولته[2]، فضلًا عمّا فيه مِن عدولٍ مِنَ الثِّقل إلى الخفَّة توخّيًا لكمال الفصاحَة[3]، ثُمَّ إنَّ فيه لطيفةً دقيقة، وهي أنَّه "لو قال: (أنبتكم إنباتًا)؛ كان المعنى: أنبتكم إنباتًا عجيبًا غريبًا، ولمّا قال: أنبتكم نباتًا؛ كان المعنى أنبَتَكُم، فنبتُّم نباتًا عجيبًا، وهذا الثّاني أولى؛ لأنَّ الإنباتَ صفَةُ اللّه تعالى، وصفة اللّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 444.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 444.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 204.

تعالى غير محسوسة لنا، فلا يعرف: أنَّ ذلك الإنباتَ إنباتٌ عجيب كاملٌ إلّا بواسطة إخبارِ اللّه تعالى، وهذا المقامُ مقامُ الاستدلالِ على كمال قدرة اللّه تعالى، فكان موافقًا لهذا المقام، فظهَرَ بهذا: أنَّ العدولَ عن تلك الحقيقةِ إلى هذا المجازِ؛ كان لهذا السِّرِّ اللَّطيف"[1].

احتباكٌ بديعٌ

كما أنَّ التَّعبير بالنَّباتِ دون الإنباتِ يجعل الجملة، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾، مِن قبيلِ الإيجازِ، والمعنى: اللّه أنبتكم إنباتًا، فنبتُّم نباتًا، وهذا الإيجازُ احتباكٌ، وهو المُسمّى: الحذفَ المقابَليَّ أو حذفَ التَّقابُلِ، ووجهُ ذلك: أنَّ ذِكرَ (أنبت) أوَّلًا دالٌّ على حَذْفِ مصدرهِ ثانيًا، وذِكْرَ (النَّبات) ثانيًا دالٌّ على حذفِ فِعْلِه أوَّلًا[2].

وَجْهُ العطفِ بالحَرْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

انتقالٌ رُتبيٌّ مِن النَّشأة إلى المصيرِ

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بحَرْفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾، وهي هنا للتَّراخي الرُّتبيِّ، فإنَّه لمّا ذَكَرَ أصلَ الإنشاء من الأرض بالإنباتِ؛ أدْمَجَ بِهِ الإنذارَ بالبَعْثِ؛ لأنَّ البَعْثَ أهَمُّ رتبةً مِن الاستدلالِ عليهِم بأصْلِ الإنشاءِ[3].

دلالَةُ الفِعْلِ ﴿يُعِيدُكُمۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

العَوْدُ إلى الأصل وعدٌ إلهيٌّ؛ كما بدأ الخَلْقَ يُعيدُه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالفعل (يعيد)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم بعد حياتِهم في الأرض يموتون، ثمَّ يعودونَ إلى الأرض بالدَّفن فيها[4]، وقد جاء التَّعبير بالفعلِ المضارع لاستحضارِهِ في ذهن المخاطَبينَ، كأنَّه يقَعُ زَمَنَ الخطابِ؛ مبالغةً في تحقيقِه.

---

(1) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 192.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 444.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 205.
(4) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 415.

عودَةٌ إلى موطنِ البـدءِ؛ لتَبْدَأَ النِّهايةُ

فائِدَةُ التَّعبير بشِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿فِيهَا﴾:

عُبِّر بشبه الجملة ﴿فِيهَا﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم يَرْجِعون بعد الموتِ إلى الأرضِ الحاليَّة التي خُلقوا منها، وعاشوا فيها، فيتحوَّلون إلى تراب وعظام ورُفات[1]، وحرفُ الجرِّ (في) دالٌّ على الظَّرفيَّة، فأشار قولُه تعالى: ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ إلى الدَّفْنِ؛ لأنَّ العبادَ إنَّما يدخلونَ الأرضَ، وتُحيطُ بهم تُربَتُها من كلِّ جهةٍ كإحاطة الظَّرف بالمظروفِ؛ إذا ماتوا، ودُفِنوا.

نُكْتَةُ العدولِ عن الإتيان بمَصْدَر ﴿يُعِيدُكُمْ﴾:

الموتُ حقٌّ على كلِّ إنسانٍ؛ لا يُنْكِرُه مؤمنٌ ولا كافِرٌ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ لم يُؤْتَ بمصدرِ الفعل (يُعيدُكم)، وفاقَ ما مرَّ ذِكْرُه في قوله: ﴿نَبَاتًا﴾، وما سيأتي ذِكْرُه في ﴿إِخْرَاجًا﴾، مع أنَّ في الموت دليلًا على تمام العِلْم والقدرة، وذلك لأنَّ هذا الدَّليل ليس كدلالةِ الابتداء بالابتداع، وقد كان مسلَّمًا به ليس فيه نزاع، فذُكِرَ من غير تأكيدٍ لَهُ بالمصدَر[2].

سِرُّ العطفِ بالواو بعد العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

دَمْـجُ المراحلِ بِتَرابُطِ المعاني

آثر النَّظمُ الكريمُ عطفَ الإخراج على الإعادة بالواو بعد أن عَطَفَ بـ ﴿ثُمَّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، فلم يَرِدِ البيانُ القرآنيُّ: (ثُمّ يخرجكم)، بل استعملَ الواوَ الدّالَّةَ على الجمع؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ "الإخراج مع الإعادةِ في القبْرِ كشيءٍ واحد، لا يجوز أن يكون بعضُها محقَّقَ الوقوع دون بعضٍ، والمعنى: أي: ثُمَّ يُعيدُكم في الأرض، كما كنتُم ترابًا، ويخرِجُكم متى شاءَ أحياءً، كما كنتُم بشرًا"[3].

دلالَةُ التَّعبير بالإخراج:

البَـعْـثُ آتٍ لا مفرَّ مِنْهُ

جاءَ التَّعبيرُ بالإخراج في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 196.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 444.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 257، وينظر: ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 298.

للدَّلالة على البَعْثِ بعدَ الموت، أي: يُخْرِجُكم بِبَعْثِكُم مِنَ القبور[1]، فذُكِر البعثُ بعد الموتِ والإعادةِ إلى الأرض؛ لدَمْجِ الإنذار بالبعث مع الاستدلالِ على الألوهيَّة وكمالِ الرُّبوبيَّة[2].

دلالَةُ التَّعبير بالمفعولِ المطلق ﴿إِخۡرَاجٗا﴾ منكَّرًا:

الـــــرَّدُّ على المـشـركـين في إنكارِهِم البَعْثَ

عبَّر النَّظم الجليلُ بالمفعول المطلق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾؛ للدَّلالة على تأكيد الإخراجِ والبَعْثِ مِنَ القبور وشدَّة العنايةِ به، فهو إخراجٌ محقَّق واقعٌ لا محالة[3]، وفائدة التَّأكيد هنا تتأتّى من كونِ المُشْرِكين مُنْكِرين للبعث، فكان مقتضى الحالِ يوجِبُ تأكيدَهُ للرَّدِّ على إنكارِهم[4]، وعلَّة تنكيرِهِ بيانُ غرابةِ هذا الإخراج، أي: "ليس هو كما تَعْلَمونَ، بَل تكونون به في غاية ما يكون مِنَ الحياة الباقية، تلابس أرواحُكم بها أجسامَكُم ملابسةً لا انفكاكَ بعدَها لأحدِهما عنِ الآخَر"[5].

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾:

مـن عـظـيـمِ النِّـعـمِ وجليل الآلاءِ بَـسْـطُ الأرضِ للإنسانِ

عُطِفَ جَعْلُ الأرض بساطًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ على النِّعم السّابقة، فهو عطفُ النِّعم للاستدلال والامتنان[6]؛ وذلك ليسجِّل عليهم كثرةَ النِّعم، ويذكِّرَهُم بأنَّه جَعَلَ الأرضَ مُهَيَّأة مسخَّرةً كالبساط، فيسهلَ التَّقلُّب عليها واستخراجُ ما في بَطْنِها مِنَ المعادن المختَلِفَةِ وخيراتِها المُتَنَوِّعَة[7].

دلالَةُ إظهارِ الاسمِ الأحسَن (الله) وتقديمِه على المُسْنَدِ الفعليِّ:

تعظيمُ الخالِقِ مـبـالـغَـةٌ في الـوَعْـظِ وكمالِ التَّنبيهِ

أُظْهِرَ الاسمُ الأحسَنُ (اللّه)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 415.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 205.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 284، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 444.
(4) الخطيب، السراج المنير: 4/ 392.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 444.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 205.
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 258.

﴿لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا﴾ دون إضمارِه؛ ليكون الكلامُ مبنيًّا على تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ، وفي ذلك تعظيمٌ لَهُ وتيمُّنٌ بِهِ؛ لما في الاسم الأحسَن (الله) من جلالٍ وعظمةٍ[1]؛ إذ هوَ الاسمُ الجامع لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، كما أنَّ في إظهارِهِ تأكيدًا على عِظَمِ جَعْلِ الأرض بساطًا؛ بحيثُ يُعدُّ ذلك نعمَةً مستقلَّة بذاتها، جديرةً بالدَّلالة على وجوبِ الإيمان والإخلاص بالعبادةِ.

وفي إظهار الاسْمِ الأحسَنِ (الله) مرَّة بعدَ أخرى في هذا السِّياقِ تعظيمٌ للأدلَّة؛ لئلّا تُقيَّد القدرةُ بما يقتَرِنُ بهِ الاسمُ؛ دالًّا بالعالَم السُّفليِّ بعد الإرشاد بالعلويِّ، وأخَّر السُّفلي؛ لأنَّ آياته على ظهورها خَفيَت بكَثرَةِ الإلفِ لَها[2].

وفي تأخيرِ المسنَدِ الفعليِّ ﴿جَعَلَ﴾ تقويةٌ للجملةِ وتأكيدٌ لها؛ لما في بنائِها من تَكرار الإسنادِ، ووجهُ ذلك أنَّ فِعْلَ الجَعْلِ أُسنِدَ إلى الاسمِ الأحسنِ (اللهِ) الواقِعِ مبتدأً، ثُمَّ أُسنِدَ الفعلُ إلى ضميرِهِ المستترِ - الواقِعِ في محلِّ الفاعلِ - فكان في الجملةِ تكرارٌ للإسنادِ، وهو من مقوّيات الكلامِ ومؤكِّداتِهِ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ ﴿جَعَلَ﴾:

تصيير الأرض وتمهيدها نعمة بعد الخلق

عُبِّر بالفعْلِ ﴿جَعَلَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا﴾؛ للدَّلالة على الصَّيرورة، فهو مرحلَةٌ بعدَ مرحلةِ الخَلْقِ، أي: بعد أن خَلَقَها صيَّرها كذلك؛ لتكونَ مُناسِبَةً للحَياةِ[3].

فائدَةُ التَّعبيرِ بشِبْهِ الجملة ﴿لَكُمُ﴾ وتقديمِها:

هذه النِّعمةُ مَخصوصَةٌ لَكُم، فهَل تشكُرون؟

جاءَ التَّعبيرُ بشبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا﴾؛ لأنَّ نعمةَ بَسْطِ الأرض إنَّما هي للاهتمامِ بِشَأْنِ

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 197.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 444.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 194.

الإنسان[1]، فقُدِّم ذِكْرُهم؛ لبيان أنَّهم هُم المقصودونَ بهذا الجَعْلِ والبَسْط، والمعنى: جَعَلها على هيئَتِها هذهِ لأجْلِكُم، فهو استدلالٌ وامتنانٌ[2].

بلاغَةُ تَشْبيهِ الأرضِ بالبِساطِ:

بَسْطُ الأرض ومدُّها تمكينٌ للحركَةِ والتَّنقُّل فيها

شبَّه النَّظم الجليلُ الأرضَ بالبساط، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّها متَّسعةٌ كالبساط والفراش، وذلك لتَسْهيلِ تقلُّبِهم وحركَتِهم عليها، كما يُقلِّبون في بيوتِهم بُسُطَهم[3]، وهو تشبيهٌ بليغٌ؛ إذ قَدْ حُذِف وجهُ الشَّبَهِ والأداة، والمعنى: هي كالبساط في تعادُلِ الأجزاء، فلا يوجِعُ أرجلَ الماشين، ولا يَقُضُّ جُنوبَ المُضْطَجِعين[4].

مَعْنى اللّامِ في ﴿لِّتَسۡلُكُواْ﴾:

علَّة البَسْطِ بلوغُ الرِّزقِ والمنافِعِ

(اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على التَّعليل، فجُعِلَ السُّلوكُ فيها هو العلَّةَ التي من أجلها بُسِطَت الأرضُ، فالسَّير على وجهِ الأرضِ مِن أجَلِ النِّعم التي يَستَوي فيها النّاسُ كُلُّهم[5].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالسُّلوك مادَّةً وصيغَةً:

الـذَّهـابُ في الـطُّـرق والشِّعابِ نعمَةٌ بليغَةٌ للخَلْقِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالسُّلوك في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾؛ للدَّلالة على سَيْرِهِم في الطُّرُقِ ودُخولِهِم فيها وذهابِهِم في سُبُلِها السَّهلةِ الواضِحَة[6]، وجاء التَّعبير بالفعلِ المضارعِ للدَّلالة على تجدُّد السَّير ودوامه[7]، وللإشارة إلى أنَّ وجه الأرض سيَبْقى هكذا إلى أن يَشاءَ اللّهُ تعالى.

(1) الخطيب، السراج المنير: 4/ 393.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 205.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 258.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 205، وينظر: ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 415.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 205.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 198.
(7) الخطيب، السراج المنير: 4/ 393.

سرُّ الجَمْعِ بينَ ﴿سُبُلًا﴾ و﴿فِجَاجًا﴾:

نِـعَـمُ الـلـهِ تَـعـالى وفـيـرةٌ؛ كـثرةً وانتشارًا، وسَعَةً وسهولَةً

جَمَعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظ (السُّبل) ولفظ (الفِجاج)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذه الطُّرقَ واضحَةٌ مسلوكَةٌ مطروقة بكثرةٍ، كما دلَّ على ذلك لفظُ السُّبُلِ، وللدَّلالة على أنَّها متَّسعة كافية للسَّير عليها بلا ضيقٍ، كما دلَّ على ذلك لفظُ الفِجاج؛ إذ الفَجُّ: الطَّريق الواسع، وأكثر ما يُطلق على الطَّريق بين جبلين؛ لأنَّه يكون أوسعَ مِنَ الطَّريق المعتاد، وفائدةُ ذلك التَّنبيه على أنَّها نعمةٌ لبلوغ البلادِ الشّاسعة برًّا وبحرًا، فيعمُّ الانتفاعُ بجميعِ البِقاع[1].

دلالَةُ تنكيرِ المَوصوفِ وصِفَتِهِ:

تَـنَـوُّعُ الـطُّـرقِ الأرضـيَّـةِ واختلافُها

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الصِّفة وموصوفِها ﴿سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ مُنَكَّرَيْنِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾؛ للدَّلالة على كَثْرَتِها ووُضوحِها، وكثرة سلوكِها والإفادةِ مِنْها[2]، كما أنَّ في التَّنكيرِ مَعْنى التَّنويع، فهي سبلٌ متنوِّعةٌ مختلفةٌ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطِّباق والدَّرجات:

الدَّرجة منزلَةٌ ورُتْـبَـةٌ في الـصُّـعـود، والطَّبقة ما عَلا شيئًا مساويًا لما تَحْتَهُ

الدَّرَجة: واحدة الدَّرَجات، وهي الطَّبقات من المراتب[3]، وهي المنزلة، لكن يُقال للمنزلَة: درجَةٌ إذا اعتبرتَ بالصُّعودِ دونَ الامتدادِ على البَسيطَة، كدرجةِ السَّطح والسُّلَّم، ويُعبَّر بها عن المنزلةِ الرَّفيعة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: 228]؛ تنبيهًا على رِفْعَةِ منزلَةِ الرِّجال عليهنَّ في العَقْلِ والسِّياسَة، وقال تَعالى: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: 163]، أي: هُم ذَوو درجاتٍ عندَ اللهِ تَعالى[4]، أمّا الطِّباقُ؛ فأصلُه مِن (طبق)، وهو يدلُّ على وضْعِ شيءٍ مبسوطٍ عَلى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 445 - 446، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 205.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 445.
(3) الجوهري، الصحاح: (درج).
(4) الراغب، المفردات: (درج).

مثلِه حتّى يُغطّيَهُ[1]، وطَبَقُ كلِّ شَيءٍ: ما ساواهُ، والسَّماواتُ: الطِّباقُ، سُمّيَتْ بِذَلِكَ لِمُطابَقة بَعْضِها بَعْضًا، أي: إنَّ بَعْضَها فَوْقَ بَعْضٍ[2]، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾ [الملك: 3]، أي: بعضُها فوقَ بعضٍ[3]، فالدَّرجة تدلُّ على الارتقاء والعلوِّ والصُّعود، بخلافِ الطَّبقة، فهي ما وُضِعَ فوقَ شيءٍ مساويًا له، وقد جاء التَّعبيرُ بالطِّباق في آيةِ سورةِ نوحٍ ﵇؛ لكون السَّماواتِ ليست منازلَ للصُّعود والارتقاء، وإنَّما المراد: سبع سماوات طباقًا بعضُهنَّ فوقَ بعضٍ[4].

(السِّراج) و(المصباح):

المِصْباحُ مكانُ السِّراج، والسِّراجُ ما اتَّقد للإضاءَةِ

المصباحُ: مشتقٌّ من (صبح)، وأصله يدلُّ على لونٍ مِنَ الألوانِ، وهو الحُمْرَة، وسُمّي الصُّبح صُبحًا لحُمْرَتِه، كما سمّي المصباحُ مِصْباحًا لحُمْرَتِه[5]، والصَّباحُ: أوَّل النَّهار، وهو وقتُ ما احمرَّ الأُفُقُ بحاجِبِ الشَّمس، ويُقال للسِّراج: مِصْباحٌ، والمِصْباحُ: مقرُّ السِّراج[6]، أمّا السِّراج؛ فأصله من (سرج)، وهو يدلُّ على الحُسْنِ وَالزِّينَةِ وَالجَمالِ، ومنه: السِّراجُ، سُمِّيَ بذلك لِضيائِهِ وَحُسْنِهِ[7]، والسِّراجُ: الزّاهر بفَتيلةٍ ودُهْن، ويُعبَّر به عن كلِّ مضيءٍ، قال اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[8]، وأسرجتُ السِّراج: أوقدتُه[9]، فالمِصْباحُ: الأصل فيه الحمرةُ، وهو مقرُّ السِّراج، أمّا السِّراج؛ فهو المتَّقد للإضاءة، ولهذا لمّا أُريدَ مَعْنى الإضاءة لأهل الأرض في آية سورة نوحٍ ﵇؛ عُبِّر بالسِّراج؛ لأنَّه أنسَبُ لبَيانِ الضّياءِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طبق).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (طبق).
(3) الراغب، المفردات: (طبق).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 102.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبح).
(6) الراغب، المفردات: (صبح).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سرج).
(8) الراغب، المفردات: (سرج).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (سرج).

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح: 21 - 25]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

اللُّجوءُ إلى ربِّ العبادِ عِندَ الشَّدائِدِ والمُلِمّاتِ

بعدَ أن دعا نوحٌ عليه السلام قومَهُ باللّين والحكمة، وأقامَ عليهم الحُجَجَ والبراهين، وتفنَّن في أساليبِ الدَّعوة من ترغيبٍ وترهيبٍ، ولَم يَكُن منهُم إلّا الإصرارُ علَى الباطل، وتجاوزوا ذلك إلى معاملَتِه بأشنعِ الأقوالِ والأفعال، والنِّسبة إلى الضَّلال؛ لجأ نوحٌ عليه السلام إلى ربِّه يَشْكوهُم، ويَدْعو عليهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَسَارًا﴾: أصلُ (خسر) يدلُّ علَى النَّقْصِ، فالخَسارة والخَيْسَرى: الضَّلالُ والهلاكُ والنُّقصانُ، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته[2]، والإخْسارُ: جَعْلُ الآخر خاسِرًا، والخَسارُ: مِثْلُ الخَسارَةِ، وهو نُقْصانُ التِّجارَةِ[3]، فالخسار معناه هنا: النَّقص، واسْتُعير في الآية لخيبة العَمَلِ، ولحُصولِ الشَّرِّ من وسائلَ شأنُها أن تكونَ سبب خيرٍ كخسارةِ التّاجِرِ من حيثُ أراد الرِّبحَ[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 655، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 284، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 240.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.

2) ﴿مَكۡرٗا﴾: أصلُ (مكر) يدلُّ على الاحتيالِ والخِداع[1]، وقد مكَرَ به يمكُرُ، فهو ماكِرٌ ومكّارٌ، ومَكَر به: كادَه[2]، والمَكرُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الآخر بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمخادعةُ، ولكِنَّه نوعانِ: قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لمِن لا يستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له، فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثّاني ممدوحٌ[3]، والمَكْرُ في الآية معناه: إخفاءُ العَمَلِ، أوِ الرَّأيُ الَّذي يُرادُ به ضُرُّ الآخر، والمُرادُ: مَكروا بنوحٍ والَّذينَ آمنوا معه بإضمار الكيدِ لهُم حتَّى يقعوا في الضُّرِّ[4].

3) ﴿كُبَّارٗا﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خِلاف الصِّغر[5]، وكَبُرَ - بالضَّمِّ - يَكْبُرُ، أي: عَظُمَ، فهو كَبيرٌ وكُبارٌ، فإذا أفرط، قيل: كُبّارٌ، والكِبر: العظمةُ، وكذلك الكبرياء[6]، والكُبارُ أبلغُ من الكبيرِ، والكُبّارُ أبلغُ مِن ذلك، فـ﴿كُبَّارٗا﴾ هنا مُبالغَةٌ، أي: كبيرًا جِدًّا، وهو واردٌ بهذه الصّيغة في ألفاظٍ قليلةٍ مِثلَ طوّالٍ، أي: طويلٌ جِدًّا، وعُجّابٍ، أي: عَجيبٌ، وحُسّانٍ، وجُمّالٍ، أي جَميلٌ، وقُرّاءٍ لكثيرِ القِراءة، ووُضّاءٍ، أي: وضيءٌ، قال عيسى بنُ عُمَرٍ: هي لُغَةٌ يمانيَّةٌ[7].

كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾[8]، أي: كبيرًا عظيمًا على وجهِ المُبالغَةِ[9].

4) ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: أصل (وذر) يدلُّ على قَذْفِ الشَّيءِ وإلقائه لِقلَّة الاعتداد به، والوَذْرَةُ: قطعةٌ من اللَّحم، وتَسميتها بذلك لقلَّة الاعتداد بها[10]، والعرب قد أماتت مصدرَهُ والفعلَ الماضيَ واسمَ الفاعِلِ مِنْهُ، فلا يُقالُ: وذَرَهُ، ولا واذِرٌ، ولكن يقولون: تركهُ، وهو تارِكٌ، واستعملوهُ في المضارع والأمر، فإذا أرادوا المصدر؛ قالوا: ذَرْهُ تركًا، ويُقالُ: هو يذَرُهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(2) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مكر).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (مكر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(6) الجوهري، الصحاح: (كبر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(8) الراغب، المفردات: (كبر).
(9) الواحدي، البسيط: 22/ 263، والخازن، لباب التأويل: 4/ 346.
(10) الراغب، المفردات: (وذر).

تركًا[1]، وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: 44]، أي: كِلْه إليَّ، ولا تَشغَلْ قَلْبَكَ بِهِ، فإني أُجازيه[2]، والمقصود بـ (لا تَذَرُنَّ) في الآية: نهيٌ مِن فِعل مُماتٍ، وهو (وَذَرَ)، استغنوا عنه بمرادفه وهو (تَرَكَ).

5) ﴿وَدًّا﴾، و﴿سُوَاعًا﴾، و﴿يَغُوثَ﴾، و﴿وَيَعُوقَ﴾، و﴿وَنَسْرًا﴾: هذه أسماءُ آلهتِهم وأصنامِهم، وهي أسماءُ رجالٍ صالحين كانوا بينَ آدمَ ونوحٍ عليهما السلام، فلمّا ماتوا؛ جَعلوا لهم صورًا؛ ليقتدوا بهم في العبادة، ثُمَّ نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليسُ: إنَّ الذين مَن قبلَكُم كانوا يعبدونَهُم، فبدأت عبادةُ الأصنام، ثُمَّ انتقلت هذه الأوثانُ إلى العرَبِ، فودٌّ كانت لكَلْبٍ بدومَةِ الجَنْدَل، وسواع لهُذَيْلٍ، ويغوثُ لمُرادٍ ثُمَّ لبني غطيفٍ بالجُرُف، ويعوقُ لِهَمْدانَ، ونَسْرٌ لحِمْيَرٍ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشَّكوى والدعاءُ نصرةٌ للحقِّ بعدَ استِنفادِ السُّبل

يخبر اللّهُ تَعالى عن شكوى نوحٍ عليه السلام لربِّه المُحْسِن إليهِ إصرارَ قومِه على العصيان والتَّكذيب، وأنَّ الضُّعفاء منهم اتَّبعوا رُؤساءَهُم الضّالّين، الذين لم تَزِدْهم أموالُهم وأولادُهم إلّا ضلالًا في الدُّنيا وعقابًا في الآخرة، ثُمَّ يُخْبِرُ عن مَكْرِ كُبَرائهم بما دبَّروا لقومِهم مِن مكائدَ عظيمةٍ لإضلالهم، فأمروهُم بالتَّمسُّك بعبادةِ آلهتهم: ودٍّ، وسواعٍ، ويغوثَ، ويعوقَ، ونَسْرٍ، وتَرْكِ ما يدعو إليه نوحٌ عليه السلام من عبادة اللّهِ تَعالى وحدَهُ، ثُمَّ يختَتِمُ بدُعاءِ نوحٍ عليه السلام على الظّالمين، طالبًا من ربِّه سُبحانَهُ أن يزيدَهُم بُعْدًا عن الحقِّ، ويُبيِّن أنَّ إصرارَهُم على الكفر والطُّغيان أدّى إلى إغراقِهم بالطّوفان وإدخالهم نارًا عظيمَةً، فلَم يَجِدوا لأنفُسِهِم ناصرًا أو دافعًا لعذابِ اللّهِ تَعالى[4].

(1) الخليل، العين: (وذر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 346.
(4) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 571.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تكرار فعل القولِ مع أسلوبِ النِّداءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

استئنافُ الشَّكوى بعد طولِ البيانِ

أعاد النَّظم الجليلُ ذِكْرَ فعل القولِ مع النِّداءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ، في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحُ رَّبِّ﴾، بعد أن وردَ ذلكَ في أوَّل السّورة: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾؛ وذلك لطول الفاصل والعَهْدِ بعدَ حكاية مناجاته لربِّه، فجملَةُ ﴿قَالَ نُوحُ رَّبِّ﴾ بدلُ اشتمالٍ من تلكَ الجملة[1]، فإنَّ حكاية عصيانِ قومِه هي ممّا اشتملَ عليه الإخبارُ عن دعوتِه لَهُم، فالمَقالَتان في وقتٍ واحد[2]، ولم تُصَدَّر بالواو؛ لكمال الاتِّصالِ بينَ الجملتين.

ويجوزُ أن يكون فصلُ الجملة عمّا قبلَها؛ لكونِها مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا، واردةً لبيان الكلام الأوَّل[3]، فإنَّ نوحًا عليه السلام لمّا ساقَ لهم الأدلَّةَ على الألوهيَّةِ، وعدَّد لهم نِعَمَ اللّه تعالى عليهم؛ أورثَ ذلك سؤالًا في نفسِ المتلقّي: هل استجابوا، وانقادوا للشَّرع؟ فجاء الجوابُ بنَفْيِ ذلك؛ بدليل دعاءِ نوحٍ عليه السلام علَيهِم.

نكتَةُ إظْهارِ اسمِ نوحٍ عليه السلام بدلَ إضْماره:

إظهارُ الاسمِ تعظيمٌ لمقامِ الشَّكوى وبيانُ شدَّةِ التَّحسُّر

أُظْهِرَ اسمُ نوحٍ عليه السلام، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ نُوحُ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ دون الاكتفاءِ بالضَّمير؛ وذلك لبُعْدِ معاد الضَّمير لَو تحمَّله الفعلُ[4]، فكان في الإظهارِ مزيدُ بيانٍ، كما أنَّ التَّصريحَ بالاسْمِ تنويهٌ بأهمّيَّة مقولِ القول، فهو شكوى بليغَةٌ مِن نوحٍ عليه السلام؛ لِما لاقى مِن قَوْمِه، فأعلن شَكْواهُ بعدَ رِفْقِه بهم على طولِ عَهْدِه بهِم، ولينِهِ لَهُم بالقَوْلِ والخِطابِ[5].

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 258.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 199.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.

سِرُّ التَّعبيرِ بالنِّداءِ وحَذْفِ أداتِه:

استحضارُ القُرْبِ وعلوِّ المقامِ من فُيوضاتِ الكِرامِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بأسلوب النِّداء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ نُوحُ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾؛ لإظهار التَّوجُّع والشَّكوى مِن قومِه[1]، والنِّداء يشيرُ إلى أهمّيَّة مضمون الخِطاب، وحُذِفَ حرفُ النِّداء؛ إذ لم يرِد البيانُ القرآنيُّ: (قال نوحٌ يا ربِّ)؛ لعِلْمِ نوحٍ عليه السلام مِن قُرْبِ اللّه تعالى مِنْهُ[2].

دلالَةُ تأكيدِ الجُمْلَةِ بـ (إنَّ):

العصيانُ بعدَ طولِ البيانِ إنكارٌ للإحسانِ

أُكِّد الخبرُ بحرفِ التَّأكيد (إنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾؛ لأنَّ تكذيبَهُم إيّاه بَعْدَ ما بيَّن لَهُم من الأدلَّة ممّا يَبْعُدُ وقوعُه، وأنَّه ممّا يُستَغرَب[3]، كما أنَّ فيه اهتمامًا بمضمونِ الخبَر، وتأكيدَ ما دلَّ عليه مِن التَّحسُّر والاستِنصارِ[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعصيانِ مادَّةً وصيغةً:

الـدّائـبُ على المعاصي حقيقٌ به الكُفْرُ

عُبِّر بالعِصيانِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ نُوحُ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم خالفوا ما أمرهُم به، وأنَّهم لم يَستَجيبوا له، وجاء التَّعبير بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق مَعْصيَتِهم[5]، فكانوا جديرينَ بدعاءِ نوحٍ عليه السلام عليهم.

دلالَةُ إسنادِ فِعْلِ ﴿عَصَوۡنِي﴾ إلى ضميرِ الفاعِلين:

أُسْنِد فعلُ المعصيةِ إلى واوِ الجماعةِ، في قوله تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم عَصَوْهُ جماعةً لا فرادى، وأنَّهم تمالؤوا على العِصْيان، واجتمعتْ كَلِمَتُهم على ذلكَ.

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾:

أشدُّ الخسرانِ تـركُ الإيـمـانِ واتِّـبـاعُ أهـلِ الزَّيَغانِ

عطف النَّظمُ الجليلُ اتِّباعَ الباطلِ على المعصيةِ، في قوله جلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 183.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 359.

شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهُم بدَلَ متابعَة الحقِّ معَهُ؛ اتَّبعوا سبيلَ الدُّنيا بأن اتَّبعوا أكابِرَهُم مِن أهل الثَّراء والضَّلال[1]، فالعطفُ يُبيِّن شدَّةَ ضَلالِهم؛ إذْ تركوا ما فيه سعادَتُهم، واتَّبعوا ما فيه الضَّلالُ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاتِّباع مادَّةً وصيغَةً:

الحِرْص على الكُفْر وتقفّي المعاصي منهاجٌ للكفّار

جاءَ التَّعبيرُ بفعلِ الاتِّباعِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم اقتفَوا أثرَ أسيادِهِم[2]، وجيءَ به على صيغة الافتعالِ ماضيًا؛ للدَّلالة على أنَّهم فعلوا ذلك، وحقَّقوه بغايَةِ الجُهْدِ والسَّعي[3]، وفيه إشارةٌ إلى استمرارهم على اتِّباع أسيادِهم لا أنَّهم أحْدَثوه؛ إذْ إنَّهم كانوا متابعين لهُم قبلَ الدَّعْوَة[4].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموْصول ﴿مَن﴾:

اتِّباعُ المُنَعَّمين الضَّالّين أولى عتباتِ الضَّلالِ

عُبِّرَ بالاسْم الموصول ﴿مَن﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾، دون التَّعبير عنهم بالاسْم الصّريح، فلم يَرِد في البيان القرآنيِّ: (واتَّبعوا كُبراءَهُم أو سادَتَهُم)؛ وذلك لِما تُشير إليه صِلَةُ الموصولِ من كَوْنِهم بَطَروا نعمةَ اللّهِ تَعالى عليهم بالأموالِ والأولاد، فقَلَبوها إلى ما يوجِبُ الخُسْرانَ والضَّلالَ بدلًا من الشُّكر والإيمانِ[5].

توجيهُ القِراءات في (ولده):

مَهما زادَ الكافرون في العدَدِ؛ فإنَّ جَمْعَهُم بدَدٌ

قرأ نافِعٌ وابنُ عامِرٍ وعاصِمٌ وأبو جعفرٍ ﴿وَوَلَدُهُۥٓ﴾ بفتح الواوِ وفَتْحِ اللّام، وقرأ باقي العشرةِ ﴿وَوُلۡدُهُۥٓ﴾ بضَمِّ الواو وسكونِ اللّام[6]، فالوَلَدُ اسمٌ للواحد من الأولادِ، ويُطلَقُ على الجَمع أيضًا، فيكون اسْمَ

(1) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 339.
(2) الراغب، المفردات: (تبع).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 359.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(6) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 391.

جنسٍ، وأمّا (الوُلْد)؛ فالراجح فيه أنَّه جَمْعٌ، مثل كالأسَد والأُسْد[1]، وفي جمع الكثرةِ المبنيِّ على الضَّمِّ التي هي أشدُّ الحركات إشارةٌ إلى أنَّهم وإن زادَت كثرَتُهم، وعَظُمَت قوَّتُهم في الظّاهر؛ لا يَزيدُهُم ذلكَ شيئًا إلّا الخَسارَ[2].

وَجْهُ زيادَةِ المالِ والوَلَدِ للخُسْرانِ:

وفـرةُ الـخَـيْرِ أعـقَـبَـتْـهُـم الـطُّـغـيـانَ لا الشُّكْرانَ

نسب النَّظم الجليلُ زيادةَ الخُسْران إلى الأموالِ والأولادِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ وذلك لأنَّ البَسْطَ لَهُم في النِّعمة أعْقَبَهُم الطُّغيانَ والبَطَر، فاتَّبَعوا أهواءَهُم، وكَفَروا، وضَلّوا[3]، فضلًا عَن أنَّهم لمّا استَعْمَلوها في تأييدِ الكُفْر والضَّلال كانت سببًا في خُسْرانِهِم، ولو لم تَكُن لَهُم أموالٌ ولا أولادٌ؛ لكانوا أقلَّ جُرأة على الكُفْرِ والفَسادِ[4].

سِرُّ الجَمْعِ بينَ المالِ والوَلَدِ على هذا التَّرتيب:

المـــالُ أســـاسُ الـوفـرةِ وزيــادَةِ النَّسْلِ

جُمِعَ بين الأموال والأولاد في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ لبيان أنَّهم أصحابُ أموالٍ وأولادٍ، ممّا يشير إلى سببِ نَفاذِ قَوْلِهم واتِّباعِ النّاسِ لَهُم، فالجَمْعُ إدماجٌ بَيِّنَ أسبابَ طُغْيانِهِم[5]، كما أنَّ ذِكْرَ الأولادِ بعد الأموالِ علامَةٌ على وفرَةِ الخَيْرِ والبركَةِ، فقد ثبَت في عِلْم الاجتماع أنَّ النَّسْلَ لا يكثُر إلّا إذا توفَّر الأمنُ والعدلُ، وتوسَّعَ الرِّزْقُ[6].

دلالةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

لَـم يَـجْـنِ أهلُ الـكُـفْـرِ مِـنْ نِـعَـمِـهِـم إلّا الخسرانَ

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بأسلوب الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أموالَهُم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 447.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 447.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 253.

وأولادَهُم لَم تَزِدْهُم شيئًا مِن الأشياءِ إلّا خسارًا؛ ببُعْدِهِم مِنَ اللّه تعالى في الدُّنيا والآخرة[1]، فلم ينتفعوا من نِعْمَةِ اللّه تعالى بأن يَستعمِلوها في مَرْضاتِه ومعرفةِ آلائِه.

وفي جملةِ: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ قصرٌ بطريقِ النَّفيِ والاستثناءِ، وهو مِنْ قصر الموصوفِ على الصِّفةِ قصرًا إضافيًّا.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالخُسْرانِ، ونُكْتَةُ تَنْكيرِه:

عِظَمُ خُسرانِ الكافرينَ لا يُقاس بالمَوازين

عُبِّر بلفظ الخُسْرانِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾؛ لدلالته على نَقْصِ رأسِ المال، ولفظُ الخُسْرانِ يُستعمَلُ في المجازِ غالبًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: 9]، ففي قوله: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ شُبِّهوا بمن جَعَل نفسَهُ سلعَةً تُباعُ، فَخَسِرَها، ولا خسرانَ أكثَر ممَّن عُدِمَ جميعَ رأسِ ماله[2]، فهو هنا دالٌّ على أنَّهم خَسِروا كلَّ شيءٍ، وهذا أشدُّ ما يَفْقِدُه الإنسانُ، وجيءَ بلفظِ الخسارِ مُنَكَّرًا؛ للدَّلالة على عِظَمِ هذا الخُسْرانِ.

بلاغَةُ الاستِعارَةِ في لَفظِ الخُسْرانِ:

مَن عَمِلَ سيِّئةً؛ فعليهِ وِزرُها ووِزْرُ مَن تَبِعَهُ عليها

الخَسارُ في قوله تعالى: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾: "مستعارٌ لحصول الشَّرِّ من وسائلَ شأنُها أن تكونَ سببَ خيرٍ، كخسارةِ التّاجر من حيثُ أراد الرِّبح، فإذا كان هؤلاءِ خاسِرين؛ فالذين يَتْبَعونَهُم يكونونَ مثلَهُم في الخسارةِ، وهُم يَحْسَبون أنَّهم أرشدوهُم إلى النَّجاح"[3].

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾:

عطف النَّظم الجليلُ الجملةَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا

---

(1) الخطيب، السراج المنير: 4/ 393.

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (خسر).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 207.

مِن وجوهِ الإصرارِ على الكُفْرِ المكرُ والصَّدُّ عن التَّوحيدِ بالأباطيلِ

﴿كُبَّارًا﴾ على الجملة في قولِه جلَّ شأنه: ﴿لَّمۡ يَزِدۡهُ﴾[1]؛ وذلك لأنَّ الكُبَراء هُم الذين مكروا، وقالوا لأتباعِهم: لا تَذَرُنَّ آلِهَتَنا[2]، وفي العطف دليلٌ على شدَّة إصرارِهم على الكُفْر، وتَماديهم في الجُحودِ والإنكار، بالتَّحايُلِ في الصَّدِّ عن سبيل اللّهِ تعالى.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمكْرِ:

الاحتيالُ الخفيُّ خديعَةٌ لصَدِّ النَّاس عن الإيمانِ

عُبِّر بالمَكْرِ في قوله تَعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾؛ لدلالَتِه على صَرْفِ المَرْءِ عمّا يَقْصِدُه بحيلَةٍ[3]، فلمّا احتالوا لصَرْفِ النّاسِ عَن نوحٍ وتَحْريشِهم على أذاهُ وصَدِّهم عن المَيْلِ إليه؛ سَمّى ذلك مكرًا[4]، وقد أحسن الفخرُ الرّازيُّ؛ إذْ قال: "إنَّما سمّاهُ مكرًا لوجهين: **الأوَّل**: لِما في إضافَةِ الإلهيَّة إليهِم مِنَ الحيلَةِ الموجِبَةِ لاستِمرارِهم على عبادتها، كأنَّهم قالوا: هذه الأصنامُ آلهَةٌ لكُم، وكانت آلهةً لآبائكم، فلو قَبِلْتُم قولَ نوحٍ؛ لاعترفْتُم على أنفُسِكُم بأنَّكم كنتُم جاهِلين ضالّين كافرين، وعلى آبائكُم بأنَّهم كانوا كذلكَ، ولَمّا كان اعترافُ الإنسانِ على نفسِه وعلى جميع أسلافِه بالقُصورِ والنَّقصِ والجَهْلِ شاقًّا شديدًا؛ صارتِ الإشارةُ إلى هذه المعاني بلفظ ﴿ءَالِهَتَكُمۡ﴾ صارفًا لهم عن الدّين، فلأجل اشتمالِ هذا الكلام على هذه الحيلةِ الخفيَّة؛ سمّى اللّهُ كلامَهُم مكرًا.

الثّاني: أنَّه تعالى حكى عن أولئكَ المَتْبوعينَ أنَّهم كان لهم مالٌ وولَدٌ، فلعلَّهُم قالوا لأتباعِهِم: إنَّ آلِهَتَكُم خيرٌ مِن إلَهِ نوحٍ؛ لأنَّ آلهتَكُم يُعْطونَكُم المالَ والولد، وإله نوحٍ لا يعطيهِ شيئًا؛ لأنَّه فقير، فبهذا المَكْرِ صَرَفوهُم عن طاعةِ نوحٍ"[5].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 285.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.
(3) الراغب، المفردات: (مكر).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 545.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ المُطْلَقِ:

شِدَّةُ الاحتيالِ دليلُ الانغماسِ في الضَّلالِ

عبَّر النَّظم الجليلُ بالمفعولِ المطلق، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ لتأكيدِ مَكرِهم، وللدَّلالة على قوَّتِه، فهو مَكرٌ بليغٌ شديدٌ[1].

دلالَةُ جِناسِ الاشتِقاقِ في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾:

المَكْرُ العظيمُ تعبيرٌ عن عُمقِ الشَّرِّ في أنفُسِهم

جُمِعَ بينَ لَفظَينِ من مادَّةِ المَكْرِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ على طريقة جناسِ الاشتقاقِ، وفائدة ذلك الدَّلالةُ علَى تمكُّنِ المَكْرِ مِن نُفوسِهم، وأنَّه مَكرٌ بالِغُ العِظَمِ، فكرَّر ألفاظَهُ إيحاءً بشُموليَّتِهِ وشِدَّتِه.

دلالَةُ التَّعبيرِ بلَفْظِ الكِبَرِ مادَّةً وصيغةً:

الصَّدُّ عن التَّوحيدِ أعظَمُ مَكرٍ وأكبَرُ جُرْمٍ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿كُبَّارٗا﴾، في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾؛ لدلالَتِهِ على العِظمِ، فهو كَبيرٌ وكُبارٌ، فإذا أفرط؛ قيل: كُبّارٌ[2]، فعبَّر بذلك للدَّلالة على عِظَمِ المَكْرِ وهَوْلِه، وهو صيغةُ مُبالَغةٍ مِنَ الكبيرِ[3]، وإنَّما كانَ مَكرُهُم شديدَ الكِبَرِ؛ لأنَّهم لمّا صدّوا قومَهُم عن التَّوحيدِ الذي هو أعظَمُ المراتِبِ؛ كان جُرْمُهُم بالمَنْعِ منهُ أعظَمَ الكبائِرِ، فلهذا وصفَهُ اللّهُ تعالى بأنَّه كُبّار[4].

وجهُ العَطْفِ بالواوِ في ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ﴾:

شِدَّةُ انحرافِ المَتبوعينَ؛ أوْرَثَ شِدَّةَ انحرافِ الأتباعِ

عُطِفَتِ الجملةُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾، على قوله تعالى: ﴿مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾[5]؛ وذلك لأنَّ الكُبَراءَ هُم الذين مكروا، وقالوا لأتباعِهم: لا تذَرُنَّ آلهتَنا[6]، فوصّوا أتباعَهُم بذَلِكَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 448.
(2) الجوهري، الصحاح: (كبر).
(3) الواحدي، البسيط: 22/ 263.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.
(5) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 196.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 656.

دِلالَةُ التَّعبيرِ بأُسْلوبِ النَّهْيِ المُؤَكَّدِ:

إيغالٌ في الحِرْصِ على الباطِلِ

عُبِّر بأسلوب النَّهي المؤكَّدِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ وذلك لحثِّ أتْباعِهم على التَّناهي عن تَرْكِ عبادَةِ الآلهة في حالٍ من الأحوال[1]، وذلك يبيِّن شدَّةَ تمسُّكِهم بشِرْكهم وحِرْصِهم على الباطلِ والضَّلالِ.

دلالَةُ استِعمالِ الفِعلِ ﴿تَذَرُنَّ﴾:

دعوةٌ للتَّشَبُّثِ بالضَّلالِ الموروثِ عَنِ الآباءِ

عُبِّر بالفعل ﴿تَذَرُنَّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ لدلالَتِه على التَّرك، أي: لا تتركوا عبادةَ آلهتكم[2]. ودلالته أيضًا على عدَمِ الاعتداد بالشَّيء، كقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف: 186]، أي: يتْرُكُهم، فلا اعتدادَ بِهِم ولا مبالاة، وهذا الفعلُ لَم يُستَعمَل منه ماضٍ ولا مصدرٌ[3].

سِرُّ جَمْعِ الآلِهَةِ وإضافَتِها إلى الضَّميرِ:

الشِّرْكُ معهودٌ والأصنامُ موروثَةٌ

جُمِعَ لفظُ الآلهةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على تمسُّكهم بالشِّرك، وانتفاء التَّفريط في واحدٍ من آلهتهم، وفي الإضافَةِ إلى الضَّميرِ تذكيرٌ لَهُم بأنَّها آلهَتُهُم وآلهَةُ آبائهم التي يَفْتَخِرونَ بها[4].

توجيهُ العَطْفِ بالواوِ في قوله: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾:

الأصنامُ المذكورة أعظمُ ما لدى القومِ من آلِهَةٍ

يجوز أن يكون ذِكْرُ الأصنام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، من عطفِ الخاصِّ على العامِّ للعناية بها؛ لكونِ قوم نوحٍ عليه السلام لهم أصنامٌ كثيرة، جمَعَها قولُ كبرائِهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ثُمَّ خصّوا بالذِّكر أعظمَها، وهي هذه الخَمْسَةُ، ويجوز أن يكون ذِكْرُها من التَّفصيل بعد الإجمالِ للعناية بها، ويكون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 360.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (وذر).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449.

العطفُ مِن قبيل عطفِ المُرادِف، بألّا يكونَ لَهُم غيرُ تلك الأصنام الخمسةِ، وقد ذُكِرتْ مفصَّلةً[1].

دلالَةُ تَكْرار جملة النَّهي:

حثٌّ بلا توانٍ على التَّمسُّك بالباطِلِ

كرَّر النَّظم الجليلُ جملةَ النَّهي (لا تذرنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ وذلك لتأكيدِ النَّهي، فهو تأكيدٌ لفظيٌّ بتكرار اللَّفظِ نفسِهِ[2]، فأكَّدوا نهيَهُم بتكرارِهِ؛ ليزيدوا في حثِّ قومِهم على لزومِ شِرْكِهِم.

دلالَةُ التَّوكيدِ بنونِ التَّوكيدِ:

أُكِّدَ الفعلُ بنون التَّوكيد، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة الحِرْصِ، والحثِّ على التَّمسُّك بالآلهةِ وعدَمِ تَرْكِها[3].

دلالَةُ تَخْصيصِ الأصنام بالذِّكْرِ:

التَّذكير بالمعهودِ مِن الأصنامِ حثٌّ على الولاءِ

خُصَّ الأصنامُ المذكورَةُ دون سِواها بالذِّكر، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، بعد أن ذُكِرَتِ الآلهةُ على العموم في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾؛ وذلك للتَّنْويه بها؛ لأنَّها أكبَرُ أصنامِهِم وأعْظَمُها عندَهُم[4]، فضلًا عن أنَّ في تخصيصِها زيادةً في الحثِّ على التَّمسُّك بها، وتصريحًا بالمقصودِ مِن ذِكْرِ الآلهَةِ[5].

دلالَةُ تَكْرارِ حَرْفِ النَّفي مع بعضِ الأصنام دونَ بعضٍ:

الحِرْصُ على عدَمِ التَّفريط بصنَمٍ مِنَ الأصنامِ

كرَّر النَّظمُ الجليلُ حرفَ النَّفي مع بعض أسماء الآلهةِ دون بعضِها، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ لأنَّ فائدة التَّكرار تأكيدُ النَّفيِ والمبالغةُ فيه، وأنَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 209.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 209.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 201.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 545.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449.

النَّفْيَ يشمَلُ كلَّ واحد منهُم فردًا فَرْدًا لا عن المَجْموع، ولَم يُكَرَّر النَّفي مع آخِر اسمَين؛ لأنَّ التَّأكيد بلَغَ غايَتَه، فلَم يُحْوِج إلى تكرارِه[1]، فإنَّ بناءَ الكلام جارٍ على أنَّ التَّأكيد لا يُزاد فيه أكثر من ثلاث مرّاتٍ في التَّكرار[2].

دِلالَةُ عَطْفِ الجُمْلَةِ الخبريَّةِ على الإنشائيَّةِ:

الإصْرارُ على التَّمادي في الضَّلالِ والدَّعوةِ إلى الباطِل

عُطِفَتِ الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾؛ لكونها من مقول القولِ الذي قاله نوحٌ عليه السلام، فَعُطِفَت جملةٌ خبريَّة على إنشائيَّة؛ إذْ لا يُشترَط التَّناسب في عطف الجملِ، فيجوز أن تُعْطَفَ جملة الإنشاء على جملة الخبر، والعكس[3]، ويجوز أن تكون معطوفةً على قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾؛ إذ لمّا ذَكَرَ مَكْرَهُم، وحثَّهم على عدَمِ تَرْكِ الآلهة؛ عطف عليه ما يُتَوَقَّع من أمر ذلك المَكْرِ والحَثِّ[4].

بلاغَةُ التَّوكيد بالحَرْفِ (قد):

الإضلالُ واقِعٌ، ومنهَجٌ سارَ عليه كُبراءُ الكفّار

عبَّر النَّظم الكريمُ بحرفِ التَّحقيق (قد)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾؛ وذلك للدَّلالة على التَّأكيد[5]، فإنَّ إضلالَهُم النّاسَ لَم يكُن مجرَّد دعوةٍ، بل قد وقَعَ، وتحقَّق في الواقع، فضلَّ النّاسُ عَنِ الحقِّ والهدى، فهو تمهيدٌ لِما يأتي من الدُّعاءِ عَلَيْهم.

دِلالَةُ التَّعبير بالضَّلال مادَّةً وصيغَةً:

ضلّوا عن الهُدى، وأضلّوا، وتمادوا في الغيِّ

جاءَ التَّعبيرُ بالضَّلال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قد صدّوا النّاسَ عن الحقِّ، وعن اتِّباع نوح عليه السلام[6]، والفعل (أضلَّ) متعدٍّ دالٌّ على أنَّهم قد ضلّوا أوَّلًا، ثُمَّ إنَّهم كانوا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 449، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 261.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 209 - 210.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 287.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 451.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 202.
(6) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 202.

سببًا في ضلال كثيرٍ من النّاس بصدِّهم وبكونهِم قادةَ القوم، فضَلَّ كثيرٌ مِن النّاس بسببهم[1]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تَحقُّق ذلكَ مِنْهُم.

دلالَةُ التَّعْبير بلَفْظِ الكَثْرَة:

مِنْ سَنَّ سنَّة سيّئةً؛ فعليهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها

عبَّر النَّظم الجليل بالكثرة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قد صدّوا كثيرًا من النّاسِ، وذلك في زمانِهم والأزمنَةِ التي تَليهِم، فإنَّهم أوَّلُ مَن سنَّ الشِّرْكَ والكُفْر، فكان عليهِم وِزْرُ ذلك ووزر مَن عمل بِهِ بعدَهُم إلى يومِ القيامَة[2].

دلالَةُ عَطْفِ الإنشاءِ عَلى الخبَر:

حكايَةُ الحالِ تمهيدٌ للشَّكْوى والسُّؤالِ

عطف النَّظم الجليلُ أسلوبَ الدُّعاءِ - وهو إنشاءٌ - في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾، على الخبرِ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾؛ لكونهِ من تمام كلامِ نوحٍ عليه السلام، فقد ختمَ شَكْواه إلى اللّهِ تعالى بالدُّعاء على المشركين الذين ضلّوا عن الحقِّ بأنْ يزيدَهُم اللّهُ ضلالًا، ولا ضَيْرَ من عطفِ الإنشاء على الخبر، فهو غيرُ مَمْنوعٍ على وجهِ الإطلاقِ، وقَد تكرَّر كثيرًا في القرآنِ الكريمِ[3].

تَوْجيهُ مَعْنى الاعتِراض في الآيَة:

دُعاءُ المُستَكبِر لا يَزيدُه إلّا عِنادًا وجُحودًا

يجوز أن تكون الواوُ اعتراضيَّة، وجملة: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ معتَرِضة؛ على أنَّها من كلام اللّهِ تعالى لنوحٍ عليه السلام، والتَّقدير: (وقلنا: لا تزِدِ الظّالمين)، والمعنى: ولا تَزِدْ في دُعائِهم، فإنَّ ذلك لا يَزيدُهُم إلّا ضلالًا، فالزّيادة منه تزيدُهُم كُفْرًا وعنادًا، وقد أعْلَمَ اللّهُ تَعالى نوحًا عليه السلام أنَّه مُهْلِكُهُم بقوله: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾، وفي قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 60.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 451.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.

تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 36 - 37][1].

دِلالَةُ الدُّعاء بصيغَةِ النَّهْي:

يأسٌ مِن انتِفاعِ القَومِ بالدَّعوة

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوبِ النَّهي، في قوله تَعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾؛ للدُّعاء على قوم نوحٍ عليه السلام بالضَّلال، فهو دَعْوَةٌ مِن نوحٍ عليه السلام على قَوْمِه؛ لتمسُّكِهم بكُفْرِهم وتمرُّدهم على الدَّعوة وعِنادِهم[2]، وإنَّما دعا عليهم بَعدَ أن أيسَ مِن إيمانهم بإخبار اللّه تَعالى له بأنَّهم لا يُؤْمِنون، بقوله تَعالى: ﴿لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: 36][3]، "فصيغَةُ النَّهي مستعملَةٌ في التَّأْييسِ من نَفْعِ دَعْوَتِه إيّاهُم"[4].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالظُّلْم مادَّةً وصيغَةً:

صَرْفُ العبادَةِ لغَيْرِ الله تَعالى ظُلْمٌ وضلالٌ راسِخٌ في المُشْرِكينَ

المرادُ بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله سُبحانَهُ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾: قومُ نوحٍ عليه السلام الذين عَصَوهُ، وقد عُبِّر بلَفْظِ الظُّلم عَن المُشْرِكين؛ لعبادَتِهم الأوثانَ مِن دون اللّه تعالى، فَوَضَعوا العبادَةَ في غَيْرِ مَوْضِعِها[5]، وجاء التَّعبير بصيغة اسْم الفاعِلِ؛ للدَّلالة على ثُبوتِ الوَصْفِ لهُم وعَدَمِ انفكاكِهِ عَنْهم، أي: لا تزِد الرّاسِخينَ في الظُّلْمِ إلّا ضلالًا[6].

سِرُّ وضعِ المظْهَرِ موضِعَ المُضْمَرِ:

كُلُّ ظالِمٍ بالشِّرك مشمولٌ بدَعْوَةِ نوحٍ عليه السلام

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾، وضعٌ للمُظْهَرِ موضعَ المضمرِ؛ إذ إنَّ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن يُعبِّرَ البيانُ القرآنيُّ عنهم بالضَّمير عائدًا إليهم: (ولا تَزِدْهُم)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 10/ 197.
(3) الخازن، لباب التأويل: 4/ 347.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(5) الواحدي، البسيط: 22/ 270، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 210.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 452.

وعُدِلَ عن الإضمار إلى الإظهار؛ لتَعْميم الحكم على كلِّ ظالم، وللإشارةِ إلى علَّة هذا الدُّعاء والاستحقاقِ، وهيَ الظُّلم[1]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالاسمِ الظّاهر يُسَجِّل عليهم صفةَ الظُّلم، فَهُم ظالمونَ لِشِرْكِهم وضَلالِهِم[2].

بَلاغَةُ الاستِثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

إبهامُ طُرُقِ النَّفْعِ كسرٌ لشَوْكَةِ الضّالِّ المتكبِّر

جاءَ أسلوبُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾، وهي هنا دالَّةٌ على الحَصْر والقصْرِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾؛ وذلك لتأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضدَّه، "أي: حُل بينَنا وبينَ مَكْرِهم، ولا تَزِدْهُم إمْهالًا في طغيانهم علينا إلّا أن تُضَلِّلَهُم عَن وسائله، أو أراد إبْهامَ طرقِ النَّفع عليهم؛ حتّى تَنْكَسِرَ شوكَتُهم، وتلينَ شَكيمَتُهم، نظير قولِ موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ٨٨﴾ [يونس: 88]"[3].

دلالَةُ جناس الاشتقاقِ بين ﴿أَضَلُّواْ﴾ و﴿ضَلَٰلًا﴾:

الجزاءُ مِن جِنْسِ العَمَل

جمعَ النَّظم الجليلُ بين لفظي ﴿أَضَلُّواْ﴾، و﴿ضَلَٰلًا﴾، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، وكلاهما من الجذر (ضلَّ)؛ وذلك ليكونَ جَزاؤُهم مِن جِنْسِ عَمَلِهم، فلا ينالونَ مَقصدَهُم كما صدّوا النّاسَ عَن مقصدِ الإيمانِ[4].

دلالَةُ تنكيرِ لَفظِ الضّلال:

الضَّلالُ العظيمُ لا نورَ بَعْدَهُ

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ عَن الضَّلالِ مُنكَّرًا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾؛ للدَّلالة على تعظيم الضَّلالِ المَسؤولِ، بأن يُطْبَع على قلوبهم طبعًا بحيثُ يَعْمَونَ عن الحقِّ، ويَضِلّون عن جميعِ مقاصِدِهم، حتّى ما كان مِنها باطلًا، فلا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 451.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 202.

يتحقَّقُ منها شيءٌ[1]، فليس المرادُ مِن الضَّلالِ نقيضَ الهِداية، بل أراد به ما يتعلَّق بأمْرِ الدُّنيا، لا في أمر الآخرة[2]، فإنَّ الضَّلالَ عن طريق الحقِّ والتَّوحيد، ينافي دعوةَ نوحٍ عليه السلام قومَه إلى الاستغفارِ والإيمان بالبَعْثِ[3].

في كفِّ الظّالم عن الأذى نجاةٌ وحياةٌ

دلالَةُ وجْهَيِ الاستعارةِ والحقيقَةِ في لفظِ (الضَّلال):

(الضَّلال) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ مستعارٌ لعدم الاهتداء إلى طرائق المَكر الَّذي خَشيَ نوح عليه السلام غائلَتَهُ في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا﴾، ويجوز أن يكون أُطلِقَ على العذابِ المسبَّبِ عن الضَّلال، والمرادُ: عذابُ يومِ القيامة، وهو عذابُ الإهانَةِ والآلام[4].

ويجوزُ أن يكونَ لفظُ الضَّلال محمولًا على حقيقَتِه، والمَعْنى: ولا تَزِدْ في دُعائِهم، فإنَّ ذلك لا يَزيدُهم إلّا ضلالًا، فالزّيادةُ منه تَزيدُهُم كُفْرًا وعنادًا، في حالِ عَدِّ الواوِ اعتراضيَّةً، وجملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ معترضةً، على أنَّها مِن كلامِ اللّٰه تعالى لنوحٍ عليه السلام، والتَّقدير: (وقلنا: لا تزد الظّالمين)[5].

حكايَةُ الهلاكِ تَسْليةٌ لرسولِ الهُدَى ﷺ

بلاغةُ فَصلِ جُملَة ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ﴾:

فُصِلَت الجملةُ في قولِهِ جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾؛ لأنَّها مستأنفَةٌ، سيقَت للاعتراضِ بينَ الجُمَلِ التي حكَت أقوالَ نوحٍ عليه السلام، فهي مِن قولِ اللّٰه تعالى للتَّعجيل بتسليةِ النَّبيِّ ﷺ، فيخبره بأنَّه قدَّر النَّصرَ لنوحٍ عليه السلام، وأنزل العقابَ بقَوْمِه قبلَ أن يَسْألَهُ نوحٌ عليه السلام استئصالَهُم، فإنَّ ما لاقاهُ النَّبيُّ ﷺ من قومِهِ يُماثِلُ ما لاقاهُ نوحٌ عليه السلام مِن قَوْمِه[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 452.
(2) الخازن، لباب التأويل: 4/ 347.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 29/ 211.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 211.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.

دلالَةُ (مِن) في قولِهِ: ﴿مِّمَّا﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بحَرْفِ الجرِّ (مِن)، في قوله جلَّ شأنُه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾، وهي هنا للسَّببيَّة والتَّعليلِ، أي: مِن أجلِ خَطيئاتِهم وبِسَبَبِها[1].

الذُّنوبُ سببٌ لِلعقوبة

نكتَةُ التَّعبيرِ بـ(ما):

عُبِّر بـ (ما) في ﴿مِّمَّا﴾ مِنْ قول اللّه تَعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ وهي هنا صِلَةٌ بينَ الجارِّ والمجرورِ لإرادَةِ التَّوكيدِ، وقد جيء بها لتأكيدِ مَعْنى التَّعليلِ[2]، فالإغراقُ وقعَ بسبَبِ خَطيئاتِهم لا بغَيْرِها، وفي ذلك: إبْطالٌ لمُعْتَقَدِ الكافرين بأنَّ الإنجاءَ والإهلاكَ عادَةُ الدَّهْرِ[3].

الخطايا أصلُ البلاءِ

بلاغَةُ تَقْديمِ شِبْهِ الجُمْلَةِ:

قُدِّم شبهُ الجملة على الفِعْلِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾، فلم يَرِد في البيان القرآنيِّ: (أُغْرِقوا مِن خطيئاتهم)؛ وذلك لحَصْرِ الإغراقِ في علَّة ارتكابِ الخَطايا، فلم يكُن إغراقُهُم بالطّوفان وإدخالُهُم النّارَ إلّا من أجْلِ خَطيئاتِهم[4]، فلم يكُن عقابُهُم لمجرَّدِ استجابتِه تعالى لدعوة نوحٍ عليه السلام، وذلك ليُعْلَمَ أنَّ اللّه تَعالى لا يقرُّ عبادَهُ على الشِّرك بعد تبليغِهم بالرِّسالة، وإنَّما تأخَّر عذابُهم إلى ما بعدَ دُعاء نوحٍ عليه السلام؛ لإظهار كرامتِهِ عندَ ربِّه سُبحانَهُ بينَ قَوْمِه[5].

الخَطايا سبَبُ العَذابِ في الدُّنيا والآخِرَةِ

دلالَةُ جَمْعِ الخَطيئَةِ:

آثر النَّظمُ الكريمُ جَمْعَ لفظِ الخطيئةِ، في قوله سُبحانَهُ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ لكثرةِ مَعاصيهِم وتنوُّعِ جَرائِمهِم وجَرائِرِهم،

ذنوبٌ لا تُحصى كثرةً، ولا تَنْحَصِرُ نوعًا

(1) الواحدي، البسيط: 22/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 546.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.

كالإشراكِ باللّهِ تَعالى، وتكذيبِ الرَّسول، وأذاهُ، وأذى المؤمنينَ معَهُ، والسُّخرية منهُم[1]، وهُم قَد كفروا بالإيمانِ، وكذَّبوا بالرِّسالة، وتمسَّكوا بالطّاغوت، وهذا قدرٌ كافٍ في استحقاقِ العذابِ[2].

دلالَةُ إضافة (الخطيئات) إليهِم:

يُهْلَكُ الكافرونَ بخَطيئاتِهِم

أضاف النَّظم الجليلُ الخطيئاتِ إلى ضميرِ القوم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذابَ قَد وقَعَ عليهِم؛ بِسَبَبِ ذُنوبِهِم التي ارْتَكبوها بأنفُسِهِم، فما ظَلَمَهُم اللّهُ تعالى، ولكنَّهم هُمُ الظّالمونَ.

توجيهُ القِراءاتِ في ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾:

الإكْثارُ مِنَ الذُّنوب يوجِبُ تغليظَ العقوبَةِ

قرأ الجمهورُ ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ بجمع (خطيئة) - بالهَمْزِ - جَمْعَ مؤنَّثٍ سالمًا، وقرأ أبو عَمْرٍو وحدَهُ ﴿خَطَايَـٰهُم﴾، وهي جمعُ (خَطيَّة)[3]، على أنَّهُ جمعُ تَكْسيرٍ، وهوَ دالٌّ على أنَّ لَهُم مع خطايا كُفْرِهم - من خلالِ إيمانهم بالطّاغوت، وتكذيبِ ربِّهِم، وتكذيبِ رسولِهِ عليه السلام التي تكفي لاستئصالهم - مِنَ الذُّنوب ما يفوتُ الحَصْرَ، ويوجِبُ تغليظَ ذلكَ الأخذِ والاستِئصالِ[4].

دلالَةُ التَّعبير بالغَرَقِ مادَّةً وصيغَةً:

ليس الإغراقُ تهديدًا بَل هوَ واقِعٌ مُنْجَزٌ

عُبِّر بالإغراق في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم هَلَكوا بالطّوفان[5]، وعُبِّر عن ذلك بالفعلِ الماضي للدَّلالة على الهَلاك المحقَّق يقينًا، وقد جيءَ به مبنيًّا للمفعولِ؛ لأنَّ الإيجاعَ يقَعُ بالإغراقِ لذاتِهِ لا بكونِهِ من مُعَيَّنٍ، فضلًا عَن دلالتِهِ عَلى سُهولَةِ إيقاعِهِ عليهِم[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 203.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 391.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 343.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.

دلالَةُ عَطْفِ إدخالِ النّارِ على الإغراقِ بالفاءِ:

بَعدَ الإغراقِ ليسَ إلّا النّارُ مصيرًا

عُطِفَ إدخالُ النّارِ على الإغراقِ بحرف العطْفِ (الفاءِ)، في قوله سُبحانَهُ: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد تسبَّبَ عَنهُ، وأنَّه وقَعَ عَقِبَه[1]، فضلًا عَن دلالَتِه على قِصَرِ مدَّة اللَّبث في القبورِ، فكأنَّ العذابَ في الآخرةِ واقِعٌ عَقِبَ عذابِ الدُّنيا على الفَوْرِ.

ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ دالَّةً على التَّرتيب مع التَّعقيبِ على وجهِ الحقيقةِ، وأنَّ المرادَ تعذيبُهُم في قبورِهم بعد غرقِهم[2]، مع ما ينتظِرُهم في الآخرةِ من عذاب جهنَّمَ، ولذا قال ابن كثيرٍ عن قول اللّه تعالى: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾: "نُقِلوا مِن تَيّار البِحارِ إلى حَرارَةِ النّار"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الإدخالِ ماضيًا:

إدخالُ الكافرينَ النّارَ واقِعٌ يقينًا

عُبِّر عن الإدخال بالفعل الماضي المبنيِّ للمفعولِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾؛ للدَّلالة على الوُلوجِ فيها، وأنَّهم صاروا داخِلَها[4]، والإدخالُ في النّار أمْرٌ يقَعُ في المُستَقبَلِ، وقد عُبِّر عنه بالماضي؛ للدَّلالةِ على تحَقُّقِه[5]؛ لِكونه سيقَعُ على وجهِ اليَقينِ، وجاءَ الفعلُ بصيغَةِ المبنيِّ المفعول للاهتمام بالإدخالِ لذاتِه، وكونِه محقَّقًا لا بكونِه مِن معيَّن، وفي بنائِهِ للمفعولِ أيضًا إيجازٌ بحذفِ الفاعلِ، وذلك للعِلْم بمَن يُدْخِلُهُم النّارَ، وهو اللّهُ تعالى بأمرِهِ ملائكتَهُ بإدْخالِهِم فيها.

ويجوزُ أن يكونَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ الماضي على بابِهِ؛ إذا أُريدَ بإدخالهم النّارَ عذابُ القَبْرِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 453.
(2) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 5/ 445.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 236.
(4) الفيومي، المصباح المنير: (دخل).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 288.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لَفْظِ النّارِ:

عِظَمُ الذَّنْبِ يَقْتَضي عِظَمَ العُقوبَةِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ تنكيرَ لَفْظِ النّارِ، في قوله تَعالى: ﴿فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾؛ لِما في التَّنكيرِ مِن تعظيم وتهويلٍ، أي: أُدْخِلوا نارًا عظيمَةً[1]، جزاءً وفاقًا لإصْرارِهِم على الكفر، بإنكارهِم دعوةَ نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بلاغَةُ مُحَسِّنِ الطِّباقِ:

بينَ الماءِ والنّارِ يتحوَّل الكافِرُ مِن عذابٍ إلى عذابٍ

جَمَعَ النَّظمُ الجليلُ بين لَفْظَيِ الإغراق والنّار، في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ على طريقة الطِّباق؛ إذ بين النّارِ والغَرَق المُشْعِرِ بالماءِ تضادٌّ[2]، فهو تعبيرٌ غايَةٌ في البلاغة والحُسْنِ، فلمّا أُغرِقوا بالماءِ في الدُّنيا؛ أُحْرِقوا بالنّار في الآخرة، فجَمَعَ عليهم النَّقيضَيْنِ في عذابِهم في الدّارين.

وفي تقرير الطِّباقِ مسلَكٌ آخَرُ، وهو إدخالُ النّارِ مستلزِمٌ الإحراقَ، والإحراقُ مضادٌّ للإغراقِ.

دلالَةُ الفاء في صَدرِ الجُملَة:

مِن شدَّةِ العذابِ عدَمُ النَّصيرِ وقتَ الحاجَةِ لَهُ

افتتح البيانُ القرآنيُّ الجملةَ بالفاءِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾، وهي هنا للتَّفريع، فإنَّهُ لمّا أخبر بأنَّهم أُغْرِقوا، وأدخلوا نارًا؛ فرَّع عليهِ انتفاءَ وُجودِ نصيرٍ يمنَعُ عنهُم العذابَ، والجملةُ سيقَت للتَّعريض بالمُشْرِكين مِنَ العرَبِ، فإنَّهم زَعَموا أنَّهم يعبُدون الأصنامَ؛ لتَشْفَعَ لهُم، وتدفع عنهم كوارثَ الدُّنيا، أي: كما لَم تَنْصُرِ الأصنامُ مَن كان يعبُدُها مِن قومِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنَّكم كذلك لا تَنْصُرُكم أصنامُكُم[3].

فائِدَةُ التَّعبيرِ بشِبهِ الجُملَةِ ﴿لَهُم﴾:

لا خذلانَ للنَّفسِ أشدُّ مِن خذلانِ النَّصيرِ

اللّامِ في القيد ﴿لَهُم﴾ للتَّقويةِ والتَّوكيد[4]، وقد عبَّر النَّظمُ الجليلُ بشِبْهِ الجملة ﴿لَهُم﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 546.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 212 - 213، وينظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 659.

(4) قباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 2024.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المقصودَ مِنَ النَّصير أن يُحَقِّقَ النَّجاةَ لأنفُسِهم خاصَّةً، فالإخبارُ بذلك أشدُّ وقعًا ممّا لو كان انتفاءُ النَّصيرِ على وجْهِ العُموم، فلو قال: (فلم يجدوا من دون اللَّه أنصارًا)؛ لدلَّ على انتفاءِ النَّصير على العموم، وهو قد يَنتَقِضُ بأنَّه قد يقَعُ لبَعْضِهم، وفي ذلك يقول البقاعيُّ: "وحقَّق الأمرَ فيهم بقوله: ﴿لَهُم﴾، أي: عندما أناخَ اللَّهُ بِهِم سَطْوَتَهُ، وأحلَّ بهم نِقْمَتَهُ"[1].

سِرُّ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿لَهُم﴾ على المفعولِ به:

كُلُّ امرِئٍ مصروفٌ إلى نفسِهِ يومَ الحسابِ

قُدِّم شِبهُ الجملةِ على المفعول بهِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾، فلم يقل: (فلم يجدوا أنصارًا لهم)؛ اهتمامًا بشأنِهم؛ إذ إنَّهم ذلك اليوم لا يهمُّهم شأنُ غيرِهم، ولا يَسعَونَ إلّا لنَجدَةِ أنفُسِهم.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿مِّن دُونِ﴾:

كلُّ دون زائلٌ وعَنِ النُّصرةِ عاجِزٌ

عُبِّر بشبه الجملة ﴿مِّن دُونِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رتبَةَ كلِّ أحدٍ مَهْما علا شأنُه، فهي دون رتبتِه تعالى، فانقَطَعَت عنهم الأسبابُ، فلم يجدوا أحدًا - من آلِهَتِهم وشُركائِهم - يَنْصُرُهم من عذاب اللَّهِ تَعالى، ودلَّ إثباتُ حرفِ الجرِّ ﴿مِّن﴾ - وهي بيانيَّة - على استغراقِ جميعِ الرُّتَب دونَ رتبتِهِ تعالى[2].

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

أنّى للكافر النَّصيرُ؟ وكلُّ ما دونَ اللهِ تَعالى ضئيلٌ

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبير بالاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الملكَ الأعظمَ ذا الجلالِ والإكرام تتضاءَلُ تحتَ رُتْبَةِ عظمتِهِ كلُّ الرُّتَبِ، وتَذِلُّ لعزَّته كلُّ المنازل والذَّوات[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 454.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 454.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 455.

دلالة التَّعبيرِ بالأنصار جمعًا مُنَكَّرًا:

عُبِّر بالأنصار جمعًا مُنكَّرًا، في قوله تَعالى: ﴿فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾؛ للدَّلالة على العمومِ، أي: لم يجدوا أحدًا يُمَكِنُ أن يَمنَعَهُم مِن عذابِ اللّه تعالى[1] ولو كانوا مجتمِعينَ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّلال والزَّيغ:

الزَّيغ ميلٌ عنِ الاستـقـامَـةِ، والضَّلال مُفارِقَةٌ لَها، فهو نقيضُ الهُدى

الزَّيْغُ: الميلُ عَنِ الاستقامَةِ[2]، أمّا الضَّلالُ؛ فهو العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويضادُّه: الهداية، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ [يونس: 108]، ويُطْلَقُ الضَّلالُ على كلِّ عدولٍ عن المنهَجِ[3]، فالضَّلال أشدُّ من الزَّيغ؛ إذ الزَّيغ ميلٌ عنِ الاستقامة، أمّا الضَّلال؛ فهو نقيضُ الهدايةِ، فهو عدول تامٌّ عن الطَّريق، وعبَّر في الآية بالضَّلال؛ لأنَّ رُؤَساء القومِ أضلّوا النّاسَ عَن الهُدى.

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 60.
(2) الراغب، المفردات: (زيغ).
(3) الراغب، المفردات: (ضل).

﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ٢٧ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا ٢٨﴾ [نوح: 26 - 28]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعدَ الإخبارِ عَن حلولِ العذابِ دعاءٌ بتمامِ الاستِئصالِ

بعد أن أخبرَ اللّٰهُ تَعالى عن إغراق القوم الضّالّين؛ أتبَعَهُ بذِكْرِ ما قالَهُ نوحٌ عليه السلام من دعوَةٍ لربِّهِ عَقِبَ علمِه بحُلول العذابِ ودُنوِّ أجَلِهِم؛ استِنجازًا لوعدِ اللّٰه تعالى، وتصريحًا بمُرادِهِ مِن استِئصالِهِم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَيَّارًا﴾: (دور) أصل يدلُّ على إحداق الشَّيء بالشَّيء من حواليه[2]، والدّار: المنزِلُ اعتبارًا بدَورانِها الَّذي لها بالحائط، وقولهم: ما بها دَيّار، أي: ساكن[3]، ويُقالُ: ما بها دَيّارٌ، أي: أحَدٌ، وهو فَيْعالٌ من دُرْتُ، وأصله ديوار، فالواوُ قُلِبَت ياءً، وأُدْغِمَت، مثل: أيّام وقَيّام[4]، وهو من الأسماء الَّتي لا تُستعمَل إلّا في النَّفي العام، يُقالُ: ما بالدّار ديّار، أي: ليس بها أحد البتَّة، ومعناها هنا: مَن يَحُلُّ بدارِ القوم كنايةً عن إنسانٍ، وأمّا المُرادُ؛ فلا تذر منهم أحدًا أصلًا، بلِ اقطعْ دابرهم جميعًا[5].

و(الدَّيّار) في قولِه تعالى: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، أي: مَن يدورُ في الأرضِ، ويَمْشي[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 456.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دور).
(3) الراغب، المفردات: (دار).
(4) الجوهري، الصحاح: (دور).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 213، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 125.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 546، والسمين، عمدة الحفاظ: (دور).

2) ﴿فَاجِرًا﴾: (فجر) أصله يدلُّ على التَّفتُّح في الشَّيء، ومِن ذلك: الفَجْرُ، وهو انفجارُ الظُّلمة عن الصُّبح، واستُعمِلَ للانبعاثِ والتَّفتُّح في المعاصي؛ ولذلك سُمّي الكذبُ فجورًا، ثمَّ كَثُر هذا حتّى سُمّي كلُّ مائلٍ عن الحقِّ فاجرًا[1]، ولمّا كانت المادَّة تدلُّ على شقِّ الشَّيء وتوسعته؛ أُطْلِقَ الفُجور على شقِّ سَتْرِ الدّيانة والحياء[2]، والفجورُ: الفُسوق والكذب[3]، والفاجر في الآية مُرادٌ به: المُتَّصِفُ بالفُجورِ، وهو العَمَلُ الشَّديدُ الفَسادِ[4]، والمراد في الآية الكريمة: المارِقُ ممّا يجِبُ الاعتصام به[5].

3) ﴿كَفَّارًا﴾: (كفر) أصلٌ يدُلُّ على السَّتْرِ والتَّغطية، وقد كفرتُ الشَّيءَ أكْفِرُه - بالكسر - كَفْرًا، أي: سَتَرْتُهُ، ومن هنا كان الكفرُ ضِدَّ الإيمان؛ لأنَّه تغطيةٌ للحقِّ[6]، ويأْتي الكُفْرُ بمعنى الإنكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بِالنِّعْمَة، أيْ: أنْكَرَها وجَحَدَها[7]، ورجُلٌ كَفّارٌ، كَشَدّادٍ، وكَفورٌ، كصَبور: كافِرٌ، وقيل: الكَفور: المُبالِغُ في كُفران النِّعمة، قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [الحج: 66]، والكَفّارُ أبلغُ من الكَفور، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ [ق: 24][8]، والكَفّارُ في الآية معناه: المُبالِغُ في الكُفْرِ، والجَحود لنِعَم اللّه سبحانه تعالى[9].

والمراد بـ ﴿كَفَّارًا﴾ في الآية الكريمة: نقيضُ المؤمنِ، وهو المُبالِغُ في سَتْرِ ما يجِبُ إظهارُهُ مِن آياتِ اللّهِ تَعالى[10].

4) ﴿تَبَارًۢا﴾: أصلُ (تبر) يدلُّ على الكَسْرِ والإهلاك، يُقالُ: تبَّر اللّه عملَ الكافر، أي: أهلكه، وأبطله[11]، والتَّتْبيرُ: التَّدْميرُ، وكلُّ شيءٍ كسَّرْتَهُ، وفَتَّتَّهُ، فقد تَبَّرْتَهُ، ويُقالُ: تَبرَ الشَّيءُ يَتْبَرُ تَبارًا[12]، ومنه تبر الذَّهب، أي: المُكَسَّر المُفتَّت، وكذلك يُقالُ لِفُتات الرُّخام

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فجر).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (فجر).
(3) الصحاح، الجوهري: (فجر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 214.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 458.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (كفر).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (كفر).
(9) طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 125.
(10) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 458.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (تبر).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (تبر).

والزَّجاج: تبر[1]، ابنُ الأعرابي: المَتبورُ الهالكُ، والمَبتورُ النّاقصُ[2]، والتَّبارُ في الآية مراد به: الهَلاكُ والخَسارُ والدَّمارُ[3].

والتِّبْرُ: الفُتاتُ من الذَّهبِ والفضَّة قبل أن يُصاغا، فإذا صيغا؛ فهُما ذهبٌ وفضَّة، ولا يُقال للذَّهبِ: تِبْرٌ حتّى يكون في تُراب معدنِه، أو مكسورًا[4]، والمراد بالتَّبارِ في سورةِ نوحٍ ﵇: الهَلاكُ والدَّمارُ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّـضـرُّع لله تـعـالى لـيرحَـمَ المؤمنين، ويُهْلِكَ الكافرينَ

بَعدَ يأس نوحٍ ﵇ من إيمانِ قومِه؛ دعا ربَّه بألّا يترك من الكافرين به أحدًا حيًّا يدورُ، ويتحرَّك على الأرض؛ فإنَّه تعالى إنْ يَتْرُكْهُم دون إهلاكٍ؛ يُضِلّوا المؤمنين الذين قد آمنوا به عن طريق الحقِّ، وإنَّه لا يأتي من أصلابهم وأرحامهم إلّا متابعٌ لهم مائلٌ عن الحقِّ شديدُ الكُفْرِ باللّهِ تَعالى وعصيانه، ثمَّ يقول في دعائه: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ ولمن دخل بَيْتي مؤمنًا، وللمؤمنين والمؤمنات بكَ، ثُمَّ يختِم دُعاءَهُ على الضّالّين: ربِّ لا تزد الكافرين إلّا هلاكًا وخسرانًا في الدُّنيا والآخرة[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ عَطْفِ الجُمْلَة:

دعاءٌ شامِلٌ بعدَ انقِطاعِ كلِّ أمَلٍ

عُطِفَت الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾؛ لبيانِ يأسِ نوحٍ ﵇ من اهتدائهم يأسًا تامًّا؛ تبعًا لِما أخبره به اللّه تعالى؛ فأتبعَهُ بالدُّعاء عليهم بأن يُهْلِكَهُم

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 211.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (تبر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 215.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (تبر).
(5) الواحدي، البسيط: 22/ 276.
(6) جماعة من العلماء، التفسير الميسر: 1/ 571.

بالاستئصالِ، فلا يُبْقي منهم أحدًا على الأرض، وقد قُرِنَت الآيةُ الكريمة بواو العطفِ؛ لتكونَ مستقلَّةً، فلا تتبعَ جملةَ: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ للإشارة إلى أنَّ دعوة نوحٍ ﷺ حَصَلَت بعدَ شكايَتِه بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾[1].

دلالَةُ إعادَةِ فِعْلِ (قال):

مناجاةٌ جديدَةٌ ودعاءٌ وشكوى للمَوْلى

أعاد النَّظمُ الجليلُ فِعْلَ القولِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، دون أن يقول: (ربِّ لا تذَر)؛ ليكونَ هذا القولُ مستقلًّا، فهو ليس من ضِمْنِ المَقولِ الأوَّل، وهذا يُشير إلى أنَّ دعاءَ نوحٍ ﷺ على قومِه بالهلاكِ وقعَ بعد شكواهُ بقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾[2].

دلالَةُ التَّصريحِ باسمِ نوحٍ ﷺ:

التَّصريح بالقائلِ تَنْويهٌ بمقتضى مقامِ الشَّكْوى

صُرِّحَ باسم نوحٍ ﷺ دون إضمارِه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ وذلك لبُعْدِ مَعادِ الضَّمير لو تحمَّله الفعلُ بأن يُقال: (وقال ربِّ لا تذر)[3]، ففي الإظهارِ مزيدُ بيانٍ، فضلًا عن أنَّ التَّصريح بالاسم ينوِّه بأهمّيَّةِ مقولِ القولِ، فهو دعاءٌ يبيِّنُ نهايَةَ أمْرِ الدَّعوة إلى التَّوحيد، بالدُّعاء على مُنْكريهِ بالهلاك، فكان ذلك دعاءً بليغًا يبيِّن ما لاقى نوحٌ ﷺ من قومه[4].

دلالَةُ النِّداء بلفظِ ﴿رَّبِّ﴾ معَ حذف أداةِ النِّداء:

استحضارُ القُرْبِ وعُلوِّ المَقام

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوب النِّداء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ للتَّضرُّع وإظهارِ ما من شأنِه قبولُ الدُّعاء، ونداءُ اللهِ تعالى بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ استعطافٌ واستجلابٌ للرَّحمة لتَقَبُّلِ الدَّعوة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 213، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 266.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 213.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 206.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 446.

وحُذِفَ حرفُ النِّداء؛ لإظهارِ القرب الإلهيِّ مِن عباده، وهي مِن سُنَنِ أهلِ القُرْبِ في دُعائِهِم[1].

دلالَةُ أُسلوبِ النَّهي:

جزاءُ الصّادّين عن الحقِّ استئصالُهُم مِنَ الأرضِ

عُبِّر بأسلوب النَّهْيِ مرادًا به الدُّعاءُ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مضمونَ الخِطاب أمرٌ مطلوبٌ مرغوبٌ فيه، وأنَّه مِن الأهمّيَّة بحيث يُطلَب مِن اللهِ تعالى، أي: لا تَتْرُك منهُم أحدًا بأيِّ وجهٍ مِنَ الوُجوه[2].

مَعْنى ﴿عَلَى﴾ في القَيْدِ ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾:

أفاد حرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الاستعلاءَ الحقيقيَّ؛ ليَشْمَلَ كلَّ مَنْ على وجهِ الأرض مِنَ الكافرين.

دِلالَةُ (أل) في لَفْظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

جميعُ بقاعِ الأرضِ كانَت مَحَلًّا لِعَذابِ الاستِئصالِ

في التَّعبيرِ بلفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ دلالةٌ على أنَّ نوحًا ﵇ طَلَبَ أن تَبْرَأ الأرضُ من كلِّ المُشْرِكين في كلِّ مكانٍ من مَشارِقِها ومَغارِبِها، وسُهولِها وجِبالِها[3]، فتكون (أل) فيها للاستغراقِ، ويجوز أن يُرادَ بها الأرضُ المعهودةُ بين المُتَكَلِّم والمُخاطَبِ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: 55]، والمرادُ بها: أرضُ مِصْرَ[4]، وحَمْلُها على الاستغراقِ في آية سورة نوحٍ ﵇ أقْوى وأظْهَرُ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بشِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

بيانُ المَقْصودِ بِدُعاءِ الهَلاكِ

عُبِّر بِشِبْهِ الجُمْلَة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ للدَّلالة على المقصودِ بالدُّعاء بالهلاكِ والاستئصالِ، فهو مخصَّصٌ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 456..

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 456.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 456.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 214.

بالكافرين، شاملٌ لهم جميعًا[1]، فـ ﴿مِنَ﴾ على هذا التَّقرير حرفٌ يُرادُ به البيانُ.

دلالَةُ تعريفِ الكافرينَ وصوغِهِ اسمَ فاعِلٍ:

الكُفْرُ فيهم راسخٌ لا عرضيٌّ، ثابتٌ لا يزولُ

(أل) في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ جنسيَّة للاستغراقِ الحقيقيِّ، فتَشْمَلُ جميعَ الكافرين، وآثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن الكُفْرِ باسمِ الفاعلِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ للدَّلالة على رُسوخِهِم في الكُفْر، وثبوت الصِّفة لَهُم جِبِلَّة وطبعًا[2]، وفيه أيضًا الإشارةُ إلى علَّةِ إهْلاكِهِم جميعًا، وهو الكُفْرُ باللّه تَعالى.

سِرُّ تقديمِ شِبْهَي الجملة ﴿عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تأكيدُ عُمومِ الاستِئصالِ

تَقديمُ شِبهَي الجملة: ﴿عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على المفعول ﴿دَيَّارًا﴾، في قوله تعالى: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛ لتأكيدِ عمومِ الاستئصالِ، وشُمولِه كُلَّ الكافرينَ عَلى الأرضِ جميعِها.

دلالَةُ لَفْظِ ﴿دَيَّارًا﴾ ونُكْتَةُ تنكيرِه:

إفناءُ الكافرين، فلا يَبْقى لَهُمْ أثَرٌ

معنى (الديّار): مَنْ يحلُّ بدارِ القوم، وهوَ كنايةٌ عَن الإنسانِ، وقد عبَّر النَّظم الجليلُ بهذا اللَّفظ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، والمَقصودُ: لا تذر أحدًا مِنَ الكافرين، فهو تعبيرٌ يُؤكِّدُ أنَّ المقصود بالدُّعاء أن يشمَلَ الكافرينَ كُلَّهم، ولفظ (الدّيّار) مشتقٌّ من الدَّوران، أو مِن اسم الدّار على وزن فَيْعالٍ، وهو في معنى: واحد، يقال: ما بالدّار ديّار، أي: ما بها أحَدٌ، أي: أحَدٌ يدور فيها، وهو اسمٌ مخصوصٌ بالنَّفي، يدلُّ على العموم، فيَشْمَلُ كلَّ إنسانٍ[3]، وهو في الآيةِ مذكورٌ في سياقِ النَّهي الذي أُريدَ به الدُّعاءُ، وذلك شبيهٌ بالنَّفيِ، فكان دالًّا على العموم.

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 204.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 457.

(3) الواحدي، البسيط: 22/ 273، والبقاعي، ونظم الدرر: 20/ 457، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 213.

بلاغَةُ فَصْلِ قوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ عمّا قبلَهُ:

تـعـلـيـلُ الاستـئـصالِ بدليلِ ضرَرِ أهْلِ الضَّلالِ

فُصِلَ قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه مستأنفٌ استئنافًا تعليليًّا، فقد سيقت الجملةُ لتعليلِ الدُّعاء عَلَيهِم[1]، فهو يَخْشى أن يكونوا سببًا لضلالِ بعضِ أهل الإيمان، كما أنَّهم لَن يَلِدوا إلّا أبناءً يَنْشؤونَ على الكُفْرِ والضَّلال[2].

دلالَةُ التَّوكيدِ بالأداة (إنَّ):

العلمُ الواردُ مِن عـلّام الغيوبِ مؤكَّدٌ محقَّقٌ

أُكِّدت الجملة بـ (إنَّ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾؛ وذلك لكمالِ اليقينِ بما أخبرهُ تعالى، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: 36][3]، فعَدَمُ إيمانِهم محقَّقٌ بالنَّظَر إلى ما أخبَرَ بِهِ اللّهُ تعالى.

دلالَةُ التَّعبيرِ بأسْلوبِ الشَّرط:

بـقـاءُ الـكـفّار استمرارٌ للضَّلالِ

عُبِّرَ بالشَّرط في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ إضلالَهُم العبادَ متحقّقٌ على وجهِ اليقينِ عِندَ تحقُّقِ تَرْكِهِم في الدُّنيا أحياءً، فإن تحقَّق بقاؤهم في الحياةِ، ولم يُستأصلوا؛ فإنَّ سَعْيَهُم في إضلالِ العِباد متحقّقٌ تبعًا لذلك، وهذا يدلُّ على شدَّة إصرارِهم على الكُفر وإضلال النّاس عن الهدى.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِع:

آثر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفِعْلِ المضارع ﴿يُضِلُّواْ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّدِ إضلالِهِم واستمرارِهِم عليهِ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 337.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 214.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 457.

الفِتْنَةُ تَطالُ العبادَ كُلَّهم

دلالَةُ جَمْعِ العِبادِ:

عُبِّر عن العباد بصيغة الجَمْعِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ كُفْرَهُم سيكون سببًا لضلالِ كثيرٍ مِنَ العباد الذين يؤمنون باللّٰه تعالى، ممَّن يولَدُ على الفِطْرَةِ السَّليمةِ(1).

نَسلُ أهلِ الضَّلالِ لا يُرتجى منه هُدًى غالبًا

بلاغَةُ التَّعبير بالاستثناء المفرَّغ:

عُبِّر بأسلوبِ الاستثناء المفرَّغ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾؛ للدَّلالة على حَصْرِ تَنْشِئَةِ مواليدِهم على الكُفْر، وهذا يدلُّ على شدَّة تَمَسُّكِهم بضَلالِهم، فهُم يَتَعاهَدون باطِلَهُم، ويَنْقلونَهُ إلى أبنائِهم(2).

الكُفرُ مُستَمِرٌّ في ذرّيَّة الضّالّين لا يَنْقَطِعُ

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ المنفيِّ ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ﴾:

آثر النَّظم الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفيِّ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد النَّفي، أي: إنَّهم لا يلدونَ إلّا الأبناءَ الفاسدينَ الكافِرين، وذلك للتعبير عن تمسُّكِهم بالكُفْرِ وإصرارهِم عَلَيهِ، فهم يورِّثونَهُ أولادَهُم مِن بعدِهِم.

المَيلُ عن الحقِّ ميراثٌ يتناقَلُهُ الضّالّون

دلالَةُ لفظِ (فاجِر) مادَّةً وصيغةً:

عُبِّر عنِ الفُجورِ بصيغة اسم الفاعل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾؛ لدلالة الفُجورِ على الفِسْقِ والمَيلِ عن الحقِّ(3)، وقد عُبِّر بذلك للدَّلالة على أنَّهم شديدو الفَسادِ(4)، وصوغُهُ اسمَ فاعِلٍ مُشْعِرٌ بِرسوخِهِم في الفجور، وثبوتِ الصِّفة لَهُم جِبِلَّةً وطبيعةً.

الكُفْرُ الموروثُ غليظٌ شديدٌ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بلَفْظِ (كفّار) مادَّةً وصيغَةً:

عُبِّر عن الكُفْرِ بصيغَةِ المُبالغَةِ على وزن (فعّال)، في قوله جلَّ شأنه:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 457.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 214.

(3) الجوهري، الصحاح: (فجر).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 214.

﴿فَاجِرًا كَفَّارًا﴾؛ للدَّلالة على المبالغة في صفةِ الكفر، أي: شَديدو السَّتْر لِما يَجب إظهارُهُ من آياتِ اللّهِ تَعالى[1]، فهُم يَجْمَعون سوءَ الفعل مع سوءِ الاعتقادِ، فكان كُفْرُهم في الغاية القُصْوى من الضَّلال[2].

نُكْتَةُ تقديم وصفِ الفجورِ على وصفِ الكُفْرِ:

الـفـجـورُ بـريـدُ الكُفْرِ وطريقُهُ

قُدِّم وصفُ الفجورِ على وصفِ الكُفْرِ، في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾؛ لأنَّ الفجورَ بريدُ الكُفْرِ والموصلُ إليه، فإنَّ العبدَ إذا أَمْعَنَ في الفُجورِ؛ أوشكَ أن يقودَهُ ذلك إلى الكُفْرِ والتَّكذيب.

دلالَةُ النِّداءِ بلَفْظِ ﴿رَّبِّ﴾:

طـلـبُ الرَّحـمـة لأهـل الإيـمـان مِن الـرَّبِّ سابِق الإحسان

عُبِّر بأسلوبِ النِّداء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على التَّضرُّع وطلَبِ المَغْفِرَة، والنِّداء بعنوانِ الرُّبوبيَّة أدعى لاستجلابِ الرَّحمة، بوَصْفِه ذِكْرًا لسابِقِ إحْسانِه تعالى؛ ليكون سببًا لاستجابةِ الدَّعوة، أي: أيُّها المُحْسِنُ إليَّ بوافِرِ النِّعَم أتضرَّعُ إليكَ؛ لتَغْفِرَ لي[3].

دلالَةُ حَذْفِ حَرفِ النِّداء:

استحضارُ القُرْبِ وعُلوِّ المقام

حُذِفَ حرفُ النِّداء في قوله جلَّ شأنه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، فلم يَرِد النَّظْمُ القرآنيُّ ههنا: (يا ربِّ)؛ وذلك لعِلْمِ نوحٍ عليه السلام بِقُرْبِ اللّه تعالى منْهُ[4]، فحذفَ حرفَ النِّداءِ على عادةِ أهل القُرْبِ في الدُّعاء.

دلالَةُ الدُّعاءِ بالمَغْفِرَة:

سَـتْرُ المـعـاصي ومَحْوُها يَطْوِي صـفـحـاتِ الغضَبِ

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بالمَغْفِرَةِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 458.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 214.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 458.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 29/ 183.

طلَبِ السَّتْرِ والعَفْوِ عمّا يُستغفَر منه، فإنَّه لمّا دعا على الكفّارِ طلَبَ المغفرةَ؛ لأنَّه قدَّر أنَّ ما صدَرَ مِنْهُ كان تركًا للأفضل، وهو دوامُ الصَّبرِ عليهم، والدَّعوة لهم بالهداية[1].

سِرُّ التَّرتيبِ في الدُّعاءِ:

البَـدْءُ بالدُّعاء بالنَّفس، ثُمَّ الأحقِّ، ثُمَّ التَّعميم

رتَّب نوحٌ عليه السلام المذكورين في دُعائِه بدءًا بنفسِه فوالِدَيْه فالمؤمنينَ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ على وفْقِ الأحقِّ، فقدَّم نفسَه؛ لأنَّه رَأْسُ الأمَّةِ، وهو الدّاعي لهم إلى الإيمانِ والمغفرة، ثمَّ أعقبَها بذِكْرِ والديه، وهُم أحقُّ النّاس بدعائه، ثمَّ عمَّ جميع أهل الإيمان[2].

دلالَةُ ذِكْرِ الوالِدَيْنِ مُباشَرَةً بعدَ نَفْسِه:

مِـن كـمـالِ الإيمانِ الإحسانُ إلى الوالِدَيْنِ

ذَكَرَ نوحٌ عليه السلام والدَيْه عَقِبَ ذِكْرِ نفسِه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾؛ لأنَّه رتَّب المذكورين على وجه الأحقّيَّة، فقدَّم الأحقَّ، وهو النَّفس، وأتبعَهُ بأحقِّ النّاسِ بالصُّحبة والدُّعاء، وهُما الوالِدانِ[3]، فذَكَرَهُم قبلَ غيرِهِم؛ حفظًا لحَقِّهم، وتعظيمًا لمَقامِهِم.

بلاغَةُ الكِنايَةِ في الدُّعاء لمَنْ دخَلَ البيت:

لا يدخلُ البيتَ علـى التَّكرار إلّا أهلُ القُرْبِ والسُّكْنى

كنّى النَّظمُ الجليلُ بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾، عن السّاكنين معَهُ، فالمرادُ به دخولٌ مخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المتكرِّر الملازِمُ، فالمراد: أهلُ بيتِهِ السّاكِنين معَهُ، وهُم أولادُهُ وبَنوهُم والمؤمناتُ مِن أزواجهم، ومنهُ سُمّيتْ بِطانَةُ المَرْءِ: دَخيلَتَه[4].

دِلالَةُ التَّعبيرِ بالمُؤْمِنينَ مادَّةً وصيغَةً:

الدُّعاء واجبٌ لكُلِّ ذي إيمانٍ راسِخٍ

(أل) في (المؤمنين والمؤمنات) جنسيَّة للاستغراقِ الحقيقيِّ، وقد أفادَ قولُهُ جلَّ شأنُه: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾ العمومَ؛ ليَشْمَلَ

(1) الخازن، لباب التأويل: 4/ 347.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 660، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 458.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 459.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 215.

دُعاؤُهُ كلَّ مَن آمنَ باللهِ وبِرُسُلِه[1]، وقد جاءَ التَّعبيرُ بصيغَةِ اسمِ الفاعلِ للدَّلالة على العَراقَةِ في هذا الوَصْفِ[2].

سِرُّ إعادةِ حرْفِ اللّامِ:

شِـدَّةُ العِـنايَةِ بأهلِ الإيمانِ

كَرَّر النَّظم الجليلُ حرفَ اللّامِ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ﴾؛ وذلك للاهتمام بكُلِّ واحِدٍ مِن المذكورين، فهو تأكيدٌ عَلى شُمولِهم بالمَغفِرَةِ على وجهِ الانفرادِ[3].

التَّعبيرُ بالظُّلْمِ مادَّةً وصيغَةً:

ظُـلـمٌ عـريـقٌ لا يَسْتَحِقُّ سِوى الهلاكِ

عبَّر النَّظم القرآنيُّ بالظُّلم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾؛ للدَّلالة على الشِّرْكِ والكُفْرِ؛ لأنَّ ذلك مِن وضْعِ الشَّيءِ في غيرِ مكانِه، والتَّعبيرُ به دون لفظِ الكافرينَ أو المشركين؛ يُرادُ به التَّنبيهُ على أنَّ الدُّعاء عليهم بذلك كان لأجْلِ ظُلْمِهم[4]، وقد صيغَ على زِنَةِ اسمِ الفاعلِ؛ للدَّلالة على عَراقَتِهم في الظُّلم وثبوتِ هذا الوَصْفِ لَهُم[5].

دلالَةُ التَّعبيرِ بالتَّبار:

تـدميرُ الظّالمين وتَـفْـتـيـتُـهُـم واستِئصالُهُم

جاء التَّعبيرُ بلفظِ التَّبارِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾، وهو مأخوذ من التِّبر، وهو فتاتُ الذَّهبِ والفضَّة قبل صَوْغِهما[6]؛ للتَّعبير عن الدُّعاء عليهم بالهلاك والتَّدمير المفتِّتَيْن، فكان عاقبةُ أمرِهم الغرقَ والزَّوالَ واستِئصالَهُم وعِقابَهُم[7]، "فهو تخصيصٌ للظّالمين من قومه بسُؤال استِئصالِهم بعدَ أن شَمِلَهُم وغيرَهم بعمومِ قوله: ﴿لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾؛

(1) الواحدي، البسيط: 22/ 275.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 459.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 459.
(4) القونوي، حاشية القونوي: 19/ 338.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 459.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (تبر).
(7) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 459، والقنّوجي، فتح البيان: 14/ 345.

حرصًا على سلامةِ المُجْتَمَع الإنسانيِّ مِن شوائِبِ المَفاسِد، وتطهيره مِن العناصِر الخبيثَة"(1).

بلاغَةُ الاستثناءِ في الآيَةِ:

دعــوةٌ أخــيرَةٌ عَـلى الظّـالمين؛ لئلّا يَعودوا مِن جديدٍ

عبَّر النَّظم الجليلُ بالاستثناءِ المُفرَّغ، في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾؛ للدَّلالة على طلَبِ زيادَتِهم هلاكًا وتدميرًا، "أي: لا تَزِد المتَّصفين بالظُّلم إلّا هلاكًا وخُسْرانًا ودَمارًا، فأُهْلِكوا، وغَرِقَ معَهُم صِبْيانُهُم أيضًا"(2).

في زيـادَةِ الأولادِ قوَّةٌ على التَّمرُّد والإفسادِ

ولمّا كانت الزّيادةُ مِن الأموال والأولاد والأرزاق ممّا يَستَقوونَ بها، ويُلحِقون الأذى بالمؤمنين؛ كان الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ منقطعًا، وهو من تأكيدِ الشَّيء بما يُشْبِهُ ضدَّه، كقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾؛ لأنَّ التَّبار ليسَ مِن الزّيادة المدعوِّ بنَفْيِها، فإنَّه أرادَ: لا تَزِدْهُم مِنَ الأموال والأولاد؛ لِما فيها مِن قوَّةٍ لَهُم على أذى المؤمنين، وهذا كقول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: 88](3).

بلاغَةُ الاحْتِباكِ في الآيَةِ:

حَــذْفُ مـا دلَّ الـسّـيـاق عليه لـلاقـتـصـاد في اللَّفظ

هذه الآيةُ التي اختُتِمَت بها السّورة "من الاحتباكِ؛ لكونِ إثباتِ الدُّعاء المقتضي لأصلِ إكرامِ المُؤمنين أوَّلًا، مرشدًا إلى حذفِ الدُّعاء المُفهِم لأصل إهانة الكافرين ثانيًا، وإثبات الدُّعاء بزيادَةِ التَّبار ثانيًا، مُفْهِم لحذفِ الدُّعاء الموجب لزيادَةِ المَفاز أوَّلًا، وهذا الآخر المُفْصِح بالتَّبار هو ما أرشد إليه الابتداءُ بالإنذار، فقد انطبقَ الآخِرُ على الأوَّل على أصرحِ وجْهٍ وأكمَل، وأحسن حالٍ وأجمَلِ منالٍ"(4).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 215.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 345.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 215.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 460.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفاجر والفاسق:

الإســـــراف في المعـاصي والميل عـــن الـحــقّ فجورٌ، والفسقُ عـمـلُ المعـاصي صـــغـــيرِهـــا وكبيرِها

الفجورُ: أصله التَّفتُّح في الشَّيء، واستُعمِلَ للانبعاثِ والتَّفتُّح في المعاصي، وسُمّي كلُّ مائلٍ عن الحقِّ: فاجرًا[1]، والفجورُ: شقُّ سَتْرِ الدّيانة والحياء، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧﴾ [المطففين: 7][2]، والمراد به في الآية الكريمة: المارق ممّا يجب الاعتصام به[3]، أمّا الفسقُ؛ فهو الخروج عن الشَّرع، وأصله من قولهم: فَسَقَ الرُّطَبُ؛ إذا خرج عن قِشْرِه، وهو يقع بالقليلِ مِنَ الذُّنوب وبالكثير، وأكثر ما يُطلَقُ اسمُ الفاسِقِ على من التزمَ حُكْمَ الشَّرع، وأقرَّ به، ثمَّ أخلَّ بجميع أحكامِهِ أو ببعضِها[4]، فالفجورُ: أشدُّ من الفسق؛ إذ هو الانبعاثُ في المعاصي والتَّفتُّح فيها والميلُ عن الحقِّ، أمّا الفِسْقُ؛ فقد يقع بالقليل من المعاصي، فيخرج عن حُكْمِ الشَّرع، وقد عُبِّر في الآية بالفجورِ؛ لميلِ قومِ نوحٍ عليه السلام عن الحقِّ وانبعاثهم في المعاصي والكُفْرِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فجر).

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (فجر).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 458.

(4) الراغب، المفردات: (فسق).

سُورَةُ الجِنِّ

سُورَةُ الجِنّ

التّعريف العامّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعد الآي:

هذه السّورة مكّيَّة اتّفاقًا، وقد ذَكَرَ ابنُ عطيّة[1] والسّيوطيّ[2] الإجماعَ على ذلك، ووافقهم في ذلك كثيرٌ من المفسّرين.

وأمّا عدد آياتها؛ فَهي ثمانٍ وعشرون آية عند علماء أهل العدد، ليس بينهم خلاف[3].

ترتيب النّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيبها المصحفيّ بين سورتي نوح والمزّمل

هذه السّورة هي الثّانية والسّبعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي (نوح) و(المزّمّل)، وأمّا ترتيبها النّزوليّ؛ فهي السّورَةُ الأربعون نزولًا، نزلت بين سورتي (الأعراف) و(يس)[4].

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سور المفصّل

هذه السّورة الكريمة من المفصّل الذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفَصَّلِ"[5].

اسم السّورة ومناسبة التسمية:

سورةُ الجنّ اشتهرت بهذا الاسم وبـ (قُل أوحيَ إليَّ)

وردت تسميتها في كثيرٍ من المصاحف، وفي صحيح البخاري بسورة:

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 378.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 256.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 217، ودروزة، التّفسير الحديث: 3/ 7.
(5) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)352.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾[1]، وقد وردت تسميتها بسورة (الجنّ) عند التّرمذيّ[2]، وفي معظم المصاحف المشرقيّة والمغربيّة وفي معظم التفاسير[3].

وارتبط اسمها بمحورها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنّ محورها يقوم على تثبيت النّبيّ ﷺ في دعوته قومَه، والتّسرية عنه من خلال ما قصّته عليه السّورة الكريمة من استماع نفرٍ من الجنّ إليه وإيمانهم به، وتبشيرهم بدعوته.

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ، فقال: "ومقصودها: إظهار شرف هذا النّبيّ ﷺ؛ إذ ليّن له قلوب الجنّ والإنس وغيرهم، فصار مالكًا لقلوب المجانس له ولغيره، وذلك لعظمة هذا القرآن، ولطف ما له من عظيم الشّأن، هذا والزّمان في آخره، وزمان لبثه في قومه دون العُشْر من زمن قوم نوح عليه السلام أوّل نبيٍّ بعثه الله إلى المخالفين، وما آمن معه من قومه إلا قليل، وعلى ذلك دلّت تسميتها بالجنّ، وبـ ﴿قُلۡ أُوحِيَ﴾، بتأمّل الآية المشتملة على ذلك، وما فيها من لطيف المسالك[4].

المحور العامّ للسورة:

إيمان الجنّ بدعوة النّبيّ ﷺ واستماعهم لتلاوته تسرية له وتثبيت

يقوم محور هذه السّورة على التّسرية والتّسلية لفؤاد النّبيّ محمّدٍ ﷺ، كما فعلت سورة نوحٍ عليه السلام السّابقة لها، لكنّ التّثبيت في تلك كان من خلال ما قصّه عليه من دعوة نبيٍّ مثله من أولي العزم من الرّسل وما لقيه من قومه، وهنا كانت التّسرية عليه من خلال عرضِ أنموذجٍ من عالم الجنّ، وليس من عالم الإنس، فالسّورة هنا هي دعوة للنّبيّ ﷺ؛ للثّبات في دعوته، والصّبر على أذى قومه

(1) البخاري، صحيح البخاري، باب تفسير سورة الجنّ: 4/ 1873.
(2) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب وَمِنْ سورَةِ الجِنِّ: 5/ 426.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 185.
(4) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 127.

واستهزائهم به، وردِّ اتِّهاماتهم له من خلال ما قصّته عليه من استماع الجنّ إلى دعوته وإيمانهم به وتبشيرهم ببعثته.

فاقتضاها هذا المحور أن تبيّن الأمور الآتية:

أولًا: بيَّنت السورة في الآيات الأولى منها ركائز العقيدة الأصيلة المتعلّقة بالتّوحيد والنّبوّة والبعث.

ثانيًا: وضحت السورة لمشركي قريش – فيما قاله ربنا عن الجنّ – محدوديّة قدرات الجنّ وعجزهم عن استراق خبر السّماء وعن معرفة الغيب، مع أنّ مشركي قريشٍ كانوا يعوذون بهم في الشّدائد؛ وذلك حتّى يعرّضوا بهم وبكفرهم وجحودهم بدعوة نبيّهم، فإذا كان الجنّ – وهم المعروفون بقدراتهم التي تفوق قدرات الإنس – قد عجزوا عن معرفة الغيب، وعن كشف الضّرّ؛ فمن باب أولى أن يعجز غيرهم، وفي إخبارهم عن تفرّقهم – مثل الإنس تمامًا – إلى مؤمنين وكافرين، وعن مصير كلّ فريقٍ منهم؛ ما يرفع من سويّة المؤمنين المستضعفين في مكّة، بأنّهم ليسوا بدعًا في محاربة قومهم لهم.

ثالثًا: أوحت السورة إلى النّبيّ ﷺ بالحجج التي يواجه بها قومه عند مواجهتهم له.

موضوعات السّورة وخصائصها:

عُنيت السّورة بغرس أصول العقيدة وتبيان عناصر الإيمان، من عبادة الله وطاعته، وإبطال عبادة الأصنام والأوثان، والاستدلال على وجود الله ووحدانيّته وقدرته، وتأكيد أن الجن والإنس جميعهم مكلفون، وأن بعض الجن استمعوا إلى القرآن فآمنوا به وأقروا بإيمانهم وتوحيدهم لله، بينما يملك الله الملك والخلق جميعًا.

ويظهر ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: تبدأ السورة بفكرة الاستماع والاتباع؛ إذ تؤكد أن كلمة الله هي التي أنزلت على رسوله، وأن بعض الجن سمعوا القرآن، فدعوا إلى الإيمان والتوحيد.

ثانيًا: تبرز السورة رسالة التوحيد والعبادة بأن الله وحده المستحق للعبادة، وأن الكافرين من البشر والجن لا يقدرون على دفع ضر أو نفع إلا بإذن الله، مع تكرار الثقة بالله والتوكل من قبل المؤمنين.

ثالثًا: تُعد آيتا الدعوة والتبليغ بمنزلة إطار مركزي يبين أن القرآن معجزة خالدة، وأن الجن سمعوه، فاعترفوا به، واعتقدوا به.

الــنــدامــةُ والـخـسـار مـآلُ رفـض الإنــذار، والإعـــراض عن الأخيار، والكِبْر والإصرار

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة ببراعة الاستهلال؛ إذ لم يشاركها في مطلعها سوى سور: الكافرون والمعوّذات الثّلاثة، وقد اشتركت جميعها بدعوتها إلى التّوحيد، وبضرورة الالتجاء إلى اللّه دون سواه، وبتحقيق المفاصلة بين دعوة الحقّ ودعوة الباطل، واشتركت كذلك بتحقيق الالتجاء إلى اللّه ﷻ والاستعاذة به من شرور خلقه.

تـوحـيـد الـلـه تعالى والالتجاء إليه في السـرّاء والـضـرّاء سبيل النجاة

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها عرضت لعالم الجنّ، بما يبيّن استجابتهم للحقّ وتفاعلهم مع القرآن عند سماعه، وبعجزهم - كالإنس تمامًا - عن معرفة الغيب وعن تجاوز حدودهم، وأنّهم منقسمون تمامًا إلى فريقين: مؤمنين وكافرين، وتميّزت كذلك بأنّها بيّنت أنّ الجنّ كانوا يلمسون أخبار السّماء، ثمّ حيل بينهم وبين ذلك، وبيّنت بعض ما اختصّت به من تلقين النّبيّ ﷺ بعض ما يواجه به قومه، وغير ذلك.

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها أكثرت من ذكر بعض الكلمات المرتبطة بمفاصل محور السّورة الكريمة، مثل فعل الظّنّ؛ إذ ورد أربع مرّات(1)، وفعل الدّراية مرّتيّن(2)، ولفظ السّماع خمس مرّات(3)، ولفظة ﴿رَهَقًا﴾ مرّتيّن في فواصل الآيات(4)، وكذلك ﴿رَّصَدًا﴾

---

(1) الآيات: 5، 7(2)، 12.
(2) الآيتان: 10، 25.
(3) الآيات: 1(2)، 9(2)، 13.
(4) الآيتان: 6، 13.

مرّتين[1]، و(أحدًا) في فواصل خمس آيات[2]، و﴿رَشَدًا﴾ في أربع آيات[3]، و(عددًا) في فواصل آيتيْن[4]، وفعل ﴿قُلْ﴾ خمس مرّات[5].

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّ جميع الأسماء التي جاءت في فواصلها إنّما وردت منصوبة، وبأنّ أكثر هذه الأسماء كان من المصادر.

ثالثًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة الطّباق؛ إذ ورد بين الإنس والجنّ، وبين الإيمان والشّرك، والشرّ والرّشد، والصّالحين ومن هم دون ذلك، وبين الوعيد القريب وبين من جعل الله له أمدًا، وبين السّماء والأرض، والمسلمين والقاسطين، وبين من هو بين يديه ومن هو خلفه، وغيرها.

رابعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حَوَتْ ألفاظًا لم تأتِ في غيرها من السّور بصيغها الصرفيّة هذه، مثل:﴿يَعُوذُونَ﴾، ﴿لَمَسْنَا﴾، ﴿رَّصَدًا﴾، ﴿قِدَدًا﴾، ﴿نُّعْجِزَ﴾، ﴿رَهَقًا﴾، ﴿لِبَدًا﴾، ﴿يُجِيرَنِي﴾، وغيرها.

خامسًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدة في مادّتها وبنائها الصّرفيّ وهي ﴿حَرَسًا﴾، ﴿هَرَبًا﴾، ﴿غَدَقًا﴾، ﴿جَدُّ﴾، ﴿تَحَرَّوْاْ﴾.

سادسًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة التي لم تتكرّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلّ أنساقها كذلك، ولكنّنا نذكر بعضها على سبيل التّمثيل: ﴿رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾، ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

يقول البقاعيّ في وجه اعتلاقها بسورة نوح: "ولمّا كان نوح عليه السلام أوّل رسول أرسله الله

(1) الآيتان: 27، 9.
(2) الآيات: 2، 7، 18، 20، 26.
(3) الآيات: 2، 10، 14، 21.
(4) الآيتان: 24، 28.
(5) الآيات: 1، 20، 21، 22، 25.

سـورة الـجـنّ متّصلة تمامًا بـسـورة نـوح مـضـمـونًـا وأسلوبًا

تعالى إلى المخالفين من أهل الأرض، وكان قومه عبّاد أوثان، وعصوه أشدّ العصيان، مع أنّه كان منهم نسبًا ولسانًا، وختمت سورته بدعائه عليهم، وكان نبيّنا ﷺ خاتم النّبيّين، فهو آخر رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وغيرهم من جميع الخلق، وكان قومه العرب قد وافقوا قوم نوح عليه السلام في أكثر أحوالهم عبادة الأوثان إمّا بأساميها أو بأعيانها على ما ورد في الأخبار، وفي عصيان رسولهم واستضعاف أتباعه واستهزائهم؛ ابتُدئت هذه بما كان من سهولة من سمع هذه الدّعوة الخاتمة الجامعة من غير الجنس فضلًا عن الموافقين في الجنس مع قصر الزّمان وضعف الأعوان لجلالة هذا القرآن، فقال منبِّهًا له بالأمر على ما في هذا من عظيم القدر، مع الإشارة إلى تبكيت العرب على التّباطؤ عن الإجابة إلى ما يعرفون من رشده بمعناه ونظمه؛ لكونه بلسانهم وكونهم من نوع الدّاعي وقبيله وأقرب النّاس إليه ﴿قُلۡ﴾، أي: يا محمّد لقومك، ولمّا كان المقصود تعظيم الموحى به، وأمّا الموحي إلى كلٍّ من الرَّسولين؛ فواحد، بنى للمفعول قوله مبيِّنًا لسيرة الجنّ في تلقّيهم لهذا القرآن؛ بالأخذ إرثًا من أشرف النّبيّين وإلقائهم له بالإبلاغ إلى غيرهم من وارث العلم منهم؛ ليكون لهم الشّرفان: شرف العلم لكمال أنفسهم، والتّعليم لتكميل غيرهم، فيكون لهم مثل أجر من عمل بما ألقوه إليه، وأملوه عليه"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر، ص: 20/ 461 - 462.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [الجن: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد ذكرِ إعراضِ الكفّار أعقبَ بذكر تكريمِ الجنّ بالإيمان

قال ابن الزبير: "لَمّا تقدّم ذكرُ حال كفار قريش في تعاميهم عن النظر وجريهم في اللدد والعناد، حسبما انطوتْ عليه سورة القلم، ثم أتبعتْ بوعيدهم في الحاقة، ثم بتحقيقه وقرب وقوعه في المعارج، ثم بتسليته ﷺ وتأنيسه بقصّة نوح ﷺ مع قومه؛ أعقبَ ذلك بما يتّعظ به الموفقُ، ويعلم أنّ القلوبَ بيد الله، فقد كانت استجابة معاندي قريش والعرب أقربَ في ظاهر الأمر لنبيٍّ من جنسهم ومن أنفسهم، فقد تقدّمت لهم معرفةُ صدقهِ وأمانته، ثم جاءهم بكتابٍ بلسانهم الذي به يتحاورون، ولغتهم التي بها يتكلّمون، ومع ذلك عموا، وصمّوا - غضبَ الله عليهم ولعنهم - وسبقَ إلى الإيمان من ليس من جنسهم، ولا سبقتْ له مزية تكريمهم، وهم الجنّ، فقال سبحانه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَفَرٞ﴾: أصلُ (نفر) يَدُلُّ عَلَى تَجافٍ وتَباعُدٍ، ومِنْهُ نَفر الدّابَّةُ وغَيْرُهُ نِفارًا، وذَلِكَ تَجافيهِ وتَباعُدُهُ عَنْ مَكانِهِ ومَقَرِّهِ، ونفَرَ الشَّخصُ: هجَرَ وطنه، وضَربَ في الأرضِ، والنَّفَرُ: رهطُ الرَّجل وعشيرته الأدنون؛ لأَنَّهُمْ يَنْفِرونَ لِلنُّصْرَةِ، ويَوْمُ النَّفْرِ: يَوْمَ يَنْفِرُ النّاسُ عَنْ مِنى، والنَّفَر: من الثّلاثة إلى العشرة[2]، والـ ﴿نَفَرٞ﴾ في الآية: جماعةٌ من الجنّ[3].

(1) ابن الزبير الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 349، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 465.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نفر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 220.

2) ﴿عَجَبًا﴾: أصلُ (عجب) يدلُّ على كِبْرٍ واستِكبارٍ لِلشَّيْءِ، وأمْرٌ عَجيبٌ؛ إذا اسْتُكْبِرَ، واسْتُعْظِمَ، وشيء مُعْجِبٌ، أي: حَسَنٌ[1]، والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عَلَيْكَ لِقلَّةِ اعتيادِه[2]، والعجبُ والتَّعجُّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسان عند الجهلِ؛ بسببِ الشيء، أو إذا خرجَ بها المتعجَّبُ منه عن نظائره، فالعَجبُ هو الشيءُ الذي لم يُعرفْ سببه، ولم يُعهدْ مثله، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿عَجَبًا﴾[3]، والمراد: كتابًا بديعًا مباينًا لكلامِ الناس في حسنِ النظم ودقَّة المعنى[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

أمرٌ للنبي بالإبلاغِ عن قصّة إيمان الجنّ

أمرَ اللّهُ رسولَه ﷺ بأنْ يُعلِمَ المسلمين وغيرهم بأنَّ اللّهَ أوحى إليه وقوعَ حدثٍ عظيم في دعوته، أقامه اللّهُ تكريمًا لنبيّه وتنويهًا بالقرآن، وهو أنْ سخَّر بعضًا من النّوعِ المسمّى بالجنِّ لاستماعِ القرآن، وألهمهم، أو علّمهم فهمَ ما سمعوه[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاستهلال لهذه السورة بقوله: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾:

المشركون من وكْدِهم التكذيب

افتتحَ البيانُ الإلهيُّ السّورةَ بالأمرِ بالقولِ، ولم يقلْ مثلًا: قد أوحي إليّ؛ ليُشيرَ إلى أنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه حدَثٌ غَريبٌ، وخاصَّةً بالنِّسبةِ للمشركِينَ الَّذين همْ مَظنَّةُ التَّكذيبِ به، كما يَقتضيهِ قولُه: ﴿كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾[6]، ففي الأمر بقوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾ دلالةٌ على أنّ رسولَ اللّه هو المبلّغ عن اللّه، وأنّه بُعِثَ إلى الجنّ، كما بُعِثَ إلى الإنس، ودلالةٌ على أنَّ المأمورَ به شيءٌ مهمٌّ، يستدعي

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عجب).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 291.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 218.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 218.

من السامعين التيقّظَ والانتباه، والامتثالَ للمأمور به، وتصديقه ﷺ فيما أخبرَ به، وأيضًا فإنَّ فيه أمرًا بإذاعة هذا الخبر، ودعوةَ مشركي قريش إلى الإيمان بالحقِّ الذي جاء به ﷺ، كما آمن جماعةٌ من الجنّ به، وإعلامهم بأنّ رسالته ﷺ تشملُ الجنّ والإنس[1].

دلالة حذف المقول في الآية:

في عموم المبلّغين بخبرِ الجنّ تعريضٌ بالمشركين وسرورٌ للمسلمين

لم يذكرِ البيانُ الإلهيّ المقولَ لهم بخبرِ الجنّ، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ لإفادة العموم، فهُم جميعُ النّاسِ الّذين كان النَّبيُّ ﷺ يُبلِّغُهم القُرآنَ من المسلمينَ والمشركين، أرادَ اللّهُ إبلاغَهم هذا الخبَرَ؛ لما له من دَلالةٍ على شرَفِ هذا الدّين، وشرَفِ كِتابِه، وشرَفِ مَن جاء به، وفيه إدخالُ مَسرَّةٍ على المسلِمينَ، وتَعريضٌ بالمُشرِكين، وتوبيخٌ وتقريع لهم؛ لكونهم تباطؤوا عن الإيمان؛ إذ كان الجنُّ خيرًا منهم، وأسرعَ إلى الإيمان، وإلى تبليغه، فقدْ أدْرَكوا شرَفَ القُرآنِ، وفَهِموا مَقاصِدَه وهمْ لا يَعرِفون لُغتَه، ولا يُدرِكون بَلاغتَه، فأقْبَلوا عليه، والّذين جاءهُم بِلِسانِهم، وأدْرَكوا خَصائصَ بَلاغتِه؛ أنْكَروه، وأعْرَضوا عنه[2].

دلالة التعبير بالفعل: ﴿أُوحِيَ﴾ مادة وصيغة:

قصّةُ استماعِ الجنّ وإيمانهم كانت بإخبارِ اللهِ تعالى عن طريق جبريل

التَّعبيرُ بالوحي عن استِماعِ الجنِّ للقُرآنِ في قوله تعالى: ﴿أُوحِيَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه ما عَلِمَ النبيُّ ﷺ، بذلك إلّا بإخبارِ اللهِ إيّاهُ بوُقوعِ هذا الاستماعِ، فالآيةُ تَقْتضي أنَّه لم يَعلَمْ بحُضورِ الجنِّ لاستماعِ القُرآنِ، قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ، وأمّا قولُه: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الأحقاف: 29]؛ فتَذكيرٌ بما في هذه الآيةِ، أو هي إشارةٌ إلى قصَّةٍ أُخرى[3]، واختيارُ مادّة الوحي دون غيرها؛ للإشارة إلى

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 131.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 219، والصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 434.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 219.

أنّ ما أُخبر به ﷺ كان على وجهِ الخفاء ممَّن لا يعلم الغيب غيره في هذا القرآن على لسان جبريل عليه السلام بما يشير إلى إعجازِ القرآن، وأنّه من عند الله تعالى لفظًا ومعنى.

وجاء التعبير بفعل الوحي مبنيًّا للمفعول؛ لأنّ الفاعلَ - وهو الله سبحانه وتعالى، الموحي إلى النبي ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام - معلومٌ فضلًا عن أنَّ في التعبير بالمفعول تركيزًا على فعل الوحي، وتعظيمًا للموحى به[1].

دلالة تعدية ﴿أُوحِيَ﴾ بـ(إلى) دون اللام:

الـوحـيُ مـن الله تعالى بلَغَ غايته، ووصلَ كاملًا إلى النبي ﷺ

عُدي الفعل ﴿أُوحِيَ﴾ بحرف الجرّ (إلى)، ومعناه: انتهاءُ الغاية الزمانية والمكانية، ولم يتعدَّ باللام، فلم يقل: (أوحي له)؛ للدَّلالة على معنى الانتهاء في الوحي، والإشارة إلى مصدره ومتلقّيه، أي: إنَّ الوحي تحرَّك من مصدره (وهو الله تعالى)، وبلغَ غايته ونهايته فوصل وصولًا كاملًا إلى النبي ﷺ المبلِّغ عن ربّه، وفي هذا إثباتٌ لمصدر الوحي الإلهي، ولتلقّيه كاملًا من النبي ﷺ.

دلالة ياء المتكلم في قوله: ﴿إِلَيَّ﴾:

الوحيُ مختصٌّ بوصوله إليه ﷺ وواجبٌ عليه تبليغه

في إضافة ياء المتكلّم إلى حرف الجر (إلى)، في قوله تعالى: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، تقييدٌ لفعل الوحي، ووصوله إلى النبي ﷺ خاصّة، أي: هذا الوحي مختصٌّ بالنبي ﷺ دون غيره، ومن ثم واجبٌ على النبي ﷺ تبليغ ما أوحي إليه.

دلالة التعبير بـ(أنّ) في قوله: ﴿أَنَّهُ﴾:

في توكيد خبر استماعِ الجنِّ لـقـراءة النبيّ ﷺ اهتمامٌ به

عبَّر البيانُ الحكيمُ بحرْفِ (أنَّ) في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾؛ لإفادة تأكيدِ الخبَرِ الموحَى، وهو خبرُ استماع الجنِّ لقراءته، وأمره بإبلاغ قومه بهذا الخبر؛ اهتمامًا به لغَرابتِه[2]، والتوكيد في السورة ظاهرة بارزةٌ فيها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 462.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 218.

دلالة التعبير بضمير الشأن في ﴿أَنَّهُ﴾:

خبر استماع الجنّ لقراءة النبي ﷺ محلّ تعظيمٍ وتفخيم

الضَّميرُ في قوله: ﴿أَنَّهُ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، وخبَرُه جُملةُ: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وقد عبّر به البيانُ القرآني؛ زيادةَ اهتمامٍ بالخبَرِ الموحَى به؛ إذ يُعطيه التعظيم والتفخيم[1]، "أي: الشأن العظيم"[2].

سرّ التعبير بالاستماع:

استماعُ الجنّ للقرآن نتجَ عنه فهمهم له واستفادتهم منه

في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ عبّر البيانُ القرآني بالاستماع دون الإنصات؛ للدلالة على أنّ استماعَ الجنِّ نتجَ عنه فهمهم للمسموع - وهو القرآن - واستفادتهم منه، وهو إيمانهم به، ولو عبَّر بالإنصات؛ لَما دلّ على هذه المعاني، ولدلّ على مجرّد السكوت للاستماع؛ لأنّ الإنصاتَ في اللغة هو السكوت للاستماع، في حين أنّ الاستماعَ هو قصدُ السماع وإدراكُ المسموع بغية فهمه، والاستفادة منه[3].

دلالة التعبير بـ﴿ٱسْتَمَعَ﴾:

استماعُ الجنّ للقرآن غايةُ إصغائهم له وإقبالهم عليه

عبَّر البيانُ الحكيم بالفعل ﴿ٱسْتَمَعَ﴾ على صيغة الافتعال التي تدلُّ على شدّةِ الطلب والتكلّف والمحاولة والتحرّي، والاجتهاد في الطلب؛ للدلالة على المبالغة في الاستماع والإنصات الشديد، وإقبالهم وتقبُّلهم لهذا الكلام العجيب وإلْفهم به[4]، فالاستِماعُ هوَ استفادةُ المسموع بالإصغاء إلَيهِ لفهم، في حين أنّ السماع هو اسمٌ للمسموع[5]، وهذا يعني أنَّ جماعةَ الجنّ قد أعطتْ سمعها للقرآن، وأقبلتْ عليه، والتفتتْ بمشاعرها كلّها إليه[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 220.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 462.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 89.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 462.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 89.
(6) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1219.

دلالة التعبير بالماضي ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾ دون المضارع:

استماعُ نفرٍ من الجنّ للقرآن وإيمانهم به حقيقةٌ ثابتةٌ لا مراء فيها

جاءَ التعبيرُ عن فعل الاستماع بصيغة الماضي؛ لأنّه وقعَ في زمنٍ سبقَ إخبار النبي ﷺ به، وهو إخبارٌ عن معجزة حسّيَّة وقعتْ للنبي ﷺ، وهي استماعُ نفر من الجنّ للقرآن وإيمانهم به، والتعبير بصيغة الماضي يؤكّد تحقُّق الخبر، وأنّه حقيقةٌ ثابتة لا مراءَ فيها، ممّا يزيد اليقين في قلب المؤمن.

فائدة حذف مفعول ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾:

في الاختصار تركيزٌ على فعلِ الاستماع

حُذِفَ مفعول ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾، وهو القرآن الكريم، كما ذكر في قوله: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الأحقاف: 29]؛ اختصارًا لدلالةِ ما بعدَهُ عليه، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾[1]، ويمكن أنْ يكون تقدير المحذوف هو (إليك)، والتقدير: أنّه استمع إليك نفرٌ من الجنّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ [الأنعام: 25]، ويكون الحذف؛ لإفادة التركيز على القول المسموع، والدلالة على شرفه، وهو القرآن الكريم، لا التركيزَ على شخصِ النبي ﷺ، كما في الآية الأخرى.

دلالة التعبير بـ﴿نَفَرٞ﴾ دون رهط أو طائفة:

جماعةٌ قليلةٌ من الجنّ من طبعها النفرة تستمع إلى القرآن

عبّر البيانُ القرآني بالنفر في قوله تعالى: ﴿نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ لبيان أنّ عددهم كان قليلًا مادون العشرة، فالنَّفرُ: الجماعة من ثلاثة إلى عشرة، وأصلُه في اللغة لجماعةٍ من البشر، فقد أطلقه على جماعة من الجنِّ على وجهِ التشبيه؛ إذ ليس في اللغة لفظ آخر[2]، وأيضًا فإنَّ هذا اللفظ أكثرُ مناسبةً لحال المستمعين، وهم الجنّ الذين هم أجسامٌ حيّة عاقلةٌ خفيفة تغلبُ عليها النارية أو الهوائية، كما تغلب على أجسام الإنس الترابية؛ إذ فيه إشارةٌ إلى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 42.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 220.

أنَّهم في غايةِ النفرة جبلَّة وطبعًا[1]، ومع هذه النفرة استمعوا إلى القرآن، وأثّر فيهم.

نكتة تنكير ﴿نَفَرٌ﴾:

نفرٌ قليلٌ مجهولٌ كانوا سببًا في إيمان طائفةٍ كبيرة

أتى التعبير بلفظ ﴿نَفَرٌ﴾ منكرًا؛ للدَّلالة على التقليل، وهذا يتناسبُ مع معنى النفر؛ إذ هو الجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة، وأيضًا للدلالة على الإبهام وعدم التعيين، فالنفرُ من الجنّ الذين استمعوا للقرآن غير معروفين بالذات أو بالصفة، وفي الإشارة إلى قلّتهم وعدم تعيينهم إظهارٌ لأثر القرآن العجيب في النفوس، حتى أنّ نفرًا قليلًا مجهولًا كانوا سببًا في إيمانِ طائفة كبيرة.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾:

النفر الذين استمعوا للقرآن من بعض جنس الجنّ

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ تبعيضية، فقد سخّرَ اللّهُ تعالى بعضًا من النوعِ المسمّى جِنًّا لاستِماعِ القُرْآنِ[2]، ويمكن أن تكون ﴿مِّنَ﴾ بيانية أيضًا؛ إذ بيَّنت نوع النفر الذين استمعوا إلى القرآن بأنَّهم من جنس الجنّ.

سر التعبير بالجن دون الجان:

الذين استمعوا للقرآن نفرٌ من جنسِ الجنّ

التعبيرُ بالجنّ هنا أنسبُ من الجانّ؛ لأنّ المقصودَ جنسُ الجنِّ الذين هم خلافُ الإنس، والواحد جنّي، أي: استمعَ نفرٌ من جنسِ الجنّ إلى القرآن، ولا يتناسبُ لفظ الجانّ مع المعنى هنا، فالجانّ هو أبو الجنّ، كآدم أبو البشر[3].

معنى الفاء في الفعل: ﴿فَقَالُوٓا۟﴾:

تسبّب عن استماع الجنّ للقرآن إبلاغ قومهم بذلك

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ تفيدُ السببية، أي: فتسبّب عن استماعهم للقرآن أنْ قال من سمع منهم لمن لم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 462.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 218.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (جنن).

يسمع، أي: إبلاغ قومهم بما سمعوه[1]، وفي الفاء أيضًا إشارة إلى سرعة إبلاغهم قومهم ودعوتهم إياهم إلى الحقّ والهدى، وفي هذا تعريضٌ بالمشركين الذين لم يؤمنوا، بل وصدّوا الناس عن الإسلام.

دلالة التعبير بالماضي: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾:

قصة استماع الجنّ للقرآن وتبليغهم له حقيقة ثابتة

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالقول في قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾، بصيغة الماضي دلالةً على تحقُّقِ وقوعِ القول من النفر من الجنّ الذين استمعوا للقرآن وتبليغهم ذلك لقومهم حقيقة واقعة، وهذا يتناسبُ مع كون القصَّة حدثتْ، وانقضتْ، ومع ورود الأفعال في الآية بصيغة الماضي: ﴿أُوحِيَ﴾، ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾، ﴿سَمِعۡنَا﴾.

بلاغة الاستعارة في الفعل: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾:

قولُ الجنّ هو إبلاغُ مرادهم إلى قومهم بالكيفية التي يتفاهمون بها

المرادُ بالقول في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾: إبلاغُ هؤلاء النفرِ من الجنّ ما يريدون أنْ يبلّغوه لقومهم بالطريقة التي يتفاهمون بها، وليس المراد كلامًا ككلامِ الإنس؛ إذ ليس للجنّ ألفاظٌ تجري على الألسن فيما يظهر، فالقولُ إذًا مستعارٌ للتعبير عمّا في نفوسه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: 18][2].

بلاغة التأكيد بـ﴿إِنَّا﴾:

تأكيدُ خبر سماع الجن للقرآن لغرابته ولزيادةِ الاهتمام به

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ تأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ لغرابة الخبر، وهو ما كان من استماعهم القرآن وإيمانهم به، ولزيادة الاهتمام به، ولأنَّهم أخبَروا به فريقًا منهم يَشُكّون في وُقوعِه، فأتَوا في كَلامِهم بما يُفيدُ تَحقيقَ ما قالوه[3]، ولأنّهم كانوا بعيدين عن سماعِ الوحي[4]، وجاءَ التوكيدُ في قوله: ﴿إِنَّا﴾ متصلًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 464.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 220.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 464.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 464.

بضمير الشأن؛ لتعظيمِ شأن المُخبَر به، وهو القرآن الكريم، وليتناسب مع سياق التعظيم بوصف القرآن بالمصدر ﴿عَجَبًا﴾.

سرُّ التعبير بقوله: ﴿سَمِعۡنَا﴾:

سماعُ الجنّ للقرآن كان حقيقةً ومعرفتهم بصدقهِ ترتَّب على سماعهم له

التعبيرُ بالسماع لإفادة معنى تعمُّد الجنّ للإصغاء للقرآن، أي: أصغينا، وألقينا إليه أفهامنا[1]، فاستماعُ الجنّ للقرآن كان حقيقة، فهم سمعوا النبيَ يتلو القرآن، ومن ثمّ فهموا معانيه بإلهام من الله تعالى، وما حصلَ لهم من شرفِ المعرفة بصدق القرآن وما احتوى عليه من إعجاز كان بعد سماعهم القرآن، ففي التعبير بفعل السماع إشارةٌ إلى إعجازِ القرآن الصوتي وتأثيره في النفوس، فقد اعترفوا بغرابته وإعجازه على الفور، حتى قبل أنْ يتحوَّل هذا السماع إلى علمٍ وتدبُّر، ولو عبَّر بقوله: (علمنا)؛ لَمَا أفاد هذه المعاني.

بلاغة الجناس الاشتقاقي بين قوله: ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾ و﴿سَمِعۡنَا﴾:

جناسٌ يعطي جماليةً في السمع، ويؤكّدُ على استماع الجن

بين اللفظين ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾ و﴿سَمِعۡنَا﴾، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾: جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ يرجعُ اللفظان إلى جذرٍ لغوي واحد هو (سمع)، إلا أنّ لفظ ﴿ٱسۡتَمَعَ﴾ على وزن افتعل، ولفظ ﴿سَمِعۡنَا﴾ على وزن (فعلنا)، وكلاهما جاء بصيغة الماضي، ممّا يعطي جماليةً في السمعِ، تحملُ السامعَ على الإصغاءِ، وتزيدُ المعنى وضوحًا، وتساعدُ على ترسُّخهِ في الذّهن.

سرّ التعبير بقوله: ﴿قُرۡءَانًا﴾:

الجنّ سمعوا القرآن من تلاوة النبي ﷺ، ولم يقرؤوه من كتاب

آثرَ البيانُ الحكيم التعبيرَ بلفظ ﴿قُرۡءَانًا﴾ دون (كتابًا)؛ للإشارة إلى أنّه كلامٌ هوفي غاية الانتظام في نفسه والجمع لجميع ما نحتاج إليه[2]؛ لأنّ من معاني قرأ الجمع، فضلًا عن أنّ لفظ ﴿قُرۡءَانًا﴾ أكثرُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 464.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 464.

مناسبة مع الاستماع، فالقرآنُ من القراءة والتلاوة، والجنّ سمعوا القرآن من تلاوة النبي ﷺ، ولم يقرؤوه من كتاب؛ إذ الكتابُ من الكتابة والجمع والحفظ.

نكتة تنكير ﴿قُرۡءَانًا﴾:

قرآنٌ عظيم في غايةِ الانتظام لم يكنْ معروفًا عند الجنّ

التنكيرُ في قوله: ﴿قُرۡءَانًا﴾ يفيدُ التفخيمَ والتّعظيم لهذا القرآن، فهو كلامٌ جليلُ القدر، عظيمُ الشأن، بديعُ الأسلوب في غايةِ الانتظام في نفسه وفي جمعه لجميع ما نحتاج إليه، وهذا يتناسبُ مع وصفه بـ﴿عَجَبًا﴾، فضلًا عن إفادةِ الإبهام، فالقرآنُ لم يكنْ معروفًا عند الجنّ، فهُم أوّل مرة يستمعون له.

سرّ وصف القرآن بالعجب:

سامعُ القرآن يتعجّب منه لبراعته وفصاحته وحسن مضامينه

وَصَفَ القُرآنُ ما سمعه الجنّ من القرآن الكريم، في قوله: ﴿قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾ بصيغة المصدر (العجَبِ) - وهو: ما خرجَ عن حدّ أشكاله ونظائره - دون (عجاب أو عجيب)؛ للمُبالغة في قوّة المعنى؛ لأنّ الوصف بالمصدر أقوى من الوصف بالصفة، أي: يعجب منه، ومعنى ذلك أنّه بديعٌ فائقٌ في مفاده[1]، وهو عزيزٌ لا يوجدُ مثله، عجبٌ في نفسِه؛ لفَصاحةِ كَلامِه، وحُسنِ مَبانيه، ودِقَّة مَعانيه، وغَرابةِ أُسلوبِه، وبَلاغةِ مَواعظِه، وكَونِه مُبايِنًا لسائرِ الكُتُبِ[2]، وفي حسن نظمه وصحّة معانيه، فضلًا عن كلام الناس[3]، قائمة فيه دلائل الإعجاز[4]، والعجبُ مصدر يقع من سامع القرآن لبراعته وفصاحته ومضمّناته، وليس نفس القرآن هو العجب[5].

بلاغة التّعبير بجملة: ﴿سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾:

قولُ الجنّ لمّا سمعوا القرآن يدلّ على قوّتهم الإيمانية والعلمية

يدلّ ما أخبر الله به من قول الجنّ؛ لما سمعوا القرآن: ﴿سَمِعۡنَا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 623، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 221.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 293.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 464.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 623.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 379.

﴿قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾، على قوّتهم العلمية في فصاحتهم، وكمالهم في علم الرسوم، وصوغ الكلام على أبلغ جهات النظوم[1]، أو حصل لهم العلم بمزايا القرآن بانكشاف، وهبهم الله إيّاه لأدلةٍ كانوا لا يشعرون بها؛ إذ لم يكونوا مطالبين بمعرفتها، أي: إنّ فهمهم للقرآن من قبيل الإلهام، خلقه الله فيهم على وجه خرق العادة؛ كرامة للرسول ﷺ وللقرآن، وكذلك يدلّ على قوتهم الإيمانية؛ لأنّ الإيمان بالقرآن يقتضي الإيمان بمن جاء به، وبمن أنزله، ولذلك قالوا: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، وبذلك يكون قد حصل لهم شرف المعرفة بالله وصفاته وصدق رسوله ﷺ، وصدق القرآن وما احتوى عليه ما سمعوه منه، فصاروا من خيرة المخلوقات[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفَر والطائفة والجماعة:

عـددٌ قليلٌ من الـجـنّ طبعهم الـنـفـرة تـأثّـروا بالقرآن، وآمنوا به، وبلّغوه إلى قومهم

النّفرُ أخصُّ هذه الألفاظ، فالنفرُ من الثّلاثة إلى العشرة، وهم رهطُ الرَّجل وعشيرته الأدنون؛ لأنَّهُم يَنفِرونَ لِلنُّصرَةِ، ويشيرُ معنى النفر إلى التَّجافي والتَّباعُد عَنِ المكانِ والمقَرِّ[3]، أمّا الطّائِفَة: فهي الجماعةُ التي من شأنها الطوف في البلاد للسفر، أو التي تطوفُ حولَ مذهبٍ عام، ولا تكادُ العربُ تحدّها بعددٍ معلوم[4]، وأمّا الجَماعَةُ: فهي أعمُّ هذه الألفاظ؛ إذ هي عَدَدُ كُلِّ شيءٍ وكثرتُه، وتدلّ في أصلها عَلَى تَضامِّ الشَّيءِ، أي: ضمُّ الشيء بتقريبِ بعضه من بعض[5]، فهي الجماعةُ يجمعها غرضٌ واحد، وتُطلَق على القليل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 464.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 221.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (طوف)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 278.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (جمع).

والكثير[1]، وقد ناسب هنا استعمال لفظ النفر؛ للدلالة على أنّ عدد الجنّ أقل من عشرة، وأنّ من طبعهم النفرة، فقد نفروا، وابتعدوا عن أماكنهم ومقرّهم، وسمعوا القرآن من النبي ﷺ، وهذا أدعى للغرابة، فهُم مع قلّة عددهم ونفرة طباعهم؛ قد تأثّروا بالقرآن، وآمنوا به، وبلّغوه إلى قومهم.

(1) الفيومي، المصباح المنير، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، والمعجم الوسيط: (جمع).

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾ [الجن: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد بيانِ فضل القرآن في مبانيه بُيّنَ فضله في معانيه

لَمّا بَيَّن الجنُّ فضلَ القرآنِ مِن جهةِ الإعجازِ وغَيرِه؛ بيَّنوا المقصودَ بالذّاتِ الدّالَّ على غَوصِهم على المعاني، بَعْدَ عِلْمِهم بحُسنِ المباني[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾: أصلُ (رشد) يدلُّ على استقامةِ الطّريق، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خلافُ الغَيِّ[2]، ونقيضُ الضلال، وأرْشَدَه اللّهُ إلى الأمر: هداهُ، واسترْشَدَه: طلبَ منه الرُّشْد، والرُّشْدُ هو صلاحُ الأمرِ وكونه على الوجهِ الصحيح، وهو استقامةٌ على الطريقِ الحقّ مع تصلُّب فيه[3]، وقيل: الرُّشدُ والرَّشدُ والرَّشادُ: الهدايةُ والاستقامةُ[4]، ومعنى الرشد في الآية: الحقّ والصواب، وإصابةُ المقصود النافع، وهو وسيلة للخير[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إكمالٌ لوصف القرآن وإذعانٌ له بالإيمان

يقولُ اللّه تعالى على لسان الجنّ: هذا القرآن الذي سمعناه، يهدي إلى الحقّ وسبيل الصواب من غير تخلُّف أصلًا، فآمنّا بما جاء فيه، وصدّقناه، فلا نخالفه أدنى مخالفة، ولا يمكن أنْ نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك بربنا في المستقبل أحدًا من خلقه[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ مما قبلها ودلالته:

هدايةُ القرآن إلى الرشد صفةٌ ثانية له

جملة: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ وقعت صفة ثانية للقرآن[7]، فالقرآن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 466.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رشد).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رشد).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 231.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 647، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 467.
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 291.

عجيب في فصاحته وبلاغته ومواعظه، ويهدي إلى الرشد، والغرض ذكر الغرض من القرآن الكريم، فهو كتاب هداية.

سر تقديم وصفهم القرآن بالعجب على وصفه بالهداية:

القـرآنُ عجيبٌ في ذاته وغرضُه الهدايةُ للرشد

قدّمَ البيانُ القرآني - على لسان الجنّ - وصفهم للقرآن بأنّه ﴿قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾، على وصفهم له بأنّه ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾؛ تناسبًا مع تسلسل الصفات، فبعد أنْ وصفوه في ذاته بأنّه عجب، وصفوه بالغرض منه، وهو أنّه يهدي للرشد، وفي هذا دلالةٌ على تأثّرهم به تأثّرًا شديدًا، فبمجرّد سماعهم له أُعجبوا بنظمه المتقن، وأسلوبه الحكيم، وأنّه كلامٌ عجبٌ لم يسمعوا مثله، ثم تأثّروا بما اشتمل عليه من معانٍ كريمة مضيئة بنورِ الحقّ تهدي إلى الرشد والفلاح والصلاح.

دلالة التعبير بفعل الهداية دون الدلالة:

القرآنُ يدلّ على الـرشـدِ وعـلى الإيـمان بالله، ويوصلُ إليهما

عبّر البيانُ القرآني بالهداية في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾، ولم يقلْ: (يدلّ إلى الرشد)؛ لكون الهداية أنسبَ للسياق، فهي أخصُّ من الدلالة، فالهدايةُ هي الدّلالةُ بلطفٍ إلى ما يوصلُ إلى المطلوب، وهي خِلافُ الضَّلالَةِ، وأصلها: التَّقَدُّمُ لِلإِرْشادِ(1)، فالقرآنُ يدلّ على الرُّشد الطريق الصحيح، ويوصل إليهما في الدنيا والدين، وإلى معرفة اللّه وطاعته والإيمان به، وهذا المعنى يؤكّده قوله بعده مباشرة: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾، أي: تسبّب عن هدي القرآن إيمانهم باللّه تعالى.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿يَهۡدِيٓ﴾:

هـديُ الـقـرآن متجدّدٌ مستمرٌّ إلى يوم القيامة لا ينقطع

جاء التعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾؛ لإفادة معنى التجدّد والاستمرار، فهديُ القرآن متجدّدٌ مستمرّ إلى يومِ القيامة لا ينقطع، وهذا من إعجازِ القرآن الكريم، بأنّ هدايته لا يعتريها الانقطاع، فهي متجددةٌ لا تنفدُ معانيه، ولا تنقضي عجائبه.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هدى).

دلالة تعدية ﴿يَهۡدِيٓ﴾ بـ﴿إِلَى﴾ دون اللام:

نهايةُ اتّباع القرآن وغايتُه الهدايةُ إلى الحقّ والصواب

﴿إِلَى﴾ حرف جرّ، ومعناه: انتهاءُ الغاية الزمانية والمكانية، والفعل ﴿يَهۡدِيٓ﴾ يتعدّى باللام، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 35]، ويتعدّى بـ﴿إِلَى﴾ - كما في الآية هنا - وقد تعدّى هنا بـ﴿إِلَى﴾، ولم يتعدَّ باللام؛ لتضمّنه معنى الانتهاء في الهداية، والوصول إلى الغاية، يهدي منتهيًا وموصلًا إلى الرشد وإلى الطريق الصحيح في الدنيا والدين، أي: نهايةُ اتباع القرآن وغايته الاهتداءُ إلى مصالح الدين والدنيا، والوصول إلى الله وإلى طاعته.

دلالة التعبير بـ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ معرَّفًا:

القرآنُ يهدي إلى الرشد الكامل والمطلق

يدلّ تعريف لفظ ﴿ٱلرُّشۡدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾، على الكمال والشمول والاستغراق، فالقرآنُ يهدي إلى الرشد الكامل والمطلق، ويهدي إلى جميع أنواع الرشد والخير والصواب والصلاح في الدنيا والآخرة، ويهدي إلى التوحيد والإيمان، وفي هذا دلالةٌ على عظمة القرآن وتميُّزه عن كلّ كلام، ممّا جعل الجنّ يتعجَّبون منه، ويؤمنون به بدون تردُّد.

بيان المتشابه اللفظي مع قوله: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾:

السياقُ الواسعُ الشامل يناسبهُ اختيار اللفظ الأعمّ الأشمل

عبّر في سورة الجن بقوله: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾، وعبّر في سورة الأحقاف: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ [الأحقاف: 30]، والحقّ أعمّ وأوسع دلالة وأشمل من الرشد، الذي يعني الصلاح في الدنيا والآخرة، وهذا يتناسبُ مع سياق كل سورة، ففي سورة الأحقاف ذكر أمورًا في القرآن كثيرة فصّل فيها، في حين لم يتوسّع في سورة الجنّ بالحديث عن القرآن، أي: سياق آية الأحقاف أعم ممّا في آية الجنّ وأوسع وأشمل، فناسب ذكر الحق الذي هو أوسع وأشمل، فضلًا عن تناسب ورود كلّ لفظ وتكرُّره في السورة الوارد فيها، فكلمة (الحقّ) وردت في الأحقاف ست مرات، ولم ترد في سورة

الجن، في حين وردت كلمتا الرُّشد والرَّشد في الجنّ أربع مرات، ولم تردْ في سورة الأحقاف[1].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا﴾:

هدايةُ القرآن وأسلوبه الحكيم تسبّبَ بإيمان الجنّ وسرعةِ استجابتهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ عاطفةٌ فيها معنى السببية، فكون القرآن عجيب في ذاته، ويهدي إلى الرشد سببٌ للإيمان باللّٰه سبحانه، وفيها معنى الترتيب والتعقيب وسرعة الاستجابة؛ فإنَّهم أعلنوا إيمانهم به بدون تردُّد، وهذا يدلّ على تأثّرهم به تأثُّرًا شديدًا، وإعجابهم العظيم بنظمه المتقن، وأسلوبه الحكيم، ومعانيه البديعة[2]، وفي هذا توبيخٌ للكفّار من بني آدم؛ إذ آمنت الجنّ بسماع القرآن مرّةً واحدةً، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وآمنوا به، ولم ينتفع كفّار الإنس بسماعه مرّات متعددة وفي أوقات مختلفة، وقد نزل بلغتهم[3].

دلالة إسناد الفعل إلى ضمير الجمع في ﴿فَـَٔامَنَّا﴾:

كلُّ الجنّ الذين استمعوا للقرآن آمنوا به

التَّعبيرُ بواو الجماعة مسندًا إليه، في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾: دليلٌ على أنّ كلّ الذين استمعوا للقرآن آمنوا، لم يتخلّف واحد منهم، مما يدلّ على شدّة تأثير القرآن الكريم وهدايته.

دلالة تعدية (آمنا) بالباء في ﴿بِهِۦۖ﴾:

الجنُّ آمنوا بالقرآن وبما جاء به

عُدي الفعل (آمنا) هنا بالباء؛ لإرادة الإيمان بالمعنى الاصطلاحي، وهو الإقْرارُ بما جاء به النبيّ باللِّسانِ، والاعتقادُ بِالقَلْبِ والعَمَلُ بالأعضاء بِمُقْتَضى ما صدّق بِهِ بإقراره، واعتقده بِقَلْبِه[4]، فهُم صدّقوا بالقرآن، وبما جاء به من الإيمان باللّٰه وصفاته

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 12/ 285.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 131.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 292.
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 418.

ورسالة النبي ﷺ، ويمكن أنْ تحتمل الباء السببية، أي: فاهتدينا بسببه، وصدقنا أنّه من عند اللّه، فيعمّ الإيمان به الإيمان بما فيه[1].

دلالة التعبير بالماضي (آمنا):

إيمانُ الجنّ كان حقًّا لا يخالطه شكّ أو ريب

عبّر البيانُ الإلهي بفعل (آمنا) بصيغة الماضي دون المضارع؛ للدلالة على تحقُّق وقوع الإيمان من الجنّ وتأكُّده، وأنهم آمنوا به حقًّا، لا يخالطُ إيمانهم شكّ أو ريب، وقد حدثَ هذا قبل أنْ يذهبوا إلى قومهم، وينقلوا لهم الخبر، مما يدلّ على أنهم آمنوا مباشرة عند سماعهم القرآن، ثم سارعوا بتبليغ الدعوة لقومهم من الجنّ.

سر التعبير بالضمير دون الاسم الظاهر في ﴿بِهِۦۖ﴾:

مــن بــلاغــة القرآن الاختصار والإيجاز

في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ عبّر البيانُ القرآني بالضمير دون الاسم الظاهر، فلم يقل: (فآمنا بالقرآن)؛ وجاء ذلك اختصارًا؛ لكونه معلومًا من السياق؛ إذ الكلامُ فيما سبق عن القرآن، ويمكن أنْ يرجع الضمير إلى الاسم الجليل، والمعنى: آمنا باللّه، لأنَّ قوله: (بربنا) يُفسِّره[2].

بلاغة العطف بالواو في قوله: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ﴾:

الإيــمــانُ ونــفــيُ الشرك متلازمان ومقترنان

الواو في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ﴾ عاطفة؛ لإفادة الجمع بين الإيمان ونفي الشرك، فالتفريع بالفاء والتعقيب يمهّدان لقوله: (لن نشرك)، أي: الإيمانُ وعدم الشرك متلازمان ومقترنان، فبمجرَّد إيمانهم استحالَ في عقيدتهم حصول الشرك، مما يدلُّ على كمال إيمانهم، ولو عطف بالفاء؛ لفُهم أنّ نفي شركهم ترتّب على إيمانهم وحصل بعده، وهذا غير مراد، ويمكن أنْ تكون الواو حالية، والمعنى: "والحال أنّا مع إيقاع الإيمان في الحال لن نشرك بعد ذلك أصلًا"[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 94.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 153.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 30/ 467.

سرّ الجمع بين الإخبار بالإيمان، ونفي الشرك:

تمامُ الإيمان يكون بالبراءة من الشرك والكفر

نفيُ الشرك بعد الإقرار بالإيمان هو من تمامِ الإيمان؛ لأنّ تمامَ الإيمان إنما يكون بالبراءة من الشرك والكفر، فلكونه قرآنًا معجزًا بديعًا وجب الإيمان به، ولكونه يهدي إلى الرشد؛ وجب قطع الشرك من أصله[1]، وفي نفيهم الإشراك بالله دليلٌ على رسوخ الإيمان في قلوبهم، واطمئنانهم إلى أنه منزّل من عند الله، فلن يعودوا إلى الإشراك بالله أبدًا، بل يفردونه وحده بالأُلوهية والرّبوبية[2].

دلالة النفي بـ(لن) دون (لا):

تأكيدُ الجنّ إيمانهم بنفي إشراكهم بالله وعزمهم على عدم العودة إلى الكفر

نفى الجنّ إشراكهم بالله في المستقبل بحرفِ النّفي (لن) الذي يفيد التأكيد؛ توكيدًا للمؤكّد، وهو إيمانهم عند سماعهم للقرآن فيما حكاه الله سبحانه: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾، وسببُ هذا التوكيد بالنفي أنّهم كانوا قبل سماع القرآن مشركين؛ فلذلك أكّدوا إيمانهم وعزمهم على عدم العودة إلى الكفر[3]، فإيمانهم واهتداؤهم عند سماع القرآن يكاد لا يُصدق[4].

معنى الباء في قوله: ﴿بِرَبِّنَآ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ﴾، هي بمعنى (مع)، أي: ولن نشرك معه في العبادة أحدًا[5].

سرّ التعبير بلفظ الربوبية دون الألوهية:

الإقرارُ بالربوبية يوجبُ إفراده بالعبادة

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الرّبوبيةِ في قوله: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ﴾، ولم يقل: (ولن نشرك بالله)؛ لكون الربوبية أنسبَ مع إقرار الجنّ استحاق الله وحده بالعبادة وعدم إشراك أحدًا معه سبحانه، فهو

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 292.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1613.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 221.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 30/ 467.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 131.

المربي والمالك والمتصرف والمنعم والمدبر والمحسن والرازق والخالق، فالإقرار بالربوبية يوجب إفراده بالألوهية والعبادة، وفي التعبير بالربوبية تعريضٌ بالمشركين الذين يشركون في عبادة من يرزقهم، وينعم عليهم، ويحسن إليهم أصنامًا لا تنفع، ولا تضر.

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿بِرَبِّنَآ﴾ على المفعول ﴿أَحَدًا﴾:

تعظيمُ اللهِ تعالى وتنزيهه ونفي الشرك عنه هو المقصود الأول

تقديمُ الجار والمجرور ﴿بِرَبِّنَآ﴾ على المفعول ﴿أَحَدًا﴾ من باب تقديم الأهم والأجلّ على الأدنى، وفي هذا تعظيمُ اللّه تعالى وتنزيهه، وأنّه هو المقصود الأول، وبيان أنّ علة التوحيد هي استشعار ربوبية اللّه وكماله وعظمته، وأفاد التقديم أيضًا الحصرَ والقصر، أي: بربنا خاصّة، وهو حصرٌ لنفي الشرك في حقّ اللّه تعالى تنزيهًا له وتقديسًا.

نكتة تنكير قوله: ﴿أَحَدًا﴾:

في مبالغة الجنّ نفي إشراكهم باللّه أيَّ أحدٍ تأكيدٌ على رسوخ إيمانهم

جاء التعبيرُ بلفظ ﴿أَحَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ موضِّحًا مدى تأثُّر الجنّ بالقرآن الكريم، وتصديقهم لما جاء فيه واقتناعهم به، فنفوا عن أنفسهم الإشراكَ باللّه في المستقبل، وأكّدوا ذلك بقولهم: ﴿أَحَدًا﴾، وصيغَ نكرة مسبوقًا بنفيٍ لإفادة العموم واستغراق النفي، والمعنى: لن نشرك معه في العبادة أحدًا كائنًا من كان هذا الأحد؛ لأنّه لم يشركه في شيء من أمرنا، وقد وضّحت الدلائل على التوحيد فيما سمعنا من هذا القرآن[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهداية والرشد:

اتباعُ القرآن يوصلُ إلى معرفة اللّه تعالى والإيمان به

الهدايةُ هي الدَّلالةُ بلطفٍ إلى ما يوصلُ إلى المطلوب[2]، فهي خِلافُ الضَّلالَةِ، وأصلُ الهداية: التَّقَدُّمُ لِلإرشادِ[3]، فالهدايةُ تمكّن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 467، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 131.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (هدى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).

من الوصول إلى البغيةِ، وإلى الغاية المرجوّة[1]، والرشدُ خلافُ الغَيِّ، وهو إصابةُ الخير والصواب، واستقامة الطّريق[2]، وصلاحُ الأمرِ وكونه على الوجهِ الصحيح الحقّ مع تصلُّبٍ فيه[3]، وقد ناسبَ هنا الجمع بين الهداية والرشد؛ للدلالة إلى أنّ اتّباع القرآن ليس مجرّد دلالة عامة، بل يهدي، ويمكّن من الوصول إلى البغية المرجوة، وهي إصابة الخير والحقّ والصواب واستقامة الطريق وصلاح الأمر ومعرفة الله تعالى والإيمان به.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 209.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رشد).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رشد).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ٣﴾ [الجن: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

سماعُ القرآن والإيمانُ به يستلزمُ تنزيهَ الله عن تشبيهه بخلقه

بعد استماعِ النفر من الجنّ إلى القرآن وإيمانهم به؛ تنبَّهوا على الخطأ فيما اعتقده كفرةُ الجنّ من تشبيه اللّٰه بخلقه واتخاذه صاحبة وولدًا، فاستعظموه، ونزّهوه عنه، فقال حكاية عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعَٰلَىٰ﴾: فعلٌ مِنَ علا يَعْلو عُلوًّا، والأصلُ في العينِ واللّام والحرفِ المعتلِّ دلالتُه على السُّموِّ والارتفاعِ والشَّرفِ[2]، والعلوُّ: العظمةُ والتَّجبُّرُ، وهو ضدُّ السّفلِ، واللّٰه سبحانَه تعالى رفعةً وتشريفًا[3]، وصفةُ (المُتَعال) "صفةٌ للّٰهِ تعالى بمعنى علوِّ أمرِهِ وصفاتِهِ، لا باعتبار مكانٍ تَعالى عن ذلك..."[4]، و﴿تَعَٰلَىٰ﴾: ارتفَعَ، فتَنَزَّهَ عن إفكِ المُفترينَ والمُشرِكينَ[5]، وهو المعنى المُرادُ في الآيَةِ.

2) ﴿جَدُّ﴾: (جدد) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: الأوَّلُ العَظَمَةُ، والثّاني الحَظُّ، والثّالِثُ القَطْعُ، يُقالُ: جَدَّ الرَّجُلُ في عَيْني، أي: عَظُمَ، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، قيلَ: جَدُّه عَظَمَتُهُ، وقيلَ: غِناهُ[6]، والجَدُّ: العظمةُ والجلال، وقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، أي: تعالى جلاله

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 632، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/ 132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (علو).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (علو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جدّ).

وعظمته وأمره[1]، والمعنى وصفُه بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته، أو لسلطانه أو لغناه[2].

3) ﴿صَٰحِبَةً﴾: اسمُ فاعلٍ مُؤنَّثٌ، وأصلُ (صحب) يدُلُّ على مُقارنةِ شيءٍ ومُقاربته، وكلُّ شيءٍ لازمَ شيئًا؛ فقد استصحبه[3]، فالصّاحِبُ هو المعاشرُ والمُلازِمُ، ولا فَرقَ بينَ أنْ تكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبدنِ - وهو الأصلُ والأكثَرُ - أو بالعنايَةِ والهِمَّةِ[4]، ومعنى الصّاحبة هنا: الزّوجةُ، فهي تصاحبُ الزَّوجَ في غالبِ أحوالِهِ، والمقصودُ في الآية: تنزيهُ الله عن اتّخاذ الزوجة؛ لأنّ اتخاذ الصاحبة؛ للافتقار إليها؛ لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها، وكلّ ذلك من آثار الاحتياج، والله تعالى الغني المطلق[5].

المَعنى الإجماليّ:

تعظيمُ الجنِّ لله وتنزيههم له سبحانه عن اتخاذِ الصاحبة والولد

قال تعالى حكاية عن الجنِّ: وأنّ الأمرَ والشأن أنّه ارتفعَ، وتعاظمَ جلالُ ربنا، وتنزّه في ذاته وصفاته، عن أنْ تكون له صاحبةٌ، أو أنْ يكون له ولد، كما زعم الزاعمون من الكافرين الجاهلين[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله ﴿وَأَنَّهُۥ﴾:

بعد استماعِ الجنّ للقرآن وإيمانهم به أخذوا في الثناءِ على الخالق وتنزيهه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ عاطفة، عطفتْ هذه الجملة على ما قبلها، فهذا من كلام الجنّ وحديثهم لقومهم، فبعد أنْ أخبروهم أنّهم استمعوا للقرآن، وآمنوا به، ولن يشركوا بالله أحدًا؛ أخذوا بالثناء على الله تعالى وتعظيمه وتنزيهه عن اتخاذ الزوجة والولد.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 649، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 222.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 251.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحب).
(4) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 653، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 222.
(6) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 133، والحجازي، التفسير الواضح: 3/ 759.

توجيه القراءات في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾:

في الجمع بين القراءتين ثراءٌ في المعنى وتأكيدٌ لإيمان الجنّ

قرأ ابْنُ عامِرٍ، وحَمْزَةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ، وحَفْصٌ بِفَتْحِ الهَمْزَةِ في: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾[1]، فمن قرأه بالفتح؛ فعلى أنّه معطوف على محلّ الجار والمجرور في قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾، فكأنه قيل: فصدقناه، وصدقنا أنّه تعالى جدّ ربنا، أي: آمنا به وبكل ذلك، أو معطوف على ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾؛ لأنّها مصدرية، أي: جعله من جملة الموحى به، والمعنى: أوحي إليَّ أنّه استمع نفر من الجن، وأوحي إليّ أنّه تعالى جدّ ربنا، ومن قرأ بالكسر؛ فعلى أنّه معطوف على المحكي بعد القول، أي: قالوا: إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، وقالوا: إنّه تعالى جدّ ربنا، أي: جعله من كلام الجنّ[2]، وفي الجمع بين القراءتين ثراءٌ في المعنى، أي: هم قالوا ذلك، وآمنوا به، وأوحي إلى النبي ﷺ بذلك، وهذا التوجيه ينطبق على كل الآيات التي افتُتِح مطلعها بـ (أنّه)؛ ولذلك أعرضنا عن تناولها تجنّبًا للتكرار.

بلاغة التوكيد بـ(أنّه) واتصاله بضمير الشأن:

المبالغةُ في نفي الصاحبة والولد عن الله؛ تأكيدًا على تنزيهه سبحانه

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أكّد البيانُ الحكيم بحرف التوكيد (أنّ) تنزيهَ اللّه تعالى عن الضعف والحاجة والصاحبة والولد، وسببُ هذا التأكيد أنّه "مسوقٌ إلى فريق يعتقدون خلافَ ذلك من الجنّ"[3]، وقد أفادَ اتصالُ حرف التوكيد (أنّ) بضمير الشأن تعظيمَ هذا التأكيد وتفخيمه[4].

فائدة التعبير بالاعتراض في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ﴾:

في التعبير بالتعالي مبالغةٌ في الثناءِ على الله تعالى

في التعبير بالاعتراض مبادرة بالتنزيه؛ إذ التعالي في اللغة

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 391.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 282، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 8، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 132.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 223.
(4) الزحيلي، التفسير المنير: 29/ 161.

يدلّ على العلوّ والسُّموّ والارتفاعِ والشَّرفِ والعظمةِ والتَّجبُّرِ[1]، فلفظُ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ يفيدُ العلوَّ المطلق، ذاتًا وقدرًا ومنزلة، وقهرًا وسلطانًا، و"جُعِلَ شَديدَ العُلوِّ كالمتكلِّف العلوَّ لخُروجِ علوِّهِ عَنْ غالِبِ ما تَعارَفَهُ النّاسُ، فَأَشْبَهَ التَّكَلُّفَ"[2]، فاللّهُ سبحانَه تعالى رفعةً وتشريفًا وتعظيمًا وتجبُّرًا، وتقدَّس في ذاته وفي صفاته.

سرّ الاكتفاء بـ: ﴿تَعَٰلَىٰ﴾:

في إثباتِ العلوّ والارتــفــاعِ والشرفِ لعظمة الـلـه وجـلالـه إقـرارٌ بسلطانه وغناه

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ اكتفى البيانُ القرآني بقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ﴾، ولم يُقَلْ: (سبحانه وتعالى جدّ ربنا)؛ للمناسبة المعنوية، فلفظُ ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ الذي يحملُ معنى العلوّ والارتفاع والشرف والعظمة، يتناسبُ مع السياق الذي هو رفعُ الشأن والردّ على الافتراء، ويدور حول إثباتِ العظمةِ والجلال للّه تعالى، ويتناسبُ أيضًا مع لفظ ﴿جَدُّ﴾ الذي يدلّ على العظمة والجلال والغنى، أمّا لفظ (سبحانه)؛ فيكون للتنزيه المطلق عن النقائص غالبًا.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿جَدُّ﴾:

تـعـالى الـلـهُ، وتـنـزّهَ عـن الـصـاحـبـة والولد لعظمته ولـسـلـطـانـه ولغناه

عبّر البيانُ القرآني بلفظ ﴿جَدُّ﴾ دون (عظم)، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾؛ لاتّساع دلالة لفظ ﴿جَدُّ﴾ ومناسبته للسياق؛ إذ لفظ ﴿جَدُّ﴾ يدلّ على العظمةِ والجلال والسلطان والغنى[3]، والمعنى: تعالى اللّهُ، وتنزّهَ عن الصاحبة والولد؛ لعظمته وجلاله ولسلطانه ولغناه المطلق.

الغرض من الإضافة في قوله: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾:

الـعـظـمـةُ والجلالُ والغنى خـاصّ بربنا لا يشاركه فيه أحد

الإضافة في قوله تعالى: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، وقد دلّتْ على التخصيصِ والاستحقاقِ والتعظيم والتشريف، فالجدُّ والعظمةُ والجلالُ والغنى خاصّ بربنا لا يشاركه

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 222.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جدّ).

فيه أحد، وهو المستحقُّ وحده سبحانه لجميع أنواعِ العظمة والجلال والغنى والكمال المطلق.

سرّ التعبير بالربوبية دون الألوهية:

الاعـتـرافُ بالربوبية تنزيهٌ لـه سبحانه عـن الشريكِ والصاحبة والولد

آثرَ البيان القرآني التعبير بلفظ الربوبيّة في قوله:﴿رَبِّنَا﴾؛ لمناسبته للسياق السابق واللاحق الذي ينزّه الربّ عن الشريك وعن اتخاذ الصاحبة والولد؛ لأنّ الربّ الخالق المالك المتصرّف المدبّر لا يحتاج من يشاركه في ملكه وتدبيره، ولا يحتاج إلى ولد، فهو مستغنٍ عن الزوجة والولد سبحانه، ومن ثمّ فهو وحده المستحقّ للعبادة.

عود ضمير الجماعة في قوله: ﴿رَبِّنَا﴾ وإضافته:

إقـرارٌ جماعي مـن الـجـنّ باختصاصِ الربّ بتدبيرِ أمورهم والتصرّف بها

ضميرُ الجماعة في قوله: ﴿رَبِّنَا﴾ عائدٌ على كلّ متكلّم مع تشريكِ غيره، فعلى تقدير أنّه من كلام الجنّ، فهو قولُ كلّ واحدٍ منهم عن نفسه ومن معه من بقية النفر[1]، وفي التعبير بضمير الجماعة دلالةٌ على الإقرارِ والاعتراف الجماعي بالرّبوبية وتنزيهه وتعظيمه سبحانه ممّا يعطي الكلام قوةً وحجّة، وتفيد الإضافة كذلك الاختصاصَ والتشريف، أي: الربّ الخاصّ بنا والمالك لنا والمختصّ بتدبيرِ أمرنا ورعايتنا ورزقنا.

دلالة ترك العطف في قوله:﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً﴾:

عـدمُ اتـخـاذ الصاحبة والولد بـيـانٌ لِـحُـكـم تـعـالي جَـدِّهِ سبحانه

فَصلَ البيانُ الإلهيّ قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ عمّا قبله، ولم يربطْ بينهما بعاطف؛ لما بين الجملتين من كمالِ اتصال، فقد جاءتْ جملة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بدل اشتمال من جملة: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، أي: بيان وتفسير لما قبله، أي: بيانٌ لِحُكم تعالي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 223.

جَدِّهِ سبحانه[1]، أو لكونها استئنافًا بيانيًّا، كأنه قيل: ما الذي تعالى عنه؟ فقيل: ما اتّخذ صاحبةً ولا ولدًا[2].

سرّ النفي بـ﴿مَا﴾:

تأكيدُ نفي اتخاذِ اللهِ للصاحبةِ والولدِ مبالغةٌ في تنزيههِ سبحانه عن كلّ نقص

آثرَ البيانُ الحكيم استعمالَ ﴿مَا﴾ دون غيرها من أدواتِ النفي، في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، فلم يقل مثلًا (لم يتخذ صاحبة)؛ لقوَّةِ النفي بها؛ إذ إنّ ﴿مَا﴾ تُستخدمُ لنفي كلٍّ من الفعل الماضي والمضارع على حدّ سواء، ولو عبّر بأداة النفي (لم)؛ لأفادتْ نفي الماضي فقط، ومِنْ ثَمّ أفادَ النفي بـ﴿مَا﴾ التأكيد على معنى عِظَم اللّه تعالى، وغناه المُطلق وتنزّهه عن كلّ شائبةِ نقْصٍ، وهو كذلك مبالغة في تأكيد المعنى الأول.

دلالة نفي الاتخاذ:

المبالغةُ في نفي اتخاذِ الله للصاحبة والولد مبالغةٌ في تنزيههِ سبحانه

عبّر البيانُ القرآني بنفي الاتخاذ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ دون غيره من الألفاظ، فلم يقلْ مثلًا: (ما جعل)؛ لاتّساع لفظِ الاتخاذ لعدّة معانٍ؛ إذ أصله يدلُّ على حَوز الشيء وتحصيله[3]، والاتخاذ افتعالٌ من الأخذ، ومن معانيه الكسب، والصنع، والجَعْل، والعمل[4]، وهذا يتناسبُ مع السياق هنا الذي يبالغُ في تنزيه اللّه تعالى ونفي اتخاذه لأيّ صاحبةٍ أو ولد، سواء بالولادة أو بالتبنّي أو بالجعل أو بالصُّنع أو بالحَوز والتَّحصيل، إمّا استعانة، وإمّا اعتمادًا، وإمّا اعتدادًا، وإمّا امتدادًا، فيشمل من قالوا: الملائكة بنات اللّه، ويشمل اليهودَ القائلين: عزيرٌ ابن اللّه، ويشملَ النصارى الذين قالوا: عيسى ابن اللّه.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 43، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 133، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 222.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 295.

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 57.

(4) الزبيدي، تاج العروس: (تخذ).

نكتة التنكير قوله: ﴿صَٰحِبَةً﴾:

نفيُ اتخاذِ الله لأيّ صاحبة مبالغةٌ في تنزيهه سبحانه

أفادَ تنكير ﴿صَٰحِبَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ المبالغةَ في النفي، والمبالغة في تنزيه الله تعالى عن اتخاذِ أي صاحبة أو زوجة، فالنكرة في سياق النفي تفيدُ العموم والاستغراق.

سرّ تكرار النفي في قوله: ﴿وَلَا وَلَدًا﴾:

في استقلالِ نفي اتخاذ اللهِ للصاحبة الولد مبالغةٌ في تنزيهه سبحانه

كرّرَ النّظمُ الحكيمُ النَّفي بـ(لا) مع العطفِ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، ولم يقلْ: (ما اتخذ صاحبة وولدًا)؛ "للتأكيد؛ لِلدَّلالَةِ عَلَى أنَّ المَعْطوفَ مَنْفيٌّ باستِقْلالِهِ؛ لِدَفْعِ تَوَهُّمِ نَفْيِ المَجْموعِ"[1]، أي: نفي اتخاذِ الله أيّ صاحبة، ونفي اتخاذه سبحانه أيّ ولد، وهذا أبلغُ في تنزيهِ الله سبحانه.

سرّ تقديم الصاحبة على الولد:

انتفاءُ الصاحبة من لوازمِ انتفاءِ الولد

قدّمَ النظمُ الحكيمُ الصاحبةَ على الولد، في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾؛ لكون الصاحبة مظنّةَ وجود الولد، أي: مراعاةً للأسبقية والسببية، فالولدُ إنّما يكون من الصاحبة، وانتفاءُ الصاحبة من لوازم انتفاءِ الولد، فهو قطعٌ لدابر الشبهةِ من أصولها.

دلالة الاقتصار على انتفاء اتخاذ الصاحبة والولد:

كان شائعًا في علم الجنّ ما كان يعتقده المشركون أنّ الملائكة بناتُ الله

الاقتصارُ في بيان (تعالي جدّ ربنا) على انتفاءِ الصاحبة عنه والولد، في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، ينبئُ بأنّه كان شائعًا في علم الجنّ ما كان يعتقده المشركون أنّ الملائكة بناتُ الله، وما اعتقادُ المشركين إلّا ناشئٌ عن تلقينِ الشيطان، وهو من الجنّ، ولأنّ ذلك ممّا سمعوه من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ [الأنعام: 101][2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 223.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 223.

بلاغة التعبير بقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ في إثبات الوحدانية:

اتخاذُ الصاحبة والولد ينافي العظمة والكمال المطلق

في نفي الزوجة والولد عن اللّه تعالى إثباتٌ لوحدانيته سبحانه؛ لأنّ الصاحبةَ تُتَّخذُ للحاجة إليها، ولأنّها من جنسِ الزوج، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21]، والولدَ يُتَّخذُ للتكثُّر، والاستئناسِ به، والحاجةِ إليه حين الكبر وبقاء الذّكْرِ والشهرة، وهذه من لوازم الإمكان والحدوث، واللّهُ سبحانه منزّهٌ عن ذلك، تعالى ربُّنا علوًا كبيرًا أنْ يكون ضعيفًا ضعفَ خلقه الذين تضطرهم الشهوةُ إلى اتخاذِ صاحبةٍ أو ملامسةٍ يكون منها الولد[1]، فضلًا عن أنّ "المحتاجَ لا يصحّ أصلًا أنْ يكون إلهًا، وإنْ كان بغيرِ تسبيبٍ ومهلة، فهو عبثٌ؛ لأنّ مطلقَ الاختراع مغنٍ عنه، فلم يبقَ إلّا العبثُ الذي يُنزَّهُ الإلهُ عنه"[2]، وكأنّ الجنَّ نبَّهوا بهذا على خطأ الكفّار الذين ينسبون إلى اللّه الصاحبةَ والولد[3].

توجيه المتشابه اللفظي بين نفي الصاحبة والولد هنا وبين نفي الولد في الإسراء:

مبالغةُ الجنّ في الثناءِ على الله وتنزيهه مدعاةٌ لنفي الصاحبة والولد

في سورة الجنّ نفى البيانُ القرآني اتخاذَ الصاحبة والولد عن اللّه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، بينما في سورة الإسراء نفى اتخاذَ الولد فقط في قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111]، وتوجيهُ ذلك هو مناسبةُ كلّ آيةٍ لسياقها، فالآيةُ في الجنّ سياقها يركّزُ على مبالغةِ الجنّ في الثناءِ على اللّه وتنزيهه، فجاء النفيُ شاملًا للصاحبة وللولد؛ وذلك لأنَّهم لَمّا سمعوا القرآن، ووفِّقوا للتوحيد والإيمان؛ تنبّهوا على خطأ ما اعتقده كفرةُ الجنِّ من تشبيه اللّه

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 9، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 295.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 468.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 365.

بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد، فاستعظموه، ونزّهوه تعالى عنه لعظمته وسلطانه أو لغناه[1]، وأمّا في سورة الإسراء؛ فالسياقُ في ذكرِ استحقاقه للحمد والتمجيد، فكان التركيزُ على أبرزِ شبهة، وأكثرها انتشارًا، وهي اتخاذ الولد.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصاحبة والزوجة:

في نفي اتخاذِ الله لأيّ صاحبةٍ من زوجةٍ وغيرها مبالغةٌ في تنزيهه

الصاحبةُ أعمُّ من الزوجة؛ إذ تُطلَقُ الصاحبةُ على زوجةِ الرجل وامرأته وصديقته وخليلته، أي: تُطلَقُ على كلّ من صاحبها ولازمها وعاشرها؛ إذ أصلُ الصحبة يدُلُّ على المقارنة والمقاربة والملازمة والمعاشرة، وسواءٌ كانت المصاحبة بالبدنِ - وهو الأصلُ والأكثَرُ - أو بالعنايَةِ والهِمَّةِ[2]، ومن هنا كان استعمالُ الصاحبة أنسبَ وأبلغَ في النفي؛ لينفي أنْ يكونَ للّه تعالى أيّ صاحبةٍ من زوجة وغيرها.

الولد والابن:

نفيُ اتخاذِ الله للولد أبلغُ في تنزيهه سبحانه

الولدُ يقتضي الولادة، ومن أمثالِ العرب: (وُلْدُكِ مَنْ دَمَّي عَقِبَيْكِ)، أي: من نُفِسْتِ به، فهو ابنُكِ حقيقةً لا مَن اتَّخَذْتِه، وتَبَنَّيْتِه، وهو مِن غيرك، وأمّا الابنُ؛ فلا يقتضي الولادة، ولا يُسمّى الإنسانُ والدًا إلّا إذا صارَ له ولدٌ، وليس هو مثل الأب؛ لأنّهم يقولون في التكنيةِ: أبو فلان؛ وإنْ لم يلدْ فلانًا، ولا يقولون في هذا: والدُ فلان[3]، أي: لا يُشترط في الابنِ أنْ يكون من نسلِ الأبِ، فقد يكون ابنًا بالتبنّي، ويسمّى ابنًا، فضلًا عن أنّ الولدَ يُطلق على الذكر والأنثى، أي: على الابن والابنة، في حين يُطلَق الابنُ على الذكر فقط[4]، واستعمالُ لفظ الولد في الآية أنسب؛

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 295.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (صحب).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281 - 282، والزبيدي، تاج العروس: (ولد).

(4) الزبيدي، تاج العروس: (ولد).

ليشمل الذكور والإناث، فقد ادّعتِ اليهودُ والنصارى وطوائف من المشركين الذكورَ والإناث لله، فالآيةُ هنا تبالغ في تنزُّه الله سبحانه عن اتخاذه الولد، تعالى اللهُ عما يقولون علوًّا كبيرًا.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد التأكيد على تنزيه الإله بيانٌ لخسّة إبليس اللعين

لما تبين للجنّ ما هو عليه سبحانه من النزاهة عن كلّ شائبة نقص؛ وصفوا من قال بضدّه صيانةً لدينهم وعرضهم بالترفّع عن الخسائس والرذائل بعدم التمادي في الباطل مقتًا للخلق في ذات الخلق، مؤكّدين لما للسامع في الغالب من تصديق ما يسمع والمحاجة عنه، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَفِيهُنَا﴾: السَّفهُ ضدُّ الحِلم، وأَصْلُ السَّفَهِ: الاضطِرابُ والمُنازَعَةُ[2]، والسَّفهُ خِفَّةٌ في البَدن، ومنه قيل: زِمامٌ سَفيهٌ كثيرُ الاضطراب، وثوبٌ سَفيهٌ رديءُ النّسج، واستُعمِل في خفَّة النَّفس لنُقصان العقل[3]، وتعودُ معاني مادة (سفه) إلى الخفّة والسّخافة والطّيش والجهل ونقصان العقل[4]، وقولهم: ﴿سَفِيهُنَا﴾ أرادوا به إبليس، أي: كان يلقّنهم صفات اللّه بما لا يليق بجلاله[5].

2) ﴿شَطَطًا﴾: (شطط) أصلانِ صَحيحانِ: أَحَدُهُما البُعْدُ، والآخَرُ يَدُلُّ عَلَى المَيْلِ[6]، والشَّططُ: مجاوزةُ القدر في كلِّ شيء، والإفراطُ في البعد والتباعد عن الحقّ[7]، ومجاوزةُ الحدّ وما يخرج عن العدل والصواب، والشَّططُ من القول ما كان تعدّيًا، والمراد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 469.
(2) ابن عباد، المحيط: (سفه).
(3) الرّاغب، المفردات: (سفه).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (سفه).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 653، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 223.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطّ).
(7) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (شطط).

بالشطط هنا إثباتُ ما نفاه قوله: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾[1]، وتجاوز الحدِّ في الظلم، أي: في فحش الافتراء هنا، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى اللّٰه تعالى[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يكملُ النفر من الجن قائلين: وأنَّ الأمر والشأن أنّه كان إبليس أو مردة الجنّ يقول على اللّٰه قولًا شططًا بعيدًا عن القصدِ ومجاوزًا للحدِّ؛ لفرطِ بعدِهِ عن الحقِّ وهو نسبةُ الصاحبةِ والولدِ إليهِ تعالَى[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ﴾:

بعد تنزيهِ الجنِّ لله تعالى بيّنوا سفاهةَ إبليس في قوله على الله الباطل

عطفَ البيانُ القرآني جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾، على قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، فكلتا الجملتين من كلامِ الجن، أو ممّا أوحي به إلى النبي ﷺ فبعد أن نزّه الجنّ اللّٰهَ عن النقص وعن مشابهة المخلوق في اتخاذ الصاحبة والولد، بيّنوا كذبَ إبليس اللعين وسفاهته، وتماديه في الباطل وقوله على اللّٰه تعالى شططًا.

دلالة التوكيد بـ(أنّه) واتصاله بضمير الشأن:

تـأكـيـدُ تـجـرُّؤ إبـلـيـس اللـعـين في قوله الشططَ على الله يبعثُ على الاستنكار

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أكّد البيانُ الحكيمُ بحرف التوكيد (أنّ) تجرُّؤ إبليس اللعين وكذبه في قوله الشطط على اللّٰه، فالسامعُ في الغالب يصدِّقُ ما يسمعُ، ويحاججُ عنه، وسببُ هذا التأكيد أنَّه جاء بعد تنزيهِ اللّٰه تعالى في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، وقد أفادَ اتصالُ حرفِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 653، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 223.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 653، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 223.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 43.

التوكيد (أنّ) بضمير الشأن مزيدَ استنكارٍ؛ لمّا كان يقوله إبليس من الشطط على اللّه.

دلالة التعبير بفعل الكينونة الماضي:

استنكارُ الجنّ لسفاهةِ إبليس واستمراره في قولِ الشطط على الله

عبَّر البيانُ القرآني بفعل الكينونة الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾، دون أنْ يقول: (وأنّه يقول سفيهنا)؛ للدَّلالة على المضي والانقضاء، ويدلّ فعل الكينونة كذلك على الدوام والاستمرار، ممّا يشيرُ إلى المبالغةِ في قول إبليس الشطط طوال الوقت الماضي، (أي: قبل نزول القرآن وقول ذلك على لسان الجن)؛ إذ دخول فعل الكون إلى الجملة حوَّلها إلى جملة اسميّة أفادتِ الثباتَ والدوام، وفي هذه المبالغة مزيدُ تبرُّؤ من الجنّ واستنكارٍ لسفاهة إبليس، وقوله على اللّه الشطط.

دلالة التعبير بفعل القول مادة وصيغة:

جرأةُ إبليس اللعين جعلته ينطقُ قوله الشطط على الله تعالى ويكرره

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ القول في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾؛ للدلالة على أنّ إبليس اللعين قال هذا القول على الحقيقة، ونطق به، مما يدل على جرأته وتماديه في الكفر وتعدّيه على اللّه بنسبة هذا القول الشطط له، ومجيء الفعل بصيغة المضارع التي تدلّ على التجدّد والاستمرار، وتكرار هذا القول الشطط من هذا السفيه، لعنه اللّه.

بلاغة التعبير عن إبليس بالسفه:

المبالغةُ في ذمّ إبليس وتحقيره يتناسبُ مع قبح ما قاله في حقّ الله تعالى

جاء التعبيرُ بالسفيه في قوله تعالى: ﴿سَفِيهُنَا﴾ والمقصودُ به إبليس؛ للمبالغة في ذمِّه وتحقيره، وأنّ السفهَ صفةٌ ثابتة له، فالسفهُ ضدّ الحِلم، ونقيضُ الحكمة، وهو جهلٌ مع قبح وسوءِ تصرّفٍ، وخفّةٌ في التفكير وعجلةٌ وسخافةٌ وطيشٌ واضطرابٌ وجهلٌ ونقصانُ عقلٍ وضعفٌ في الرأي(1)، وكلّ هذه المعاني القبيحة تتناسبُ مع قبح ما قاله ذلك اللعين في حقّ اللّه تعالى بما لا يليق بجلاله.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 204، 200، وابن عباد، المحيط، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سفه).

دلالة الإفراد في قوله: ﴿سَفِيهُنَا﴾:

الإفرادُ في قوله تعالى: ﴿سَفِيهُنَا﴾؛ إمّا لأنّ المرادَ به إبليسُ، وهو واحدٌ من الجن، أو الإفراد لإرادة الجنس، أي: سفهاؤنا، والمرادُ مردة الجن، والمعنى: إبليس أو مردة الجنّ كانوا يقولون على اللّه شططًا.

إبليسُ أو مردة الجنّ كانوا يقولون على الله شططًا

وجه التعريف بالإضافة في قوله: ﴿سَفِيهُنَا﴾ دون (أل):

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أضافَ الجنُّ السفيهَ إلى جماعتهم، ولم يقولوا: (السفيه)؛ للدلالة على تخصيص هذا السفيه، وأنّه من جنسهم، أي: من الجنّ، فهم يعترفون بوجود سفيه بينهم، لكنهم يبرِّئون أنفسهم من قوله وسفهه، ويحصرون السفهَ فيه وحده، وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والإنكار عندما يأتي الذَّمُّ من داخل المجموعة نفسها.

اعترافُ الجنّ بوجود سفيهٍ بينهم وتبرُّؤُهم من قوله أبلغُ في الإنكار

دلالة التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرِّ ﴿عَلَى﴾ الذي يفيدُ الاستعلاءَ المجازي، في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾؛ لإفادة معنى التجاوز والظلم والعدوان والتحدّي والاستكبار والتطاول، ولتضمين الفعل ﴿يَقُولُ﴾ معنى التقوّل والكذب والافتراء، وهذه المعاني تتناسبُ مع ﴿شَطَطًا﴾، والمعنى: يقولُ متجاوزًا للحدِّ متطاولًا مفتريًا كاذبًا على اللّه قولًا شططًا.

قولُ إبليس اللعين تجاوزٌ للحدِّ وافتراءٌ على الله

بلاغة تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

قدّم البيانُ القرآني الجار والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على لفظ ﴿شَطَطًا﴾؛ للدلالةِ على الحصر والتخصيص، أي: يقولُ على اللّه خاصة، ممّا ينبه على عظم وهول وشناعة هذه الجريمة وقبح هذا الافتراء، والتعدّي على جلالة المعتدى عليه، وهو اللّه سبحانه، ولو قال: (كان يقول سفيهنا شططًا على اللّه)؛ لكان التركيز على وصف

في التقديم تنبيهٌ على هول الافتراء وشناعته والتعدّي على جلالة الله

القول بأنّه شطط، ولكان جرم التعدّي على اللّه أضعف وأقلّ أثرًا وشناعة، وفي التقديم أيضًا مراعاة للفاصلة القرآنية.

بلاغة التعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

فظاعةُ تجرُّؤ إبليس على القول القبيح في حقِّ مَن له صفات الكمال

في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ عبّر البيانُ القرآني باسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، الذي يجمعُ جميع صفات الجلال والجمال والكمال؛ للمبالغة في تعظيم الجنّ الذين آمنوا للّه وتنزيهه عن كلّ نقص، ولإظهار شناعة تجرُّؤ هذا السفيه اللعين الحقير على جلال اللّه وعظمته، وقبح ما قاله وما نسبه للّه تعدّيًا وكذبًا وافتراءً.

دلالة التعبير بالمصدر ﴿شَطَطًا﴾ نكرةً:

المبالغةُ في التهويل والتّنفير من قول إبليس؛ لقبحه وبعده عن الحقّ

جاءتِ الفاصلة القرآنية ﴿شَطَطًا﴾، في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ مصدرًا؛ لتأكيدِ معنى المبالغة في مجاوزة الحدّ في ظلم كفرة الجنِّ باتخاذهم الشريك مع اللّه، وقولهم بأنّ له صاحبةً وولدًا، وتنكيرها أكّدَ المبالغةَ في تهويلِ فُحشِ هذا القول وبعده عن الحقّ، وعمومه، فقد اجترأ إبليسُ اللعين بشتّى أنواع الباطل والافتراء على اللّه، وفي هذا إيحاءٌ إلى شدّة قبحِ هذا القول والتنفير منه، أي: جاءتِ الفاصلةُ مصدرًا منكَّرًا على معنى المبالغة؛ استعظامًا وتهويلًا وتنفيرًا من هذا القول؛ لقبحه وبُعده عن الحقّ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّفَه والجهل:

لا يقول القبيح في حقّ اللّه تعالى إلّا من عنده سخافةٌ وطيشٌ وجهلٌ مع قبحٍ وسوءِ تصرُّفٍ

السَّفهُ أعمُّ من الجهل؛ إذ هو جهلٌ مع قبح وسوءِ تصرُّفٍ، فالسَّفهُ ضدُّ الحِلم، ونقيضُ الحكمة، والسفهُ خفَّةٌ وعجلةٌ وسخافةٌ وطيش واضطرابٌ وجهلٌ ونقصانُ عقلٍ وضعفٌ في الرأي، وقلَّةُ المعرفة بوضع الأمور في مواضعها، ويُستعارُ في الكلام القبيح[1]، أما

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 204، 200، وابن عباد، المحيط، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سفه).

الجهلُ؛ فخِلافُ العِلْم، وهو: التَّقدُّمُ في الأُمور المُنْبَهِمَةِ بِغَير عِلْم[1]، وهو إمّا خلوٌّ للنَّفْسِ من العِلْم، أو اعتقادُ الشَّيء بخِلافِ ما هو عليه، أو فِعْلُ الشَّيء بِخِلاف ما حَقُّه أن يُفْعَلَ، سواءٌ اعتُقِد فيهِ اعتِقادًا صَحيحًا أم فاسِدًا[2]، وقد ناسب هنا استعمال لفظ السفه؛ لكونه أبلغَ في وصف هذا السفيه وذمّه وتحقيره، وهو إبليسُ - لعنه اللّه - فهو جاهلٌ، وعندهُ سخافةٌ وطيشٌ ونقصانُ عقلٍ وكلامه قبيح؛ إذ كان يلقّنهم صفات اللّه بما لا يليقُ بجلاله.

الشَّطط والبعد:

قـولُ إبليس في حقّ الله تعالى تـجـاوزٌ فـاحـشٌ وانحرافٌ شديدٌ عن الحقّ

الشططُ أبلغُ وأشدُّ وأفظعُ من البعد؛ إذ يدلّ على المبالغة في مجاوزةِ القدر في كلِّ شيء، والإفراطِ في البعد والتباعد عن الحقّ[3]، حتى يخرجَ عن العدل والصواب، ويصبحَ انحرافًا أو ظلمًا فاحشًا، مع تضمين معنى الميل والجور والانحراف الشديد عن الحقّ[4]، فالشططُ هو الغلوُّ في الكذب، والسرفُ في ظلم النفس، والخروج عن الحقّ، أمّا البعدُ؛ فيدلُّ على مجرَّد المسافة والابتعاد عن الشيء سواءٌ كان حسّيًّا كالبعد المكاني، أو معنويًّا كالبعد عن الحقّ، وقد ناسبَ استعمال لفظ الشطط هنا؛ لكونه أبلغَ في بيان أنّ قولَ السفيه ليس مجرّد قولٍ بعيد عن الحقّ، بل هو تجاوزٌ فاحشٌ في حقّ اللّه تعالى، وانحرافٌ شديد ينبئُ عن فجوره وشدّةِ إفراطه وانحرافه وبعده عن الحقّ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (جهل).

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (جهل).

(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (شطط).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطّ).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥﴾ [الجن: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ اهتداءِ الجنّ للحقّ اعتذروا عن اتّباعهم الباطل

لَمّا ذَكَر النَّفرُ مِن الجنِّ - الذين استمعوا للقرآنِ - ما هُدوا إليه مِنَ الحَقِّ في اللّهِ، وفيمَن كان يَحمِلُهم على الباطِلِ؛ ذكَروا عُذْرَهم في اتِّباعِهم للسَّفيه، وفي وُقوعِهم في مَواقِعِ التُّهَم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اعتذارٌ مِنَ الجن عن كونهم كانوا مُشركِينَ لجَهْلِهم وتقليدِهم لسفهائهم

يقولُ اللّهُ تعالى مخبرًا عن قِيْل النَّفرِ مِن الجنّ الذين استمعوا القرآن: وأنّا قبْلَ سَماعِنا للقُرآنِ وإيمانِنا باللّهِ حَسِبْنا أَنَّ أحدًا من الثقلين لن يكذبَ على اللّه، ولن يفتري عليه ما ليس بحقّ، فكنّا نصدّقهم فيما أضافوا إليه من الشَّريكِ والصّاحِبةِ والوَلَدِ؛ حتى تبيّن لنا بالقرآن كذبهم وافتراؤهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التأكيد في صدر الآية ﴿وَأَنَّا﴾:

اعتذارٌ قويٌّ من الجنِّ يُظهِرُ صدقَ إيمانهم واعترافهم بخطئهم السابق

التَّأكيدُ بحرْفِ (إنَّ) على قراءة الكسر في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾؛ لقصْدِ تَحقيقِ عُذرِ الجنِّ الذي اهتدوا للحقّ فيما سلَفَ مِن الإشراكِ باللّه سبحانه بأنَّه لجَهْلِهم، وأخْذِهم قولَ سُفهائِهم يَحسَبونَهم لا يَكذِبون على اللّهِ تعالَى[3]، مما يُظهِر صدقَ إيمانهم واعترافهم بخطئهم السابق، وعلى قراءة الفتح تأكيدٌ بأنَّهم ظنّوا ذلك، وأخطؤوا في ظنّهم.

دلالة التعبير بالظن:

عبّر البيانُ الحكيم بالظنّ دون العلم أو اليقين، في قوله تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 470.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 654، والزمخشري، الكشاف: 4/ 623.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 224.

تقليدُ الجنّ لسفهائهم فيما ادّعوه على اللهِ كان عن ظنّ لا عن علمٍ

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾؛ لأنّ تقليدهم لسفهائهم فيما ادَّعوه من الشريك والصاحبة والولد؛ كان عن ظنّ لا عن علم ويقين، وفي هذا دلالةٌ على خطرِ التقليد في العقيدة، وأنّه لا يجوز الأخذ بحسن الظنّ بالمُقلَّد، بل يتعيّن النظرُ في رأيه حتى ينهضَ دليله[1].

دلالة التعبير بالماضي ﴿ظَنَنَّآ﴾ مسندًا إلى ضمير الجمع:

وقـوعُ الظنّ وتحقّقه من جميع نفر الجنّ قبل نزولِ القرآن وإيمانهم به

التعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾؛ للدلالة على وقوعِ هذا الظنّ منهم وتحقّقه وتأكُّده، وأنّ هذا الظنّ كان قبل نزول القرآن، وقبل إيمانِ الجنّ به، فهُم اعتذروا عمّا صدرَ منهم قبل الإيمان من الشرك، وجاء ضميرُ التكلُّم بصيغة الجمع؛ للدّلالة على أنّ هذا الظنّ صدرَ منهم جميعًا قبل الإيمان، ومن ثم فالاعتذارُ أيضًا صادرٌ من الجميع.

وجه النفي بـ﴿لَّن﴾:

تأبيدُ نفي الكذب على الله في ظنّ نفرٍ من الجنّ تأكيد لهذا الظنّ

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ المظنونَ بحرفِ ﴿لَّن﴾ المفيد لتأكيد النفي في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ يُفيدُ أنَّهم كانوا مُتوغِّلينَ في حُسنِ ظَنِّهم بمَن ضَلَّلوهم[2]، ويدُلُّ على أنَّ الظَّنَّ هنا بمعْنى اليقينِ، وهو يَقينٌ مُخطِئٌ[3].

دلالة التعبير بفعل القول دون الكلام:

شدّة اعتداء كفّار الإنس والجن في جرأتهم ونطقهم بالكذب على الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالقول في قوله: ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾؛ ليشمل القول القلبي، أي: الاعتقاد، والقول اللساني، وكذلك للدلالة على قبح كفّار الإنس والجن في قولهم ونطقهم وتصريحهم بالافتراء والكذب على اللّه، ونسبتهم الصاحبة والولد له علانيةً ومجاهرة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 224.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 470.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 224.

توجيه القراءات في قوله: ﴿تَقُولَ﴾:

التقوُّلُ أفحشُ معنًى والكذبُ أفحشُ لفظًا

قرأ جمهورُ القراء: ﴿تَقُولَ﴾ بضمّ القاف وسكون الواو، وقرأه يعقوب بفتح القاف والواو مشدّدة: ﴿تَقَوَّلَ﴾ من التَّقَوُّلِ، وهو نسبةُ كلامٍ إلى من لم يقلْهُ، وهو في معنى الكذب، وأصله تتقوّل بتاءين، فعلى هذه القراءة يكون ﴿كَذِبًا﴾ مصدرًا مؤكِّدًا لفعل ﴿تَقَوَّلَ﴾؛ لأنّه مرادفه[1]، وفيها احتباك، ففعل التقوُّل أوّلًا دليلٌ على فعلِ الكذب ثانيًا، ومصدرُ الكذب ثانيًا دليلٌ على مصدر التقوُّل أوّلًا، وسرّه أنّ التقوُّل دالٌّ على التعمّد، فهو أفحش معنًى، والكذبُ أفحشُ لفظًا، وهذا مرشدٌ إلى أنّه لا ينبغي التقليد في شيء؛ لأنَّ الثقةَ بكلّ أحدٍ عجزٌ[2].

سرّ التعبير بالإنس دون الناس:

اعتمادُ الجنِّ في حسنِ ظنهم بالإنس لِما يملكونه من الطبيعة العقلية والروحية

آثرَ البيانُ الحكيم التعبيرَ بلفظ الإنس دون الناس؛ لأنّ الناسَ تُستخدمُ؛ للدلالةِ على الجماعة أو المجتمع أو البشر بشكل عام، بخلافِ الإنس فإنّها تدلّ على جنسِ الإنسان من حيث طبيعته العقلية والروحية ككائن له عقلٌ ومشاعر، وهي الأنسبُ هنا مع المقام، فإنّ النفرَ من الجن الذين آمنوا اعتمدوا في تقليدهم وحسن ظنّهم بجنسِ الإنس؛ لِما يملكونه من الطبيعة العقلية والروحية.

سرّ التعبير بالجنّ دون الجان:

مؤمنو الجنِّ ظنّوا أنّه لن يقولَ أيّ أحد من جنس الإنسِ والجنِّ على الله كذبًا

عبر القرآنُ بالجنّ دون الجان؛ لأنّ السياق هو حديث عن جنسين متقابلين هما الإنس والجن، فالتعبيرُ بالجنّ هنا أنسبُ؛ لأنّ المقصودَ جنسُ الجنّ الذين هم خلافُ الإنس، والواحدُ جنّي، وليس المراد الجانّ الذي هو أبو الجنّ، كآدم أبو البشر[3]، فالتعبيرُ بالجنس أعمّ وأشمل؛ إذ إنّ النفرَ المؤمنين ظنّوا أنه لن يقولَ أيّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 224.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 471.

(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (جنن).

أحد من جنس الإنس والجن على اللّه كذبًا، وانخدعوا بتأييد الجنّ جنسًا آخر هو أفضل منه في فيما ادّعوه على اللّه، كما أنّ التقابل بين الإنس والجن يعطي توازنًا وجمالًا ووضوحًا في التعبير.

سرّ تقديم ﴿ٱلۡإِنسُ﴾:

الإنسُ هم الأصلُ في الخطاب ولهم الأفضلية والجنّ لهم تبع

قدّموا ذكر ﴿ٱلۡإِنسُ﴾ على ﴿وَٱلۡجِنُّ﴾ في الآية: ﴿لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، مع أنّ الجنّ أسبق في الوجود؛ لكون الإنسِ هم الأصلُ في الخطاب والتكليف، فالقرآنُ أوّل ما خوطب به الإنس، ونزلَ على نبيّهم، وهم أولُ من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجنّ، فالإنسُ لهم الأفضلية، والجنّ لهم تبع، فالرسلُ من الإنس لا من الجنّ، ولذلك بدؤوا بأفضل الجنسين وأتبعوهم قرناءهم[1]، فضلًا عن أنّ بداءتهم بذكر الإنس أبلغُ في نفي الغرضِ والتهمة، وألّا يظنّ بهم قومهم أنّهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنّهم أوّل ما أقرّوا بتقوّلهم الكذبَ على اللّه تعالى[2]، ويمكن أنْ يكونَ التقديم كذلك تلطّفًا من الجنّ مع قومهم؛ إذ بدؤوا بالجنسِ الآخر المختلف عنهم، نظير القول: إيّاك أعني، واسمعي يا جارة.

دلالة التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

تعدّي كفّار الإنس والجنّ وتطاولهم في قولهم الكذبَ على الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بحرف الجرّ ﴿عَلَى﴾، الذي يفيدُ الاستعلاءَ المجازي، في قوله: ﴿لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لإفادة معنى التّجاوز والاستكبار والتّطاول والاعتداء، والمعنى: أنّا ظننا أن لن تقولَ الإنسُ والجنّ قولًا كذبًا على اللّه متجاوزين ومفترين ومتطاولين ومعتدين على الذاتِ الإلهية، تعالى اللّه، وتقدّسَ عن كلّ نقص.

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

أصلُ الكلام أن يُقال: (لن تقول الإنس والجن كذبًا على اللّه)،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 470، وحاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 345.
(2) ابن القيم، مصباح التفاسير: 18/ 71.

ولكنّ البيان الحكيم قدّم الجار والمجرور، فقال: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لغرضٍ بلاغي وهو الاهتمامُ بالقول والتأكيد على الجهة التي لا ينبغي أن يُقال عليها الكذب، وهي اللّهُ ﷻ، وهذا يعزّزُ معاني العظمة والقدسية في الآية، وفي التقديم أيضًا مراعاة للفاصلة القرآنية[1].

تقديمٌ ينبئُ بقبحِ الافتراء والتعدّي على قدسيةِ الذاتِ الإلهية

سرّ إيثار التعبير بقوله: ﴿كَذِبًا﴾:

عبّر البيانُ الحكيم بكلمة ﴿كَذِبًا﴾ بدلًا من غيرها، كالافتراء والباطل والزور؛ لكونها أنسبَ مع السياق والمقام وأبلغَ في الاعتذار، فلفظ الكذبِ هو أعمّ هذه الألفاظ، ولو استعملَ غيره من الألفاظ؛ لاختصّ بنوعٍ معيّن من الكذب، وأيضًا فإنّ الكذبَ يقابلُ الصدقّ والحقّ، والتعبير به يوضّح الفرقَ الشاسع بين ما كانوا عليه من الكذب، وما آمنوا به من الحقّ.

ظنُّ الجنّ عدم قولِ أيّ كذبٍ عن الله أبلغُ في الاعتذار

سر تقييد فعل القول بـ ﴿كَذِبًا﴾:

قولُه: ﴿كَذِبًا﴾ إمّا مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعل ﴿تَقُولَ﴾؛ لأنَّه نَوعٌ من القولِ، أو وصْفٌ لَمصدرِه المحذوفِ، أي: (قولًا كذِبًا)، أي: مَكذوبًا فيه، ومن قرأ: (أنْ لن تقوّل): وضعَ ﴿كَذِبًا﴾ موضعَ (تقوُّلًا)، ولم يجعله صفة؛ لأنَّ التقوُّلَ لا يكون إلّا كذِبًا[2]، وتكمنُ بلاغة محذوف الصفة في أنَّ هذا القول لعراقته في مخالفة الواقع هو نفسُ الكذب[3].

ما قاله الإنس والجن على الله هو نفسُ الكذب لعراقته في مخالفة الواقع

دلالة التعبير بلفظ ﴿كَذِبًا﴾ مصدرًا نكرةً:

نكّر البيانُ الإلهيّ لفظَ ﴿كَذِبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لإفادة التهويل والتشنيع، فالكذبُ الذي قالوه على اللّه تعالى كذبٌ قبيحٌ فظيعٌ شنيعٌ، ولإفادةِ التعميم؛ ليشمل

الكذبُ الذي قالته الإنسُ والجنّ على الله تعالى كذبٌ قبيحٌ فظيعٌ شنيعٌ

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 345.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 623، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 43.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 470.

كلّ كذبٍ، ويؤكّد التعميم ابتداء الآية بالتوكيد، والنفي بـ﴿لَّن﴾ المؤكّدة، والوصف بالمصدر للمبالغة في نفي أيّ نوعٍ من أنواعِ الكذب[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الظن واليقين:

اعتقدَ الجنُّ أنّ الإنسَ والجنّ لا يجرؤون الكذب على الله

الظنُّ أعمُّ من اليقين؛ إذ يَدُلُّ عَلَى مَعنَيَينِ مُختَلِفَين: يَقينٍ وشَكٍّ[2]، ويدورُ معنى الظّنّ على توقُّعِ وجودِ شيءٍ مُهِمٍّ؛ لأمارَةٍ أو دليلٍ قويَّين[3]، فمتَى قويتْ هذه العلامَةُ؛ أدَّتْ إلى اليقين والعِلم، ومتى ضَعُفَتْ جدًّا؛ لم يتجاوزِ الظَّنُّ حدَّ التَّوهُّم[4]، والظَّنُّ: التَّرَدُّد الرّاجِح بَين طرفي الاعتِقاد غير الجازِم، وقد يُطلَق الظَّن بِإزاءِ اليَقين على الحكم الجازِم المطابق غير المُستَنِد إلَى علته، وعَلى الجازِم غير المطابق، وعَلى غير الجازِم، وقد يُطلَق الظَّن بِإزاءِ العلم على كل رَأي واعتقاد من غير قاطع، وإن جزم بِهِ صاحبه[5]، وأمّا اليَقين؛ فهو العلم الَّذي لا شكّ مَعَه، وأنْ تعلم الشَّيء، ولا تتخيّل خِلافه، وهو رسوخُ العلم صُلبًا قويًّا في القلب أو أعماق النفس[6]، وقد استعملَ البيانُ القرآني هنا الظنّ دون اليقين؛ لأنّ الجنّ كانوا يعتقدون اعتقادًا راجحًا أنّ الإنسَ والجنّ لا يجرؤون قولَ الكذب على اللّه، ولم يكن اعتقادهم ثابتًا ثبوتًا قطعيًّا، بدليل أنّهم اكتشفوا لاحقًا أنّ هذا الاعتقاد كان خاطئًا.

الكَذِب والافتِراء:

الـكـذبُ خـلافُ الصدق وإخبارٌ بـخـلاف الـواقـع وهــو أعــمّ من الافتراء

الكذبُ أعمُّ من الافتراء؛ إذ الكذبُ هو خلافُ الصدق[7]،

(1) فاضل السامرائي، من أسرار البيان القرآني، ص: 269.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ظنن).
(4) الرّاغب، المفردات: (ظنّ).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 593، والمعجم الوسيط، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (يقن).
(6) الكفوي، الكليات، ص: 67.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).

والإخبارُ بخلاف ما هو عليه في الواقع[1]، أمّا الافتراءُ؛ فاختلاقُ ما لا حقيقة له، وكذبٌ عظيمٌ مختلقٌ متعمّدٌ بقصدِ الإفساد، وفيه معنى: الشيءُ العجيب النادر والعظيم[2]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الكذب؛ لكونه أبلغَ في التّعجب وأبلغ في الاعتذار؛ إذ ظنّوا عدم قول الجنّ والإنس أيَّ كذبٍ على الله تعالى، وأي إخبار بخلاف الصدق والحقّ، فالتعبير به يوضّح الفرق الشاسع بين ما كانوا عليه من الكذب، وما آمنوا به من الحقّ.

(1) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فري).

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تتابع الشُّبَه زادَ الإنـسَ والـجـنّ ضلالًا

لِمّا عُلِمَ من قولهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أنّ مستندَ الضلال ظنونٌ وشبهٌ متى حُكَّتْ على محكِّ النظرِ؛ بانَ فسادها، وأظهر زيفها نقادها؛ أتبعهُ شبهةً أخرى زادتِ الفريقين ضلالًا بعضهم ببعض، فقال حاكيًا عنهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَعُوذُونَ﴾: أصلُ (عوذ) يَدُلُّ على الالتِجاءِ إلى غَيْرِه والاعتِصام بِهِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بِشَيءٍ أَوْ لازَمَهُ، تَقولُ: أعوذُ باللّه، أي: أَلْجَأُ إِلَيْه، وفُلانٌ عِياذٌ لَكَ، أَيْ: مَلْجَأٌ[2]، والعوذَةُ والمَعاذَةُ: الَّتي يُعَوَّذُ بها الإنسانُ مِنْ فَزَعٍ أَوْ جُنونٍ، وضِدُّ العَوْذِ: اللَّوْذُ، وهو طَلَبُ الخَيْرِ، والمَعاذُ: المَلْجَأُ والحِصْنُ[3]، ومعنى ﴿يَعُوذُونَ﴾: يستجيرون، ويلتجئون، ويتحصّنون[4].

2) ﴿رَهَقًا﴾: أصلُ الرَّهقِ: غِشْيانُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ[5]، يُقال: رَهِقَه ما يكرَهُ، أي: غَشِيَهُ ذلك، وأَرْهقَه عُسْرًا، أي: كَلَّفهُ إيّاه، وتقول: أَرْهَقَني فُلان إثمًا حَتَّى رَهِقْته، أي: حَمَّلَني إثمًا حَتَّى حَمَلته لَهُ[6]، ورَهِقَني الرَّجلُ، أي: لَحِقَني، وغَشيني، والمُرَهَّقُ الَّذي يَغْشاهُ السُّؤالُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 472.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 654، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 296.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رهق).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهق).

والضّيفان(1)، ورَهِقَهُ الأمرُ: غشيه بقهر، والإرهاقُ: أنْ تحملَ الإنسانَ على ما لا يطيقه(2)، ومعنى ﴿رَهَقَا﴾: إثمًا وطغيانًا وضلالًا بعبادتهم إيّاهم، وازدادتِ الجنّ عليهم بذلك جراءة وتكبُّرًا وعتوًّا(3).

المَعْنى الإجْماليُّ:

استجارةُ رجالٍ مـن الإنـس برجالٍ من الجنِّ زادتِ الفريقين ضلالًا

يقولُ تعالى ذكره مخبرًا عن قيْل هؤلاء النفر: وأنَّه كان رجالٌ من الإنس يَستَجيرونَ برجالٍ من الجنّ في أسفارهم إذا نزلوا منازلهم، أي: بعظيم ذلك المكانِ وسَيِّده مِنَ الجنِّ؛ طلبًا للأمانِ والسَّلامةِ مِمّا يخافونَ، ويَحذَرونَ، فَزادَ هؤلاء المستعيذون من الإنس الجنَّ إثمًا وتكبُّرًا وضلالًا، وازدادتِ الجنّ عليهم بذلك جراءة(4).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التأكيد بقوله: (أنَّه):

إثباتُ الحجّة في صدق القرآن، وأنّ الملجأ الحقَّ هو الله وحده

التَّأكيدُ بـ(أنَّ) مكسورةً أو مفتوحةً في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ راجعٌ إلى ما تَفرَّعَ على خبَرِها مِن قَولِهم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾(5)، وفي هذا التأكيد إثباتُ الحجّةِ في صدقِ القرآن، وأنّ الملجأ الحقَّ هو اللّهُ وحده، وبيانُ أنّ الشركَ ليس له أساسٌ عقلي صحيح، بل هو قائمٌ على الجهل وسوء التقدير، وأنّ عاقبته وخيمةٌ تزيد العابدَ والمعبود طغيانًا وضلالًا.

دلالة التعبير بفعل الكينونة الماضي:

استنكارٌ وتنفيرٌ وبيانٌ لخطأ ما كان عليه الإنس والجنّ

عبّر البيانُ القرآني بفعل الكينونة الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، دون أنْ يقول: (وأنه رجال من الإنس)؛ للدّلالة على المضي والانقضاء، أي: استعاذة رجالٍ من الإنس برجال

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (رهق).

(2) الراغب، المفردات: (رهق)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 101.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 655، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 225.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 655، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 225.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 225.

من الجن وقعتْ، وتحقّقت، ويدلُّ فعلَ الكينونة أيضًا على الدوام والاستمرار، مما يشيرُ إلى اعتقادهم هذا الاعتقادَ الخاطئَ طوال الوقت الماضي، أي: قبل نزول القرآن وقول ذلك على لسان الجن؛ إذ دخول فعل الكون إلى الجملة حوّلها إلى جملة اسميّة أفادتِ الثبات والدوام، وفي هذه المبالغةِ استنكارٌ وتنفيرٌ وبيانٌ لخطأ ما كان عليه الإنس والجن.

نكتة تنكير لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ وجمعه:

المبالغةُ في بيانِ ما وصل إليه الإنـسُ من الشرك والضلال

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ ﴿رِجَالٌ﴾، أي: بالرجولة لا بالذكورة وبصيغة الجمع والتنكير؛ لإفادة التفخيم والتعظيم والتكثير، فهم رجالٌ قد بلغوا الحلمَ، وشبّوا، لا مجرّد ذكور، وهم ذوو قوةٍ وبأس[1]، فالرجولةُ صِفة يعني بها الشِّدَّةَ والكَمال، وقيل: رجل اسمٌ مَأْخوذٌ من القوَّة، ولهذا يُقال في مدحِ الإنسان: إنّه رجلٌ[2]، بما يفيدُ المبالغة في بيانِ ما وصل إليه الجنّ من التكبُّر والضلالِ والعتو؛ بسبب الإنس الذين يلتجئون إلى الجنّ؛ ليدفع الجنّ عنهم بعض الأضرار.

سر التقييد بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾:

صدورُ الاستعاذة من الجنس الظاهر المكرّم العاقلِ تحملُ استنكارًا واستهجانًا

أفادَ التقييدُ بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ بيانَ جنس هؤلاء الرجال، وأنّهم يؤنَسونَ، أي: يُرَونَ، كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا﴾ [طه: 10] فالإنسُ نوعٌ ظاهرٌ في عالم الجنس، بخلافِ الجنّ فقد سُمّوا جِنًّا لاجتِنانِهم، يجتَنّونَ عن الأبصارِ، أي: يَستَتِرونَ.

معنى ﴿مِّنَ﴾:

فعلُ الاستعاذة صدرَ من فئةٍ من الإنس شاذّةٍ منحرفة عن الفطرة السليمة

حرفُ الجر ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ للتبيين، بيّنتْ ﴿مِّنَ﴾ أنّ هؤلاء الرجال من جنسِ الإنس، ويجوز أنْ تفيدَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 472.
(2) ابن سيده، المحكم: (رجل) وابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 326، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 41.

التبعيض، أي: كان بعضُ رجال الإنس - المشركون - يعوذون برجال من الجن، فهؤلاء الرجال لم يكونوا كلّ الإنس ممّا يظهر الاستنكارَ الشديد لفعلهم، فهم فئةٌ شاذّةٌ منحرفة عن الفطرة السليمة.

دلالة تعريف ﴿ٱلۡإِنسِ﴾:

الاستعاذةُ كانت بين جنسين مختلفين

اللام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡإِنسِ﴾ جنسية، والمراد هنا جنسُ الإنس، وهذا يتناسبُ مع المقابل في السياق ﴿بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فكما أنّ الجنَّ جنسٌ، فالإنس أيضًا جنس، والاستعاذةُ كانت بين جنسين مختلفين، وفي بيانِ أنّ هؤلاء الرجال من جنس الإنس إخبارٌ بأنّ من جنس الإنس من ارتكبَ هذا الفعل المشين القبيح.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿يَعُوذُونَ﴾ دون الماضي:

تكرارُ استعاذةِ الجنّ بالإنس وتجدُّدها دليلُ استغراقهم في الشرك

التعبيرُ بصيغة المضارع التي تفيدُ التجدُّدَ والاستمرار والتصويرَ، في قوله تعالى: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾؛ للدّلالة على كثرةِ هذه الاستعاذة وتكرارها كلما نزلَ هؤلاء المستعيذون واديًا، أو خافوا شيئًا، وأنّها عادةٌ جاهلية متكرّرة، وليس مجرّد حدثٍ عابر، وبيانِ قبحها؛ إذ تصدرُ من الإنسان المكرّم - الذي فضّله اللّه على جميع المخلوقات - وهو يستعيذُ بمخلوق مثله دون اللّه ﷻ، وفي هذا دلالةٌ على استغراقهم في الشرك.

دلالة تعدية الفعل ﴿يَعُوذُونَ﴾ بالباء:

استعانةُ الإنس بالجنّ لطلبِ الحماية ودفعِ الشّرِ شركٌ بالله تعالى

جاء تعدية الفعل ﴿يَعُوذُونَ﴾ بحرف الجرّ الباء؛ للدلالة على الاستعانة، أي: المستعيذون من الإنسِ يستعينون برجالٍ من الجنّ، طالبين منهم الحماية والملجأ أو العون، فكأنّهم جعلوا أولئك الجنّ أداة ووسيلة يتقوّون بها، ويستدفعون بها الشرّ عن طريقهم، وهذا شركٌ باللّه؛ إذ العوذُ والاستعانة في دفعِ الضرّ أو طلب النفع لا يكون إلّا من اللّه، فالاستعاذةُ بالجنِّ دون الاستعاذة باللّه شركٌ وكفرٌ.

صفوةُ رجالِ الجنّ وأشدّهم قوّةً هم من يُستعاذ بهم بحسب اعتقاد العائذين

دلالة تنكير وصف (رجال) وإطلاقه على الجن:

إطلاقُ اسم الرجال على الجنّ، مع أنَّ الرجلَ اسم للمذكر البالغ من بني آدم[1]، هو من باب المجاز[2]، أو التشبيه والمشاكلة لوقوعه من رجالٍ من الإنس[3]، أو المقصودُ صفة الرجولة التي تدلّ على القوّة والشدّة؛ للإشارة إلى قوّة من يُستعاذ بهم وعظمتهم بحسب اعتقاد العائذين، وقيل: فيه "دلالةٌ على أنّ للجنّ نساءً كالإنس؛ لأنّ لهم رجالًا، ولذا قيل في حقّهم: إنّهم يتوالدون، لكنّهم ليسوا بمنظرين كإبليس وذريته"[4]، وأمّا تنكيرها؛ فهو للتهويل والتفخيم، وهذا كان اعتقادهم؛ وذلك أنّ الرجلَ من العرب كان إذا أمسى في وادٍ قفرٍ في بعضِ مسايره، وخافَ على نفسه؛ قال: أعوذُ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريدُ الجنّ وكبيرهم[5].

المستعاذُ بهم رجالٌ من جنسِ الجنّ

معنى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ بيانيَّةٌ؛ لبيانِ الجنس التي تنتمي إليه هذه الطائفة المسْتَعاذ منها، وهو جنسُ الجنّ؛ لأنّه لا يَستَلزِمُ الإطلاق دُخولَهم في الرِّجالِ.

بيانُ فسادِ ما كان شائعًا في الجاهلية من أنّ الجنّ لهم القدرةُ على النفع والضرّ

سرّ استعاذة رجال الإنس برجال من الجن دون العكس:

الاستعاذةُ كانت من رجال من الإنس برجالٍ من الجنّ، ولم تكنْ بالعكس، أي: لم يستعذِ الجنّ بالإنس؛ لأنّ هذا ما كان شائعًا في الجاهلية من أنّ الجنّ لهم القدرة على النفع والضرّ، وأنّ بعضَ الناس كانوا يلجؤون إليهم؛ طلبًا لمنفعتهم وعونهم على قضاءِ مصالحهم[6]، ويمكن أنْ يرجعَ هذا الخوف إلى أنّ الجنّ لا تُرى،

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (رجل).
(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 6/ 66.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 134.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 297.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 655.
(6) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 134.

فهي مجهولةٌ بالنسبة إلى الإنس، في حين أنّ الإنسَ يراهم الجنّ، فلا يشكّلُ مصدرَ خوفٍ بالنسبة لهم، فضلًا عن طبيعةِ الجنّ من الإغواءِ والوسوسة للإنس، وبيان ما يمكن أنْ يصل إليه الإنسان من الانحراف والجهل والشرك.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَزَادُوهُمۡ﴾:

تسبّب عن التجاء الإنس واعتصامهم بالجنّ زيادة الضلال للفريقين

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ سببيّة؛ لأنّ اعتصام رجالٍ من الإنس برجالٍ من الجنّ؛ خوفًا على أنفسهم وما معهم - إذا نزلوا واديًا - سبَبَ عنه فتنةً للإنس باعتقادهم في الجنّ غير ما هم عليه، فتبعوهم في الضلال، وفتنةً للجنّ بأنْ يغترّوا بأنفسهم، ويقولوا: سِدْنا الجنَّ والإنسَ، فيَضلوا، ويُضلوا[1]، وتفيدُ الفاءَ أيضًا ترتيبَ الإخبار[2]، أي: ازدادوا رهقًا بعد استعاذةِ رجالٍ من الإنس برجالٍ من الجنّ.

سر التعبير بفعل الزيادة ماضيًا:

الرهقُ موجودٌ عند مشركي الجنّ والإنس، وتحقَّقت زيادته فيهم بعد الاستعاذة

في التعبير بالزيادة في قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ دلالةٌ على وجودِ الرهق أصلًا في هؤلاء الفريقين من الجنّ والإنس؛ لأنّ الزيادةَ تدلُّ عَلَى الفضْلِ والنموّ، وأنْ يَنْضَمَّ إلى ما عَلَيْهِ الشَّيْءُ في نَفْسِه شيءٌ آخر حتى يبلغَ الغاية[3]، فالضلالُ والعتوّ والسفهُ موجودٌ عند المشركين من الجنّ والإنس، ولمّا استعاذ رجالٌ من الإنس برجال من الجن؛ زادَ الجنُّ الإنسَ العائذين بهم غيًّا فوقَ غيّهم بأن أضلوهم حتى استعاذوا بهم، وزادَ الجنُّ استكبارًا وضلالًا وعتوًّا وسفهًا؛ بسببِ استعاذة الإنس بهم، والتعبيرُ بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على أنّ نتيجة استعاذة الإنس بالجنّ - وهي زيادةُ تكبّر الجنّ وطغيانهم، أو زيادةُ خوفِ المستعيذين وذلّهم من الإنس - قد تحقّقت، وتأكّدت.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 472.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 297.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زيد)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زيد).

دلالة إسناد الزيادة إلى ضمير الإنس والجن:

زاد العائذون الجنَّ تكبُّرًا وعتوًّا، وزادَ الجنُّ الإنسَ العائذين بهم ضلالًا وغيًّا

أسندت الزيادة إلى الإنس، أو الجنّ بصيغة الضمير لا الاسم الظاهر؛ ليحتملَ رجوع الضمير إلى الجنّ والإنس، فيحتمل إضافة الزيادة إلى الجنّ، أي: زادَ الإنسُ الجنَّ طغيانًا وتكبُّرًا بهذا التعوُّذ، ويحتمل إضافة الزيادة إلى الإنس، أي: زادَ الجنُّ الإنسَ فرقًا وخوفًا من الجنِّ أو كفرًا[1]، وإسناد الزيادة إلى الإنس والجنّ هو باعتبار السببية، أي: زاد العائذون الجنَّ تكبُّرًا وعتوًّا حتى قالوا: سُدنا الإنسَ والجنَّ، وزادَ الجنُّ الإنسَ العائذين بهم غيًّا، بأنْ أضلوهم حتى استعاذوا بهم، فإذا استعاذوا بهم، فأمنوا؛ ظنّوا أنّ ذلك من الجنّ، فازدادوا رغبةً في طاعةِ الشياطين وقبول وساوسهم[2].

سرّ التعبير بقوله: ﴿رَهَقٗا﴾ دون ضلالًا أو تعبًا:

في التعبير بالرّهق صورةٌ كاملةٌ للحالة التي غشيتِ الطرفين في علاقةِ الشرك

جاءتِ الفاصلةُ القرآنية ﴿رَهَقٗا﴾ مناسبةً لمعنى الآية القرآنية: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾، التي تذكرُ استعاذةَ مشركي قريش بالجنّ، فناسبتِ الفاصلة ﴿رَهَقٗا﴾ مدى فداحة هذا الأمر، وما هم فيه من أحوالِ الضلال التي يلزمُ منهم الضيق والشدّة، فأصلُ الرهق الغشيان بقوّة وشدّة وقهر[3]، فضلًا عن أنَّ كلمة ﴿رَهَقٗا﴾ جامعةٌ لجميع معاني الشر والسلبية التي نتجتْ عن علاقة استعاذة الإنس بالجنّ، فشملت معنى الطغيان والتجبّر والاستكبار والعتوّ، الذي أصاب الجنّ نتيجة استعاذةِ الإنس بهم، وشملتْ معاني الإثم والذنب والجهل والسفه والغيّ والضلال، الذي أصابَ الإنس نتيجة استعاذتهم بالجنّ، ولو عبر بالضلال أو التعب؛ لاقتصرَ على بعض المعاني.

---

(1) ابن عادل، اللباب: 19/ 417.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 43، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 297.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 473.

رهقٌ شديدٌ مهولٌ وكثير ازداده الإنسُ والجنُّ بسبب الاستعاذة

نكتة تنكير لفظ ﴿رَهَقًا﴾:

عبّر البيانُ الحكيم بقوله: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، ولم يقلْ: فزادوهم الرهق؛ للدّلالة على التهويل والتعظيم، أي: زادوهم رهقًا شديدًا لا يوصَف، ولا يُتصوَّر مداه، وهو مهولٌ لِما فيه من الإبهام ولإفادة التكثير، فالرَّهقُ لم يكن نوعًا واحدًا، بل هو رهقٌ نفسيٌّ: قلقٌ ووسوسةٌ، ورَهَقٌ عقديٌّ: ضلال واستكبار، واجتماعي: خضوع وخنوع وذلّ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العوذ والالتجاء:

العـوذُ خـاصٌّ بطلبِ التحصّن مـن الـشـرور، والالتجاءُ يكون في الخير والشر

العوذُ أخصُّ من الالتجاء، فالعوذُ هو الالتجاءُ إلى الآخر والاعتصامُ به، وطلبُ الحماية منه، والتحصُّن من الشرور، كمرضٍ أو فزعٍ أو جنون أو حسد، أو من الشيطان ووسوسته[1]، والالتجاءُ أعمّ؛ إذ يشملُ طلبَ الحماية من الشرّ، وطلبَ العون في الخير، أي: الالتجاءُ يكون في السراء والضراء[2]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ (يعوذون) دون (يلتجِئون)؛ لأنَّ " العوذَ هو الالتِجاءُ إلَى ما يُنجي مِن شَيءٍ يَضُرُّ"[3]، واستعاذةُ رجال الإنس برجالٍ من الجنِّ؛ ليدفعَ الجنُّ عنهم بعضَ الأضرار.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).

(2) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لجأ).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 225.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ [الجن: 7]

اشتراكُ كفرة الإنس والجنة بضلالِ إنكارِ البعث بعد ضلالِ الشرك

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا كان التقديرُ وفقَ الآيةِ السابقة - وهي: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ - فضلَّ كلٌّ مِنَ الفريقين بالآخر ضلالًا بعيدًا؛ حتى ابتعدوا عن الشرائع النبوية، واعتقدوا ما لا يجوزُ اعتقاده؛ عطَفَ البيانُ القرآني عليه قولَ النّفر من الجنّ، مؤكّدين هذا الضلال بصورة أخرى منه: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبْعَثَ﴾: أصلُ (بعث) هو إثارةُ الشَّيء وتوجيهه[2]، والبَعْثُ: الإحياءُ مِنَ اللّه للمَوْتى، وبَعَثَ اللّهُ الخَلْقَ: نَشَرَهم، والبَعْثُ: الرَّسول، وبَعَثَه على الشَّيءِ: حَمَلَهُ على فِعْلِه، وبَعَثَ عليهِمُ البلاءَ: أحَلَّه، وانبَعَثَ الشَّيءُ، وتَبَعَّثَ: اندَفَعَ، وبَعَثَه مِن نَوْمه: أيْقَظَه، وأهَبَّه[3]، وقد غلَبَ البَعْثُ في اصطلاحِ القُرآنِ على إحضارِ النّاسِ إلى الحِسابِ بَعْدَ الموتِ، والبَعْثُ هنا يَحتَمِلُ بَعْثَ الرُّسُلِ، ويَحْتَمِلُ بَعْثَ الأمْواتِ لِلحَشْرِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانٌ لِما استنكره مؤمنو الجنِّ على الكافرين من الجنّ والإنس

يقولُ تعالى ذكره: وأنّ الرجالَ من الجنّ ظنّوا، كما ظنّ الرجالُ من الإنس أنْ لن يبعثَ اللّهُ أحدًا رسولًا إلى خلقه، يدعوهم إلى توحيده[5]، أو لنْ يبعثَ اللّهُ أحدًا بعد موته[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 475 - 476.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 226.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 657.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 226.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَنَّهُمۡ﴾:

إكمالٌ لصورة الضلال السابقة للإنس والجنّ قبل إيمانِ النفر من الجنّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فالجنّ المؤمنون استنكروا ما كان شائعًا في الجاهلية من شرك رجال من الجنّ واستعاذتهم برجال من الجن، ثم عُطِف عليه استنكارهم أنّ الإنس والجنّ ظنوا أنّ اللّهَ لن يبعثَ رسولًا، أو لن يبعثَ أحدًا للحساب والجزاء، وفي هذا العطفِ إكمالٌ لصورة ضلالِ الإنس والجنّ قبل إيمان الجنّ.

دلالة التأكيد بقوله: ﴿وَأَنَّهُمۡ﴾:

فسادُ اعتقاد المشركين تجاوزَ عالم الإنس إلى عالم الجن

التأكيد بـ(إنّ) المكسورة أو المفتوحة (أنّ)؛ للاهتمام بالخبر لغايته، وهي التعريضُ بالمشركين بأنّ فساد اعتقادهم تجاوزَ عالم الإنس إلى عالم الجن[1]، وفي هذا التأكيد إشارةٌ إلى ظهور دلائل البعث، وأنّه لا يكاد يُصدَّق أنَّ أحدًا يكذب به، وتنبيهٌ على أنّ الأهواء والأغاليط قد يتطابق عليها الجمّ الغفير؛ حثًّا للمهتدي على ألّا يستوحش في طريق الهدى لقلّة السالكين، ولا يغترّ بطرق الردى لكثرة الهالكين[2].

دلالة التعبير بالإضمار في قوله: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ﴾:

إضمارٌ يحملُ التلطُّف في الخطاب

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالإضمار دون الإظهار، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ﴾ فلم يقلْ: وأنّ الرجال من الإنس ظنّوا؛ ليحتملَ أنْ يكون الضميرُ عائدًا على الإنس أو على الجن، أي: الإنس إنْ كان الخطاب للجن، والجنّ إنْ كان الخطاب للإنس[3]، وفي هذا تلطّف بالخطاب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 226.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 475.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 475.

سر التعبير بالظن في قوله: ﴿ظَنُّواْ﴾:

ظـنُّ المشركين بـعـدم البعث ظــنٌّ خــاطـئ فاسد

آثر البيانُ الحكيم استعمالَ لفظ الظَّنِّ دون العلم، في قوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ لمناسبة المقام؛ فحالهم هو ظنٌّ ليسوا فيه على بَلَجٍ، فالظنّ قد يصيب، وقد يخطئ، وهو أكثر[1]، وهو ظنٌّ خاطئ فاسد، فإنّ الرسول حقٌّ والبعث حقٌّ، والحسابُ حقٌّ، والجزاء حقٌّ.

دلالة التشبيه بالكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾:

للكفر أصول واحدة وأفكار متشابهة يشترك فيها الإنس والجنّ

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ حرف تشبيه، و﴿كَمَا﴾ نعْتٌ لَمصدرٍ مَحذوفٍ، والتقدير: ظنّوا ظنًّا مِثلَ ظَنِّكم[2]، أي: حصل لهم مثلما حصلَ لكم من إنكار الحشر ومن إنكار إرسال الرسل[3]، مما يدلّ على المماثلة والمطابقة بين اعتقاد الجنّ واعتقاد الإنس، ويدل على أنَّ للضلال منهجًا واحدًا، وللكفر أصولًا واحدة وأفكارًا متشابهة يشتركُ فيها الإنس والجنّ.

وجه التعبير بـ(ما):

(ما) في قوله تعالى: ﴿ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ تحتمل أنْ تكون موصولة، والتقدير: (ظنّوا كالذي ظننتم)، وجملة ظننتم لا محل لها؛ لأنَّها موصولة للموصول الحرفي[4]، أو مصدرية، والتقدير: ظنّوا كظنّكم، وفي التعبير بالمصدر المؤول: ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾، دون المصدر الصريح، إطناب وتوكيدٌ يسهمان في رسمِ صورةٍ هذا الظن الفاسد.

سر إعادة التعبير بفعل الظن:

ظنّ كفار الجنّ في الضلال يُماثل ظنَّ كفار الإنس

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أعادَ البيانُ القرآني التعبيرَ بالظن، في قوله: ﴿ظَنَنتُمْ﴾ دون غيره؛ ليحقّق التشابهَ والتماثلَ بين حالِ الإنس والجنّ في الضلال باتّباعهم الظنّ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 475.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 237.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 226.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 237.

العقائد، وليحقّق كذلك بلاغة الجناس الاشتقاقي بأنْ يجمع بين لفظي ﴿ظَنُّواْ﴾، وهم الجن، و﴿ظَنَنتُمۡ﴾، وهم كفار قريش؛ إذ يرجعُ اللفظان إلى جذرٍ لغوي واحد هو (ظنن)، وهذا الجناس يعطي جماليةً في السمعِ تجذب السامع إلى ما يُقال، فإنّ النفوس تستحسن المكرر خاصة عند اختلاف المراد منه، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويساعدُ على ترسّخهِ في الذّهن.

بلاغة التعبير بالاعتراض ﴿كَمَا ظَنَنتُمۡ﴾:

فَسادُ اعتقادِ المشركين تَجاوَزَ عالَمَ الإنسِ إلى عالَمِ الجنِّ

جملةُ: ﴿كَمَا ظَنَنتُمۡ﴾ معترضةٌ بين ﴿ظَنُّواْ﴾ ومَعموله، فيَجوزُ أنْ تكونَ مِن القولِ المَحكيِّ، يقولُ الجنُّ بَعضُهم لبعضٍ؛ يُشبِّهونَ كُفّارَهم بكفّارِ الإنسِ، ويستنكرون عليهم، ويجوز أنْ تكون من كلام الله تعالى المخاطَب به المشركون الذي أمرَ رسوله بأنْ يقوله لهم، وفي هذا تَعريضٌ بالمشركينَ بأنَّ فَسادَ اعتقادِهم تَجاوَزَ عالَمَ الإنسِ إلى عالَمِ الجنِّ[1].

سر النفي بـ﴿لَّن﴾ دون (لا):

في تأكيد النفي دلالـةٌ على إنكارهم وعدم تردُّدهم في إحالة وقوع البعث

التعبير بحرف تأبيد النفي ﴿لَّن﴾، في قوله تعالى: ﴿أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾؛ للدلالة على أنَّ كفّارَ الجن والإنس كانوا غير مترددين في إحالةِ وقوع البعث، وشدّة الإنكار منهم[2].

سر التعبير بالبعث دون الإرسال في قوله: ﴿يَبۡعَثَ﴾:

كفارُ الجنّ والإنس منكرون لإرسال الرسل وللبعث من القبور

آثر البيانُ القرآني التعبير بالبعث دون الإرسال؛ لكون لفظ البعث أوسع دلالة؛ إذ يشملُ بعث الرسل؛ ليزيلوا عماية الجهل أو البعث من القبور[3]، وكفّار الجنّ والإنس كانوا منكرين لإرسالِ الرسل وللبعث من القبور.

دلالة التعبير بالمضارع المنفي ﴿لَّن يَبۡعَثَ﴾:

التّعبير عن إنكار كفرة الجن والإنس للبعث بصيغة المضارع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 226.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 475، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 226.

(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 418.

المنفي، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾؛ يدلّ على تجدّد هذا النفي واستمراره، أي: إنكارهم لإرسال الرسل وللبعث بعد الموت أمرٌ متجددٌ مستمرّ منهم، بما يدلّ على عظيمِ كفرهم وشدّة تعنّتهم وإصرارهم على كفرهم.

إنكارُ المشركين لإرسال الرسل وللبعث بعد الموت أمرٌ متجددٌ مستمرّ منهم

سر التعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

آثر البيانُ الحكيم التعبيرَ بالاسم الجليل في قوله: ﴿يَبۡعَثَ ٱللَّهُ﴾، دون وصف الربوبية؛ للإشارة إلى استعظامِ إنكارهم لإرسال الرسول أو البعث بعد الموت؛ إذ كيف ينكرون ذلك، واللّه هو الذي له الإحاطة الكاملة علمًا وقدرة[1]؟.

إنكارُ البعث أمرٌ عظيم في حقّ من له الإحاطة الكاملة علمًا وقدرة

دلالة التعبير بلفظ ﴿أَحَدٗا﴾ نكرةً:

عبّر القرآن بلفظ ﴿أَحَدٗا﴾ دون (رسولًا) أو (نبيًّا)؛ لكون البعث يشملُ إرسال الرسل والبعث من القبور، ولو عبّر بلفظ (رسولًا)؛ لاقتصرَ المعنى على إنكارهم لإرسالهم الرسل، والواقع أنّهم كانوا ينكرون الأمرين معًا، وقد جاء منكّرًا؛ لإفادة العموم؛ إذ جاء لفظ ﴿أَحَدٗا﴾ نكرة في سياق النفي، أي: أنكر كفرة الجن والإنس أنْ يبعث اللّه أيَّ أحدٍ من الرسل، أو أيَّ أحدٍ من القبور من الإنس والجن.

إنكارُ الكفار شملَ بعث الله لأيِّ أحد من الرسل أو من القبور

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 475.

﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨﴾

[الجن: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إثبـاتُ تمام القدرة الإلهية بعد بيانِ خطأ الجنّ في ظنّهم عدم البعث

لمّا كان عدمُ البعثِ من خللٍ في القدرة؛ شرع الجنّ - كما أخبرَ اللّه- في إثبات تمام القدرة على وجهٍ دالّ على صحّة القرآن وحراسته من الجانّ؛ لئلا يظنّ أنّه من نحو ما للكهان، فقالوا مؤكّدين في قراءة الكسر؛ لاستبعاد الوصول إلى السماء: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمَسۡنَا﴾: أصلُ (لمس) يَدُلُّ عَلَى تَطَلُّبِ شَيْءٍ ومَسيسِهِ[2]، واللَّمْسُ: الجَسُّ، وقيلَ: اللَّمْسُ: المَسُّ باليَدِ، ويعبَّر به كِنايَةً عَنِ الجِماعِ[3]، واللَّمْسُ: إدراكٌ بظاهرِ البشرة كالمسّ، ويعبّر به عن الطّلب، وقد يُعبّر به عن الوصولِ إلى الشيء[4]، ومعنى ﴿لَمَسۡنَا﴾: طلبنا السماء، وأردناها[5].

2) ﴿مُلِئَتۡ﴾: أصلُ (ملأ) يدلُّ على المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ، ومَلَأْتُ الشَّيْءَ أَمْلَؤُهُ مَلْئًا، والمِلْءُ: الاسْمُ لِلمِقْدارِ الَّذي يُمْلَأُ، وسُمّيَ؛ لأنَّهُ مُساوٍ لِوِعائِهِ في قَدْرِهِ[6]، وملأ الكأسَ وغيرَه: وضعَ فيه قدرَ ما يسَع من الماء وغيره، ومعناه المحوري: تجمُّعُ الشيء في أثناءِ ظرفٍ حتى لا يبقى في الظَرفِ فَراغٌ، أي: شغلُ كلّ فراغِ الظَّرْف بمادة[7]، ومعنى ﴿مُلِئَتۡ﴾ موافقٌ للمعنى اللغوي.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 476.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمس).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لمس).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لمس).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 657.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ملأ).

3) ﴿حَرَسًا﴾: أصلُ (حرس) الحفظُ[1]، وحرسَ الشيء: حفظه، وحماه، والحَرَس: الطائفةُ من الجنود، أو من الناس يقومون بمهمَّة حراسيَّة معيَّنة، والحرسُ جمع حارس، وهو حافظ المكان[2]، ومعنى ﴿حَرَسًا﴾ هنا موافقٌ للمعنى اللغوي، يعني حفظة[3].

4) ﴿وَشُهُبًا﴾: جمعُ شهاب، وأصلُ (شهب) يَدُلُّ على بَياض في شَيءٍ مِنْ سَوادٍ، ومِنْ ذلكَ: الشُّهْبَةُ في الفَرَسِ، وهو بَياضٌ يُخالِطُهُ سَوادٌ[4]؛ تشبيهًا بالشِّهابِ المختلطِ بالدُّخان[5]، والشِّهابُ: الشُّعلةُ السّاطعةُ مِنَ النّار الموقدة، ومِنَ العارضِ في الجوِّ، والجميعُ الشُّهُبُ والشُّهْبانُ[6]، والمقصودُ بالشُّهب في الآية: النجومُ التي كانت تُرجَمُ بها الشياطين[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حفظُ السماء من الشياطين عندما أرادوا الاستماع إلى بعض أخبار الغيب

يقول ﷻ مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر: وأنّا طلبنا السماء، وأردناها؛ لِنَستَمِعَ فيها بعضًا من أخبارِ الغَيب، كما جَرَت عادتُنا، فوجَدْناها مملوءةً بحُرّاسٍ أشِدّاءَ من الملائكةِ يَحفَظونَها مِن الشَّياطين، ومملــوءةً بنجوم تَرجُمُهم، وتُحرِقُهم؛ إن أرادوا استِراقَ السَّمعِ[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سر تكرار التأكيد بقوله: ﴿وَأَنَّا﴾:

تأكيدٌ لغَرابةِ الخبَرِ وحثٌّ من الجنّ على طلب المهمات

التَّأكيدُ في قولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ بحرْفِ (إنَّ)؛ لغَرابةِ الخبَرِ، باعتبارِ ما يَليه مِن قولِه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾[9]، وللحثّ من الجنّ على طلبِ المهمات؛ وإنْ بعد مكانها[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرس).
(2) الراغب، المفردات، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حرس).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 657.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهب).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شهب).
(6) ابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات: (شهب).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 657.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 657.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 226.
(10) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 476.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿لَمَسۡنَا﴾:

طلبُ الجنّ بلوغَ السماء؛ اختبارًا لأمرها واستماعًا إلى كلام أهلها

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ يُخبر اللّهُ تعالى عن حال الجنّ، بأنّهم كانوا يطلبون بلوغَ السّماء، أو يختبرون أمرها للاستماع إلى كلام أهلها، وهذه استعارةٌ تصريحية تبعية، واللمسُ حقيقته الجسُّ باليد، ويُطلَقُ مجازًا على اختبارِ أمر؛ لأنّ إحساس اليد أقوى إحساسٍ، فشبّه الطلبَ باللمس باليد في كون كلّ واحد منهما وسيلةً إلى تعرّف حال الشيء واختباره، أي: جرّبوا، واختبروا أمرَ السماء[1]، أو هو مستعار للطَّلَبِ، أي: طَلَبْنا بُلوغَ السَّماءِ، أو خبَرَها؛ لأنّ الماسَّ طالبٌ متعرّف، يقال: لمَسَهُ والتمسَهُ وتلمّسَهُ، كطلَبَه وأطلبَه وتطلَّبَه[2].

دلالة التعبير بفعل اللمس ماضيًا:

إخبارُ الجنّ عن أمرٍ حدثَ معهم ومضى

عبّر البيانُ القرآني في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا﴾ بالماضي دون المضارع؛ لأنَّ الجنّ يخبرون عن حدثٍ وقعَ معهم في الزمن الماضي، وتحقّق وقوعه، قد منعهم من الاقتراب من السماء لاستراق السمع.

بلاغة إفراد السماء:

السماءُ الدنيا هي التي كان الجنّ يقعدون منها مقاعدَ للسمع

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ السماء دون السماوات؛ لكون المقصود بها السماءُ الدنيا، فهي التي كانوا يقعدون منها مقاعدَ للسمع[3]، ولو قال: السماوات؛ لكان المعنى يشيرُ إلى جميع السماوات السبع، وهذا خلافُ الواقع وغير مراد.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا﴾:

آثر البيانُ الحكيم استعمالَ الفاء العاطفة دون (الواو) و(ثم)؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 624، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 227، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 335.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 624، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 476.

مفاجأةُ الجنّ بالحفظة والشهب كانت عقبَ محاولتهم استراق السمع مباشرة

لإفادة الترتيب مع التعقيب، بما يدلّ على أنّ الجنّ ما إنْ حاولوا لمسَ السماء، أي: الاقتراب منها، أو استراق السمع منها؛ حتى فوجئوا مباشرة بأنّها قد تغيّرت، وأصبحت ممتلئةً بالحرس والشهب، ولو استُعملت (الواو)؛ لكان الحدثان مترافقين دون ترتيب واضح، ولو استُعمِلت (ثم)؛ لفُهِم أنّ بين محاولة استراق السمع والنتيجة مهلة زمنية، وهذا غير مراد، ومعنى التعقيب في الفاء يُجسّد لحظة الدهشة والانقطاع المفاجئ لما كانوا معتادين عليه.

دلالة التعبير بالفعل ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا﴾:

عند إصابةِ الجنّ للسماء تفاجؤوا بالحرس والشهب

آثرَ البيانُ الحكيمُ استعمالَ الفعل ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا﴾ دون (ألفيناها)؛ لكون لفظ (وَجَدَ) أنسب للمقام الذي هو مقامُ دهشة وتفاجؤ بالواقع الجديد الذي هو أمرٌ محسوس مشاهد، ففي التعبير به نفي للمجاز؛ إذ من معاني (وَجَد): المصادفةُ والعلمُ والرؤيةُ وإصابَةُ الشَّيء والإحساس بِهِ بعد أنْ لم يكن[1]، والمعنى: فأصبناها، وصادفناها من جميع نواحيها مُلئتْ حرسًا شديدًا وشهبًا.

دلالة التعبير بالماضي في قوله: ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا﴾:

مفاجأةُ الجنّ بالحرس والشهب وقعتْ وتحقّقت ومضت

عُبِّرَ بصيغة الماضي في ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا﴾ توافقًا مع مجيء الأفعال بصيغة الماضي قبلها، فالسياق يتحدّث عن واقعة مضتْ، ولإفادة تحقُّق الفعل، فقد وقَعَ، وتحقّق بالفعل بعد بعثةِ النّبي ﷺ؛ إذ تغيّر حالُ السّماء التي كانوا يسترقون السمع منها، وأنّه ليس ظنًّا أو توقُّعًا، بل واقعًا محقَّقًا انتهوا إليه، ورأوه بأعينهم، وهذا يُفيد اليقين الكامل الذي توصَّل إليه الجن بعد التجربة.

دلالة التعبير بالإضمار ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا﴾:

الإضمارُ عند سبقِ الذكر أبلغُ وأوجزُ من الإظهار

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا﴾ عَدَلَ القرآنُ الكريمُ عن الإظهار إلى الإضمار، فقال: ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا﴾، ولم يقلْ:

(1) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 615، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (وَجَدَ).

فوجدنا السماء للاختصار؛ إذ سبق ذكرها، فاحترزَ عن الزيادة بالتصريح به؛ للإشارة إلى أنّ السماءَ هي ذاتها التي اعتادوا على استراقِ السمع فيها، ولأنّ الإضمارَ أنسبُ مع سياق المفاجأة بالحدث والسرعة فيه.

سرّ التعبير بقوله: ﴿مُلِئَتۡ﴾ مبنيًّا للمفعول:

امتلاءُ السماء بالحرس والشهب تم في غاية السهولة

عبّر البيان القرآن بالفعل ﴿مُلِئَتۡ﴾؛ للدلالة على شدّة امتلاء السماء، وكأنّ الحرس والشهب شغلتْ كلّ فراغ السماء، فالمِلْءُ: مُساوٍ لِوعائِهِ في قَدْرِهِ، حتى لا يبقى فراغ[1]، وقد جاء التعبير بصيغة المبني للمفعول؛ للإشارة إلى عظيم القدرة الإلهية بأنّ امتلاءَها كان في غايةِ السهولة، أي: مُلئت ملْئًا هو في غاية السهولة والخفّة على فاعله[2]، وكذلك للتركيز على الحدث، وهو الملء والكثرة، وإبراز صورته وآثاره، وهو امتلاء السماء بالحفظة والشهب، فالهدفُ ليس الإخبار عمّن ملأها، وإنما الإخبار عن حالة جو السماء، وأنّه بلغ غاية الامتلاء.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿مُلِئَتۡ﴾:

بعد البعثة كثرتِ الشهب والحراس لمنع الجنّ من استراق السمع

في قوله: ﴿فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ استعارةٌ، وذلك في لفظ ﴿مُلِئَتۡ﴾، فإنّه مستعملٌ في معنى كثر، وزيد في حرسها، وحقيقةُ الملءِ غمرُ فراغ المكان أو الإناء بما يحلّ فيه، فأطلقَ هنا على كثرة الشهب والحراس على وجه الاستعارة[3]، فالتعبيرُ بالملءِ يدلّ على أنها كانت قبل ذلك تُحرس لكن لا على هذا الوجه، وذلك أنّ رجم الجنّ بالشُّهب كانت موجودة قبل المبعث، فلمّا بُعث النبي ﷺ؛ زيدت، وجُعلت أكمل وأقوى، وكَثُر الرجم، ومُنِعَ استراق السمع لقوله تعالى: ﴿مُلِئَتۡ﴾، فالحادثُ الذي استجدَّ بعد البعثة هو الملءُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ملي).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 476.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 227.

والكثرة، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، أي: كنّا نجد فيها بعض المقاعد خالية من الحرس والشهب، والآن ملئت المقاعد كلها[1].

دلالة التعبير باسم الجمع ﴿حَرَسًا﴾ نكرةً:

حرسُ السماء جموعٌ عظيمةٌ هائلة كثيرة غيرُ محصورة العدد

الحرس: اسم جمع للحراس، ولا واحد له من لفظه مثل خدم، وقد آثر البيانُ القرآنيُّ التعبير به دون لفظ (الحرّاس)، في قوله: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾، ونكّره كذلك؛ للدلالة على الكثرة الهائلة المبهمة؛ لأنّ اسم الجمع يدلّ على جماعة من الحُرّاس دون تحديد العدد أو الشكل، فالحفظة جموعٌ عظيمةٌ غيرُ محصورة، ولا تُعدّ، وإيقاعُ لفظ ﴿حَرَسًا﴾ أقصر وأقوى وأشدّ، وهذا أنسبُ للسياق الذي يوحي بالرّهبة والشدّة، أمّا (الحرّاس)؛ فهو جمع يفيد أفرادًا معدودين، ولو عبّر به؛ لفُهم منه أنّهم مجرد أفراد يقومون بالمراقبة، بلا الإيحاء بهذه القوة.

سر إفراد الوصف في قوله: ﴿شَدِيدًا﴾:

وصْــفُ اسم الجمع بالمفرد أقصـرُ وأقـوى وأشدُّ

وصْفُ الحرس في قوله تعالى: ﴿حَرَسًا شَدِيدًا﴾ بشديد، وهو مفرد دون (شداد) أو (أشداء)؛ نظرًا إلى لفظِ حرس وهو اسمُ جمْعٍ، كما يقال: السلف الصالح، أي: الصالحين، ولو لُحِظَ المعْنَى وما يتضمنه من الآحاد؛ لَقال: (شِدادًا) أو (أشداء) بالجمْعِ[2]، ولكون إيقاعِ لفظ ﴿شَدِيدًا﴾ أقصر وأقوى وأشدّ.

دلالة عطف قوله: ﴿وَشُهُبًا﴾ على ﴿حَرَسًا شَدِيدًا﴾:

تـنـوُّعُ وسائل حماية السماء دليلٌ على شدّة حراستها

عطَفَ النظمُ الحكيم (شُهُبًا) على ﴿حَرَسًا﴾، في قوله تعالى: ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾[3]؛ لإفادة اشتراكهما في حفظ السماء

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 626، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 476.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 476، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 227.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 237.

من استراق السمع، بما يدلّ على شدّة الحراسة، والمعنى: فوجدناها كثيرةَ الحراس من الملائكة وكثيرة الشهب للرجم[1]، وللدلالة على المغايرة في النّوع، فالشُّهُب ليست من جنس الحرس، بل شيء آخر يُضاف إليهم، وهذا تنوُّعٌ في وسائل الحماية، وتدرُّجٌ في تصوير الحماية السماوية، فالحرسُ الشديد يبعث على الهيبة والرعب والشُّهب بالردع الحسم الفوري.

سر التعبير بالشهب في قوله: ﴿وَشُهُبًا﴾:

الشُّهبُ كواكبُ محرقة تنقضّ على الجنّ لتمنعه من استراق السمع

آثر البيانُ الحكيمُ التعبير بلفظ ﴿وَشُهُبًا﴾ دون النجوم أو الكواكب؛ لمناسبة لفظ الشهب للسياق، فالشِّهابُ في اللغة: الشُّعلةُ السّاطعةُ مِنَ النّار الموقدةِ، ومِنَ العارضِ في الجوِّ[2]، وهو القطعة التي تنفصل عن بعض النجوم، فتسقط في الجو، أو على الأرض أو في البحر، وهذا يناسب حراسة السماء، فكل شيطان يحاولُ استراق السمع من السماء تنقضّ عليه الكواكب، فتحرقه لتمنعه من استراق السمع.

دلالة التعبير بلفظ ﴿وَشُهُبًا﴾ جمعًا منكّرًا:

كثرةُ الشهب التي ملئت السماء يوحي بشدَّة حفظ السماء بعد البعثة

﴿وَشُهُبًا﴾ جمعُ شهابٍ، وهيَ الشعلةُ المقتبسةُ من نارِ الكواكبِ[3]، وقد عبّر البيانُ الحكيمُ بالجمع؛ لأنّ السياق هو حديث عن امتلاء السماء بالشهب، وعن تكاثرها في مدة الرسالة المحمدية؛ حفظًا للقرآن من دسائس الشياطين، كما دلّ عليه قوله عقبه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾[4]، والتعبير بالملْءِ يدلّ على أنّها كانت قبل ذلك تحرس لكن لا على هذا الوجه[5]، وفي هذا السياق ذاته جاء لفظ ﴿وَشُهُبًا﴾ منكرًا؛ لإفادة التكثير كذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 227.
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات: (شهب).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 227.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 476.

دلالة عدم وصف الشهب بالشّدة:

الـقـرآنُ يصفُ الـشيء بما هو مناسبٌ له

لم يصفِ البيانُ الحكيمُ الشُّهُبَ بالشّدة، كما وصفَ الحَرَس في قوله: ﴿حَرَسًا شَدِيدًا﴾؛ مراعاةً لإيقاع فواصل الآيات، ولأنّ الوصفَ بالشدة لا ينطبقُ عليها لغويًّا وبلاغيًّا؛ لأنّ القوةَ أو الشدّة ليست من صفات الشهب الظاهرة بذاتها، بل هي من صفات الفاعل الذي يستعملها، فالقرآنُ يصفُ الشيء بما هو مناسبٌ له.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللَّمْسُ والمَسُّ:

طـلـبُ الـجـنّ لـخبر السماء ومحاولتهم استراق السمع كان لمعرفة بعض أمور الغيب

اللمسُ هو تطلُّبُ شَيْءٍ ومسيسُه، وجسّه، واللَّمْسُ هو المَسُّ بِاليَدِ أو إدراكٌ بظاهرِ البشرة، ويُعبَّر به عن الطّلب، وقد يُعبَّرُ به عن الوصولِ إلى الشيء[1]، أمّا المسُّ؛ فهو أخفّ من اللمس، فالمسُّ أصله جسّ الشيء باليد، ومباشرة الجسم[2]، والمسُّ في القرآن على أربعة وجوه: الجماع، والإصابة، والجنون، والمسّ بالجارحة[3]، واستعمال لفظ اللمس هنا أنسب؛ إذ يدلُّ على الطلب ومحاولة الوصول إلى شيء، فالجنّ طلبوا خبر السماء، وحاولوا استراق السمع من أهلها لمعرفة بعض أمور الغيب، كما يشير التعبير باللمس إلى صعودهم حتى بلغوا السماء لدرجة أنها أصبحت قريبة لهم حتى كادوا يلمسونها.

الحَرَسُ والحَفَظَة:

الحرسُ يحمون السماء، ويحفظونها من الشياطين

الحرسُ هم الذين يحفظون الشيء أو المكان، ويتميّزُ معنى الحراسة بالحماية المادية له ومنع أيّ أذى أو ضررٍ يلحقُ به[4]، أمّا الحفظةُ؛ فهُم الذي يتعهّدون الشيء بالحفظ والتفقّد والتعهّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لمس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسس).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 435.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حرس).

والرعاية، ويتميّز بالإحصاء والتسجيل والرصد[1]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الحرس؛ لأنّه أنسب مع السياق الذي يتحدّث عن الحماية المادية المكانية، وهي حفظُ السماء من الشياطين.

الشّدة والقوّة:

حمايةُ السماء من الشياطين تحتاجُ إلى جلادةٍ وصلابةٍ وإحكامٍ وإسراع

الشّدّةُ نَقيضُ اللّينِ، وفيها معنى القوّة والجلادة والصلابة، والنّجدة، وثبات القلبِ، والإسراع، والإحكام والتوثيق والصعوبة[2]، والقوّة خِلافُ الضَّعْف، وتُستَعمَلُ في مَعْنَى القُدْرَةِ على الفعل أو التحمُّل ماديًّا أو معنويًّا[3]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الشدّة ووصف الحرس بها؛ لأنّ السياق في حماية السماء من أيِّ شيطان يقتربُ منها، ومواجهته وإبعاده، فالأمرُ يحتاجُ إلى جلادة وصلابة وإحكام وإسراع ونجدة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حفظ).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (قوي).

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾ [الجن: 9]

❁ مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مقارنةُ الجنّ بين حالِ السماء الآن وما كانت عليه قبل البعثة

بعد أنْ أخبرَ الجنّ عن حالِ السماء بعد البعثة؛ أخبروا عن حالها قبلُ، فقالوا مؤكّدين بأنّهم كانوا يقعدون من السماء مقاعد كثيرة لاستراق السمع: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾[1]، فكان قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾ تَوطئةً وتمهيدًا لقولِهم بعْدَه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾؛ إذِ المَقصودُ أنْ يُخبِروا مَن لا خبَرَ عندَه مِن نَوعِهم، بأنَّهم قدْ تَبيَّنوا سَببَ شِدَّةِ حِراسةِ السَّماءِ، وكَثرةِ الشُّهبِ، وأمّا نفْسُ الحِراسةِ وكَثرةِ الشُّهبِ؛ فإنَّ المُخبَرينَ يُشاهِدونَه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقۡعُدُ﴾: من (قعد)، والقُعودُ يقابلُ القيام، وهو بمعنى الجلوس، والقَعْدةُ: المَرَّةُ الواحدة، والقَعَدُ: القَوْمُ الذين لا ديوان لهم، والقَعَدُ: الَّذينَ لا يَمْضون إلى القِتالِ، وهوَ اسم للجمع، والمَقْعدُ مكان القُعود[3]، ومعنى ﴿نَقۡعُدُ﴾ هنا موافقٌ للمعنى اللغوي، وهوَ هُنا مَجازٌ في مُلازَمةِ المَكانِ زَمَنًا طَويلًا؛ لأنَّ مُلازَمَةَ المَكانِ مِن لَوازِمِ القُعودِ[4].

2) ﴿لِلسَّمۡعِۖ﴾: أصلُ (سمع) هو إيناسُ الشَّيءِ بِالأُذُنِ مِنَ النّاسِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 477.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 227.
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قعد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 228.

وكُلِّ ذي أُذُنٍ[1]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذن به يُدركُ الأصواتَ، وفعله يُقالُ له: السَّمْعُ أيضًا، ويُعبَّر تارة بالسمع عن الأذن، وتارةً عن فعله كالسّماع، وتارةً عن الفهم، وتارةً عن الطاعة[2]، والمَسْمَع: المَوضع الَّذي يُسمع مِنْهُ، من قَولهم: هوَ منّي بمرأًى ومَسْمَع، أي: حَيْثُ أراهُ، وأسمع كَلامه[3]، ومعنى ﴿لِلسَّمۡعِۖ﴾، أي: لنسمع ما يحدث[4].

3) ﴿رَّصَدًا﴾: أصلُ (رصد) هوَ التَّهَيُّؤُ لِرِقْبَةِ شَيءٍ عَلَى مَسْلَكِه، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ما يُشاكِلُهُ[5]، فالرَّصَدُ: الاستعدادُ للتّرقُّب، والراصِدُ بالشَّيْءِ: الرّاقِبُ لَهُ، والرَّصَدُ: هم القومُ الذين يرصُدون كالحَرَس[6]، ومعنى ﴿رَّصَدًا﴾ في الآية: "اسْمُ جَمْعِ راصِدٍ، وهوَ الحافِظُ لِلشَّيْءِ"[7].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إخبارُ الجنِّ عن حالِ السماء وما كانوا عليه من استراقِ السمع قبل البعثة

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء النفر من الجنّ: وأنّا كُنّا معشرَ الجنّ فيما مضى نَقعُدُ في مواضِعَ مِنَ السَّماءِ؛ مِن أجْلِ استِماعِ بَعضِ ما تتحَدَّثُ به الملائِكةُ ممّا هو كائنٌ، فمَن أراد من الشَّياطينِ الاستماعَ الآنَ لأخبارِ السَّماءِ؛ فإنَّه يُرمَى بشِهابٍ من نارٍ مُرَصَدٍ له؛ لِمَنعِه مِنَ الاستِماعِ، أو إحراقِه[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾:

في العطف إخبارُ الجن عن تغيُّر حالِ السماء قبل وبعد البعثة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سمع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 658.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رصد).
(6) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رصد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 228.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 658.

فالجملتان من كلام الجنّ، والغايةُ من هذا العطف إخبارُ الجنّ عن حال السماء قبلُ وبعد المبعث.

دلالة تكرار ﴿وَأَنَّا﴾:

تكرارٌ يُقصَدُ منه تأكيدُ استماع الجنِّ قبل نزول القرآن

قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، مِن تَمامِ قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، ولكنّ البيانَ القرآنيّ أعاد كلمةَ ﴿وَأَنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخبَرَ الَّذي تَضمَّنَه هو المقصودُ، وأنَّ ما قبْلَه كالتَّوطئةِ له، فإعادةُ ﴿وَأَنَّا﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ[1]، وجاء بالتوكيد لما للإنس من التكذيب للجنّ بوصول أحد إلى السماء[2].

دلالة التعبير بفعل الكينونة الماضي:

حـدثٌ مفاجئٌ منعَ الجنّ ممّا اعتادوا عليه من استراق السمع

عبّر البيانُ القرآني بفعل الكينونة الماضي ﴿كُنَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾ دون أنْ يقول: (وأنا نقعد)؛ للدّلالة على المضي والانقضاء، فقعودهم لاستراق السمع كان فيما مضى، أي: قبل بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن، فضلًا عن أنّ فعل الكينونة يدلّ على الدوام، ممّا يشيرُ إلى أنّ فعلهم هذا في استراق السمع كان طوال الوقت الماضي، (أي: قبل نزول القرآن ومنعهم من استراق السمع)، وفي هذا بيان للحدث المفاجئ، وهو امتلاءُ السماء بالحرس والشهب ومنعهم من استراق السمع.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿نَقْعُدُ﴾:

قـعـودُ الجن فـي السماء كـان عـبـارةً عن مـلازمـتـهـم لـلـمـكـان زمـنًـا طويلًا

حقيقةُ القعودِ الجلوسُ، وهو ضدّ القيام، أي: هو جعل النصف الأسفل مباشرًا للأرض مستقرًّا عليها، وانتصابُ النصف الأعلى، وهو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ﴾ مجاز في ملازمة المكان زمنًا طويلًا؛ لأنَّ ملازمةَ المكان من لوازمِ القعود،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 228.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 477.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ [التوبة: 5][1]، والغرضُ من هذا المجاز هو إيضاحُ المعنى، وهو ملازمةُ المكان في صورة حسيّة ماثلة لعيان السامع، وقد روي في كيفية قعودهم على ما قيل: ركوب بعضهم فوق بعض، وقيل: لا مانع من أنْ يكون بعروج من شاء منهم بنفسه إلى حيث يسمع منه الكلام[2].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿نَقۡعُدُ﴾ دون الماضي:

تكرارُ قعود الجنّ في السماء لاستراق السمع طوال الزمن الذي سبقَ نزول القرآن

التعبير بالمضارع ﴿نَقۡعُدُ﴾؛ للدلالة على تكرار هذا القعود من الجنّ؛ لاستراق السمع مرات عديدة طوال الزمن الذي سبق نزول القرآن، وقبل أنْ يمنعوا من استراق السمع، مما يدلّ على أنّهم اعتادوا هذا الفعل، ومن ثم فوجئوا بمنعهم.

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾، وفائدة تقديم شبه الجملة:

قعودُ الجنّ كان في بعض ساحات السماء الخالية عن الحرس

(مِنْ) في قولِه: ﴿نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾ تَبعيضيَّةٌ، أي: من ساحاتِها، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿نَقۡعُدُ﴾، وليس المَجرورُ حالًا من مَقاعِدَ مُقدَّمًا على صاحِبِه؛ لأنَّ السّياقَ في الكَلامِ على حالِهم في السَّماءِ، فالعِنايةُ بمُتعلَّقِ فِعلِ القُعودِ أَوْلى[3]، وقدمَ ﴿مِنۡهَا﴾ على ﴿مَقَٰعِدَ﴾، فلم يقلْ: (وكنا نقعد مقاعد منها)؛ للاهتمام بشأن مكان قعودهم، وأنّه كان في السماء ممّا يدلّ على جرأتهم واعتدائهم.

دلالة التعبير بقوله: ﴿مَقَٰعِدَ﴾ اسم مكان دون (قعودًا):

المقاعدُ أماكنُ خالية من الحرس يلزمونها زمنًا طويلًا لاستراق السمع

المقاعِدُ: جمْعُ مَقعَدٍ، وهو مَفعَلٌ للمكانِ الَّذي يقَعُ فيه القعودُ، وأُطلِقَ هنا على مَكانِ المُلازَمةِ، فإنَّ القُعودَ يُطلَقُ على مُلازَمةِ الحُصولِ[4]، فالتعبيرُ باسم المكان أولى من التعبير بالمصدر؛ إذ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 228.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 97.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 228.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 228.

الإشارة إلى أماكن معيّنة خالية من الحرس معدّة سلفًا يقعدون بها، ويلازمونها زمنًا طويلًا لاستراق السمع.

سر التعبير بلفظ ﴿مَقَٰعِدَ﴾ جمعًا منكّرًا:

عَلِمَ الجنُّ مقاعدَ كثيرةً صالحةً للسمع ولا حرسَ فيها

التعبيرُ بصيغة الجمع في قوله: ﴿مَقَٰعِدَ﴾؛ للتناسب مع صيغة الجمع في قوله: ﴿كُنَّا نَقۡعُدُ﴾، وأيضًا دلّ الجمع مع التنكير على الكثرة، أي: مقاعد كثيرة قد علمناها خالية عن الحرسِ والشهبِ، فهي صالحة للترصُّد والاستماع[1].

بلاغة الجناس بين قوله: ﴿نَقۡعُدُ﴾ و﴿مَقَٰعِدَ﴾:

تأكيدُ تمكُّنِ الجنّ من قعودهم في مقاعد في السماء لاستراق السمع

بين اللفظين ﴿نَقۡعُدُ﴾ و﴿مَقَٰعِدَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ يرجعُ اللفظان إلى جذرٍ لغوي واحد هو (قعد)، إلا أنّ ﴿نَقۡعُدُ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ المضارع، و﴿مَقَٰعِدَ﴾ أتى اسمًا، ممّا يعطي جماليةً في السمعِ، تحملُ السامعَ على الإصغاءِ، وتزيدُ المعنى وضوحًا وتأكيدًا، وتساعدُ على ترسُّخهِ في الذّهن، وفي الجناس تأكيدٌ على تمكّن الجنّ من قعودهم في مقاعد في السماء لاستراق السمع.

معنى اللام في قوله: ﴿لِلسَّمۡعِۖ﴾:

قعودُ الجنّ في السماء من أجل أن يسمعوا ما يحدث، وما يكون في الكون

اللّامُ في قولِه: ﴿لِلسَّمۡعِۖ﴾ لامُ العِلَّةِ، أي: لأجْلِ السَّمعِ، أي: كان الجنُّ يقعدون في السماء من أجل أن يسمعوا ما يحدث، وما يكون في الكون، وما يجري في العالم العلوي من تصاريف الملائكة بالتكوين والتصريف[2].

سر التعبير بالسمع مصدرًا دون الاستماع:

عبَّر البيانُ القرآني بالسمع دون الاستماع في قوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾؛ للإشارة إلى سهولةِ استماع الجنّ، فقد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 477، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 228.

قبل البعثة كان الجنّ يسمعون من السماء ما يُقدر لهم من غير مانع

كانوا يقعدون في مقاعد من السماء، فيسمعون ما يُقدر لهم من غير مانع، فيسمعون بعض ما تتكلم به الملائكة بما أمروا بتدبيره، ويُرمون في بعض الأحوال، وعن قَتادَةَ: كانَتِ الجِنُّ تَسْمَعُ سَمْعَ السَّماءِ، فَلَمّا بَعَثَ اللّه نَبيَّهُ؛ حُرِسَتِ السَّماءُ، ومُنِعوا ذَلِكَ، فَتَفَقَّدَتِ الجِنُّ ذَلِكَ مِن أَنْفُسِها[1].

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَن﴾:

تفريعٌ على قعود الجنّ مقاعد للسمع

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ تفريعيّة، والآية تَفريعٌ على مَحذوفٍ دلَّ عليه فِعلُ ﴿كُنَّا﴾، وتَرتُّبُ الشَّرطِ وجَزائِه عليه، وتَقديرُه: كنّا نَقعُدُ منها - أي: مِن السَّماءِ - مَقاعِدَ للسَّمعِ، فنَستمِعُ أشياءَ، فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ؛ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا، فلا يتمكّن من السماع[2].

بلاغة التعبير بالجملة الشرطية في الآية:

تَحذيرُ الجنِّ إخوانَهم مِن التَّعرُّضِ للاستِماعِ

جيءَ بصيغةِ الشَّرطِ وجَوابِه؛ لأنَّ الغرَضَ تَحذيرُ إخوانِهم مِن التَّعرُّضِ للاستِماعِ؛ لأنَّ المُستمِعَ يَتعرَّضُ لِأذى الشُّهبِ[3]، أو يكونُ ذلك لِمُجَرَّدِ أنَّهم يُخبِرونَ عن الحالِ.

سر التعبير بـ(مَنْ) في قوله: ﴿فَمَن﴾:

كلّ من يحاول استراقَ السمع سيُرمى بشهابٍ رصد

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ شرطية[4]، ربطتْ فعلَ الشرط بجواب الشرط، أي: ربطتِ السبب بالنتيجة، فمن يستمع الآن؛ تكون النتيجة حتمية، وهي إحراقه بالشهاب، كما أنّ (مَنْ) تفيد العموم، أي: يشمل كلّ من يحاول استراق السمع، وكأنّه قانون يعمّ الجميع.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 658.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 229.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 229.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 324.

سر التعبير بالمضارع ﴿يَسۡتَمِعِ﴾:

الجنُّ بعد مبعث النبي أصبحوا يجتهدون، ويتكلفون في الوصول إلى السمع

عبر البيان القرآني بقوله: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ﴾، ولم يقل: (فمن يسمع الآن)؛ لأنّ الجنّ أصبحوا بعد مبعث النبي ﷺ ونزول القرآن يتكلّفون في الاستماع، أي: يقصدون، ويجتهدون في الوصول إلى السمع، وأما السَّمْعُ؛ فَقَدِ انْقَطَعَ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشعراء: 212][1]، وأتى التعبير بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على إكثار الجنّ من محاولات الاستماع، وتجدّد هذه المحاولات.

بلاغة التضاد بين ﴿ٱلۡأٓنَ﴾ و﴿كُنَّا﴾:

مقارنةُ الجنّ لحالِ السماء قبل مبعث النبي ﷺ وبعده

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ﴾ مقابلةٌ بين كلمة ﴿ٱلۡأٓنَ﴾ وكلمة ﴿كُنَّا﴾، أي: كان ذلك، ثم انقضى[2]، فهي مقابلة بين الماضي والحاضر، وتدلّ على مقارنة الجنّ لحال السماء قبل وبعد مبعث النبي ﷺ؛ للدلالة على التغيرات المفاجئة الحاصلة، والتي حملتِ الجنّ على الضربِ في البلاد للبحث عن سببِ شدّة حراسة السماء، وكثرة الشهب.

بلاغة التعبير بالظرف ﴿ٱلۡأٓنَ﴾:

تحذيرُ الجنّ غيرهم من محاولة استراق السمع في المستقبل

﴿ٱلۡأٓنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ ظَرْفُ زَمانٍ لِلْحالِ، و﴿يَسۡتَمِعِ﴾ مُسْتَقْبَلٌ، فاتَّسَعَ في الظَّرْفِ واسْتُعْمِلَ لِلاسْتِقْبالِ، فهم قسّموا الزمان إلى ما كان من إطلاق الاستماع لهم، وإلى ما صار إليه الحالُ من الحراسة، وأطلقوا ﴿ٱلۡأٓنَ﴾ على الثاني كلّه، فالمَعنى: فَمَنْ يَقَعُ مِنْهُ اسْتِماعٌ في الزَّمانِ الآتي؛ يَجِدْ لَهُ شِهابًا رَصَدًا: أي: يَرْصُدُهُ، فَيَحْرِقُهُ[3].

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَجِدۡ﴾ مضارعًا:

الرميُ بالشهب لكلّ من يحاول أنْ يسترقَ السمع قانون ثابت

عبّر البيانُ القرآني بالفعل المضارع ﴿يَجِدۡ﴾ في قوله تعالى:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 297، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 478.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 229.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 297، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 477.

﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾؛ للدّلالة على الاستمرار والتكرار والتجدّد والديمومة، أي: يفيدُ الحدوث في الوقت الحاضر واستمراره في المستقبل، وهذا يعني أنّ رمي الجني الذي يحاول أنْ يسترقَ السمع في السماء بشهاب، فيحرقه، سنةٌ إلهية ثابتة ومستمرة منذ لحظة نزول الآية إلى يوم القيامة، وهذا يتناسبُ مع صيغة الشرط في الآية، أي: كلما حاول أحدهم أن يستمع يجد له شهابًا رصدًا، ويشعر أيضًا بالمقابلة مع الزمن الماضي أي: قبل نزول القرآن؛ فما كان عليه الجنّ من استراق السمع انقضى وانتهى، والآن منع الجن من ذلك.

معنى اللام في قوله: ﴿لَهُۥ﴾، وفائدة تقديم شبه الجملة:

لامُ ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ تفيدُ الاختصاص، أي: كلّ من يحاول الاستماعَ؛ يجدْ لأجله خاصّة شهابًا رصدًا، وتقديم الجار والمجرور - إذ أصل الكلام: (يجد شهابًا رصدًا له) - لإفادة القصر والاختصاص والاهتمام، أي: الأهمّ هو أنّ مَن أراد استراق السمع من الجنّ؛ له شهاب معدٌّ له بخاصّة دون غيره.

من أرادَ استراقَ السمع من الجنّ؛ له شهابٌ معدٌّ له خاصّة دون غيره

سر التعبير إفراد لفظ ﴿شِهَابٗا﴾:

عُبِّرَ بالمفرد ﴿شِهَابٗا﴾ دون الجمع (شهبًا)، في قوله تعالى: ﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾؛ تناسبًا مع صيغة المفرد في السياق: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾؛ وللدلالة على التخصيص والكفاية، أي: كلّ شيطان يريد أنْ يسترقَ السمع سيجد شهابًا واحدًا خاصًّا كافيًا لإحراقه، وفي هذا دلالةٌ على قوَّة هذا الشهاب، والاستهانة بهذا الشيطان؛ إذ يكفي شهابٌ واحدٌ لإحراقه.

شهابٌ واحدٌ يكفي لإحراق من أراد استراقَ السمع من الجنّ

نكتة تنكير ﴿شِهَابٗا﴾:

التعبير بـ﴿شِهَابٗا﴾ نكرة في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾؛ لإفادة العموم وعدم التعيين؛ لأنّ ﴿شِهَابٗا﴾ وقع في سياق الشرط، وسياق الشرط بمنزلة سياق النفي في إفادة

كلّ من يحاول الاستماع الآن من الجنّ سوف يجدُ شهابًا من أشدّ الشهب

عموم النكرة[1]، أي: كلّ من يحاول أنْ يستمع الآن سوف يجد شهابًا قد رُصد له، وأُعدَّ لرجمه، فضلًا عن أنّ النكرة توحي بالتفخيم والتهويل والتهديد، فهو من أشدّ الشهب المعدّة للرصد وإحراق من يحاول الاستماع.

بلاغة وصف الشهاب باسم الجمع ﴿رَّصَدًا﴾:

الشهابُ لشدّته وإحراقه جُعِل كأنّه شهبٌ

﴿رَّصَدًا﴾ اسم جمع، وقد وصف البيانُ القرآنيُّ الشهاب به، مع كونه مفردًا في قوله: ﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾؛ لأنّ الشهابَ لشدةِ منعه وإحراقه جُعِل كأنّه في معنى الجمع، والمراد أنّ كلّ موضع منها كذلك، أي: يرصده الرامون به من غير غفلة، ويجوز أنْ يكون مصدرًا على المبالغة كرجل عدل، أو مفعولًا له، أي: لأجل الرصد[2].

نكتة تنكير ﴿رَّصَدًا﴾:

الشهابُ الرصدُ من أشدّ أنواع الحراس وأرهبهم

في قوله تعالى: ﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾، نكّر البيانُ القرآني لفظ ﴿رَّصَدًا﴾؛ تناسبًا مع موصوفه ﴿شِهَابٗا﴾ الذي أتى نكرة، وكذلك لإفادة التهويل والتفخيم، فكلمة رصدًا لا تعني مجرد (حارس)، بل تعني حارسًا من أشدّ أنواع الحراس وأرهبهم، مما يبعثُ على التهديد والوعيد من الاقتراب ومحاولة استراق السمع.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿رَّصَدًا﴾:

لَمّا كان الشهاب لا يتأخّر عن رمي الجنّي كان كالحارس الراصد

في وصف الشهاب بالرّصد في قوله تعالى: ﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ استعارةٌ مكنية؛ إذ شُبّهت الشهبُ بالحراس الرّاصدين[3]، فالرّصدُ في اللغة هو الاستعدادُ للتّرقُّب، والرَّصَدُ: هم القومُ الذين يرصُدون كالحَرَس[4]، فلمّا كان الشهب لا يتأخّر عن رمي الشيطان عند الدنوّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 478، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 97.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 229.
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رصد).

من السماء، كان كأنّه هو الرّاصد له، المراقبُ لأمره، الملاحظُ الذي لا فتورَ عنده ولا غفلة بوجه، فمتى حاول الشيطان الاستماع؛ رُمي بالشهب، فيمنعه من الاستماع، وإن أدركه؛ أحرقه.

﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد ذكرِ الجنّ منعهم من استراق السمع؛ ذكروا عدم علمهم سببَ هذا المنع

لَمّا أخبرَ الجنّ عن إيمانهم أنّه كان عقبَ سماعهم القرآن، ثم ذكروا منعهم من الاستراق؛ ذكروا أنّه اشتبه عليهم المنع، فلم يعلموا سرّه، وبيّنوا الذي حملهم على ضرب مشارق الأرض ومغاربها، حتى وجدوا النبي ﷺ يقرأ القرآن، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشَرٌّ﴾: الشَّرُّ: السّوءُ، والفِعل للرَّجلِ الشِّرّير، والمصدرُ: الشَّرارةُ، والفِعْلُ: شَرَّ يَشُرُّ شَرًّا وشَرارةً، وقومٌ أشرارٌ خِلافُ الأخيار[2]، والشَّرُّ ضِدُّ الخَيْر[3]، وفُلانٌ شَرُّ النّاسِ، ولا يُقالُ: أشَرُّ النّاسِ إلّا في لُغَةٍ رَديئَةٍ، يُقالُ: هوَ شَرُّهُم، وهيَ شَرُّهُنَّ، ولا يُقالُ: هوَ أشَرُّهم، وفُلانٌ شَرُّ الثَّلاثةِ وشَرُّ الاثنَيْنِ[4]، ومعنى ﴿أَشَرٌّ﴾ موافق للمعنى اللغوي، وهو ضدّ الخير.

2) ﴿رَشَدٗا﴾: أصلُ (رشد) يدلّ على استقامةِ الطّريق، والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خلافُ الغَيِّ[5]، ونقيضُ الضلال، وأرْشَدَه اللّهُ إلى الأمر: هداهُ، واستَرْشَدَه: طلبَ منه الرُّشْد، والرُّشْدُ هو صلاحُ الأمرِ وكونه على الوجهِ الصحيح، وهو استقامةٌ على الطريقِ الحقّ مع تصلُّب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 479.
(2) الخليل، العين: (شر).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شرر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (شرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).

فيه[1]، وقيل: الرُّشد والرَّشد والرشاد: الهدايةُ والاستقامة[2]، والمقصود بـ﴿رَشَدٗا﴾ في الآية: إصابَةُ المَقصودِ النّافِعِ، وهوَ وسيلَةٌ لِلخَيرِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إقرارُ الجنِّ وتأكيدهم على عدم درايتهم وعلمهم الغيب

يَقولُ ﷻ مُخْبِرًا عَن قيلِ هَؤُلاءِ النَّفَرِ مِنَ الجِنِّ: وأنّا لا نَعلم أعَذابًا أرادَ الله أنْ يُنْزِلَهُ بِأهْلِ الأرض، بِمَنعِهِ إيّانا السَّمْعَ مِنَ السَّماءِ ورَجْمِهِ مَن استَمَعَ مِنّا فيها بِالشُّهُبِ، أمْ أرادَ بِهِم رَبُّهُم الهُدَى بِأنْ يَبْعَثَ مِنْهُم رَسولًا مُرْشِدًا يُرْشِدُهُم إلَى الحَقِّ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

جمعٌ بين اعترافِ الجنِّ باستراق السمع وعجزهم عن معرفة سببِ المنع

دلالة عطف قوله: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ﴾ على ما قبله:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عاطفةٌ، عطفتْ هذه الآية على ما قبلها، والجميع من قول الجنّ في خطابهم لقومهم، ففي الآيات السابقة أخبرَ الجنّ أنهم مُنعوا من استراقِ السمع، وذلك بملء السماء بالحرس والشهب، مع أنَّهم كانوا سابقًا يسترقون السمع، وفي هذه الآية اعترفوا أنّهم حينها عجزوا عن معرفة سبب ما حدث حتى مُنعوا من استراق السمع.

تكرارٌ يُقصدُ منه تأكيدُ الخبر

سر تكرار ﴿وَأَنَّا﴾:

قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ من تتمّة قول الجنّ، وقد أعاد البيان القرآنيّ كلمة ﴿وَأَنَّا﴾؛ للتأكيد؛ لكون هذا الخبر معرّضًا لشكِّ السامعين من الجنّ الذين لم يختبروا حراسةَ السماء[5]، أو لأنّ العربَ كانوا ينسبونهم

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رشد).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رشد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 231.
(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 658.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 231.

إلى علمِ المغيبات وحلّ المشكلات[1]، فأكّدوا عدمَ علمهم بالغيب؛ إذ لم يعلموا سببَ منعهم من استراق السمع.

توقُّعُ الجنّ إمكانيةَ معرفتهم السببَ في منعهم من استراق السمع

سر النفي بـ﴿لَا﴾:

عبّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بأداةِ النفي ﴿لَا﴾ التي تنفي الحاضر والمستقبل القريب، ولم يستعملْ (لن) التي تدلّ على تأكيدِ النفي في المستقبل وتأبيده بشكل قاطع، ولا تنفي الحاضر، فلم يقلْ: (وأنّا لن ندري..)؛ للإشارةِ إلى استمرارِ جهل الجنّ في وقت كلامهم، مع توقُّعهم إمكانيّة معرفتهم هل سبب منعهم من السماء كان لخيرٍ أم لشرٍ، ولهذا ضربوا في الأرض يبحثون عن سببِ المنع من استراق السمع إلى أنْ سمعوا القرآن، فعلموا أنهم مُنعوا من السماء حراسةً للوحي، أو نفوا معرفتهم إرادة اللّه من رسالة النبي، أهو شرّ أريدَ بالناس بإلزامهم الحجّة ثم إهلاكهم، أم أنّ اللّهَ أراد لهم الهداية والرشاد، فيهتدوا، ويرشدوا؟ ثم أشاروا بقولهم: ﴿لَا نَدۡرِيٓ﴾ إلى أنّ الأمرَ لم ينتهِ إلى نهايته بعد، وسيرون ما يكون، وإنّ الأيام هي التي ستأتي بتأويل هذا[2].

اعترافُ الجنّ بعجزهم عن إدراكِ الغيب رغمَ بذلهم الجهدَ بشتّى الحيل

سر نفي الدراية دون العلم:

آثر البيانُ الحكيم التعبيرَ بنفي الدراية: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ﴾ دون نفي العلم، فلم يقل: (وأنا لا نعلم)؛ لكونه أبلغَ وأنسبَ مع الجنّ؛ لأنّ الدراية أوّلُ حصول العلم، فهي المعرفةُ المدركة بضربٍ من الختل والحيل، أي: هي علمٌ بعد تمحيص وتعب، وفيه نفاذ إلى ما خَفيَ، والمعنى: لا ندري بوجهٍ من الوجوه، وإنْ دافعنا، واجتهدنا[3]، فالجنّ بحثوا، وحاولوا جهدهم بشتى الحيل معرفةَ سبب منعهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 479.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15/ 1226.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 479.

من استراقِ السمع، وعجزوا عن إدراك الغيبِ ومعرفة حكمة اللّه الخفيّة، فاعترفوا بعجزهم وعدم درايتهم.

دلالة التعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا نَدۡرِيٓ﴾:

استمرارُ نفي الدرايةِ عن الجنّ في الحاضر

إيثارُ المضارع ﴿نَدۡرِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾؛ ليشملَ نفي الدراية بالوضعِ الجديد للبشرية عقيب بعثةِ النبي ﷺ - بأنه خيرٌ أم شر - كلَّ الأوقات بعد سماعهم القرآن لأوّل مرة حين صدر منهم هذا الكلام، فالمضارعُ أفادَ الاستمرار والتكرار، أي: جهلهم كان ملازمًا لهم حتى لحظة نطقهم بهذه الجملة.

بلاغة الاستفهام بالهمزة:

تردُّدُ الجنّ بين معرفةِ إرادة الخير أو الشر بأهل الأرض يُظهرُ عجزهم

معنى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ ترديد حكم بين أمرين ترديدًا مستوي الطرفين دون الجزم أو الترجيح، أي: إنَّ الجنّ فسّرتِ الأوضاعَ التي حلّت بالبشر بعد بعثة النبي ﷺ، بين أنْ تكون لشرٍ أراده اللّه بأهل الأرض، أو لخيرٍ ورشادٍ، ولم يجزموا بأحد الأمرين، أو يرجّحوا جانبًا منهما على الآخر(1)، فالاستفهام لإظهار عجز الجنّ عن الاطلاع على الحكمة(2).

سر التعبير بالإرادة في قوله: ﴿أُرِيدَ﴾ دون المشيئة:

إرادةُ الشرّ والخير من الله لا تقتضي وجودَ المراد

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الإرادة دون المشيئة، في قوله تعالى: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾؛ لكون الإرادة أنسبَ مع السياق الذي يصوّر تردُّد الجنّ، والترجيح بين إرادة الخير وإرادة الشر؛ إذ الإرادةُ من اللّه لا تقتضي وجود المُراد، في حين أنّ المشيئةَ منه تقتضي وجودَ الشيء(3).

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 303.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 301.
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيأ).

فائدة بناء الفعل ﴿أُرِيدَ﴾ لما لم يسم فاعله:

من الأدبِ مع الله عدمُ نسبة الشرّ إليه سبحانه

بناءُ الفعل ﴿أُرِيدَ﴾ لِما لم يسمّ فاعله في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾؛ للإشارة إلى ما في قول الجنّ المؤمنين من الأدب؛ إذ لم يصرّحوا بنسبة الشرّ إلى اللّه تعالى، كما صرّحوا به في الخير في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وإن كان فاعل الكلّ هو اللّه تعالى، فجمعوا بين الأدب وحسن الاعتقاد[1].

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَن﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للإلصاق، والمعنى: أشرٌّ ملتصقٌ بأهل الأرض مرادٌ لهم.

سرّ التعبير بـ(مَنْ) دون (ما):

الحديثُ عن الإنس العقلاء من أهل الأرض

التعبير بـ(مَنْ) دون (ما) في قوله تعالى: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنّ (مَنْ) تُستخدم غالبًا للعقلاء، والمراد هنا بمن في الأرض الناسُ، وهم عقلاء، مما يُعطي دلالةً على أنّ الإنس مكرمون، وهم محلُّ اهتمام، وهذا يتناسب مع ذكر الجن للإنس في السورة أكثر من مرة، ولو استعمل (ما)؛ لشمل الجمادات والحيوانات والنباتات، وهذا غير مراد.

سرّ التقييد بقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

الجنُّ كانوا يحاولون معرفة أسرار الغيب وأخبار السماء المتعلّقة بمصير أهل الأرض

قُيد قوله تعالى: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾ بكونه ﴿بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دون السماء، فلم يقلْ: (أشر أريد بمن في السماء)؛ لتخصيصِ الحديث عن البشر، وهذا يتناسبُ مع استراقِ السمع من الجنّ، فقد كانوا يحاولون معرفةَ أسرار الغيب وأخبارَ السماء المتعلّقة بمصير أهل الأرض، فلما مُنعوا من السمع؛ تساءلوا عن سببِ منعهم من الوصول إلى أخبار البشر، وبدؤوا يبحثون عن سببِ ذلك، ويتساءلون عن إرادة اللّه في أهل الأرض.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 98.

استفهامُ الجنّ عن خيارين متساويين يشير إلى تردُّدهم وحيرتهم

دلالة التعبير بـ﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ أَرَادَ﴾:

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ حرفُ عطف معادلة للهمزة[1]، فاستفهامُ الجنّ عن خيارين متساويين، يشيرُ إلى حيرتهم وتردّدهم وعدمِ درايتهم بما حصلَ حتى مُنعوا من السّماء.

منعُ السماء عن الجنّ نتيجة إرادةٍ إلهية قد تحقّقت، وقضت

دلالة التعبير بالفعل ﴿أَرَادَ﴾ ماضيًا:

عبّر البيانُ القرآني بفعل ﴿أَرَادَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ بصيغة الماضي التي تدلّ على التحقّق والوقوع والثبوت؛ تناسبًا مع فعل ﴿أُرِيدَ﴾ الذي جاء بصيغة الماضي؛ للدلالة على أنّ ما حدث - من ملء السماء بالحرس والشهب - هو نتيجةُ إرادةٍ إلهية قد تحقّقت، وقضتْ إما بخير (رشد)، أو شرّ بأهل الأرض، والحقيقة أنّ السبب في منع السماء أمرٌ أراده اللّٰه، وقضى به، وهو بعثة النبي ﷺ كأعظم رشاد للبشرية.

حصرُ إرادة الله تعالى الرشدَ بالبشر كونهم محطّ اهتمامٍ ولطف إلهي

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿بِهِمۡ﴾:

قُدّم الجار والمجرور ﴿بِهِمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، ولم يقلْ: (أم أراد ربهم رشدًا بهم)؛ للاهتمام بالمقدّم، وهم البشر، وللدلالة على الحصر والقصر، فالتقديمُ يوحي بحصر إرادة اللّٰه تعالى الرشدَ بالبشر تحديدًا، فهم محطّ اهتمام، ولطفٍ إلهي، ويدلّ على ذلك تخصيصهم بالرشد والرحمة من اللّٰه.

الربُّ المحسنُ المدبّر للبشر هو من يريدُ الخير والرشد بهم

دلالة التعبير بالربوبية مضافًا إلى الضمير:

في التعبير بالربوبيّة وإضافته إلى الضمير (هم)، في قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ دلالةٌ على تشريفِ مَن في الأرض (بني آدم) وتكريمِهم، بإضافتهم إلى الربّ المحسن إليهم المدبّر

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 324.

لهم[1]، وهذه المعاني للربوبية تتناسبُ مع السياق الذي يتحدّث عن إرادة الخير والرشد بهم.

نكتة تنكير ﴿رَشَدًا﴾:

أراد الله بأهل الأرض رشدًا عظيمًا فخيمًا

آثرَ البيانُ الحكيم تنكيرَ ﴿رَشَدًا﴾، في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ دون تعريفه، فلم يقلْ: أم أراد بهم ربّهم الرشد؛ لإفادةِ معنى التعظيم والتفخيم لهذا الرشد، أي: أم أراد الله بأهل الأرض رشدًا عظيمًا فخيمًا.

سرّ نسبة الرشد إلى الله تعالى دون الشر:

واجبُ الأدب مع الله تعالى إسنادُ الخير إليه دون الشرّ

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ نسبَ البيانُ القرآني الرشد إلى الله سبحانه دون الشر، الذي أُسند فعل إرادته إلى المجهول، مع أنّ فاعلَ الكلّ هو الله؛ جريًا على واجبِ الأدب مع الله تعالى في تحاشي إسناد الشر إليه[2]، و"إعلامًا مع تعليم الأدب بأنّ رحمته سبقتْ غضبه، وإشارةً إلى أنّه قد يكون أرادَ بهذا المنع الخير ﴿رَشَدًا﴾، أي: سدادًا، فينشأ عنه الخير"[3]، وهذا من من الآداب الشريفةِ القرآنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: 80] ونظائره[4].

فائدة تقديم الشر على الرشد:

معرفةُ الجنّ بما كان عليه الناس من ضلالاتٍ جعلهم يتوقّعون الشرّ أولًا

تقديمُ الشّر على الرّشد في الآية؛ للإشارةِ إلى معرفة الجنّ بما كان عليه الناس من ضلالاتٍ قبل البعثة المباركة، ولمناسبة السياق الذي أكّد هذا المعنى؛ إذ ذكرَ آثامًا استحقّوا بها إرادة الشرّ بهم مع احتمالِ إرادة الخير بهم من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 479.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 231.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 479.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.

بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾، وكذلك مراعاة للفاصلة القرآنية بما يحقّق التوافق الصوتي في رؤوس الآيات[1].

بلاغة التعبير بالطباق أو الاحتباك في هذه الآية:

في الاحتباك والمقابلة حسنُ إيجاز وجمالٌ في التعبير

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ طباقٌ بين الرشد والخير، وكان المتبادر إلى الذهن مقابلةَ الشرِّ بالخير، كما ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، وسببُ ذلك أنّ الغيّ يُطلق على الشرّ، وكذلك الرشد يُطلق على الخير[2]، أو أنّ في الآيةِ احتباكًا، والتقدير: "لا ندري أيؤمنُ الناس بهذا النبيّ، فيرشدون، أم يكفرون به، فينزل بهم الشر؟"[3]، فذكر الشرّ أولًا دليلًا على الخير ثانيًا، وذكر الرشدَ ثانيًا دليلًا على الغي أولًا؛ لدلالة السياق عليه[4].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الدراية والمعرفة والعلم:

معرفةُ الجنّ تحتاجُ إلى اجتهادٍ وحيلةٍ

الدرايةُ: أخصُّ من العلم، فهي بمعنى الفهم والفطنة، وهي المعرفة المدركة بضربٍ من الختل والحيل، وتقديم المقدمات، فهي علمُ الشيء ومعرفتُه مع اجتهادٍ وحيلة، فالدّرايةُ عِلْمٌ فيهِ مُعالَجَةٌ لِلاطِّلاعِ عَلَى المَعْلوم، أي: عِلْمٌ فيه نفاذ إلى ما خَفيَ، ولذلك لا يصحّ إطلاقه على اللّه تعالى؛ لامتناعِ الفكر والحيل عليه تعالى[5]، أمّا العلمُ؛ فهو إدراكُ الشيء بحقيقته ودليله، فهو أعلى درجة من

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 304.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 216/ 135.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 381.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 479.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دري).

المعرفة التي هي إدراكُ الشيء بتفكُّر وتدبُّر لأثره، وتُستعملُ في العلم القاصر المتوصّل به بتفكّر، فالمعرفةُ يسبقها جهل، أمّا العلمُ؛ فلا يسبقه جهل؛ لذلك يقال: اللهُ عالم، ولا يقال: اللهُ عارف، وأيضًا فإنّ المعرفة ضدّها الإنكار، والعلمُ لا يضاده الإنكار[1]، وقد ناسب هنا استعمال لفظ الدراية؛ لأنّ السياق يتحدّث عن الجنّ وعلمهم لاحقًا بما خفيَ عنهم، بعد معالجة واجتهادٍ للاطلاع على المعلوم.

(1) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (علم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 50 - 51.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١﴾ [الجن: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

انتقالُ الجنِّ من الحديثِ عن مصيرِ البشر إلى الحديثِ عن أنفسهم

بعد أنِ اعترفَ الجنّ بعدم درايتهم بمصير أهلِ الأرض، وما يُراد بهم من الشرّ والخير، وإقرارهم بأنّ الله هو الذي يهدي، ويضل بحكمته؛ التفتوا للحديث عن ذاتهم بأنّ منهم من اتّصف بالصلاح، ومنهم من كان غير ذلك؛ فقالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: جمعُ صالح، والصالحُ: الَّذي يُؤَدّي إِلَى اللهِ ﷻ ما افترضَ عَلَيهِ، ويُؤَدّي إِلَى النّاس حُقوقهم، والمُصْلحُ: المُقيمُ على الإيمان المُؤَدّي فَرائِضه اعتقادًا وعَملًا، وأصلُ (صَلَحَ) يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الفَسادِ، ومن المجاز: أصلَحَ إليه: أحْسَنَ[1]، وأصْلَحَ: أتى بالصّلاحِ، وهو الخيرُ والصّواب، ومن الصّلاح: السّلامةُ من الخطايا المعوقة، والعملُ الصّالح هو الذي يتّفقُ، ويلتئمُ مع ما يطلبهُ الشّرع، أو يرضاه[2]، ومعنى ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم، وفي معاملتهم مع غيرهم[3].

2) ﴿طَرَآئِقَ﴾: جمع طريقة، والطَّريقةُ: السّيرةُ والنَّهْجُ والأسلوبُ والمسلك والمذهب، وطَريقَةُ الرَّجُلِ: مَذْهبه، يُقالُ: ما زالَ فُلانٌ عَلَى طَريقة واحِدَةٍ، أي: عَلَى حالَةٍ واحِدَةٍ[4]، وطَريقَةُ القوم: أماثلُهم وخيارهم، يُقال: هذا رجلٌ طَريقَةُ قومِه، وهؤلاء طَريقَةُ قومِهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (صلح).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صلح).
(3) وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.
(4) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طرق).

وطَرائِقُ قومِهم أيضًا، للرجال الأشراف[1]، ومعنى ﴿طَرَآئِقَ﴾: مذاهب أو أهواء مختلفة، وفِرَقٌ شتّى[2].

3) ﴿قِدَدًا﴾: جمع قدّة، والقافُ والدّالُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قَطْعِ الشَّيْءِ طولًا، ثُمَّ يُسْتَعارُ، يَقولونَ: قَدَدْتُ الشَّيْءَ قَدًّا؛ إذا قَطَعْتَهُ طولًا أَقُدُّهُ، والقِدَّةُ: الطَّريقَةُ والفِرْقَةُ مِنَ النّاسِ؛ إذا كانَ هَوَى كُلِّ واحدٍ غَيْرَ هَوَى صاحِبِهِ[3]، ومِنْه قَوْله ﷻ: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، قالَ الفرّاءُ: معناه كُنّا فِرَقًا مُخْتَلِفَةً أَهْواؤُها[4]، فالقددُ هي الضروب والأجناس المتفرّقة المختلفة[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حديثُ الجنّ عن أنفسهم وواقعهم وما كانوا عليه

يقولُ تعالى ذكره مخبرًا عن قيل الجنّ وبيانهم لحالهم قبل استماعِ القرآن: وأنّا منا الموصوفونَ بصلاحِ الحالِ في شأنِ أنفسِهم وفي معاملتِهم مع غيرِهم، المائلونَ إلى الخيرِ والصلاحِ حسبما تقتضيهِ الفطرةُ السليمةُ، ومنا دون الصالحين، وأنّا كنا أهواء مختلفة، وفِرَقًا شتى[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا﴾ على ما قبلها:

جمعٌ بين اعترافِ الجنّ بعجزهم عن معرفة مصير الإنس وإقرارهم بواقعهم وما كانوا عليه

عطفَ البيانُ القرآني قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ على ما قبله؛ إذ هذه الآية من تتمّة كلام الجنّ، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ اعترافُ من الجنّ بعجزهم عن معرفة مصير الإنس من الخير والشر، وفي هذه

(1) الجوهري، الصحاح: (طرق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 659، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدّ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (قدد).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 659، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 302.

بيانُ حقيقة مجتمعهم وما كانوا عليه، بأنّ منهم الصالح المستقيم، ومنهم دون ذلك، فهُم لا يدّعون الكمال لأنفسهم.

دلالة تكرار ﴿وَأَنَّا﴾:

تكرارٌ يُقصدُ منه تأكيدُ الخبر

قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ من تتمّة قول الجن، وقد أعاد البيانُ القرآنيّ كلمةَ ﴿وَأَنَّا﴾؛ لتأكيد الخبر؛ لأنّهم كانوا في جهالةٍ عن ذلك، ثم بيّنوا هنا أنّهم أيقنوا بأنّهم فريقان فريقٌ صالحون، وفريقٌ ليسوا بصالحين، وأنّهم كانوا فرقًا ومذاهبَ مختلفة.

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِنَّا﴾:

الصالحون جزءٌ من مجتمعِ الجن

حرفُ الجر (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ للتبعيض، يدلّ على أنّ بعضَ الجنّ كانوا صالحين، وليسوا جميعهم، والمعنى: بعضنا صالحون، وبعضنا دون ذلك، وهذا يتناسبُ مع السياق الذي يقسم مجتمعهم إلى فريقين، وأنّهم كانوا طرائق قددًا.

إيثار التعبير بوصف الصلاح في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

صلاحُ حال فريقٍ من الجن مع أنفسهم ومع غيرهم يوحي بفطرتهم السليمة

عبّر البيانُ القرآني بوصف الصلاح في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، دون غيره من الأوصاف، فلم يقل: (المؤمنون، أو المسلمون)؛ لكون وصف الصلاح هنا أنسب؛ إذ السياقُ عن وصفهم لحالهم، وما كانوا عليه قبل استماعهم للقرآن، من صلاحِ الحالِ في شأنِ أنفسِهم وفي معاملتِهم مع غيرِهم، وميلهم إلى الخير والصلاحِ حسبما تقتضيهِ الفطرةُ السليمةُ، فوصفُ الصلاح يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الفَسادِ، ويدلّ على الخير والصواب، فضلًا عن أداء حقوق اللّه وحقوق العباد[1].

معنى اللام في ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ ومجيئه اسم فاعل مجموعًا:

اللام في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، هي (لام) الكمال التي تفيدُ العموم، والمعنى: منا العريقون الكاملون في صفة الصلاح، التي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صلح).

كـثرةُ الكاملين الثابتين في صفة الـصلاح تبعثُ قـوّة في التأثير والدعوة

هي مهيئة لقبول كلّ خير، كأنّهم لم يعتدّوا بصلاح غيرهم[1]، وفي التعبير بصيغة اسم الفاعل مجموعًا ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، فلم يقل: (وأنّا منا الصالح)؛ تناسبًا مع سياق الخطاب الجماعي، وللدلالة على كثرةِ الصالحين منهم، وأنّ صفة الصلاح ليست صفة فردية، وأنها صفة ثابتة وراسخة فيهم وملازمة لهم، مما يعطي قوة في التأثير والدعوة إلى الخير والصلاح.

بلاغة حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه:

صـفـةُ الـصلاح مـحـطُّ عـنـايـةٍ واهتمامٍ

اكتفى البيانُ القرآني في قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ بذكرِ الصفةِ ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ عن ذكرِ الموصوف، فلم يقل: (وأنّا منا فريق صالحون)؛ وذلك لكونه مفهومًا من السياق، وللاهتمام والتركيزِ على الصفةِ، وهي صفةُ الصلاح.

سر إعادة (منا) في قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

في الاسـتـقـلالِ والـفـصـل بين الـصـنـفين منعٌ للتداخل بينهما

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أعادَ الجار والمجرور (منا)؛ لإظهار التقابل التام بين الصنفين، وللتأكيد على الاستقلال والفصل بينهما لمنع التداخل، ولو قيل: (وأنا منا الصالحون ودون ذلك)؛ لاحتملَ أن (دون ذلك) يعودُ على بعض الصالحين، أي: منهم من هو دون كمال الصلاح، وهذا غير مراد، فالإعادةُ قطعت هذا الاحتمال.

سر التعبير بقوله: ﴿دُونَ﴾:

فـــريـــق غـير الـصـالـحـين منحطٌّ عن مرتبة الصالحين

عبّر البيانُ الإلهي بلفظ ﴿دُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ التي تدلّ على الظرفية المجازية في قوله: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾؛ للإشارة إلى أنّ فريق غير الصالحين أدنى في الرتبة والدرجة من الصالحين، أي: في مكان منحطّ عن الصالحين، فهُم تفطّنوا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 480، والهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 302.

لمراتب العلوم والأعمال المقرّبة والمبعدة، فقالوا: ومنا دون ذلك، أي: قوم في أدنى رتبة من ﴿ذَٰلِكَۖ﴾[1].

بلاغة حذف الموصوف في قوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ حُذف الموصوف، وبقيت الصفة ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ دالّة عليه، ولم يقل: (ومنا فريق دون ذلك)، والسببُ أنّه يُحذفُ الموصوفُ إذا كان بعض اسم مجرور بحرف (من) مقدّم عليه، وكانت الصفة ظرفًا - كما هنا[2] - أي: من بلاغةِ الإيجاز حذفُ الموصوف؛ إذا دلّ ما قبله عليه.

سرّ العدول في التعبير بـ: ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾:

التلطّفُ من أبلغ أساليب الدعوة والإرشـاد إلى الخير

قابل البيانُ القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ بين لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ولفظ ﴿دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾، ولم يقل: (ومنا الطالحون، أو الفاسدون)؛ لبيان شمول توصيف النفر من الجنّ لقومهم؛ لكونه يشملُ كلَّ أصنافهم من المتكلّمين في الصلاح وغير الكاملين في الصلاح والطالحين الفاسدين بجميع درجاتِ فسادهم؛ لأنّ غير الصالح قد يكون فاسدًا، بأنْ يكون مباشرًا للفسادِ قاصدًا له، وقد يكون غير مباشر له، وهذا أنسبُ مع وصفهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، ولو عبّر بالطالحين؛ لاقتصرَ المعنى عليهم، ولأنّ المقامَ هو مقامُ دعوة الجنّ لقومهم، فلم يصارحوهم بنسبتهم إلى الفسادِ تلطُّفًا معهم، وهذا من بليغِ العبارات في الدعوة والإرشاد إلى الخير[3].

وجه التعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَۖ﴾:

بيانُ بُعد منزلةِ الصالحين في الشرف والعلوّ فـي مقابلة الانحطاط والدنوّ

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ مرجعُ الإشارة إلى الصالحين، ولكنّه عبَّر عنه بالبعيد مع أنّه ذكر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 232.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 232.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 480، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 232.

قريبًا؛ للتنبيه على "هذا الوصف الشريف العالي"[1]، والمعنى: منا الصالحون ومنا دون ذلك الوصف الشريف العالي، ممّا يدل على التفاوت الكبير والبون الشاسع بين الوصفين، ويظهر التقابل بين الوصف العالي الشريف، والوصف السافل الحقير.

بلاغة التشبيه في قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾:

تشبيهٌ غرضه تقريبُ المعاني والتأثير على النفوس

في قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾، شبّه الجنّ اختلافَ أحوالهم وعقائدهم بالطرائق المختلفة، التي يؤدي كلّ طريق منها إلى مكانٍ مختلفٍ عن الآخر[2]، وهو تشبيهٌ ذُكِر فيه المشبهُ به: وهو الطرائق المختلفة، وحُذف المُشبه: وهو اختلافُ المذاهب والعقائد؛ لدلالة السياق عليه، وحُذفت أداةُ التشبيه؛ لسهولة تقديرها، وتقدير الكلام: "كنا في اختلافِ أحوالنا مثلَ الطرائق المختلفة"[3]، وهذ التشبيهُ وسيلة تصويرية غرضها تقريبُ المعاني والتأثير على النفوس بعقد هذه المماثلة بين اختلافِ العقائد واختلاف الطرق.

دلالة التعبير بفعل الكينونة الماضي:

بيانُ حال الجنّ من التفرُّق والاختلاف قبل سماعهم القرآن

عبَّر البيان القرآني بفعل الكينونة الماضي ﴿كُنَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾؛ للدّلالة على حالهم في الماضي، أي: قبل سماعهم للقرآن، فقد كانوا مذاهب وفرقًا مختلفة، ويدلّ فعل الكينونة كذلك على الدوام، ممّا يشيرُ إلى بقائهم على هذا الحال طوال الوقت الماضي.

دلالة التعبير بقوله ﴿طَرَآئِقَ﴾ مادة وصيغة:

تفرُّق الجنّ إلى طرائق كثيرة ومتنوعة يدلّ على الاختلاف الشديد في الضلال قبل الإسلام

عبّر النظمُ الحكيم بلفظ ﴿طَرَآئِقَ﴾؛ لاتّساع دلالته ومناسبته للسياق، فطرائقُ جمع طريقة، والطَّريقةُ: السّيرةُ والنَّهَجُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 480.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 232.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 627.

والأسلوبُ والمسلك والسبيل والمذهب والحالة[1]، والطرائقُ هي المذاهب والأهواء المختلفة، والفرق[2]، فدلَّت هذه المعاني على أنّ فريقَ الجنّ الذين من دون الصالح، ذو أنواع كثيرة في النهج والأسلوب والمسلك والمذهب والحالة، فهُم وجوهٌ متنوعة بحسب قابلية كلّ نوع للفساد أو الصلاح وتهيئه له أو بعده عنه، وقد جاء لفظ ﴿طَرَآئِقَ﴾ بصيغة الجمع المنكر منسجمًا مع هذه المعاني، ودلالتها على الكثرة والتنوُّع، ومتناسبًا مع صيغ الجمع في السياق، كل هذه المعاني تدلّ على التعدُّد والاختلاف الشديد في الضلال قبل الإسلام، مما يظهر عظمة نعمة الهداية التي تجمع على طريق واحد، وهو الإسلام.

بلاغة حذف المضاف في قوله: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾:

في إطلاق الطرق على أصحابها إشارةٌ إلى شدّة تلبّسهم بها

حذف البيان القرآني المضاف في قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، والتقدير: (كنا ذوي طرائق) أو (كنا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق)؛ إذ أطلقوا الطرق على أصحابها؛ إشارة إلى شدّة تلبّسهم بها[3].

سر وصف الطرائق بقوله: ﴿قِدَدًا﴾:

تصويرٌ لشدّة تباعدهم وعمقِ اختلافهم في الأهواء والملل والنحل قبل الإسلام

في وصف الطرائق بـ﴿قِدَدًا﴾ زيادةُ تأكيدٍ على شدّة التفرّق والتقطّع، وإيثار لفظ ﴿قِدَدًا﴾ دون (متفرقة)؛ لكون ﴿قِدَدًا﴾ أبلغَ من (متفرقة)، فالقددُ من القدّ، وهو القطعُ الطولي العميق الموجب للتفرّق العظيم، بحيث تصير كلّ فرقة على حدتها[4]، وفي هذا تصويرٌ لحالهم في شدّة التباعد وعمق الاختلاف بينهم في الأهواء والملل والنحل قبل الإسلام.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طرق).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 659، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 44.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 298، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 480.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 481.

نكتة تنكير ﴿قِدَدًا﴾:

الاختلافاتُ الكثيرةُ والمتنوّعة للجنّ قبل الإسلام تظهرُ فداحة الضلال قبل الهداية

نكّر البيانُ القرآني ﴿قِدَدًا﴾ تناسبًا مع الموصوف ﴿طَرَآئِقَ﴾، الذي جاء نكرة، ولإفادة التكثير والتنويع والتهويل، فكأنَّ الضلالات والاختلافات التي كانوا عليها متنوّعة وكثيرة جدًّا لا تُحصى، مما يظهر فداحةَ الضلال قبل الهداية، ويُعرِّض "بذم الاختلاف بين القوم، وأنّ على القوم أنّ يتحدوا، ويتطلبوا الحقّ؛ ليكون اتّحادهم على الحق"[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 2333.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾

[الجن: 12]

بعد اعتراف الجنّ بما كانوا عليه من التفرُّق إذعانٌ بقدرةِ الله التي لا ينجو منها أحد

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا بيّن الجنُّ حالهم وما كانوا عليه قبل الإسلام، ودلّوا على أنَّهم كانوا موضعَ القهر بالتفرُّق؛ كان ذلك موجبًا للعلم بشمولِ قدرته تعالى حتى لا يدركه طالب، ولا ينجو منه هارب، لما أبدى لهم من شؤون عظمته وقهره في الحراسة وغيرها، فذكر سبحانه ما أثر ذلك عندهم من الاعتراف والإذعان للواحد القهار، فقال حاكيًا عنهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿نُّعۡجِزَ﴾: أصلُ العَجْز: الضَّعْف، يُقال: عَجِزَ عَنِ الشَّيْءِ يَعْجِزُ عَجْزًا، أي: ضَعُفَ، ولم يَقْدِرْ، فهو عاجِزٌ، وضِدُّهُ: القُدْرَةُ، والقولُ: إنَّ العَجْزَ نَقيضُ الحَزْم، فَمِنْ هَذا؛ لأنَّهُ يَضْعُفُ رَأْيُهُ، وقيل: أصله: التَّأَخُّرُ عن الشيء، يُقالُ: أَعْجَزَني فُلانٌ؛ إذا عَجِزْتُ عَنْ طَلَبِهِ وإدْراكِهِ، وصار في التّعارف اسمًا للقصور عن فعلِ الشيء، وهو ضدّ القدرة، والله تعالى لَنْ يُعْجِزَه شَيْءٌ، أي: لا يَعْجِزُ الله تعالى عَنْهُ مَتَى شاءَ[2]، وقوله: ﴿لَّن نُّعۡجِزَ﴾ لا نَغْلِبُ الله بِالقوَّة، أو كِنايَةٌ عَنِ الإفلاتِ والنَّجاةِ[3].

2) ﴿هَرَبٗا﴾: الهَرَبُ: الفِرارُ، هَرَبَ يَهْرُبُ هَرَبًا: فَرَّ، ويَكونُ ذَلِكَ للإنسان، وغَيْرِهِ مِنَ أنواع الحَيَوانِ، وأَهْرَبَ: جَدَّ في الذَّهاب مَذْعورًا، أو غيرَ مذعور، وأَهْرَبَ الرجلُ؛ إذا أَبْعَدَ في الأرض[4]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 481.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عجز).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 234.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هرب).

والمعنى المحوري له غيابٌ من الحيّز بقوَّةٍ اندفاعًا أو إسراعًا إلى مُسْتَتَر[1]، والهَرَبُ هنا مَجازٌ في الانفِلاتِ مِمّا أرادَ اللّٰه إلحاقَهُ بِهِم مِنَ الرَّجْمِ والاحتِراقِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول تعالى حكايةً عن الجنِّ: وأنا علمنا أنْ لن نقاوم اللّٰهَ في الأرض أينما كنّا من أقطارها؛ إنْ أراد بنا سوءًا؛ لِما له من الإحاطة بكلّ شيء علمًا وقدرة، ولَنْ نُعْجِزَهُ بوجهٍ من الوجوه؛ إنْ هَربنا من الأرض إلى غيرها، أو إنْ طلبَنا؛ فنفوته[3].

علـمُ الـجـنِّ بـشـمـولِ قـدرة الـلـه تـعـالى وإذعـانـهـم للواحد القهار

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ على ما قبله:

عطفَ البيانُ القرآني قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، على قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾، والآيتان من كلام الجن؛ إذ يجمع بين وصفهم لحالهم قبل الهداية وبعده، وبين بيان السبب الأساسي لهدايتهم، وهو إدراكهم بشمول قدرته تعالى، وإذعانهم للواحد القهار واعترافهم أنّهم لا يعجزون اللّٰه في الأرض ولا بالهرب.

وصـفـهـم لـحـالـهـم قبل الهداية وبعده وبـيـان السبب الأسـاسي لهدايتهم

سر التعبير بالظنّ في قوله: ﴿ظَنَنَّآ﴾:

عبّر البيانُ القرآني بلفظ (الظن) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾، والمعنى: علمنا، وأيقنا؛ "بقرينة تأكيد المظنون بحرف (لن) الدالّ على تأبيد النفي وتأكيده"[4]، والظنّ يُطلَق على الشكِّ وعلى اليقين، ويدورُ معناه على توقُّعِ وجودِ شيءٍ مُهِمٍّ؛ لأمارةٍ

العاقلُ ينبغي لـه أن يجتنبَ ما يظنّه ضارًّا ولو بأدنى أنواع الحيل، فكيف إذا تيقّن؟

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هرب).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 234.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 660، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 482.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 234.

أو دليلٍ قويَّين، فمتَى قويتْ هذه العلامَةُ؛ أدَّتْ إلى اليقين والعِلم، ومتى ضَعُفَتْ جدًّا لم يتجاوزِ الظَّنُّ حدَّ التَّوهُّم[1]، فالتعبير بالظنّ أشارَ إلى التحوُّل الفكري للجنّ من الظنّ الخاطئ إلى الاعتقاد الجازم، فضلًا عن أنّ التعبير بالظنّ جاء متناسبًا مع تكرار اللفظ في السورة، وكذلك فيه إشارةٌ إلى أنّ العاقلَ ينبغي له أنْ يجتنبَ ما يخيله ضارًّا، ولو بأدنى أنواع الحيل، فكيف إذا تيقّن[2]؟.

سر التعبير بـ﴿أَن﴾:

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾ مصدريَّة، وأنْ وما بعدها سدّت مسد مفعولي (ظننا)، وقد آثرَ البيان الإلهي مجيء المصدر المؤول؛ لِما في ذلك من الإطناب والتوكيد، اللذين يسهمان في الدلالة على قوَّة استنتاجِ الجنّ في أنَّهم لن يعجزوا اللّه أبدًا، مما يحوّل الظنّ إلى يقين وحقيقة ثابتة عندهم.

قــوَّةُ استـنتـاجِ الجـنِّ في أنَّهم لــن يـعـجـزوا الله أبدًا حوَّلت ظنَّهم إلى يقين

دلالة النفي بـ﴿لَّن﴾ مع المضارع:

(لَنْ) حرفُ نفي تنفي المستقبلَ القريب والبعيدَ معًا، فجاء النفي هنا بـ﴿لَّن﴾؛ لتأكيد النفي وإفادة استمراره وتجدُّده على وجه التأكيد، ومن ثمّ استمرارية هذا اليقين وتأكُّده عند الجنّ، والمعنى: علمنا، وأيقنّا أنْ لن نعجزَ اللّه أبدًا، وفي هذا إثباتٌ لكمالِ قدرة اللّه المطلقة التي لا يعتريها نقص عبر الزمان.

في النفي المؤبد لعجزِ الله تعالى إثـبـاتٌ لـكـمـالِ قدرته سبحانه

سر التعبير بفعل الإعجاز دون غيره:

استعملَ البيانُ الإلهيُّ لفظ العجز في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾ دون غيره من الألفاظ كالإفلات؛ لكون لفظ العجز أعمّ وأنسب للسياق؛ فالعجزُ ضعفٌ وتثبيط وتأخُّر عن الشيء، وقصورٌ عن فعل الشيء، وعن طلب الشيء وإدراكه، وهو ضدُّ القدرة[3]، ففي

في نفي أيِّ عجزٍ عن الله إثباتٌ للقدرة الكاملة له سبحانه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظنّ).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 482.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عجز).

نفي العجر عن الله نفيٌ لكلّ هذه المعاني، وإثباتُ القدرة الكاملة لله تعالى والإحاطة بكل شيء علمًا وقدرة.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ﴾:

إبـــرازُ كـمـال القـدرة الإلـهـيـة واســتــســلامُ الجنّ لخالقهم

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾ نفى البيانُ القرآني على لسان الجنّ إعجازهم الله، والإعجاز: جعلُ الآخر عاجزًا، أي: غير قادر؛ لأنّ العجزَ ضدّ القدرة، والعجز: الضعفُ والتأخُّر والقصورُ عن فعل الشيء، والمراد بالعجز هنا الكناية عن الإفلات والنجاة[1]؛ مما يشير إلى يأسهم وإحباطهم بعد محاولتهم الوصول إلى السماء واستراق السمع، ومن ثمّ اعترافهم بعظمة القدرة الإلهية وشمول العلم الإلهي والإحاطة التامة، وكمال التسليم لله تعالى.

سر إيثار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

من يجمعُ كلّ صفاتِ الجلال والـجـمـال والـكـمـال لا يعجزه شيء

عبّر البيانُ الإلهي بلفظ الألوهية دون الربوبية، في قوله تعالى: ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾، ولم يقلْ: (لن نعجز ربنا)؛ لكون لفظ الألوهية أنسب؛ فاسم (الله) هو اسمُ الذاتِ الذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الجلال والجمال والكمال، فنفي العجز عن الله هو إثباتٌ للكمال المطلق لله تعالى في القدرة والإحاطة والعلم.

سرّ التقييد بقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إذا ثبـــت ضـعـف الـجـنّ واستسلامهم في الأرض؛ فأين هم من السماء؟

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، قيّد الجنّ نفي إعجازهم الله في الأرض؛ للإشارة إلى قدرته سبحانه وتصوير شدّة ضعفهم؛ لأنّ الأرضَ هي جهة السفل الملزومة للقهر، وهي مكان إقامتهم وتمكُّنهم عليها ومجال عملهم وتحرُّكهم؛ فإذا أيقنوا بضعفهم واستسلامهم، وأنّه لا منجى لهم من الله تعالى في هذه الأرض البسطة العريضة التي لهم القدرة على التحرك فيها؛ فمن باب أولى في السماء التي لا سلطة لهم عليها، وليست هي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 234.

مجالهم؛ فأين هم من سعة ملك اللّه في سمائه التي هي في قبضته، والبعيدة عن قدرتهم على التحرّك فيها.

دلالة تعريف ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

إيمان الجنّ بأنّ قدرة الله شاملة ومطلقة

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ تفيد العموم والاستغراق لجميع الأمكنة في الأرض[1]، وتدلُّ أيضًا على العهد الذهني، أي: الأرض المعروفة لدى المخاطَبين، والمعنى: لن نعجز اللّه، ولن نفلت منه في أي مكانٍ من الأرض لا في شرقها ولا غربها ولا برها ولا بحرها، ولا في قطرٍ من أقطارها، أو أي جزء من أجزائها أينما ذهبنا، ممّا يشير إلى أنّ الجنّ آمنوا بأنّ قدرة اللّه شاملة ومطلقة.

سر تكرار جملة ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ﴾:

إيـمـانُ الجنِّ بـأنّـهـم لـن يعجزوا الله في الأرض ولا في السماء

تكرر نفي إعجاز اللّه على لسان الجنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾؛ للتنبيه على استقلال كل جملة وإضافة معانٍ جديدة، فمعنى ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾: ولن نعجزه هاربين من الأرض إلى السماء، ويكون معنى ﴿لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: لن نعجزه في الأرض أين ما كنّا فيه هاربين من أرض إلى أرض، وفي هذا التكرار ترقٍّ ومبالغة، كأنه قيل لن نعجزه سبحانه في الأرض ولا في السماء، أو يكون المعنى: لن نقاومه، أو نغالبه إن أراد بنا سوءًا، ولن نفلت منه، أو ننجو؛ إن هربنا[2].

بلاغة المجاز في ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾:

إيمانُ الجنّ بأنّه لا نجاة لهم من سطوة الله؛ إن أرادوا الهرب

أطلقَ البيان القرآنيّ الهرب في قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا﴾ مجازًا على الانفلات مما أراد اللّه إلحاقه بهم من الرجم والاحتراق، والمعنى: لن نفلتَ من اللّه؛ إن أردنا الهرب، أي: لا نجاة من سطوته سبحانه بسبب الهرب؛ إن قصد أخذنا[3].

(1) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 350.

(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 350، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 99.

(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 350، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 234.

سر التعبير بالمصدر ﴿هَرَبًا﴾ منكرًا:

مبالغةُ الجنّ في نفي الإفلات بأي نـوع مـن أنـواع الـهـرب إقــرارٌ بـكـمـال قـدرتـه سبحانه

أفاد التعبيرُ بالمصدر ﴿هَرَبًا﴾ منكرًا، في قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾، المبالغةَ في النفي مع العموم والشمول والتهويل والتفخيم، كأنَّهم قالوا: لا يوجدُ أيّ نوعٍ من أنواع الهرب يمكن أنْ يعجزَ اللّه، مهما كان هذا الهروب عظيمًا وقويًّا، وفي هذا إقرارٌ من الجنِّ بضعفهم واستسلامهم أمام قدرة اللّه الكاملة والشاملة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهروب والفرار:

الـجـنُّ لـن يـعـجـزوا اللـه مـهـمـا جـدّوا في الـذهـاب، واندفعوا مسرعين، وحاولوا التخفّي

الهربُ هو الفرارُ والجدّ في الذهابِ مذعورًا، ويكون للإنسان ولبعض أنواعِ الحيوان، والمهربُ موضعُ الهرب، وهو المكان يُهرَّب إليه الشَّيء، والمعنى المحوري له غيابٌ من الحيّز بقوّةٍ اندفاعًا أو إسراعًا إلى مُسْتَتَر[1]. فالهربُ يتضمَّنُ الجدَّ في الذهابِ بقوّةٍ، والاندفاعَ لمن كان مذعورًا، والاستتارَ والتخفّي من مصدر الخطر، أمّا الفرارُ؛ فهو الانكشافُ والروغانُ، والمفرُّ: الموضعُ والملجأُ الذي يفرّ إليه الإنسانُ من شيء خافه، والابتعادُ عمّا يواجه بخفّة وإسراعٍ واسترسال، فالفرارُ يتضمّنُ الانكشاف والخوف والهروب بعيدًا بخفّةٍ وسرعة، واللجوءَ إلى مصدرِ الأمن والنجاة[2]، وقد آثر البيان القرآني التعبير بلفظ الهروب للمبالغة في ضعف الجنّ أمام قدرة اللّه، فقد علموا أنّهم لن يُعجزوا اللّه مهما جدّوا في الذهاب، واندفعوا مسرعين، وحاولوا التخفّي والاستتار، ولن يفلتوا من اللّه؛ إن طلبهم.

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هرب).

(2) ابن فارس، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فرر).

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣﴾ [الجن: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مبادرةُ الجنِّ إلى العمل بما دعا إليه اعتقادهم بكمالِ قدرة الله

لَمّا كان الظانّ قد يبادرُ على العمل بموجب ظنّه، وقد لا يبادر؛ بيّنوا أنّ مرادهم به العلم، وأنّهم بادروا إلى العمل بما دعا إليه، فقالوا مؤكّدين لِما للجنّ من الإباء والعسر: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا﴾[1]، فبعد أنْ ذَكَّر الجنُّ قَوْمَهُم بِعَذابِ اللّه في الدُّنْيا، أوِ اطمَأنّوا بِتَذَكُّرِ ذَلكَ في نُفوسِهِم؛ عادوا إلَى تَرغيبِهِم في الإيمانِ بِاللّه وحْدَهُ، وتَحْذيرِهِم مِنَ الكُفْرِ بِطَريقِ المَفْهومِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَخۡسٗا﴾: البَخْسُ: نَقْصُ الشَّيءِ على سَبيلِ الظُّلْمِ، يُقالُ: بَخَسَ الكَيْلَ والميزانَ، يَبْخَسُهُ، بَخْسًا؛ إذا نَقَصَهُ، وثَمَنٌ بَخْسٌ، أي: ناقِصٌ، والبَخْسُ: الشَّيءُ الطَّفيفُ النّاقِصُ[3]، و"البَخْسُ في لسانِ العَربِ هو النَّقْصُ بالتَّعييبِ والتَّزْهيدِ، أو المخادَعةُ عَنِ القيمَةِ، أو الاحتيالُ في التَّزَيُّدِ في الكَيْلِ والنُّقصانِ منه"[4]، والمقصودُ بالبَخْسِ في الآية: النقصُ من حسناته[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إيمانُ الجنّ بعد استماعهم القرآن وترغيبهم قومهم ليؤمنوا بالله

يقول اللّه تعالى حكايةً عن الجنّ: وأنّا لَمّا سمعنا القرآنَ الذي هو الهدى بعينه؛ صدّقنا به، وأقررنا أنّه حقٌّ من عند اللّه، من غير

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 482.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 235.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بخس).
(4) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/ 318.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 660.

تلعثم وتردّدٍ، فَمَن يُؤْمِن بِرَبّه، وبما أنزلَهُ، فهو لا يخافُ نقصًا في الجزاءِ، ولا أنْ ترهقَهُ ذلةٌ، ولا إثمًا يُحملُ عليه من سيئاتِ غيره[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عطف قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا﴾ على ما قبله:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والآيتان من كلام الجنّ، ففي الآية الأولى ذكروا أنّهم أيقنوا بكمالِ قدرة اللّه تعالى، وأنّهم لا يعجزونه في الأرض ولا في السماء، وفي الثانية أخبروا بإيمانهم باللّه بعد سماعهم القرآن، ورغّبوا قومهم بالإيمان.

ثـمـرةُ الاعـتـقـاد الـحـقـيـقـي هـو الاسـتـجـابـةُ الفوريَّة للهدى

سر تكرار (أنّا):

قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ من تتمَّة قول الجنّ، وقد أعادَ البيانُ القرآنيُّ كلمةَ (أنّا)؛ لتأكيد الخبر، وهو إيمانهم بالقرآن فورَ استماعهم له؛ لكون هذا الخبر معرَّضًا لشكٍّ السامعين من الجنّ؛ لِما للجنِّ من الإباءِ والعسر.

تـأكـيـدُ الـجـنّ إيمانهم بالقرآن فورَ استماعهم له

معنى ﴿لَمَّا﴾ في قوله: ﴿لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾:

﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ اسم شرط غير جازم، وهي ظرفٌ للزمانِ الماضي بمعنى حين؛ لأنّ الجملتين بعدها فعلهما ماضٍ، وقد عبّر بها البيانُ الحكيم؛ للدّلالة على الزمن الماضي بما يفيدُ تحقُّق وقوعِ هذا الحدثِ بطرفيه، ولإفادة اقتران تحقّقِ إيمانهم عقبَ سماعهم للقرآن من غير تأخُّر ولا تردُّد، مما يشيرُ إلى شدّة تأثير القرآن وهدايته.

تـحـقُّـقُ إيـمـان الـجـنّ كـان عقبَ سماعهم للقرآن

دلالة التعبير بقوله: ﴿سَمِعۡنَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ عبّر البيانُ

سـمـاعُ الـجـنِّ لـلـقـرآن كـان باختيارهم

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 660، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 45.

القرآني بفعل ﴿سَمِعۡنَا﴾، ولم يقل: (أُسمعنا)؛ للدلالة على أنّ سماعهم كان باختيارهم، ولم يكنْ بالإكراه، فالنبيّ ﷺ لم يتقصّد إسماعهم، حتى أنّه لم يعلم باستماعهم له، وهو يتلو القرآن حتى جاءه الوحي، ومن ثم فإيمانهم كان باختيارهم ونتيجة استماعهم للقرآن.

دلالة التعبير بالماضي ﴿سَمِعۡنَا﴾:

سماعُ الجنّ للقرآن حقيقةٌ ثابتةٌ

دلّ التعبير بالفعل الماضي ﴿سَمِعۡنَا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾، على تحقُّق سماع الجن للقرآن وتأكّده، فالجنّ يخبرون عن حادثة مضتْ، وانقضتْ، ولم يعبّر بالمضارع؛ للدلالة على أنّ إيمانهم بالقرآن كان نتيجةَ سماعهم للقرآن من أوّل مرة، مما يدلّ على شدّة تأثير القرآن العظيم.

سر التعبير عن القرآن بالهدى:

القرآنُ لكماله في الهداية هو الهدى بعينه

وُصِفَ القرآن بالهدى في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ دون غيره من الأوصاف؛ "للمبالغة في أنّه هادٍ"(1)، فالقرآنُ الذي له من العراقة التامّة في صفة البيان والدعاء إلى الخير، وكأنّه لكماله في الهداية هو الهدى بعينه، ويؤكّد قوّةَ هداية القرآن تأثيرُه في هدايةِ الجنّ وإيمانهم به من أوّل مرة سمعوا القرآن.

دلالة تعريف ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾:

الهدى هو القرآنُ المعهود الذي استمعوا له، ويشملُ جميعَ أنواع الهداية

(أل) في الهدى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ عهدية، للإشارة إلى الهدى المعروف بين المتحدّثين من الجنّ والمراد به القرآن؛ لأنّه هو الذي استمعوا له، ويدلّ التعريف على الكمال والشمول والعراقة، فالقرآنُ هو الهدى الكامل العظيم الذي يشملُ جميع أنواع الهداية.

دلالة التعبير بالماضي ﴿ءَامَنَّا﴾:

التعبير بالفعل الماضي ﴿ءَامَنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 235.

تحقُّقُ إيمان الجنّ وتأكّده بمجرّد سماعهم القرآن الكريم

﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: للدلالة على تحقّق إيمانِ الجن وتأكّد هذا الإيمان منهم ورسوخه وثبوته في قلوبهم، بمجرّد سماعهم القرآن الكريم، فالجنّ يخبرون عن حادثة مضتْ، وانقضت، وأصبحت حقيقة ثابتة لا شكّ فيها.

دلالة التعبير بالجملة الشرطية:

عدمُ الخوف ملازمٌ للإيمان الحقيقي ولازمٌ له

دلّ التعبير بالجملة الشرطية: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾، على الاقتران بين الإيمان وعدم الخوف، أي: اقتران بين اشتراط الإيمان لتحقّق نتيجة الأمن، وهذه قاعدة ثابتة عامة تشمل كل مؤمن، وهي بمنزلة وعد إلهي لا يتبدّل، ولا يتغيّر، فكلّ من تحقّق فيه شرطُ الإيمان لابد وأنْ يكون جزاؤه الأمن من الخوف عند الحساب، مما يبعثُ الثقةَ بالعدل الإلهي، ويمنحُ المؤمن الطمأنينة والأمن.

دلالة التعبير بـ(مَن) الشرطيّة:

الأمنُ من الخوف نتيجةٌ حتميةٌ ولازمةٌ للإيمان

التعبيرُ بـ(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ أنسبُ في المعاني وأبلغُ وأدلُّ على المراد؛ لأنّ (مَن) تدلّ على الشرطية والجزاءِ بشكل أوضح، فقد ربطتْ في الآية بين الإيمان وعدم الخوف برباطٍ شرطي، وبيّنت أنّ من وُجد منه الإيمان، واستمرّ عليه؛ فقد ترتّب عليه عدمُ خوفه من أي نقصٍ في الثواب، وأيّ مكروه يلحقه، فيقهره، ولو قال: (فالذي يؤمن فلا يخاف..)؛ لخفتتْ دلالةُ الشرط والجزاء، ولدلّت على مجرّد الوصف.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿يُؤۡمِنۢ﴾ دون الماضي:

من يؤمنُ ويستمرُّ على إيمانه هو المختصّ بالنجاة

جاء التعبير بالمضارع ﴿يُؤۡمِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾؛ للدلالة على التجدّد والاستمرار، والمعنى: فمن حاز حقيقة الإيمان واستمرّ على تجديده كلّ لحظة، فلا يخاف بخسًا ولا رهقًا[1]، أي: الجزاءُ بعدم الخوف مشروطٌ بالاستمرار على الإيمان.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 483.

سر إيثار لفظ الربوبية مضافًا إلى الضمير:

الربّ المحسنُ المدبّرُ المنعمُ الخالق هو من يستحقّ العبادة

آثرَ البيان القرآني التعبير بالربوبية في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾؛ لزيادة الترغيب إلى الإيمان؛ لأنَّ بيانه الطريقَ لعباده مع قدرته التامة إنما هو من عموم لطفه ورحمته، فمن يؤمن بالربّ المحسن المدبر المنعم المتفضّل؛ فلا يخاف بخسًا ولا رهقًا[1]، ويستدعي التعبير بالربوبية أيضًا الإفراد بالعبادة، فالربّ هو الخالق، وما لا يخلقُ لا يُعبد.

سر اقتران الفاء بجواب الشرط، وهو مضارع:

المؤمنُ ناجٍ لا محالة، وهو المختصّ بذلك دون غيره

جُمْلَةُ: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ جوابٌ لِشَرْطِ (مَنْ)، وقد قُرِنَتْ بالفاءِ، مَعَ أنَّ ما بَعْدَ الفاءِ فِعْلٌ، وشَأْنُ جَوابِ الشَّرْطِ ألّا يَقْتَرِنَ بالفاءِ إلّا إذا كانَ غَيْرَ صالِحٍ لأَنْ يَكونَ فِعْلَ الشَّرْطِ، فَكانَ اقترانُهُ بالفاءِ، وهوَ فِعْلٌ مُضارِعٌ مُشيرًا إلَى إرادَةِ جَعْلِهِ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ بِحَيْثُ تَكونُ الجُمْلَةُ اسميَّةً، والاسْميَّةُ تَقْتَرِنُ بالفاءِ إذا وقَعَتْ جَوابَ شَرْطٍ، فَكانَ التَّقْديرُ هُنا: (فَهوَ لا يَخافُ)؛ ليكون دالًّا على تحقيق سلامته من خوف البخس والرهق، وليَدُلَّ عَلَى اختِصاصِهِ بِذَلِكَ دونَ غَيْرِهِ الَّذي لا يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ، فَتَقْديرُ المُسنَدِ إلَيهِ قَبْلَ الخَبَرِ الفِعْلِيِّ يَقْتَضي التَّخْصيصَ تارةً، والتَّقَوّيَ أخرى، أي: المؤمن ناجٍ لا محالة، وهو المختصّ بذلك دون غيره، ومن جهة ثانية فإنَّ الجملة الاسمية أدلُّ وآكد من الفعلية على تحقيق مضمون الجملة[2]، ودلَّت الفاء أيضًا على معنى التأكيد والتعقيب الفوري، فكأنّه بمجرّد إيمان العبد يزول الخوف من البخس والرَّهق بشكل حتمي.

نكتة تنكير ﴿بَخۡسٗا﴾، و﴿رَهَقٗا﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ جاء ﴿بَخۡسٗا﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 483.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 298، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 235.

و﴿رَهَقًا﴾ نكرة؛ لإفادة العموم والشمول؛ إذ النكرة في سياق النفي تفيد العموم، والمعنى: فلا يخافُ أي بخسٍ مهما كان قليلًا في أيِّ نوعٍ من أنواع البخس (لا نقصًا ولا غبنًا ولا قلَّة ولا خبثًا ولا نكدًا)، ولا يخافُ أي رهقٍ مهما كان قليلًا في أيِّ نوعٍ من أنواع الرهق (لا ظلمًا ولا ذلًّا ولا إهانة ولا مكروهًا ولا قهرًا)، وفي المبالغة في نفي الخوف لمن يؤمن بربِّه تعظيمٌ لهذا الإيمان الذي يصلُ بصاحبه إلى هذه الدرجة من الطمأنينة والثقة بربه.

المبالغةُ في نفي الخوف لمن يؤمن بـربـه تـعـظـيـمٌ لهذا الإيمان

دلالة العطف بالواو دون إعادة الفعل ﴿يَخَافُ﴾:

عطفَ النظمُ الحكيم قوله: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ على قوله: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾؛ للدلالة على نفي الخوف في كليهما؛ إلا أنّه لم يُعِدِ الفعلَ، فلم يقل: (فلا يخاف بخسًا ولا يخاف رهقًا)؛ إيجازًا لأنّه مفهومٌ من السياق والعطف دالٌّ عليه، وللدلالة على اتحاد الجنس، فالبخسُ والرهق في الحساب من جنس واحد، وهو الظلم، ولكنهما نوعان مختلفان، ولهذا أعاد أداة النفي (لا) دون إعادة الفعل.

البخسُ والرهقُ وجـهـان لـظـلـمٍ واحدٍ

دلالة تكرار (لا) في قوله: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾:

كرَّرَ النَّظمُ الحكيمُ النَّفي بـ(لا) مع العطفِ في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، ولم يقل: (فلا يخاف بخسًا ورهقًا)؛ للتأكيد وللتَّنبيهِ على استقلالِ النَّفي في كلّ من البخس والرهق، أي: تأكيد نفي كلِّ نوع من الخوف بشكل مستقلٍّ؛ لاختلافهما في الاستغراق، فالبخس والرهق مختلفان في الجوهر وفي الحقيقة، ففي نفي كلٍّ منهما على حدة مبالغةٌ في النفي، ومن ثمّ المبالغة في الأمن والطمأنينة لمن آمن.

فـي نـفـي كـلِّ نـوعٍ عـلى حدة مبالغةٌ في نفي الخوف لمن آمن

سر الجمع بين نفي البخس والرهق:

جمعَ البيانُ الإلهي بين نفي البخس، وهو النقص، وبين نفي الرهق، وهو الزيادة، وهما من أنواع الظلم، والمعنى: ومن يصدِّقُ

في نفي البخس والـرهـق نـفـيٌ لـجـمـيـعِ صـور الـخـوف في الحساب

بوحدانية اللّه، وبما أنزله على رسله؛ فلا يخافُ نقصًا من حسناته، ولا ذنبًا يُحملُ عليه من سيئات غيره، وفي نفي النقيضين نفيٌ لجميع صور الخوف في الحساب، وفي هذا دلالةٌ على أنّ المؤمن ينالُ جزاءه وافرًا كاملًا، وفيه إشارةٌ إلى كمالِ العدل الإلهي، وشمولِ الأمن الذي ينعمُ به المؤمن.

توجيه المتشابه اللفظي بين هذه الآية، وآية 112 من سورة طه:

ختامُ الآية واختيارُ الألفاظ يتناسبُ مع سياقها وغرضها

يوجد تشابه بين قوله تعالى هنا: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، وقوله في سورة طه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ١١٢﴾ [طه: 112]، في المعنى وفي أسلوب الشرط، إلا أنّ آية الجن هنا خُتمت بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، في حين خُتمت آية طه بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ١١٢﴾ [طه: 112]، والسبب هو اختلافُ السياقين، فالحديثُ في طه عن جزاء المؤمنين يوم القيامة وعدم ظلمهم بنقص ثواب أعمالهم الصالحة، فالتركيزُ على جزاء العمل والمبالغة في عدالة اللّه في الثواب، فناسبَ استعمال ألفاظ أعمّ، أمّا الحديثُ في الجنّ؛ فعن إيمان الجن بعد سماعهم القرآن وبيان ثمرة الإيمان باللّه، فالتركيز على ثمرة الإيمان بالربوبية والأمن الناتج عنه، فناسبَ استعمال ألفاظ أخصّ، فضلًا عن أنّ لفظ ﴿رَهَقًا﴾ ورد في سورة الجنّ، فناسب اختياره هنا.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوف والخشية:

الخوفُ يتعَلَّق بالمكروه وبمنزل المَكروه، فهو أعمّ من الخشية

الخوفُ أعمُّ من الخشية، فأصلُ الخوف الذُّعْرِ والفَزَعِ(1)، ويُضادّه الأمن(2)، والخوفُ توقّعُ الضَّرَرِ المَشكوك في وُقوعه، فهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (خوف).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (خوف).

يتَعَلَّق بالمكروه وبمنزل المَكْروه، أمّا الخشيةُ؛ فتتَعَلَّق بمنزل المَكْروه دون المكروه، ولا يُسمّى الخَوْف من نفس المَكْروه خشيَةً[1]، والخشيةُ أخصُّ من الخوفِ وأشدُّ، فهي خَوْفٌ مَشوب بعظَمَةٍ ومَهابَةٍ من المخوّف منه، ويكون عن علم ومعرفة، ولذلك خُصَّ بالعلماء[2]، والخوفُ اضطرابُ القلبِ وحركته من تذكُّره المَخوّف، وقيل: الخوفُ هَرَبُ القلبِ من حلولِ المكروه عند استشعاره، إذًا: فالخوفُ حركةٌ، والخشيةُ انجماعٌ وانقباضٌ وسكون، فإنَّ الَّذي يرى العدوّ والسّيل ونحو ذلك له حالتان: إحداهما حركةُ الهربِ منه، وهي حالةُ الخوفِ، والثانية سكونه وقراره في مكانٍ لا يصل إليه، وهي الخَشْية[3]، وقد استعمل البيان القرآني هنا لفظ الخوف؛ لأنَّه أعمّ وأنسب مع السياق الذي يتحدّث عن عموم كل من آمن بربه، والوعد بالأمان من الظلم في الحساب، فلا يخاف أيّ بخسٍ أو رهق، وهذا لا يختصّ بالعلماء فقط.

البخس والنقصان:

البخسُ نقصٌ على سبيل الظلم، والنقصانُ يكون في الظلم وغيره

البخسُ أخصّ من النقصان، فالبخسُ نَقْصُ الشَّيء على سَبيلِ الظُّلْم، قالَ تَعالَى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الشعراء: 183]، أي: لا تنقصوهم ظلمًا، في حين يكون النُّقْصان بالظلم وغيره، والبَخْسُ أيضًا: الشيء الطفيف الناقص، وأمّا النقصان؛ فيكون في القليل والكثير[4]، ولهذا كان استعمال لفظ البخس أنسب هنا؛ لأنّه أبلغ في نفي أيّ نقصٍ على سبيل الظلم مهما كان خفيفًا.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 241.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خشي).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 545.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 179، والراغب، المفردات: (بخس).

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجن: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ تمييز حال الجنّ في الإيمان والكفر بعد سماع بعضهم القرآن

لـمّا كان ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ﴾ رُبّما أوهمَ أنّ الجنّ أسلموا كلُّهم سواء من استمع للنّبي ﷺ أم من لم يستمعْ له؛ قال هؤلاء النفر نافين لهذا الظاهر: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾: (قسط) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مَعنَيَينِ مُتَضادَّيْن والبِناءُ واحِدٌ، يُقال: أقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ؛ إذا جارَ، وعَصَى، وتجبَّر، فلم يُطِع، ولم يَخْضَع لما أمرَ به اللّه، والقُسوطُ: العُدولُ عَنِ الحَقِّ[2]، والإقساطُ: العدلُ في القسمة والحكم[3]، والقِسْطُ أيضًا: الميزانُ، سُمّي به؛ لأنّه يعدلُ هذا الجانب منه بهذا[4]، و﴿ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾ من قسط، والمعنى هنا: الظالمون الجائرون عن الإسلام، وقصد السبيل، العادلون عن الحقّ[5].

2) ﴿تَحَرَّوۡاْ﴾: التحرّي: الاجتهادُ وبذلُ الطاقةِ في طلبِ الصواب، ومنه التحرّي في القبلة، وأصله من حرى الشيء يحريه، أي: قصدَ حراه، وجانبه، ومنهُ قَولُهُم: هوَ يَتَحَرَّى الأمرَ، أي: يَقْصِدُهُ[6]، وتحرَّى الصَّوابَ: توخّاه، وطلبه، وقصدَه، وتحرَّى عن الحدث: اجتهدَ في طلبه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قسط).
(3) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (قسط).
(4) الجوهري، الصحاح، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسط).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 661.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حرو).

ودقَّق، وبحثَ عنه باهتمام[1]، ومعنى ﴿تَحَرَّوۡاْ﴾ موافق للمعنى اللغوي، أي: قصدوا مجتهدين، وتوخوا، وتعمّدوا، وترجَّوا رشدًا في دينهم[2].

3) ﴿حَطَبٗا﴾: الحطبُ معروف، ومفرده حطبة، والحَطَبُ: ما أُعِدَّ من الشَّجَرِ شَبوبًا للنّارِ، وحطَبَ الرَّجلُ، واحتطبَ: جمعَ كلَّ ما جَفّ من زرعٍ وشجر توقدُ به النّار، وأرضٌ حَطيبَةٌ: كَثيرَةُ الحَطَبِ[3]، ومعنى ﴿حَطَبٗا﴾ تشبيهُ الجنّ بالحطب، فتوقد بهم جهنم، كما توقد بكفرة الإنس[4]، وهم لِجَهلِهِم كالحَطَبِ الَّذي لا يَعْقِلُ، وشبّه حلولهم في جهنم بحلولِ الحطب في النار[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حالُ الجنّ بين الإسلام والجَور ومآلُ كلّ فريق

يقول تعالى ذكره مُخبرًا عن قيْل النَّفر مِن الجنّ: وأنّا - معاشرَ الجنّ - مِنّا المُسْلِمونَ الخاضعون للّه بالطاعة، ومِنّا القاسطونَ الجائرون عن الإسلام وقصد السبيل، فَمَنْ أَسْلَمَ منّا، وخضع للّه بالطاعة؛ فَأولَئِكَ تعمّدوا، وترجَّوا رشدًا في دينهم، أمّا الجائرون عن الإسلام؛ فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا توقدُ بهم[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّأكيد في قوله: ﴿وَأَنَّا﴾:

تأكيدُ اختلافِ حالِ الجنّ في العقيدةِ والسلوكِ

أفادَ التَّعبيرُ بـ﴿وَأَنَّا﴾ تأكيدَ الجنّ بأنّهم لم يُسلموا كلّهم؛ لأنَّ إسلامهم مع شديد نفرتهم لا يكاد يُصدَّق، وتأكيدَ أنّهم فريقان، فريقٌ مخلصون في صفة الإسلام للهادي وفريقٌ جافون كافرون[7]؛

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حرو).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 661، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 485.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حطب).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 661، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 100.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 237.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 661.

(7) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 484.

لأنّ كثيرًا من النّاس يظنّون أنَّ الجنّ جنسٌ واحدٌ في العقيدة أو السلوك، والآية تردُّ هذا التصوّر.

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِنَّا﴾:

بعضُ الجنّ مسلمون، وآخرون قاسطون كافرون

حرفُ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ حرفُ تبعيضٍ، يدلُّ على أنّ الجنّ ليسوا على شاكلةٍ واحدةٍ في العقيدة أو السلوك، فبعضهم مؤمنٌ، وبعضهم كافرٌ.

سرُّ التعبيرِ بلفظ الإسلام دون الإيمان:

في التّعبير بالإسلام دقّةٌ قرآنيةٌ تُراعي حالَ الجنّ

جاء التعبيرُ بلفظ (الإسلام) دون (الإيمان) في الآية؛ لأنّه الأنسبُ لوصف حال الجنّ؛ إذ إنّ الإسلام أوسعُ معنًى من الإيمان، فهو يشملُ الاستسلام الظاهري والانقياد لأوامر الله، سواء اقترن بذلك إيمانٌ قلبي راسخ أم لا، أمّا الإيمان؛ فيُطلقُ غالبًا على التصديق القلبي العميق، وقد كان الجنّ متفاوتين في درجات التصديق، فمنهم من آمن بصدق قلبه، وانقاد بجوارحه، ومنهم من اقتصرَ على الإسلام الظاهري، فجعل ذلك بدايةً لهدايته.

دلالة التعبير بالاسمية ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾:

ثباتُ كلا الفريقين من الجنّ على ما هم عليه من حال

جاء التَّعبير في الآية بالجملة الاسمية بدلًا من الفعلية - فلم يقل: (ومنا من أسلم) - للدَّلالة على الثبات والاستقرار؛ إذ تُفيد الجملةُ الاسمية استمرارَ حالِ الجن، فالمسلمون منهم من استقرّوا على الإسلام، وتمكّنوا فيه، وكذلك القاسطون ثبتوا على جورهم وكفرهم، مما يعكسُ ثبات كلا الفريقين على ما هم عليه من حال، والمعنى: ومنا المخلصون في صفة الإسلام المقسطون المستقيمون العريقون في ذلك، ومنا الجائرون عن المنهج الأقوم[1].

سرُّ إعادة قوله: ﴿مِنَّا﴾:

تأكيدٌ على التمايزِ داخلَ جنسِ الجن

كرّر النَّظم الحكيم لفظ ﴿مِنَّا﴾ مع سبق ذكرها، ولم يقل: منّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 484.

المسلمون والقاسطون؛ للتأكيدِ على التفصيل والتمايز والتفريق بين فئتين متقابلتين من المسلمين والكافرين داخلَ نفس الجنس الواحد، وهم الجنُّ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾ للجنس، فهي تشملُ كل من اتّصفَ بالكفر، أي: بالجَوْر والانحراف عن الطريق المستقيم.

القاسِطونَ نوعٌ من الجنّ اتصف بالجَور عن الحق

دلالة المقابلةِ بين لفظي: ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾ و﴿ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾:

قابلَ البيانُ الحكيمُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾، بين المسلمين والكافرين الجائرين عن طريق الحق[1]، "وإنّما جاء هذا التقسيم؛ ليذكرَ حالَ الطريقين من النجاة والهَلَكة، ويرغّب في الإسلام من لم يدخلْ فيه"[2]، وقد عدلَ البيانُ الحكيمُ عن لفظ الكافرين إلى القاسطين؛ بيانًا لماهيّةِ الكفر، فالكافرون جائرون عادلون عن الحقِّ، وتقبيحًا له، وتلطُّفًا من الجنّ، وهم يخاطبون قومهم غير المسلمين، وغرضُ هذا التلطّف جذبهم إلى الإسلام، وتحقيقًا للاحتباك في الآية؛ إذ المعنى: وأنّا منا المسلمون العادلون، ومنا القاسطون المشركون.

دقّــةٌ بيانيـةٌ وتلطُّفٌ دعويٌّ

سر تقديم ﴿ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾ على ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَۖ﴾ في الآية:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ المسلمين على القاسطين؛ مراعاةً للسبق والأهمية، فالأصلُ هو الإسلام الفطري، وتكريمًا لأهلِ الإيمان، وتأكيدًا على مكانتهم، وإظهارًا لأولوية الدين والتسليم للّه.

فـي التقديم تـكـريمٌ لأهـل الإيمان ومراعاةٌ للأصلِ الفطري

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ﴾ تفريعيةٌ، تدلّ على أنّ ما بعدها مترتّبٌ على ما قبلها، تفصيلًا ونتيجةً، وجاءتْ هنا للتفريع

تـفـريـعٌ يـفـيدُ ترتُّبَ الرشدِ على الإسلام

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 628.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 382.

على القصّة لاستخلاصِ العبرة منها، وهي أنّ الإسلامَ هو الطريقُ المؤدّي إلى الرُّشد، فالتفريعُ تفريعُ كلامٍ على كلامٍ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(مَن):

عمومٌ يشملُ كلَّ من أسلمَ، وتشويقٌ لِما يترتّبُ على إسلامهم

جاء التعبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ بـ(مَنْ) الشرطيّة بدلًا من (الذي)؛ لأنّ (مَنْ) أكثرُ إفادةٍ للعموم والشمول، فتتناول كلّ من أسلم، سواء من الجنّ أو الإنس، بخلاف (الذي) التي تدلّ غالبًا على المفرد وتوحي بالتخصيص، فضلًا عن أنّ (مَنْ) في هذا الموضع جاءتْ في أسلوبٍ شرطيٍّ، مما يوجِد ترقّبًا وتشويقًا لجواب الشرط، وهو قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾، فيكون التعبير أكثرَ تأثيرًا وإثارةً للانتباه، بخلاف الأسلوب الخبري الذي قد يفتقر إلى هذا الأثر البلاغي.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿أَسْلَمَ﴾ مادةً وصيغةً:

مَنْ تحقَّقَ وقوع الإسلام منه توخّى سببَ النجاة

التّعبير بمادة الإسلام دون الإيمان في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾؛ لكون الجملة تفريعًا لقوله فيما سبق: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾، ومن ثمَّ كان لفظ الإسلام أنسب مع السياق، وقد عبّر عنه بصيغة الماضي؛ لإفادةِ اشتراطِ تحقُّقِ وقوع الإسلام حتى يكون قد توخّى سبب النجاة وما يحصل به الثواب.

سر التعبير بالفاء في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

دخولُ الرشد مرهونٌ بالإسلام

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ رابطةٌ لجواب الشرط[2]، أي: مَن وقعَ منه الإسلام، فهو الذي تحرّى رشدًا، فجُعِلَ الإسلامُ شرطًا مباشرًا لتحرّي الرشاد.

وجه التعبير باسم الإشارة (أولئك) للبعيد:

تعظيمُ شأن الذين توخّوا الرَّشَد وقصدوه

استعملَ البيانُ القرآني اسم الإشارة (أولئك) المستعمل للبعيد؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 236.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 243.

تعظيمًا لشأنِ الذين توخّوا مجتهدين الرشد وقصدوه، وإشارةً لعلوّ رتبتهم ورفعة مكانتهم[1].

دلالة التعبير بقوله: ﴿تَحَرَّوۡاْ﴾:

الوصولُ إلى الرَّشَد مرهونٌ بالبحث والاجتهاد

آثر البيانُ الحكيم لفظَ ﴿تَحَرَّوۡاْ﴾ دون (بحثوا أو أصابوا)؛ للإشارة إلى أنّ الرَّشَد لا يصلُ إلّا إلى مَنِ اهتمَّ، وحرصَ، واجتهدَ في الوصول إلى الصواب، يُقال: تحرَّى عن الحدث: اجتهدَ في طلبه، ودقَّقَ، وبحثَ عنه باهتمام[2].

دلالة التعبير بالماضي ﴿تَحَرَّوۡاْ﴾:

تأكيدُ تحرّي الرشدَ وثبوتُ أثر الإيمان

التّعبير بصيغة الماضي ﴿تَحَرَّوۡاْ﴾ يدلُّ على أنَّ توخّيهم الرّشدَ، وقصدَهم إيّاه مجتهدين أمرٌ وقَعَ، وكَمُل، أي: من أسلمَ قد بلغَ حقيقة الرّشد بالفعل، وليس في طور السعي فقط، فالماضي في القرآن كثيرًا ما يُستعمل لتأكيد النتائج الثابتة، ممّا يشير كذلك إلى أنّ الإيمانَ يؤدّي حتمًا إلى الوصول إلى الرّشد.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿رَشَدٗا﴾:

الرّشدُ صوابٌ في الحقّ وقوّةٌ فيه واستقامةٌ عليه

في التّعبير بـ﴿رَشَدٗا﴾ دون (صوابًا)؛ لأنّ فيه مع الصوابِ القوةَ فيه والاستقامةَ عليه؛ فالرشدُ الهدايةُ والاستقامة[3]، على الطريقِ الحقّ مع تصلُّب فيه[4]، وهو خلافُ الغَيِّ[5]، ومِنْ ثَمَّ فاللفظ أنسبُ لحالهم في التّحرّي الذي هو الاجتهادُ في البحث عن الحقّ والثبات عليه.

نكتة تنكير ﴿رَشَدٗا﴾:

رشَدٌ عظيمٌ يُبلِّغُ المجتهدين في طلب الحقّ إلى دار الثوابِ

في تنكيرِ ﴿رَشَدٗا﴾ تعظيمٌ لهذا الصواب والحقّ[6]، أي: صوابًا عظيمًا وسدادًا كان - لما عندهم من النقائص - شاردًا عنهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 485.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حرو).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رشد).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رشد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رشد).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 236.

فعالجوا أنفسهم حتى ملكوه، فجعلوه لهم منزلًا، وكيف لا يكون عظيمًا، وقد كان لهم إلى الجنة سببًا[1].

دلالةُ التّعبير بالواو في قوله: ﴿وَأَمَّا﴾:

الجنُّ أحدُ فريقين مخلصون في إسلامهم، ومائلون عن طريق الحقّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ عاطفةٌ، جمعتْ بينَ موقفِ فئتين متقابلتين من الإسلام، وهما المسلمون والكافرون من الجنّ[2].

دلالةُ التّعبير بـ(أمّا):

كلُّ مَن ظلمَ، وجارَ عن الحقّ، فسبيلُه النّار

(أمّا) في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ حرفُ شرطٍ وتفصيلٍ، أفاد مع تفصيلِ حالِ الجنّ، تعليقَ الحكمِ بدخول النار بفعل الظلم، وأفادَ العموم بأنّ كلَّ مَنْ ظلمَ، وجارَ عن الحقّ، فسبيلُه النّار، وأبرزَ السّببية بينَ الإسلام والرُّشد.

وقد عدَلَ عن أنْ يقول في مقابلها: أمّا المسلمون؛ تفنّنًا في الكلام، وللإشارةِ إلى التمايزِ بين الفئتين، والانتقالِ إلى حالٍ مغايرةٍ، وهي حالُ أهلِ الكفرِ والجَوْر.

دلالةُ التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَكَانُواْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ واقعة في جواب الشرط غير الجازم[3]؛ ربطًا بين العمل وجزائه بأوجز عبارة، وفيه تناسب في التعبير بالاسمية في الطرفين، فالظلم منهم كان ثابتًا، والجزاء عليه كذلك ثابت أبدي.

دلالة التعبير بفعل الكينونة الماضي:

العذاب النفسي والحسيّ للكافرين في النّار مبالغٌ فيه

التّعبيرُ بفعلِ الكينونة الماضية؛ للدّلالة على تحقُّق الوقوع، أي: تَحقيق مَصيرِهم إلى النّارِ، حتَّى كأنَّهم كانوا كذلك مِن زمَنٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 485، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 45.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 243.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 243.

مَضى[1]، وإشارة إلى استقرار ذلك في علم اللّه، وفي هذا ما فيه من العذاب النفسي لهم، وهذه عادةُ القرآن في الحديث عمّا يكون من أحداثٍ يوم القيامة، وفي التّعبير بفعل (كانوا) - الذي يدلّ على الدوام والاستمرار - إشارةٌ إلى المبالغةِ في عذابهم في جهنم؛ إذ إنّ دخولَ فعل الكينونة على الجملة حوَّلَها إلى جملة اسميّة أفادتِ الثباتَ والدوام.

دلالةُ اللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾:

في استحقاقِ القاسطين النارَ مبالغةٌ في ترهيبهم وتهديدهم

اللامُ في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ لامُ الاستحقاق والاختصاص، وتُفيدُ أنّ القاسطين الظالمين الجائرين يستحقّون أنْ يكونوا وقودًا لجهنم، وأنّها أُعدّتْ لهم خصيصًا، وفي هذا من العذاب للكافرين والتخويف للمخاطَبين ما فيه، وقد عبّر بها القرآنُ دونَ الظّرفية (في)، فلم يقلْ: فكانوا في جهنّم؛ مبالغةً في إفادة المعنى رهبةً وتهديدًا، فمصيرهم ليس مجرّد دخول، بل هم جزءٌ من وظيفتها، وهو الإحراق.

سرُّ اختيارِ وصف جهنّم:

تناسبٌ مع مقامِ تجهُّم الكافرين على الحقّ وسياقِ الترهيب لهم

آثرَ البيانُ الحكيمُ اسمَ جهنم دون غيرها من الأسماء كالنار والجحيم؛ لكون (جهنم) اسم عَلَمٍ على النار، يشملُ كلّ ما وُصفت به النار، من الهاوية والمستعرة والمرصاد، وبئس المِهاد، والبعيدة القعر[2]، ولكون هذا الاسم أنسبَ للمقام؛ فجهنم تتلقى الجائرين عن الحقّ الكارهين له بالتجهّم والكراهة والعبوسة[3]، وهو أنسبُ لسياق الترهيب للكافرين.

بلاغة التشبيه في قوله: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾:

تحقيرُ شأن الكافرين وبيانُ شدّة عذابهم

في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ يخبرُ اللّهُ عن مصير القاسطين، وأنّهم سيكونون وقودًا لجهنم يوم القيامة، مشبهًا -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 237.

(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جهن)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جهنم).

(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 404.

تشبيهًا بليغًا حُذفت منه أداة التشبيه - حلولَ الكافرين في جهنم بحلولِ الحطبِ الذي لا يعقلُ في النار، وجاء ذلك تحقيرًا لشأنهم، ولكونهم السببَ في ضلال أنفسهم وضلالِ بني الإنسان بالوسوسة بدايةً من أبيهم إبليس، فعاقبهم بما يناسبُ ذلك بأن يكونوا الوقود التي توقدُ بها النار، بما يدلّ على شدّة عذابهم، فالنارُ توقد بهم، وهي في اتّقاد ما داموا أحياءً، لا يموتون، فيستريحون، ولا يحيون، فينتعشون[1].

نكتة تنكير ﴿حَطَبًا﴾:

عـددُ الكافرين كثيرٌ واحتراقهم مهولٌ

نكّر البيانُ الإلهيّ لفظَ ﴿حَطَبًا﴾، ولم يقل: (فكانوا الحطب لجهنم)؛ لإفادةِ معنى التكثير وزيادةِ التهويل والتحقيرِ، أي: عددهم كثيرٌ واحتراقهم مهولٌ، فهُم سببه.

سرُّ ذكر عقاب القاسطين دون ذكر ثواب المسلمين:

في ذكرِ ما يُحْذَرُ وطَـوْيِ ما يُحَبُّ تناسبٌ مع مقام الترهيب

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ في الآية الكريمة عقابَ القاسطين، ولم يذكرْ ثوابَ المسلمين؛ مراعاةً للمقام، وهو مقامُ الترهيب، فذكر ما يُحْذَرُ، وطوى ما يُحَبُّ؛ للعلم به؛ لأنّ اللّه لا يضيعُ أجرَ من أحسن عملًا، بل لا بدَّ أنْ يزيد عليه تسعة أضعافه وعنده المزيد[2]، أو أنّ الثواب ذُكِرَ بقولهم: ﴿تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾، أي: تحرّوا رشدًا عظيمًا لا يعلمُ كنهه إلّا اللّه تعالى، ومثل هذا لا يتحقَّقُ إلّا في الثواب[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 404.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 671.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ١٧﴾ [الجن: 16 - 17]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

انتقالٌ إلى نوعٍ آخر من الموحى به إلى رسوله

بعدَ أنْ ذكرَ اللّهُ تعالى في الآيات السابقة النوعَ الأولَ من الموحى به إلى رسوله، وهي أشياءُ عن الجنّ، رغّبَ من خلالها، ورهَّب على ألسنة الجنّ بما هداهم له، ونوّر قلوبهم به؛ ذكر تعالى النوعَ الثاني الموحى به إليه، فقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[1]، ولما كانت الآية السالفة آخر ما حكى عنهم، وهي: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ جاءتْ هذه الآية، وهي: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾؛ لتُقرِّرَ أنّ القاسطين لو آمنوا؛ لفُعِل بهم من الخير ما فُعل بمؤمني الجنّ حينَ آمنوا[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على اعتِدال الشَّيء واستوائه، يُقال: قامَ الشَّيءُ، واسْتَقامَ: اعْتَدَل، واسْتَوى[3]، واستقامَ العودُ: استوى، واستقامَ على الطريق: اهتدى، واستقامَ الإنسانُ: اعتدلَ في سلوكه، وكانتْ أخلاقُه فاضلة، والاستقامةُ: حقيقتها الاعتدال، وهي ضِدُّ الاعوِجاجِ، وهي مُستعملةٌ كثيرًا في معنى ملازمة الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بالاعوِجاجِ والالتِواءِ[4]، ومعنى ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أطاعوا[5]، والاستِقامَةُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672، والزحيلي، التفسير المنير: 29/ 170.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 486.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 273.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662.

عَلَى الطَّريقَةِ تَمثيلٌ لِهَيْئَةِ المُتَّصِفِ بِالسُّلوكِ الصّالِحِ والاعتِقادِ الحَقِّ بِهَيْئَةِ السّائِرِ سَيْرًا مُسْتَقيمًا عَلَى طَريقَةٍ[1].

2) ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾: الطَّريقُ: السَّبيل الَّذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ، وعنه استعيرَ كلُّ مسلكٍ يسلكه الإنسان في فِعْلٍ – محمودًا كان أو مذمومًا[2] – والطَّريقةُ: السّيرةُ والنَّهْج والأسلوب والمسلك والمذهب، وطَريقَةُ الرَّجُلِ: مَذْهبه، يُقالُ: ما زالَ فُلانٌ عَلَى طَريقة واحِدَةٍ، أي: عَلَى حالَةٍ واحِدَةٍ[3]، ومعنى الطريقة: الطَّريقُ: ولَعَلَّها خاصَّةٌ بِالطَّريقِ الواسِعِ الواضِحِ[4]، وهي كنايةٌ عن طريق الحقّ والخير، وهو طريقُ الإسلام[5].

3) ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم﴾: أصلُ (سقى): هو إشْرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ، تَقولُ: سَقَيْتُهُ بِيَدي أَسْقيهِ سَقْيًا، وأَسْقَيْتُهُ؛ إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا، والسِّقايَةُ: المَوْضِعُ الَّذي يُتَّخَذُ فيه الشَّرابُ في المَوْسِمِ[6]، والسِّقايَةُ أيضًا: الصّواعُ، وفي قَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، وهو الَّذي كانَ يَشْرَبُ فيهِ المَلِكُ[7]، والسَّقيُّ على فَعيلٍ: السَّحابَةُ العَظيمَةُ القَطْرِ[8]، والمقصودُ بقولِه ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم﴾: لوسّعنا عليهم في الرزق، وبسطناهم في الدنيا، وأعطيناهم مالًا كثيرًا[9].

4) ﴿غَدَقًا﴾: أصلُ (غدق) يَدُلُّ عَلَى غُزْرٍ وكَثْرَةٍ ونِعْمَةٍ، مِن ذَلِكَ الغدقُ، وهوَ الغَزيرُ الكَثيرُ[10]، وغدقَتِ العَيْنُ: فاضتْ، وكَثُرَ ماؤُها، والغَدَقُ: المَطَرُ الكَثيرُ العامُّ، والغَدَقُ أيضًا: الماءُ الكَثيرُ، وإنْ لَمْ يكُ مَطَرًا، وغدَقَ العيشُ: اتَّسعَ، ورغد[11]، ومعنى ﴿غَدَقًا﴾ في الآية كثيرًا طاهرًا مستمرًّا عظيمَ النفع يكثرُ به الرزق، وتُزيَّنُ به الأرض، ويرغدُ به العيش[12].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (طرق).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طرق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 16.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غدق).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير، وأحمد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (غدق).
(12) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 16.

5) ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾: أصلُ (فتن) يدلُّ على ابتلاءٍ واختبار، يقال: فتنتُ الذهب بالنار؛ إذا امتحنته، أي: أذبتها بالنار للتصفية أو للصوغ، واستعمله القرآن الكريم بمعنى الإحراق أو الإذابة المادية، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، وما ليس بمعنى الإحراق أو الإذابة المادية ممّا استعمله القرآن يدور معناه بين الابتلاء إيقاعًا أو تعريضًا للبلاء المحمول عن حالٍ أو موقف، وبين التحوُّل نفسه[1]، والمراد هنا بقوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾، أي: لنختبرهم، ونبتليهم[2].

6) ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾: أصلُ (سلك) يَدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، وسَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ، فانْسَلَك، أيْ: أدْخَلْتُهُ فيه، فَدَخَلَ، واللّه يُسْلِكُ الكفّارَ في جَهَنَّمَ، أيْ: يُدْخِلُهُمْ فيها، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقه، وقوله: ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ موافق للمعنى اللغوي، أي: يُدخله[3].

7) ﴿صَعَدٗا﴾: أصلُ (صعد) يَدُلُّ عَلَى ارتِفاعٍ ومَشَقَّة، والصَّعودُ: العَقَبَةُ الكؤودُ، والمَشَقَّةُ مِنَ الأمْرِ[4]، والصَّعَدُ: المَشَقَّةُ، وعَذابٌ صَعَدٌ، بِالتَّحْريكِ، أي: شَديدٌ، ويُقالُ: تَصَعَّدَهُ الأمْرُ؛ إذا شَقَّ عَلَيه، وصَعُبَ[5]، ومعنى ﴿صَعَدٗا﴾ هنا: شديدًا شاقًّا مؤلمًا موجعًا، لا راحةَ فيه، وقيل: هو جبلٌ في جهنم[6].

المَعْنى الإجماليُّ:

سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ في عبادِه النعمةُ جزاءُ الاستقامة

بيَّنَ اللّهُ تعالى سُنَّةً من سُنَنِه في عبادِه، فيقولُ: وأنْ لو استقامَ هؤلاء القاسطون على طريقة الحقّ والاستقامة؛ لوسعنا عليهم في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 16.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 249.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صعد).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 664، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 243.

الرزق، وبسطنا لهم في الدنيا؛ لنختبرهم فيه، ومن يُعرض عن ذِكر ربه الذي ذكره به، وهو هذا القرآن، أي: يعرضُ عن استماعه واستعماله، يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا لا يُطيقُه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَلَّوِ﴾:

في العطْفِ إبرازٌ لشموليّةِ الوحي

قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ عَطْفٌ على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وهو مِنْ جملةِ الموحَى إليه، والتقدير: (قل أوحي إلي أنّه استمع نفر، وأن لو استقاموا)، فيكون هذا هو النوع الثاني ممّا أوحي إليه[2]، وفائدةُ العطف إبرازُ شمولية الوحي، وأنّه لا يقتصرُ على خبرٍ حدثَ في الماضي مثل استماع الجنّ للنبي ﷺ، بل يتضمّن توجيهات وقواعد وسننًا ربانية.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾:

أمرٌ عظيمٌ وشأنٌ مهمٌّ مؤكّدٌ

لَمْ يقلْ سبحانَه: (ولو أنّهم استقاموا)؛ لكون ما عبّر به القرآن بقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أبلغَ وأعمقَ دلالةً من جهة التركيب النحوي، فلفظ: (ألَّو) مؤلَّفٌ من (أن) المخففة من الثقيلة المتّصلة بضمير الشأن أو القصّة، و(لو): حرفُ الشرط، ويدلّ ضمير الشأن على أمرٍ عظيم أو شأن مهمّ، يُلفت الانتباه إليه، ويؤكّده، ويُضخِّم معناه، والتقدير: وأوحي إليّ أنّ الشأن والحديث لو استقاموا على الطريقة؛ لأسقيناهم ماءً غدقًا[3]، وهذا بخلاف ما لو عبَّر بـ(لو أنّهم)؛ لأنّها جملةٌ شرطيّة مباشرة لا تتضمَّن ضمير الشأن، فلا تعطي القوّة التأكيدية ذاتها، ولا توحي بعظمِ الموضوع بالدرجة نفسها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 662، 664.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672.

إنذارٌ بأنّ الاستمرارَ على الاعوِجاجِ سببٌ في إمساك الله النعمة

تحقُّقُ بذلِ الجهدِ في الاستقامةِ والثباتِ عليها شرطٌ لنيل عطاءِ الله الوافر

إيحاءٌ بالمجاهدة والثباتِ في الاستقامة على طريقِ الحقّ

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشرطية:

جملة: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ شرطيّةٌ تفيدُ تعليقَ حكم سعة الرزق من الله على الاستقامة على طريقة الحقّ، وفي التعبير بها إنذارٌ بأنَّهم إنِ استَمَرّوا على اعوِجاجِ الطَّريقةِ أُمسِكَ عنهم الماءُ - وذلك على قولٍ - فيَقَعوا في القحْطِ والجوعِ، وهو ما حَدَثَ عليهم بعْدَ هِجرةِ النَّبيِّ ﷺ إلى المدينةِ ودُعائِه عليهم بِسِنِينَ كسِني يوسُفَ، فإنَّه دَعا بذلك في المدينةِ في القُنوتِ، وقدْ كانوا يومَ نُزولِ هذه الآيةِ في بُحبوحةٍ مِن العيشِ وفي نَخيلٍ وجنّاتٍ[1].

دلالة التعبير بالاستقامة مادةً وصيغةً:

لا يختارُ القرآن لفظًا إلّا لحكمةٍ مخصوصةٍ، وهنا آثرَ الفعل ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ دون (أقاموا)؛ لأنّ صيغةَ (استفعل) تُفيد الطلبَ والسَّعي الذاتي المستمرّ نحو الاستقامة والثبات، أي: يُشترَطُ في سلوك طريق الحقّ بذلُ الجهد، وتحمُّلُ المشقّة فيه، ومجيئه بصيغة الماضي - مع أنّ الحديثَ عن افتراضٍ أو شرطٍ مستقبلي - يفيدُ اشتراطَ تحقُّق وقوعِ هذا الجهد منهم لنيلِ عطاءِ اللّه الوافر.

وأمّا إيثارُ مادة (قَوَمَ) دون غيرها؛ فلم يقلْ: (وألّو أطاعوا، أو اهتدوا)؛ لكونها أوسعَ دلالةً، فهي تشملُ القيام والاعتدال والثبات والاستمرار والسير المستقيم، بلا انحرافٍ أو ميلٍ واعوجاج، فالإنسانُ قد يهتدي، لكنّه لا يستقيم، وقد يسلكُ الطريق، لكنّه يميلُ، أو يتعثّر.

دلالة التعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَى﴾:

يتعدّى الفعل (استقام) بعدّة حروف، وهي: (على وفي واللام)، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ آثرَ تعدية الفعل في الآية بـ﴿عَلَى﴾ دون غيرها؛ لكونها تفيدُ الاستعلاءَ والثبات والتمكُّن، وهذا يدلُّ

(1) صحيح البخاري: (1006)، وصحيح مسلم: (675).

على اشتراطِ الثبات والتمكُّن في الاستقامة على طريق الحقّ، أي: ثبتوا ثباتًا راسخًا، واستعلَوا على الصعوبات، وتمكّنوا من الالتزام بهداية الطريق، أي: لم يكونوا مجرَّد سالكين للطريق، بل متمكّنين منه، ثابتين عليه، لا ينحرفون، وفي لفظ ﴿عَلَى﴾ كذلك إيحاءٌ بالمجاهدة، أي: كأنّهم صعدوا على شيءٍ ثقيل أو صعب، وواجهوا مشقّته.

دلالة إسناد فعل الاستقامة إلى واو الجماعة:

الإيجازُ وإثراءُ المعنى وتوسيعٌ للدلالة

عبّر البيانُ الحكيم في قولِه: ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ بالإضمار دون الإظهار؛ لإثراء المعنى وتوسيعه؛ إذ أوحى الضمير بأنّ المراد لا يقتصرُ على الجنّ الذين استمعوا، بل يشملُ كلّ من عرف الطريق، وخوطب بالاستقامة من الإنس والجن، ولذا اختلفَ المفسرون في عود الضمير، فقيل: يعودُ على القاسِطينَ الذين تقدّم ذكرهم، ووصفهم، وقيل: يعودُ على الإنس، وهم المشركون؛ لأنَّ الترغيبَ بالانتفاع بالماء الغدق إنّما يليقُ بالإنس لا بالجن، وبخاصّة أنّ الآية نزلتْ زمنِ القحطِ بمكة والسورة مَسوقَةٌ؛ للتَّنبيهِ على عنادِ المُشْركينَ وطَعْنِهم في القرآنِ[1]، أو يعودُ على كلّ القاسطين من الإنس والجنّ[2]؛ لأنّ العلة - وهي الاستقامة - عامة، فيعمّ الحكم[3]، وفي التعبير بالضمير أيضًا إيجازٌ، فقد سبقَ ذكر الجنّ صراحة، وأُشيرَ إلى الإنس من خلال سياق السورة، التي تُعنى بالتنبيهِ على عنادِ المشركين من قريش وطعنهم في الوحي.

سر إفراد لفظ ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾:

طريقةٌ صحيحةٌ وحيدةٌ لا بديلَ عنها في الوصول إلى الفلاح

عبَّر البيانُ الحكيمُ في لفظ ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾ بالإفراد دون الجمع؛ للإشارة إلى أنّها الطريقة الوحيدة الصحيحة، "التي لا طريقةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 672.

غيرها، وهي التي فهمها الجنّ من القرآن من الإسلام والإقساط المؤدّية إلى الفلاح في الدارين"[1].

بلاغةُ الاستعارة التمثيلية:

الاستقامةُ في صورةٍ مرئيةٍ ومحسوسةٍ يفهمها العقلُ، ويشعرُ بها القلب

عبّر القرآنُ بلفظِ الطريقةِ في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾، بدلًا من ذكر الإسلام أو الإيمان؛ ليحقّق بلاغة التمثيل؛ إذ الاستقامةُ على الطَّريقةِ تَمثيلٌ لهَيئةِ المُتَّصِفِ بالسُّلوكِ الصّالحِ، والاعتقادِ الحقِّ، بهَيئةِ السّائرِ سَيرًا مُستقيمًا على طَريقةٍ؛ ولذلك جاء التعريف في ﴿ٱلطَّرِيقَةِ﴾ عامًّا للجنس، لا مقيّدًا بزمنٍ أو عهدٍ معين[2]، وفائدةُ هذا التمثيل تجسيدُ الاستقامة في صورة مرئية ومحسوسة يفهمها العقل، ويشعرُ بها القلب، فالطريقُ يوحي بالسير، والاستقامةُ فيه توحي بالثباتِ والانضباط.

دلالة اللام في قوله: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم﴾:

السقيا نعمةٌ موعودةٌ مشروطةٌ بالاستقامة

اللامُ في قوله: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم﴾ واقعة في جواب (لو)[3]، وهي تفيدُ توكيدَ أنّ الجملة التي بعدها هي الجوابُ الحقيقي للشرط، بما يدلّ على قوةِ الجواب وتحقيقه، أي: لو حصلتِ استقامتهم حقًّا؛ لكان السقيُ الغدقُ متحقّقًا لا محالة.

دلالة زيادة الهمزة في الفعل:

المبالغةُ في بيانِ عظيمِ فضلِ اللهِ بتهيئةِ أسباب النعمة

آثرَ البيانُ الحكيمُ التعبيرَ بالفعل المزيد بالهمزة ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم﴾ دون سقيناهم؛ لكونه أبلغَ في بيانِ عظيم فضلِ اللّهِ عليهم، فهو لم يجعلهم يشربون، أو يتنعَّمون بحسب ما يدلّ عليه الفعل المجرّد (سقى)، وإنما هيّأ لهم أسبابَ السقيا والنّعيم، ومكّنهم منها، وجعلها أكثرَ امتدادًا، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بالصيغةِ - التي تفيدُ التمكينَ - أنسبُ مع قوله: ﴿غَدَقٗا﴾، وهو غزارةُ الماء، ومع لفظ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 243.

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾؛ إذ الاختبارُ في التمكين بالنعمة أشدّ، وأما صيغة الماضي؛ فلإفادة تحقيقِ وقوعِ جواب الشرط؛ إذا ما تحقّق فعله.

فائدة إسناد الفعل إلى ضمير التعظيم:

عظمةُ العطاء من عظمةِ المعطي ﷻ

عبّر البيانُ الإلهي بنون العظمة في قوله تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم﴾؛ تعظيمًا لشأنِ العطاء، وتفخيمًا للماء الذي هو أصلُ الحياة ومنبعُ كلّ خير؛ ليُفهم أنّ هذا السقْي ليس مجرّد ماء، بل عطاءٌ عظيم صادرٌ عن عظمة إلهية، فهو ماءٌ كثير، عظيمٌ النفع، جزيلُ البركة، كريم المصدر[1].

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿مَّآءً غَدَقٗا﴾:

تصويرٌ بديعٌ للعطاءِ الإلهي الوفير

أخبرَ القرآن الكريم عمّا أعدّه اللّهُ تعالى للجنّ من وفرة المنافع، ورغدِ العيش، وسعةِ الرزق؛ إنْ هم استقاموا على طريق الهداية، لكنّه كنّى عن ذلك كلّه بلفظٍ واحدٍ جامع، هو (الماء الغدق) في قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾؛ إذ عبّر بالماء - لا بلفظِ الشرب أو اللبن أو العسل - لأنّ الماءَ أصلُ المعاش، ومصدر الرزق، وأساسُ كلّ خير، كما قال تعالى في شأن قوم نوح: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾ [نوح: 11]، ولأنّه قوامُ الحياة، ومنه كلّ شيء حيّ، فضلًا عن كونه عزيزًا نادرًا في بيئة العرب[2]، مما يجعلُ التعبيرَ به أبلغُ في إثارةِ الرغبة، وأقوى في الحثّ على الاستقامة، لِما فيه من تصويرٍ بديعٍ للعطاء الإلهي الوفير.

نكتة تنكير لفظ ﴿مَّآءً﴾:

تنكيرٌ يثيرُ التشويقَ ويدلُّ على التفخيم

تنكيرُ لفظِ ﴿مَّآءً﴾ للتعظيم والتفخيم، فهو ماءٌ عظيمُ الشأن، ليس كأيّ ماء، ولكونه أنسبَ مع معنى الغدق، الذي يفيدُ الكثرةَ المستمرة الواسعة، وللتشويق والإبهام المقصود، فالتنكيرُ يفتح باب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 45.

التصوُّر عند السامع، أيُّ ماءٍ هذا؟ كم هو؟ ما صفته؟ كيف هو؟ ثم يأتي الجواب مباشرة في لفظ ﴿غَدَقٗا﴾، أي: كثيرٌ متدفّق، فكأنّ التنكيرَ هنا وسيلةٌ بلاغية؛ لإثارة الانتباه ثم تفصيل الصفات.

سرّ وصف الماء بلفظ ﴿غَدَقٗا﴾ منكّرًا:

مبالغةٌ في بيان سعةِ الرزق ووفرته لمن استقامَ على طريق الحقّ

وصَفَ البيانُ الحكيم الماء بـ﴿غَدَقٗا﴾ دون (كثيرًا)؛ مبالغةً في بيانِ سعةِ الرزق ووفرته لمن استقامَ على طريقِ الحق؛ لكون الغدقِ أوسعَ دلالةً، فهو يعني الماء الوفير، الدائم، الكثير، الواسع، المتدفّق، أي: كثيرًا عظيمًا عظيمَ النفع نكثّر به الرزق، ونزيّن به الأرض، ونرغّد به العيش[1]، ولكون لفظ الغدق أنسبَ للفظ الماء، بخلاف لفظ (كثير)، فيقالُ للماء وغيره، وقد جاء منكرًا لا معرّفًا باللام، فلم يقل: (الماء الغدق)؛ مبالغةً في التعظيم والتفخيم والتكثير، فهو نوعٌ فريدٌ من الغدق والوفرة، لا كأيّ ماء.

دلالة اللام في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾:

تذكيرُ القلوب بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ امتحانٌ وفتنةٌ

اللامُ في قوله تعالى: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ للتعليل[2]، وقد تناسبَ التعليلُ بالافتتانِ مع الجُملةِ السّابقةِ، وهو قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾؛ إذ يكونُ تعليلًا لِما تَضمَّنَه معْنى إدامةِ الإسقاء، فإنَّه تَعليلٌ للإسقاءِ الموجودِ حينَ نُزولِ الآيةِ، وليس تَعليلًا للإسقاءِ المفروضِ في جَوابِ (لَو)؛ لأنَّ جَوابَ (لَو) مُنتَفٍ، فلا يَصلُحُ لأنْ يُعلَّلَ به، وإنَّما هم مَفْتونونَ بما هم فيه مِن النِّعمةِ، فأراد اللّهُ أنْ يوقِظَ قُلوبَهم بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ عليهم فِتنةٌ لهم، فلا تَغُرَّنَّهم[3].

سر التّعبير بالفتنة دون الاختبار:

الفتنةُ أشدُّ الاختبارِ وأبلغه

التعبيرُ بالفتنة دون الاختبار في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾؛ للإشارةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 487.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 243.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 238 - 239.

إلى خطورة الدّنيا وسعةِ الرزق وخطورة الغفلة بسببهما وأثرهما في الافتتان، فالنعمةُ قد تكون سببَ الهلاك؛ وذلك ليكون منها على حذر؛ لأنّ الفتنةَ تشملُ الإغراء بالنعمة، لا مجرّد الامتحان، وهل سيؤدي الإغراء بها إلى الطغيان أو الشكر؟ فهي أدقُّ في هذا السياق، فضلًا عن أنّ لفظَ الفتنةِ أوسعُ دلالةٍ، فإنّها تأتي بمعانٍ متعدّدة، منها: البلاء، الابتلاء، الإغراء، الإضلال، التمحيص، فالفتنةُ أشدُّ الاختبار وأبلغه.

دلالة التعبير بالمضارع في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾:

استمرارية التحذير من الافتتان بالدنيا

التعبيرُ بالمضارع في ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾؛ للدلالة على استمرارِ أثرِ النعمة في الافتتان، وعلى أنّ الامتحان في هذه الدنيا مستمرٌّ لا ينقطع، وفي ذلك مزيدُ تحذيرٍ من الافتتان بالدنيا وزهرتها.

دلالة التعبير بنون العظمة في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾:

تخويفٌ إلهيٌّ لتكون سعةُ رزقه سببًا للشكرِ لا للكفر

في التّعبير بنون العظمة في قوله تعالى: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ﴾، مزيدٌ من التخويف للمخاطَبين؛ ليكونوا على تنبُّهٍ وحذرٍ دائمين من أنّ تكون سعةُ الرزق سببًا للطغيان لا للشكران، كما أنّ في هذا التعبير بيانًا لقدرة اللّه تعالى في معاملتهم معاملةَ المختبر، فيما يُغدقه من رزقٍ؛ لينكشفَ حالُ الشاكر والكافر[1].

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾:

بين الوعد والوعيد تذكيرٌ بامتحان النعمة

جُملةُ: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ إدماجٌ، فهي مُعترِضةٌ بيْنَ جملةٍ تُعبِّر عن وعدٍ إلهيّ بوفرةِ النعم وسعةِ الرزق، لو أنّ الجنّ استقاموا على طريق الهداية، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾، وبيْنَ جُملةٍ تُعبِّرُ عن وعيدٍ وتحذيرٍ صارمٍ من عاقبة الإعراض عن ذكر اللّه وطاعته، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

﴿ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾[1]، فجُملةُ: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ تربطُ بين الوعد والوعيد، وتُبرزُ جانبَ الامتحان في استمرار النعمة، وتُحذِّرُ من أنّ هذه النعمة قد تكون سببًا في الانحراف والطغيان.

دلالة التعبير بحرف الظرفية (في):

في كون النعمة بيئةً حاضنةً للفتنةِ تنبيهٌ من الغفلة

(في) حرفُ جرّ يفيدُ الظرفيّةَ، والمعنى: لنجعلَ الماء الغدق - أي: السعةَ في الرزق - ظرفًا يقعُ فيه الابتلاء والاختبار، فالنعمةُ نفسها (الماء الغدق) هي البيئة الحاضنة للفتنة، لا أداة خارجية عنها، وفي هذا إنذارٌ لهم، وتنبيهٌ حتى لا يقعوا في الغفلة، أو يبقوا فيها.

دلالة الإضمار في قوله: ﴿فِيهِۚ﴾ دون الإظهار:

الإضمارُ اختصارٌ بلا غموض

عبّر البيانُ الحكيم بالضمير دون الاسم الصريح، فلم يقل: (لنفتنهم في الماء الغدق)؛ لتحقيق الإيجاز مع ظهورِ المعنى، فلا حاجة لإعادة الاسم: ﴿مَّآءً غَدَقٗا﴾؛ لأنّ السامعَ قد علمه مسبقًا من الآية السابقة، والمعنى: لنفتنهم في ذلك الماء الذي تكون عنه أنواع النعم[2].

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ﴾:

تباينٌ في الجزاء بين حالتين متقابلتين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ عطفٌ، والمعطوفُ عليه محذوف، والتقديرُ: لنفتنهم فيه، فمَن يُقبلْ على ذكرِ ربه ننعّمه في دار السلام أبدًا، ومن يُعرضْ نسلكه عذابًا[3]، وفائدةُ العطف التعبير عن التباين بين جزاءين لحالتين متقابلتين، وهما: حالة مَن يُقبلُ على ذكر اللّٰه، فيُنعَم عليه بدار السلام، وحالةُ مَن يعرضُ عن ذكر اللّٰه، فيُمسك بالعذاب.

سر التعبير بـ(مَنْ) الشّرطيّة:

العذابُ الصَّعَدُ مترتّبٌ على فعلِ كلّ من يُعرضُ عن الحقّ

عبّرَ البيانُ الحكيم لفظ (مَنْ)؛ لكونه يشملُ مع العموم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 239.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

الشرطية، فهو اسمٌ يشملُ كلّ من يُعرض عن ذكر اللّه إنسيًّا أو جنيًّا، عربيًّا أو أعجميًّا رجلًا أو امرأة، وهو اسم شرط جازم يفيدُ أنّ العذابَ الصَّعَدَ مترتّبٌ على فعل الإعراض، وأيضًا فإنّ الأسلوبَ الشرطي يجذبُ الانتباه، ويُهيّئ النفسَ لنتيجةٍ خطيرةٍ.

سرُّ التّعبير بالإعراض مادّة وصيغة:

بيانُ سوءِ حالِ مَنْ يستحقُّ عذابَ اللهِ الشديد

عبّر البيانُ الحكيم بلفظ الإعراض بدلًا من التولّي؛ ليُبيّن سوءَ حال من يستحقّ عذاب اللّه الشديد؛ إذ إنّ الإعراضَ يعني الانصرافَ الكامل عن الذكر، سواء بالقلب أو بالجسد، بمعنى تخطّي الموعظة والعبادة كليًّا، ومع أنّ الإعراض يشتركُ مع التولي في تركِ السلوك، إلا أنّ حال المُعْرِض أسوأ؛ لأنّه لا يعودُ بسهولة، بخلاف المتولي الذي إذا ندمَ؛ يسهل عليه الرجوع، أمّا المعرض؛ فلا يُرجى عودته إلا بطلب جديد[1]، والإعراض يجمع بين الانصراف، والصدّ، والرفض، والإهمال، والتّرك، مع التّجاهل وعدم الاكتراث، مما يبيّن قساوةَ موقفه في الآخرة، والتعبير بصيغة المضارعة؛ لإفادة الاستمرار في الإعراض والإصرار عليه حتى يستوجبَ العذابَ الشاقّ، فلو أعرضَ، ثم تاب إلى اللّه، فلا يستحقّ هذا العذاب، والمعنى: من يعرضْ إعراضًا مستمرًّا إلى الموت[2]، ومن هنا فما تفيده المضارعة أنسبُ مع مقام التحذير.

دلالة تعدية فعل الإعراض بـ﴿عَن﴾:

ابتعادٌ تامٌّ عن الحقّ يكشفُ قبحه وشدّة استحقاقِ العذاب عليه

يدلُّ حرفُ الجر ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ على المجاوزة، وهو الأصل فيها، أي: من يُعرضْ مجاوزًا عن عبادة المحسن إليه المربي له[3]، والتعدية بـ﴿عَن﴾ مع فعل (أعرض) تدلّ على الانصراف والابتعاد والانفصال التامّ

(1) تفسير الراغب: 1/ 247، والكفوي، الكليات، ص: 28.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

عن الشيء بعد العلم به، وهذا يشيرُ إلى سوء حال المُعرضين واستحقاقهم العذاب الشديد.

سرُّ التَّعبير بالذكرِ في قوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾:

الانـصـرافُ عن ذِكر الربّ إعراضٌ عـن الـدّيـن كلّه جملةً وتفصيلًا

آثرَ البيانُ الإلهيُّ اختيارَ لفظ ﴿ذِكۡرِ﴾؛ لكونه أوسعَ دلالةً؛ فهو يشملُ العبادةَ بكلّ صورها، والموعظةَ التي توقظ القلوب، والوحي المُنزَل بما فيه من أحكام وهدايات، والمعنى: ومَن يُعۡرِض عَن عِبادَة ربه، أو عَن مَوعِظَتِهِ، أو وحيِهِ؛ نسلكه عذابًا صعدًا[1]، فكأنّ من يُعرض عن ذِكر ربّه قد أعرضَ عن الدين جملةً وتفصيلًا، قلبًا وقالبًا، ولذا استحقّ هذا العذاب الشّديد.

سرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

تعظيمُ حالِ ذكر الـلـه والـعـنـايـةِ بحقه

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ عَدَلَ البيانُ الحكيمُ إلى الإظهار، فلم يقلْ: (عن ذكرنا أو عن ذكري)؛ لزيادةِ توكيدِ إسناد الأمر للّه، ولتعظيمِ حال الأمر المُظهر والعناية بحقّه، ولاقتضاء الحال، والإيماء إلى وجهِ بناء الخبر، فإنّ المعرضَ عن ربّه المنشئ له، المدبّر لأمره، المحسن إليه، المربي له، الذي لا إحسان عنده من غيره، جديرٌ بأنْ يسلكَ عذابًا صعدًا[2].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ الربوبية مضافًا إلى الضمير:

مـــن دلائـــل سـوءِ المعرضين إعـراضـهـم عن شـكـرِ المحسن إليهم المربي لهم

اختيارُ البيانِ القرآنيِّ التّعبير بلفظ الربوبيّة دون الألوهية، في قوله: ﴿ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾، وأضافته إلى ضمير المعرضين عن ذكر اللّه، فيه لفتةٌ مهمّة؛ لأنّ الربوبيّة فيها معنى الرَّحمة والتَّربية والإشعار باللطف والإحسان والعطاء، وهذا يظهر سوءَ حال المعرضين الذين يعرضون عن عبادة اللّه وموعظة الوحي المنزَل من المحسن إليهم المربي لهم، الذي لا إحسان عندهم من غيره[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 45.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 488.

دلالة التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ مادّة وصيغة:

تصويرُ العذابِ الملاصقِ المتكرّر الذي لا انفكاكَ منه ولا مفرَّ

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ آثرَ البيانُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالسَّلْكِ دون الإدخال؛ ليكون استعمالُ السَّلْكِ - وحقيقته الإدخال - في معنى شدّة وقوع الفعل من باب الاستعارة، والمعنى: ندخله عذابًا ملاصقًا له لا مصرف عنه[1]، بحيث يكون المُعَذَّبُ فيه مظروفًا، كالخيط في ثقبِ الجوهرة في تقوُّمه ونفوذه من غير أدنى تعريج إلى غير المراد[2]، ويؤيّد هذا المعنى وصف العذاب بالمصدر في قوله: ﴿صَعَدٗا﴾، والتَّعبيرُ بصيغةِ المضارعةِ ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾؛ للدلالةِ على الاستمرار والتّجددِ، أيّ: إنَّ السّلوكَ في العذاب ليس لحظةً واحدةً، بل ممتدٌّ ومتجدِّد، ومجيئها في جواب الشرط يُفيد وعيدًا دائمًا لا يُنقَض، كأنّ الله يقول: هذا ما يكون لكلِّ معْرِضٍ في كلّ زمان، ولإفادةِ التّصوير الحيّ الحاضر، كأنّك ترى العذابَ يقعُ الآن في هذه اللحظة، فيزيد الإحساس بهول المشهد.

سرُّ مجيء الفعل ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ متعدّيًا بنفسه:

تـصـويرٌ نفسيٌّ لشدةِ العذابِ الذي لا يُفارق

جاء فعل الإسلاك متعديًا إلى مَفعولين: إمّا بحذْفِ الجارِّ وإيصالِ الفِعلِ، وإمّا بتَضمينِه معنى: (نُدخِلْه)[3]، ولم يقلْ سبحانه: (يسْلُكْه في عَذابٍ)، كقولِه: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾ [المدثر: 42]؛ لأنَّ البيانَ الحكيمَ لم يذكرْ مكانَ العذاب كسقر أو النار، بل ذَكَر العذاب نفسه، كأنّه شيء يُسلَك للمُعْرِض عن ذكرِ ربّه مباشرة، فالتعديةُ المباشرة أقوى في التصوير النفسي لشدّة العذاب الذي لا يُفارق، بل يَسلكه بكلّ كيانه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 239.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 502.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 629.

توجيه القراءات في قوله: ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾:

المصيرُ الأليم واقعٌ للسامع إنْ كفرَ سواءٌ كان حاضرًا أو غائبًا

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ بياء الغائب، والضميرُ المستتر يعودُ إلى ﴿رَبِّهِۦ﴾، وقرأ الجمهور ﴿نَسۡلُكۡهُ﴾ بنونِ العظمة على الالتفات من الغَيبة في قوله: ﴿يُعۡرِضۡ﴾ إلى المتكلم في قوله: ﴿نَسۡلُكۡهُ﴾[1]؛ إذ مقتضى الكلام أن يقول: (يسلكه)[2]، والغرضُ من ذلك أن يبيّن للسامع أنّ هذا المصير الأليم واقعٌ للسامع؛ إنْ كفر، سواء كان حاضرًا أم غائبًا، وأنّ في الغَيبةِ إعراضًا عن مخاطبته لسوءِ صنيعِه، وفي الخطابِ توبيخًا وتخويفًا شديدًا له بالمواجهة.

سرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿عَذَابٗا﴾ ومجيئه منكرًا:

تهديدٌ بإيجاعٍ شديدٍ عظيمٍ لا يُطاق

العَذابُ هو الإيجاع الشَّديد[3]، والنَّكالُ والعُقوبَة[4]، وهذا أنسبُ لمقامِ التّهديد ووصف العذاب بـ﴿صَعَدٗا﴾، الذي يدلّ على الشدّة المتزايدة، والمشقّة المستمرة، بخلاف العقاب الذي قد يُفهم منه أنّه جزاءٌ عادل على ذنبٍ محدّد، وفي هذا من التهديد والتخويف ما فيه.

وقد جاء نكرةً؛ لإفادة التعظيم والتفخيم والعموم لا التخصيص، فهو عذابٌ عظيمٌ لا يُطاق، وليس عذابًا معيَّنًا معروفًا لدى السامع، بل عذابٌ شديدٌ، غيرُ محدّدِ الشّكل أو المكان، مجهولُ التفاصيل، واسعُ التأثير، عامّ وشامل.

سرُّ وصف العذاب بلفظ ﴿صَعَدٗا﴾ منكرًا:

عذابُ المعرضين شدّته متزايدةٌ ومشقّته مستمرةٌ

وصَف القرآنُ العذاب في قوله تعالى: ﴿عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ بلفظ المصدر ﴿صَعَدٗا﴾؛ للمبالغة؛ لأنّه يتصعّد المعذّب، أي: يعلوه، ويغلبه، فلا يُطيقه[5]، ولكون ﴿صَعَدٗا﴾ أوسعَ دلالةً، فهو يجمعُ مع المشقّةِ

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 392.

(2) ابن عادل، اللباب: 19/ 429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.

(3) الراغب، المفردات، ص: 554.

(4) الزبيدي، تاج العروس: (عذب).

(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 370.

الشدّةَ والارتفاعَ والغلبةَ[1]، والمعنى: (نسلكه عذابًا شاقًّا شديدًا لا راحة فيه يعلوه، ويغلبه، ويصعد عليه، ويكون كل يوم أعلى ممّا قبله جزاء وفاقًا، فإن الإعراضَ كلَّما تمادى زمانه؛ كان أقوى مما كان)، وهذا مناسبٌ للوعيد الوارد في الآية لمن أعرضَ عن ذكر اللّه، وقد أفادَ تنكيره تهويلَ شأن هذه المشقَّة الشديدة المؤلمة التي لا راحةَ فيها، والتي وُصف العذاب بها.

توجيه المتشابه اللفظي بين هذه الآية وآية سورة طه:

الإعراضُ عن الذكر بين العذاب الأخروي والضيق الدنيوي

تشابهتْ هذه الآية: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾، مع قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: 124]، فكلتاهما تتحدثان عن عاقبةِ الإعراض عن ذكر اللّه، وهي الضيقُ والشدّة والمعاناة، سواء في الدنيا أو الآخرة، معتمدة على الأسلوب الشرطي، إلا أنّهما اختلفتا في نوع العقوبة، ففي سورة الجن - التي تتناول موقف الجنّ من القرآن والإيمان والتكذيب - تمّ التركيز على العاقبة الأخروية، فكان التهديدُ بالعذاب الصعد شديدًا ومناسبًا لتصويرِ ما ينتظر المكذّب المعرض يوم القيامة، أمّا في سورة طه؛ فتدورُ الآية في سياق الحديث عن الوحي لآدم، وبيان أثر مخالفة الهدي الرباني في الحياة الدنيا، فجاء التركيزُ على المعاناة والضيق في المعيشة، التي تنبعُ من الانعزالِ عن منهج اللّه، فكان وصفُ المعيشة بالضنك، وأنّه لا بركة فيها ولا طمأنينة؛ لأنّ من أعرضَ عن ذكر اللّه كان كالأعمى عن الطريق، فالاختلاف في نوعِ العقوبة والتعبير عنها يعود إلى التناسب مع سياقِ كلّ سورة وموضوعها العام، فالعذابُ الصعد يناسبُ العقوبة الأخروية المكثفة، والضيقُ في المعيشة يعبّر عن العقاب الدنيوي لترك الهدي الإلهي.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّقيا والشُّرب:

السقيا تكونُ من الآخر، أي: لا يكون الفاعل ذاتيًّا، فأصلُ السقيا: إشْرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ، تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أَسْقيهِ سَقْيًا[1]، أمّا الشربُ؛ فيكون ذاتيًّا، أي: فعل الشرب قد تمّ من الشخص ذاته، تَقولُ: شَرِبْتُ الماءَ أشْرَبُهُ شَرْبًا، وإذا قامَ به غيره؛ أضيفتْ له همزة التعدية، كقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ﴾ [البقرة: 93]، ويُقالُ: شَرِبْتُ الماءَ، وأُشْرِبْتُه أنا؛ إذا سُقيتُه[2]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ السقيا أنسبَ؛ إذ الفاعلُ للسقيا هو اللّهُ تعالى، وهذا فيه امتنانٌ منه سبحانه؛ إذ يجازي من استقامَ على الطريقة بالسقيا والعطاءِ والإنعام.

السقيا تكون من الآخر، والشربُ يكون ذاتيًّا

الفتنة والاختبار:

الفتنةُ أشدُّ الاختبار وأبلغه، فأصلُ الفتنةِ من عَرضِ الشيء على النار لتظهرَ جودته من رداءته، واستُعملتْ؛ لتمحيصِ حقيقة ما في القلوب، وتكون في الخير والشرّ، وقد ورد لفظُ الفتنة في الاستعمال القرآني على عدّة وجوه فضلًا عن معنى الابتلاء والاختبار، منها: (العذاب، والشرك، والكفر، التعذيب والتحريق، والحيرة والضلال...)، فدلالات الفتنة أوسعُ من دلالات الاختبار، وفي قوله تعالى هنا: ﴿لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ جعل النعمة فتنة؛ لأنّه قصدَ بها المبالغة في اختبار المنعَم عليه بها كالذهب إذا أُريدَ المبالغة في تعرّف حاله أُدخِلَ النار، واللّهُ تعالى لا يختبرُ العبدَ لتغيير حاله في الخير والشر، وإنّما المراد بذلك شدّةُ التكليف[3].

الفـتـنـةُ أشـدُّ الاختبار وأبلغه في الخير والشرّ

الإعراض والتولي:

الإعراضُ: تجاهلٌ وعدمُ اكتراث، أَعْرَضَ عَن فُلانٍ، وأَعَرَضَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سقى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (شرب).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396 - 397، والراغب، المفردات: (فتن).

التولّي إدبارٌ وانصرافٌ كاملٌ، والإعراضُ تجاهلٌ وعدمُ اكتراث

بِوَجْهِهِ: كأنّه انحرفَ عنه، وولّاهُ عُرْضه، أي: جانبه، أو عارِضَه، ووَلّاهُ عَرْضَهُ: أدارَ ظهرَه له غيرَ مكترثٍ أو مهتمٍّ به، وصدَّ عنه، وتجاهله، وجفاه[1]، في حين أنَّ حقيقةَ التَّوَلّي: الإدبارُ والذهابُ والانصراف[2]، والتّولّي إذا عُدّي بعن لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وتركِ القرب[3]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الإعراض مع السياق الذي يتحدّث عن عاقبةِ من ينحرفُ، ويتجاهلُ، ويديرُ ظهره لذكر ربّه غير مكترثٍ ولا مهتمّ به.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عرض).
(2) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ولى).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ولي)، والكفوي، الكليات، ص: 28.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تتابعُ الموحى به من الوعيد إلى تعظيم المساجد

لمّا سبقَ ذكر جُملٍ ممّا أوحى اللّه لنبيه ﷺ؛ أعقبَ بذكر جملةٍ أُخرى من الموحى به، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدْعُوا۟﴾: أصلُ الدّعاءِ هو أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إليك بِصَوْتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[1]، ومعناه المحوري: جذبُ الشيءِ، أو محاولةُ ضمّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، ومنه الدعاءُ بمعنى التضرّع إلى اللّه ﷻ في طلبِ أمر، والرَّغْبَةُ إلى اللّه تعالى فيما عندَه مِن الخيرِ والابتِهال إليهِ بالسُّؤالِ، والدعاءُ: العبادة؛ لأنّ العبادةَ تَقرُّبٌ إلى المعبودِ، واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به[2]، وهذا المعنى الأخير هو المراد في الآية، أي: معنى ﴿لَّا تَدْعُوا۟﴾: لا تعبدوا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إعلانٌ بأنّ المساجدَ أعظَمُ محالِّ العبادةِ، وأنّها مَبنيّةٌ على الإخلاصِ لله

يقول تعالى ذكره لنبيه محمّد ﷺ قل: أوحي إليّ أنَّ جميعَ المساجِدِ الّتي هي بيوتٌ لِعبادةِ اللّهِ تعالى هي للّه تعالى وحْدَه، فلا تَدْعوا أيها الناس مَعَ اللّه أحَدًا، ولا تشركوا به فيها شيئًا، ولكن أفردوا له التوحيد، وأخلصوا له العبادة[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التأكيد بـ(أنَّ):

توكيدُ استحقاق المساجد لله وحده

التعبيرُ بلفظ (أنَّ) وبالجملة الاسمية يفيدُ توكيدَ استحقاقِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(2) الزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دعو).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 253.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 665.

المساجد لله وحده واختصاصها به سبحانه، فما كان بناؤها إلّا لعبادته وحده، وفي هذا التوكيد تعريضٌ بالمشركين وما كانوا عليه من عبادة غيرِ الله في المسجد الحرام، ونصب التماثيل والأصنام(1).

سرّ التعبير بالمساجد دون بيوت الله:

شـمـولـيَّـةٌ في مواضعِ العبادةِ والـسـكـيـنـةِ الـنـفـسـيـةِ الجسديةِ

اختارَ البيانُ الحكيمُ لفظ ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾ بدلًا من (بيوت الله)؛ ليشملَ بذلك جميع أماكن السجود، سواء في العالم الخارجي على الأرض، أو في البُعد النفسي والروحي داخل الجسد، كما أشارَ إلى ذلك سعيد بن جبير وطلق بن حبيب(2)، وأمّا لو اختيرَ لفظ (بيوت الله)؛ لاقتصرَ المعنى فقط على المباني المخصّصة للعبادة، دون شمولية الأماكن الروحية.

دلالةُ التَّعبير بالجمع في ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾:

الـجـمـعُ في (المساجد) بين عمومِ الوعيد وتعظيمِ الحرم الشريف

بناءً على القولِ: إنَّ المرادَ من لفظ ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ هو المسجدُ الحرام، يكون التعبير عن المفرد بالجمع في الآية؛ لإفادة العموم، فيدخل كلُّ من يفعل مثل فعل المشركين في الوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾ [البقرة: 114]، ويمكن أنْ يكون الجمعُ لتعظيمِ المسجد الحرام، فهو قبلةُ المساجد(3)، ولأنَّ كلَّ ناحيةٍ منهُ مسجدٌ له قبلةٌ مخصوصةٌ(4).

دلالة تعريف ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾:

المساجدُ كلُّها لله بين عمومِ التوحيد وتشريفِ الحرم

الألف واللامُ في لفظِ ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، إمّا جنسيّةٌ، أيْ: جنسُ المساجدِ، سواء قُصِدَ بها مواضع

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 334.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 489.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 629.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 46.

السجود، وهي المواضعُ والبيوت التي بُنيتْ للصلاة والعبادة وذكر الله[1]، أو جنس الأعضاء التي يُسجد بها لله، والجنسيّةُ أنسبُ للسياق الذي فيه التحذير من دعاء غير الله في أيّ موضعِ عبادة[2]، أو عهديّةٌ، أي: المساجد التي كانوا يتردّدون عليها، وهي هنا المسجد الحرام؛ لأنَّ المشركينَ كانوا وضعوا فيه الأصنام والأنصاب، وجعلوا الصنم (هبل) على سطح الكعبة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: 114]، يعني بذلك المشركين من قريش[3].

سر تخصيص ذكر المساجد مضافًا لنفسه سبحانه:

المساجدُ رمزُ العبادة الخالصة لله وحده دون غيره

ذكرَ البيانُ القرآني المساجد دون غيرها، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾؛ لكون المساجد هي رمزُ العبادة الخالصة، فهي الأماكن المخصصة لتوحيده وذكره وعبادته سبحانه؛ ولهذا أضافها لنَفْسِه؛ تشريفًا لها، وللدلالة على اختصاصها به وحده، وتنزيهها عن الشرك، وعن غيرِ العباداتِ، مِنَ البَيعِ، والخُصوماتِ، وإقامةِ الحُدودِ.

دلالة اللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾:

المساجدُ مختصةٌ بالله تعالى، فلا شريكَ له فيها

اللامُ في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ للملكِ والاختصاص والاستحقاق، والمعنى: وأنّ المساجدَ مختصَّةٌ بالله تعالى[4]، وأنّ اللهَ مستحقها دون الأصنام والأوثان، فمن وضعَ الأصنامَ في مساجدِ الله؛ فقد اعتدى على الله، فالمساجدُ لا يصلحُ فيها إلّا عبادةَ الله تعالى وحده دون سواه[5].

سرُّ التّصريح بالاسم الجليل ﴿لِلَّهِ﴾:

الاسمُ الجليل في سياقِ التوحيد والاختصاص بالعبادة

آثرَ البيانُ القرآني التعبير بالاسم الجليل الجامعِ لصفات

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 665.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 673 - 674، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 489.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 489.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 102، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.

الجلال والكمال؛ لأنَّ السياقَ حديثُ هيبةٍ وجلالٍ وملكٍ واستحقاقٍ إلهي للعبادة في المساجد - التي هي أشرفُ بقاع الأرض وأعظمها - لا لأصنامهم، فالمساجدُ مختصَّة بالملك الأعظم[1]، الجامع لجميع صفات الألوهية الذي لا يُعبد بحقٍّ إلا هو، ولذلك صرّح في الآية ذاتها كذلك بالاسم الجليل، فقال: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾.

دلالة التعبير بالفاء في قوله: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾:

اختصاصُ المساجد لله تعالى لا ينبغي أن يُعبد فيها أحدٌ سواه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ تفريعيّة؛ إذْ فرّعَ على اختِصاصِ كَونِ المساجِدِ للّهِ النَّهي عن أن يَدعوَ المشركون مع اللّه أحَدًا، وهذا إلزامٌ لهم بالتَّوحيدِ بطَريقِ القَولِ بالموجَبِ؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّهم أهلُ بَيتِ اللّهِ، فعِبادتُهم غيرَ اللّهِ مُنافيةٌ لزَعْمِهم ذلك[2]، وعلى القول بحذف لام جرٍ قبل (أنَّ)، وأنّ المجرور مقدّمٌ على متعلّقه للاهتمام، والتقدير: فَلا تَدْعوا مَعَ اللّه أحَدًا في المَساجِدِ؛ لأنَّها للّه خاصَّةً ولِعِبادَتِه، تكون الفاء سببية[3].

دلالة النهي في قوله: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾:

تحريمُ عبادةِ غير الله ودعائِه مطلقًا وبشكل أخصّ في المساجد

دلّ النهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ﴾، على تحريم عبادةِ غير اللّه ودعائِه مطلقًا، وبالأخصّ في المساجد، وهو نهيٌ عن كلّ أنواع الشرك، وفيه توبيخُ المشركين في دعواهم مع اللّه تعالى غيره في المسجد الحرام، وفي اعتدائهم بذلك على حقّ اللّه وتصرُّفهم فيما ليس لهم[4]، وفي ضمن هذا النهي أمرٌ بذكر اللّه ودعائه[5].

دلالة التعبير بـ﴿مَعَ﴾ دون (اللام):

المبالغةُ في النهي عن جعلِ أي أحدٍ مصاحبًا لله في العبادة

عبّر البيانُ القرآنيُّ بـ﴿مَعَ﴾ التي تفيدُ المصاحبة في قوله

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 489.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 241.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 300.

(4) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 406، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 240.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 674.

تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾، ولم يقل: (لا تدعوا لله أحدًا، أو لا تجعلوا الدعاء لأحد غير الله)؛ للمبالغة في بيانِ فظاعة الشرك؛ لأنّهم حين يدعون مع الله أحدًا، فإنّهم يضعونه موضعَ المساواة والمنازعة والمزاحمة والمشاركة والمصاحبة لله في التصرّف أو الإجابة.

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾:

قصرُ العبادةِ على المستحقّ لـها وحده سبحانه

تقديم شبه الجملة: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿أَحَدٗا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ يفيدُ القصر والاختصاص، أي: لا تُشركوا مع الله أحدًا في الدعاء والعبادة، خصوصًا في المساجد، فهي مواضع لا يليقُ أنْ يُعبد فيها إلا الله وحده[1].

دلالة التّعبيرِ بلفظ ﴿أَحَدٗا﴾ منكرًا:

نهيٌ شاملٌ لكل ما يُعبد من دون الله

جاء تنكير لفظ ﴿أَحَدٗا﴾ في سياق النهي ليفيدَ العموم، أي: لا تدعوا مع الله شيئًا كائنًا من كان، لا إنسًا ولا جنًّا، ولا شمسًا ولا صنمًا، ولا غير ذلك، فهو نهيٌ شامل لكل ما يُعبد من دون الله، ونهيٌ عن كلّ أنواع الشرك.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿أَحَدٗا﴾ دون غيره:

تأكيدُ عموم النهي عن الشرك بالله سبحانه

لم يقلِ البيانُ القرآني: (فلا تدعوا مع الله معبودًا) أو (إلهًا) أو (ربًّا)، بل استخدم قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾؛ ليؤكّدَ العمومَ والشمول، خاصّة وأنها جاءت في سياق النهي؛ إذ تُستعمَل كلمة (أحد)، في اللغة العربية للتعبير عن الاستيعاب والشمول عند النفي؛ لذلك تشملُ هذه الكلمة كلّ ما يُدعى مع الله، نبيًّا، أم وليًّا، أم ملكًا، أم صنمًا.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 334.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدعاء والعبادة:

الدعاءُ أعمُّ من العبادة، فالنهيُ عن دعاء غير الله يشملُ النهي عن العبادة أيضًا

الدعاءُ أعمُّ وأوسعُ دلالةً من العبادةِ؛ إذ يشملُ معنى العبادة وغيرها، فالمعنى المحوري للدعاء: جذبُ الشيءِ، أو محاولةُ ضمِّه إلى حيّزٍ أو أمرٍ، ومنه الدعاءُ بمعنى التضرُّعِ إلى اللّهِ ﷻ في طلبِ أمرٍ، والرَّغبَةُ إلى اللّه تعالى فيما عنْدَه مِن الخيرِ والابتِهال إليه بالسُّؤالِ، والدعاءُ: العبادةُ؛ لأنّ العبادةَ تَقرُّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به، فهي من الجذبِ والانجذابِ، ويأتي بمعنى النداء استلفاتًا أو استحضارًا أو استنهاضًا[1]، أمّا العبادة؛ فمعناها إظهارُ الطاعةِ مع الخضوعِ والتذلُّلِ للّه، ولا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضال[2]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الدعاء في سياق النهي؛ لأنَّه أعمُّ وأبلغ في النهي؛ إذ يشملُ النهي عن الدعاء والتضرّع والرغبة بالسؤال والطلب من غير اللّه تعالى، ويشملُ أيضًا النهي عن عبادة غيره سبحانه.

---

(1) الزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دعو).

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والجوهري، الصحاح: (عبد).

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾ [الجن: 19 - 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

من تَتِمَّةِ كَلامِ النّبي ﷺ الذي أوحي إليه ليبلّغه

لَمّا ذكر في الآية السابقة جملةً ممّا أوحى اللّه به لنبيه ﷺ، وأمره إخبار قومه بأنّ المساجد لله وحدَه؛ وألا يُشركوا باللّهِ فيها أحدًا؛ أعقبَ بذكرِ جملةٍ أخرى، هي: بيانُ حالِ الجنِّ الصالحين معَ النَّبيِّ ﷺ الذي قام يدعو اللّهَ وحده، ولا يُشرك به أحدًا، وهي من تَتِمَّةِ كَلامِه صَلَواتُ اللّهِ عليه؛ لأنَّه هو المأمورُ بقولِه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَدٗا﴾: أصلُ (لبد) يدُلُّ عَلَى تَكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فَوْقَ بَعْضٍ، ولبَدَ بِالمَكانِ يَلْبُدُ لبودًا: أقامَ بِهِ، ولَزِق، فَهوَ مُلْبِدٌ بِهِ، ولَبَدَ الشيءُ بالشيءِ يَلْبُد؛ إذا رَكِبَ بعضُه بَعْضًا[1]، و﴿لِبَدٗا﴾ جمع لبدة، وهي ما تلبَّدَ بعضه على بعض كلبدة الأسد، والمعنى: متراكمين بعضهم على بعضٍ من شدَّةِ ازدحامهم عليه تعجُّبًا ممّا رأوا من عبادته، وسمعوا من قراءته، أو كادَ الإنسُ والجنّ يكونون عليه مجتمعين لإبطال أمره[2].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ حالِ الجنِّ الصالحين أو حالِ الصحابة مَعَ النَّبيِّ ﷺ

يقولُ اللّه تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: قل أوحيَ إليَّ أنّه لَمّا قام محمد رسول اللّه ﷺ يدعو اللّه يقول: لا إله إلا اللّه، كاد الجنُّ يَكونون عليه جماعاتٍ يَتراكَمُ بعضها فوق بعض، أو قال النفرُ من الجن لمّا رجعوا إلى قومهم؛ أخبروهم بما رأوا من طاعة أصحابه وائتمامهم به في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبد).

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 674، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 253.

الركوع والسجود: لمّا قام محمد رسول الله ﷺ يدعو الله؛ كان أصحاب نبيّ الله ﷺ يأتمّون به، فيركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التأكيد بـ(أنّ) والجملة الاسمية في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾:

تأكيدُ الحدث دليلٌ على صدق النبي وحجةٌ على كفار قريش

التّعبيرُ بـ(أنَّ) المؤكّدة وبالجملة الاسمية، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾، جاء لتأكيد هذا الحدث كدليلٍ واضح على صدقِ النبي ﷺ بما يكون حجَّة على كفّار قريش، وهو أنّ النفرَ من الجنّ لَمّا سمعوا النبي ﷺ؛ كادوا يكونون عليه متراكمين من ازدحامِهم عليه تعجُّبًا ممّا شاهدوا من عبادته، وسمعوا من قراءِته واقتداءِ أصحابِه بهِ قيامًا وركوعًا وسجودًا؛ لأنَّهم رأوا ما لم يعهدوا مثله من قبل.

دلالة التعبير بالضَّمير في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾:

تعظيمٌ وتعجُّبٌ من الحدث العظيم

ضمير (أنّه) ضمير الشأن، وجملة: ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ خَبَرُهُ[2]، والغرضُ منه التعظيمُ والتعجُّب من هذا الحدث العظيم، والمعنى: أوحيَ إليَّ أنَّ الشأنَ أو القصَّة العظيمة العجيبة، لمّا قُمتُ؛ كاد الجنّ يكونون عليّ لبدًا.

سر التعبير بـ﴿لَمَّا﴾:

الترابطُ الزمنيُّ بين عبادةِ النّبي وحالِ الجنّ معها يُبرزُ شدّة تعجُّب الجنّ

﴿لَمَّا﴾ أداةُ جزم ظرفية توضِّحُ وقوعَ حدثٍ في الماضي، لكنها تحملُ بقاءَ أثر هذا الحدث وتأثيره في الحاضر، فتربطُ بين زمنين: زمن الحدث الأول وزمن الحدث الثاني؛ إذ يأتي الثاني متتابعًا للأول، أو مرتبطًا به ارتباطًا وثيقًا، ممّا يضفي على السرد حيوية، ويبرزُ الترابط الزمني بين الوقائع، فيصوّر الحركةَ المتواصلة للأحداث، وكأنّها لحظة واحدة متّصلة في ذهن السامع.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 666 - 667.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 242.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القيام ماضيًا:

عبَّر البيانُ القرآني بلفظ القيام بدلًا من التّبليغ، فلم يقل: (لمّا بلّغ النبي دعوة اللّه)، بل قال: ﴿لَّمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾؛ ليدلّ على الاجتهاد في الدعوة إلى اللّه، والإعلانِ القويّ لها، فالقيامُ هنا بمعنى: بذل الجهد والنهوض الكامل بالأمر، كما في قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الكهف: 14]، أي: اجتهدوا في إعلان التوحيد، وأصلُ القيام في اللغة: الانتصابُ المقابل للجلوس والاضطجاع، ولا يُقْدِم الإنسان على القيام إلا لِفعلٍ فيه كُلفة أو جدٍّ، ولذلك قيل: (قام بالأمر)، أي: تصدّى له بنشاطٍ وتحمُّل، فغدا القيامُ مُستَعارًا لحمل الأعباء وبذل الوسع، ولهذا كان التعبيرُ به أدلّ على قوّة العزم من مجرّد التبليغ[1].

قيامُ النبيّ بالدعوة إلى الله قيامُ اجتهادٍ وقوّةِ عزم

والتعبير بصيغة الماضي؛ للدلالة على حادثةٍ ماضية محدَّدة عظيمة وقعتْ، وانتهت، لكنّها كانت ذاتَ أثر عظيم، جعلها محور حديثِ السورة.

وجه التَّعبير بلفظ العبوديَّة:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ العبودية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، ولم يقلْ: (رسول اللّه أو النبيّ)؛ لأنّ الكلامَ لمّا كانَ واقعًا في حقِّ رسول اللّه ﷺ عن نفسه: جيء به على ما يقتضيه التواضع والتذلُّل، أو لأنَّ عبوديةَ عبد اللّه للّه أمرٌ بدهيٌّ ومنطقي، لا يُستغربُ، مما يجعل الموقفَ الذي قام به مستحقًّا للإعجاب.

بيانٌ لتواضعِ النبي ﷺ ولبداهةِ عبوديته لله

سرُّ إظهار لفظ العبوديَّة مضافًا إلى اسم الجلالة:

عدلَ البيانُ القرآنيُ عن الإضمار إلى الإظهار، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ في موضعين، فلم يقل: (ولمّا قام عبده)، ولم يقل: (وأنه لمّا قمتَ تدعوا اللّه)، أو (لمّا قمتُ أدعوا

تكريمُ الله للنبي ﷺ وتشريفه بوصف العبودية لله

---
(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 231.

الله)، على الرغم من أنّ المراد بعبدِ اللهِ في الآية هو رسولُ الله ﷺ؛ لبيانِ تكريم الله لنبيّه ﷺ، وتشريفه بوصف العبودية بإضافتها إلى الله سبحانه، كما في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1][1].

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَدۡعُوهُ﴾ مضارعًا:

التجدّدُ والحيويةُ في الدعاء النبوي جذبٌ لانتباه الجنّ إليه

يشيرُ التعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُوهُ﴾ إلى التجدّد والاستمرارية في الدعاء، فقد كان يقومُ، ويداومُ على الدعاء، وهذا الاجتهادُ والمواظبة هو ما جذبَ انتباهَ الجنِّ، وجعلهم ﴿لِبَدٗا﴾ حوله، والتعبير بصيغة المضارع كذلك يعطي إحساسًا بالحيوية والواقعية وتصويرًا للحدث، وكأنّه يحدثُ الآن أمامَ السامع بعينه.

دلالة إيثار الإضمار في ﴿يَدۡعُوهُ﴾ دون الإظهار:

خصوصيةُ القُرب تُبرز مقام العبودية والحب

لم يُظهر البيانُ الحكيم الاسم الجليل بالقول مثلًا: (يدعو الله)، وإنّما أضمر؛ لأنّ المرجعَ سبَقَ ذكره مباشرة، ولا يحتاج إلى تكرار، وفي التعبير بالضمير كذلك إيحاءٌ بالعلاقة الخاصة، فالنبيّ ﷺ يناجي من هو عبدٌ له سبحانه، يتوجّه إليه وحده، بخصوصية القرب، وهذا يبرزُ مقامَ النبي ﷺ في عبادته ودعائه.

دلالة التعبير بالفعل ﴿كَادُواْ﴾ ماضيًا:

عنايةٌ إلهيّة بالنّبي ﷺ وطمأنةٌ ضمنيةٌ له

صيغة الماضي في قوله: ﴿كَادُواْ﴾ توحي أنّ الأمرَ قاربَ أن يقع في لحظةٍ عظيمة وخطيرة، ثم لم يقعْ، أي: إنَّ اجتماعَ الجنّ على النبي ﷺ كان قريبًا من التلبّدِ الكامل على رسولِ الله، لكنّه لم يبلغْ مداه، وفي هذا طمأنةٌ ضمنيَّة، وإظهارٌ لعناية الله برسوله.

دلالة التعبير بفعل الكينونة مضارعًا:

صورةٌ حيّةٌ لحالة تكدُّس الجنّ على النبيّ ﷺ

في التَّعبير بالفعل ﴿يَكُونُونَ﴾ بصيغة المضارع دلالةٌ على أنّ تراكمهم وتجمُّعهم من ازدحامهم على النبيّ ﷺ، ليس مجرّد

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 242.

حضور عابر، بل حالةُ تكدُّس واستمرارٍ لهذا التكدّس، وفيه تصوير لهذه الحالة بصورة حية ومستمرة.

دلالة حرف الاستعلاء (على):

حرفُ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ يُظهر شدّة تعجّب الجنّ مما سمعوا، حتى ازدحموا عليه لسماع القرآن ازدحامَ تكاثرٍ واستعلاء، أو شدّة حنقِ المشركين منه، حتى قاربوا يتكدّسون فوقه أو حوله بطريقة تهيمن عليه تضييقًا، والتفافَ غيظٍ وغضب وهمّ بالأذى، كما يقال: تألّبوا عليه، وفيه تصويرٌ لهذه الحالة من الزحام والحصار والتضييق.

تصويرُ التزاحم تعجُّبًا وانبهارًا مـن الـجـنِّ أو حنقًا وغضبًا من المشركين

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِ﴾:

قدّمَ البيانُ القرآنيّ الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على الخبر ﴿لِبَدٗا﴾؛ لإفادة التخصيص، فلم يكونوا لِبَدًا على غيره، بل إنّ تعلُّقهم وتراكمهم واكتظاظهم كان مختصًّا بالنبي ﷺ دون غيره؛ لأنّه هو الذي كان يتلو القرآن، وأيضًا فإنّ هذا التقديم يُبرزُ مقامه الشريف، وأهميّة الحدث على النبي ﷺ.

تلبُّدُ الجنِّ كان مختصًّا بالنبي ﷺ دون غيره

توجيه القراءات في قوله: ﴿لِبَدٗا﴾:

قرأ الجمهور: ﴿لِبَدٗا﴾ بكسر اللام وفتح الباء جمع لِبْدة، وهي الجماعات؛ شُبهتْ بالشّيءِ المتلبّد بعضه فوق بعض، وقرأ هشام: ﴿لُبَدٗا﴾ جمع لُبدة[1]، وأصلهما من اللبد، وهو التراكمُ والتزاحمُ الشّديد، ولكنّ تعدُّد القراءات يُثري المعنى؛ إذ ﴿لِبَدٗا﴾ توحي بالتركيز على هيئة الجماعة المتزاحمة، و﴿لُبَدٗا﴾ تُشيرُ إلى شدّةِ التراكم والكثرة الزائدة التي تَحول دون التفريق بين الأفراد، كأنهم كتلٌ متراكبة، ويعطي التعدُّدُ أيضًا الكلمةَ إيقاعًا صوتيًّا مختلفًا

فـي الـتـنـوّع إثـــراءٌ لمعنى تزاحم الجنّ أو المشركين على رسول الله

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 392.

يخدمُ المقام، فـ﴿لِبَدًا﴾ أنسبُ لسرعة التلاوة ووضوح المعنى، و﴿لُبَدًا﴾ أثقل نغميًّا، فيناسب ثقلَ الزحام وشدَّته.

بلاغة التشبيه في قوله: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا﴾:

تصويرُ شدَّةِ ازدحام الجنِّ والتصاقهم بالنبي ﷺ

في قوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا﴾ تشبيهُ حالةِ ازدحام الجنّ حولَ النبي ﷺ بحالة اللبد، وهو الشيء المتراكم بعضه فوق بعض، كالصوف أو الشعر المضغوط المتلاحم، وفي هذا التشبيه تصويرٌ لشدّةِ ازدحامهم والتصاقهم به، أي: كاد الجنّ يكونون مثل اللبد متراصّين مقتربين من النبي ﷺ يستمعون قراءته ودعوته إلى توحيد الله.

بلاغة التعبير بلفظ ﴿لِبَدًا﴾ جمعًا منكّرًا:

الكثرةُ غير المُحددة توحي بعِظمِ المشهد وهيبته

﴿لِبَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدًا﴾ جمعٌ منكَّر يدلُّ على التَّكثير والتراكم الذي لا يخصُّ عددًا معيّنًا، وهذه الكثرة غير المحددة تتركُ أثرًا نفسيًّا عند السامع أو القارئ، بأنَّ المشهدَ ضخمٌ ومهيب، أي: كثرة الجنّ وتراكمهم وتجمُّعهم حول النبيّ ﷺ.

بلاغة القصر بـ ﴿إِنَّمَآ﴾:

في حصرِ العبادة بالله وحده تأكيدٌ على عدم العجب من ذلك وتعريضٌ بالمشركين

أفادَ التّعبير بـ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ قصر العبادة على الله وحده دون سواه، أي: لا أدعو، ولا أعبد غيره[1]، وفي هذا تأكيد على بيانِ خلافِ ما عهده المشركون، فهم لمّا كانوا لا يعرفون عبادة غير الأصنام، تعجّبوا ممّا جاء به النبي ﷺ، والمعنى: ليس فيما ترون من دعائي لله وعبادتي له شيء يُتعجّب منه، إنّما العجبُ ممن يُشركُ مع الله غيره، ويؤيّد ذلك ما تواترَ ذكره في القرآن من طلبِ المشركين من النبيّ ﷺ الرجوعَ عن فعله، وأنّه أمرٌ عظيم لم يسمعوا بمثله، وأنّه مخالفٌ لِما كان عليه آباؤهم وأجدادهم[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 243.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 407.

سر التعبير بلفظ الربوبية مضافًا إلى ياء المتكلم:

المبالغةُ في نفي اعتراضِ المشركين وتعجّبهم من عبادة النبي صلى الله وسلم

في التّعبير بالربوبيةِ مبالغةٌ في نفي اعتراضهم وتعجُّبهم من عبادة اللّه تعالى وحده دون أصنامهم بأنّه يَعبدُ ربًّا يستحقّ العبادة، والمعنى: إنما أدعو ربي الذي أوجدني وربّاني، ولا نعمةَ عندي إلا منه وحده، لا أدعو غيره حتى تعجبوا مني[1]، وفي الإضافة تشريفٌ للنبي ﷺ، وتشيرُ كذلك إلى المبالغة في نفي اعتراضهم وتعجّبهم من عبادة النبي ﷺ.

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ﴾:

تأكيدُ النبي قصر العبادة على الله وحده وعدم اتخاذ أي شريك معه

عطَفَ البيانُ الحكيمُ قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ على جملة القصر، وهي: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾؛ تأكيدًا لمفهوم القصر، وأصله ألّا يعطف، فعطفه لمجرّد التشريك للعناية باستقلاله بالإبلاغ[2]، فالعطفُ جمعَ بين قصر العبادة على اللّه وحده وعدم اتخاذ أي: شريك معه.

دلالة النفي بـ(لا):

نفيُ الإشراك عن الحاضر والمستقبل أنسبُ مع مقامِ النبي ﷺ

عبّر البيانُ القرآني بأداة النفي (لا) دون (لن)، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾؛ لكون التعبير بـ(لا) أنسبَ مع مقامِ النبي ﷺ الأنموذجِ الأسمى في التوحيد؛ لأنّ النفي بـ(لا) يشملُ الحاضر والمستقبل، والمعنى: ولا أشرك باللّه أحدًا في العبادة الآن، ولا في مستقبل الزمان بوجه من الوجوه[3].

دلالة نفي الإشراك بعد الأمرِ بالعبادة:

المبالغةُ في علوّ مقامه ﷺ في توحيدِ الله سبحانه

أطنبَ البيانُ الحكيم بنفي الإشراك باللّه بعد إعلانه قصر العبادة على اللّه؛ تأكيدًا لمفهوم القصر[4]، بما يفيدُ المبالغة في علوّ

---

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 407.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 243.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 407.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 243.

مقامه ﷺ في توحيدِ اللّه سبحانه، فبراءتُه من الشرك حكمٌ دائمٌ لا يتغيَّر.

دلالة نفي الإشراك بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ﴾:

استمرارُ نفي الشرك منه ﷺ دليلٌ على علوِّ مقامه في التوحيد

في التعبير بنفي الإشراك بصيغة المضارع ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ﴾ مبالغةٌ في نفي إشراك النبي ﷺ بربِّه أحدًا، مما يدلّ على علوّ مقامه ﷺ في التوحيد، فمع توكيده بالقصر والإطناب جاء بصيغة تدلّ على استمرار التوحيد ونفي الشرك منه ﷺ.

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦٓ﴾ على المفعول:

تقديمٌ فيه اهتمامٌ وعنايَةٌ بالمقام الإلهي

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبه الجملة ﴿بِهِۦٓ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾، ولم يقل: (ولا أشرك أحدًا به)؛ للاهتمامِ والعنايةِ بالمقدَّم ورفعةِ شأنه وتعظيمه، وهو اللّه سبحانه، وليكون الحديث عن توحيده في المقام الأول، ولمراعاة الفاصلة القرآنية وأثرها الصوتي.

سر اختلاف التعبير بين قوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾:

معنى كلتا الآيتين: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾، و﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ متقاربٌ، فكلتاهما في التوحيد والنهي عن الشرك، ولكنهما اختلفتا في حرف الجر، وسبب ذلك مراعاة السياق في كلٍّ منهما، فالمقامُ في الآية الأولى مقامُ نهيٍ للناس عن مشاركة غير اللّه في الدعاء، فاختار (مَعَ)؛ لأنّها تشيرُ إلى تعدّد المتعلّقين بالدعاء، فهو سياقُ تعبّد جماعي تظهرُ فيه المصاحبة والدعاء لعدّة جهات، أمّا المقامُ في الآية الثانية؛ فهو مقامُ إعلانِ النبي ﷺ عن العقيدة الشخصية الخالصة في التوحيد بأعلى درجاته، فكان التعبيرُ بالباء أنسبَ؛ لأنَّها تفيدُ مع المصاحبة الإلصاقَ والاعتمادَ بما يدلّ على نفي المشاركة بأعلى صورها.

دلالة التعبير بلفظ ﴿أَحَدًا﴾ منكّرًا:

التّعبيرُ بلفظ ﴿أَحَدًا﴾ دون غيره؛ للمبالغة في إفادةِ نفي الشرك بالله من قبل رسول الله ﷺ؛ لأنّها (أحد) تفيدُ الاستيعاب والشمول وخاصّة؛ إذا وردت نكرة سُبقت بنفي، أي: نفى رسولَ الله أن يُشرِكَ بالله كلَّ أحدٍ "من ودّ وسواع ويغوث ويعوق وغيرها من الصامت والناطق"[1].

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 407.

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ [الجن: 21]

انتِقالٌ مِن ذِكرِ ما أوحيَ به إلى النَّبيِّ إلى تَوجيهِ خِطابٍ مُستأنَفٍ إليه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بَعدَ أنْ حُكيَ في هذه السّورةِ ما أوحَى اللّهُ إلى رَسولِه ﷺ ممّا خَفيَ عليه مِن الشُّؤونِ المُتعلِّقةِ به مِن اتِّباعِ مُتابِعينَ، وإعراضِ مُعرِضين؛ انتُقِلَ إلى تَلقينِه ما يَرُدُّ به على الَّذين أظْهَروا له العِنادَ، ولبَيانِ عَجْزِه عن شُؤونِ نفْسِه، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيَدِ اللّهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمۡلِكُ﴾: أصْلُ (ملك) يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، والأصْلُ هذا، ثُمَّ قيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَملِكُهُ مَلْكًا؛ لأنَّ يَدَهُ فيه قَويَّةٌ صَحيحَةٌ، فالمِلْكُ: ما مُلِكَ مِنْ مالٍ[2]، ومَلَكَ الشَّيْءَ يَمْلِكه مَلْكًا: حازَه، وانفردَ بالتَّصَرُّف فيه، ومُلْكُ اللّه تعالى ومَلَكوته: سُلْطانُهُ وعَظَمَتُهُ، والمُلْكُ ضربان: مُلْكٌ: هو التَّملُّكُ والتَّولّي، ومُلْكٌ: هو القوَّةُ على ذلك، تولَّى أم لم يتولَّ[3]، ومعنى ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾ في الآية: لا أقدرُ أنْ أدفعَ عنكم ضرًّا، ولا أجلبَ لكم نفعًا[4].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قُلْ يا محمَّدُ لمشركي العرب الذين ردّوا عليك ما جئتهم به من النصيحة، وأكِّدْ لهم: إنّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا نَفعًا في دينكم ولا في دنياكم، ولا ضَلالةً ولا صوابًا وسَدادًا؛ لأنَّ الذي يملكُ ذلك، اللّهُ الذي له مُلك كل شيء[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 243، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 247.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (ملك).
(3) الفيروزابادي، بَصائر ذَوي التَّمييز، وابن منظور، لسان العرب: (مَلَكَ).
(4) الصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 669، والبقاعي، نظم الدرر: 20/ 494.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ﴾:

لَمَّا كان السّامعُ ربّما قال: ما له هو لا يهلكهم، أو يدعو ربّه في دفع المتبلّدين عليه عنه بالإهلاك أو التوبة والمتابعة؛ أمره بما يبيّن عظمة ربِّه، وأنّه لا يفعلُ إلا ما يريد بقوله مبيِّنًا أنّه يستحيلُ عليه ﷺ ما يستحيلُ على جميع الممكنات من أنْ يؤثّر في شيء بنفسه، أو يخالف ربّه، فقال: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾[1].

الأمرُ للنبي ﷺ بما يقول ردًّا على من يتساءل

دلالة تكرار الأمر بالقول في قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي﴾:

أطنبَ البيانُ الحكيم بذكرِ الأمر بالقول ﴿قُلۡ﴾ بعد ما سبق ذكره في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ﴾؛ تأكيدًا على رسالته ﷺ، وأنّه مجرّد مبلّغ عن اللّه، وللمناسبة مع مضمون القول، وهو أنّه لا يفعل إلا ما يريده اللّهُ سبحانه، وأنّه لا يملكُ ضرًّا ولا رشدًا.

في الأمـر تأكيدٌ على رسالته ﷺ وأنَّه مجرَّد مبلغ عن الله

دلالة التأكيد بقوله: ﴿إِنِّي﴾:

في التعبير بـ(إنّ) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ تأكيدٌ على بشريته ﷺ وعلى وحدانية اللّه سبحانه، فالنبي ﷺ لا يملكُ لنفسه وللآخرين ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا غيًّا ولا رشدًا، فلا مؤثِّرَ في شيء من الأشياء إلا اللّه ﷻ.

تـأكـيـدٌ عـلى بـشـريـتـه ﷺ وعـلى وحدانيةِ الله سبحانه

سر النفي بـ﴿لَآ﴾:

إيثار التعبير بأداة النفي ﴿لَآ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ﴾ دون (لن)؛ للمبالغة في تقرير الوحدانية للّه تعالى، وأنّه هو الذي له مُلك كلّ شيء، وأنّ النبي ﷺ لا يملكُ ضرًّا ولا رشدًا في الزمن الحاضر وفي المستقبل[2]، ولو عبَّر البيانُ الحكيم بـ(لن)؛ لظُنَّ أنّه يملك ذلك في الزمن الحاضر.

الـنـبـيُّ ﷺ لا يـملكُ ضـرًّا ولا رشـدًا في الزمن الـحـاضـر وفي المستقبل

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 493.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 494.

سر التعبير بالمضارع المنفي ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾:

استمرارُ نفي ملكِ النبي ﷺ لأيّ ضرٍ أو نفع دليلُ بشريته

أفادتْ صيغةُ المضارع المنفي في قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ﴾ استمرارَ هذا النفي، أي: نفي التملّك والتصرّف والتمكّن والاستطاعة في أيّ ضرٍّ أو نفعٍ من غيرِ إقدار اللّه له ﷺ، وهذا يؤكّد بشرية النبيّ ﷺ.

سر التعبير بالجملة الفعلية ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾:

نفيُ الملكية عن الفعل الحادث أبلغُ من نفي الملكية عن الصفة الثابتة

آثرَ البيانُ الحكيمُ التعبير بالجملة الفعلية دون الاسمية، فلم يقلْ: (ليس لي ملكُ النفع ولا الضرر)؛ للدلالة على القدرة الفعلية والتمكُّن الواقعي، أي: التركيز على العمل والفعالية، وليس مجرّد وجود صفة أو حالة، ونفي الملكية عن الفعل الحادث أبلغ من نفي الملكية عن الصفة الثابتة.

معنى اللام في ﴿لَكُمۡ﴾ وفائدة تقديم شبه الجملة:

اهتمامُ المتكلّم بالمستمعين يلفتُ انتباههم إلى مضمون الخطاب الخاص بهم

اللام في قوله: ﴿لَكُمۡ﴾ للاختصاص، والمعنى أنّ النبي ﷺ لا يملك نفعًا أو ضرًّا أو هداية أو ضلالًا مخصّصًا لكم، وإنّما ذلك بيد اللّه وحده، أو هي للأجل، والمعنى: "لا أَقْدِرُ قُدْرَةً لأَجْلِكُم عَلَى ضُرٍّ ولا نَفْعٍ"[1]، وتقديمُ الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾؛ اهتمامًا من المتكلّم في مخاطبة المستمعين بشكل خاص؛ لكي يلفت انتباههم إلى أنّ نفيَ تمكُّن النبي ﷺ وقدرته على التصرُّف بما يثبتُ بشريته ووحدانية اللّه هو أمرٌ موجّهٌ لهم، ويخصّهم، وذلك يجعلهم أكثر تأثرًا بمضمون هذا الخطاب، وكذلك في التقديم مراعاة الفاصلة القرآنية وأثرها الصوتي.

دلالة التعبير بضمير الخطاب في قوله: ﴿لَكُمۡ﴾:

المخاطبةُ أقوى في التأثير ولفتِ الانتباه

آثر القرآنُ التعبيرَ بكاف الخطاب، فلم يقلْ: (لا أملك للكافرين)؛ لِما في تمييز المخاطَبين من غيرهم ومواجهتهم به من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 244.

لفتِ الانتباه وقوّة التأثير بهم؛ إذ يُشعرُ المستمعون بأنّهم محورُ الكلام، بما يحفّزهم على الانتباه والتفاعل مع المعنى.

نكتة تنكير لفظي: ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾:

التنكير في لفظي: ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾؛ لإفادة العموم والاستغراق في النفي؛ لأنّ النكرة في سياق النفي يعمّ، فهو ينفي ملك النبي ﷺ وتمكّنه واستطاعته من دفعِ أيّ ضرٍ مهما قلَّ، ومهما كان نوعه، أو جلبِ أي خيرٍ مهما قلَّ، ومهما كان نوعه إلا بإذن الله.

المبالغةُ في نفي ملكِ النبيّ لأيّ ضـرٍ أو رشـدٍ مهما كان قليلًا

وجه العطف بالواو في قوله: ﴿وَلَا رَشَدًا﴾:

الواو عاطفةٌ تفيد الجمع بين أمرين متغايرين في المعنى لا يملكهما رسولُ الله: وهما الضرّ والرشد، أي: ينفي عن النبي ﷺ التحكّم في مصير الناس، لا في إضلالهم ولا في هدايتهم، وإنّما أمرُ ذلك إلى الله، فالنافعُ والضارّ، والمرشدُ والمغوي هو الله، ولا قدرةَ لأحدٍ من الخلق له على ذلك.

في العطف نفيٌ عن النبيّ التحكّمَ في مصير الناس

سر تكرار (لا) مع قوله: ﴿وَلَا رَشَدًا﴾:

أطنبَ البيانُ القرآنيّ بتكرارِ (لا)، فلم يقلْ: لا أملك ضرًّا ورشدًا؛ لإفادة التأكيد فكأنّه أعاد الجملة مرتين، فنفى الملك عنهما منفردين ومجموعين، والمعنى: لا أملك لكم جلْب النفع، ولا أملك دفع الضرّ عنكم، ولا أملك إضلالكم ولا هدايتكم.

تأكيدُ نفيِ النبي ﷺ لملك الضرّ ولملك الرشد

سر تقديم الضرّ على الرشد في الآية:

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ قدّم البيانُ القرآنيُّ الضّرّ على الرّشد؛ مراعاةً للمقام، وهو مقامُ دفعِ شرّهم عنه ﷺ، ولأنّ درءَ المفاسد مقدّمٌ على جلبِ المصالح.

درءُ المفاسد مقدّمٌ على جلبِ المصالح

بلاغة التعبير بالطباق والاحتباك في الآية:

جمعَ البيانُ القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ بين لفظين متقابلين، هما: ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾،

النافعُ والضارّ والمرشدُ والمغوي هو الله تعالى

ممّا زادَ الكلامُ حُسنًا وطرافة، وأسهم في إبراز المعنى وإيضاحه وتقوية تأثيره في النفوس، وهو المبالغة في نفي أنْ يملكَ النبي ﷺ للمخاطبين أي ضرٍ وأيّ نفعٍ، وإنما الذي يملك ذلك هو اللّه تعالى وحده[1]؛ لأنّ ذلك من خصائص الربوبية التي لا ينازعه فيها أحد، وفي الآية احتباك؛ "لأنّ الضرّ يقابله النفع، والرشد يقابله الضلال، فالتقدير: لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا ولا ضلالًا ولا رشدًا"[2]، فذكرُ الضرِّ أولًا دلّ على حذف النفع ثانيًا، وذكر الرشدِ ثانيًا دلّ على حذفِ الضلال أولًا، فإنّه لا نفع في غير الرشاد، ولا ضرّ في غير الضلال[3]، "فتركَ منْ كِلا المتقابلينِ ما ذُكِرَ في الآخر"[4]، أي: ذكرَ الضرّ في الآية؛ لأنّ المقامَ كان لدفعِ شرّهم عنه ﷺ، وحذفَ النفعَ والغيّ لدلالةِ مفهوم السياق عليه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الملك والقدرة:

من يملكُ الشيء يقدرُ على التصرّف فيه

المُلْكُ لشيء ما هو حيازته والانفراد بالتصرّف فيه، والمُلْك ضربان: مُلْكٌ: هو التَّملُّكُ والتّولّي، ومُلْكٌ: هو القوّةُ على ذلك، تولّى أم لم يتولَّ[5]، في حين أنّ القدرة إذا وُصف بها الإنسانُ؛ فهي اسمٌ لهيئةٍ له، بها يتمكّن من فعل شيء ما، فالقُدْرَةُ: هي القوَّةُ، والتمكّن والاستطاعة[6]، وهذا يعني أنّ الملكَ أعمُّ من القدرة من هذا الوجه؛ فمن يملكُ الشيء، ويحوزه ينفردُ بالتصرّف فيه، وهو مظنّة التمكّن والاستطاعة، في حين أنّ القدرةَ هي التمكّن والاستطاعة، ولا تعني

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 243.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 494.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 46.
(5) الفيروزابادي، بَصائر ذَوي التَّمييز، وابن منظور، لسان العرب: (مَلَكَ).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قدر).

تملّك الشيء وحيازته، ومن هنا كان نفيُ الملك هنا أنسبَ وأبلغ؛ إذ هو نفيٌ للتمكّن والاستطاعة أيضًا.

الضرر والأذى:

الضررُ ضدّ النفع، وهو سوءُ الحال لنقصٍ في أمرٍ نفسي، أو جسدي، أو نقصِ مالٍ أو سوءِ حال[1]، و"الأَذَى الشَّرُّ الخَفيفُ فَإن زادَ؛ فَهوَ ضَرَرٌ"[2]، أي: الضررُ أشدُّ من الأذى، فالأذى هو ما يُكرهُ من كلّ شيء، وما يصلُ إلى كلّ ذي حياة من الضرر؛ إمّا في نفسه أو جسمه أو تبعاته دنيويًّا كان أو أخرويًّا، وقد يكون معنويًّا بالقول المؤلم المتكرّر، وقد يكون حسيًّا بالضرب غير المبرح ونحوه، فالأذى هو المكروه اليسير، والشرّ الخفيف[3]، إذًا: فالضررُ هو المصيبةُ الكبيرة التي تصيبُ الإنسان في جسده أو ماله أو نفسه، في حين أنّ الأذى هو المكروه الأخفّ الذي يصيب الإنسان سواء ماديًّا أو معنويًّا، وغالبًا ما يكون من فعل الآخرين، وهذا ما يجعل القرآن يختار كلمة (الضرّ) في مواضع البلاء الشديد - كما هنا في الآية - فالسياق هنا سياقُ مبالغةٍ في نفي النبي ﷺ عن نفسه ملكَ أيّ دفعٍ لأيّ ضرّ عنهم؛ ليدلّ على أنّ هذا الأمر - وهو دفع الضرّ - من خصائص الربوبية.

القـرآنُ يختارُ الضرّ في مواضعِ البلاء الشديد؛ لأنّـه أشـدُّ من الأذى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (ضرر).

(2) الزبيدي، تاج العروس: (أذي).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أذي).

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾ [الجن: 22 - 23]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانٌ لعجزه ﷺ عن شؤونِ نفسِه بعد بيانِ عجزِه عن شؤونِ غيرِه

لمّا ذكرَ النبي عجزه عن أنْ يملكَ لغيره ضرًّا ولا نَفْعًا ولا غيًّا ولا رشدًا، فهو رسولٌ مبلّغ لما يأمره اللّهُ بتبليغه، وأنّ المالكَ المتصرف في الكون هو اللّه وحده؛ أكّد هذا المعنى ببيان عجزه عن شؤون نفسه، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾[1]، ولمّا كان قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ كَلامًا مُتضمِّنًا أنَّهم أشْرَكوا، وعانَدوا الرَّسولَ ﷺ حينَ دَعاهم إلى التَّوحيدِ، واقتَرَحوا عليه ما تَوهَّموه - تَعجيزًا له - مِن ضُروبِ الاقتراحِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَهْديدِهم ووَعيدِهم بأنَّهم إن داموا على عِصيانِ اللّهِ ورَسولِه سيَلْقَون نارَ جهنَّمَ؛ لأنَّ كلَّ مَن يَعْصي اللّهَ ورسولَه كانت له نارُ جهنَّمَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجِيرَنِي﴾: من الجِوار، وهو الكونُ بالقرب، وأصْلُ الجِوارِ: الَميْلُ[3]، وأُخِذَ منه الجارُ؛ لأنّه يميلُ إلى جاره بالحقّ والفضلِ بسبب القرب، وأجارَ الرجلَ: منعه من أنْ يُظلَم، والجارُ والمُجيرُ: هوَ الَّذي يَمْنَعُكَ، ويُجيرُك، ومن حقوقِ الجيرَةِ المجاورةُ والإجارةُ في معنى الحماية، وأجارَهُ اللّه مِنَ العَذابِ: أنقذه[4]، ومعنى قوله: ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾: لن ينقذني من عذابِ اللّه أحدٌ؛ إنْ عصيته[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 46.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 245.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَوَرَ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جور).
(5) الصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.

2) ﴿مُلْتَحَدًا﴾: أصلُ (لحد) يَدُلُّ عَلَى مَيْلٍ عَنِ استِقامَةٍ، يُقالُ: ألحَدَ الرَّجُلُ؛ إذا مالَ عَن طَريقَةِ الحَقِّ والإيمانِ[1]، ولَحَدَ إلى الشَّيءِ يَلْحَدُ والتَحَدَ: مالَ، والتحدَ الشَّخْصُ إلى اللّه: مالَ، والتجأ إليه، واعتمدَ عليه، والمُلْتَحَدُ: المَلْجَأُ لأن اللّاجِئَ يَميلُ إليه[2]، معدلًا ونصيرًا وملجأ ألجأ إليه[3]، ومعنى ﴿مُلْتَحَدًا﴾ هنا موافق للمعنى اللغوي، أي: لن أجد من دون اللّه مكانًا يعصمني وملجأً ألجأ إليه[4].

3) ﴿بَلَٰغًا﴾: أصلُ (بلغ) هو الوصولُ إلى الشيء[5]، والإبلاغُ والتّبليغُ: الإيصالُ، وتَبَلَّغَ بِالشَّيْءِ: وصَلَ إلى مُرادِه، والبَلاغُ: الكفايةُ، والانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى[6]، وبلَّغَ النّاسَ بالخبر: أوْصله إليهم، وأعْلَمهم به، وأنهاه إليهم[7]، ومعنى ﴿بَلَٰغًا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، والمعنى: لا أجدُ ملجأً يخلّصني من العذاب إلا إذا بلّغتُ رسالةَ ربي التي أوجبَ أداءها عليَّ، ونصحتكم، وأرشدتكم كما أمرني اللّه[8].

4) ﴿يَعْصِ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عصو)، عَصَى يَعصي عِصيانًا؛ إذا خرجَ عنِ الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121]، والعاصي: اسمُ الفصيلِ خاصَّةً؛ إذا عصى أمَّه في اتِّباعها[9]، يقالُ: عَصا؛ إذا صَلُبَ، واشتدَّ، واستعصى عليه الشَّيءُ: اشتدَّ، ومن هذا جاء العِصيانُ، فأصلهُ الصَّلابةُ وعدمُ الانثناءِ أو الانقياد[10]، ومعنى ﴿يَعْصِ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: عدمُ الطاعة، وتكذيبُ اللّه ورسوله، فلم يؤمن بلقاء اللّه، وأعرضَ عن سماعِ الآيات وتدبّر الرسالات[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لحد).
(2) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لحد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 670، ودروزة، التفسير الحديث: 3/ 16، والصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 670، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 244.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ).
(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(7) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بلغ).
(8) الصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.
(9) الخليل، العين: (عصو)، والرّاغب، المفردات: (عصا).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصا).
(11) الصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أمرٌ للنبي بإظهار استسلامه لله أمامَ قومه، وبيانه بأنّ مهمّته التبليغُ والإنذار

قُلْ يا محمَّدُ لمشركي العرب: إنّي لن يُنقِذَني مِن اللّهِ أحدٌ من خلقه؛ إنْ أراد أنْ يُصيبَني بضُرٍّ، ولا ينصرني منه ناصر، ولن أجِدَ مِن دونِ اللّهِ مَلجَأً ألجأُ إليه، وقل لهم: إني لا أملكُ لكم ضرًّا ولا رشدًا إلا أنْ أبلّغكم من اللّه ما أمرني بتبليغكم إيّاه، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم، فأمّا الرشدُ والخذلان؛ فبيدِ اللّه، هو مالكه دون سائر خلقه، يهدي من يشاء، ويخذلُ من أراد، ومن يعصِ اللّهَ فيما أمره، ونهاه، ويكذّب به وبرسوله، فيجحد رسالاته؛ فإنّ له نارَ جهنم يصلاها ماكثًا فيها أبدًا إلى غير نهاية[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾:

تأكيدُ عجزِ النَّبيّ يُبرزُ توكّله الكامل على الله

هذه الآيةُ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ جاءتْ معترضةً بين المستثنى منه: وهو قوله: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾، والمستثنى: وهو قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾؛ لتأكيدِ نفي النبي ﷺ الاستطاعةَ عنْ نفسِه في أنْ يملكَ للمشركين ضرًّا ولا نفعًا ولا غيًّا ولا رشدًا، وبيانِ عجزِه عن حماية نفسه إلا بإرادة اللّه، بما يُبرز توكّله الكامل، ويُقطعُ الشكّ عن قدرته الذاتية، ممّا يزيد من وضوحِ الرسالة وصدقها[2].

سرُّ إعادةِ جملةِ: ﴿قُلۡ إِنِّي﴾ مع سبق ذكرها:

في الإطنابِ تأكيدٌ للرسالةِ النبويّةِ

أطنبَ البيانُ الحكيمُ بتكرارِ جملةِ: ﴿قُلۡ إِنِّي﴾؛ لإظهارِ تأكيدِ كون النبيّ ﷺ رسولًا مبلغًا عن اللّه ما يأمره أنْ يبلغه، ولملاءمة المعنى العميق الذي تتضمّنه الآيات.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 669 - 671.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 631.

دلالة نفي المضارع ﴿يُجِيرَنِي﴾ بـ﴿لَن﴾:

حتميةُ عجزِ النبي وبشريتِه أمامَ القدرة الإلهية

عبّر البيانُ القرآنيُّ بحرف النفي ﴿لَن﴾، وكرّره في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾؛ ليزيدَ في تأكيد عجزه وبشريته أمامَ قدرة خالقه[1]؛ إذ أكد النفي بـ﴿لَن﴾، فلا مجالَ للشكّ أو الاحتمال في النجاة، وجاءتِ المضارعة لتفيدَ استمرار هذا العجز، وتكرارُ (لن) في الجملتين يعزّز الإحساس بالاستحالة، وأنّ النجاةَ مستبعدةٌ، ولا ملجأ سوى اللّه، وهذا فيه مبالغةٌ في تقريرِ وحدانيةِ اللّهِ ﷻ، فلنْ يجدَ مكانًا يَعصِمُه غيرَ داخلٍ في مَلكوتِه.

فائدة تقديم شبه الجملة: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

اختصاصُ الاستعاذةِ بالله وحده دون سواه

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ على الفاعل ﴿أَحَدٞ﴾؛ اهتمامًا بالمقدّم، وهو اللّه سبحانه الذي له الأمرُ كلّه، ولا أمرَ لأحدٍ معه؛ إذ التركيزُ في سياقِ الكلام عليه؛ ولإفادةِ اختصاص الاستعاذة باللّه وحده دون سواه.

سرُّ التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

مناسبةُ الاسمِ الجليلِ لمقامِ الهيبة وتقريرِ التوحيد

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾، الجامعِ لصفات الكمال والجلال دونَ لفظ (الرّب)؛ لتربيةِ المهابة في النّفوس وإثارةِ الرهبة والخضوع، ولمناسبته لمقام تعظيم اللّه وتقرير وحدانيته، فهو الذي له الأمرُ كلّه ولا أمرَ لأحدٍ معه[2].

نكتة تنكير لفظ ﴿أَحَدٞ﴾:

التّعبيرُ بلفظِ ﴿أَحَدٞ﴾ المسبوق بالنفي أفادَ العمومَ، والمعنى: لنْ يدفعَ عني السوءَ أحدٌ كائنًا من كان؛ إنْ أراده اللّهُ لي[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 495.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 495.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 495.

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَلَنْ أَجِدَ﴾:

الجمعُ بين نفي قدرةِ الآخرين على الإنقاذ، ونفي القدرة الذاتية على اللجوء

أفادَ عطفُ قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ على قوله: ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾: المشاركةَ في تَأْكيدِ نفْيِ استِطاعته ﷺ عن امتلاك الإضرارِ والإضلال، فهو بيد اللّه، وبَيانِ عَجْزِه عن ذلك؛ لأنّ نفيهُ بأن لن يُنقذه أحدٌ لا ينفي أنْ ينقذ نفسه بمكانٍ يلجأ إليه، فجَمَعَ بين نفي قدرة الآخرين على الإنقاذ، ونفي القدرة الذاتية على اللجوء إلى ملاذٍ بديلٍ؛ ليُظهرَ أنّ كلّ الأمرِ في يدِ اللّه وحده، وأنّ النبي ﷺ في ذلك لا حولَ له ولا قوةَ إلا باللّه.

دلالة التعبير بالفعل ﴿أَجِدَ﴾ مادة وصيغة:

مبالغةٌ في انتفاءِ الملاذِ إلا بتبليغِ رسالة الله

آثرَ البيانُ القرآنيُّ مادة (وجد)، في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾؛ للدلالةِ على المبالغةِ في انتفاءِ الملاذ، أي: لنْ أعثرَ، أو أصِلَ، أو أتوصّلَ إلى ملجأ أو ملاذ، مهما بحثتُ إلا أن أُبلّغَ عنه ما أرسلني به، أو الدلالة على المبالغةِ في تأكيدِ عجزِ النَّبي أمامَ القدرةِ الإلهيةِ؛ لأنّ مادّةَ (وَجَدَ) تعني العثورَ على الشَّيء بعد طلبٍ أو بحثٍ واجتهاد، وتفيدُ صيغةُ المضارعة أنّ نفيَ العثور على الملجأ والملاذ متجدّدٌ ودائمٌ بما يدل على العجزِ التام عن إيجادِ الملجأ من دون اللّه.

معنى ﴿مِن﴾:

تأكيدُ تفاهةِ كلّ ما يُلجأ إليه سوى الله تعالى

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ إمّا للتأكيد، إنْ كانت (دون) بمعنى غير، والمعنى: لنْ أجدَ غير اللّه ملتحدًا[1]، أو ابتدائيّة، إنْ كانت (دون) اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، والمعنى: لن أجدَ ملتحَدًا بعيدًا عن اللّه غيرَ داخل في ملكوته[2]، أو هي مُستعارةٌ لمعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 244.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 244.

الخسّة والحقارة[1]، والمعنى: لن أجدَ ملتحدًا في جهة حقيرةٍ لا تليقُ بالاحتماء بها؛ إشارةً إلى تفاهةِ كلّ ما يُلجأ إليه سوى الله تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿دُونِهِۦ﴾:

كلُّ الرتب هي دون رتبته ﷻ

استعملَ البيانُ الحكيمُ لفظَ ﴿دُونِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾؛ لأنّه يفيدُ الدونية والاحتقار لمن يُذكر بـ(دون الله)، أي: إنَّ ما عدا الله هو أدنى وأقلّ منزلة، فكلُّ رتبةٍ دون رتبته، والرتبُ التي دون رتبته كثيرة جدًّا؛ لما له من العلوّ المطلق، ولغيره من مراتبِ السُّفول التي لا تُحدّ[2]، وفي هذا التعبير وإضافته إلى ضمير الاسم الجليل إبرازٌ لعظمةِ الله وتميُّزه على كلّ ما سواه، وأنّه لا ملجأ ولا حمايةَ إلا به وحده، وتحقيرٌ لمعبودات المشركين، وزيادةُ تبكيتٍ لهم.

سرُّ إيثار الإضمار دون الإظهار في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

تفادي التكرار يحافظُ على الإيقاعِ، ويركّزُ على المضمون

أضمرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل، ولم يُظهره، في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ للاختصار وتفادي التكرار، بما يحافظُ على الإيقاعِ والنغمة، فقد سبقَ في الجملة المعطوف عليها، وللتركيز على المقصود، وهو تأكيدُ عجزه ﷺ دون إطالة.

سرُّ تقديم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ على المفعول ﴿مُلْتَحَدًا﴾:

في تأكيدِ القصرِ إظهارٌ لعظمةِ الله ﷻ

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ للتأكيد على القصر، أي: إنَّه لا ملجأ أبدًا إلا بالله وحده، وذلك لرفعِ مكانة اسم الجلالة وتعظيمه، وإظهارِ عظمة الله ﷻ، مع بيان أنّ ما سوى الله لا يُرتجى منه نفعٌ أو عون.

دلالة التعبير بـ﴿مُلْتَحَدًا﴾:

المبالغةُ في نفي العياذِ بغير الله سبحانه

جذرُ لفظِ ﴿مُلْتَحَدًا﴾ هو (لحد)، ومعناهُ الميلُ والانحرافُ إلى شيءٍ، فاللحدُ هو المكانُ المائل في القبر، أمّا الملتَحَدُ؛ فهو اسمُ مكان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 496.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 496.

الالتحاد، والالتحادُ هو المبالغة في اللحد، أي: العدول والانحراف إلى مكانٍ غير المكان الأصلي، وغالبًا ما يُقصدُ به اللجوء والعياذ بمكان يعصم الإنسان عند الشدائد، والمعنى في الآية: لن أجدَ مكانًا يعصمني مهما اجتهدت[1]؛ لأنّ (ألحَدَ) يعني: جادل، وماری، ورکن[2]، وهو تعبيرٌ أبلغُ من القول: ولن أجد من دون الله مالكا.

نكتة تنكير لفظ ﴿مُلۡتَحَدًا﴾:

لا ملجأ وإن كان تافهًا يمكنُ الاحتماء بها غير الله

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿مُلۡتَحَدًا﴾؛ لإفادةِ عموم النفي، أي: لا أجدُ أيّ نوعٍ من أنواع الملاذاتِ أو موضع ميلٍ وركون ومدخلًا وملتجأ وحيلة[3]، ولإفادة التحقيرِ والتقليل، أي: لا أجدُ أدنى ملتجأ، ولا حتى ملتحدًا تافهًا أو ضعيفًا يمكنُ الاحتماء بها غير الله.

بلاغة الاستثناء:

قصرُ قدرة النبيّ ﷺ ونجاته على الإبلاغِ

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، إمّا استثناءٌ من قولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ﴾، فإنَّ التبليغَ إرشادٌ ونفعٌ، وما بينهما اعتراضٌ مؤكِّدٌ لنفي الاستطاعة، والمراد بالاستثناء قصرُ قدرةِ النبيّ ﷺ على الإبلاغِ دونَ الهدايةِ أو الإغواء، أي: لا أملكُ شيئًا من الضّرِّ أو النفع إلا أنْ أبلّغ رسالة ربي[4]، وفائدته: مبالغةُ النبي ﷺ في توصيفِ نفسه بالتبليغ؛ لدلالته على أنّه لا يدعُ التبليغ الذي يستطيعه لتظاهرهم على عداوته[5]، أو هو استثناءٌ من قوله: ﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾، أي: لنْ أجدَ من دونه ملتجأً إلا أنْ أُبلّغَ عنه ما أرسلني به، أو هي مركّبةٌ من (إن) الشرطية و(لا) النافية، والجوابُ محذوفٌ لدلالة ما قبلَهُ عليه، والمعنى: إنْ لا أبلِّغْ بلاغًا من الله؛ فلن أجدَ من دونه ملتحدًا[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 244.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 496.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 496.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 244.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 313.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 47.

نكتة تنكير لفظ ﴿بَلَٰغًا﴾:

تعظيمُ ما أُمِرَ النبي ﷺ بتبليغه وشمولُه

تنكيرُ ﴿بَلَٰغًا﴾؛ للإشارةِ إلى عظمةِ نوعِه وعمومه؛ إذ جاء في سياق النفي؛ ليؤكّد أنّ ما أملكه من التبليغ عظيمٌ ومقدّسٌ في حقيقته؛ لأنّه تبليغٌ خاصٌّ من اللّه، وليس تبليغًا عاديًّا، وهو شاملٌ لكل الناس دون استثناء، ممن هم أهل أنْ يُبلّغوا، ويشمل كلّ ما أوحي إليّ به، بمعنى آخر: لن يجيرني من اللّه أحدٌ؛ إنْ لم أبلّغْ بلاغًا عظيمًا وعامًّا.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

مصدرُ البلاغ وحيٌ إلهيٌّ خالص، لا يملك النبيّ إلا تبليغه

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيّةٌ، والجار والمجرور صفةُ ﴿بَلَٰغًا﴾، أي: إنَّ هذا البلاغ الذي أُبلِّغه لا يصدرُ عن نفسي، بل يبدأ من اللّه، وينطلقُ من عنده، فهو وحيٌ إلهيٌّ خالص، لا دخلَ لي فيه، ولا أملكُ إلا تبليغه[1].

سر التعبير باسم الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾:

البلاغُ الصادرُ عن العظيم لا يكونُ إلا عظيمًا

آثرَ البيانُ الحكيمُ التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ الجامعِ لصفات الجلال والكمال؛ تعظيمًا لهذا البلاغ، وتربيةً للنفوسِ على تعظيمه، فهو بلاغٌ صادرٌ عن اللّه الذي أحاطَ بكلّ شيء قدرة وعلمًا، والذي من سعةِ رحمته أنّه لا يأخذُ أحدًا إلا بحجّة يعترفون بأنّها حجة[2].

وجه العطف بالواو، وتقديم البلاغ عليه:

عطفٌ يرفعُ من قيمةِ البلاغ، ويُظهِرُ عظمته

قوله: ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ معطوفٌ على ﴿بَلَٰغًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ بتقدير مضاف محذوفٍ اختصارًا، والمعنى: لا أملكُ لكم إلّا تبليغًا كائنًا منه تعالى وتبليغ رسالاته التي أرسلني بها[3]، وبلاغةُ العطف تكمنُ في التّوكيد والتفصيل؛ إذ

---
(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 313.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 496.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 313.

يوضّحُ العطف، ويؤكّد أنّ ما يملكه النبي ﷺ ليس فقط تبليغًا عامًّا، بل هو تبليغُ رسالاتٍ محدّدة ومُنزلة من عند اللّه، بما يرفعُ من قيمةِ البلاغ، ويُظهر عظمته، وقد قدّمَ البيانُ البلاغَ على الرسالة مراعاةً للرتبة؛ فالبلاغةُ الأولى هي الأعلى، ثم تليها الرسالة التي أوحي بها بوساطة الملك[1].

تأكيدٌ على شموليةِ البلاغ القرآني وعظمته

سرُّ جمع الرسالات:

عبّر البيانُ الحكيمُ عن القرآنِ بالرسالة وبصيغة الجمع لا الإفراد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾، فلم يقلْ: إلا بلاغًا من اللّه ورسالته؛ باعتبارِ تعدّد ما أُرسلَ به النبي ﷺ من العقائد والشرائع بأنواعها والأخلاق، ومن الأوامر والنّواهي والأخبار والقصص والأمثال والوعد والوعيد والترغيب والترهيب وغير ذلك[2]، وللتأكيد على شمولِ البلاغ، وأنّه ليس شيئًا واحدًا، وعلى أهميّة ما أوحي به وعظمته من هذه الرسالة العظيمة، التي هيمنت على الرسائل السماوية السابقة.

التحذيرُ من مخالفة اللّه ورسوله جزءٌ من أمورٍ بلّغها رسول اللّه

دلالة الاستئناف بالواو في قوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئنافية[3]، تأتي استكمالًا لِما سبقها، وتؤكّد أنّ مخالفة اللّه ورسوله ليستْ موقفًا معزولًا، بل جزءًا من سلسلة الأحكام الإلهية التي بلّغها رسولُ اللّه، التي توضّح الجزاء والعقاب.

ترتُّبُ الجزاءِ بالنار على مخالفة اللّه ورسوله أمرٌ حتميٌّ

بلاغةُ التّعبير بالجملة الشرطية:

التّعبيرُ بالجملةِ الشرطيّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أسلوبٌ موجزٌ مؤثرٌ، يفيدُ ارتباطَ العصيانِ بالعقابِ بشكلٍ حاسمٍ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 496.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 313.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 248.

وهذا الرَّبطُ يُشعرُ المستمعَ أو القارئ بأنَّ هناك عقابًا حتميًّا على العصيان، مما يزيدُ من ثِقَلِ الأمرِ.

سرُّ التّعبير بـ(مَنْ):

التعميمُ والترتيبُ الشرطي للعقاب

إيثارُ لفظ (مَنْ) دون (الذي)، ولم يقلْ: والذي يعصي اللّه؛ لكون (مَنْ) شرطيّة رتّبتِ الجزاءَ بالنار على مخالفةِ اللّهِ ورسولِه، وتفيدُ تعميمَ هذا الحكم على كلِّ مَنْ يقع في فِعْل العصيان، دون استثناء، أي: إنَّ كلَّ من يعصي اللّه ورسوله يقعُ تحتَ هذا الحكم، فلا مجالَ للتمييز أو الاستثناء.

سرُّ التعبير بالمعصية في الآية:

استمرارٌ في رفضِ الشِّركِ وتقريرِ التوحيد

المرادُ بالمعصية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هو الشركُ والكفر؛ تناسبًا مع محورِ السورة، وهي وحدةٌ متجانسةٌ وكلّها تدور حول محور التوحيد ورفض الشّرك، فقد حكى اللّه قولَ الجن: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، وحكى قول نبيّه: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾، وحذف متعلّق فعل المعصية؛ ليشملَ الشرك بجميع أشكاله وحالاته.

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَعۡصِ﴾ مضارعًا:

حكمُ اللهِ بالخلود في النّار لمن استمرَّ وماتَ على كفره

جاء فعل ﴿يَعۡصِ﴾ بصيغة المضارع؛ لإفادة أنّ حكمَ اللّه بالخلود في النّار هو لمن يستمرّ في كفره إلى أنْ تخرجَ روحه، ويخرجَ من دنيا التكليف، وهذا الاستمرار يوازي ما يستحقّه من هذا العذاب الأبدي.

دلالة التعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

تأكيدٌ لمقامِ الهيبة والتّخويف من المعصية

التّعبيرُ بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ لمناسبته مقامَ الهيبة والتخويف من المعصية ببيان جزائها المخيف، وهو الخلود في نار جهنم، والمعنى: ومن يعصِ اللّه الذي له العظمة كلّها، فإنّ له خاصةً نارَ جهنم التي تلقاه بالعبوسة والغيظ[1].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 497.

دلالةُ عطْف ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ على اسم الجلالة:

في عطْفِ الطاعة تشريفُ الرّسالةِ وتوكيدُ التّبليغ

عَطَفَ النَّظمُ الحَكيمُ طاعةَ الرّسولِ على طاعةِ اللّه؛ لِبَيانِ أنَّ اللّه قد شَرَّفَ رُسلَهُ، فجعل لهم مَنْزِلَةً عَظيمَةً من منزلته، حَتَّى كان مَنْ عصاهم كأنَّما عصاهُ، فيكون جزاءُ من عصاهُم كجزاءِ مَنْ عَصاهُ، لأنَّهُم لا يَنطِقونَ إلّا بوَحْيِه[1]، ولأنَّ السِّياقَ في سورَةِ الجِنِّ يأتي في مَقامِ تَعْظيمِ الرِّسالَةِ وتَأكيدِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مُبَلِّغٌ عن رَبِّهِ، وذَلِكَ بِتَكرارِ الأمْرِ بِـ ﴿قُلْ﴾.

سرُّ التَّعبير بلفظ الرسالة مضافًا:

إبـرازٌ للتكليف وتـأكـيـدٌ على وحدة الطاعة

اختيرَ لفظُ (رَسولَه) بدلًا من (نَبيِّه)؛ لإبرازِ جانبِ التبليغ والتكليف بالطاعة؛ إذ يُشيرُ (الرسول) إلى حاملِ الرسالة التي يجب امتثالها، لا سيّما وأنّ المقامَ هنا مقامُ إنذارٍ وتحذيرٍ من المعصية، فضلًا عن أنّ لفظ (الرسول) يتناسقُ مع تكرار ذكر (الرسالة) في السورة، في قوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ و﴿ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ و﴿أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

وإضافةُ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ إلى الاسم الجليل فيها تشريفٌ للنبيّ ﷺ وتسليةٌ له، بإظهارِ أنَّ طاعتَهُ ليستِ استقلالًا، بل هي فرعٌ عن طاعةِ اللّه، فلا يُفصل بينهما.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّ﴾:

الـشـركُ سببٌ في اسـتـحـقـاقِ الـعـذابِ الأبـدي في النار

دلّتِ الفاءُ الرابطة للجواب في الآية على أنّ الجزاءَ مترتّبٌ مباشرة على تحقُّق الشرط، أي: إنَّ العقوبةَ فوريةٌ ولا تَباطُؤ فيها، وفيها معنى السببية، فالعصيانُ بالكفر والشرك سببٌ في استحقاقِ الكافرين العذابَ الأبدي في النار.

دلالة التأكيد بـ(إنّ) واسمية الجملة:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أكّد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 497.

البيانُ القرآنيُّ الحكمَ الإلهيَّ على الكافر بخلودِه في جهنم، وذلك باستعمال (إنَّ) التي تفيدُ توكيدَ النسبة، وبالجملة الاسمية التي تدلُّ على الثبوتِ والاستمرار، في إشارةٍ إلى أنّ هذا الجزاءَ حتميٌّ لازمٌ لا يتغيّر.

الجزاءُ حتميٌّ لازمٌ لا يتغيّر

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿لَهُۥ﴾:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لإفادة الاختصاص، أي: إنَّ نارَ جهنم صارتْ له خاصة، فهو أحقُّ بها جزاءً على كفره[1].

سرُّ إيثار وصْف جهنم دون غيره:

التَّعبيرُ بجَهَنَّمَ دونَ غيره مِن أوصافِ النّارِ، فيهِ مُبالَغَةٌ في العَذابِ لِمَن يُصِرُّ، ويَسْتَمِرُّ على الكفرِ باللّهِ الَّذي لَهُ العَظَمَةُ كُلُّها، وبِرَسولِهِ الَّذي خَتَمَ اللّهُ بِهِ النُّبوَّةَ والرِّسالَةَ، بِأنْ تَلْقاهُ جَهَنَّمُ بالعُبوسَةِ والغَيْظِ، وهي التي تشملُ كُلَّ ما وُصِفَتْ به النّارُ في القرآن الكريم.

مُبالَغَةٌ في العَذابِ لِمَن يُصِرُّ، ويَسْتَمِرُّ على الكفرِ

دلالةُ إفرادِ (مَنْ) وجمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

بدأ التّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ بلفظِ المفردِ، ثم جاءَ لفظُ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بصيغةِ الجمعِ دون الإفراد، فلمْ يقل: (خالدًا)؛ حملًا على معنى الجمع في ﴿وَمَن﴾[2]، والحكمةُ في الإفراد هنا إظهارُ مسؤولية الفرد على كفره، فالقرارُ قراره، وهو يتحمَّلُ مسؤوليته، أمّا الجمعُ؛ فهو لإظهار أنّ العقابَ يشملُ كلّ الكفار، أي: جماعتهم، وللدلالة على عمومِ الذلّ[3].

في الإفرادِ إلماحٌ بالمسؤولية الفردية وفي الجمعِ إشارة بشمولية العقاب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 497.
(2) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 420، والزمخشري، الكشاف: 4/ 632.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 497.

دلالة التعبير بالظرفية (في):

مبالغةٌ في بيانِ شدّة عذابِ الكافرين بالنار

إيثار حرف الظرفية (في) يدلُّ على أنّ الخلودَ حاصلٌ داخلَ النار نفسها، لا حولها ولا بالقرب منها، وإلى أنّ الإنسانَ منغمسٌ في النار، ومحاطٌ تمامًا بالعذاب، لا مهربَ ولا مفرَّ منها، وفي هذا مبالغةٌ في بيانِ شدةِ عذاب الكافرين بالله ورسوله.

دلالة التعبير بلفظ ﴿أَبَدًا﴾:

نهايةٌ لا رجعة بعدها، قطعٌ تامٌّ لا نهايةَ له

أطنبَ البيانُ الحكيمُ بذكرِ لفظ ﴿أَبَدًا﴾ فاصلةً للآيةِ؛ للتأكيدِ والتحقيق على الخلودِ النهائي للكافرين في النّار والقطعِ المطلق عن الرّجعة، وذلك لقولِ من يدّعي الانقطاع[1]، وفيها إشارةٌ إلى النّفي المطلق لزوال النار، أمّا (دائمًا)؛ فتدلُّ على استمرارٍ زمني، ولكن لا تدلّ على أزليّة العذاب، ولذا فلفظ الأبدية أبلغُ وأنسبُ للخلود في النار، ولما ورد في الآيات السابقة التي بيّنت حالَ المشركين الذين أشركوا، وعاندوا الرسول ﷺ، حينَ دَعاهُمْ إلَى التوحيد، وعليه ما تَوَهَّموهُ تعجيزًا له مِنْ ضروبِ الاقتراح[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإجارة والمنع:

المنعُ أعمُّ من الإجارة التي تختصُّ بالإنقاذِ من الضرر

(يجيرُ) أخصّ من (يمنع)، فالإجارةُ تتميّز بمعنى الميل والقرب[3]، والحماية والإنقاذ من الضرر[4]، أمّا المنعُ؛ فأعمّ وأشمل، فهو خلافُ الإعطاء، فالمَنْعُ: أن تَحولَ بَيْنَ الرَّجُلِ، وبَيْنَ الشَّيْءِ الَّذي يُريدُهُ، ويُستعملُ للخير والشرّ[5]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ يجيرني أنسبَ مع السياق الذي يتحدّثُ عن نفي استطاعة أيّ أحدٍ أنْ ينقذ أحدًا من عذابِ الله؛ إنْ عصاه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 497.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 245.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جَوَرَ).
(4) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل المعجم الاشتقاقي: (جور).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 112، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (منع).

الخلود والمكث:

العذابُ الأبديّ المستمرّ هو ما يليقُ بوعيدِ الله للخارجين عن طاعته

الخلودُ هو المكثُ الطويل، واستمرارُ البقاء والتأبيد، ومن معانيه الثباتُ المديد، والملازمةُ على حالةٍ ثابتةٍ من غير طروءِ التغيير، وهو تبرّي الشَّيءِ مِنِ اعتراضِ الفساد[1]، أمّا المكثُ؛ فهو الإقامةُ والانتِظارُ والتَّلَبُّثُ في المَكانِ زَمَنًا كالمقيم الثابت[2]، وقد استعملَ القرآنُ لفظَ الخلود هنا؛ لكونه أنسبَ وأبلغَ في التّخويف مع السياق الذي يتحدّث عن العذاب الأبدي، الذي لا نهايةَ له ولا انقطاع، والذي أعدّهُ اللّهُ للكافرين الخارجين عن طاعةِ اللّه، فينقطع عندهم أيُّ توهُّم أو أملٍ في الخروج من جهنم.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 239، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خلد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مكث).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾ [الجن: 24]

المصيرُ الأبديُّ المحتومُ للكافرين حين يَرون ما يوعَدون

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ أنْ بيّن اللّهُ تعالى الجزاءَ الأبديَّ في النّار لمن يكفرُ باللّه ورسوله؛ أتبعَ بتهديدِ المشركين الذين كانوا أقصرَ نظرًا من الجنِّ في عدَمِ الإيمانِ بالهزيمة والمذلّة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوعَدُونَ﴾: أصلُ (وعد) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وَعَدْتُهُ أعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعيدُ؛ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ(2)، والوَعْدُ: مَعْروف، وعدتُ الرجلَ أعِده وعْدًا حسنًا من مال وغيره(3)، والوعدُ هنا بمعنى الوعيد، أي: ما يعدهم ربّهم من العذاب وقيام الساعة(4).

2) ﴿نَاصِرٗا﴾: أصلُ (نصر) يَدُلُّ عَلَى إتيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللّه المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِم، وانتَصَرَ: انتَقَمَ(5)، والنَّصرُ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ مناسِبَةٌ وقوَّة، والنَّصْرُ والنُّصْرة: حُسنُ المَعونة أو عَوْنُ المظلوم، ونَصَرَ الغَيْثُ البِلادَ: أرواها، والانتصارُ: الانتقامُ من الظّالم بعونِ المظلوم عليه، ونصرْتُه على عدوِّه ونصرْتُه منه نَصْرًا، أعنْتُه، وقوَّيْتُه(6)، وهو معنى ﴿نَاصِرٗا﴾ في الآية.

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 29/ 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 671.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(6) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والفيومي، المصباح المنير، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تهديدُ المشركين بالهزيمة والمذلّة

يقولُ تعالى مهددًا المشركين - الذين كانوا أقصرَ نظرًا من الجنّ في عدم الإيمان - بالهزيمة والمذلّة: ما يزالُ المشركون من الجنّ والإنس على كفرهم، حتى إذا عاينوا ما يعدهُم ربهم من العذاب وقيام الساعة، فسيعلمون يومئذٍ من أضعفُ جندًا ينتصرُ به، وأقلُّ عددًا، أجندُ اللّهِ الذي أشركوا به؟ أم هؤلاء المشركون به؟[1]، أي: بل المشركون لا ناصرَ لهم إطلاقًا، وهم أقلُّ عددًا من جنودِ اللّه تعالى[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التعبير بحرف الغاية بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾:

عداوةُ المشركين واستضعافهم للمؤمنين مستمرٌّ حتى العذاب الموعود

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا﴾ حرفُ ابتداء؛ إذْ يصلحُ أنْ يجيء بعدَها جملةُ الابتداءِ والخبرِ، ومعَ ذلكَ فيها معنى الغاية[3]، إمّا غايةٌ لقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾، أي: يتظاهرون عليه بالعداوة، ويستضعفون أنصاره، ويستقلّون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون من يوم بدر وإظهار اللّه له عليهم أو من يوم القيامة، فسيعلمونَ حينئذٍ أنَّهم أضعفُ ناصرًا وأقلُّ عددًا، أو غايةٌ لمحذوف يدلُّ عليه الحالُ من استضعافِ الكفارِ لأنصاره ﷺ واستقلالِهم لعدده، كأنَّه قيلَ: لا يزالونَ على ما هُم عليهِ حتَّى إذا رَأوا ما يوعدون من فنون العذابِ في الآخرة، فَسَيَعْلَمونَ حينئذٍ مَنْ أَضْعَفُ ناصِرًا وأَقَلُّ عَدَدًا[4].

معنى ﴿إِذَا﴾ وسر دخول ﴿حَتَّىٰٓ﴾ عليها:

وقوعُ الموعود بعد مُهلةٍ واختبارٍ واستدراجٍ إيحاءٌ بغرورِ المشركين

﴿إِذَا﴾ اسمُ زمان للمستقبل مضمَّنٌ معنى الشرط، وهي في محلّ نصبٍ بجوابِه الذي هو قوله: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾، وفي دخول ﴿حَتَّىٰٓ﴾

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 671.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 29/ 178.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 249.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 632.

عليها إشارةٌ إلى تأخيرٍ زمني، أي: إنَّ هذا الموعود لنْ يقعَ فورًا، بل بعد مُهلةٍ واختبارٍ واستدراجٍ، وهذا يوحي بأنَّ المجرمين كانوا في غرورٍ وتكذيبٍ وعنادٍ، حتى جاءت تلك اللحظة الفاصلة، ويؤكّد ذلك التّعبيرُ بـ﴿إِذَا﴾ التي تدلّ على أنّ رؤيةَ الكافرين لِما يوعدون من العذاب متحقّقة الوقوع[1].

سرُّ التَّعبير بفعل الرؤيةِ مادة وصيغةً:

الرؤيةُ البصرية وتأكيدُ تحقُّق الوعيد في البيان القرآني

آثرَ البيانُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالرؤيةِ دون العلم، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾؛ لكونِ الرؤيةِ بصريةً، والمعنى: إذا عاينوا بأبصارهم ما يعدهم ربهم من العذاب[2]، وجاءتِ الرؤيةُ بصيغةِ الفعلِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِ رؤية ما يوعدون به من العذاب[3]، وتصوير تحقُّق الوعيد.

مرجع الضمير ودلالته في: ﴿رَأَوۡاْ﴾:

في الإضمار إلماحٌ باحتقارِ المشركين والإعراض عنهم

الضميرُ في ﴿رَأَوۡاْ﴾ يعودُ على معلومٍ من السّياق، وهم المشركون الذين أنكروا الرسالة، وادّعوا القوةَ والكثرة، وادّعوا أنَّ النبي ﷺ وأتباعَه أقلّ ناصرًا وعددًا، ومِن ثَمَّ فلا حاجةَ لتكراره، وأيضًا فإنّ الإضمار يُلمحُ بالاحتقار والتقليل والإعراض عنهم.

دلالةُ التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾:

أهوالٌ عظيمةٌ بكثرتها وإبهامها تنتظرُ الكافرين

لمْ يقلْ سبحانه: حتى إذا رأوا العذاب، وإنما عبّر بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾؛ لأنّها مع الموصولية تفيدُ الإبهامَ المقصود، أي: شيئًا عظيمًا، مجهولًا في حقيقته، مروّعًا في أثره، كأنما ينتظرهم شيءٌ هائل لا يُسمّى، بل يُتركُ لتتخيله النفس، ولذا لم يعبّر بـ(الذي)؛ لأنّها تدلُّ على شيءٍ معروفٍ محدَّدٍ، لا يُحدثُ

(1) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 498.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 246.

الأثرَ نفسه من التهويل، بالإضافة إلى أنّ (ما) أكثرُ عمومًا، فتدلُّ على أنواعٍ كثيرةٍ من العذاب أو الأهوال، وأكثرُ اختصارًا ومناسبةً للسّياقِ السَّريعِ المتلاحقِ في جوّ الوعيدِ والتّهديدِ.

دلالة بناء الفعل المضارع ﴿يُوعَدُونَ﴾ للمفعول:

تـصـويـرٌ حـيّ مستمرٌ للوعيد الإلـهي وتعزيزُ جـوّ الـتـهـويـل والتخويف فيه

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ المضارعِ المبني للمفعول في قوله تعالى: ﴿يُوعَدُونَ﴾؛ لتصوير مشهد العذاب بصورةٍ حيّةٍ مستمرّةٍ، وكأنّه حاضرٌ يُرى ويُنتظر، وقد أُضمر الفاعل - مع كونه معلومًا، وهو اللّه سبحانه للتركيز على مضمونِ الوعيد ذاته، وما يحمِلُهُ من أهوالٍ، لا على مَنْ يصدرُ عنه، وجاء ذلك تعزيزًا لجَوّ التهويل والتخويف، وتكثيفًا للانتباه نحو ما ينتظرهم من عذاب.

الغرض من حذفِ متعلّق ﴿يُوعَدُونَ﴾:

إبـهـامٌ يـفـيـدُ تهويلَ العذاب الموعود، وعمومٌ يفيدُ كثرةَ أنواعه وصوره

التقديرُ في قوله تعالى: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾: ما يوعدون به، ولكنّ البيانَ الحكيم حَذَفَ متعلّق الفعل؛ للإبهام المقصود الذي يفيدُ التهويل؛ إذ يجعلُ النفسَ تتصوّر أشدَّ صور العذاب والهلاك والفضيحة والخزي، دون تقييدها بوصف واحد، وللدلالة على العموم والشمول، والمعنى: حتى إذا رأوا كلّ ما وُعدوا به من العقاب الدنيوي من أيام اللّه، التي ملأتِ الأرضَ نورًا، وأهل الحقّ سرورًا وحبورًا، وأهل الباطل خسارًا وبورًا ورعبًا وهلاكًا وقبورًا، والعقاب الأخروي من أهوال يوم القيامة وعذابها[1].

دلالةُ التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾:

حـــدوثُ علم الـكـافـريـن بإخفاقِ آمالهم فورَ تحقّق رؤية العذاب

الفاءُ في قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حرفٌ لجوابِ الشرط، وتعبّر عن أنَّ جوابَ الشرط سيكون واقعًا حتميًّا بمجرَّد تحقّق الشرط، أي: إنَّ علمَ الكافرين بإخفاقِ آمالهم يحدثُ فورَ تحقّق رؤية ما يوعَدون.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 498.

سرُّ التَّعبير بالسّين في ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾:

تأكيد علم الكافرين بإخفاق آمالهم فورَ وقت رُؤيةِ العذابِ

السّينُ في قوله تعالى: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ للتَّأكيدِ المُجرَّدِ، لا للاستِقبالِ بوصف السّينِ حرْف استِقبالٍ، فعِلمُ الضَّعيفِ مِن القَويِّ يَحصُلُ فَورَ وقْت رُؤيةِ العذابِ، ولكنّ السينَ تَقْتضي أنَّه يَتأخَّرُ عنه، ولذا فهي للتأكيد هنا[1].

دلالةُ التَّعبير بالعلم في قوله: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ مادة وصيغة:

استحضارُ العلم بالخذلان في الذهنِ أشدُّ تأثيرًا على النفوس

مقتضى الكلام أن يُقال: حتى إذا رأوا ما يوعدون، فعلموا، ولكنّ البيانَ الحكيمَ عَدَلَ عن الماضي إلى المضارع، فقال: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنّه أبلغُ في التَّهديد والتأثير، فإنّ الفعلَ المضارعَ يفيدُ استحضارَ الأمر في الذّهن؛ ليكونَ أشدَّ تأثيرًا على النفوس.

دلالة التَّعبير بـ﴿مَنۡ﴾ في قوله: ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ﴾:

بين الاستفهاميةِ والموصوليةِ في سياقِ الوعيد القرآني

﴿مَنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا﴾ إمّا استفهاميةٌ مرفوعةٌ بالابتداءِ، و﴿أَضۡعَفُ﴾ خبره، والجملةُ في موضعِ نصْبٍ سدّتْ مسدّ مفعولي العِلْم، والاستِفهامُ بما فيه من الإبهامِ يَكونُ كِنايةً عن الغَرابةِ، بحيث يَسألُ النّاسُ عن تَعيينِ الشَّيءِ بعْدَ البحثِ عنه[2]، أو موصولةٌ في موضع نصبٍ بـ(سيعلمون)، و﴿أَضۡعَفُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، والجملة صلة لـ﴿مَنۡ﴾، والمعنى: (فسيعلمون الذي هو أضْعَفُ ناصِرًا)، وحسَّنَ حذفُ المبتدأ طول الصلة بالمعمول، وهو ﴿نَاصِرٗا﴾[3].

سرُّ إيثار لفظ الضعف دون غيره:

مبالغةٌ في بيانِ ضعْفِ الأنصار

اختارَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ (الضَّعْف) بدلًا مِنَ (الوهْن)؛ مبالغةً في بيانِ ضعف الأنصار؛ لأنّ الضَّعفَ أعمُّ وأشملُ في الدلالةِ؛ إذ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 249 - 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 246.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 251.

يشملُ كلَّ صورِ النقص أو القِلّة في القوّة، سواءٌ كانت بدنية أو نفسية أو معنوية، أو حتى في الدعم والتأييد، أما (الوهْن)؛ فيُستخدم غالبًا للدلالة على الضعف الجسدي، أو الضّعف الناتج عن الكِبَر أو المرض، وهو أضيقُ دلالة، ولم يُستعمل كذلك لفظ (القِلّة)، فلم يقل: (أقلّ ناصرًا)، وذلك لما بين (الضَّعْف) و(النَّصر) من نوعٍ من الطباق، يُعزّز السخرية والتهكُّم من حالهم؛ إذ كيف يُنتظرُ النصرُ ممّن هو ضعيف، بل أضعفُ من أنْ يُعين، أو يُنصر؟.

دلالة التعبير عن الضعف والقلّة بأفعل التفضيل:

إبرازُ الفارقِ الكبيرِ بين الكافرين والمؤمنين في القوَّة والعدد وتأكيده

لم يعبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (ضعيف) أو (قليل)، في قوله تعالى: ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾، وإنّما اختارَ صيغتي التّفضيل: ﴿أَضۡعَفُ﴾ و(أقلّ)؛ للدلالة على الموازنة بين طرفين، ولتأكيد الفارق الكبير بينهما في القوة والعدد بين الكافرين والمؤمنين، أمّا استعمال (ضعيف) أو (قليل)؛ فكان سيقتصر على مجرّد الوصف دون أنْ يبرز هذه المفاضلة، ولا يُظهر الانقلابَ في الموازين، الذي يلفتُ إليه السياق التهديدي والساخر من ظنون المشركين.

سرّ إيثار لفظ الناصر دون غيره:

ضعفُ أنصار الكافرين عن المعونة والدفع والردّ والنصر الكامل

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بلفظِ (النّاصر) دون (المُعين)، فلم يقلْ: (منْ أضعف مُعينًا)؛ لأنَّ لفظَ (النّاصر) أوسعُ دلالةً وأشملُ معنى، فالنصرُ يشملُ الإمدادَ الذي يحتوي على زيادة مناسبة وقوّة، وهو أنسبُ للسياق الذي يتناولُ موقف مواجهة وصراع؛ إذ لا تكفي المعونة فقط، بل المطلوبُ هو الدفع والردّ والنصر الكامل.

بلاغة الجمع بين ضعف الناصر وقلّة العدد:

تهوينٌ من شأن المشركين بضعفِ أنصارهم وضعفِ أنفسهم

جمعَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾ بين ضعفِ الناصر وقلّة العدد؛ ليُحكمَ التهوين من شأنِ المشركين من جهتين: جهةِ من يعتمدون عليهم (أنصارهم)، وجهة أنفسهم،

ففي ضعفِ الناصر إشارةٌ إلى وهنِ سندهم الخارجي، وفي قلّةِ العددِ دلالةٌ على هزالِ قواهم الذاتية(1)، وهذا التعبير المُحكم لا يحملُ فقط وعيدًا للمشركين بخيبة ما اغترّوا به من أمنهم وقوّتهم الظاهرة، بل يتضمّنُ وعدًا ضمنيًّا للمؤمنين بنصرٍ مؤزّر، يُقلبُ فيه ميزانُ القوّة الظاهري، فيظهر أنّ النصرَ لا يُقاس بعدد ولا بعدّة، وإنّما بتأييد اللّه.

نكتة تنكير لفظ ﴿عَدَدًا﴾:

في تأكيدِ شدّة القلّةِ تعزيزٌ لوقعِ التهديد في نفوس المخاطبين

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿عَدَدًا﴾ منكّرًا في سياقِ التَّفضيل بـ(أقل)؛ ليؤكّد شدّة القِلّة، حتى ليُخيَّل أنّ هذا العدد لا يُعتدّ به أصلًا، فهو قليلٌ إلى حدّ التلاشي، فالآيةُ لا تكتفي بوصفهم بأنهم أقلّ، بل توحي بأنّ ما لديهم من عددٍ لا يُلتفتُ إليه لفرطِ ضعفه، وجاء هذا التنكير أيضًا تحقيقًا للانسجام الصوتي والجمالي في ختام الآية، وتناسقًا مع ما عُطف عليه من عناصرِ التهوين في الآية نفسها، ممّا يُعزّز وقعَ التهديدِ والوعيد في نفوس المخاطَبين.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿عَدَدًا﴾:

فخرُ المشركين بكثرتهم وهمٌ لا وزنَ له

اختارُ البيانُ القرآنيُّ التعبيرَ بلفظ ﴿عَدَدًا﴾ بدلًا من (عُدّة)؛ مراعاةً لمقام التهديد، الذي يواجه فيه القرآن فخرَ المشركين وتباهيهم بالكثرة العددية، فقد كانوا يرون في كثرتهم ضمانًا للنصر، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [سبأ: 35]، وقال أيضًا: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤﴾ [القمر: 44]، فجاء التعبير بـ﴿عَدَدًا﴾؛ ليضربهم في موطنِ زهوهم، ويُفهمهم أنّ هذه الكثرة التي بها يفتخرون، ليستْ إلا وهْمًا لا وزنَ له، بل هي أقلُّ مما يظنّون، وأهونُ من أنْ تُحدثَ أثرًا، وهذا الاختيارُ يُعزّز الأثرَ البلاغي للآية؛ إذ ينقلبُ فخرهم عارًا، ويُحوَّل اعتدادهم بالكثرة إلى مصدر إذلالٍ وسخرية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 246.

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾

[الجن: 25]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الـــردُّ علـى اســتــهــزاء المــشــركـين بــســؤالــهــم العذابَ استِهْزاءً

لمّا كان منَ المعلومِ أنَّ المشركين إذا سَمِعوا ما سبق من الوعيد؛ قالوا استِهْزاءً وعمًى واستِعلاءً: مَتى يكونُ؟ عجِّل بِه، استَأنفَ قَولَهُ بجوابِ مَن لا يَسْتَخِفُّهُ عَجَلَةً ولا ضَجَرًا، مُبَيِّنًا ما يَجوزُ عَلى الرُّسُلِ مِن أنَّهُ يخفى عليهم ما على البَشَرِ، ويُطْلِعهمُ اللّه تَعالى ما يَخْفى عَلى غيرهم، فقال: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمَدًا﴾: الجذرُ اللُّغويُّ للكلمة هو (مدي)، أو (أمد)، والأمَدُ: مُنْتَهَى كلِّ شيءٍ وآخرُه[2]، والأمدُ والأبدُ يتقاربان، لكن الأبَدَ: عبارة عن مدّة الزمان التي ليس لها حدّ محدود، ولا يتقيّد، والأمَدُ: مُدَّةٌ لَها حَدٌّ مَجْهولٌ؛ إذا أُطلق[3]، ومعنى ﴿أَمَدًا﴾: بعيد له مدة طويلة وأجل مضروبٌ ومحدودٌ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عذابُ الله كائنٌ لا محالةَ ولكن تـعـيـين وقـتـه مختص بالله

يقول تعالى ذكره لنبيّه: قلْ يا محمدُ لهؤلاءِ المشركين باللّهِ مِنْ قومك ردًّا على سؤالهم عنِ العذابِ الموعود استهزاءً: ما أدريْ أقريبٌ ما يعدكم ربكم مِنَ العذابِ وقيام الساعة، أم يَجعَلُ له ربّي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 499.
(2) الخليل، العين: (مدي).
(3) الراغب، المفردات: (أمد).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500، والصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.

غايةً معلومةً تطولُ مدتها[1]، أي: هو كائنٌ لا محالةَ، وأمّا وقتُه؛ فما أدْري متَى يكونُ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سر فصل هذه الآية عما قبلها:

استئنافٌ يُعلن عدمَ علمِ النبيّ بوقتِ العذاب

جاءتْ جملة: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنها جوابٌ عن سؤالٍ مُقدّر أثاره السياق، وهو ما اعتادَ المشركون تكراره من تساؤلهم عن موعد تحقُّق الوعيد، كقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [النمل: 71][3]، ولما سبقتها الآية بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ﴾، دلّ ذلك على أنّ سؤالهم القديم سيُعاد، فجاء الجوابُ مسبوقًا بالأمر الإلهي للنبي ﷺ أنْ يُعلنَ عدمَ علمه بوقت نزول الوعيد؛ تأكيدًا بأنَّ الأمرَ بيد اللّه وحده، وفي هذا الاستئناف دقَّةٌ بلاغيةٌ في وصل المعنى بالسياق، واستمرارٌ في الردّ على شبهاتهم بطريقة غير مباشرة تحملُ تهديدًا ضمنيًّا.

سرُ تصديرِ الآية بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ وتكراره:

تـأكـيـدُ أهمية الـمـقـول وسـرعـة تبليغه والمواجهة به

كرّرَ البيانُ القرآن الفعل ﴿قُلۡ﴾، وصدّر به الجملة؛ للتأكيد على أهمية المقول، وهو حصرُ تعيين وقتِ الساعة، وسرعةُ تبليغه والمواجهة به، باعتباره رسالةً خاصة، وهذه المعاني لا تنفكُّ عن هذا الفعل الذي خاطبَ اللّهُ به رسوله في القرآن كلّه، وللتأكيد على رسالةِ النَّبي ﷺ وتقريرها، وأنّه المبلغُ الذي تؤخذُ عن طريقه الرسالة.

سرُّ النفي بـ﴿إِنۡ﴾ دون (ما):

تأكيدُ نفي العلم بـأيّ وجـهٍ من وجـوهِ تـعـيين وقت العذاب

اختارَ البيانُ القرآنيُّ أداةَ النَّفي ﴿إِنۡ﴾، في قوله: ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ دون غيرها من أدوات النفي، لما فيها من قوّة وتوكيد[4]، فهي أبلغُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 671.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 47.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 247.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 499.

في نفي العلم من أدواتٍ أخرى كـ(ما) أو (لا)، ويُفهم من هذا النفي: نفي العلم بأيّ وجهٍ من وجوه تعيينِ وقت العذاب، وهذا الإبهامُ المقصود يُعزّز من وقعِ التهديد؛ إذ يجعل الوعيدَ غير محدَّد الزمن، فيبقى المخاطَبُ في قلقٍ دائم وترقّب مستمرّ، وهو ما يزيدُ أثرَ التخويف، ويُضاعف شدّةَ التهديد.

سرُّ التّعبير بنفي الدراية:

نفيُ الدرايةِ أبلغُ في تصويرِ انتفاءِ العلم بالغيب

جاء التعبيرُ بنفي الدراية في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ بدلًا من نفي العلم؛ لأنّ الدراية أبلغُ في التعبير عن انتفاءِ العلم بعد بذلِ الجهد والبحث، فالدراية تُشير إلى سعي الإنسان في التنقيب والمعالجة للوصول إلى المعلومة، بخلافِ العلم الذي قد يكون مُجرّد إدراكٍ بدون سابق جهد، ومن هنا فإنَّ نفي الدراية في لسان النبي ﷺ يُفيد أنَّه حتى لو بذلَ غايةَ وسعه، وتسبّب في البحث، فلن يبلغَ معرفة وقت العذاب؛ لأنّه من الغَيب الذي اختصّ اللّهُ به[1]، ولهذا يوصفُ اللّه بالعلم، ولا يوصف بالدراية؛ إذ هي من خصائص المخلوق، وجاء هذا التعبير أيضًا تحقيقًا للانسجام السياقي في السورة؛ إذ ورد اللفظ نفسه في قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، مما يُضفي على البناء البلاغي للسورة وحدة موضوعية وصوتية متناسقة.

سرُّ التّعبير بقوله: ﴿أَمۡ﴾ مع الاستفهام في قوله: ﴿أَقَرِيبٞ﴾:

زيادةُ تقرير خفاءِ وقت العذاب الموعود وعدمُ دراية النبي به

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ صوريٌّ وليس اصطلاحيًا، والهمزةُ همزة التسوية تقدّمت على ﴿أَمۡ﴾ المتصلة المعادلة، والمقصودُ ليس السؤالَ عن أحدِ المتعادلين: القرب والبعد، بل المقصودُ هو إعلانُ عدمِ الدراية من قبله ﷺ بذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 247.

التعيين[1]، وقد آثرَ البيانُ القرآني استعمالَ صورة الاستفهام؛ لزيادة تقريرِ خفائه، وأنه لا يزالُ في حيّز ما يسألُ عنه بصيغة الاستفهام[2].

دلالةُ تقديم القرب في الحديث عن موعد العذاب:

تعجيلُ التهديدِ أكثرُ إخافةً للمشركين

قدَّم البيانُ الحكيمُ لفظَ ﴿أَقَرِيبٌ﴾، وهو يتحدّثُ عن موعد وقوعِ العذاب الذي أخفاه سبحانه أقريبٌ هو أم بعيد؛ لكون ذلك أكثرَ إخافةً للمشركين، أي: يَكونُ الآنَ أَوْ قَريبًا مِن هَذا الأوانِ بِحَيْثُ يتوقَّعُ عَنْ قُرْبٍ[3].

دلالةُ التّعبير بـ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾:

زيادةُ تهويلِ شأن العذاب الموعود وتأكيد اقترابه

جاء التعبير القرآني بـ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ إمّا على أنَّها اسمٌ موصولٌ بمعنى (الذي)، وقد اختيرتْ؛ لِما تحمله من إبهامٍ مقصود يُثير التشويق والترقّب؛ إذ يوحي بأنّ الموعود أمرٌ عظيم لا يُسمّى صراحة، بل يُتركُ للنفس أنْ تتخيّله بما فيه من هولٍ وفزع، وهو أسلوبٌ بلاغي يُضاعف من أثر التهديد، كما تحتمل ﴿مَّا﴾ أنْ تكونَ مصدرية، فيكون المعنى: أقريبٌ وعْدكم أو وقت وعيدكم[4]؟ وهو تأكيدٌ على اقترابِ ساعة الحساب.

دلالةُ الالتفات في قوله: ﴿تُوعَدُونَ﴾:

الانتقالُ إلى التهديد المباشر أشدُّ وقعًا على النفس

التفتَ البيانُ الحكيمُ من صيغةِ الغَيبة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ﴾، إلى صيغةِ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ لنقلِ السّامعِ مِن التّهديد العام للكافرين إلى التهديدِ المباشر الشخصي لهم، وهو أشدُّ وقعًا على النفس، بما يُحدثُ صدمةً بيانية قوية، كأنّ المتكلمَ يلتفتُ فجأة إلى

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 304.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 499.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 499.
(4) ابن عادل، اللباب: 19/ 441.

الحضور، ويقول: أنتم من يوعد، والكلامُ الآن معكم أنتم، لا مع غيركم، فيصيرُ التَّهديد ألصقَ بالنفس، وأشدَّ تأثيرًا في القلب.

سرّ تقديم لفظ (قريب) على ﴿تُوعَدُونَ﴾:

تأكيدُ خفاء هذا الموعد يعمّقُ حالةَ القلق في قلوبِ المكذِّبين

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ الخبر (قريب) على المبتدأ ﴿تُوعَدُونَ﴾؛ للزيادة في تأكيدِ خفاء هذا الموعد، وأنّه لا يزالُ في حيّز ما يُسأل عنه بصيغة الاستفهام، وهذا يعمّقُ حالةَ القلق والانتظار في قلوب المكذّبين، ويجعلُ التهديدَ أكثرَ وقعًا وأشدَّ حضورًا، أي: فذكرَ ما يُخيفهم أولًا، فقال: ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾[1].

دلالة بناء الفعل ﴿تُوعَدُونَ﴾ لما لم يسم فاعله:

تعظيمُ العذابِ الموعود وتهويلُهُ

لمْ يأتِ البيانُ القرآنيُّ بفاعل ﴿تُوعَدُونَ﴾، وعبَّر بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ لغرضين: أحدهما لفظيٌّ، هو الإيجاز، فالفاعلُ معلومٌ، وهو اللّهُ سبحانه مع ما في هذا التَّعبير من فخامةٍ ورهبةٍ يحسّ بهما الذوقُ، والثاني معنويٌّ، وهو التركيزُ على الحدثِ، وهو العذابُ الموعود، والتخييل بعموم الفاعلين، حتى لكأنّ كل شيء في الوجود يعدُ المشركين بالويل والثبور وعظائم الأمور، أي: كلّ شيء صار في حكم لهم[2].

سرُّ التّعبير بالفعل ﴿يَجۡعَلُ﴾ مادة وصيغة:

الـتـخـويـفُ المستمرُّ متناسبٌ مع التردّد المقلق

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ صيغةَ المُضارِعِ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ بدلًا من الماضي؛ لأنّ دلالة المضارع على الحال والاستقبال تُناسب تمامًا طبيعةَ الترديد بين قُرب وقوعِ الموعود به أو تأخُّره، واستعمالُ الماضي كقوله: (أم جعل له ربي أمدًا) كان سيفيدُ الجزمَ بتأخّر الموعد وانقضاء أمده، وهو ما يُخالفُ مقصودَ الآية من الإبقاء على حالةِ الترقّب والتردّد، وجعل السامع في حيرة بين

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20: 499.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 305.

احتمالِ القُرب أو التأجيل[1]، وهذا ما يُكثفُ عنصرَ التخويف، ويُبقي بابَ التهديد مفتوحًا في كلّ لحظة.

الغرض من تقديمِ الجار والمجرور: ﴿لَهُۥٓ﴾:

تعميقُ الاهتمام والتركيز على العذابِ زيادةٌ من وقعِ التخويف فيه

يفيدُ تقديمَ الجار والمجرور ﴿لَهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ تخصيصَ العذابِ الموعودِ بمدةٍ معينةٍ، سواء في الدنيا أو الآخرة، مما يعمّق معنى الاهتمام والتركيز على هذا العذاب، ويزيدُ من وقع التهديد والتخويف فيه.

سرُّ الإطنابِ بذكر الربوبية مضافًا لرسول الله:

توكيدُ العناية بالنبي صلى الله عليه وتشريفه في مشهدِ الوعيد

أطنبَ البيانُ الحكيم بذكر لفظ ﴿رَبِّىٓ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾، ولم يقلْ: (أم يجعل له أمدًا)؛ لأنّ تأخيرَ موعد العذاب رُبَّما أُفْهِمَ منه تَهاوُنًا بِالوَلِيِّ، ولذلك قالَ دافِعًا لِذَلِكَ: بقوله: ﴿رَبِّىٓ﴾ مُظهرًا بلفظ الربوبية المضاف إلى النبي إحسانه وفضله وتشريفه له، أي: ربي المُحْسِن إليَّ إنْ قَدَّمَهُ، أوْ أخَّرَهُ[2].

نكتة تنكير لفظ: ﴿أَمَدًا﴾:

إبهامٌ للتخويف وتعليقٌ للقلوب بموعد مجهول

عبّر البيانُ الحكيمُ بلفظِ ﴿أَمَدًا﴾، وهو مُدَّةٌ لَها حَدٌّ مَجْهولٌ؛ إذا أُطلق[3]، ولم يُصرّحْ بالبعدِ، كما في قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا﴾ [آل عمران: 30]؛ للإشارة إلى أنّ النّبي ﷺ كان يستقربُ الموعد، فكأنّه قال: ما أدري أهو حال متوقّع في كلّ ساعة أم مؤجل ضربتْ له غاية[4]؟ وقد نكّره؛ لإفادة التعظيم والإبهام الذي يزيد من الترقّب والخوف في النَّفس، والمعنى: "أجَلًا مَضْروبًا عَظيمًا بِكُلِّ اعتِبارٍ حَتّى في البُعْدِ لا يَتَأتّى مَعَ ذَلِكَ أنْ يَكونَ الآنَ، ولا أنْ يَتَوَقَّعَ دونَ ذَلِكَ الأمَدِ، فَهو في كُلِّ حالٍ مُتَوَقَّعٌ، فَكونوا عَلى غايَةِ الحَذَرِ"[5].

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 305.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500.

(3) الراغب، المفردات: (أمد).

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 632.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500.

بلاغة التعبير بالطباق بين قوله: ﴿أَقَرِيبٌ﴾ و﴿أَمَدًا﴾:

بين لفظي: ﴿أَقَرِيبٌ﴾ و﴿أَمَدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ طباقٌ إيجابيٌّ فيه دقةٌ وخفاءٌ؛ لأنّ أمدًا بمعنى: بعيد، وهذا الطباق من مقتضيات المقام؛ لأنّ أصلَ الدلالة هو ترديدُ الحكم بين القُرْب والبُعْد، مما يزيدُ الترقّب والقلق، ويعزّزُ التهديد، دون التصريح بوقتٍ محدّد.

طـبـاقٌ يـزيـدُ الترقّب والقلق، ويعزّز التهديد

سرُّ تقديم ﴿أَقَرِيبٌ﴾ على ﴿أَمَدًا﴾:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿أَقَرِيبٌ﴾ على ﴿أَمَدًا﴾؛ مناسبةً للمقام وهو الترهيبُ للمشركين ومنكري البعث، أي: جاء التقديم لزيادة الترهيب الذي يناسبه القُرْب، ومراعاة لفواصل الآيات، وهي: (﴿عَدَدًا﴾، ﴿أَحَدًا﴾، ﴿رَصَدًا﴾).

تعجيلٌ للترهيب ومـراعـاةٌ للفاصلة

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ [الجن: 26 - 27]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تأكيدُ نفي علمِ النبي بوقت قيام السّاعة

لمّا نفى ﷺ علمَ وقتِ تعيين وقوعِ العذاب وقيامِ السّاعة عن نفسه الشّريفة؛ نفى ذلك عن غيره على وجهٍ عام لجميعِ الغيب، معظّمًا من أرسله سبحانه بقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: مَصدَرُ الفعل (غابَ يغَيبُ غَيْبًا)، والغيبُ: كلُّ ما غابَ عنك، وأصله يدلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عنِ العُيون، فكُلُّ ما غابَ عَنِ العيونِ، سواءٌ كانَ مُحَصَّلًا في القلوب، أمْ غيرَ مُحَصَّلٍ؛ فهو غيبٌ[2]، ويُطلقُ الغيبُ على المُطْمَئِنِّ مِنَ الأرضِ[3]، وهو ما انخفضَ منْها، وهو راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ إذِ الدّاخِلُ في مُطمَئِنِّ الأرض يكونُ غائبًا مَخفيًّا عَنِ العيونِ[4]، ومعنى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: عالمُ ما غابَ عن أبصار خلقه، وخفيَ عن أنظارهم[5].

2) ﴿ٱرۡتَضَىٰ﴾: أصْلُ الجذر (رضي) واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ السُّخطِ[6]، ورِضا العبدِ عن اللّه: ألّا يكرهَ ما يجري به قضاؤه، ورِضا اللّهِ عن العبد هو أنْ يراهُ مُؤتمرًا بأمره، ومنتهيًا عن نهيه[7]، وارتضى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (غيب).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 84.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 671، والصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(7) الرّاغب، المفردات: (رضي).

الأمرَ: رَضيه، أي: اختاره، وقبِله[1]، ومعنى ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ أي: إلا من اختارهُ اللّهُ، واصطفاه لِلاطِّلاعِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الغَيْبِ لِحِكمَةٍ أرادَها اللّه تَعالَى[2].

3) ﴿رَصَدًا﴾: أصلُ (رصد) هو التَّهَيُّؤُ لِرِقْبَةِ شَيْءٍ عَلَى مَسْلَكِه، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ما يُشاكِلُهُ[3]، والراصِدُ بِالشَّيْءِ: الرّاقِبُ لَهُ، رَصَدَه بِالخَيْرِ وغَيْرِه يَرْصُدُه رَصْدًا ورَصَدًا: يَرْقُبُهُ، ورصدته: قعدتُ له على طريقه أترقّبه، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾، أي: إذا نَزَلَ الملَك بِالوَحْيِ؛ أرسلَ اللّه مَعَهُ رَصَدًا يَحْفَظونَ المَلَكَ مِنْ أن يأْتيَ أحدٌ مِنَ الجِنِّ، فيستمعَ الوَحْيَ، فيخبرَ بِهِ الكَهَنَةَ، ويُخْبِروا بِهِ النّاسَ[4]، أي: معنى ﴿رَصَدًا﴾: حرسًا وحفظة يحفظونه من الجنّ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تفرُّدُ اللهِ بعلمِ الغيبِ المطلق

هو وحْدَه ﷻ عالمٌ بما غابَ عن خَلقِه، فلا يُطلِعُ على عِلمِ الغَيبِ - الَّذي اختَصَّ به - أحدًا من خَلْقِه، فيُعْلِمَه، أو يريَه إيّاه إلا من ارتضى من رسولٍ، فإنَّه يُظهره على ما شاء من ذلك[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الآية عما قبلها:

تقريرُ عدمِ علْمِ النَّبي ﷺ بوقتِ قيامِ السّاعة

قولُه تعالَى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبلَه من عدمِ الدِّراية بتعيين وقتِ وقوع العذاب وقيامِ الساعة، وهو أحدُ الغيبياتِ التي استأثَرَ اللّهُ بعلْمِها[7].

---

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رضو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 248، والصابوني، صفوة التفاسير: 3/ 437.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رصد).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رصد).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 671.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 671.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 47.

فائدة حذفِ المسند إليه:

اختصارٌ يعزّزُ قوّةَ التّركيز، ويجذبُ الانتباهَ في بيانِ صفة الربوبية

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، أيْ: هو عالِمُ الغَيْبِ، والضَّميرُ المَحْذوفُ عائِدٌ إلى المُسْنَدِ إلَيْهِ، وهو لفظ (رَبّي)، وقد حُذِفَ اختصارًا؛ لكونه قد ذُكِر سابقًا في الكلام[1]، مما يُبرزُ المعنى بتركيزٍ، ويُجنِّبُ التكرارَ، ويجذبُ الانتباهَ، ويجعلُ البيانَ أكثرَ قوةً وسلاسةً.

دلالة التّعبير بالجملة الاسمية:

علمُ الله تعالى للغيب صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ له سبحانه لا تنفكّ عنه

عبّر البيانُ الحكيمُ بالجملةِ الاسميةِ، وهي قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ دون الفعلية، فلم يقلْ: (يعلم الغيب)؛ للدلالة على ثبوت الصفة ودوامها، أي: علمُ اللّٰه للغيب صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ للّٰه لا تنفكّ عنه، وليست طارئةً أو مؤقتةً، ولو عبّر بالفعليةِ؛ لأوهمَ التجدّدَ والحدوث في الزمان.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾:

دِقَّةُ التّعبير في مقامِ الحديث عن الوحي وأسرار الآخرة

آثرَ البيانُ الحكيمُ لفظَ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ دون الخفاء؛ لأنَّ الآية تتحدّثُ عن علمٍ إلهيٍ مطلَقٍ لا يطّلعُ عليه أحدٌ، وليس أمرًا خفيًا قد يُدركُ بالحواس، أو يُكتشف، ولأنّه من عادة القرآن أنْ يقترنَ الغيب بالوحي لا الخفي؛ لأنّ الوحي يُنبئُ عن أمورٍ لا سبيلَ للعقل أو الحسّ أنْ يُدركها، ولتحقيق التناغم مع السورة وموضوعها، فالسورةُ تتحدّثُ عن أمورٍ غيبيَّة، وبخاصةٍ التي لا تُدركُ إلا بالوحي من استماع الجنّ للقرآن، وحديثهم عن الوحي، ومشاهد من القيامة.

دلالة القصر في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

لا يعلمُ الغيبَ أحدٌ سوى الله

يفيد تَعريفُ المُسنَدِ إليه المُقدَّرِ (هو) في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: القصْرَ الحقيقيَّ، والمعنى: هو عالمُ الغيب لا أنا، أي: هو سبحانه مختصّ بعلمه[2]، قال القرطبي: "لما تمدَّحَ سبحانه بعلم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 247.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 247.

الغيب، واستأثر به دون خلقه؛ كان فيه دليلٌ على أنّه لا يعلمُ الغيب أحدٌ سواه"[1].

دلالة تعريف لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾:

تأكيدُ شمولِ علم الله تعالى لكافةِ حقائقِ الغيبِ وأبعاده

تَعريفُ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ومِنْ ثمَّ فإضافةُ صفة ﴿عَٰلِمُ﴾ إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ تُفيدُ علمَ اللّه بالغيب كله[2]، أي: بكلِّ الحقائقِ المُغيَّبة، سواءٌ كانت ماهيّاتٍ أو أفرادًا، فيَشملُ المَعنى المَصدريَّ للغيب، مِثلَ عِلم اللّهِ بذاتِه وصِفاته، ويَشملُ الأُمورَ الغائبةَ بذاتِها، مِثلَ الملائكةِ والجنِّ، ويَشملُ الذَّواتِ المُغيَّبةَ عن عِلم النّاسِ، مِثلَ الوقائعِ المُستقبَلةِ الَّتي يُخبَرُ عنها، أو الَّتي لا يُخبَرُ عنها، فإيثارُ المَصدرِ هنا؛ لأنَّه أشمَلُ لإحاطةِ عِلمِ اللّهِ بجَميعِ ذلك[3].

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ﴾:

تفريعٌ للتعليل وتفصيلٌ بعدمِ اطلاع أحد على غيب الله

تأتي الفاء في الآية؛ لتَفريعِ حُكمٍ على حُكمٍ سابق؛ إذ إنّها تربطُ بين تخصيص اللّه تعالى بعلم الغيب وبين الجملة التالية: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ ليكون الحكمُ المفرَّع إتمامًا للتعليل وتفصيلًا لحالات عدم اطلاع أيّ أحدٍ على غيب اللّه[4].

دلالة النفي بـ(لا) في قوله: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ﴾:

الدوامُ والاستمرارُ في نفي الاطلاع على الغيب

التّعبير بأداة النفي (لا) لإفادة نفي الحدوث بصورة دائمة، فلا يظهرُ على غيبِ اللّه أحدٌ بوجهٍ من الوجوه في وقت من الأوقات[5]، باستثناء ما استثنى اللّه، في حين أنَّ الأداة (لم) تفيدُ نفي حدوث الفعل في الماضي فقط، و(لن) نفي المستقبل، وأمّا (ما)؛ فقد تكون نفيًا عامًّا، لكنّه أقلُّ تأكيدًا على الاستمرارية.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 28.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 2/ 500.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 247.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 47، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 247.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500.

دلالةُ التعبير بفعل الإظهار دون غيره:

نفي التَّمكُّن مِن الاطِّلاع التامّ تأكيدٌ على خصوصية الغيب الإلهي

المعنى في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ﴾ هو: لا يُطّلِعُ أحدًا، ولا يُنبئه بغَيبه، لكنّ البيان القرآني آثرَ لفظَ ﴿يُظۡهِرُ﴾ دون (يُطّلِع)؛ لِما في ﴿يُظۡهِرُ﴾ من قوّةٍ في الدلالة على خصوصية الغيب الإلهي، فاللفظ مأخوذ من الظُّهور، أي: المشاهدة العيانية، وفيه تضمينٌ لمعنى الإطّلاع، ولذلك عُدّي الفعل بـ﴿عَلَىٰ﴾؛ ليدلَّ على التَّمكُّنِ مِن الاطِّلاعِ التامّ والانكشاف الكامل، لا مجرّد الإعلام[1].

دلالة وقوع الفعل ومَفعوله في حيز النفي:

عمومُ المنع يُبرزُ عظمةَ الغيب وخصوصيته المطلقة بالله وحده

أفادَ وقوعُ الفعل: ﴿يُظۡهِرُ﴾ ومفعوله: ﴿أَحَدًا﴾ - الذي جاء نكرة في سياق النفي - العمومَ، أي: لا يُطّلع اللّهُ على شيء من غيبه أحدًا من الخلق أيًّا كان، في أيّ وقتٍ، وبأيّ وجهٍ، ممّا يُبرزُ عظمةَ هذا الغيب وخصوصيته المطلقة باللّه وحده.

دلالة وضع المظهر موضع المضمر في قوله: ﴿غَيۡبِهِۦٓ﴾:

إبرازُ عظمة الغيب الإلهي، فهو الأعظمُ والأعزّ

أظهرَ البيانُ الحكيم لفظَ الغيب في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، ولم يضمره برغم أنه سبقَ ذكره، فلم يقل: (فلا يظهر عليه)؛ إبرازًا لعظمة الغيب الإلهي، فغيبُه هو الأعظمُ والأخطرُ والأعزُّ، فلا يُكشف أحد إلا بإذن اللّه.

الغرض من الإضافة في قوله: ﴿غَيۡبِهِۦٓ﴾:

إضافةٌ تُبرزُ انفرادَ الله بعلم الغيب، وتعزِّزُ معنى القصر

في قوله تعالى: ﴿غَيۡبِهِۦٓ﴾ جاء الاسم مضافًا إلى الضمير، ممّا أكسبه تعريفًا يفيدُ الاختصاص، أي: الغيب الذي يختصّ اللّهُ تعالى بعلمه[2]، فهو غيبٌ مغيَّب عن غيره، لا يطّلع عليه أحدٌ سواه، وهذه الإضافة تُبرزُ انفرادَ اللّه بعلم الغيب، وتعزّز معنى القصر المستفاد من السياق.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 247 - 248.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500.

سرّ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَحَدًا﴾:

قدّم النظمُ الحكيم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَحَدًا﴾؛ اهتمامًا بالمُقدم، وهو الغيبُ المطلق الأعزُّ خاصة المَلِك سبحانه وتعظيمًا لاختصاصِ اللّه به، وحفاظًا على جرسِ الآية، وتناسقِ الفواصل.

اهتمامٌ بالغيب المطلقِ الأعزِّ وتعظيمُ اختصاص الله به

بلاغة الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

﴿إِلَّا﴾ أداة حصرٍ، والاستثناءُ إمّا منقطعٌ، أي: لكن من ارتضاه، فإنّه يظهره على ما يشاء من غيبه بالوحي[1]، أو استثناء متصل، وقوله: ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾ مستثنى من عموم ﴿أَحَدًا﴾، والتقدير: إلّا أحدًا ارتضاه، أي: اختاره للاطلاع على شيء من الغيب لحكمة أرادها اللّه تعالى[2].

الاستثناءُ يعمّقُ التفرّد الإلهي بالعلم الغيب والحكمة المطلقة

والاستثناءُ في الآية يعطي شعورًا أنَّ الاطلاعَ على الغيب ليس مطلقًا، بل مشروطٌ بحكمة خاصة، وهذا يعمّقُ مفهومَ التفرُّد الإلهي بالعلم الغيبي، ويشدِّدُ على جلالة اللّه وقدرته في تدبير الأمور بعلم وحكمة.

دلالة التعبير بالموصول وصلته في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾:

أتى البيانُ الحكيم بالمَوصولِ والصِّلةِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾؛ لقَصْدِ ما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن الإيماءِ إلى تَعليلِ الخبَرِ، أي: يُطلِعُ اللّهُ بَعضَ رُسلِه لأجلِ ما أرادهُ اللّهُ مِن الرِّسالةِ إلى النّاسِ، فيعلم من هذا أنَّ الغيبَ الذي يطلع اللّهُ عليه الرسل هو من نوعٍ ما له تعلُّق بالرسالة، ممّا له تعلُّق بالوعد والوعيد من أمور الآخرة، أو أمور الدنيا، أو ما يؤيّد به الرسل عن الإخبار بأمور مغيبة[3].

استثناءُ الاطلاع على الغيب لأجلِ مهمة الرسالة

دلالة التعبير بالفعل ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾ ماضيًا:

آثر البيانُ القرآني التعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿ٱرْتَضَىٰ﴾

مَن أطلعهُ اللهُ على الغيب تمّ اختياره ووقعَ الرضا عليه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 251.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 248.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 248.

دون المضارع (يرتضي)، مع أنّ الفعل متعلّقٌ باللّه، ورضاه لا ينقطعُ بزمان؛ للدلالة على التحقُّق والثبوت والحسم والقطع، أي: من أطلعه اللّه على الغيب، فقد انتهى أمره، ووقعَ الرضا عليه، وتمّ اختياره، وهذا أبلغُ في بيانِ قَطع الطريق أمامَ أيّ دعوى كاذبة لعلم الغيب أو للوحي.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّسُولٖ﴾:

بيانُ من ارتضاه اللهُ من الرسل أو بعضهم ليطلعهم على الغيب

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ إمّا بيانيّةٌ؛ لبيانِ إبهام ﴿مَنِ﴾ الموصولة، أي: بيانُ المقصودِ بمن ارتضاه اللّه؛ ليُطلعه على الغيب من الملائكة ومن الناس، فإنه يظهر غيبه على ذلك المرتضى الموصوف لا كلّ مرتضى[1]، أو للتبعيض، أي: يطلعُ اللّهُ بعض رسله لأجل ما أراده اللّه من الرسالة إلى الناس[2].

نكتة تنكير لفظ ﴿رَّسُولٖ﴾:

اصطفاءُ الله لرسله من الملائكة والبشر تفخيمٌ وتعظيمٌ لهم

عبّر البيانُ الحكيمُ بلفظ ﴿رَّسُولٖ﴾ دون (نبيّ)؛ ليدلّ على كلّ من أُرسل من عند اللّه تعالى، سواء أكان من الملائكة المبلّغين للوحي كجبريل عليه السلام أم من البشر المكلّفين بتبليغ رسالات اللّه إلى الناس، فيدخل في اللفظ كلّ من يتلقّى أمرًا إلهيًّا بالتبليغ، أيًّا كان جنسه[3]، أما لو عبّر بـ(نبيّ)؛ لاختصّ بالبشر فقط، وخرجتْ منه الملائكة.

وقد جاء لفظ ﴿رَّسُولٖ﴾ منكرًا في السياق؛ لإفادة العموم، أي: كلّ رسولٍ ارتضاه اللّه، دون تعيين، فضلًا عن أنّ التنكيرَ يُضفي تعظيمًا وتفخيمًا على شأن هذا الرسول؛ لكونه محلّ اصطفاء إلهي، ومحلّ اطلاع على بعض من غيبه تعالى، وهو مقامٌ رفيع لا يُنالُ إلا باختيارٍ رباني مخصوص.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 500، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 249.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 248.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 249.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

تفريغُ حراسةِ الغيب على اختصاصِ الله به تعظيمٌ لشأنه

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ للتفريع، أي: فرّعتْ على ما دلّ عليه السياق من عزّة علم الغيب؛ بكونها سببًا لحراسة من يُطلع عليه؛ ليؤديه إلى من أمر به - كما أمر به - وفي هذا التفريع تمييزٌ للغيب عن علمِ الكهان، وإجلالٌ للرسل وإعظامهم وتبجيلهم وإكرامهم[1].

دلالة التأكيد بـ(إن) في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

توكيدٌ لما تضمّنه الاستثناء من إظهار الغيوب المتعلقة بالرسالة

في استعمال البيانِ القرآنيِّ لحرفِ التأكيد (إنّ)، وفي بناء الجملة اسمية، تقريرٌ وتوكيدٌ لما تضمّنه الاستثناء السابق من الإظهار، وتحقيقٌ لوقوعه، وتمييزٌ واضحٌ لهذا الإظهار الإلهي للغيب عن دعوى الكهان، الذين يستمدّون باطلهم من الجان، وفي ذلك أيضًا تأكيدٌ لحفظ اللّه لما يظهره لرسله من الغيوب المتعلقة بالرسالة[2]، فإنّه تعالى يجعلُ من جميع جوانب الرسول حين يُظهره على شيء من غيبه حرسًا من الملائكة يحيطون به، يحفظونه من تسرُّب الشياطين أو اقترابهم ممّا أوحاه اللّه إليه من هذه الغيوب.

بلاغة التشبيه في الفعل ﴿يَسۡلُكُ﴾:

تصويرٌ لشدّة التصاقِ الحفظ بالرسول بما يدلّ على عظيم العناية الربانية

يُخبرُ اللّهُ تعالى أنّه إذا شاء أنْ يُطلعَ أحدَ رُسُله على شيءٍ من علم الغيب؛ فإنَّه يُرسلُ إليه ملائكةً يحفظونه من الشياطين من جميعِ الجهات، وقد عبّر عن هذا الحفظ بقوله: ﴿يَسۡلُكُ﴾، على سبيل التشبيه البليغ، فشبَّه اتصالَ الملائكة بالرسول، وحراستهم له عند تبليغ الوحي، بما يُدخَل في الشيء كالسلك في الجوهرة، لما فيه من النفوذ والدقّة والانسياب من غيرِ انحرافٍ أو تعريج عن المقصود، وهو تصويرٌ يدلّ على شدةِ القرب والتلازم، ففي هذا التعبير دلالةٌ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 502.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 09/ 48.

بلاغيةٌ على مدى العناية الربانية بالوحي، وشدة التصاق الحفظ بالرسول، حتى كأنه جزءٌ من ذاته؛ تحقيقًا لوعده سبحانه في قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9](1).

دلالة التعبير بالفعل ﴿يَسۡلُكُ﴾ مضارعًا:

حِفظُ اللهِ لما يظهره لرسله من غيوبٍ لا ينقطع

التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَسۡلُكُ﴾؛ لإفادة التجدّد الحدوثي، أي: كلما أرسلَ اللّهُ رسولًا، وارتضاه، فإنّ حفظه يتكرّرُ، ويتجدّد، ولا يكون أمرًا وقعَ في الماضي، وانتهى، وهذا يتناسبُ مع مقام سُنن اللّه في الوحي في حفظ وحيه، وفي المضارعة أيضًا إفادةٌ لتصوير اليقظة الدائمة لحفظِ الوحي من قِبَل جنود الحراسة الإلهية.

دلالة التعبير بالظرفية بقوله: ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾:

الدقةُ في تصويرِ الحفظ الإلهي

آثرَ البيانُ الحكيم التعبيرَ بالظرفية ﴿بَيۡنِ﴾ دون لفظ أمام أو قدّام؛ لكونها أدقَّ وأوسعَ دلالة، فإنّها تعني المسافة القريبة جدًّا التي تكون تحت نظره وتحكّمه، وهذا أبلغُ في الدلالة على الحفظ، في حين أنّ لفظ (أمامه) قد يدلّ على مجرّد الاتجاه.

دلالة الإضمار في قوله: ﴿يَدَيۡهِ﴾:

خصوصيةٌ وخفاءٌ في العناية والحفظ للرسول المرتضى

آثرَ النظمُ الحكيم الإضمار في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ دون التصريح بذكر الرسول، فلم يقلْ: (من بين يدي الرسول)؛ ليُشير بذلك إلى العناية الخاصة والسّريَّة في حفظه؛ إذ يوحي الإضمار بالخصوصية والخفاء في الحفظ دون حاجة إلى الإعلان، ويُراعي بذلك الإيقاع والتناسق الفني في السياق؛ إذ إنّ ذكر الاسم الصريح قد يُثقلُ الجرس الصوتي في آياتٍ ذات إيقاع متناغم.

بلاغة الكناية في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾:

عبّر البيانُ الحكيم بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ عن الجهة التي يعلمها ذلك الرسول، وبقوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ عن الجهة

(1) تهاني باحويرث، بحث الأساليب البلاغية في سورة الجن، ص: 183.

التي تغيبُ عن علمه، فصار ذلك كنايةً عن كلِّ جهةٍ، أو أنْ يكون ذكرُ الجهتين دلالةً على كلّ الجهات، ولكنه خصّ هاتين الجهتين بالذكر؛ لأنّ العدو متى أعريت واحدة منهما؛ أتى منها، ومتى حفظت؛ لم يأتِ من غيرهما؛ لأنّه يصير بين الأوّلين والآخرين[1]، والكنايةُ هنا تُضفي على النصّ قوّة بلاغية تجعله أكثر تأثيرًا وإيحاءً، فهو يخلقُ صورة حيوية ومباشرة للحراسة المتكاملة التي تحيطُ بالرسول، ويثيرُ في الذهن شعورًا بالأمان التامّ واليقظة الدائمة.

صورةٌ حيويةٌ ومباشرة للحراسة المتكاملة التي تحيطُ بالرسول

سر التعبير بالمصدر ﴿رَصَدٗا﴾:

عبّر البيان القرآنيُّ عن الملائكة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ بلفظ المصدر ﴿رَصَدٗا﴾، لا باسم الفاعل (راصدين) أو الاسم الصريح (الملائكة)؛ لما في التعبير بالمصدر من مبالغة في تصوير حالهم؛ إذ المصدرُ يدلُّ على ذات الفعل ودوامه، فكأنَّهم الترقّب ذاته، لا يغفلون، ولا يفترون عن الحفظ والرقابة[2]، وهذا أدقّ في الدلالة على شدّة الحراسة الإلهية، وتكثيف الحفظ للغيب الموحى به، حتى لا يتسلّل إليه أحد، خاصّة من الجن، فلو قيل: (ملائكة)؛ لكان ذلك إخبارًا عن الفاعل فقط، دون تصوير لهيئة الفعل ودوامه، أما التعبير بـ﴿رَصَدٗا﴾؛ فجمَع بين الدلالة على الفاعل ووصف حاله، فجاء أبلغ وأشد أثرًا.

مبالغةٌ في بيان حفظِ الله للغيب بحرس لا يغفلون

نكتة تنكير لفظ ﴿رَصَدٗا﴾ وسر تأخيره:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿رَصَدٗا﴾؛ لإفادة التفخيم والتعظيم والتهويل، فهو رصَدٌ عظيم الشأن، لا يُدرَك عدده، ولا يُقدَّر خطره.

رصَدٌ عظيمُ الشأن، لا يُدرَك عدده، ولا يُقدَّر خطره

وقد جاء به متأخرًا، فلم يقل: (يسلك رصدًا من بين يديه)؛ للتشويق والتدرُّج نحو المفاجأة، فالأسلوبُ بدأ بالوصف المكاني:

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 410.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 478.

﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، ممّا يشوّق النفس، وتتساءل: من الذي هناك؟ ليتناسب مع التناسق الصوتي والإيقاعي مع فواصل السورة، وهي ﴿أَمَدًا﴾ و﴿عَدَدَۢا﴾ و﴿أَحَدًا﴾، ويُبرز الحراسة كأنّها النتيجة الحتمية للإطلاع على الغيب.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(ارتضى) و(اصطفى):

الرسولُ الذي اختاره اللهُ تعالى؛ ليطّلعَ على الغيب، هو من حَظِيَ برضاه وموافقته

الارتضاءُ: هو اختيارٌ وقبولٌ وموافقة، فأصله من الرِّضا، وهو ضدّ السخط[1]، أما الاصطفاءُ؛ فأَخْذُ ما يصفو واختيارُه واستخلاصه، فأصله من الصفو، ويدلّ على خُلوصٍ من كلّ شَوْبٍ[2]، أي: أخذَ أصفَى جِنْسه أو أجوده[3]، وكأنّ الارتضاء يركّز على رضا الفاعل، في حين يُشيرُ الاصطفاءُ إلى صفةٍ في المفعول جعلته أهلًا للاصطفاء، وقد آثرَ البيان القرآني استعمالَ لفظ ارتضى هنا؛ للدّلالة على أنّ الغيبَ لا يطَّلعُ عليه إلا رسولٌ قد قبله اللّه، ورضي عنه كلّ الرِّضا، ووافقَ على اطلاعه على ما يشاء من الغيب.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي)، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رضو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرازي، مختار الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (صفا)، (صفو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صفو).

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن: 28]

في إيرادِ عِلْمِهِ تعالى بحفظِ الرُّسل حثٌّ منه على الاعتناء بأمرِ الإبلاغِ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكر ﷻ أنّه يحفظُ رسله بالملائكة؛ أعقبهُ بذكر علّة حفظه تعالى للرسل، وهي ليعلمَ علم ظهورٍ وانكشافٍ في الواقع القائم، فقال: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وجاء ذلك اعتناءً بأمرِ الإبلاغ والحثّ عليه والتحذير من التفريط به(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَبْلَغُواْ﴾: أصلُ (بلغ) هو الوصولُ إلى الشيء، والإبلاغُ والتَّبليغُ: الإيصالُ، وتَبَلَّغَ بالشَّيْءِ: وصَلَ إلى مُرادِه، والبَلاغُ: الكفايةُ(2)، والانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى(3)، وبلَّغَ النّاسَ بالخبر: أوْصله إليهم، وأعْلَمهم به، وأنهاهُ إليهم(4)، ومعنى ﴿أَبْلَغُواْ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: أوصلوا رسالات ربهم إلى الناس.

2) ﴿وَأَحَاطَ﴾: أصلُ (حوط) هو الشَّيءُ يُطيفُ بِالشَّيءِ، فالحَوطُ مِن حاطَهُ حَوْطًا(5)، يُقال: حاطَهُ حيْطة؛ إذا تعاهده، واحتاطتِ الخيلُ بفلانٍ، وأحاطتْ به، أي: أحدقتْ، وكلُّ من أحْرَزَ شيئًا كلَّه، وبلغَ عِلْمُه أقصاه، فقد أحاطَ به، وسُمّيَ الحائِطُ؛ لأنَّه يَحوطُ ما فيه(6)، وأحاطَ بِهِ الأمْرُ؛ إذا أخَذَه من جَميعِ جَوانِبِه، فَلم يَكُنْ مِنهُ مَخْلَصٌ، ويُقال: أُحيطَ بفلانٍ؛ إذا أُتيَ عَلَيْهِ، أو دَنا

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 29/ 184.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بلغ).
(3) الراغب، المفردات: (بلغ).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بلغ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(6) الخليل، العين: (حوط).

هَلاكُه، وهوَ مَجازٌ[1]، ومعنى ﴿وَأَحَاطَ﴾ موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: علم بكلّ ما عندهم[2].

3) ﴿وَأَحۡصَىٰ﴾: من (حصو) ثلاثةُ أصول: الأوَّلُ: المنْعُ، والثّاني: العَدُّ والإطاقة، وهو المرادُ هنا، والثّالثُ: شيءٌ من أجزاءِ الأرض، و﴿أَحۡصَىٰ﴾ مِن أحصيتُ الشَّيءَ؛ إذا عدَدْتَه، وأطَقْتَه[3]، والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعدَد، وهو مُشتقٌّ من الحَصى اسْمًا للعدد، ومنقولٌ من الحَصى، وهو صغارُ الحِجارة؛ لأنَّهم كانوا يعدّون الأعدادَ الكثيرة بالحصى؛ تجنُّبًا للغَلط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾، أي: حصّله، وأحاط به[4]، وعلم عدد الأشياء كلها، فلم يخفَ عليه منها شيء[5].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

الإخبارُ بعلم اللهِ المحيطِ بجميع أحوال الرسل وما أنزله إليهم

إنّ اللّهَ تعالى يحفظ رسله بالملائكة؛ ليَعلَمَ سبحانه عِلمَ وُجودٍ وظُهورٍ أنَّ الرُّسلَ قد تمَكَّنوا من تبليغ رِسالاتِه - كما هي - دونَ أن يُخالِطَها ما يُلبِّسُ عليها، أو يُبدِّلُها، وأحاط عِلْمُ اللّهِ تعالى بما عندَ الرُّسُلِ، وعَلِم سبحانه عدَدَ كُلِّ شيءٍ مِن خَلْقِه، فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك[6]، أو ليَعلَمَ رسول اللّه ﷺ أنْ قد أبلغتِ الرسلُ قبلَه عنْ ربها رسالات ربهم، وأنّ اللّه حفظها، ودفعَ عنها[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى اللام في قوله: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾:

قصدُ اللهِ من حفظِ الوحي هو الاعتناءُ بالإبلاغ عنه

اللام في قوله تعالى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ لامُ التَّعليل، تتعلّق بقولِه: ﴿يَسۡلُكُ﴾، أي: يَفعَلُ اللّهُ ذلك؛ ليُبلَّغَ الغيبُ إلى

(1) الزبيدي، تاج العروس: (حوط).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 674.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حصوى).
(4) الرّاغب، المُفردات: (حصا).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 674.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 674.

الرَّسولِ، كما أُرسِلَ إليه، لا يُخالِطُه شَيءٌ ممّا يَلبِسُ عليه الوحيَ، فيَعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسلَ أبْلَغوا ما أوحيَ إليهم، كما بَعَثَهم دونَ تَغيير، فلمّا كان عِلمُ اللهِ بتَبْليغِ الرَّسولِ الوحيَ مُفرَّعًا ومُسبَّبًا عن تَبليغ الوحيِ، كما أنْزَلَ اللهُ؛ جُعِلَ المُسبَّبُ عِلَّةً، وأُقيمَ مُقامَ السَّببِ إيجازًا في الكلام؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ بذلك لا يكونُ إلّا على وفْقِ ما وقَعَ، وهذه العِلَّةُ هي المَقصَدُ الأهمُّ مِن إطلاعِ مَنِ ارتَضى مِن رَسولٍ على الغيبِ، وذِكرُ هذه العِلَّةِ لا يَقْتضي انحصارَ عِلَلِ الإطّلاعِ فيها[1]، أو تتعلّق لامُ التعليل بمحذوف، والتقدير: أخبَرْناه بحِفْظِنا الوحيَ؛ ليَعلَمَ الرسول محمد ﷺ أنَّ الرُّسلَ قبلَه قدْ أبْلَغوا الرِّسالةَ كما بَلَّغَ الرِّسالةَ[2].

توجيه القراءات في قوله: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ قراءتان متوترتان[3]، الأولى: قِراءةُ الجمهور: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ بفتحِ الياءِ، أي: ليَعلَمَ اللهُ - عِلْمَ ظُهورٍ - أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم، أو: ليَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الرُّسُلَ قَبلَه قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم، أو: ليَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الملائكةَ قد أبلَغوا رِسالاتِ ربِّهم[4]، وهذه القراءة تركِّز على الفاعل سواء كان الله العليم أو الرسول المطلع، بما يعزِّزُ صفةَ العلمِ الإلهي بتمام تبليغ الرسل لرسالته، أو بما يُبرِزُ جانبَ الاطمئنان واليقين في نقل الرسالة.

التركيز على تعزيزِ اطمئنانِ الرسول بنقل الرسالة، وتثبيتها في النفوس

والثانية: قراءة رويس عن يعقوب ﴿لِّيُعْلَمَ﴾ بضَمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعولِ، ونائِبُ الفاعِلِ محذوفٌ يُفهَمُ مِنَ السّياقِ، والتَّقديرُ: ليُعلَمَ النّاسُ - أي: المُرسَلُ إليهم - أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم[5]، وهذا يركّز على إعلام الناس وتثبيت الرسالة في النفوس.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 250.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 252.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 392.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 23/ 674، والبغوي، معالم التنزيل، البغوي: 8/ 245.
(5) البغوي، معالم التنزيل، البغوي: 8/ 245.

دلالة التعبير بالفعل (يعلم) مضارعًا:

التعبيرُ بالعلم في قوله تعالى: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ يعودُ إلى دقّة التركيز على العلم اليقيني، والتأكد على وصول الرسالات، كما أرسلها اللّه، وليس مجرّد الظنّ أو الشكّ، فالعلمُ هنا يدلُّ على الاطمئنان الكامل بأنّ الرسالات قد أبلغتْ دون تحريف أو تغيير، وإيثارُ صيغة المضارعة؛ للإفادة بأنّ هذا العلم الإلهي بحفظِ الرسالة متجدّد مستمرّ لا ينقطع.

تطمينٌ كاملٌ للنبي بحفظ الرسالة من التحريف أو التغيير

دلالة التعبير بـ﴿أَن﴾:

﴿أَن﴾ مخفّفة من الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، والجملة خبرها[1]، أي: هي حرفُ توكيد، تعملُ على ربط الخبر بالفعل ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ وتأكيد وقوعه، مع إيحاء باليقين والقطع في العلم بما يليها من الجملة الخبرية.

تأكيدُ اليقين والعلم القطعي في الخبر القرآني

دلالة دخول ﴿قَدۡ﴾ على الفعل الماضي ﴿أَبۡلَغُواْ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ ﴿قَدۡ﴾ والفعل الماضي، في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾؛ لإفادة التحقيق والتوكيد، أي: لقد أبلغوا فعلًا وبلا شكّ، والبلاغُ قد تمَّ، وثبت وقوعه، وهذا أنسبُ للسياق؛ لأنّه في مقام إثبات أنّ الرسل أدّوا الرسالة تمامًا، ولم يُقصّروا.

تأكيدُ إثبات تأدية الرسل للرسالة تمامًا دون تقصير

دلالة التعبير بفعل البلاغ مادة وصيغة:

التّعبيرُ بالبلاغ في قوله تعالى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ للدلالة على أنّ الرسلَ قد بذلوا غايةَ وسعهم في تبليغِ رسالة اللّه على الوجهِ المطلوبِ الكافي دون زيادةٍ أو نقصانٍ أو تحريفٍ أو تغيير، فالبلاغُ هو الانتهاءُ إلى أقصى المقصدِ والمنتهى[2]، ومجيء فعله بصيغة ﴿أَبۡلَغُواْ﴾ الذي يتضمّن صيغة التعدية؛ للدلالة على

تعبيرٌ قرآنيٌّ يبرزُ كمالَ أداءِ الرسل وحفظِ الرسالة

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 319.
(2) الراغب، المفردات: (بلغ).

إيصال بالمضمون كاملًا إلى المتلقّي، وهذا ينسجمُ مع ما قبله من السياق: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾، فالوحيُ محروسٌ، والرسالة محفوظة.

دلالةُ الإسناد إلى ضمير الجمع في قوله: ﴿أَبۡلَغُواْ﴾ دون الإفراد:

بين الإفراد والجمع دلالةٌ على كمالِ الحفظ ووحدة الرسالة

جيء بضَميرِ الإفرادِ في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مُراعاةً للَفظِ ﴿رَّسُولٖ﴾، ثمَّ جيءَ له بضَميرِ الجمْعِ في قولِه: ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ مراعاةً لمعنى الرسول، وهو الجنسُ، أي: الرُّسل على طريقة قوله تعالى السابق آنفًا: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[1]، ومراعاة اللفظ والمعنى يوحي بكمالِ الحفظ، فقد كان لكلّ واحدٍ منهم، وبوحدة الرسالة واجتماع الرسل كلهم في الاتصافِ بكمالِ التبليغ عن اللّه.

دلالةُ جمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾:

الكمالُ والشمولُ في الرسالة الإلهية وفي تبليغها

آثر القرآنُ التَّعبير بلفظِ (الرِّسالاتِ)، في قوله تعالى: ﴿أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ بدلًا من الأوامر أو النواهي؛ لأنّ لفظَ الرسالةِ يشملُ جميعَ ما يُبلَّغ من تعليم وتشريع وهداية وتحذير، جامعًا بذلك معاني المفهوم الشامل للرسالة التي يحملها الرسل، ويدلُّ هذا التعبير أيضًا على تمام الإيصال والكمال؛ إذ بلّغَ الرسلُ رسالات اللّه كاملةً دون زيادةٍ أو نقصان إلى المرسَل إليهم، وهذه هي وظيفتهم[2]، وهو ما يتناسبُ مع ما ورد من لفظ (الرسالة) في مواضع متعددة من السورة.

واختيار صيغة الجمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ عوضًا عن الإفراد، يؤكّد تعدّدَ هذه الرسائل عبر أنبياء مختلفين وأزمنة متباينة، مشيرًا إلى أنّ الإبلاغَ لم يكنْ محصورًا في رسالة واحدة أو مناسبة محدّدة، بل هو مجموعٌ كاملِ ما أوحاه اللّه تعالى إليهم من أحكامٍ وأوامر ونواهٍ وهداية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 250.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 554.

دلالة الإضافة في ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾:

في الإضافة إظهارُ الربوبية والعناية الإلهية بالرسل

في إضافة الرسالات إلى الربّ سبحانه إثباتُ النسبةِ إلى اللّه، وإظهارُ مقام الربوبية في التربية والتشريع، وأنّ الرسالة منسجمةٌ مع مقصود الربّ في الهداية والتربية، فضلًا عن أنّ لفظَ الربوبية - الذي يعني العناية والرعاية - يتناسبُ مع سياق الحفظ الإلهي للرسل، وأمّا إضافة الرب إلى الضمير العائد إلى الرسل؛ فيدلّ على العناية الإلهية الخاصّة بالرسل والتشريف لهم، والمعنى: رسالات ربهم "الذي أوجدهم، ودبّر جميع أمورهم، واختارهم لرسالاته على ما هي عليه"[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَحَاطَ﴾:

علمُ الله محيطٌ بكلّ شيء ممّا لدى الرسل وغيره

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ واوُ الحالِ، والمعنى: والحالُ أنّه قد أحاط[2]، أو اعتراضيَّةٌ؛ لأنَّ مَضمونَها تَذييلٌ لجُملة: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: أحاطَ بجَميعِ ما لَدى الرُّسلِ مِن تَبليغٍ وغيرِه، وأحاطَ بكلِّ شَيءٍ ممّا عدا ذلك[3]، وهذا ليزيل ما قد يُتوهَّم أنَّه محتاجٌ سبحانه في الحفظِ إلى الرصَد[4]، أو عاطفة، والمعطوفُ عليه مقدّر، أي: فَعَلِمَ ذلك، وأحاطَ بما لديهم[5].

سر التعبير بالفعل (أحاط) مادة وصيغة:

تفخيمُ شأن العلم الإلهي وكمالُ إحاطته

آثرَ البيانُ الحكيم التعبير بالإحاطة دون العلم؛ لإفادتها معنى العلم والإحراز والبلوغ والتمكّن والحفظ والشمول والاستيعاب والاستيثاق والاستكمال، فعلمه سبحانه قد أحاطَ بهم من جميع الجهات، بما يُظهرُ كمالَ العلم الإلهي؛ ولكون لفظ الإحاطة أنسبَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 48، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 251.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 252.

مع موضوعِ سورة الجنّ، وأنّ خفاياهم وأسرارهم مُحاطةٌ بعلم اللّه سبحانه، وللتكامل مع الجملة التي بعدها، وهي قوله: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾، فالإحاطةُ هنا تدلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزئيّات، والإحصاءُ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بجميعِ الموجودات[1]، والتعبير بالماضي؛ لإفادة تحقّق الإحاطة وثبوتها الأزليّ، فإحاطةُ اللّه تعالى بهم أمرٌ محقّقٌ واقعٌ لا شكّ فيه.

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

إحـاطـةٌ إلـهيّة شـامـلـةٌ تـبـعـثُ الطمأنينة لأهلِ الحقّ

الباء في قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ تفيدُ التّعدية للفعل الرباعي: أحاط، ومعنى الملاصقة في الباء يفيدُ الاستيعاب والإحاطة الشاملة، أي: إنّ إحاطةَ اللّه تعالى ملاصقةٌ لجميع ما لدى الرسل، وهذه الإحاطة الشاملة تبعثُ الراحة والطمأنينة عند رسول اللّه ﷺ وعند أهلّ الحق.

سرُّ التّعبير بالموصول (ما):

فـي التـعـمـيـم بعد التخصيص إشـــارةٌ إلى شـمـولـيـة عـلـمِ الله

يفيد التعبير بـ(ما) في قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ العمومَ، أي: أحاطَ بجميع ما لدى الرسل من أمورٍ ظاهرة أو خفية ومن تبليغ وغيره، وهو تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ ما قبْلَه بعِلمِ اللّه، بتَبليغِ الرسل ما أرسَلَ إليهم[2]، ويفيدُ الإشارة إلى شمولية علمِ اللّه، وإزالةِ احتمال وقوع اللبس بتضييق العلم بما عند الرسل.

سرّ التعبير بـ (لدى) دون (عند):

علمُ الله محيطٌ بجميع ما لدى الـرّسـل مهما كان قريبًا منهم حاضرًا عندهم

لفظ (لدى) أخصُّ وأبلغُ وأقربُ من لفظ (عند)، الذي يدلُّ على ابتداءِ نهايةٍ، في حين يوضع (لدى) موضع نهايةِ الفعل[3]، و(لدى) ظرفٌ لأوّل غاية زمان أو مكان، فهو متردّدٌ بين ظرفين، ويضافُ إلى الزمان، فضلًا عن أنّ (عند) لا يستدعي حضورًا،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 680.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 48، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 251.

(3) الراغب، المفردات: (لدن)، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 245.

و(لدى) يستدعيه، تقول: عندي مال، وإنْ كان غائبًا من مجلسك، ولا تقول: لدي مالٌ إلا وهو بمجلسك[1]، و(عند) في لسان العرب لِما ظهرَ، و(لدن) لِما بطن[2]، ومن هنا كان استعمالُ لفظ ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ أنسبَ في السياق الذي يتحدّثُ عن إحاطةِ علم اللّه بكلّ شيء، فهو سبحانه يحيطُ علمًا بجميعِ ما لدى الرسل من تبليغٍ وغيره مهما كان قريبًا منهم حاضرًا عندهم، فلا يغيبُ عنه شيء سبحانه، والمعنى: "قد أحاط بما لديهم الرسل والمرسل إليهم من الملائكة والبشر على أدق الوجوه وأعظمها وأغربها"[3].

دلالة التعبير عن العلم بالإحصاء:

بيـانُ عظمـة العلـم الإلـهي المحيط ودقّتـه وكمالِه

عبّر البيانُ الحكيمُ عن العِلم باصطفاء لفظِ الإحصاء، في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾؛ إذ شبّهَ علم الأشياء بمعرفة الأعداد لما فيها من دقّة وقوة[4]، فأساسُ الإحصاء هو أنّ الحاسب عند وصوله إلى عدد معينٍ من العقود كالعشرة والمئة والألف، يضعُ حصاة تمثّل كمية ذلك العقد، ويبني عليها حسابه، فتكون بذلك قد تمّ الإحصاء بدقّة وتنظيم[5]، وهذه مبالغةٌ في بيانِ عظمة علمه المحيط ودقّته وكمالِه سبحانه.

دلالة التعبير بـ﴿كُلَّ﴾ مضافًا إلى ﴿شَيۡءٍ﴾:

مبالغةٌ في بيانِ سعةِ علم الله المـحـيـط بـكـل شيء

أفادَ لفظُ ﴿كُلَّ﴾ - وهو من ألفاظ العموم - في قوله تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ تَعميمًا أشمَلَ بعْدَ تَعميم (ما)[6]، فالعمومُ من غيرِ استثناء أصلًا[7]، ممّا كانَ وما سيكونُ[8]، ولكن إضافة ﴿كُلَّ﴾

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لدن).
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/ 633.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 251.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 48.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 48، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 251.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 48.

إلى لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ المفيد كذلك للعموم - وهو نكرة - أفادَتْ مع العموم الاستقصاءَ الشّاملَ لكلّ ما يصْلُحُ أنْ يُطلقَ عليه لفظُ شيء، ويتصوّره الذّهن، أي: أفادَ الإحاطةَ التامّةَ لعلمه سبحانه بكلّ شيء.

دلالة التعبير بقوله: ﴿عَدَدَۢا﴾:

علمه تعالى بالجزئيات كعلمه بالكليات

معنى: ﴿عَدَدَۢا﴾ أي: فردًا فردًا، لكلّ ما يمكنُ عدّه، ولو على أقلّ مقادير الذرّ فيما لم يزلْ، وفيما لا يزال[1]، وهو تمييزٌ منقولٌ من المفعول به، والأصلُ أحصَى عددَ كلِّ شيءٍ أو هو حالٌ، أي: معدودًا محصورًا، أو مصدرٌ بمَعْنَى (إحصاءً)، وأيًّا ما كان؛ ففائدتُه: بيانُ أنَّ علمَهُ تعالَى بالأشياء ليس على وجهٍ كليٍّ إجماليٍّ بلْ على وجهٍ جزئيٍّ تفصيليٍّ[2].

علاقة ختام السورة بمطلعها:

من افتتاح الوحي الإلهي إلى ختم حفظه تأكيدٌ لعظمة الرسالة وصيانتها

الْتَقَى أوَّلُ السورة وآخرُها وباطنُها الغيبي وظاهرُها، فدلَّ آخرُها على الأول المجمَل، وأولُها على الآخر المفصَّل، وذلك أنّ أوّلَ السورة بيَّنَ عظمةَ الوحي بسببِ الجنِّ، ثمَّ بيَّنَ في أثنائها حِفظَهُ من مسترقي السمع، وختمَ بتأكيدِ حِفْظه وحفظِ جميعِ كلماتِه، واستمرَّ في تأكيدِ أمر هذا الحفظ[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإحصاء والعدّ:

اللهُ تعالى محيطٌ بكلّ شيء وتحصيلُه وضبطه وحفظه والإحاطة به

الإحصاءُ أبلغُ وأعمُّ من العدّ؛ إذ الإحصاءُ هو "مَعْرِفَةُ العَدِّ وضَبْطُهُ"[4]، والإحصاءُ: تحصيلُ الشيءِ بالعدد، وهو العدّ والحِفْظ والضبط والإحاطة والإطاقة، وحَصْرُ الشيء عَدًّا ببلوغِ آخر ما هو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 48.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 504.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 297.

منه، بينما العدُّ هو سَرْدُ بعض الأشياء تِلْوَ بعضها الموجود منها، ولا يستلزمُ بلوغ آخر جنسها[1]، وقد ناسبَ استعمال لفظ الإحصاء هنا كونه أبلغَ وأعمّ، فاللّهُ تعالى لم يعدّ الأشياء فحسب، بل أحاط بكلّ شيء معدود مع تحصيله وضبطه وحفظه ومعرفة تفاصيل المعدود وجزئياته.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حصى)، (عدد).

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

التّعريفُ العامُّ بالسّورة:

المكي والمدني وعد الآي:

سـورةُ (المُـزّمّـل) مـكّـيّـة اتّـفـاقًـا مـا عـدا الآيــة الأخــيـرة، فقد اختلفوا فيها

ذَكَرَ ابنُ عطيَّة أنَّ هذه السّورة مكّيّةٌ في قول الجمهور باستثناء الآيةِ الأخيرة منها(1)، وأمّا السّيوطيّ؛ فقد ذكر أنّهم استثنوا منها أيضًا قولَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾، ولم يذكر لهذا الرّأي مُستندًا، وكذلك ذكر أنّهم استثنوا الآية الأخيرة منها، ولم يرجّحه؛ إذ علّق على هذا الاستثناءِ الأخير بقوله: "ويردّه ما أخرجه الحاكم عن عائشة أنّ الآيةَ الأخيرة نزلتْ بعد نزول صدر السّورة بسنةٍ؛ وذلك حين فُرِض قيامُ اللَّيل في أوّل الإسلام قبل فرضِ الصّلوات الخمس"(2).

وقال ابن عاشور: "الظّاهر أنّ الأصحّ أنّ نزول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾، إلى آخر السّورة نزل بالمدينةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ إن لم يكن ذلك إنباءً بمغيّب على وجهِ المعجزة"(3).

وأمّا عدد آياتها؛ فيرى الدّانيّ أنّها ثَماني عشرَة آيَة في المدنيِّ الأخير، وتسع عشرَة في المَكّيّ بِرواية عَنهُ وفي البَصْريّ، وعِشْرونَ في عدد الباقينَ وفي المَكّيّ من روايتنا(4).

ترتيب النّزول وترتيب المُصحف:

اخـتُـلِـفَ في ترتيبها النُّزوليِّ، واتَّـفـقـوا علـى كونها مُتقدِّمةً

اتّفقوا على تقدُّم نزول سورة المزَّمِّل، وإن اختلفوا يسيرًا في

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 386.
(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 66 - 67، وينظر: الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة المزمل، حديث رقم: (3861).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 253، وينظر: ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 2/ 679.
(4) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 257.

ترتيبها بين السّور، فقال بعضُهم: هي الرّابعة نزولًا بعد (العلَق) و(الفاتحةِ) و(القلَم) وقبل (المدّثّر)[1]، ورأى بعضهم أنّها الثّالثة نزولًا بعد المدّثّر والعلق وقبل سورة القلم[2]، وقال بعضهم: "بل نزلت بعد العلق والقلم وقبل المدَّثِّر"[3].

أمّا عن ترتيبها المصحفيِّ؛ فهي السّورة الثّالثة والسّبعون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاءت بين سورتي (الجِنّ) و(المُدّثّر).

فضائل السّورة:

من السّور المُفصَّلات الّتي فُضِّل بها النَّبيُّ ﷺ

هذه السّورة الكريمة من طوال المفصّل الَّذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بنُ الأسقع رضي الله عنه: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ"[4].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

لا يُعرَف لها اسمٌ غير (المُزَّمِّل) الّذي اشتهَرَتْ به

وردتْ تسميتها بسورة (المزمل) في صحيح البخاريِّ[5] وفي المصاحف المشرقيّة والمغربيّة وفي شَتَّى التَّفاسير[6]، ولم يُعرف أنّها ذُكِرَت باسمٍ غيره.

وقد ارتبط اسمها بمحورها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنّ محورها يقوم على تثبيتِ النّبيّ ﷺ في دعوته قَومَه والتّسرية عنه من خلال التّكاليف الّتي طلبَتْها السّورة منه في سبيل إعداده الرّوحيّ والفكريّ لمواجهةِ إعراضِ قومه، وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين أسمائها ومقصودها

(1) دروزة، التفسير الحديث: 1/ 405.
(2) عبد الرحمن، تفسير القرآن: 1/ 151.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 90.
(4) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415) 352.
(5) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة المزمل: 4/ 1874.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 252.

خير ربطٍ، فقال: "ومقصودُها: الإعلامُ بأنّ محاسنَ الأعمال تدفعُ الأخطار والأوحال، وتخفّف الأحمالَ والأثقال، ولا سيّما الوقوفُ بين يدي الملك المتعال، والتَّجرُّد في خدمته في ظلمات اللَّيل، فإنّه نِعْمَ الإله لقبولِ الأفعال والأقوال، ومحوِ ظُلَلِ الضَّلال، والمُعين الأعظم على الصّبر والاحتمال، لما يرد من الكدورات في دارِ الزّوال، والقلعة والارتحال واسمُها "المُزّمّل" أدلُّ ما فيها على هذا المَقال"[1].

المِحورُ العامُّ للسّورة:

محـور الـسّـورة يقوم على تثبيت الـنّـبـيّ ﷺ وإعداده لمواجهة تكاليف الدَّعوة

يرتكز محورُ هذه السّورة على التَّسرية والتَّسلية لفؤادِ النّبيّ محمّدٍ ﷺ، فجاء فيها مطالبة النّبيّ ﷺ ساعة كان متزمّلًا أن يقومَ أكثرَ اللَّيل، وأن يسبِّح أكثرَ النّهار، وأن يُرتِّل القرآن؛ استعدادًا لما سيتنزّل عليه من الوحي الثّقيلِ بتكاليفه وبوطأته عليه حينَ يلقى جبريل، فينفصِمُ عنه وجبينه يتفصّدُ عرقًا في اليوم شديدِ البرد، مع دويٍّ كدويّ النّحل أوْ صلصلةٍ كصلصلة الجرس.

فالسّورة قامت على الأمور الآتية:

أولًا: تهيئة النّبيّ ﷺ، وإعداده الإعدادَ النّفسيّ والرّوحيّ والفكريّ والجسديّ لمهمّته الصّعبة، فأمرَتْه بأن يطيلَ التّسبيح في النّهار، وبأن يذكر ربّه، ويتبتّل إليه تبتيلًا، وبأنْ يصبرَ على قومه، أو يهجُرَهم هجرًا جميلًا بحسب ما تُمليه عليه الظّروف.

ثانيًا: اقتضاها هذا المحور أنْ تُحذِّر قومَه من عذاب اللّه تعالى، وألّا يقعوا بما وقعَ به فرعون وقومُهُ، فيصيبَهم ما أصابَهم، وأن تُختتم السّورة بعدد من الوصايا للمؤمنين كافّة، توجز ما قرّرته من توجيهات تربويّة ونفسيّة وروحيّة في أثنائها للنّبيّ ﷺ.

مَـدارُ الـسّـورة حـول إعـداد الـنّـبـيّ ﷺ وتهيئته لمواجهة تحدّيات قومه

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

تتناولُ السّورةُ الإرشادات الإلهيّة الموجَّهة للنَّبيّ ﷺ في مسيرته

(1) البقاعي، مصاعد النظر: 3/ 131.

أثناء تبليغ دعوتهِ، وتهديدَ المشركين المُعرضين عن قبول تلك الدّعوة، وتجلى ذلك من خلال الأمور الآتية:

أولًا: ابتدأت السورة بأمره ﷺ بقيام اللَّيل إلّا قليلًا منه، وبترتيل القرآنِ لتقوية روحه، فكان ذلك بيانًا لمقدار ما يقومُ به في تهجُّده الَّذي أمرَهُ اللّه به بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: 79].

ثانيًا: أخبرت السورة عن ثقل الوحي وتبعةِ رسالتِه العُظمى الَّتي كلّف بها، وأمره بذكر ربّه ليلًا ونهارًا، وإعلانِ توحيده، واتّخاذِهِ وكيلًا في كلّ أموره: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ [الآيات: 5 - 9].

وأردفت ذلك بالأمر بالصّبر على أذى المشركين، من القول فيه بأنّه ساحرٌ أوْ شاعرٌ، أوْ في ربِّه بأنّ له صاحبةً وولدًا، وبالهجر الجميل إلى أن ينتصِرَ عليهم وبتهديدِهم بسوء العاقبةِ: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [الآيات: 10 - 19].

ثالثًا: خُتِمت السّورة بإعلان تخفيف القيام لصلاة اللَّيل عن الرّسول ﷺ إلى مقدار الثّلث، وجعلِهِ الحدَّ الأدنى رحمةً به وبأمّته؛ ليتمكّن هو وأصحابُهُ من الرّاحة والتَّفرُّغ في النّهار لشؤونِ الدَّعوة والتَّبليغ، والاكتفاء بتلاوة ما تيسّر من القرآن، وأداءِ الصَّلاة المفروضة، وإيتاءِ الزّكاة، ومداومةِ الاستغفار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ [الآية: 20][1].

الخصائصُ الموضوعيّة للسورة:

تـمـيّـزتْ سـورة المُزّمِّل بخصائص أفـردَتْـهـا عـن غيرها من السّور

أولًا: تميّزتِ السّورة الكريمة ببراعةِ الاستهلال؛ إذ لم يُشاركها في مَطلعها سوى سورة (المدّثّر)، فقد ناداهُ ربّهُ بوصفِ النّبوّة في (الأحزاب) و(الطّلاق) و(التّحريم)، أمّا بوصف التّزمّل والتّدثّر؛

(1) الزحيلي، التّفسير المنير: 29/ 187 - 188.

فلم يرد إلّا في هاتَيْن السّورتَيْن المتجاورتين، ولعلّ السّبب في ذلك هو ما اشتملت عليه السّورتان الكريمتان من تهيئة وإعدادٍ للنّبيّ ﷺ؛ حتّى يستطيع أن يواصل المسير في إنذار قومه ودعوته لهم.

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنّها في جلّ آياتها كانت تخاطب النّبيّ ﷺ، فالأوامر كانت موجَّهة إليه، وجُلُّ ضمائرها عائدةٌ عليه، وقد وجّهت الأمر إليه ﷺ بقيام اللَّيل بكيفيّات وأوقات محدّدة، وكذلك كرّرت الأمر بقراءة القرآن الكريم، وأمرته بالصّبر والهجر الجميل لقومه، وخفَّفت على أمّته في آخر السّورة في أمر القيام والتَّبتُّل.

الخصائصُ الأسلوبيّة للسورة:

تـمـيّـزتْ سـورة المُزَّمِّل بخصائص أفـردَتْـهـا عن غيرها من السّور

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها أكثرت من ذِكر بعض الكلمات المرتبطة بمفاصل محور السّورة الكريمة، مثل كلمة (اللَّيل)؛ إذ وردت أربع مرّات[1]، بينما وردت كلمة (قليلًا) ثلاث مرّات في فواصل الآيات[2]، وقوله: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ تكرّر مرّتَيْن في الآية الأخيرة، وكذلك كلمة (النَّهارَ) تكرَّرت مرّتين[3]، و(نِصفَهُ) في فواصل آيتَيْن[4]، ووردت كلمة ﴿رَسُولًا﴾ مرّتَيْن[5].

ثانيًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة الطّباق؛ إذ وردت بين المشرق والمغرب، وبين الصّبر والهجر، وبين اللَّيل والنّهار، وبين القلّة والزّيادة في قيام اللّيل، وبين الضّرب في الأرض طلبًا للرّزق وبين القتال في سبيل اللّه، وغيرها.

ثالثًا: تكرّر في السّورة الكريمة الأمر بقراءة القرآن: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾، ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾.

(1) الآيات: 2، 6، 20(2).
(2) الآيات: 2، 3، 11.
(3) الآيتان: 7، 20.
(4) الآيتان: 3، 20.
(5) الآية: 15 تكرّرت اللّفظة فيها مرّتيْن.

رابعًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة الجناس الاشتقاقيّ، وقد تداخلت مع تكرار المفعول المُطلق فيها: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾، ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾، ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾، ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

خامسًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة كثرة المركّبات الوصفيّة فيها، مثل: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، ﴿سَبْحًا طَوِيلًا﴾، ﴿هَجْرًا جَمِيلًا﴾، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا﴾، ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾.

سادسًا: حوت السّورة الكريمة معاجم لفظيّة لافتة للنّظر مثل معجم ألفاظ العذاب: ﴿أَنكَالًا﴾، ﴿وَجَحِيمًا﴾، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾، ﴿شِيبًا﴾، ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، وكذلك حوت معجمًا متعلّقًا بالعدّ والحساب والمقادير، مثل: ﴿قَلِيلًا﴾، و﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾، و﴿ٱنقُصْ مِنْهُ﴾، و﴿زِدْ عَلَيْهِ﴾، و﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، و﴿وَثُلُثَهُۥ﴾، و﴿يُقَدِّرُ﴾، و﴿تُحْصُوهُ﴾، و﴿مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

سابعًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرة تكرار أفعال الأمر لا سيّما بحقّ النّبيّ ﷺ، مثل: ﴿قُمِ﴾، و﴿ٱنقُصْ﴾، و﴿زِدْ﴾، و﴿وَرَتِّلِ﴾، و﴿وَٱذْكُرِ﴾، و﴿وَتَبَتَّلْ﴾، و﴿فَٱتَّخِذْهُ﴾، و﴿وَٱصْبِرْ﴾، و﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾، و﴿وَذَرْنِى﴾، و﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾، وكذلك في حقّ أمّته مثل: ﴿فَٱقْرَءُواْ﴾، و﴿وَأَقِيمُواْ﴾، و﴿وَءَاتُواْ﴾، و﴿وَأَقْرِضُواْ﴾، و﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾.

ثامنًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت أبنية صرفيّة لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿هَجْرًا﴾، و﴿وَطَعَامًا﴾، و﴿أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ﴾، و﴿نَاشِئَةَ﴾، و﴿وَطْـًٔا﴾، و﴿وَتَبَتَّلْ﴾، و﴿تَبْتِيلًا﴾، و﴿أَنكَالًا﴾، و﴿وَبِيلًا﴾، و﴿شِيبًا﴾، وغيرها.

تاسعًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها حوت ألفاظًا فريدة في مادّتها وبنائها الصّرفيّ، وهي: ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، و﴿كَثِيبًا﴾، و﴿مَّهِيلًا﴾.

عاشرًا: تميّزت السّورة الكريمة بوفرة الأنساق التّعبيريّة الّتي لم تتكرّر في غيرها حتّى تكاد تكون كلّ أنساقها كذلك، ولكنّنا نذكر بعضها على سبيل التّمثيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، و﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾، و﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، و﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾،

و﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، و﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾، و﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾، و﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

ثـمَّـةَ اتِّـصـالٌ بـين الـسّـورتَيْن فـي الأسـلـوبِ والمضمونِ

لمّا كان ذكرُ إسلام الجنّ قد أحرز غاية انتهى مرماها، وتمّ مقصدها ومبناها، وهي الإعلام باستجابة هؤلاء وحرمان مَن كان أوْلى بالاستجابة وأقرب، في ظاهر الأمر إلى الإنابة بعد تقديم وعيدهم وشديد تهديدهم، صرف الكلام إلى أمره ﷺ بما يلزمه من وظائف عبادته وما يلزمه في أذكاره من ليله ونهاره مُفتَتَحًا ذلك بأجمل مكالمة وألطفِ مُخاطبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾(1).

ويظهر ذلك من وجهيْن:

أولًا: خُتِمت سورة الجنّ ببيان تبليغ الرّسل رسالات ربِّهم، وافتتحت هذه السّورة بأمر خاتمهم بالتّبليغ والإنذار، وهجر الرّاحة في اللّيالي.

ثانيًا: أخبر اللّه تعالى في السّورة المتقدّمة عن ردود فعل دعوة النّبيّ ﷺ بين قومه والجنّ في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: 19]، وقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: 18]، ثمّ أمره اللّه تعالى في مطلع هذه السّورة بالدّعوة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(2).

---

(1) الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 349 - 350.

(2) الزحيلي، التّفسير المنير: 29/ 187.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ [المزّمِّل: 1 - 4]

مناسبة مطلع السّورة لخاتمة سابقتها:

إطلاع النبيّ ﷺ على الغيب، وتحمّله عبء الدّعوة، مصونانِ بقيامة المزمّل

قال الإمام البقاعي: "لمّا تقدّم في آخر الجنّ من تعظيم الوحي، وأنّ من تعظيمه حفظَ المرسَل به من جميع الآفات المُفَتَّرَةِ عن إبلاغه بما له سبحانه من إحاطة العلم والقدرة، ونَدَبَ نَبِيَّهُ الذي ارتقاه لرسالته والاطلاع على ما أراده من غيبه ﷺ أوّل هذه (السورة) إلى القيام بأعباء النبوة بالمُناجاة بهذا الوحي في وقت الأُنس والخُلوة بالأحباب، والبسط والجلوة لمن دقَّ الباب، للاعتلاء والمتاب، المهيِّىء لحمل أعباء الرسالة، والمقوّي على أثقال المعالجة لأهل الضلالة، فقال معبِّرًا بالأداة الصالحة للقرب والبعد، المختَصّةِ بأنه لا يقال بعدها إلا الأمور التي هي في غاية العظمة، أشار إلى أنه ﷺ يراد به غاية القرب بالأمور البعيدة عن تناول الخَلْق بكونها خوارقَ للعادات ونواقضَ للمألوفات المطردات"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: (زمل): أصلٌ يدلُّ على حَمْلِ ثقلٍ مِنَ الأثقالِ، ومِنْ ذلكَ: الزّاملةُ، وهي بعيرٌ يُحمَلُ عليهِ المتاعُ[2]، والزُّمَّيْلُ: الجبانُ الضَّعيفُ[3]، وزمَّلَهُ في ثوبِهِ، أي: لفَّهُ، وتزمَّلَ بثيابِهِ: تدثَّرَ[4]، والتفَّ بها، وهو المرادُ هنا على الرّاجح[5]، والأزْمَلُ: الصَّوْتُ، عَن الأصْمَعيِّ، وقيلَ: الأزْمَلُ: كُلُّ صَوْتٍ مُخْتَلِطٍ، والأزْمَلَةُ: رَنينُ القوسِ، الإزْمَوْلَةُ:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 21/ 2.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زمل).
(3) الأصفهاني، المفردات: (زمل).
(4) الجوهري، الصحاح: (زمل).
(5) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 676.

المُصَوِّتُ مِنَ الوُعولِ[1]، فلعلَّه بذلك يكون بين (حملَ وزملَ) اشتقاق في الميم واللّام، والحمل معنى عامٌّ في بابه، وفي زمل معنى يزيدُ على الحَمْلِ، وهو الصَّوت.

2) ﴿قُمِ﴾: (قوم): أصلٌ يدلُّ على عَزْمٍ أو انتصابٍ[2]، ومنهُ قولُهم: قامَ قيامًا، والقَوْمَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ؛ إذا انتصبَ[3]، والقيامُ والقِوامُ: اسمٌ لِما يقومُ بِهِ الشَّيءُ، أي: يَثْبُتُ، والاستقامةُ تقالُ في الطَّريقِ الَّذي يكونُ على خطٍّ مُسْتَوٍ، والإقامةُ في المكانِ: الثَّباتُ[4]، والمرادُ بقيامِ اللَّيلِ هنا: الصَّلاةُ فيهِ مجازًا مُرسَلًا.

3) ﴿أَوِ ٱنقُصۡ﴾: (نقص): أصلٌ يدلُّ على ضِدِّ الزّيادةِ[5]، ومِنْ ذلكَ: النُّقصانُ، وهو الخُسرانُ في الحظِّ[6]، والنَّقيصةُ: العيبُ، يُقالُ: ما بِهِ نقيصةٌ، أيْ: شيءٌ يُعابُ بهِ[7]، والمُرادُ هنا: خلافُ الزّيادةِ، وقالَ ابنُ القَطّاعِ: النَّقْصُ في الشَّيْءِ: ذَهابُ شَيْءٍ مِنْهُ بَعْدَ تَمامِه، كالتَّنْقاصِ، والنُّقْصانُ أيضًا: اسمٌ للقَدْرِ الذّاهِبِ من المَنْقوصِ، يُقال: دَخَلَ عَلَيْهِ نَقْصٌ في دينِه وعَقْلِه، ولا يُقالُ: نُقْصانٌ؛ وذلِكَ لأنَّ النَّقْصَ هوَ الضَّعْفُ، وأمّا النُّقْصانُ؛ فَهوَ ذَهابٌ بعد التَّمام[8].

4) ﴿وَرَتِّلِ﴾: (رتل): أصلٌ يدلُّ على اتِّساقِ الشَّيءِ وانتظامِه على استقامةٍ، يقالُ: رجلٌ رَتِلُ الأسنانِ، ومُرَتَّلٌ: مُفَلَّجٌ، ورَتَّلْتُ الكلامَ تَرتيلًا؛ إذا أمهَلْتُ فيه، وأحسَنْتُ تأليفَه، وهو يَتَرَتَّلُ في كلامِه، ويتَرسَّلُ؛ إذا فَصَلَ بعضَه من بعضٍ[9]، والتَّرتيلُ: إرسالُ الكلمةِ مِنَ الفمِ بسهولةٍ واستقامةٍ[10] بحيثُ تكونُ ظاهرةً بيِّنةً حسَنةً[11]، والمرادُ هنا: لا تَعجَلْ بقراءةِ القرآنِ، بل اقرأْهُ في مَهَلٍ وبيانٍ مع تدبُّرٍ للمعاني[12].

---

(1) الزبيدي، تاج العروس: (زمل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) الأصفهاني، المفردات: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقص).
(6) الأصفهاني، المفردات: (نقص).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقص).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (نقص).
(9) الخليل، العين: 8/ 113.
(10) الأصفهاني، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رتل).
(11) الجوهري، الصحاح، والزمخشري، أساس البلاغة: (رتل).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 37.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ، فيقولُ: يا أيُّها المُلتفُّ بثيابِه، قُمْ للصَّلاةِ في اللَّيلِ كلِّه إلّا قليلًا منهُ، هو نصفُهُ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قليلًا، أو زِدْ على النِّصفِ، فأنتَ مخيَّرٌ بينَ هذهِ الثَّلاثة، واقرأِ القرآنَ بتمهُّلٍ وتُؤدةٍ؛ بحيثُ تُبيِّنُ حروفَهُ، فإنَّ ذلك يكونُ عونًا لكَ على فهمِ القرآنِ وتدبُّرِه[1].

قيامُ اللّيلِ وتلاوةُ القرآنِ عونٌ للعابدِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ افتتاحِ السّورةِ بالنِّداءِ:

افتتاحُ السّورةِ بالنِّداءِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، مع أنَّ المخاطَبَ الَّذي هو النَّبيُّ ﷺ واحدٌ غيرُ بعيدٍ؛ للاعتناءِ بما سيُلقَى إليهِ مِنَ الكلامِ[2]، وبيانِ أنَّهُ في غايةِ العظمةِ[3].

عظمةُ شأنِ الكلامِ الواردِ بعدَ النِّداءِ

عِلَّةُ إيثارِ (يا) دونَ غيرِها:

عُبِّرَ بأداةِ نداءِ البعيدِ: (يا) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؛ لزيادةِ تنبيهِ النَّبيِّ ﷺ؛ لِما سيُتلَى عليهِ مِنَ الكلامِ العظيمِ الشَّأنِ، البعيدِ عن تناولِ البشرِ[4]، ولذلكَ اقترنَتْ: (يا) بـ (ها) التَّنبيهِ، وأتى النظمُ بـ(أي) وصلةً للنِّداءِ؛ حتّى يُرتكَزَ عليها من أجلِ نداءِ المعرَّفِ بـ(أل)، وفيه تعظيمٌ للمُنادى وتشريفٌ لمَكانتِهِ حتّى إنَّه لا يُنادى إلّا بواسطة.

بُعْدُ الوحيِ الكريمِ عن تناولِ البشرِ

سرُّ النِّداءِ بوصفِه ﷺ بـ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾:

الأصلُ في النِّداءِ أنْ يكونَ باسمِ المنادَى (العلَم)؛ إذا كانَ معروفًا عندَ المتكلِّمِ؛ فلا يُعدَلُ عن الاسمِ العلَمِ إلى غيرِهِ مِنْ وصفٍ أو إضافةٍ إلّا لغرضٍ يقصدُهُ البُلَغاءُ مِن تعظيمٍ وتكريمٍ، نحوَ: (يا أيُّها النَّبيُّ)،

أجمِلْ بالإيناسِ في ساعةِ الخوفِ والوحشةِ!

---

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 676 - 680، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 249 - 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 255.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 2.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 2.

أو تلطُّفٍ وتقرُّبٍ، نحوُ: (يا بُنَيَّ)، و: (يا أبَتِ)، أو قصدِ تهكُّمٍ، نحوُ: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: 6]، فإذا نوديَ المنادَى بوصفِ هيئتِهِ مِنْ لِبْسةٍ أو جِلْسةٍ أو نحوِ ذلكَ؛ كانَ المقصودُ في الغالبِ التَّلطُّفَ بهِ، والتَّحبُّبَ إليهِ ولهيئتِهِ، فنداءُ النَّبيِّ هنا بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ نداءُ تلطُّفٍ ورِفقٍ؛ لأنَّهُ باعتبارِ ما كانَ عليهِ مِنْ هيئةِ التَّدثُّرِ بالثّيابِ، فقد قال: "زمِّلوني زمِّلوني"، عندما رجَعَ من غارِ حِراء، وبوادرُه ترعدُ[1]، وكانَ خطابُهُ ﷺ بهذا الخطابِ في أوَّلِ نزولِ الوحيِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ خوطبَ بالنُّبوَّةِ والرِّسالةِ[2].

دلالةُ ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

التَّكليفُ بالرِّسالة مسؤولية كبيرةٌ لا تعدلها مسؤوليّة

الظّاهرُ أنَّ وصفَ المُزَّمِّلِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾: محمولٌ على حقيقتِهِ؛ باعتبارِ أنَّهُ ﷺ لمّا جاءَهُ المَلَكُ في غارِ حراءٍ، وحاورَهُ بما حاورَهُ بهِ؛ رجَعَ إلى خديجةَ رضي الله عنها، فزمَّلوهُ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ المعنى: يا أيُّها المُزَّمِّلُ للنُّبوَّةِ وأعبائِها، أي: المُشمِّرُ المُجِدُّ، فعلى هذا يكونُ التَّزمُّلُ مجازًا[3]، مِنْ: تزمَّلَ الزَّمَلَ؛ إذا تحمَّلَ الحِمْلَ؛ ففيهِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ شُبِّهَ إجراءُ التَّبليغِ بتحمُّلِ الحِمْلِ الثَّقيلِ، بجامعِ المشقَّةِ[4]، وفي ذلكَ تبشيرُه ﷺ بأنَّه أهلٌ لأنْ يَتَحَمَّلَ الرِّسالةَ وما يَتْبَعُها مِن هموم ومتاعبَ.

دلالة صيغة التَّفعُّل في ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾:

الإبلاغُ في تأنيسه أو في تبشيره ﷺ

التَّزمُّلُ في قولِه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ مشتقٌّ مِنَ الزَّمْلِ، ولا يُعرَفُ لـ: (تزمَّلَ) فعلٌ مجرَّدٌ في معناهُ، فهو مِنَ التَّفعُّلِ الَّذي تُنوسيَ منهُ معنى التَّكلُّفِ للفعلِ، وأُريدَ في إطلاقِهِ معنى شدَّةِ التَّلبُّسِ، وكَثُرَ مِثل

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 33، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 311، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 417، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 255 - 256.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 378.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 33، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 311.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 340.

هذا في الاشتمالِ على اللِّباسِ، فمنهُ التَّزمُّلُ، ومنهُ التَّعمُّمُ، والتَّأزُّرُ، والتَّقمُّصُ[1]، وفي هذا على حَمْلِ التَّزمُّلِ على الحقيقةِ إبلاغٌ في مُلاطَفة الرَّسول وتأنيسِه، على أنْ يكونَ قد تزمَّلَ بهذهِ الصِّفة، وإشارةٌ بإدغام تاءِ التَّفعُّل "إلى أنَّ السِّتر بالثَّوب لم يعُمَّ جميعَ البدن"[2].

وعلى المعنَى المَجازيِّ يكونُ في إدغامِها إشارةٌ "إلى البشارةِ بالقوَّةِ على حَمْلِ أعباءِ ما يُرادُ به"[3]، وإذا كانت هذه البشارةُ مُستفادةً مِن ذاتِ المعنَى المجازيِّ؛ كانَ في إدغامِ (التَّاءِ) إبلاغٌ في تقريرِها.

دلالةُ الأمرِ ﴿قُمِ﴾:

الظّاهرُ أنَّ الأمرَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ للوجوب، وهو خاصٌّ بهِ ﷺ؛ لأنَّ الخطابَ موجَّهٌ إليه وحدَهُ، وحكمةُ هذا القيام الَّذي فُرِضَ على الرَّسولِ ﷺ في صدرِ رسالتِه: أنْ تَزْدادَ به سريرتُهُ زَكاءً يُقوّي استعدادَهُ لتلقّي الوحي، وقد استمرَّ وجوبُ قيام اللَّيلِ على رسولِ اللّهِ ﷺ بعدَ فرضِ الصَّلواتِ الخمسِ؛ تعظيمًا لشأنِه بكثرة الإقبالِ على مناجاةِ ربِّه في وقتِ فراغِه مِنْ تبليغ الوحي، وتدبيرِ شؤونِ المسلمينَ وهو وقتُ اللَّيلِ، وأمّا قيامُ اللَّيلِ للمسلمينَ؛ فهُم اقتدَوا فيهِ بالرَّسولِ ﷺ، وهو يُقِرُّهم على ذلكَ، فكانوا يرونَهُ واجبًا عليهم، وقد أثنَى اللّهُ عليهم بذلكَ في آياتٍ كثيرةٍ، ثمَّ رُفِعَ فرضُ القيام عنهم[4]، ويُحمَلُ على هذا الوجوبِ أيضًا الأمرُ بالنَّقصِ أو الزّيادةِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

إيجابُ القيامِ على النَّبيِّ فيهِ تقويةٌ لاستعدادِهِ لتلقّي الوحي

علَّة التَّعبيرِ بالقيامِ دون غيره:

عُبِّرَ بالقيامِ في قولِه ﷻ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ لدلالتِه على العزم والانتصابِ؛ لقيامِ اللّيلِ، والمعنى: (قُمْ إلى الصَّلاةِ في اللَّيلِ)،

لا يقومُ اللَّيلَ إلّا مَنْ كانت له عزيمةٌ قويَّةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 256.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 203.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 203.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 386 - 387، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 258 - 259.

فالقيامُ على هذا حقيقيٌّ، ويَحْتملُ أنْ يكونَ إطلاقُ القيامِ مِنْ قبيلِ إطلاقِ الجزءِ وإرادةِ الكلِّ[1]، فيكونَ الفعلُ منزَّلًا منزلةَ اللّازمِ، فلا يحتاجُ إلى تقديرِ متعلّقٍ، والمعنى: صلِّ في اللَّيلِ[2]، وخُصوصُ القيامِ ناظرٌ إلى عِظَمِ الغرضِ مِن الصَّلاةِ في اللَّيْلِ.

دلالة التَّعريف في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾:

سَـعَـةُ الـشَّيءِ تُلْهَمُ النَّيْلَ منهُ بكثرةٍ

تعريفُ اللَّيلِ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾؛ للجنسِ الصّادقِ على جميعِ أجزائِهِ إلّا ما استُثنيَ، والمعنى: إلّا قليلًا مِنْ أجزاءِ اللَّيلِ[3]، وهذا هو الظَّاهرُ، والعمومُ في: ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ يُنبِّه على استثمارِه بالتَّوسُّعِ في الصَّلاةِ فيه، فإنَّ أجزاءَه كثيرةٌ، وهو يتكرَّرُ عَقِبَ كلِّ نهارٍ، ويَحتملُ أنْ يكونَ للجنسِ الصّادقِ على جميعِ اللَّيالي، والمعنى: إلّا قليلًا مِنَ اللَّيالي، وهي اللَّيالي الَّتي يكونُ فيها عذرٌ يمنعُ مِنْ قيامِها، أي: هو استثناءٌ مِنَ اللَّيالي؛ باعتبارِ جزئيّاتِها، لا باعتبارِ الأجزاءِ[4]، وهذا خلافُ الظَّاهرِ.

سرُّ تخصيصِ اللَّيلِ بالأمرِ بالقيامِ فيهِ:

يسكنُ الـلّـيلُ، فـيَـصُـفُّ العبد قدميه قائمًا لله

تخصيصُ اللَّيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ بالأمرِ بالصَّلاةِ فيه؛ لأنَّهُ وقتُ النَّومِ عادةً، فأُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بالقيامِ فيهِ؛ زيادةً في إشغالِ أوقاتِهِ بالإقبالِ على مناجاةِ اللّهِ تعالى، ولأنَّ اللَّيلَ وقتُ سكونِ الأصواتِ واشتغالِ النّاسِ، فتكونُ نفسُ القائمِ فيهِ أقوى استعدادًا لتلقّي الفيضِ الرَّبّانيِّ[5].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 35، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 49، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 378.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 257.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 312، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 3 - 4، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 387، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 4، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

غرضُ الاستثناءِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾:

لمّا كانَ للبدنِ حظٌّ في الرّاحةِ؛ قالَ تعالى مستثنيًا مِنَ الليلِ: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: مِنْ كلِّ ليلةٍ[1]، أي: صلِّ اللَّيلَ كلَّهُ إلّا يسيرًا منهُ؛ لأنَّ قيامَ جميعِهِ على الدَّوامِ غيرُ ممكنٍ[2]، فلم يتعلَّقْ إيجابُ القيامِ عليهِ بأوقاتِ اللَّيلِ كلِّها[3]، ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ استثناءً مِنَ القيامِ، فيكونَ المستثنَى هو اللَّيالي الَّتي لا يستطيعُ القيامَ فيها؛ لعذرٍ مِنَ الأعذارِ[4]، ومآلُ المعنَى واحدٌ، فالأَوْلى الحَمْلُ على الظَّاهرِ الَّذي هوَ الوجهُ الأوَّلُ.

لِلْبَدَنِ حقٌّ معلومٌ في الرّاحةِ ولو كان البدنُ لنبيٍّ

سِرُّ التَّنكيرِ ﴿قَلِيلًا﴾:

جاء تنكيرُ ﴿قَلِيلًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: للتَّقليلِ؛ إبلاغًا في الإشارةِ إلى التَّوسُّعِ في الصَّلاةِ في اللَّيلِ؛ فإنَّها خيرُ مُعينٍ على تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ خصوصًا ومشاقِّ الحياةِ عمومًا بالنَّهارِ، والجزءُ القليلُ مِنَ اللَّيلِ، الَّذي لا يكونُ فيه قيامٌ يُباشِرُ فيه الرَّسولُ النَّوْمَ أو حاجةً لهُ، بقي أنَّ المستثنى دلَّ على موصوفٍ محذوفٍ إيجازًا تقديرُهُ: (إلّا جزءًا قليلًا)، والغرضُ من الحذفِ التركيزُ على القلَّة دونَ الجزءِ مِنَ اللَّيلِ.

قِلَّةُ تَرْكِ القيامِ باللَّيلِ شأنُ الأكابرِ الكُمَّلِ

بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾:

الظّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ مِنْ قولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ بدلًا مطابقًا، وهو تبيينٌ لإجمالِهِ، معَ تقريرٍ وتوكيدٍ لقيامِ اللَّيلِ، فيكونُ القليلُ هنا النِّصفَ، أو أقلَّ منهُ بقليلٍ، وفائدةُ هذا الإجمالِ: الإيماءُ إلى أنَّ الأَوْلى أن يكونَ القيامُ أكثرَ مِن مدَّةِ نصفِ اللَّيلِ، وأنَّ جعْلَهُ نصفَ اللَّيلِ رحمةٌ ورخصةٌ للنَّبيِّ ﷺ، ويدلُّ لذلكَ تعقيبُهُ بقولِهِ: ﴿أَوِ

القليلُ المستثنَى هو نصفُ اللَّيلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 4، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 49.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 35.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 387.

﴿ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، أي: انقُص مِنَ النِّصفِ قليلًا، فيكونُ زمنُ قيامِ اللَّيلِ أقلَّ مِنْ نصفِه، وهو حينئذٍ قليلٌ، فهو رخصةٌ في الرُّخْصَةِ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلًا من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، فيكونَ المأمورُ به قيامَ نصفِ اللَّيل بعد الأمرِ بقيامِ اللَّيل إلّا قليلًا منهُ.

دلالة العطفِ ﴿أَوِ ٱنقُصۡ﴾:

هِمَمُ النّاسِ في قيامِ اللَّيلِ متفاوتةٌ، ورحمةُ اللهِ تسَعُ الجميعَ

لمّا كانتِ الهِمَمُ مختلفةً بالنِّسبةِ إلى الأشخاصِ، وبالنِّسبةِ إلى الأوقاتِ؛ قيلَ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، أي: مِنْ هذا النِّصفِ الَّذي أُمِرْتَ بقيامِه، أو من النِّصفِ المُستثنَى منهُ القليلُ على الوجهِ الثَّاني[2]، وتتجلَّى في هذا رحمةُ اللهِ، مع عظيمِ ترغيبِه في تلك العبادةِ الشَّريفةِ، فالغرضُ من العطف على البدلِ تقريرُ المبدلِ منهُ، وتحديدُ مدَّةِ الاستثناء.

معنى: (أو)، ودلالتها في ﴿أَوِ ٱنقُصۡ﴾ و﴿أَوۡ زِدۡ﴾:

التَّوسعةُ على النَّبيِّ ﷺ في قيامِ اللَّيلِ

(أو) في قولِه ﷻ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، وقولِه: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ للتَّخييرِ، فيكونُ النَّبيُّ ﷺ مخيَّرًا بينَ ثلاثةِ أشياءَ: بينَ قيامِ نصفِ اللَّيلِ تامًّا، وبينَ قيامِ النّاقصِ منهُ، وبينَ قيامِ الزّائدِ عليهِ[3]، والتَّخييرُ المستفادُ مِنَ الحرفِ: (أو) منظورٌ فيهِ إلى تفاوتِ اللَّيالي بالطّولِ والقِصَرِ؛ لأنَّ لذلكَ ارتباطًا بسَعَةِ النَّهارِ للعملِ، ولأخذِ الحظِّ الفائتِ مِنَ النَّومِ، وذلكَ توسيعٌ على النَّبيِّ ﷺ؛ لرفعِ حرجِ تحديدِه لزمنِ القيامِ، فسُلِكَ بهِ مَسْلَكُ التَّقريبِ[4].

معنى (مِنْ) ودلالتها في ﴿مِنۡهُ﴾:

النِّصفُ متعلَّقُ النَّقصِ

(مِنْ) في قولِه ﷻ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾؛ للتَّعديةِ، فالنِّصفُ هو متعلَّقُ النَّقصِ، أي: أنقص القيامِ مِن النّصفِ المقارنِ له في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 7، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 555.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

الصُّورة الأولى[1]، وفيها أيضًا معنى ابتداءِ الغايةِ، أي: أنقص القيام ابتداءً مِن هذا النِّصْفِ.

نكتة التَّقديمِ في ﴿مِنۡهُ﴾:

قيام اللَّيل عبادةٌ شريفةٌ نفيسةٌ

قُدِّمَ قولُه: ﴿مِنۡهُ﴾ على قولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّم، ووجهُ ذلكَ التَّنْبيهُ على أنَّ النَّقْصَ مِن القيامِ في اللَّيلِ لا يعودُ عليه بنوعِ تقليلٍ مِن عظيمِ أهمّيَّته وشرَفِه، وإنَّما شرفُه وجلالُه ثابتٌ لهُ مع النَّقْصِ منه أيضًا، وللتَّشويقِ للمؤخَّرِ، ولرعايةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

سِرُّ التَّنكيرِ لـ ﴿قَلِيلًا﴾:

تنكيرُ ﴿قَلِيلًا﴾ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾؛ للتَّقليلِ والتَّحقيرِ، والمعنى: نقصًا قليلًا، أو مقدارًا قليلًا؛ بحيثُ لا ينحطُّ إلى نصفِ النِّصفِ[2]، ففائدةُ ذكرِ المفعولِ ﴿قَلِيلًا﴾ تحديدُ كميَّةِ النُّقصانِ؛ لأنَّ مَن يسمَعُ الإنقاص من النِّصف قد يذهبُ ذهنُهُ إلا أنَّه نقصٌ يحتمِلُ القلَّةَ والكثرة، فأبانَ عن كميَّةِ النقصان بالقلَّة، ونكَّرها حتى تكونَ قليلةً للغاية.

دلالةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾، و﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾:

التَّخييرُ بينَ الزِّيادة والنُّقصان منَّةٌ عظيمةٌ على النبيِّ العَدنان

عبَّرَ النظمُ الكريم بأسلوبِ الطِّباق بينَ (النُّقصان والزّيادة ومنهُ وعليهِ)، في قولِهِ تعالى: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، والغرضُ من الطِّباق تحديدُ أطرافِ ما يُنقصُ من نصفِ اللَّيل، أَوْ يُزادُ عليه، وكأنَّ المأمورَ به هو النّصف في أقلِّ الاحتمالات، ولكن قد يُزادُ على النِّصف، أَوْ يُنقَصُ من النِّصف حسبَ الطّاقة والاحتمالِ.

معنى (على) ودلالتُها في ﴿عَلَيۡهِ﴾:

الحرفُ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾؛ لتقويةِ التَّعديةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 417.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 50.

إلى المفعولِ الأوّل، والتقديرُ: (أوْ زِدْ على النِّصف قليلًا)؛ إذ الأصل: أوْ زدِ النصفَ قليلًا؛ لأنَّ الفعل (زاد) يتعدَّى إلى المفعولينِ بنفسِه، فيكون في التحوُّلِ إلى التعديةِ بالحرف تقويةٌ للتعديةِ إليه، وما فيها مِنْ معنى الاستعلاءِ المجازيِّ يشيرُ إلى تمكُّنِ الزّيادةِ مِنَ النِّصفِ، وتعلُّقِها بِهِ تعلُّقًا قويًّا.

سرُّ عدمِ تقييدِ الزّيادةِ بالقليلِ:

الــتَّرغــيــبُ في الــزِّيــادةِ على النِّصفِ

لم يُقيَّدْ قولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ بالقلَّة، كما قُيِّدَ النَّقصُ بها؛ لتكونَ الزّيادةُ على النِّصفِ متَّسعةً؛ ترغيبًا في أنْ تكونَ مدَّةُ القيامِ أكثرَ مِنْ نصفِ اللَّيلِ[1]؛ إبلاغًا في التَّنبيهِ على كمالِ شرفِ تلك العبادةِ العَليَّة.

دلالة العطفِ في: ﴿وَرَتِّلِ﴾:

الــتَّرتــيــلُ في الــصَّـلاةِ يُـعينُ عــلـى الــتَّــدبُّــرِ والخشوعِ

لمّا أمرَ ﷻ نبيَّهُ بصلاةِ اللَّيلِ؛ أمرَهُ بترتيلِ القرآنِ فيها، فقالَ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾؛ حتَّى يتمكَّنَ الخاطرُ مِنَ التَّأمُّلِ في حقائقِ تلكَ الآياتِ ودقائقِها؛ فعندَ الوصولِ إلى ذكرِ اللّهِ يستشعرُ عظمتَهُ وجلالتَهُ، وعندَ الوصولِ إلى الوعدِ والوعيدِ يحصلُ الرَّجاءُ والخوفُ، وحينئذٍ يستنيرُ القلبُ بنورِ معرفةِ اللّهِ، والإسراعُ في القراءةِ يدلُّ على عدمِ الوقوفِ على المعاني؛ لأنَّ النَّفسَ تبتهجُ بذكرِ الأمورِ الإلهيَّةِ الرّوحانيَّةِ، ومَنِ ابتهجَ بشيءٍ؛ أحبَّ ذكرَهُ، ومَنْ أحبَّ شيئًا؛ لم يمرَّ عليهِ بسرعةٍ[2]، وهذا هو الأعلى في نورِ قولِه تعالى في اللِّحاق: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾؛ فإنَّه يَخِفُّ عليك بتلاوته في الصَّلاة عمومًا، وفي الصَّلاة في اللَّيل خصوصًا، ويجوزُ أنْ يكونَ الأمرُ بالتَّرتيلِ أمرًا مستقلًّا بكيفيَّةِ قراءةِ القرآنِ، جرى ذكرُهُ بمناسبة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 259.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 683، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 8.

الأمرِ بقيامِ اللَّيلِ، والقراءةُ في الصَّلاةِ تدخلُ في ذلكَ[1]، وهذا وجهٌ مرجوحٌ، واللّافتُ للانتباه أنَّ العطفَ أفادَ أمرًا زائدًا على القيام، وهو الترتيلُ، فيكونُ ذكرهُ بعدَ قولِهِ: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ مُتوافِقًا معه؛ ولذا قدَّمَ الإنقاص، وأخَّر الزّيادة؛ حتى يتحقَّقَ التوافقُ بين زيادةِ الترتيل على القيامِ وزيادةِ القيامِ على النّصف.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَرَتِّلِ﴾:

ترتيلُ القرآنِ واجبٌ يُقْبَلُ عليه بالكُلّيَّة

الأمرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾؛ للوجوبِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ القراءةَ على وجهِ التَّمهُّلِ مع مراعاةِ التَّجويدِ فرضٌ[2]، وإنَّما أظهَر القرآنُ معنى الوجوبِ في صيغة الأمر؛ دلالةً على كونه مطلوبًا الإقبالُ عليه بغايةِ الرَّغْبةِ؛ لعِظَم أهمّيَّته.

علَّةُ التَّعبيرِ بالتَّرتيلِ دون غيره:

وجوبُ التَّأنّي في قراءةِ القرآنِ

عُبِّرَ بالتَّرتيلِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾؛ لدلالتهِ على التَّمهُّلِ مع تدبُّرِ المعاني؛ لأنَّه مأخوذٌ مِن قولِهم: ثغْرٌ رتْلٌ ورتِلٌ؛ إذا كان مُفلَّجًا[3]، وذلكَ لا يتمُّ بأنْ يَعْجَلَ في القرآنِ، وإنَّما يتمُّ بأنْ يُبيِّنَ جميعَ الحروفِ، ويوفّيَها حقَّها مِنَ الإشباعِ[4]؛ حتَّى تخرجَ مِنَ الفمِ واضحةً، وفائدةُ هذا: أنْ يرسخَ حفظُهُ، ويتلقّاهُ السّامعونَ، فيعلقَ بحوافظِهم، ويتدبَّرَ قارئُهُ وسامعُهُ معانيَهُ؛ كي لا يسبقَ لفظُ اللِّسانِ عملَ الفهمِ[5]، وهذا هو الألصقُ بكونه في الصَّلاة، وبكونه مع الصَّلاةِ تهيئةً لممارسةِ الرِّسالةِ والدَّعوةِ إلى اللّه بالنَّهارِ، وبكونِ القرآنِ قولًا ثقيلًا، كما يُقرِّرُه لحاقُ هذهِ الآيةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 260.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي:
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 37، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 418.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 683.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 260.

علّة التَّعبيرِ بالقرآنِ دونَ الكتاب:

عُبِّرَ بالقرآنِ دونَ الكتابِ في قولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ لأنَّهُ أنْسَبُ بالتَّرْتيلِ الَّذي هو نوعٌ مِن أنواعِ القراءةِ، والقرآنُ في الأصلِ مصدرٌ مرادفٌ للقراءةِ، ثمَّ نُقِلَ مِن هذا المعنى المصدريِّ، وجُعِلَ اسمَ علَمٍ للكلامِ المُعجزِ المُنزَلِ على النَّبيِّ ﷺ، مِنْ بابِ إطلاقِ المصدرِ على مفعولِه، ولأنَّ بالتَّرْتيلِ تنكشفُ أسرارُه وخفيَّاتُه، والألصقُ بذلك ذكرُ ما يدلُّ على الجَمْعِ والإحاطةِ الَّذي هو القرآنُ، لا الكتابُ، فبالتَّرتيلِ تنهالُ على المُرتِّلِ المعاني والأسرارُ، والترتيلُ يتعلّقُ بالمقروء في الأصل، فكأنَّه قالَ له: اقرأهُ مُرتَّلًا.

الموافقُ للتَّرتيلِ ذِكرُ القرآنِ عُنوانًا للتنزيل

دلالةُ التعريفِ في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

تعريفُ القرآنِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ للَمْحِ الأصلِ قبلَ العلميَّةِ؛ لأنَّ القرآنَ منقولٌ مِنَ المصدرِ المرادفِ للقراءةِ - كما تقدَّمَ - وتفيدُ (أل) فيه الجنسَ الدالَّ على الكمال، وكأنَّه الكتابُ الَّذي يستحِقُّ أنْ يُقرأَ على وجه الكمالِ والكثرةِ، ولا يخفى أنَّه أكثر كتابٍ يُقرأ، فكان اسمُهُ مُنبِئًا عن تلك الكثرة وذلك الكمال المتحقِّق في قراءتِه والتعلُّق بنظْمِه.

بلاغةُ ذِكْر المصدر ﴿تَرْتِيلًا﴾:

التَّرتيلُ حَتْمٌ على القارئ؛ لعظيم شرفه

جيءَ بالمفعولِ المطلقِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾؛ لتوكيدِ الأمرِ بالتَّرتيل، وبيانِ أنَّهُ ممّا لا بدَّ منهُ للقارئِ[1]، ولَمَّا أعلَمَ سبحانه بالتَّرتيلِ؛ أعلمَ بشرفِه بالتَّوكيدِ بالمصدرِ[2]، وأفادَ المصدرُ تحقيقَ الفعلِ تَحقيقًا دالًّا على أنَّ الترتيلَ أمرٌ مقصودٌ لذاتِه، وليس الترتيلُ لمجرَّدِ القراءة، فهو نفيٌ لدلالةِ المَجاز في فعلِ الأمْرِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 637، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 556.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 206.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُزَّمِّلُ والمُدَّثِّرُ:

هيئةُ النَّبيِّ عندَ الـخـطـابِ هي التَّلفُّفُ

المُزَّمِّلُ: اسمُ فاعلٍ مِن: تزمَّلَ؛ إذا تلفَّفَ بثوبِهِ، كالَّذي يُقاسي البردَ، أو كمُريدِ النَّومِ، وهو مِثلُ المُدَّثِّرِ في مآلِ المعنى، وإنْ كانَ بينَهما اختلافٌ في أصلِ الاشتقاقِ، فالتَّزمُّلُ مشتقٌّ مِنْ معنى التَّلفُّفِ، والتَّدثُّرُ مشتقٌّ مِنْ معنى اتِّخاذِ الدِّثارِ للتَّدفُّؤِ[1]، وقد عُبِّرَ بالمُزَّمِّلِ هنا؛ لدلالتِهِ على معنى التَّلفُّفِ، دونَ قصدِ دفعِ البردِ، كما أنَّ التزمُّلَ يكونُ بالثوبِ الَّذي يلبَسُهُ، والتدثُّرَ يكونُ بالدِّثار دونَ الثَّوبِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 256.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ٥﴾ [المزّمّل: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

قيامُ اللَّيلِ يُعينُ على تلقّي الوحي وغيرِه مِن جلائلِ العبادات

لمّا أمرَ تعالى نبيَّهُ بصلاةِ اللَّيلِ؛ علَّلَ ذلكَ بأنَّهُ سيُلقي عليهِ قولًا عظيمًا؛ وهو القرآنُ، فلا بدَّ أن يستعدَّ لذلكَ القولِ العظيم، ولا يحصلُ ذلكَ الاستعدادُ إلّا بصلاةِ اللَّيلِ، فإنَّ الإنسانَ في اللَّيلَةِ الظَّلماءِ إذا اشتغلَ بعبادةِ اللّهِ تعالى، وأقبلَ على ذكرِهِ، والثَّناءِ عليهِ، والتَّضرُّعِ بينَ يديهِ، ولم يكنْ هناكَ شيءٌ يشغلُه مِنَ الشَّواغلِ الحسّيَّةِ؛ استعدَّتِ النَّفسُ هنالكَ لإشراقِ جلالِ اللّهِ فيها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَنُلْقِي﴾: (لقي): أصلٌ يدلُّ على طرحِ شيءٍ[2]، فالإلقاءُ في الأصلِ: طَرْحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاهُ، أي: تراهُ، ثمَّ صارَ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[3]، وألْقَيْتُهُ: نَبَذْتُه إلْقاءً، والشَّيْءُ الطَّريحُ لَقًى، والأصلُ أنَّ قَوْمًا مِنَ العَرَبِ كانوا إذا أتَوا البَيْتَ لِلطَّوافِ؛ قالوا: لا نَطوفُ في ثيابٍ عَصَيْنا اللّه فيها، فَيُلْقونَها، فَيُسَمَّى ذَلِكَ المُلْقَى لَقًى[4]، تقول: ألقيتُهُ، أي: طرحتُهُ، وألقِهِ مِنْ يدِكِ، وألقِ بِهِ مِنْ يدِكَ، وألقيتُ إليهِ المودَّةَ وبالمودَّةِ[5]، والمرادُ بالإلقاءِ هنا: الإنزالُ والإيحاءُ بطريقِ جبريلَ عليه السلام[6].

2) ﴿ثَقِيلًا﴾: (ثقل): أصلٌ يدلُّ على ضدِّ الخِفَّةِ؛ ولذلكَ سُمّيَ الجنُّ والإنسُ الثَّقَلينِ لكثرةِ العددِ[7]، وأصل الثِّقَل أنّ العَرَب تَقول

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 683 - 684.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (لقي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(5) الجوهري، الصحاح: (لقي).
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 556، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 261.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ثقل).

لكلِّ شَيْءٍ نَفيس مَصون: ثَقَل، وأصلُه في بَيض النعام المَصون[1]، وكلُّ ما يترجَّحُ على ما يوزَنُ به، أو يُقدَّرُ به؛ يقالُ لهُ: هو ثقيلٌ، وأصلُهُ في الأجسامِ، ثمَّ يقالُ في المعاني[2]، والمرادُ بالقولِ الثَّقيلِ هنا: القرآنُ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريرُ إنزالِ القرآنِ العظيم

يخاطبُ اللّهُ ﷻ نبيَّهُ الكريم ﷺ، فيقولُ: إنّا سنوحي إليكَ قولًا عظيمَ القدرِ، غزيرَ المعاني والتَّكاليفِ الَّتي لا تخلو مِنَ المشقَّةِ، والَّتي يجبُ العملُ بها[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

صلاةُ اللَّيلِ تهيئةٌ للوحيِ والتَّنزيلِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ لبيانِ علَّةِ الأمرِ بقيامِ اللَّيلِ، فكأنَّهُ قالَ: إنَّما أمرتُكَ بصلاةِ اللَّيلِ؛ لأنّا سنُلقي عليكَ قولًا عظيمًا[5]، فهو استئنافٌ بيانيٌّ، والجامعُ بينهما شبهُ كمالِ الاتِّصال؛ ولهذا صُدِّرَ بالتَّوكيد بـ(إنَّ)، ويحتملُ أنْ تكونَ الآيةُ اعتراضًا مِنْ حيثُ المعنى، لا مِنْ حيثُ الصِّناعةُ؛ وذلكَ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ مطابقٌ لقولِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾؛ فكأنَّهُ شابهَ الاعتراضَ، مِنْ حيثُ دخولُهُ بينَ هذينِ المتناسبينِ، والمرادُ بهذا الاعتراضِ: أنَّ التَّكليفَ بقيامِ اللَّيلِ مِن جملةِ التَّكاليفِ الثَّقيلةِ الصَّعبةِ الَّتي وردَ بها القرآنُ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقتُ السُّباتِ والرّاحةِ والهدوءِ، فلا بدَّ لمَنْ أحياهُ مِنْ مضادَّةٍ لطبعِهِ، ومجاهدةٍ لنفسِهِ[6].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثقل).

(2) الأصفهاني، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ثقل).

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 387، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 314.

(4) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 681 - 683، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 38.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 683.

(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 637، والسمين، الدر المصون: 10/ 516 - 517.

سِرُّ توكيدِ الآيةِ:

الاهتمامُ بإنزالِ القرآنِ المخالفِ لكلِّ كلامٍ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ باعتبارِ أنَّ وعدَهُ الصّادقَ تعالى لا يتخلَّفُ؛ للاهتمام به[1]، وكمالِ العنايةِ بشأنِه[2]، ولأنَّ الإتيانَ بما هو خارجٌ عن جميعِ أشكالِ الكلامِ لا يكادُ يُصدَّقُ[3].

دلالة التَّعبير بضمير الجمع:

شـأنُ إلـقـاءِ القرآنِ عظيمٌ

أُسنِدَ الإلقاءُ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾؛ لتعظيم شأنِ الإلقاءِ، أي: إنّا بما لنا مِنَ العظمةِ سنُلقي ...[4]، والنُّونُ الموجودةُ في قولِه: ﴿إِنَّا﴾ هي نونُ الاستِتْباعِ؛ فالمقصودُ اللّهُ - ﷻ - ومعه المَلَكُ جبريلُ عليه السلام ومعنى التَّعْظيم لا يتعاندُ مع ذلك، فالإسنادُ حقيقيٌّ، أوَ أنَّ الملقيَ هو اللّه تعالى بواسطةِ جبريلَ، فيكون الإسنادُ مَجازيًّا من إسنادِ ما للشَّيءِ إلى سببِهِ الآمرِ به.

معنى السّينِ، ودلالة التَّعبير بها في ﴿سَنُلۡقِي﴾:

إلـقـاءُ الـقـولِ الـثَّـقـيـلِ قـريـبٌ مؤكَّدٌ

السّينُ في قولِه تعالى: ﴿سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾؛ للتَّوكيدِ[5]، ولإفادةِ قُرْبِ الإلقاءِ بوعدٍ لا خُلْفَ فيه، فيتهيَّأُ لذلكَ بما يحقُّ له[6]، وهذا مِن شأنِه أنْ يُحتِّمَ عليه ﷺ الصَّلاة في اللّيل، فهي قرينة الوجوب في الأمرِ بالقيام.

دلالةُ المضارعة في ﴿سَنُلۡقِي﴾:

الإيــمــاءُ إلى استمرار الإيقاظ لتلقِّي القرآن والاستعدادِ له استمرارَ تجدُّدٍ

التَّعبيرُ بالمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾؛ للتَّنبيهِ على استمرارِ الإلقاءِ، وتجدُّدِهِ، وتكرارِه[7]، وفي ذلكَ مزيدُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 378.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 9.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 9.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 378.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 9، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.
(7) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 378، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.

تهيئةٍ للنَّبيِّ ﷺ لتلقّيه؛ بحيثُ لا يأتيهِ فجأةً، ووراء ذلك مِن المعنى التَّنْبيهُ على تكرارِ الصَّلاة في اللّيل، وتجديدِها، والاستمرار عليها.

دلالةُ الاستعارة المكنيَّة في (نُلقي):

القرآنُ قولٌ ثقيل؛ لأنّه نظامٌ ودَليل

شبَّه النَّظمُ القرآني الكريمُ القولَ الثّقيل الَّذي هو القرآنُ بجِسم يُلقى، ويُطرحُ، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصّه ولوازِمِه (الإلقاء)، وعلّقهُ به تخييلًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، والغرضُ من الاستعارة جعْلُ الكلام كالجِسم في ثقلِهِ وقوّتِه وجسامتِه، ولذا وُصِفَ بأنه ثقيل، فيكون قرينةً أُخرى على إرادةِ التّخييل.

معنى (على)، ودلالة التَّعبير بها في ﴿عَلَيْكَ﴾:

مقامُ إلقاءِ الوحيِ مقامُ صُعوبةٍ ومَشَقَّةٍ

عُبِّرَ بأداةِ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ لأنَّ المقامَ لبيانِ الصُّعوبة[1]، فيناسبُهُ الحرفُ الدّالُّ على التَّكليفِ والمشقَّة، وفي (على) إشارةٌ إلى القصد إلى أنْ يُحيط القرآنُ بكُلِّيَّة رسولِ اللّه محمّد ﷺ، فكيف يكونُ قلبٌ تمكَّنت منه، ورسخت فيه معاني الهدى القرآنيَّة؟ ولذا عدلَ النظمُ عن التعديةِ بـ(إلى).

نكتة تقديم ﴿عَلَيْكَ﴾:

مِثْلُه ﷺ جديرٌ بأنْ يتلقّى القولَ الثَّقيلَ، ويتحمَّلَهُ

قُدِّمَ قولُه: ﴿عَلَيْكَ﴾ على قوله: ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، مع أنَّ حقَّهُ التّأخيرُ عنهُ؛ للعنايةِ بالمقدَّم، ووجهُ ذلكَ التَّنْبيهُ على أنَّ مِثْلَه ﷺ جديرٌ بأنْ يتلقى القولَ الثَّقيلَ، ويتحمَّلَهُ، وللتَّشويق للمؤخَّرِ، ولرعايةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

علّة التَّعبيرِ بالقولِ:

تكليفُ اللهِ لا يخلو مِنَ نوعِ لُطفٍ ويُسْرٍ

عُبِّرَ بالقولِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إلقاءَ القرآنِ إنْ كانَ فيه ثِقَلٌ ومشقَّةٌ؛ فإنَّه لا يخلو مِنَ اليُسْرِ؛ لأنَّ القولَ تدورُ مادَّتُه على اليُسرِ والخِفَّةِ[2]، وذلكَ مِنْ لطفِ اللّهِ ﷻ، ورحمته بعباده.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 9.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 9.

سِرُّ تنكيرِ ﴿قَوۡلٗا﴾:

تنكيرُ قولِه: ﴿قَوۡلٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾؛ للإفرادِ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ للتَّعظيمِ، أي: قولًا عظيمَ الشَّأنِ، وهو القرآنُ.

دلالةُ الاستعارة التصريحيَّة التبعيَّة في ﴿ثَقِيلًا﴾:

القرآنُ عظيمُ القدرِ، غزيرُ المعاني والتَّكاليفِ

الثِّقَلُ الموصوفُ بِهِ القولُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾: ثِقَلٌ مجازيٌّ، فهو مستعارٌ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً لصعوبةِ حفظِهِ؛ لاشتمالِهِ على معانٍ ليسَتْ مِنْ معتادِ ما يجولُ في مداركِ القومِ، وهو أيضًا ثقيلٌ صعبٌ تلقّيهِ ممَّنْ أُنزلَ عليهِ، ويُستعارُ ثِقَلُ القولِ لاشتمالِهِ على معانٍ وافرةٍ، يحتاجُ العلمُ بها لدقَّةِ النَّظرِ؛ وذلكَ لكمالِ هَدْيِهِ، وجمالِ سَبكِهِ، وحسبُكَ أنَّهُ حوَى منَ المعارفِ والعلومِ ما لا يَفي العقلُ بالإحاطةِ بِهِ، فكم غاصَتْ فيهِ أفهامُ العلماءِ، من فقهاءَ ومتكلِّمينَ وبُلَغاءَ ولغويّينَ وحُكَماءَ، فشابهَ الشَّيءَ الثَّقيلَ في أنَّهُ لا يَقوَى الواحدُ على الاستقلالِ بمعانيهِ[2]، وهو أيضًا ثقيلٌ؛ لِما فيهِ منَ التَّكاليفِ الشّاقَّةِ، مِنْ جهةِ حملِها وتحميلِها للمدعوّينَ؛ لأنَّها تَضادُّ الطَّبعَ، وتخالفُ النَّفسَ[3]، وهو أيضًا ثقيلٌ؛ لِعِظَمِ قَدْرِهِ[4].

دلالةُ صيغةِ (فعيلٍ) في ﴿ثَقِيلًا﴾:

اتِّصافُ القولِ بالثِّقَلِ اتِّصافًا بليغًا

جيءَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾؛ للمبالغةِ في ثِقَلِ القولِ، أي: تصويرِ حقِّيَّةِ حالِهِ من الثِّقَلِ المذكورِ، وفيها تنبيهٌ على تعدُّدِ جهةِ كونِهِ ثقيلًا، على ما سبق ذكرُه، فهي جهةُ اتِّساعِ دلالتِهِ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 378.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 261 - 262.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 556، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 10.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 683.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلقاءُ والرَّميُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبذُ:

إنزالُ القرآنِ فيهِ مشقَّةٌ، ويكونُ دونَ ترقُّبٍ

(الرَّمْيُ) هو الأصلُ، وهو يُطلَقُ على الرَّمْيِ بالمعاني والأعيانِ، وعلى كلِّ حالاتِ الرَّمْيِ، فيدخلُ ضمنَ معناهُ العامِّ (الإلقاءُ والقَذْفُ والرَّجْمُ والطَّرْحُ والنَّبْذُ)، فـ(الإلقاءُ) يعني طَرْحَ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي تريدُهُ، وحيثُ تراهُ، أو حيثُ تُحِبُّ، و(الرَّجْمُ) أشدُّ معاني الرَّمْيِ؛ إذ هو في الأصلِ الرَّمْيُ بالحجارةِ، ويُستعارُ في أشدِّ حالاتِ الشَّتْمِ، و(القَذْفُ) هو رَمْيُ الشَّيءِ مِن بُعْدٍ، ويُستعارُ لرَمْيِ الإنسانِ بالتُّهَمِ البعيدةِ عن سُلوكِهِ وأخلاقِهِ، و(الطَّرْحُ والنَّبْذُ) كلاهما يعني إلقاءَ الشَّيءِ وإبعادَهُ؛ لقلَّةِ الاعتدادِ بهِ، والفرقُ بينَهما: أنَّ النَّبْذَ أشدُّ مِنَ الطَّرْحِ.

وقد عُبِّرَ بالإلقاءِ هنا؛ لمناسبتِهِ للقولِ الثَّقيلِ، وهو القرآنُ العظيمُ المُنطوي على تكاليفَ شاقَّةٍ ثقيلةٍ على المكلَّفينَ، لا سيَّما على الرَّسولِ ﷺ؛ فإنَّهُ مأمورٌ بتحمُّلِها، وتحميلِها للأمَّةِ، ولأجلِ ذلكَ لم يُعبَّرْ بالإيحاءِ مع أنَّهُ المقصودُ بالإلقاءِ[1]، وفي الإلقاءِ أيضًا إشارةٌ للإبلاغِ على غيرِ ترقُّبٍ[2].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 50، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 116.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 261.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾ [المزّمّل: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

عظمةُ التّهجُّدِ مؤكّدةٌ

لمّا أفهمَ قولُهُ ﷻ لنبيِّه الكريم ﷺ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ أنَّ التَّهجُّدَ في غايةِ العظمةِ أكَّدَ ذلكَ بهذهِ الآيةِ(1)؛ وذلك باللَّفْتِ إلى عِظَمِه وصعوبته بنوعِ تفصيلٍ في حقِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَاشِئَةَ﴾: (نشأ): أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ وسُموٍّ(2)، ومِنْ ذلكَ يقالُ: نشأ السَّحابُ، أي: ارتفعَ، والنّاشئُ: الشّابُّ الَّذي نشأ، وارتفعَ، وعلا(3)، يقالُ: فتًى ناشئٌ، ولم أسمَعْ هذا النَّعتَ في الجاريةِ، والفعلُ: نَشَأَ يَنشأُ نَشْئًا ونَشْأَةً ونَشاءةً(4)، والنَّشأةُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُهُ(5)، والمرادُ بناشئةِ اللَّيلِ: القيامُ والانتصابُ للصَّلاةِ، أو ساعاتُ اللَّيلِ؛ لأنَّها تنشأُ أوَّلًا فأوَّلَ(6)، أو النَّفسُ الَّتي تنهضُ مِنْ مضجعِها إلى العبادةِ(7).

2) ﴿وَطۡـٔٗا﴾: (وطأ): أصلٌ يدلُّ على تمهيدِ شيءٍ وتسهيلِه(8)، ومِنْ ذلكَ يقالُ: وطَّأتُ لكَ الأمرَ؛ إذا هيَّأتَهُ(9)، والوِطاءُ: ما توطَّأتَ به، والمواطأةُ: الموافقةُ، وأصلُهُ أنْ يطأ الرَّجلُ برِجْلِه موطئَ صاحبِه(10)،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 11.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ).
(3) ابن سيده، المحكم: (نشأ).
(4) الخليل، العين: (نشأ).
(5) الأصفهاني، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نشأ).
(6) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 682، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 39 - 40.
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 638، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وطأ).
(9) الخليل، العين: (وطأ).
(10) الأصفهاني، المفردات: (وطأ).

وقولُهُ: ﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾، أي: أثقلُ على المصلّي مِنْ ساعاتِ النَّهارِ[1]، أو أشدُّ موافقةً، يواطِئُ فيها قلبُ القائمِ لسانَهُ، أو أشدُّ موافقةً بينَ السِّرِّ والعلانيةِ؛ لانقطاعِ رؤيةِ الخلائقِ[2].

3) ﴿وَأَقۡوَمُ﴾: (قوم): أصلٌ يدلُّ على انتصابٍ أو عزمٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: القيامُ والقِوامُ، وهو اسمٌ لِما يقومُ بِهِ الشَّيءُ، أيْ: يثبتُ، وتقويمُ الشَّيءِ: تثقيفُهُ[4]، وقولُهُ: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ معناهُ: القراءةُ باللَّيلِ أقومُ منها بالنَّهارِ، أي: أشدُّ استقامةً واستمرارًا على الصَّوابِ؛ لأنَّ الأصواتَ هادئةٌ، والدُّنيا ساكنةٌ، فلا يضطربُ على المصلّي ما يقرؤُهُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

الصَّلاةُ والقراءةُ في اللَّيلِ أعظمُ وأنفعُ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن حالِ الصَّلاةِ في اللَّيلِ، فيقولُ: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ، أو الصَّلاةَ في اللَّيلِ، أو النَّفسَ الَّتي تقومُ للصَّلاةِ في اللَّيلِ؛ أثقلُ ممّا يكونُ في النَّهارِ، أو أثبتُ، وأجمعُ للخاطرِ في أداءِ القراءةِ على الصَّوابِ، وتفهُّمِها، والانتفاعِ بها، وأمّا النَّهارُ؛ فهو وقتُ انتشارِ النّاسِ، ولَغَطِ الأصواتِ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

اللَّيلُ زمانٌ مناسِبٌ للقيامِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما من شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ لتعليلِ تخصيصِ زمنِ اللَّيلِ بالقيامِ فيهِ، فهو مرتبطٌ بجملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾، أي: قُمِ اللَّيلَ؛ لأنَّ ناشئَتَهُ أشدُّ وطئًا وأقومُ قيلًا[6]، ويَحْتملُ أنْ يكونَ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 40.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 556.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) الأصفهاني، المفردات: (قوم).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 252.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.

الفصلُ لكمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ بمنزلةِ التَّوكيدِ المعنويِّ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، فهو يفيدُ أنَّ التَّهجُّدَ في غايةِ العظمةِ، وهذهِ الآيةُ تُؤكِّدُ ذلكَ[1].

سرُّ توكيدِ الآيةِ:

القرآنُ يُنبِّه على ما هو الأكملُ لأتباعِهِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ، وضميرِ الفصلِ؛ للعنايةِ بمضمونِ الكلامِ وتقريرِ الحُكمِ وتثبيتِهِ في نفوسِ المُنكرينَ؛ وليَخُفَّ أمرُ القيامِ على النَّفسِ؛ باللَّفْتِ إلى عدمِ الرِّضا بدونِ الأفضلِ الأجملِ الأكملِ[2].

علَّةُ التَّعبيرِ بالنّاشئةِ:

العبادةُ تنشأُ في اللّيلِ بغايةِ الخِفَّةِ

إيثارُ لفظِ (النّاشئةِ) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾، على غيرِهِ مِنْ نحوِ: قيامٍ، أو تهجُّدٍ؛ لدلالتِهِ على الصَّلاةِ الَّتي يُنشِئُها المصلّي بعدَ نومٍ في اللَّيلِ، فيكونُ فيهِ حثٌّ للنّاسِ على الاجتهادِ في القيامِ، وتنبيهًا على أنَّ العبادةَ تنشأ في اللّيل بغايةِ الخِفَّةِ؛ مِن: نشَأَ، أي: نهَض مِن مضجعه بغايةِ النَّشاطِ؛ لقوَّةِ الهمَّةِ ومضاءِ العزيمةِ الَّتي جعلتها كأنَّها نشأت بنفسِها[3].

دلالةُ الاستعارةِ التصريحيَّةِ في ﴿نَاشِئَةَ﴾:

صلاةُ اللَّيلِ تحتاجُ إلى قوَّةٍ ورباطةِ حَوْلٍ

استعارَ النظمُ الكريمُ لفظَ ﴿نَاشِئَةَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ للصَّلاة؛ لأنَّها تنشأُ في اللَّيل، وتقعُ فيهِ بخلافِ ناشئةِ النَّهارِ، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأقامَ المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التصريحيَّةِ، والغرضُ من الاستعارةِ بيانُ تميُّزِ الصَّلاةِ الليليَّةِ عن الصَّلاةِ النَّهاريَّةِ، وأنها تحتاجُ إلى إنشاءٍ لثقلِها وصُعوبتها على النَّفس.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 11.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 11.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 207، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.

بلاغةُ الحذف في ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾:

ساعاتُ اللّيلِ تنشأُ تدريجيًّا

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ إيجازٌ بحذفِ الموصوفِ، والمعنى: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ النّاشئةَ، فاكتفَى بالوصفِ عن الاسم[1]، أو المعنى: إنَّ النَّفسَ النّاشئةَ باللّيلِ الَّتي تنشأُ مِن مضجعِها للعبادةِ، أي: تنهضُ، وترتفعُ[2]، فيكونُ: (النّفس) هو الموصوفَ المحذوفَ، أو المعنى: إنَّ الصَّلاةَ النّاشئةَ في اللّيلِ، فإنَّ الصَّلاةَ تشتملُ على أفعالٍ وأقوالٍ، وهي قيامٌ، ووصفُ الصَّلاةِ بالنّاشئةِ؛ لأنَّها أنشأها المصلّي، فنشأتْ بعدَ هَدْأةِ اللَّيلِ[3]، فالحذفُ هيَّأ الكلامَ لاستحضارِ كلِّ ما يتعلَّق بالسِّياقِ، وهذا ضربٌ عليٌّ مِن الإيجازِ، ويحتملُ أنَّها مصدرٌ بمعنى قيامِ اللَّيلِ، على أنَّها مصدرٌ مِنْ نشأ؛ إذا قامَ، ونهضَ، فتكونُ كالعافيةِ، وعليهِ فلا حذفَ[4].

دلالة الإضافةِ في ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾:

يصفو اللّيلُ، فيحلو الأُنسُ بالقيامِ

إضافةُ النّاشئةِ إلى اللّيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ على معنى: (في)، أي: إنَّ الصَّلاةَ النّاشئةَ في اللَّيلِ[5]، أو النُّفوسَ القائمةَ في اللَّيلِ[6]، وهذه الإضافةُ تُضفي على المضافِ مِن المُضافِ إليه تميُّزًا، فهي ناشئةٌ مخصوصةٌ، سواءٌ سبقَها نومٌ أم لا؛ ولهذا "قالت عائشة رضي الله عنها: النّاشئةُ القيامُ بعدَ النّومِ، وقال الأزهريُّ: النَّاشئةُ القيامُ، مصدرٌ جاء على فاعِلَة، كالعافيةِ بمعنى العَفْو"[7].

إسنادُ القيامِ إلى اللّيلِ مجازٌ

وإذا كانتِ النّاشئةُ مصدرَ (نشأ) بمعنى (قامَ)؛ فإسنادُها إلى اللَّيلِ مجازٌ عقليٌّ؛ لكونِ اللّيلِ محلًّا للقيامِ، كما يقالُ: قامَ ليلَهُ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 39.
(2) السمين، الدر المصون: 10/ 517.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.
(4) السمين، الدر المصون: 10/ 517.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 117.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 207.

وصامَ نهارُهُ[1]، مع أنَّ اللَّيل لا يقومُ، والنّهارَ لا يصومُ، بل يُقامُ، ويُصامُ فيه، والغرضُ من تحويلِ الإسناد إلى الظَّرف الدِّلالة على المُبالغة؛ حتَّى إنَّ من شدَّة ذلك أنَّ اللَّيل يكونُ ناشِئًا.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

جميعُ اللَّيالي محلٌّ للابتهالِ

تعريفُ اللَّيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ للجنسِ؛ إذ لا عهدَ هنا، والجنسُ فيه معنى العموم، فيُنَبِّهُ هذا العمومُ في لُطْفٍ على استثمارِه بتنشئةِ الصَّلاة والعبادة فيه، ويحتملُ أَنْ يكون للعهدِ الذهنيِّ عند البيانيّينَ المُتحقِّق في فردٍ غيرِ مُعيَّن، وهو بمنزلةِ النَّكرة في الدِّلالة على الفردِ المُنتشِر؛ ليَصدُقَ على أيِّ فردٍ من أفرادِ اللَّيل الَّتي تصلُحُ بطبيعتِها للقيامِ والتعبُّد.

نكتةُ ضميرِ الفصلِ ﴿هِيَ﴾:

ناشئةُ اللَّيلِ مخصوصةٌ بكونِها أشدَّ وطئًا

قولُه: ﴿هِيَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾، ضميرُ فصلٍ يفيدُ الحصرَ، أي: هي خاصَّةً أشدُّ وطئًا، فلا بدَّ منَ الاعتناءِ بالقيامِ[2]، ويحتملُ أَنْ يكونَ ضميرُ الفصلِ هنا لتقويةِ الحكمِ، لا للحصرِ[3]، وهو على كلِّ حالٍ زيادةٌ في التَّوكيد؛ ترغيبًا في قيامِ اللَّيل؛ لكونه في غاية الصّعوبة؛ لشدّة منافرته للطَّبْع[4].

علَّة التَّعبيرِ بالأشدِّ:

عَراقةُ ناشئةِ اللَّيلِ في الأشدّيَّةِ

عُبِّرَ بالأشدِّ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾؛ لدلالتِهِ على الثِّقَل والقوَّةِ والمتانةِ والرَّصانةِ[5]، فيفيدُ المبالغةَ في إثباتِ رسوخِ ناشئةِ اللَّيلِ في الأشدّيَّةِ، وهو ناظِرٌ إلى كونِ القولِ الَّذي هو القرآنُ ثقيلًا.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 381، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 117.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 11، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 50.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 263.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 207.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 11.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتي: ﴿وَطۡـٔٗا﴾:

تعدُّدُ القراءةِ والمعنَى مِن ثِقَلِ القولِ الَّذي هو القرآنُ

قرأ أبو عمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿وِطَـآءٗ﴾ بكسرِ الواوِ، وفتحِ الطّاءِ، بعدَها ألفٌ، وقرأ الباقونَ: ﴿وَطۡـٔٗا﴾ بفتحِ الواوِ، وسكونِ الطّاءِ[1]، أمّا الأولى؛ فهي مِنَ الموافقةِ، والمعنى: أشدُّ مواطَأةً بينَ القلبِ واللِّسانِ في الحضورِ، وفي التزامِ الدِّينِ بالإذعانِ والخضوعِ، وهذه القراءةُ أبلغُ - أي: أقوى - مِن قراءةِ الجمهورِ؛ لأنَّ صيغةَ المفاعلةِ تكونُ بينَ اثنينِ يُغالبانِ، فيكونُ الفعلُ أقوى، وأمّا الثّانيةُ؛ فهي مِنَ الثَّباتِ، أو الثِّقلِ، والمعنى: أشدُّ وطْئًا، أي: كُلْفةً ومشقَّةً؛ لِما فيها مِن تركِ الرَّاحةِ، وفراقِ الإلفِ والمحبوبِ، وأشدُّ ثباتَ قدمٍ[2]، والقراءتانِ ضَرْبٌ مِنَ الإيجازِ، يَجْمعُ بينَ صفةٍ للعبادةِ اللَّيليَّةِ، وصفةٍ للعابدِ في اللَّيلِ.

دلالةُ التَّفضيلِ في ﴿أَشَدُّ﴾:

ساعاتُ اللَّيلِ أثقلُ على المصلّي مِن ساعاتِ النَّهارِ

عُبِّرَ بالتَّفضيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ ساعاتِ اللَّيلِ أثقلُ على المصلّي مِن ساعاتِ النَّهارِ؛ وذلك أنَّ اللَّيلَ وقتُ منامٍ وراحةٍ، فمَن شغلَهُ بالعبادةِ؛ فقد تحمَّلَ المشقَّةَ العظيمةَ[3]، أو للتَّنبيهِ على أنَّها أشدُّ ثباتَ قدمٍ، وأبعدُ مِنَ الزَّللِ[4]، هذا على قراءةِ: ﴿وَطۡـٔٗا﴾، وأمّا على قراءةِ: ﴿وِطَـآءٗ﴾؛ فالتَّفضيلُ ليس على ظاهرِه، وإنَّما المرادُ به المُبالَغةُ في إثباتِ معنَى اللَّفْظِ، والمعنَى: أنَّها أشدُّ مواطأةً، أي: يواطِىءُ قلبُها لسانَها؛ إنْ أردْتَ بالنّاشئةِ النَّفسَ، أو يواطِىءُ فيها قلبُ القائمِ لسانَهُ؛ إنْ أردتَ القيامَ، أو العبادةَ، أو السّاعاتِ، أو أشدُّ موافقةً لِما يُرادُ مِنَ الخشوعِ والإخلاصِ[5].

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(2) السمين، الدر المصون: 10/ 518 - 519، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 207.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 40 - 41.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، والسمين، الدر المصون: 10/ 518 - 519.
(5) السمين، الدر المصون: 10/ 518 - 519.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَطْـًٔا﴾:

المُصلّي في اللّيلِ عظيمُ الإقبالِ على الله

الوطءُ في الأصلِ: وضعُ الرِّجلِ على الأرضِ، وهو في قولِهِ تعالى هنا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ مستعارٌ لمعنًى يناسبُ أنْ يكونَ شأنًا للظّلامِ باللّيلِ، فيجوز أنْ يكونَ الوطءُ قد استُعيرَ لفعلٍ مِنْ أفعالِ المصلّي على نَحْوِ إسنادِ المصدرِ إلى فاعلِهِ، أي: واطِئًا أنتَ، فهوَ مستعارٌ لتمكُّنِ المُصَلّي مِنَ الصَّلاةِ في اللَّيلِ - بتفرُّغِهِ لها، وهدوءِ بالِهِ مِنَ الأشغالِ النَّهاريَّةِ - تمكُّنَ الواطئِ على الأرضِ، فهو أمكنُ للفعلِ، والمعنى: أشدُّ وقعًا، ويجوزُ أنْ يكونَ الوطءُ مستعارًا لحالةِ صلاةِ اللَّيلِ، وأثَرِها في المُصَلّي، أي: أشدُّ أثَرَ خيرٍ في نفسِهِ، وأرسخُ خيرًا وثوابًا[1]، والاستعارةُ على الوجهيْنِ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ.

سِرُّ التَّرْتيبِ، ودلالةُ العطفِ:

التَّهجُّدُ يجمعُ القولَ والفعلَ

لَمّا كانَ التَّهجُّدُ يجمعُ القولَ والفعلَ، وقد بيَّنَ سبحانَهُ ما في الفعلِ؛ لأنَّهُ أشقُّ، فكانَ بتقديمِ التَّرغيبِ بالمِدْحةِ أحقَّ؛ أتبعَهُ القولَ، فقالَ: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[2]، فكانَ الثّاني مِن تمامِ الأوَّلِ في تصويرِ عظمةِ فائدةِ الصَّلاةِ باللّيلِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَأَقۡوَمُ﴾:

الصَّلاةُ في اللَّيلِ تُحقِّقُ للمُصلِّي القوامةَ في الطَّاعةِ والعبوديَّةِ

الأقومُ في الأصلِ: الأفضلُ في التَّقوُّمِ الَّذي هو عدمُ الاعوجاجِ والالتواءِ، واستُعيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ للأفضلِ الأنفعِ[3]؛ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، فالمعنَى: وأفضلُ وأنفعُ قيلًا، وفيها تصويرُ المعقولِ بصورَةِ المَحْسوسِ، ولفظُ الاستعارةِ أبلغُ في تقريرِ عِظَمِ نفْعِ القيامِ في اللَّيلِ للمُصلِّي؛ لإفهامِهِ عمومَ النَّفْعِ وكمالَهُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 262.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 12.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 263.

دلالة التَّفضيلِ في ﴿وَأَقْوَمُ﴾:

قـراءةُ اللَّيلِ تَفيضُ بالخيراتِ والبركاتِ

عُبِّرَ بالتَّفضيلِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ القراءةَ باللَّيلِ أقومُ منها بالنَّهارِ، فالتَّفْضيلُ على ظاهرِه، أي: أشدُّ استقامةً واستمرارًا على الصَّوابِ؛ لأنَّ الأصواتَ هادئةٌ، والدُّنيا ساكنةٌ، فلا يضطربُ على المصلّي ما يقرؤُهُ، وأشدُّ استقامةً لفراغِ البالِ باللَّيلِ، وأعجلُ إجابةً للدُّعاءِ، وأتمُّ نشاطًا، وأتمُّ إخلاصًا، وأكثرُ بركةً، وأجدرُ أنْ يتفقَّهَ المصلّي في القرآنِ(1).

فائدةُ التَّمييزِ في ﴿وَطۡـَٔا﴾ و﴿قِيلًا﴾:

في البيان بعد الإبهام إحسانٌ إلى المعنى ولمتُلقِّيه

انتصبَ: ﴿وَطۡـَٔا﴾، و: ﴿قِيلًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾؛ على أنَّهما تمييزا نسبةٍ لـ﴿أَشَدُّ﴾، و(أقومُ)(2)، وهما المقصودانِ بالمُمَيَّزِ، وفائدةُ ذلكَ: الإتيانُ بالبيانِ بعدَ الإجمالِ الَّذي يُشوِّقُ النَّفسَ؛ لتلقّي البيانِ، فيتمكَّنُ عندَ وُرودِهِ عليها فَضْلَ تَمكُّنٍ.

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 41.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 263.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ [المزّمّل: 7 - 9]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ثَمَراتُ الصَّلاةِ في اللَّيلِ إنَّما تظهرُ في النَّهارِ

لَمَّا بيَّن سبحانه من أوَّل السّورة إلى آخرِ الآية السّادسة ما به صلاحُ الدِّين الَّذي هو عِصمةُ الأمر، وبهِ صلاحُ الدَّاريْن، وأظهَر ما للتَّهجُّد من الفضائل، فكان التَّقديرُ حتمًا: (فواظِبْ عليه؛ لتنالَ هذه الثّمرات)؛ قال مُعلِّلًا مُحققًّا لهُ؛ مُبيِّنًا ما به صلاحُ الدُّنيا الَّتي هيَ فيها المعاشُ، وصلاحُها وسيلةٌ إلى صلاح المقصودِ، وهو الدِّينُ، وهو الَّذي ينبغي له ﷺ؛ لئلَّا يكونَ كلًّا على النَّاس؛ ليُحصِّلَ من الرِّزْق ما يُعينُه على دينِه، ويوَسِّعُ به على الفقراء من غير ملَلٍ ولا ضَجَرٍ ولا كسَلٍ ولا مبالغةٍ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ الآيات[1]، وفي هذهِ الآياتِ أيضًا بيانٌ للدّاعي الخارجيِّ إلى قيام اللَّيلِ بعدَ بيانِ ما في نفسِه منَ الدّاعي[2]، وآيةُ: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ تعليلٌ في المعنى لجميعِ ما قبلَها مِن آياتٍ، فالرَّبُّ الكريمُ هو الَّذي أنعمَ بسَكَنِ اللَّيلِ الَّذي أمرَ بالتَّهجُّدِ فيهِ، والانتشارِ في النَّهارِ الَّذي أمرَ بالسَّبْحِ فيهِ[3]، فيكون ذلكَ تنبيهًا على وجوبِ شكرِهِ ﷻ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبۡحٗا﴾: (سبح): أصلٌ يدلُّ على السَّعيِ، ومِنْ ذلكَ: السّابحُ مِنَ الخيلِ، وهو الحسنُ مدِّ اليدين في الجَرْي[4]، والسَّبْحُ: المرُّ السَّريعُ في الماءِ، وفي الهواءِ[5]، والسَّبْحُ أيضًا: الفراغُ، والتَّصرُّفُ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 207.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 15.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(5) الأصفهاني، المفردات: (سبح).

المَعاش[1]، وقولُهُ تعالى: ﴿سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، أي: تصرُّفًا في الحوائجِ، وإقبالًا وإدبارًا وذَهابًا ومَجيئًا، أو فراغًا للحاجاتِ بالنَّهارِ[2].

2) ﴿وَتَبَتَّلۡ﴾: (بتل): أصلٌ يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ[3]، وإبانتِهِ مِنْ غيرِهِ[4]، وهي كلمةٌ توصَل بالبَتِّ، تقول: أعطيتُه بَتًّا بَتْلًا، والبَتول: كل امرأةٍ تَنْقَبِضُ عن الرجال، فلا حاجة لها فيهم ولا شَهوة، ومنه التَبَتُّل وهو تَرْكُ النِّكاح[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: صدقةٌ بَتْلةٌ، أي: منقطعةٌ مِنَ المالِ إلى سبيلِ اللّهِ[6]، والتَّبتُّلُ: الانقطاعُ عن النِّكاحِ، والعَذراءُ البتولُ: هي المُنقطِعةُ عن الرِّجالِ[7]، والمرادُ هنا: انقطعْ بعبادتِكَ إليهِ تعالى، ولا تُشرِكْ بهِ غيرَهُ[8].

3) ﴿وَكِيلٗا﴾: (وكل): أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على غيرِكَ في أمرِكَ[9]، والوكيلُ: الموكَّلُ[10]، ووَكَلْت الأمرَ إليه وكْلًا مِنْ باب (وَعَدَ) ووُكولًا، فَوَّضْتُهُ إِلَيْهِ، واكْتَفَيْتُ بِهِ، و(الوَكيل) فَعيلٌ بِمَعْنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّهُ مَوْكولٌ إِلَيْهِ، ويَكونُ بِمَعْنَى فاعِلٍ؛ إذا كانَ بِمَعْنَى الحافِظِ[11]، ومعنى ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾: فاتَّخِذْهُ قائمًا بأمورِكَ، أَوْ كَفيلًا بما وعدَكَ[12].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذكرُهُ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: إنَّ لكَ في النَّهارِ فراغًا طويلًا، وتصرُّفًا في شؤونِ المَعاشِ، واذكُرْ ربَّكَ على الدَّوامِ بأنواعِ

عِبادةُ اللهِ والتَّوكُّلُ عليهِ حِرْزُ المؤمنِ

(1) الجوهري، الصحاح: (سبح).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 42.
(3) الخليل، العين: (بتل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بتل).
(5) الخليل، العين: (بتل).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (بتل).
(7) الأصفهاني، المفردات: (بتل).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 44، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 310.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(10) الأصفهاني، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وكل).
(11) الفيومي، المصباح المنير: (وكل).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 45.

الذِّكرِ، وانقطِعْ إليهِ بالعبادةِ انقطاعًا دونَ سائرِ الأشياءِ، فهو ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينَهما مِنَ العالَم، لا ينبغي أنْ يُعبَدَ إلهٌ سواهُ، فاتَّخِذْهُ وكيلًا، وفوِّضْ إليهِ جميعَ أمرِكَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الفصلِ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾:

النَّهارُ لا يُغني غَناءَ اللَّيلِ في القيامِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ لتعليلِ الأمرِ بالقيامِ في اللَّيلِ[2]، فيفيدُ توكيدًا للمحافظةِ على قيامِ اللَّيلِ؛ لأنَّ النَّهارَ لا يُغني غَناءَهُ، وهو على هذا استئنافٌ بيانيٌّ، ويحتملُ أنْ يكونَ تلطُّفًا عن تكليفِهِ بقيامِ اللَّيلِ، وفيهِ إرشادٌ إلى أنَّ النَّهارَ ظرفٌ واسعٌ؛ لإيقاعِ ما عسَى أنْ يُكلِّفَهُ قيامُ اللَّيلِ من فُتورٍ بالنَّهارِ؛ لينامَ بعضَ النَّهارِ، وليقومَ بمهامِّهِ فيه، وهو على هذا استئنافٌ ابتدائيٌّ، ويجوز أنْ يكونَ تعليلًا لما تضمَّنَهُ قولُهُ: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾، أي: إنْ نقصتَ مِنْ نصفِ اللَّيلِ شيئًا؛ لا يَفُتْكَ ثوابُ عملِهِ، فإنَّ لكَ في النَّهارِ مُتَّسعًا للقيامِ والتِّلاوةِ[3]، وهو على هذا استئنافٌ بيانيٌّ.

سِرُّ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾:

سَعَةُ النَّهارِ حَريَّةٌ بالاعتناءِ

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِهِ؛ تحريكًا للنُّفوسِ لاستثمارِ النَّهارِ في قضاءِ الحاجاتِ[4]، فهو كافٍ لقضائها؛ فلا تأخذْ من اللَّيلِ له.

معنى اللّامِ، ودلالة التَّعبيرِ بها في ﴿لَكَ﴾:

منافعُ النَّهارِ كثيرةٌ للمكلَّفِ بقيامِ اللَّيلِ

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكَ﴾؛ للمِلْكِ والاستحقاقِ، فتفيدُ بضميمةِ ذِكْرِ كافِ الخطابِ تقويةَ التَّأنيسِ والتَّخفيفِ مِنْ ثِقَلِ الأمرِ بقيامِ اللَّيلِ؛ لدلالتِها على وجودِ منافعَ في النَّهارِ ترجعُ للمكلَّفِ.

---

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 686 - 689.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 384.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 263 - 264.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 207.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها في ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

النَّهارُ محلٌّ وسيعٌ للسَّبحِ الطَّويلِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾: على أنَّ النَّهارَ محلُّ السَّبْحِ الطَّويلِ، وأنَّ فيهِ سَعَةً كثيرةً للسَّبْحِ الطَّويلِ؛ وأنَّ للإنسانِ أنْ يَقْضيَ مِن النَّومِ فيه ما يُخفِّفُ عنه التقلُّبَ والتَّصرُّفَ في المُهِمَّاتِ والمشاغِلِ، ففيه إبلاغٌ في طلبِ تحقيقِ ذلكَ السَّبْحِ الطَّويلِ، ولو قيل: (بالنَّهار) بالباءِ؛ لَمَا كانَ ذلكَ.

دلالة تعريف ﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

كلُّ نهارٍ فيهِ سَبْحٌ طويلٌ

تعريفُ النَّهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾: للجنسِ الشّاملِ لكلِّ أفرادِهِ، ففي كلِّ نهارٍ سَبْحٌ طويلٌ، وفي العمومِ الَّذي يشتملُ عليه الجنسُ تحريكٌ لأولي الألبابِ لاستثمارِ كلِّ نهارٍ، بل للاستفادةِ مِن كلِّ ساعةٍ في النَّهارِ.

علَّة التَّعبير بالسَّبحِ:

غايةُ انشغالِ العبدِ في النَّهارِ يَحثُّه على القيامِ باللَّيلِ

أصلُ السَّبْحِ: العومُ، أي: السُّلوكُ بالجسمِ في ماءٍ كثيرٍ، وهو مستعارٌ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾؛ للتَّصرُّفِ السَّهلِ المتَّسَعِ الَّذي يُشبِهُ حركةَ السّابحِ في الماءِ، فإنَّهُ لا يعترضُهُ ما يَعوقُ جَوَلانَهُ على وجهِ الماءِ، ولا إعياءُ السَّيرِ في الأرضِ[1]، وهذه استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، تنظُرُ إلى غرضِ تقريرِ ضرورةِ الصَّلاةِ في اللَّيلِ؛ حيث الهدوءُ والسَّكينةُ، وأمَّا الإنسانُ في النَّهارِ؛ فهو يَهْتَمُّ في سعيِه لمصلحة نفْسِه حتَّى كأنَّه كالسَّابِح فيما لا عائقَ فيه، فهو شديدُ العزمِ، سريعُ الحركةِ.

سرُّ تنكيرِ قوله: ﴿سَبۡحٗا﴾:

أعمالُ النَّهارِ تستلزمُ تخفيفًا مِن صَلاةِ الأسحارِ

تنكيرُ قوله: ﴿سَبۡحٗا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾: للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: سَبْحًا عظيمَ الشَّأنِ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ الغرضِ الَّذي ينظرُ إليه التَّعبيرُ بالسَّبْحِ على ما سبق ذكرُه.

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 519، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 264.

النَّهارُ زمانٌ ممتدٌّ للسَّبحِ

بلاغةُ وصفِ السَّبْحِ بالطّولِ:

الطَّويلُ وصفٌ مِنَ الطّولِ، وهو ازديادُ امتدادِ القامةِ أو الطَّريقِ أو الثَّوبِ، على مقاديرِ أكثرِ أمثالِه، فهو مِن صفاتِ الذَّواتِ، وشاعَ وصفُ الزَّمانِ بِه، ووصفُ السَّبْحِ بالطّولِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ الطَّويلَ هو مكانُ السَّبْحِ، وهو الماءُ المسبوحُ فيهِ، وفي المجازِ إبلاغٌ في تقريرِ سَعَةِ النَّهارِ، وفي قولِهِ: ﴿طَوِيلٗا﴾: ترشيحٌ لاستعارةِ السَّبْحِ للعملِ في النَّهارِ[1].

التَّواصُلُ في اللَّفظِ صورةٌ التَّواصُلِ القويِّ في المعنَى

سِرُّ الوصلِ في ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: معطوفٌ على قولِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[2]، ويَحْتملُ أنْ يكونَ معطوفًا على محذوفٍ يقتضيهِ سياقُ آية: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، والتَّقديرُ: فاجتهدْ في التَّهجُّدِ، واذكُرِ اسمَ ربِّكَ، وسِرُّ الوصلِ بينهما بالواو ما بينهما مِن التَّوسُّطِ بين الكماليْنِ، فإنَّ كلًّا من الطَّرفيْنِ إنشاءٌ في اللَّفظِ والمعنَى، وحسَّنَ الوَصْلَ كونُ الفعلِ فيهما أمرًا.

ذِكْرُ اللهِ خيرُ مُعينٍ على مصالحِ الدَّاريْنِ

دلالة العطف ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

الغرضُ مِنْ عطفِ قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ - على ما تُفْهِمُه الآيةُ السَّابقةُ: (فاجتهد في التَّهجُّد) - الحثُّ على حضورِ الفكرِ، ففي ذلك عونٌ للعبدِ على مصالح الدّارين؛ أمَّا الآخرة؛ فواضح، وأمَّا الدُّنيا؛ فقد أرشد النّبيُّ ﷺ أعزَّ الخلْقِ عليه فاطمةَ ابنتَه رضي الله عنها - لَمَّا سألته خادمًا يَقيها التَّعَبَ - إلى التَّسبيحِ والتَّحميدِ والتَّكْبيرِ عندَ النَّوْمِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 13، وإرشادُه ﷺ ابنتَه جاء في حديث صحيح، أخرجه البخاري، الحديث رقم: (3705)، ومسلم، الحديث رقم: (2727).

دلالةُ الأمرِ ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

ذِكرُ اللهِ تعالى مطلوبٌ على الدَّوامِ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ للدَّوام، أي: ودُمْ على ذكرِه تعالى ليلًا ونهارًا؛ وإنَّما حُمِلَ على الدَّوام؛ لأَنَّهُ ﷺ لم يَنْسَهُ تعالى حتَّى يُؤمَرَ بذكرِه سبحانَهُ، والمرادُ الدَّوامُ العُرفيُّ، لا الحقيقيُّ؛ لعدمِ إمكانِه[1].

علّة التَّعبيرِ بالذِّكرِ:

أبوابُ ذكرِ اللهِ كثيرةٌ متعدِّدةٌ

عُبِّرَ بالذِّكرِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾؛ لأَنَّهُ يتناولُ التَّسبيحَ، والتَّهليلَ، والتَّكبيرَ، والصَّلاةَ، وتلاوةَ القرآنِ، ودراسةَ العلمِ[2]، فيفيدُ سَعَةَ ذكرِ اللّهِ، وتعدُّدَ طرائقِه، وهذا العمومُ هو الألصقُ بكثرةِ تقلُّبِ العبدِ وتصرُّفِه في النَّهارِ وسعتِه؛ حتَّى استُعيرَ له السَّبْحُ.

علّة التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱسۡمَ﴾:

تعظيمُ الاسمِ تعظيمٌ للمُسمَّى

ذكَرَ القرآنُ كلمةَ: ﴿ٱسۡمَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾؛ لأَنَّ المأمورَ بِهِ ذكرُ اللِّسانِ، وهو جامعٌ للتَّذكُّرِ بالعقلِ؛ لأَنَّ الألفاظَ تجري على حسَبِ ما في النَّفسِ[3]، وللتَّنبيهِ على أَنَّهُ إذا عُظِّمَ الاسمُ بالذِّكرِ؛ فقد عُظِّمَ المسمَّى بالتَّوحيدِ والإخلاصِ، وذلكَ عونٌ لكَ على مصالحِ الدّارينِ[4]، وللإنسانِ أنْ يذكرَ اللّهَ تعالى، ويدعوَهُ بما شاءَ مِنَ الأسماءِ الحُسنى[5].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾:

كمالُ ظُهورِ أسمائِهِ وصِفاتِه تعالى للعبدِ

إضافةُ الاسمِ إلى الرَّبِّ في قولِهِ تعالى شأْنُهُ: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: لاميَّةٌ، وأسماءُ اللّهِ تعالى الحُسنى كثيرةٌ، وذلكَ مِنَ

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، والخفاجي، عناية القاضي: 8/ 265، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 118.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 556.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 13 - 14.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 43، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 380.

علاماتِ عظمةِ المُسمَّى ﷻ، وفي الإضافة إشارة إلى اختصاصِ الاسْمِ محلِّ الذِّكْرِ به تعالى؛ فلا يحتاج إلى إبراز؛ لكونه كذلك بإظهار اللَّام؛ تأسيسًا على كمال ظهور ألوهيَّته وربوبيَّته، وفيها أيضًا تنبيه لطيف على أنَّ للعبدِ مِن وجوه الإحسانِ في ذِكْرِ كلِّ الأسماءِ والصِّفاتِ الَّتي نعرفُها ما لهُ، وهذا لا يتعاند مع بعض الأسماء والصّفات الَّتي ظاهرُها الجلالُ، لا الجمالُ، وأسماؤُه وصفاتُه تعالى كمالاتُه، وكمالاتُه لا تتناهَى.

دلالة العطف ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾[1]:

من كمالِ الذِّكر الانشغالُ بعظمةِ مَن لهُ الأمْر

لمّا كانَ الذِّكرُ قد يكونُ مع التَّعلُّقِ بالآخر؛ أعلمَ سبحانه أنَّ الذّاكرَ في الحقيقةِ إنَّما هو المستغرقُ فيهِ سبحانه وبهِ يكونُ تمامُ العونِ، فقالَ: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾[2]، وليكونَ الذكرُ مُرتبطًا ومُقترنًا بالتبتُّلِ والانقطاعِ للّه تعالى، وليس ذكرَ المُنشغلينَ بالدُّنيا وأحوالِها.

دلالةُ الأمرِ ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾:

الكُمَّلُ ينقطعون إلى الله على الدَّوام

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ مرادٌ به الدَّوامُ، وألّا تخلوَ أوقاتُهُ ﷺ عن إقبالٍ على عبادةِ اللّهِ، ومراقبتِهِ، والانقطاعِ للدَّعوةِ لدينِ الحقِّ، ولم يكن النَّبيُّ ﷺ غافلًا عن هذا الانقطاعِ بإرشادٍ مِنَ اللّهِ، وألهمَهُ أيضًا التَّحنُّثَ في غارِ حراءَ، ثمَّ بما أفاضَهُ عليهِ مِنَ الوحيِ والرِّسالةِ[3].

دلالة صيغةِ التَّفعُّلِ في ﴿وَتَبَتَّلۡ﴾:

حاجةُ النَّفسِ إلى مُجاهدةٍ؛ لتنقطعَ إلى اللهِ

التَّبتُّلُ: شدَّةُ البَتْلِ، وهو مصدرُ الفعل: (تبتَّل) القاصرِ الَّذي هو مطاوعُ: (بتلَهُ، فتبتَّلَ، وهو في قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾؛ للمطاوعةِ المجازيَّةِ التي يُقصَدُ مِن صيغتِها المبالغةُ في حصولِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 266.

الفعلِ، حتَّى كأنَّهُ فعلَهُ غيرُهُ بهِ، فطاوعَهُ(1)، فيفيدُ الكلامُ أنَّ على النَّبيِّ ﷺ الاجتهادَ في قطعِ نفسِهِ عن كلِّ شاغلٍ، والإخلاصَ في جميعِ أعمالِهِ، حتَّى يصيرَ ذلكَ خُلُقًا لهُ(2).

علَّة التَّعبير بالتَّبتُّل في ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾:

الكُمَّلُ مِن أهلِ الإيمانِ يتميَّزون في علاقتهم بالله

عُبِّرَ بالتَّبتُّلِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾؛ لدلالتِهِ على قطعِ النَّفسِ عن كلِّ شاغلٍ، والإخلاصِ في جميعِ الأعمالِ، ورفضِ الدُّنيا وما فيها، والتماسِ ما عندَ اللّهِ تعالى(3)، وهذا هو الألصقُ بحالِ الكُمَّلِ الَّذين يُصلُّونَ باللَّيلِ، والنَّاسُ نيامٌ، ويَفهَمون القرآنَ، ويذكرونَ اللّهَ بالنَّهارِ، معَ إقبالِهِم على مصالحِ الدُّنْيا إقبالًا يُشْبِه السَّبْحَ.

معنى (إلى)، ودلالة التَّعبير بها:

الغاية النَّفيسة الشَّريفة لا يصِل إليها العبدُ بسرعة، وإنَّما بالتَّدريج

كلمة (إلى) معناها انتهاءُ الغايةِ الحِسِّيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: 1]، وهي في قولِه تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ المكانيَّةِ مجازًا، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى أنَّهُ ﷺ كأنَّهُ انقطعَ عن النّاسِ، وانحازَ إلى جانبِ اللّهِ(4)، وفيها إشارةٌ إلى طولِ الطَّريقِ الَّذي يوصِّلُ إلى رضوانِ اللّهِ ومعيَّتِهِ في الدَّارَيْنِ؛ لشديدِ نَفاسةِ الغايةِ المُنْتَهَى إليها.

علَّة التَّعبير بـ ﴿تَبۡتِيلٗا﴾:

الانقطاعُ إلى اللهِ لا يحصلُ إلّا بتكرارِ التَّبتُّلِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (تبتُّلًا)، ولكنْ عُدِلَ إلى: ﴿تَبۡتِيلٗا﴾، في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾؛ لأنَّ معنى (تبتَّلَ): بَتَلَ نفسَهُ، فجيءَ بهِ على معناهُ؛ وفيه موازنة مع الفواصلِ(5)، ولأنَّهُ لمّا كان معنى ﴿وَتَبَتَّلۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 14.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 639، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 265 - 266.

﴿إِلَيۡهِ﴾: انقطعْ إليهِ؛ أُقيمَ التَّبتيلُ مقامَهُ، وأُكِّدَ به؛ ليدلَّ على أنَّ ذلكَ الانقطاعَ إلى الرَّبِّ لا يحصلُ إلّا بتكرارِ التَّبتُّلِ، فالتَّبتيلُ يدلُّ على حصولِ الشِّدَّةِ، والتَّبتُّلُ على التَّكرارِ؛ لأنَّ التَّفعيلَ لتكثيرِ الفعلِ[1]، والتَّبْتيلُ هو الألصقُ بحالِ الكُمَّلِ الَّذين كان السِّياقُ مِن أوَّلِ السُّورة لهم، ورأسُهم النَّبيُّ ﷺ، فهو يشيرُ إلى الانقطاع إلى اللّه، الَّذي يكون بمجامع الهِمَّة، واستغراقِ العزيمة في مراقبته، وحيثُ لم يكُن ذلك إلَّا بتجريد النَّفْسِ عن العوائقِ الصَّادَّة عن مراقبة اللّه تعالى، وقطعِ العلائقِ عمَّا سواه، قال تعالى: ﴿تَبۡتِيلٗا﴾، فهو يشير إلى شدَّة الاهتمام، وصعوبةِ المقام[2].

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءَتَي قولِهِ: ﴿رَّبُّ﴾:

قراءةُ الجرِّ تُنْتِجُ قراءةَ الرَّفْعِ

قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وحفصٌ وأبو جعفرٍ برفعٍ: ﴿رَّبُّ﴾، وقرأه الباقونَ بالجرِّ: ﴿رَّبِّ﴾[3]، أمّا قراءةُ الرَّفعِ؛ فهي على أنَّ ﴿رَّبُّ﴾ خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، ثمَّ أُريدَ الإخبارُ عنهُ بخبرٍ جامعٍ لصفاتِهِ، وهو مِنْ قبيلِ النَّعتِ المقطوعِ المرفوعِ بتقديرِ مبتدأٍ[4]، وفي القطع معنى تعظيمِ الرَّبِّ سبحانه[5]، وأمّا قراءةُ الجرِّ؛ فهي على أنَّ ﴿رَّبِّ﴾ بدلٌ مِنْ ﴿رَبِّكَ﴾[6]، أو صفةٌ لهُ[7]، على سبيلِ المدح، وهذه القراءة تفيد أنَّ كلًّا مِن المشرق والمغرب وما يتعلَّق بهما مِن آثارٍ مِن وجوهِ إحسانِهِ تعالى على عبادِه، "أي: موجِدِ محلِّ الأنوارِ الَّتي بها ينمحي هذا اللَّيلُ الَّذي أنتَ قائمٌ فيه، ويُضيء بها الصَّباح"[8]، ويَنْتُجِ عن ذلك بيانُ عظمةِ إحسانِهِ تعالى على قراءة الرَّفْعِ والقَطْعِ باللَّفْتِ إليه.

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 95.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 419، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 208.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 208.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 45.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 208.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بـ(أل) في قولِهِ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ للعهدِ العِلْميِّ؛ لأنَّ المرادَ بهما الجهتانِ المعروفتانِ، جهةُ شروقِ الشَّمسِ، وجهةُ غروبِها، والغرضُ من التعريفِ بيانُ عَظَمة ذلك الربِّ القادرِ على كلِّ جهةٍ من الجهات، فلا يخرُجُ عن مُلكِهِ شيءٌ؛ بخلافِ تلك الأربابِ الباطِلةِ المُختصَّة بقبيلةٍ دونَ أُخرى وبنصرةِ قومٍ دونَ آخرين.

بلاغةُ الطِّباق ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾:

الجهتانِ المتقابلتانِ خاضعتانِ لسلطانِ اللهِ

في الجمعِ بينَ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ رعايةٌ لمحسِّنٍ معنويٍّ؛ قصدًا إلى تصوير كمال قدرة اللّه الَّتي ليس كمثلها قدرةُ أحدٍ غيرِه، فيعظمُ إحسانُه تعالى في أبصار المتلقِّين وبصائرهم، وهذا المُحسِّنُ هو الطِّباقُ، فيتصوَّرُ السّامعُ صورةَ جهتينِ متقابلتينِ خاضعتينِ لسلطانِ اللّهِ تعالى: الأولى فيها تجلّي الأنوارِ، والثّانيةُ فيها سطوةُ الظُّلمةِ، وانتشارُها، فالبديعُ نتاجُ المعنَى، ومقتضًى من مقتضَياتِ السِّياقِ.

نكتة التَّرتيب في ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾:

التَّقديمُ ينظرُ إلى تقرير ضرورة الصَّلاة في اللَّيل

الظَّاهرُ تقديم المغرب على المشرق؛ تناغيًا مع ما في الآيات السَّابقة، مِن تقديم ذِكْرِ اللَّيل على ذِكْرِ النَّهارِ؛ ولكِنَّ الآيةَ بُنِيَت على أساسِ خِطابِ المَأمور بقيام اللَّيلِ؛ فكأنَّه في حالة التَّلبُّس بالقيامِ؛ فأرادَ لفْتَه إلى إحسانِ اللّه سبحانه إلى ما يراهُ عَقِبَ انمحاءِ الظَّلام، مِن الصَّباحِ وشروقِ الشَّمْسِ؛ لِيُبْصِرَ إحسانَ اللّه في تهيئته للصَّلاةِ في اللَّيل، وفي تهيئتِه لقضاءِ مصالح الدُّنْيا في النَّهارِ، وليكونَ تذكيرًا لمَن يقومُ باللّيل أنَّ للمغربِ ربًّا، كما أنّ للمَشرقِ والنَّهار ربًّا، وأنَّ كلًّا من اللَّيل والنَّهار مُستويانِ في العبادةِ ومُراعاةِ ما يَجِبُ للربِّ القادِرِ عليهما، فهو تعالى مَعبودٌ لَيْلًا ونَهارًا.

ذِكْرُهما ينظرُ إلى قيامِ اللَّيلِ، والسَّبْحِ الطَّويل بالنَّهار

سرُّ تخصيصِ ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالذِّكرِ:

خُصَّ المشرقُ والمغربُ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، مع أنَّهُ ﷻ ربُّ كلِّ شيءٍ؛ لمناسبةِ الأمرِ بذكرِهِ في اللَّيلِ، وذكرِهِ في النَّهارِ، وهما وقتا ابتداءِ غيابِ الشَّمسِ، وطلوعِها، وذلكَ يُشعِرُ بامتدادِ كلِّ زمانٍ منهما إلى أنْ يأتيَ ضدُّهُ، فيجوزُ أنْ يكونَ المشرقُ والمغربُ جهتَي الشُّروقِ والغروبِ، فيكونانِ لاستيعابِ جهاتِ الأرضِ، أي: ربُّ جميعِ العالَمِ، وذلكَ يُشعِرُ بوقتَي الشُّروقِ والغروبِ، ويجوز أنْ يرادَ بهما وقتا الشُّروقِ والغروبِ، أي: مبدأُ ذينكَ الوقتينِ، ومُنتهاهما[1].

الـــدَّوالُّ على حقِّيَّة ألوهيَّته وإفراده بالعبادة كثيرةٌ

سِرُّ الفصل ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

لمّا عُلِم مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾: أنَّهُ سبحانَهُ المختصُّ بتدبيرِ الكائناتِ، المتفرِّدُ بإيجادِ الموجوداتِ؛ كانَ أهلًا لأنْ يُفرَدَ بالعبادةِ وجميعِ التَّوجُّهِ، فقيلَ على سبيلِ النَّتيجةِ والتَّصريحِ باللَّازمِ؛ لما بينَهُما مِن كمالِ الاتِّصالِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2]، فيكون تفرُّدُهُ تعالى بالإلهيَّةِ بمنزلةِ النَّتيجةِ لربوبيَّةِ المشرقِ والمغربِ، وفي ذلكَ تعريضٌ بالمشركينَ أثناءَ الكلامِ، وإنْ كانَ الكلامُ مسوقًا إلى النَّبيِّ ﷺ[3].

أجلُّ ما يُثْمِرُه الإحسان الإلهيُّ الثَّباتُ على إفراد الله بالعبادة

بلاغةُ القصرِ في ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

القصرُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: طريقُهُ النَّفيُ والاستثناءُ، وهو قصرٌ لصفةِ الألوهيَّةِ على اللهِ تعالى قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وهو بمنزلةِ النَّتيجةِ؛ لكونِهِ تعالى ربَّ المشرقِ والمغربِ، وإنَّما أكَّد القرآنُ معنى الجملة بالقصرِ؛ لاقترانها بالدَّليلِ عليها:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 16.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، وإنّما كان طريقُ القصر (لا وإلَّا)؛ لمراعاة اعتقاد أهل الكفر والشِّرك، فهُم يُنكرون معنى الجملة، فأُكِّدَ لذلك؛ إحسانًا إليهم للاعتدادِ بكفرهم بها؛ تمهيدًا لذكرهم في آية اللحاق القريب: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

معنى الفاءِ ودلالة التَّعبير بها في ﴿فَٱتَّخِذۡهُ﴾:

مَـنِ اعـتـقـدَ ألـوهـيَّـةَ الـلـهِ، وعرَف إحسانه؛ فـوَّضَ الأمـورَ إليهِ

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ للسَّببيَّةِ والتَّرتيب، فتفيدُ أنَّ اتِّخاذَهُ تعالى وكيلًا مسبَّبٌ عن التَّهليل، فإنَّ توحُّدَهُ بالألوهيَّةِ يقتضي أنْ توكَلَ إليهِ الأمورُ[1] دونَ تلبُّثٍ وانتظارٍ[2]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ مَنْ لا يُفوِّضُ كلَّ الأمورِ إليه، فإنَّهُ غيرُ عالمٍ بحقيقةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3]، والكلامُ في قوَّةِ النَّهي عن اتِّخاذِ وكيلٍ غيرِه؛ إذ ليسَ غيرُهُ بأهلٍ لاتِّخاذِهِ وكيلًا[4]، وفي ترتيبِ ما بعد (الفاء) على ما قبلها ترتيبٌ له على جملة: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾، فيكون كونُه وكيلًا للعبد مِن وجوهِ إحسانِهِ إليه.

دلالةُ الأمرِ ﴿فَٱتَّخِذۡهُ﴾:

التَّوكُّلُ على اللهِ واجبٌ يُرْغَبُ فيه بشدَّة

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ للوجوبِ، فيفيدُ أنَّهُ ينبغي على النَّبيِّ ﷺ أنْ يتَّخذَ اللّهَ تعالى وكيلًا، ومِن ورائه أمَّتُه، والبيانُ عن الوجوبِ بصيغة الأمرِ ينطوي على أنَّ المعنَى المأمورَ به مطلوبٌ تنفيذه وتحقيقه بغاية الرَّغبة والاهتمام.

دلالة صيغة الافتعال ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾:

بذلُ غايةِ الجهدِ فـي الـتَّـوكُّـلِ عـلـى الـلـهِ شأنُ المُقرَّبين

جيءَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ يجبُ على النَّبيِّ ﷺ بذلُ قُصارى جهدِهِ في الاعتمادِ على اللّهِ تعالى[5]، وذلك هو الألصقُ بحالِ مَن يتقرَّبُ إلى اللّه

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 640، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 557.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 688.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 267.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 16.

بالصَّلاة في اللَّيل، وفَهْم القرآنِ وتلاوتِه، وذِكْرِه في كلِّ وقت، وحالِ مَن سيتلقَّى القولَ الثَّقيلَ القرآنَ العظيمَ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَكِيلٗا﴾:

ليس كمِثْلِ كونِه وكيلًا وكيلٌ غيرُه

تنكيرُ قوله: ﴿وَكِيلٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ للتَّعظيم، أي: وكيلًا عظيمًا، لا وكيلَ سواهُ يُغني غَناءَهُ، وهذا التَّعظيمُ ناظرٌ إلى كونه الإلهَ الحقَّ الحقيقَ بالعبادة وحده؛ لأنَّه ربُّ المشرق والمغرب، فهو نتاج حركة المعنى في السّياق.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزّمّل: 10 - 11]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبلَهُما:

معاملةُ الله والخَلْق بالمَنهَجِ الحسَن والفِعل الحَقِّ

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها؛ ففيها وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ مهمّاتِ العبادِ محصورةٌ في أمرَيْن: كيفيَّةِ معاملتِهم مع اللّهِ، وكيفيَّةِ معاملتِهم مع الخلقِ، والأوَّلُ أهمُّ مِنَ الثّاني، فلمّا ذكرَ تعالى في أوَّلِ هذهِ السّورةِ ما يتعلَّقُ بالقسمِ الأوَّلِ؛ أتبعَهُ بما يتعلَّقُ بالقسم الثّاني[1].

والثّاني: أَنَّه لمّا كانتِ الوكالةُ لا تكونُ إلّا فيما يُعجِزُ، وكانَ الأمرُ بها في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ مُشيرًا إلى أنَّهُ لا بدَّ أنْ يكونَ عن هذا القولِ الثَّقيلِ خطوبٌ وأهوالٌ؛ قالَ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[2]، والهجرُ يترتَّبُ على الصَّبرِ[3].

وأمَّا مناسبةُ الآيةِ الثَّانيةِ منهما لما قبلها؛ فلَمَّا أمرَ اللّهُ رسولَه بالعملِ بالأسبابِ مِن الصَّبْرِ والهجرِ المذكورَيْنِ؛ بيَّنَ أنَّه هو الَّذي يتولَّى أمرَه، ويكفيه شرورَهُم؛ إشارةً إلى ضرورة العمل بالأسبابِ، وعدمِ الاتِّكالِ؛ فاتِّخاذُه وكيلًا لا يتعاند مع الأخذ بالأسباب، بل الأخذُ بها مِن اتِّخاذه وكيلًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ﴾: (هجر): أصلٌ يدلُّ على قطيعةٍ وقطعٍ[4]، ومِنْ ذلكَ: المُهاجرةُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ، أي: تركُ الأوّلى للثّانيةِ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 689.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 387.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).

والتَّهاجرُ: التَّقاطُعُ[1]، والهَجْرُ والهُجْرانُ: مفارقةُ الإنسانِ غيرَهُ؛ إمّا بالبدنِ، أو باللِّسانِ، أو بالقلبِ[2]، وهَجَرْتُه هَجْرًا مِنْ بابِ (قَتَلَ) قَطَعْتُهُ، والاسْمُ الهِجْرانُ، وفي التَّنْزيلِ: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34]، أيْ: في المَنامِ؛ تَوَصُّلًا إلَى طاعَتِهِنَّ، وإنْ رَغِبَتْ عَنْ صُحْبَتِهِ، ودامَتْ عَلَى النُّشوزِ؛ ارتَقَى الزَّوْجُ إلَى تَأْديبِها بِالضَّرْبِ، فَإنْ رَجَعَتْ؛ صلحتِ العِشْرَةُ، وإنْ دامَتْ عَلَى النُّشوزِ؛ استُحِبَّ الفِراقُ[3]، ومعنى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾: لا تتعرَّضْ لهم، ولا تشتغلْ بمكافأتِهم[4]، ولا تعاتِبْهم[5].

2) ﴿ٱلنَّعْمَةِ﴾: (نعم): أصلٌ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ[6]، ومِنْ ذلكَ: النِّعمةُ، وهي الحالةُ الحسنةُ، والإنعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الآخرِ[7]، والنَّعْمَةُ بالفَتْحِ اسمٌ مِنَ التَّنَعُّمِ والتَّمَتُّعِ، وهوَ النَّعيمُ، ونَعِمَ عَيْشُهُ يَنْعَمُ مِنْ بابِ (تَعِبَ): اتَّسَعَ، ولانَ، وأَنْعَمَ اللّه بِكَ عَيْنًا، ونَعَّمَهُ اللّه تَنْعيمًا: جَعَلَهُ ذا رَفاهيَةٍ[8]، والنّعمةُ: التَّنعُّمُ وطيبُ العيشِ[9]، والتَّرفُّهُ واللَّذَّةُ في الدُّنيا، وهو المرادُ هنا[10].

3) ﴿وَمَهِّلْهُمْ﴾: (مهل): أصلٌ يدلُّ على تُؤَدةٍ وسكونٍ[11]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: تمهَّلَ في أمرِهِ، أي: اتَّأَدَ، ويقالُ: أمهلَهُ، أي: أنظرَهُ[12]، والمُهْلَةُ بالضم: السَّكينَةُ والرِّفْقُ، وأَمْهَلَهُ: رَفَقَ به، ومَهَّلَهُ تَمْهيلًا: أَجَّلَهُ، وأَمْهَلَ: بالَغَ، وأَعْذَرَ[13]، ومعنى: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾: أنظِرْهم إلى مدَّةِ آجالِهم، أو إلى مدَّةِ الدُّنيا[14].

(1) الجوهري، الصحاح: (هجر).
(2) الأصفهاني، المفردات: (هجر).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (هجر).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 45.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 256.
(6) مقاييس اللغة: (نعم).
(7) الأصفهاني، المفردات: (نعم).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (نعم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 45.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (مهل).
(12) الجوهري، الصحاح: (مهل).
(13) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (مهل).
(14) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 46.

المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذكرُهُ لنبيِّهِ ﷺ: واصبِرْ على ما يقولُ المشركونَ لكَ مِنْ نِسْبَتِكَ إلى السِّحرِ والجنونِ والتَّكذيبِ، واصبِرْ على أذاهم، واتركْ ما يعتقدونَ دونَ جفاءٍ ومعاداةٍ، واتركْ إليَّ تعذيبَ المكذِّبينَ أهلِ التَّنعُّمِ في الدُّنيا، وأخِّرْهم بالعذابِ الَّذي سيأتيهم قريبًا، حينَ يبلغُ الكتابُ أجلَهُ[1].

اللـــهُ تـعـالـى يُجازي الكافرينَ عـلـى تـكـذيـبـهـم وأذاهم

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوصلِ ودلالةُ العَطفِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾؛ لما بينهما مِنَ الائتلافِ؛ لكون كلٍّ منهما إنشاءً في اللَّفظ والمعنى، ونكتةُ العطفِ: أنَّ الصَّبرَ على الأذى يُستعانُ عليهِ بالتَّوكُّلِ على اللّهِ[2]، فهو من عطفِ المُسبَّب على السَّببِ؛ إذ اتخاذُهُ تعالى وكيلًا حافزٌ ودافِعٌ للصَّبرِ على ما يَقولونَ، وفي هذا إبرازٌ لعَظَمةِ ذلك الأذَى وشِدَّتِه.

مِمَّا يجري فيه التَّوكُّل على الله بـشـدَّة، الإيـذاءُ العظيمُ

دلالةُ الأمْرِ ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

الأمرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للوجوبِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ الصَّبرَ على أذَى المُشركينَ واجِبٌ على النَّبيِّ ﷺ، ومِن ورائه أمَّتُه، وإفادةُ الوجوبِ بصيغةِ الأمرِ؛ لبيانِ أنَّ طلبَ تحقيقِهِ مَرغوبٌ فيه بِشِدَّةٍ؛ لكونِهِ الأبَرَّ بالمُتلقِّي.

الصَّبرُ على أذَى المُشرِكينَ واجِبٌ يُسْعَى إليه

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتها في ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ معناهُ: الاستعلاءُ الحسّيّ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 22]، وهي في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للاستعلاءِ المعنويِّ، فالاستعلاءُ فيها مجازيٌّ غير

عظيمُ الإيـذاء يفتقرُ إلى عَظيم الصَّبْر

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 689 - 690، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 256.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 268.

حقيقيٌّ، وهو يشير إلى عظمة الصَّبر[1]، وشديدِ مشقَّتِه على النَّفْسِ؛ بحيثُ يُحيطُ صبرُه بكلِّ أجزاءِ أقوالهم؛ وإذا كان كذلك؛ كان صبرًا عليًّا عظيمًا في نفسِه، عظيمًا في مشقَّته على النَّفْسِ، ووراء ذلكَ مِن المعنَى عِظَم الإيذاء الَّذي تشتملُ عليه أقوالُهم.

علَّة التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا يَقُولُونَ﴾:

الصَّبرُ مطلوبٌ على جميعِ أنواعِ الأذى

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ بما فيه مِن عموم مع ضميمة إبهامِه الشَّديد على أنَّ الواجبَ هو الصَّبرُ على جميعِ أنواعِ الأذى: مِنَ السَّبِّ والاستهزاءِ[2] والوصفِ بالسّاحرِ والشّاعرِ والمجنونِ[3]، ونحوِ ذلكَ.

بلاغةُ المضارعِ في ﴿يَقُولُونَ﴾:

مِن عظَم الإيذاءِ تنوُّع أساليبه

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للدِّلالةِ على استمرارِهم على قولِ ما يُؤذي النَّبيَّ ﷺ، وفي ذلكَ تعظيمٌ لجُرمِهم؛ إذ يسعَونَ باستمرارٍ في محاربةِ الحقِّ[4]، وفيه إشارة إلى تنوُّع أقوالهم المؤذية، وتعدُّدِها.

سرُّ الاقتصارِ على ذكرِ القولِ:

اقتُصِرَ على ذكرِ القولِ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للتَّخفيفِ عن النَّبيِّ ﷺ، ومواساتِه؛ بالإشارةِ إلى أنَّهم لا يَصِلونَ إلى غيرِ الأذى بالقولِ[5]؛ إذ الجَرْحُ بالسِّنانِ يَلتئِمُ، ولكنَّ جِراحَ اللِّسانِ صَعْبُ الالتِئام.

دلالةُ العَطْف في ﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾:

الهجرُ يعمَلُ على نِسيان إيذاءِ المَهجور نوعَ نِسيان

لمّا كانَتْ مجانبةُ البغيضِ - إلّا عندَ الاضطرارِ - ممّا يُخفِّفُ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 45.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 557.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18.

أذاهُ؛ قالَ ﷻ: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[1]؛ إذ كان الصَّبرُ المطلوبُ مِن المخاطَب عظيمَ المشَقَّةِ عليه؛ ففتَح اللّهُ له بابَ الهجرِ؛ لأنَّه مِمَّا يُعين على تحقيق ذلك الصَّبْر.

دلالةُ الأمرِ ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ﴾:

هجرُ المشركينَ واجبٌ يُحقَّقُ بعظيم رغبة

الأمرُ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾؛ للوجوبِ، فالهجرُ الجميلُ للمشركينَ واجبٌ على النَّبيِّ ﷺ، ومِن ورائه أُمَّتُه، والإعرابُ عن الوجوبِ بصيغة الأمر بيانٌ عن كون تحقيقه مرغوبًا فيه بقوَّةٍ.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿هَجۡرٗا﴾:

طلبُ هجرِ المشركينَ مؤكَّدٌ

جيءَ بالمفعولِ المطلقِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾؛ لتوكيدِ الأمرِ بالهجرِ؛ حثًّا على فعلِه؛ رغبةً في حصولِ ثمرتِه النَّافعةِ للمأمورِ به وبالصَّبر، وللتَّوصُّلِ إلى وصفِه بكونِه جميلًا.

سِرُّ الوَصْف ﴿هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾:

بيانُ هجرِ السَّادة الكُمَّلِ

وُصِفَ الهجرُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ بكونِه جميلًا؛ للدِّلالةِ على أنَّ المطلوبَ منهُ ﷺ أنْ يُجانِبَهم بقلبِه وهواهُ، ويُخالفَهم في الأفعالِ، مع المداراةِ، وتركِ المعاملةِ بالمِثْلِ[2]، فالهجرُ الجميلُ هو الَّذي يقتصرُ صاحبُهُ على حقيقةِ الهجرِ، وهو تركُ المخالطةِ، فلا يَقرِنُها بجفاءٍ آخرَ أو أذًى، وهذا هو الألصقُ بالكُمَّلِ الَّذين رأسُهم نبيُّنا ﷺ، ولمّا كانَ الهجرُ ينشأُ عن بُغضِ المهجورِ، أو كراهيةِ أعمالِه، فكانَ مُعرَّضًا لأنْ يتعلَّقَ به أذًى مِنْ سبٍّ أو ضربٍ أو نحوِ ذلكَ؛ أمرَ اللّهُ رسولَهُ بهجرِ المشركينَ هجرًا جميلًا، أي: أنْ يهجرَهم، ولا يزيدَ على هجرِهم سبًّا أو انتقامًا[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 640.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 268 - 269.

بعدَ العمَل بالأسبابِ يأتي الفرَجُ

دلالةُ العَطفِ ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾:

لمّا كانَ في أمرِ النَّبيِّ ﷺ بهجرِ المشركينَ ما يشقُّ عليه، ويَعْظُمُ بما فيهِ مِنِ احتمالِ عُلوِّهم؛ أعلمَ سبحانه بقُربِ فَرَجِهِ بتهديدِهم بأخذِهم سريعًا، فقالَ: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾[1]، وفي ذلكَ بعثٌ للطُّمأنينةِ في نفسِهِ ﷺ، وإعانةٌ له على الصَّبر والهجر المطلوبَيْنِ منه ﷺ؛ فهذه الآية مِن تمام ما قبلها.

غضبُ اللهِ شديدٌ على المكذِّبينَ بالرُّسلِ الغارقينَ في نعمِهِ

دلالةُ الأمرِ ﴿وَذَرۡنِي﴾:

الأمرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾؛ للوجوبِ، وفيهِ تقويةٌ لدواعي التَّوكُّلِ في نفسِهِ ﷺ، ومَنْ وكَلَ أمرَ عدوِّهِ إلى اللهِ تعالى؛ كفاهُ، وفي إفادة وجوبه بصيغة الأمر تنبيهٌ على غاية الاهتمام بتحقيقِه إحسانًا إلى خير الخلْق ﷺ.

مَن استكفَى اللهَ شرَّ عدوِّهِ؛ فقد ظفرَ

بلاغةُ الكناية في ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ؛ وذلكَ أنَّ الرَّجلَ إذا عرفَ مِنْ صاحبِهِ أنَّهُ مغمومٌ بخَطْبٍ، يريدُ أنْ يُكفاهُ، أو بعدوٍّ يشتهي أنْ ينتقمَ لهُ منهُ، وهو مضطلعٌ بذلكَ، مقتدرٌ عليهِ؛ قالَ: ذَرْني وإيّاهُ، أي: لا تحتاجُ إلى الظَّفرِ بمرادِكَ ومشتهاكَ إلّا أنْ تُخلّيَ بيني وبينَهُ، بأنْ تكلَ أمرَهُ إليَّ، وليسَ ثَمَّ منعٌ حتَّى يطلبَ إليهِ أنْ يَذَرَهُ وإيّاهُ إلّا ترك الاستكفاءِ والتَّفويضِ، كأنَّهُ إذا لم يَكِلْ أمرَهُ إليهِ، فكأنَّهُ منعَهُ منهُ، فإذا وكلَهُ إليهِ؛ فقد أزالَ المنعَ، وتركَهُ وإيّاهُ، وفيهِ دليلٌ على الوثوقِ بأنَّهُ يتمكَّنُ مِنَ الوفاءِ بأقصَى ما يتمنّاهُ المخاطَبُ، وبما يزيدُ عليهِ، وهذه الكناية عن صفةٍ ضربٌ مِن الإيجاز، وفيها مِن الدَّلالة على إقبال اللّه على رسوله ﷺ إقبالَ حُبٍّ وإحسانٍ ما فيها، ويجوز أنْ يكونَ الكلامُ مِنْ قَبيلِ التَّهييجِ والإلهابِ[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 640، والطيبي، فتوح الغيب: 16/ 97.

معنى الواوِ في ﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

انتصبَ قولُه: (المكذِّبين) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ على المفعولِ معَهُ، والواوُ واوُ المعيَّةِ[1]، والمعنى: فوِّضْ إليَّ أمرَهم، فإنّي في غُنيةٍ عنكَ في مُجازاتِهم، والكلامُ واردٌ على سبيلِ الكنايةِ - كما تقدَّمَ - وإلّا فلا معنى لتركِ اللهِ تعالى مع المكذِّبينَ[2].

اللهُ تعالى هو المتولّي مُجازاةَ المكذِّبينَ

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (وذَرْني وإيّاهم) بالإضمارِ، وإنَّما عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾: تعليلًا للحكمِ بالوصفِ، فالتَّكذيبُ هو سببُ هذا التَّهديدِ، وتعميمًا لهُ[3]؛ بحيثُ يشملُهم، ويشملُ كلَّ مَنْ كانَ على شاكلتِهم، ولذمِّهم بوصفِ التَّكذيبِ[4].

التَّكذيبُ وصفٌ قبيحٌ، مآلُهُ الهلاكُ

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

تعريفُ المكذِّبينَ بـ(أل) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾؛ للعهدِ العلْميّ؛ إذ المرادُ بهِ المكذِّبونَ الَّذينَ كانوا في عهدِهِ ﷺ، أو للعهدِ الذِّكْري؛ لسبْقِ ذِكْرِهم في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾، والمآلُ واحدٌ، والحكمُ المُتعلِّقُ بهم صادقٌ على غيرهم في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجنسٍ؛ لأنَّ العِبْرةَ بعمومِ اللّفظِ، لا بخصوصِ السّببِ؛ إذا تحقَّقت صورةُ السّببِ، أوْ يكونُ التَّعريفُ للجنسِ، ويدخلُ فيهِ دخولًا أوَّليًّا المكذِّبونَ في زمنِهِ ﷺ، فهم المقصودونَ بالتَّهديدِ قصدًا أوَّليًّا، وعلى الأوَّلِ يكونُ في الكلامِ إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ، وأمَّا على الثّاني؛ فلا، والأوَّلُ هو

تهديدُ المكذِّبينَ في عهدِ النَّبيِّ ﷺ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 269.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 387.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 269.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 119.

الأعلى؛ لأنَّ في الثَّاني إيحاشًا له ﷺ بذِكْر أنَّ مِمَّن يأتي بعدَه في أمَّتِه مُكذِّبينَ غيرَ الَّذين في قومِه في وقت الخطاب، وهذا يوحِشُه، ويغمُّه، والسِّياقُ للتَّخْفيفِ عنه بقوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

دلالةُ اسم الفاعل ﴿وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

العريقون في الكذب والتّكذيب محلُّ الغضب الإلهيّ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾؛ للدَّلالةِ على رُسوخِهم في صفةِ التَّكذيب، وعَراقتِهم فيها[1]، والحكمُ الثَّابتُ في حقِّهم ثابتٌ لِمَن هو أدنى مستوًى منهم في التَّكذيب، ولو عُبِّر بما يشتمل على الفعل المُعبِّر عن المستوى الأدنى: (والَّذين كذَّبوا - أو يُكذِّبون)؛ للزم من ثبوت الحكم له ثبوته للأعلى بقرينة السِّياق، وإنَّما ذُكِر المستوى الأعلى في التّكذيب؛ تناسُبًا مع الأمر بالصَّبر والأمر بالهجر؛ لأنَّ ذلك يعني عظَمَ قولِهم في باب الإيذاء والإساءة.

دلالة الوصفِ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾:

معاشرةُ أهلِ الدُّنيا تجرُّ إلى حبِّها

لَمّا ذكرَ ﷻ وصفَهم الَّذي استحقّوا بِهِ العذابَ؛ ذكرَ الحاملَ عليهِ؛ تزهيدًا فيه، وصرفًا عن معاشرةِ أهلِهِ؛ لئلّا تكونَ المعاشرةُ فتنةً، فتكونَ حاملةً على الاتِّصافِ بهِ، وجارَّةً إلى حبِّ الدُّنيا، فقالَ: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾[2]، وفي هذا الوصفِ أيضًا توبيخٌ لهم بأنَّهم كذَّبوا؛ لغرورِهم وبَطَرِهم بسَعَةِ حالِهم، وتهديدٌ لهم بأنَّ الَّذي قالَ: (ذَرْني والمكذِّبينَ)، سيزيلُ عنهم ذلكَ التَّنعُّمَ، وتعريضٌ بالتَّهكُّم؛ لأنَّهم كانوا يَعُدّونَ سَعَةَ العيشِ ووفرةَ المالِ كمالًا، وكانوا يُعيِّرونَ الَّذينَ آمنوا بالفقرِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 18.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 19.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 269 - 270.

المكذِّبون في رَغَدٍ مِنَ العيشِ معروفٍ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّعۡمَةِ﴾:

تعريفُ النَّعمةِ في قولِه ﷻ: ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾: للعهدِ الذِّهنيِّ[1]؛ إذ المرادُ بها ما كانوا عليهِ مِنَ الغنى وسَعَةِ العيشِ، ففيه استحضارٌ لأفراد ذلكَ في سياقِ التَّنفير والتَّرهيبِ مِن تكذيبِهم؛ مِمَّا يجعلُهم يُفكِّرون في قضيَّةِ الإيمان والكفر.

وعيدُ اللهِ للمكذِّبينَ متحقِّقٌ لا محالةَ

سرُّ عطفِ ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾، ونكتةُ ذلكَ: توكيدُ الوعيدِ، وبيانُ أنَّ زمانَ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ قصيرٌ، وأنَّ نصرةَ اللهِ تعالى لنبيِّهِ قريبةٌ سريعةٌ[2].

وجَب التَّمهيلُ عليه؛ تخفيفًا عليه

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ﴾:

الأمرُ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾: للوجوب، فيجبُ على النَّبيِّ ﷺ تمهيلُ المكذِّبينَ إلى حينِ مجيءِ وعيدِ اللهِ تعالى لهم، وكذلك مَن كانوا رُسُلَ رسول اللهِ إلى النَّاس، والإعرابُ عن وجوبِه بصيغة الأمر إرشادُ المأمورِ إلى أنْ يفعل ما طُلِب منه بغاية الرَّغْبةِ؛ لأنَّ فيه كلَّ خيرٍ له.

التَّأنّي في تركِ المكذِّبينَ

دلالة صيغةِ التَّفعيلِ في ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ﴾:

بناءُ التَّفعيلِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾: للتَّدريجِ[3]، أي: اترُكْهم برِفْقٍ، وتأنٍّ، وتدريجٍ، ولا تهتمَّ بشأنِهم[4]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّفعيلُ لتكثيرِ المفعولِ[5]، والدَّلالتانِ لا تتعاندانِ.

البشارةُ بقُربِ هلاكِ المكذِّبينَ

سِرُّ التَّقييد بـ ﴿قَلِيلًا﴾:

جيءَ بقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ قيدًا لفعل الأمر، في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُه:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 270.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 19، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 270.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 388.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 19.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 265، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 119.

﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾؛ لزيادةِ بشارةِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّهُ قد قَرُبَ وقتُ هلاكِهم والظَّفَرِ بهم، مِن بعدِ سروره بوعيدِهم الشَّديدِ في جملة: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾، فينبغي عليهِ أنْ يكونَ مستعدًّا لحمدِهِ تعالى[1]، ودلَّ التكير في الوصفِ على القلَّة أيضًا، فيكون التقليلُ عميقًا لقُرْبِ زوالِهم وانتصارِ دينِ اللّه تعالى على دينِهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يتركُهُ) و(يَذَرُهُ):

الحثُّ على قلَّةِ الاعتدادِ بالمكذِّبينَ

التَّركُ: تخليفُ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي هو فيهِ، والانصرافُ عنهُ، ويقالُ: يَذَرُ الشَّيءَ؛ إذا تركَهُ؛ لقلَّةِ الاعتدادِ بهِ[2]، ففيه معنًى زائد ليس في التَّرك، فعُبِّر به في قوله: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾؛ للإشارةِ إلى عدمِ الاعتدادِ بشأنِ المكذِّبينَ، فكلُّ (يذر) هو (يتركُ)، ولا ينعكِسُ، والعلاقةُ بينهما العمومُ والخُصوص المُطلَقُ.

النَّعمةُ والنِّعمةُ والنُّعمةُ:

قُصارى حظِّ المكذِّبينَ في الدُّنيا هو التَّمتُّعُ بنعيمِها

النَّعمةُ بالفتحِ: اسمٌ للتَّرفُّهِ والتَّنعُّمِ، والنِّعمةُ بالكسرِ: اسمٌ للحالةِ الملائمةِ لرغبةِ الإنسانِ، مِنْ عافيةٍ، وأمنٍ، ورزقٍ، ونحوِ ذلكَ مِنَ الرَّغائبِ، والنُّعمةُ بالضَّمِّ: اسمٌ للمسرَّةِ[3].

وجعلُ المكذِّبينَ هنا ذوي نَعْمةٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ قُصارى حظِّهم في هذهِ الحياةِ هي النَّعْمةُ، أي: الانطلاقُ في العيش بلا ضيقٍ، والاستظلالُ بالبيوتِ والجنّاتِ، والإقبالُ على لذيذِ الطُّعوم ولذائذِ الانبساطِ إلى النِّساءِ والخمرِ والميسرِ، وهم مُعرِضونَ عن كمالاتِ النَّفسِ ولذَّةِ الاهتداءِ والمعرفةِ[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 19، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 388.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 766 - 768.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 689، والسمين، الدر المصون: 10/ 523.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 270.

الإرجاءُ والاستدراجُ والإملاءُ والتَّمهيلُ:

الإرجاءُ: التَّأخيرُ، والاستدراجُ: إدناءُ الشَّيءِ، وأخْذُهُ تدريجيًّا، والإملاءُ: التَّأخيرُ لمدَّةٍ طويلةٍ، والتَّمهيلُ: التُّؤَدةُ والسُّكونُ والإنظارُ مع عدمِ الاستعجالِ[1].

التَّأنّي في انتظارِ تحقُّقِ وعيدِ اللهِ للمكذِّبينَ

وقد عُبِّرَ بالتَّمهيلِ هنا؛ للحثِّ على التَّأنّي في انتظارِ تحقُّقِ وعيدِ المكذِّبينَ، لا سيَّما وقد ذكرَ ﷻ أنَّهُ قليلٌ، وليسَ طويلًا.

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 119 - 121.

﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣
يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾

[المُزّمِّل: 12 - 14]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيـانُ أنـواعِ العـذابِ الّتي هُدِّدَ بها المكذِّبونَ

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها؛ فهي أنَّهُ لمّا كانَ ما سبقَ مناديًا بعذابِ المكذِّبينَ؛ استُؤنفَ ببيانِ أنواعِ ما أفهمَهُ التَّهديدُ مِنْ مطلقِ العذابِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا﴾ الآيةَ[1]، وفي هذا الاستئنافِ تعليلٌ لِما سبقَ مِنَ الأمرِ بتركِ تعذيبِ المكذِّبينَ للّهِ تعالى، والأمرِ بإمهالِهم[2]، وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى؛ فهي أنَّهُ لمّا أتمَّ ما يقابلُ تكذيبَهم؛ أتبعَهُ ما يقابلُ النَّعمةَ، فقالَ: ﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ الآيةَ[3]، وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّالثةِ للثّانيةِ؛ فهي أنَّهُ تعالى لمّا وصفَ العذابَ؛ أخبرَ أنَّهُ متى يكونُ ذلكَ[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنكَالٗا﴾: (نكل): أصلٌ يدلُّ على منعٍ وامتناعٍ[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: نكلَ عنِ الشَّيءِ: ضَعُفَ، وعَجُزَ، ونكَّلْتُهُ: قيَّدتُهُ[6]، والنِّكْلُ: قيدُ الدّابَّةِ، وحديدةُ اللِّجامِ[7]؛ لكونِهما مانعينِ، والجمعُ: الأنكالُ[8]، ونكِلَ يَنْكَلُ: تميميَّةٌ، ونَكَلَ حجازيَّةٌ، يقالُ: نَكَلَ الرجلُ عن صاحبِهِ؛ إذا جَبُنَ عنهُ[9]، قالَ أبو زَيْدٍ: نَكَلَ؛ إذا أرادَ أنْ يَصْنَعَ شَيئًا، فَهابَهُ، ونَكَلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 690، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكل).
(6) الأصفهاني، المفردات: (نكل).
(7) الجوهري، الصحاح: (نكل).
(8) الأصفهاني، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نكل).
(9) الخليل، العين: (نكل).

عَنِ اليَمينِ: امتَنَعَ مِنها، ونَكَلَ بِهِ يَنْكُلُ مِنْ بابِ قَتَلَ نُكْلَةً قَبيحَةً: أصابَهُ بِنازِلَةٍ، ونَكَّلَ بِهِ بِالتَّشْديدِ مُبالَغَةٌ أيْضًا، والاسْمُ النَّكالُ[1]، والمرادُ هنا: القيودُ[2].

2) ﴿وَجَحِيمًا﴾: (جحم): أصلٌ يدلُّ على عِظَمِ الحرارةِ وشدَّتِها، ومِن ذلكَ: الجاحِمُ، وهو المكانُ الشَّديدُ الحرِّ[3]، وجحمتا الأسدِ: عيناهُ؛ لتوقُّدِهما[4]، وجَحَمَ الرّجلُ: فتحَ عَينيهِ كالشّاخصِ، والعَينُ جاحِمَةٌ، وجَحَّمَني بعينَيهِ تَجْحيمًا: أحَدَّ إليَّ النظر، والأَجْحَمُ: الشَّديد حُمرةِ العَينِ معَ سَعَتِها، والمَرأةُ جَحْماءُ[5]، والجحيمُ: النّارُ الشَّديدةُ التَّأجُّجِ والالتهابِ[6]، وهو المرادُ هنا[7].

3) ﴿غُصَّةٍ﴾: الغُصَّةُ: ما غصَصْتَ بهِ[8]، وهي ما يَنْشِبُ بالحَلْقِ، ويَعْتَرِضُ فيهِ مِن عَظْمٍ أو غيرِهِ[9]، وغَصِصْتُ بِالطَّعامِ غَصَصًا مِنْ بابِ (تَعِبَ)، فَأَنا غاصٌّ وغَصّانُ ومِنْ بابِ (قَتَلَ) لُغَةٌ، والغُصَّةُ بِالضَّمِّ ما غَصَّ بِهِ الإنْسانُ مِن طَعامٍ أو غَيْظٍ عَلى التَّشْبيهِ، والجَمْعُ غُصَصٌ، مِثْلُ غُرْفَةٍ وغُرَفٍ، ويَتَعَدَّى بِالهَمْزَةِ، فَيُقالُ: أَغْصَصْتُهُ بِهِ[10]، والمرادُ بكونِ الطَّعامِ ذا غُصَّةٍ: أنَّهُ غيرُ سائغٍ، يأخذُ بالحلقِ، فلا هو نازلٌ، ولا هو خارجٌ[11]، وذلكَ الطَّعامُ هو الزَّقّومُ، والضَّريعُ[12].

4) ﴿تَرْجُفُ﴾: (رجف): أصلٌ يدلُّ على اضطرابٍ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أرجفَ النّاسُ في الشَّيءِ؛ إذا خاضوا فيهِ، واضطربوا[13]، والرَّجفةُ: الزَّلزلةُ[14]، ورَجَفَ الشّيءُ يَرجُفُ رَجْفًا ورَجَفانًا كرجَفانِ البعيرِ تحتَ الرَّحْلِ، وكما تَرْجُفُ الشَّجرةُ؛ إذا رجَّفَتْها الرّيحُ، وكما

---

(1) الفيومي، المصباح المنير: (نكل).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 46.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(4) الأصفهاني، المفردات: (جحم).
(5) الجوهري، الصحاح: (جحم).
(6) الخليل، العين: (جحم).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 46.
(8) ابن سيده، المخصص: (غصص).
(9) الزبيدي، تاج العروس: (غصص).
(10) الفيومي، المصباح المنير: (غصص).
(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 46.
(12) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 689.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (رجف).
(14) الجوهري، الصحاح: (رجف).

تَرجُفُ الأسنان؛ إذا نُفِضَت أصولُها، ونحوُهُ رَجَفَتِ الأرضُ تزلزلَتْ، ورَجَفَ القوم: تهيَّؤوا للحرب، وأرجَفوا: خاضوا في الأخبار السَّيِّئةِ من الفِتنةِ ونحوِها[1]، والرَّجفةُ: كلُّ عذابٍ أُنزل، فأخذ قومًا، فهو رَجفةٌ وصيحةٌ وصاعقةٌ، والرَّعدُ يرجفُ رَجفًا ورجيفًا، وهو تردُّد هدَّته في السَّماء، والمرادُ برجفِ الأرضِ والجبالِ: اضطرابُهما وتحرُّكُهما تحرُّكًا شديدًا[2].

5) ﴿كَثِيبًا﴾: (كثب): أصلٌ يدلُّ على تجمُّعٍ شيءٍ مُحاط به، وعلى قُربٍ[3]، ومِن ذلك يقالُ: يُرْمَى عن كثبٍ، أي: عن قُرْبٍ، وكلُّ ما انصَبَّ في شيءٍ، واجتمعَ؛ فقد انكثبَ فيه[4]، وكَثَبْتُ الترابَ ونحوَهُ كَثْبًا، فانكثَبَ، أي: نَثَرْتُهُ، وسُمّي الكثيبُ لدقَّةِ تُرابِه، كأنَّه منثورٌ بعضُهُ فوقَ بعضٍ رَخاوةً[5]، والمرادُ بالكثيبِ المَهيلِ: الرَّملُ المجتمعُ الَّذي يمرُّ تحتَ الرِّجلِ؛ إذا وطِئَتْهُ، وإذا أخذتَ أسفلَهُ؛ انهالَ، وسالَ[6].

المَعنى الإجماليُّ:

سـوءُ مآلِ المكذِّبينَ يومَ القيامةِ

يقولُ تعالى ذكرُهُ: إنَّ عندَنا لهؤلاءِ المكذِّبينَ قيودًا ونارًا مُضطَرِمةً مُسَعَّرةً، وطعامًا يَغَصُّ به آكلُهُ، فلا هو نازلٌ عن حَلْقِهِ، ولا هو خارجٌ منهُ، وعذابًا مؤلِمًا موجِعًا، وذلكَ يكونُ يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ والجبالُ اضطرابًا شديدًا، وتكونُ الجبالُ رَمْلًا سائِلًا مُتناثِرًا[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾:

تولّي اللهِ عقابَ المكذِّبينَ علَّةُ تركِ النَّبيِّ لهم

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما

(1) الخليل، العين: (رجف).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 558.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كثب).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (كثب).
(5) الخليل، العين: (كثب).
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 310.
(7) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 20/ 690 - 693، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 256.

مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الآيةَ تعليلٌ للأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾(1)، فكأنَّهُ قيلَ: كِلْ أمرَهم إليَّ، ومهِّلْهم قليلًا؛ لأنَّ عندي ما أنتقمُ بهِ منهم أشدَّ الانتقامِ(2).

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾:

عـقـابُ الـلـهِ للمكذِّبينَ واقعٌ لا محالة

أُكِّدَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ بـ: ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للرَّدِّ على مَن يُكذِّبُ بمضمونِ الكلامِ(3)، وللعنايةِ بمضمونِهِ؛ لكونِ العذابِ الَّذي فيه عذابَ ربِّ المَشرِقِ والمَغربِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجَمْعِ:

عظمةُ ما أُعِدَّ مِـنَ الـعـذابِ للمكذِّبينَ

إضافةُ (لدى) إلى نونِ العظمةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾؛ لإبرازِ عظمةِ ما أعدَّهُ اللّهُ تعالى مِنَ العذابِ للمكذِّبينَ، وهولِهِ؛ إبلاغًا في ترهيبِهم مِن التَّكذيبِ، وفي ترغيبِهم في الإيمانِ، ولا يتعانَدُ مع كونِ هذا الضَّميرِ للتَّعظيمِ لكونِهِ للاستِتباعِ، أي: أنْ يُرادَ به اللّهُ ﷻ وملائكةُ العذابِ.

نكتةُ التَّقديمِ:

مَساءةُ المكذِّبينَ مُعجَّلةٌ

قُدِّمَ قولُهُ: ﴿لَدَيْنَآ﴾ على قولِهِ: ﴿أَنكَالٗا﴾؛ على خلافِ الظَّاهرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾؛ لتعجيلِ مَساءةِ المكذِّبينَ، وتخويفِهم عندَ سماعِ هذا الكلامِ، وللتَّشويقِ للمؤخَّرِ الَّذي هو أنواعُ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العذابِ.

دلالةُ الكِنايةِ في ﴿لَدَيْنَآ﴾:

الدُّنيا دارُ عمَلٍ والآخـــرةُ دارُ الجَزاءِ

كنَّى النظمُ الكريمُ بالظَّرفِ ﴿لَدَيْنَآ﴾، في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ عن دارِ الآخرةِ والجَزاءِ؛ إذ الظّرفُ المكانيُّ المضافُ إلى ضميرِ الجلالةِ والعظَمةِ المنزَّهِ عن المكانِ أُريدَ به لازمُهُ، وهو

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 265، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 119.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20.

الدّارُ الآخِرة، التي يَنسِبُ اللّه تعالى مكانَها لذاتِهِ الجَليلة؛ لبيانِ أنَّ تلك الدارَ دارُ القَرار والحُكم على دارِ الدُّنيا الَّتي هي لدَينا، وقريبةٌ منّا الآن، وفي التعبيرِ عنها بالقُرب منَ اللّه تعالى إشارةٌ إلى قُربها وتحقُّقِ وقوعِها، فلا سبيلَ للشكِّ والإنكارِ بما أعدَّه اللّه من عذابٍ في دارِ الجَزاء التي هي عندَه ولدَيه.

سرُّ تنكيرِ ﴿أَنكَالًا﴾ وجَمْعِهِ:

الأنــكــالُ العَظيمةُ جزاءُ تلك الأفعالِ الشَّنيعة

تنكيرُ الأنكالِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾؛ لقصد تعظيمِها، وتهويلِها[1]، أي: أنكالًا فظيعةً هائلةً، لا يَعْلَمُ قَدْرَ هَوْلِها إلّا اللّهُ، ودلّتِ الجمعيَّةُ أيضًا على كثرةِ تلك الأنكالِ وتعدُّدِها؛ ليكونَ أكثرَ تهديدًا وتَخويفًا لكلِّ مُكذِّبٍ من المُكذِّبين.

علَّة التَّعبير بـ(الجَحيم):

العقابُ مناسبٌ للذَّنْبِ وما تلبَّسَ به مِن أحوالٍ

أوثِرَ وصفُ (الجحيمُ) دونَ غيرِها مِن أوصافِ النّارِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَجَحِيمٗا﴾؛ للدِّلالةِ على شدَّةِ اتِّقادِها، أي: نارًا حاميةً جدًّا شديدةَ الاتِّقادِ؛ جزاءً على ما يُحدِثُه التَّكذيبُ في نُفوسِ المُكذِّبينَ، وهم يَشرَبونَ الشَّرابَ البارد، ويتنعَّمون باللِّباسِ والثِّياب، ويتكلَّفون أنواعَ الرَّاحة[2].

سِرُّ تنكيرِ ﴿وَجَحِيمٗا﴾:

هَوْلُ الجحيمِ لا تحيطُ بِهِ العبارةُ

تنكيرُ الجحيمِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَجَحِيمٗا﴾: للتَّعظيمِ والتَّهويل[3]، أي: جحيمًا هائلًا فظيعًا، لا تحيطُ بهَوْلِهِ العبارةُ، وهذا إبلاغٌ في التَّرهيبِ، يدلُّ على غضب اللّه على المُعذَّبِ؛ إشارةً إلى عظَم الذَّنب، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ التنكيرُ للنوعيَّة؛ إذ جحيمُ نارِ الآخرة ليس كجَحيمِ نارِ الدُّنيا، فهي نوعٌ خاصٌّ من التوهُّجِ والاحتراقِ واللهيب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20 - 21.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.

غرضُ تنكيرِ ﴿وَطَعَامًا﴾:

طعامُ المُعذَّبينَ شديدُ الفظاعةِ

تنكيرُ (الطَّعام) في قولِه ﷻ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: للتَّعظيم والتَّهويل[1]، أي: طعامًا هائلًا فظيعًا؛ لأنَّ طعامَهُم في الدُّنيا كانَ النَّعيمُ فيه عليًّا، فعوقِبوا بعكسِه ذاتًا وصفةً في الآخرة، ويحتملُ أيضًا أنْ يكونَ التنكيرُ للنوعيَّة؛ إذ نوعُ الطَّعام يختلفُ في جنسِهِ وحقيقتِهِ عن طعامِ الدّنيا، فهو لا يُسمِنُ، ولا يُغني من جوع.

بلاغةُ وصفِ العذابِ بـ ﴿ذَا غُصَّةٍ﴾:

الطَّعامُ سببُ الغُصَّةِ

وصفُ الطَّعامِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ - بأنَّهُ ذو غُصَّةٍ - واردٌ على سبيلِ المجازِ العقليِّ لأدنَى ملابَسةٍ؛ فإنَّ الغُصَّةَ عارضٌ في الحَلْقِ، سببُهُ الطَّعامُ أو الشَّرابُ الَّذي لا يُستساغُ؛ لبشاعةٍ أو يُبوسةٍ[2]، وهذا يُقابلُ ما كانوا يُعانونه مِن تصفيةِ المآكلِ والمشارب، وإفراغِ الجهدِ في الظَّفَرِ بجميعِ المآربِ[3]، فلَمَّا رتَّبوا على ذلك النَّعيمِ التَّكذيبَ والكفرَ، وكان هذا ترتيبَ شيءٍ على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه؛ عاقبَهم اللّه بعكسِ هذا النَّعيمِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿غُصَّةٍ﴾:

بشاعةُ الطَّعامِ المتَّصفِ بالغُصَّةِ

تنكيرُ لفظ: ﴿غُصَّةٍ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾: للتَّفخيم، أي: غُصَّةٍ عظيمةِ الشَّأنِ والقدرِ، وفي ذلكَ مزيدُ تنفيرٍ مِنَ الطَّعامِ الموصوفِ بها؛ إبلاغًا في التَّنْفيرِ مِمَّا استوجَبَ ذلكَ العقابَ مِن ذنبٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعذاب:

العـذابُ يقطعُ كلَّ لذَّةٍ

عُبِّرَ بالعذابِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ لا يدعُ لهم عُذوبةً بشيءٍ مِنَ الأشياءِ أصلًا[4]، فهو عذابٌ شديدٌ يقطعُ كلَّ لذَّةٍ، فهو مقابلٌ لتلذُّذِهم بالنَّعيمِ وعُذوبتِه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 211.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.

لِرَحمتِهِ تعالى تفرُّدٌ ولعَذابِهِ تميُّزٌ

غرضُ تنكيرِ ﴿وَعَذَابًا﴾:

تنكيرُ المعطوف: ﴿وَعَذَابًا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ للنَّوعيَّة، فيفيدُ أنَّ هذا العذابَ نوعٌ آخرُ أشدُّ ممّا تقدَّمَ، وأكملُ[1]، لا يعرفُ كُنْهَهُ إلّا اللهُ تعالى[2].

نكتةُ وصفِ العذابِ بالأليمِ:

وُصِفَ العذابُ بالأليمِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ ليُقابلَ ما ذُكِرَ في الآيةِ السّابقة من لذَّة النَّعمةِ، فإنَّ الألمَ ضدُّ اللَّذَّةِ[3]، وأفادَ الوصفُ أيضًا شدَّةً وكمالًا فوقَ حقيقةِ العَذاب، واندفَعَ بهذا الوصفِ كونُهُ عذابًا لا يُؤلِم، أو كونُهُ عذابًا مؤقَّتًا لا يدومُ أذاهُ.

دلالة صيغةِ (فعيلٍ) في ﴿أَلِيمًا﴾:

ألمُ عذابِ المكذّبينَ بالغٌ شديدٌ

جيءَ بصيغةِ: (فعيلٍ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ - فلم يقل: (مُؤلِمًا) - للمبالغةِ في اتِّصافِ العذابِ بالألم، فجهاتُ الإيلام فيه غير محصورة، وكذلك آثارُه في المعذَّبِ غيرُ معدودة، مع ضميمة ميزة رعاية الفاصلة، وفي إسنادِ الألَمِ إلى العذاب مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ السَّببيَّة؛ إذ المُؤلِمُ هو الله تعالى؛ لكنْ لمّا كان العذابُ سَبَبًا في إيصالِ الألمِ إلى المُعذَّبين؛ نُسِبَ التَّأليمُ له، ويحتملُ أنْ تكونَ صيغةُ (فعيل) بمَعنى المفعول، أي: عذابٌ مُؤلَم، والغرضُ المبالغةُ في وصفِ العذابِ بالتأليم؛ إذ العذابُ مِن شدَّتِه يتألَّمُ بِهِ.

سرُّ ترتيبِ المذكوراتِ في الآيةِ:

شمولُ العذابِ للظّاهِرِ والباطنِ

بُدِئَ بذكرِ الأنكالِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾؛ لأنَّ أشدَّ شيءٍ على الإنسانِ منعُهُ مِنَ الحركةِ، فذُكِرَتِ الأنكالُ الَّتي

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 690.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 51، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 388.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.

تضادٌّ ما هم فيهِ مِنَ النّعمةِ والعِزِّ اللّذَينِ يمرحون فيهما، وهي جزاءٌ على تقييدِهم أنفسَهم بالشّهواتِ عن اتّباعِ الدّاعي إلى الحقِّ، وسعيِهم في المشيِ في الأهواءِ، ولمّا كانَ ذلكَ مُحرقًا للباطنِ؛ أُتبعَ حريقَ الظّاهرِ، فقيلَ: ﴿وَجَحِيمًا﴾، ولمّا تمَّ ما يقابلُ تكذيبَهم؛ أُتبعَ ما يقابلُ النّعمةَ، فقيلَ: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾، ولمّا خُصَّ؛ عُمَّ، فقيلَ: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[1].

دلالة المضارعة:

رجفُ الأرضِ والجبالِ حدثٌ عظيمٌ يحصلُ في المستقبلِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ لأنَّ هذا الرَّجفَ مستقبلٌ، والمضارعُ يَصلُحُ للدّلالةِ على الاستقبالِ، ولتصويرِ هذا الحدثِ العظيم وتهويلِهِ، والدّلالةِ على أنَّهُ يستمرُّ، ويتكرَّرُ إلى أنْ يكونَ بهِ انفراطُ أجزاءِ الأرضِ والجبالِ، وانحلالُهما[2].

دلالةُ التَّعريفِ ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾:

الرَّجفةُ تشملُ الأرضَ والجبالَ كلَّها

تعريفُ الأرضِ والجبالِ بـ(أل) في قولِهِ ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾؛ للجنسِ الشّاملِ لكلِّ أفرادِهِ، أي: يومَ تَرْجُفُ الأرضُ كلُّها، والجبالُ كلُّها[3]، وفي هذا تذكير بكونِه تعالى الخالقَ لهما، وبذلك تبرز آثار القدرة الإلهية، فيَعْظُم ترهيبُ أهل الكفر والشِّرك؛ لأنَّ هذه القدرة الفريدةَ من شأنِها أنْ يكون لديها أنكالٌ وجحيمٌ، وطعامٌ ذو غصَّةٍ، وعذابٌ أليمٌ.

سرُّ إفرادِ الجبالِ بالذِّكرِ:

رجفُ الأشدِّ يستدعي رجفَ الأخفِّ

أُفرِدَتِ الجبالُ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ - مع أنَّها داخلةٌ في الأرضِ - لأنَّها أشدُّ أجزاءِ الأرضِ[4]، فإذا رجفَتْ؛ فرجفُ غيرِها حاصلٌ مِن بابِ أَوْلَى، وذكرُها تمثيلٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 20 - 21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.

وتفصيلٌ لعموم رجفِ الأرضِ، به يشتدُّ بيانُ القدرة الإلهيَّة مِن جهةٍ، وبيانُ أهوال القيامة وفخامتها مِن جهة أخرى.

نكتةُ الإسنادِ على خلاف الظَّاهر ﴿تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾:

رجفُ الأرضِ والجبالِ بفعلِ اللهِ تعالى

إسنادُ الرَّجفِ إلى الأرضِ والجبالِ في قولِه ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾: مجازٌ عقليٌّ، فاللّٰهُ تعالى في الحقيقةِ هو الَّذي يجعلُها ترجفُ؛ للإبلاغ في تصوير شدَّة الرَّجْفِ وعظمتِه، وفي تهويلِ ذلك اليوم؛ ليرتدعَ المُكذِّبون، لعلَّهم يُؤمنونَ قبلَ وقوعِه.

بلاغةُ العطفِ بالواوِ دونَ الفاءِ في ﴿وَكَانَتِ﴾:

كونُ الجبالِ كثيبًا مهيلًا خصلةٌ على حيالِها

الظّاهرُ العطفُ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾؛ لترتُّبِه على الرَّجفة، وإنَّما عُطِفَ بالواوِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه خصلةٌ أخرى على حيالِها، غيرُ ملحوظٍ ترتُّبُها على الرَّجفة؛ وإنْ ترتَّبَتْ على الرَّجفةِ في نفسِ الأمرِ[1]، والغرضُ مِن ذلكَ الإبلاغُ في التَّهويلِ والتَّفخيمِ لذلك اليومِ، والألصقُ بذلك التَّعدادُ بالواو، لا التَّسبُّبُ بالفاءِ.

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿وَكَانَتِ﴾:

كونُ الجبالِ كثيبًا مهيلًا متحقِّقٌ يقينًا

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وتكونُ الجبالُ كثيبًا مهيلًا)، كما قال تعالى: ﴿تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾، فنظم الرَّجْف فعلًا مضارعًا، وإنَّما عُبِّرَ بالماضي في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ وقوعِه[2]، حتَّى كأنَّهُ وقعَ في الماضي[3]، فيتأكَّدُ الوعيدُ والعذابُ الأليمُ للمُكذِّبينَ، ويَقْوَى تصويرُ المضارع: ﴿تَرۡجُفُ﴾ لمعناه.

سِرُّ الإظهار في موضع الإضمار ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾:

صيرورةُ الجبالِ كثيبًا مَهيلًا أمرٌ مُتقرِّرٌ

أُظهرتِ الجبالُ في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾؛ لمكانِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 390.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 382.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 271.

الالتباسِ، ولكمالِ التَّقرُّرِ[1]، وفيه دعوة المُتلقِّي إلى استحضار حقيقتها ذاتًا وصفةً، وهو يتلقَّى الإخبارَ عنها بصيرورتها كثيبًا مهيلًا، فتَعْظُم قدرة اللّٰه في بصره وبصيرته، ويحصلُ له التَّرهيبُ العظيمُ.

سرُّ إفراد ﴿كَثِيبًا﴾ مع كونِ الجبالِ جمعًا:

الجبالُ على كثرتِها تكونُ رملًا مجتمعًا ضعيفًا

أُفرِدَ خبرُ (كانَ) في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ - مع أنَّ الجبالَ جمعٌ - للدّلالة على شدَّةِ الاختلاطِ والتَّلاشي، حتَّى كأنَّ الجبالَ على كثرتِها صارَتْ رملًا مُجْتمِعًا[2]، ففيه إبراز لمدلولِ اللَّفظة: ﴿كَثِيبًا﴾، وإبلاغٌ في تحقيقِه؛ ببيان غاية ضعف الجبال، بعد أنْ كانت مراسيَ الأرضِ وأوتادَها.

غرضُ تنكيرِ ﴿كَثِيبًا﴾:

تنكيرُ لفظ: ﴿كَثِيبًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: للتَّحقيرِ، أي: كثيبًا حقيرَ الشَّأنِ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ دلالة الإفراد.

سرُّ الوصفِ ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾:

دفعُ توهُّمِ صلابةِ الكثيبِ

لمّا كانَ الكثيبُ ربَّما أُطلِقَ مجازًا على ما ارتفعَ، وإنْ لم يكُنْ ناعِمًا؛ قيلَ: ﴿مَّهِيلًا﴾، أي: رملًا سائلًا ليِّنًا منثورًا[3]، ففيه تمكين لدلالة الموصوفِ؛ إبرازًا لهولِ حالِ الجبالِ في ذلك اليوم، فهو كالاحتراس البلاغيِّ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأنكالُ والقيودُ:

الأنكالُ أخصُّ مِنَ القيودِ؛ لأنَّ الأنكالَ هي القيودُ الثَّقيلةُ[4]، وقد عُبِّرَ بها هنا؛ للدّلالة على شدَّة ما يُقاسيهِ المكذِّبونَ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 390.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 21.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 23.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 557، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 20.

الرَّجفُ والزَّلزلةُ والدَّكُّ:

الرَّجفُ: الاهتزازُ والاضطرابُ مِنْ فزَعٍ وهَوْلٍ[1]، والزَّلزلةُ: الاضطرابُ الشَّديدُ، والدَّكُّ: التَّسويةُ[2]، وقد عُبِّرَ بالرَّجفِ هنا؛ للدِّلالةِ على اقترانِ الاهتزازِ والاضطرابِ بالخوفِ والفزعِ والهَوْلِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 389.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 525 - 526.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾

[المزّمّل: 15 - 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

التَّنبيهُ على سببِ العذابِ لاجتنابِهِ

لمّا ذكرَ تعالى العذابَ، ووقتَهُ، وقدَّمَهما؛ ليكونَ السّامعُ أقبلَ لِما يُطلَبُ منهُ؛ أتبعَهما السَّببَ فيهِ، مشيرًا إلى ما بِهِ إصلاحُ أمرِ الآخرةِ الَّتي فيها المعادُ، وإليها المُنْتَهَى والمآبُ[1]؛ لكونِ تقريرِ شأنِ العذابِ مَسوقًا مَساقَ التَّسْليةِ والتَّخفيفِ عن رسول اللّه محمّدٍ ﷺ المُكذَّبِ المأذيِّ بأقوالهم، فقدَّمَه القرآنُ على ما بعدَه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَٰهِدًا﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على الحضورِ والعِلمِ والإعلامِ[2]، فالشُّهودُ والشَّهادةُ: الحضورُ مَعَ المشاهدةِ؛ إمّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ[3]، والشَّهادةُ أيضًا: قولٌ صادرٌ عن عِلْمٍ حصَلَ بمشاهدةِ بصيرةٍ، أو بصَرٍ[4]، والمرادُ بكونِ النَّبيِّ شاهدًا عليهم: أنَّهُ شاهدٌ عليهم يومَ القيامةِ بكفرِهم وتكذيبِهم، وأنَّهُ مبيِّنٌ للحقِّ في الدُّنيا، ومبيِّنٌ لبطلانِ ما هم عليهِ مِنَ الكفرِ[5].

2) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾: (أخذ) أصلٌ يدلُّ على حَوْزِ الشَّيءِ وتحصيلِهِ[6]، وذلكَ يكونُ تارةً بالتَّناولِ، وتارةً يكونُ بالقَهْرِ، كما في قولك: أخذَتْهُ الحُمَّى، وأَخَذَهُ اللّه تعالَى أَهْلَكَهُ، وأَخَذَهُ بِذَنْبِهِ: عاقَبَهُ عَلَيْهِ، وآخَذَهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) الأصفهاني، المفردات: (شهد).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (شهد).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 691.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).

بِالمَدِّ مُؤاخَذَةً كَذَلِك، والأمْرُ مِنهُ آخِذْ[1]، ويُعبَّرُ عن الأسيرِ بالأخيذِ، والمأخوذِ[2]، والمرادُ بالأخذِ هنا: الإهلاكُ الشَّديدُ.

3) ﴿وَبِيلًا﴾: (وبل) أصلٌ يدلُّ على شدَّةٍ في شيءٍ، وتجمُّع[3]، ومِنْ ذلكَ: الوابلُ، وهو المطَرُ الثَّقيلُ[4]، والوَبالُ بالفتحِ مِن وبُلَ المَرْتَعُ بالضَّمِّ وبالًا ووَبالَةً بِمَعْنَى وخُمَ، سَواءٌ كانَ المَرْعَى رَطْبًا أم يابِسًا، ولمّا كانَ عاقِبَةُ المَرْعَى الوَخيم إلَى شَرٍّ؛ قيلَ في سوءِ العاقِبَة: وبالٌ، والعَمَلُ السَّيِّئُ وبالٌ عَلَى صاحِبِه[5]، والوَبالُ: الأمرُ الَّذي يُخافُ ضررُهُ، ويقالُ: طعامٌ وبيلٌ، أي: يُخافُ وبالُهُ[6]، والمرادُ بالوبيلِ هنا: الثَّقيلُ الشَّديدُ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّهديدُ بعاقبةِ مكذِّبي الرُّسلِ في الأممِ السّالفةِ

يقولُ تعالى ذكرُهُ: إنّا أرسَلْنا إليكم أيُّها النّاسُ أو يا كفّارَ مكَّةَ - رسولًا شاهدًا على أعمالِكم يومَ القيامةِ، مثلَ إرسالِنا موسى عليه السلام إلى فرعونَ، فعصَى فرعونُ الرَّسولَ الَّذي أرسلناهُ إليه، فأخذناهُ أخذًا شديدًا، فأهلكناهُ ومَنْ معَهُ جميعًا، فاحذروا أنْ تُكذِّبوا هذا الرَّسولَ، فيُصيبَكم مِثلُ ما أصابَ فرعونَ وقومَهُ[8].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ﴾ عمّا قبلَهُ:

وعيدُ المشركينَ المكذِّبينَ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ للتَّخلُّصِ إلى وعيدِ المشركينَ بعدَ أمرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالصَّبرِ على ما يقولونَ، والهجرِ هجرًا جميلًا[9].

---

(1) الفيومي، المصباح المنير: (أخذ).
(2) الأصفهاني، المفردات: (أخذ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وبل).
(4) الخليل، العين: (وبل).
(5) الفيومي، المصباح المنير: (وبل).
(6) الأصفهاني، المفردات: (وبل).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 48.
(8) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 693، والمراغي، تفسير المراغي: 29/ 117.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 272.

سرُّ التوكيدِ في ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ﴾:

سياقُ الشَّهادةِ على صنيعِهم يقتضي الاعتدادَ بتكذيبِهم

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ المخاطَبينَ مُنكِرونَ أنَّ اللّهَ أرسلَ إليهم رسولًا[1]، فراعَى القرآنُ تكذيبَهُم بالتَّوكيدِ؛ لأنَّ السِّياقَ لبيانِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهِم، وهم في الدُّنيا.

علَّة التَّعبير بضمير الجمع:

لا عُذْرَ لمَن أنكَر البرهانَ العظيمَ

أُسنِدَ الإرسالُ إلى ضميرِ العظمةِ في قولِهِ تعالى ذِكرُهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾؛ لتعظيمِ شأنِ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ، وشأنِ إرسالِ موسى عليه السلام؛ إذ الإرسالُ مِن قِبَلِ ذي العظمةِ سبحانه وتعالى[2]، والمقصودُ مِن ذلك بيان كمال ظهور الحُجَّة الَّتي قامتْ على صِدْقِ مَجيئهم ورِسالتِهم، فهو إرسالٌ مَصحوبٌ ببرهانٍ عظيمٍ.

دلالةُ صيغةِ الماضي في ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾:

التَّحريكُ لاتِّباعِ الرَّسولِ محمّدٍ ﷺ قبلَ فواتِ الأوانِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جل جلاله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾؛ لأنَّ إرسالَ النَّبيِّ وموسى - عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ - قد تحقَّقَ، ومضى، أمَّا إرسالُ موسى؛ فظاهرٌ، وهو مقيس عليه، وأمَّا إرسالُ نبيِّنا محمّد ﷺ؛ فلأنَّ هذهِ الآياتِ نزلَتْ، وقد أوحيَ إليه، فجملةُ آياتٍ في أُنُفِ سورة: (العلق) قد نزلت قبل هذه السُّورة: (المزَّمّل)، وبذلك طابقَ المقيسُ المقيسَ عليه.

معنى: (إلى) ودلالة التَّعبير بها في الآية:

المُرسَلُ إليهِ غايةُ المُرسَلِ

كلمةُ (إلى) في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ في الموضعينِ؛ لانتهاءِ الغايةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 23، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21 - 23 - 25.

المكانيَّة، فتفيدُ أنَّ المخاطَبينَ غايةُ إرسالِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّ فرعونَ غايةُ إرسالِ موسى عليه السلام وهذا يشيرُ إلى أنَّ صلاح الأمم وإصلاحها، وسلامتها ونجاتها مِن آفات الدَّاريْنِ هو هدفُ الأنبياء والرُّسُل، فلِمَ لم يستجيبوا لهم؟.

غرضُ تقديمِ ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾:

تقديمُ المخاطبينَ تقريبٌ لهم، وتودُّدٌ إليهم؛ ليَسمعوا، ويُطيعوا

قُدِّمَ قولُه: ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ على قوله: ﴿رَسُولٗا﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾؛ للعنايةِ بالمقدَّم، ووجه ذلك أنَّ الإرسالَ مِن أجلِهم هم، فهُم المقصودونَ بالرِّسالة، وهُم الكائنون في ظلمات الكفر والشِّرك والجهل والتَّخلُّف، وهُم الَّذين يسعى الرُّسُلُ؛ لإخراجهم مِن تلك الظُّلمات إلى نور الإيمان والعلم والعمل النَّافع، والتَّشويقِ للمؤخَّرِ؛ لبيان فضله وعظمته، ومِثْلُ ما سبَق يُقال في تقديم قوله: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ على قوله: ﴿رَسُولٗا﴾ في بيان المشبَّه به، ولأنَّ في المُؤخَّر ﴿رَسُولٗا﴾ وصفتِه وما تعلَّقَ بها نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بتجاوبِ أطرافِ النَّظم.

سِرُّ تنكيرِ ﴿رَسُولٗا﴾:

تعيُّنُ المقصودِ يُغني عن التَّعريف

تنكيرُ قوله: ﴿رَسُولٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّهم يعلمونَ المقصودَ في هذا الكلامِ، وهو نبيُّنا ﷺ، ولأنَّ مناطَ التَّهديدِ والتَّنظيرِ ليسَ شخصَ الرَّسولِ ﷺ، بل هو صفةُ الإرسالِ[1]، ولا تخفى إرادةُ التعظيم والتفخيمِ من شأنِ الرَّسولِ ﷺ.

بلاغةُ وصفِ الرَّسولِ ﷺ بكونِهِ ﴿شَٰهِدًا﴾:

وُصِفَ الرَّسولُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ بكونِهِ شاهدًا عليهم؛ لبيانِ أنَّ عصيانَهم لهُ مع اتِّصافِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.

بهذا الوصفِ أفظعُ وأدخلُ في الذَّمِّ[1]، وسِرُّ مجيء هذا الوصفِ أنَّ آيتَه جاءَتْ في سياقِ بيانِ جزاءِ المُكذِّبينَ يومَ القيامة، وشيء مِن أهوالِ ذلك اليوم، الَّتي تفخِّم الجزاء، وتُهوِّله؛ فقبلَها قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾، وبعدها قولُه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، وكونُ الَّذي عصَوْهُ شاهدًا عليهم مِمَّا يُؤذيهم، ويفضحُهم في ذلك اليوم، فهو جارٍ على نسقِ التَّهويل والتَّفخيم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٧٥﴾ [القصص: 75].

عصيانُ الرّسولِ الشّاهدِ أدخلُ في الذَّمِّ، وأدلُّ على هولِ يوم الجزاءِ

معنى (على) ودلالة التَّعبير بها في ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تعديةُ الشّاهدِ بـ (على) في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لتضمُّنِه معنى الرَّقيب، فيشملُ الشَّهادةَ لهم وعليهم[2]، ولو آمنوا؛ لكانتِ الشَّهادةُ لهم[3]، وفي (على) - الَّتي هي للاستعلاء الحسّيِّ في الأصل، واستعلاؤُها هنا مجازيٌّ - إشارةٌ إلى أنَّ أثرَ شهادته ﷺ عليهم تتعلَّقُ بكلِّيَّتِهم، فمصيرُهُم في ذلك اليوم نتيجةُ تلك الشَّهادةِ؛ أفلا يؤمنون به، وهم لا يزالون في الدُّنيا؟.

النّبيُّ ﷺ رقيبٌ على أعمالِ المُرسَلِ إليهم

دلالةُ الكافِ في ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ﴾:

الكافُ في قولِهِ تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾: للتَّشبيه، وهي في محلِّ نصبٍ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إنّا أرسَلْنا إليكم رسولًا إرسالًا كائنًا، كما أرسَلْنا إلى فرعونَ رسولًا[4]، والمقصودُ مِن هذا التَّشبيهِ تهديدُهم بالأخذِ الوبيلِ[5].

إرسالُ النّبيِّ ﷺ مثلُ إرسالِ موسى عليه السلام

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 391.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 15/ 120.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 389.

سرُّ تنكيرِ ﴿رَسُولًا﴾:

نُكِّرَ قولُه: ﴿رَسُولًا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾، ولم يُعيَّنْ؛ لأنَّ المقصودَ لم يتعلَّقْ بهِ؛ لعدمِ دخولِه في التَّشبيهِ[1]؛ لأنَّ الاعتبارَ بالإرسالِ، لا بشخصِ المُرْسَلِ[2]، أو لأنَّهُ معلومٌ غنيٌّ عن البيانِ[3]، وللتَّنْبيهِ اللَّطيفِ على أنَّه ليس مِن قومِ فرعونَ؛ فلا مانعَ لهُ منهُ مِن حميمٍ ولا شفيعٍ يُطاع؛ ليُعلَمَ أنَّه مَن كانَتْ له قبيلةٌ تُحامي عنهُ أوْلى بالنُّصْرةِ[4].

الاعـتـبـارُ في التَّـشـبـيـهِ بـالإرسـالِ لا بشخصِ المُرسَلِ

سرُّ اختصاصِ قصَّةِ موسى وفرعونَ بالذِّكْرِ:

خُصَّ موسى وفرعونُ بالذِّكرِ دونَ سائرِ الأممِ، في قولِه ﷻ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾؛ لأنَّ خبرَهما كانَ منتشرًا بينَ أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهم كانوا جيرانَ اليهودِ[5]، ولأنَّ أهلَ مكَّةَ ازدرَوا محمَّدًا ﷺ، واستخفّوا بهِ؛ لأنَّهُ وُلِدَ فيهم، كما أنَّ فرعونَ ازدرَى موسى؛ لأنَّهُ ربّاهُ، ووُلِدَ فيما بينَهم[6]، فقد كان الدِّين ضعيفًا، وأهلُه في غايةِ القِلَّةِ والذِّلَّة؛ إذ سورة: (المزّمّل) مِن أوَّلِ ما نزَل مِن القرآن، وكان فرعونُ أعْتَى النَّاس في زمانِه، وأجْبرَهُم، وأشدَّهُم خداعًا، وأمكرَهم، وكان بنو إسرائيلَ في غاية الذُّلِّ لهُ، والطَّواعيةِ لأمرِه، فكانوا محلَّ عِبْرة لِمَن آلَ به أمرُه إلى أنْ كان في زمانٍ صارَ فيه الدِّين غريبًا، كغربته في أوّل زمان إرسال نبيِّنا ﷺ، وكان فرعونُ محلَّ عِبْرة لقريش والعرب، مع أنَّه يزيد عليهم بالمُلْك وكثرةِ الجنودِ والأموالِ[7].

مـعـامـلـةُ الكفّارِ للأنبياءِ مُتشابِهةٌ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 52.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 39/ 273.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 226، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 213.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 558.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 691، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 317، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 213.

معنى (الفاءِ) ودلالتُها في ﴿فَعَصَىٰ﴾:

مَنْ وضعَ العصيانَ في مَوضِعِ الطّاعةِ؛ استحقَّ العقابَ

(الفاءُ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ، فإنَّ الإرسالَ وإنْ كانَ سببًا للإطاعةِ لكنَّهم جعلوهُ سببًا للعصيانِ[1]، فقد رتَّبوا شيئًا على شيءٍ لا يترتَّبُ عليه، وهذا عجيبٌ وغريبٌ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الغرضَ مِن هذا الخبرِ هو التَّهديدُ بأنْ يحلَّ بالمخاطَبينَ لمّا عصَوا الرَّسولَ ﷺ مِثلُ ما حلَّ بفرعونَ[2].

دلالة التَّعبيرِ بالماضي ﴿فَعَصَىٰ﴾ و﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾:

فرعونُ أثرٌ بعدَ عينٍ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عصيانَ فرعونَ وأخذَهُ أمرانِ قد تحقَّقا، ومضَيا؛ وذلكَ أنسبُ بمقامِ التَّهويلِ والتَّخويفِ، ولا داعيَ لاستحضارِ صورتِهما بصيغةِ المضارعِ؛ فأمَّا المعصيةُ؛ فلئلَّا يكونَ في ذلك نوعُ تعظيمٍ لها، ففي مُضيِّها تحقيرُها، وأمَّا العقابُ بالأخذِ؛ فلأنَّ أمَّةَ الرَّسولِ محمّد ﷺ لا تُعذَّب بعذاب الاستئصالِ؛ كرامةً لرسولِها.

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ﴾:

عصيانُ الرَّسولِ فظيعٌ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فعصاهُ)، إلّا أنَّ النَّظمَ أظهرَ فرعونَ والرَّسولَ معًا في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ للنِّداءِ على فرعونَ بفظاعةِ عصيانِهِ الرَّسولَ[3]، وأنَّ ذلكَ الأخذَ لكونِهِ عصيانَ الرَّسولِ، لا لكونِهِ عصيانَ موسى عليه السلام[4].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾:

الرَّسولُ المعصيُّ هو الرَّسولُ المذكورُ سابقًا

تعريفُ الرَّسولِ في قولِهِ تبارك وتعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾؛ للعهدِ الذِّكريِّ؛ لتقدُّمِ ذكرِ الرَّسولِ[5]، والعربُ إذا قدَّمتِ اسمًا، ثمَّ حكَتْ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 273.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 120.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 641.

عنهُ ثانيًا؛ أتَوا بهِ مُعرَّفًا بـ(أل)، أو أتَوا بضميرِهِ؛ لئلّا يلتبسَ بغيرِهِ، نحوُ: رأيتُ رجلًا، فأكرمتُ الرَّجلَ، أو فأكرمتُهُ، ولو قلتَ: (فأكرمتُ رجلًا)؛ لتوُهِّمَ أنَّهُ غيرُ الأوَّلِ(1).

معنى الفاءِ ودلالتها في ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾:

العصيانُ سببُ الهلاكِ

(الفاءُ) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾؛ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ تسبُّبَ الأخذِ الوبيلِ - وهو الإهلاكُ الشَّديدُ - عن عصيانِ الرَّسولِ(2)، وهذا الأخذُ واقعٌ في مقابلةِ عُتوِّهم وعصيانِهم واستكبارِهم، ففي العطف بها تهويلٌ وتفخيمٌ وتفظيعٌ لعصيان الرَّسول، وتدلُّ أيضًا على حُصولِ الأخْذ والإهلاك على سَبيلِ المُسارَعة بدونِ فاصِلٍ أوْ مُهلةٍ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالأخذِ:

اللَّفظُ المستعارُ هو المُصوِّرُ حقيقةَ عقاب فرعونَ

الأخذُ في قولِهِ جلَّ من قائلٍ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ مُستعمَلٌ في الإهلاكِ مجازًا؛ لأنَّهُ لمّا أزالَهم مِنَ الحياةِ أشبهَ فِعْلُهُ أخْذَ الآخذِ شيئًا مِنْ موضعِهِ، وجعلِهِ عندَهُ(3)؛ على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والأَخْذُ هو الأبلغُ في تصويرِ حقيقةِ عقابهم في الدُّنْيا، من عذاب الاستئصالِ بالإغراقِ في اليَمِّ.

علَّةُ التَّعبير بضمير الجمْعِ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾:

العاقلُ لا يُعرِّضُ نفسَهُ لعقابِ العظيم

أُسنِدَ الأخذُ إلى ضمير الجمع المرادِ به هنا العظمةُ في قولِهِ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾؛ لتعظيمِهِ، أي: فأخذناهُ بما لَنا مِنَ العظمةِ(4)، وفي ذلكَ مزيدُ تخويفٍ وتهديدٍ؛ إذ العاقلُ لا يُعرِّضُ نفسَهُ لعقابِ العظيم، وفيه بيانُ عظَم معصية فرعونَ الَّتي استوجبت أَخْذَه، وغايةِ حقارة فرعون، وهوانِه على اللّٰه تعالى.

---

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 526.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 25، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 391.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 25.

سِرُّ تنكيرِ ﴿أَخۡذٗا﴾:

أخذُ فرعونَ أخذٌ فظيعٌ

تنكيرُ لفظ: ﴿أَخۡذٗا﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾؛ للتَّعظيمِ، أي: أخذًا هائلًا فظيعًا؛ فيكونُ الأخذُ قد فُخِّمَ بصيغتِهِ وصفتِهِ، وهذا إبلاغٌ في ترهيبِ قريشٍ والعربِ، وتنفيرهم مِن تكذيبِ رسول اللّه، وإيذائه، بقي أنَّ ﴿أَخۡذٗا﴾ مفعولٌ مُطلقٌ أُريدَ به التوكيدُ للفعلِ؛ تأكيدًا لا مَطمَعَ فيه للإنكارِ.

علَّة التَّعبيرِ بقوله: ﴿وَبِيلٗا﴾:

إهلاكُ المكذِّبينَ شديدٌ رديءُ العاقبةِ

وُصِفَ الأخذُ بالوبيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ ثقيلٌ غليظٌ شديدٌ مُتعبٌ رَديءُ العاقبةِ، وخيمٌ لا يُستمرَأُ لثقلِه، والوَبيلُ: العَصا الضَّخْمة[1]، وهذا الوصفُ السَّخيُّ العامِرُ بالمعاني يُلخِّصُ أوصافَ عقاب فرعونَ ومَن معَه، ويستحضرُها بإيجازٍ شديدٍ؛ تناسُبًا معَ سياقِ الإبلاغِ في التَّرهيبِ، وتَهويل العذابِ وتفخيمِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 25، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 420، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المُزّمِّل: 17 - 19]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تحذيرُ المكذِّبينَ مِنَ الاقتداءِ بفرعونَ

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها؛ ففيها وجهانِ متقاربانِ:

أحدُهما: أنَّهُ لمّا عُلِمَ ممّا سبقَ أنَّهُ تعالى شديدُ الأخذِ؛ ناسَبَ ذلك أنْ حذَّرَ المكذِّبينَ مِنَ الاقتداءِ بفرعونَ(1). والآخرُ: أنَّهُ انتُقِلَ بهم مِنَ التَّهديدِ بالأخذِ في الدُّنيا إلى الوعيدِ بعقابٍ أشدَّ، وهو عقابُ يومِ القيامةِ(2)، فالآيةُ ترقٍّ في تقريرِ عذابِ المُكذِّبينَ.

أمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى؛ فهي أنَّهُ لمّا كانَ جعْلُ الوِلدانِ شيبًا أمرًا عظيمًا؛ صوَّرَ سبحانَهُ بعضَ أهوالِ ذلك اليومِ؛ زيادةً في عِظَمِهِ، فقالَ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ الآيةَ(3)، فهذه الآيةُ الثّانيةُ من تمامِ ما قبلها، وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّالثةِ للثّانيةِ؛ ففيها وجهانِ متقاربانِ:

أحدُهما: أنَّهُ تعالى بدأ في أوَّلِ السّورةِ بشرحِ أحوالِ السُّعَداءِ، ثمَّ بدأ بتهديدِ الأشقياءِ على سبيلِ الإجمالِ، ثمَّ ذكرَ بعدَهُ أنواعَ عذابِ الآخرةِ، ثمَّ ذكرَ بعدَهُ عذابَ الدُّنيا، وهو الأخذُ الوبيلُ في الدُّنيا، ثمَّ وصفَ بعدَهُ شدَّةَ يومِ القيامةِ، فعندَ هذا تمَّ البيانُ بالكليَّةِ، فختمَ ذلكَ الكلامَ بقولِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ الآيةَ(4).

والآخرُ: أنَّه لمّا كانَ ما مضَى مِنْ هذهِ السّورةِ مِنَ الأحكامِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 25.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 27.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 693.

والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ مرشدًا إلى معالي الأخلاقِ، مُنقِذًا مِنْ كلِّ سوءٍ؛ قيلَ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٌۖ﴾ الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡوِلۡدَٰنَ﴾: (ولد) أصلٌ يدلُّ على النَّسلِ[2]، والوالِدانِ الأبُ والأُمُّ لِلتَّغْليبِ، والوَليدُ الصَّبيُّ المَولودُ، والجَمْعُ وِلْدانٌ بالكَسْرِ، والصَّبيَّةُ والأمَةُ وليدَةٌ، والجَمْعُ ولائِدُ، والوَلَدُ بِفَتحَتَيْنِ: كُلُّ ما ولَدَهُ شَيْءٌ، وجَمْعُهُ أوْلادٌ[3]، والوَلَدُ: المولودُ، يقالُ للواحدِ والجمعِ، والصَّغيرِ والكبيرِ، والوليدُ يقالُ لِمَنْ قَرُبَ عهدُهُ بالولادةِ[4]، والمرادُ بالولدانِ هنا: صغارُ الأطفالِ[5].

2) ﴿شِيبًا﴾: (شيب) أصلٌ يدلُّ على اختلاطِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[6]، والشَّيْبُ والمَشيبُ: بياضُ الشَّعرِ[7]، والشَّيْبُ يكونُ مِنَ الكِبَرِ غالبًا، وقد يكونُ مِنْ مصائبِ الدُّنيا معَ حداثةِ السِّنِّ[8]، وشابَ يَشيبُ شَيْبًا وشَيْبَةً، فالرَّجُلُ أشْيَبُ عَلَى غَيْرِ قياسٍ، والجَمْعُ شيبٌ بالكَسْرِ وشَيْبانُ مُشْتَقٌّ، ولا يُقالُ: امرَأةٌ شَيباءُ، وإنْ قيلَ: شابَ رَأْسُها، والمَشيبُ الدُّخولُ في حَدِّ الشَّيْبِ، وقَد يُستَعْمَلُ المَشيبُ بِمَعْنَى الشَّيْبِ، وهوَ ابيضاضُ الشَّعْرِ المُسْوَدِّ[9]، والشِّيبُ هنا: جمعُ أشيبَ[10].

3) ﴿مُنفَطِرُۢ﴾: (فطر) أصلٌ يدلُّ على فتحِ شيءٍ وإبرازِهِ[11]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: فطرَ اللّٰهُ الخلقَ، أي: خلقهم، وابتدأ صنعةَ الأشياءِ، وانفطرَ الثَّوبُ، وتفطَّرَ: انشقَّ[12]، وفَطَرَ اللّٰه الخَلْقَ فَطْرًا من بابِ (قَتَلَ) خَلَقَهُم، والاسْمُ الفِطْرَةُ بِالكَسْرِ[13]، والمرادُ بانفطارِ السَّماءِ هنا: انشقاقُها، أو كونُها مُثقَلةً إثقالًا يُؤدّي إلى انفطارِها[14].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولد).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (ولد).
(4) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (ولد).
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 389.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شيب).
(7) الأصفهاني، المفردات: (شيب).
(8) السمين، عمدة الحفاظ: (شيب)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 65.
(9) الفيومي، المصباح المنير: (سيب).
(10) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 558، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 310.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).
(12) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (فطر).
(13) الفيومي، المصباح المنير: (فطر).
(14) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 693.

4) ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾: (ذكر) أصلٌ يدلُّ على ضِدِّ النِّسيانِ، ويقالُ الذِّكْرُ تارةً، ويُرادُ بِه هيئةٌ للنَّفْسِ بها يُمكِنُ للإنسانِ أن يَحْفظَ ما يكتسبُهُ مِنَ المعرفة، ويقالُ تارةً لحُضورِ الشَّيءِ القلبَ أوِ القولَ؛ ولذلكَ قيلَ: الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ، وكلٌّ واحدٍ منهما ضربانِ: ذِكْرٌ عن نسيانٍ، وذِكْرٌ لا عن نسيانٍ بل عن إدامةِ الحفظِ[1]، والمرادُ بالتَّذكرةِ هنا: العِظَةُ[2] مجازًا مرسلًا.

المَعنى الإجْماليُّ:

العـاقـلُ يَقي نـفـسَـهُ عـذابَ الآخرةِ بالإيمانِ

يقولُ تعالى ذكرُهُ: فكيفَ تخافونَ أيُّها النّاسُ، أو أيُّها المشركونَ يومًا يجعلُ الأطفالَ الصِّغارَ شيبًا؛ إنْ كفرتم باللّهِ، ولم تُصدِّقوا بهِ؟ وهذا اليومُ هو يومُ القيامةِ، ومِنْ أوصافِهِ أنَّ السَّماءَ منشقَّةٌ أو مثقَلَةٌ بذلكَ اليومِ، كانَ وعدُ اللّهِ مفعولًا متحقِّقًا؛ لأنَّهُ لا يُخلَفُ وعدُهُ، فاحذروا ذلكَ اليومَ؛ فإنَّهُ كائنٌ لا محالةَ[3]، وإنَّ هذهِ السّورةَ أو هذهِ الآياتِ المتقدِّمةَ موعظةٌ لأولي الألبابِ، فمَنْ شاءَ: سلكَ إلى ربِّهِ سبيلَ الإيمانِ والطّاعةِ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتها في ﴿فَكَيۡفَ﴾:

التَّـفـريـعُ داعٍ لـلـمُـقـارنـةِ بين الطَّرفيْنِ؛ لتزداد نفس الكافر رعبًا

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ﴾؛ لتفريعِ هذا الكلامِ على ما تضمَّنَهُ الكلامُ السّابقُ، مِنَ التَّهديدِ على تكذيبِ الرَّسولِ - ﷺ، وما أُدمِجَ فيهِ مِنَ التَّسجيلِ بأنَّ الرَّسولَ ﷺ شاهدٌ عليهم، فليسَ بعدَ الشَّهادةِ إلّا المؤاخذةُ بما شَهِدَ بهِ، وقد انتقَلَ بهم مِنَ التَّهديدِ بالأخذِ في الدُّنيا إلى الوعيدِ بعقابٍ أشدَّ، وهو عقابُ

(1) الأصفهاني، المفردات: (ذكر).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 5/ 257.
(3) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 694 - 695.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 344.

الآخرةِ[1]، وأفادَ التَّفريعُ أنَّ المُفرَّعَ أشدُّ في بابِه مِن المُفرَّعِ عنه، وهذا إبلاغٌ في التَّهديد.

بلاغةُ الاستفهامِ في ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ﴾:

الاستفهامُ يوقِظُهم مِن غفلتِهم، ويُنادي عليهم أن أفيقوا

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والتَّوبيخِ، وقد نشأ هذا الاستفهامُ عن اعتبارِهم أهلَ اتِّعاظٍ وخوفٍ مِنَ الوعيدِ؛ بما حلَّ بأمثالِهم؛ ممّا شأنُهُ أنْ يُثيرَ فيهم تفكيرًا مِنَ النَّجاةِ مِنَ الوقوعِ فيما هُدِّدوا بِه، وأنَّهم إنْ كانوا أهلَ صبرٍ على تحمُّلِ عذابِ الدُّنيا؛ فماذا يصنعونَ في اتِّقاءِ عذابِ الآخرةِ، والمعنى: أقدمْتُم على تحمُّلِ عذابِ الدُّنيا؛ فكيفَ تتَّقونَ عذابَ الآخرةِ؟[2] والاستفهامُ محضٌ معناه التَّنْبيهُ، فهو يحثُّهم على مراجعة أنفسهم قبل فوات الأوان، لا سيّما بعد تحريكِ أنفسِهم وإيقاظِهم بالحديثِ عن شيءٍ مِن عذاب يومِ القيامة، وأهواله، وعقاب أمَّة سابقة.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿إِن﴾:

الكفرُ باللهِ مع وضوحِ الدَّلائلِ لا ينبغي أنْ يكونَ

لمّا كانَ التَّنفيرُ مِنْ سببِ التَّهديدِ أهمَّ؛ لأنَّهُ أدلُّ على رحمةِ المُحذِّرِ، وأبعثُ على اجتنابِهِ؛ قالَ تعالى: ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ مشيرًا بأداةِ الشَّكِّ ﴿إِن﴾ إلى أنَّ كفرَهم باللهِ - مع ما نُصِبَ لهم مِنَ الأدلَّةِ العقليَّةِ المؤيَّدةِ بالنَّقليَّةِ - ممّا لا ينبغي أنْ يوجَدَ بوجهٍ، وإنَّما يُذكَرُ على سبيلِ الفرضِ والتَّقديرِ[3]، كما تُفرَضُ المُحالاتُ.

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾:

عقابُ الآخرةِ لمن استمرَّ على كفرِهِ

فعلُ الشَّرطِ مِن قولِهِ تعالى: ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ﴾ مُستعمَلٌ في معنى الدَّوامِ على الكفرِ؛ لأنَّ ما يقتضيهِ الشَّرطُ مِنَ الاستقبالِ قرينةٌ على إرادةِ معنى الدَّوامِ مِنَ الفعلِ في قولِه: ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾، وإلّا فإنَّ كفرَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 26، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 121.

حاصلٌ مِنْ قبلِ نزولِ هذهِ الآيةِ[1]، وفي العبارةِ إشارةٌ إلى أنَّهُ تعالى عفا عنهم الكفرَ الماضيَ، فلا يَعُدُّهُ عليهم؛ رحمةً منهُ وكرمًا، ولا يَعُدُّ عليهم إلّا ما أوقعوهُ بعدَ مجيءِ الرَّسولِ ﷺ[2].

مَن أيقنَ يوم القيامة لم يكفر بالحقِّ في صورة اللَّفظ

بلاغةُ حذفِ المتعلِّقِ بـ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾:

حُذِفَ المتعلِّقُ بالكفرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِن كَفَرۡتُمۡ﴾؛ لظهورِهِ؛ إذ المرادُ: كفرُهم بما يجبُ الإيمانُ بِه، وفي الحذف إنكارٌ لطيفٌ عليهم أنْ يكفروا به، والمعنى أنَّ مِثْلَه لا يُكْفَرُ به، ولا يتسلَّطُ عليه الكفرُ في اللَّفظ؛ وذلك بمعونة سياقِ تقريرِ شدَّة أهوالِ يوم القيامةِ.

عظمةُ شأنِ اليومِ الآخِرِ

بلاغةُ تنكيرِ ﴿يَوۡمٗا﴾:

تنكيرُ قوله: ﴿يَوۡمٗا﴾، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، أي: يومًا عظيمَ الشَّأنِ، ويدلُّ على ذلكَ الأوصافُ الَّتي أُجريَتْ عليهِ.

كلُّ ما سيكونُ في ذلك اليوم عذاب للمُكذِّبين

موقعُ قولِه: ﴿يَوۡمٗا﴾ ودلالتُهُ:

الظّاهرُ أنَّ لفظ ﴿يَوۡمٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ منصوبٌ بالفعل في قوله: ﴿تَتَّقُونَ﴾ على سبيلِ المفعولِ بِهِ تجوُّزًا[3]؛ إذ اتِّقاءُ اليوم باتِّقاءِ ما يقعُ فيهِ مِنَ العذابِ على الكفرِ[4]، وتسليطُ الاتِّقاءِ على اليوم في اللَّفظِ إبلاغٌ في التَّهويلِ، كأنَّ كلَّ ما فيهِ مِن شأنِه ألّا يستطيعَ هؤلاءِ الوقايةَ منه؛ لكفرهم وشركهم، كأنَّ اليومَ نفْسَه وما فيه من ملابساتِ العذابِ عذابٌ.

اليومُ الَّذي يجعل الولدان شيبًا يُتَّقى

بلاغة الإسنادِ في ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾:

الظّاهرُ أنَّ الضَّمير الَّذي هو فاعل الجَعْل في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 274.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 26.
(3) السمين، الدر المصون: 10/ 526 - 527.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 275.

﴿ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ لليوم، والجملةُ صفتُه، والإسنادُ مجازٌ[1] عقليٌّ؛ أُسنِدَ الجعلُ إلى اليومِ؛ لكونِه واقعًا فيه[2]، والفاعلُ حقيقةً هو اللّهُ تعالى، وهذا إبلاغٌ في تهويلِ ذلك اليوم وتعظيمه، وهذا يوهِمُ أنَّ تسليطَ الاتِّقاءِ عليه كأنَّه حقيقةٌ مِن غير تقدير العذابِ.

علَّة التَّعبيرِ بالجعلِ:

في يوم القيامة تكونُ العجائبُ

عُبِّرَ بالجعلِ في قولِه عزَّ شأنُه: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾؛ لدلالته على معنى التَّصييرِ، أي: يُصيِّرُ الولدانَ شيبًا[3]، فيُشيرُ هذا اللَّفظُ إلى نقلِهم مِنْ وصفٍ إلى وصفٍ مضادٍّ له، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّهويل، وقد نظَم القرآنُ معنَى (الجَعْل) فعلًا مضارعًا في قولِه تعالى: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾؛ دالًّا على التَّجدُّدِ والحُدوثِ والتَّكْرارِ؛ نظرًا إلى تعدُّدِ متعلَّق الجَعْلِ مِن الولدان الَّذي هو جَمْعُ كثرةٍ، وسبيلًا إلى إبراز تهويلِ اليوم بتصوير الجَعْلِ الَّذي سيكونُ كأنَّه كائنٌ الآنَ، يُشاهدُه المُتلقُّون.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡوِلۡدَٰنَ﴾:

كلُّ الولدانِ يشيبون من هول يوم القيامة

تعريفُ الولدانِ بـ(أل) في قولِه ﷻ: ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾: للجنسِ الشّاملِ لجميعِ أفرادِه[4]، فيَعْظُم معنَى الكثرة الَّذي في صيغة الكثرة: (وِلْدان)؛ وفي ذلكَ مزيدُ تفظيعٍ لشأنِ ذلكَ اليومِ.

دلالةُ الكنايةِ في جَعْلِ الولدان شيبًا:

ردعُ المُكذِّبين بصورةٍ تثيرُ الخوفَ المُبِين

كنَّى النظمُ القرآنيُّ الكريم بجَعْلِ الولدانِ شيبًا في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ عن شدَّةِ ذلك اليوم وعَظيمِ هَوْلِه، ويحتمِلُ أن يكونَ ذلك حقيقةً بانقلابِ الشَّعر الأسودِ للولدانِ إلى شعرٍ أبيضَ معَ انحناءِ الظّهر وغيرِها من العلاماتِ الدالَّة على تقدُّم السنِّ؛ إذ الكنايةُ استعمالُ اللَّفظ في لازم المَعنى معَ جَوازِ إرادةِ المَعنَى الأصليِّ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 121.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 26، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 317.
(3) السمين، الدر المصون: 10/ 527.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 50، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 121.

سرُّ فصلِ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه صفةٌ ثانيةٌ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمٗا﴾، وغيابُ العاطفِ بينَ جملةِ الصِّفة وجملةِ الصِّفة الَّتي قبلها يشيرُ إلى اجتماع الصِّفتين؛ كأنَّهما صفةٌ واحدةٌ متجمّعة في ذلك اليوم، وأنَّ جعْلَ الولدانِ شيبًا يحصلُ في حالِ حُصول انفطارِ السّماء، وأنَّ حصولَ انفطارِها يحصلُ في وقتِ حصولِ جعْلِ الولدان شيبًا، وناهيك عن الرُّعْب والأهوالِ في يومٍ هذه صفتُهُ.

مِنْ صفاتِ يومِ القيامةِ انفطارُ السَّماءِ بهِ في وقتِ جَعْلِ الوِلْدانِ شيبًا

دلالة الاسميَّةِ في ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾:

نظَم القرآنُ المعنَى في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾ في صورة الجملة الاسميَّة؛ للدِّلالةِ على أنَّ انفطارَ السَّماءِ حقيقةٌ ثابتةٌ، فيتأكَّدُ حصولُ ذلك في النَّفْسِ، فيقوَى انفعالُها به، فتعملُ بموجِبه؛ إنْ هي أنْصَفَت نفْسَها والحقَّ.

انفطارُ السَّماءِ حقيقةٌ ثابتةٌ مُرْعِبَةٌ

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾:

تعريفُ السَّماءِ بـ(أل) في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾: للجنسِ الشّاملِ للكلِّ[1]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ حكمَ الانفطارِ شاملٌ للسَّماواتِ جميعًا، لكنَّهُم لم يُشاهدوا إلَّا سماءً واحدةً ظاهرةً لهُم؛ إلّا أنَّهم يُقِرُّون بخلْقِ هذه السَّماءِ، ومَن أقَرَّ بخَلْقِ سماء واحدة كان مُقِرًّا بخلْقِ باقي السَّماوات؛ فلذلك كانت (أل) هنا للجنس الشَّامل للكلِّ.

كلُّ السَّماواتِ منفطرةٌ يومَ القيامةِ

دلالة تذكيرِ ﴿مُنفَطِرُۢ﴾:

قولُه: ﴿مُنفَطِرُۢ﴾ خبرُ قولِه: ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، والخبر وصفٌ في المعنى لصاحبه، والتَّطابقُ هو الأصلُ بينهما، لكنَّ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مؤنَّثةٌ، وخبرُها: ﴿مُنفَطِرُۢ﴾ مُذكَّرٌ، وداعي التَّذكيرِ إفهامُ أنَّ المرادَ الجنسُ الشَّاملُ للكلِّ، فلو أنَّثَ؛ لكان ظاهرًا في واحدةٍ من السَّماوات، وفي

الهولُ مع التذكيرِ أعظمُ وأشدُّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 27.

اختيار التَّذكيرِ أيضًا: إفهامُ الشِّدَّة الزَّائدةِ في الهولِ المُؤدِّي إلى انفطار ما هوَ في غايةِ الشِّدَّة؛ لأنَّ الذَّكَر في كلِّ شيء أشدُّ مِن الأنثى، وذلك كلُّه تهويلٌ لليوم المذكور، فالهولُ مع التَّذكيرِ أعظمُ وأفخمُ وأشدُّ منه مع التّأنيث، وهذا ما يتناسَبُ مع سياق التَّرقِّي في وصفِ اليوم بحدوث الأهوال والأحداثِ فيه مِن الأدنى الكائنِ في آية السِّباق: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، إلى الأعلى الكائنِ في هذه الآية مِن انفطار السّماوات، فهي على علوِّها وعظَمِها وسُمكِها تنفطر لذلك اليوم، فما الظَّنُّ بالخلائقِ الضَّعيفة كالإنسان[1]؟ ولا يبعُدُ أنْ يكون عدمُ المطابقة بينَ المبتدأ والخبر في التذكيرِ والتأنيث مبعثُه أنَّ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ كنايةٌ عن العُلوِّ، فالعلوُّ الَّذي يبدو للنّاظرِ هو المُنفطرُ دونَ حقيقةِ السَّماء.

معنى الباءِ ودلالة التَّعْبير بها في ﴿بِهِۦۚ﴾:

هَوْلُ اليومِ سببُ انفطارِ السَّماءِ

(الباءُ) في قولِه تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾: للسَّببيَّةِ، أي: متشقِّقةٌ بسببِ هَوْلِه، أو: بشدَّة ذلك اليوم، ويجوز أنْ تكون الباءُ للآلة؛ مبالغةً في شدَّةِ اليوم، كأنَّهُ آلةٌ للشَّقِّ، ويجوزُ كونُها بمعنى: (فيه)، أي: يحصلُ فيه التَّفطُّرُ والتَّشقُّقُ بالغمامِ ونزولُ الملائكة، وغيرُ ذلك مِن التَّساقط والوهي على شِدَّة وثاقتِها، فما ظنُّكَ بغيرِها[2]؟ والباءُ أصلُ معانيها الاختلاطُ أو الإلصاقُ أو الملابسة، عباراتٌ مختلفةٌ، والمآلُ واحدٌ، فتفيدُ الباءُ شدَّة أثَر ذلك اليوم في انفطارِها، فاستحضارُ أصلِ معانيها أبلغُ في إبرازِ قَصْدِ السِّياقِ مِن الحمل على السَّببيَّة وغيرِها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 214، وطه السيسي، البلاغة القرآنية في تفسير البقاعي، التذكير والتأنيث أنموذجًا دراسة موازنة - معجم بلاغي: 1/ 587 - 588.

(2) السمين، الدر المصون: 10/ 528، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 50، والزمخشري، الكشاف: 4/ 642، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 214، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 393.

سرُّ تخصيصِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ بالذِّكر:

انفطارُ الأقوى تنبيهٌ على انفطارِ الأضعَفِ

تخصيصُ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ بالذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ﴾؛ للمبالغةِ في إبراز عِظَم أحداثِ ذلك اليوم وشِدَّتِها، بيانُ ذلكَ: أنَّ السَّماءَ على عِظَمِها وقوَّتِها تنفطرُ بِه، فما ظنُّك بغيرِها مِنَ الخلائقِ[1]؟ وقد جَرَى القرآنُ على ذلك في بعضِ مواضِعِه، قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠﴾ [مريم: 90]، وقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ [الشّورى: 5]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار: 1].

سرُّ فصلِ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾:

هَـوانُ الانفطارِ بالنِّسبةِ إلى عظمتِهِ سبحانَهُ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ؛ لبيانِ هَوانِ الانفطارِ بالنِّسبةِ إلى عظمتِه ﷻ[2]، وإذا كان وعدُه مفعولًا؛ كانَ ما سبقَ تقريرُه واقعًا لا محالةَ، ففي الثَّاني نوعُ تحقيقٍ وتوكيدٍ للأوَّل، فغابَ العاطفُ؛ لما بينهما من كمال الاتِّصالِ، ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الاستئنافُ تذييلًا مُقرِّرًا لما قبلَهُ[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ الفصلُ لكونِ الجملةِ صفةً أخرى لقولِه: ﴿يَوۡمٗا﴾، وهذا الوصفُ إدماجٌ للتَّصريحِ بتحقيقِ وقوعِ ذلكَ اليوم بعدَ الإنذارِ بهِ الَّذي هو مُقتضٍ لوقوعِه بطريقِ الكنايةِ؛ استقصاءً في إبلاغِ ذلكَ إلى علمِهم، وفي قطعِ معذرتِهم[4]، وما سبقَ مِن وصفٍ متلبِّسٌ بوقوعه، فغابَ العاطفُ بينَ هذا الوصفِ وما قبلَه لذلك.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿وَعۡدُهُۥ﴾:

إضافةُ المصدرِ للمفعولِ أو للفاعلِ

يَحْتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿وَعۡدُهُۥ﴾ عائدًا إلى المفعولِ، والمعنى: وعدُ ذلكَ اليومِ مفعولٌ، أي: الوعدُ المضافُ إلى

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 27.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 393.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 277.

ذلكَ اليومِ واجبُ الوقوعِ؛ لأنَّ حكمةَ اللّهِ تعالى وعلمَهُ يقتضيانِ إيقاعَهُ، ويَحْتمِلُ أنْ يكونَ عائدًا إلى الفاعلِ، والمعنى: وعْدُ اللّهِ واقعٌ لا محالةَ؛ لأنَّهُ تعالى مُنزَّهٌ عن الكذبِ، وإنْ لم يَجْرِ ذكرُ اللّه تعالى، ولكنَّهُ حسَّنَ عودَ الضَّميرِ إليهِ كونُهُ معلومًا[1]، واحتمالُ الكلامِ الوجهيْنِ فيه نوعُ إطنابٍ وإبلاغٍ في تقريرِ معناه؛ توكيدًا في مواجهة تكذيبِهم الَّذي يزيدهم عمًى عن الحقِّ.

سرُّ فصلِ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾:

التَّذكيرُ شاملٌ للمُتحدَّثِ عنهم وغيرِهم

فُصِلَ قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا[2]، وهو تذييلٌ لِما قبلَهُ، فمَنْ كانَ مِن مُنكِري البعثِ؛ آمنَ بهِ، ومَنْ كانَ مؤمنًا؛ استفاقَ مِنَ الغفلةِ الَّتي تَعْرِضُ للمؤمنِ، فاستدركَ ما فاتَهُ؛ وبهذا العمومِ الشّاملِ لأحوالِ المتحدَّثِ عنهم وأحوالِ غيرِهم كانتِ الجملةُ تذييلًا[3].

غرضُ توكيدِ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾:

مراعاةُ تكذيبِ الكفرةِ، ولفتُهُم إلى ما غفلوا عنه

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ تنبيهًا على عِظَمِ التَّذكرةِ، وأنَّها ممّا ينبغي التَّنبيهُ عليهِ[4]، وأنَّ هذه الآياتِ المنطويةَ على الزَّواجرِ والقوارعِ والإرشاداتِ والهداياتِ المذكورةِ؛ مِمَّا ينبغي الالتفاتُ إليه، والإقبالُ عليه، ولأنَّ المواجَهينَ به ابتداءً ينكرونَ كونَ القرآنِ تذكرةً وهدًى، فإنَّهم كذَّبوا بأنَّهُ مِن عندِ اللّهِ، ووصفوهُ بالسِّحرِ وبالأساطيرِ، وذلكَ مِنْ أقوالِهم الَّتي أُرْشِدَ رسولُ اللّهِ ﷺ إلى الصَّبرِ عليها[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 693.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 27.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 277.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 277.

علّةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

معاني الهدى القرآنيَّة قريبةٌ مِن النُّفوسِ عِلْمًا وعملًا

الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ للآياتِ السّابقةِ[1]، أو للسّورةِ[2]، والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للقريبِ (ذه)؛ للتَّنبيهِ على قُربِها، وأنَّها في مُتناوَلِ الأفهامِ والعملِ بموجِبِها.

علّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾:

تحذيرُ الغافلِ مِن سوءِ العواقبِ

عُبِّرَ بالتَّذكرةِ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾؛ لأنَّها اسْمٌ لمصدرِ الذُّكْرِ بضمِّ الذّالِ، الَّذي هو خُطورُ الشَّيءِ في البالِ، فالتَّذكرةُ: الموعظةُ؛ لأنَّها تُذكِّرُ الغافلَ عن سوءِ العواقبِ[3]؛ على سبيلِ المجازِ المرسلِ الَّذي عَلاقتُه السَّببيَّةُ، فمن شأنِ هذه المعاني المَعْروضَةِ في السُّورةِ أنْ يكونَ العبدُ على ذُكْرٍ منها، لا سيّما أنَّها بُنِيَتْ على الإيجازِ في الخطابِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾:

الآياتُ السّابقةُ أو السّورةُ موعظةٌ عظيمةٌ

تنكيرُ لفظ: ﴿تَذۡكِرَةٞۖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾؛ للتَّعظيم، أي: تذكيرٌ عظيمٌ هو أهلٌ لأنْ يتَّعظَ بهِ المُتَّعِظُ، ويَعْتَبِرَ به المُعْتَبِرُ[4]، وهذا إبلاغٌ في تحريكِ نفوسِ المُتلقِّينَ للسُّورةِ نحوَ معانيها؛ للانتفاعِ بها.

معنى الفاءِ ودلالتها في ﴿فَمَن﴾:

لا معذرةَ للمتغافلِ بحالٍ

(الفاءُ) في قولِه ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ للتَّفريعِ، فقد فُرِّعَ على التَّحريضِ التَّعريضيِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾؛ إذ فيه تنبيهٌ على أنَّ مِثْلَ هذه الآياتِ تحريضٌ آخَرُ صريحٌ، والمعنى: مَنْ كانَ يريدُ أنْ يتَّخذَ إلى ربِّه سبيلًا؛ فقد تهيَّأ لهُ اتِّخاذُ السَّبيلِ بهذهِ التَّذكرةِ، فلم تبقَ للمتغافلِ معذرةٌ[5]، فالفاءُ أفادت قوَّةَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 693.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 51.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 277.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28.

سببيَّةِ ما قبلها في حصولِ ما بعدَها، وهذا مُؤسَّسٌ على نفس مادَّةِ التَّذْكرةِ وتنكيرِها.

علّة التّعبير بالموصوليّة في ﴿فَمَن شَآءَ﴾:

في الموصوليَّة إلهاب وتهييج وتحريك نحو سبيل الخير

الإتيانُ بالموصولِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مِنْ قبيلِ التَّحريضِ؛ لأنَّهُ يقتضي أنَّ هذا السَّبيلَ موصِلٌ إلى الخيرِ، فلا حائلَ يَحولُ بينَ طالبِ الخيرِ وبينَ سلوكِ هذا السَّبيلِ إلّا مشيئتُهُ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ قرينةٌ على ذلكَ، فليسَ ذلك إباحةً للإيمانِ والكفرِ، ولكنَّهُ تحريضٌ على الإيمانِ، وما بعدَهُ تحذيرٌ مِنَ الكفرِ[1]، وكونُ الموصولِ كذلكَ مُؤسَّسٌ على أنَّ الصِّلةَ عنوانُ الموصولِ، به يُعْرَف ويُشْهَر، فالمُخاطَبُ له مشيئةٌ يُعتدُّ به، فينشأ من ذلك التَّحريضُ المذكورُ، ويحتملُ أنْ يكونَ (مَن) اسمَ شرطٍ[2]، فيفيدُ أنَّ اتِّخاذَ السَّبيلِ إلى اللهِ يحتاجُ مشيئةً وإرادةً مِنَ المتَّخِذِ.

سرُّ الحذف في ﴿فَمَن شَآءَ﴾:

غايةُ نَفاسةِ مَعنى المفعول، وضرورةُ مَشيئةِ التَّذكرة والموَعِظة

في قولِهِ ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ إيجازٌ بحذفِ مفعولِ المشيئةِ؛ لدلالةِ السّياقِ عليهِ، أي: فمَن شاءَ أنْ يتَّخذَ سبيلًا إلى ربِّهِ اتَّخذَهُ[3]، والحذفُ سبيلٌ إلى تزيينِ معنَى المفعولِ في بصَرِ المُتلقِّي وبصيرته؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ يوقِع في نفسِه أنَّ ههنا شيئًا تقتضي مشيئتُه أنْ يكونَ، أو ألّا يكونَ، فيتطلَّع إلى معرفتِه، والبيانِ عنه، فإذا تلقَّى قولَه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ عرَف ذلك الشَّيءَ، فتمكَّن في نفْسِه، ورسَخ، فإنَّ في البيانِ إذا ورَد بعدَ الإبهام، وبعدَ التَّحْريكِ لهُ أبدًا، لُطْفًا ونُبْلًا لا يكونُ؛ إذا لم يتقدَّم ما يُحرِّكُ، وبالجملة في الحذفِ تنبيهٌ على نفاسة مشيئته؛ لتعلُّقها بالمفعول

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 278.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 319.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 319.

المحذوف، ويجوز أنْ يكونَ المفعولُ المحذوفُ: (التَّذكُّرَ والموعظةَ)[1]، وسِرُّ الحذفِ الإشعارُ بأنَّ مشيئتَها ينبغي أنْ يكونَ نتيجةً حتميَّةً ضروريَّةً لتلقِّي معاني آياتِ السُّورة.

دلالةُ صيغةِ الافتعالِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾:

إحسانُ اللهِ إلى العبدِ - ومنه التَّذْكرةُ - الألصقُ به الاتِّخاذُ

جيءَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ متَّخِذَ السَّبيلِ إلى اللهِ يبذلُ في ذلكَ غايةَ جهدِه[2]، وذلك يعني أنَّ المُفرَّغَ عنه ما بعدَ الفاءِ من شأنِه - إذا تُؤمِّلَ، وتُدُبِّرَ، واقْتُنِعَ به - أنْ يُنْتِجَ اتِّخاذًا، لا أخْذًا، ويُلخِّصُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾، وكذلك مدخولُ ﴿إِلَىٰ﴾ الَّذي هو الغايةُ، من شأنِه أنْ يُنتِجَ ذلك، وهو إحسانُ اللهِ الَّذي ليس كمثله إحسان غيره.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتها في ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾:

السَّبيلُ الصَّحيحُ غايتُهُ الوصولُ إلى اللهِ

الأداة ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ لانتهاءِ الغايةِ مجازًا، فتفيدُ أنَّ السَّبيلَ الصَّحيحَ تكونُ غايةُ اتِّخاذِه الوصولَ إلى اللهِ، وهذا يعني غايةَ شَرَفِ الغايةِ، وغايةَ نفاستِها، إنَّها غايةٌ كلُّها خيرٌ وبرٌّ وسترٌ ولطفٌ وإنعامٌ وإحسانٌ.

نكتة تقديم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾:

المتَّعظُ يتَّخذُ السَّبيلَ إلى اللهِ وحدَهُ

قُدِّمَ قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ على قولِه: ﴿سَبِيلًا﴾؛ للعناية بالمُقدَّم، ووجهُ ذلكَ اللَّفْتُ إلى جليلِ إحسانِه ﷻ، وأنَّ مَن عرَف كونَه مُحْسِنًا؛ أسرعَ في هذا الاتِّخاذ، وأنَّ السّبيل المُؤخَّر هوَ منَ الإحسان، ومآلُه ذلك الإحسانُ، ولإفادةِ القصرِ، أي: إلى ربِّه خاصَّةً لا إلى غيرِه[3]؛ استقلالًا، أو اشتراكًا؛ بقرينة ما في سياق السِّباق زجر أهل الكفر والشّرك عن التّكذيب، فإنَّ تقديمَ بعض المتعلّقات على بعضٍ لا يفيدُ القصر دائمًا، معَ ميزة مراعاة الفاصلة.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 215.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ في ﴿رَبِّهِۦ﴾:

عُبِّرَ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى (مَنْ)، في قولِه ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُحسِنَ إليهم ﷻ يستحقُّ أنْ يَسْلُكوا إليه طريقَ الخيرِ والإيمانِ والطّاعةِ، فهو تعليلٌ في المعنَى للاتِّخاذ، وحاثٌّ عليه.

جزاءُ الإحسانِ إفرادُ المُحسِنِ بالطّاعةِ والعبادةِ

سرُّ تنكيرِ ﴿سَبِيلًا﴾:

تنكيرُ لفظ ﴿سَبِيلًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ للنَّوعيَّةِ؛ إذ المرادُ نوعٌ مخصوصٌ منَ السُّبُلِ، وهو سبيلُ الخيرِ والرَّشادِ، وإضفاءُ الخصوصيَّةِ عليه بالتَّنكيرِ يعني أنَّه سبيلٌ يسلبُه حظوظَه؛ لكونه لا لبس فيه، فيسلك على وفْق ما جاءَه من التَّذكرة، وذلك هو الاعتصامُ حالَ السَّيْر بالكتاب والسُّنَّة، على وفْق ما اجتمعت عليه الأمَّة[1].

سبيلُ الخيرِ والرَّشادِ هو سبيلُ السّاعي إلى اللهِ

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الانفطارُ والانشقاقُ:

الانفطارُ: التَّصدُّعُ والانشقاقُ على غيرِ نظامٍ[2]، والانشقاقُ: التَّفتُّحُ بينَ أجزاءٍ ملتئمةٍ[3]، وقد عُبِّرَ بالانفطارِ هنا؛ لدلالتِه على التَّصدُّعِ على غيرِ نظامٍ، وذلكَ أبلغُ في تهويلِ عظمةِ يومِ القيامةِ.

تشقُّقُ السَّماءِ على غيرِ نظامٍ

السَّبيلُ والطَّريقُ والصِّراطُ:

الصِّراطُ: هو الطَّريقُ السَّهْلُ، والطَّريقُ لا يقتضي السُّهولةَ، والسَّبيلُ يُطلَقُ على ما يُطلَقُ عليهِ الطَّريقُ، وعلى ما لا يُطلَقُ عليه الطَّريقُ، تقولُ: سبيلُ اللهِ، وطريقُ اللهِ، وتقولُ: سبيلُكَ أنْ تفعلَ كذا، ولا تقولُ: طريقُكَ أنْ تفعلَ كذا، والسَّبيلُ أغلبُ وقوعًا في الخيرِ، ولا

اتِّباعُ الخيرِ والإيمانِ يقودُ إلى اللهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 215.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 390.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 9.

يكادُ الطَّريقُ يرادُ بِهِ الخيرُ إلّا مُقترِنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تُخصِّصُهُ لذلكَ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 30][1]، والطَّريقُ قد يكونُ معتادَ السُّلوكِ، وقد يكونُ غيرَ معتادٍ، والسَّبيلُ: ما يكونُ معتادًا[2]، وقد عُبِّرَ بالسَّبيلِ هنا؛ لدلالتِهِ على طريقِ الخيرِ، وهو طريقُ الحقِّ والإيمانِ الَّذي يقودُ إلى رضا اللهِ تعالى ورحمتِهِ[3].

(1) العسكري، الفروق، ص: 313.

(2) حقي، الفروق، ص: 143.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 51.

﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزّمّل: 20]

۞ مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ تتَّصل بأوَّلِ السُّورة، وتتَّصلُ بالآيةِ الَّتي قبلَها

فأمَّا اتّصالُها بأوَّلِ السُّورة؛ فظاهرٌ على الجملةِ؛ لِما فيهما مِن الحديثِ عن قيامِ اللّيل، وصريحُ هذهِ الآيةِ الأخيرةِ في السُّورةِ يُنادي على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يقومُ مِن اللّيلِ قبلَ نزولِ الآيةِ، وأنَّ طائفةً مِن أصحابِه كانوا يقومونَ؛ عملًا بالأمرِ الَّذي في أوّلِ السُّورةِ مِن قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الآية، فتعيَّنَ أنَّ هذه الآيةَ نزلت؛ للتَّخفيف عنهم جميعًا؛ لقولِه فيها: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، فهي ناسخةٌ للأمرِ الَّذي في أوّلِ السُّورة(1)، فكأنَّ ما في مطلعِ السُّورةِ هو الحدُّ الأعلى في قيامِ اللّيلِ، وما في مقطعِها هو الحدُّ الأدنى، وإنّما ذكَر تعالى هذا الحدَّ الأدنى؛ لأنَّ ما في سياقِ السِّباقِ مِن ذِكْرِ يومِ القيامةِ وأهوالِه وعذابِ المُكذِّبينَ فيهِ قد يكونُ سببًا في أنْ يُغاليَ بعضُ النَّاسِ في العبادةِ، وأنْ يَشُقَّ على نفْسِه، ورُبَّما شقَّ على غيرِه، فنبَّهتْ هذهِ الآيةُ على الاقتصادِ تخفيفًا؛ لِما يلحقُ الإنسانَ مِن النَّصَبِ(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 278.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 215.

وأمّا اتّصالُها بالآيةِ الَّتي قبلها؛ فوجهُه دلالةُ المُجاورَةِ، مِن أنَّ أجلَّ السُّبُلِ إلى الرَّبِّ ﷻ هو ما بدأتْ بِهِ السُّورة، وتأسَّسَ المعنَى فيها عليهِ، وهو قيامُ اللّيلِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡنَىٰ﴾: (دنو) أصلٌ واحدٌ يُقاس بعضُه على بعضٍ، وهو المُقارَبة، ومِن ذلك الدَّنيُّ، وهو القريبُ، من: دَنا يَدْنو، وسُمّيتِ الدُّنْيا؛ لِدُنوِّها، والنِّسْبةُ إليها دُنْياويٌّ، والدَّنيُّ مِن الرِّجالِ: الضَّعيفُ الدُّونُ، وهو مِن ذاك؛ لأنَّه قريبُ المأخَذِ والمنزلةِ، ودانيْتُ بينَ الأمرَيْنِ: قاربتُ بينهما، وقولُه تعالى هنا: ﴿أَدۡنَىٰ﴾ اسمُ تفضيلٍ مِن هذا البابِ، وهو مستعارٌ لمعنَى الأقلِّ؛ لأنَّ المسافةَ الَّتي بينَ الشَّيءِ والأدنى منهُ قليلةٌ[1].

2) ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾: (طوف) أصلٌ يدلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، كأنَّهُ موصولٌ به، وأنْ يَحُفَّ به[2]، ومنهُ: الطّائفُ، وهو الَّذي يدورُ حولَ البيوتِ حافظًا لها، والطَّوافُ بالبيتِ العتيقِ، والطّائفةُ مِنَ النّاسِ: الجماعةُ منهُم، والطّائفةُ مِنَ الشَّيءِ: القِطْعةُ منهُ[3]، والمرادُ بالطّائفةِ هنا: جماعةٌ مِنَ الصَّحابةِ رضي الله عنهم فيها أهليَّةُ التَّحلُّقِ بإقبالهم على الرَّسول ﷺ وإقبالِ بعضِهم على بعضٍ[4].

3) ﴿يُقَدِّرُ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كلِّ شيءٍ، والقَدْرُ والقَدَرُ: قضاءُ اللهِ سبحانَهُ الأشياءَ على مَبالغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها[5]، ويُقالُ: الأمورُ تَجْري بقَدَرِ اللهِ، ومِقْدارِه، وتقديرِه، وأقدارِه، ومَقاديرِه[6]، ويقولونَ: رجلٌ ذو قُدرةٍ ومَقْدِرةٍ، أي: يَسارٍ، يعني: أنَّهُ يَبْلُغُ بغِناهُ مِنَ الأمورِ المَبْلَغَ الَّذي يوافقُ إرادتَهُ[7]، والتَّقديرُ: تبيينُ كمّيَّةِ الشَّيءِ[8]، ومعنى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾: واللهُ يعلمُ مقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ على حقائقِها[9].

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (دنى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(3) الأصفهاني، المفردات: (طوف).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(6) الزمخشري، أساس البلاغة: (قدر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(8) الأصفهاني، المفردات: (قدر).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 53.

4) ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾: (حصي) أصلٌ يدلُّ على العدِّ[1]، ومِنْ ذلكَ: الإحصاءُ، وهو التَّحصيلُ بالعددِ، يقالُ: أحصيتُ كذا، وذلكَ مِنْ لفظِ الحصى، واستعمالُ ذلكَ فيهِ، مِنْ حيثُ إنَّهم كانوا يعتمدونَهُ بالعدِّ، كاعتمادِنا فيهِ على الأصابعِ[2]، والمرادُ بعدمِ الإحصاءِ هنا: عدمُ إطاقةِ معرفةِ حقائقِ اللَّيلِ والنَّهارِ[3]، أو عدمُ إطاقةِ قيامِ اللَّيلِ على المقاديرِ المذكورةِ إلّا بشدَّةٍ ومشقَّةٍ[4].

5) ﴿يَضْرِبُونَ﴾: (ضرب) أصلٌ يدلُّ على إيقاعِ شيءٍ على شيءٍ[5]، أو إيقاعُ جسمٍ على جسمٍ؛ قصدًا للتَّأليمِ والإيلامِ[6]، كضربِ الشَّيءِ باليدِ، والعصا، والسَّيفِ، ونحوِ ذلكَ، ضَرَبَهُ بِسَيْفٍ أَوْ غَيْرِهِ، وضَرَبْتُ مَعَ القَوْمِ بِسَهْمٍ ساهَمْتُهُم، وضَرَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ: حَجَرْتُ عَلَيْهِ، أَوْ أَفْسَدْتُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا وصَفَهُ، وبَيَّنَهُ، وضَرَبَ عَلَى آذانِهِم: بَعَثَ عَلَيْهِم النَّوْمَ، فَناموا، ولَمْ يَسْتَيْقِظوا، وضَرَبْتُ عنِ الأَمْرِ، وأَضْرَبْتُ بالألِفِ أَيْضًا: أَعْرَضْتُ تَرْكًا أَوْ إهْمالًا[7]، والضَّربُ في الأرضِ: الذَّهابُ فيها، وضربُها بالأرجلِ[8]، والمرادُ بهِ هنا: المسافرةُ للتِّجارةِ وتحصيلِ العِلْمِ، ونحوِ ذلكَ[9].

6) ﴿يَبْتَغُونَ﴾: (بغي) أصلٌ يدلُّ على طلبِ الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَغَيْتُ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ، وبَغَيْتُكَ الشَّيءَ، أي: طلبتُهُ لكَ، والبُغْيَةُ: الحاجةُ[10]، قالَ الرّاغبُ: البغيُ طلَبُ تجاوُزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى، تجاوزَهُ أم لم يَتجاوزْهُ، فتارةً يُعتبَرُ في القدرِ الَّذي هو الكميَّة، وتارةً يعتبرُ في الوصفِ الذي هو الكيفيَّةُ، يقالُ: بَغَيْتُ الشّيءَ؛ إذا طلبتَ أكثرَ ما يَجِبُ، وابتَغَيْتُ كذا، فالابتغاءُ: الاجتهادُ في الطَّلبِ[11]، وهو المرادُ هنا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصي).
(2) الأصفهاني، المفردات: (حصي).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 53.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559.
(5) الأصفهاني، المفردات: (ضرب).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ضرب).
(7) الفيومي، المصباح المنير: (ضرب).
(8) الأصفهاني، المفردات: (ضرب).
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 258.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغي).
(11) الأصفهاني، المفردات: (بغي).

7) ﴿وَأَقۡرِضُواْ﴾: (قرض) أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلُّ على القطع، يُقال: قرضْتُ الشّيءَ بالمِقْراضِ، والقَرْضُ: ما تُعْطيهِ الإنسانَ مِن مالِكَ؛ لِتُقْضاهُ، وكأنَّه شيءٌ قد قطعْتَه مِن مالِكَ؛ بشرطِ ردِّ بدلِه، والقِراضُ في التِّجارةِ: هو مِن هذا، وكأنَّ صاحبَ المالِ قد قَطَعَ مِن مالِه طائفةً، وأعطاها مُقارَضَةً؛ ليتَّجِرَ فيها[1]، والمقصودُ بالإقراضِ هنا الإنفاقُ، وهو عند بعض المفسِّرين عامٌّ، يشملُ الإنفاقاتِ المفروضة والمندوبة، وعند بعضٍ آخَرَ يختصُّ بالإنفاقاتِ (الصّدقات) غير الواجبةِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّخفيفُ عن العبادِ يستدعي الشُّكرَ بالطّاعةِ

يقولُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: إنَّ ربَّكَ يا محمَّدُ يعلمُ أنَّكَ تقومُ زمانًا أقلَّ مِنْ ثلثي اللَّيلِ مصلّيًا، وتقومُ نصفَهُ وثلثَهُ، وجماعةٌ مِن أصحابِكَ كذلك، واللّهُ يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ بالسّاعاتِ والأوقاتِ، عَلِمَ ربُّكم أيُّها القومُ الَّذينَ فُرِضَ عليهم قيامُ اللَّيلِ أنْ لن تُطيقوا قيامَهُ، فخفَّفَ عنكم، فاقرؤوا ما تيسَّرَ لكم مِنَ القرآنِ في صلاتِكم، أوْ صلّوا ما استطعتُم، علمَ أنْ سيكون منكم أهلُ مرضٍ، قد أضعفَهم المرضُ عن قيامِ اللَّيلِ، وآخرونَ يسافرونَ في الأرضِ، يبتغونَ مِنْ فضلِ اللّهِ في تجارةٍ، أوْ في طلبِ علمٍ، أوْ نحوِ ذلكَ، فأضعفَهم ذلكَ عن قيامِ اللَّيلِ، وآخرونَ يُجاهدونَ العدوَّ، فيقاتلونَهم في نُصرةِ دينِ اللّهِ، فرحمَكم اللّهُ، وخفَّفَ عنكم، فاقرؤوا ما تيسَّرَ مِنَ القرآنِ، وأقيموا الصَّلواتِ الخمسَ في اليومِ واللَّيلةِ، وأعطوا الزَّكاةَ المفروضةَ في أموالِكم أهلَها، وأنفقوا في سبيلِ اللّهِ مِن أموالِكم، وما تفعلوا مِنْ خيرٍ لأنفسِكم في الدّارِ الدُّنيا، مِنْ صدقةٍ أو نفقةٍ تنفقونَها في سبيلِ اللّهِ، أو غيرِ ذلكَ مِنْ نفقةٍ في وجوهِ الخيرِ، أو عملٍ بطاعةِ اللّهِ، مِنْ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (قرض).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 287.

صلاةٍ، أو صيام، أو حجٍّ، أو غيرِ ذلكَ مِن أعمالِ الخيرِ في طلبِ ما عندَ اللّهِ؛ تَجِدوهُ عندَ اللّهِ يومَ القيامةِ في مَعادِكم هو خيرًا لكم ممّا قدَّمتم في الدُّنيا، وأعظمَ ثوابًا، واسألوا اللّهَ غفرانَ ذنوبِكم؛ يصفحْ لكم عنها، إنَّ اللّهَ ذو مغفرةٍ لذنوبِ مَنْ تابَ مِنْ عبادِهِ مِنْ ذنوبِهِ، وذو رحمةٍ أنْ يعاقبَهم عليها مِنْ بعدِ توبتِهم منها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾:

لا يُكلِّفُ اللهُ نفسًا فوقَ طاقتِها

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، جيءَ بهِ؛ للتَّخفيفِ عمَّن يقومُ اللَّيل، ويجتهدُ في ذلكَ[2]، ببيانِ أنَّ هناكَ مَن يمنعُهُ العذرُ مِنَ الإكثارِ مِن قيامِ اللّيلِ، وبالتَّنبيهِ على أنَّ المطلوبَ هو إتيانُ المرءِ بما يستطيعُ، ويجوزُ أَنْ يكونَ جوابَ سؤالٍ يُثيرُه قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، وهو: ما هذا السّبيلُ؟ فالنَّفْسُ تتحرَّكُ لمعرفتهِ بعدَ ما رهَّبَتْها السُّورةُ بعذابِ المُكذِّبينَ وذِكْرِ اليومِ الَّذي يجعلُ الولدانَ شيبًا، فكانت هذه الآيةُ استئنافًا بيانيًّا؛ فغابتِ الواوُ، وأوَّلُ هذهِ السُّبُلِ المعروضةِ في الآيةِ قيامُ اللّيلِ، الَّذي بدأتْ به السُّورةُ، فهو عمدةُ الوصولِ إلى رضا اللّهِ ورضوانِهِ في الدُّنيا والآخرة في السُّورة.

سرُّ افتتاحِ الكلامِ بذِكْرِ الرَّسولِ وعملِه:

افتتاحُ آخرِ آيةٍ بذلكَ جعلَها تُقابِلُ ما في مطلعِ السُّورة

افتتاحُ الكلامِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، يُشعِرُ بالثَّناءِ على النَّبيِّ ﷺ؛ لوفائِه بحقِّ القيامِ الَّذي أُمِرَ به، وأنَّه كان يَبسُطُ إليه، ويهتمُّ به؛ ثمَّ يقتصِرُ على القدرِ المُعيَّنِ فيه النِّصفِ، أو أنقصَ منه قليلًا، أوْ زائدٍ عليه، بل أخَذَ بالأقصى؛ وذلك ما يقرُبُ مِن ثُلُثَيِ اللَّيلِ، كما هو شأنُ أولي العَزمِ، نحو ما قال النَّبيُّ ﷺ في

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 697 - 700، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 258 - 260.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 28 - 29، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 278.

قوله تعالى: ﴿۞فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ [القصص: 29]: إنَّه قضَى أقْصَى الأجلَيْن، وهوَ العشرُ سُنونَ[1]، ففي أوَّلِ السُّورةِ تكليفٌ بالقيام في اللَّيل، وفي آخِرِها تقريرٌ لطاعته ﷺ حتّى اقتدى به طائفةٌ مِن الَّذين معه، ففيه أيضًا ثناءٌ على أصحابِهِ أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾؛ لوفائِهم بحقِّ قيامِ اللَّيلِ، واهتمامِهم به، كما اهتمَّ به رسولُهم ﷺ، ففي افتتاح الكلامِ بذكرهم جميعًا إيماءٌ إلى أنَّ اللّهَ تعالى مطَّلعٌ عليهم وعلى أعمالِهم، وأنَّه قابِلُها، وجازيهِم عليها، وقد أنزلَ بالتَّنبيهِ على ذلكَ قرآنًا يُتْلَى إلى قيامِ السّاعةِ.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾:

الـثَّـنـاءُ على الـعـمـلِ دليـلُ قَبولِه، والمُجازاةِ عليهِ بالحُسْنَى

الإخبارُ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ مرادٌ بِهِ الكنايةُ عن الرِّضا عن النَّبيِّ ﷺ، والطّائفةِ الَّذينَ معَهُ، فيما فعلوا؛ لأنَّهم أرضَوا به ربَّهم؛ بقرينة وقوعِ ذلك الكلامِ في مقطعِ السُّورةِ، ووقوعِ التَّكليفِ بقيامِ اللّيلِ في أوّلِها، فالتَّكليفُ والثَّناءُ على فعلِه وارِدانِ في سياقٍ كلِّيٍّ واحدٍ، وهو كنايةٌ عن صفةٍ كنايةٌ قريبةٌ واضحةٌ؛ لعدمِ تعدُّدِ الوسائطِ، والمقصودُ بالكلامِ في نورِ الكنايةِ: التَّمهيدُ للتَّخفيفِ المذكورِ في قولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ إلى آخرِ الآيةِ؛ ليُعْلَمَ أنَّه تخفيفُ رحمةٍ وكرامةٍ، ولإفراغ بعضِ الوقتِ مِن النّهارِ؛ للعملِ والجهادِ[2].

سِرُّ توكيدِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾:

فـي الـتَّـوكـيـدِ لَفْتٌ إلى الرِّضا والقَبولِ والمُجازاةِ بالإحسانِ

أُكِّدَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ وتقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفعليِّ؛ للاهتمامِ بهِ[3]، كيفَ لا؟ وهو ثناءٌ على النَّبيِّ ﷺ والمقتدينَ بِهِ في الاجتهادِ في قيامِ اللَّيلِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 280.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 282.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 280.

وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ اللّهَ تعالى لا يغفلُ عن أعمالِ عبادِهِ الصّالحةِ، وإنْ كانَتْ في جوفِ اللَّيلِ بعيدًا عن أعينِ البشرِ، وأنّه تعالى مُراقِبٌ أعمالَ الرَّسولِ والطّائفةِ الّتي معَه ومُجازيهم علَيها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِه ﷺ:

تشريفُ النَّبيِّ بالانتسابِ للمُحسِنِ سبحانَهُ

جيءَ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ، مضافًا إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لمزيدِ اللُّطفِ والكرمِ[1]، والمعنى: إنَّ المُدبِّرَ لأمرِكَ على ما يكونُ إحسانًا إليكَ ورفقًا بكَ وبأمَّتِكَ يعلمُ أنَّكَ تقومُ ... إلخ[2]، وفي الإضافةِ أيضًا تشريفٌ لهُ ﷺ بالانتسابِ إليهِ تعالى، وفي التَّعبيرِ بالرَّبِّ توطئةٌ لجريانِ معنَى المُجازاةِ بالحسنى في الكلامِ، على القيامِ باللّيلِ، وللإحسانِ إلى الرَّسولِ والطّائفةِ الَّتي معَه بالتَّخفيفِ عليهم المذكورِ في الآيةِ.

دلالة المضارعة في ﴿يَعْلَمُ﴾:

تجدُّدُ العلمِ بتجدُّدِ قيامِ اللَّيلِ فيه حثٌّ لطيفٌ على تجديدِ ذلكَ القيامِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾؛ للدِّلالةِ على استمرارِ ذلكَ العلمِ وتجدُّدِهِ بتجدُّدِ القيامِ؛ وذلكَ إيذانٌ بأنَّهُ في محلِّ الرِّضا منهُ تعالى[3]، وفيهِ أيضًا تنبيهٌ على عظمتِهِ ﷻ، وأنَّ علمَهُ القديمَ يتعلَّقُ بكلِّ أفعالِ عبادِهِ.

نكتةُ توكيدِ ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾:

لا تستوي طاعةُ الرَّسولِ وطاعةُ غيرِه

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾ بـ (أنَّ) وتقديمِ المُسندِ إليه على الخبرِ الفعليِّ، فلم يقل: (يعلم قيامك)؛ للتَّنبيهِ على خصوصيَّةِ قيامِه ﷺ، وأنَّه ليس كمِثْلِ قيامِه قيامُ أحدٍ من النَّاسِ عامَّةً، وقيامِ هذهِ الطَّائفةِ الَّتي معَه خاصَّةً، فقيامُه هو الأفضلُ والأعلى والأعظمُ والأحسنُ والأعجبُ، بالنِّسْبةِ إلى قيامِ غيرِه؛ وذلكَ بقرينةِ ذِكْرِ هذهِ الطَّائفةِ الَّتي معَه في السِّياقِ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 394.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 29.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 280.

المواظَبةُ على قيامِ اللّيلِ مَجْلَبَةٌ للثَّناءِ والرِّضا مِنَ اللهِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَقُومُ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ القيامِ وتجدُّدِهِ وتكرارِه على الكيفيّاتِ المذكورةِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ مدحِ النَّبيِّ ﷺ ومَنْ معَهُ، والثَّناءِ عليهم بالمواظَبةِ على قيامِ اللَّيلِ، وإتعابِ النُّفوسِ في ذلكَ، حتَّى نالوا رِضاهُ ﷻ.

التَّنْبيهُ على كمالِ طاعةِ الرَّسولِ ومَن معَه بعظيمِ رغبتِهم في أدائها

علَّةُ التَّعبيرِ بالقيامِ:

عُبِّرَ بالقيامِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ لدلالتِه على العَزْمِ والانتِصابِ لصلاةِ اللَّيلِ، والمعنى: تقومُ في صلاةِ اللَّيلِ أدنى... إلخ[1]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى امتثالِه ﷺ ومَنْ معَهُ حقَّ الامتثالِ للأمرِ الواردِ في أوَّلِ السّورةِ في قولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2]، وفي التعبيرِ بالقيامِ في اللَّيلِ كنايةٌ عنِ الصَّلاةِ فيه، فذكرَ المَلزومَ، وهو القيامُ، وأرادَ لازِمَهُ، وهي الصَّلاةُ، والغرضُ من الكنايةِ بيانُ شدَّةِ الجُهدِ في صلاةِ اللَّيلِ؛ إذ يُفارِقُ المُصلّي الغرضَ من اللَّيلِ، وهو النّومُ والرّاحةُ من تعَبِ النَّهارِ، ولا يبعُدُ أنْ يكونَ إطلاقُ القيامِ على الصَّلاةِ مجازًا مُرسَلًا من ذكرِ الجُزءِ وإرادةِ الكلِّ، وإنَّما تُجوِّزَ عنِ الصَّلاةِ بالقيامِ؛ لصُعوبتِهِ في اللَّيلِ أيضًا.

في الدُّنوِّ إحسانٌ وحثٌّ لطيفٌ

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَدْنَىٰ﴾:

أصلُ معنى قولِه: ﴿أَدْنَىٰ﴾: أقربُ، وهو اسمُ تفضيلٍ مِنَ الدُّنوِّ، استُعيرَ للأقلِّ؛ لأنَّ المسافةَ الَّتي بينَ الشَّيءِ والأدنى منهُ قليلةٌ[3]؛ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، فاعتُبِرَ التَّشبيهُ بينَ القربِ والقلَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مجازًا مرسَلًا؛ لأنَّ القُرْبَ يقتضي قلَّةَ الأحيازِ بينَ الشَّيئَين،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 52.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 29.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 643، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257.

فاستُعمِلَ في لازمِهِ أو في مطلقِ القلَّة[1]، وأيًّا ما كانَ؛ فهو منصوبٌ على الظَّرفيَّةِ لفعلِ ﴿تَقُومُ﴾، أي: تقومُ في زمانٍ يُقدَّرُ أقلَّ مِنْ ثلثي اللَّيلِ، وذلكَ ما يزيدُ على نصفِ اللَّيلِ، وهو ما اقتضاهُ قولُه تعالى: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾[2]، وعلَّةُ التَّعبير بالأدنى: العُدولُ عن معنى القلَّة الموهِمةِ للذَّمِّ إلى معنى الأدنى؛ لأنَّ كثرة العمل ممدوحة، وقلَّته بخلاف ذلك، والأدنى مشتركٌ بين (الأقرَبِ والأدوَنِ) للأنزلِ رُتبةً؛ لأنَّ كلًّا منهما يلزمُ منه قِلَّةُ المسافة، فلهذا كانت الاستعارةُ[3].

وفيه الإشارةُ إلى فضل الله وإحسانه إلى نبيِّه محمّد ﷺ بأنْ وفَّقَه لذلك القيام، وهيَّأه لهُ، فكانَ في مُكْنتِه وقُدْرته؛ بقرينةِ صدرِ الآيةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ إذ عُبِّر بلفظ الإحسانِ والإنعام: (الرَّبّ) مُضافًا إلى كافِ خطابه ﷺ، وفيه أيضًا: أنَّ ما كلَّفَه به في أوَّل السُّورةِ هوَ الأعلى، ففيه حثٌّ لطيفٌ على القيامِ في المقام والمستوى الأعلى لقيامِ اللَّيل.

معنى الإضافة وبلاغتها في ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾:

ما يـزيـدُ على نـصـفِ الـلَّـيـلِ حالةٌ مِنْ حالاتِ قيامِ اللَّيلِ

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ على معنَى: (مِنْ)؛ لأنَّ ما هو أدْنَى مِنَ الثُّلثينِ - وهو ما يزيدُ على النِّصف - جزءٌ مِن أجزاءِ اللَّيلِ، ولو جيء بـ(مِن)؛ لأفْهَمَت احتمالَ كونِ الثُّلُثَيْنِ من غيرِ اللّيل، وفي إضافةِ الثُّلثينِ للَّيل إشعارٌ بصُعوبةِ تلك الصَّلاةِ ومَشقَّتها وما يتطلَّبُهُ مِن مُجاهدةٍ للنَّوم وسُلطانِهِ الكبير.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

تـوزُّعُ الـحـالاتِ الـثَّـلاثِ على اللَّيالي

تعريفُ اللَّيلِ بـ(أل) في قولِهِ ﷻ: ﴿تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾؛ للجنسِ، والمعنى: تقومُ أدنى مِنْ ثلثي الجنسِ المسمَّى باللَّيلِ، ونصفَهُ، وثلثَهُ، والمرادُ أنَّهُ يقومُ أدنى مِنْ ثلثي اللَّيلِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 122.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.

في بعضِ اللَّيالي، ونصفَ اللَّيلِ في بعضِها الآخر، وثلثَ اللَّيلِ في بعضِها الآخرِ، بحيثُ تتوزَّعُ هذهِ الحالاتُ الثَّلاثُ على اللَّيالي.

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتَي قولِه: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾:

تعدُّدُ أحوالِ قيامِ النَّبيِّ ﷺ

قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو عمرٍو وأبو جعفرٍ ويعقوبُ: ﴿وَنِصۡفِهِۦ وَثُلُثِهِۦ﴾ بخفضِهما؛ عطفًا على ثلثي اللَّيلِ، أي: أدنى مِنْ نصفِه، وأدنى مِنْ ثلثِه، وقرأ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنَّصبِ[1]؛ على أنَّهما منصوبانِ على المفعولِ لـ﴿تَقُومُ﴾، أي: تقومُ ثلثي اللَّيلِ، وتقومُ نصفَ اللَّيلِ، وتقومُ ثلثَ اللَّيلِ، بحيثُ لا ينقصُ عن النِّصفِ وعن الثُّلثِ، والمعنى على هذه القراءةِ جارٍ على تعيينِ النِّصفِ والثُّلُثِ الدَّاخلِ تحتَ الأدنى من الثُّلُثَين[2].

وهذهِ - على القراءتَيْن - أحوالٌ مختلفةٌ في قيام النَّبيِّ ﷺ باللَّيلِ، تابعةٌ لاختلافِ أحوالِ اللَّيالي والأيَّام في طولِ بعضِها، وقِصَرِ بعضٍ، وكلُّها داخلةٌ تحتَ التَّخييرِ الَّذي خيَّرَهُ اللّٰهُ في قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، التَّخييرِ بين قيامِ النِّصفِ بتمامه، أو النَّاقصِ منه، وهو الثُّلُثُ، أو الزَّائدِ عليه، وهو الثُّلُثانُ، أو الأقلِّ مِن الأقلِّ مِن النِّصفِ، وهوَ الرُّبُعُ، وبهِ تظهرُ مناسبةُ تعقيبِ هذهِ الجملةِ بجملةِ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، أي: قد علمَها اللّٰهُ كلَّها، وأنبأهُ بها، فلا يختلفُ المقصودُ باختلافِ القراءاتِ[3].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾:

تعظيمُ قدرِ قيامِ الرَّسولِ؛ بكونه إمامًا لغيرِه

قولُه تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ معطوفٌ على الضَّميرِ في: ﴿تَقُومُ﴾، ونكتةُ العطفِ: ذِكْرُ قيامِ أتباعِ النَّبيِّ ﷺ بعدَ ذكرِ قيامِه، أي: وتقومُ ذلكَ القدرَ معكَ طائفةٌ مِن أصحابِكَ، وحسَّنَ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281.

هذا العطفَ الفَصْلُ بينَ المُتعاطفيْنِ بـ﴿أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[1]؛ دلالةً على انتفاءِ التَّساوي بين القيامَيْن، ويحتملُ أنْ يكونَ عطفًا على أصلِ اسم (أنَّ) بالرَّفعِ، فأصلُه الابتداءُ، وهو وجهٌ جائزٌ إذا كانَ بعدَ ذكرِ خبرِها؛ لأنَّهُ يُقدَّرُ رفعُهُ حينئذٍ على الاستئنافِ، وهو منَ اللَّطائفِ؛ إذا كانَ اتِّصافُ الاسمِ والمعطوفِ بالخبرِ مختلفًا، فإنَّ بينَ قيامِ النَّبيِّ ﷺ وقيامِ الطّائفةِ الَّتي معَهُ تفاوتًا في الحكمِ والمقدارِ، وهذا وجهُ العدولِ عن أنْ يقالَ: (إنَّ اللّهَ يعلمُ أنَّكم تقومونَ)، إلى قولِهِ: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾، ثمَّ قولِه: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾[2].

سرُّ التَّنكيرِ في ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾:

الطّائفةُ القائمةُ فردٌ عظيمٌ مِن أفرادِ الطَّوائفِ

تنكيرُ الطّائفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾؛ للإفرادِ، والمرادُ: وفردٌ من أفرادِ الطَّوائفِ، أي: الجماعاتِ، والمرادُ بها: أصحابُهُ ﷺ، يقومونَ منَ اللَّيلِ هذا المقدارَ المذكورَ[3]، وفيهِ أيضًا معنَى التَّعظيمِ، الَّذي يدعو إليهِ سياقُ المدحِ والثَّناءِ.

معنى ﴿مِّنَ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

لـ(مِـن) هنا معنيانِ مختلفانِ، يُؤدِّيانِ إلى ثناءِ السِّياقِ عليهم ومدحِهم

يَحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِّنَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ تبعيضيَّةً، فيدل الكلام على أنَّ مَن كانَ يقوم معه هو بعضُ أصحابِه، فتُضْفي ﴿مِّنَ﴾ معنَى الخُصوصيَّةِ والتَّميُّزِ وما جَرَى في هذا الطَّريقِ مِن المعنَى على تلكَ الطَّائفةِ، وهذا إبلاغٌ في الثَّناءِ عليهم، ويَحتملُ أنْ تكونَ بيانيَّةً، فتفيدَ أنَّ مَن كانَ يقومُ هو جميعَ صحابتِهِ ﷺ الَّذينَ كانوا في ذلكَ الوقتِ[4]، ففي ﴿مِّنَ﴾ على هذا تشويقٌ للعِلْمِ بِهم؛ لأنَّ ما بعْدَها مُبيِّنٌ لِما قبلَها الَّذي فيه نوعُ إجمالٍ وإبهامٍ، وهذا مناسبٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 30، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 385.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281 - 282.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 124.

لسياقِ مدحهم والثَّناءِ عليهم؛ ترغيبًا في الاقتداءِ بهم، في السَّيْرِ على نهجِ النَّبيِّ محمّد ﷺ في الطَّاعة عمومًا، وفي قيامِ اللّيل خصوصًا.

علّةُ التّعبيرِ بالموصولِ والمعيَّةِ في ﴿ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾:

موافقةُ الطّائفةِ للنَّبيِّ في الأقوالِ والأفعالِ

جيءَ بالموصولِ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾؛ لاستحضارِ الطّائفةِ بصفةِ المعيَّةِ الَّتي فيها تنبيهٌ على أنَّهم معَهُ ﷺ بأقوالِهم وأفعالِهم، أي: على الإسلامِ، وفيها دفعٌ لتوهُّم أنَّ الصّاحبَ ربَّما أُطلِقَ على مَنْ مع الإنسانِ بقولِه دونَ قلبِه، واختارَ القرآنُ: ﴿ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ دون (المسلمين)؛ لأنَّ ﴿مِّنَ﴾ على أنَّها تبعيضيَّةٌ تُفْهِم أنَّ طائفةً لم تقُم بهذا القيامِ، فإذا عُبِّر بـ (المسلمين)؛ أَفْهَمَ الكلامُ أنَّ هذه الطّائفةَ الَّتي لم تقُم غير مسلمة، فعُبِّر بالمعيَّة؛ لأنَّها أعمُّ[1]، ونظمُ المعيَّةِ صلَةَ موصولٍ يعني أنَّهم عُرِفوا، وشُهِروا بذلك الحالِ، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهُم، وثناءٍ عليهِم، وهذهِ المعيَّةُ حقيقيَّةٌ، أي: للمصاحبةِ في عملٍ ممّا سيقَ لهُ الكلامُ، والمرادُ هنا: المصاحبونَ لكَ في قيامِ اللَّيلِ، على كونِ ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةً، ومجازيَّةٌ: وهي الانتسابُ والصُّحْبَةُ والموافقةُ، على كونِ ﴿مِّنَ﴾ تبعيضيَّةً.

معنى الواوِ ودلالتها في ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾:

علمُ اللهِ بما لا يعلمُهُ عبادُهُ

(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾: حاليَّةٌ؛ وذلكَ أنَّهُ لمّا كانَ القيامُ - على هذا التّفاوتِ مع الاجتهادِ في السَّبقِ للعبادةِ - دالًّا على عدمِ العلمِ بالمقاديرِ على ما هي عليهِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، أي: تقومونَ هكذا؛ لعدمِ علمِكم بمقاديرِ السّاعاتِ على التَّحرير، والحالُ أنَّ اللّهَ يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ[2]، ففي هذه الحالِ نوعُ توكيدٍ لِما قبلَها، ويحتملُ أنْ تكونَ (الواوُ) اعتراضيَّةً، والجملةُ معترضةٌ بينَ جملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، وجملةِ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 30 - 31.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31.

﴿تُحۡصُوهُ﴾، ومناسبةُ اعتراضِها: أنَّهُ بعدَ ذكرِ الأحوالِ المختلفةِ لقيامِ النَّبيِّ ﷺ، التّابعةِ لاختلافِ أحوالِ اللَّيالي والأيّامِ في طولِ بعضِها وقِصَرِ بعضِها؛ عُقِّبَتْ بهذهِ الجملةِ؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ تعالى قد علمَهَا كلَّها، وأنبأَهُ بها[1]، فهذه الجملةُ على كلِّ حالٍ مِن تمامِ ما قبلها، فقد وقعت الموقعَ البليغَ السَّديدَ.

علَّةُ الإظهارِ والتَّعبيرِ باسم الجلالةِ في ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾:

علـمُ مـقـاديـرِ اللَّـيلِ والنَّـهارِ هــيِّنٌ عـلـى ذي الـعـظـمةِ والجلالِ

مقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (وهو يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ لفظِ الرَّبِّ، وإنَّما عُدِلَ إلى الإظهارِ والتَّعبيرِ باسم الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ الَّتي منها القدرةُ والعلمُ، الَّتي هي ألصقُ بالمعنى المسندِ إلى اسمِ الجلالةِ: ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، والمعنى: والمَلِكُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ[2]، وحسَّنَ الإظهارَ كونُ المُظْهَرِ غيرَ المُظْهَرِ السَّابقِ ذِكْرُه.

نكتةُ التَّقديمِ في ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ﴾:

علـمُ مـقـاديـرِ الأوقــاتِ لـلـهِ وحدَهُ

تقديمُ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، والمعنى: لا يعلمُ مقاديرَ ساعاتِهما كما هي إلّا اللّهُ تعالى، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، أي: لن تُحصوا تقديرَ الأوقاتِ، ولن تستطيعوا ضبطَ السّاعاتِ[3].

علَّة التَّعبيرِ بالتَّقديرِ:

علمُ اللهِ تعالى باللَّيلِ والنَّهارِ عِلْمًا تفصيليًّا دقيقًا

عُبِّرَ بالتَّقديرِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ لدلالتِهِ على الضَّبطِ والإحاطةِ الدَّقيقةِ، أي: يُقدِّرُ اللَّيلَ والنَّهارَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 281 - 282.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 395.

تقديرًا عظيمًا، هو في غايةِ التَّحرير، فيعلمُ كلَّ دقيقةٍ منهما على ما هي عليهِ؛ لأنَّهُ خالقُهما، ولا يوجَدُ شيءٌ منهما إلّا بهِ[1].

نكتةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يُقَدِّرُ﴾:

إحاطةُ علمِ اللهِ تعالى بكلِّ شيءٍ على الدَّوامِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على استمرارِ التَّقديرِ وتجدُّدِهِ وتكرارِه باستمرارِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وذلكَ أبلغُ في الدِّلالةِ على شمولِ علمِهِ تعالى وإحاطتِهِ بكلِّ شيءٍ على الدَّوامِ، وهذا التَّجدُّدُ يلحظُ أجزاءَ الزَّمانِ، وتجدُّدَ القيامِ فيها، في قوله تعالى: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾؛ وفي أوَّل السُّورة: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾:

كلُّ اللَّيالي والأيّامِ تحتَ سلطانِ علمِهِ تعالى

تعريفُ اللَّيلِ والنَّهارِ بـ(أل)، في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ للجنسِ المستغرقِ لأفرادِهِ؛ إذ لا يخفى عليهِ تعالى شيءٌ مِمّا يتعلَّقُ بكلِّ ليلٍ وكلِّ نهارٍ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِن إبرازِ كمالِ عظمتِه تعالى، وفي هذا تحقيقٌ وتوكيدٌ لمضمونِ الكلامِ.

سِرُّ ذِكْرِ النَّهارِ في سياقٍ ليليٍّ:

ارتباطُ مقاديرِ اللَّيلِ بمقاديرِ النَّهارِ

التَّعرُّضُ للنَّهارِ في قولِ الباري جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ على خلافِ الظَّاهرِ؛ لأنَّ الكلامَ في اللَّيلِ؛ لتتميمِ المقصودِ؛ لأنَّ معرفةَ مقاديرِ اللَّيلِ إنَّما هو بمعرفةِ مقاديرِ النَّهارِ، وبالعكسِ؛ وذلكَ بالنِّسبةِ إلى العبادِ[2]، ولأنَّ للنّهارِ داعيًا في سياقِ الآيةِ، مِن قولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾.

سِرُّ التَّرتيبِ في ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾:

مُناسبةُ اللَّيلِ للقيامِ داعيةٌ إلى تقديمِ الاهتِمامِ

قُدِّمَ اللَّيلُ على النَّهارِ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396.

﴿وَٱلنَّهَارَۚ﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ بالمُقدَّمِ؛ لأنَّ الكَلامَ فيهِ، ولأنَّهُ مقدَّمٌ في الوجودِ[1].

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾:

الأضـدادُ كلُّها خـاضـعـةٌ لسلطانِ اللهِ

في الجمعِ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ في قولِه تقدَّسَت آلاؤُهُ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾: رعايةٌ لُمحسِّنٍ معنويٍّ، هو الطِّباقُ، فيرى السّامعُ صورةَ شيئَينِ متقابلَينِ في الوجودِ باستمرارٍ، كلٌّ منهما تحتَ سلطانِ علمِ اللهِ تعالى وتقديرِه، وفي ذلكَ مِنَ تصويرِ العظمةِ والكبرياءِ ما لا تحيطُ بهِ العبارةُ.

علَّةُ فصلِ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾:

التَّخفيفُ عمَّنْ يواظبُ على قيامِ اللَّيلِ

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها إمّا خبرٌ ثانٍ عن ﴿إِنَّ﴾ بعدَ الخبرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾، وإمّا استئنافٌ بيانيٌّ لِما ينشأُ عن جملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾، مِنْ ترقُّبِ السّامعِ لمعرفةِ ما مُهِّدَ لهُ بتلكَ الجملةِ، فبعدَ أنْ شكرَهم على عملِهم خفَّفَ عنهم منهُ[2]، وهذا وجهٌ أقوى مِنَ الوجهِ السَّابقِ، ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ الفَصْلُ؛ لِما بينَ هذه الجملةِ وجملةِ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، مِن كمالِ الاتِّصالِ؛ لكونَ الثَّاني لازمًا للأوَّلِ، فهو مُؤكِّدٌ ومُحقِّقٌ له.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمُضي في ﴿عَلِمَ﴾ ودلالته:

عدمُ إحصائِهم غيرُ متعدِّدٍ

اختيرَ الماضي في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، بعدَ اختيارِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الماضيَ والمستقبلَ مُنسلِخانِ عن الماضويَّةِ والاستقباليَّةِ، وأيضًا القيامُ متعدِّدٌ، فيناسبُهُ المضارعُ الدّالُّ على الاستمرارِ، بخلافِ عدمِ الإحصاءِ فيُناسِبُهُ الماضي[3].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 396.

عدمُ إحصائِهم واقعٌ

معنى ﴿أَن﴾ في ﴿أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾:

﴿أَن﴾ في قولِه ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ مخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ[1]، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ، وخبرُهُ الجملةُ، وقد وقعَ الفصلُ بينَ: ﴿أَن﴾ وخبرِها بحرفِ النَّفي؛ لكونِ الخبرِ فعلًا غيرَ دعاءٍ، ولا جامدٍ، و﴿أَن﴾ وجملتُها سادَّةٌ مسدَّ مفعولَي: ﴿عَلِمَ﴾، والتَّقديرُ: علمَ عدمَ إحصائِكم إيّاهُ واقعًا[2]، والغرضُ منها التوكيدُ؛ لإثباتِ كمالِ علمِهِ بعدمِ إحصاءِ فضلِهِ عليهم، وتناهي قُدرتِهم على الإيفاءِ بذلك الفضلِ وتلك النِّعَم.

تعذُّرُ الإحصاءِ متعلِّقٌ بالصَّحابةِ رضي الله عنهم

تعيينُ المخاطَبِ في ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾:

الظّاهرُ أنَّ الخطابَ في قولِه: ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾، وما بعدَهُ موجَّهٌ إلى المسلمينَ الَّذينَ كانوا يقومونَ اللَّيلَ، إمّا على طريقةِ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ بعدَ قولِهِ: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾، وإمّا على طريقةِ العامِّ المرادِ بِهِ الخصوصُ، بقرينةِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يُظَنُّ تعذُّرُ الإحصاءِ عليهِ، وبقرينةِ قولِهِ: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ الآيةَ[3].

في تَعَدُّدِ مَرْجِعِ الضَّميرِ لفتٌ إلى معنَى جملةِ النَّفي، فتمكينٌ له في النَّفْسِ

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿تُحۡصُوهُ﴾:

الضَّميرُ المنصوبُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾: عائدٌ إلى مصدرٍ مقدَّرٍ، أي: علمَ أنَّهُ لا يُمكنُكم إحصاءُ مقدارِ كلِّ واحدٍ مِن أجزاءِ اللَّيلِ والنَّهارِ على الحقيقةِ، ولا يُمكنُكم أيضًا تحصيلُ تلكَ المقاديرِ على سبيلِ الطَّعنِ والاحتياطِ إلّا مع المشقَّةِ التّامَّةِ[4]، ويَحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى القيامِ المستفادِ مِن: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾[5]، أو إلى التَّقديرِ المستفادِ مِن: ﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾، أي: تُطيقوا التَّقديرَ

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 53.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.

علمًا وعملًا[1]، وهذا هو الظَّاهرُ، ومآلُ الأوجه الثّلاثةِ عند التَّأمُّل واحدٌ، ولا يبعُدُ أنْ يكون الضّمير راجعًا إلى الربِّ بتقدير مضافٍ محذوفٍ، تقديرُهُ (فضلُه ونِعَمه وكرمُه) التي أجلُّها الهدايةُ إلى قيامِ اللَّيل.

معنى الفاء ودلالة التَّعبير بها في ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

علمُ اللهِ بحالِ عـبـادِهِ سبَّبَ التَّخفيفَ عنهم

الفاءُ في قولِه ﷻ: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾: للتَّفريع، فتفيدُ أنَّهُ تسبَّبَ عن هذا العلم أنَّهُ ﷻ خفَّفَ عنهم[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ تعالى رحيمٌ بعبادِه، فلمّا علمَ وقوعَ المشقَّةِ على عبادِهِ؛ منَّ عليهم بالتَّخفيفِ.

دلالة المُضيِّ في ﴿فَتَابَ﴾:

توبةُ اللهِ تعالى عنهم متحقِّقةٌ

جيء بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ توبةَ اللّهِ تعالى عليهم أمرٌ قد مضَى، وتحقَّقَ، وذلكَ أعظمُ في الامتنانِ والتَّنصيصِ على رحمةِ الباري ﷻ، وحسَّنَ المضيَّ مُشاكلتُه نَظْمَ العِلْمِ المُفرَّعِ عنهُ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾.

علَّة التَّعبيرِ بالتَّوبةِ:

تركُ القيامِ المقدَّرِ مُقتضٍ للتّوبة؛ رحمةً منه تعالى ولطفًا

التَّوبةُ في قولِه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ عبارةٌ عن التَّرخيص في تركِ القيامِ المقدَّرِ، كقولِه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، والمعنى: أنَّهُ رفعَ التَّبِعةَ عنكم في تركِ هذا العملِ، كما رفعَ التَّبِعةَ عن التّائبِ[3]، فيكون الفعل (تابَ) مستعارًا لعدمِ المُؤاخَذةِ قبلَ حصولِ التَّقصيرِ؛ لأنَّ التَّقصيرَ متوقَّعٌ، فشابهَ الحاصلَ، فعُبِّرَ عن عدمِ التَّكليفِ بما يُتوقَّعُ التَّقصيرُ فيه، أي: بالفعلِ (تابَ) المفيدِ رفعَ المؤاخذةِ بالذَّنبِ بعدَ حصولِه، وكأنَّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 31، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257.

سمَّاهُ توبةً - وإنْ لم يكن ثَمَّ معصيةٌ - إشارةً إلى أنَّه مِن شأنِه لثقلِه أنْ يَجُرَّ إلى المعصيةِ[1].

معنى: (على)، ودلالتُها في ﴿عَلَيۡكُمۡۖ﴾:

الإبلاغُ في عَدَمِ مُؤاخَذةِ اللهِ لمَنْ يتركُ القيامَ

الفعلُ (تابَ) إذا أُريدَ بهِ قَبولُ توبةِ التّائبِ؛ عُدّيَ بالحرفِ (على)؛ لتضمينِه معنى (مِنْ)، وإذا كانَ بمعنى الرُّجوعِ عن الذّنبِ والنَّدمِ عليهِ؛ عُدّيَ بما يناسبُ[2]، وتعديتُهُ بـ(على) في قولِه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾؛ لأنَّ السّياقَ لعدمِ المؤاخذةِ، وفيه أيضًا إشعارٌ بإحاطةِ التَّوبةِ بكُلِّيَّاتِهم؛ إبلاغًا في تصويرِ رحمةِ اللّهِ بهم، وبتوفُّرِ التَّرخيصِ المُشبَّه بها لهُم بقوَّةٍ؛ وذلك من طريقِ أنَّ (على) للاستعلاءِ، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ، يفيدُ ما ذكرنا.

معنى (الفاءِ) ودلالتها في ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾:

العُسْرُ عند الله مجلَبَةٌ لليُسْرِ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾؛ للسَّببيَّةِ، وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا رفعَ الحرجَ عنهم؛ سبَّبَ عنهُ أمرَهم بما يُسهِّلُ عليهم[3]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على سَعَةِ رحمةِ اللّهِ تعالى؛ بجعلِ العُسْرِ سببًا لليُسْرِ، والشِّدَّةِ بابًا للفرجِ.

عِلّة التَّعبيرِ بالقراءةِ:

القراءةُ مجازٌ عن الصَّلاةِ أو كنايةٌ عنها

في تحديدِ المرادِ بالقراءةِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ قولانِ، **الأوَّلُ**: أنَّ المرادَ من هذهِ القراءةِ: الصَّلاةُ؛ لأنَّ القراءةَ أحدُ أجزاءِ الصَّلاةِ، فأُطلِقَ اسمُ الجزءِ على الكلِّ؛ مجازًا مرسلًا، علاقته الجزئيَّة، أي: فصلّوا ما تيسَّرَ عليكم، ثمَّ يتفرّعُ قولانِ: أحدهما: المرادُ صلاةُ المغربِ والعشاءِ، والآخَرُ: نسخُ وجوبِ ذلكَ التَّهجُّدِ، واكتُفيَ بما تيسَّرَ منهُ، ثمَّ نُسِخَ ذلكَ أيضًا

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 268، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 123، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 284.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 32.

بالصَّلواتِ الخمسِ، وإنَّما عُبِّرَ عن الصَّلاة بالقراءةِ؛ لأنَّها أعظمُ أركانها؛ إشارةً إلى أنَّ التَّهجُّدَ مُستَحَبٌّ، لا واجِبٌ[1]، ويَحتملُ أنْ يكونَ إطلاقُ القراءةِ على الصَّلاةِ من قبيلِ الكنايةِ، وفي الكنايةِ عن الصَّلاةِ بقراءة القرآنِ جمعٌ بينَ التَّرغيبِ في القيامِ والتَّرغيبِ في تلاوةِ القرآنِ فيهِ بطريقةِ الإيجازِ، والمرادُ القرآنُ الَّذي كانَ نزلَ قبلَ هذهِ الآيةِ المدنيَّةِ، وهو شيءٌ كثيرٌ من القرآنِ المكِّيِّ كلّه، وشيءٌ من المدنيِّ[2]. **والقولُ الثّاني**: المرادُ قراءةُ القرآنِ بعينِها، أي: اقرَؤوا في الصَّلاة وغيرِها في اللّيلِ والنّهارِ، والغرضُ دراسةُ القرآنِ؛ ليحصلَ الأمنُ مِنَ النِّسيانِ[3].

دلالةُ الأمرِ في ﴿فَٱقۡرَءُواْ﴾:

ضَرورةُ القراءة والصَّلاة، ففي ذلك كلُّ فلاحٍ لهُم

إنْ كانَ المرادُ بالقراءةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾: قراءةَ القرآنِ في الصَّلاةِ؛ فالأمرُ للوجوبِ على اختلافٍ في القدرِ الواجبِ قراءتُهُ، وللنَّدبِ في غيرِها[4]، وإنْ كانَ المرادُ بالقراءةِ الصَّلاةَ؛ فالمرادُ وجوبُ قيامِ مقدارٍ ما منَ اللَّيلِ، وهو نسخٌ لقولِهِ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، ثمَّ نُسِخَ وجوبُ القيامِ على الأمَّةِ مطلقًا بالصَّلواتِ الخمسِ[5]، وإبرازُ الوجوبِ بصيغةِ الأمرِ تنبيهٌ على عِظَمِ الإقبالِ على الصَّلاةِ أو القراءةِ، وأنَّ ذلك أمرٌ مرغوبٌ فيهِ بقوَّةٍ.

علَّة التَّعبيرِ بالموصولِ:

كلُّ ما تيسَّرَ قراءتُهُ فهو مطلوبٌ

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، وقولِهِ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾؛ للعمومِ، أي: فاقرؤوا كلَّ ما تيسَّرَ لكم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، وأبو السعود: 9/ 53.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283 - 284.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 694، والبقاعي، نظم الدرر: 8/ 216، وأبو السعود: 9/ 53.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 559، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 57 - 58.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 123 - 124.

مِنَ القرآنِ، والعمومُ يزدادُ بمدَّ الألفِ في ﴿مَا﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ القرآنَ مائدةُ اللّهِ، الَّتي يتنافَسُ فيها عبادُه من أهلِ الإيمانِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمُضيِ في ﴿تَيَسَّرَ﴾:

تيسيرُ اللهِ عليهم متحقِّقٌ؛ امتنانًا عظيمًا

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، وقولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾؛ للمبالغةِ في التَّخفيفِ ورفعِ الحرجِ؛ ببيانِ أنَّ ما يُطلَبُ منهم قراءتُهُ هو أمرٌ هيِّنٌ عليهم، قد تحقَّقَ كونُهُ يسيرًا، وفي ذلك حثٌّ على القراءةِ، وترغيبٌ فيها.

علَّةُ التَّعبيرِ بالتَّيسُّرِ:

المؤمنُ يأخذُ ما سَهُلَ وهانَ بترخيصِ اللهِ لهُ

عُبِّرَ بالتَّيسيرِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، وقولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾؛ لدلالتِه على غايةِ السُّهولةِ واللّينِ؛ لأنَّه يدلُّ على انفتاح شيءٍ وخِفَّتِه، أي: ما سَهُلَ، وهانَ إلى الغايةِ عليكم، ولانَ، وانقادَ لكم[1]، وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ القرآنَ وقراءتَه من شأنِه أنْ يشرحَ صدورَهُم، ويُحقِّقَ لهُم البهجة، شأنُ النَّفسِ معَ كلِّ شيءٍ تُعالجُه، وقد يسَّرَه اللّهُ لها؛ وإذا كانَ القرآنُ ميسورًا؛ كانت قراءته كذلك، ففي اليُسْرِ عظيمُ ترغيبٍ في تلك القراءةِ.

معنى حرف الجرِّ ودلالته:

البيانُ بعدَ الإبهامِ يُقرِّرُ المعانيَ في النُّفوسِ

﴿مِنَ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، وقولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾: بيانيَّةٌ، وفائدتُها إزالةُ ما في ﴿مَا﴾ مِنَ الإبهامِ، وفي البيانِ بعدَ الإبهامِ ما لا يخفَى مِن تشويقِ السّامعِ لوُرودِ البيانِ، فيتقرَّرُ في النَّفسِ عندَ وُرودِه عليها، ففيها إحسانٌ إلى المعنَى ولمُتلقِّيه جميعًا.

سِرُّ فصلِ ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾؛ لأنَّهُ كلامٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 32.

بيانُ حكمةِ التَّخفيفِ والتَّيسيرِ في قيامِ اللَّيلِ

ابتدائيٌّ مَسوقٌ؛ لبيانِ حكمةٍ أخرى مقتضيةٍ للتَّرخيصِ والتَّخفيفِ[1]، والحكمةُ الأولى للمقيمينَ والأصِحّاءِ، وهذهِ الحكمةُ للمرضى والمسافرينَ، أو الأولى تعمُّ الجميعَ، والحكمةُ الثّانيةُ مخصوصةٌ بهؤلاءِ[2]؛ لإفادةِ العنايةِ بشأنِهم؛ لِما هم عليهِ مِنَ الأعذارِ، ويَحتملُ أنْ يكونَ استئنافًا بيانيًّا على تقديرِ السُّؤالِ عن وجهِ النَّسخِ[3]، ويَحتملُ أنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ مِنْ جملةِ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾[4].

دلالة التَّعبيرِ بالماضي في ﴿عَلِمَ﴾:

لطفُ اللهِ تعالى بأصحابِ الأعذارِ سابقٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ علمَ اللهِ تعالى بأعذارِهم المذكورةِ قد مضَى، وتحقَّقَ، فخفَّفَ اللهُ تعالى عنهم، وفي ذلكَ مزيدُ بثٍّ للطُّمأنينةِ في نفوسِهم، وتنبيهٌ لهم على أنَّ لطفَ اللهِ تعالى بهم سابقٌ، وعلى كمالِ إحاطةِ علمِه سبحانه بأحوالِ عبادِه.

معنى ﴿أَن﴾ والسّينِ في ﴿أَن سَيَكُونُ﴾:

الأصنافُ المذكورةُ ستوجَدُ في المستقبلِ

﴿أَن﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾: مخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، أي: علمَ أنَّهُ سيكونُ، والسّينُ عِوَضٌ عن المحذوفِ[5]، وفائدتُها الدِّلالةُ على الاستقبالِ والتَّوكيدِ، أي: سيكونُ في المستقبلِ كذا وكذا دونَ شكٍّ[6].

دلالةُ المضارعة في ﴿سَيَكُونُ﴾:

تحقُّقُ ما أخبرَ اللهُ تعالى بوقوعِهِ مِنَ الأعذارِ دليلٌ على الألوهيَّةِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّ هذهِ الأعذارَ ستكونُ في المستقبلِ؛ بدلالةِ حرفِ الاستقبالِ، وفي ذلكَ إعجازٌ بالإخبارِ بالغيبِ؛ لأنَّ ذلكَ قد كانَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 257، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 53.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 397.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 644.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 284.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 391، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 560.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

فيما بعدُ، وأيضًا هذهِ السّورةُ مِن أوائلِ ما أُنزِلَ عليهِ ﷺ، ففي هذهِ بِشارةٌ بأنَّ أهلَ الإسلامِ يَكثُرونَ جدًّا[1].

معنى حرف الجرِّ ودلالته في ﴿مِنكُم﴾:

لطفُ اللهِ تعالى بهم بعدمِ تعميمِ الأعذارِ

(مِنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾؛ للتَّبعيضِ، وهو يناسبُ سياقَ تَعْدادِ الأعذارِ، والمعنى: سيكونُ بعضُهم مرضى، وآخَرونَ يَضْرِبونَ في الأرضِ ... إلخ، ففيهِ إيماءٌ إلى لطفِ اللهِ تعالى بعبادِه؛ إذ لم يجعلْ هذهِ الأعذارَ شاملةً لجميعِهم، ووراء ذلكَ في نورِ كون هذه السُّورةِ مِن أوَّلِ ما نزَل عليه ﷺ، معَ ضميمة جمع الكثرة: ﴿مَّرۡضَىٰ﴾، بشارةٌ بأنَّ أهل الإسلامِ يَكْثُرونَ جِدًّا[2].

نكتة التَّقديم في ﴿مِنكُم﴾:

الاعتناءُ بشأنِ المصلّين؛ لأنَّهم أعرفُ بربِّ العالَمين

قُدِّمَ قولُه: ﴿مِنكُم﴾ على قولِه: ﴿مَّرۡضَىٰ﴾، في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾؛ للعنايةِ بكونِ الأعذارِ واقعةً فيهم، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ عليهم، وإظهارِ رحمته بهم.

غرضُ تنكيرِ ﴿مَّرۡضَىٰ﴾:

مِن أهلِ الأعذارِ مَن هو مندرجٌ في جملةِ المرضى

تنكيرُ ﴿مَّرۡضَىٰ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾؛ للإفرادِ، أي: سيكونُ منكم أفرادٌ مِن جملةِ أفرادِ المرضى، وإبهامُهُم يتناغَى مع كثرتهم؛ لأنَّ ﴿مَّرۡضَىٰ﴾ جمعُ كثرةٍ، فمَن سيكون كذلك غير مُعيَّنٍ ولا مُحدَّدٍ، فالتَّنكيرُ تمكينٌ للكثرة في هذه الصِّيغَةِ.

سِرُّ الوصل ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ﴾:

الوصلُ بالواو في اللّفظ صورة الوصل في المعنى

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، على قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ بالواو؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، فكلاهما خبرٌ في اللّفظ والمعنى، والمُغايرةُ بينهما في النَّظْمِ، اسميَّةٌ وفعليَّةٌ تنبيهٌ على اختلافِ الحالَيْنِ، ويجوزُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 216.

أنْ يكونَ قولُه: (آخرون) معطوفًا على قولِه: ﴿مَّرۡضَىٰ﴾، أي: وعلم أنْ سيكونُ منكم آخرون يضربون ....، فهو من عطف مفردٍ على مفردٍ، والواوُ فيها تقتضي المغايرةَ، فتفيد اختلاف حال ما قبلها وحالِ ما بعدها، وهو كذلك في الحقيقة.

دلالة عطفِ ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

ذِكـرُ الـعُـذرِ الأخصِّ بعدَ ذكرِ العُذرِ الأعمِّ

لمّا ذكرَ ﷻ عُذرَ المريضِ، وبدأ بِه؛ لكونِه أعمَّ، ولا قدرةَ للمريضِ على دفعِه؛ أتبعَهُ السَّفرَ للتِّجارة في قولِه: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّهُ يليهِ في العموم، ولَمَّا كان في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ بشارةٌ بكثرة أهل الإسلام؛ بشَّرَ سبحانه في هذه الجملة باتِّساعِ الأرضِ لهُم[1].

علَّة التَّعبيرِ بالضَّربِ في الأرضِ:

طـالـبُ الـعـلـمِ والتِّجارةِ يسعَى في الأرضِ

حقيقةُ الضَّربِ: قرعُ جسمٍ بجسمٍ آخرَ، وسُمّيَ السَّيرُ في الأرضِ ضربًا في الأرضِ؛ لأنَّ السَّيرَ ضربٌ للأرضِ بالرِّجلين، لكنَّهُ تُنوسيَ منهُ معنى الضَّربِ، وأُريدَ المشيُ[2]، والمرادُ هنا: السَّفرُ للتِّجارة وطلبِ العلمِ ونحوِ ذلكَ، وإنّما عُبِّر بالضَّرْب؛ إشارةً إلى صفة هؤلاء الضَّاربينَ في الأرضِ من الجدِّ والاجتهادِ؛ لأنَّ الماشيَ بجِدٍّ واجتهادٍ يضربُ الأرضَ برجليهِ[3]، ففي النّظم استعارةٌ تصريحيَّةٌ بتشبيهِ السَّير بالضَّرب بجامعِ المشقَّة والتّعَب، والغرضُ بيانُ الصّعوبةِ والتعبِ الَّذي يُلازمُ الضّربَ على الشّيءِ مع ما فيهِ من جدٍّ واجتهادٍ للوصولِ إلى المقصود من السَّير.

دلالة المضارعة في ﴿يَضۡرِبُونَ﴾:

تطويفُ طلابِ العلمِ والتِّجارةِ في الآفاقِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّنبيهِ على استمرارِ الضَّربِ وتكرارِه وتجدُّدِه، وذلكَ شأنُ مَن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 217.

يطلبُ العلمَ أو التِّجارةَ ونحوَ ذلكَ، فهو يُطوِّفُ في البلادِ والآفاقِ؛ ابتغاءَ تحقيقِ طلبتِه، ففي المضارعةِ دليلٌ على جدِّيَّتِه واجتهادِه وسعْيِه الدَّؤوبِ.

معنى حرفِ الجرِّ ودلالته في ﴿يَضۡرِبُونَ﴾:

الأرضُ محلُّ السَّيرِ والسَّفرِ

الفعلُ ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ مُضمَّنٌ معنى: (يسيرونَ)، أو (يسافرونَ)؛ ولذلكَ عُدّيَ بالحرفِ ﴿فِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، و﴿فِي﴾ معناها الظَّرفيّة، وهي هنا حقيقيَّةٌ، فيكون في الحرفِ تنبيهٌ على أنَّ الأرضَ هي محلُّ سَيْرِهم وسفرِهم، وأرضُ اللّهِ واسعةٌ، فيتّبَع ذلكَ مِن المعنَى سعةُ ضربهم في تلك الأرضِ، فكان الحرفُ: ﴿فِي﴾ يُنتِج دلالةَ المضارعةِ في: ﴿يَضۡرِبُونَ﴾، فيكون مؤكِّدًا لها، ويُمهِّدُ لنظيرتها في الفعل: ﴿يَبۡتَغُونَ﴾، بقي أنَّ الحرف ﴿فِي﴾ يشيرُ إلى أنَّ مِن شدَّةِ سَيرهم على الأرض كأنَّهم يَسيرونَ فيها، ويحتملُ أنْ يكونَ الحرفُ ﴿فِي﴾ مُستعارًا؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ بجامِعِ أنَّ مَن كان على الشَّيءِ؛ فهو فيه على سبيلِ المُبالغة.

نكتةُ التَّعريفِ في ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

كثرةُ أهلِ الإسلامِ، واتِّساعُ الأرضِ لهم

تعريفُ الأرضِ بـ(أل) في قولِه ﷻ: ﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ إذ المرادُ الأرضُ المعهودةُ الَّتي نعيشُ عليها، ونسيرُ فيها، ونتقلَّبُ في طلبِ الحاجاتِ فيها، ووراء ذلك مِن المعنَى - مع ضميمة كون الَّذين يضربون في الأرض جماعةً - بشارةٌ بكثرةِ أهلِ الإسلامِ، واتِّساعِ الأرضِ لهم[2].

دلالة المضارعة في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾:

المؤمنونَ يطمعونَ في فضلِ اللهِ على الدَّوامِ

عُبِّرَ بالمضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ ابتغاءَ الفضلِ مستمرٌّ مُتكرِّر متجدِّدٌ، فهُم دائمًا يطمعونَ في

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 397، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 286.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

فضلِ اللّهِ وكرمِهِ، وهذا ناظِرٌ إلى الضَّرْب في الأرضِ المتجدِّدِ أيضًا: ﴿يَضْرِبُونَ﴾، فكأنَّ الضَّرْبَ في الأرض مُؤسَّسٌ على الابتغاءِ مِن فضل اللّه، ومُصاحبٌ وثمرةٌ له، يتجدَّدُ بتجدُّدِه؛ لأنَّ الابتغاءَ علَّته، بقي أنَّ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ في محلِّ النصبِ حالٌ من فاعل ﴿يَضْرِبُونَ﴾؛ للدِّلالة على أنَّهم في سَعيِهم وسَيرهم يَنشُدونَ فضلَ اللّهِ عليهم.

علَّة التَّعبيرِ بالابتغاءِ:

المؤمنونَ يطلبونَ فضلَ اللهِ طلبًا عظيمًا

عُبِّرَ بالابتغاءِ في قولِه ﷻ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالتِه على الطَّلبِ العظيم، ويدخلُ في ذلكَ طلبُ الرِّزقِ بالتِّجارة[1]، وطلبُ العلم، ونحوُ ذلكَ، وفضلُ اللّهِ تعالى واسعٌ، وخزائنُهُ ملأى، وهذه المادَّةُ مُؤسَّسةٌ على مادَّة الضَّرْبِ في قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ مَن يضربُ في الأرضِ، فيمشي بجدٍّ واجتهادٍ من شأنه أنْ يكونَ طالبًا لفضلِ اللّهِ تعالى بقوَّةِ رغبةٍ، وشِدَّةِ عزيمةٍ.

دلالة صيغةِ الافتعالِ ﴿يَبْتَغُونَ﴾:

الافتعالُ إبلاغٌ فوق الإبلاغِ الَّذي في معنَى اللّفظ

جيءَ بالافتعالِ في قولِ الحقِّ جلَّ من قائلٍ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ عظم الطَّلبِ، وحرصِهم عليه، والمعنى: يطلبونَ طلبًا شديدًا[2]، ولا غَرْوَ في ذلكَ، فسَعَةُ فضلِ اللّهِ تعالى تُغري المؤمنَ بالاستزادةِ منهُ على الدَّوامِ.

معنى حرف الجرِّ ودلالة التَّعبير به ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾:

ما عند الله لا ينفد، وهو فوقَ التَّصوُّرِ

كلمة ﴿مِن﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّبعيضِ، أي: يبتغونَ بعضَ ما أوجدَهُ اللّهُ تعالى لعبادِهِ؛ إذ فضلُ اللّهِ تعالى واسعٌ، وكلُّ مطالبِ الخلقِ - وإنْ كَثُرَتْ - لا تنقصُ مِنْ مُلكِهِ تعالى شيئًا، فإنَّ ما عندَ اللّه فوقَ أماني العبادِ كلِّ العبادِ بكثيرٍ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 286.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

علّة التَّعبيرِ بالفضلِ:

اللّـهُ يُعطي المؤمنينَ فوقَ ما يرجونَ

جيءَ بالفضلِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدِّلالةِ على سَعَةِ ما عندَ اللّهِ؛ بكونِهِ فوقَ أمانيهم[1]، فاللّهُ تعالى كريمٌ، يُعطي العبدَ مُناهُ، ويُعطيهِ فوقَ ما يرجوهُ، ويأمُلُهُ، فالتَّعبيرُ بالفضلِ يعودُ على الضَّرب في الأرض والابتغاءِ معنًى ومضارعةً بالتَّحقيقِ والتّوكيدِ، بقي أنَّ تسميةَ الرّبح فضلٌ مجازٌ مُرسَلٌ لعلاقةِ المُسببيَّة؛ فيدلُّ على أنَّ الضّرب في الأرض مجرَّدُ سببٍ ناقصٍ لا تامٍّ لتحصيلِ الرِّبح؛ إذ لولا الأمنُ وتيسيرُ الوُصول ومنحُ الطّاقة؛ لما تمكَّنَ الضاربُ في الأرضِ منَ الرِّبح المَقصود.

بلاغة الإضافةِ في ﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

الفضلُ بخلقِ اللهِ وإنعامِهِ

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ لاميَّةٌ، أي: مِنْ فضلٍ للّهِ؛ وذلكَ باعتبارِ أنَّ اللّهَ تعالى موجدُ هذا الفضلِ وواهبُهُ، ولَمَّا كانَ ذلك مِمَّا لا جدالَ فيه عندَ العقلاءِ المُنْصِفينَ، وكان أهلُ الكفرِ يُقِرُّون بخلْقِ اللّه السّماوات والأرض؛ لم يحتجِ القرآنُ إلى التَّصريحِ باللّام، فلَم يقل: (من فضل للّه)، بل نظَم المعنى على الإضافة، وفي الإضافةِ أيضًا إرشادٌ للطّامحين في تحصيلِ الرِّبح إلى الاعتقادِ بأنَّهُ فضلٌ وعطاءٌ إلهيٌّ، ولولاهُ؛ لما تمكَّنَ الضّاربُ في الأرض من تحصيلِ أيِّ ربحٍ بمُجرَّدِ سَعيِهِ وسَيرِهِ.

علَّةُ التَّعبيرِ باسم الجلالةِ في ﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

اللـهُ خـالـقُ ما يـحـتـاجُ إلـيـه عـبـادُهُ دونَ افـتـقـارٍ إلـيـه وإليهم

إيثارُ اسم الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ ذي العظمةِ والجلالِ، الَّذي أوجدَ ما يحتاجُ إليهِ عبادُهُ، ولا حاجةَ بهِ إليهِ بوجهٍ مِنَ الرِّبحِ في التِّجارةِ، أو تعلُّم العِلْم[2]، فاسمُ الجلالةِ يُضفي العظمةَ والكمالَ والجلال والجمال على الفضل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 33.

المذكورِ، فيكونُ ذلك علّةً في المعنى للضَّرب في الأرض والابتغاء مِن فضل اللّه، ويفيدُ أيضًا أنَّ مِثْلَه ﷻ غنيٌّ عن عباده وعمَّا يُعْطيه لهُم.

دلالة العطفِ في ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ﴾:

العنايةُ بذكرِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ

إذا كانَ المرادُ بالضَّربِ في الأرضِ السَّفرَ للتِّجارةِ، أو للغزوِ أو لطلبِ العلمِ، فعطفُ قولِهِ: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، على قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ تخصيصٌ بعدَ التَّعميم، والغرضُ منهُ العنايةُ بذكرِ الجهادِ في سبيلِ اللّهِ، الَّذي هو ذروةُ سنامِ الإسلامِ، وإنْ لم يكن الضَّربُ في الأرضِ شاملًا للغزوِ؛ فهو عطفُ صنفٍ آخرَ مختلفٍ عمّا سبقَ[1]، وهو مِن تمامِ ما قبلَه؛ لأنَّ الأوَّل هو حالُ السِّلْم، والثَّاني هو حالُ الحربِ، والإعذارُ في حالِ السِّلْمِ مُقدَّمٌ عليه في حال الحربِ؛ لأنَّ حال الحرب طارئةٌ.

سرُّ الموافقة والمغايرة في النَّظْمِ:

السَّفرُ لكسبِ الحلالِ كالجهادِ في سبيلِ اللهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ تنبيهٌ على التَّسويةِ بينَ المجاهدينَ والمسافرينَ لكسبِ الحلالِ؛ وذلكَ أنَّهُ أُعيدَ ذكرُ: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وقوبلَ قولُهُ: ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، بقولِه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، ثمَّ جُمِعا في قولِهِ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ لفظًا مِنْ حيثُ الضَّميرُ، وحكمًا في الأمرِ بالقراءةِ على سبيلِ التَّخفيفِ والتَّيسيرِ، وكانَ أصلُ الكلامِ: عَلِمَ أنْ سيكونُ منكم مرضى ومسافرونَ، فقسَّمَهم قسمينِ: المُبتغينَ مِنْ فضلِ اللّهِ، والمجاهدينَ[2]، ولعلَّ تقديمَ الّذين يضربونَ في الأرضِ على الَّذين يقاتلونَ أنَّ الأصلَ هو السِّلم، وأمّا الحربُ؛ فحالةٌ استثنائيَّةٌ لا تدومُ، بخلافِ التجاراتِ وطلبِ العُلومِ والرِّحلةِ في الأرض للتكسُّبِ والتعيُّشِ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 397.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 105 - 106.

دلالةُ المضارعة في ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

في المضارعة إخبارٌ بالغيب، وتبشيرٌ بالفتح الإسلاميّ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنَّ القتالَ لم يكنْ شُرِعَ بعدُ، وفي الإخبارِ بذلكَ دليلٌ مِن أكبرِ دلائلِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّهُ مِن بابِ الإخبارِ بالمغيَّباتِ المستقبلةِ، والمضارعُ مِن صيغِ الاستقبال، ولو قيل: (وآخرون أهل قتال في سبيل اللّه)؛ لفات ذلك[1]، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى تجدُّد القتال وتكرارِه واستمرارِه؛ كلَّما كان لذلك موجِبٌ شرعيٌّ، ففيه مدحهم، وإشارةٌ إلى أنَّ الإسلام سيدخلُ أماكنَ جديدةً في بلادِ الدُّنْيا، وتلك بشارةٌ عظيمةٌ، وقد كان ذلك.

دلالة صيغةِ المفاعلةِ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

القتالُ صراعٌ بينَ طرفيْنِ

عُبِّرَ بصيغةِ المفاعلةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لأنَّ القتالَ أمرٌ مشتركٌ بينَ طرفينِ، كلٌّ منهما يقاتلُ الآخرَ، ويحرصُ على غلَبتِه، ولأنَّ الأصلَ أنَّ أهلَ الإسلامِ والإيمان لا يَستأنفونَ القتال مع أعدائِهم، بل يكونونَ في حالِ الإعلامِ بالقِتال أوَّلًا، ثمَّ يُقاتِلونَ.

علَّة التَّعبير بالسَّبيل:

الطَّريقُ إلى اللهِ واضحٌ لا غبش فيه

أوثِرَ السَّبيلُ في قولِه ﷻ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لدلالةِ لفظِ السَّبيلِ على سهولةِ الطَّريقِ ويُسْرِهِ ووضوحِه، ولذلكَ كَثُرَتْ هذهِ الإضافةُ في القرآنِ الكريم، والغرضُ من التّعبير بذلك دَفْعُ توهُّم أنَّ القتال مِن أجلِ الإكراه على اعتقادِ دين اللّهِ؛ لأنَّه صعبٌ على النَّفْسِ، مُناقِضٌ للفطرة، أو مضادٌّ لها، ونحوُ ذلك، فدين الله المُعبَّرُ عنه بالسَّبيلِ يسيرٌ تعلُّمُه، سهلُ العملُ به، ممكنٌ اعتقادُه؛ لوضوحه ومناغاته الفِطْرة.

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 258.

سِرُّ الإظهار في موضع الإضمار ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

عظمةُ شأنِ الجهادِ والمجاهدين في سبيلِ اللهِ

إظهارُ اسم الجلالةِ وتكرارُهُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ هذا اللَّفظُ مِن صفاتِ العظمةِ والجلالِ للّهِ تعالى، الَّذي لا ينبغي أنْ يكونَ القتالُ إلّا لأجلِ رِضاهُ، ففي إظهاره تعظيمُ الجهادِ، وتفخيمُ شأنِ السَّبيلِ[1]، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى قوَّة حضورِ اللّه جلالًا وجمالًا وكمالًا في نفوسِ هؤلاء المقاتلين، ففيه تعليلٌ قويٌّ في المعنى لقتالهم.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱقْرَءُواْ﴾:

المشقَّةُ قد تجلبُ التَّيسيرَ

(الفاءُ) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾؛ للتَّفريعِ، فتفيدُ تسبُّبَ التَّرخيصِ عن الأعذارِ المذكورةِ[2]، ويَحتملُ أنْ تكونَ (الفاءُ) فصيحةً، وهي واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، والمعنى: إذا كانَ الأمرُ كما ذُكِرَ، وتعاضدتِ الدَّواعي إلى التَّرخيصِ؛ فاقرَؤوا ما تيسَّرَ منهُ مِن غيرِ تحمُّلِ المشاقِّ[3].

سِرُّ تكريرِ الأمرِ بالقراءةِ:

توكيدُ رحمةِ الله ولطفِهِ بعبادهِ بالتَّرخيصِ

تكريرُ الأمرِ بالقراءةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾؛ لتوكيدِ التَّرخيصِ والتَّيسيرِ[4]؛ لأنَّ عادتَهم شدَّةُ الاحتياطِ في الدِّينِ[5]، وفي التَّكريرِ أيضًا بيانٌ لمزيدِ عظمةِ القراءةِ[6].

نكتةُ العطفِ في ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الصَّلواتُ الخمسُ هي الَّتي يجبُ المحافظةُ عليها

عطفُ قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على ما قبلَهُ؛ للتَّذكيرِ بأنَّ الصَّلواتِ الواجبةَ هي الَّتي تحرصونَ على إقامتِها وعدمِ التَّفريطِ فيها، وللإيماءِ إلى أنَّ في الصَّلواتِ الخمسِ ما يرفعُ التَّبِعةَ عنِ المؤمنينَ، وأنَّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 34.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 34.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 53.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 695، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 386.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 560.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 34.

قيامَ اللَّيلِ نافلةٌ لهم، وفيهِ خيرٌ كثيرٌ[1]، ولمَّا كان قولُه تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ صالحًا لأنْ يُراد به الصّلاة؛ لكونه أعظمَ أركانها، وأنْ يُراد به نفسُه من غير صلاةٍ؛ زيادةً في التَّخفيفِ؛ قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ ترجيحًا لإرادة هذا الثَّاني، أو تنصيصًا على إرادة الأوَّل[2].

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَأَقِيمُواْ﴾:

الصَّــلاةُ مِـن فرائضِ الإسلامِ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ للوجوبِ، واستُشكِلَ بأنَّ السّورةَ من أوائلِ ما نزلَ بمكَّةَ، ولم تُفرَضِ الصَّلواتُ الخمسُ إلّا بعدَ الإسراءِ، والزَّكاةُ إنَّما فُرِضَتْ بالمدينةِ؟ وأُجيبَ بجعلِ هذهِ الآياتِ مدنيَّةً، أو أنَّ الزَّكاة فُرِضَتْ بمكَّةَ من غيرِ تعيينٍ للأنصباءِ، والَّذي فُرِضَ بالمدينةِ تعيينُ الأنصباءِ، فيمكنُ أنْ يرادَ بالزَّكاةِ الزَّكاةُ المفروضةُ في الجملةِ، فلا مانعَ مِنْ كونِ الآياتِ مكّيَّةً[3]، وإبرازُ الطَّلب على سبيل الوجوب بصيغة الأمر إشارةٌ إلى أنَّ تحقيق المأمورِ به مرغوبٌ فيهِ بقوَّةٍ.

علّةُ التَّعبيرِ بالإقامةِ:

صــلاةُ المـؤمـنِ تكونُ على أكملِ صورةٍ

عُبِّرَ بالإقامةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فلم يقل: (فصلّوا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المرادَ توفيةُ حدودِها وحقوقِها، والإتيانُ بجميعِ أركانِها، وشروطِها، ومقدِّماتِها، ومتمِّماتِها، وهيئاتِها، ومحسِّناتِها، ومكمِّلاتِها[4]، وليسَ المرادُ إيقاعَها فقط، فلو قيل: (وصلُّوا)؛ لَمَسَّ الصَّلاةَ من التَّخفيفِ والتَّرخيص الكائنِ في سياقِ الآيةِ ما يمَسُّها، فاحتُرِسَ من ذلك بذِكْرِ الإقامة.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

العهدُ الذِّهنيُّ قد يكون تقديريًّا

تعريفُ الصَّلاةِ بـ(أل) في قولِه ﷻ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ للعهدِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 287.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 126.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.

العلميِّ التّقديريِّ؛ إذ المرادُ بها الصَّلواتُ الخمسُ المفروضةُ[1]، فهي الَّتي يجبُ الإتيانُ بها على الوجهِ الكاملِ في المقامِ الأوَّلِ، ولم تكن الصّلاةُ قد فُرِضَت قبلَ نُزول هذه الآيةِ على أنَّها مكّيَّة، فقد نُزِّلت الصّلاةُ المَفروضة غير المعروفة لهم - لأنَّهم لم يُقيموها قبلُ - منزلةَ الصّلاة المعروفة لهُم، والَّتي صلُّوها في اللَّيلِ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾.

دلالة عطفِ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

إتباعُ فريضةِ الصَّلاةِ بقرينتِها

لمّا ذُكِرَتِ الصَّلاةُ الَّتي هي أحدُ عمودَيِ الإسلام، البدنيِّ والماليِّ؛ أُتبِعَتِ العمودَ الآخرَ، وهو الزَّكاةُ الَّتي هي الوصلةُ بينَ الخلائق، فقيلَ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[2]؛ ليكونَ المأمورُ بهما مِن أهل الكمالِ، فيكون إيمانه كاملًا تامًّا؛ لكون ذلك في سلكِ ما هو مِن شأنِ الكُمَّلِ، مِن القيام باللَّيلِ، الَّذي صُدِّرَت به السُّورةُ، وبه خُتِمت أيضًا.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

الزّكاةُ الواجبةُ شيءٌ لا بُدَّ منه في المجتمع المسلم

تعريفُ الزَّكاةِ بـ(أل) في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ - معَ أنَّ المرادَ بها الزَّكاةُ الواجبةُ شرعًا؛ تنزيلًا للزَّكاةِ غير المعروفةِ لهُم - لأنَّ مكَّة حين نزول هذه الآية على كونها مكِّيَّة لم يكن فيها زكاة مفروضةٌ - منزلةَ الزَّكاة المعرفةِ لهم قبلُ؛ تنبيهًا على ضرورة فشوِّها في أهل الإسلام والإيمان؛ لأنَّها مِن سُبُلِ الكمال؛ إذ بها صلاح المجتمع، فـ(أل) للعهد العلميِّ التّقديريّ؛ إنْ صحَّ التّعبير، ومَن فسَّرها بالزّكاة المفروضة؛ جعَل آخِرَ السُّورة مدنيًّا، وهي حقُّ اللّهِ في المالِ، وقيل: هي زكاة الفطر؛ إذ لم يكُن بمكَّةَ زكاةٌ[3]، فـ(أل) حينئذٍ للعهد العلميِّ، أي: الحقيقيِّ المقابل للتّقديريِّ.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 258، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 58.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 258، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 421.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾:

أبوابُ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ كثيرةٌ

لمّا ذكرَ ﷺ الزَّكاةَ الواجبةَ؛ أتبعَهُ سائرَ الإنفاقاتِ غيرِ الواجبةِ، فقالَ: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾[1]، وفي ذلكَ بيانُ سَعَةِ أبوابِ الإنفاقِ في سبيلِ اللّهِ، وأنَّها لا تقتصرُ على الواجبِ؛ وذلكَ تنبيهٌ على بابٍ مِن أبوابِ الكمالاتِ بفتح باب الكمالِ في الإنفاق، في مواجهة التّرخيص والتّخفيف؛ جريًا على سلك الكمالِ بالأمر بالقيام باللّيل في أوَّل السُّورة.

بلاغةُ المجاز ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾:

اللهُ يُثيبُ يومَ القيامةِ على التَّصدُّقِ

إقراضُ اللّهِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾: هو الصَّدَقاتُ غيرُ الواجبةِ؛ شُبِّهَ إعطاءُ الصَّدقةِ للفقيرِ بقرضٍ يقرضُهُ اللّهُ؛ لأنَّ اللّهَ وعدَ على الصَّدقةِ بالثَّوابِ الجزيل، فشُبِّهَ حالُ مُعطي الصَّدقةِ - مُستجيبًا رغبةَ اللّهِ فيه - بحالِ مَنْ أقرضَ مُستقرِضًا في أنَّهُ حقيقٌ بأنْ يُرْجَعَ إليهِ ما أقرضَهُ؛ وذلكَ في الثَّوابِ الَّذي يُعطاهُ يومَ الجزاءِ[2]، وذلك على سبيلِ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ، وإنَّما أضافَهُ اللّهُ تعالى إلى نفسِهِ؛ لئلّا يمنَّ على الفقيرِ فيما يتصدَّقُ به عليهِ، وهذا لأنَّ الفقيرَ معاونٌ لهُ في تلكَ القُربةِ، فلا يكونُ لهُ عليهِ مِنَّةٌ، بل المِنَّةُ للفقيرِ عليهِ[3]، وبلاغةُ الاستعارةِ كامنةٌ في الإبلاغ في طمأنة المُنْفِقِ؛ بأنَّ ما سيُنْفِقُه محفوظٌ له عندَ اللّه، مُبارَكٌ له فيه؛ ليَرُدَّه عليه مُضاعَفًا، والعبدُ أحوجُ ما يكونُ إلى إحسانِ اللّه مِن إنفاقه على غيره، فالتَّمثيلُ جارٍ على سِلْكِ المبالغة.

دلالةُ الأمرِ ﴿وَأَقۡرِضُواْ﴾:

الإبلاغُ في الحثِّ على وجوه الإنفاق

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالقرضِ هو صدقةُ التَّطوُّعِ، فالأمرُ للنَّدبِ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 287.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 560.

ويَحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بإقراضِ اللّه قرضًا حسنًا أداءَ الزَّكاةِ على أحسنِ وجهٍ، وهو إخراجُها مِنْ أطيبِ الأموالِ وأكثرِها نفعًا للفقراءِ، ومراعاة النّيَّة، وابتغاء وجه اللّه، والصَّرف إلى المُستحِقِّ، وعلى هذا فالأمرُ للوجوبِ، ويَحتملُ أنْ يكونَ المرادُ كلَّ شيءٍ يُفعَلُ مِنَ الخيرِ ممّا يتعلَّقُ بالنَّفسِ والمالِ[1]، فالأمرُ مشترَكٌ بين الوجوب والنَّدْب، وعلى كلٍّ في إبراز هذه الدّلالة في صيغة الأمر إبلاغٌ في طلبِ تحقيقِها، فهي شيءٌ مرغوبٌ تحقيقُه بقوَّةٍ؛ وذلك إحسانٌ إلى الفقير والغنيِّ على حدٍّ سواءٍ.

علّة التَّعبير باسم الجلالة:

مَـــن عـــرَف العظيمَ؛ أقبل عليه بكُلّيّته

أوثِرَ اسم الجلالةِ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾؛ لدلالتِه على ذي العظمةِ الَّذي لهُ جميعُ صفاتِ الكمالِ، والَّذي ينبغي بذلُ الغالي والنَّفيسِ في سبيلِهِ[2]، فيكون فيه كمالُ ترغيبٍ في الإقراضِ المذكورِ، وهو أيضًا قرينةٌ على أنَّ الإقراضَ ليس على ظاهره؛ لأنَّ اللّه الواحد الأحد الفرد الصّمد لا يفتقرُ إلى أحد، ويفتقر إليه كلُّ أحدٍ.

سِرُّ ذِكْرِ المفعولِ المطلق ﴿قَرۡضًا﴾:

الإقـــراض مِـن أبـواب الكمال، فلا بُدَّ أنْ يُحقَّق

جيءَ بالمفعولِ المطلقِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾؛ لتوكيدِ الأمرِ بالقرضِ؛ إبلاغًا في الإقبالِ على تحقيقِه؛ لأنَّ فيه كلَّ خيرٍ للمُنْفِق، فلا يُتهاوَن في الاستجابة فيه، وللتَّوصُّلِ بوصفِهِ بما وُصِفَ به.

علّة الوصفِ ﴿قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾:

الإرشـادُ إلى ما به يعلو الإنفاق ويسمو

وُصِفَ القرضُ بالحسَنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ ينبغي أنْ يكونَ ممّا قُصِدَ بِهِ وجهُ اللّهِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 695.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35.

تعالى، وأنْ يكونَ سالمًا مِنَ المنِّ والأذى، وأنْ يكونَ خالِصًا طَيِّبًا[1]، فهذا الوصفُ هو ذِرْوَةُ المعنَى في التَّركيبِ، وبغيابِه يفسدُ الإنفاقُ، ولا يكون مقبولًا عند اللّه تعالى.

سِرُّ الوصلِ في ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:

وصلُ الخاصِّ بالعامِّ إحسانٌ إلى المُتلقِّي؛ لإرشادِه إلى أبواب الكمال

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن، فالمعطوفُ عليه إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، نوعُه الأمر، والمعطوفُ خبرٌ في اللّفظِ، إنشاءٌ في المعنَى، ومعناه الأمرُ، وهو من قبيل عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّه أمرٌ عامٌّ بجميعِ شرائعِ الدِّين، تعريفًا بجامعيَّة هذا الدِّين؛ لأنَّ السُّورة مكِّيَّةٌ[2].

دلالة العطف ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:

ذِكْرُ العامِّ يُفْهِمُ إمكانَ استيفاء الخاصِّ

عطفَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾، على قوله تعالى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ﴾، والمعطوفُ تذييلٌ لِما سبقَ مِنَ الأوامرِ، فإنَّ قولَهُ: ﴿مِّنْ خَيۡرٖ﴾ يعمُّ جميعَ فعلِ الخيرِ[3]، ففيه تحقيقٌ وتوكيدٌ لها وبيانٌ؛ لأنَّ العبد بإمكانه أنْ يستوفيَها على جهة الكمالِ والتّمام، ويَشرع في غيرها مِن أنواع الطَّاعات والخيرات، ولا يبعُدُ أنْ تكون الجملةُ اعتراضًا بينَ قولِه: ﴿وَأَقۡرِضُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾، والغرضُ من الاعتراض بيانُ أنَّ أعمالَ الطّاعات يتحقَّقُ أثرُها في يومِ الجَزاءِ، وأنَّها أعمالٌ يعودُ نفعُها لكُم.

بلاغة الجمع بين الإيجاز والإطناب ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:

مَنْ عرفَ جزاءَ الخيرِ؛ سعَى لفعلِه

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: إيجازُ حذفٍ، والتَّقديرُ: وافعلوا الخيرَ، وما تُقدِّموا لأنفسِكم منهُ؛

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 58، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 35 - 36.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.

تجدوهُ عندَ اللّهِ، فاستُغنيَ عن المحذوفِ بذكرِ الجزاءِ على الخيرِ[1]، وهذا التّقديرُ يُقوّي كونَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ إنشاءً في المعنَى، نوعُه الأمرُ، ويجوزُ ألّا يكونَ في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ تقديمَ الخيرِ هو فِعْلُه، وعلى تقديرِه يكونُ في الكلامِ إطنابٌ؛ لأنَّ المعنى المُطْنَبَ محذوفٌ، والوجهُ أنَّ الإبلاغَ في الإرشادِ إلى الإقبالِ على اللّهِ ورسولِه يهدف إليه السِّياقُ، فالإطنابُ على وجه الإيجاز بالحذفِ بليغٌ.

بلاغة الشَّرْطِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾:

طمأنة النُّفوسِ بتحقُّقِ جزاءِ الخير لا محالة

(ما) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: شرطيَّةٌ[2]، وفائدتُها بيانُ ارتباطِ فعلِ الخيرِ بوجدانِ جزائِه عندَ اللّهِ، وأسلوبُ الشَّرْط فيه نوعُ حسم وفصل، فيكون فيه توكيدٌ وتحقيقٌ للمعنى، وهذا مع ضميمةِ العُموم في قولِه: ﴿تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، يُنبئُ بانتهاء الكلامِ، ففيه براعة المقطع، والإبهامُ في: (ما) يقوَى بمدِّ الألفِ فيها، وهذا الإبهامُ الوسيعُ ألصقُ بالعُمومِ المذكورِ، وأدْعَى للتَّنافُسِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالتَّقديمِ:

العملُ الصّالحُ عُدَّةُ المُقبِلِ على اللهِ

معنى تقديمِ الخيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: فعلُهُ في الحياةِ، شُبِّهَ فعلُ الخيرِ في مدَّةِ الحياةِ؛ لرجاءِ الانتفاعِ بثوابِهِ في الحياةِ الآخرةِ، بتقديمِ العازمِ على السَّفرِ أدواتِهِ وبعضَ أهلِهِ إلى المحلِّ الَّذي يرومُ الانتهاءُ إليه؛ ليجدَ ما ينتفعُ به وقتَ وصولِهِ[3]، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ في الفِعْلِ، ووجه فضل التَّقديم على الفِعْلِ هنا: المبالغة في الحثِّ على فعل الخيرِ، والإرشادُ إلى الإسراعِ في تحقيقِه، بإفهامِ أنَّ العبد في الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.

كالمسافرِ، الَّذي لا يطمئنُّ في سفره، ولا يركنُ إلى حاله فيه، بل يُسْرِع في تحقيقِ هدفه وطَلِبَتِه؛ حتّى يعودَ إلى وطنه، فهذه الاستعارةُ توحي بانتهاء الكلام أيضًا.

دلالة المضارعة ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ و﴿تَجِدُوهُ﴾:

المؤمنُ يُكثِرُ مِنَ العملِ الصّالحِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ للحثِّ على استمرارِ التَّقديم، وتكرارِه، وتجدُّدِه، والإكثارِ مِنَ العملِ الصّالحِ، ولأنَّ وجدانَ ثوابِ العملِ يكونُ يومَ القيامةِ؛ ففيه معنى الاستقبال، والمضارعةُ هي الألصقُ بالعُموم الَّذي في الكلام، وهو يقتضي التَّعدُّدَ والتَّنوُّعَ، فذلكَ يقتضي الكثرةَ الَّتي تستدعي التَّجدُّدَ والتَّكْرارَ.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لِأَنفُسِكُم﴾:

مَنْ عملَ صالحًا؛ فلنفسِهِ

(اللّامُ) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾؛ للمِلْكِ والاستحقاق، فتفيدُ أنَّ الإنسانَ الَّذي يعملُ صالحًا إنَّما يعملُهُ لنفسِهِ، فالنَّفعُ يعودُ عليهِ هو، لا على غيرِهِ، ففيها تمهيدٌ لإضافة الأنفُس إلى ضمير الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾، فيكونُ في الكلام إبلاغٌ في تحريك المُخاطَبينَ نحوَ تقديمِ الخير لأنفسهم.

نكتة تقديم ﴿لِأَنفُسِكُم﴾:

ثمرةُ العملِ تعودُ على صاحبِها خاصَّةً

قُدِّمَ قولُه: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ على قولِه: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: وما تُقدِّموا من خيرٍ إلّا لأنفسكم، وهو قصر صفة على موصوفٍ، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، فثمرةُ العملِ الصّالحِ تعودُ على صاحبِها خاصَّةً، وفي ذلكَ حثٌّ عليه[1].

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها في ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾:

المقدَّمُ هو الخيرُ العظيمُ

﴿مِّنۡ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾: بيانيَّةٌ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 36.

والغرضُ منها بيانُ إبهامِ (ما) الشَّرطيَّةِ[1]، وفي هذا تعظيمٌ وتفخيمٌ للمُبَيِّنِ، وتمكينٌ وتحقيقٌ للمُبيَّنِ في نفوس المُتلقِّينَ.

علَّة التَّعبيرِ بالخيرِ:

في التَّعبير بالخيريَّة إقناعٌ هادئٌ

عُبِّرَ بالخيرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾؛ لدلالتِهِ على ما وصفَهُ الدّينُ بالحُسْنِ، ووعدَ على فِعْلِهِ بالثَّوابِ، فهو ما يرغبُ فيه الكلُّ، كالعقل مَثَلًا، والعدلِ، والفضلِ، والشَّيْءِ النَّافعِ[2]، ففيه معنى العُموم، فهو ألصقُ بـ (ما)، وضِدُّه الشَّرُّ، ففيه حثٌّ على تقديمه للنَّفْسِ؛ لتُجْزَى عليهِ يومَ لا ينفعُها فيهِ إلّا الخيرُ، ويضرُّها فيه الشَّرُّ، وفيه أيضًا ترغيبٌ في الانقياد لدين الإسلام، وأنَّ كلَّ ما يتعلَّقُ به مِمَّا ورَد في السُّورةِ خصوصًا لا سيَّما الأعمال والطَّاعات خيرٌ، يُرَغَّبُ فيه، فالقرآنُ يقولُ لأهل الكفر والشِّرك خصوصًا: ما يحول بينكم وبينَ اتِّباعِ شرائعِ الإسلام، وتوجيهاته، فما دامَ الشَّرُّ منتفيًا عنها، وفيها الخيرُ؛ فما يضرُّكُم مِن اتّباعِها؟.

غرضُ تنكيرِ ﴿خَيۡرٖ﴾:

كلُّ فعلِ خيرٍ مطلوبٌ مِنَ المؤمنِ

تنكيرُ ﴿خَيۡرٖ﴾ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾؛ للعُموم، أي: وما تقدِّموا أيَّ خيرٍ كانَ مِمّا ذُكِرَ، ومِمَّا لم يُذكَرْ[3]، وفي هذا فتحُ أبوابِ الخير أمامَ العبادِ؛ ليجتهدوا فيها؛ علمًا وعملًا، ويتْبَعُ العُمومَ معنَى التّعظيمِ أيضًا؛ لأنَّ ضدَّه الشَّرُّ، فهو مذمومٌ، فيكونُ الخيرُ ممدوحًا، والتَّعْظيمُ للمدحِ.

بلاغةُ إيقاعِ الوجدانِ على المقدَّمِ نفسِهِ:

ثوابُ العملِ مُنزَّلٌ منزلةَ العملِ

معنى: ﴿تَجِدُوهُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: تجدوا جزاءَهُ وثوابَهُ، وهو الَّذي قصدَهُ فاعلُهُ، فكأنَّهُ وجدَ نفسَ الَّذي قدَّمَهُ، وهذا استعمالٌ كثيرٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 36، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 53.

أنْ يُعبَّرَ عن عِوَضِ الشَّيءِ وجزائِهِ باسم المُعوَّضِ عنهُ، والمُجازَى بهِ[1]، وهذا يعني أنَّ الجزاء مِن جنس العمل، ويُفْهِم معنًى طريفًا، وهو أنَّ العملَ حاضرٌ في الجزاءِ حينَ مشاهدةِ الجزاءِ، والاتّصافِ بِه، والتَّمتُّع بهِ، وهذا إبلاغٌ عظيمٌ في طلبِ أنْ يُقدِّم الإنسانُ لنفسه خيرًا، وأنْ يُحِبَّ هذا الخيرَ، ويَنْتقيَه، وأنَّ عليه أنْ يتصوَّر الجزاء في العمل الَّذي سيعملُه؛ فذلك جاعلُه مصطفيًا العمل الأجود، وقائمًا به على أتمِّ وجهٍ وأكملِه في حدودِ قدرته.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالعنديَّة في ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

ثـوابُ العظيمِ شأنُهُ عظيمٌ

كلمةُ ﴿عِندَ﴾ ظرفُ مكانٍ، وقد تكونُ ظرف زمانٍ، والدَّالُّ على ذلكَ ما تُضافُ إليهِ، وقد تكونُ هذه العنديَّة حقيقيَّةً، كما في قولك: (عندي رجلان حافظان القرآن)، و(سآتيك عندَ أذان العِشاء)، وقد تكونُ مجازيَّةً؛ إذا لم يصلح تفسيرُها بالمكان أو الزَّمان، كما في قوله تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: تجدوا جزاءَ ما تُقدِّمونه عند اللّه، واللّهُ مُجرَّدٌ عن الزّمان والمكانِ، فكلمةُ: ﴿عِندَ﴾ ليست للمكان، بل للمكانة؛ لتعظيم شأنِ ثوابِ العملِ الصّالحِ ببيانِ أنَّهُ مِنَ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهي دالَّةٌ على الاستعارة التّصريحيّة التّمثيليّة، ولا يوجد مِن اللَّفظ المُعبِّر عن المشبَّه به المستعار منه إلّا الجزءُ الَّذي هو: ﴿عِندَ﴾[2]، فقد صَوَّرَ القرآنُ مكانةَ العملِ الصَّالحِ وجزائِه عندَ اللّه المُجازي، بحفظِ هذا العملِ وجزائِه عندَ اللّهِ تعالى، قال البقاعيُّ: "﴿تَجِدُوهُ﴾ محفوظًا لكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾"[3].

علَّة التّعبير باسم الجلالة:

اللـهُ لا يُضيعُ عملَ عاملٍ

أوثِرَ اسم الجلالةِ في قولِ الباري جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾؛ لدلالتِهِ على صفاتِ العظمةِ والجلالِ، والمعنى: عندَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 317.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218.

المحيطِ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا[1]، وفي ذلكَ بثٌّ للطُّمأنينةِ في نفوسِ العاملينَ ببيانِ أنَّهُ لا يَضيعُ عندَهُ تعالى عملُ عاملٍ منهم، ففي اسم الجلالة المُهيمِنِ على جميع الأسماءِ والصّفات كلِّها توكيدٌ وتحقيقٌ للوجدان المذكور، فحثٌّ شديدٌ على تقديم الخير المذكور أيضًا.

فائدةُ الضَّميرِ ﴿هُوَ﴾:

خيريَّةُ الثَّوابِ وعظمتُهُ مؤكَّدةٌ

نُصِبَ كلٌّ مِن قولِه: ﴿خَيۡرٗا﴾، و﴿وَأَعۡظَمَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ على المفعولِ الثّاني لـ﴿تَجِدُوهُ﴾، و﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصلٍ[2]، وفائدتُهُ هنا مُجرَّدُ التَّوكيدِ لتحقيقِهِ[3].

فائدةُ اسمِ التَّفضيلِ ﴿خَيۡرٗا﴾:

الحسنةُ بعشرِ أمثالِها، والله يـضاعف لمَن يشاء

كلمةُ ﴿خَيۡرٗا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾: اسْمُ تفضيلٍ، أي: خيرًا ممّا تُقدِّمونَهُ؛ إذ ليسَ المرادُ أنَّكم تجدونَهُ مِنْ جنسِ الخيرِ، بل المرادُ مضاعفةُ الجزاءِ[4]، فصيغةُ التَّفضيلِ على ظاهرِها، وفي ذلكَ كلُّ ترغيبٍ في أنْ يُقدِّمَ الإنسانُ لنفسه خيرًا.

دلالة عطفِ ﴿وَأَعۡظَمَ﴾:

ثوابُ اللهِ أكبرُ مِن عملِ العبدِ

عطفَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾ على ما قبلَهُ: ﴿خَيۡرٗا﴾؛ لزيادةِ تعظيمِ الثَّوابِ؛ ببيانِ أنَّهُ خيرٌ وأعظمُ مِمّا قدَّموهُ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الجزاءَ على تقديمِ الخيرِ يتعدَّى الدَّارَ الدُّنيا إلى الدَّارِ الآخرةِ، وأنَّ ما في الآخرة مِن جزاءٍ هو أعظمُ مِن جزاءِ الدُّنيا[5].

بلاغةُ الحذف في ﴿خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾:

لا يستوي عملُ العبدِ وجزاءُ الرَّبِّ

في قولِهِ تعالى: ﴿خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾: إيجازٌ بحذفِ المُفضَّلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 36.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 59.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 288 - 289.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 289.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 218، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 289.

عليهِ؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، أي: خيرًا وأعظمَ أجرًا مِنَ الخيرِ الَّذي قدَّمتموهُ، فكان العملُ سبيلًا للتَّعرُّضِ لفضلِ اللهِ وعطائِه وكرمِه، فليس يُكافئُ الجزاءَ، وإذا كان الجزاءُ بهذه الصِّفة العظيمة؛ كان مِن شأن العبد النَّاصحِ لنفسه أنْ يزيدَ مِن تقديم الخير لنفسه، وهو في الدَّار الدُّنيا.

دلالة العطف في ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾:

المؤمنُ مُقصِّرٌ، وإنْ حرصَ على الطّاعةِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ﴾، فيكونُ للمعطوف حكمُ التَّذييلِ؛ إرشادًا لِتَدارُكِ ما عسى أنْ يَعرِضَ مِنَ التَّفريطِ في بعضِ ما أمرَهُ اللهُ بتقديمِهِ مِنْ خيرٍ، فإنَّ ذلكَ يشملُ الفرائضَ الَّتي يقتضي التَّفريطُ في بعضِها توبةً منهُ، وإنْ كانتِ الجملة اعتراضيَّةً؛ فإنَّ المعطوفَ عليه ﴿وَأَقۡرِضُواْ﴾؛ ليكونَ الاستغفار مُرتبطًا بأداء الصَّلاة والزَّكاة والإقراضِ حتى لا ينبهِرَ الإنسان بعملِه، بل يُكثِرُ من الاستغفار عمّا يصدُرُ عنهُ مِن تقصيرٍ.

سِرُّ الوصل في ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾:

الاستغفار مِن تمام كلِّ الأعمال الصَّالحةِ

يجوزُ أنْ تكونَ (الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ للعطفِ، فيكونُ ما بعدها معطوفًا على جملةِ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكماليْن؛ لأنَّ الثَّاني: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ﴾ إنشاءٌ صريحٌ لفظًا ومعنًى، نوعُه الأمرُ، والأوَّلُ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾: خبرٌ في اللَّفظ، إنشاءٌ في المعنى؛ إذ معناه: قدِّموا لأنفسكم خيرًا تجدوه عند الله هو خيرًا وأعظم أجرًا، ويجوزُ أنْ تكونَ (الواوُ) للاستئنافِ، وتكون الجملةُ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن التَّرخيصِ في تركِ بعضِ القيامِ؛ إرشادًا مِنَ اللهِ لِما يسدُّ مسدَّ قيام اللَّيلِ الَّذي يَعرِضُ تركُهُ، بأنْ يستغفرَ المسلمُ ربَّهُ؛ إذا انتبهَ مِنْ أجزاءِ اللَّيلِ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 289 - 290.

فكأنَّ سائلًا سألَ عمَّا يسُدَّ مسدَّه، فكانَ الجوابُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾، والظَّاهرُ غيابُ الواو؛ لكنّها وردت على خلاف الأصل؛ بيانًا لِعظَم كون استغفار اللّه سادًّا مَسَدَّ ما يَعْرِضُ تركُه من قيام اللّهِ؛ لِما في الواو مِن الاحتفالِ به، وإفادةِ أنَّه عملٌ مستقِلٌّ يُرجَى تحقيقُه مِن العبدِ، وأنَّه إنْ ورَد هنا مِن تمام قيام اللّيل؛ فإنّ ذلك لا يَعني تقليلًا ما مِن شأنِه، ففي الواو دفع توهُّم شيءٍ مِن ذلك، بما فيها مِن معنى المُغايرة الّذي لا يبرحُها، والّذي يترجّحُ لدَينا أنَّ (الواو) عاطفةٌ على الأوامرِ السّابقة، والجملةُ الشرطيَّة ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ﴾...-إلى آخره- اعتراضيّةٌ.

دلالةُ الأمرِ في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾:

إرشادُ المؤمنينَ لِما يسدُّ النَّقصَ في العملِ

الأمرُ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ للإرشادِ، والغرضُ منهُ حثُّ المؤمنينَ على الاستغفارِ لِما يَصدُرُ مِنَ التَّفريطِ والتَّقصيرِ، وفي إبرازِ النُّصْحِ به والإرشادِ إليهِ في صيغة الأمر تنبيهٌ لطيفٌ على ضرورة الإقبالِ على هذا الاستغفار، وأنَّه ينبغي أنْ يكون العبدُ راغبًا فيه بقوَّةٍ؛ لأنَّ فيه صلاحَه كلَّه.

دلالة صيغةِ الاستفعالِ في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ﴾:

المـؤمـنُ يطلـبُ سترَ اللهِ وعفوَهُ

صيغةُ الاستفعالِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للطَّلبِ، والمعنى: اطلُبوا، وأوجدوا سترَ اللّهِ تعالى ومغفرتَهُ لذنوبِكم وتقصيرِكم[1].

سِرُّ الإظهارِ في موضع الإضمارِ في ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾:

طـاعـةُ الـعـبـدِ قاصرةٌ عن أداءِ حقِّ العبادةِ للهِ

مقتضَى الظّاهرِ أن يقالَ: (واستغفروه)؛ لتقدُّمِ ذكرِ اسم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وإنّما عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لدلالةِ اسم الجلالة على صفاتِ العظمةِ

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 59، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.

والكبرياءِ الَّتي تستوجبُ الفناءَ في خدمتِهِ، فيكونُ في إظهارِه إيماءٌ إلى أنَّهم لا يحيطونَ بمعرفتِهِ تعالى، فكيفَ يُحيطون بأداءِ حقٍّ - لتقصيرهم عينًا وأثَرًا - بفعل ما يُرضيه، واجتنابِ ما يُسخطه[1]؟ وفيهِ أيضًا تنبيهٌ على أنَّهُ تعالى لا يُخيِّبُ رجاءَ المستغفرِ، فهو ربُّ العطاءِ والكرم.

عِلَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ﴾:

مَن عرَفَ اللهَ غفورًا رحيمًا لم يترك الاستغفار

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ للأمرِ بالاستغفارِ، أي: لأنَّ اللّهَ غفورٌ رحيمٌ، والمقصودُ مِنْ هذا التَّعليلِ التَّرغيبُ والتَّحريضُ على الاستغفارِ ببيانِ أنَّهُ مرجوُّ الإجابةِ[2]، وفي ذلك مزيدُ حثٍّ على أنْ يُقدِّمَ العبدُ لنفْسِه خيرًا؛ ليجدَه عندَ اللّه هو خيرًا وأعظمَ أجرًا.

سِرُّ توكيدِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ﴾:

اللهُ يغفرُ مع اتِّصافِهِ بالانتقامِ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ؛ للعنايةِ بمضمونِه؛ لفتًا إلى كمالِ عظمتِه، فإنَّ أحدًا ليس كاللّه غفورًا رحيمًا، ففي التَّوكيدِ حثٌّ على التَّعرُّفِ على مغفرةِ اللّه ورحمتِه، ولتقريبِ ما يستبعدُهُ مَن يستحضرُ عظمتَهُ سبحانَهُ وشدَّةَ انتقامِهِ، وقوَّةَ بطشِهِ[3].

سِرُّ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

فيضُ عطاءِ اللهِ عظيمٌ

أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ، وكُرِّرَ في قولِهِ جلَّ مِن قائلٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمُۢ﴾؛ إعلامًا بأنَّ صفاتِهِ سبحانَهُ لا تقتصرُ آثارُها على المستغفرينَ، ولا على مطلقِ السّائلينَ[4]، وهذا بيانٌ لعِظَمِ صفاتِه، وأنَّها صفاتُ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ الفريدةِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 290.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.

نكتةُ التَّرتيب في ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾:

المغفرةُ مِن آثارِ الرَّحمةِ

قُدِّمَ الغفورُ على الرَّحيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾؛ لأنَّ تخليةَ العبدِ مِنَ الذُّنوبِ مِن آثارِ رحمتِهِ تعالى، فالكلامُ مِن قبيلِ تقديمِ المسبَّبِ على السَّببِ، فشفعُ المغفرة بالرَّحمة فيه أنَّ إحسانَ الله إلى عباده لا يكون بالمغفرة فقط، بل يكون بها وبأشياء أخرى كثيرة، وهذا أبلغُ في تقرير عظيم امتنانِهِ وإحسانِهِ - سبحانه وتعالى - وهذا ناظرٌ إلى جواب الشَّرط: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا وَأَعۡظَمَ أَجۡرًاۚ﴾.

دلالةُ صيغتَي (فعولٍ) و(فعيلٍ) في ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾:

اللهُ بالغُ العفوِ والمغفرةِ والرَّحمةِ

جيءَ بصيغتَي: (فَعولٍ)، و(فَعيلٍ) في قولِهِ جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾؛ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بهاتينِ الصِّفتينِ؛ إبلاغًا في التَّرغيبِ في ديمومةِ العملِ الصَّالحِ، مِن القيامِ باللَّيلِ، وقراءةِ القرآنِ فيه وفي غيره، ومِن الإنفاقِ في الخيراتِ الواجباتِ وغيرِ الواجباتِ، وغيرِ ذلكَ مِن الأعمالِ الصّالحاتِ الأقوالِ والأفعالِ، وذلك مِن بعدِ التَّخفيفِ عليهم فيها، والمعنى: بالغُ السَّترِ لأعيانِ الذُّنوبِ وآثارِها؛ حتَّى لا يكون عليها عتابٌ، ولا عقابٌ، بالغُ الإكرامِ بعدَ السَّترِ؛ إفضالًا وإحسانًا، وتشريفًا وامتنانًا[1].

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾:

فضلُ اللهِ عامٌّ لعبادِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾: معناهُ: يغفرُ سبحانَهُ ذنبَ مَنِ استغفرَهُ، ويرحمُهُ، ففي حذفِ المعمولِ دلالةٌ على العموم[2]، وأنَّ ذلكَ لا يقتصرُ على المستغفرِ، فعموم الذَّنْبِ المغفورِ والعبدِ المرحوم غايةُ التَّرغيبِ في طاعته - سبحانه وتعالى - وذلك مسلكُ آخرِ آيةٍ في السُّورة؛ إذ التَّخفيفُ والرَّحمةُ البالِغَةُ، مِن بَعْدِ التَّكليفِ بالأعلى في صدرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 37.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 127.

السُّورةِ، والتَّرهيبِ العظيمِ باليوم الآخِر وعقابِ المُكذِّبينَ فيه في الآياتِ الَّتي جاءَت بعدَ المطلعِ.

وجهُ ردِّ آخرِ السّورةِ على أوّلِها:

العملُ الصّالحُ أوّلُ شأنِ المؤمنِ وآخِرُهُ

آخِرُ جزءٍ في آخِرِ آيةِ السُّورةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾، فأمَّا رجوعُ آخِرِ آيةٍ إلى أوَّلِ السُّورةِ؛ فظاهرٌ جِدًّا، فكلاهما حديثٌ عن القيامِ باللّيلِ، وأمَّا رجوعُ آخِرِ جزءٍ في آخِرِ آيةٍ إلى أوَّلِها؛ فلطيفٌ، فإنَّه يَعني أنَّ الوصولَ إلى رضا اللّه ورضوانه في الدُّنيا والآخرة بالطَّاعة يفتقر إلى اجتهادٍ عظيمٍ، ففيه عظيمُ ترغيبٍ في العملِ عمومًا، وأفضلُ الاستغفار ما كان في الثُّلُثِ الأخيرِ من اللّيل، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران: 17]، فكانَ آخِرُ جزءٍ في الآيةِ يرجعُ إلى أوَّلِ السُّورة رجوعَ العِلَّةِ إلى المعلولِ، والعامِّ على الخاصِّ؛ ليُؤكِّدَه، قال البقاعيُّ: "ولقد رجَعَ آخِرُ السّورةِ - بالتَّرغيبِ في العملِ وذكرِ جزائِهِ - على أوَّلِها؛ بالأمرِ بالقيامِ بينَ يديه، وبإشارة الاستغفار إلى عِظَمِ المقامِ؛ وإنْ جلَّ العملُ، ودام، وإنْ كانَ بالقيامِ في ظلامِ اللّيالي، والنَّاسُ نيامٌ"(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الطّائفةُ والشّيعةُ:

المؤمنونَ يُقبِلونَ على بعضِهم وعلى النَّبيِّ ﷺ

الشّيعةُ: الجماعةُ الَّتي تشايعُ غيرَها على ما يريدُ، أي: تطيعُهُ، وتنصرُهُ، كما في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ﴾ [القصص: 15]، وشيعةُ الرَّجلِ هم الجماعة الماثلة إليه، من محبَّتهم له، وأصلُها من الشِّياع، وهي الحطب الدِّقاق الَّتي تُجعل مع الجزل في النَّار؛ لتشتعل كأنّه يجعلُها تابعًا للحطب الجزل؛ لتُشرق، وأُطلِقَ على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 219.

الفِرْقةِ مِنَ النّاسِ على سبيلِ التَّوسُّعِ بعلاقةِ الإطلاقِ عن التَّقييدِ، والطّائفةُ: الجماعةُ مِنَ النّاسِ الَّتي مِن شأنها الطّوف في البلادِ للسّفر، ويجوز أنْ يكون أصلها الجماعةَ الَّتي تستوي بها حلقة يُطاف عليها، ثُمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّي كلّ جماعة طائفة(1)، فالطّائفةُ جماعة ذات قوّة وصلابة، فهي قادرة على فعل ما تريد على جهة الكمال والتّمام، واختيرَ لفظُ الطّائفةِ هنا؛ للدِّلالةِ على الجماعةِ الَّتي فيها أهليَّةُ التَّحلُّقِ؛ بإقبالِهم على النَّبيِّ ﷺ، وإقبالِ بعضِهم على بعضٍ(2)، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهُم، وثناءٍ عليهِم.

الإحصاءُ والعدُّ:

عــدمُ إطـاقـةِ المؤمنينَ المواظبةَ على قيامِ اللَّيلِ

الإحصاءُ أخصُّ مِنَ العدِّ، فهو عدُّ الشَّيءِ وتحصيلُهُ، والإحاطةُ بهِ، ومعرفةُ تفاصيلِهِ وجزئيّاتِه(3)، فهو ثمرةٌ للعَدِّ، والعَدُّ سبيلٌ إليه، وهو هنا مستعارٌ للإطاقةِ، شُبِّهتِ الأفعالُ الكثيرةُ مِن ركوعٍ وسجودٍ وقراءةٍ في قيامِ اللَّيلِ، بالأشياءِ المعدودةِ(4).

المرضُ والسُّقمُ:

مـرضُ المؤمنينَ عَرَضٌ يزولُ

المرضُ عامٌّ، يُطلَقُ على مرضِ الجسدِ، وعلى مرضِ النُّفوسِ والقلوبِ، والمرضُ مؤقَّتٌ يُرجَى شفاؤُهُ، والسُّقمُ: المرضُ المختصُّ بالبدنِ، ويُطلَقُ على المرضِ المزمنِ الَّذي يطولُ، أو الَّذي لا يُرجَى شفاؤُهُ(5)، فالمرضُ أعمُّ مِن السُّقمِ مِن جهةٍ، ومقابلٌ للسُّقمِ مِن جهةٍ أخرى، وعُبِّرَ بالمرضِ هنا؛ للدِّلالةِ على أنَّهُ لا يُشترطُ لتركِ القيامِ طولُ المرضِ، أو كونُهُ غيرَ مرجوِّ الشِّفاءِ.

(1) الأصفهاني، المفردات: (طوف)، والفروق اللغوية، العسكري: (طوف)، وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائري، ص: 307، 334، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/ 67.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 30.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 91 - 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 283.
(5) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 620.

المؤمن يُؤدّي الزَّكاة على وجه مقبول، ودون شعورٍ بالتَّفضُّل

الإعطاءُ والإيتاءُ:

الإيتاءُ أقوى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ كالقرآنِ، والحكمةِ، والمُلْكِ[1]، والإيتاءُ فيهِ معنى الوجوبِ والإلزامِ، وأمّا الإعطاءُ؛ ففيهِ معنى التَّفضُّلِ والإكرامِ[2]، والإيتاءُ فيه معنى السُّهولة، ويتْبعُها معنى الكثرة، وفي الإعطاء دليلُ التَّملُّكِ دون الإيتاء، يؤيّده قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، فإنّه كان له منعُ مَن شاء منه، كالمالِك للملك، وأمّا القرآنُ؛ فحيثُ إنّ أمّته مشاركون له في فوائدِه، ولم يكن له منعُهم منه؛ قال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]، وقد عُبِّرَ بالإيتاءِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]؛ لأنَّ المرادَ الأمرُ برعايةِ حقوقِ الزَّكاةِ، لا بأصلِ الفعلِ فقط؛ وذلكَ أنَّ الإيتاءَ وإنْ كانَ معناهُ لغةً الإعطاءَ إلّا أنَّهُ خُصَّ في القرآنِ بدفعِ الصَّدقةِ، فهو الإعطاءُ على وجهٍ مقبولٍ، وفيه أيضًا حثُّ الفقيرِ مِن أهلِ الإسلامِ والإيمانِ على توصيلِ الزَّكاةِ إلى المُحتاجينَ، بحَضِّ الأغنياءِ على ذلكَ؛ إذا لم يكن في مقدوره.

(1) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248.
(2) زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 248 - 249.

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

سُورَةُ المُدَّثِّر

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعد الآي:

ذَكَرَ ابنُ عطيَّة أنَّ هذه السّورة مكّيَّةٌ بالإجماع[1]، وكذلك قال القرطبيُّ[2]، والسُّيوطيُّ[3]، ونقل الآلوسيُّ عن ابن النقيب قولًا عن مقاتل أنَّ قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31] مدنيٌّ[4]، وجمهورُ المفسِّرين كما تقدَّم على مكّيَّتها كلِّها.

وأمّا عددُ آياتها فقال فيها الدّانيّ: "هي خَمْسونَ وخمْس آيات في المدنيِّ الأخير والمكّيِّ والشّاميِّ، وستٌّ في عدد الباقينَ"[5].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

جاء ترتيب سورة المدَّثِّر المصحفيُّ بين سورتي المزَّمِّل والقيامة

هذه السّورة هي الرّابعة والسَّبعون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّلُ عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتي المزَّمِّل والقيامة، وأمّا ترتيبُها النُّزوليُّ، فقد اتَّفقوا على تقدُّم نزولها وإن اختلفوا يسيرًا في ترتيبها بين السّوَر، فقال بعضُهم: هي الخامسة نزولًا بعد الفاتحة، والعلق، والقلم، والمزَّمِّل، وقبل المسد[6]. ورأى بعضُهم أنَّها الثّانية نزولًا؛ نزلت بعد العلق وقبلَ سورة القلم[7]. وقال بعضُهم: بل الرّابعةُ نُزولًا؛ نزلت بعد العلق والقلم والمزَّمِّل وقبل الفاتحة[8].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 392.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 59.
(3) السّيوطيّ، الإتقان: 1/ 42.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 128.
(5) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 258.
(6) دروزة، التّفسير الحديث: 1/ 440.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 291.
(8) عبد القادر ابن ملا حويش، بيان المعاني: 1/ 102.

فضائل السّورة:

هذه السّورة من سور المفصَّل التي فُضِّلَ بها النَّبيُّ ﷺ

هذه السّورة الكريمة من طِوال المفصَّل الذي قال فيه الحبيب ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئِينَ، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المَثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ المدَّثِّر اشتُهرت بهذا الاسم ولا يُعرَف لها اسمٌ غيره

وردت تسميةُ السّورة بـ ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ في صحيح البخاري[2]، وفي سنن التِّرمذيِّ[3]، وفي المصاحف المشرقيَّة والمغربيَّة وفي جميع التفاسير[4]، ولم يُعرَف أنَّها ذُكرت باسم غيره.

وقد ارتبطَ اسمُها بمِحوَرِها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنَّ مِحوَرَها يقوم على دعوة النَّبيِّ ﷺ أن يقوم لإنذار قومِه ودعوَتِهم إلى الإيمان بما جاءَهُم به، وقد قام البقاعيُّ بالرَّبط بين اسمِها ومقصودِها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودُها: الجدُّ والاجتهادُ في الإنذار، بدار البَوار، لأهلِ الاستِكبار. وإثباتُ البعث في أنفُسِ المكذِّبين الفُجّار، والإشارةُ بالبشارة لأهل الأذكار بحُكم العزيز الغفّار. واسمُها (المدَّثِّر) أدلُّ ما فيها على ذلك. وذلك واضحٌ لِمَن تأمَّلَ النِّداء، والمُنادى به والسَّبب"[5].

المِحور العامّ للسورة:

مهمَّة النَّبيِّ ﷺ التَّبليغُ ومواجهةُ تكاليف الدَّعوة

إذا كانت سورة المزَّمِّل قد قامت على تهيئة النَّبيِّ ﷺ وإعدادِهِ الإعدادَ النَّفسيَّ والرّوحيَّ والفكريَّ والجسديَّ لمهمَّته الصَّعبة، فأمَرَتْهُ بأن يُطيل التَّسبيح في النَّهار وبأن يذكرَ ربَّه ويتبتَّلَ إليه

(1) أخرجه أحمد في المسند: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76) (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415).

(2) البخاري، صحيح البخاري، باب: تفسير سورة المدثر: 4/ 1874.

(3) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب: ومِنْ سورَةِ المُدَّثِّر: 5/ 428.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 291.

(5) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 135.

تبتيلًا، وبأن يصبرَ على قومِه أو يَهجُرَهم هَجرًا جميلًا بحسب ما تُمليهِ عليه الظُّروف، فإنَّ هذه السّورة جاءت لِتأمُرَهُ - بعد أنْ أتمَّ التَّهيئة والاستعداد - أن يقومَ بتبليغ قومِه بدعوَته لهم، وإنذارِهم من أن يتخلَّفوا عن الاستجابة لداعي الحقّ.

لذا فقد اقتضاها هذا المحْورُ أن تذكر الأمور الآتية:

أوّلاً: حذَّرت السّورة من بدايتها من يوم الحساب، فعرضت أنموذجًا لأحد المكذِّبين بآيات اللّه تعالى، وبيَّنت عاقبتَهُ في الآخرة بعد أن جَحَد نِعَمَ اللّه تعالى عليه في الدُّنيا فكذَّبَ واستكبَر.

ثانيًا: عرضت السّورة بعضَ المَشاهد لَمصيرِ المؤمنين، والمكذِّبين يومَ القيامة.

ثالثًا: ختمت السّورة بالتحذير من الإعراض عن هذه الدَّعوة.

موضوعاتُ السّورة وخصائصها:

مَدارُ السّورة حول تكليف النَّبيِّ ﷺ بإنذار قومِه وتبليغِهم أركانَ دعوته

تَضَمَّنت السّورة إرشاداتٍ للنَّبيِّ ﷺ في بدء دعوتِه، فبدأت السّورة بتكليف النَّبيِّ ﷺ بالقيام بالدَّعوة إلى ربِّه، وإنذار الكفّار، والصَّبر على أذى الفُجّار.

وتناولت الموضوعات الآتية:

أوّلاً: وصفت يومَ القيامة الرَّهيبَ الشَّديدَ، لما فيه من الأهوال، ثمَّ انطلقت تهدِّدُ إنسانًا في أقوى وأشدِّ صوَر التَّهديد، وهو الوليدُ بنُ المغيرة الذي أقرَّ بأنَّ القرآنَ كلامُ اللّه تعالى، ثمَّ من أجل الزَّعامة والرّياسة زعَم أنَّهُ سِحرٌ، فاستحقَّ النّار.

ثانيًا: عددت السورة أوصاف النّار، وعددَ خزَنَتِها وحِكمةَ ذلك، وبُروزَها للنّاس، وزاد الأمر تهويلًا قسَم اللّه بالقمر واللَّيل والصُّبح على أنَّ جهنَّم إحدى الدَّواهي العِظام.

ثالثًا: أوضَحَت السّورةُ مسؤوليَّة كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ وتعلُّقَها

بأوزارِها، وبشارةَ المؤمنين بالنَّجاة، والكفّار بالعذاب، وتصوير ما يجري من حِوارٍ بينَ الفريقين.

رابعًا: خُتمت السّورة ببيانِ سبب إعراضِ المشركين عن العِظة والتَّذكُّر والإيمان[1].

الخصائص الموضوعيّة للسورة:

خطابُ النَّبيِّ ﷺ في سورة المدَّثِّر تهيئةٌ لهُ وإعدادٌ، ليستطيعَ مواصَلةَ المَسير في إنذارِ قومِهِ ودَعوَتِهِم

أوّلاً: تميَّزت السّورةُ الكريمةُ ببَراعة الاستهلال؛ إذ لم يُشارِكها في مطلعِها سوى سورة المزَّمِّل، فقد ناداه اللّٰه بوصف النُّبوَّة في الأحزاب والطَّلاق والتَّحريم، أمّا بوصف التَّزمُّل والتَّدثُّر فلم يَرِد إلّا في هاتيْن السّورتيْن المتجاوِرَتين، ولعلَّ السَّبب في ذلك هو ما اشتمَلت عليه السّورتان الكريمَتان من تهيئةٍ وإعدادٍ للنَّبيِّ ﷺ حتَّى يستطيعَ أن يواصِلَ المَسير في إنذارِ قومه ودعوَته لهم.

ثانيًا: تميَّزَت السّورة الكريمة بأنَّها في صدر آياتِها كانت تُخاطب النَّبيَّ ﷺ، كما فعلت سورة المزَّمِّل، فقد أمَرَتهُ بالإنذار والتَّكبير والتَّطهير وهَجرِ الرِّجز وتركِ المَنِّ والصَّبر.

الخصائص الأسلوبيّة للسورة:

أوّلاً: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها أكثرَت من ذِكر بعضِ الكلمات المرتبطة بمفاصل مِحوَر السّورة الكريمة؛ مثل كلمة (البَشَرِ)؛ ورَدَت أربع مرّات[2]، وكلمة: (قَدَّرَ) ثلاث مرّات في فواصل الآيات[3]، وقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تكرَّر مرَّتيْن[4]، وكذلك (سَقَرُ) ثلاث مرّات[5]، وكلمة التَّذكير ومشتقّاتها في خمس آيات[6].

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 29/ 215 - 216.
(2) الآيات: 25، 29، 31، 36.
(3) الآيات: 18، 19، 20.
(4) الآية: 31(2).
(5) الآيات: 26، 27، 42.
(6) الآيات: 31، 49، 54، 55، 56.

ثانيًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرةُ الطِّباق؛ إذ ورَدَت: بين الذين آمنوا والذين كفروا، وبين عسير ويسير، والضَّلال والهداية، والصُّبح واللَّيل، والإدبار والإسفار، والتَّقدُّم والتَّأخُّر، والأمر بالصَّبر والهجر.

ثالثًا: برزت في السّورة الكريمة ظاهرةُ الجِناس الاشتقاقيِّ مثل: ﴿نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾، ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾، ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾، ﴿نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾، ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾.

رابعًا: برزَت في السّورة الكريمة ظاهرةُ كثرةِ المركَّبات الوصفيَّة فيها مثل: ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾، ﴿مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾، ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾، ﴿سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾، ﴿حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾، ﴿صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾.

خامسًا: حوَت السّورةُ الكريمةُ معاجمَ لفظيَّةً لافتةً للنَّظر مثل معجم ألفاظ العمليّات العقليَّة: ﴿فَكَّرَ﴾، ﴿قَدَّرَ﴾، ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ﴾، ﴿نَظَرَ﴾، ﴿يَرۡتَابَ﴾، ﴿يَذۡكُرُونَ﴾.

سادسًا: برَزَت في السّورة الكريمة ظاهرةُ تكرارِ أفعالِ الأمرِ والنَّهي، لا سيَّما في حقِّ النَّبيِّ ﷺ مثل: ﴿قُمۡ﴾، ﴿فَأَنذِرۡ﴾، ﴿فَكَبِّرۡ﴾، ﴿فَطَهِّرۡ﴾، ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾، ﴿وَلَا تَمۡنُن﴾، ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾، ﴿ذَرۡنِي﴾.

سابعًا: تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ بأنَّها حَوَتۡ ألفاظًا لم تَأۡتِ في غَيرِها من السّوَر بصيَغِها الصَّرفيَّة هذه، مثل: ﴿تَمۡنُن﴾، ﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾، ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ﴾، ﴿صَعُودًا﴾، ﴿وَحِيدٗا﴾، ﴿وَمَهَّدتُّ﴾، ﴿تَمۡهِيدٗا﴾، ﴿وَبَسَرَ﴾، ﴿لَوَّاحَةٞ﴾، ﴿مُّنَشَّرَةٗ﴾، وغيرها.

ثامنًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنّها حوَتۡ ألفاظًا فريدةً في مادَّتها وبنائها الصَّرفيِّ، وهي: ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، ﴿نُقِرَ﴾، ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾، ﴿قَسۡوَرَةِۭ﴾.

تاسعًا: تميَّزَت السّورةُ الكريمةُ بوَفرةِ الأنساقِ التَّعبيريَّةِ التي لم تتكرَّر في غيرها حتَّى تكاد تكون كلُّ أنساقِها كذلك، ولكنَّنا نذكُرُ بعضَها على سبيل التَّمثيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾، ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾، ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾، ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾، ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾، ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾، وغيرها.

مناسبة السورة لما قبلها:

يقولُ الغرناطيُّ في وجهِ اعتلاقِ سورة المدَّثِّر بسورة المزَّمِّل: "مُلاءَمَتُها لسورةِ المزَّمِّل

قصدُ سورتَي المدَّثِّر والمزَّمِّل متَّحدٌ في المَطلع والمضمون

واضحةٌ، واستفتاحُ السّورتَينِ من نمَطٍ واحدٍ، وما ابتدأت به كلُّ واحدةٍ منهُما من جليلِ خِطابِهِ ﷺ وعَظيمِ تكريمِهِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ١﴾ [المزمل: 1] - ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، والأمرُ فيهما بما يَخصُّه ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣﴾ [المزمل: 2 - 3]، وفي الأخرى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

أُتبِعَت في الأولى بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ١٠﴾ [المزمل: 10]، وفي الثّانية بقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، وكلُّ ذلك قصدٌ واحد، وأُتبِعَ أمرُه بالصَّبر في المزَّمِّل بتهديد الكُفّار ووعيدِهِم ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل: 11]، وكذلك في الأخرى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، فالسّورتان وارِدَتان في معرضٍ واحدٍ وقصدٍ متَّحدٍ"(1).

وقد أوجزَ الزُّحيليُّ أوجُه اتِّصال السّورَتَين الكريمَتَين بثلاثةِ وجوهٍ؛ أوَّلُها أنَّهُما تتَّفقان في الافتتاح بنداء النَّبيِّ ﷺ، وثانيها أنَّ صَدْرَ كِلتَيهِما نازلٌ في قصَّةٍ واحدةٍ، وقد نزلت المدَّثِّر عقبَ المزَّمِّل. أمّا الوجهُ الثالث؛ فقد بُدِئَتْ سورةُ المزَّمِّل بالأمرِ بقيام اللَّيل، وهو إعدادٌ لنفسِهِ ليكونِ داعيَةً، وبُدِئت هذه السّورةُ بالأمرِ بإنذارِ غيرِهِ، وهو إفادةٌ لِسِواهُ في دعوَته(2).

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 350 - 351.
(2) الزّحيلي، التّفسير المنير: 29/ 251.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ
٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾

[المدثر: 1 - 7]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الرِّسالة العامَّة تقتضي بَذلَ الجُهدِ في الدَّعوةِ إلى الله

لمّا كان النَّبيُّ ﷺ في حالِ تدثُّرِهِ قد لزِمَ موضعًا واحدًا، فلزِمَ من ذلك إخفاءُ نفسه الشَّريفة؛ أُمِرَ ﷺ ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ما يُراد به من كونِه رسولًا عامًّا مقتضٍ للاجتهاد وتشمير الذَّيل[1].

ولمّا كان الإنذارُ يتضمَّن مواجهةَ النّاس بما يكرهون، وذلك عظيمٌ على الإنسان؛ أُمِرَ ﷺ بتعظيم مَن أرسلهُ اللّه ﷻ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾؛ فإنَّهُ إذا عُظِّمَ حقَّ تعظيمِه صَغُر كلُّ شيءٍ دونه، فهانَ عليه الدُّعاءُ، وكان مُعينًا له على القبول[2].

ولأنَّ في تنزيه العبد عن الأدناس تنزيهًا للمعبود بحقٍّ؛ فقد أمرَ اللّه نبيَّهُ بتطهير الظّاهر والباطن ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾؛ فأمرَهُ بإبعادِ نفسه عن كلِّ مقذورٍ[3].

ولمّا كان اللّه تعالى قد بدأ بأحدِ سببَي القبول ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾؛ أتبعَهُ الثّانيَ المُبعدَ عن قاصمةِ العمل من العُجْبِ والرّياء بقوله: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾[4].

ونظرًا للمشقَّةِ الكبيرةِ فيما أمرَ اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ من التكاليف؛ فقد أمرَهُ بالصَّبر على هذه المشقّات، التي هي من باب الصَّبر على الطّاعة[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 40.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 42.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 43.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 44.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 700، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 45.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾: (دثر) أصلٌ يدلُّ على تضاعُفِ شيءٍ، وتناضُدِ بعضِه على بعضٍ، ومن ذلك: الدَّثْرُ، وهو المال الكثير[1]، والدِّثارُ، وهو ما يُتدثَّرُ به، ويُقالُ: قد تدثَّرَ الرَّجلُ الفرسَ، أي: وثبَ عليهِ فركبَهُ، ورجلٌ دَثور: خاملٌ مستترٌ، وسيفٌ داثرٌ، وهو البعيدُ العهدِ بالصِّقالِ[2]. والمراد بالمدَّثِّر هنا: الذي تغشَّى بثيابه ونام[3].

2) ﴿فَأَنذِرۡ﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومنهُ: الإنذارُ، وهو الإبلاغُ، ولا يكادُ يكونُ إلّا في التَّخويفِ[4]، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ [غافر: 18]، أي: خوِّفْهم[5]، ويقالُ: تناذَروا، أي: خوَّفَ بعضُهم بعضًا، والنَّذيرُ: المُنذِرُ[6]، ويقعُ على كلِّ شيءٍ فيهِ إنذارٌ، إنسانًا كانَ أو غيرَهُ[7]. والمراد بالإنذار هنا: التَّخويف والتَّحذير من العذاب[8] إن لم يُؤمنوا باللّه تعالى ويوحِّدوه.

3) ﴿فَكَبِّرۡ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ[9]، ومِنْ ذلكَ: الكِبْرُ، وهو إعجابُ الإنسانِ بنفسِهِ، وذلكَ أنْ يَرَى نفسَهُ أكبرَ مِنْ غيرِهِ[10]، والكِبْرياء: التَّكبُّر والعظمة، وكِبْرُ كلِّ شيءٍ: عِظَمُهُ. وقوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾ [النور: 11]؛ يعني: عِظَمَ هذا القذف[11]، والتَّكبيرُ يقال لتعظيم اللّه تعالى بقولهم: اللّه أكبر، ولعبادته واستشعار تعظيمه[12]. والمراد هنا: تعظيم اللّه وتنزيهُهُ عمّا يقوله عَبَدةُ الأوثان، أو أن يقول: اللّه أكبر، أو التَّكبيرُ في الصَّلوات[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والأزهري، تهذيب اللغة: (دثر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (دثر).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 59، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 561، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 388.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (نذر).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نذر).
(7) الراغب، المفردات: (نذر).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 61.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (كبر).
(11) الخليل، العين: (كبر).
(12) الراغب، المفردات: (كبر).
(13) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 697.

4) ﴿وَثِيَابَكَ﴾: (ثوب) أصلٌ يدلُّ على العَوْد والرُّجوع[1]، ومن ذلك يقال: ثابَ فلانٌ إلى داره، أي: رجعَ، وقيل للمنزل: مَثابةٌ؛ لأنَّ أهله يتصرَّفون في أمورهم ثمَّ يثوبون - أي: يرجعون - إليه[2]، وسُمّيَ مكانُ المُستسقي على فم البئر مَثابةً، وسُمّيَ الثَّوبُ بذلك؛ لرجوع الغَزْل إلى الحالة الَّتي قُدِّرَتْ له[3]. والمرادُ بالثّياب هنا: العمل، أو القلب، أو النَّفس، أو الجسم، أو الأهل، أو الخُلُق، أو الدّين، أو الثّياب الملبوسات[4].

5) ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: (رجز) أصلٌ يدلُّ على اضطراب، ومن ذلك: الرَّجَزُ، وهو داءٌ يصيب الإبلَ في أعجازها، فإذا ثارت النّاقةُ ارتعشَ فخِذاها[5]، والرِّجازةُ: كِساءٌ يُجعل فيه أحجار، فيُعلَّق على أحد جانبَي الهودج إذا مالَ ليعتدل[6]، وذلك لِما يُتصوَّر فيه من حركتهِ واضطرابهِ، والرِّجز: العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: 34][7]، وسُمّيَ بذلكَ؛ لاضطرابِهم عند نزوله بهم، والرُّجز: الصنم. والمراد به هنا: الأوثان، أو الإثم، أو العذاب[8].

6) ﴿فَٱهْجُرْ﴾: (هجر) أصلٌ يدلُّ على قطيعةٍ وقطع[9]، ومِنْ ذلكَ: المهاجرةُ مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ، أي: تركُ الأولى للثّانيةِ. والتَّهاجرُ: التَّقاطعُ[10]، والهَجْرُ والهجرانُ: مفارقةُ الإنسانِ غيرَهُ، إمّا بالبدنِ، أو باللِّسانِ، أو بالقلبِ، قال تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34] كنايةٌ عن عدم قُربهنَّ، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: 30] فهذا هجرٌ بالقلب، أو بالقلب واللسان، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل: 10] يحتمل الثَّلاثةَ[11]. والمراد بالهَجر هنا: التَّرك.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ثوب).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ثوب).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 62.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجز).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رجز).
(7) الراغب، المفردات: (رجز).
(8) الجوهري، الصحاح: (رجز)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 66.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (هجر).
(11) الراغب، المفردات: (هجر).

7) ﴿وَلَا تَمۡنُن﴾: (منن) أصلٌ يدلُّ على اصطناعِ خيرٍ، ومِنْ ذلكَ: المِنَّةُ، وهي النِّعمةُ الثَّقيلةُ[1]، يقالُ: منَّ فلانٌ على فلانٍ، إذا أثقلَهُ بالنِّعمةِ، والمنُّ قد يكونُ بالفعلِ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: 164][2]، وقد يكونُ بالقولِ، كما في قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ [الحجرات: 17][3].

8) ﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾: (كثر) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ القِلَّة[4]، ومن ذلك يُقال: رجلٌ مُكثِرٌ، أي: كثيرُ المال، ورجلٌ مِكْثار وامرأةٌ مِكْثار إذا كانا كثيرَيِ الكلام، ورجلٌ مكثورٌ عليه إذا كثُر مَن يطلبُ إليه المعروفَ[5]، والمكاثرةُ والتَّكاثرُ: التَّسابقُ في كثرةِ المالِ والعزِّ، قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [التكاثر: 1][6]. ومعنى ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾: لا تمنُنْ على ربِّكَ بما تتحمَّلهُ من أثقال النُّبوَّة، كالذي يستكثر ما يتحمَّله بسبب الغير، أو لا تُعْطِ عطيَّةً تلتمس بها أفضلَ منها، أو لا تضعُف أن تستكثر من الخير، أو لا تُعظِّم عملكَ في عينك، أو لا تمنُنْ بالنُّبوَّة والقرآن على النّاس فتأخذ منهم أجرًا تستكثر به، أو لا تعمل طاعةً وتطلب ثوابها، ولكن اصبر حتَّى يكون اللّه هو الَّذي يُثيبك عليها، أو لا تفعل الخير لتُرائيَ به النّاسَ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحليةُ النَّبيِّ بالأخلاق الفاضلة في بدايةِ دعوته

يخاطبُ اللّه تعالى نبيَّهُ ﷺ، فيقول: يا أيُّها الملتفُّ بثيابه، انهَضْ وبادِرْ إلى التَّخويف من عذاب اللّه، وعظِّمْ ربَّك بالعبادة وقَوْلِ: (اللّه أكبر) والالتجاءِ إليه، ونظِّفْ ثيابك من الأقذار، أو طهِّرْ نفسَك ممّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (منن).
(2) الراغب، المفردات: (منن).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (منن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كثر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (كثر).
(6) الراغب، المفردات: (كثر).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 67 - 68.

كانوا عليه من الأخلاق الذَّميمة، واترُك عبادة الأوثان أو أسبابَ العذاب، ولا تُعْطِ عطيَّةً ترجو أعظمَ منها، أو لا تستكثر عملك على ربِّك، أو لا تضعُف أن تستكثر من الخير، أو لا تمنُنْ بالنُّبوَّة على النّاس، تأخذ عليها منهم أجرًا، واصبِرْ على ما تُلاقي من المَشاقِّ والآثام، وعلى رأس ذلك ما تُلاقيه في الدَّعوة إلى الله من المكروه(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ افتتاحِ السّورةِ بالنِّداءِ:

عظمةُ شأنِ الأوامرِ الَّتي صُدِّرَتْ بها السّورةُ

افتتاحُ السّورةِ بالنِّداءِ في قولِه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ مع أنَّ المخاطَبَ - وهو النَّبيُّ ﷺ - واحدٌ غيرُ بعيدٍ؛ للاهتمام بما سيُلقَى إليهِ مِنْ الكلامِ، وبيانِ أنَّهُ في غايةِ العظمة(2). وفي النِّداء أيضًا تحبُّبٌ له ﵇ وإشعارٌ بمنزلته عند ربِّه، وكلُّ ذلك بين يدَيْ تكليفهِ بالأوامرِ العظيمة، والمَطالب الجسيمة.

سرُّ النِّداءِ بوصفِ المُدَّثِّرِ مادَّةً وصيغة:

الرِّفقُ بالنَّبيِّ ﷺ في النِّداء من صور الآلاء

تعريف المدَّثِّر في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ للعهد؛ لأنَّ المراد به هو رسولُ الله ﷺ بالإجماع(3). ونداءُ النَّبيِّ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ نداءُ تلطُّفٍ ورِفقٍ وإشعارٍ بقُربه من الله ﷻ؛ لأنَّ النِّداء قد وقع باعتبارِ ما كانَ عليهِ مِنْ هيئةِ التَّدثُّرِ بالثِّياب(4)، والعربُ إذا قصدت الملاطفة بترك المعاتبة؛ نادَوا المنادَى باسم مشتقٍّ من حالته الَّتي هو عليها(5). وصيغةُ التَّفعُّلِ في ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ للتَّكلُّف، أو المراد الكمالُ المترتِّبُ على التَّكلُّف(6). ممّا يدلُّ على شدَّةُ تلبُّسِ النَّبيِّ ﷺ بالتَّدثُّر.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 7 - 16.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 40.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 696.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 61، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 324، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 294. 256

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 401.

(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 400.

دلالةُ ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

النُّبوَّةُ رداءٌ عظيم

الظّاهر أنَّ الوصفَ بالمدَّثِّر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ حقيقةٌ، وأنَّ المراد نداؤه ﷺ بالصِّفة الَّتي كان عليها، وهي التغطّي بثيابه(1).

ويحتمل أن يكون مجازًا على معنى المدَّثِّر بالنُّبوَّة، كما يقال: ارتدى بالمجد وتأزَّر به، أي: يا أيُّها اللّابسُ خِلْعةَ النُّبوَّة ودِثارَها(2)، ونوعُ هذا المجاز - على الأظهر - هو الاستعارة التَّمثيليَّة(3).

أو المعنى: يا أيُّها المتدثِّر بدثار الخُمول والاختفاء في جبل حِراء، قُمْ بهذا الأمر واخرُجْ من زاويةِ الخُمول، واشتغِلْ بإنذارِ الخَلق، والدَّعوةِ إلى معرفة الحقِّ.

أو المعنى: يا أيُّها المدَّثِّر بأثواب العلم العظيم، والخُلُقِ الكريم، والرَّحمة الكاملة؛ قُمْ فأنذِرْ(4).

دلالةُ الأمرِ في ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾:

الأمرُ بالقيام والإنذار في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ للوجوب؛ إذْ هو الأصلُ ولا صارفَ عنه، بل مقامُ التَّكليفِ بالرِّسالة يقتضيه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالقيامِ بينَ الحقيقةِ والمجازِ:

وجوبُ الإقبال على الإنذار بعزمٍ وتصميمٍ

يحتملُ أن يكونَ القيامُ في قوله ﷻ: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ على حقيقته، والمعنى: قُمْ من مضجعك(5).

ويحتملُ أن يكون مستعملًا في غير حقيقته؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن حين أوحيَ إليه بهذا نائمًا ولا مضطجعًا، ولا هو مأمورٌ بأن ينهضَ على قدمَيه، وإنَّما هو مستعملٌ في الأمر بالمبادرة والإقبال والتَّهمُّم

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 259، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 294.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 350، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 294.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 402.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 696 - 697.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 259، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 561.

بالإنذار مجازًا أو كنايةً[1]، والمعنى: قُمْ قيامَ عزم وتصميم[2]. وقد شاعَ هذا الاستعمالُ في فعل القيام، حتَّى صار معنى الشُّروع في العمل من معاني مادَّة القيام مساويًا للحقيقة، وجاء بهذا المعنى في كثيرٍ من كلامهم[3].

معنى الفاءِ في ﴿فَأَنذِرۡ﴾:

القِيامُ وسيلةٌ للإنذار

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ دخلت على معنى جوابِ الجزاء[4]، وفيها دلالةٌ على تسبُّبِ الإنذار عن القيام[5]، وتفرُّعِهِ عنه، وتنبيهٌ على أنَّ الإنذارَ هو المرادُ من الأمرِ بالقيام، والمعنى: يا أيُّها المدَّثِّر من الرُّعب لرؤية ملَك الوحي لا تخَفْ وأقبِلْ على الإنذار[6].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالإنذارِ:

المُعرِضُ عن الدَّعوة مُعرِّضٌ نفسَهُ للعقابِ

الإنذارُ: الإعلامُ بما ينبغي أنْ يُحذرَ منه[7]. والإخبارُ بما فيه توقُّعُ ضرٍّ وشرٍّ، وبما يُخاف ويُكرَه[8]. ومن هنا أوثرَ التَّعبيرُ به في قول الباري ﷻ: ﴿فَأَنذِرۡ﴾، ولم يُقل: (فأعلِمْ)؛ لدلالة الإنذار على الإعلام المقترن بالتَّخويف والتَّهديد، فيكون أنسبَ بمقام ابتداء النّاس بالرِّسالة، وحثِّهم على تصديق النَّبيِّ ﷺ؛ إذ فيه إيماءٌ إلى أنَّ المُعرِضَ عن الدَّعوة مُعرِّضٌ نفسَهُ للعقاب.

نكتةُ حذفِ مفعولِ الإنذارِ:

النَّبيُّ ﷺ داعٍ جميعَ النّاس إلى الله تعالى

قوله تعالى: ﴿فَأَنذِرۡ﴾ يحتمل أن يكون معناه: خوِّفْ أهلَ مكة وحذِّرْهم العذاب إن لم يُسلِموا، أو خوِّف النّاسَ، فيكون المفعولُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 294 - 295.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 259، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 561.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 294 - 295.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 62.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 41.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 295.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 9/ 67، و1/ 98.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 372، و8 - أ/ 78، و11/ 62.

مقدَّرًا. ويحتمل أن يكون الفعلُ قد نُزِّل منزلةَ اللّازم للتَّعميم، والمعنى: فافعَلِ الإنذارَ[1]. وأيًّا ما كان فمعلومٌ من الدّين بالضَّرورة أنَّ رسالة النَّبيِّ ﷺ عامَّة، ومن قدَّر: (خوِّفْ أهل مكة) فمُرادُهُ أنَّ هؤلاء يدخلون في الإنذار دخولًا أوَّليًّا، لا أنَّهم يُنذَرون دون غيرِهم.

سرُّ الاقتصارِ على الإنذار:

الإنذارُ والتَّبشيرُ قرينانِ وحالُ النّاس في ابتداء الرِّسالة هو الإنذارُ

اقتُصِر على الإنذار في قوله ﷻ: ﴿فَأَنذِرۡ﴾، ولم يُقَلْ: (وبشِّر)؛ لأنَّهُ كان في ابتداء النُّبوَّة، والإنذارُ هو الغالب؛ لأنَّ البشارة لمَن آمن، ولم يكن إذ ذاك مؤمنون. ويجوزُ أن يكون اكتفاءً؛ لأنَّ الإنذار يَلزَمُه التَّبشيرُ[2] بوصفِهما من خصائصِ الرِّسالة والدَّعوة[3].

سرُّ تقديمِ الأمرِ بالإنذارِ على غيرِه مِنَ الأوامر:

درءُ المفاسد مقدَّمٌ على جَلْبِ المَصالح

ابتُدئَ بالأمر بالإنذار في قوله ﷻ: ﴿فَأَنذِرۡ﴾، وقُدِّمَ على سائرِ الأوامر المذكورةِ في السّورة؛ لأنَّ الإنذارَ يجمَعُ معانيَ التَّحذير من فعلِ شيءٍ لا يليقُ وعواقبِه؛ فالإنذارُ حقيقٌ بالتَّقديم قبل الأمر بمَحامدِ الفِعال؛ لأنَّ التَّخلية مقدَّمةٌ على التَّحلية، ودرء المفاسد مقدَّمٌ على جلب المصالح، ولأنَّ غالبَ النّاس يومئذٍ مُحتاجٌ إلى الإنذار والتَّحذير[4].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾:

الجمعُ بين الإنذارِ وتعظيم الله تعالى طريقُ الفلاحِ والنَّجاح

الواو في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ لعطف هذه الجملةِ على جملة ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[5]، فتُفيدُ الجمعَ بينَ الإنذارِ وتعظيم الله تعالى، ومن لطائف ذلك الاقترانُ بين تعظيمه تعالى حقَّ التَّعظيم بحيث يَصغُرُ كلُّ شيء دونه، وبين تنزيهِه سبحانه عن الشِّرك أوَّلًا، وعن

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 259، والطيبي، فتوح الغيب: 16/ 111، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 54، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 403 - 404.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 270، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 130، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 350.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 306.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 295.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 295.

كلِّ ما لا يليقُ به من وصلٍ وفصلٍ، ومن سؤالِ غيرِه، والاشتغالِ بسواه[1]، وهذان من وسائل النَّجاح والفلاح في الدُّنيا والآخرة.

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ النَّبيِّ ﷺ:

الله تعالى هو المتولّي تربيةَ نبيِّه ﷺ

عُبِّرَ بعنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميره ﷺ في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾؛ لدلالته على تعظيم النَّبيِّ ﷺ بكونه عبدًا للّه تعالى، وأنَّ اللّه تعالى هو الَّذي ربّاه، أي: سيِّدَك ومالكَك ومصلحَ أمرِكَ فعظِّمْ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿وَرَبَّكَ﴾:

اللّه تعالى هو المستحقُّ للتَّعظيم

تقديمُ المفعول في قوله ﷻ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾؛ للاهتمام به[3]، أو لإفادة الاختصاص، وهو قصرُ إفرادٍ، أي: دون الأصنام[4]، والمعنى: واختصَّ ربَّك بالتَّكبير - وهو التَّعظيم - أي: لا يَكبُرْ في عينكَ غيرُهُ، وقُلْ عند ما يَعْروك من غيره: اللّه أكبر[5].

معنى الفاءِ في ﴿فَكَبِّرۡ﴾ وما بعدَهُ:

الإعلانُ بتعظيم اللّه وتوحيدِهِ في كلِّ زمان

الفاء في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَكَبِّرۡ﴾؛ للدَّلالة على شرطٍ محذوف يكون (كبِّر) جوابه، والتَّقدير: مهما يكُنْ شيءٍ فكبِّرْ ربَّك[6]، والمعنى: ألّا يفتُرَ عن الإعلانِ بتعظيم اللّه وتوحيده في كلِّ زمان وكلِّ حال، وهذا من الإيجاز[7]، أو للدَّلالة على أنَّ المقصود الأوَّلَ من الأمر بالقيام أن يُكبِّر ربَّه عن الشِّرك والتَّشبيه؛ فإنَّ أوَّلَ ما يجبُ معرفةُ الصّانع، وأوَّلَ ما يجبُ بعد العلم بوجودِهِ تنزيهُهُ، والقومُ كانوا مقرّينَ به[8].

ويحتملُ أن تكون الفاءُ زائدةً، كقولك: زيدًا فاضرِبْ، تريد: زيدًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 42.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 61، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 42.

(3) السمين، الدر المصون: 10/ 534.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 645، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 295.

(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 562.

(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 259، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 62.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 296.

(8) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 259.

اضرِبْ، ومعناهُ توكيدُ تعليقِ الفعلِ بما قبلَهُ من المعمول مبالغةً في السَّببيَّة والحصر، وبهذا التَّوجيه نفى ابنُ الشَّجريِّ أن تكون هذه الفاء رابطةً لجواب شرطٍ محذوف[1]. ومِثلُ ذلك يُقالُ في ﴿فَطَهِّرۡ﴾ و﴿فَٱهۡجُرۡ﴾ و﴿فَٱصۡبِرۡ﴾.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّكبير:

تنزيهُ الله تعالى عن النَّقائص ووصفُهُ بكلِّ عظيم

التَّكبيرُ في قوله تعالى: ﴿فَكَبِّرۡ﴾ مجازيٌّ بتشبيه الشَّيء المعظَّم بشيءٍ كبير في نوعهِ بجامع الفَضلِ على غيرهِ في صفاتِ مثله[2]، والمرادُ تعظيمُ اللّه ﷻ، ووصفُهُ بأنَّهُ أكبرُ من أن يكون له صاحبةٌ أو ولدٌ أو شريك، وذلك يستدعي خلعَ الأندادِ والأصنام، وإفرادَهُ بالعبادة والولاية[3]، وتنزيهَهُ عن كلِّ ما لا يليق به ﷻ[4].

ويشمل هذا المعنى أن يقول: (اللّه أكبر)؛ لأنَّهُ إذا قال هذه الكلمة أفادَ وصفَ اللّه بأنَّهُ أكبرُ من كلِّ كبير، أي: أجَلُّ من كلِّ جليل، ولذلك جُعلتْ هذه الكلمة افتتاحًا للصَّلاة، وفي ذِكر التَّكبير أيضًا إيماءٌ إلى شرعِ الصَّلاة الَّتي أوَّلُها التَّكبير، وبخاصَّةٍ اقترانُه بقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾؛ فإنَّهُ إيماءٌ إلى شرعِ الطَّهارة، فلعلَّ ذلك إعدادٌ لشرعِ الصَّلاة[5].

دلالةُ الأمرِ بالتَّكبيرِ مادَّةً وصيغة:

تعظيمُ الله تعالى واجب

الأمر في قول الباري ﷻ: ﴿فَكَبِّرۡ﴾ للوجوب، فيفيدُ أنَّ تكبير اللّه ﷻ - وهو تعظيمه - مفروضٌ على النَّبيِّ ﷺ. وفعلُ ﴿فَكَبِّرۡ﴾ يُفيدُ معنى نسبةِ مفعولهِ إلى أصلِ مادَّةِ اشتقاقه، وذلك من معاني صيغة (فعَّل)، أي: أخبِرْ عنه بخبرِ التَّعظيم[6].

(1) ابن الشجري، أمالي ابن الشجري: 2/ 326، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 62، وقباوة، المفصل في شرح الجلالين، ص: 2040.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 296.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 61 - 62.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 42.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 296.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 296.

سرُّ تقديمِ الأمرِ بالتَّكبيرِ على ما بعدَهُ:

تنزيهُ الله تعالى أعظمُ مقصود، وأسمَى مطلوب

ذِكْرُ جملة ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ بعد الأمر السّابق مقدَّمةً على سائر الجمل؛ فيه إشارةٌ إلى مزيد الاهتمام بأمر التَّكبير، وإيماءٌ إلى أنَّ المقصود الأوَّل من الأمر بالقيام أن يكبِّر ربَّهُ ﷻ وينزِّهه من الشِّرك، والكلام تعريضٌ بالمشركين. وفي ذكر هذه الجملة أيضًا مسارعةٌ لتشجيعِهِ ﷺ على الإنذار وعدم مبالاته بما سواه ﷻ، حيث تضمَّنت الإشارةَ إلى أنَّ نَواصيَ الخلائقِ بيده تعالى، وكلُّ ما سواهُ مقهورٌ تحت كبريائِهِ تعالى وعظمَتِه، فلا ينبغي أن يُرهَبَ إلّا منه، ولا يُرغَبَ إلّا فيه[1].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾:

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ لعطفِ هذه الجملة على ما قبلها، وذكْرِ أمرٍ جديدٍ من الأوامر الموجَّهة إليه ﷺ بعد الأمرِ بالقيام والإنذار والتَّكبير.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالثّيابِ والتَّطهيرِ:

وجوبُ تطهير الثّياب من الأنجاس والأقذار في الصَّلاة وخارجَها

يحتملُ أن يُحملَ لفظا (الثّياب) و(التَّطهير) في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ على حقيقتهما، ويكون المراد أنَّهُ ﷺ أُمِرَ بتطهير ثيابه من الأنجاس والأقذار، والمقصودُ منه الإعلامُ بأنَّ الصَّلاة لا تجوز إلّا في ثيابٍ طاهرةٍ من الأنجاس، وأنَّ على النَّبيِّ ﷺ أن يُخالفَ المشركينَ الَّذين ما كانوا يصونونَ ثيابَهم عن النَّجاسات.

وجوبُ تقصير الثّياب وترك الخُيَلاء والكِبْرِ

ويحتملُ أن يُتركَ لفظُ (الثّياب) على حقيقته، ويُحملَ لفظُ (التَّطهير) على مجازه، والمرادُ الأمرُ بتقصير الثّياب؛ لأنَّ العرب كانوا يُطوِّلون ثيابَهم للخُيَلاء والكِبْر، فكانت ثيابُهم تتنجَّس، فنُهيَ الرَّسول ﷺ عن هذا الخُلُقِ الشَّنيع. أو المراد: ينبغي أن تكون الثّياب

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 130.

الَّتي تلبسها مطهَّرةً عن أن تكون مغصوبةً أو محرَّمةً، بل ينبغي أن تكون مكتسَبةً من وجهٍ حلال.

ويحتملُ أن يكون الكلامُ كنايةً عن تجنُّبِ الأقذارِ كلِّها؛ لأنَّ مُن جنَّبَ ذلك ملبسَهُ أبعدَهُ عن نفسهِ من باب الأولى[1].

وجوبُ التَّنظيفِ وقتَ الاستنجاءِ

ويحتملُ أن يُترَكَ لفظ (التَّطهير) على حقيقته، ويُحمل لفظ (الثّياب) على مجازه، وذلك لأنَّ العرب ما كانوا يتنظَّفون وقت الاستنجاء، فأُمِرَ ﷺ بذلك التَّنظيف، ويُجعل لفظ الثّياب كنايةَ نسبةٍ حيثُ أُمِرَ بتطهيرِ الثَّوب وأرادَ تطهيرَ النَّفسِ التي بداخله.

وجوب تطهير النَّفس عن الصِّفات والأخلاق الذَّميمة

ويجوز أن يُحمَل لفظا (الثّياب)، و(التَّطهير) على المجاز، والمعنى: وقلبَك فطهِّرْ عن الصِّفات المذمومة الَّتي يتَّصفون بها، وخُلُقَكَ فحسِّنْ واصبِرْ، ولا تحملنَّك سفاهتُهم على ترك إنذارهم، أو على الانتقام منهم[2].

غرضُ الإضافةِ في ﴿وَثِيَابَكَ﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ﴾ لاميَّة، فتفيد أنَّ على النبيِّ ﷺ أن يعتنيَ بتطهير ثيابه الخاصَّة به، وفي ذلك تنبيهٌ على عظم المسؤوليَّة.

سرُّ تقديمِ ﴿وَثِيَابَكَ﴾:

تقديم ﴿وَثِيَابَكَ﴾ على ﴿فَطَهِّرْ﴾؛ للإيذان بالاختصاص؛ فالإنسانُ يطهِّر ثيابَهُ لا ثيابَ غيره، أو للاهتمام بالأمر بالتَّطهير[3].

دلالةُ الأمرِ بالتَّطهيرِ:

حرصُ الإسلام على تطهير الظّاهر والباطن

الأمرُ في قوله تقدَّست أسماؤه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ للوجوب، فيفيد أنَّ تطهير الثّياب - على الاختلاف في تفسير التَّطهير والثّياب -

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 21/ 43.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 645، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 392، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 698 - 699.

(3) السمين، الدر المصون: 10/ 534.

ممّا يلزَمُه ﷺ، وفي ذلك ما لا يخفى من التَّنبيه على عظمة شأن الطَّهارة والتَّزكية في الإسلام.

دلالةُ الواوِ في ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾:

تطهيرُ الاعتقاد مكمِّلٌ لتطهير النَّفس والثّياب

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ للعطف، فتفيد أنَّ الأمر بهجر الرُّجز من جملة الأوامر الموجَّهة إليه ﷺ في هذه السّورة. وفيه تعلُّقٌ بجملة تطهير الثّياب؛ من حيثُ كونُه أمرًا بالتَّطهُّر بتجنُّبِ كلِّ ما يندرج تحت دائرة الرُّجز؛ من الشِّرك وعبادة الأوثان.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾:

وجوب اجتناب الأوثان والعذاب والمعاصي

قرأ حفص وأبو جعفر ويعقوب: ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾ بضمِّ الرّاء. وقرأ الباقون بكسرها: ﴿وَٱلرِّجۡزَ﴾[1]. فيحتمل أنَّهما لغتان بمعنًى واحد[2].

ويحتمل أنَّ المضموم بمعنى الأوثان، ومعنى الكلام: والأوثان فاهجُرْ عبادتَها، وتجنَّبْ خدمتَها، وأنَّ المكسور بمعنى العذاب، أي: والعذابَ فاهجُرْ، أي: ما أوجبَ لك العذابَ من الأعمال فاهجُرْ[3]، فهو على حذفِ مضافٍ أو على إقامةِ المسبَّب مقامَ سبَبِهِ[4]، أو المكسور بمعنى النَّجاسة والمعصية[5].

نكتةُ تعريفِ الرُّجزِ:

تعريف الرُّجز في قول الحقِّ جلَّ ذكره: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ للجنسِ المستغرق لجميع أفراده؛ إذ المراد هجرُ جميع الأوثان أو المعاصي أو أفرادِ العذاب.

غرضُ تقديمِ ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾:

تقديم ﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾ على ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾ للاهتمام به في سياق

---

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 67.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 12.

(4) السمين، الدر المصون: 10/ 535.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 67.

الأمر بتركه(1)، إشعارًا بخطرِه، وتنبيهًا على عظيم ضررِه. أو للاختصاص(2)، أي: والرُّجزَ دون غيره فاهجُرْ.

دلالةُ الأمرِ بالهجرِ:

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾ للدَّوام على الهجر؛ لأنَّهُ ﷺ كان بريئًا من عبادة الأوثان والشِّرك بالله، وكلِّ ما يؤدّي إلى العذاب(3). منزَّهًا من كلِّ مستقذَر مذمومٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالهجرِ:

اجتنابُ كلِّ ما يتعلَّق بالرُّجز مطلوب

عُبِّرَ بالهَجر في قوله ﷻ: ﴿فَٱهۡجُرۡ﴾؛ لما فيه من المبالغة؛ لأنَّهُ تركُ المخالطة وعدمُ الاقتراب من الشَّيء، وهو هنا كنايةٌ عن ترك التَّلبُّس بالأحوال الخاصَّة بأنواع الرُّجز لكلِّ نوعٍ بما يُناسبه في عُرف النّاس(4)، فالمطلوب مجانبة الرُّجز ظاهرًا وباطنًا، جهارًا وعبادةً، ليحصلَ له ﷺ الثَّواب، كما كان يُجانبها سرًّا وعادة(5).

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَا تَمۡنُن﴾:

هجرُ الأوثان يستدعي تركَ التَّخلُّقِ بأخلاق عَبَدتِها

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ لعطفِ هذه الجملة على جملة الأمر بهَجر الرُّجز. ومناسبة هذا العطف: أنَّ المنَّ في العطيَّة كثيرٌ مِنْ خُلُقِ أهل الشِّرك، فلمّا أمرَهُ الله بهَجرِ الرُّجزِ نهاهُ عن أخلاق أهل الرُّجز(6).

غرضُ النَّهي في ﴿وَلَا تَمۡنُن﴾:

عدمُ المنِّ بالعطاء من أخلاق أهل المروءة

النَّهيُ في قوله تعالى شأنه: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ لتحريم التَّخلُّق بأخلاق أهل الرُّجز من المنِّ بالعطاء، وهو نهيٌ يقتضي الأمرَ بالصَّدقة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 298.

(2) السمين، الدر المصون: 10/ 534.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 645، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 562.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 298.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 44.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 298.

والإكثارَ منها بطريق الكناية، فكأنَّهُ قال: وتصدَّقْ وأكثِرْ من الصَّدقة ولا تمنُنْ، أي: لا تَعُدَّ ما أعطيتَهُ كثيرًا، فتُمسك عن الازدياد فيه، أو تتطرَّق إليك ندامةٌ على ما أعطيتَ[1]. والنَّهيُ للتَّحريم، وهو خاصٌّ برسول الله ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى اختار له أشرفَ الأخلاقِ وأحسنَ الآدابِ، أو النَّهيُ للتَّنزيه، وهو له ﷺ ولغيره[2]. والمراد: عدمُ الوقوع في الفعل لا الكفُّ عنه، و(لا) طلبيَّة للنَّهي، والنَّهيُ بها موجَّهٌ إلى العطاء مقيَّدًا بطلب الأجر لا إلى العطاء وحده[3].

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ المنِّ والاستكثار:

المنُّ والاستكثار منـهـيٌّ عنـهـما مطلقًا

حُذِفَ متعلِّقُ المنِّ والاستكثار في قول الباري ﷻ: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾؛ للدَّلالة على العموم، وبيانِ أنَّ المنَّ مذمومٌ أيًّا كان الممنونُ به، وعلى رأس ذلك المنُّ بالعطاء، وكذلك الاستكثارُ مذمومٌ أيًّا كانَ المُستكثَرُ منه إلّا الاستكثارَ من الخير[4].

دلالةُ صيغةِ الاستفعالِ في ﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾:

التَّـصـدُّق من شيَمِ النَّبيِّ ﷺ

السِّينُ والتّاء في قوله تعالى: ﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾ للوجدان[5]، أي: بعَدِّ ما أعطيتَهُ كثيرًا. وهذا من بديع التَّأكيد لحصول المأمور به، جُعلتِ الصَّدقة كالحاصلة؛ لأنَّها من خُلُقِه ﷺ؛ إذ كان أجودَ النّاس، وقد عُرِفَ بذلك من قبلِ رسالته؛ لأنَّ الله هيَّأهُ لمكارم الأخلاق، ففي هذه الآية إيماءٌ إلى التَّصدُّق[6].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾:

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ لعطف الأمر بالصَّبر على ما قبله، فتفيدُ أنَّ الصَّبر من جملة الأوامر الموجَّهة إلى النَّبيِّ ﷺ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 298.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 55.
(3) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين: ص 2040.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 298 - 299.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 133.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 298 - 299.

معنى اللّامِ في ﴿وَلِرَبِّكَ﴾:

الصَّبر لأجل الله تعالى عبادة عظيمة

اللّام في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ للعلَّة، أي: لوجه ربِّك فاصبر على أذى الكفّار، وعلى عبادة ربِّك، وعن كلِّ ما لا يليق. ويحتمل أن تكون اللّام لتضمين (اصبر) معنى: أذعِنْ لربِّك وسلِّم له أمرَك صابرًا[1].

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ النَّبيِّ ﷺ:

الصَّبر لأجل المُحسِن واجب

في التَّعبير عن الله تعالى بوصف الرُّبوبيَّة في جملة: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ هذا الصَّبرَ برٌّ بالمولى وطاعةٌ له[2]، ولأنَّ الرُّبوبيَّة بمنزلة العلَّة للأمر بالصَّبر، وكأنَّ المعنى: اصبِرْ للّه؛ لأنَّهُ المُحسِنُ إليك، المُربّي لك، المُدبِّر لجميع مصالحك[3].

غرضُ تقديمِ ﴿وَلِرَبِّكَ﴾:

الصَّبر محطُّ اهتمام الشّارع

تقديم ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ على ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ للاهتمام بالأمور الَّتي يصبر لأجلها، مع الرِّعاية على الفاصلة[4]، ولتقوية الدّاعي إلى الصَّبر[5]، أو للتَّخصيص[6] بأن يكون الصَّبر خالصًا لوجه الكريم ﷻ.

دلالةُ الأمرِ بالصَّبرِ:

الأمرُ بالصَّبر في قوله ﷻ: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ للوجوب؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنه، بل سياقُ الحثِّ على الإنذار ومكارمِ الأخلاق يقتضيه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالصَّبرِ:

عُبِّرَ بالصَّبر في قوله جلَّ ذكره: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾؛ لدلالته على ثبات النَّفس وتحمُّلِها المَشاقَّ والآلامَ ونحوَها[7]، فيكون مناسبًا لمقام الإنذار الَّذي هو مظنَّةٌ لأذى المشركين.

---

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 538.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 300.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 45.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 300.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 45.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 115.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 299.

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ الصَّبرِ:

الصَّبرُ عُدَّةٌ في كلِّ المَشاقِّ والآلام

يحتمل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ أن يكون قد حُذف فيه المتعلِّق، والتَّقدير: فاصبِرْ على أذى المشركين، أو على أداء الفرائض، أو على عطيَّتك من غير استكثارٍ، أو هو عامٌّ يتناول كلَّ مصبورٍ عليه ومصبورٍ عنه، والصَّبر على أذى الكفّار ممّا يتناوله الكلامُ أيضًا. ويحتملُ أن يكون الفعلُ قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازم، والمعنى: فاستعمِلِ الصَّبرَ[1] دون التفاتٍ إلى المَصبورِ عليه ما هو.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّخويفُ والإنذارُ:

النـبيُّ ﷺ مخوِّفٌ من عذابٍ شديدٍ

الإنذار: تخويفٌ مع إعلامِ موضعِ المَخافة، من قولك: نذرتُ بالشَّيء إذا علمتَهُ فاستعددتَ له، فإذا خوَّفَ الإنسانُ غيرَهُ، وأعلمَهُ حالَ ما يُخوِّفُهُ به؛ فقد أنذرَهُ، وإن لم يُعلِمْهُ ذلك قيل: خوَّفَهُ فقط، والانذارُ إحسانٌ من المُنذِرِ، وكلَّما كانت المَخافةُ أشدَّ كانت النِّعمة بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النبيُّ ﷺ أعظمَ النّاس بإنذاره لهم عقابَ اللّٰه تعالى.

وقد أوثر التَّعبير بالإنذار هنا؛ لأنَّهُ ﷺ مكلَّفٌ بتخويفهم من أمرٍ عظيم، وهو عقابُ اللّٰه تعالى إن لم يؤمنوا به ويوحِّدوه، وهو مبيِّنٌ لهم موضعَ المَخافة أكملَ البيانِ وأعظمَهُ.

الرُّجزُ والرِّجسُ:

يشترك الرّجز والرِّجس في كونهما مُستَقذَران

الرُّجز: هو العذاب أو عبادة الأوثان. والرِّجس: هو المُستقذَر[2]. وقد عُبِّرَ بالرُّجز هنا؛ لأنَّ المراد مجانبةُ الأوثان أو أسباب العذاب[3]، لا المستقذَراتُ؛ لأنَّ تلك يدلُّ عليها قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 646.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 548 - 549.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 699 - 700.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر: 8 - 10]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ذِكرُ وعيدِ الكافرين بعدَ إرشادِ النَّبيِّ ﷺ

لمّا تمَّم تعالى ما يتعلَّق بإرشاد قدوة الأنبياء محمد ﷺ؛ عدَلَ عنه إلى شرح وعيدِ الأشقياء(1)، ولمّا كان المقامُ للإنذار؛ حذَّرَ ﷻ من الفُتور عن الأوامر السّابقة بذِكْر وعيدِ الكافرين(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُقِرَ﴾ ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾: (نقر) أصلٌ يدلُّ على قرع شيءٍ بحيث يُفضي إلى النَّقْبِ(3)، ومن ذلك: المِنْقار، وهو ما يُنْقَرُ به كمِنقارِ الطّائر، والنَّقير: خشبٌ يُنقَرُ ويُنبَذُ فيه(4)، والنَّقْرُ: أن يضع لسانه فوق ثناياه ممّا يلي الحَنَكَ ثمَّ ينقرَ، والنَّقيرُ: الصَّوتُ، والمناقرة: المنازعة(5)، والنّاقور: الصّور(6). والنَّقر في النّاقور: النَّفخ في الصّور(7).

2) ﴿عَسِيرٌ﴾: (عسر) أصل يدلُّ على صعوبة وشدَّة(8)، ومن ذلك: العسير، وهو النّاقة الَّتي لم تُرَضْ، والعُسر: ضدُّ اليُسر(9)، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشرح: 5 - 6]، ويقال: أعسرَ الرَّجلُ: أضاقَ(10)، وتعاسرَ القومُ، أي: طلبوا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 702.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 45 - 46.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقر).
(4) الراغب، المفردات: (نقر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (نقر).
(6) الجوهري، الصحاح: (نقر).
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 393، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 264.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (عسر).
(9) الجوهري، الصحاح: (عسر).
(10) الرازي، مختار الصحاح: (عسر).

تعسيرَ الأمر، ويومٌ عسير: شديدٌ تتصعَّب فيه الأمور[1]. وهو المراد هنا[2].

3) ﴿يَسِيرٍ﴾: اليُسْرُ: ضدُّ العُسْرِ[3]، قالَ ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ويقالُ: تيسَّرَ كذا، واستيسرَ، أي: تسهَّلَ، قالَ تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196]، وقالَ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: 20]، أي: تسهَّلَ وتهيَّأ، واليسيرُ والميسورُ: السَّهْلُ، ويُطلَقُ اليسيرُ أيضًا على الشَّيءِ القليلِ[4]، ويقال: ياسرَهُ إذا ساهلَهُ[5]، و﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ معناه: غيرُ سهل[6].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبر اللّه تعالى عن وعيد للكافرين، فيقول: فإذا نُفخ في الصّور فذلك يومئذٍ يومٌ شديدٌ على مَن كفرَ باللّه وبأنبيائه ﷺ، غيرُ سهلٍ ولا هيِّن[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾:

يومُ القيامة يومُ وفاءِ الصّابرينَ وجزاءِ المُؤذينَ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ فصيحةٌ للاستئناف والسَّببيَّة[8]، كأنه قال: اصبرْ على أذاهُم، فبينَ أيديهم يومٌ عسيرٌ، يلقَون فيه عاقبةَ أذاهم، وتلقَى أنتَ عاقبة صبرِك عليه[9].

ويحتملُ أن تكون الفاء لتسبُّب هذا الوعيد عن الأمر بالإنذار في

(1) الراغب، المفردات: (عسر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 264.
(3) الرازي، مختار الصحاح: (يسر).
(4) الراغب، المفردات: (يسر)، والسّمين، عمدة الحفاظ: (يسر).
(5) الرازي، مختار الصحاح: (يسر).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 264.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 17 - 18، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 70.
(8) قباوة، المفصل في شرح الجلالين: ص 2040.
(9) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 260، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 563.

قوله: ﴿فَأَنذِرۡ﴾، أي: فأنذِر المُنذَرين، وأنذِرْهم وقتَ النَّقْرِ في النّاقور وما يقعُ يومئذٍ بالذين أُنذِروا فأعرَضوا عن التَّذكرة(1).

سرُّ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

النَّقْرُ في النّاقور واقعٌ لا محالة

عُبِّرَ بـ (إذا) دون (إنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في الأمر المقطوع بحصوله، و(إنْ) تُستعمَل في الأمر النّادر، والنَّقْرُ في النّاقور أمرٌ محقَّق لا بدَّ منه(2).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿نُقِرَ﴾ مادَّةً وصيغة:

النَّفخُ في الصّور مَهولٌ شديدُ الوَقع

النَّقْرُ في قول الباري ﷻ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أصلُه: التَّصويت، والقرع، ومنه مِنقارُ الطّائر؛ لأنَّهُ يَقرعُ به، ولهذه السَّببيَّة تُجوِّزَ به عنه، وشاعَ ذلك، وأُريدَ به النَّفخُ؛ لأنَّهُ نوعٌ منه، وهو المُرادُ بقوله تعالى هنا: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾(3)، وفي التَّعبير بالنَّقر أيضًا دلالةٌ على القَرع الشَّديد الَّذي يصدرُ عنه صوتٌ مُفزِع(4).

النَّقْرُ في النّاقور حقيقةٌ قطعيَّة

واختيرت صيغةُ الماضي ﴿نُقِرَ﴾؛ لأنَّ الماضيَ أنسَبُ بـ (إذا) المستعمَلة في الأمر المقطوعِ به(5)، وذلك أنَّ الماضيَ أقربُ إلى القطع بالنَّظر إلى لفظِه، وإنْ كان معناه على الاستقبال؛ لأنَّ (إذا) تَقلبُ الماضيَ إلى المستقبل.

النَّفخ في الصّور هيِّنٌ لدى المَلَكِ الموكَّل

وجيء بصيغة المبنيِّ للمفعول؛ للإشارة إلى هَوانِ النَّفخ في الصّور لدى المَلَكِ الموكَّلِ بذلك، وخِفَّتِه عليه(6)، وفي ذلك تقويةٌ لمقام التَّخويفِ والتَّهديد، وتحريكٌ لسلسلة الطّاعةِ والإنابة.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿فِي ٱلنَّاقُورِ﴾:

عظمةُ شأنِ الصّورِ المنفوخِ فيه

عُبِّرَ بحرف الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 46.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 272، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 134.
(4) قباوة، المفصل في شرح الجلالين: ص 2040.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 411.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 46.

﴿نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ النّاقور ظرفٌ للنَّفخ فيه، فسبحان مَن جعل هذه الأداة البسيطة سببًا للفزع العظيم وإحياء الموتى.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾:

الصّورُ المُعَدُّ للنَّفخ يومَ القيامة معهود

تعريف ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ في قوله جلَّ مِنْ قائل: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ للعهد؛ لأنَّ المراد به الصّورُ المعهودُ الَّذي وردَ على لسان الشّارع، وتكرَّرَ ذِكرُهُ في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة.

بلاغةُ صيغةِ (فاعول) في النّاقورِ:

جيءَ بصيغة المبالغة (فاعول) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾؛ إشارةً إلى زيادة العظَمة، حتَّى كأنَّه هو الفاعل على هيئةٍ هيَ في غاية الشِّدَّة والقوَّة[1].

بلاغةُ جناسِ الاشتقاقِ في ﴿نُقِرَ﴾، و﴿ٱلنَّاقُورِ﴾:

يُفيد جناسُ الاشتقاق في قوله جلَّ وتعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ توكيدَ المبالغة[2]؛ للإشارة إلى شدَّة الصَّوت وهَوْلِه[3].

معنى الفاءِ في ﴿فَذَٰلِكَ﴾:

الأهوالُ تعقُبُ النَّفخَ في الصّور

الفاء في قول الباري ﷻ: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ جوابيَّةٌ لتوكيد التَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة، رابطةٌ لجواب الشَّرط[4]، وفائدتُها التَّنبيه على قوَّة الارتباط بين عُسر اليوم ونَقْرِ النّاقور، وكأنَّ العُسرَ يعمُّ ذلك اليوم بمُجرَّد النَّفخ في الصّور.

غرضُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿فَذَٰلِكَ﴾:

يومُ النَّفخ في الصّور هائلٌ شديدُ الوقع

الإشارة في قوله جلَّ مِنْ قائل: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ إلى اليوم الَّذي يُنقَرُ فيه في النّاقور[5]، وما في اسم الإشارة من معنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 46.
(2) قباوة، المفصل في شرح الجلالين: ص 2040.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 46.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 563، وقباوة، المفصل في شرح الجلالين: ص 2041.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 703.

البُعد مع قُربِ العهد بالمُشار إليه؛ للإيذانِ ببُعدِ منزلتهِ في الهَوْلِ والفَظاعة[1]، وأنَّهُ قد بلغ في الشِّدَّة مبلغًا يُشار إليه إشارةَ ما هو أبعدُ بعيدٍ[2].

دلالةُ الحذفِ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

التنوين في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ عِوضٌ عن جملةٍ محذوفة تعودُ على جملة ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾، وهي جملة الشَّرط الَّتي أدَّتْ إلى العُسر والشِّدَّة، والتَّقدير: فذلك يومَ إذ نُقِرَ في النّاقور يومٌ عسيرٌ؛ فهو إيجازٌ بالحذف.

غرضُ تنكيرِ ﴿يَوۡمٌ﴾:

تنكير ﴿يَوۡمٌ﴾ في قول الباري ﷻ: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ للتَّعظيم والتَّهويل، أي: فذلك يومٌ هائلُ العُسرِ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ.

بلاغةُ المجاز في وصفِ اليومِ بالعُسْرِ:

سـوءُ حـالِ الكـافـرين يـوم القيامة

وصفُ اليوم بالعُسر في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾ باعتبار ما يحصلُ فيه من العُسر على الحاضرينَ فيه، فهو وصفٌ مجازيٌّ عقليٌّ، وإنَّما العسيرُ ما يقع فيه من الأحداث، ووصفُ اليوم ونحوِه من أسماء الزَّمان بصفاتِ أحداثِه مشهورٌ في كلامهم[3].

وإنَّما كان اليوم عسيرًا؛ لأنَّهم يُناقَشون في الحساب، ويُعطَون كُتُبَهم بشمائلهم، وتَسْوَدُّ وجوهُهم، ويُحشَرونَ زُرقًا، وتتكلَّمُ جوارحهُم فيُفتَضَحونَ على رؤوس الأشهاد[4].

سرُّ التَّعبير بصيغةِ (فعيل) في ﴿عَسِيرٌ﴾:

جيء بصيغة (فعيل) في قوله ﷻ: ﴿يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾؛ للمبالغة في عُسرِ ذلك اليوم، أي: يومٌ بالغُ العُسر[5]، وفي ذلك من الوعيد والتَّهديد ما تنخلعُ له القلوب.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 55، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 134.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 47.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 301.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 703، والمراغي، تفسير المراغي: 29/ 127.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 47.

معنى ﴿عَلَى﴾ في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

شدَّةُ مقاساةِ الكافرينَ لأهوالِ القيامة

جيء بحرفِ الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ - وهو متعلِّقٌ بـ ﴿عَسِيرٌ﴾ على أحَدِ وجوهِ إعرابه[1] - للتَّنبيه على شدَّة مشقَّة ذلك اليوم، حتَّى كأنَّهُ مُستعلٍ على الكافرين استعلاءً مجازيًّا؛ لأنَّهُ قد غمرَهُم بأهوالِهِ وأفزاعِه بحيثُ لا يَرجون خلاصًا منها، فهَلاكُهُم متيقَّن.

نكتةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

الكافرون راسخون في الجُحود والإنكار

أوثرت صيغةُ اسم الفاعل في قول اللّه ﷻ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ للتَّنبيه على رسوخهم في الكُفر والجُحود والإنكار، حتَّى صار ذلك بمنزلة صفةٍ من صفاتهم الجِبِلّيَّة، ولذلك كانوا يستهينون بالإنذار، ويُعرضون عنه[2].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾:

سوءُ مآلِ جميع الكافرين في الآخرة

تعريفُ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ للجنس المستغرقِ لجميع أفراده، وفي ذلك مَساءةٌ لكلِّ أهل الكفر والعناد الَّذينَ يُعرِضون عن التَّوحيد والإيمان.

دلالةُ النَّفي بـ ﴿غَيْرُ﴾:

يومُ القيامة شديدُ العُسرِ على الكافرين

يُعَدُّ لفظ ﴿غَيْرُ﴾ اسمًا صريحًا موغِلًا في الإبهام يُفيد المُغايرةَ، بمعنى أنَّ ما بعدَهُ يُغاير ما قبلَهُ في المعنى، ويُستعمل للمفاهيم المتضادَّة، وقد اقترنَ في قوله تعالى هنا: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ - وهو وصفٌ ثانٍ لليوم - بلفظِ ﴿يَسِيرٍ﴾ المضادِّ للفظِ ﴿عَسِيرٌ﴾ الوارد في الآية السّابقة. وإيغالُ ﴿غَيْرُ﴾ في الإبهام إشعارٌ ببُعد ذلك اليوم في العُسرِ والشِّدَّةِ والصُّعوبة، ونفيٌ لليُسر فيه على الإطلاق.

---

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 540.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 47.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ بعدَ التَّعبيرِ بـ ﴿عَسِيرٌ﴾:

حُسنُ عاقبةِ المؤمنينَ يغيظُ الكافرين

فائدة قوله تعالى: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ بعد قوله: ﴿عَسِيرٌ﴾: أنَّهُ لمّا قال سبحانه: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فقصرَ العُسرَ عليهم؛ قال: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾؛ ليُؤذن بأنَّهُ لا يكون عليهم كما يكون على المؤمنين يسيرًا هيِّنًا؛ ليجمَعَ بين وعيدِ الكافرين وزيادةِ غيظِهم، وبشارةِ المؤمنين وتسليتِهم.

عُسرُ يوم القيامة على الكافرين لا ينقطع

ويحتملُ أن يُراد أنَّهُ عسيرٌ لا يُرجى أن يَرجع يسيرًا، كما يُرجى تيسُّرُ العسير من أمور الدُّنيا[1]. وأيضًا لمّا كان العُسر قد يُطلَقُ على الشَّيء وفيه يُسرٌ من بعض الجهات؛ بيَّنَ أنَّهُ ليس كذلك بقوله: ﴿غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾، فجمَعَ فيه بين إثباتِ الشيء ونفيِ ضدِّه؛ تحقيقًا لأمره، ودفعًا للمجاز عنه[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 647، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 328.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 47، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 412.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢
وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥
كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدثر: 11 - 17]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

اللـه تعـالى كـافٍ نبيَّهُ أذى المشركين

لمّا قرَّر تعالى أنَّ أكثر الخلق يوافي يومَ القيامة على كُفره ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ - وكان ذلك ممّا يهمُّه ﷺ؛ لشفقته على الخلق، ولِما يَعلمُ من نصبِهم للعداوة - هوَّنَ أمرَهُم عليه، وحقَّر شأنَهم لديه بوَعدِهِ بالكفاية فقال: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾[1].

وثمَّة وجهُ مناسبةٍ آخر، وهو أنه لمّا جرَى ذِكرُ الكافرين وما يَلقاهُ الرَّسول ﷺ منهم وأمره بالصبر؛ انتقلَ الكلامُ إلى ذِكر زعيم من زعماء الكافرين ومُدبِّرِ مطاعنِهم في القرآنِ ودعوةِ الرَّسول ﷺ[2].

المـالُ والـولـدُ أساسُ الطُّغيان

ولمّا كان سببُ الطغيان للإنسان المُكنةَ الَّتي أهمُّها المالُ؛ قال تعالى شأنه: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾[3]، وأتبعَها بالحديث عن نِعمة الولد؛ لأنَّ الولد أوَّلُ ما تطمحُ إليه النَّفسُ بعد كثرةِ المال[4].

ولمّا كان ما سبق كنايةً عن سَعَةِ الرِّزق وعِظَمِ الجاهِ، وكان مَنْ بُسِطَ له في المال والولد والجاه تتوقُ نفسُهُ إلى إتمام ذلك بالحفظِ والتَّيسير؛ ذكَّرَ سبحانه بنِعَمِه، فقال: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾[5].

ولأنَّ ما خوَّله إيّاه سبحانه من المال والولد قد أورَثهُ البَطَرَ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 47.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 302.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 48.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 49.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 49.

والاستكبارَ على الحقِّ ﷻ، وهو ضدُّ ما كان ينبغي له من الشُّكر؛ أكَّد سبحانه أنَّهُ هو الَّذي وهبَ له ما وهبَ، وأنكرَ عليه طلبَ المزيد[1].

ولمّا كان طمَعُهُ في الزّيادة طلبًا للشَّرف والعظمة؛ زجَرَهُ تعالى عن ذلك، وحقَّقَ أنَّهُ لن يتمَّ له[2]، وتبعَ ذلك قولُه تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ لبيان عاقبةِ هذا الكافرِ في الآخرةِ بعد زَجرِه عن طلب الزّيادة[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَحِيدٗا﴾: (وحد) أصلٌ يدلُّ على الانفراد[4]، ومن ذلك يقال: فلانٌ واحدُ دهرِه، أي: لا نظيرَ لهُ، وأوحدَهُ اللّٰه: جعلَهُ واحدَ زمانِه[5]، والواحد في الأصل: الشَّيءُ الَّذي لا جزءَ له البتَّة، ثمَّ يُطلق على كلِّ موجود، حتَّى إنَّه ما من عددٍ إلّا ويصحُّ أن يوصف به، فيقال: عشرة واحدة، ومائة واحدة، وألف واحد[6]. والمراد بكونه وحيدًا هنا: أنَّهُ لا مال له ولا ولد[7].

2) ﴿مَّمۡدُودٗا﴾: (مدد) أصلٌ يدلُّ على جَرِّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شيءٍ بشيءٍ في استطالةٍ، فيزيدُهُ طولًا واستمرارًا أو قَدْرًا، ومدَّ النَّهْرَ نَهْرٌ آخرُ: زادَ فيهِ وواصَلَهُ، والمدادُ: ما يُكتَبُ به؛ لأنَّهُ يُمَدُّ بالماءِ ونحوِه[8]، ورجلٌ مَديدُ القامةِ، أي: طويلُ القامةِ[9]. وقوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾ [الهمزة: 9] معناه: في عَمَدٍ طِوالٍ[10]. والمرادُ بالمال الممدود: الكثيرُ الواسع[11].

3) ﴿شُهُودٗا﴾: (شهد) أصلٌ يدلُّ على الحضورِ والعلمِ والإعلام[12]، ومن ذلك: المشهد، وهو مَجمَعُ النّاس[13]، والشُّهودُ، والشَّهادةُ: الحضورُ مَعَ المشاهدةِ؛ إمّا بالبصَرِ، أو بالبصيرةِ، وقد يُقال للحضور دون مشاهدة، قال اللّٰه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 50.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 50 - 51.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 51 - 52.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد).
(5) الرازي، مختار الصحاح: (وحد).
(6) الراغب، المفردات: (وحد).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 70.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مدد).
(9) الجوهري، الصحاح: (مدد).
(10) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (مدد).
(11) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 265.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(13) الخليل، العين: (شهد).

[الأنعام: 73][1]، والشَّهادةُ أيضًا: قولٌ صادرٌ عن عِلمٍ حصلَ بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصرٍ[2]، والمرادُ بالبنينَ الشُّهودِ هنا: أنَّهم حضور، لا يغيبون عنه في تصرُّف[3].

4) ﴿وَمَهَّدتُّ﴾ - ﴿تَمۡهِيدٗا﴾: (مهد) أصلٌ يدلُّ على توطئةٍ وتسهيلٍ للشَّيء[4]، ومن ذلك: المهد، وهو الموضع يُهيَّأ للصَّبيِّ ويوطَّأ لينامَ فيه[5]، والتَّمهيدُ: التَّهيئة والتَّسوية والإصلاح[6]، والمهدُ والمِهاد: الفِراشُ والمكانُ الموطَّأ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ [طه: 53]. ومعنى ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾: بسطتُ له في العيش بسطًا[7].

5) ﴿يَطۡمَعُ﴾: (طمع) أصلٌ يدلُّ على رجاءٍ في القلب قويٍّ للشَّيء[8]، ونُزوعِ النَّفس إلى الشَّيء شهوةً له[9]، ومن ذلك: تطميعُ القطر حين يبدأ فيجيء منه شيء قليل، سُمّيَ بذلك، لأنَّه يُطمِعُ بما هو أكثرُ منه[10]، والأطماع: أرزاقُ الجُند[11]؛ لنزوعِ أنفسهم إليها. ومعنى ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾: ثمَّ يرجو أن أزيدَهُ في المالِ والولد[12].

6) ﴿عَنِيدٗا﴾: (عند) أصل يدلُّ على ترك طريق الاستقامة[13]، ومن ذلك يقال: دمٌ عاندٌ، أي: يسيل جانبًا[14]، والمعاندة: أن يعرف الرَّجلُ الشَّيءَ، ويأبى أن يقبله[15]، والعنيد: المُعجَبُ بما عنده، والمعاند: المباهي بما عنده، قال تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤﴾ [ق: 24][16]. والمراد بالعنيد هنا: المكذِّب بالآيات والكافرُ بها[17].

---

(1) الراغب، المفردات: (شهد).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (شهد).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 72.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهد).
(5) الخليل، العين: (مهد).
(6) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (مهد).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 72.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمع).
(9) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (طمع).
(10) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (طمع).
(11) الخليل، العين: (طمع).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 72.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عند).
(14) الأزهري، تهذيب اللغة: (عند).
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عند).
(16) الراغب، المفردات: (عند).
(17) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 265.

7) ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ﴾: (رهق) أصلٌ يدلُّ على غَشَيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[1]، ومن ذلك يقال: رَهَقَهُ الأمرُ، أي: غَشيَهُ بقهرٍ، قال تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ [يونس: 27][2]، ورَهَقَ فلانٌ فلانًا: تَبِعَهُ فقاربَ أن يلحقَهُ، وأرهقَهُ عُسرًا، أي: كلَّفه إيّاه[3]، قال تعالى: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣﴾ [الكهف: 73]. والمراد بالإرهاق هنا: إتعابُهُ وتحميلُهُ ما لا يطيق[4].

8) ﴿صَعُودًا﴾: (صعد) أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ ومشقَّة[5]، ومن ذلك: الصُّعود، وهو الذَّهاب في المكان العالي[6]، قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: 125]، والإصعادُ: الإبعاد في الأرض، والصَّعودُ: العقبة، والأمر الشّاقُّ[7]. والمراد به هنا: المشقَّة أو صخرةٌ أو جبلٌ في جهنَّم[8].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

انقلابُ حالِ الوليد بن المغيرة من الرَّخاءِ إلى الشِّدَّة

يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه ﷺ: كِلْ إليَّ أمرَ الَّذي خلقتُهُ في بطن أمِّه وحيدًا، لا شيءَ له من مالٍ ولا ولدٍ، وهو الوليدُ بن المغيرة، وجعلتُ له مالًا كثيرًا واسعًا، وجعلتُ له بنينَ يحضرون أمامَهُ ويأنسُ برؤيتهم، أو يحضرون مجالسَ القوم، وبسطتُ له في العيش بسطًا، ثمَّ يأملُ ويرجو أنْ أزيدَهُ من المال والولد على ما أعطيتُهُ، ولن يكون ما يأملُ ويرجو، إنَّه كان معاندًا لآياتنا ومكذِّبًا بها، سأكلِّفه مشقَّةً من العذاب لا راحة له منها، أو أكلِّفه صُعودَ جبلٍ في النّار[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رهق).
(2) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (رهق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رهق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعد).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والأزهري، تهذيب اللغة: (صعد).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (صعد).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 266.
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 19 - 23.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

الغرور أعظمُ أسباب الهلاك

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ كلامٌ مستأنَفٌ جيء به؛ للتَّنبيه على أسباب هلاك الكفَرة الَّتي أعظمُها الغرور[1]، ولتعليل الأمر بالصَّبر ببيانِ أنَّ اللّه يتولَّى جزاءَ الكافرين[2].

دلالةُ الأمرِ في ﴿ذَرۡنِي﴾:

مَـنْ سلَّم أمره لله كفاه

الأمرُ في قولِه ﷻ: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ للوجوبِ، وفيهِ تنبيهٌ لهُ ﷺ على ضرورةِ تفويضِ أمرِ معاقبةِ الوليدِ للّه ﷻ، وعدمِ الاكتراثِ بأقوالِهِ وأفعالِه.

سرُّ تصديرِ الآيةِ بـ ﴿ذَرۡنِي﴾:

تصديرُ الآية بفعل ﴿ذَرۡنِي﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الرَّسول ﷺ كان مهتمًّا ومغتمًّا ممّا اختلقه الوليد بن المغيرة، فاتِّصالُ الآية بقوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ يزداد وضوحًا[3].

بلاغةُ الكناية أو الاستعارة في الآية:

مَنْ وقاهُ الله شرَّ عدوِّهِ فازَ

قولُهُ تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ فيهِ كنايةٌ بديعةٌ، وذلكَ أنَّ الرَّجلَ إذا عرفَ مِنْ صاحبِهِ أنَّهُ مغمومٌ بأمرٍ يريدُ أنْ يُكفاهُ، أو بعدوٍّ يشتهي أنْ ينتقمَ لهُ منهُ، وهو مضطلعٌ بذلكَ مقتدرٌ عليهِ؛ قالَ: ذَرْني وإيّاهُ، وليسَ هناكَ منعٌ حتى يطلبَ إليهِ أنْ يَذَرَهُ وإيّاهُ إلّا ترك الاستكفاءِ والتَّفويض، كأنَّهُ إذا لم يَكِلْ أمرَهُ إليه، فكأنَّهُ منعَهُ منهُ، فإذا وكلَهُ إليهِ فقد أزالَ المنعَ، وتركَهُ وإيّاهُ. والكلامُ وعيدٌ محضٌ[4]، وتهديدٌ شديدٌ، أي: دَعْني وإيّاه، فسترى ما أصنعُ به، وهي كلمةٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 47.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 302 - 303.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 303.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 394، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 391.

يقولُها المغتاظ إذا اشتدَّ غيظه وغضبه، وكره أنْ يُشفَعَ لمن اغتاظَ هو عليه؛ فمعنى الكلام: لا شفاعة في هذا الكافر[1].

ويحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ استعارةً تمثيليَّةً، شُبِّهَتْ حالةُ كفايةِ أمرِ النَّبيِّ ﷺ والانتقام مِنْ أعدائِهِ بالهيئةِ المنتزَعةِ مِنْ شخصٍ ذي شَوْكةٍ وقدرةٍ وإعانةٍ، وشخصٍ آخرَ استولى عليهِ عدوُّهُ، فقالَ لهُ: ذَرْني ومَنْ عاداك وحدي؛ فإني أكفيكَهُ، فذُكِرَ اللَّفظُ المركَّبُ الموضوعُ للمشبَّهِ بهِ وأُريدَ المشبَّهُ[2].

معنى الواوِ في ﴿وَمَنۡ خَلَقۡتُ﴾:

جــزاءُ المكـذِّبينَ بيدِ الله

انتصبَ ﴿وَمَنۡ خَلَقۡتُ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ على المفعولِ معَهُ، والواوُ واوُ المعيَّةِ[3]، والكلامُ واردٌ على سبيلِ الكنايةِ أو الاستعارةِ كما تقدَّمَ، وإلّا فلا معنى لتركِ اللّٰه تعالى مع المكذِّبينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ (مَن):

كفرانُ الوليد بن المغيرة بالنِّعَمِ أورثه النقم

جيء بالموصول وصِلته في قوله: ﴿وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾؛ لإدماجِ تسجيلِ كُفْرانِ الوليدِ النِّعمةَ في الوعيدِ والتَّهديدِ[4]، ولاستحضارِهِ بالصِّفة الَّتي كان عليها في أوَّلِ أمرِهِ قبل أن يمنَّ اللّٰه تعالى عليه بالمال والبنينَ والجاه. فالمراد بالموصول معهودٌ وإن كان النّاس خُلقوا مِثلَ خلقه، وإنما خُصَّ بالذِّكر لاختصاصه بكفر النِّعمة وإيذاء الرَّسول ﷺ[5].

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿خَلَقۡتُ﴾:

عُبِّرَ بصيغة الماضي في قوله ﷻ: ﴿خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾؛ للدَّلالة على

(1) السهيلي، الروض الأنف: 3/ 20.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 413.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 563.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 303.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 70 - 71.

تحقُّق هذا الخَلق وحصوله، بحيث لا يُرتاب فيه، وذلك أدخلُ في ذمٍّ الوليد بن المغيرة ومَن هو على شاكلته، وتقريعِه.

بلاغةُ الحالِ ﴿وَحِيدًا﴾:

الخالقُ الواحدُ كافٍ في الانتقام ممَّن عصاه

الوحيدُ: المنفرد عن غيره في مكانٍ أو حالٍ ممّا يدلُّ عليه سياق الكلام، والظّاهر أنَّ قوله: ﴿وَحِيدًا﴾ حالٌ من الخالق، أو حالٌ من المخلوق، وكونُه حالًا من الخالق على وجهين: **الأوَّل**: ذَرْني وحدي معه؛ فإنّي كافٍ في الانتقام منه. **والثّاني**: خلقتُه وحدي، لم يَشْرَكْني في خلقِه أحدٌ.

تـكـبُّر مَـن كـان وحـيـدًا فـريـدًا على الحقِّ وأهلِه أمارةُ النُّكران

وأمّا كونُه حالًا من المخلوق فعلى معنى أنّي خلقتُه حالَ كونِه وحيدًا فريدًا، لا مالَ له ولا ولدَ[1]، وفي ذلك مزيدُ تسجيلٍ عليه بجحودِ النِّعَم، وتغييرٌ للكلامِ عن غرض المدحِ والثَّناء الذي كانوا يخصّونه به إلى غرض الافتقار إلى اللّه الَّذي هو حالُ كلِّ مخلوق، فتكون الجملةُ من قبيل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: 78][2].

وذُكِرَ أنَّه كان يُلقَّب في قومه بالوحيد؛ لتوحُّده وتفرُّده باجتماع مزايا له لم تجتمع لغيره من طبقته، وهي كثرةُ الولد وسَعَةُ المال، ومجدُهُ ومجدُ أبيه من قبله، وكان مرجعَ قريش في أمورها؛ لأنَّهُ كان أسنَّ من أبي جهل وأبي سفيان، فكان هذا الكلامُ إيماءً إلى الوليد بن المغيرة المشتهر به[3]، وهو تهكُّمٌ به وبلقبِه، وصرفٌ له عن الغرض الذي يقصدونه من مدحه إلى ذمِّه[4].

بلاغةُ عطفِ ﴿وَجَعَلۡتُ﴾:

هبةُ المال للعبد مـن الـلـه دلـيـلٌ على افتقار العبد

لمّا أفاد قوله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ افتقارَ الوليد بن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 704.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 304.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 304.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 56، والمراغي، تفسير المراغي: 29/ 130.

المغيرة إلى اللّه، كحالِ كلِّ مخلوق؛ عطفَ على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ عطفَ الخاصِّ على العامِّ[1]؛ ليُظهرَ صورةً من صور افتقاره إلى خالقه ﷻ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَجَعَلْتُ﴾:

افتقارُ الوليد إلى الله تعالى متحقِّق

جيء بصيغة الماضي في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق هذا الجعل وحصوله، وذلك أنسبُ بمقام التَّسجيل عليه بافتقاره إلى اللّه تعالى، وأدخلُ في تعداد نِعَمِ اللّه الثّابتة عليه، والَّتي لا يَسَعُهُ إنكارُها.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُۥ﴾:

اللّام في قول الباري جلَّ ذكره: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ للملك، وفيها تنبيهٌ على أنَّ هذا الجَعل لأجله، فينبغي أنْ يُكافئَ النِّعمةَ بالشُّكر لا بالجُحود والإنكار.

غرضُ تقديمِ القيد ﴿لَهُۥ﴾:

تمييزُ الوليد بالمال الممدود نعمةٌ تستوجب الشُّكرَ لا الكفر

قُدِّمَ شبه الجملة ﴿لَهُۥ﴾ على المفعول وصفته ﴿مَالًا مَّمْدُودًا﴾؛ للعناية بكون الجَعل متعلّقًا به، وذلك أوفقُ بتعداد نِعَمِ اللّه عليه، ولمراعاة ملاءمةِ فاصلةِ الآية لما قبلها.

ويحتملُ أن يكون التَّقديمُ للتَّخصيص، أي: وجعلتُ له لا لغيره من قومِه مالًا ممدودًا، وتمييزُهُ بكثرةِ المال عن سائرِ قومِه يستدعي شُكرَهُ للّه تعالى وإيمانَهُ به وبآياته.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَالًا﴾:

تنكير ﴿مَالًا﴾ في قول الباري ﷻ: ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ للتَّعظيم، أي: مالًا عظيمًا كثيرًا واسعًا، ويُؤيِّدُ ذلك وصفُهُ بالممدود.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 304.

بلاغةُ الكناية في وصفِ المالِ بالمَمدود:

سَعَةُ مالِ الوليدِ بنِ المغيرة وكثرته

في وصفِ المال بالمَمدود في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ كنايةٌ لطيفة، وذلك لأنَّ كثرة المال تقتضي امتداده، ويمكن أن يكون استعارةً بأن شبَّه كثرة المال بالشَّيء الممتدِّ بجامع السَّعة والوَفرة.

ويحتمل أن يكون من (مدَّ) الَّذي بمعنى: زادَ في الشَّيء من مِثله، كما يُقال: مدَّ الوادي النَّهر، أي: مالًا مزيدًا في مِقدارِه ما يكتسبُهُ صاحبُهُ من المكاسب، وكان الوليد من أوسَع قريش ثراءً[1]، وفي الكلام كنايةٌ عن المال الَّذي لا ينقطع رزقه، بل يتوالى كالزَّرع والضَّرع والتِّجارة[2].

نكتةُ عطفِ ﴿وَبَنِينَ﴾:

حظُّ الوليد من ملذّات الدُّنيا عظيمٌ

عطفُ البنين على المال في قوله ﷻ: ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الوليد قد أوتيَ من ملذّات الدُّنيا جميعًا، وأنَّ له من نعيم الدُّنيا حظًّا وافرًا؛ فكمالُ نعمة المال بنعمة البنين والعشيرة؛ لأنَّ أوَّلَ ما تمتدُّ إليه النَّفسُ بعد كثرة المال الولدُ، وكان أحبُّ الولد إلى العرب الذَّكرَ[3].

بلاغةُ وصفِ البنينَ بالشُّهودِ:

من نعم الله تعالى على الوليد سُروره بقُربِ أولادِه منه

في وصفِ البنينَ بالشُّهود في قوله ﷻ: ﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ مزيدُ تعظيم لنعمة اللّه تعالى على الوليد بن المغيرة؛ إذ المرادُ أنَّهم حضورٌ معه مُقيمون بمكة، لا يفارقونه البتَّة؛ لأنَّهم كانوا أغنياء، فما كانوا محتاجين إلى مُفارقته لطلبِ كسبٍ ومعيشة، وكان هو مستأنسًا بهم، لا ينشغلُ بالُهُ بمَغيبهم وخوفِ مَعاطب السَّفر عليهم. أو المرادُ أنَّهم رجالٌ يشهدون معه المَجامعَ والمحافلَ[4]، وكلٌّ من الأمرين من مَباهجِ الدُّنيا وملذّاتها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 304.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 49.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 684، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 329، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 49، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 304.

نكتةُ عطفِ ﴿وَمَهَّدتُّ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ معطوفٌ على ما قبله. وفي هذا العطف توسيعٌ لدائرة النِّعَم على الوليد بن المغيرة ببيانِ أنَّ اللّه تعالى قد سهَّل له سُبُلَ العيشِ وذللها.

غرضُ صيغةِ الماضي في ﴿وَمَهَّدتُّ﴾:

سوءُ مُعاملةِ الوَليد نِعَمَ الله ﷻ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قول الباري ﷻ: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ التَّمهيدَ قد مضى وتحقَّق، وهو أمرٌ ملحوظٌ لكلِّ مَن يعرفُ الوليدَ، وفي ذلك مزيدُ تسجيلٍ عليه بسوءِ معاملتِه نِعَمَ اللّه ﷻ حيث جحَدَ ما يَعرفُ قومُه أنَّهُ من فضل اللّه تعالى عليه.

نكتةُ صيغةِ التَّفعيل في ﴿وَمَهَّدتُّ﴾:

التَّمهيد للوليد حصلَ بالتَّدريج علـى وجـهِ المبالغة

عُبِّرَ بصيغة التَّفعيل في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤه: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾؛ للمبالغة في التَّمهيد، وبيانِ أنَّهُ تمهيدٌ قويٌّ، وللتَّنبيه على أنَّهُ قد حصلَ بالتَّدريج[1]؛ أي: هيَّأتُ له، وقدَّمتُ له مقدِّماتٍ استدراجًا له[2].

براعةُ الاستعارة في لفظ التَّمهيدِ:

تـيَـسُّـرُ أمـورِ الـولـيـد ونَـفـاذُ كلمتِهِ في قومه

المَهدُ في الأصل: تسويةُ الأرض وإزالةُ ما يقضُّ جنبَ المُضطَجع عليها، والتَّمهيدُ في قولِه ﷻ هنا: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ مُستعارٌ لتيسير أموره، ونَفاذِ كلمتِه في قومه، بحيث لا يعسُر عليه مطلبٌ، ولا يستعصي عليه أمرٌ[3]. وفيه إشارةٌ إلى أنَّهُ قد بُسِطَ له الجاهُ العريضُ والرّياسةُ في قومه، حتَّى لُقِّبَ ريحانةَ قريش[4].

معنى اللّامِ في القيد ﴿لَهُۥ﴾ وغرضُ تقديمِه:

نعم الله تشمل البر والفاجر

اللّامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ للملك، وفيها

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 49، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 304.
(2) السهيلي، الروض الأنف: 3/ 20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 304.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 705، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 56.

إيماءٌ إلى أنَّ هذا التَّمهيد لأجله، وفيه نفعٌ له، وذلك تأكيدٌ لنعمة اللّه تعالى عليه.

قُدِّمَ شبهُ الجملة ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿تَمۡهِيدٗا﴾؛ للاهتمام بكون التَّمهيد متعلَّقًا به، وذلك أنسبُ بسياق تعدادِ النِّعَمِ، ولمراعاة ملاءمةِ فاصلةِ الآية لِما قبلها.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿وَمَهَّدتُّ﴾:

سَعَةُ جاهِ الوليدِ ورئاسته

في قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ إيجازٌ بحذف المفعول، والتَّقديرُ: وبسطتُ له الرّياسةَ والجاهَ العريضَ[1]، وفي الحذفِ إيماءٌ إلى السَّعَة في التَّمهيد والتَّنعيم. وإنَّما حُذِفَ المفعولُ لظُهوره من السّياق، ولأجل تناغُم الآيات في الوجازة والقِصَر.

فائدةُ التَّعبير بالمفعولِ المطلقِ ﴿تَمۡهِيدٗا﴾ منكَّرًا:

جيء بالمفعول المطلق في قول الباري جلَّ من قائل: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾؛ للتَّوكيد، وليُتوسَّل بتنكيره إلى إفادة تعظيمِ ذلك التَّمهيد، والإشارةِ إلى قوَّتِه وسَعَتِه[2].

توجيه العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

الطَّمعُ في الزّيادة عجيبٌ مستبعَدٌ مستنكَرٌ

﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ للتَّراخي الرُّتبي، أي: وأعظَمُ من ذلك أنَّهُ يَطمع في الزّيادة من تلك النِّعَمِ، وذلك بما يعرف من يُسر أموره، وهذا مُشعِرٌ باستبعاد حصول المَطموع فيه على حالته هذه من عدم الشُّكر، وقد صرَّح بذلك في قوله: ﴿كَلَّآۖ﴾[3]. وفي ﴿ثُمَّ﴾ أيضًا تعجيبٌ من هذا الطَّمع[4] واستنكارٌ له؛ لأنَّهُ يدلُّ على شدَّة حِرصه وتكالُبِه على جمعِ حُطام الدُّنيا[5].

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 413.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 305.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 50، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 305.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 72.

(5) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 131.

نكتةُ التَّعبيرِ بالطَّمعِ:

عُبِّرَ بالطَّمع في قول الحقِّ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾؛ لدلالته على طلب الشَّيء العظيم[1]، وعلى أنَّ الوليد كان يرجو الزّيادة بغير سببٍ يُدلي به إلى اللّٰه تعالى ممّا جعله سبحانه سببَ المزيد وهو الشُّكر[2]، وذلك دليلٌ على سفاهة رأيه.

طلبُ الزّيادة دون تحقيق شرطها سفاهةُ رأيٍ

نكتةُ التَّعبير بفعل الطَّمع مضارعًا:

جيء بصيغة المضارع في قوله جلَّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ لحكاية الحال الماضية لغرابتها، أو للدِّلالة على أنَّهُ يَطمع على الاستمرار بزيادةٍ مستمرَّة[3].

سرُّ إسنادِ الزّيادةِ إلى ضمير الجلالة:

جُعل متعلّق طمَعِ الوليد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ زيادةً ممّا جعل اللّٰه له؛ لأنَّهم لم يكونوا يُسندون الرِّزق إلى الأصنام، أو لأنَّهُ طمع في زيادةِ النِّعمة غيرَ متذكِّرٍ أنَّها من عند اللّٰه، فيكون إسنادُ الزّيادة إلى ضمير الجلالة إدماجًا، بتذكيرِه بأنَّ ما طَمعَ فيه هو من عندِ الَّذي كفرَ هو بنعمَته، فأشركَ به غيرَهُ في العبادة، وذلك من تناقضِه وسوءِ رأيه، ولهذه النُّكتة عُدِلَ عن أن يقال: يَطمع في الزّيادة، أو: يطمعُ أن يُزاد[4].

طلبُ الوليد الزّيادةَ ممَّن كفرَ به تناقضٌ وسوءُ رأيٍ

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿أَنۡ أَزِيدَ﴾:

حُذِفَ متعلّق الزّيادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾، فلم يُقَلْ: أن أزيدَ من كذا؛ لظُهورِه من السّياق، وهو أنَّهُ يَطلبُ الزّيادةَ من المال والبنين وسَعَةِ العيش ونحو ذلك، وفي حذفِه تنبيهٌ على غاية جشَعِ الوليد، وكأنَّ همَّهُ الاستكثارُ من كلِّ شيءٍ من متاع الدُّنيا وملذّاتها.

جشَعُ الوليد قَبيحٌ وطمَعُهُ بشعٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 305.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 50.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 415.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 305.

مَتاعُ الدُّنيا زائل، والطّامعُ فيه جاهل

عِلّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾:

لّما كان تقديرُ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾: إنَّهُ لَيَطْمع في ذلك؛ لأنَّ المال والجاه يَجُرّان الشَّرفَ والعظمةَ بأيسَرِ سعيٍ؛ استأنفَ زجرَهُ عن ذلك بمَجامع الزَّجر، فقال: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾[1].

معنى ﴿كَلَّآۖ﴾:

زيادةُ نِعَم الكافرين فتنةٌ للمُعاندين

لفظ ﴿كَلَّآۖ﴾ للرَّدع والإنكار التَّوبيخيِّ مع التَّنبيه على الخطأ[2]. ووروده في قوله تبارك شأنه: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ لرَدعِ الوليد بنِ المُغيرة عن طمَعه في الزّيادة من النِّعَم[3]، وإبطالِ هذا الطِّمع، وقطعِ رجائه منه. والمقصودُ إبلاغُ هذا إليه مع تطمينِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ الوليد سيُقطَعُ عنه مددُ الرِّزق؛ لئلّا تكون نعمته فتنةً لغيره من المُعاندين، فيغريَهم حالُه بأنَّ عنادَهُم لا يضرُّهم؛ لأنَّهم لا يظنّون أنَّ هناك حياةً بعد هذه الحياةِ الدُّنيا[4].

علّةُ فصلِ جملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾:

كُفرانُ النِّعمة سببٌ للحرمان والنِّقمة

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ عمّا قبله؛ لِما بينَهُما من شبه كمالِ الاتِّصال؛ لأنَّهُ تعليلٌ للرَّدع على وجهِ الاستئناف، كأنَّ قائلًا قال: لِمَ لا يُزاد؟ فقيل: لأنَّهُ كان لآياتنا عنيدًا[5]. وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ مُعاندةَ آياتِ المُنعِم مع وُضوحِها، وكُفرانَ نعمته تعالى مع سُبوغِها؛ ممّا يوجِبُ حِرمانَ الوليد بالكلّيَّة، وإنَّما أوتيَ ما أوتيَ استدراجًا[6].

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا، ويكون الوقفُ عند قوله تعالى: ﴿كَلَّآۖ﴾[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 50 - 51.
(2) قباوة، المفصل في شرح الجلالين: ص 2040.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 260، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 563.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 305.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 705، والسّمين، الدر المصون: 10/ 542.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 57.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306.

براعةُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ):

أُكِّدَ قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ بـ (إنَّ)؛ للاعتناء بمَضمونه، وبيانِ أنَّهُ أمرٌ قد تحقَّق صُدورُه منه، ولذلك استوجبَ قطعَ زيادةِ النِّعَمِ عنه.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿كَانَ﴾:

رسوخُ الوليدِ في الكُفر والمُحاربة لآياتِ الله

الإتيانُ بـ﴿كَانَ﴾ في قوله جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ الوليدَ من قديم الزَّمان كان على العِناد لآياتِ اللّه[1]، حتَّى كأنَّهُ جِبلَّةٌ له وطبعٌ لا يقدرُ على الانفكاكِ عنه[2]، وذلك أدخلُ في ذمِّهِ وتعليلِ قطع الزِّيادة عنه.

معنى اللّام في ﴿لِأٓيَٰتِنَا﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ للتَّعدية، فتُفيدُ تعلُّقَ العِنادِ بآياتِ الحقِّ ﷻ، وفي ذلك ما لا يخفى من القُبحِ والشَّناعة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الآياتِ مجموعًا:

إنكارُ الوليدِ لجميعِ آياتِ الحقِّ ودلائله

جمعُ الآيات في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾؛ للإشارة إلى كثرتها وتعدُّدِها، وأنَّ الوليد كان مُعاندًا لجميع الآياتِ والدَّلائلِ الدّالَّةِ على التَّوحيدِ والعدلِ والقُدرةِ وصِحَّة النُّبوَّة والبعث، وكان هو منازعًا في الكلِّ، مُنكِرًا للكلِّ[3].

فائدةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ:

إضافةُ الآياتِ إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿لِأٓيَٰتِنَا﴾؛ لإفادةِ تعظيمِها وتفخيمِها؛ لكونها هاديةً إلى الوحدانيَّة، وفي ذلك مزيدُ تقبيحٍ لكُفرِ الوليد بها وإنكارِهِ لها[4].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 705.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 51.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 705.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 51.

غرضُ تقديمِ القيد ﴿لِآيَٰتِنَا﴾:

غايةُ الخُسران

تخصيصُ آيات الله تعالى بالنُّكران

تقديم شبه الجملة ﴿لِآيَٰتِنَا﴾ على ﴿عَنِيدًا﴾ لتعجيل ما هو مَدارُ الذَّمِّ والتَّقبيح وقَطعِ الأمل في الزّيادة(1).

ويحتملُ أن يكون التَّقديمُ لإفادة أنَّ تلك المعاندة منه كانت مختصَّةً بآيات اللّه تعالى وبيِّناته، والتَّقدير: إنَّهُ كان لآياتنا عنيدًا لا لآياتِ غيرنا، فتخصيصُهُ هذا العنادَ بآياتِ اللّه مع كونهِ تاركًا للعناد في سائر الأشياء يدلُّ على غاية الخُسران.

نكتةُ صيغةِ (فعيلٍ) في ﴿عَنِيدًا﴾:

عِـنـادُ الـولـيـد للحقِّ شديدٌ

﴿عَنِيدًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ بمعنى المُعاند، كالجليس بمعنى المُجالس، والإتيانُ بصيغة (فعيل) للمبالغة في عِناده، والمعنى: إنَّهُ كان بالغَ العِنادِ على وجهٍ لا يُعَدُّ عنادُهُ لغيرها بسببِ مزيد قُبحِهِ عنادًا(2). وعِنادُه هو محاولتُهُ الطَّعنَ في القرآن، وتحيُّلُهُ للتَّمويه بأنَّهُ سِحرٌ أو شِعرٌ أو كلامُ كهانةٍ، مع تحقُّقِهِ بأنَّهُ ليس في شيءٍ من ذلك(3).

نكتةُ فصلِ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾:

وعـيـدُ الـولـيـد مُعجَّلٌ

فُصِلَ قوله سبحانه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ عمّا قبله؛ لأنَّهُ استئنافٌ لبيان عقابِ الوليد بعد بيانِ عِناده لآيات اللّه(4)، فكأنَّ سائلًا سأل: ما كان عِقابُه بعد سوء عِناده؟.

ويحتملُ أن تكون جُملة ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ معترضةً بين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ وبين ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، قُصِدَ بهذا الاعتراض تعجيلُ الوعيد له مَساءةً له، وتعجيلُ المسرَّة للنَّبي ﷺ، وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ مبيِّنةٌ لجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، فهي تكملةٌ وتبيينٌ لها(5).

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 416.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 51.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 51.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306.

دلالةُ السّينِ والمضارعِ في ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ﴾:

جيء بالمضارع المُصدَّر بالسّين في قوله ﷻ: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الإرهاق سيقع في المستقبل، وأنَّهُ أمر مؤكَّد لا شكَّ فيه ولا ارتياب.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإرهاقِ:

عاقبةُ الجاحدِ هي التَّعبُ الشَّديدُ الَّذي لا يُطاق

لمّا كان العنادُ غِلظةً في الطَّبع وشكاسةً في الخُلُق، ويوجبُ النَّكدَ والمشقَّةَ؛ جُعِلَ جزاؤُهُ من جنسه[1]؛ فعُبِّرَ بالإرهاقِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾؛ للدَّلالةِ على الإتعابِ وتحميلِ ما لا يُطاق[2]، وفي ذلك ما لا يَخفى من الوَعيد الشَّديد الَّذي تطيشُ لهَوْلِه العقولُ، وتنخلعُ له القلوبُ.

بلاغةُ الاستعارةِ في جُملة ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾:

ما يَلقاهُ الوليدُ مِنَ الشَّدائدِ بمنزلةِ صُعودِ الجِبالِ الوَعِرةِ الشّاهقة

يحتملُ قوله تعالى: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أن يكون استعارةً تمثيليَّةً لِما يَلقى من الشَّدائد[3]، شُبِّهَ ما يَسوقهُ اللّه له من المصائب بتكليف الصُّعود في الجبال الوَعِرةِ الشّاهقة، وأُطلِقَ لفظُهُ عليه[4]. وهذا تمثيلٌ لضدِّ الحالة المجملَة في قوله: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا﴾، أي: سينقلبُ حالُه من حالِ راحةٍ وتنعُّم إلى حالةٍ سيِّئةٍ في الدُّنيا، ثمَّ إلى العذابِ الأليم في الآخرة، وكلُّ ذلك إرهاقٌ له[5].

الصَّعودُ جبلٌ في جهنَّم

ويحتمل أن يكون المراد أنَّهُ سيُكلَّفُ صُعودَ عَقَبةٍ في جهنَّم اسمُها الصَّعودُ، مسيرُها سبعون سنةً، يُكلَّف الكافرُ أن يصعَدَها، فإذا صعدها بعد عذابٍ طويل صُبَّ من أعلاها، ولا يتنفَّس، ثمَّ لا يزالُ كذلك أبدًا[6]، وعلى هذا فلا يكونُ الكلامُ من قبيل التَّمثيل.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 260.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 353.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306 - 307.
(6) السهيلي، الروض الأنف: 3/ 20، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 51، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306 - 307، وروى أحمد في مسنده عن أبي سعيد عن النبي ﷺ: رقم الحديث: (11891): «والصَّعودُ جَبَلٌ مِنْ نارٍ يَتَصَعَّدُ فيهِ سَبْعينَ خَريفًا، ثُمَّ يَهْوي بِهِ كَذَلِكَ فيهِ أَبَدًا».

صعوبةُ ما سيُقاسيهِ الوليدُ بالغةٌ

بلاغةُ صيغةِ (فعول) في ﴿صَعُودًا﴾:

الصَّعود في الأصل: العقبةُ الشَّديدةُ التَّصعُّدِ الشّاقَّةُ على الماشي، وهي (فعول) مبالغة من صعد، فإنَّ العقبة صَعَدَة، فإذا كانت عقبةً أشدَّ تصعُّدًا من العقبات المعتادة قيل لها: صَعود، وكأنَّ أصلَ هذا الوصفِ أنَّ العقبة وُصفت بأنَّها صاعدةٌ على طريقةِ المجاز العقليِّ، ثمَّ جُعِلَ ذلك الوصفُ اسمَ جنسٍ لها[1]. وفي التَّعبير بها بيانٌ لشدَّةِ ما يُقاسيه الوليدُ من المشاقِّ في الدُّنيا، أو العذاب في الآخرة.

نكتةُ تنكيرِ ﴿صَعُودًا﴾:

تنكيرُ ﴿صَعُودًا﴾ في قوله جلَّ ذكره: ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم، أي: صَعودًا عظيمةَ الشَّأن، لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَلقُ إيجادٌ للشَّيءِ من غير مثالٍ سابقٍ

الخلقُ والجَعلُ:

الخَلقُ أصلُه التَّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشَّيء من غير مثالٍ سابق. والجعلُ له استعمالاتٌ كثيرة، منها تصييرُ الشَّيءِ على حالةٍ دون حالة[2]. وقد عُبِّرَ به في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾؛ لما فيه من أنَّهُ تعالى جعلَ المال على حالة المدِّ - وهي الزِّيادة والكثرة - دون غيرها من الحالات الَّتي تشير إلى القِلَّة.

الحثُّ على قلَّةِ الاعتدادِ بالوليد

(يتركُ الشَّيءَ) و(يَذَرُهُ) و(يدعه):

التَّركُ: تخليفُ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي هو فيهِ والانصرافُ عنهُ. ويقالُ: يَذَرُ الشَّيءَ، إذا تركَهُ؛ لقلَّةِ الاعتدادِ بهِ. ويَدَعُ الشَّيءَ إذا تركه تركًا فيه راحةٌ وسكون. والتَّركُ جاء منهُ الماضي والمضارع والأمر، والفعلان الآخران جاء منهما المضارعُ والأمر فقط[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 306 - 307.
(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 404 - 405.
(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 766 - 768.

وقيلَ هنا: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾؛ للإشارةِ إلى عدمِ الاعتدادِ بشأنِ الوليد عند تركهِ وتفويضِ أمرِ عِقابهِ للّٰه تعالى.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠
ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ
هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ [المدثر: 18 - 25]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ سوءِ صنيع الوليد بنِ المغيرة وما استحقَّهُ من سوءِ المصير

ناسبتِ الآيةُ الأولى ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ ما قبلها ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ بأنَّه لمّا حصل التَّشوُّف إلى بعض ما عاند به الوليدُ بن المغيرة الآيات؛ بُيِّنَ ذلك(1).

وناسبَ قولُه تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ ما قبلَه؛ ذلك أنَّه لمّا كان تفكيرُه وتقديرُه قد أوقعَ غيرَهُ في الهلاك، بمَنعِه من حياة الإيمان؛ أُصيبَ هو بما منعَهُ من حياةٍ نافعةٍ في الدّارين؛ وذلكَ هو الهلاك الدّائم(2).

وأمّا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ فقد ناسبَ ما قبلَهُ؛ إذْ لمّا كان وقوعُ الوليد في هذا الطَّعن عظيمًا جدًّا لِما فيه من الكذب المفضوح، ومن معاندةِ مَن هو القويُّ المتين؛ أُكِّدَ المعنى زجرًا عن مثلِه، وحثًّا على التَّوبة منه(3).

وأمّا مناسبةُ قولِه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ للآيةِ السّابقة؛ فهي أنَّه لمّا كان الماهرُ بالنَّظر إذا فكَّر وصحَّحَ فِكرَهُ نظَرَ في لوازِمِه؛ أشارَ سبحانه إلى طولِ ترَوّي الوليد(4).

وأمّا مناسبة الآية ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ لما قبلها: فهي أنَّها وصفٌ لأحوالِ وجهِه بعد وصفِ أحوالِ قلبه(5). وأيضًا: لمّا كان مَن أطالَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 52.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53 - 54.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 706.

التروّيَ، فظهَر له فسادُ رأيه، يصيرُ يعبسُ ويفعلُ أشياءَ تتغيَّر لها خِلقته من غير اختياره؛ عُبِّرَ عن ذلك[1].

وأمّا مناسبة الآية ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ للآية السابقة عليها؛ أنَّها بيانٌ لكون الإصرارِ على الباطلِ مع طولِ النَّظر أمرٌ في غاية البُعدِ والقُبح[2].

وأمّا مناسبة الآيتين ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ لِما قبلَهُما: فهي أنَّهما بيانٌ لخُلاصةِ ما وصلَ إليه رأيُ الوليد في شأن القرآن الكريم، وقد قادَهُ إلى ذلك كِبْرُه وعِنادُه[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَدَّرَ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِهِ، ومِنْ ذلكَ: القَدْرُ، وهو مَبْلَغُ كلِّ شيءٍ، والقَدْرُ والقَدَرُ: قضاءُ اللّٰه سبحانَهُ الأشياءَ على مَبالغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها[4]، ويقالُ: الأمورُ تَجْري بقَدَرِ اللّٰه ومِقْدارِهِ وتقديرِهِ وأقدارِهِ ومَقاديرِهِ[5]، ويقولونَ: رجلٌ ذو قُدرةٍ ومَقْدِرةٍ، أي: يَسارٍ، يعني: أنَّهُ يَبْلُغُ بغِناهُ مِنَ الأمورِ المَبْلَغَ الَّذي يوافقُ إرادتَهُ[6]، والتَّقديرُ: تبيينُ كمّيَّةِ الشَّيءِ[7]. والمرادُ بالتقدير هنا: تهيئة الكلامِ في النَّفس[8]. أو بمعنى: تروَّى[9]، أو جعلَ قدْرًا لِما يَخطُرُ بخاطِرِه[10].

2) ﴿نَظَرَ﴾: (نظر) أصلٌ يدلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومعاينتِهِ[11]، ومِنْ ذلك: النَّظرُ، وهو تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيتِهِ[12]، وقد يُرادُ بِهِ التَّأمُّلُ والفَحْصُ[13]، وقد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 54.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 55.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 55.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة: (قدر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(7) الراغب، المفردات: (قدر).
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 706، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 74.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 266.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 308.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(12) الراغب، المفردات: (نظر).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (نظر)، والزمخشري، الكشاف: 3/ 363، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 159.

يُرادُ بِهِ المعرفةُ الحاصلةُ بعدَ الفَحْصِ، وتقولُ: نظرتُ إلى كذا، إذا مددتَ طرفَكَ إليهِ، رأيتَهُ أو لم تَرَهُ، ونظرتُ فيهِ، إذا رأيتَهُ وتدبَّرتَهُ، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ١٧﴾ [الغاشية: 17][1]. والمراد بالنَّظر هنا: التَّأمُّل والتَّروّي[2]. وقد يُراد به نظرُ العينِ ليكونَ زائدًا على ما أفادَهُ فكَّرَ وقدَّر[3].

3) ﴿عَبَسَ﴾: (عبس) أصلٌ يدلُّ على تكرُّهٍ في شيء[4]، ومن ذلك يقال: عبس إذا قطَّبَ ما بين عينيه[5]، وعبَّس تعبيسًا فهو مُعبِّس وعبّاس، فإنْ كشَّر عن أسنانه مع عُبوسه فهو كالح[6]، والعُبوس أيضًا: قُطوبُ الوجه من ضيق الصَّدر، ويقالُ: يومٌ عَبوس[7]، أي: شديدٌ، والعبّاس: الأسدُ الَّذي تهربُ منه الأُسْد[8]. والمراد بـ﴿عَبَسَ﴾ هنا: قطَّب وجهه[9].

4) ﴿وَبَسَرَ﴾: (بسر) أصلٌ يدلُّ على كون الشيء قبلَ وقتهِ وأوانه[10]، ومن ذلك يُقال: بسَرَ الرَّجلُ الحاجةَ، أي: طلبَها في غير أوانها[11]، والبَسْرُ: الإعجال[12]، ويقال لما لم يُدرك من التَّمر: بُسْر، ويقال: بسَرَ، أي: أظهَرَ العُبوسَ قبل أوانه وفي غير وقته[13]، وبسَرَ: عبَسَ، أو أظهَرَ شدَّة العُبوس، أو نظرَ بكراهةٍ شديدة[14]. والمُراد بـ﴿وَبَسَرَ﴾ هنا: كلح وجهُه وتغيَّر لونُه[15].

5) ﴿أَدْبَرَ﴾: (دبر) أصلٌ يدلُّ على آخِر الشيء وخلفه، ومن ذلك يقال: دَبَرَ النَّهارُ وأدبرَ إذا جاء آخِرُه[16]، ودَبَر فلانٌ القومَ، أي: صار خلفهم[17]، وقال تعالى: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ

(1) الراغب، المفردات: (نظر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 266.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 308.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبس).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عبس).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عبس).
(7) الراغب، المفردات: (عبس).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (عبس).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 75، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 54، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسر).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بسر).
(12) الخليل، العين: (بسر).
(13) الراغب، المفردات: (بسر).
(14) الزبيدي، تاج العروس: (بسر).
(15) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 75، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309.
(16) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(17) الراغب، المفردات: (دبر).

﴿٤٠﴾ [ق: 40]، أي: أواخرَ الصَّلوات، وقال: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: 49]، أي: عند الصُّبح في آخِرِ اللَّيل إذا ولَّتْ نحو المغرب، ويقال للقوم في الحرب: ولَّوهُم الدُّبُرَ والأدبارَ[1]، والدُّبُرُ: خِلافُ القُبُلِ[2]. ومعنى ﴿أَدْبَرَ﴾ هنا: ولَّى وأعرَضَ[3].

6) ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[4]، والكِبْرُ: إعجابُ الإنسانِ بنفسِهِ، وذلكَ أنْ يَرَى نفسَهُ أكبرَ مِنْ غيرِهِ، وأعظمُ التَّكبُّرِ التَّكبُّرُ على الله بالامتناعِ مِنْ قبولِ الحقِّ والإذعانِ لهُ بالعبادةِ[5]، والتَّكبُّرُ يقالُ على وجهينِ: أحدُهما: أنْ تكونَ الأفعالُ الحسنةُ كثيرةً في الحقيقةِ، وزائدةً على محاسنِ غيرِهِ، وعلى هذا وُصِفَ الله تعالى بالتَّكبُّرِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]. والثَّاني: أنْ يكونَ متُكلِّفًا لذلكَ مُتشبِّعًا، وذلكَ في وصفِ عامَّةِ النّاسِ، كقولِهِ: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: 72]. والاستكبارُ يقالُ على وجهينِ: أحدُهما: أنْ يطلبَ الإنسانُ أنْ يصيرَ كبيرًا، وذلكَ متى كانَ على ما يجبُ، وفي المكانِ الَّذي يجبُ، وفي الوقتِ الَّذي يجبُ – فمحمودٌ. والثّاني: أنْ يتشبَّعَ فيُظهرَ مِنْ نفسِهِ ما ليسَ لهُ، وهذا مذمومٌ، وعلى هذا ما وردَ في القرآنِ من ذمِّ الاستكبارِ[6]، ومعنى ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ هنا: تعظَّمَ عن أن يؤمن[7].

7) ﴿يُؤْثَرُ﴾: (أثر) أصلٌ يدلُّ على تقديم الشَّيء، وذكرِ الشَّيء، ورسمِ الشَّيء الباقي[8]، ومن ذلك: أثرُ الشَّيء، وهو ما بقيَ من رسمه[9]، ويقال: أثرتُ العلمَ، أي: رويته[10]، والمأثرة: المكرُمة، وإنَّما سُمّيت بذلك؛ لأنَّها يأثرُها – أي: ينقلها – قرنٌ عن قرنٍ، أي: يتحدَّثون بها، وقال تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: 4]، أي: بقيَّة من علم[11]، وآثرَه: أكرَمَهُ[12]. ومعنى

(1) الخليل، العين: (دبر).
(2) الجوهري، الصحاح: (دبر).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 707، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 76.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (كبر).
(6) الراغب، المفردات: (كبر).
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 707، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 76.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثر).
(9) الرازي، مختار الصحاح: (أثر).
(10) الراغب، المفردات: (أثر).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (أثر).
(12) الزبيدي، تاج العروس: (أثر).

﴿سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾: ينقله عمَّن قبله من السَّحَرة، أو يُؤثَرُ - أي: يُفضَّل - على جميع السِّحر، وعلى هذا يكون من الإيثار[1].

8) ﴿ٱلۡبَشَرِ﴾: (بشر) أصلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجمالٍ[2]، ومن ذلك يقال: بشَرني فلانٌ بوجهٍ حسن، أي: لقيَني فلانٌ وهو حسنُ البَشَرِ، أي: طَلْقُ الوجهِ[3]، والبَشَرةُ: ظاهرُ جلدِ الإنسان[4]، وسُمّيَ الإنسانُ بالبَشَرِ اعتبارًا بظُهورِ جلدِهِ منَ الشَّعَرِ، بخلافِ الحيواناتِ الَّتي عليها الصّوفُ أو الشَّعَرُ أو الوَبَرُ[5]، ومن ذلك اشتُقَّت مباشرة الرَّجل المرأةَ؛ لتضامِّ أبشارهما[6]. والمراد بالبَشَر هنا: الإنسان المخلوق[7].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

استكبارُ الوليد وكذِبُ شهادتِهِ في حقِّ القرآن

يقول جلَّ ذكره: إنَّ الوليد بن المغيرة فكَّر فيما يقوله في شأنِ القرآن حين سُئل عنه، وتروَّى في ذلك - فلُعِنَ أو هلكَ في تفكيرِهِ وتقديرِهِ - ثمَّ أعادَ النَّظرة والتَّروّيَ، ثمَّ قبضَ بين عينَيه وقطَّب، وتغيَّرَ وجهُهُ على سبيل الكراهة، ثمَّ صُرِفَ عن الحقِّ، ورجعَ القهقرى مُستكبِرًا عن الانقيادِ للقرآن، فقال: ما هذا إلّا سِحْرٌ تعلَّمَهُ من غيره، ما هذا إلّا كلامُ البشر، وليسَ بكلامِ اللهِ!![8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾:

تفكيرُ الوليدِ وتقديرُهُ سببُ وعيدِهِ، وصورة من صور عناده

فُصل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه تعليلٌ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 707.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).
(3) الرازي، مختار الصحاح: (بشر).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (بشر).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (بشر).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (بشر).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 76.
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 23 - 26، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 266.

للوَعيد، واستحقاقِهِ لَهُ، أو بيانٌ لعِنادِهِ لآياتِه ﷻ كأنَّ اللّٰه تعالى عاجَلَهُ بالفقرِ بعدَ الغِنى، والذُّلِّ بعد العزِّ في الدُّنيا بعِنادِه، ويُعاقَبُ في الآخرة بأشدِّ العذاب وأفظَعِه؛ لبُلوغِه بالعناد غايتَهُ وأقصاهُ في تفكيره وتسميتِه القرآنَ سِحْرًا[1].

ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ بدلًا من قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ بيانًا لكُنْهِ عناده[2] وتفسيرًا له، ويكون ما بينهما من الجُمَلِ اعتراضًا[3].

نكتةُ توكيدِ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾:

ما صَدَرَ من الوليد لا يرضَى به عاقل

أكِّد قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ للتَّنبيه على استبعاد العقلاء لما صنع لبُعده عن الصَّواب، ومعرفة كلِّ ذي عقل أنَّه كذب[4]، ولزيادة التَّسجيل عليه بهذه الأفعال القبيحة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّفكيرِ والتَّقديرِ:

حرص الوليد بن المغيرة على إضلال النّاس

عبِّر بالتَّفكير والتَّقدير في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الوليد قد كرَّر فِكْرَهُ وأدارَهُ تابعًا لِهَواهُ؛ لأجل الوقوعِ على شيءٍ يَطعنُ به في القرآن، وزوَّر في نفسه كلامًا في الطَّعن في القرآن، وقدَّره تقديرًا أصابَ به ما في نفوس قريش، وما بهِ وافقَ غرَضَهُم[5]. وفي ذلك تنبيهٌ على حِرصه الشَّديد على التَّمويه على الدَّهْماء من النّاس ليُزيلَ منهم اعتقادَ أنَّهُ وحيٌ أوحيَ به إلى النَّبيِّ ﷺ[6].

بلاغةُ صيغة الماضي المضعَّف في ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾:

قبحُ أفعالِ الوليد متحقِّق

جيء بصيغة الماضي في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ للإيماء إلى

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 648 - 649، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 266، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 136.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 649، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 417، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 136.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 52.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 52 - 53، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 392، والمراغي، تفسير المراغي: 29/ 132.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 307.

أنَّ تفكيرَ الوليد وتقديرَهُ أمران قد تحقَّقَ وقوعُهما قبل نزول هذه الآية، وفي ذلك مزيدُ تسجيلٍ عليه بهذه الأحوالِ الشَّنيعة الَّتي صدَرت منه وخلَّد القرآنُ ذِكرَها. والتَّضعيفُ فيه للمُبالغةِ في هذين الفِعلين.

غرضُ تقديمِ التَّفكيرِ على التَّقديرِ:

قُدِّم التَّفكير على التَّقدير في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ لأنَّ التَّفكير وسيلةٌ إلى التَّقدير[1]، والتَّقديرُ غايةُ التَّفكير[2].

نكتةُ حذفِ متعلّقِ ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾:

حُذِفَ متعلّق التَّفكير والتَّقدير في قوله ﷻ: ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ إيجازًا لظُهورِهِ من السّياق، والمعنى: فكَّر فيما يظنُّه طعنًا في القرآن، وقدَّر في نفسِهِ ما يقولُ فيه[3].

معنى الفاءِ في ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ فصيحةٌ للاعتراضِ الدّاخليِّ، والسَّببيَّة[4]؛ جيءَ بها لتفريعِ ذمِّ الوليد عن سيِّئِ فِعله؛ لأنَّ الذي ذُكِرَ يوجِبُ الغضبَ عليه[5].

بلاغةُ موقعِ ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾:

الـدُّعـاءُ على الـولـيـد مـحَـطُّ الاهتمام

قولُه جلَّ من قائل: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ كلامٌ معترِضٌ بين ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ وبين ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، والتَّفريع بالفاء لا يُنافي الاعتراضَ؛ لأنَّ الاعتراض وضعُ الكلام بين كلامَين متَّصلين مع قطعِ النَّظر عمّا تألَّف منه الكلامُ المُعترِض؛ فإنَّ ذلك يجري على ما يتطلَّبه معناه، والدّاعي إلى الاعتراض هو التَّعجيلُ بفائدة الكلام للاهتمام بها[6].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 418.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261.
(4) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين: 2042.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 308.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 308.

براعةُ التَّعبيرِ بالقتلِ ماضيًا:

الوليدُ ملعونٌ ومقهورٌ ومغلوبٌ وهالكٌ، ووعيدُهُ حاصلٌ لا محالة

عُبِّر بالقتل في قوله ﷻ: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ على سبيلِ المُبالغة في الدُّعاء على الوليد، والمعنى: لُعِنَ، أو قُهِرَ وغُلِبَ[1]، أو هلكَ هلاكًا هو في غايةِ العظمة[2]. وجيءَ بصيغة الماضي في قوله تعالى شأنه: ﴿فَقُتِلَ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ مضمونِ الدُّعاء على الوليد، والتَّنبيه على حصوله؛ وفي ذلك وعيدٌ له وحثٌّ له على تركِ ما هو عليه من العِناد.

بلاغةُ البناءِ للمفعولِ في فِعلَي القتل:

هلاكُ الوليدِ عاجلًا مطلوب

عُبِّر بالبناء للمفعول في ﴿فَقُتِلَ﴾ و﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ الكلام دعاءٌ على الوليد بأن يقتله قاتلٌ أيًّا كان، فهو دعاءٌ عليه بتعجيلِ موته؛ لأنَّ حياته حياةٌ سيِّئة، فضلًا عن عدم تعيين مُهلِكه[3].

نكتةُ الاستفهامِ في ﴿كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ في الموضعين:

تقديرُ الوليدِ عجيبٌ فظيع

الاستفهام في قوله ﷻ: ﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ للتَّعجُّب والاستعظام، من تقديره. كقولهم: قتله اللّٰه ما أشجعَه، وأخزاه اللّٰه ما أشعرَه، ومعناه: أنَّهُ قد بلغَ المبلغ الَّذي هو حقيقٌ بأن يُحسَدَ ويدعوَ عليه حاسدُهُ بذلك، وهو هنا يحتملُ وجهَين: أحدهما: أنَّهُ تعجيبٌ من قوَّة خاطِره، يعني: أنَّه لا يُمكن القدحُ في أمرِ محمَّدٍ ﷺ بشُبهةٍ أعظمَ ولا أقوَى ممّا ذكَرَهُ هذا القائل. والثّاني: الثَّناءُ عليه على طريقة الاستهزاء، يعني: أنَّ هذا الَّذي ذكَرَهُ في غاية الرَّكاكة والسُّقوط[4].

نكتةُ تكريرِ جملة ﴿قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾:

مَنْ فرحَ بمَحصول تفكيرِهِ أُعلِمَ بسوءِ تدبيره

تكريرُ الدُّعاءِ بالقتلِ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ للمبالغة[5] في التَّعجُّب منه، كما هو معتادٌ ممَّنْ أُعجِبَ غايةَ الإعجاب أنَّهُ يُكثر

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 330.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 308.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 706، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 57، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 136.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 564.

من التَّعجُّب ويُكرِّره[1]. والإطراءُ في الإعجاب بتقدير الوليد يدلُّ على غاية التَّهكم به بَلَهَ مَنْ فرحَ بمحصولِ تفكيره[2].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾:

الـدُّعـاءُ على الوليد بالقتلِ عظيمُ الشأن

﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾؛ للدَّلالة على تفاوُتِ الرُّتبة، فتُفيدُ أنَّ النَّظر كان بعد التَّفكير والتَّقدير، وأنَّ المرَّة الثَّانية أبلغُ من الأولى[3]؛ لأنَّ (ثمَّ) في الأصل للتَّراخي الزَّمانيِّ. ويَجوزُ أن تكون استُعيرت للتَّراخي الرُّتبيِّ، فتُفيد الأبلغيَّةَ؛ إذْ بانضِمامِها إلى الأوَّل يكون متزايدًا في التَّعجيب[4]. كأنَّه دُعيَ عليه أوَّلًا ورُجيَ أن يُقلع عمّا كان يَطلبه، فلم يفعل، فدُعيَ عليه ثانيًا[5]؛ لأنَّ نظرَهُ وعُبوسَهُ وبسرَهُ وإدبارَهُ واستكبارَهُ مقارنة لتفكيره وتقديره، وهذه الأفعال ارتقاءٌ مُتوالٍ فيما اقتضى التَّعجيبَ من حالهِ والإنكارَ عليه[6]. ويكون المعنى: "قُتل بنوعٍ ما من القتل، لا بل قُتل بأشدِّه وأشدِّه، ولذا ساغَ العطفُ فيه مع أنَّه تأكيد"[7].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿نَظَرَ﴾ ماضيًا:

إصـرارُ الوليد على الباطل مع ظُهور الحقِّ له

عُبِّر بلفظِ النَّظر في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾؛ للدَّلالة على طولِ ترَوِّي الوليد في أمر القرآن، وأنَّهُ كان يُردِّد النَّظر مرَّةً بعد أخرى فيما يَدفع به أمرَ القرآن، وفي ذلك إشارةٌ إلى قُبح أفعاله، وإصرارِهِ على الباطل مع ظهور الحقِّ له؛ فإنَّ تكرارَ النَّظر في الحقِّ لا يَزيدهُ على كلِّ حالٍ إلّا ظُهورًا، ولا يَزيدهُ في الباطل إلّا ضَعفًا وفُتورًا[8].

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 274، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 354.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 137.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 649 - 650، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 706، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 58.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 420.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 330.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 137.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53 - 54.

تحيُّر الوليد فيما يَصفُ به القرآن

ويحتمل أن يكون النَّظرُ نظرَ العين؛ ليكون زائدًا على ما أفادَهُ ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، والمعنى: نظرَ في وجوه الحاضرين يستخرجُ آراءَهُم في انتحالِ ما يَصفون به القرآن[1].

وجيء بالفعل ﴿نَظَرَ﴾ على هيئةِ الماضي؛ للتَّنبيه على تحقُّق نظرِ الوليد ووقوعِه قبل نزول هذه الآية.

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ النَّظرِ:

حُذف متعلِّق النظر في قوله ﷻ: ﴿نَظَرَ﴾ إيجازًا لظهوره من السّياق، والتَّقدير: ثمَّ نظرَ فيما يَدفَعُ به أمرَ القرآن[2].

توجيه العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾:

رصدُ ملامحِ وجهِ الوليدِ بن المغيرة

﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ للتَّرتيب، مع التَّراخي الزَّمنيِّ[3]، فتُفيد أنَّ العبسَ والبُسورَ كانا بعدَ النَّظر، وفي ذلك رسمٌ لملامح وجهِ الوليدِ قبلَ أن يقولَ في حقِّ القرآن ما قال.

نكتةُ التَّعبير بالفعلَين: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ ماضيَين:

كتابٌ يحفظُهُ اللهُ تعالى لا سبيلَ إلى الطَّعنِ فيه

معنى ﴿عَبَسَ﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾: قطَّبَ وجهَهُ لمّا استعصَى عليه ما يصفُ به القرآن ولم يَجدْ مغمَزًا مقبولًا. ومعنى (بسر): كلحَ وجههُ وتغيَّرَ لونُهُ خوفًا وكمَدًا حين لم يجد ما يشفي غليلَهُ من مَطعَنٍ في القرآن لا تردُّه العقول[4].

كلَّما زادَ الإدبارُ زادَت نُكتةُ القلب وسَوادُ الوجه

وعطف (بسر) على ﴿عَبَسَ﴾ في الآية؛ لتأكيدِه مع مغايرة معناهُ بحسب الوصف؛ فالبُسور هو شدَّةُ العُبوس[5]، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ تغيُّر وجهِه يزدادُ حتَّى كلحَ وجهُه واسودَّ[6]. وجيءَ بالفعلين على صيغة الماضي؛ للدَّلالة على حصول العبس والبسور وتحقُّقهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 53 - 54.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 649 - 650.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 421.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 133.

توجيه العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ على أصلها من التَّراخي الزَّمانيِّ[1]، فتفيد أنَّ الإدبار والاستكبار كانا بعد العُبوس والبُسور.

نكتةُ التَّعبير بالفعلَين: ﴿أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ ماضيَين:

الإدبـــــارُ والاســتـكـبـارُ راســخــان في الوليد

جيءَ بصيغة الماضي في قوله جلَّ من قائل: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ للدَّلالة على حصولِ الإدبارِ والاستكبار وتحقُّقهما، وفي ذلك مزيدُ تقبيحٍ لشأنِ الوليد، وتصويرٌ لصورةٍ من صور عِناده للحقِّ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الإدبارِ:

انصرافُ الوليدِ إلى الأنفةِ والمُعارضةِ للحقِّ

يجوز أن يكون الإدبار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ مستعارًا لتغيير التَّفكير الَّذي كان يُفكِّره ويُقدِّره؛ يأسًا من أن يجد ما فكَّر في انتحاله، فانصرَفَ إلى الاستكبار والأنفة من أن يشهدَ للقرآن بما فيه من كمالِ اللَّفظ والمعنى.

زيادةُ إعراضِ الوليد عن الحقِّ

ويجوزُ أن يكون مستعارًا لزيادة إعراضِهِ عن تصديقِ النَّبيِّ ﷺ، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾ [النازعات: 22]. حكايةً عن فرعون. وفي هذه الاستعارة وصفٌ لأشكالِهِ التي تشكَّلَ بها لمّا أجهَدَ نفسَهُ لاستنباطِ ما يصفُ به القرآن، وذلك تهكُّمٌ بالوليد[2].

نكتةُ عطفِ الاستكبارِ على الإدبارِ:

الاستكبارُ سببُ الإدبارِ عن الحقِّ

عطفُ الاستكبار على الإدبار في قوله تعالى شأنه: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ من قبيل عطف السَّبب على المسبَّب؛ فالاستكبارُ سببٌ للإدبار؛ إذ الاستكبار معنًى في القلب، والإدبارُ حقيقةً من فعل الجسم؛ فهما سببٌ ومسبَّب[3].

دلالةُ صيغة الاستفعالِ في ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾:

جيءَ بالفعل (اسۡتَكۡبَرَ) على صيغة الاستفعال؛ للدَّلالة على شدَّة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 58.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309 - 310.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 331.

تعاظُمِ الوليد، وأنَّه يرَى نفسَهُ أكبرَ من غيرها، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّهُ قد بلغَ أقصَى غاياتِ العِناد والكِبْر.

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ الإدبارِ والاستكبارِ:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ إيجازٌ بحذف متعلِّقي الفعلين لظُهورِهما من السّياق، والمعنى: ثمَّ أدبر عن الحقِّ أو الرَّسول ﷺ، واستكبرَ عن اتِّباعه[1].

معنى الفاءِ في ﴿فَقَالَ﴾:

غلبةُ الباطل للوليد بن المغيرة

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ عاطفةٌ للتَّرتيب، والتَّعقيب، والسَّببيَّة، وفي إيثار التَّعبير بها دلالةٌ على أنَّه لمّا خطرَتْ هذه الكلمةُ ببالِه تفوَّهَ بها من غير تلبُّثٍ وتفكُّرٍ في عاقبتها[2]، وكأنَّه لم يتمالك أن نطقَ بها[3]، وذلك من فرطِ علوِّه وعِناده.

بلاغةُ القصرِ في ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾:

حيرةُ الوليد فيما يَصفُ به القرآنَ بالباطل

صيغة الحصر في قوله ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ مُشعِرةٌ بأنَّ استقراء أحوالِ القرآن بعد السَّبر والتَّقسيم أنتجَ للوليد أنَّه من قبيل السِّحر، فهو قصرُ تعيينٍ لأحد الأقوال الَّتي جالت في نفسه؛ لأنَّه قال: ما هو بكلامِ شاعر، ولا بكلامِ كاهن، ولا بكلامِ مجنون[4].

فائدةُ التَّعبير باسمِ الإشارةِ للقريبِ ﴿هَٰذَآ﴾:

استهانةُ الوليد بشأنِ القرآن

الإشارةُ في قوله تعالى ذكره: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ الى القرآن، وقد جيءَ باسم الإشارة للقريب؛ للدَّلالة على تحقير الوليد للقرآنِ واستهانته بشأنه، كما يدلُّ عليه مقامُ العِناد والاستكبار، أو على قُرب القرآن منه باعتبار أنَّه كان يفكِّر ويردِّد النَّظر فيما يَقولهُ في حقِّه، وكأنَّه ماثلٌ بين عَينَيه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 55.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 310.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 310.

براعةُ التَّعبيرِ بالسِّحرِ:

القرآن محضُ تخييلاتٍ في نظرِ الوليد

عُبِّرَ بالسِّحرِ في قوله ﷻ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾؛ للدَّلالة على غاية تدليس الوليد على قومه، حيث وصفَ لهم القرآنَ بأنَّه أمورٌ تخييليَّة لا حقائق لها، وهي لدقَّتها بحيث تخفى أسبابُها[1]، واحتجَّ لذلك - على حدِّ زعمِه - بأنَّ القرآنَ يفرِّقُ بين الرَّجل وأهله وولده ومواليه[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿سِحْرٌ﴾:

شأنُ القرآن هيِّنٌ عند الوليد

الظّاهر أنَّ تنكير ﴿سِحْرٌ﴾ في قوله جلَّ ذِكره: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ للإفراد، والمعنى: فردٌ من أفراد الجنس المسمَّى بالسِّحر، وفي ذلك ما لا يخفى من الاستهانة بالقرآن والتَّحقير والتَّهوين لشأنه.

بلاغةُ وصفِ السِّحرِ بأنَّهُ مأثورٌ:

شــدَّةُ تدليس الوليد وتمويهِهِ للحقائق

وصفُ السِّحر بأنه ﴿يُؤْثَرُ﴾، بمعنى: أنَّه مرويٌّ عن الأقدَمين في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾؛ لدفع الوليد اعتراضًا يَرِدُ عليه، وهو أنَّ أقوالَ السَّحَرة وأعمالَهُم ليست مُماثلةً للقرآن ولا لأحوال الرَّسول، فزعم أنَّه أقوالٌ سِحريَّة غير مألوفة[3]، وفي ذلك مزيد تنبيهٍ على شدَّة تدليسه وتمويهه للحقائق، ومحاولته استرضاءَ قومِه بذِكرِ طعنٍ في القرآنِ الكريم وإنْ كان بعيدًا كلَّ البُعد عن الصَّواب.

بلاغةُ صيغة المضارعِ المبنيِّ للمفعول ﴿يُؤْثَرُ﴾:

من صور الهَوان الاســتـخـفـافُ بالقرآن

صيغة المضارع في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يُؤْثَرُ﴾ لحكايةِ الحال الماضية، أو للاستمرار؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ بصَدَد التَّعلُّم بعد قولِ الوليدِ، على زعمه[4].

وجيءَ بصيغة المبنيِّ للمفعول في قوله ﷻ: ﴿يُؤْثَرُ﴾؛ للدَّلالة على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 55.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 75.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 310.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 421.

أنَّه سِحرٌ منقولٌ عن الأقدمين أيًّا كان المنقولُ عنه، وكأنَّه أمرٌ كثيرٌ شائعٌ، ونقَلَتُهُ كُثُرٌ، وفي ذلك مزيدُ استخفافٍ بشأن القرآن.

علَّةُ فصلِ ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾:

مقصودُ الوليد إثباتُ بشريَّة القرآن

فُصل قوله ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ عمّا قبله، ولم يُعطف عليه؛ لأنَّه بمنزلة التَّأكيد له[1]، أو بمنزلة بدل اشتمال؛ لأنَّ السِّحر يكون أقوالًا وأفعالًا، فهذا من السِّحر القوليِّ. وهذه الجملة بمنزلة النَّتيجة لِما تقدَّم؛ لأنَّ مقصودَهُ من ذلك كلِّه أنَّ القرآن ليس وحيًا من اللّه[2].

بلاغةُ القصرِ في ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾:

محاولةُ الوليدِ إظهارَ الباطل بصورةِ الحقِّ

القصر بـ ﴿إِنۡ﴾ و﴿إِلَّا﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الوليد لم يجد بعد طول التَّفكُّر والتَّأمُّل وصفًا لحقيقة القرآن سوى هذا الوصف، وفي اختياره هذا الأسلوبَ زيادةُ تدليس منه على قومه، وإظهارٌ للباطل في صورة الحقِّ الرّاسخ.

سرُّ تكرارِ اسمِ الإشارةِ للقريبِ:

حرصُ الوليد على استمرار قومِهِ على التَّكذيب

كُرِّر اسمُ الإشارة للقريب في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾، ولم يُقل مثلًا: (إنْ هو إلّا قول البشر)؛ لزيادة إظهار الوليد الاستهانةَ بشأن القرآنِ أمام قومِه؛ ليَحُثَّهم على الاستمرار في تكذيبهم.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾:

شدَّةُ إصرار الوليد على نفي الإلهيَّة عن القرآن

الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ لاميَّة، والغرض منها إثباتُ أنَّ القرآن ليس فيه شيءٌ عن اللّه، فلا يغترَّ أحدٌ به، ولا يُعرِّج عليه[3]، وفي ذلك ما لا يخفى من تصوير غلوِّ الوليدِ في كُفرِهِ وعِنادِهِ للحقِّ وأهله.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 565.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 310.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 56.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡبَشَرِ﴾:

ادِّعاءُ الوليد قدرةَ البشر على الإتيانِ بمثل القرآن

تعريف ﴿ٱلۡبَشَرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ للجنس، أي: قولُ الجنس المعروف، وهو جنس البشر، وكأنَّ الوليد يُريدُ أن يقول: إنَّ الإتيانَ بمِثل هذا القرآن يَسير، وشأنه كشأنِ كلامِ سائرِ البشر.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العُبوس والبُسور والكَلح:

شــدَّةُ كـراهـةِ الـولـيـد عـند التَّفكُّر في شأن القرآن

العُبوس: تقطيبُ ما بين العينين[1]، والبُسور: تغيُّر لون الوجه من خوفٍ ونحوه[2]. والكَلح: التَّكشُّر في عُبوس[3]. وقد عبِّر بالعبوس والبُسور هنا؛ للدَّلالة على أنَّ الوليد لمّا استعصى عليه ما يصفُ به القرآن، ولم يجد مغمَزًا مقبولًا؛ قطَّب وجهه، وتغيَّر لونُه خوفًا وكمدًا حين لم يجد ما يشفي غليله من مطعنٍ في القرآنِ لا تردُّه العقول[4]، وللإيماء إلى أنَّه أظهرَ الكراهة الشَّديدة عند التَّفكُّر في هذا الشَّأن[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 395.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309.
(3) الزبيدي، تاج العروس: (كلح).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 309.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 54 - 55.

﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ٢٩ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ [المدثر: 26 - 30]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بيانُ بعضِ جزاءِ الوليد في الآخرة

بعد قوله تعالى على لسان المكذِّبين: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ ناسبَ ذلك قوله تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾؛ ذلك أنَّه لمّا انقضى بيانُ عِنادِ الوليد، فحصلَ التَّشوُّف لتفصيل جزائه في مَعادِه؛ بُيِّنَ بعضُ ذلك الجزاء[1].

ثمَّ ناسَبَ ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؛ فبعدَما أثبتَ له عذابَ سَقر؛ عظَّمَهُ وهوَّله[2].

ولمّا أثبتَ لسَقر هذه العظَمة، زادَها عظمًا ببيان فِعلِها بقوله: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾[3].

ولمّا كان تغيُّرُ حالِ الإنسان إلى دون ما هو عليه غائظًا له موجِعًا إذا كان ذلك تغيُّرَ لونِه؛ بيَّن ﷻ شدَّةَ فِعلِ سقر في ذلك بقوله: ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَأُصۡلِيهِ﴾: (صلي) أصلٌ يدلُّ على النّارِ وما أشبهَها مِنَ الحُمَّى[5]، والصَّلْيُ: الإيقادُ بالنّارِ، يقالُ: صَلِيَ النّارَ، واصطلَى بها، وصَلِيَ بها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠﴾ [مريم: 70][6]، ويقال: صَلَيْتُ الشّاةَ: شَوَيْتُها، فهي مَصْليَّةٌ، وصلَى اللَّحمَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 59.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 59.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 59.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 60.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلي).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (صلي).

وغيرَهُ يصليه صَلْيًا: شواهُ، وصلى العصا بالنّار: ليَّنَها وقوَّمَها[1]. والمرادُ هنا: أنَّه يُدخَلُ سقرَ ويُقاسي حرَّها[2].

2) ﴿سَقَرَ﴾: (سقر) أصلٌ يدلُّ على إحراقٍ أو تلويح بنار[3]، وسقَرات الشَّمس: شدَّة وقعِها، ومن ذلك يقال: سَقَرتْهُ الشَّمسُ، إذا لوَّحَتْهُ وآلَمَتْ دِماغه بحرِّها[4]. ويوم مسمقرٌّ ومصمقرٌّ: شديدُ الحرِّ، والسّاقور: حديدة تُحمَى ويُكوَى بها الحمار[5]، والسَّقر: البُعد، وسقرُ باب من أبواب جهنَّم؛ لأنها تلفَحُ وجوه أهلها[6]. وهي المُرادة هنا.

3) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾: (دري) أصلٌ يدلُّ على قصد الشَّيء واعتمادِه طلبًا[7]، ومن ذلك: الدِّراية، وهي العِلم[8]، قال تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝١﴾ [الطلاق: 1]، وقال: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝١١١﴾ [الأنبياء: 111]، والدِّراية أيضًا: المعرفةُ المُدرَكة بضربٍ من الحيَل، يقال: دَرَيْتُهُ، ودرَيتُ به دِريةً، ويقال: أتى فلان الأمرَ من غير دِريَة، أي: من غير علم[9]. والمراد هنا: ما أعلمَك[10].

4) ﴿لَا تُبۡقِي﴾: (بقي) أصلٌ يدلُّ على الدَّوام، والبقاء، وهو الدَّوام[11]، أو ثباتُ الشَّيء على حاله الأولى، وهو يُضادُّ الفناء، ويقال: بقيَ الرَّجل زمانًا طويلًا، أي: عاش، واستبقَى من الشَّيء: ترك بعضَه، واستَبْقاه: استَحياه[12]، وقال تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨﴾ [الحاقة: 8]، أي: بقاء[13]. والمراد هنا: لا تتركُ شيئًا يُلقى فيها ولا تدَعُه حتَّى تُهلكَه[14].

5) ﴿تَذَرُ﴾: (وذر) الواو والذّال والرّاء كلمتان: إحداهما: الوَذْرة، وهي قطعة لحمٍ

---

(1) الراغب، المفردات، والرازي، مختار الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صلي).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 395، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 77.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقر).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (سقر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سقر).
(6) الراغب، المفردات: (سقر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دري).
(8) الرازي، مختار الصحاح: (دري).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (دري).
(10) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 58.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (بقي).
(12) الرازي، مختار الصحاح، والراغب، المفردات: (بقي).
(13) الجوهري، الصحاح: (بقي).
(14) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261.

صغيرةٌ سمّيت بذلك لقلَّة الاعتداد بها. ومن هنا عُدَّ أصْلهُ من القَذف. يقال: فلانٌ يَذرُ الشيء، أي: يَقذِفُه لقلَّة اعتدادِه به. وعلى ذلك عُبِّر بالتَّركيب عن معنى التَّرك، الذي هو مفارقةٌ للشيء وانفصالُهُ أو تخلّيه عنه. تقول: ذَرْهُ، أي: دَعْهُ. و(وذره يَذَرُهُ)، مثل (وَسِعه يَسَعُهُ)، وقد أُميتَ ماضيه، ومَصدرُه. فلا يقال وذِرَهُ ولا واذِرٌ، ولكن: تركَهُ وهو تارِكٌ، وكلُّ ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى (التَّرك)[1].

6) ﴿لَوَّاحَةٌ﴾: (لوح) أصلٌ يدلُّ على اللَّمَعان[2]، ومن ذلك يقال: لاحَ البرقُ وألاحَ، أي: أومَضَ، ولاحَ النَّجمُ وألاحَ: بدا، ولوَّحَهُ الحرُّ: غيَّرَه[3]، ولاحَ: عطشَ، والمِلواح من الدَّوابِّ: السَّريعُ العطَش، ويُقال: ألاحَ بحقّي، إذا ذهبَ به[4]. والمُرادُ بكون سقر لوّاحةً: أنَّها مغيِّرةٌ لبشرِ أهلِها[5]، وتُسبِّبُ لهم العطشَ، أو أنَّها تَلوحُ لهم - أي: تظهَرُ - من مسيرة خمسمائة عام[6].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

أهـوالُ سَقر كثيرةٌ فظيعة

يقول تعالى ذكره: سأُدخِلُ الوليدَ بن المغيرة بابًا من أبواب جهنَّم اسمُه سقر، وأيُّ شيء أعلمَكَ يا محمَّد أيَّ شيءٍ سقر؟! ثم بيَّن اللّه تعالى ذِكرُهُ ما سَقر، فقال: هي نارٌ لا تُبقي من فيها حيًّا، ولا تتركُ مَن فيها ميتًا، ولكنَّها تحرقهُم كلَّما جُدِّدَ خَلْقُهم، أو لا تُبقي لحمًا ولا عظمًا، وهي مغيِّرةٌ لبشر أهلها، وتُسبِّبُ لهُم العطشَ، وعليها تسعة عشر من الخَزَنة[7].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لوح).
(3) الراغب، المفردات: (لوح).
(4) الجوهري، الصحاح: (لوح).
(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 27.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 708.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 26 - 28.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ عمّا قبلَهُ:

اشتمالُ سقر على الشدائد

فُصِلت جملة ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ، فذكر سبحانه وعيدَهُ بعذاب الآخرة[1]. ويحتمل أن تكونَ بدلَ اشتمالٍ من جملة ﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾؛ لاشتمالِ سقرَ على الشَّدائد[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المقرونِ بالسّينِ في ﴿سَأُصۡلِيهِ﴾:

التَّعبير بالمضارع المُصدَّر بالسّين في قوله: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ إصلاءَهُ النّارَ كائنٌ بوعيدٍ لا بدَّ منه عن قُربٍ[3]، فهو وعدُ اللّه الَّذي لا يُخلِفُ الميعادَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالإصلاءِ دونَ الإدخالِ:

جـزاءُ الولـيدِ الغَمْرُ في النّار مـن جـمـيـعِ الجهات

إنَّما قيل: ﴿سَأُصۡلِيهِ﴾ دون (سأُدخله)؛ لأنَّ الإصْلاءَ الإدخالُ في النّار للإحراقِ، والدُّخولُ أعمُّ منه؛ كدخول أهل الجنَّة في النّار للمرور إلى الجنَّة[4]، وفي التَّعبير بالإصلاءِ أيضًا إيماءٌ إلى غَمْرِ الوليد في النّار من جميع جهاته[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿سَقَرَ﴾:

ملاءمةُ الاسمِ لمقامِ السَّخطِ

عُبِّر بـ ﴿سَقَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾؛ لدلالة هذه الاسم من أسماء النّار على الإحراق، فهو مَن سَقَرَتْه الشَّمسُ إذا أذابَتْهُ ولوَّحَتْهُ، وأحرقَتْ جِلدةَ وجهه[6]، فيكون أنسبَ بسياقِ التَّهديد والوعيد، ومقامِ السَّخَط على الوليد بن المغيرة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 310 - 311.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 650، والطيبي، فتوح الغيب: 16/ 131، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 356.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 59.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 422.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 267.

(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 77.

معنى الواوِ في ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾:

شأنُ سقرَ عظيمٌ

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ للاستئناف، والجملةُ مستأنفةٌ لتعظيم شأن سقر من خلال الاستفهام الدّالّ على فظاعةِ شأنها. وأنّ ذلك مخالفٌ لما نعرِفُه من أحوالِ السَّقر في الشّاهد[1].

غرضُ الاستفهامِ في ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾:

هَولُ سقر لا يُدرَكُ كُنْهُهُ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ ليس على حقيقته، بل الغرضُ منه التَّعجيبُ من عِظَم أمرِ سقر وعذابها[2]، وتفخيمُ شأنها، وذلك أنَّ الاستفهام دالٌّ على أنَّها ممّا لا يُدرَكُ حقيقته ويُفهَمُ مِثله[3]. والعربُ تقول: وما أدراكَ ما كذا إذا أرادوا المبالغة في أمرِهِ وتعظيمَ شأنِه وتهويلَ خَطْبه[4]. والمعنى هنا: وما أدراك أيَّ شيءٍ هي في وصفها؟![5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالدِّرايةِ:

عِلمُ حقيقةِ سَقر خارجٌ عن طَوْقِ البشر

عبِّر بالدِّراية في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك لا يُعلَمُ وإن اجتهد المخاطَبُ في البحث، يعني: أنَّ عِلم هذا خارجٌ عن طَوْق البشر، لا يمكنُ أن يصلَ إليه أحدٌ منهم؛ لأنَّه أعظمُ من أن يطَّلع عليه بشر[6].

سرُّ التَّعبيرِ عن فعل الدِّراية بالماضي دونَ المضارِع:

السُّؤالُ عن سَقر مصحوبٌ بالبيان

جيءَ بالماضي دون المضارع في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؛ لأنَّ عادة القرآن قد جرَت بأنَّ (ما أدراك) يعقُبُه بيانُه، و(ما يدريك) لا يعقُبه البيان[7]، وهنا قد أُعقِبَ السُّؤالُ بالجواب والبيان.

---

(1) الراغب، المفردات: (سقر).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 395.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 275.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 393.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 58.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 59.
(7) الراغب، المفردات: (دري).

سرُّ تكرارِ ﴿سَقَرُ﴾:

الظّاهر أنْ يقال: (وما أدراك ما هي)، لكن عُدِلَ إلى تكرار ﴿سَقَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؛ لاستحضارها باسمِها المُخيفِ الَّذي يبثُّ الرُّعبَ في النُّفوس والقلوب.

علَّةُ فصلِ ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾:

من فخامةِ شأنِ سَقر إهلاكُها كلَّ مَن يَصلاها

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه بيانٌ لتفخيم شأنها، أو حالٌ من سقر، والعاملُ فيها معنى التَّعظيم المستفادُ من الاستفهام. أي: استعظِمْ سقر حالَ كونها لا تُبقي ولا تذر[1]، أو بدلُ اشتمال من التَّهويل الَّذي أفادته جملة وما أدراك ما سقر؛ فإنَّ من أهوالها أنَّها تُهلك كلَّ مَن يصلاها[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾:

سقر لا تتركُ ما يُلقَى فيها على حالِه

عبِّر بالمضارع المنفيِّ في قول الحقِّ جلَّ ذكره: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾؛ للدَّلالة على استمرار انتفاءِ الإبقاء، والتَّرك، والمعنى: لا تتركُ سقرُ شيئًا يُلقَى فيها على حالة البقاءِ على ما كان عليه، بل هي دائمةُ الإهلاك لكلِّ ما يُلقَى فيها[3].

نكتةُ تكرارِ حرفِ النَّفيِ في ﴿وَلَا تَذَرُ﴾:

كُرِّر حرف النَّفي في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ لتأكيد النَّفي المُستفاد من ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا تُبۡقِي﴾، وذلك أدخَلُ في تعظيم هَوْلِها.

سرُّ حذفِ مفعولَي الفعلين في ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾:

سقر لا تتركُ شيئًا ممّا يُلقى فيها

في قوله ﷻ: ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ إيجازٌ بحذف مفعولَي الفعلين لقصدِ العموم، والمعنى: لا تُبقي منهم أحدًا، أو لا تُبقي من أجزائهم

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 261، والسّمين، الدر المصون: 10/ 545، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 422.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 312.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 59 - 60.

شيئًا[1]، فلا تتركُ لهم عَظمًا ولا لحمًا ولا دمًا إلّا أحرقته[2]، ثم يُبدَّلون غيرَ ذلك، وهم في ذلك لا يموتون ولا يَحيَون[3].

سرُّ ذكرِ ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ بعد ﴿لَا تُبْقِي﴾:

ذِكر ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ بعد ﴿لَا تُبْقِي﴾ للتَّأكيد والمُبالغة، كما يُقال: صدَّ عنّي، وأعرضَ عنّي[4]؛ فبمَجموع المُترادفين يحصل معنًى لا يوجد عند انفرادِ أحدِهما؛ فإنَّ التَّركيبَ يُحدِث معنًى زائدًا، وإذا كانت كثرةُ الحروف تُفيدُ زيادة المعنى فكذلك كثرةُ الألفاظ[5]. فشملَ عدمُ التَّرك جميعَ الحالاتِ وإنْ قبُحَتْ[6]، أو صَغُرَ شأنُها، وهو معنًى مستفادٌ من أصل لفظة (الذّر)؛ فالوَذْرة هي قطعةُ لحمٍ صغيرةٍ سُمّيَتْ بذلك لقلَّة الاعتدادِ بها، وفاقَ ما ذُكِرَ في شرح المفردات.

كـثرةُ الألـفـاظِ تُـفـيـدُ زيـادةَ المعنى

علَّةُ فصلِ ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه كلامٌ مستأنف لإفادةِ وصفٍ جديدٍ من أوصافِ سقرَ العظيمة الهائلة.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ إيجازٌ بحذفِ المبتدأ لظُهوره من السّياق، والتَّقدير: هي لوّاحة[7]، ومن محاسنِ هذا الحذف: جعلُ الآياتِ متناسبةً مع ما قبلَها من حيثُ القِصَرُ الَّذي يبثُّ في هذا المقامَ الخوفَ والهلعَ عند تعدادِ هذه الأوصافِ المُتتابعة.

تـعـدادُ أوصـافِ سَقر يُثيرُ الهلَعَ

براعةُ التَّعبير بـ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ نكرة:

عُبِّر بـ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ في قوله جلَّ ذكره: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾؛ للدَّلالة

سَـقـر تـسـويـدٌ لجُلودِ المعذَّبين وتـعـطـيـشٌ للمُجرمين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 312.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 77.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 268.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 708، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 77.
(5) السيوطي، الإتقان: 4/ 229.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 59 - 60.
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 565.

على أنَّ سقر بلَفْحِها تُغيِّرُ أعاليَ الجِلد وتُسوِّدُها[1]. أو للدَّلالة على أنَّها تُسبِّب لهم العطش[2]. وتنكيرُ ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم، أي: لا يُقادَرُ قَدْرُ تلويحِها، ولا تُحيط به العبارة.

نكتةُ صيغةِ (فعّالة) في ﴿لَوَّاحَةٌ﴾:

شدَّةُ تغيير سَقر لأحوالِ المُعذَّبين

صيغة (فعّالة) في قوله ﷻ: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ مبالغةٌ في اسم الفاعل، وجيءَ بها لإفادة المبالغة، أي: شديدةُ التَّغيير لهم بالسَّواد والزُّرقة والتَّعطيش ونحو ذلك من الإفساد، وذلك بسبب شدَّة حرِّها[3].

معنى اللّامِ في ﴿لِّلْبَشَرِ﴾:

اللّام في قوله جلَّ ذكره: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ حرف جرٍّ زائدٌ للتَّقوية والتَّوكيد، زِيدَ لتقوية عمل ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ في البشر[4].

دلالةُ تعريفِ البشرِ:

تلويحُ سَقر للنّاسِ أو لجُلودهم

(البَشَر) يكون جمعُ بشرة، وهي جلدُ الإنسان، أي: تُغيِّرُ ألوانَ الجُلود فتجعلُها سودًا، واسمُ جمعٍ للنّاس لا واحدَ له من لفظه، وتعريفُه في قوله ﷻ: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ للعهد؛ إذِ المُرادُ بها: البَشَرُ المعذَّبونَ في سقر، أي: جلودُهم الظّاهرة، أو المُرادُ بها: النّاسُ[5].

نكتةُ فصلِ ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾:

فُصِلَتْ جملة ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها إمّا حالٌ منه، أو استئنافٌ[6]؛ لإفادة وصفٍ جديد من أوصاف سقر، وكِلاهُما من مواضع الفصل.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 423.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 60.
(3) السمين، الدر المصون: 10/ 546، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 60.
(4) السمين، الدر المصون: 10/ 547.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 394، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 312.
(6) السمين، الدر المصون: 10/ 547.

معنى (على) في ﴿عَلَيۡهَا﴾:

خَزَنَةُ سقر يَلونَ أمرَها

معنى ﴿عَلَيۡهَا﴾: على حِراستِها، فـ (على) للاستعلاء المجازيِّ، بتشبيه التَّصرُّف والوِلاية بالاستعلاء، كما يُقال: فلانٌ على الشُّرطة، أو على بيتِ المال، أي: يَلي ذلك، والمعنى: أنَّ خَزَنة سقر تِسعَةَ عَشَرَ مَلَكًا[1].

غرضُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهَا﴾:

تقديم ﴿عَلَيۡهَا﴾ على ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ للاهتمام بالمقدَّم وبثِّ الرُّعب والهلَع قبل ذِكره، وللتَّشويقِ إلى ذِكرِ المُؤَخَّر، ورعايةِ تلاؤم الفواصل.

نكتةُ حذفِ المعدودِ في ﴿تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾:

زَبانيَةُ العذاب الأُخرويِّ تفوقُ زَبانيَةَ الجَبابرة في الدُّنيا

في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ إيجازٌ بحذفِ التَّمييز[2] لدلالة قرينةِ الحال عليه، والمعنى: عليها تسعة عشر من الخَزَنة المتولّين أمرَها، والتسلُّطَ على أهلها، وفيه إشارة إلى أنَّ زَبانيَة العذاب الأُخرويِّ تفوقُ زَبانيَةَ الجَبابرة في الدُّنيا أضعافًا مُضاعفة؛ تنبيهًا على هَوْلِ العذاب وكِبَرِ مكانه[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 312.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 332.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 356.

﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ [المدثر: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ حِكمةِ جَعلِ خَزَنَةِ سَقر ملائكةً قليلي العَددِ

لمّا كان قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ غيرَ مميَّزٍ للمعدود، وكانت الحكمةُ في تعيين هذا العدد غيرَ ظاهرةٍ، وكان هذا العددُ ممّا يستقلُّه المتعنِّت فيَزيدُه كُفرًا؛ بيَّن اللّه ﷻ في هذه الآية حِكمةَ ذلك[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِدَّتَهُمۡ﴾: (عدد) أصلٌ يدلُّ على الحسابِ، وضمِّ الأعدادِ بعضِها إلى بعضٍ[2]، ومن ذلك يقال: عدَدتُ الشَّيءَ، إذا أحصَيتَهُ، ويقال: هم عديدُ الحصى والثَّرى، أي: في الكثرة. وفلانٌ عديدُ بني فلان، أي: يُعَدُّ فيهم[3]، والعِدَّةُ في الأصلِ: اسمُ هيئةٍ مِنَ العَدِّ، فأُطلِقَتْ على الشَّيءِ المَعدودِ، وغلبَ إطلاقُها في الشَّرعِ على المُدَّةِ المُحدَّدةِ لانتظارِ المرأةِ زواجًا ثانيًا؛ لأنَّ انتظارَها مُدَّةٌ معدودةُ الأزمانِ[4]. والمراد بالعِدَّة هنا: العدد[5].

2) ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ﴾: (يقن) أصلٌ يدلُّ على ثُبوتِ الشَّيءِ واستقرارِهِ[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 62.
(2) الراغب، المفردات: (عدد).
(3) الجوهري، الصحاح: (عدد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 60.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يقن).

ومن ذلك يُقال: تيقَّن الأمرَ، واستَيقَنَهُ، واستيقَنَ به[1]، واليقينُ: هو سكونُ الفَهْم مَعَ ثباتِ الحُكْم، وأصلُهُ مِنْ يَقِنَ الماءُ، إذا ثبتَ وسكنَ[2]، وقيلَ: اليقينُ مِنْ صفةِ العِلم فوقَ المعرفةِ والدِّرايةِ، يقالُ: علمُ يقينٍ، ولا يقالُ: معرفةُ يقينٍ[3]. والمراد هنا: ليوقنَ الذين أُعطوا التَّوراة والإنجيلَ أنَّ عدَّة خزَنة جهنَّم موافقةٌ لِما عندهم[4].

3) ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾: (ريب) أصل يدلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخوف[5]، ومن ذلك يقال: رابَني كذا، وأرابَني، إذا رأيتَ منه ما يَريبُكَ وتكرَهُه[6]، وأرابَ الأمرُ: صار ذا رَيْب، واسترابَ به: رأى منه ما يَريبُه[7]، والارتياب: الشَّكُّ[8]، والرَّيبُ والرِّيبة أيضًا: صرفُ الدَّهر وحَدَثُهُ[9]، والحاجةُ، والظِّنَّةُ، والتُّهمةُ[10]. ومعنى ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ هنا: ولا يشكَّ[11].

4) ﴿مَّرَضٌ﴾: (مرض) أصلٌ يدلُّ على ما يخرج به الإنسانُ عن حدِّ الصِّحَّة في أيِّ شيء كان[12]، والمرضُ نوعان: الأوَّل: مرضٌ جسميٌّ، والثَّاني: هو الرَّذائلُ الخُلُقيَّة كالجهل، والجُبن، والبُخل، والنِّفاق، ونحو ذلك[13]، والتَّمريض: حُسنُ القيام على المريض، ويقال: قال فلانٌ قولًا فأمرَضَ، أي: قاربَ الصَّوابَ ولم يبلُغه[14]. والمرادُ بالمرض هنا: الشَّكُّ والنِّفاق[15].

5) ﴿جُنُودَ﴾: (جند) أصلٌ يدلُّ على التَّجمُّع والنُّصرةِ[16]، ومن ذلك يقالُ: هم جُنْدُهُ، أي: أنصارُهُ[17]، ويقالُ: جنَّدَ الجُنودَ، أي: جمعَها، وتجنَّدَ فلانٌ، إذا اتَّخذَ جُنْدًا[18]، والجَنَدُ:

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (يقن).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (يقن).
(3) الراغب، المفردات: (يقن).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ريب).
(6) الجوهري، الصحاح: (ريب).
(7) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ريب).
(8) الراغب، المفردات: (ريب).
(9) الخليل، العين: (ريب).
(10) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ريب).
(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرض).
(13) الراغب، المفردات: (مرض).
(14) الخليل، العين: (مرض).
(15) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(16) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جند).
(17) الجوهري، الصحاح، والسّمين، عمدة الحفاظ: (جند).
(18) الزمخشري، أساس البلاغة: (جند).

الأرضُ الغليظةُ[1] الَّتي فيها حجارة، ويقال للعسكر: الجُند؛ اعتبارًا بالغِلْظة، ثمَّ يُقال لكلِّ مجتمَع، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: 173]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤﴾ [الدخان: 24][2]. والمُرادُ بالجنود هنا: جموعُ خَلْقِه تعالى الَّتي من جُملتها الملائكةُ المذكورون[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر سقر وخزنتها فتنة للضالين وهداية للمهتدين

يقول تعالى ذكره: وما جعَلنا خَزَنة سقر إلّا ملائكةً غِلاظًا شِدادًا، لا يُقاوَمون ولا يُغالَبون، وإنَّما ذكرنا عددَهُم - وهو أنَّهم تسعة عشر - اختبارًا منّا للنّاس؛ ليعلمَ أهلُ الكتاب أنَّ هذا الرَّسول حقٌّ؛ فإنَّه نطقَ بمطابقة ما بأيديهم من الكُتب السَّماوية المنزَلة على الأنبياء قبله، ويَزدادَ الَّذين آمنوا إيمانًا إلى إيمانهم بما يَشهدون من صدقِ إخبار نبيِّهم محمَّد ﷺ، ولا يشكَّ أهلُ الكتاب والمؤمنون، وليقولَ المنافقون، والكافرون: ما الحكمةُ في ذِكر هذا العدد هنا؟! قال الله تعالى: مِنْ مثلِ هذا وأشباهِه يتأكَّدُ الإيمانُ في قلوب أقوام، ويتزلزلُ عند آخرين، وله تعالى الحكمةُ البالغة، والحجَّة الدّامغة، وما يعلمُ عددَ جنوده وكثرتَهم إلّا هو تعالى؛ لئلّا يتوهَّم متوهِّم أنَّهم تسعةَ عشرَ فقط، وما ذِكرُ سقر أو العِدَّةِ إلّا موعظةٌ لجميع النّاس[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ:

الاعتبارُ بشدَّةِ تعذيبِ الملائكةِ لأهلِ النّار

الواو في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ استئنافيَّة، والجملة مستأنفة لإفادةِ غرَضٍ جديد، وهو بيانُ حِكمة

(1) الزبيدي، تاج العروس: (جند).
(2) الراغب، المفردات: (جند).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 269 - 272.

قلَّةِ عددِ خَزَنة سقر، وقد كان ذِكرُ هذا العدد سببَ استهزاء كفّار قريش واستهانتِهم بأمرِ سقر وعذابِها، وفي ذلك تنبيهٌ للغافلين إلى أنَّ العددَ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، وإنَّما العِبْرة بشدَّة تعذيبهم وهَوْلِه.

بلاغةُ القصرِ في جملة الاستثناء:

لا مفرَّ للمشركين من تعذيب الملائكة

الاستثناء في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ من عُموم الأنواع، أي: ما جعلنا خَزَنة النّار من نوعٍ إلّا من نوعِ الملائكة. وصيغةُ القصر بـ (ما) و﴿إِلَّا﴾ تفيد قلبَ اعتقاد أبي جهلٍ وغيره ما توهّموه أو تظاهروا بتوهُّمِهِ أنَّ المرادَ تسعة عشرَ رجلًا، فطمعَ أن يخلصَ منهم هو وأصحابُه بالقوَّة[1]. وفي هذا تيئيسٌ لهم من النَّجاة، ومزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهم.

نكتةُ إسنادِ الجعلِ إلى ضميرِ العظمةِ في الموضعين:

فِعلُ العظيم عظيمُ الشأن

أُسند الجعلُ إلى ضمير العظمة مرَّتين في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لتعظيم شأنِ الجعلِ في الموضعَين بأنَّه جعلُ القادرِ العظيم سبحانه وتعالى، وفعلُ العظيم عظيمٌ، وإنْ خفيَ وجهُ العظمة فيه على مَن عَميَ قلبُه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بفعل الجعلِ ماضيًا:

جعلُ الله تعالى واقعٌ متحقِّق

جيءَ بفعل الجَعلِ على صيغة الماضي في الموضعَين في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ للدَّلالة على أنَّ جَعلَهُ سبحانه وتعالى خَزَنَةَ سقر ملائكةً أمرٌ واقعٌ، وقد مضى وتحقَّقَ، وكذلك جعلُهُ عدَّتَهُم فتنةً للَّذين كفروا.

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾:

شدَّةُ اختصاصِ خَزَنةِ النّار بها

الإضافةُ في قولِهِ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ لاميَّةٌ، أي: أصحابٌ للنّارِ، وذلك باعتبارِ كونِهم خزنتَها والقائمينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 62.

على تعذيبِ أهلِها، وفي هذهِ الإضافةِ إشعارٌ بشدَّةِ اختصاصِهم بها، وأنَّ لهم دُرْبَةً عظيمةً في تعذيبِ مَنْ سُلِك فيها.

ملازمةُ خَزَنةِ النّار ومُقارنتُهم لها

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَصۡحَٰبَ﴾:

المرادُ بأصحابِ النّارِ في قولِهِ تعالى شأنِه: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾: خَزَنتُها[1]، وقد عُبِّرَ عنهم بلفظِ الأصحابِ؛ للدَّلالةِ على ملازمتِهم للنّارِ ومقارنتِهم لها؛ كمُقارنةِ الصّاحبِ صاحبَهُ، وفي ذلك قطعٌ لأطماعِ مَن يظنُّ أنَّه قادرٌ على طَردِهِم منها أو الخلاصِ منهم.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

تعريفُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها نارٌ مخصوصةٌ معهودةٌ، وهي نارُ سقرَ الَّتي تقدَّمَ ذِكرُها في الآياتِ السّابقةِ.

خَزَنةُ النّار من نوعِ الملائكة

غرَضُ تنكيرِ ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾:

تنكيرُ ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ للنَّوعيَّة؛ أي: ما جعَلنا خَزَنة النّار من نوعٍ إلّا من نوعِ الملائكة[2]، لا من نوعِ البشر، وإنَّما جعلهم تعالى ملائكة؛ ليكونوا بخِلافِ جنسِ المعذَّبين؛ لأنَّ اتِّحادَ الجنسِ مظنَّةُ الرَّأفة والرَّحمة، ولأنَّهم أبعدُ الخلق عن معصية اللّه تعالى، وأقواهُم على الطّاعات الشّاقَّة، ولأنَّ قوَّتَهُم أعظمُ من قوَّة الجنِّ والإنس[3].

قلَّةُ عددِ خَزَنةِ سقر غَرَّ المشركين

معنى الواوِ في ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ﴾:

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استئنافيَّة، والجملة مستأنفة لإفادة غرضٍ جديد، وهو التَّنبيهُ

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 565.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 709.

على حكمةِ ذِكْرِ العدد القليلِ لخَزَنةِ سقر؛ لعدم ظُهوره، ولدفعِ الإقلالِ منه[1].

بلاغةُ القصرِ في ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةَ﴾:

عدَّةُ الملائكةِ أمرٌ عظيمٌ لا هيِّنٌ

الاستثناءُ في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةَ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفرَّغٌ لمفعولٍ ثانٍ لفعلِ ﴿جَعَلۡنَا﴾، تقديرُه: جعَلْنا عِدَّتَهم فتنةً لا غير، ولمّا كانت الفتنة حالًا من أحوال الَّذين كفروا لم يكن مرادًا منها ذاتُها بل عُروضُها للَّذين كفروا، فكانت حالًا لهم، والتَّقدير: ما جعَلْنا ذِكرَ عِدَّتهم لعلَّةٍ وغرَضٍ إلّا لغرَضِ فتنةِ الَّذين كفروا، فانتصَب ﴿فِتۡنَةَ﴾ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لفعلِ ﴿جَعَلۡنَا﴾ على الاستثناء المفرَّغ، وهو قصرُ قلبٍ للرَّدِّ على الَّذين كفروا؛ إذ اعتقَدوا أنَّ عِدَّتهُم أمرٌ هيِّنٌ[2].

بلاغةُ التَّتميمِ والأسلوبِ الحكيم:

اليقينُ قرينُ المؤمن، والشَّكُّ والإنكارُ قَرينا الكافر

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةَ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تتميمٌ في إبطال توهُّم المشركين حقارةَ عددِ خَزَنة النّار، وهو كلامٌ جارٍ على تقدير الأسلوب الحكيم؛ إذ الكلامُ قد أثارَ في النُّفوسِ تساؤلًا عن فائدة جعلِ خَزَنة جهنَّم تسعة عشر، وهلّا كانوا آلافًا؛ ليكون مرآهم أشدَّ هَوْلًا على أهل النار، أو هلّا كانوا ملَكًا واحدًا؛ فإنَّ قوى الملائكة تأتي كلَّ عملٍ يُسخِّرها اللّه له، فكان جواب هذا السؤال: أنَّ هذا العدد قد أظهَرَ لأصناف الناس مبلغَ فهم الكفّار للقرآن، وإنَّما حصلت الفتنةُ من ذِكر عدَدِهم في الآية السّابقة؛ فقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ﴾ تقديرُه: وما جعلنا ذكرَ عدتِهم إلّا فتنةً، ولاستيقانِ الَّذين أوتوا الكتاب، وازديادِ الَّذين آمنوا إيمانًا، واضطرابِ الَّذين في قلوبهم مرضٌ، فيظهَر ضلالُ الضالّين واهتداءُ المهتدين، فاللّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 62.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.

جعلَ عِدَّةَ خَزَنة النّار تسعة عشر لحكمةٍ أُخرى غير ما ذُكر هنا اقتضَت ذلك الجَعلَ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجَعلِ دونَ الإخبارِ:

الإخبارُ بعِدَّة الملائكة هو السَّببُ الحقيقيُّ لِما ذُكِرَ

إيجادُ خَزَنة سَقر تسعة عشر ليس سببًا لاستيقانِ أهل الكتاب وما عُطِفَ عليه، وإنَّما السَّببُ لِما ذُكِرَ هو الإخبارُ عن عدَدِهم بأنَّه تسعة عشر، وعُبِّر عن الإخبار بالجَعل، لمُشاكلة قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ الآية، بيانُ ذلك: أنَّ الجَعلَ يُطلَقُ على معنيَين:

أحدهما: جعلُ الشَّيء متَّصِفًا بصفةٍ في نفس الأمر. وثانيهما: الإخبارُ باتِّصافه بها، ويُقال له: الجَعلُ بالقول، أي: وما جَعلنا عِدَّتَهم بالإخبار عنها إلّا عددًا يقتضي فِتنتَهم؛ لاستيقانِ أهلِ الكتاب ... ؛ أي: وقلنا ذلك وأخبَرنا به؛ لاستيقانِ أهل الكتاب ...[2].

نكتةُ تنكيرِ ﴿فِتۡنَةً﴾:

فتنةُ ذِكر عدد الخَزَنة عظيمةُ الشَّأن

تنكير ﴿فِتۡنَةً﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للتَّعظيم، أي: فتنةً عظيمة الشَّأن، لا يُقادَرُ قَدْرُها، وأيُّ فتنةٍ أعظَمُ من فتنةٍ ينقسم فيها النّاس بين موقنٍ وبين مشكِّكٍ ومكذِّب؟! وافتتانُ الكفرة بعدَدِ الخَزَنة استقلالُهم له، واستهزاؤُهم به، واستبعادُهم أن يتولَّى هذا العددُ القليل تعذيبَ أكثر الثَّقلين[3].

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

شدَّة تأثير فتنة عدد الخَزَنة في الكافرين

اللّام في قوله جلَّ من قائل: ﴿فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للملك، وكأنَّ الفتنة شيءٌ مملوكٌ مسخَّر لهم، وفي ذلك ما لا يخفى من التَّنبيه على شدَّة تأثيرها فيهم. ويجوز أن تكون ﴿فِتۡنَةً﴾ مصدرًا بمعنى اسم الفاعل، أي: فاتنًا للَّذين كفروا، فتكون اللّام للتَّقوية.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 314.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 357.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكفرُ صفةٌ ذميمةٌ، وهو أساسُ الفتنة

جيءَ بالموصول في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّوصُّل إلى ذمِّهم بصفة الكفر الواقعة في حيِّز الصِّلة، وللإيماء إلى علَّة افتتانهِم؛ وهي كفرُهم وعِنادُهم للحقِّ؛ فالكفرُ أساسُ كلِّ نقصٍ ومذمَّة.

بلاغةُ صيغةِ الماضي في ﴿كَفَرُواْ﴾:

عُبِّر بصيغة الماضي في قوله: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ كفرَهُم أمرٌ واقعٌ متحقِّقٌ قبل نزول هذه الآية، وهذا الكفرُ هو علَّة ما هُم فيه من الكِبْر والعِناد للحقِّ وأهله.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿كَفَرُواْ﴾:

حُذف متعلِّق الكفر في قول الحقِّ ﷻ: ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لظُهوره من السِّياق؛ إذ المرادُ كُفرُهم بما يجبُ الإيمانُ به من وحدانيَّة الله تعالى واليوم الآخر ونحو ذلك.

معنى اللّامِ في ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾:

النَّبيُّ ﷺ مصدِّقٌ لمَن قبلَهُ من الأنبياء

اللّام في قوله تعالى شأنُهُ: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ متعلِّقة بـ﴿جَعَلْنَا﴾[1]، وهي لام التَّعليل، والمعنى: وما جعلنا العددَ المذكور - وهو التِّسعة عشر - إلّا فتنةً لهم؛ ليستيقنَ الذين أوتوا الكتاب - وهم اليهود والنَّصارى - بنبوَّة محمَّد ﷺ وصدقِ القرآن؛ لأنَّهم يرون أنَّ ذلك موافقٌ لما في كتابهم[2]، ويعلمون أنَّ الرسول لم يقرأها، ولا قرأها عليه أحدٌ، ولكن كتابه يُصدِّقُ كتب الأنبياء؛ إذ كلُّ ذلك حقٌّ يتعاضَدُ من عند الله تعالى[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

جيءَ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ﴾ ﴿وَيَزْدَادَ﴾؛ لأنَّ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 357.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 59.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 333.

حصول الاستيقان وازدياد الإيمان أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبة للإخبار بعددِ خَزَنة سقر.

نكتةُ صيغةِ الاستفعالِ في ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ﴾:

السّين والتّاء في قوله تعالى: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ﴾ للمبالغة، والمُراد بالاستيقانِ: قوَّة اليقين[1]، والمعنى: ليوجِدوا اليقينَ إيجادًا تامًّا كأنَّه بغاية الرَّغبة[2].

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

مَن أوتيَ العلم والكتاب فحريٌّ به التَّصديق

عُبِّر بالموصول في قوله جلَّ ذكره: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لاستحضارهم بالصِّفة الَّتي توجبُ استيقانَهُم، وهي إيتاؤهُم الكتابَ، ووجهُ ذلك: أنَّهم يجِدونَ ما أخبرَ به القرآن موافقًا لما في كتُبهم. ويحتمل أن يُراد بهم الَّذين آمنوا منهم كعبد اللّه بن سلام. ويحتمل أن يُرادَ بهم الكلُّ[3]؛ إذِ الموصولُ من ألفاظ العموم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أُوتُواْ﴾:

جيءَ بصيغة الماضي في قوله ﷻ: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لأنَّ إيتاءَهُم الكتابَ أمرٌ قد مضى وتحقَّق، وذلك ألزَمُ في إقامة الحجَّة عليهم بضرورة تصديقِ ما أخبر به القرآن.

براعةُ البناءِ للمفعولِ في ﴿أُوتُواْ﴾:

إيتاءُ الكتاب لا يُتصوَّر إلّا من الله

بُنيَ ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول؛ لأنَّ مطلقَ الإيتاء كافٍ في ذلك، من غير احتياجٍ إلى تعيين المُؤتي مع أنَّه معروفٌ أنَّه هو اللّه[4]، وفي ذلك تفخيمٌ لشأن المُؤتي ﷻ ببيان أنَّ هذا الأمر العظيم لا يتأتَّى إلّا من ذي العظمة والجلال الَّذي له الحكمُ والأمر.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 315.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 63.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 63.

دلالةُ تعريفِ الكتابِ:

تعريف الكتاب في قول الحقِّ ﷻ: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعهد؛ إذ المرادُ به كتابا اليهود والنَّصارى، وهُما التَّوراة والإنجيل[1]، فهُما يَشهدان بصِدق ما أخبرَ به القرآن الكريم.

التَّوراةُ والإنجيلُ شاهدان بصدق القرآن

بلاغةُ حذفِ متعلِّقِ الاستيقانِ:

حُذف متعلِّق الاستيقان في قول الحقِّ جلَّ ذكره: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إيجازًا لظُهوره من السّياق، والمعنى: ليَستيقنوا صِدقَ القرآن، حيث يجدون هذا العددَ موافقًا لما في كتبهم[2].

الاستيقان المطلوب متعلّقٌ بصدقِ القرآن

غرضُ التَّقديمِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

قُدِّم أهل الكتاب على المؤمنين في قوله جلَّ ذِكره: ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ باعتبار أنَّ أهل الكتاب أسبقُ زمانًا، وأنَّهم أحرَى بالتَّصديق؛ إذ يجدون ما في القرآن موافقًا لما في كتُبهم.

أهلُ الكتاب أولى بتصديقِ ما في القرآن

نكتةُ عطفِ ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾:

قوله تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ معطوف على ﴿لِيَسۡتَيۡقِنَ﴾[3]. ونكتةُ العطف التَّنبيهُ على أنَّ الإخبار بعدد الخَزَنة كما يترتَّبُ عليه استيقانُ أهلِ الكتاب يترتَّبُ عليه أيضًا ازديادُ إيمانِ المؤمنين، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ الكلام الصّادق يؤثِّر في كلِّ نفسٍ بعيدةٍ عن الأهواء وحظوظِ النَّفس.

للحقِّ سلطانٌ على كلِّ نفسٍ بعيدةٍ عن الأهواء

دلالةُ فعلِ الازديادِ مضارعًا:

معنى الفعل (يزداد) في قوله تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾: "أنَّهم يؤمنون به في جملة ما يؤمنون به من الغيب فيزدادُ

الزِّيادةُ في الإيمان كمّيَّةٌ لا كيفيَّة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 396.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 315.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566.

في عقولهم جزئيٌّ في جزئيّاتِ حقيقةِ إيمانهم بالغيب، فهي زيادة كمّيَّةٌ لا كيفيَّة؛ لأنَّ حقيقةَ الإيمان التَّصديقُ والجزمُ، وذلك لا يقبلُ الزّيادة، وبمثل هذا يكون تأويلُ كلِّ ما وردَ في زيادةِ الإيمان من أقوال الكتاب والسُّنَّةِ وأقوال سلف الأمة"[1].

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

الإيمانُ منبعُ كلِّ خيرٍ وفضيلة

جيءَ بالموصول في قوله ﷻ: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾؛ للتَّوصُّل بما في حيِّز الصِّلة إلى مدحِهم بصفةِ الإيمان الَّتي هي أحبُّ الأوصافِ إلى الله، وللإيماء إلى أنَّ هذا الازديادَ ناشئٌ عن الإيمان الَّذي تتحلَّى به نفوسُهم، وهو منبع كلِّ خيرٍ وفضيلة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

المؤمنُ راسخٌ في إيمانه

عُبِّر عن فعل الإيمان في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على أنَّ اتِّصافهم بالإيمان أمرٌ قد مضى وتحقَّق، وهم ثابتون عليه، متمسِّكون به، ويرتقون فيه درجاتٍ باستمرار.

براعةُ حذفِ متعلِّقِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

حُذف متعلِّق ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لكونه معلومًا، والمعنى: آمنوا بالله تعالى وبصدق النَّبيِّ ﷺ وكلِّ ما يجبُ الإيمان به، كما هو مقتضَى الإيمان المعتدِّ به شرعًا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿إِيمَٰنٗا﴾:

تنكير ﴿إِيمَٰنٗا﴾ في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ للتعظيم، أي: إيمانًا عظيمَ الشَّأن رفيعَ القدر، لا يُقادَرُ قدرُ عظمته.

نكتةُ العطفِ:

من جُمِع له بين إثباتِ اليقين ونفيِ الشَّكِّ فاز بالمطلوب

عُطف قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ على ما قبله مع أنَّ الاستيقانَ وازديادَ الإيمان دالّانِ على انتفاء الارتياب؛ لأنَّه إذا جُمع لهم إثباتُ اليقين ونفيُ الشَّكِّ؛ كان ذلك آكدَ وأبلغَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 316.

لوصفهِم بسكون النَّفس، ولأنَّ فيه تعريضًا بحال مَن عَداهُم، كأنَّه قال: ولتخالفَ حالُهم حالَ الشّاكّينَ المُرتابين من أهل النِّفاق والكُفر[1]، ولأنَّ الإنسانَ قد تعتريه شُبهةٌ بعد الإيقان، فنُفيَ عنهم ذلك[2].

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾:

لا ريبةَ تعتري المؤمنين وأهلَ الكتاب في شأنِ خَزَنة سقر

حُذف متعلِّق الارتياب في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إيجازًا لظُهورِهِ من السّياق، والتَّقدير: ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في صِدق خبرِ القرآن[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾:

الرَّيبُ لا يعرفُ طريقًا إلى أهل اليقين

عُبِّر بالمضارع المنفيِّ في قول الحقِّ جلَّ ذِكره: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار انتفاء الارتياب؛ فإنَّ المضارع يدلُّ على الاستمرار، فإذا دخل عليه النَّفيُ أفاد استمرار الانتفاء، ولم يتخلَّف هذا في حقِّ المؤمنين، وأمّا أهلُ الكتاب فهُم أهلُ عِنادٍ ومُكابرةٍ للحقِّ، فلم يَعملوا بمُقتضاه وإن استيقنته أنفسهم.

نكتةُ صيغةِ الافتعالِ في ﴿وَلَا يَرۡتَابَ﴾:

أهلُ اليقين والحقِّ لا يَطرُقونَ أبوابَ الشَّك

جيءَ بصيغة الافتعال في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم لا يشكّون شكًّا يحصل بتعمُّدٍ وتكسُّب[4]، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّهم لا يطرقون أبواب الشَّكِّ والارتياب، وهذا ينطبق على المؤمنين، وأمّا أهلُ الكتاب فكثيرٌ منهم عاندَ الحقَّ مع إقرارِهم في أنفسِهم بصِدقِ ما أخبرَ عنه القرآن.

سرُّ عدمِ نظمِ المؤمنينَ في سِلكِ أهلِ الكتابِ:

انتفاءُ الرَّيب عن المؤمنين مقترنٌ بإيمانهم

لم يُنظَم المؤمنون في سِلْك أهل الكتاب في نفي الارتياب في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، فلم يُقَل:

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 652.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 711 - 712.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 63.

(ولا يرتابوا)؛ للتَّنبيه على تبايُن النَّفيَين حالًا؛ فإنَّ انتفاءَ الارتياب من أهل الكتاب مقارِنٌ لِما يُنافيه من الجُحود، ومن المؤمنين مقارنٌ لِما يقتضيه من الإيمان، وكم بينَهما![1]. يُزاد على ذلك أنَّ المؤمنين عَلِموا وعَمِلوا، والذين أوتوا الكتابَ عَلِموا وعانَدوا، فكان عِلْمُهُم حُجَّةً عليهم وحَسرةً في نُفوسِهم[2].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾:

وضوحُ الدّلائل يُقوّي الإيمان

التَّعبيرُ عن المؤمنين باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ بعد ذِكرهم بالموصول والصِّلة الفعليَّة المُنبئة عن الحُدوث؛ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازديادِه، ورُسوخِهِم في ذلك[3]؛ لِما رأوا من الدَّلائل الَّتي جعلتهُم في مثل ضوء النَّهار[4].

نكتةُ عطفِ ﴿وَلِيَقُولَ﴾:

ذِكرُ مكابرة الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرين تصريحًا بعدَ ذِكرِها تعريضًا

قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ معطوفٌ على ما قبله، والمقصودُ منه ذِكرُ مكابرة الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرين في سوءِ فهمِهم لهذه العِدَّة تصريحًا بعد ذكرِه تعريضًا؛ لأنَّه إذا قيل: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ شعرَ الذين في قلوبِهم مرضٌ والكافرون بأنَّهم لمّا ارتابوا في ذلك فقد كانوا دون مرتبة الَّذين أوتوا الكتاب؛ لأنَّهم لا ينازعون في أنَّ الذين أوتوا الكتابَ أرجحُ منهم عقولًا وأسَدُّ قولًا[5].

معنى اللّامِ في ﴿وَلِيَقُولَ﴾:

اللّامُ في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 141.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 316 - 317.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 316 - 317.

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ لامُ العاقبة[1]؛ أي: لتكونَ العاقبةُ أن يقولوا هذا القولَ الشَّنيعَ.

براعةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَلِيَقُولَ﴾:

آيةُ صدقِ خبرِ القرآنِ عن قولِ المذكورينَ وقوعُهُ

جيءَ بصيغة المضارع في قوله ﷻ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ القولَ المذكورَ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبة لزَمن الإخبارِ بعدَدِ خزَنة سقر، ووقوعُهُ بعدَ ذلك آيةُ صِدقِه.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ في ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾:

النِّفاقُ سيقعُ في المدينة

جيءَ بالموصول في قوله ﷻ: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾؛ للتَّوصُّل إلى ذمِّهم بما في حيِّز الصِّلة، وللإيماء إلى أنَّ المرضَ الكامنَ في قُلوبهِم هو علَّةُ قولهِم هذا القولَ الشَّنيعَ القبيح. والمرادُ بهم أهلُ النِّفاق، وقد كان في معلومِ الله تعالى أنَّ النِّفاق سيحدثُ في المدينة، فأخبرَ عمّا سيكون، وعلى هذا تصيرُ هذه الآية معجزةً؛ لأنَّه إخبارٌ عن غيبٍ سيقَع، وقد وقعَ على وفقِ الخبر، فيكونُ معجزًا[2].

التَّردُّدُ نوعُ مرضٍ مذموم

وذهبَ ابن عاشور إلى أنَّهم " الذين لم يَزالوا في تردُّدٍ بين أن يُسلموا وأن يَبقَوا على الشِّرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المرادُ بالذين في قلوبهِم مرضٌ المنافقين؛ لأنَّ المنافقين ما ظهَروا إلّا في المدينة بعدَ الهجرة والآيةُ مكِّيَّة"[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾:

عُبِّر بالجملة الاسميَّة في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ وجودَ المرض في قلوبهم حقيقةٌ ثابتة، لا شكَّ فيها ولا ارتياب.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 712.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.

غرضُ تقديمِ القيد ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾:

مــرضُ قـلـوب المـنـافـقـين والمتردِّدين محطُّ الاهتمام

قُدِّمَت شبهُ الجملة ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾ على ﴿مَّرَضٌ﴾؛ للعناية بكون قلوبِهِم مُستقَرًّا للمرض، فعليهِم التَّنبُّهُ إلى خطرِ ذلك، وللتَّشويق إلى ذِكرِ المؤخَّر - وهو المرض - ليتمكَّن في النَّفسِ عند وُرودِه عليها فضلَ تمكُّن.

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّةِ في ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾:

الإتيانُ بحرف الظَّرفيَّة في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكره: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ قلوبَ المنافقين ظرفٌ ومحلٌّ للمرض، استوطنَتْهُ وكأنَّها منبعٌ له.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبِهِم﴾:

ضـررُ المنافقين والمتردِّدينَ راجعٌ إلى أنفُسِهم

الإضافةُ في قولهِ تبارك شأنه: ﴿قُلُوبِهِم﴾ لاميَّة، فتُفيد أنَّ المرضَ مستقِرٌّ في قلوبهم لا في قلوب غيرهم، وفي ذلك من التَّشنيع عليهم ما لا يخفَى؛ إذ جعلوا قلوبَهُم خَرِبةً بالتَّكذيب والشَّكِّ، ووبالُ كلِّ ذلك راجعٌ إليهم، فينبغي لهُم أن يُبادِروا إلى الإيمانِ والتَّصديق؛ ليُزيلوا عن أنفسِهِم وصمَةَ هذا العار.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَّرَضٌ﴾:

مــرضُ قـلـوب المـنـافـقـينَ والمتردِّدينَ هائلٌ فظيع

تنكيرُ ﴿مَّرَضٌ﴾ في قوله ﷻ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ للنَّوعيَّة؛ إذ المرادُ به نوعٌ من المرض، وهو مرضُ الكفر والتَّكذيب وسوء النِّيَّة في القرآن والرَّسول ﷺ[1]. ويحتملُ أن يكون التَّنكير للتَّعظيم، أي: مرضٌ هائلٌ فظيعٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِه وفظاعَتِه.

عِلَّةُ تقديمِ الَّذينَ في قلوبِهِم مرضٌ على الكافرينَ:

خُـبْـثُ طـويَّـة المـنـافـقـين والمتردِّدين يَفوقُ كُفرَ الكافرين

قُدِّم الذين في قلوبهم مرضٌ على الكافرين في قوله جلَّ ذِكره: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّهم أقبحُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.

حالًا؛ إذ لم يقتصروا على الكُفر الَّذي تنطوي عليه نفوسُهم، بل زادوا على ذلك الشَّكَّ والمَكرَ والخَديعة ومُعاندةَ الحقِّ.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

إصرارُ الكافرين على كُفرهم، ورسوخُهم فيه

عُبِّر باسم الفاعل في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على رُسوخِهم في الكُفر، وأنَّهم جازمون بالتَّكذيب، ومُصرّونَ عليه، ومُجاهِرونَ به، وساترون لما دلَّت عليه الأدلَّة من الحقِّ[1].

براعةُ الجمعِ بينَ الإيمانِ والكُفرِ في الذِّكرِ:

شتّانَ بين موقفِ أهلِ الإيمانِ وموقفِ أهلِ الكُفر

في الجمع بين الكُفر والإيمان في قولِ الحقِّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ وقوله: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾؛ رعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباق، وبذلك يكون أمام السّامع صورتان متقابلتان، إحداهُما في غاية الحُسنِ والجمال، وهي صورةُ الانصياعِ للحقِّ، والأُخرى في غاية القُبح، وهي صورةُ الكُفر والعِناد.

غرضُ الاستفهامِ بـ ﴿مَاذَآ﴾:

عجبُ المنافقين والكافرين من عدَد خزَنة سقر

الاستفهامُ في قولِ الباري عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ تعجُّبيٌّ؛ فإنَّ (ما) استفهاميَّة، و(ذا) أصله اسم إشارة، فإذا وقع بعد (ما) أو (من) الاستفهاميَّتين أفادَ معنى (الَّذي)، فيكون تقديرُه: ما الأمرُ الَّذي أرادَهُ اللّه بهذا الكلام في حالِ أنَّه مَثَلٌ؟! والمعنى: لم يُرِد اللّه هذا العددَ المُمثَّل به، وقد كُنِّيَ بنفي إرادةِ اللّه العدَدَ عن إنكارِ أن يكونَ اللّه قال ذلك، والمعنى: لم يُرِدِ اللّه العدَدَ المُمثَّل به، فكنَّوا بنفي إرادةِ اللّه وصفَ هذا العددِ عن تكذيبِهم أن يكونَ هذا العددُ موافقًا للواقع؛ لأنَّهم يَنفونَ فائدته، وإنَّما أرادوا تكذيبَ أن يكونَ هذا وحيًا من عندِ اللّه[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 317.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

شدَّةُ تلبيسِ المنافقينَ والكافرين

جيءَ بلفظِ الجلالةِ في قولِه جلَّ ثناؤه: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾؛ لدلالتِه على المَلِك الَّذي له جميعُ العظمة[1]، يرون من أنفُسِهم أنَّ سببَ إنكارهم واستغرابهم أنَّ العظيم سبحانه لا يُمكن أن يُمثِّل بهذا العدد، وذلك من تلبيسِهم وتدليسِهم.

معنى الباءِ في ﴿بِهَٰذَا﴾:

الباء في قوله جلَّ ذكره: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾: للتَّعدية، فالمَثَل المذكور - وهو عددُ خزَنة سقر - متعلِّق الإرادة.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ في ﴿بِهَٰذَا﴾:

تحقيرُ المكذِّبين شأنَ عددِ الخزَنة

الإشارة في قوله جلَّ ذكره: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ إلى عدَدِ خزَنة سقر[2]. والتَّعبيرُ باسم الإشارة للقريب للتَّقليل والتَّحقير بقرينة المقام، أي: ماذا أراد اللّه بهذا العدد القليل الحقير في جَنبِ عظمتهِ مثلًا[3].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ المثلِ:

لا تعارُضَ بين العَظَمةِ وبين قلَّة العدد

المَثَل: هو الصِّفةُ العجيبةُ الشَّأنِ الذي يُذكَر للاعتبار. والتَّعبيرُ به في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ذِكر العدد في غايةِ الغرابة، وأنَّ مِثله حقيقٌ بأن تسير به الرُّكبان سيرَها بالأمثال[4]، فتسميةُ ذلك مثلًا على سبيل الاستعارة[5] التَّصريحيَّة. أو أنَّ ذلك إشارةٌ إلى أنَّه ليس المرادُ به ظاهرَهُ، بل هو مَثَلٌ لشيء لم يَفهَموهُ، وفهموا أنَّ بينَ استِجماعِه للعَظَمة وهذا العددِ عِنادًا، وما عَلِموا أنَّ القليلَ من حيثُ العدد قد يكونُ أعظمَ بقوَّتِه من الكثير العدَد، ويكونُ أدلَّ على استجماعِ العظمة[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 82.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.
(5) السمين، الدر المصون: 10/ 549.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 64 - 65.

سرُّ إفرادِ قولِهم بالذِّكرِ معَ دُخولِهِ في فتنتِهم:

إفرادُ قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ بالتَّعليل مع كونِه من باب فتنتِهم المذكورة في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإشعار باستقلالهِ في الشَّناعة[1].

علَّةُ فصلِ جملة التَّشبيه:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه بيانٌ وتفسيرٌ له؛ فالفصلُ يكونُ لكمالِ الاتِّصال، لأنَّ معنى هاتين الجملتين قد اشتملَ عليه معنى الكلام السّابق إجمالًا؛ فإنَّ قولَ الَّذين في قلوبهم مرضٌ والكافرين: (ماذا أرادَ اللّه بهذا) هو ضلالٌ، وإنّ استيقانَ المؤمنين به هدًى. ويجوزُ أن يُجعلَ جوابًا عن استفهامهم؛ تخريجًا للكلام على الأسلوب الحكيم بحَمْلِ استفهامِهم على ظاهره؛ تنبيهًا على أنَّ اللّائقَ بهم أنْ يَسألوا عن حِكمةِ ما أرادَ اللّه بتلك الأمثال، فيكونُ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ جوابًا لهم ورَدًّا عليهم وبيانًا لحال المؤمنين، وهذا لا يُنافي كونَ الاستفهام الَّذي قبله مكنًّى به عن الإنكار؛ لجواز جمعِ المعنيَين الكِنائيِّ والأصليِّ[2].

لله حِكَمٌ في كلِّ ما يُخبر به

بلاغةُ التَّشبيهِ بالكاف:

الكافُ في قوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ للتَّشبيه، واسمُ الإشارة عائدٌ إلى ما تضَمَّنه الكلامُ المُتقدِّمُ من قوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى قوله: ﴿مَثَلٗاۚ﴾ بتأويل ما تضمَّنه الكلامُ بالمذكور، أي: مَثَلُ ذلك الضَّلالِ الحاصلِ للَّذين في قلوبهم مرضٌ وللكافرين، والحاصلِ للَّذين أوتوا الكتابَ بعد أن استيقنوا فلم يُؤمنوا؛ يُضِلُّ اللّه مَن يشاءُ أن يُضِلَّهُ من عِبادِه، ومَثَلُ

الله تعالى هو المُتصرِّف في شؤون البشر وأحوالهم

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 365.

ذلك الهُدى الَّذي اهتداهُ المؤمنون فزادَهُم إيمانًا مع إيمانهم؛ يَهدي اللّه مَن يشاء.

والغرضُ من هذا التَّشبيه تقريبُ المعنى المعقول - وهو تصرُّفُ اللّه تعالى بخَلقِ أسباب الأحوال العارضة للبشر - إلى المعنى المحسوس المعروف في واقعةِ الحال؛ تعليمًا للمسلمين، وتنبيهًا على النَّظر في تحصيل ما ينفع نفوسَهم. ووجهُ الشَّبه هو السَّببيَّة في اهتداء من يهتدي وضلالِ من يَضِلُّ، في أنَّ كلًّا من المشبَّه والمشبَّه به جعلَهُ اللّه سببًا وإرادةً لحكمةٍ اقتضاها عِلمُهُ تعالى، فتفاوت النّاسُ في مدى إفهامهم فيه بين مهتدٍ ومرتابٍ مختلفِ المرتبة في رَيْبِه، ومكابرٍ كافرٍ وسيِّئِ فهمٍ كافرٍ. وهذه كلمةٌ عظيمة في اختلاف تلقّي العقول للحقائق وانتفاعِهم بها أو ضدِّه بحسب اختلاف قرائحهم وفهومهم وتراكيب جِبِلّاتهم المتسلسلة من صوابٍ إلى مِثله، أو من تردُّدٍ واضطراب إلى مِثله، أو من عنادٍ إلى مِثله، فانطوى التَّشبيهُ من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أحوالٍ وصورٍ كثيرةٍ تظهرُ في الخارج[1].

نكتةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

شـأنُ الإضـلال والهداية عظيم

الإتيانُ باسم الإشارة للبعيد في قوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ لتعظيم المُشار إليه، وهو ما قبله من معنى الإضلالِ والهدى[2]؛ فإنَّ شأنَ النُّفوس وأحوالَها عظيمُ القدر، فجلَّت قدرةُ خالقِ النُّفوسِ الَّذي له الحكمُ والأمرُ.

نكتةُ الجمعِ ثمَّ التَّقسيمِ في جملتَي التَّشبيه والعطف:

الإضـــــلالُ والـهـدايـةُ من شؤونه تعالى

محلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ نصبٌ بالنّيابة عن المفعول المطلق؛ لأنَّ الجارَّ والمجرور هنا صفةٌ لمصدرٍ محذوف دلَّتْ عليه الصِّفة، والتَّقدير: يُضِلُّ اللّه مَن يشاءُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 318.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566.

ويَهدي مَن يشاءُ إضلالًا وهديًا كذلك الإضلالِ والهدي. وقُدِّمَ وصفُ المفعول المطلق للاهتمام بهذا التَّشبيه؛ لِما يُرشد إليه من تفصيلٍ عند التَّدبُّر فيه، وحصل من تقديمه مُحسِّنُ الجمع ثمَّ التَّقسيم؛ إذ جاء تقسيمُهُ بقوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُضِلُّ﴾ و﴿وَيَهۡدِي﴾:

الهدايةُ والإضلالُ شأنان مستمرّان لله تعالى

جيء بصيغة المضارع في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الهدايةَ والإضلالَ من شؤونِه تعالى المستمرَّة المتجدِّدة بحسب ما تعلَّقت به إرادته.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

الهدايةُ والإضلالُ لا يُتصوَّران إلّا من ذي العظمةِ والجَلال

أوثِرَ لفظُ الجلالة في قول الباري ﷻ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ لدلالته على تعظيم الحقِّ ﷻ، أي: الَّذي له مجامعُ العظمة ومعاقدُ العزِّ[2]، ولأنَّ الهدايةَ والإضلالَ لا يُتصوَّران إلّا من ذي العظمة والجلال. وفيه أيضًا موافقةٌ لإيثارِهم لفظَ الجلالة في سؤالِهم المذكور بقوله: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾، فيُشير إلى أنَّ عظمتهُ ﷻ لا تقتضي تركَ ذِكرِ مَثَلِ خزَنَةِ سقر؛ لِما له ﷻ في ذلك من الحِكَم والأسرار.

سرُّ تركِ فعلِ الإرادةِ في الجوابِ:

الهدايةُ والإضلالُ واقعان وقوعًا محقَّقًا

الظّاهر أن يقال: (أرادَ الله أنْ يُضِلَّ مَنْ يشاءُ ويهدي مَنْ يشاءُ)؛ ليوافقَ ذِكرَهم فعلَ الإرادةِ في قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾، وإنَّما وُضِعَ الفِعلان في قوله: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ موضعَ فِعل الإرادة الوارد في سؤالهم؛ مبالغةً في الدَّلالة على تحقيقِهما؛ فإنَّ إرادَتهما دون وقوعِهما بالفعل، وتجافيًا عن نظم الإضلالِ مع الهداية في سِلْكِ الإرادة؛ لإيهامِه تساويَهما في تعلُّقِهما،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 65.

وليس كذلك؛ فإنَّ المرادَ بالذّات من ذِكر المَثَل هو التَّذكُّر والاهتداءُ، وأمّا الإضلالُ فهو أمرٌ عارِضٌ مترتِّب على سوءِ اختيارِهم[1].

سرُّ تقديمِ الإضلالِ على الهدايةِ:

المكذِّبون حقيقون بكلِّ مَساءة

قدِّم الإضلالُ على الهداية في قوله ﷻ: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾؛ ليكون أوَّلُ ما يقرَعُ أسماعَهم من الجواب أمرًا فظيعًا يسوءُهُم ويفتُّ في أعضادهم[2]، ولأنَّ المقصودَ الرَّئيسَ ذِكرُ حال أهلِ الضَّلال مع ذِكر عددِ خزَنة سقر.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَن﴾:

أهلُ الهداية وأهلُ الضلال كثيرون

جيءَ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ للدَّلالة على العموم، وأنَّه ﷻ يُضِلُّ مَن يشاء من عباده، وهو كلُّ من عُلِمَ منه اختيارُ الضَّلال، ويَهدي مَن يشاء، وهو كلُّ من عُلم منه اختيارُ الاهتداء[3]. وفي الموصول عمومٌ وإبهامٌ يلائم كثرةَ عددِ كلٍّ من الفريقين.

دلالةُ الواوِ:

جنودُ الله أكثرُ ممّا ذُكِر في أمر الخزَنة

يحتمل أن تكون الواو في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ حاليَّة، والجملة حال، أي: والحالُ أنَّه ما يعلم جنودَ ربِّك إلّا هو، وبلاغة موقعها هنا: أنَّه لمّا كان ما سبقَ ممّا يوهم قلَّة جنودِه تعالى، أتبَعَهُ ما يُزيل ذلك[4].

أمورُ الغيب لا مجالَ فيها لإعمالِ العقول والآراء

ويحتمل أن تكون الواو استئنافيَّة، والجملة كلمةٌ جامعةٌ لإبطالِ التَّخرُّصات الَّتي يتخرَّصُها الضّالّون ومرضى القلوب عند سماعِ الأخبار عن عالم الغيب وأمور الآخرة، من نحو ما قالَهُ المكذِّبون في أمرِ خزَنة جهنَّم، يشمَلُ ذلكُ وغيره، فلذلك كان لهذه الجملة حكمُ التَّذييل[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 74.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 74.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 566.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 66.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.

علم جموعِ الخلائقِ من خصائصِ تعالى

بلاغةُ القصرِ في ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾:

القصر بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى شأنه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ قصر صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا، والمعنى: وما يعلمُ جُموعَ خَلقِ ربِّك الَّتي من جُملتها الملائكةُ المذكورون إلّا هو؛ إذ لا سبيلَ لأحدٍ إلى حصر المُمْكِنات والوقوف على حقائقها وصِفاتِها ولو إجمالًا، فضلًا عن الاطِّلاع على تفاصيلِ أحوالِها من كمٍّ وكيفٍ ونسبةٍ[1].

العلمُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ منتفٍ عن الخَلق على الاستمرار

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿وَمَا يَعۡلَمُ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارع المنفيِّ في قول الباري ﷻ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ لإفادة استمرار انتفاء العلم بالجنود عن غيره ﷻ، وفي ذلك تنبيهٌ على صفةٍ من صفات الإله الحقِّ ﷻ، وهي العلمُ المحيط بكلِّ شيء؛ الَّذي لا يكون لغيره.

المخلوقات منقادةٌ لأوامر الله تعالى

نكتةُ التَّعبيرِ بالجنودِ:

الجنود في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ جمع جند، وهو في الأصل اسمٌ لجماعة الجيش، واستُعير هنا للمخلوقات الَّتي جعلها اللّه لتنفيذ أمرِه؛ لمُشابهتها الجنودَ في تنفيذ المراد[2].

نكتةُ الإضافةِ في ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾:

إضافةُ الجنودِ إلى الرَّبِّ في قوله ﷻ: ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾ إضافةُ مملوكٍ لمالك، فهؤلاء الجنود لا يخرجون عن طاعة الحقِّ ﷻ، وهم بأمرِه يَعملون.

فضلُ الله تعالى سابغٌ على نبيِّه ﷺ

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضميرِ الخطابِ:

جيءَ بعنوان الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضمير النَّبيِّ ﷺ؛ لتشريف

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 60.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.

النَّبيِّ ﷺ، وللتَّعريض بأنَّ من شأن تلك الجنود أنَّ بعضَها يكونُ به نصرُ النَّبيِّ ﷺ[1]، وللإشارة إلى إحسانِ اللّه تعالى إلى النَّبيِّ ﷺ بأنواع الإحسان، وتدبيره أمرَهُ بغاية الإتقان[2].

معنى الواوِ في ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾:

غموضُ الحقائق حثٌّ على تسليم الأمـر لـلـقـادر العليم

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ معطوف على ما قبله. ونكتة هذا العطف: أنَّه تعالى لمّا ذكر شيئًا من أسرار سَوْق الأخبار يَخفى على البشر، وكان ذلك من رحمته بالعباد ليفتحَ لهم بابًا إلى التذكُّر وتسليم الأمر للقادر، وإلّا أهلكوا أنفسَهم؛ خصَّ بالذِّكر في هذه الجملة أمرًا معيَّنا[3].

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ:

الاتِّـعـاظُ والاعـتـبـار أولى مـن المِـراء والجدال

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ تتمَّة لقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، على أن يكون جاريًا على طريقة الأسلوب الحكيم، أي: أنَّ النافع لكم أنْ تعلموا أنَّ الخبر عن خزَنة النّار بأنَّهم تسعة عشر فائدتُهُ أن يكون ذكرى للبشر؛ ليتذكَّروا دار العقاب بتوصيف بعض صفاتها؛ لأنَّ في ذكر الصِّفة عَونًا على زيادةِ استحضار الموصوف، فغرضُ القرآن الذِّكرى، وقد اتَّخذه الضّالّون ومرضى القلوب لهوًا وسخريةً ومِراءً بالسُّؤال عن جعلهم تسعة عشر، ولم يكونوا عشرين أو مئاتٍ أو آلافًا، وضميرُ ﴿هِىَ﴾ على هذا الوجه راجع إلى ﴿عِدَّتَهُمۡ﴾.

ويجوز أن يرجع الضَّمير إلى الكلام السّابق، وتأنيثُ ضميره لتأويله بالقصّة أو الصِّفة أو الآيات القرآنية. ويحتملُ أن يرجع إلى سقر، وإنَّما تكون ذكرى باعتبار الوعيد بها وذكرِ أهوالها[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 66.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 67.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 319.

بلاغةُ القصرِ في ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾:

أهمّيَّة الاتِّعاظِ والاعتبار بأخبار الله

القصر بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ، فإن كان ضميرُ ﴿هِيَ﴾ راجعًا إلى سقر فالقصرُ متوجِّه إلى مضافٍ محذوف يدلُّ عليه السّياق تقديره: وما ذِكرُها أو وصفُها أو نحوُ ذلك إلّا ذكرى للبشر، وإن كان راجعًا إلى ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾، والمعنى: وما ذِكرُ جنودِ ربِّك أو ما عِدَّة بعضِها إلّا ذكرى للبشر[1]. وأيًّا ما كان ففي أسلوب القصرِ تنبيهٌ على أهمّيَّة الاتِّعاظِ والاعتبار بأخبار القرآن، وكأنَّهُما الغاية الوحيدة لذِكر الأخبار.

غرضُ تنكيرِ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾:

أخبار الله تعالى مواعظ عظيمة الشأن

تنكير ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم؛ أي: تذكرةٌ عظيمة للبشر[2]. وأيُّ ذكرى أعظمُ من ذكرى تُبصِّر الإنسانَ بحقائق الآخرة، وتُعينه على النَّجاة من أهوالها وأفزاعها؟!.

معنى اللّامِ في ﴿لِلۡبَشَرِ﴾:

البشرُ مَناط الذِّكرى

﴿لِلۡبَشَرِ﴾ مفعولٌ بـ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾، واللّام فيه حرفُ جرٍّ لتقوية العامل وتوكيده، وفيه معنى التَّعليل؛ أي: لأجل البشر، فيُفيد أنَّ البشر هم مَناطُ التَّذكير والموعظة، فعليهم أن ينتفعوا به.

دلالةُ تعريفِ البشرِ:

مواعظُ الله تعالى لجميع الناس

تعريفُ البشرِ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ للجنس المستغرق لجميع أفراده، والمعنى: لجميع البشر وإن كان المنتفعُ بها هم أهلَ الإيمان فقط[3]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّه تعالى يُقيم الحجَّة

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 320.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 67.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 713.

على جميع عباده، ويُنذرُهم جميعَهم، وأنَّه لا يَهلِكُ على اللّه إلّا هالكٌ مكابرٌ عنيد.

سرُّ إيثارِ لفظِ البشرِ:

أهلُ البَشرة الظّاهرة أقبلُ للتّأثُّر بالنّار

أوثِرَ لفظُ البشر دون غيره في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾؛ لأنَّ هذا اللَّفظ يدلُّ على ظهور البشرة، والمعنى: تذكرةٌ عظيمة لكلِّ من هو ظاهرُ البشرة، فبدنُهُ أقبلُ شيء للتأثُّر بالنّار؛ لأجل ما يعرفون منها في دنياهم، وإلّا فهو ﷻ قادرٌ على إيجادِ ما هو أشدُّ[1].

بلاغةُ الجناسِ في ذكرِ البشرِ:

اتِّحادُ اللَّفظ واختلافُ المعنى من وجوه البلاغة

بين لفظ البشر المذكور في قوله تعالى هنا: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ ولفظ البشر المتقدِّم في قوله: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾: التَّجنيسُ التّامُّ[2] إن كان المراد بالسّابق جمعَ بشَرة، وأُريدَ بالمذكور هنا النّاسُ[3].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الفتنة والبلاء والامتحان:

الإخبارُ بعدَد الخزَنة اختبارٌ شديدٌ سقطَ فيه المكذِّبون

الابتلاء: اختبارُ الإنسان بالشِّدَّة والضَّرّاء ليُرى أيَصبرُ أو يَجزع، واختبارُه بالنِّعمة ليُرى أيَشكُر أو يكفُر، والفتنةُ أشدُّ الاختبار وأبلغُه، وأصلُها: عَرْضُ الذَّهَبِ على النّار؛ ليتبيَّنَ صَلاحُهُ من فساده، وتكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]، وقالَ: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16 - 17]، جُعِلَتِ النِّعمةُ فتْنةً؛ لأنَّهُ قُصِدَ بها المبالغةُ في اختبارِ المُنعَم عليه بها[4]. والامتحان: تنقيةُ التَّقيِّ والصّادق بإيمانه، وتمييزُه من غير التَّقيِّ والكاذب[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 67.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 320.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 277.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396.
(5) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 187 - 190.

وقد عُبِّر بالفتنة هنا للمبالغة في الاختبار، وقد كانت نتيجة ذلك أنَّ الكفّار يستهزئون، ويقولون: لمَ لمْ يكونوا عشرين أو أكثر؟ وما المُقتضي لتخصيص هذا العدد بالوجود؟ ويقولون: هذا العددُ القليل كيف يكونون وافينَ بتعذيب أكثر خلق العالَم من الجنِّ والإنس من أوَّل ما خلقَ اللهُ إلى قيام القيامة؟ وأمّا أهلُ الإيمان فلا يلتفتون إلى هذين السُّؤالين[1].

الرَّيب والشَّكُّ والمِرية:

الرَّيب أعمُّ من الشَّكّ

الشَّكُّ: خلافُ اليقين، وهو اعتدالُ النَّقيضَين وتساويهما. والرَّيبُ: هو شكٌّ مقترن بسوء ظنٍّ وتهمةٍ وخوفٍ من عاقبة الأمر. والمِرية: التَّردُّد في الأمر، وهو أخصُّ من الشَّكِّ[2].

وقد عُبِّر بالرَّيب هنا؛ للدَّلالة على أنَّ المؤمنين لا يُخالطهم في أمرِ عددِ الخزَنة سوءُ ظنٍّ ولا تهمةٌ ولا خوفٌ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 710.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 584 - 587.

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر: 32 - 37]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

كــونُ الـنّــار موعظةً لا يُنافي هَوْلَها

وبعد قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ ناسبَ ذلك أنَّ حصرَ النّار في الذِّكرى، ربَّما أوهَمَ نقصًا في أمرِها يوجب لبعضِ المعاندين ريبةً في عِظَمِهِ، وأنَّهُ لا حقيقة لها ولا عذابَ فيها؛ ردَّ ذلك هنا[1].

ووجهُ مناسبة آياتِ القسم ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ لما قبلها هو: أنَّه تعالى لمّا حصَرَ أمرَ النّار في الذِّكرى، ونفى أن يُظَنَّ بها نقصٌ فيما جُعلت له؛ أقسمَ على عِظَمِ أمرِها؛ تأكيدًا للكلام[2]، ولمّا أقسَم على ما أخبَرَ به من أمر النّار؛ أكَّد تعظيمَها والتَّخويفَ منها[3].

حثُّ النّاس على الخير وإبعادُهم من الشَّرِّ

وأمّا مناسبة قوله تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ للآية التي قبلها ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾؛ فهي أنَّه لمّا كان التَّقدُّم عند النّاس محبوبًا والتَّأخُّرُ مكروهًا، وكان ﷻ قد خلقَ في الإنسان قوَّةً واختيارًا بها يفعلُ ما قدَّرهُ اللّه له؛ قال تعالى باعثًا لهم على الخير ومُبعِّدًا من الشَّرِّ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡبَرَ﴾: (دبر) أصلٌ واحد وهو آخرُ الشَّيء، وخلفه: خِلافُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 67 - 68.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 68.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 68 - 69.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 69 - 70.

قُبُلِه. والإدبارُ مصدرٌ مجعولٌ ظرفًا، نحو: مقدم الحاجِّ، وخفوق النجم. واسم فاعله (مُدْبِر) بمعنى التَّولّي والذَّهاب، ودُبِرَ بالشَّئ: ذُهِبَ به. ودبَرَ النَّهارُ وأدْبَرَ بمعنًى، وذلك إذا جاء آخرُه، وهو دبُره. ووَلَّى وذَهَب[1]. وإدبارُ الليل في الآية: اقترابُ تقضّيهِ عند الفجر[2].

2) ﴿أَسْفَرَ﴾: (سفر) أصلٌ يدلُّ على الانكشاف والجلاء[3]، ومن ذلك يقال: سَفَرَ البيتَ: كَنَسَهُ بالمِسْفَرِ، أي: المِكنس، وذلك بإزالة السَّفير عنه، وهو التُّراب الَّذي يُكنَسُ منه، والسِّفر: الكتاب الَّذي يكشف عن الحقائق[4]، وسفرت المرأة عن وجهها؛ أي: كشفت[5]، وسُمّيَ المسافر مسافرًا؛ لكشفه منازلَ الحضَر عن مكانه وبروزِه للأرض الفضاء[6]، ويقال: أسفَرَ إذا أشرَقَ لونُه، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ [عبس: 38][7]. ومعنى ﴿أَسْفَرَ﴾ هنا: أضاء[8]. أي: ابتدأ ظُهورُ ضوء الفجر[9].

3) ﴿ٱلْكُبَرِ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغَر[10]، ومن ذلك: الكِبْرُ، وهو إعجابُ الإنسانِ بنفسِه، وذلكَ أنْ يرى نفسَهُ أكبرَ مِنْ غيرِه[11]. والتَّكبُّرُ يقالُ على وجهين: أحدُهما: أنْ تكونَ الأفعالُ الحسنةُ كثيرةً في الحقيقة، وزائدةً على محاسنِ غيرِه، وعلى هذا وصفُ اللّه تعالى بالتَّكبُّرِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]. والثّاني: أنْ يكونَ متُكلِّفًا لذلكَ مُتشبِّعًا، وذلكَ في وصفِ عامَّةِ النّاسِ، كقولِه: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٧٢﴾ [الزمر: 72]. والاستكبارُ: أنْ يطلبَ الإنسانُ أنْ يصيرَ كبيرًا[12]، والكِبْرياء: التَّكبُّر والعظمةُ[13]. والكُبَر: جمع الكُبْرَى في نوعِها، والمُراد به هنا: الدَّواهي، والعظائم[14].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دبر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سفر).
(4) الراغب، المفردات: (سفر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سفر).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (سفر).
(7) الراغب، المفردات: (سفر).
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 713، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 84.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(11) السمين، عمدة الحفاظ: (كبر).
(12) الراغب، المفردات: (كبر).
(13) الخليل، العين: (كبر).
(14) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 85، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 69.

4) ﴿يَتَقَدَّمَ﴾: (قدم) أصلٌ يدلُّ على سَبْقِ الشَّيء[1]، ومن ذلك يقالُ: شيءٌ قديمٌ، إذا كانَ زمانُهُ سالفًا[2]، ويقالُ: حديثٌ وقديمٌ، وذلكَ: إمّا باعتبارِ الزَّمانين، وإمّا بالشَّرَف، نحوُ: فلانٌ مُتقدِّمٌ على فلانٍ، أي: أشرفُ منهُ[3]، وقادمةُ الرَّحْلِ: خلافُ آخِرتِه، ولفلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أي: شيءٌ سابقٌ مِنْ أثَرٍ حَسَنٍ[4]، وهو يتقدَّمُ بينَ يدَيْ أبيه: يَعْجَلُ في الأمرِ والنَّهيِ دونَهُ[5]. والمرادُ هنا: السَّبقُ إلى الخير والطّاعة[6].

5) ﴿يَتَأَخَّرَ﴾: (أخر) أصلٌ يدلُّ على خلاف التَّقدُّم[7]، ومن ذلك يُقال: أخَّرته فتأخَّر، واستأخر، مثل تأخَّر، والآخِر: بعد الأوَّل[8]، والمستأخِر: نقيض المستقدِم، وبعتُهُ سِلْعةً بأخَرة؛ أي: بتأخير[9]، ومُؤخِرُ العين: ما يلي الصّدغَ، ومُؤخِرة الرَّحل: الَّتي يستند إليها الرّاكب[10]. والمراد هنا: التأخُّر إلى الشَّرِّ والمعصية[11].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

العاقل لا يرضَى بسُلوك سبيلِ النّار

يقول تعالى ذِكره: ليس القولُ كما يقولُ مَن زعمَ أنَّه يكفي أصحابَهُ المشركين خزَنةَ جهنم، ثمَّ أقسمَ ربُّنا ﷻ فقال: والقمرِ واللَّيلِ إذ ولَّى ذاهبًا، والصُّبحِ إذا أضاء، إنَّ جهنَّم لإحدى الأمور العِظام نذيرًا لبني آدمَ لِمَن شاء منكم أيُّها النّاس أن يتقدَّم في طاعة اللّه، أو يتأخَّر في معصية اللّه[12].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قدم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(3) الراغب، المفردات: (قدم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (قدم).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 86.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(8) الجوهري، الصحاح: (أخر).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (أخر).
(10) الرازي، مختار الصحاح: (أخر).
(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 86.
(12) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 32 - 34.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَلَّآ﴾:

المشركون ليسوا بأهلٍ للذِّكرى

(كلّا) حرفُ ردعٍ وإبطال، والغالبُ أن يقع بعد كلام من متكلّمٍ واحدٍ أو من متكلِّمٍ وسامعٍ، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: 61 - 62]، فيُفيد الرَّدعَ عمّا تضمَّنه الكلامُ المحكيُّ قبله، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: 79]، ويجوزُ تقديمُه على الكلام إذا أُريدَ التَّعجيلُ بالرَّدع والتَّشويقُ إلى سماع ما بعدَهُ، وهو في قوله تعالى هنا: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ﴾ محتملٌ لأن يكون إبطالًا لِما قبله من قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾، فيكون ما بينهما اعتراضًا، ويكون قوله: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ ابتداء كلام، فيَحسُن الوقفُ على (كلّا). ويحتملُ أن يكون حرفَ إبطالٍ مقدَّمًا على الكلام الَّذي بعده من قوله: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ تقديمَ اهتمامٍ لإبطال ما يجيءُ بعده من مضمون قوله: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾، أي: من حقِّهم أن ينتذروا بها، فلم ينتذِرْ أكثرُهُم، على نحو معنى قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣﴾ [الفجر: 23]، فيحسُن أن توصَل في القراءة بما بعدَها[1]. والحاصلُ أنَّ ﴿كَلَّآ﴾ إنكارٌ لأن يتذكَّروا بها؛ لأنَّهم لا يتذكَّرون[2].

مُنكِرُ عذابِ النّار مستوجبٌ للإنكار والزَّجر

ويحتمل أن يكون ردعًا لمن يُنكر أن تكون إحدى الكُبَر نذيرًا للبشر[3]، أي: إيّاك أن ترتاب في أهوالِها وعظيمِ أمرِها وأحوالِها وأوجالِها؛ لأنَّ الأمرَ أطمُّ وأعظَمُ ممّا يخطر بالبال، فلْيَرتدِعِ السّامع ولْيَنزَجِر[4].

ويحتملُ أن يكون ردعًا لقول أبي جهلٍ وأصحابه: إنَّهم يقدرون على مقاومة خزَنة النّار، أو رَدعًا لهم عن الاستهزاء بالعِدَّة المخصوصة[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 321.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 713، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 335.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 713، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 68.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 713.

سرُّ الإتيانِ بأسلوبِ القسمِ:

إيقاظُ أهلِ الغفلةِ من غفلتهم وعِنادِهم

الإتيانُ بأسلوبِ القسَم في قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾؛ لتأكيدِ الكلامِ إشارةً إلى ما لأغلبِ المخاطَبين مِنَ العِناد؛ إيقاظًا ممّا هُم فيه من الغفلة، وتنبيهًا لهُم على السَّعي في تقويم أنفُسِهم بما يستعملونه من الأدوية الَّتي يُرشدهم سبحانه إلى علاجِ أمراضِ القلوب بها[1].

نكتةُ القسمِ بالقمرِ:

إدبارُ اللَّيلِ إيماءٌ إلى زوالِ الشُّكوكِ في أخبارِ القرآن

القسَمُ بالقمر في قوله ﷻ: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾ تشريفٌ له، وتنبيهٌ على النَّظر في عجائبه وقُدرة اللّٰه تعالى في حركاته المختلفة الَّتي هي مع كثرتها واختلافها على نظامٍ واحدٍ لا يختلُّ، يدلُّ على عظمة الخالق[2]، وإيماءٌ إلى عِظَم منافعه[3]، ومن ذلك أنَّه لا يظهر معه ظلامُ اللَّيل، كما أنَّ ضياءَ القرآن لا يظهَرُ معه ظلامُ الجَهل لَمن أعمَلَ عَينَ فِكرَته، وألقى حظوظَ نفسه، فالقمرُ هو آيةُ اللَّيل الهادية لَمن ضلَّ بظلامه[4].

دلالةُ تعريفِ (القمرِ):

تعريف (القمر) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ للجنسِ الذي له فردٌ واحدٌ، وهو القمر المنير المعروف، وقد أفادَ القسَمُ به عِظَمَ شأنه وكثرةَ منافعه.

غرضُ تقديمِ القسمِ بالقمرِ على القسمِ بغيرِهِ:

تقديمُ القسم بالقَمر علَى القسَم بغيرِه في قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾؛ لأنَّه نيِّر، ولأنَّ أكثرَ العبادات والمعاملات مَنوطة بحركته[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 68.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 397.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 567.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 68.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 433.

بلاغةُ القسمِ باللَّيلِ:

إدبـــارُ الـلَّـيـل إيماءٌ إلى زوالِ الـشُّـكـوكِ في أخبار القرآن

القسَمُ باللَّيل في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ تشريفٌ له، وتنبيهٌ على عظيمِ خَلْقِهِ وكثرةِ منافعهِ الدّالَّة على تعظيمِ اللّٰه تعالى مالكِ الكلِّ وقِوامِ الوجود، لا إله إلّا هو العزيز القهّار[1]، وإيماءٌ إلى زوالِ الجهلِ وانصرافِ الشُّكوك في أخبار اللّٰه تعالى، كما أنَّه بمُضيِّ اللَّيل ينكشف الظلام[2].

دلالةُ تعريفِ (اللَّيلِ):

جـنـسُ الـلَّـيـل عظيمُ الشَّأن

تعريف (اللَّيل) في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ للجنس، والمرادُ القسَمُ بالجنس المسمَّى بالليل، وهو جنسٌ كثير المنافع، وفيه دلائلُ على قدرة اللّٰه تعالى، وأنَّ انتظامَ العالَم بيده ﷻ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَدۡبَرَ﴾، وما فيها من قراءات:

حال إدبارِ اللَّيل تَمضي وتحضُر وتستقبل

التَّعبير بالماضي في قوله ﷻ: ﴿إِذۡ أَدۡبَرَ﴾؛ لأنَّ ﴿إِذۡ﴾ ظرفٌ لِما مضى من الزَّمان، فيُناسبها الماضي[3]. وأقسمَ باللَّيل في حالِ إدباره الَّتي مضَت، وهي حالٌ متجدِّدة، تمضي وتحضُر وتستقبل، فأيُّ زمنٍ اعتُبِر معها فهي حقيقةٌ بأن يُقسَمَ بكونها فيه[4].

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة والكسائي وأبو جعفر: ﴿إِذَا دَبَرَ﴾[5]، فهي على أنَّ ﴿إِذَا﴾ ظرف لِما يُستقبل من الزَّمان، و﴿دَبَرَ﴾ بزنة (ضَرَبَ). والرَّسمُ مُحتمِلٌ للقراءتين؛ فالصّورة الخطّيَّة لا تختلف. و(دَبَرَ اللَّيلُ وأدبرَ) بمعنى واحد، أو ﴿دَبَرَ﴾ بمعنى: انقضَى، و﴿أَدۡبَرَ﴾ بمعنى: تولَّى[6].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 397.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 68.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 277، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322 - 323.
(5) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(6) السمين، الدر المصون: 10/ 550.

وعلى قراءة ﴿إِذَا دَبَرَ﴾: (إذا) ظرفٌ لِما يُستقبل من الزَّمان، والتَّعبير بالماضي إشارةٌ إلى التَّحقُّق، أو (إذا) تقلِبُه إلى المستقبل[1]، فيكون القسَمُ بالحال المستقبلة من إدبار اللَّيل بعد نزول الآية[2].

براعةُ تقييدِ اللَّيلِ بالإدبارِ والصُّبحِ بالإسفارِ:

القسَمُ الإدبار وبالإسفار محلُّ عِظةٍ وعِبرة

تقييدُ اللَّيل بوقتِ الإدبار في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾، وتقييدُ الصُّبح بالإسفار في قوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾؛ لأنَّهما وقتا حدوثِ أمرَين عظيمَين[3]؛ فالتَّقييدُ بهما تنصيصٌ على ما هو محلُّ العِظة والعِبرة.

بلاغةُ القسَمِ بالصُّبحِ:

تمثيلُ حالِ الفريقين من النّاس عندَ نزول القرآن بحالِ اختراقِ النّور في الظُّلمة

القسَمُ بالصُّبح في قوله ﷻ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ - بمعنى: أقبلَ ضياؤه - للإشارة إلى حصول العِلم والهداية بحُلوله[4]، وللحثِّ على الاعتبار به والاستدلال به على قُدرة خالقِه[5]. وأيضًا بالقمر والصُّبح تظهَرُ أنوارٌ في خلال الظَّلام، فناسبَتْ حالَيِ الهُدى والضَّلال من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، ومن قوله: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾، ففي هذا القسَم تلويحٌ إلى تمثيل حالِ الفريقين من النّاس عند نزولِ القرآن بحالِ اختراقِ النّور الظُّلمةَ[6].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَآ﴾ والماضي في ﴿إِذَآ أَسۡفَرَ﴾:

إسفارُ الصُّبح حالٌ تمضي وتحضُر وتستقبل

﴿إِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ اسمُ زمانٍ منتصبٌ على الحال من (الصُّبح)، أي: أُقسَم بالصُّبح في هذه الحال العجيبة الدّالَّة على النِّظام المُحكَم المُشابه لَمحو الله ظلماتِ الكفر بنور الإسلام، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 277، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 144.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322 - 323.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 433.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 68.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 359.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322.

﴿ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 1][1]، و﴿إِذَآ﴾ ظرفٌ لِما يُستقبل من الزَّمان، والتَّعبير بالماضي لتحقُّقه، أو لأنَّ ﴿إِذَآ﴾ تقلِبُه إلى المستقبل، فيكون القسَم بالحال المستقبلة من إسفارِ الصُّبح بعد نزول الآية[2].

سرُّ تكرارِ القسمِ:

المُقسَم عليه متحقِّقٌ يقينًا

تكرارُ القسَم في قوله جلَّ ذكره: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾؛ للمبالغة في تحقُّقِ المُقسَم عليه[3]، ولزيادة التَّأكيد؛ فإنَّ التَّأكيد اللَّفظيَّ إذا أُكِّد بالتَّكرار يُكرَّر ثلاث مرّاتٍ غالبًا، وقد أقسَم تعالى بمخلوقٍ عظيم، وبحالين عظيمَين من آثار قُدرة اللّه تعالى[4].

براعةُ الطِّباقِ بينَ اللَّيلِ والصُّبحِ:

إضاءةُ الصُّبح تُكمِلُ ذهابَ ظُلمةِ اللَّيل

في الجمع بين اللَّيل والصُّبح في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ رعايةٌ لمحسِّن معنويٍّ، وهو الطِّباق، وبذلك يكون أمام السّامع صورتان يكمِّل بعضُهما بعضًا؛ فإنَّ إسفار الصُّبح - وهو إضاءته - يُكمِّل إدبارَ الليل، وهو مُضيُّه وذهابُ ظلمته، وفي ذلك ما لا يخفى من ملاءمة التَّمثيل لحالَي المهتدين والضّالّين.

دلالة الموقعِ الإعرابي لجملة ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾:

سقر هولٌ عظيمٌ جديرٌ بأن يُتذكَّر به

الواو المفتتَح بها قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾، واو القسَم، وهذا القسَم يجوز أن يكون تذييلًا لما قبله مؤكِّدًا لما أفادته ﴿كَلَّا﴾ من الإنكار والإبطال لمقالتهم في شأن عدَّة خزَنة النّار، فتكون جملة ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ تعليلًا للإنكار الَّذي أفادته ﴿كَلَّا﴾، ويكون ضمير (إنَّها) عائدًا على سقر، أي: هي جديرةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322 - 323.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 433.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 322.

بأن يُتذكَّر بها، فلذلك كان مَن لم يتذكَّر بها حقيقًا بالإنكار عليه وردعِهِ، وجملة القسَم على هذا الوجه معترضة بين الجملة وتعليلها.

ويحتمل أن يكون القسَم صدرًا للكلام الَّذي بعده، وجملة ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ جواب القسم، والضمير راجع إلى سقر، أي: إنَّ سقر لأعظم الأهوال[1].

نكتةُ تَوالي المؤكّداتِ في ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾:

أُكِّد قوله ﷻ: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ بـ (إنَّ) واللّام؛ لزيادة التَّخويف والتَّهديد، وللرَّدِّ على إنكارِهم العظيم لبلايا سقر واستهزائهم بعددِ خزَنتها[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾:

بلاءُ المعذَّبين في سقر شديدٌ غيرُ متناهٍ

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ معناه: إنَّ سقر لإحدى البلايا أو الدَّواهي الكُبَرِ - على حذف الموصوف - ومعنى كونها إحداهنَّ: أنَّها من بينهنَّ واحدةٌ في العِظَم، لا نظيرةَ لها؛ كما تقول: هو أحدُ الرجال، وهي إحدى النِّساء[3]، فيكون الكلامُ كنايةً عن شدَّة هَوْلِها، أو المراد: أنَّها واحدةُ سبعٍ هي غايةٌ في الكبر، أي: دركاتِ النّار، وهي: جهنَّم فلظَى فالحُطَمة فالسَّعير فسقر فالجحيمُ فالهاوية، هي إحداها في عظيم أقطارِها وشديدِ إيلامها وإضرارها[4]. وأيًّا ما كان ففي الكلام إشارةٌ إلى أنَّ بلاءَهُم غيرُ محصورٍ فيها، بل تحلُّ بهم بلايا غيرُ متناهية[5].

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡكُبَرِ﴾:

سقر فردٌ من أفراد البلايا أو الدَّواهي أو دركات النّار

إن كان المرادُ بالكُبَر البلايا او الدَّواهيَ فتعريفُها للجنس،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 321.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 68 - 69.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 653، وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 432.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 69.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 145.

والمعنى: إنَّ سقر لفَردٌ من أفراد البلايا أو الدَّواهي، وإن كان المرادُ بالكُبَر دركات جهنَّم فالتَّعريفُ للعهد، والمعنى: إنَّ سقر لفَردٌ من أفراد الدَّركات المعروفة المعهودة.

علَّةُ تذكيرِ ﴿نَذِيرًا﴾:

رعايةُ المعنى وتقديمُها على رعاية اللَّفظ

الظّاهر أن يقال: (نذيرةً)، وإنما ذُكِّر ﴿نَذِيرًا﴾؛ لأنَّ معناه معنى العذاب، أو أراد: ذاتَ إنذارٍ على معنى النَّسب، كقولهم: امرأة طالق وطاهر[1]. ولأنَّ النَّذير هو المُنذِر، وأصلُه وصفٌ بالمصدر؛ لأن ﴿نَذِيرًا﴾ جاء في المصادر كما جاء النَّكير، والمصدر إذا وُصِفَ به أو أُخبِرَ به يلزم الإفرادَ والتَّذكيرَ، وقد كثُر الوصفُ بالنَّذير حتَّى صار بمنزلة الاسم للمُنذِر[2].

بلاغةُ موقعِ ﴿نَذِيرًا﴾ مِنْ حيثُ الإعرابُ:

فخامةُ شأنِ سقر في الإنذار

قوله: ﴿نَذِيرًا﴾ تمييز من (إحدى) على معنى: إنَّها لإحدى الدَّواهي إنذارًا، كما تقول: هي إحدى النِّساء عفافًا[3]، وفائدةُ التَّمييز هي الإيضاح بعد الإبهام، وهو أسلوبٌ يُشوِّق النَّفسَ لتلقّي الكلام، أو حال عمّا دلَّت عليه الجملة؛ أي: كبُرت منذرةً[4].

غرضُ تنكيرِ ﴿نَذِيرًا﴾:

هولُ إنذارِ سقر لا يوصَف

تنكير ﴿نَذِيرًا﴾ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ للتَّعظيم، أي: نذيرًا عظيمًا، لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِه وعظمته، وفي ذلك مزيدُ حثٍّ لهم على الاتِّعاظِ والاعتبار، وتركِ الكفر والعِناد.

نكتةُ صيغةِ (فعيلٍ) في ﴿نَذِيرًا﴾:

جيءَ بصيغة (فعيل) في قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا﴾؛ للمبالغة في وصفِ سقر بهذا الوصف المُنبئ عن التَّحذير والتَّخويف، فلا يبقى للعاقل عذرٌ مانعٌ من العمَل بمقتضَى الإنذار.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 85.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 323.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 714.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 262.

معنى اللّامِ:

اللّامُ في قوله سبحانه: ﴿نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ﴾ وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ صلةٌ لتقوية العامل[1]، فالبشر هم متعلَّق الإنذار.

دلالةُ تعريفِ البشرِ:

إنـذارٌ سقر عامٌّ لجميع الناس

تعريفُ البشر في قوله ﷻ: ﴿نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ﴾ للجنس المستغرِق لجميع الأفراد، فسَقر نذيرٌ لكلِّ النّاس، وإنذارُها لا يختصُّ بأحد؛ فهي حثٌّ للمؤمن على زيادةِ الطّاعة، وحثٌّ للكافر على الإيمان والطّاعة.

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالبشرِ:

عُبِّر بالبشر في قوله جلَّ من قائل: ﴿نَذِيرًا لِّلۡبَشَرِ﴾؛ للإشارة إلى إسراع الجسم العاديِّ في قبول التأثُّر لا سيَّما بالنّار[2]، وذلك أنَّ البشر قد سُمّوا بذلك لظُهور بشرتهم.

بلاغةُ موقعِ جملة المشيئة مِنْ حيثُ الإعرابُ:

الـذِّكـرى تنفع مَـن يـترك الكِبْر والعِناد

قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ بدلُ مفصَّلٍ من مُجمَلٍ من قوله: ﴿لِّلۡبَشَرِ﴾، وأُعيدَ حرف الجرِّ مع البدل للتَّأكيد، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف: 75]، والمعنى: إنَّها نذيرٌ لَمن شاءَ أن يتقدَّم إلى الإيمان والخير لينتذِرَ بها، ولَمن شاءَ أن يتأخَّر عن الإيمان والخير فلا يَرعويَ بنِذارتها[3].

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ (مَنْ):

جيء بالموصول (مَن) في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾؛ لأنَّه من ألفاظ العموم، فيُفيد الكلامُ أنَّ سقر نذيرٌ لكلِّ مَن يشاءُ التَّقدُّم أو يشاءُ التَّأخُّر.

---

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 553.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 69.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 323.

سرُّ تعليقِ النَّذيرِ بالمشيئةِ:

تعليق ﴿نَذِيرًا﴾ بفعل المشيئة في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ إنذارٌ لَمَنْ لا يتذكَّر بأنَّ عدم تذكُّره ناشئٌ عن عدم مشيئته، فتبِعتُهُ عليه لتفريطه[1]، وهذا وعيدٌ وتهديدٌ وإنْ خرجَ مخرجَ الخبر، كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: 29][2].

مَن أساءَ فعلى نفسِه

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطابِ في ﴿مِنكُمۡ﴾:

في ضمير ﴿مِنكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ التفاتٌ من الغيبة إلى الخِطاب؛ لأنَّ مقتضَى الظّاهر أن يُقال: لَمِن شاء منهم، أي: من البشر[3]. ونكتةُ هذا الالتفات: التَّصريحُ بالمقصود؛ لئلّا يتعنَّتَ متعنِّتٌ فيقول: المرادُ غيرُنا، وليصيرَ كلُّ مخاطَبٍ به كأنَّه هو المقصودُ بذلك بالقصد الأوَّل، فيتأمَّلَ المعنى في نفسه، فيجدَهُ صادقًا، ثمَّ يتأمَّل فلا يجدَ مانعًا من تعديَتِه إلى غيرِه من جميعِ البشر[4].

مَن يتأمَّل مواضعَ الصِّدق يُهدَى الى الحقّ

غرضُ تقديمِ ﴿مِنكُمۡ﴾:

قُدِّم ﴿مِنكُمۡ﴾ على ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ للعناية بالمقدَّم - وهو تعلُّق اختيار الهدى أو الضَّلال بهم - ليدرك الإنسانُ خطورة سلوك السَّبيل الَّذي يختاره، وللتَّشويق إلى المؤخَّر.

العاقلُ يُدرك خطورةَ السَّبيلِ الَّذي يَسلكُه في الاعتقاد

براعةُ التَّعبيرِ بالتَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ:

قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ معناه: لَمَن شاء أن يتقدَّمَ إلى الإيمان والخير لينتذر بها، ولَمن شاء أن يتأخَّرَ عن الإيمان والخير فلا يَرعويَ بنِذارتها؛ لأنَّ التَّقدُّمَ مشيٌ إلى جهة الأمام، فكأنَّ المخاطَب يمشي إلى جهة الدّاعي إلى الإيمان، وهو

التَّقدُّم قبولُ دعوةِ الدّاعي، والتَّأخُّرَ رفضُها

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 323.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 398.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 324.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 70.

كنايةٌ عن قبول ما يدعو إليه، وبعكسِه التَّأخُّر[1]. أو هو كنايةٌ عن كون المكلَّفين مُختارين متمكِّنين من فعل الطّاعة والمعصية[2].

ويجوزُ أن يقدَّر: لَمن شاءَ أن يتقدَّم إليها، أي: إلى سقر بالإقدام على الأعمال الَّتي تُقدِّمه إليها، أو يتأخَّر عنها بتجنُّب ما من شأنهِ أن يُقرِّبه منها[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾:

القصدُ والعزمُ يسبقانِ الفعل

جيءَ بصيغة المُضارع في قوله ﷻ: ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾؛ لأنَّ التَّقدُّم، أو التَّأخُّر أمران مستقبلان بالنِّسبة لزمنِ المشيئة؛ فالإنسانُ يختارُ شيئًا، ويعزمُ عليه، ويُصمِّم ثم يفعله.

سرُّ حذفِ متعلِّقاتِ التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ:

التَّـقـدُّمُ إلـى الإيـمـانِ والخير والتأخُّرُ عنهما

قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ معناه: لَمَن شاء أن يتقدَّمَ إلى الإيمان والخير لينتذِرَ بها، ولمن شاء أن يتأخَّرَ عن الإيمان والخير فلا يَرعويَ بنِذارتها، لَمَن شاء أن يتقدَّم إليها، أي: إلى سقر بالإقدامِ على الأعمال الَّتي تُقدِّمه إليها، أو يتأخَّر عنها بتجنُّب ما من شأنه أن يُقرِّبه منها، فحُذف متعلّق ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ و﴿يَتَأَخَّرَ﴾ على الوجهين إيجازًا؛ لظُهوره من السّياق[4].

غَرَضُ تقديمِ التَّقدُّمِ على التَّأخُّرِ:

الأولـى للعاقل أن يَختارَ الإيمانَ والطّاعة

تقديمُ التَّقدُّم على التَّأخُّر في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الأولى للإنسان العاقل أن يختارَ التَّقدُّم إلى الإيمان والطّاعة، ولرعاية تلاؤم الفواصل.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 323.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 141.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 323.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 323.

وجه العطف بـ﴿أَوۡ﴾:

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ للتَّخيير مع امتناع الجمع؛ فالإنسانُ إمّا أن يختارَ أن يكونَ مؤمنًا شاكرًا، وإمّا أن يختارَ أن يكونَ جاحدًا كافرًا.

براعةُ الطِّباقِ بينَ التَّقدُّمِ والتَّأخُّر:

صورةُ الإيمان وصورةُ الكُفر ماثلتان أمام السّامع

في الجمع بين التَّقدُّم والتَّأخُّر في قوله ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ رعايةٌ لمحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباق، فيرى السّامعُ صورتين متقابلتين؛ إحداهما سعيٌ إلى الإيمان والخير والطّاعة، والأخرى تَرَدٍّ في مَهاوي الكفرِ والعصيان، وفي ذلك حثٌّ لأصحاب العقول السَّليمة على اختيار الحالة الأولى.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصُّبح والضُّحى والفجر:

الهدايةُ نورٌ يضيءُ للمهتدي

الصُّبح: أوَّلُ النهار، وهو وقتُ احمرار الأُفق بحاجبِ الشَّمس[1]. والضُّحى: انبساطُ الشَّمس واشتدادُ حرارتها[2]. والفجرُ فجران: الكاذب، وهو ظهورُ خيطٍ أبيضَ عموديٍّ يظهرُ من جهة طلوع الشَّمس، ثمَّ لا يلبثُ أن يختفيَ، ويعقُبُه ظهورُ خيطٍ أبيضَ أفقيٍّ يبدأ بالانتشار؛ إيذانًا بشروقِ الشَّمس، ويُسمَّى الفجرَ الصّادق[3].

وقد عُبِّر بالفجر هنا؛ لأنَّ المقصودَ ذِكر حالةِ ابتداءِ ظهورِ ضوءِ النَّهار وانقشاعِ ظُلمة اللَّيل؛ ليُمَثَّلَ بها صورةُ الحقِّ والهداية.

المشيئة والإرادة:

الإنسانُ بين إصابةِ الهُدى أو إصابةِ الضَّلال

المشيئة من الإنسان تقتضي الإصابة، وأمّا الإرادةُ فلا تقتضي

---

(1) الراغب، المفردات: (صبح).

(2) الراغب، المفردات: (ضحى).

(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 656.

ذلك، فقولك: شاءَ فلان الزِّنا يعني إصابتهُ له ووقوعهُ وحصولهُ منه، وقولك: أرادَ فلان الزِّنا يعني أنَّه طلبَهُ ونَواه، ولا يستلزمُ ذلك أن يقعَ منه[1].

وقد عُبِّر بالمشيئة هنا؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ أنَّ الإنسانَ لا يخلو من إصابة الحقِّ والهُدى أو إصابةِ الباطل والضَّلال.

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 113.

﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى
جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ
﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾
وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ
أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: 38 - 47]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

شتّان بين مصيرَيْن فريقٍ في الجنَّة وفريقٍ في السعير

لمّا كان التَّقدُّم والتأخُّر بالأفعال، وكان أكثرُ فعلِ الإنسان الشَّرَّ لما جُبِلَ عليه من النُّقصان؛ قال تعالى مبيِّنًا لما يُقدَّم وما يؤخَّر: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾(1).

ولمّا كان الرَّهنُ تارةً يُفَكُّ وتارةً يُغلَقُ، وكان أكثرُ الخلق هالكًا؛ جُعِلَ رهينةً بمعنى "هالكة". ثمَّ استثنى تعالى الممدوحَ فقال: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾؛ فلمّا أخرجَهُم عن حُكم الارتهان؛ استأنفَ ببيان حالهم فقال: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ولمّا كان يومُ القيامة في غاية الصُّعوبة، وكان كلُّ أحدٍ مشغولًا بنفسه، ولا عِلمَ له بتفاصيل ما يتَّفق لغيره، وكان المؤمنون إذا دخلوا الجنَّة أرادوا العِلم بما فُعِل بأعدائهم، فتساءَلوا عن حالهم، فكشفَ اللّه لهم عنهم حتَّى رأوهم في النّار وهي تُسعَّرُ بهم ليُقِرَّ اللّه أعيُنَهم بعذابهم؛ أخبرَ سبحانه عن بعضِ ما يقولُه المؤمنون لهم، فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾. وهذا الوجهُ مَبنيٌّ على أنَّ الاستفهامَ على حقيقته، ثمَّ أخبرَ سبحانه عمّا أجابَ به المُجرمون، فقال: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 70.

ولمّا نفَوا الصِّلة بالخالق، أتبَعوهُ إفسادَ القوَّة العمليَّة بعدمِ وصلَةِ الخلائق بتركِ الشَّفقة على خَلقِ الله، فقالوا: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾.

فلمّا سلبَهم التحلّيَ بلباس الأولياء أثبتَ لهم التحلّيَ بلباس الأشقياء بإفسادِ القوَّةِ النُّطقيَّةِ جامعًا القولَ إلى الفعل، فقال حكايةً عنهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾.

ولمّا كان الإدمانُ على الباطل يجرُّ إلى غلَبة الهزء والسُّخرية، وغلَبةُ ذلك توجبُ إفسادَ القوَّة العلميَّة بتصديقِ الكذبِ وتكذيبِ الصِّدق، قال حكايةً عنهم: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَسَبَتْ﴾: (كسب) أصلٌ يدلُّ على طلبٍ وإصابةٍ[2]، ومن ذلك: الكسبُ، وهو ما يتحرّاهُ الإنسانُ ممّا فيهِ اجتلابُ نفعٍ وتحصيلُ حظٍّ، ككسبِ المالِ، قال تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 267] وقد يُستعمَلُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنَّهُ يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلبَ بهِ مَضَرَّةً[3]، ويقالُ: اكتسَبَ، أي: تصرَّفَ واجتهدَ[4]، ويقال: كسبتُ الرَّجلَ خيرًا، وأكسبتُه إيّاه[5]. والمرادُ بالكسْبِ هنا: العمل[6].

2) ﴿رَهِينَةٌ﴾: (رهن) أصلٌ يدلُّ على ثبات شيءٍ يُمسَكُ بحقٍّ أو غيره[7]، ومن ذلك يقال: رهنت الشَّيءَ عند فلان، ورهنتُه الشَّيءَ، وأرهنتُه إيّاه[8]، والرَّهن: ما يوضع وثيقةً للدَّين[9]، وكلُّ أمرٍ يُحبَسُ به شيءٌ فهو رهنُه ومُرتهَنُه، كما أنَّ الإنسان رهينُ عمله[10]. ومعنى ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾: كلُّ نفسٍ مأخوذةٌ بعمَلها إمّا خلَّصها وإمّا أهلكَها[11].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 71 - 76.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).
(3) الراغب، المفردات: (كسب).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والزبيدي، تاج العروس: (كسب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 86.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رهن).
(8) الجوهري، الصحاح: (رهن).
(9) الراغب، المفردات: (رهن).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (رهن).
(11) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 86.

3) ﴿ٱلۡيَمِينِ﴾: اليمينُ: ضدُّ اليسارِ[1]، والجهةُ اليُمنى: هي الَّتي تبدأُ مِنْ جانبِ شِقِّكَ الأيمنِ أو يدِكَ اليُمنى مُبتعِدةً على استقامةِ جانبِكَ إلى ما شاءَ اللّه[2]، قال تعالى: ﴿۞وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الكهف: 17]، والمراد: الجهةُ صاحبةُ اليمينِ أي: الجهةُ اليُمنى[3]، وسُمّيَ الحَلِفُ يمينًا؛ لأنَّ المتحالفينِ كان أحدُهما يَصفِقُ بيَمينِه على يمينِ صاحبه[4]. والمرادُ بأصحاب اليمين: الذين أُعطوا كتُبَهُم بأيمانهم[5].

4) ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: (جرم) أصلٌ يدلُّ على القطعِ[6]، ومِنْ ذلكَ قولُهم: ثَمَرٌ جَريمٌ، أي: مقطوعٌ، وشجرة جريمة: مقطوعة[7]، ومعنى جَرَمَ في قولِهم: لا جرمَ: كَسَبَ، أو جَنَى[8]، أو حقَّ، أو وجبَ، أو حقًّا[9]، والجُرم: الذَّنب، وفعلُه الإجرام، والمجرم: المذنب، والجارم: الجاني[10]، وجريمةُ القوم: كاسبُهم[11]. والمرادُ بالمُجرمين: القاطعون ما أمرَ اللّه به أن يوصَل، وهم المشركون[12].

5) ﴿سَلَكَكُمۡ﴾: (سلك) أصلٌ يدلُّ على نفوذِ شيءٍ في شيءٍ[13]، ومن ذلك: السُّلوكُ، وهو النَّفاذُ في الطَّريقِ والمكانِ، يقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ والمكانَ[14]، وسَلَكْتُ كذا في طريقِه، قالَ سبحانَهُ: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح: 20][15]، ويقال: سلك يدَهُ في الجيب والسِّقاء ونحوِهما يسلُكها، وأسلَكها: أدخلَها فيهما[16]. ومعنى ﴿مَا سَلَكَكُمۡ﴾: ما أدخلَكم[17].

(1) الخليل، العين: (يمن).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: 4/ 2370.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 443
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يمن).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 139.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جرم).
(8) الراغب، المفردات: (جرم).
(9) الجوهري، الصحاح، والسّمين، عمدة الحفاظ: (جرم).
(10) الخليل، العين: (جرم).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جرم).
(12) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 87، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 72.
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلك).
(14) الزبيدي، تاج العروس: (سلك).
(15) الراغب، المفردات: (سلك).
(16) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سلك).
(17) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 398.

6) ﴿ٱلۡمِسۡكِينَ﴾: (سكن) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الاضطرابِ والحركةِ[1]، ومن ذلك: السُّكونُ، وهو ثبوتُ الشَّيءِ بعدَ تحرُّكٍ[2]، أو ثبوتُهُ مِنْ غيرِ نظرٍ إلى حركةٍ سابقةٍ[3]، ويُستعمَلُ في الاستيطان نحو: سكن فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطَنَهُ، واسمُ المكان مسكن، والجمع مساكن، قال تعالى: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: 25] والمسكينُ: هو شديدُ الفقرِ الَّذي لا شيءَ له[4]، كأنَّ الفقرَ أسكنَهُ عن التَّحرُّك. وهو المرادُ هنا.

7) ﴿نَخُوضُ﴾: (خوض) أصلٌ يدلُّ على توسُّط شيءٍ ودخول[5]، ومن ذلك: الخوضُ في الماء، وهو الشُّروعُ فيه والمرورُ فيه، ويُستعمَلُ في الشُّروع فيما يُذَمُّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ [التوبة: 65]، وقال: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: 91][6]، ويقال: خوَّضَ الشَّرابَ: خلطَهُ وحرَّكَهُ، وخاوَضَهُ في البيع: عارضَهُ[7]، وخاضَ الغَمَرات: اقتحَمَها[8]، وتخاوَضوا في الحديث والأمر، أي: تفاوَضوا وتَداخَل كلامُهم[9]. ومعنى ﴿نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾: نُخالطُ أهلَ الباطل في باطلهم[10].

8) ﴿ٱلدِّينِ﴾: (دين) أصلٌ يدلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ[11]، ومِنْ ذلكَ يقال: دِنْتُهم فدانوا؛ أي: قهَرتُهم فأطاعوا، والدَّيّان: القهّار سبحانه[12]، والدّينُ: الطّاعةُ، ويُطلَقُ على الجزاءِ والحساب، قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: 4][14]، وعلى الشَّريعةِ[15]، وعلى العادة،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(2) الخليل، العين: (سكن).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (سكن).
(4) الراغب، المفردات: (سكن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوض).
(6) الراغب، المفردات: (خوض).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (خوض).
(8) الجوهري، الصحاح: (خوض).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (خوض).
(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 87.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زجر).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (دين).
(13) الخليل، العين: (دين).
(14) الأزهري، تهذيب اللغة: (دين).
(15) الراغب، المفردات: (دين).

تقول: ما زال ذلك ديني ودَيْدَني، أي: عادتي[1]. والمرادُ بيومِ الدّين: يومُ الجزاءِ، وهو يومُ القيامةِ[2].

المَعنى الإجْماليُّ:

المؤمنون في نعيمٍ والكافرونَ في جحيم

يقول تعالى: كلُّ نفسٍ مُعتقَلَةٌ بعمَلها يومَ القيامة إلّا أصحابَ الجنَّة، فإنَّهم في بساتين النَّعيم يسألون عن حال المشركين، وهُم في الغُرُفات وأولئكَ في الدَّركات قائلينَ لهم: ما أدخلَكم في سقر، قالوا: ما عبَدْنا ربَّنا، فلم نكُ من المُصلّين، ولا أحْسَنّا إلى خَلقه من جنسِنا، فلم نكُ نُطعِمُ المِسكين، وكنّا نُشاركُ أهلَ الباطلِ في باطلِهم، ونُحاربُ الحقَّ وأهلَهُ، وكنّا نكذِّبُ بيوم الحساب والجزاء حتَّى أتانا الموتُ أو تصديقُ ما كنّا نُكذِّب به في الدُّنيا[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

كلُّ إنسانٍ رهنٌ بما كسَبَ من التَّقدُّمِ أو التَّأخُّر

فُصل قولُه ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ يُبيِّن للسّامع عُقبَى الاختيار المذكور في قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، أي: كلُّ إنسانٍ رهنٌ بما كسبَ من التَّقدُّم أو التَّأخُّر أو غير ذلك، فهو على نفسِه بصيرةٌ ليكسبَ ما يُفضي به إلى النَّعيم أو إلى الجحيم[4].

نكتةُ تصديرِ الآيةِ بلفظِ العموم ﴿كُلُّ﴾:

الرَّهنُ شاملٌ لكلِّ النُّفوس

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ المُضاف إلى ﴿نَفْسِۭ﴾ النَّكرة؛ للدِّلالة على شُمولِ حُكم الرَّهن

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (دين).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 88.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 273.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 324.

لكلِّ نفس[1]، ذكرٍ أو أنثى[2]، والمعنى: كلُّ نفسٍ مرتهَنة بكسْبِها عند اللّه غيرُ مفكوكةٍ عنه[3].

الرَّهنُ خاصٌّ بالكافرينَ

ويحتملُ أن يكونَ قولَه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مرادًا به خُصوصُ أنفُسِ الكافرينَ من البشَر، فهو من العامِّ المُراد به الخُصوص بقرينة ما تُعطيه مادَّةُ رهينة من معنى الحبسِ والأسر[4].

معنى الباءِ في ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾:

كلُّ نفسٍ مصحوبةٌ بكسْبِها في الرَّهن

الباءُ في قولِه ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ للمُصاحبة[5]، أي: كلُّ نفس رهينةٌ مصحوبةٌ بكسبِها. ويجوزُ أنْ تكون سببيَّةً، بمعنى: أنَّ كلَّ نفسٍ مرهونةٌ بسببِ ما كسبَتْ.

معنى (ما) في ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾:

كلُّ نفسٍ مصحوبةٌ بجميعِ عمَلِها

(ما) في قوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ موصولةٌ تُفيد العُموم، والمعنى: كلُّ نفسٍ رهينةٌ مصحوبةٌ بجميع ما كسبَتْهُ من الأعمال والأقوال ونحو ذلك، أحصاهُ اللّه تعالى عليها. ويحتملُ أن تكون مصدريَّة، والمعنى: كلُّ نفسٍ بكسبِها رهينة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَسَبَتْ﴾:

كسبُ الإنسانِ يكونُ في الدُّنيا الَّتي هي دارُ العمل

جيءَ بصيغةِ الماضي في قول الباري ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ لأنَّ المُرادَ ما كسبَتْهُ كلُّ نفسٍ في الدُّنيا الَّتي هي دارُ السَّعي والعمل، وهو ماضٍ بالنِّسبة ليوم القيامة الَّذي هو زمنُ الحساب والجزاء. فالماضي يدلُّ على انقضاءِ العمَل ووقوعِه، وتحقُّقه.

غرضُ تقديمِ ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾:

المرءُ مسؤولٌ عن كسْبِهِ لا عن كسْبِ غيرِه

قُدِّم ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ على ﴿رَهِينَةٌ﴾ في قوله جلَّ ذِكره: ﴿كُلُّ نَفْسٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 337.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 70.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 140.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 324.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 324.

﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ لإفادة الحصر والتَّخصيص، والمعنى: كلُّ نفسٍ رهينةٌ بما كسبت خاصَّةً لا بما كسبَ غيرُها[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالرَّهنِ:

المرءُ ملازمٌ مقارنٌ لعمَلِه يومَ القيامة

الرَّهنُ: الوَثاقُ والحَبس، ومنه الرَّهنُ في الدَّين، وقد يُطلق على المُلازمة والمُقارنة، ومنه قولهم: فرَسا رِهان، وكلا المعنيَين يصحُّ الحملُ عليه في قوله تعالى هنا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ على اختلافِ الحال، وإنَّما يكون الرَّهنُ لتحقيق المطالبة بحقٍّ يُخشى أن يتفلَّتَ منه المحقوقُ به، فالرَّهنُ مُشعِرٌ بالأخذ بالشِّدَّة، ومنه رهائن الحرب الَّذين يأخذهم الغالبُ من القوم المغلوبين ضمانًا؛ لئلّا يُخلَّ القوم بشروط الصُّلح، وحتَّى يُعطوا دياتِ القتلى، فيكون الانتقامُ من الرَّهائن، ومادة ﴿رَهِينَةٌ﴾ من معنى الحبسِ والأسر[2].

بلاغة الاستعارة في جملة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾:

نفسُ المكلَّف كالمَحبوسةِ حتى تؤدّيَ التَّكاليف

في قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ استعارةٌ تمثيليَّة؛ فإنَّ نفس المكلَّف كالمَحبوسة الكائنة عند اللّه بما أوجبَهُ عليه والتزمَهُ العبدُ من التَّكاليف الَّتي هي حقٌّ خالصٌ له تعالى، فالنَّفسُ مرهونةٌ عند اللّه، وتخليصُها إنَّما هو بأداءِ المكلَّفِ تلك التكاليفَ كما وجبت، وإلّا بقيت نفسُه مرهونةً محبوسةً تحت قهر اللّه تعالى، فتهلك هلاكًا سرمديًّا، كما هلك المرهونُ ولم يصل إلى الرّاهن إذا لم يؤدِّ حقَّ المرتهن[3].

سرُّ إيثارِ ﴿رَهِينَةٌ﴾:

رعايةُ المُبالغة في المعنى أولى من رعايةِ التَّلاؤمِ اللَّفظيِّ

﴿رَهِينَةٌ﴾ في قوله تعالى شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مصدر بمعنى الرَّهن، كالشَّتيمة بمعنى الشَّتم، لا صفة، وإلّا لقيل:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 70 - 71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 324.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 435.

رهين؛ لأنَّ فعيلًا بمعنى مفعول لا يدخله التّاء، ويستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث. واختير على (رهين) مع موازنته لـ (اليمين) وعدم احتياجه للتَّأويل؛ لأنَّ المصدر هنا أبلغ - لأنَّ الوصف بالمصدر يُفيد المبالغة - فهو أنسب بالمقام، فلا يُلتفَتُ للمناسبة اللَّفظيَّة فيه[1].

كلُّ نفسٍ موثقةٌ إيثاقًا بليغًا

ويجوزُ أن تكون الهاء في ﴿رَهِينَةٌ﴾ للمبالغة، بمعنى موثقةٌ إيثاقًا بليغًا، محبوسةٌ حبسًا عظيمًا، فهي في النّار[2]. ويحتمل أن تكون ﴿رَهِينَةٌ﴾ ممّا غلبَ عليه الاسميَّة كالنَّطيحة، وإن كانت في الأصل فعيلًا بمعنى مفعول[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿رَهِينَةٌ﴾:

العاقلُ يستعدُّ ليوم الحساب

تنكير ﴿رَهِينَةٌ﴾ في قوله تعالى ذكره: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، أي: رهينةٌ عظيمةُ الشأن، وفي ذلك حثٌّ على الاستعداد ليوم الحساب والجزاء، والأخذ بأسباب النَّجاة.

دلالةُ الاستثناءِ في ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾:

أهلُ الإيمانِ والصَّلاحِ لا يُرتهَنون بأعمالِهم

يحتملُ أن يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ متَّصلًا، والمرادُ بهم المسلمون الخالصون الصّالحون[4]، وهم الذين تحيَّزوا إلى اللّه، فائتمَروا بأوامره، وانتهَوا بنواهيه، فإنَّهم لا يُرتهَنون بأعمالِهم، بل يرحمُهم اللّه، فيقبلُ حسناتِهم، ويتجاوز عن سيِّئاتهم[5].

ويحتملُ أن يكون منقطعًا، والتَّقدير: لكن أصحاب اليمين، والمرادُ بهم الأطفالُ أو الملائكة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 146.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 71.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 337.
(4) السمين، الدر المصون: 10/ 555.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 71.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾:

عظمةُ شأنِ أهل الخير والصَّلاح يومَ القيامة

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ لاميَّة، والمعنى: أصحاب لليَمين، وذلك باعتبار أخذِهم كتُبَهُم بأيمانهم أو نحو ذلك، ولا تخلو هذه الإضافةُ من تعظيمِ شأنِ المضاف باعتبار إضافته إلى جهةِ اليُمن والبركة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالأصحابِ:

ملازَمةُ المؤمنينَ للجهة الشَّريفة

عُبِّرَ عن أهلِ الخيرِ والصَّلاحِ بلفظِ الأصحابِ في قوله جلَّ من قائل: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ للدَّلالةِ على مُقارنتِهم لليمين؛ كمقارنةِ الصّاحب صاحبَهُ، وفي ذلك مزيدُ تشريفٍ وتعظيمٍ لهم.

دلالةُ تعريفِ اليمينِ:

أهلُ الجنَّة أهلُ المكارمِ والكرامة

تعريف اليمين في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ للجنس؛ لأنَّ المُرادَ بها الجهة المعلومة، وأصحاب اليمين هم أهلُ الخير، جُعلتْ علاماتُهم في الحشر بجهات اليمين في مناولة الصُّحف وفي موقفِ الحسابِ وغيرِ ذلك، فاليمينُ هو جهةُ أهلِ الكرامة في الاعتبار، كجهة يمينِ العرش، أو يمين مكان القدس يوم الحشر، لا يُحيطُ بها وصفُنا، وجُعلت علامةُ أهلِ الشَّرِّ الشِّمال في تناوُل صحُفِ أعمالِهم وفي مواقفِهم وغير ذلك[1].

بلاغةُ موقعِ ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ مِنْ حيثُ الإعرابُ:

بـيـانُ حـالِ المستثنَينَ من الرَّهن

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والجملةُ استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ ممّا قبله من استثناء أصحاب اليمين، كأنَّه قيل: ما بالُهم؟ فقيل: هم في جنّات[2]، ولا يخفى ما في الاستئناف البيانيِّ من بلاغة الرَّبط بين أجزاء الكلام، و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حالٌ من الضَّمير المحذوف[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 325.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 61، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 399.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 325.

ويجوزُ أن يكون قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ متعلِّقا بقوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، قُدِّمَ عليه للاهتمام، ولرعاية الفاصلة، و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حالٌ من أصحاب اليمين، وهو مَناطُ التَّفصيل الَّذي جيءَ لأجلِه بالاستثناء[1].

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

جنّات النَّعيم مقامُ أهل الخيرِ والصَّلاح

الإتيانُ بحرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ قول الباري ﷻ: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ جنّات النَّعيم محلُّ كرامةِ المؤمنين، يتقلَّبونَ في ألوانِ نعيمِها في القصور والبساتين وغيرِ ذلك ممّا هيَّأه اللّه تعالى لهم.

نكتةُ جمعِ الجنّاتِ وتنكيرِها:

كثرةُ الجنّات وعِظَمُ شأنِها من المَكْرُمات

تنكيرُ الجنّات في قول الحقِّ جلَّ ذِكرُه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لتعظيم الجنّات، أي: هُم في جنّاتٍ لا يُكتَنَهُ وصفُها[2]، وجَمعُها لانقسام الآحاد إلى الآحاد[3]، فهي جنّاتٌ وبساتينُ كثيرة، تتعدَّد بتعدُّدِ أهل النَّعيم، ولكلِّ واحدٍ منهم بساتينُ وقصورٌ كثيرةٌ وألوانٌ كثيرةٌ من النَّعيم.

بلاغةُ الاحتباكِ في ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾:

أهلُ النَّعيم فكّوا رهانَهُم، وأهلُ الجحيم لم يَفكّوه

قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ معناه: في بساتين؛ لأنَّهم أطلقوا أنفُسَهم، وفَكّوا رِقابَهم، فلم يُرتهَنوا، فالآية من الاحتباك: أثبتَ أوَّلًا الارتهانَ دليلًا على حذفِ ضدِّهِ ثانيًا، وأثبتَ ثانيًا الجنَّة دليلًا على حذفِ ضدِّها أوَّلًا[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّساؤلِ:

سؤالُ المؤمنين دليلٌ على راحتهم

عبِّر بالتَّساؤل في قوله ﷻ: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ للتَّعبير عن راحة أهل الجنّات؛ لأنَّ السُّؤال عن حال الغير يدلُّ دلالةً واضحةً على الرّاحة والفراغِ عن كلِّ ما يهمُّ النَّفس[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 325.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 715.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 435.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 72.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 72.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

تساؤلُ أهلِ الجنَّة فيه غرابةٌ وعِبْرة

جيءَ بصيغة المضارع في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لتصوير الحدثِ وكأنَّه يقعُ الآن، وذلك لأنَّ هذا التَّساؤل فيه غرابةٌ، فاستدعَى ذلك أن يُلفَتَ له نظرُ السّامع لأخذِ العِظةِ والعِبْرةِ، والحذرِ من أن يكونَ من أصحابِ الجحيم.

نكتةُ صيغةِ التَّفاعلِ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

سؤالُ أصحاب اليمين بعضِهم بعضًا عن شأنِ المُجرمين

يجوزُ أن يكون ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ على ظاهر صيغة التَّفاعل؛ للدَّلالة على صُدور الفعل من جانبين، أي: يسأل أصحابُ اليمين بعضُهم بعضًا عن شأنِ المجرمين، وتكونُ جملة ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ بيانًا لجملة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، وضميرُ الخطاب في قوله: ﴿سَلَكَكُمۡ﴾ يؤذِن بمحذوف، والتَّقدير: فيسألون المجرمين: ما سلكَكم في سقر؟ وليس التفاتًا، أو يقول بعض المسؤولين لأصحابهم جوابًا لسائليهم: قلنا لهم: ما سلكَكم في سقر؟.

تعدُّد السُّؤال لأجل تعدُّد السّائلين

ويجوز أن تكون صيغة التفاعل مستعمَلَةً في معنى تكرير الفعل، أي: يكثُر سؤالُ كلِّ أحدٍ منهم سؤالًا متكرِّرًا، أو هو من تعدُّدِ السُّؤال لأجل تعدُّد السّائلين، وعلى هذا يكون مفعول ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ محذوفًا يدلُّ عليه قوله: ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، والتَّقدير: يتساءلون المجرمين عنهم، أي: عن سبب حصولهم في سقر، ويدلُّ عليه بيان جملة ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ بجملة ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾؛ فإنَّ ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ بيانٌ للتَّساؤل[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإجرامِ:

أهلُ سَقر أصحابُ شِركٍ وذنوب

عبِّر بالإجرام في قوله ﷻ: ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم أصحاب ذنوب؛ لأنَّ الإجرامَ فِعلُ الجُرم، وهو الذَّنب، وأجرَمَ معناه: صارَ ذا جُرم، وأعظَمُ الذَّنبِ الإشراكُ باللّه تعالى، وفي استحضارهِم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 325 - 326.

بهذه الصِّفة إشارةٌ إلى عِلَّة سَلْكِهم في سَقر، واستحقاقِهم ما هُم فيه من ألوانِ العذاب الأليم؛ لأنهم بذُنوبهِم قطعوا الصِّلة باللّه تعالى[1].

نكتةُ صيغةِ اسمِ الفاعل في ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

مَن كان الإجرامُ ديدَنَهُ فالنّارُ أولى به

جيءَ بصيغة اسمِ الفاعلِ المَجموعِ في قولهِ جَلَّ ذِكرُه: ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على رُسوخِهم في الإجرام[2]، وأنَّهُ صار بمنزلةِ صفةٍ من صفاتهم الجِبِلّيَّة الَّتي لا تُفارقهُم، ولا شكَّ أنَّ مَن كان الإجرامُ دَيدَنَهُ فالنّارُ أولى به.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

السُّؤال عن المجرمين جميعًا أو عن مجرمِينَ مَخصوصين

إن كان السُّؤالُ في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ على حقيقته، والاستفهامُ مستعمَلًا في أصلِ معناه؛ كان الباعثُ على السُّؤال: إمّا نسيان الَّذي كانوا عَلِموهُ في الدُّنيا من أسباب الثَّواب والعقاب، فيبقى عمومُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الرّاجعُ إلى أصحاب اليمين، وعمومُ المجرمين على ظاهره، فكلٌّ من أصحاب اليمين يُشرِفُ على المجرمين من أعالي الجنَّة، فيسألهم عن سبب دخولهم النّار، فيحصل جوابُهم، وذلك إلهامٌ من اللّه ليحمَدَهُ أهلُ الجنَّة على ما أخذوا به من أسباب نجاتهِم. وإمّا أن يكون سؤالًا موجَّهًا من بعض أصحاب اليمين إلى ناسٍ كانوا يظنّونهم من أهل الجنَّة، فرأوهُم في النّار، من المنافقين أو المرتدّين بعد موتِ أصحابهم، فيكون المرادُ بأصحاب اليمين بعضَهم وبالمجرمين بعضَهم.

وإن كان السُّؤالُ ليسَ على حقيقته، وكان الاستفهامُ مستعمَلًا في التَّنديم أو التَّوبيخ فعمومُ أصحاب اليمين وعمومُ المجرمين على حقيقته[3].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 87، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 72.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 72.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 326 - 327.

عِلَّةُ فصلِ ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾:

سؤالُ المؤمنين مقترنٌ بخِطاب المشركين

قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ على إضمار القول، وذلك القولُ في موضع الحال، أي: يتساءلون عنهم قائلين لهم: أيُّ شيءٍ أدخلَكُم فيها؟ ولذلك فُصِلتْ هذه الجملة عمّا قبلها[1].

غرضُ الاستفهامِ في ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾:

المُجرمون حقيقون بالتَّوبيخ والتَّحسير

الظّاهرُ أنَّ الاستفهامَ في قوله ﷻ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ ليس على حقيقته؛ لأنَّ السّائلينَ عالمونَ بحال ما يسألونَ عنه، وإنَّما هو لتوبيخِ المجرمين وتحسيرهم، ولتكونَ حكايةُ اللّه ذلك في كتابهِ تذكرةً للسامعين[2].

غرابةُ حالِ مَن كان يُظَنُّ من أهلِ الجنَّة فكانَ من أهل النّار

ويحتمل أن يكونَ السُّؤالُ على حقيقتهِ، والاستفهامُ مُستعمَلًا في أصلِ معناهُ وفاقَ ما مرَّ ذِكره[3].

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿سَلَكَكُمۡ﴾ ماضيًا:

إدخالُ المُجرمين النّارَ قبلَ سؤال أهلِ الجنَّة عنهُم

التَّعبيرُ بلفظ (سلك) في قوله ﷻ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ يُدلِّلُ على أنَّ إدخالَ المجرمين إدخالٌ هو في غاية الضّيق حتى كأنَّهم السِّلكُ في الثُّقب[4]. وجيءَ بصيغة الماضي؛ لأنَّ سَلْكَهُم في سقر - وهو إدخالُهم فيها - أمرٌ قد مضَى وتحقَّقَ قبلَ سؤالِ أهلِ الجنَّة عنهم.

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

مقامُ المجرمين في النّار مستفظَع

جيءَ بحرف الظَّرفيَّة في قوله ﷻ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ سقر هي محلُّ المُجرمين، ومقامُهم الَّذي أُدخِلوا فيه، وهي محلُّ الويل والثُّبور الَّذي يُستعظَمُ شأنُ داخلهِ ويُستفظَعُ.

---

(1) السمين، الدر المصون: 10/ 556، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 62.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 655، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 716.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 326 - 327.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 73.

علَّةُ فصلِ جملة ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾:

بيانُ جوابِ المُجرمين عن سؤالِ المؤمنين

فُصِلَ قولهُ تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ عمّا قبله؛ لما بينَهُما من شبهِ كمال الاتِّصال؛ لأنَّ هذه الجملة استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤال السّائل: ما كان جوابُ المُجرمين بعد سؤالِ المؤمنين عن سببِ إدخالهم النّار؟ فقيل: (قالوا ...).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿قَالُواْ﴾:

تحقُّق ما أخبرَ الله تعالى به

جيءَ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ جَريًا على عادةِ القرآن في ذِكر أحداثِ المستقبل بصيغةِ الماضي أحيانًا؛ تنبيهًا على تحقُّقِها، وأنَّها لا يُمكن أن تتخلَّف.

عِلَّةُ حذفِ النّونِ مِنْ ﴿لَمۡ نَكُ﴾ في الموضعين:

ضيقُ حالِ المجرمين عن إتمامِ الكلام

حذفُ النّون من ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾، و﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ دلالةٌ على ما هُم فيه من الضّيق عن النُّطق حتَّى بحرفٍ يُمكن الاستغناءُ عنه، ودلالةٌ على أنَّه لم يكُنْ لهم نوعُ طبعٍ جيِّدٍ يَحثُّهم على الكون في عِداد الصّالحين، وذلك يُشيرُ إلى عظيمِ ما هُم فيه من الدَّواهي الشّاغلة، وذلك بضدِّ ما فيه أهلُ الجنَّة من الفراغ الحامل لهم على السُّؤال عن أحوال غيرهم، وذلك منبِّهٌ على فضيلة العلم(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ المضارعِ المنفيِّ:

حِرمانُ المُجرمينَ أنفُسَهم من التَّقرُّب إلى الله

جيءَ بالفعل المضارع المنفيِّ في قوله جلَّ ذكره: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾؛ للإيذان باستمرار انتفاءِ كونهم من المصلّين، والإيذانِ بأنَّ عدمَ الصَّلاةِ كان ديدَنَهُم ومُتجدِّدًا منهم طولَ حياتهم، فحَرَموا أنفُسَهم من التقرُّب إلى اللّه(2).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 74 - 75.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 327 - 328.

معنى ﴿مِنَ﴾:

المجرمون غيرُ مندرِجين في زمنِ أهلِ الإيمانِ والطّاعة

﴿مِنَ﴾ في قول الحقِّ جَلَّ: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ للتَّبعيض، والمعنى: لم نكُ من جملة المصلّين، ولم نندرج في زُمْرتهم، وفي ذلك ما لا يخفى من الخيبة والخُسران؛ فقد تخلَّفوا عن ركب أهلِ الإيمان والطّاعةِ والقُربِ من الله عَجَلَ.

دلالةُ تعريفِ المصلّينَ:

تعريفُ المصلّين في الآية: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ للجنس الشّامل للمصلّين من أهل الإيمان والتَّوحيد، والمعنى: لم ننخرط في سِلك المصلّين، ولم نندرج في صفوفهم.

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿ٱلۡمُصَلِّينَ﴾:

تـركُ المجرمين الصَّلاةَ الواجبة

في قوله تعالى: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ إيجازٌ بحذفِ مفعولِ اسم الفاعل؛ لظُهورِهِ من المقام، والتَّقدير: لم نكُ من المصلّين الصَّلاةَ الواجبة[1]؛ إذْ هي الَّتي يُحاسَبُ العبدُ على تركِها والتَّفريطِ بها.

سرُّ إيثارِ تعبيرِ ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ دون غيره:

استمرار استكبار المجرمين عن التَّقرُّب إلى الله تعالى

قيل: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾، ولم يُقل: (لم نصلِّ) أو (لم نكُ نصلّي)؛ لأنَّ النَّظم الكريم أبلغُ؛ لدلالته على دوامِ تركِهم للصَّلاة[2] كما تقدَّم، وذلك أنسَبُ بمَقام التَّنصيص على أسباب إدخال المجرمين النّار؛ فهو ناتجٌ عن كِبرٍ وعِنادٍ دائمَين، واستكبارٍ عن الخُضوعِ للّه عَجَلَ والتَّقرُّبِ إليه.

سرُّ تقديمِ تركِ الصَّلاةِ على غيرِه مِنَ الأسبابِ:

الصَّلاةُ أعظَمُ الأعمال، وصَلاحُها صلاحُ سائرِ العمَل

تقديمُ تركِ الصَّلاة على غيره من أسباب إدخالِ المُجرمين النّار في قوله تعالى: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾؛ تنبيهٌ على أنَّ رسوخَ القدمِ في الصَّلاة مانعٌ من مثلِ حالهِم، وعلى أنَّهم يُعاقَبون على

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 263.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 437.

فروعِ الشَّريعة - عند بعض الفقهاء - وإن كانت لا تصحُّ منهم، فلو فعَلوها قبلَ الإيمان لم يُعتدَّ بها، وعلى أنَّ الصَّلاة أعظَمُ الأعمال، وأنَّ الحسابَ بها يُقدَّم على غيره(1).

نكتةُ عطفِ ﴿وَلَمۡ نَكُ﴾ بالواو:

جمعُ المجرمين بين تركِ الطّاعةِ للــه وتــركِ الإحــسانِ إلى الخلق

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ على ما قبله بالواو التي تقتضي المُغايرة؛ لذِكر سببٍ آخرَ من أسبابِ إدخالِ المُجرمين النّارَ، ومن لطائفِ هذا العطف: ذِكرُ قَطعِهم الوصلة بالخلائق بعد ذِكر قطعِهم الوصلة بالخالق(2)، وفي ذلك ما لا يَخفى من التَّنبيه على فرطِ غلوِّهم في الكُفر والعناد؛ فلم يكتفوا بتركِ الطّاعة لله تعالى، بل ضَمّوا إلى ذلك تركَ الإحسانِ إلى الخلق.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالكونِ المنفيِّ في ﴿وَلَمۡ نَكُ﴾:

منعُ المجرمين ضُعَفاءَ النّاسِ حقَّهُم في المال

جيءِ بفعل الكون المضارع المنفيِّ في قوله ﷻ: ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾؛ للتَّنبيه على استمرار تركهِم إطعامَ المسكين(3)، وأنَّ ذلك كان عادتَهُم وديدَنَهُم طول حياتهم، وذلك اعتداءٌ على ضُعَفاء النّاس بمنعهِم حقَّهُم في المال(4).

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿نُطۡعِمُ﴾ مضارعًا:

الثَّوابُ المَحمودُ مَناطُ الإدامة

الإطعامُ هنا يَشمَلُ - فضلًا عن معناه الحقيقي - أيفاءَ حقِّ المسكين من الأموال زكاةً، وصدقةً، وغيرَهما ليتيسَّر لهُم الطَّعام، والشَّراب(5). ويومئ صَوغُ الفعل مضارعًا أنَّ إتيانَ فعلِ الإطعام بقلّةٍ من غيرِ إدامته والاستمرارِ عليه عملٌ غيرُ مرضيٍّ عنه، فكيف بالامتناعِ عنه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 75.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 75.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 62.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 328.
(5) قباوة، المفصّل في شرح الجلالين: ص 2046.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡمِسۡكِينَ﴾:

تعريف ﴿ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ للجنس، والمرادُ أنَّهم كانوا لا يُطعمون المساكين الَّذين كانوا في ديارهم ونحوِها ممَّن لهم اختلاطٌ بهم.

بلاغةُ العطفِ بالواو:

جمعُ المُجرمين بين قُبحِ الفعلِ وقُبحِ القول

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ معطوفٌ على ما قبله بحرف الواو الدّالِّ على المُغايرة؛ لذكر سببٍ آخرَ من أسباب إدخالهم النّارَ. ومن لطائفِ هذا العطف: بيانُ أنَّهم جمَعوا بين قُبح الفعلِ وقُبحِ القول، وذِكرُ أنَّهم قد تحلَّوا بلباسِ الكفرة الأشقياء بعد ذِكر أنَّهم لم يتحلَّوا بلباسِ المؤمنين الأولياء[1].

نكتةُ الجمع بين الكونِ الماضي والمضارع:

استمرارُ المجرمين في مُعاداةِ الحقِّ وأهلِه

إدخالُ فعلِ الكونِ الماضي على المضارع في قولِه ﷻ: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ الخوضَ كان عادةً مستمرَّةً لهم، حتَّى كأنَّه جِبلَّةٌ وطبيعةٌ راسخةٌ فيهم[2]؛ فهم طِوالَ حياتِهم لم يَتركوا مُعاداةَ الحقِّ، وتأييدَ الشِّرك، وأذى الرَّسولِ ﷺ والمؤمنين[3].

بلاغةُ المجاز في التَّعبيرِ بالخَوض:

مُلابسةُ المجرمين للباطل مُلابسةً شديدةً

أصلُ الخَوض الدُّخولُ في الماء والمُرورُ فيه، ويُستعار كثيرًا للمُحادثة المتكرِّرة، وقد اشتهر إطلاقُه في القرآن على الجدال واللَّجاج غير المَحمود، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91][4]، والمُراد به في قوله تعالى هنا: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾: الشُّروع في الباطل، وذلك على سبيل المجازِ المُرسَلِ أو الاستعارة[5]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى شِدَّةِ مُلابسَتهم للباطل كمُلابسة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 75.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 75 - 76.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 327.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 327.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 147.

الخائضِ للماء، وباطلُهم هو تكذيبُ الحقِّ، ووصفُ القرآن بأنَّه سِحرٌ أو شِعرٌ أو كهانةٌ أو نحو ذلك، ووصفُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه ساحرٌ أو مجنونٌ، ومحاربةُ أتباعهِ المؤمنين.

دلالةُ ﴿مَعَ﴾**:**

مـشـاركـة المجرمين أهلَ الباطل في محاربةِ الحقِّ باستمرار

يدلُّ التَّعبير بحرف المعيَّة ﴿مَعَ﴾ في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ على أنَّهم كانوا يُصاحبون أهلَ الباطل باستمرار، ويُشاركونهم في كلِّ ما فيه ضررٌ بالإسلام وأهلِه، وفي ذلك إيماءٌ إلى اجتماعِهم بأقرانهم وأضرابهِم من المُفسدين، وأنَّ أهلَ الباطل كانوا يتَّفقونَ على مُحاربةِ الحقِّ وأهلِه.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلۡخَآئِضِينَ﴾**، وصَوغه اسم فاعل:**

أهلُ الباطل يختلطون بمَن هُم على شاكِلَتِهِم

تعريف ﴿ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ للجنس، والمرادُ أنَّهم كانوا يخوضون مع جنس الخائضين، أي: مع أهل الباطل الَّذين على شاكلتهم من أبناء أقوامهم؛ للدَّلالة على رُسوخِهم في فعلهِم الباطل، وإصرارِهم عليه.

براعةُ الجناسِ في ﴿نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾**:**

التَّناغمُ الصَّوتيُّ بين ألفاظِ الآية

بين ﴿نَخُوضُ﴾ و﴿ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ جناسُ الاشتقاق، وهو من ألوان التَّناغُم الصَّوتيِّ بين ألفاظ الآية. وصَوغُه على هذا الفنِّ ترسيخٌ لفعلهِم الباطل، وتَماديهِم فيه مع قُرنائهم من أهل الباطل.

نكتةُ عطفِ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ **بالواو:**

المَعصيةُ تجرُّ إلى معصيةٍ أكبرَ وأفحش

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ بالواو لذِكرِ سببٍ آخرَ من أسباب إدخالِ المجرمين النّارَ. ومن لطائفِ هذا العطف: بيانُ أنَّ استمرارَهُم على الباطل وإدمانَهم

عليه جرَّ إلى غلَبة الهزء والسُّخرية عليهم، وذلك يوجبُ إفسادَ القوَّة العلميَّة بتصديقِ الكذبِ وتكذيبِ الصِّدق[1].

بلاغةُ إدخالِ الكونِ الماضي على المضارعِ:

تكرارُ إنكار المُجرمين للقيامةِ والحساب والجزاء

إدخالُ فعلِ الكونِ الماضي على المضارع في قولهِ ﷻ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ التَّكذيبَ بيوم الدّين كان عادةً مستمرَّةً لهم، حتَّى صار وصفًا ثابتًا لهم[2]، وقد كانوا يُكرِّرون الاستهزاءَ بالبعث والنُّشور والحساب والجزاء في كلِّ مقامٍ من مقامات كِبْرِهم وعِنادِهم.

معنى الباءِ في ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

الباءُ في قولِه ﷻ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ للتَّعدية، فتُفيد أنَّ يومَ الحساب والجزاءِ متعلَّق تكذيب المشركين.

سرُّ الاقتصارِ على ذكرِ التَّكذيبِ بيومِ الدّين:

الحسابُ والجزاءُ ممّا استبعدَهُ المشركون

اقتُصِرَ على ذكر التَّكذيب بيوم الدّين في قوله ﷻ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ مع أنَّ المجرمين كانوا يُكذِّبون بكلِّ ما جاء به النَّبيُّ ﷺ؛ لأنَّه من الأمور العظيمة الَّتي كانوا يُكذِّبونها ويستبعدونها غايةَ الاستبعاد، وقد تكرَّرَ على ألسنهم استبعادُ بعثِهم وبعثِ آبائهم يوم القيامة، ولأنَّ قولهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ يشتملُ على وجوهِ محاربةِ الحقِّ وأهلِه، ومن ذلك تكذيبُ النَّبيِّ ﷺ والقرآنِ ونحوِ ذلك.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

الحسابُ أدهَى أهوالِ القيامة

إضافةُ اليوم إلى الجزاء في قوله ﷻ: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لأدنى ملابَسةٍ - أي: أقلِّ ارتباطٍ - وهو وقوعُ الجزاءِ في هذا اليومِ. وإنَّما أضافوه إلى الجزاء مع أنَّ فيه من الدَّواهي والأهوال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76.

ما لا غاية له؛ لأنَّه أدهاها وأهوَلُها، ولأنَّهم مُلابِسوهُ، وقد مضت بقيَّةُ الدَّواهي[1].

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

حسابُ يومِ القيامةِ هو المقصودُ في لسان الشَّرع

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قولِه ﷻ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بِهِ الحسابُ والجزاءُ الَّذي يكونُ يومَ القيامةِ، بحيثُ لا يتبادرُ الذِّهنُ إلى غيرِه؛ إذ هو الحسابُ الأكبرُ الأعظمُ الَّذي لا حسابَ يُدانيه، وهو المقصودُ في لسان الشَّرع.

سرُّ تأخيرِ التَّكذيبِ بيومِ الدين:

التَّكذيبُ بيومِ الدّينِ أفظَعُ جناياتِ المُجرمين

تأخيرُ جناياتهم الَّتي هي التَّكذيبُ بيوم الدّين مع كونها أعظمَ من الكلِّ؛ لتفخيمها، كأنَّهم قالوا: وكنّا بعد ذلك كلِّه مكذِّبين بيوم الدّين، ولبيانِ كونِ تكذيبِهم به مقارنًا لسائر جناياتِهم المَعدودة، مستمرًّا إلى آخِرِ عمرهم[2].

تركُ الأعمالِ يقودُ إلى الانسلاخِ من حُسنِ الاعتقاد

وأيضًا في البَداءة بالعملِ تنبيهٌ على أنَّه يجبُ على العاقلِ المُبادرةُ إلى ما يَأمرُه به الصّادق؛ لأنَّ العملَ هو المُصدِّق لحُسنِ الاعتقاد، والمُبادرة إلى التلبُّسِ بالعمل أسهلُ من المبادرة إلى التَّلبُّس بالعِلم؛ ففيه حثٌّ على المسابقة إلى الأعمال الصّالحة وإنْ لم تكن النّيَّة خالصة، وإيذانٌ بأنَّ مَن أدمَنَ تركَ الأعمالِ قادَهُ إلى الانسلاخِ من حُسنِ الاعتقاد، وورَّطَهُ في الضَّلال[3].

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾:

استمرارُ المجرمين على جناياتهم المعدودة إلى الموت

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ لانتهاء الغاية، والمعنى: إنّا بقينا على إنكار القيامة إلى وقتِ الموت[4]، وهذا التَّكذيبُ مقارنٌ لسائر جناياتِهم المعدودة[5]؛ فقد استمرّوا عليها أيضًا.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 62، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 147.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 62.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 74.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 716.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 62.

بلاغةُ التَّعبيرِ باليقينِ وإسنادِ الإتيانِ إليهِ:

يومُ القيامة يومُ تصديقِ الحقائق المكذَّب بها في الدُّنيا

اليقينُ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ اسمُ مصدر (يَقِنَ) كـ(فَرِحَ)، إذا عَلِمَ علمًا لا شكَّ معه ولا تردُّد. وإتيانه مُستعارٌ لحصوله بعد أن لم يكن حاصلًا، شُبِّهَ الحصولُ بعد الانتفاء بالمجيء بعدَ المَغيب، والمعنى: حتَّى حصلَ لنا العلمُ بأنَّ ما كنّا نكذِّب به ثابت[1].

ويُطلَقُ اليقينُ أيضًا على الموت؛ لأنَّه معلومٌ حُصولُه لكلِّ حيٍّ، فيجوزُ أن يكون مُرادًا هنا كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 99][2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أَتَىٰنَا﴾:

إتيانُ اليقين سابقٌ على قولهِم المذكور

جيء بصيغة الماضي في قوله جلَّ من قائل: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾؛ لأنَّ إتيانَ اليقين أمرٌ قد تحقَّق ومضى قبلَ زمَن قولِهم هذا الكلامَ، سواء أُريدَ باليقين الموتُ أو العلمُ الذي لا شكَّ فيه ولا تردُّد.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾:

اليقينُ الَّذي أتى المجرمين معهودٌ معلوم

تعريف ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾ في قول الحقِّ جلَّ من قائل: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ للعهد؛ لأنَّ المرادَ به أمرٌ معهودٌ معلوم، وهو إمّا الموت، أو العِلم الجازم، ويُقصَدُ به تصديقُ ما كانوا يكذِّبون به في الدُّنيا.

بلاغةُ الكنايةِ والإطنابِ في ذكرِ الأسبابِ الأربعةِ:

أفعالُ المُشركين دليلٌ على عدمِ إيمانهم

قولُ المجرمين: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كنايةٌ عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريقَ الإطناب المناسب لمَقام التَّحسُّر والتَّلهُّف على ما فات، فكأنَّهم قالوا: لأنّا لم نكُن من المؤمنين؛ لأنَّ أهلَ الإيمان اشتهروا بأنَّهم أهل الصَّلاة، وبأنَّهم في أموالهم حقٌّ معلوم

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 399، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 328.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 328.

للسّائل والمحروم، وبأنَّهم يؤمنون بالآخرة وبيوم الدّين، ويُصدِّقون الرُّسل، وقد جمعها قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ [البقرة: 2 - 4][1].

سرُّ الاقتصارِ على الأفعالِ الأربعةِ:

ذِكــرُ المجـرمين أصولَ خطاياهُم

اقتصرَ المجرمون على أربعة أسباب في قولهم: ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ مع كثرة جرائمهم وجناياتهم؛ لأنَّ هذه الأربعة أصولُ الخطايا[2] الَّتي يتفرَّعُ عنها الكثيرُ من الآثام والذُّنوب.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّخول والسُّلوك:

إدخالُ المجرمين في سقر لا راحةَ فيه

الدُّخولُ أعمُّ مِنَ السُّلوكِ؛ فالسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ[3]. والدُّخولُ: نقيضُ الخُروجِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والأعمالِ[4].

وقد عُبِّر بالسَّلْك هنا؛ للدَّلالة على أنَّهم قد أُدخلوا في سقر إدخالًا هوفي غاية الضّيق، حتَّى كأنَّهم السِّلكُ في الثُّقب[5].

الإتيان والمجيء:

مجيءُ ما وعدَ اللـه بـه يسيرٌ عليه تعالى

الإتيانُ: مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجههِ: أتيٌّ، وأتاويٌّ[6]، والمجيءُ أعمُّ[7]. والإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 327.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 327.
(3) الراغب، المفردات: (سلك).
(4) الراغب، المفردات: (دخل).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 73.
(6) الراغب، المفردات: (أتي).
(7) الراغب، المفردات: (جاء).

يكنْ منهُ الحصولُ، والمجيءُ يقالُ اعتبارًا بالحصولِ[1]. وقد ذكرَ اللّه (جاءَ) في موضعِ الأعيانِ في الماضي، و(أتى) في موضعِ المعاني والأزمانِ، ومن ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: 72]؛ لأنَّ الصّواعَ عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ﴾ [البقرة: 89]؛ لأنَّهُ عينٌ، وقولُهُ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۢ بِجَهَنَّمَۚ﴾ [الفجر: 23]؛ لأنَّها عينٌ. وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [الأعراف: 34] فلأنَّ الأجلَ كالمُشاهَدِ، ولهذا يقالُ: حَضَرَهُ الموتُ. وقالَ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63]، أي: بالعذابِ؛ لأنَّهُ مرئيٌّ يُشاهِدونَهُ، وقالَ: ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾ [الحجر: 64] حيثُ لم يكنِ الحقُّ مرئيًّا. فإنْ قيلَ: قد قالَ تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس: 24]، وقالَ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ [هود: 58]، فجعلَ الأمرَ آتيًا وجائيًا - فالجوابُ: أنَّ هذا يُؤيِّدُ ما ذُكِرَ؛ فإنَّهم لمّا كانوا ممَّنْ يرى الأشياءَ قالَ: (جاءَ)، أي: عيانًا، ولمّا كانَ الزَّرعُ لا يُبصِرُ ولا يرى قالَ: ﴿أَتَىٰهَآ﴾ [يونس: 24][2].

وقد عُبِّر بالإتيان هنا؛ للدَّلالة على أنَّ مجيء ما وعدَ اللّه تعالى به من الموت أو من ثبوتِ صدقِ ما أخبرَ به الشَّرعُ؛ يسيرٌ عليه تعالى.

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

(2) الزركشي، البرهان: 4/ 81.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾﴾

[المدثر: 48 - 51]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

اليأسُ من إيمان المشركين

لمّا أقرَّ المشركون على أنفسهم بقولهم: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ بما أوجبَ العذابَ الدّائمَ، فكانوا ممَّن فسدَ مِزاجُه، فتعذَّر عِلاجُه؛ سبَّبَ عنه قولَه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

ولمّا كان هذا الإخبارُ بنعيم المُنعَّم وعذاب المُعذَّب موجبًا للتَّذكُّر؛ سبَّب عنه الإنكارَ عليهم، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾.

وزادَ ذلك عجبًا شدَّةُ نفارِهم، فوصفَهُم تعالى بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾. ولمّا كان ذلك لا يكون إلّا لسببٍ عظيمٍ يُتشوَّفُ إليه؛ قال تعالى: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾: (نفع) كلمة تدلُّ على خِلاف الضَّرِّ[2]، ومن ذلك يقال: نفعته بكذا فانتفعَ به، والاسم المنفعة، وفلان ينتفع بكذا وكذا[3]، والنَّفع: ما يُستعانُ به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصَّل به إلى الخير فهو خير، فالنَّفعُ خير، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: 3]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76 - 78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (نفع).

﴿وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 188][1]، والنّافع في أسماء الله تعالى: هو الذي يوصل النَّفعَ إلى مَن يشاءُ مِن خَلقهِ حيث هو خالقُ النَّفع والضَّرِّ، والخير والشَّرِّ[2].

2) ﴿شَفَٰعَةُ﴾: (شفع) أصلٌ يدلُّ على مقارنة الشَّيئين[3]، ومن ذلك: الشَّفع، وهو ما كان من العدد أزواجًا، وهو خِلاف الوتر[4]، يقال: كان وترًا فشفعتُه بالآخر حتَّى صار شفعًا[5]، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾ [الفجر: 3]، والشُّفعة في الدار من هذا؛ لأنَّه يشفع بها ماله[6]، والشّافع: الطّالب لغيره، ويقال: استشفعتُ بفلان فتشفَّع لي إليه فشفَّعه فيَّ، والاسم: الشَّفاعة، واسم الطّالب: الشَّفيع[7]، وفلان يعاديني وله شافعٌ، أي: مُعين يُعينه على عداوته، كما يُعين الشّافعُ المشفوعَ له[8].

3) ﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾: (ذكر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ النِّسيان[9]، ومن ذلك: الذّكر، وهو الحفظ للشَّيء، وجريُ الشَّيء على لسانك[10]، ويقالُ الذِّكر أيضًا لحُضورِ الشَّيءِ القلبَ، أوِ القولَ، ولذلكَ قيلَ: الذِّكرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ[11]، ويقال: ما زال منّي على ذُكْرٍ، أي: لم أنسَهُ[12]. وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [البقرة: 63] معناه: ادرُسوا ما فيه، واستذكر الرَّجلُ: ربط في إصبعه خيطًا ليذكُر به حاجتَهُ[13]. والمرادُ بالتَّذكرةِ هنا: ما جاءهم به النبي ﷺ من القرآن وغيره[14].

4) ﴿مُعۡرِضِينَ﴾: (عرض) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الطّولِ[15]، أي: اتّساع ما يواجهُ النّاظرَ

(1) الراغب، المفردات: (نفع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نفع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (شفع).
(5) الخليل، العين: (شفع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(7) الخليل، العين: (شفع).
(8) الزمخشري، أساس البلاغة: (شفع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(10) الخليل، العين: (ذكر).
(11) الراغب، المفردات: (ذكر).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (ذكر).
(13) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ذكر).
(14) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 716، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 273.
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).

مِنَ الشَّيءِ الكثيفِ[1]، وعارَض الشَّيءَ بالشَّيء معارضةً: قابلَه، وفلان يُعارضني، أي: يُباريني، والإعراض: الدُّخول في الباطل والامتناعُ من الحقِّ[2]، وإذا قيلَ: أعرضَ عنّي، فمعناهُ: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ غيرَ مُكترِثٍ[3]، وهو المرادُ هنا[4].

5) ﴿حُمُرٌ﴾: (حمر) أصل يدلُّ على جنس من الدَّوابِّ، وهو الحمار، وهو العَيْرُ[5]، أي: النَّهّاق من ذوات الأربع، أهليًّا كان أو وحشيًّا، يقال: حمار، وحمير، وحُمُرٌ، وأحمِرةٌ، وحُمُرات، قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: 8][6]، وقد يقال للأتان: حِمارة، ويقال: قوم حمّارة وحامرة، أي: أصحابُ حمير[7]، واليحمور: حمار الوحش[8]، والمراد بالحُمُر هنا: الحُمُر الوحشية.

6) ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: (نفر) أصل يدلُّ على تجافٍ وتباعد[9]، والنَّفْرُ: الانزعاجُ عن الشَّيء، وإلى الشَّيء، كالفزع إلى الشَّيء، وعن الشَّيء، يقال: نَفَرَ عن الشَّيء نُفورًا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤٢﴾ [فاطر: 42]، وقال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ [الإسراء: 41]، ويقال: نَفَرَ القومُ إلى الحرب يَنفِرونَ ويَنفُرون نَفْرًا ونفيرًا[10]، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: 41][11]، والنَّفر والنَّفير: الَّذين إذا حَزَبَهُم أمرٌ اجتمَعوا ونفروا إلى عدوِّهم، وامرأةٌ نافرةٌ: وهي الَّتي نَفَرَتْ من زوجِها؛ لإضرارِه بها[12]. والمرادُ بالمُستنفِرة هنا: الفارَّة الهاربة[13].

7) ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: (قسر) أصلٌ يدلُّ على قهرٍ وغلَبةٍ بشدَّة[14]، ومن ذلك يقال: قَسَرْتُه على

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرض).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (عرض).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 88.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (حمر).
(6) الراغب، المفردات: (حمر).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (حمر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (حمر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفر).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (نفر).
(11) الراغب، المفردات: (نفر).
(12) الخليل، العين: (نفر).
(13) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 273.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسر).

الأمر أقسرُه قَسْرًا[1]، إذا أكرهته عليه وقهرته، وكذلك اقتسَرته عليه[2]، والقَسْورة: العزيز يقتسِرُ غيرَه، أي: يقهَرُهُ، والقَسْورة: الشُّجاع، والقَسْورة: أوَّل اللَّيل، والقَسْور: نوعٌ من النَّبات سهليٌّ[3]، والقَسْور: الرّامي والصَّيّاد، والجمع: قَسْورة[4]. والمُرادُ بالقسورة هنا: الأسد، أو الرّامي، أو الصَّيّاد، أو أوَّل الليل[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المـشـركـون في إعـراضٍ شديدٍ عن الحقِّ لقلَّةِ فهمِهم

يقول تعالى شأنه: من كان متَّصفًا بالصِّفات المعدودة في الآيات السّابقة؛ فإنَّه لا تنفعه يوم القيامة شفاعةُ شافعٍ فيه إن وُجدت؛ لأنَّ الشَّفاعة إنَّما تنفع إذا كان المحلُّ قابلًا، فأمّا من وافَى اللّه كافرًا يوم القيامة فإنَّ له النّار لا محالة خالدًا فيها.

ثمَّ قال تعالى: فما لهؤلاء الكفرةِ مُتوَلّين عمّا تدعوهُم إليه، وتُذكِّرهم به، كأنَّهم في إعراضِهم عن الحقِّ حُمُر الوَحش إذا فرَّت ممَّن يُريد صَيدَها من رامٍ من البشر أو من أسدٍ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ في ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ﴾:

مَـن سـاءَت فِعالُه وعانَدَ الحقَّ لا شفيعَ له

الفاء في قول الباري ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ للسَّببيَّة، وفائدتُها التَّنبيهُ على أنَّ إقرارَهم بما أوجبَ لهم العذابَ الدّائمَ - من ترك الصَّلاة، وتركِ إطعامِ المسكين، والخوضِ مع الخائضين، والتَّكذيبِ بيوم الدّين - سبَّبَ لهم عدمَ نفع الشَّفاعة لهم؛ لأنَّ تلك الصِّفات لازمةٌ لهم دائمًا[7].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (قسر).
(2) الجوهري، الصحاح: (قسر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قسر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قسر).
(5) الراغب، المفردات: (قسر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 90.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 273 - 274.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76.

مَن ارتُهِنَ في عذاب سَقر لا تنفَعه الشَّفاعة

ويحتملُ أن تكون الفاء لتفريعِ هذه الجملة على قوله: ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، أي: فهم دائمون في الارتهان في سقر[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾:

لا تنفعُ الشَّفاعةُ أهلَ سقر في وقتٍ من الأوقات

عُبِّر بالمضارع المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ انتفاءَ نفعِ الشَّفاعة أمرٌ مستمرٌّ متجدِّد؛ فهي لا تنفعُهم في وقتٍ من الأوقات، فقد حكمَ اللّه تعالى بخُلودِهم في العذاب الأليم.

غرضُ الإضافةِ في ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾:

الإضافة في قوله تعالى: ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لاميَّة، أي: فما تنفعهم شفاعةٌ للشّافعين الَّذين تنفع شفاعتهم في العادة، وفي ذلك ما لا يَخفى من التَّيئيس والإقناط.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ وجمعه:

شفاعةُ جميع الشّافعين على فرضِ وقوعِها لا تنفعُ المجرمين

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الشّافعين في قول الباري ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ للعُموم المستغرق لجميع الأفراد؛ إذْ لا عَهد، وذلك أنسَبُ بمقام التَّهويل والتَّخويف وقطعِ أمَلِهم في النَّجاة، والمعنى: فما تنفعُهم شفاعةُ جميع الشّافعين - أي: من نبيٍّ أو ملَك أو غير ذلك - لو شفعوا لهم جميعًا[2]. ويُقوّي هذا المعنى جمعُ اللَّفظِ الجمعَ السّالم الدّالَّ على الكثرة، ممّا يعني عدم الانتفاع من الشفاعة وإنْ كثُر الشافعون وتنوَّعوا.

فنُّ نفي الشَّيءِ بإيجابِهِ في الآية:

لا شفاعة أصلًا للمجرمين المعذَّبين في سقر

في قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ فنُّ نفي الشَّيء بإيجابه، وهو أن تذكر كلامًا يدلُّ ظاهرُه أنَّهُ نفيٌ لصفة موصوف، وهو في الحقيقة نفيٌ للموصوف أصلًا، وهنا ليس المراد: أنَّهم يُشفَعُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 328.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 148، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 360.

لهم، فلا تنفعهم شفاعة مَن يشفعُ لهم، وإنَّما المراد نفيُ الشفاعة، فانتفى النَّفعُ، أي: لا شفاعةَ شافعين لهم فتنفعَهم، وتخصيصُهم بانتفاء شفاعة الشّافعين يدلُّ على أنَّه قد تكونُ شفاعاتٌ يُنتفع بها[1].

بلاغةُ الجناسِ في ﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾:

تناغُمُ ألفاظِ الآيةِ صوتيًّا

بين ﴿شَفَٰعَةُ﴾، و﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ جِناسُ الاشتقاق، وفائدتُه إضفاءُ التَّناغُم الصَّوتيِّ على ألفاظ الآية. وترسيخُ انتفاءِ الشَّفاعة عن الشُّفعاء مهما تعدَّدوا، وتنوَّعوا، وكثُروا، واجتمَعوا.

معنى الفاءِ في ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾:

مَن سمعَ حالَ المعذَّبين كان شأنُه الاتِّعاظ

الفاءُ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ هي الفصيحة، للاستئناف والسَّببيَّة؛ لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلَها من سوءِ حال المكذِّبين الَّذي هو من موجباتِ الإقبال عليه والاتِّعاظ به[2]، ولا شكَّ أنَّ إعراضَهُم عن التَّذكرة سببٌ للسُّؤال عن سَببِه[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾:

إعراضُ المكذِّبين عن القرآنِ عجيبٌ مُستنكَر

الاستفهامُ في قوله ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ ليس على حقيقته؛ فالله تعالى يَعلَمُ سببَ إعراضهم، وإنَّما هو لإنكارِ إعراضهم عن القرآن بغير سبب، مع تعاضُد موجبات الإقبال عليه، وتآخُذِ الدَّواعي إلى الإيمان به[4]؛ فالإخبارُ بنعيم المنعَّم وعذابِ المُعذَّب موجبٌ للتَّذكُّر[5]. وفي الاستفهام أيضًا تعجيبٌ من غرابة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 339، والسّمين، الدر المصون: 10/ 556، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 293.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 61 - 62، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 400.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 438.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 61 - 62.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76 - 77.

حالهم بحيث تجدُرُ أن يَستفهِمَ عنها المُستفهِمونَ[1]؛ فطَبعُ الإنسان إذا حُذِّرَ من شيءٍ أن يَحذرَهُ أشدَّ الحذر، كما لو حُذِّرَ المسافر من سبُعٍ في طريقه؛ فإنَّه يبذلُ جهدَهُ في الابتعاد عنه وإنْ كان المُخبِرُ كاذبًا، فكيف يُعرِضونَ عن هذا المَحذور الأعظم والمُخبِرُ أصدَقُ الصّادقين؟! فإعراضُهُم هذا دليلٌ على اختلالِ عقولهم[2].

معنى اللّامِ في ﴿لَهُمۡ﴾:

اللّامُ في قولهِ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾: للملك، والمعنى: فأيُّ شيءٍ حصلَ لهم مُعرِضينَ عن القرآن؟![3].

معنى ﴿عَنِ﴾ في ﴿عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾:

﴿عَنِ﴾ في قول الحقِّ سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ للمُجاوَزة المجازيَّة، والمعنى: فأيُّ شيءٍ حصلَ لهم حالَ كونهِم مُعرِضينَ عن التَّذكرة متجاوزينَ لها.

غرضُ تقديم ﴿عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾:

حـقُّ الـتَّـذكـرة الإقبالُ عليها لا الإعراضُ عنها

قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ متعلّق بـ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾[4]، وتقديمُه عليه للاهتمام والتَّعجيل بالذَّمِّ والتَّوبيخ حيث كان إعراضُهم مرتبطًا بالتَّذكرة الَّتي ينبغي الإقبالُ عليها والاتِّعاظُ بها، فضلًا عن رعايةِ الفاصلة[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّذكرة:

الـقـرآنُ مـذكّـرٌ للآخرة وأحوالِها وسائرِ المقاصدِ الـدّيـنـيَّـة والدُّنيويَّة

التَّذكرةُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ مصدر (ذكَّر) من التَّفعيل كالتَّذكير، والمرادُ بها: القرآن، وتسميةُ القرآن تذكيرًا مبالغةٌ؛ لأنَّه مُذكِّرٌ للآخرة وأحوالها وسائر المقاصد الدّينيَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 76 - 77.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 61 - 62.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 148.

والدُّنيويَّة[1]. ويحتملُ أن يُراد بالتَّذكرة ما يعمُّ القرآنَ من السُّنَّة والإجماع والقياس.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾:

إذا كان المرادُ بالتَّذكرة في الآية: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ القرآنَ أو التَّذكرةَ بسقر؛ فالتَّعريفُ للعهد، وإن كان المرادُ ما يشملُ كلَّ تذكرةٍ فالتَّعريفُ للجنس.

سرُّ الإتيانِ باسمِ ﴿ٱلتَّذۡكِرَةِ﴾ الظّاهرِ دونَ أنْ يُؤتى بضمير:

لا تنفعُ مع المكذِّبين تذكرةٌ

جيء باسم التَّذكرة الظّاهر في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ دون أن يُؤتَى بضميرٍ، نحو أن يقال: (عنها معرضين)؛ لئلّا يختصَّ الإنكارُ والتَّعجيبُ بإعراضهم عن تذكرة الإنذار بسقر، بل المقصودُ التَّعميمُ لإعراضهم عن كلِّ تذكرةٍ، وأعظمُها تذكرةُ القرآن[2].

بلاغةُ موقعِ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ مِنْ حيثُ الإعرابُ:

لا سببَ يوجبُ إعراضَ المكذِّبين

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿مُعۡرِضِينَ﴾ حالٌ لازمةٌ من الضَّمير في الجارِّ الواقعِ خبرًا لـ (ما) الاستفهاميَّة، أعني: (لهم)، والسُّؤالُ في الحقيقة متوجِّهٌ إليها، أي: فأيُّ شيءٍ سببٌ لإعراضهم عن التَّذكرة؟! والاستفهامُ للإنكار الوقوعيِّ، أي: لا سببَ له أصلًا[3]. وتركيب: (ما لَك) ونحوه لا يخلو من حالٍ تلحقُ بضميره مفردةً أو جملةً، نحو: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 11]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠﴾ [الانشقاق: 20]، وقوله: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ۝١٥٤﴾ [الصافات: 154][4].

نكتةُ صوغِ ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ:

إعراضُ المكذِّبين صفةٌ راسخةٌ فيهم

جيءَ باسم الفاعلِ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 438.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.

(3) الآلوسي، روح المعاني: (15/ 148)، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 438.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329.

﴿مُعۡرِضِينَ﴾؛ للدَّلالة على رسوخهم في الإعراض، وأنَّه صار خُلُقًا ثابتًا فيهم، حتَّى كأنَّه بمنزلة الجِبِلَّة والطَّبيعة، فلا انفكاكَ لهُم عنه.

علَّةُ فصلِ ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾:

فُصل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾؛ لأنَّه حالٌ من المستكنِّ في ﴿مُعۡرِضِينَ﴾ بطريق التَّداخل أو التَّرادف، أي: مشبَّهين بحُمُرٍ نافرة[1].

بلاغةُ التَّشبيهِ بالكاف:

المُعرِضُ عن التَّذكرة مستوجبٌ للذَّمِّ والتَّهجين وتقبيحِ الحال

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ تشبيهٌ بديع؛ إذ شبَّهَهُم تعالى في إعراضِهم عن القرآنِ واستماعِ الذِّكر والموعظة؛ بحُمُرٍ جدَّت في هرَبها ممّا أفزَعها، وفي تشبيههم بالحُمُر مَذمَّةٌ ظاهرةٌ وتهجينٌ لحالِهم، كما في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: 5]، وشهادةٌ عليهم بقلَّة العقل. وإنَّما أوثِرَ التَّشبيه بحُمُر الوحش؛ لشدَّة نفارها واطِّرادها في العَدْوِ إذا خوَّفَها شيءٌ[2]. وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿حُمُرٞ﴾:

قبحُ شأنِ مَن كان معدودًا في زُمرة الحُمُر

تنكير ﴿حُمُرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ للإفراد؛ فيُفيد أنَّهم من جملة حُمُر الوحش[4]، وفي جَعلهم من جملةِ أفرادِ هذا الجنسِ الَّذي هو مَثَلٌ في قلَّةِ العقلِ وشدَّةِ الذُّعر؛ ما لا يخفى من تقبيح حالهم.

نكتةُ جمعِ ﴿حُمُرٞ﴾:

جمع ﴿حُمُرٞ﴾ في قوله جلَّ ذِكره: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ جمعُ كثرةٍ على زِنة (فُعُل) باعتبار تعدُّد المشبَّهين؛ فكلُّ واحدٍ منهم مشبَّهٌ بواحدٍ من أفراد الحُمُر.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 62، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 400.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 656، والبقاعي، نظم الدرر: 21/ 77.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329 - 330.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 77.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾:

قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: ﴿مُّسۡتَنفَرَةٞ﴾ بفتح الفاء[1]، أي: منفَّرةٌ مذعورة[2]. وقرأ الباقون: ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ بكسر الفاء[3]، أي: نافرة. يقال: نفرَت واستنفرَت بمعنًى، مثل عجبَتْ واستعجَبَتْ، وسَخرَتْ واستَسْخرَتْ[4]. ويمكن أن يقال: إنَّه يحصلُ بمجموع القراءتين اجتماعُ خوفين على الحُمُر، أحدهُما من داخلها، والآخرُ من القسورة، وفي ذلك زيادةُ تقبيحٍ لحال المشبَّهين؛ إذ ينفرونَ من الحقِّ نفارًا شديدًا.

اجتماعُ أسباب الخوفِ على الحُمُر

نكتةُ دخولِ السّينِ والتّاءِ على ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾:

السّين والتّاء في قوله تعالى: ﴿مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ على قراءة الجمهور؛ للمبالغةِ في الوصف، مثل: استكمَل، واستجابَ، واستعجَبَ، واستسخَرَ، واستخرَجَ، واستنبَطَ، أي: نافرةٌ نِفارًا قويًّا، فهي تعدو بأقصى سرعةِ العَدْوِ[5].

سرعةُ نِفار الحُمُرِ الوحشيَّة

ويحتملُ أن تكون السّينُ والتّاءُ للطَّلب، أي: موجدة للنِّفار بغاية الرَّغبة فيه، حتَّى كأنَّها تطلبُهُ من أنفسها؛ لأنَّه من شأنِها وطبعِها[6]، وأمّا على قراءة فتح الفاء فالمعنى: أنَّها نفَّرَها مُنفِّر[7].

علَّةُ فصلِ جملة ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾:

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ عمّا قبله؛ لِما بينهُما من شبهِ كمال الاتِّصال؛ لأنَّ هذه الجملة استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالِ سائلٍ عن سبب نِفار الحُمُر؛ إذ لا يكون إلّا لسببٍ عظيم[8]،

الفرارُ من القَسوَرَةِ سببُ نفارِ الحُمُر

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 89.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 393.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 89.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 330.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 656، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 568 - 569.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.

وهذا على قراءة كسر الفاء. وأمّا قراءةُ فتح الفاء فمعناها: استنفرَها مستنفِر، أي: أنفرَها، فهو من استنفرَه المتعدّي بمعنى أنفرَهُ، وبناءُ الفعل للنّائب يُفيد الإجمالَ ثمَّ التَّفصيلَ بقوله: ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل الفِرار ماضيًا:

الفِرارُ من القسورة سابقٌ على النِّفار

مادة (فرر) تدلُّ على الظُّهور والانكشاف، وهو الرَّوَغانُ والهربُ ممّا يُخاف، ويُخشى. وهذا اللَّفظ يُناسب حالة الذُّعر الذي يُصابُ بها الحُمُر الفارَّةُ، فضلًا عن انكشافِ ظهرِها عند الهرَب. وجيءَ بصيغة الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾؛ لأنَّ الفرارَ من القسورة هو سببُ نِفارها، والسَّببُ مُقدَّمٌ على المسبَّب.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ للتَّعليل، فتفيد أنَّ سبب الفِرار هو القسورةُ، والمعنى: فرَّت بسببِ قسورة.

سرُّ إيثار التَّعبيرِ بـ ﴿قَسۡوَرَةِۭ﴾:

الحُمُر مَثَلٌ في سُرعة النِّفار

تقدَّم أنَّ في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ﴾ تشبيهًا لحالة إعراضهم المتخيَّلة بحالة فرار حُمُرٍ وحشيَّةٍ نافرةٍ ممّا يُنفِّرها. ولفظ ﴿قَسۡوَرَةِۭ﴾ يحتمل أن يكون اسمَ جمع (قسور)، وهو الرّامي، أو هو جمعٌ على خلاف القياس، فيكون التَّشبيهُ جاريًا على مُراعاة الحالة المشهورة في كلام العرب من التَّشبيه بالحُمُر في سُرعة النِّفار.

إعراضُ المُشركين مخلوطٌ برُعبٍ من قوارع القرآن

ويحتملُ أن يكون مُفردًا، والمُراد به الأسد، وعلى هذا فهو تشبيهٌ مبتكَر لحالةِ إعراضٍ مخلوطٍ برُعبٍ ممّا تضمَّنتهُ قوارعُ القرآن، فاجتمع في هذه الجملة تمثيلان. وإيثارُ لفظ ﴿قَسۡوَرَةِۭ﴾ هنا؛ لصلاحيته للتَّشبيهين، مع الرِّعاية على الفاصلة[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 330.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 329 - 330.

غرضُ تنكيرِ ﴿قَسْوَرَةٍ﴾:

فرارُ الحُمُر من فردٍ من أفراد الأُسود أو من جماعاتِ الرُّماة

تنكير ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ في قوله ﷻ: ﴿فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ للإفراد، فإن كان المرادُ به الأسد فالمعنى: فرَّت من فردٍ من أفراد الأُسود.

وإنْ كان المرادُ مجموعة الرّواة فالمرادُ أنَّها فرَّت من جماعةٍ هي من جملة أفراد الجماعات.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التولّي والإعراض والصَّدُّ:

عدمُ اكتراث المكذِّبين بالتَّذكرة

التَّولّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بتركِ الإصغاء والائتمار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠﴾ [الأنفال: 20][1]. والإعراضُ يكونُ أيضًا بترك الإصغاء ونحوه، ويكون بالجسم، إلّا أنَّه إذا قيل: أعرضَ عنّي فمعناه: ولَّى مُبْدِيًا عَرْضَهُ[2]. والصدُّ: هو الإعراض والعُدولُ عن الشَّيء، ومن ذلك يُقال: صدَّ يصدُّ، إذا مالَ إلى أحدِ الجانبين.

وقد عُبِّر بالإعراض هنا؛ للإشارةِ إلى أنَّهُم لا يُصغون للتَّذكرة، ولا يأتمِرون بها، بل يولّون عنها مُبدينَ عَرْضَهم، وذلك أقبحُ ما يكونُ من عدمِ الاكتراث.

الهرب والفِرار:

شدَّة خوف الحُمُر وهلَعِها

الفِرار: الرَّوَغانُ والهربُ من شيءٍ خافَهُ، والهربُ قد يكونُ مع خوفٍ، وقد يكون دون خوفٍ[3]. هذا بحسب الأصل، أمّا في استعمالات القرآنِ الكريم فيُلحَظُ اقترانُ الخوفِ بكلٍّ منهما؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢﴾ [الجن: 12]، وقوله: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [الأحزاب: 16]، وقوله: ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشعراء: 21]، وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ [الجمعة: 8].

(1) الراغب، المفردات: (ولي).
(2) الراغب، المفردات: (عرض).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (فرر) (هرب).

وأوثِرَ التَّعبيرُ بالفرار هنا؛ لدلالة مادَّة (فرر) على الظُّهور والانكشاف، من ذلك يقال: فرَّ عن أسنانه وافترَّ الإنسانُ، إذا تبسَّم؛ لأنَّ أسنانه تظهَرُ وتنكشف، وكذلك الإنسان إذا فرَّ انكشفَ ظهرُه[1]، فيُفيد ذلك أنَّ الحُمُر عند هرَبِها ونِفارِها ينكشفُ ظهرُها، وفي ذلك تصويرٌ لشدَّة خوفِها وهلَعِها، وأنَّها ليست بمأمنٍ من الخطر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرر).

﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ ۝٥٢ كَلَّاۖ بَل لَّا
يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٥٣ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥ وَمَا
يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾

[المدثر: 52 - 56]

❁ مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لا سببَ يدعو إلى إعراضِ المُشركين عن الحقِّ

لمّا كان الجوابُ قطعًا: لا شيء لهُم في إعراضهِم هذا؛ أضربَ عنه بقوله: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾، ولمّا كان ذلك تعنُّتًا، لا أنَّه على حقيقته؛ قال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

ثمَّ إنَّه لمّا كان فعلُهم هذا فعلَ مَن يعتقدُ في القرآن الكريم أنَّه ليسَ بوعظٍ صحيح يستحقُّ أن يُتَّبع؛ قال رادعًا لهم عن هذا الاعتقاد: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾.

ولمّا كان القرآنُ في غاية السُّهولة والحلاوة لكلِّ مَن عرفَهُ بوجهٍ من الوجوه، وكان اللّه سبحانه قد خلقَ القوى والقدر، وجعلَ للعبد اختيارًا؛ قال مُسبِّبًا عن كونِه موضعًا للتَّذكُّر: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

وجوبُ الافتقار إلى الله في طلبِ التَّوفيق للحقِّ

ولمّا كان هذا ربَّما أوهَمَ أنَّ للعبدِ استقلالًا بالتَّصرُّف، قال مُعلِّمًا بأنَّ هذا إنَّما هو كناية عمّا له من السُّهولة والحلاوة والعذوبة الَّتي توجبُ عِشقَه لكلِّ عاقلٍ، مُنبِّهًا على ترك الإعجاب، وإظهار الذُّلِّ والالتجاء إلى اللّه في طلبِ التوفيق للحقِّ: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾[1].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿صُحُفٗا﴾: (صحف) أصلٌ يدلُّ على انبساطٍ في شيء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78 - 80.

وسعة[1]، ومن ذلك: الصَّحيف، وهو وجهُ الأرض[2]، والصَّحيفة: وجه الإنسان[3]، والصَّحيفة: الَّتي يُكتب فيها[4]، والكتاب[5]، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19][6]، والمصحف: ما جُعل جامعًا للصُّحف المكتوبة[7]. والمُراد بالصُّحف هنا: الكتب[8].

2) ﴿مُّنَشَّرَةً﴾: (نشر) أصلٌ يدلُّ على فتْحِ شيءٍ وتشعُّبِه[9]، ومن ذلك: بسطُ الثَّوبِ والصَّحيفةِ والسَّحابِ والنِّعمةِ والحديثِ، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾ [التكوير: 10] أي: بُسِطَتْ، وقالَ: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣﴾ [المرسلات: 3] أي: الملائكةِ التي تَنشُرُ الرّياحَ، أوِ الرّياحِ الَّتي تَنشُرُ السَّحابَ، وقالَ: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ٤٧﴾ [الفرقان: 47] أي: جعلَ فيهِ الانتشارَ وابتغاءَ الرِّزقِ، وانتشارُ النّاسِ: تصرُّفُهم وتفرُّقُهم في الحاجاتِ[10]، ويقال: تنشَّر الشَّيءُ وانتشر: انبسطَ، وانتشر النَّهارُ وغيرُه: طالَ وامتدَّ، وانتشر الخبرُ: أُذيعَ، وانتشرت الإبلُ والغنمُ: تفرَّقت عن غِرَّة من راعيها[11]، وإبلٌ نشرَى إذا انتشر فيها الجربُ[12]. والمراد بالمنشَّرة هنا: المفتوحة غير المطويَّة[13].

3) ﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾: (وقي) أصلٌ يدلُّ على دفعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيرِه[14]، ومِنْ ذلكَ يقال: وقاهُ الله وَقْيًا ووِقايةً وواقيةً: صانَهُ وحَماهُ وحفظه[15]، قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ [الإنسان: 11][16]، وكلُّ ما وقى شيئًا فهو وِقاءٌ له ووِقايةٌ[17]، والتَّقوى: جعلُ النَّفسِ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صحف).
(3) الراغب، المفردات: (صحف).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (صحف).
(5) الجوهري، الصحاح: (صحف).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (صحف).
(7) الراغب، المفردات: (صحف).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 90، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 400.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(10) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نشر).
(11) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (نشر).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(13) ابن عطية، المحرر الوجيز، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 90.
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(15) الجوهري، الصحاح: (وقي).
(16) ابن منظور، لسان العرب: (وقي).
(17) الخليل، العين: (وقي).

وِقايةٍ ممّا يُخافُ، وصارت التَّقوى في عُرفِ الشَّرعِ حفظَ النَّفسِ عمّا يؤثمُ، وذلكَ بتركِ المحظورِ، ويتمُّ ذلكَ بتركِ بعضِ المباحاتِ[1]، وهو المرادُ هنا.

4) ﴿ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على السَّتْرِ[2]، ومن ذلك يقال: غَفَرَ المتاعَ في الوِعاء يغفره غفرًا: أدخلَهُ وسَترَه[3]، وغَفَرَ الشَّيبَ بالخِضاب: غَطّاه وأغفرَهُ، والمِغفَر: وِقاية للرأس، والغَفْرُ: السَّتْرُ والتَّغطيةُ[4]، والغُفْرانُ والمغفرةُ مِنَ اللّه تعالى: أنْ يَصونَ العبدَ مِنْ أنْ يمسَّهُ العذابُ[5]، والاستغفارُ: طلبُ سَتْرِ الذُّنوبِ ومَحْوِها[6]، والغَفورُ والغفّار: من صفاتِ اللّه تعالى، وهُما من أبنية المبالغة[7]؛ لأنَّهُ يسترُ الذُّنوبَ ويَمْحوها. وهو المراد هنا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعراضُ المشركين عـن التَّـذكـرة مـحـضُ كِـبْرٍ وعِنادٍ وتعنُّت

يقول تعالى شأنه: ليس إعراضُ المشركين عن القرآن لأنَّهم لا يعلمون أنَّه من عند اللّه، ولكنْ كلُّ رجلٍ منهم يريد أنْ يُؤتَى كتابًا مفتوحًا، ينزل عليه من السَّماء ويُخاطبه. وليس الأمرُ كما يزعمون من أنَّهم لو أوتوا صُحُفًا منشَّرةً صدَّقوا، لكنَّهم لا يخافون عقابَ اللّه، ولا يُصدِّقون بالبعث والثَّواب والعقاب؛ فذلك الَّذي دعاهُم إلى الإعراض عن تذكرة اللّه، وهوَّن عليهم تركَ الاستماع لوحيِهِ وتنزيله. وليس الأمر كما يقول هؤلاء المشركون في هذا القرآن من أنَّه سحرٌ يُؤثَرُ، وأنَّه قولُ البشر، ولكنَّه تذكرةٌ من اللّه لخَلقه، ذكَّرَهُم به، فمَن شاءَ انتفعَ بهذه التَّذكرة. وما يذكر أحدٌ إلّا بمشيئة

(1) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (وقي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (غفر).
(4) الخليل، العين: (غفر).
(5) الراغب، المفردات: (غفر).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (غفر).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (غفر).

اللّه تعالى وتوفيقه؛ فهو الحقيقُ بأن يُخشى، وهو الحقيق بأن يَغفرَ لِمَن يشاءُ من عباده[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة المصدَّرة بـ ﴿بَلۡ﴾:

صــورُ عِـنـاد المشركين كثيرة

فُصل قوله تعالى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه إضرابٌ انتقاليٌّ لذِكر حالةٍ أخرى من أحوال عِنادهم؛ إذ قالوا للنَّبيِّ ﷺ: لا نؤمن لك حتَّى يأتيَ إلى كلِّ رجلٍ منّا كتابٌ فيه: منَ اللّه إلى فلان بن فلان، وهذا من أفانينِ تكذيبهم بالقرآن أنَّه منزَّل من اللّه[2].

معنى ﴿بَلۡ﴾ في الآية:

المشركون وضَعوا الكُفرَ والعِنادَ موضعَ الإيمانِ والطّاعة

﴿بَلۡ﴾ في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ للإضراب الانتقاليِّ، وفائدتُها التَّمهيدُ لذكرِ صورةٍ أخرى من صوَرِ عِنادِهم[3].

ويحتملُ أن تكونَ لعطف ما بعدَها على محذوفٍ يدلُّ عليه سياقُ الكلام، والتَّقدير: (لا يؤمنون، ولا يُطيعون بل يُريد كلُّ امرئٍ منهم ...)[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يُرِيدُ﴾:

طلبُ المشركينَ صُحُفًا منشَّرةً عجيبٌ مستنكَر

جيءَ بصيغة المضارع في قول الحقِّ ﷻ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ﴾ لحكاية الحال الماضية[5]، وتصويرها وكأنَّها تقعُ الآن؛ ليتعجَّب منها السّامع ويستنكرَها؛ لِما فيها من فرْطِ الكِبْر والعناد.

ويحتمل أن تكون الصّيغة لإفادة الاستمرار[6]، وبيانِ أنَّ إيتاءَهم

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 43 - 44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 439.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 439.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 439.

صُحفًا منشَّرةً رغبةٌ مستمرَّة لهم، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ العِناد والتَّعنُّت لا يُفارقانهم.

نكتةُ دخولِ لفظِ العمومِ في ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ﴾:

فرطُ العِناد صفةٌ لكلِّ واحدٍ من المشركين

الإتيانُ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ إيتاء الصُّحف المنشَّرةِ رغبةٌ مستمرَّة لكلِّ واحدٍ من هؤلاء المشركين؛ فهم لم يقتصروا على طلب صحيفةٍ واحدةٍ لهم جميعًا، بل يطلب كلُّ واحدٍ منهم صحفًا خاصَّة به، وخطابًا خاصًّا به؛ وذلك زيادةٌ في التَّعنُّت.

نكتةُ تنكيرِ ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾:

تنكيرُ ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ للعموم؛ بدليل إضافته إلى لفظ العموم ﴿كُلُّ﴾.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾:

كمالُ المروءة يستدعي تركَ العِناد

عُبِّر بلفظ ﴿ٱمۡرِيٍٕ﴾ في قولِ الحقِّ تقدَّست أسماؤه: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾؛ لزيادة تهجين شأنهم وتقبيح حالهم، ببيانِ أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء المُعرِضينَ يُريد أن يُؤتَى صُحُفًا مُنشَّرةً مع ادِّعائه الكمالَ في المروءة[1].

معنى (مِنْ) في ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

(مِنْ) في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ بيانيَّة، والمعنى: بل يُريد كلُّ واحدٍ من هؤلاء المُعرِضينَ[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿يُؤۡتَىٰ﴾ مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

إيتاؤهم صُحُفًا منشَّرة مستقبَلٌ بالنِّسبة لزمن طلبهم

عُبِّر بفعل الإيتاء في قوله جلَّ ذكره: ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ للأمور العظيمةِ المادّيَّةِ والمَعنويَّة؛ فهو أعَمُّ وأقوَى من الإعطاءِ الخاصِّ بعطاء الربوبيَّة، ولمّا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.

كان طلبُهم أنْ يؤتَوا صُحفًا منشَّرَةً أمرًا عظيمًا مادّيًّا يُساويهم بمقام المرسلين عُبِّر بلفظ الإيتاء. وصَوغُه مضارعًا مُصَدَّرًا بـ ﴿أَن﴾؛ لأنَّ إيتاءَهُم صُحفًا منشَّرةً أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبة لزمنِ طلبِهِم وإرادتهم.

مُرسِلُ النَّبيِّ الأمين هو مُؤتي البراهين

وجيء بالفعل على صيغة المبنيِّ للمفعول، بمعنى: من السَّماء؛ لأنَّ مرادهم معروف[1]؛ إذ المُؤتي هو اللّه ﷻ الَّذي أرسلَ إليهم النَّبيَّ ﷺ؛ ليدعوَهم إلى الإيمان والتَّوحيد، وهم كانوا يطلبون البراهينَ من اللّه ﷻ.

سِرُّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُؤْتَىٰ﴾ دون الصَّريح:

الانشغالُ بالتَّفاصيل يُؤخِّر التَّحصيل

وفي التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُؤْتَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ دون الصَّريح (إيتاء)؛ للدَّلالة على مجرَّد معنى حدثِ إيتاءِ الصُّحُف دون احتمال معنًى زائدٍ عليه من معاني الكلام المحتمَلَة؛ كصِفة هذا الإيتاء وكيفيَّته، وهيئَته؛ فالغايةُ إيتاءُ الصُّحُفِ على كلِّ فردٍ منهم حسب، دون الخَوضِ في تفصيلات هذا الإيتاء.

نكتةُ جمعِ ﴿صُحُفًا﴾ وتنكيرِه:

كثرةُ الصُّحف المطلوبة وتعدُّدها

تنكيرُ لفظ ﴿صُحُفًا﴾ وجمعُه في قوله ﷻ: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾؛ للدَّلالة على كثرةِ الصُّحف المطلوبة وتعدُّدِها، أي: صحفًا كثيرةً جدًّا[2]، وذلك: إمّا لأنَّهم سألوا أن يكون كلُّ أمرٍ أو نهيٍ تأتي الواحدَ منهم في شأنه صحيفةٌ، وإمّا لأنَّهم لمّا سألوا أن تأتيَ كلَّ واحدٍ منهم صحيفةٌ باسمِه، وكانوا جماعةً متَّفقين؛ جُمِعَ لذلك، فكأنَّ الصُّحفَ جميعَها جاءت لكلِّ امرئٍ منهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿مُّنَشَّرَةً﴾:

اشتراطُ كَونِ الصُّحفِ مفتوحةً مقروءةً غيرَ مطويَّة

وصْفُ الصُّحف بكونها منشَّرةً في قوله ﷻ: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾؛ للإيماءِ إلى فرْطِ عِنادهم وتكذيبِهم ومُجادلتهم في الباطل، فهم لم يرضَوا بإنزالِ الكتُب فحسب، بل ضمّوا إلى ذلك أن تكون هذه الكتبُ مفتوحةً مقروءةً، والمعنى: لا نكتفي بصحيفةٍ مطويَّةٍ لا نعلمُ ما كُتب فيها[1].

نكتةُ تضعيف ﴿مُّنَشَّرَةً﴾ وبنائها للمفعول:

شِدَّةُ حِرصِ المشركين على كَونِ الصُّحفِ مقروءةً مفتوحة

﴿مُّنَشَّرَةً﴾ في قوله تعالى شأنُه: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ مبالغةٌ في (منشورة)، والمبالغةُ واردةٌ على ما يقتضيه فعل (نشر) المجرَّد من كون الكتاب مفتوحًا واضحًا من الصُّحف المتعارفة[2]، وفي ذلك مزيدُ حرصٍ منهم على كونِ الصُّحف مفتوحةً مقروءةً، بحيث يَظهرُ ما فيها ظُهورًا بيِّنًا.

عِلَّةُ فصلِ ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

فُصل قولِه تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه كلامٌ مستأنفٌ لإفادة عرضٍ جديد، وهو إبطالُ ظاهرِ كلامهِم السّابق ومُرادِهم منه، وردعُهم عن ذلك[3].

معنى ﴿كَلَّاۖ﴾ في ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

ليس للمُعرضينَ غرضٌ في اتِّباع الحقِّ

﴿كَلَّاۖ﴾ في قوله جلَّ من قائل: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ لردع المُعرِضينَ عن إرادة إيتائهم صُحفًا منشَّرة، وزَجرِهم عن اقتراح الآيات[4]، والمعنى: ليس الأمر كذلك[5]، ولا يكون ما طلبوه؛ لأنَّ طلبَهُم إنَّما هو محضُ تعنُّتٍ، وليس لهم غرضٌ في الاتِّباع بوجهٍ من الوُجوهِ؛ لا بهذا الشَّرطِ ولا بغيره[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 656، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 717.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 400.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.

معنى ﴿بَل﴾ في ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

التَّنصُّلُ من اتِّباعِ الحقِّ والتَّعنُّتُ سببُ إعراضِ المشركين

﴿بَل﴾ في قول الباري ﷻ: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ لإبطال كلامهِم مرَّةً أخرى بحرف الإضراب الإبطاليِّ، والمعنى: ليس ما قالوهُ إلّا تنصُّلًا من اتِّباع الحقِّ، فلو أُنزل عليهم كتابٌ ما آمنوا(1)؛ لأنَّ السَّبب الحقيقيَّ لإعراضهِم هو جهلُهم بالآخرة وعدمُ إيمانهم بها، وليس السَّببُ عدمَ إيتائهم الصُّحفَ؛ فإنَّه لمّا حصلت المعجزاتُ الكثيرة، كفَتْ في الدَّلالة على صحَّة النُّبوَّة؛ فطلبُ الزّيادة يكونُ من باب التَّعنُّت(2).

ويحتمل أن تكون ﴿بَل﴾ لعطف ما بعدَها على محذوفٍ يدلُّ عليه سياقُ الكلام، والتَّقدير: لم يرتدعوا عن ذلك بل لا يخافون الآخرة؛ لأنَّهم لا يؤمنون بها(3).

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

المُشركونَ لا يخافون الآخرةَ لأنَّهم لا يُؤمنون بها

في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ كنايةٌ بديعةٌ، وذلك أنَّ معناه: لا يُؤمنون بها، فكُنِّيَ عن عدم الإيمان بالآخرة بعدم الخوف منها؛ لأنَّهم لو آمنوا بها لخافوها؛ إذ الشَّأنُ أن يُخافَ عذابُها؛ إذ كانت إحالتُهم الحياةَ الآخرة أصلًا لتكذيبِهم بالقرآن(4).

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿لَّا يَخَافُونَ﴾:

تجدُّدُ انتفاءِ الخوف دليلُ الإصرار على الجُحود

جيءَ بالمضارع المنفيِّ في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ عدمَ خوفهم مستمرٌّ متجدِّد، وهم مواظبون عليه؛ فهم لا يخافون الآخرة - أي: لا يؤمنون بها - في زمنٍ من الأزمان(5). وفي ذلك إصرارٌ على الجُحود، والكِبْر.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 657، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 400.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 440.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 331.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 78.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

تعريفُ الآخرة في قوله ﷻ: ﴿لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ للعهد؛ إذ المرادُ بها: الحياة الآخرة الَّتي هي ضدُّ الحياة الدُّنيا. والمُقامةُ للحساب والجزاء.

علَّةُ فصلِ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾:

لا يـــوزَعُ المُـعـرِضـون إلّا بقوارعِ القرآن

فُصِلَ قولهُ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه كلامٌ مستأنفٌ لإفادة غرَضٍ جديدٍ، وهو رَدعُ الكافرين عن إعراضهِم عن التَّذكرة ردعًا ثانيًا مؤكِّدًا للرَّدع الَّذي قبله، والمعنى: لا يُؤتَون صحفًا منشَّرةً، ولا يوزَعون إلّا بالقرآن(1) وما فيه من الزَّجر والوعيد.

سِرُّ تكرار ﴿كَلَّآ﴾:

القـرآنُ عِـظَـةٌ تستحقُّ الإقبالَ عليها

تكرار ﴿كَلَّآ﴾ في قول الباري ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ للتَّأكيد وزيادةِ الزَّجر والرَّدع(2)، أي: ليس الأمرُ قطعًا كما تزعمون من أنَّ هذا القرآن لا يستحقُّ الإقبال(3)، أو المعنى: حقًّا إنَّ القرآن عِظَةٌ(4). ففيها إيماءٌ الى التَّعليل، وتوضيحٌ لسبب الرَّدع، وهو أنَّ القرآنَ الكريمَ تذكرةٌ وعِظةٌ لِمَن أرادَ أن يتَّعظ بها.

نكتةُ فصلِ ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾:

القرآنُ موعظةٌ تُغني عن طلبِ الآيات

فُصِلَ قولُه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾؛ لأنَّهُ كلام مستأنفٌ لتعليل الرَّدع عن سؤالهم أنْ تُنزَّل عليهم صُحُفٌ منشَّرة؛ ببيان أنَّ هذا القرآنَ تذكرةٌ، وأنَّه يُغني عن طلب الآيات، والمعجزات. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت: 50 - 51](5).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 264.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 79.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 90.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332.

بلاغة التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾:

القرآنُ آيةٌ كافيةٌ بلا ريب

أُكِّدَ قولُه جلَّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجُملة؛ للعناية بمَضمونِه ولَفْتِ أنظارِهم إليه، عسى أنْ تَعيَهُ قلوبُهم، وللرَّدِّ على إنكارِهم أن يكون القرآنُ آيةً كافيةً[1] لهم في وجوب الإيمان واتِّباعِ الحقِّ الَّذي جاءَهُم به النَّبيُّ ﷺ.

مرجعُ الهاءِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ وعِلَّةُ تذكيرِه:

القـرآنُ حجَّةُ الله على خَلقه وموعظتُه لهم

الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ للتَّذكرة المذكورة في قوله: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾، وإنَّما ذُكِّرَ الضَّميرُ مع أنَّ مرجعَهُ مؤنَّث؛ لأنَّ التَّذكرة في معنى الذِّكر أو القرآن[2]. ويحتمل أن يكون الضَّمير للقرآن وإن لم يتقدَّم له ذكرٌ؛ لأنَّه معلومٌ من المقام[3]. ومآلُ القولين واحد.

نكتةُ تنكيرِ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾:

القـرآنُ أعظمُ مذكِّرٍ وأشرفُ معرِّف

تنكيرُ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ للتَّعظيم[4]، والمعنى: إنَّه تذكرةٌ بليغةٌ كافية[5]، لا يُقادَرُ قدرُ عظمَتها، وهي توجبُ إيجابًا عظيمًا اتِّباعَها وعدمَ الانفكاكِ عنها بوجهٍ، فليس لأحدٍ أنْ يقول: أنا معذور؛ لأنِّي لم أجد مذكِّرًا ولا معرِّفًا؛ فإنَّ عنده أعظمَ مُذكِّرٍ وأشرفَ مُعرِّف[6].

معنى الفاءِ في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾:

الـدَّعـوة إلـى الـتَّـذكُّـر من الرَّغائب

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 79.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 657، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 717.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 717، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 569.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 79.

﴿رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المزمل: 19] وهذا تعريضٌ بالتَّرغيب في التَّذكُّر، أي: التَّذكُّر طوعُ مشيئتكم؛ فإنْ شئتُم فتذكَّروا(1).

معنى (مَنْ) في ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾:

الظّاهر أنَّ (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ شرطيَّة، فتفيدُ الرَّبط بين المشيئة وبين التَّذكُّر، وأنَّ مَن عزمَ على التَّذكُّر وأيقنت به نفسُه حصلَ له ذلك بإذن اللّٰه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمشيئةِ:

لا عُذرَ لمَن تركَ التَّذكُّر بالقرآن

ضمير ﴿شَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ راجعٌ إلى (مَنْ)، أي: مَن أرادَ أن يتذكَّر ذُكِّرَ بالقرآن، وهو مثلُ قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾، وهو إنذارٌ للنّاس بأنَّ التَّذكُّر بالقرآن يحصلُ إذا شاؤوا التَّذكُّرَ به، والمَشيئةُ تستدعي التَّأمُّلَ فيما يُخلِّصُهُم من المؤاخَذة على التَّقصير، وهم لا عُذرَ لهم في إهمالِ ذلك(2).

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿شَآءَ﴾:

مفعول ﴿شَآءَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ محذوفٌ يدلُّ عليه الجواب، والتَّقدير: فمَن شاءَ أنْ يَذكُرَهُ ولا يَنساهُ فعَلَ؛ فإنَّ ذلك عائدٌ إليه(3).

مرجعُ الهاءِ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾:

الضَّميرُ الظّاهر في قوله تعالى: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يجوزُ أن يعودَ على ما عادَ إليه ضميرُ (إنَّهُ)، وهو القرآن، فيكون على الحذف والإيصال، وأصله: ذكرَ به.

ويجوزُ أن يعودَ على اللّٰه تعالى وإن لم يتقدَّم لاسمِهِ ذِكرٌ في هذه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 264، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 440.

الآيات؛ لأنَّه مُستحضَرٌ من المقام، كقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المزمل: 19][(1)].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالذِّكرِ:

القـرآنُ ميسَّر للتَّدبُّر والاتِّعاظِ والفَهم

عُبِّر بالتَّذكُّر في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لدلالته على الاتِّعاظ بالقُرآن[(2)]، وجعلِه نصبَ العين[(3)]، وثبوتِه في الصَّدر، ومعرفةِ معناه، والتَّخلُّقِ به، فليس أحدٌ يقدرُ أن يقول: إنَّه صعبُ التَّركيب، عظيمُ التَّعقيد، عَسِرُ الفهمِ، يحتاجُ في استخراج المعاني منه إلى علاجٍ كبيرٍ وممارسةٍ طويلة، فأنا معذورٌ في الوقوفِ عنه، بل هو كالبحرِ الفُرات؛ مَن شاء اغترفَ؛ لأنَّه خوطبَ به أُمَّةٌ أمّيَّة لا ممارسةَ لها لشيءٍ من العلوم، فسَهُلَ في لفظِه ومعناهُ غايةَ السُّهولة، مع أنَّه لا يوصَلُ إلى قَرارِه، بل كلَّما زاد الإنسانُ فيه تأمُّلًا زادَهُ معانيَ[(4)].

معنى الواوِ في ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾:

مشيئةُ النّاس هـي مَـناطُ التَّكاليف الشَّرعيَّة والجزاءِ في الدُّنيا والآخرة

جملة ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ معترضةٌ في آخرِ الكلام؛ لإفادةِ تعلُّمِهم بهذه الحقيقة، والواو اعتراضيَّة. والمعنى: أنَّ تذكُّر مَن شاءَ أن يَتذكَّر لا يقعُ إلّا مشروطًا بمشيئةِ الله، وقد تكرَّرَ هذا في القرآن تكرُّرًا يُنبِّهُ على أنَّه حقيقةٌ واقعة، كقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: 30]، وفي ذلك دليلٌ أنَّ للنّاس مشيئةً هي مَناطُ التَّكاليف الشَّرعية والجزاءِ في الدُّنيا والآخرة[(5)].

بلاغةُ القصرِ بالنَّفي والاستثناء:

أفعالُ العِباد بمشيئةِ الله

القصرُ بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ هو من قصر موصوفٍ على صفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 90.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 717.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 79 - 80.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 332 - 333.

للتَّنصيص على أنَّهم لا يقدرون على الاتِّعاظ والتَّذكُّر إلّا بمشيئة اللّه ذلك لهم[1]، والاستثناءُ مُفرَّغٌ من أعمِّ العلل أو الأحوال، أي: وما يذكرون بعلَّةٍ من العلل، أو في حالٍ من الأحوال إلّا بأن يشاءَ اللّه تعالى، أو حالَ أن يشاءَ اللّه تعالى ذلك، وهو تصريحٌ بأنَّ أفعال العبادِ بمشيئة اللّه تعالى[2]. وفيه ترويحٌ لقلبه ﷺ ممّا كان يُخامِرهُ من إعراضِهم، ويَحرِصُ عليه من إيمانهم[3].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾:

قرأ نافع: ﴿وَمَا تَذۡكُرُونَ﴾ بالخطاب، وهو التفاتٌ من الغيبةِ إلى الخطاب، وقرأ الباقون: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾ بالغيبة حملًا على ما تقدَّم من قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕ مِّنۡهُمۡ﴾[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ في ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ﴾:

مَن لم يَلطُفِ اللّه به استمرَّ على غَفلته

جيءَ بصيغة المضارع المنفيِّ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لمعنى أنَّهم يغلبُ عليهم الاستمرارُ على عدمِ الذِّكرى بهذه التَّذكرةِ إلّا أنْ يشاءَ اللّه التَّوفيقَ لهم ويلطفَ بهم، فيخلق انقلابًا في سَجيَّة مَن يشاءُ توفيقَه واللُّطفَ به، وقد شاءَ اللّه ذلك فيمَن آمَنوا قبلَ نُزولِ هذه الآية ومَن آمَنوا بعدَ نزولها[5].

بلاغةُ إيثارِ لفظِ الجلالةِ:

المشيئةُ المُؤثِّرة مشيئةُ العظيم

جيءَ بلفظ الجلالةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ لدلالته على صفات العظمة والجلال، والمعنى: إلّا أن يشاءَ المَلِكُ الأعظمُ الَّذي لا أمرَ لأحدٍ معه[6]، فيكون ملائمًا لمقامِ بيانِ تفرُّده تعالى بمشيئةِ التَّذكُّرِ لعباده.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 90.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 63، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 149.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 361.
(4) السمين، الدر المصون: 10/ 559.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 333.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 80.

علَّةُ الفصلِ:

التَّذكُّر يُفضي إلى تقوى الله

فُصِلَ قولُه ﷻ: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ واقعٌ موقعَ التَّعليل لمضمونِ جملة ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ تقويةً للتَّعريض بالتَّرغيب في التَّذكُّر، والتَّذكُّرُ يُفضي إلى التَّقوى، فالمعنى: فعليكم بالتَّذكُّر، واتَّقوا اللّه تعالى؛ لأنَّه هو أهلٌ للتَّقوى(1).

لولا حِلْمُ الله ما قدرَ عَبْدٌ على فِعلِ ما يُخالفُ رِضاهُ سبحانه

وأيضًا: لمّا ثبتَ أنَّه سبحانه الفعّال لما يُريد، وأنَّه لا فعلَ لغيره بدونِ مشيئته، وكان من المعلوم أنَّ أكثرَ أفعالِ العباد ممّا لا يُرضيه، فلولا حِلْمُه ما قدروا على ذلك، وكان عفوُ القادر مستحسَنًا؛ بيَّن أنَّه أهلٌ للرَّهبة والرَّغبة(2).

بلاغةُ القصرِ بـ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾:

الله هو المستحقُّ للتَّقوى لا الأصنامُ

تعريفُ جُزأي الجملة في قوله: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ يفيدُ قصرَ مستحقِّ اتِّقاء العبادِ إيّاه على اللّه تعالى، وأنَّ غيره لا يستحِقُّ أن يُتَّقى ويُتجنَّب غضبُهُ، فإمّا أن يكونَ القصرُ قصرًا إضافيًّا للرَّدِّ على المشركين الَّذين يخشَونَ غضبَ الأصنام، ويطلبونَ رضاها.

لا تقوى كاملةً إلّا لله تعالى

أو يكونَ قصرًا ادِّعائيًّا لتخصيصِه تعالى بالتَّقوى الكاملة، وإلّا فإنَّ بعضَ التَّقوى مأمورٌ بها كتقوى حقوقِ ذوي الأرحام في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النساء: 1] وقد يُقال: إنَّ ما ورَدَ الأمرُ به من التَّقوى في الشَّريعة راجعٌ إلى تقوى اللّه، وهذا من مُتمِّماتِ القصرِ الادِّعائيِّ(3).

نكتةُ التَّعبيرِ بالأهلِ:

من شأنِ الله أن يُتَّقى ويَغفرَ لعبادِه

أهلُ الشَّيء: مستحقُّه، وأصلُه: أنَّه ملازمُ الشَّيء وخاصَّتُه وقرابتُه وزوجُه، ومعنى ﴿أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾: أنَّه حقيقٌ بأن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 334.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 80.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 334.

يُتَّقى ويُخشَى منه، وأنَّ المغفرةَ من خصائصه، وأنَّه حقيقٌ بأن يَغفر؛ لفَرْطِ رحمته، وسَعَةِ كرمِه وإحسانه. وهذا تعريضٌ بالتَّحريض للمشركين أن يُقلِعوا عن كُفرهم، بأنَّ اللّه يغفرُ لهم ما أسلَفوه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]، وبالتَّحريض للعُصاة أن يُقلِعوا عن الذُّنوب، قال تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: 53][1].

سرُّ تكرارِ كلمةِ الأهلِ:

اتِّصافُه تعالى بالمغفرة اتِّصافٌ مؤكَّدٌ

أُعيدَت كلمةُ (أهل) في الجملة المعطوفة ﴿وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ دون أن يُقال: (والمغفرةِ)؛ للإشارة إلى اختلافِ المعنى بينَ أهل الأوَّل وأهل الثّاني، على طريقةِ إعادةِ فعل (أطيعوا) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: 59][2]، ولتأكيد استحقاقه تعالى للاتِّصافِ بالمغفرة.

غرضُ الإضافةِ في ﴿أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾:

الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ لاميَّة، وفيها تنبيهٌ على تأكيدِ استحقاقِه تعالى الاتِّصافَ بهاتين الصِّفتين الجليلتين.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ و﴿ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾:

اللّه تعالى حقيقٌ بالتَّقوى الكاملة والمغفرة الكاملة

تعريفُ ﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ و﴿ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ في قول الحقِّ ﷻ: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ للجنس المحمول على الفرد الكامل، أي: هو الحقيقُ بالتَّقوى الكاملةِ والمغفرةِ الكاملة، وفي ذلك ما لا يَخفى من تعظيمِ شأنه ﷻ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 718، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 334.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 335.

سرُّ تقديمِ ﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ على ﴿ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾:

تقديمُ ﴿ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ على ﴿ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ من باب تقديم التَّخليةِ على التَّحلية، ومن باب تقديمِ السَّببِ على المسبَّب.

سِرُّ عَودِ آخِرِ السّورةِ على أوّلِها:

مَن حازَ أوصافَ الجمال واللُّطف والقدرة كلَّها حقيقٌ بأن يُطاع ولا يُخالَف

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ معناه: هو وحدَهُ أهلٌ لأن يتَّقيَه عبادُه ويَحذروا غَضبَهُ بكلِّ ما تصلُ قُدرتُهم إليه؛ لِما له من الجلال والعظمة، وأهلٌ لأنْ يُطلَبَ غُفرانُهُ للذُّنوب لا سيَّما إذا اتَّقاهُ المُذنب؛ لأنَّ له الجمالَ واللُّطفَ، وهو قادرٌ، ولا قُدرةَ لغيره، ولا ينفعهُ شيءٌ، ولا يضرُّهُ شيء، فهو الحقيقُ بأن يجعل موضعَ الإنذار الَّذي أمرَ به أوَّلَ السّورة البشارةَ، ويوفِّقَ عِبادَهُ لتكبيرهِ وهجرانِ الرُّجز، فقد رجعَ آخِرَ السّورة على أوَّلها بضَمِّ البِشارة إلى النِّذارة، وصارَ كأنَّه قيل: أنذرِ العاصيَ؛ فإنَّه أهلٌ؛ لأن يرجعَ إلى طاعاته، فيكون سبحانه أهلًا لأنْ يعودَ عليه بسترِ زلّاته[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكتاب والصَّحيفة والقِرطاس:

طلبُ المشركين كتابًا يُظهر ما كُتِبَ فيه

الصَّحيفة: المبسوطُ من الشَّيء، ومن ذلك الصَّحيفةُ التي يُكتب فيها[2]. والقِرطاس: ما يُكتَبُ فيه[3]، والكتابُ: ما يُكتَبُ فيه، وقد سُمّيَ بذلك باعتبار ضَمِّ الحروفِ فيه بعضِها إلى بعض[4]. فمعاني هذه الكلمات متقاربة، وإنَّما أوثِرَت الصُّحف هنا؛ لدلالتها على البسط الملائم للنَّشر والفتح الَّذي طلبوه؛ فهُم طلبوا أن تكونَ الصُّحفُ مفتوحةً، يَظهَرُ ما كُتِبَ فيها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 21/ 80 - 81.
(2) الراغب، المفردات: (صحف).
(3) الراغب، المفردات: (قرطس).
(4) الراغب، المفردات: (كتب).

الرُّعْب والخوف والفَزَع:

إنكارُ المشركين ما هو حقيقةٌ ثابتة

الرُّعب: هو الخوفُ الَّذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، أو هو أشدُّ الخوفِ[1]. والخوفُ: توقُّع مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[2]. والفَزَعُ: انقباضٌ يَعتري الإنسانَ من الشَّيء المُخيف، أو هو الخوفُ الشَّديدُ، قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103][3].

وإيثار التَّعبير بالخوف هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم لا يَخشَون الآخرة، ولا يُؤمنون بها، مع وجودِ الدَّلائل الدّالَّةِ على أنَّها حقيقةٌ ثابتةٌ معلومة.

(1) الزبيدي، تاج العروس: (رعب).
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) معجم الفروق اللغوية، ص: 404.

المحتويات

